دكتور
محمد محمد أبو موسى

شرح أحاديث من صحيح مسلم

دراسة في سمت الكلام الأول

الجزء الأول

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة ت: ٢٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٢٣٩٠٣٧٤٦

دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

شرح أحاديث من صحيح مسلم

دراسة في سمت الكلام الأول

الجزء الأول

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٢٧٤٦

شرح أحاديث
من
صحيح مسلم
دراسة في سمت الكلام الأول
(جزآن)
دكتور محمد محمد أبو موسى
الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
١٠٨٨ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢٢٢٠٧
الترقيم الدولي : I.S.B.N.
978-977-225-407-1

دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الأمام مسلم، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى، ٨٢٠-٨٧٥
شرح أحاديث من صحيح مسلم : دراسة في سمت الكلام
الأول / [شرح] محمد محمد أبو موسى .-
القاهرة : مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠١٤
مج ١-٢ ؛ ١٠٨٨ صفحة ؛ ٢٤ سم .
تدمك ١ ٤٠٧ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الحديث - شرح
٢- الحديث - بلاغة
أ- أبو موسى، محمد محمد (شارح)
ب- العنوان
٢٣٧,٣

بسم الله الرحمن الرحيم

إن بيان الشريعة لما كان مصدره لسان العرب وكان العمل بموجبه
لا يصح إلا بإحكام العلم بمقدمته كان من الواجب على أهل العلم
وطلاب الأثر أن يجعلوا أولاً عظم اجتهادهم وأن يصرفوا جُلّ
عنايتهم إلى علم اللغة والمعرفة بوجوهها ،
والوقوف على مُثُلها ورسومها .

«الإمام أبو سليمان الخطابي في مقدمة غريب الحديث»

اللهم إني أعوذ بك أن ألقاك وفي عنقي بيعة لمن يرفض الحكم
بما أنزلت . ولمن لُوِّثت يده بدماء أهل الشهادتين .

اللهم إني أعوذ بك أن ألقاك وفي عنقي بيعة لمن إذا حدّث كذب
وإذا عاهد غدر وإذا ملك ظلم وإذا خاصم فجر ،
اللهم لا تسلط شرارنا على خيارنا
وارفع مقتك وغضبك عنا ، اللهم آمين .

محمد محمد أبو موسى

عضو هيئة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

اللهم أعنا وتقبل منا

قال الإمام القشيري «قُرْبُ العَبْدِ من ربِّه يَقَعُ أولاً بإيمانه ثم بإحسانه وقربُ الرَّبِّ من عَبْدِهِ ما يَخُصُّه به في الدنيا من عِرْفَانِهِ، وفي الآخرة من رضْوانِه. وفيما بين ذلك من وُجُوه لُطُفه وامتنانه .. وقرب الرب بالعلم والقدرة عام للناس، وباللُّطْفِ والنُّصرة خاص بالخواص وبالتأنيس خاص بالأولياء».

اللهم ثبِّت قلوبنا على الإيمان. وثَبِّتْ أعْمَالَنَا على الإحْسان ولا تَحرِمْنَا في الدنيا من جلال عِرْفَانِك، ولا تحرمْنَا في الآخرة من نعيم رضوانك، واجْعل ذِكْرَك أنسًا لقلوبنا وقُرَّةً لعيوننا اللهم آمين.

وبعد:

فقد كَتَبْتُ كتابًا في شَرْح أحاديث من صحيح البخاري وكَتَبْتُ على غلافه «دراسة في سَمْت الكلام الأول» وكانت النيَّة معقودة على صناعة كتاب آخر في شرح أحاديث من صحيح مُسْلم دراسة في سَمْتِ الكلام الأول، وقد كررت هذه الكلمة لأني أريد أن ألْفِتَ إليها أهل العلم لأن دراسة سَمْت كلام كل جيل وسمْت كلام كل ذي بيان من الضروريات التي أهْمَلْنَاها وأثقَلْنَا دراسة البيان بكل ما أثقلناها به، ولم نَنْصرف إلى بيان سَمْته مع أن بيان سُمْتَه من أول ما يجب العلم به، ثم شُغلتُ بدراسة آل حم وكان هذا الشاغل

فاصلاً بين الكتابين وكنت ولا زلتُ كَلِفًا بدراسة كلام الله وكلام رسول الله ﷺ وكلام الجيل الذي نزل فيه القرآن لأن دراسة الفروق بين هذه الثلاثة من الدِّين ، ومن العلم الذي يجب أن يكون شائعًا في الأمّة . وقد أعان الله على إتمام هذا الكتاب وله الحمد ونرجو من الله القبول كما نرجوه سبحانه أن يَرْزقُنا جميعًا الإخلاص والسَّدَاد .

وقد ذكر أهلُ العلم أن الحديث الصحيح ما رواه ثقة عن ثقة من أوَّله إلى منتهاه ، وليس كل صحيح في الصحيحين ، وليس فيهما إلا الصحيح . واتفقَتْ الأُمَّةُ على أنه ليس في الأرض بعد كتاب الله أصَحُّ من الصحيحين .

وحَسْبُ البخاري ومسلم أن يكونا صاحبيّ أصح كتابين بعد كلام الله في هذه الدنيا ، وقد صنع مُسْلم بن الحجاج هذا الصحيح وكتب كتابًا في أسماء الرجال وكتابًا في أوْهَامِ المُحدِّثين وكتابًا في الأحاديث التي ليس لها إلا رَاوٍ واحد ومات ولم يبلغ الستين ، ومما لَفَتَنِي أنّ كثيرًا من الكتب التي لا تزال بين الناس أنهارًا يستقون منها مَات مُؤلفُوها وهم في الشباب ، مثل كتاب سيبويه ، وكتاب الزركشي ، [البرهان في علوم القرآن]، والنووي الذي هو من أكرم وأفضَل من شرحوا الصحيحين وكتب الله لكتبه التوفيق والنفع فكتابه رياض الصالحين تتعاوره الأجيال بالقبول والغِبْطَة وكذلك كتاب الأربعين النووية ولم تقرأ كتب في بيوت الله بعد كتاب الله أكثر من كتب النووي وقد وقفت عند هذه القدرات التي كانت قصيرة العمر وكيف زرعت كتبًا لا تزيدها الأيام إلا جدّة ، ووَددْتُ لو جَمَعْتُ أسماء هذه الطبقة في أصناف العلوم بل وفي الشعر أيضًا فطرفة في الجاهلية قلما يُنَازع وأبو تمام في العصر العباسي قلما يُنَازَع والشابيّ في العصر الحديث قلما يُنَازَع وأكرر أن ما زرعوه في شبابهم كان أقدر من الزمن وأعْصَى على الأيام .

ولا شك أن تحليل البيان يزيدنا اقترابًا منه ويجعلنا نُدْرِك عُمْق عطائه وعمق دلالاته ولما اقتربتُ من كلام سيدنا رسول الله ﷺ بالتحليل وجدت كلامه عليه السلام كأنه يقولُهُ لَنَا بعدما رأى الذي نحن فيه ، وأنه عليه السلام كان يَضَعُ الدواءَ لأَدْوَائنا وكأنه بَيْنَنَا وينادى فينا بما يُخلّصُنَا من الأهوال المحيطة بنا ، رأيته عليه السلام يدعونا إلى الحب بعدما رأى البغضاء تتوقد في صدورنا يقول لنا لا يؤمن أحدكم حتى يُحِبَّ لأخيه ما يُحب لنفسه وحتى يُحِبَّ لجاره ما يحبه لنفسه ، ويدعونا إلى أن تدور عيوننا حَوْلَنا فنرى صاحب الكُرْبَة فَنُنَفِّسُ كُرْبته وصاحب العُسْرة فنيَسّر عُسْرته ومن يحتاج منا إلى عون عاوناه ، ومن سلك منا طريقًا يطلب فيه علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة ، وَيَلْتَفِتُ إلى ما نُسمّيه الإمام وهو صاحب السلطان ويقول احرص على أن تعدل بين الناس لأنك إن عدلت كنت ممن يُظلّهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله وكنت على مِنْبر من نور عن يمين الرحمن وإن ظلمت فلا تلومن إلا نفسك ، وستجيء يوم القيامة تحمل وزرك وبئس ما تزر ، وستلقى الله وهو عليك غضبان ، وهكذا تجد رسول الله ﷺ يقول لعمالنا وكأنه يَلْتفِتُ إليهم ويقول لهم أتقنوا العمل لأن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه والإتقان هو الإحسان والله مع المحسنين يعني إذا أَحْبَبْتُمْ أن يكون الله معكم في مقامكم هذا فأتقنوا ، وأحسْنُوا لأن إتقانكم بمثابة دعوة منكم موجهة إلى ربكم ليحضر بينكم بلُطفِهِ وعَطائِهِ وسَتْره ورضاه لأنه هو الذي وَعَدَ بذلك وهو لا يُخْلِفُ وَعْده ويلتفت عليه السلام إلى الذين يعتقدون أنهم يقتلوننا ليدخلوا الجنة ويَعْلُو صَوْته عليه السلام ويُشَوّحُ بيده ويقول لهم ويلكم ألم تعلموا أن الله أمرني أن أقول لكم من حمل علينا السلاح فليس منا ، ولا تظن أني أبالغ لأن مقام رسول الله ﷺ

أجَلّ في نَفْسِي مِنْ أنْ أتزيَّد له وإنما الذي جربّته هو أن تحليل البيان بالقلم يظهر من خفاياه مالا تظهره القراءة ولا يظهره السماع ، حتى إنني كنت أرَى أن تحليل البيان بالقلم في الحديث والقرآن والشعر يَكشِفُ منه ما كانت تكتشفه الأذن الواعية التي نزل القرآن عليها وأنهم لم يكونوا في حاجة إلى تفسير بل ولم يكونوا في حاجة إلى من يَسْتَخْرِج لهم الأحكام من الآيات التي سمعوها لأنهم كانوا يعقلون كل ما فيها من أحكام وكانوا إذا حفِظُوا آية لم يحفظوا غيرها إلا بعد العمل بها وكان العمل بها لا يحتاج إلى بيان .

راجع الكبائر وما فيها من وَيْلات تُدمِّر حياة الناس ، وكيف شدَّد رسول الله ﷺ الوعيد على مرتكبيها ، من أجل حياة أفضل ، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله قتلُ النفس بغير نفس ، وراجع ما قيل في ذلك في الكتاب والسنة ولا شك أن قلبك سيَخْشَعُ حين ترى القاتل في المقام المشهود والنَّفْسُ التي قتلها على رقبته تصيح وتقول لربها بأي ذنب قتلني ، واستحضر مشاهد القتل الجماعية والمذابح البشعة التي شهدتها ميادينُ مِصْر في هذه الأيام التي لم يمر بالبلاد أصعب منها في عهود الاحتلال وحروبها مع أعدائها ، والكل يدعى البراءة وأن الذي أشعل هذا البلاء هو الفريق الآخر والكل يدّعى وصلا بربه ونسى الكل أن الذي سيحاسب هو الذي يعلم خائنه الأعين وما تخفي الصدور وأنه سبحانه قال لنا ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٩٣) وأن جريمة القتل هى أكبر الكبائر وليس فوقها إلا الشرك بالله وقد بعث رسول الله ﷺ أسامة بن زيد في سريّة لحرب الحُرَقة ووجد رجلا من المشركين يعمل القتل في أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار فهاجمه أسامة وحاول الرجل أن يصيب أسامة فلم يفلح فلاذ بشجرة فلما

رَفَعَ عليه أسامةُ السيف ورأى الرجل أنه مقتول لا محالة قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ولكن أُسَامة هوى عليه بسيفه فقتله فلما علم رسول الله ﷺ غضب من أسامة وقال له أقتلته بعد أن قالها فيقول أسامة يا رسول الله لقد قتل فلانًا وفلانًا من أصحابك فلا يزيد عليه السلام عن أن يقول له أقتلته بعد أن قالها فيقول أسامة يا رسول الله هَمَّ بقتلي ثم لاذ بالشجرة فلا يزيد عليه السلام أن يقول له أقتلته بعد أن قالها حتى قال أسامة وَدِدْت لو كنت أسلمت يومئذ لأن ذنبه هذا الذي عظمه رسول الله ما كان ليمحوه إلا الإسلام . ضع هذا بإزاء من يقتلون المئات ثم ينامون ملء جفونهم وكأنهم ناموا مستريحين بعدما أشبعوا قلوبهم من ذكر الله ، كنت أكتب هذه الأحاديث وحولي صراخ اليتامى والثكالى والأمهات والآباء ، وأقْطع بأن كلام رسول الله ﷺ في حرمة الدماء لو كان ثقافة شائعة لكُفَّت أيادٍ كثيرة عن الدماء ولكن غيبة كلامُ سيد الأمة عن الأمة هو الذي أوْقعها في هذا البلاء ، وودت لو أن الأزهر والأوقاف ودار الإفتاء أخرجوا كتيبًا صغيرا ليس فيه إلا كلام رسول الله ﷺ في حرمة الدماء ، وإني على يقين من أن ذلك سيكف كما قلت كثيرًا من الأيادي عن الدماء لأني من هذا الشعب وأعلم طَبْعه وأنه يكره الدّم ويكره فُسَّاقه مَعْصية الله مع فِسْقهم ويخافون من غضبه ، وظني والله أعلم أن الذين أقدموا على هذه المذابح قد استجابوا لبعض الجهلة الذين برروا لهم ذلك أقول ضَعُوا كلامَ الله وكلام رسول الله بين أيدي الناس لأنه لا ينفذ إلى قلوب أهل الشهادتين كلامٌ كما يَنْفُذ كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، وهذا من مداخل الدين في السياسة وهو مدخل يدفع عنا كثيرًا من الكوارث ولا يَدْفَعُ هذا من يريد الخير لهذا الوطن وقد لخص بعض العلماء مدخل الدين في السياسة بقولهم حيثما كان العَدْل فثَمَّ شرعُ الله

والعَدْل معناه متسع جدًّا لأنه يعني الصواب والبرّ والوفاءَ والتساند ومنع التكسب بالسلطة ومنع قَهْر الشعوب ووجوب تولية الكفاءات ووجوب حساب الظالمين ومنع الفساد ، والقوى عند الحاكم العادل ضعيف حتى يأخذ الحق منه ، والضعيف قويِ حتى يأخذ الحق له والحاكم العادل على منبر من نور عن يمين الرحمن وهذه هي خلاصة دخول الدين في السياسة ، وليست الانتهازية ولا الاستعلاء ولا تولية الأقارب والمحاسيب وإنما الكفاءة مع صرف النظر عن أي شيء ولو كان مخالفًا في الدين ، المشكلة هي أننا لم نقرأ كلام الله وكلام رسوله ورَدَّدْنَا جميعًا المخافة من دخول الدين في السياسة ولم نراجع حقيقة هذا الدخول والآثار الأخلاقية الطيّبة لهذا الدخول ، ثم إنك ترى جانبًا آخر من جوانب الحديث تبث في الشعب روح المحبة والتساند والتآلف والتقارب حتى إن حبك للناس شرط من شروط الإيمان الصحيح « وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك » وليس المراد بأخيك أخوة النسب وإنما الأخوة في الوطن الذي يجمع غير المسلمين لأن غير المسلمين الذين بَيْنَنَا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، ونجد في حديث رسول الله ﷺ « من غشنا فليس مِنّا » وفي رواية من غش أي ارتكب جريمة الغش وكل ما حرّمه الله على المسلم من إيذاء لأخيه المسلم حرمه عليه أيضًا من إيذاء غير المسلمين الذين بَيْنَنَا لدخوله في قوله عليه السلام « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » دماؤهم حرام وأموالهم حرام وأعراضهم حرام وغِشُّهم حرام والغَدْرُ بهم حرام والكذب عليهم حرام وشهادة الزور والحَيْدة في القضاء والقمع والظلم وهكذا كلما توغلتُ في ذلك قلت في نفسي لو قرأ هذا غيرُ المسلمين لطالبوا به لأنه هو الخير للناس ، وعجيب جدًّا أن يجمع رسول الله ﷺ بين حمل السيف علينا ، وبين غشنا في الوعيد ويقول « من

حمل علينا السلاح فليس منا» ، «ومن غشنا فليس منا» والغش هنا ليس الغش في البيع والشراء فقط وإنما له صور كثيرة ، فالخداع غش والغَدْر غش واليمين الفاجرة غش وتولية غير الأكفاء غش والتربحّ بالمسؤولية غش لأن الغش المناسب لحمل السلاح هو الغش الذي يُدَمِّرنا من الداخل وحَمْلُ السلاح يُدمِّرنا من الخارج ولو تصورت الوطن وقد خلا من الغش لتصورت صورة حسنة جدًّا ، ولتصورت تَقَدُّمًا في العلم وفي الصناعة وفي الأمن والأمان إلى آخره ، ويدهشني أمران الأول الذين يقتلوننا لِيَدْخُلُوا الجنة وحديث أسامة وحده يكفي في القضاء على هذه البشاعة ، والأمْرُ الثاني الذين يقمعوننا ليدخلونا بالقمع والقهَرْ والقتل والإذلال والتخويف في جنة الديمقراطية ، لست أدري كيف يفكر هؤلاء وهؤلاء ، لو علم هؤلاء وهؤلاء أن ظهر المسلم على المسلم حرام ، ودَمَهُ حرام وعرضه حرام وكرامته حرام ، وماله حرام وغشه حرام وغدره حرام بل الواجب أن تنفِّس كُرْبَتَهُ وأن تُيسِّر عُسْرَته وأنه يراك بجواره عند كَرْبه وعِند مرضه وعند حاجته ، وهذا هو جزء من الدين الذي تجرِمون مَنْ يَدْعُو إلى دخوله في السياسة . وحياتنا لا تزاد إلا صعوبة وإلا تخلفًا وأكرّر أن كل ما يجب أن يكون بين المسلم والمسلم من تَنْفيس الكُرْبة وتيسير العُسْرة ومد يد العون هو قائم بين المسلم وغير المسلم من الذين يعيشون معنا نساعدهم ويساعدوننا ونُعينُهم ويُعينُوننا ونمدُّ أيدينا إليهم ويمدون أيديهم إلينا لأن الله أخبرنا بأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولأن رسول الله ﷺ أمرنا بمكارم الأخلاق ، ومكارم الأخلاق ليست انتقائية ولو كانت انتقائية لما كانت مكارم أخلاق ، والإسلام بريء براءة كاملة من هذا الإجرام الذي يَسْتَبيحُ أموالهم ، أو يحرق بيوتهم ، أو يُفزّع

آمنهم ، هذه عصابات إجرامية ليس لها أي سند من دين الله وأظنها من إعداد أعداء الإسلام الذين يريدون تشويه وجهه الأنور .

وكلما طال نظري في عناية رسول الله ﷺ بأمن الناس وسلامتهم وإقامة لُحْمة المودة والتآلف والتساند بينهم ثم حِمَاية الجماعة مِنْ أن تتسلل لها الأمراض الاجتماعية المزعجة من الجهل والفقر والظلم والقمع والإهانة ثم أقرأ كلامًا يقول إن دخول الدين في السياسة عودة إلى عصور الظلمات أقطع بأن هؤلاء لم يقرؤوا شيئًا في الدين وأنا لا أفهم دخول الدين في السياسة إلا على هذا الوجه الذي أقوله وهو حماية الناس من الظلم والقهر والإهانة ثم التساند والتآلف ووضع اليد في اليد وإحسان العمل وإتقانه ونظافة الناس من الغش والكذب إلى آخره ، وهذا هو الحكم بما أنزل الله وكل ما وراء ذلك فيما أعلم ليس هو المطلوب ولم يَرِدْ في خاطري أن يكون رئيس الوزراء فقيهًا ولا رأس الأمة رأس فرقة ، هذا شيء لا أصْلَ له كل ما فيه مصلحة للوطن هو من الدين وكل ما فيه مضرة للوطن فليس من الدين ، وانتهى الأمر . لا تحلُّوا حراما ولا تحرّموا حلالا وأعطوا كل ذي حق حقّه وامْنَعُوا الفساد والغش وافعلوا الخير . أي شيء في هذا يزعج السياسة والسادة الساسة ؟ وهذا هو الحكم بما أنزل الله ، واليد التي تمتد إلى مال غيرها اقطعوها ولا تأخذكم بها رأفة واحفظوا بذلك أموال الشعوب المنهوبة وأراضي الشعوب المستباحة وثرواتها التي حسبتم أنكم أصحابها ، واسأل نفسك أيُّهَا المثقف المتنور الجليل أي الأمرين أفظع أن تقطع اليد التي تنهب مال الشعب الذي لا يزال فيه طبقة لا تجد قوت يومها أقول أيهما أدخل في القسوة والغلظة قطع يد الذي ينهب قوت الذي لا يجد القوت أم وسائل القهر والتعذيب والإهانة التي كتب عنها وتحدّث بها من ذاقوا ويلاتها ووثّقها

من وَثَقها داخل البلاد وخارجها ؟ وكأن الظلمة أقاموا جحيمًا في الدنيا قبل جحيم الآخرة مع أن الله سبحانه لم يدخل أحدًا الجحيم إلا بعد حسابه وبعدما تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، أما الجحيم الذي على أرضنا فإنه يدخل فيه من يشاء الظلمة أن يدخلوه فيه قبل أن يحاكم ، وقبل أن تثبت عليه التهمة إلا تهمة أقرّ بها من ويلات ما يجد من أهوال العذاب ، المطلوب من المثقف الجليل الذي يرى أن الحكم بما أنزل الله عودة إلى عصور الظلمات والقهر والطغيان أن يراجع الواقع ، وألا يكون هَمُّه الهجوم على التوجهات الإسلامية لأن التوجه الإسلامي والحكم بما أنزل الله ليس مطلب الجماعات الإسلامية التي على الساحة السياسية وإنما هو مطلب كل من شهد الشهادتين وهو صادق ، ومهاجمته ودفعه بحجة أنه مطلب جماعة سياسية من المراوغات الخبيثة ، وربما يدفع الكثير ممن ليسوا من هذه الجماعات إلى أن ينضموا إليها . وهذا مما يزداد به الذي نحن فيه . ونحن على أرض الوطن الذي هو وطننا ووطن آبائنا واختلطت فيه دماؤنا ودماء آبائنا وروّينا ترابه بدمائنا ودماء آبائنا أقول لا يجوز لأحد أن يقصي أحدًا من وطنه وأرضه مهما كان الخلاف سواء كان خلافًا سياسيًّا أو دينيًّا ، والقول بأن هذا الفصيل أو ذاك يعتنق أفكار غير صالحة للحياة كلام مرسل لا يقبله أهل العلم إلا إذا قام عليه الدليل ، وليس له إلا دليل واحد وهو المجيء بنصوص متفق عليها عندهم وهذه النصوص ليست من دين الله لأن كل ما هو من الدين صالح للأزمنة كلها والأمكنة كلها ولا يكون الكلام غير صالح للحياة إلا إذا كان كلامًا بشريًّا لا برهان له من العقل ، والعجيب أن كل كلام له برهان من العقل له برهان من الدين لأن الدين ليس فيه كلمة تصطدم بالعقل أو تصطدم بمصلحة الوطن أو لا يأخذ بها حاكم رشيد ولو

كان غير مسلم وسأبين ذلك ، ولذلك أرى أحيانًا في معركة وهمية لو راجع العقلاء لكشفوا وهمها .

والغريب أننا تنازعنا وتدافعنا في مسألة دخول الدين في السياسة أو إبعاد الدين عن السياسة ، من غير أن نحرّر المقصود من دخول الدين في السياسة ، وما هي متطلبات الدين من السياسة ؟ وما هي الحدود التي يقف عندها ويترك ما وراءها للرأي والاجتهاد لأنها أدخل في شؤون دنيانا ، وما هي المناطق التي لا بد له أن يكون فيها ؟ أقول بيان هذا واجب حتى نختلف عن بيّنة ونتفق عن بينة ، وغياب هذا الفقه الواجب جعلنا فريقين ، فريق يقول دخول الدين في السياسة وفريق يقول لا دين في السياسة مع غياب الوعي المدقق عند الفريقين حتى إنك تراه أحيانًا أقرب إلى العشوائية منه إلى بصيرة ذوي البصائر ، وغيبة الوعي بهذا جعل الخلاف يطول ويشتد ويتهم فريق بأنه إرهابي ويريد تغيير هُوِيّة البلاد ووقفنا «محلك سر» مع أن الواجب الحرص على إنهاء المنازعات لتتفرغ البلاد لما يجب أن تتفرّغ له من التنمية اللازمة والتقدم الذي هو فريضة إسلامية .

وقد أشرت إلى أن أحد علماء الأمة الكبار قال حيثما كان العدل فثَمَّ شرع الله ، قيلت هذه الكلمة منذ خمسة قرون والمراد العدل بمعناه المتسع ، وليس عدل المنصة فقط وإن كان ضرورة والعدل وضع كل شيء في موضعه وأوله وضع الكفاءات في موضعها فلا يجوز أن يتولى أمرًا من أمور الناس إلا من كان أعلم الناس بهذا الأمر ، وكان أصدق الناس وأخلص الناس وأصلح من يديره ، قل مثل ذلك في الوزير والمدير والمحافظ حتى تصل إلى أقل الدرجات لأنه لا معنى للعدل إلا هذا وهذا جانب ، ثم إن العدل

يعني أن يكون كل المواطنين سواء في المغنم والمغرم وليس هناك أحد كائنًا من كان يمكن أن يظفر بشيء يحرم منه غيره . العدل يعني وضع العدل مكان الظلم وضع الرحمة والمودة مكان القسوة والغلظة أو بصورة أقرب إخراج المجتمع من الظلمات إلى النور ، من ظلمة الجهل إلى نور العلم ومن ظلمة الاستبداد إلى نور الحرية ومن ظلمة الفقر إلى نور الوفرة ومن ظلمة التخلف إلى نور التقدم ومن ظلمة الضعف إلى نور البصر والقوة ولن تجد أحدًا ينكر شيئًا من ذلك ، مسلمًا كان أو غير مسلم ، وهذه هي الخلاصة وتنتهي المنازعة ويذهب كل إلى عمله ويسبق إلى المطالبة بتطبيق شرع الله غير المسلم إذا برئت نفسه ولم تكن له غاية إلا مصلحة البلاد وهذا الذي أقوله كلام مجمل ومحتاج إلى دراسته وتحريره من علماء الشريعة الصادقين المجتهدين وليس من الذين يبررون كل ما يكون من النظام ولو كان القتل والقهر ، وليس من الذين يهاجمون النظام في كل ما يصدر عنه من غير تفرقة بين نفَّاعٍ وضرَّار،لأن هذين الصنفين فقدوا الأهلية لبيان الحق، ولم يصلحوا لأن يبينوا للناس ما أنزل إليهم ولا يصلح لبيان ما أنزله الله على رسله إلا من كان أشبه برسله في بلاغ كلمة الله وهم الذين يخشونه سبحانه ولا يخشون أحدًا إلا الله وهم أهل البلاغ الحق ، وبذلك تنتهي مشكلة استنزفت جهدًا كثيرًا وأوقعتنا في بلايا لا نزال فيها ، واعتبر البعض أن كل ما يرفع راية الإسلام على الساحة السياسية إرهابي ويستحل دمه وبعضهم لم يكتف بفعل ذلك في بلده وإنما تجاوز الحدود ليحرر الناس من الإرهاب الذي هو التوجهات الإسلامية التي لا مطلب لها إلا الحكم بما أنزله الله الذي لخصه ابن القيّم في العدل ولهذا قلت نحن في معركة وهمية إلا أن يكون المراد ضرب الإسلام نفسه ضربًا يتستر بمحاربة الإرهاب الذي هو

المطالبة بالعدل لا غير ، ولاحظ أن قضية الحكم بما أنزل الله التي لخصها ابن القيم تلخيصًا مجملاً وقلنا إنها يجب أن تدرس دراسة أوسع من علماء كرام هي التي أنتجت لنا مجموعة التكفيريين لأنهم رأوا الأنظمة لا يحكم بما أنزل الله فهي داخلة في قوله ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وأن المجتمعات قبلت هذا فكفرت هي الأخرى فرأوا أن يقتلونا ليدخلوا الجنة كما أن هذه القضية هي التي أنتجت القمع والقهر وقطع الألسنة لأنها بهذا القهر وهذا القمع تحمينا من التكفريين وهكذا وقعنا في بلبال من الأمر وبين أمرين كلاهما مُرّ وأمرّ من الحنضل ، وكل هذا من الوهم لأنها قضية ولا أبا حسن لها ولو أعطيناها لأبي الحسن كرم الله وجهه لاسترحنا جميعا وخصوصًا ممن يقتلنا ليدخل الجنة ومن يضعنا في الزنازين لنتعلم الديمقراطية ، وشر البلية ما يضحك والذي قاله ابن القيم قاله الفقهاء في الأحكام : قالوا حيثما كانت المصلحة فثَمَّ شرع الله . والله يريد بنا اليسر ، ولكننا نعسِّر ، وقد شغلني أن الشيوخ الأجلاء الذين كانوا أعضاء في جماعة الإخوان المسلمين مثل الشيخ سيد سابق والشيخ يوسف القرضاوي وهما أبرز فقيهين في هذا العصر والشيخ محمد الغزالي وهو أبرز داعية في هذا العصر ولا أتصور أن يكونوا الثلاثة ، ولهم نظائر أعضاء في جماعة إرهابية ولا أنهم يكونون أعضاء في جماعة فكرها غير قابل للحياة ، ولا أن يكونوا أعضاء في جماعة الشر ولا أن يكونوا أعضاء في جماعة تغيّر هوية الأمة إلى آخر الكذب المكشوف السوءة الذي نسمعه ، أقول عجبت لأن هؤلاء لم يحسموا هذا الأمر ويبينوا معنى دخول الدين في السياسة وإلى أي حد يكون دخوله وأين يتوقف إلى آخر ما قلت ، ويبدو أن سلوك الأنظمة القائم على التنكيل والمطاردة والقهر صرفهم عن ذلك .

وظني أنه قد آن الأوان لقيام حلف الفضول بيننا ، وكانت قد تحالفت قبائل في الجاهلية على أن لا يوجد في مكة مظلوم إلا وقفوا معه ودفعوا عنه الظلم وقال رسول الله ﷺ «لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت» وكان حلف الفضول هذا في الجاهلية لأن دفع الظلم عن المظلوم إذا لم يوجبه الدين أوجبته المروءة ولا يجوز لكرام الناس أن يروا ظلما يقع على فريق من الناس وهم يتفرجون مهما كان الخلاف بينهم وبين الفريق الذي يُنكلُ به ويقمع ويقهر وتلفق له التهم ، لأن أحرار الرجال لهم نهج في الحياة غير نهج أهل النذالة ، والوطن الحر هو ذاته يأنف القمع والقهر لأن ذلك لا يليق بتاريخه ، والمسؤول الذي هو أهل للمسؤولية لا يرضى بأن يهين فريقا من أبناء الوطن ، فضلا عن استباحة الدماء ، والإهانة ، وكان أرسطو يقول لتلميذه الإسكندر المقدوني احرص على أن يكون الشعب حرًا حتى تكون ملك الأحرار ولا تسمح لأحد أن يذل أحدًا منهم حتى لا تكون ملك العبيد ، كان هذا قبل ولادة المسيح عليه السلام بخمسة قرون ، الغطرسة ليست من السياسة والقمع ليس من السياسة ، الحكمة والرشد تحوّل القضايا الكبيرة إلى مشكلات صغيرة ثم تنهيها ، والغطرسة تحول المشكلات الصغيرة إلى قضايا كبيرة ثم توقع البلاد في مستنقعها ، والقيادات الجديرة بالتقدير والاحترام لأنها أهل لأن تقود ليست هي التي تحرص على أن يحيط بها المدّاحون الذين أمرنا أن نَحْثُوَ التراب في وجوههم وإنما هي التي تحرص على أن تكون لها معارضة يقظة صادقة ليس لها همٌّ إلا مصلحة البلاد والعباد ، وترى أن هذه المعارضة الصادقة المخلصة هي المرآة النظيفة التي يرى فيها النظام نفسه وعجيب جدًّا أن ترى هذا الفكر السياسي المستنير قد ولد في لحظة ولادة الأمة الإسلامية ساعة أن تولي أمرها أبو بكر ، لأنه قال

في السطر الأول من خطابه لما تولى إنما أنا متبع ولست بمبتدع يريد أنه مطبق لكتاب الله وسنة رسوله وهذا هو الحكم بما أنزل الله وهذا هو رأس الدين في قلب السياسة ، ثم قال الصديق رضوان الله عليه إن رأيتموني على صواب فأعينوني ، وأن رأيتموني على خطأ فقوموني ، وكلمة قوموني فيها معنى ليس في أن يقول مثلاً فنبهوني ، وكان عمر حاضراً فاستقرت هذه الجملة الكريمة التي يحمل فيها الصديق الناس من حوله أمانة المتابعة الواعية لسياسته فإذا رأوا خيرًا اجتمعوا حوله وتعاونوا وتساندوا وإن رأوا خطأ وقفوا وعارضوا لأن هذه المعارضة من الدفاع عن النفس وعن الغير ، ولما تولى عمر رضوان الله عليه كان أول كلام يقوله هي جملة أبي بكر ، وفهم الناس المراد وأنه الوقوف في وجه خطأ المسؤول الأول حماية للناس وقوة للدولة فقام رجل في المسجد وسلّ سيفه وقال لعمر والله لو رأيناك على خطأ لقومناك بسيوفنا فأدرك عمر أن الرسالة وصلت وأن المقصود اليقظة الواعية والمتابعة الصادقة لسياسة البلاد فهش عمر وهو رجل الدولة وقال الحمد لله الذي جعل من أمة محمد من يقوّم عمر بحد سيفه ، وبهذا ومثله قامت دولة الفتوحات والانتصارات حتى الثراء لأنهم لم يجدوا فقيرًا يصرفون له مال الزكاة ، هذا شيء من أول التاريخ وهو طريق القوة أما تكميم الأفواه فهو طريق الضعف والهزائم وضياع البلاد والعباد ونرجو من الله أن يجنبنا هذه الويلات .

ومسألة تغيير هوية مصر وأن جماعة الشر تقوم بهذا وأنها جماعة إرهابية وأنها خانت الوطن وأفشت أسراره لأعدائه وتخابرت مع دول أجنبية وباعت القناة وباعت سينا إلى آخر السلسلة التي نسمعها ممن لم تألف منهم الصدق ولا الوطنية ، أقول إن من يتكلم يجب أن يتكلم بعلم حتى لا يفقد الناس

الثقة في الذي يسمعون ورحم الله الذي قال لو سكت من لا يعلم لاستراح الناس ولا خلاف في أن هوية مصر إسلامية وأنها جدار الصد في تاريخ الإسلام ويشهد لها التاريخ بذلك والذي يحتاج إلى بيان هذا مسكين لا يُكلّم وما دامت كذلك فكيف يغيّر اتجاه الإسلام السياسي هويتها ؟ وكيف يقبل هذا التناقض وهو أن أهل الإسلام يغيرون الهوية الإسلامية ؟ المطلوب أن يشرحوا لنا ذلك حتى نفهم لأنه غريب . والتاريخ يقول لنا إن الهوية الإسلامية لأي شعب لا يستطيع أحد أن يغيرها ، وقد حاول كمال أتاتورك أن يغير الهوية الإسلامية للشعب التركي الذي كان ولا يزال أهم دروع هذه الأمة ثم لم يستطع وحاول الاتحاد السوفيتي أن يغير الهوية الإسلامية للجمهوريات الإسلامية التي استبد بها وفرض عليها البطش والقهر وفرض عليها الشيوعية ثم لما أذن الله وسقط هذا الأخطبوط المناهض لدين الله خرجت هذه الجمهوريات الإسلامية بتمام هويتها الإسلامية بل كانت أشد استمساكًا بها ، وقد قال هرقل لأبي سفيان لما سأله عن محمد صلوات الله وسلامه عليه في حديث طويل رواه البخاري قال له هل يرجع أحد عن دينه بعد الدخول فيه فقال أبو سفيان لا ، فقال هذا شأن الدين الحق إذا خالط القلوب لم يبرحها . فكيف نفهم أن الاتجاه الإسلامي يغير هوية مصر الإسلامية ؟ ويلاحظ أن مصر فيها يسار وفيها علمانيون وفيها ليبراليون وأخيرًا حزب شيوعي وكل هؤلاء لا خوف منهم على تغيير هوية مصر وإنما الخوف من الاتجاه الإسلامي .!! وأنا من الذين يرون أن هذا الكلام لا يزعج وأن مثله كمثل جماعة الشر والإرهاب والخونة وبيع سينا إلى آخره وكله يخلو من البرهان الذي تقبله العقول وكان الجاحظ يذكر جماعة آخر من يعقل ومنهم كما يقول الصبيان والنساء والعجزة ، ولست معه وإنما ذكرته

حين ذكرت ما يقال من كلام مرسل كما ذكرت به قول الشاعر :

وبعض القول ليس له عناج كمخض الماء ليس له إتاء

والعناج هو الحبل الذي يمسك الأشياء بعضها ببعض وهو في الكلام مجاز يراد به ليس فيه صدق ولا صواب وأنه كمخض الماء لا تخرج منه زبدة ، ومثله قول أبي العلاء حديث خرافة يا أم عمرو .

والأصل في النظام الذي اختاره الشعب أن يستمع إليه . أن يستمتع للآراء المختلفة في كل ما يكون من النظام ، أولا لأن هذه مصالح الجماعة وصوابها يعود عليّ وعليك وخطؤها يعود عليّ وعليك ولا يجوز أن يستمع فقط للموافقين وله علينا شيء واحد وهو أن نكون في غاية التجرد فيما نخالف فيه بعيدين كل البعد عن سوق المزايدات السياسية لأن مصلحتنا ليست مع فريق وليست مع النظام وإنما القصد هو بيان ما نراه وصديقك من صدقك لا من صدقك وهذه كلمة تكتب بماء الذهب لأنها نادرة جدًّا ، وكاتب هذا لم ينضم في حياته إلى أي جماعة ولا إلى أي حزب وإنما عاش يقرأ ويكتب ويقدم إلى قومه ما قرأ وما كتب ليقينه أن حق البلاد عليه لا يساويه شيء ، ثم هو لا يملك إلا قلمه يكتب به ولسانه يعلم به والله يعلم أني حاولت أن أكون صادقًا في كل ما كتب القلم وأن أكون صادقًا في كل ما سمعه مني طلاب العلم ، وأكثر من كل هذا هو أنني أضيق بتقسيمات الجماعة المسلمة إلى هذه الفرق هذا إخوان وهذا سلف وهذا جهاد إلى آخره والأصل أننا كلنا مسلمون والواجب أن نكون جميعًا إخوة ، كما قال لنا ربنا وأن نكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا ، وأن نكون جسدًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء ، وأن هذا جامع لنا من

رأس الدولة إلى أصغر مواطن جسد واحد وبناء واحد وإخوة واحدة . وهـذا ما ألقى الله عليه . أكره هذه الفُرقة ، ولهذا أفكر دائمًا فيما يجمعنا وليس فيما يفرقنا وقد ذكرت أننا نختلف حول قضايا لو راجعها عقلاؤنا وحكماؤنا لما كانت موضع خلاف ، ومنها قضية العصر التي هـي الـدين والسياسـة وأراهـا تضخمت كثيرًا وهي قضية هذا العصر لأن الأمة لم تعرفها في تاريخها كله ، وميلادها بعد زمن الاستعمار يغري بفحصها وتمحيصها وقد ذكرت ما قالـه ابن القيـم وأضيف شيئًا يدخـل فـي كـلام ابـن القـيم وهـو ألا نحـل حرامًـا وألا نحرم حلالاً ، وهذا داخل في العدل في معناه الواسع الذي هو وضع كل شيء في موضعه ولو بحث هذه القضـية العلمـاء المتجـردون لبيـان الحـق ، وليس علماء السياسة الموالين والمعارضين لحدّدُوا لنا المنطقة التي لابد مـن دخول الدين فيها ، والمنطقة الداخلة في قوله عليه السلام أنتم أعلـم بشـؤون دنياكم وينتهي الأمر . وبقاء هـذه القضـيّة خطـر جـدًا لأننـا نعلـم أن الشـرق والغرب يهاجمان وجود الإسلام على الساحة السياسية وقـد كتـب المرحـوم مصطفى محمود أنهم جميعًا يعلمون أن الإسـلام هـو جـدار الصـدّ الحـامي لأرض المسلمين وأنه هو الواقف في وجه أطماعهم ، فإذا صرنا نحن نهـاجم وجود الإسلام على الساحة السياسية ، صرنا مع أعدائه في خندق واحدًا وهذا بلاء يستفز الناس ويزيد الخلاف حدة وسـعارا ، ولا أشـك في أنـه إذا حـدّد العلماء حدود دخول الدين في السياسة فلن تجد منا مـن يعارض فـي ذلـك ما دام هذا هو الحق الذي لا مفر منه .

هناك نموذج فكري وثقافي من المفيد جدًا أن يشيع ويعلم ويقتنع به كل من يخاطب الناس ، لأن الحاصل الآن أن الخطاب الإعلامي تداخله عناصر

بالغة السوء وكأنه يتعمد الإغاظة والشتم والإهانة وكأنه شامت ويشفي غليله من الذين وراء القضبان وهم لا يملكون من الأمر شيئًا وهذا موقف إعلامي يخلو من المروءة والشهامة والنبل لأن الذي انكسر لا يجوز أن يرفع عليه سيف حتى قالوا لا يجوز الإجهاز على جريح في الحرب وهذا باب يكشف سوءات النفوس وإلى أي مدى تخلو من المروءة والشهامة وليس هذا مقصودي ، وإنما مقصودي أن الخلاف شيء طبيعي جدًا ومتوقع جدًا حتى بينك وبين أهلك في داخل بيتك ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ وقال أبو حيان التوحيدي العبقري النادر الاختلاف في الرأي والنظر والبحث والمسألة والجواب سِنْخٌ وطبيعة ، والسِّنخ الأصل فإذا أردت من بشر ألا يختلفوا فكأنك أردت منهم ألا يكونوا بشرا فإذا كنت سياسيًا وأردت منهم ألا يختلفوا فأنت تريد منهم أن يتحولوا إلى قطيع وتتحول سعادتك من أن تكون زعيمًا لجماعة سياسية إلى أن تكون سوّاقًا يسوق قطيعًا ، والأصل في الاختلاف أنه يثمر التنوع في الرؤية والتنوع في الرأي وهذا التنوع وهذا التعدد يثري حياة الناس والأعقل والأحكم هو الذي يأخذ بالرأي الأفضل ويدع رأيه وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ مرات ، وفي هذا الكتاب موقفان لسيدنا رسول الله ﷺ رجع عن رأيه فيهما إلى رأي عمر ، وهذا في الذي لا وحي فيه وإنما في الذي هو من شؤون دنيانا ، ولا يضيق بالرأي المعارض إذا كان هذا الرأي صادرًا عن صدق إلا الذي يجب أن يترك الشأن العام وحسبه أن يرعى نفسه فقط لأن الشأن العام شأن الناس وليس من حقهم أن يتكلموا فيه وإنما من واجبهم أن يتكلموا فيه ، وأفهم من قوله تعالى ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ أن عمارة الأرض التي خلقنا الله لها وأنها من عبادته التي خلقنا لها أقول هذه العمارة متوقفة على اختلاف الآراء وتعددها

لأن هذا التعدد ما دام ناتجًا عن اجتهاد يكشف لنا وجه الصواب لحل مشاكلنا وقضايانا المزمنة ، وقد لاحظت شيئًا مهمًا جدًا أن سعة الاطلاع تقرّب بين المختلفين مع شدة وحدّة هذا الاختلاف لا أعني أن سعة الاطلاع تضيق بها مساحات الخلاف والاختلاف وهذا وإن كان صحيحًا فليس هو مرادي وإنما أقول إن الرجلين اللذين بلغا في العلم مبلغًا عاليًا نرى بينهما مودة وإن كانا متباعدين جدًا في مواضع كثيرة لأن الخلاف مهما اشتد ومهما احتد فإنه لا يمكن أن تضيق به مساحات الاشتراك فالذي بيني وبين أشد خصومي في الفكر مساحات من الفكر أيضًا هي متسعة جدًا ومن الممكن أن نلتقي فيها ، أما خلاف الشتائم والردح وإشعال نار العداوة بين الناس فهو خلاف الجهلة الذين لبسوا مسوح المثقفين والسياسيين والإعلاميين ، والذين قسموا الشعب وجعلوه شعبين بسبب خلاف سياسي مرّ بمصر وبغيرها أوسع وأصعب منه ، وكنت أتوقع أن أسمع سياسيًا محنكا ينادي ويصرخ لينهي مهزلة إحنا شعب وانتوا شعب لأن العالم حين يرانا إذا اختلفنا انقسمنا لـن يقيـم لنـا وزنًا لأن غيـرنـا مختلف اختلافًا أشـد ولكـن هذا الاختلاف لا يخرج من حجرة النقاش .

وأختم بهـذه القصة التي ذكرها أبـو حيان التوحيـدي قـال : قـال خلـف ابن المثنى ـ قالوا وهو من أهل الفصاحة والبلاغة في زمانه ـ لقد شهدت في البصرة عشرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في الدنيا علمًا ـ الخليـل ابن أحمد صاحب النحو وهو سُنيٌ ـ الحميدي الشاعر وهـو شيعي ـ صـالح ابن عبد القدوس وهو زنديق ـ سفيان بن مجاشع وهو مـن الخـوارج ـ بشـار ابن بـرد وهـو شعـوبـي خليع ماجن ـ حمّاد عجرد وهـو زنـديق شعـوبي ـ

ابن رأس الجالوت وهو شاعر يهودي ـ ابـن نظـير المتكلم وهـو نصـراني ـ عمر بن المؤيد وهو مجوسي ـ ابن سنان الحراني وهو مـن الصـابئة ـ كـانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ، ويتبادلون الأخبـار ، ويتحـدثون في جوٍ مـن المودة والألفة لا يكاد يخطر على بال الرائي أن بين أولئك المتحلقين ذلـك الاختلاف الشديد في ديانتهم ومذاهبهم . انتهى كلام ابن المثني ، وهو ظـاهر في أن أهل العلم والبصيرة يبعدون ما بينهم من خلاف ويحضرون ما يمكـن أن يكون مشتركًا بينهم ليلتقوا عليه في ألفة ومودة لا يمكن للذي يـراهم أن يدرك الخلاف الذي بينهم ، ولاحظ أن هذا في البصرة التي هي أعظـم مدينـة علمية في تاريخ علـوم الإسـلام ولم تكـن تنازعهـا إلا الكوفـة وكـان علمـاء البصرة ينسبون إليها فيقال البصـريون وعلمـاء الكوفـة ينسـبون إليهـا فيقـال الكوفيون وكانت البصرة أرجح من الكوفة وكان هذا التلاقي في القرن الثـاني الذي هو وسط القرون الثلاثة المفضلة وكـان فيـه السـني والشـيعي والخليـع الماجن والملحد إلى آخر ما ترى وكانت الألفة تجمع هؤلاء جميعًـا أعـني ألفة بين الخليل بن أحمد واضع علم العروض وشيخ النحـاة وشـيخ سـيبويه ومؤسس أول معجم وكانت الألفة بينه وبـين المجوسـي والصـابئ واليهـودي والنصراني إلى آخره ، وهذا مما يجب أن يشيع لأن هؤلاء الآن لو اجتمعـوا لحدثت بينهم مقتلة ولفجر كل منهم نفسه ليفجـر البـاقين وليـدخل الجنـة ، وفي هذا الخبر لفتة أخرى وهي أن زمن الازدهار تزدهـر فيـه كـل النباتـات النافعة والضارة فقد كان كل واحد من هؤلاء رأسا في بابه إن كان في الخـير فهو في الخير وإن كان في الشر فهو في الشـر وحسـبك أن تراجـع الأسمـاء لتجد منهم بشـار بـن بـرد الشاعـر الذي لم يسبقـه أحد في زمانـه ، وصـالح ابن عبد القدوس الذي استنزل شعره الحكمـة مـن عليائهـا وهـو ملحـد إلى

آخره ، واحذر أن تذكر الذين لا يجيزون أن تقول لجارك النصراني في عيده كل عام وأنت بخير حتى لا يفسد عليك متعة التدبر في أحوال الكرام ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ونسأل الله أن يحفظ البلاد والعباد

المعادي الجديدة في : ١٣ من رجب ١٤٣٥هـ

الموافق ١٢ من مايو ٢٠١٤م

محمد محمد أبو موسى

عضو هيئة كبار العلماء

الكبـــائر

• لا يزنى الزانى حين يزني وهو مؤمن

روى الإمـام مسـلـم بسـنـده عـن أبـي هريـرة ، أن رسـول الله ﷺ قـال :

« لا يَزْني الزاني حين يَزْني وهو مؤمن ولا يَسْرِقُ السارقُ حين يَسْرِقُ وهـو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهـو مـؤمن ، ولا يَنْتَهِـبُ نُهْبَـةً ذات شرف يَرْفَعُ الناسُ إليه فيها أبصارهم حين يَنْتَهِبُها وهو مؤمن ولا يَغُلُّ حـين يَغُلَّ وهو مؤمن . فإياكم وإياكم والتَّوْبَـةُ مَعْرُوضةٌ بعدُ » .

هذا الحـديث أصـلٌ عظـيم مـن الأصـول الكافَـةِ والرادعـة عـن الكبـائر ، والكافَّةُ والرادِعَةُ عن انتهـاك محـارم الله والتعـدّي علـى حـدوده الـتي حـدَّها لعباده . وأول هذا الحديث غضـب وتَغْلِـيظٌ ، وآخِـرُه رِفْـقٌ ولُطْـفٌ ورحمـة ودعوة إلى مرضاة الله .. يدعو الرحيم الرحمن هؤلاء المجترئين علـى أمـره ونهيه إلى رحمته التي هي دار السلام .

ثم إن الغَضَبَ الذي في هذا الحديث هو غضبٌ يَحْمي اللهُ به الناسَ من الناسِ ، لأنه كَفٌّ وزَجْرٌ للفاجر المجترئ على أعراض الناس ، وكفٌّ وزجْر للسارق عن أموال الناس ، ثم هو حماية للإنسان من نفسه ، وحماية لعقله وروحه من عَبَثِه وشُرْبه وسُكْره ، وهذا الجانب من كلام الله وكلام رسوله ﷺ يجبُ أن يكون هناك تركيزٌ على بيانه . لأن الدين حمايةٌ ورعايةٌ وصَلاحُ للجماعة وأمن وأمان في الجماعة ، وأمْنٌ وأمَان للفرد ، وليس تكاليف

تعوق حركة الحياة ، وتَحُدُّ من حُرِّيةِ الإنسان وتعود به إلى عصور التخلف ، والظلمات كما يروّج أعداؤه ، وإنما كل أمْرٍ فيه جَلْبٌ لمصلحة الناس ، وكل نهي فيه دَفْعٌ لمضرّة عن الناس .

الدين دين الله ، والخلق خلقه سبحانه ، وهو الحامي بدينه لخلقه ، والحارس لهم بوعده ووعيده ، والقائم بذاته في قلوب خلقه على هذه الحراسة يُخرجهم بذلك من ظلمات الفجور والسلب والنهب وأن يأكل قَوِيُّهم ضعيفَهم إلى نور الأمن والعَدْل والحق والرحمة وكل الأديان السماوية مُتَّجِهَةٌ إلى هذه الحِراسةِ وهذه الحماية وهذا من أهم مقاصد النبوات كلها ، وهي مِسَاحَةٌ مُتَّسِقةٌ جدًّا يتلاقى فيها أهل الكتاب جميعًا ، ولذلك تجد مساحات التقارب بين أهل الكتب السماوية أوْسَعُ بكثير من مساحات الخلاف ، وستجد معنى هذا الحديث في كلام عيسى ، وموسى ، وإبراهيم ، إلى آخر الأنبياء قال تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ وقال سبحانه ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا ﴾ .

والأديان كلها تُنتِجُ حياةً أكْرمَ وأنْظَفَ وآمَنَ وأطْهَر وإنما حرّف أصحابُها وبدّلوا ، فأدْخَلُوا فيها شَرًّا وعَصَبِيَّةً . وفي هذا الحديث مَلْمَحٌ من ملامح فصاحته ﷺ وهو تشابه الأبْنِيَة وسلاسَتُها ، وعذوبتُها مع الدقة البالغة والعمق البالغ ، فالجمل الثلاثة الأولى «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» هذه الجمل أُفرِغَتْ إفراغًا واحدًا وتجاوزت التشابه في سَمْتِ البناء وحَذْوِه إلى التوحُّد وكأنه عليه السلام لما جرت الأولى على لسانه سَهْلَةً رَهْوَةً بالغة الدقة ، وضبط المعنى ، أجرى الجملتين التَّاليتَيْن على حَذْوِهَا وسمتها وهذا يُقرِّبُ هذه المعاني في هذا الأسلوب إلى القلوب

ويشيعها في الأمة بوضوحه الشديد وبيانه العذب السهل . وهذا من سمت كلام النبوة ، ويلاحظ أن معاني الجمل الثلاثة متباعدة فالأولى في الأعراض ، والثانية في الأموال ، والثالثة في العقول ، ولكن شريف النظم ألف المختلف وجعل المختلف مؤتلفًا وهذا من السهل الممتنع ورحم الله أبا بكر الباقلاني فهذا من علمه .

وقوله عليه السلام «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» المعنى في هذه الجملة معقود كله في الجملة الحالية ، (وهو مؤمن) والجملة الأمّ وطاء ومهاد لهذه الجملة ، وهذا كثير جدًّا في الكلام ، ترى المعنى الأمَّ ليس متعلقًا بالجملة الأُمّ والحديث كله من هذا الباب ، وقد تكررت هذه الجملة بلفظها خمس مرات في هذا البيان العالي لتأكيدها وتثبيتها في النفوس لتَحفْظَها لأنها هي مَوْطن الزجر ، والوعيد ، والغَضَب وأن من يزاول منكرًا ، من هذه المنكرات المهلكة للجماعة ، لا يزاول ، وقد بقي إيمان في قلبه ، وإنما تَخْلع هي هذا الإيمان ؛ لأن الإيمان بالواحد الأحد لا يساكن قلب مجترئ على حدود الله ، وهو يزاول هذا الاجتراء ، ودخول كلمة (لا) النافية على الفعل المضارع في قوله عليه السلام : لا يَزْنِي - لا يَسْرق - لا يَشْرب - لا ينتهب .. لا يَغُلُّ . يفيد تجدد ذلك في الأوْقات كلها . والأزمنة كلها ، والأمكنة كلها ، من يوم أن جرى لسانه ﷺ بها إلى أن يَبْطُلَ التكليفُ وتُشْرِقُ الشّمْسُ من مَغْربها ، وهذه قيمة كلامه ﷺ ، وأنه كلام حَيٍّ باق في الأمة لا يَبْلَى ولا يَسْقُط مِنْهُ حرف ، ثم إن هذا من طابع النبوَّة لأنه لا يُبَلّغ عن الله إلا من اصطفاه الله ، واختاره رسولاً ، وأن مَنْ يبلّغ هذا من علماء الأمة آخذ بطرف من هذه النبوة ، لأنها من إرْث النبوَّة ، وليس لأحد أن يُحِلَّ شيئًا حرَّمه بلاغ نبينا عن ربه ، ولا أن يُحرِّم شيئًا لم يُحرّمْهُ هذا البلاغ ، وشرط إرث النبوة المُحَافَظَةُ الدَّقيقةُ على هذا الإرث لا يُزَادُ فيه حرف ، ولا يُنْقَصُ

مِنهُ حَرْفٌ ولا يُلبِّسُ مَلبَسٌ منه شيئا ، وإنما هو الصَّدْع بأمر الله الذي أمرنا به رَبُّنَا في قوله تعالى ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ لأن كل أمْرٍ وُجِّه إليه عليه السلام فهو أمر لنا إلا ما خُصَّ به وكلمة (الزاني) كان يمكن الاستغناء عنها ، لأن فعل (يزني) متضمن لها إذ لا يُوجَدُ فعل إلا وله فاعل ، وقد استغنى عن أختها في قوله عليه السلام «ولا يشرب الخمر حين يشربها» لم يقل ولا يشرب الخمر شاربها ، ولها في الحديث دلالة ، لأن صيغة الاسم تفيد الثبوت والدوام ، وأن هذا الفِعْلَ من شأنه . تقول فلان كاتب ، ولو كان نائمًا ، لأنك تعني أن الكتابة وصف ثابت له ، وأنها من شأنه ، وفي هذا إشارة إلى قبح وصفه وقبح شأنه ، وخصوصًا أن كلمة الزانى من الكلمات المستهجنة والتي يكنى عنها لأنها تَخدِشُ الحياء وإنما تذكر بلفظها حين يراد تأكيد فِعْلها وأنه كان من غير تجوز ؛ لبناء الحكم عليه ، والحكم لا يُبْنَى على لفظ يحتمل ، ثم إنه يوصف بهذا اللفظ من وقع منه الفعل أول مرة كلفظ السارق الذي فيه معنى الخسة والخيانة واللصوصية ويقام على كل الحد ولو لم يكن هذا من شأنه ، وفي الكلام إشارةٌ إلى أنّ من سَقطَ في هذه الخسيسة وانهدَمَ جدارُ العِفّة في نفسه إن كانت الزنى ، أو انهدم جدار الأمانة في نفسه إن كانت السرقة ، فهو مُهَيَّأٌ لأن يَنْغَمِسَ في هذه الخسيسة ، وأن تكون من شأنه ، ولو رجع بعد السقطة الأولى وذكر الله ، واستغفر لذنبه لغُسِلَ منها وعاد إلى الطهر والأمانة . ولو سألت وقلت لماذا قال عليه السلام ولا يشرب الخمر حين يشربها ولم يقل شاربها قلت لك أنا لا أعرف السِّرَّ في هذه المغايرة في هذه الجملة . وليس عندي في ذلك إلا شيءٌ غيرُ مُقْنع ولعلّكَ تجد ما يُقنع الذي عندي هو أن خطيئة الشُّرْب وَاقِعٌ ضَرَرُها على نفسه ، بخلاف الخطيئتين قبلها لأنها تتعلق بحق الغير ، صاحب العرض وصاحب المال ، فكان هذا الفرق في المَبْنَى إشارة إلى هذا الفرق في المعنى والله أعلم .

والمهم أن نَتَنَبَّه إلى أن الله سبحانه وتعالى لما حَرّم علينا الخمر وهددنا بالغضب والعذاب كان يَحْمِينَا من أنْفُسنَا ، وأنه يَغْضَبُ من الشارب ويُهدّدُه لأنه يُدَمِّر عَقْلَه ويُغَيِّبُه ، كما يَغْضَب ويهدّدُ من يعتدي علينا . في الجملتين السابقتين ، وهو سبحانه لا تَنْفَعُه طاعة ولا تَضرّه مَعْصيةٌ وإنما المهم هو نحن وأنه سبحانه لم يتركنا هَمَلاً ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ .

وقوله عليه السلام (حين يزني) وأخواتها في الحديث حين يَسْرِقُ وحين يَشْرِبُ وحين يَنْتَهِبُ وحين يَغُل ، هذه قيود بالغة الأهمية وراجع أوّلاً سهولة كلام رسول الله وهو يُحدّث عن صعوبات وعقبات وأحوال مروِّعة ، في دين الله ، والعجيب أن بلاغة الناس ، وبيان الناس علماء كانوا أو غير علماء إذا تحدّثُوا في مسائل دقيقة وعويصة احتاج كلامهم إلى مراجعة لأن استخراج المعاني الدقيقة من المباني غالبًا ما يكون بعد الجهد ، والذي ألاحظه في سَمْت كلامه ﷺ أنه يقول الكلام السّهْل الرّهْوَ الذي لا يَلْتَبسُ على أحد وهو يُحدِّث عن أغْمض المعاني وأجَلّها ، ودع هذا لأن البلاغة النبوية فيها نفح من الله سبحانه وتعالى وكل ما هو من الله فيه سهولة الفعل الإلهي الذي لا يزيد في خلق السموات والأرض على أن يقول كونا فكانتا ، فليس في فعله سبحانه تَعمُّل ولا احتفال ولا اجتهاد وكذلك ليس في كلامه وقد مُنِحَ ﷺ ذَرْوًا من ذلك . والمهم أن نَفْي الإيمان الذي نَهَضَتْ به الجمل الحالية في هذه المواطن الخمس في هذا الكلام الذي لا يعلوه إلا كلام الله مُقَيّدٌ بهذا القَيْد (حين) وقد ذكر علماؤنا أنه ليس المقصود ما ذكر في هذا الحديث خصوصًا ، وأنه لا ينصرف إلى غيرهم وأنه لا يكذب الكاذب حين يكذب وهو مؤمن ، ولا يغدر الغادر حين يغدر وهو مؤمن ، ولا يغتاب المغتاب حين يغتاب وهو مؤمن ، ولا يظلم الظالم حين يظلم وهو مؤمن ؛

ليس هذا هو المراد وإنما المراد أجناس هذه الموبقات فالزنى يمثل الشهوات كل الشهوات وما في النفس الإنسانية من نزوع حيواني والسرقة جنس يمثل ما في النفس الإنسانية من نزوع الأثرة والاستحواذ والولع بما يُمتَلك ، والخمر يُمثِّل كل ما يصيب النفس بالغَفْلة وافتقاد الرشد ويقظة العقل واجتهاده وجده ، وأن كل لحظات المعصية التي تخالف النفسُ فيها أمر خالقها ونَهْيه وتزاول أي كبيرة يفتقد الإنسان فيه أكرم وأجل نِعْمة أنْعَمها الله عليه ، ونعم الله لا تُحصى ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ ومنها السمع والبصر والعافية ، وفي الذروة منها الإيمان ، وليس عندك ولا عندي وإن كثرت النعم عندك وعندي أجل من نعمة اليقين بأنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإذا فارقَتْني هذه النعمة كنتُ في حالةٍ أهْوَل من الحالة التي تدمر فيها كل نعم الله من حولي ، من مالي وولدي ، وأهلي ، وسمعي ، وبصري ، وعافيتي ، وعقلي ، لحظة المعصية هي اللحظة التي تدمِّرُ فيها ذِرْوة النِّعِم ، وهي النعمة الساكنة في القلب ، والتي إذا ذهب كل شيء وبقيت هي كانت عوضًا عن كل شيء ، ولو بقي كل شيء وذهبت هي فلن يَسُدَّ مسدّها شيءٌ وهذه هي قيمة القيد الذي تكرر ، وقيمة الجملة الحالية التي تكررت ، وهكذا نُدْرِك قيمة هذا التكرار الذي جاء سَهْلا رَهْوًا من غير قصد ولا احتفال .

وقوله عليه السلام حين يزني وحين يسرق وحين يشرب إلى آخره يلاحظ في هذه الجملة أن كلمة « حين » تدل على وقت مزاولة هذه الخطايا وهذا ظاهر والذي أريد الإشارة إليه هو أن الفعل المضارع الواقع بعد كلمة حين دال على إحضار الصورة أعني صورة الحدث المشتق هو منه لأنه في أصْلِ وَضْعِه للدلالة على الحال ، وهذه الدلالة هي أصل إحضار صورة

الفعل والفاعل يَفْعَلُه وهذا تبشيع وتصوير لاقتراف هذه القبائح ، وهذا التركيب (حين يزني وحين يسرق) إلى آخره توطئة كما قلتُ وإرهاص بالجملة الحالية التي هي مَسْكَنُ الغرض ، وهي قوله عليه السلام « وهو مؤمن » ويلاحظ أن الإيمان بالله الصادق المستيقن يُورِثُ الخَشِيَةَ والوجلَ والخوف من الله ، وأن المؤمن إذا ذكر الله وَجِلَ قَلْبُه وقال موسى عليه السلام لفرعون ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾ وأن هذه الخشية تُنْتِجُ العَمَل الصالح ، والطريق المستقيم ، وإذا كانت الصلاة تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر ، فإن الإيمان الذي هو الجذر الذي تَفرّعَتْ منه الصلاةُ يكون أكثر نَهْيًا عن الفحشاء والمنكر ، فإذا سَقَطَتْ هذه الخَشْيَةُ سَقط معها الإيمان ، ومن كرم الله أنه جعل هذه المفارقة في لحظة مزاولة الخطيئة ، ومَنَّ على المقترف بَعَوْدة الإيمان بعدها ، فإذا مَدَّ يَدَهُ إلى الله وتاب تاب الله عليه .

وجملة (وهو مؤمن) بُنِيتَ بناء حَيًّا ثَرِيًّا ، يتلاءم مع مكانتها في الحديث الشريف وقد بُنِيَ الحديث عليها ، لأنها مقصد المعنَى في الجمل المذكورة والمعبِّرَةُ عن الخطايا المذكورة ، وأوَّلُ ما يُلاحظ في بنائها أنَّها بُنِيَتْ على ذكر الضمير العائد على فاعل الأفْعال المذكورة ، والاسم إذا جاء مُعَرًّى من العوامل هَيَّأ مَنْ لَهُ درايةٌ بسليقة العربيَّة أنَّه ما جيء بهذا الاسم معرًّى من العوامل إلا لإسناد خبر إليه ، فَتَسْتَشْرِفُ نَفْسُه إلى معرفة ما سيُخْبَرُ به عنه ، فإذا جاء الخبر تلقَّتْهُ النفسُ وهي ناظرة إليه ومُتَطلِّعة له ، فيكون عندها أوْقَع وأمْكَنُ ولذلك قال الكملةُ من العلماء البررة ، رضوان الله عليهم ليس إخبارك عن الشيء بَغتةً عُقْلاً كإخباركَ عَنْه بعد التهيئة والتوطئة ، هذا وجه من وجوه العناية ببناء الجملة ، ووجه آخر هو أخفى منه وهو بناء الجملة على واو الحال ، لأن هذه الواو وإن كنا نسميها واو الحال إلا أن العطف الذي هو

أصْل معناها سَاكِنٌ فيها وكامِنٌ لا يَبْرَحُها يستوي في ذلك ما نُسَمِّيه واو الحال وما نسميه واو الاستئناف وما نقول فيه إنها زائدة ، وكأنها تشرَّبت العَطْف وارْتَضَعَتْه فدخل في بنيتها ، ولهذا إذا جاءت مع الجملة الحالية آذَنَتْ بأن صاحب البيان يَعُدُّ المعنى الذي في هذه الجملة الحاليَّة كأنه يوشك أن يكون نِدًّا لمعنى الجملة التي تَتْبَعها هذه الجملة الحالية ، وأن الحال الذي قالوا هو فَضْلَة مُنْتَصِب يوشك أن يكون معنى معطوفا على هذه التي نَعُدّها أما للجملة الحالية والذي اكتشف هذا المعنى الخفي الشيخ عبد القاهر ، وعبّر عنه عبارة كريمة قال رحمه الله:(فَمُحَالٌ أن يكون هناك جملة لا تصلح إلا مع الواو ، وأخرى لا تصلح فيها الواو وثالثة تصلح أن تجيء فيها بالواو وأن تدعها فلا تجيءُ بها ثم لا يكون لذلك سَبَبٌ وعِلّةٌ . وفي الوقوف على العِلّة في ذلك إشكال وغموض ، وذلك لأن الطريق إليه غير مَسلوك ، والجهة التي منها تُعرْف غير معروفة وأنا أكتب لك أصلا في الخبر إذا عرفته انفتح لك وجه العِلَةِ في ذلك ، ثم تكلم كلامًا دار حول الخبر الذي هو أصل الجملة والخبر التابع للجملة ، وهو الحال وذكر له صوراً منها ما تكون فيه الحال جزءًا لَصِيقًا بالخبر الأول كالحال المفرد والحال الجملة التي بدون واو ، مثل جاء يسعى غلامه أي ساعيا غلامه ، ثم قال وهذا هو المهم والذي يُعينُ على فهم الواو في قوله عليه السلام وهو مؤمن ، وإذا قلت جاءني وغلامُه يسعى بين يديه ورأيت زيدًا وسَيْفُه على كتِفِه كان المعنى على أنك بدأت فأثْبَتَّ المجيءَ والرؤية ، ثم استأنفت خبرا وابتدأت إثباتًا ثانيًا لِسَعْي الغلام بين يديه ، ولكون السيف على كتفه ، ولما كان المعنى على استئناف الإثبات احتيج إلى ما يربط الجملة الثانية بالأولى فجيء بالواو كما جِيء بها في قولك زيد منطلق وعمرو ذاهب ، والعلم حسن والجهل قبيح ، وتسميتنا

لها واو حال لا يخرِجها من أن تكون مُجْتلبة لضم جملة إلى جملة). انتهى كلامه رحمه الله ، وهذا من الكلام الذي لا أشبع من قراءته لأنه نموذج يواجه فيه واحد من علمائنا مسألة غامضة لم يتكلم فيها سَلَفُه من العلماء . ولم ير لها طريقًا مسلوكًا ، ثم يُحَاوِلُ هو أن يجد لها طريقًا مسلوكًا ، لأنه متأكد أن هنا عِلَّةً مسكوتًا عنها ، لأن الواو لا تجيءُ مرة وتَذْهَبُ مرّةً إلا لأمر وراء مجيئها وأمر وراء غيابها ، لأن يقين العلماء أن العربية مُنَزَّهَةٌ عن العبث ولا يمكن أن يستوي كلام جاءت فيه الواو ، مع كلام لم تأت فيه الواو ، وكل هذا مما أحب أن أُرَاجِعَهُ وهو الذي يؤكد أن جملة «وهو مؤمن» في الحديث الشريف لها شأن وأن المعنى أن البيان العالي ابتدأ خبرًا وابتدأ إثباتًا ، قلت إن هذه الجملة هي قلب هذا الحديث وعموده وقطب رحاه ، ولهذا جاءت في أعلى صور الجملة الحالية .

قوله عليه السلام «ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذات شرف يرفع الناسُ إليه فيها أبصارهم حين يَنْتَهِبُها وهو مؤمن».

ذكر بعض المحدثين أن هذه الجملة ألْحَقَها أبو هريرة مع الجمل التي مضت . قال مسلم : قال ابن شهاب أخبرني عبد الملك بن أبي بكر ابن عبد الرحمن أن أبا بكر كان يحدثهم عن أبي هريرة ثم يقول : وكان أبو هريرة يُلْحِقُ مَعَهُنَّ ولا ينتهب نُهبةً ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن .

وقد خرَّج أهل التحقيق كلام ابن شهاب على وجه يفيد أن هذه الجملة من كلام رسول الله ﷺ ، وليس من المدرج الذي يُدْرِجُه الراوي في الحديث ، وإنما هو مرفوع إلى رسول الله ﷺ ومعنى قول ابن شهاب وكان أبو هريرة يُلْحِقُ مَعَهُنَّ أي يلحقها رواية عن رسول الله لا من عند نفسه . قلت وهذا هو

الأشبه لأنه لا يستطيع أحد أن يقول إن من ينتهب نُهْبَةً غير مؤمن حين ينتهبها ويخبر عن نزوع الإيمان منه حين مزاولة هذا الأمر لا يستطيع أحد أن يخبر بذلك إلا رسول الله ﷺ لأن مضمون هذا الكلام من الدين ، والدين كله لله . وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى وهي لا يزني الزاني ويلاحظ أن سَمْتًا خفيفًا دخل زائدًا في هذه الجملة ، وهو أن فعلها لم يأت فعلاً مُجَرَّدًا مثل الأفعال السابقة ، ولم يَقُل عليه السلام ولا ينهب نُهْبَةً .. حين ينهبها ، وإنما جاء الفعل على صيغة الافتعال وهي صيغة تدل على احتشاد فاعل الفعل ، وأنه زاوله بوفرة نشاط ، وقوة إقبال ، كما قال تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ فجاء مع السيئة بفعل الاكتساب لأن الناس يزاولون المخالفات بوفرة نشاط لأن السيئات حضرت حلاوتها وغابت مرارتها وعمل الصالحات حضرت مرارتها وغابت حلاوتها . وانتهاب النُّهبة أخذها بالقوة جهارًا نهارًا ، وهو غير السرقة وإن اتفقا في أكْل أموال الناس بالباطل ، والسارق يتلصص ويختفي والنهاب يسطو بالقوة وهو يشبه رؤساء العصابات المسلحة في زماننا والذين ينتهبون المحلات وخزائن البنوك ، وصيغة الافتعال تعني أن هذا النهّاب استمرأ ذلك وصار عمله وشغله ، وأنه يزاوله برغبة قوية وأن شَرًّا بالغًا يَسْكُنُ هذه النفس التي تزاول هذه السيئة بوفرة نشاط وغبطة نَفْسٍ ، وليس ببعيد أن تدخل في هذه العصابة المسؤولين الذي يستبيحون أموال الشعوب ويَعُدون خزينة بيت مال الدولة كخزينتهم ولا يفرقون بين ما لهم فيه حق ، وما لا حق لهم فيه ويُصْبِحُون بذلك معدودين من أغنياء العالم ، ويشتغل أولادهم بالأعمال ، وينهبون وينشأ ناشِئُ الفتيانِ منهم على ما كان عوَّده أبوه ، كل هؤلاء يدخلون في هذه الجملة ، والنهاب المذكور في الحديث يَنْهَبُ مال رجل واحد ، ويُخرِّبُ بَيْتًا واحدًا ، وهؤلاء المسؤولون يخربون شعوبًا ، لأن هذا الذي انتهبوه كان يمكن

أن ينفق على التعليم ، ويخرج علماء كبارًا . أطباء ومهندسين ، وباحثين ، وكان يمكن أن يُقيمَ مراكز بحوث فاعلة ونشطة وكان يمكن أن يُنْفقَ على الصحة ، أو الصناعة وتقدم البلاد ، وكل ذلك مُعَطّل لعدم وجود « ميزانية » والذي لا يُعطّل هو نَهْب عصابة الذئاب من السادة الجَهلةِ اللصوص الذين يَسِيرُون فينا بمواكب حراسة ، لا أشك أن هؤلاء لا يُزَاوِلُون مَا يُزاوِلون وهم مؤمنون ، وإن كان المنتهب الذي في الحديث يرجع إليه إيمانه بعد سطوه فهؤلاء في سطو دائم . هم وأبناؤهم وخدمهم ونسأل الله السلامة .

والنَّهبْة ما ينتهب ، وذات شرف معناها كما قال الجوهري ورواه القرطبي ، ذات قَدْر ومِثْله قاله النووي ذات قدر عظيم .

وقيل معنى ذات شرف ذات استشراف يستشرف لها الناس ناظرين إليها رافعين أبصارهم ، وعلى هذا المعنى يكون دلالة الكلام على أنها ذات قدر عظيم أعني ذات ثروة ومال مدلولاً عليه ضمنًا بدلالة اللزوم لأن الناس لا يستشرفون ولا يرفعون أبصارهم إلا إذا كانت النُّهبة ذات قدر عظيم ، وهذا كله معناه أن الذي ينتهب ما ليس موصوفًا بهذا الوصف لا يدخل في هذا الوعيد ، وإن كان العلماء احتاطوا وأخرجوا من الوعيد من انْتَهَبْ مَا لا خَطَرَ لَهُ كالتمرة

قوله عليه السلام « ولا يَغُلُّ حين يَغُلُّ وهو مؤمن » .

الغلول : الخيانة يقال غل غلولا إذا خان .

قال صاحبُ اللسان قال النِمَّر :

جزى الله عنا حمزة ابنة نوفل جزاء مُغِلّ بالأمَانة كاذب

وخَصَّ بعضهم الغُلُولَ بالخيانة في الفَيْءِ والمغنَم ، وأغلَّه خوَّنه ، وفي التنزيل ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ قال ابن السكيت لم نسمع في المغنم إلا غَلَّ غُلولا .

وكلمة الغلول بمعنى الخيانة كلمة جامعة لكل ما يدخل تحت كلمة الخيانة سواء كانت في الأموال أو في الأعراض ، أو في الخَبَر الذي يؤتَمَنُ الشخص عليه ثم يَخُون الأمانة بإفشائه ، أو المسؤول الذي يؤتمن على حقوق الناس ومصالحهم ثم يخون الأمانة فيها ويُضَيِّعُها ، ولو قلت إن الزاني خائن والسارق خائن وشارب الخمر خائن لنفسه وعقله والمنتهب النهبة خائن لكنت مُصيبًا . ولو قلت إن هذه الجملة جملة جامعة لكل ما في الحديث وأنها تُشْبه الفاصلة القرآنية كنت مصيبًا ، ولو قلت إنها جاءت ناصَّةً على الخيانة وأن خطيئة الخيانة تضافُ إلى هذه الخطايا الأربع كنت أيضًا مصيبًا ، ولو قلت إنها تحتمل كل ذلك وأنها كالجوهرة النَّفِيسة من أي جهة نظرت إليها أعطتك طيْفًا جَدِيدًا كنت أيضًا مصيبًا .

ومن المفيد أن نُلْقي نظرة ثانية على هذا الحديث لأننا نلاحظ فيه أن حظ المحافظة على أموال الناس كان أوفر فهذه الخطايا الخمس ثلاثة منها للمحافظة على الأموال السارق .. المنتهب .. والمُغِل ـ وهذا وإن كان ظاهرًا في التَّشْدِيد في النهي عن أكل أموال الناس بالباطل كما تكرر هذا المعنى في الكتاب العزيز فإنه ظاهر أيضًا في تَعدُّدِ وتنوع الوجوه التي يُحتَال بها على أكل أموال الناس بالباطل ، وأن هذا الذي يستبيح أكلها بالباطل قد يَسْرِقُها وقد يَنْتَهِبُهَا بالسطو المسلَّح ، وقد يخون الأمانة فيها كالذي يؤتمن على مَالٍ يُغْنَمُ فَيَغُلّ ، وقد ذكرت ما ذكره الكملة رضوان الله عليهم وأنه ليس المراد هذه الخطايا بأعْيَانها وإنما هي نماذج ومُثُل يُقَاسُ عليها ما يُشْبِهُهَا فالمُغِلَّ

صورة للذي يجري طَبْعُ الخيانة في نفسه ابتداء من خائنة الأعين إلى الغدر والقتل والنّهبْ وهكذا ، حتى إنها لتشمل النظام الذي يبيع ممتلكات الشّعْب من أراض ومصانع لرجال أعمال بَيْنَهُ وبينهم علاقات ، قد تكون مصاهرة ، أو مَنْفَعة متبادلة ، ويعطي ما لا يَمْلِكُ لمن لا يستحق ، هذا غلول ، وقُلْ مثل ذلك في ولي الأمر الذي يَسْتَبيح هو وجماعته ثروة الشعب حتى إن خزينة الدولة تكون مفتوحة ليده ويد أولاده وأولاد أبيه ، وأولاد جَدّه الأعلى وجده الأسفل ، حتى يَصِيرُوا من أغنياء العالم ، والبلاد في حاجة إلى رعاية تعليم أفضل ، ورعاية صحية أفضل ، ومراكز بحث أفضل ، وتطوُّر علمي ، وكل ذلك مكلف ولا يكون إلا بثروة ، وهي ثروة الشعب ، ومن حَقّه أن يَرْتَفِعَ عِلْمِيًّا وحَضَارِيًّا بثروته ، ولكنها منهوبة لولي الأمر الجليل ، الذي لا يُقَالُ له « لا » بل والذي يُحَرِّمُ على الناس الاشتغال بالسياسة ، ومن حوله مجموعة جهلة ربما نُسمّي بعضهم بالعلماء ، ويقولون إن الشعوب التي قامت تطالب بحقوقها صُنَّاع فتنة ، والسمع والطاعة واجب لله ولرسوله ولولي الأمر ، مهما كان منه كل هذا غلول وخيانة لأن الحكنم أمانة ، والسُّلْطة أمانة ، وهذا أَبْشَعُ من الغلول في الفَيْء ، وتعجب حين تجد بعد هذا النّهبْ من يُقيم من هؤلاء النهابين جمعيات خيرية من ماله ، ولو قلت من أين له هذا المال ، والله طيب ولا يَقْبلُ إلا الطيب قطع لسانك وكنت مُثير فتنة إلى آخر ما تراه ، وإن كنت لا تقرؤه ولا تسمعه لأن الحديث فيه مُحرَّم والكتابة فيه محرَّمة وأكتفى بهذا ولُيُقَسْ ما لم يُقَلْ ، ولن أتكلم عن الجزء الكبير الذي يُنْفَق على جيوش اليهود والنصارى الذين انتهكوا حُرْمة الأرض لا ليَحْموا هذه الشعوب لأن من توهم أن أوربا وأمريكا تحمينا فقد ذهب لُبُّه وإنما هي لحماية العروش مِنَّا ولم أستطع التفريق بين الاستعمار القديم

الذي كان فيه الحاكم واليًا للمستعمرة وبين ما أراه اليوم وإنما هو تطوُّر في استغلال ثروات الشعوب واستعمارها ، وكنا نُسمِّي الموالي للاستعمار قديمًا خَونة ، ونحن الآن نسميهم سادة ، والعمل هو هو والخيانة غلول وإذا كان من أهل العلم من لا يَرى هذه خيانة ويراني أدخل على كلام رسول الله ﷺ ما ليس فيه فليبادر ببيان الحق الذي يراه ولْيَغفر الله لي لأني أكتُبُ هذا في نَفَسِ الساعة التي هي ساعتي ومن مات فقد قامت قيامته ، وإنّي لأرى قيامتي تقترب وأردت براءة الذمة ، وليغفر الله لي لأني أجتهد وليس في قلبي مثقال ذرّة من الشحناء والبغضاء لأحد ، وإنما هميّ هو أُمّتي وما هي فيه من عَجْز وتسلُّط ليس من أعدائها فحسب وإنما من حكامها الذين تغلّبُوا عليها ، وامتلكوا لَبْسَ الحكم فحسب وإنما امتلكوا الأرض وامتلكوا رقاب الناس .

وكنت أريد أن أضع قوله عليه السلام «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» بإزاء قوله تعالى ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ وأوازن بين اقتران وصف الزانية بالمشركة والزاني بالمشرك ثم أعود إلى نفي الإيمان عنه ، لأن هناك مسافة ليست بعيدة بين المشرك وبين غير المؤمن وأن جملة الحديث الأُولى بينها وبين جملة سورة النور الأولى رحم ورجح ذلك قوله قبل الآية ﴿ فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ والمقصود هذه الجملة الشرطية الأخيرة ، والتي فيها إشارة إلى أن إقامة الحدود من الإيمان ، وأن تعطيل الحدود يوشك أن يكون منافيًا للإيمان ، وكل هذا بشروطه وضوابطه ، كما كُنتُ أريد أن أضع قوله عليه السلام «ولا يَغُلّ حين يَغُلُّ وهو مؤمن» بإزاء قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾ وكلمة «وما كان» هنا معناها أن ذلك لن يكون لأن النبوة

أمانة وهي تنافي الخيانة ، وتوجيه النهي إلى النبي الذي لا يكون منه ذلك يعني توجيه النهي إلى غيره بأسلوب آكد ولو قلت بالقياس عليها وما كان لحاكم أن يَغُلَّ وأنت تَعْنِي أن الخيانة والغلول لا تليق بمن اختاره الناس ورفعوا قدره وسلموه مقاليد أمورهم لأن الغلول من صفات أهل الخَسَاسة والدناءة . والمُنْحَطِّين ومن كان على شيء من الخساسة والدناءة والانحطاط لا يجوز أن يكون سيدًا في الناس ، وقاضيًا يَقْضِي بينهم ، وكذلك تقول في السرقة والانتهاب يعني أن تجمع بين الأحاديث والآيات التي في موضوعها ولكنني وجدت ذلك عملاً علميًّا آخر . وإن كان من الدرس البياني بمكان ، لو فطن الباحث إلى الجهة التي يأتيه منها . قلت هذا لأن كل بيانه ﷺ بيان للكتاب وراجع إليه وأنه ﷺ حين يقول «لا يزني الزاني حين يَزْنِي وهو مؤمن»، يقول هذا وبين عَيْنَيْه كل الآيات المتعلقة بهذا الشأن ، وكلامه عليه السلام والحال كذلك يعنى أن بيانه بيان لكل المتفرقات القرآنية ، وكل الآيات القرآنية التي ذكر فيها هذا الموضوع ، وهذا يجعلنا أمام بيان له خُصُوصيَّة خاصَّة ، لأنــه ليس تفسيرًا حرفيًّا لآيـة ؛ وليس تفسيرًا بعيــدًا ولا تفسيرا ومباشرًا أو غير مباشر لآية ، وإنما هو صَفْوُ الصَّفْو وخلاصة الخلاصة ، لكثير من الآيات ؛ وغالبًا ما تكون هذه الآيات ليست إحداها نصًّا للذي نصَّ عليه البيانُ النبويُّ ، فليس في القرآن لا يسْرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، وإنما فيه ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلاً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ واستخراج مَعْنَى «وهو مؤمن» التي في الحديث من قطع النكال محتاج إلى مجهود ؛ وكيف كان بتر اليدِ التي امتدت إلى مال غيرها هو الجزاء مع أن المائة جلدة التي في آية النور أخفّ حِدَّةً ، لأن موضع السَّوْط سيبرأ ويَعُود الإنسان في الناس غير أبتر مع باقي هذا القطع من دلالة

دائمة على أن هذا سارق ، ساقط ، والمهم أن البحث عن مَرْجعيَّة «وهو مؤمن» بالنسبة لأصحاب هذه الخطايا بحث ليس سهلا ، مع أن هذا بحث ضروري ، لبيان وجوه بيانه عليه السلام لما في الكتاب العزيز .

قوله عليه السلام «فإياكم إياكم ؛ والتوبة معروضة بَعْدُ» .

راجع أولاً التشديد في الوعيد والتهديد لأصحاب هذه الموبقات . وتبيّن خَطَر نَزْع الإيمان من يقين وقلب من يُزاولها وكيف يكون هذا النزعُ من أشَدِّ ضروب النَّكال ، ثم ضَعْ بإزاء ذلك قوله عليه السلام «فإياكم إياكم» وكيف كانت هذه الفاء مرتبة هذا التحذير الشائع في كلام العرب على بيان شدَّة الوعيد لمقترف ومجترح هذه السيئات ، ثم راجع التكرار ، ثم انفذ من وراء هذا التَّدسُّس في العبارة إلى حرص رسول الله ﷺ على أمته وعليَّ وعليك ، وهو يواجهني ويواجهك ويقول إياك إياك ، وكيف بَقِيَ صَوْتُه هذا في أُمَّته يحذر ويشدِّد حتى لا نقع فيما يُغْضِبُ ربنا ، وليس وراء هذا إلا حبه عليه السلام ، وحرصه على أمته ، وأنه آخِذٌ بحُجَزها حتى لا تقع في النار ، ثم كيف يكون تحذيره من اقتراف هذه السيئات أمانا لمجتمعاتنا بمطاردة مُحْترفي الإجرام من هذه المجتمعات . وكيف كان أمْنُنَا وأمَانُنا على أموالنا وأعراضنا ، ودمائنا من أهم ما كان يشغله ﷺ ، وكيف كان كل الدين لهذا الأمن وهذا الأمان والحياة الأفضل .

ثم إنك لابد أن تضع بين عينيك «فإياكم إياكم والتوبة معروضة» وأعني لحظة انتقال الكلام من شدة الوعيد ، والتحذير في قوله فإياكم إياكم ، إلى لحظة فتح باب التوبة والأوْبة وأن الذين لم يَزْجُرهم الوعيد بنفي الإيمان ولم يزجرهم التحذير المتكرر وبقي كل منهم مُسْتَغْرقًا فيما استغرق فيه من هذه

الكبائر ، ثم فاق لحظة فلا يجوز له أن يتردَّدَ لأنه لن يبحث عن التوبة لأنها معروضة ، كما يعرض الشيء الشائع الذي لا مَشَقَّةَ في الحصول عليه ، وكرر كلمة والتوبة معروضة كما كرر كلمة فإياكم إياكم ، وأنه إذا لم ينفع فيكم تهديد ولا وعيد فلا تظنوا أن باب الرحمة أُغْلق في وجوهكم ولا أنكم مطرودون ، لأن العصبية وشدة الغضب على من خالف وطَرْده من الرحمة كل هذا من شأن العباد . أمَّا رَبُّ العباد فله شأن آخر ؛ أسَاسُه أنَّه أرْحَمُ بكم من هذه بولدها كما قال عليه السلام وهو يعني المرأة التي كانت في الأسر وكانت تدور كالمجنونة ، تبحث عن ولدها ، وكلمة «بَعْدُ» في قوله عليه السلام والتوبة معروضة بَعْدُ كلمة جليلة جدًّا لأنه عليه السلام لم يكتف بقوله مَعْرُوضةٌ بدل قوله مقبولة ، مثلا ، وإنما أضاف كلمة بَعْدُ يعني بعد أن تقترفوا ما تقترفون وبعد إغفالكم وعيدنا وتحذيرنا ، وبعد أن تفعلوا ما تشاؤون أن تفعلوه : التوبة بعد كل هذا معروضة لا تحتاجون إلى البحث عنها وإنما أنتم في حاجة فقط إلى أن تَتَّجِه قلوبكم إلى الله في لحظة أوْبة ورجوع إليه ، وبهذا ينتهي كل شيء إلا ما كان حقًّا للناس . وبقي أن أقول إن قوله عليه السلام حين يسرق أو حين يَنْهب إلى آخره يُسقط احتجاج الخوارج بالاستشهاد بهذا الحديث على تكفير مرتكب الكبيرة ، إذ لو كان تكفير مرتكب الكبيرة من مقاصد الحديث لقال عليه السلام لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن ولما قال حين كذا أعني لم يُقَيِّد الخبر بنفي الإيمان بزمن مزاولة الفعل .

قلت إن ظاهر الحديث ينفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة حين مزاولتها .

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن المنفي هو كمال الإيمان ، والمعنى ولا يسرق السارق حين يسرق وهو كامل الإيمان ، واحتجوا لهذا بأن

أصحاب اللغة ينفون الفعل وهم يريدون نفي كماله للدلالة على أن هذا الكمال هو الأفضل حتى كأن الفعل بدونه ليس فعلاً . كقولهم ما العلم إلا ما نفع ، وهم يعنون أنه لا علم إذا انتفى الانتفاع به ، وكأن الانتفاع بالعلم هو العلم ، فإذا نفي الانتفاع نفي معه العلم ، والحقيقة أنك قد تجد عالمًا غير منتفع بعلمه .

قال الإمام النووي هذا الحديث : مما اختلف العلماء في معناه فالقول الصحيح الذي قاله المحققون إن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله ومختاره . كما يقال لا علم إلا ما نفع ولا مال إلا الإبل ولا عيش إلا عيش الآخرة ، وإنما تأولناه على ما ذكرناه لحديث أبي ذر ، وغيره : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق ، وحديث عبادة بن الصامت الصحيح المشهور أنهم بايعوه ﷺ على أن لا يَسْرقوا ولا يزنوا ولا يعصوا إلى آخره .

ثم قال لهم ﷺ « فمن وَفَّى منكم فأجره على الله ، ومن فَعَل شيئًا من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عذّبه » انتهى كلام النووي ، وذكر النووي أيضًا أنه حُكي عن ابن عباس رضي الله عنه أن معناه ينزع منه نور الإيمان ، وقالوا ينزع منه بصيرته في طاعة الله تعالى .

وحديث « من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة وإن زنى وإن سرق » رواه البخاري ومسلم ورواه أحمد والترمذي كلهم بسنده عن أبي ذر وقد سمعه من رسول الله ﷺ وهو يصحبه . قال أبو ذر : « فمشيت معه ساعة فقال اجلس ها هنا فأجلسني في قاع حوله حجارة فقال اجلس هاهنا حتى

أرجع إليك ، قال فانطلق في الحَرَّة حتى لا أرَاهُ فَلَبِثَ عَنيّ فأطال اللبث حتى إني سمعته وهو مقبل وهو يقول وإن سرق وإن زنى ؟ قال فلما جاء لم أصْبر فقلت يا نبي الله ـ جعلني الله فداءك ـ مَنْ تُكلِّم في جانب الحَرّة ؟ ما سمعتُ أحدًا يرجع إليك شيئًا ؟ قال ذاك جبريل عرض لي في جانب الحَرَّة فقال بَشّر أُمَّتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة . فقلت يا جبريل وإن سرق وإن زنى ؟ قال نعم . قال فقلت وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم . قال : فقلت : وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم وإن شرب الخمر ». انتهى الحديث ، وراجع كلام أبي ذر وتلمسّ فيه سَمْتًا من سمت الكلام العالي وإني لأجد ذلك في قوله « فانطلق في الحَرّة حتى لا أراه » وأن كلمة انطلق ما كان يمكن أن يَسُدّ مَسدَّها فمشى لأنه أراد أنه لم يمش المشي الذي اعتاده وإنما همّه أمر فانطلق ، وكلمة « حتى لا أراه » جاءت بسرعة في إثر انطلاقه فزادت معنى الانطلاق ومعنى السُّرعة . وراجع قوله : « فلبث عني فأطال اللبث » وكرر مثل هذا واذكر أنها صنعة لسان أبي ذر وبقية منه كما أن الذي تحت لسانك من كلام النبوة بقية من كلام النبوة ، وهل ترجو أفضل من أن تضع تحت لسانك بقيةٌ مما كانت تحت لسان رسول الله ﷺ ومما كانت تحت لسان أبي ذر الذي عاش وحده ومات وحده ويُبْعَثُ يوم القيامة وحده .

لاحظ قوله صلوات الله وسلامه عليه « ذاك جبريل عرض لي في جانب الحرة » أولاً راجع اسم الإشارة الذي للبعيد وكان يكفي في جواب أبي ذر « جبريل » لأن سؤال أبي ذر من تُكَلّم من جانب الحَرَّة ، والجواب جبريل ، يعني أكلم جبريل ، ولكن رسول الله قال ذاك جبريل ، لأن اسم الإشارة يُميّز

المشارُ إليه أكمَلَ تمييز ، حتى يقع الإخبارُ عَنْهُ وهو مُنْصَبٌ عليه فلا يُتَوَهَّمُ غَيْرَهُ ، والخبر هنا يَحْتَاجُ إلى تهيئة لأنه أمر نادر ، ولم يكن لأحد غير رسول الله ﷺ . ومن أجل مزيد التوكيد قال عليه السلام عَرَضَ لي في جانب الحَرَّة ، وكان يكفي أن يقول جبريل أو ذاك جبريل لأنه من المعلوم أن رسول الله ﷺ انطلق في الحَرَّة ، ولكن كلام رسول الله ﷺ عَمَد إلى مزيد من البيان ، والكشف لأهمِّية الخبر الذي سيقوله وهو بشارة الأمة ، وقد تكرر قوله عليه السلام مَنْ مات لا يُشْرِك بالله شيئًا دخل الجنة ومن لقي الله وهو يشهد أنه لا إله إلا هو دخل الجنة ، وسوف نعرض من هذا أحاديث كثيرة ، ولكن هذا الحديث يختلف عن هذه الأحاديث بإضافة قوله وإن سَرَق وإنْ زَنَى .

ويلاحظ أن تكرير قول رسول الله ﷺ لجبريل وإن سرق وإن زنى لم يكن هذا التكرير ليتأكد هو من كلام جبريل عليه السلام لأن كلام جبريل لرسول الله ﷺ ليس موضع شك وإنما ليؤكد ذلك لنا ، وليقرر هذه البشارة في نفوسنا ، وليقول لنا إنها هدية من الله لكم لا تتوقعونها وقد راجعت جبريل عليه السلام في شأنها لتعلموا أنها من الدين لا رَيْبَ فيه .

ويلاحظ أيضًا أن هذا الحديث لا ينفي ظاهر حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، وسواء كان المراد نفي كمال الإيمان أو نفي الإيمان في حالة ملابسة الخطيئة لأن ظاهر الحديث لا يمنع عودة الإيمان إليه لأن النفي كان مقيدًا بزمن ، ثم إنه ما دام مات لا يشرك بالله شيئًا فقد مات وهو مؤمن ، ويستوي أن يكون عاد إليه إيمانه الذي ذهب عنه حين سرق أو أنه تاب ورجع عن الكبيرة .

وبقي من حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن أن بعض العلماء حمله على أنه يعني نفي الإيمان عن مرتكب هذه الكبائر وأنه نفي عام وليس مقصورًا على زمن المزاولة الذي دَلّ عليه القيد (حين يزني) وأن وجه ذلك أنه زنى وسرق ونهب وهو مُسْتحِلٌ لذلك كله ، ومنكر لوجود ونهي عنه في دين الله . والقاعدة أن من استحلَّ شيئًا حرَّمه الله فقد كفر بإجماع الأمة لأن المُسْتَحِلَّ منكر لأمر الله مثله مثل مَانِعِي الزكاة الذين حاربهم أبو بكر لأنهم أنكروا الزكاة ، ولهذا ردَّ العلماء حَمْل هذا الحديث على المُسْتَحِل لأنه لو كان كذلك فلا معنى لذكر هؤلاء الخمسة لعموم كفر من يَسْتَحِل أي حرام حرّمه الله والمُسْتحِل للكذب كافر ، والمستحل للغَيْبة والنميمة كافر ، إلى آخره .

وذكر الطبري أن معنى لا يزني حين يزني وهو مؤمن أن المراد نفي الوصف بالإيمان ، وليس نفي الاعتقاد وأنه لا يمدح بوصف الإيمان وإنما يُذَمُّ بوصف الزاني والسارق والفاسق .

وذهب الزهري إلى أن هذا الحديث وما يشبهه نؤمن به ونُمِرُّه كما أمرّه من سبقونا بالإيمان ، لأننا لا نعلم مَعْناهُ وما لا نعلم معناه نؤمن به ونُمِرُّه ولا نخوض في معناه .

وكلام الزهري وإن كان يتوقف البعض عن قبوله ويقولون إن ما أنزل الله وجاء به لسان نبيِّه ﷺ شَرْعٌ وتكْلِيفٌ ودِينٌ وترك الخوض في معناه يَعنِيَ نقصًا في الدين ، أقول إن هذا الوجه وإن كان يعترض عليه من يَعتَرَضُ هو من آثار قوة اليقين ، لأن الله سبحانه وتعالى أوْجَبَ علينا السمع والطاعة ، وأفهم من هذا أننا نطيع بعد السَّمَاع ولَيْسَ بعد الخوض والمراجعة ، وهذا هو حق الدين ، وحق العبودية لله . وإذا كان الخوض بَحْثًا عن وجه من

وجوه الدلالة التي تتحملُها اللغة فالخوض واجب لأنه من تدبر آيات الله والتفكير فيها وتَعَقُّلُها وكل ذلك مأمور به .

وقد عقب النووي بعدما أَوْرَدَ كل هذه الأقوال بقوله : « وهذه الأقوال التي ذكرتها في تأويله كلها مُحتَمَلةٌ والصحيح في معنى الحديث ما قدمناه أولاً ؛ يعني بذلك أن المراد نفي كمال الإيمان ، وقد روى أبو ذر حديثًا آخر فيه ما في حديث جبريل ولم يذكر فيه جبريل . قال أبو ذر أتيتُ النبي ﷺ وهو نائم عليه ثوب أبيض ثم أتَيْتُه فإذا هو نائم ثم أتَيْتَه وقد استَيْقَظَ فجلست إليه، فقال « ما من عبد قال لا إله إلا الله ، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة . قلت وإن زنى وإن سرق . قال وإن زنى وإن سرق قلت وإن زنى وإن سرق ، قال وإن زنى وإن سرق ثلاثًا ثم قال في الرابعة على رَغْمَ أَنْف أبي ذر قال فخرج أبو ذر وهو يقول وإن رغمَ أَنْفُ أبي ذر ».

وقد ترى أن قوله عليه السلام في هذا الحديث وفي نظرائه وهي كثيرة « مات على ذلك » من الذي يجب أن نقف عنده وليس المقصود أن نُضَيِّق سعة رحمة الله لأن هذا مما يستعاذ بالله منه ، وإنما نريد أن نُبيِّن ما يجب بيانُه حتى لا نغترَّ وأصل الذي أريده أن الموت على الوحدانية الخالصة مطلب عزيز المنال ليس لأن قلوبنا يَشُوبها شَكٌّ أو نِفَاقٌ لأننا جميعًا نستعيذ بالله من ذلك وإنما لأن المَعْصِية يَنْقُص بها الإيمان ، ولم يخالف أحد في أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، وأن المعصية تُنكت نكْتَةً سوداء في القلب وأن هذه النكتة السوداء تدفع إلى مزاولة المعصية مرة أخرى بنشاط أكثر من المرة الأولى وهكذا في المرة الثالثة والرابعة إلى آخره حتى يصل إلى أنه لا يجد حرجًا في مزاولة هذه المعصية ، وموت مثله على الوحدانية محفوف بالشك وإذا كان الهُدَى يزداد به صاحبُه المهدي هُدًى والذين اهتدوا

زادهم هدى فإنه يقال مثله في أهل الضلالة التي هي المَعْصِيَةُ وأن أصحابها يزدادون بها ضَلالاً والضلال له مسافات بعضها أبعد من بعض ومنها الضلال البعيد ، وأهل الله الذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة ليس لهم مطلب أغلى من أن يَلْقَوْا الله لا يشركون به شيئًا وهم التوَّابُون القانتون فكيف بمن تنكُتُ المعصية نكتة سوداء في قلبه وفوق النكتة نكتة وكونت النكت السوداء رَيْنًا فوق رَيْن ، وغينًا فوق غين ؟ أقول من حَاقَتْ به خطاياه وأولع بها فلا مأمن له أن يلقى الله والله وحده في قلبه . وإذا كانت المعصية ليست كفرًا فإنهم قالوا إنها تجر إلى الكفر وقالوا المعصية بريد الكفر .

وبعد فهذا مما أردت أن أُدَقّق به كلمة « من مات » والله أعلم .

* * *

• أربع من كن فيه

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا ، ومَنْ كانت فيه خَلَةٌ منهنّ كانت فيه خَلَةٌ من نفاق حتى يدعها : إذا حدَّث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر ».

وروى بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أُتمِنَ خان » وفي رواية « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » .

كل حديث من هذين الحديثين مؤسّس على جملة واحدة هي جملته الأولى فقوله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا » هي الجملة الأُمّ في هذا الحديث والجمل بعدها لم تُضِفْ معنى جديدا للحديث ، وإنما كلها بيان له،فجملة ومن كانت فيه خلةٌ منهن كانت فيه خَلّةٌ من نفاق حتى يدعها، مدلول على معناها في الجملة التي قبلها . لأن المفهوم من أن الخلال إذا اجتمعت أنتجت منافقًا خالصًا أنه إذا وُجِدَ بعضُها أنْتَجَتْ منافقًا ليس خالصًا ، وإنما فيه من النفاق ما يساوي هذه الخلّة التي فيه ، وإنما جيء بها مع دلالة ما قبلها على معناها للدلالة على قوة الرابطة بين هذه الخلال وبين النفاق . وأنها حَيْثُ وجد شيء منها فقد وجدت خلّة من النفاق ، فهي خلال النفاق وبمقدار ما في النفاق من المذمّة يكون ما في هذه الخلال من المذمَّة . فإذا كان النفاق مذمومًا مذمومًا فالكذب مذموم مذموم وكذلك الخُلْف والغدر إلى آخره ، وصورة هذه الخلال بين خلال البشر كصورة المنافق بين البشر ، فإذا كان المنافق خسيسًا نذلاً تافهًا حقيرًا بين الناس ، فهذه الخلال

خسيسة تافهة حقيرة بين خلال الناس ، وهكذا تتابع التداخل والاندماج والتماهي بين خسائس الخلال وخسائس الناس ، وعكس ذلك نجد كرام الخلال من الصدق والوفاء والأمان تتماهى مع كرام الناس تقول الكريم لا يكذب والكريم لا يغدر والكريم لا يخون .

الحديث تطهير النفوس من الخسائس والخبائث ، ومراجعة في داخل النفس وتصفية الفرد وتقويمه واعتداله حتى يكون إنسانًا سويًا وهذا بخلاف حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، لأنه كَبْحٌ وكَفْحٌ وتلجيمٌ للإنسان غير السوي حتى لا يصيب الآخرين في أعراضهم ، وأموالهم ، وليس هناك أبَرُّ بالناس من هذه المكافحة التي أجراها الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه ﷺ ليعيش الإنسان في مأمن مع نفسه ، بعيدا عن خلال الخسائس ، ومع مجتمعه آمنًا على نفسه وعرضه وماله ، وتذكر أننا لا زلنا مع الجملة الأولى في الحديث وأنها مُتَضَمِنَةٌ الجملة الثانية التي عطفت عليها : ومن كانت فيه خَلة منهن كانت فيه خَلة من نفاق حتى يدعها ، ولو وَقَفْتَ عند آخرها وهو قوله عليه السلام حتى يدعها فلن تقف على شيء إلا على استشراف وتشوق لأن هذا القسم من الحديث لم يُعْطِك شيئًا وإنما بعث نفسك واستثارها واستنهضها لِتَعْرِفَ ما هذه الأربع اللاتي هذا شأنهن ، وأنهن يُحَوِّلْنَ الإنسان إلى قاع الخساسة ويَهْوِينَ به إلى الدرك الأسفل في دركات الوجود الإنساني . ثم يأتي القسم الثاني من الحديث للبيان بعد الإجمال ويَبْدأ بأظهر هذه الخساسات وهو الكذب في الحديث ، ويعطف على هذه الأم ما بعدها ، وهذا هو البناء اللغوي لهذا الحديث الشريف : قسم يَشَوِّقُ وقسم يُبَيِّن وهذا هو طريق التمكين للحقائق والمعاني في النفس الإنسانية ،

لا تُخبرها بشيء جليل بَغْتَةً غُفْلاً كما قال العلماء ولكن بعد التهيئة والتوطئة، وهـذا المنزع فـي بيانه ﷺ لا ترى له ما يقاربه في بيان أحد من الناس. لأنه من بلاغ النبوة، ولما قال له ربنا ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ هداه ربنا إلى أعلى وأرفع وأنبل صور البيان في هذا البلاغ، وهذا الجانب في البلاغة النبوية لم يدرس دراسة مُشْبِعُه. وكثيرًا ما يكون هذا المنزع النبوي الشريف معتمدًا على العدد كما هنا وسواء كان المعدود خسيسًا خبيثًا يراد صرف النفس عنه وتبرئتها منه وتبشيعُه عندها كما هنا أو كان المعدود محمودًا يراد إغراء النفس الإنسانية به وأخذها به وتحلّيها به لأنه مما يُحْمَدُ ويُرْتَضَى كما في قوله عليه السلام ثلاث من كن فيه ذاق حلاوة الإيمان. وسبعة يظلهم الله تحت ظله إلى آخره، ولا تهمل ولا تُغفل جانب الهداية والرحمة وأنت تقرأ ما تقرأ في كلام الله وكلام رسوله ﷺ وكيف يَتَعَهَّدُ الإنسان؟ وكيف ينزعه من مزالق الخساسة وكيف يرتقي به إلى مدارج القيم النبيلة ؟ وأن هذه رسالة الدين ورسالة الخالق إلى خلقه وأنها هي الصالحات وأنها هي البُعْد عن السيئات؟ ثم تذكر كيف يعارض من يعارض هذا التوجيه إلى الحياة الأفضل والأكرم ؟

وقوله عليه السلام: «مـن كُـنّ فيـه»، تفيـد هـذه الظرفيـة معنـى أن هـذه الخلال سَكَنَتْ فيه واستقرت كما يستقر الظرف في المظروف حتـى صـارت من شأنه .. ولم تكن منه خلالا عابرة يقع فيها المـرة ثـم يرجـع عنهـا كمـا يكبو الجواد، ثم يَنْهضُ وكما ينبـو الحسـام ثـم يقطـع، ومـن كـان كـذلك تَنْحَرِفُ قدمُه مرة ثم يعود لا يكون منافقًا، لأن الصـدوق قـد يكـذبْ وقـد يغدر الوفيّ لأن الضعف يَعْتَري النفس الإنسانية وقد يقع الصالح في الذنب ثم

يذكر الله ويستغفر وحينئذ يجد الله غفورًا رحيمًا ، كلمة « كنَّ فيه » تُخرِج من هذه الصفة كل من ليست هذه الخلال من شأنه وإن سقط فيها مرة أو مرتين أو ثلاثًا .

وقوله عليه السلام « كان منافقًا خالصًا » راجع معنى « منافقًا خالصًا » واستحضر صورة هذا الخسيس الخالص للخساسة وكأنه ليس فيه قطرة واحدة من خلق النبالة ، والرجولة ، والاستقامة وإنما هو منافق خالص . لحمه وشحمه وعظمه كل ذلك منافق ، ومع عُمْق هذه الدلالة فليس هذا نفاق عقيدة وليس كافرًا وليس مُخَلَّدًا في النار ، وإنما هو من أهل الإيمان لأن هذه الخلال التي سكنت فيه وإن جعلته في أسفل دركات الخساسة فإنها لم تخرجه من صفوف الموحدين . وراجع حديث أبي ذر وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر رغم أنف أبي ذر والكبائر التي في حديث أبي ذر منها ما هو أكبر من الكبائر التي معنا فلا شك أن الزنى أبشع من الفجور في الخصومة وأبشع من خلف الوعد ، وإنما النفاق هنا نفاق في السلوك والتعامل والتشابك مع المجتمع الذي يعيش فيه وسُميّ منافقًا تبشيعًا لهذا الانحراف الأخلاقي والانحراف الشاذ المسيئ إلى الجماعة التي يعيش فيها ، وهذا من باب التطهير الكاسح لحياة الجماعة من الرذائل التي تَقُضُّ مضاجعهم .

سيدنا رسول الله ﷺ يضع علامات على رؤوس أهل الخساسة ويحذرنا من التعامل معهم ، يُحذِّرُنا من الكذابين ويقول لنا لا تسمعوا منهم ، وإذا سمعتم فلا تؤسسوا شيئًا على ما سمعتموه منهم ، وكأنكم لم تسمعوا ، وكأنهم لم يقولوا لأن كلام الكذّاب هدرٌ ولما سكن الكذب في الكذاب صار

الكذاب نفسه في الناس هدرا ، وهكذا الغادر والخائن ، ويلاحظ أن هذه الخلال المنتجة لهذه الشخصية التي يجب أن تَنْبُذَها المجتمعات ذات العافية مُحرَّمَةٌ في الديانات كلها بل وفي القيم الإنسانية الوثنيَّة ، وقصيدة زهير الجاهلية إنما قالها لما أثاره غَدْرُ غادرٍ بعد الصلح والمعاهدة ، هذا الغادر هو الذي طوى كشحه على مستكنَّة كما قال زهير يعنى على غَدْر ولذلك بدأها زهير بذكر الوفاء وقال (أمن أم أوفى دِمَنْة لمَ تكَلّم) والدّمْنة من معانيها الحقد الدفين ، ولم تكلم لأن حَامِلَها طَوَى عليها كشحهُ . وجعلها مستكنة ، كما قال عليه السلام (كُنَّ فيه) ؛ وقوله عليه السلام « ومن كانت فيه خَلةٌ منهن كانت فيه خلَّةٌ من نفاق حتى يَدعها » قُلْتُ إن هذه الجملة مفهوم معناها من الجملة السابقة وإنما ذُكِرَتْ لتشير إلى أن هذه الخلال والنفاق حقيقة واحدة ، إذا نظرت إليها رأيت من خلالها منافقًا وإذا نظرت إلى المنافق رأيتها من خلاله ، فهي والنفاق شيء واحد ولاحظ أن تسمية صاحب هذه الخلال منافقًا مع أنه مؤمن فيه إشارة إلى تبشيع هذه الخلال وأنها تتراءى في خلفية خلال المنافق الحقيقي الذي يُخلّد في الدرك الأسفل من النار . وخلاله أنه يُبْطِنُ الكفرَ ويُظهِرُ الإيمان ، وأنه يكذب حين يعلنُ الإيمان ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى أن قال سبحانه ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ وهذا المنافق الذي معنا يبطن الكذب ويظهر الصدق ، ويبطن الغدر ويظهر الوفاء ، ويُبْطن الخيانة ويظهر الأمانة إلى آخره ، وهذه الخلال المذكورة في الحديث هي أمراض قلبه فإن بقيت منها خَلّة بقي فيه من النفاق بقدرها ، وحسبه بشاعة أن يسمِّيه رسول الله ﷺ بتسمية أبغض الخلق إلى الله .

قوله عليه السلام «إذا حدّث كذب» هذه أول جملة تقع في القلب بعدما جمعت لها النفس بَالها بما فَعَلَهُ الجزء الأول ، وكلمة «إذا» أداة شرط للمستقبل . والماضي الذي يليها المراد به المضارع ، والمعنى إذا يحدث يكذب ، ولكنه عبَّر عنه بالماضي للإشارة إلى أنَّه لا محَالة يحدث ، ولا محالة يكذب ، فكأن شهوة الكذب الساكنة في قلب لأبُدَّ لها أن تعبِّر عن ذاتها بأحاديث الكذب ثم إن كلمة «إذا» تأتي في كلامهم للإشارة إلى أن ما دخلت عليه متوقع كقوله تعالى ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ وهذا مع الذي سبق يؤكد قوة الشهوة إلى الكذب وهذا ظاهر ، ويلاحظ أن فعل الشرط (حدَّث) والذي هو متوقع الوقوع جاء فِعْلاً وفاعلاً من غير مفعول والمعنى إذا كان منه الحديث مع صرف النظر عن الموضوع الذي فيه الحديث . إذا حدّث في السياسة أو في العلم أو فيما شئت كل هذا مسكوت عنه لأن الكلام مُتَوَفّرٌ على بيان وقوع الحديث منه وكذلك مسكوت عن الذي يحدثه لأن المتحدث لا محالة يتحدث إلى من يحدثهم ولا محالة يتحدث في موضوع ومثل ذلك يقال في «كَذَب» من غير إشارة إلى نوع الخبر الذي يكذب فيه ، ومن غير إشارة إلى من يكذب عليهم ، وقل مثل ذلك في الجمل الثلاثة التي بعدها . وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف .. وإذا خاصم فجر ، وقد حُذِيَت الجملُ الأربعة حذواً واحداً وهذا الحذو الواحد يقارب ويلائم أصواتها ، كما أنها تساوت في عدد كلماتها وفي كثير من أوزانها ، راجع عاهد غدر - خاصم فجر وهذا وغيره تراه في بناء لغته ﷺ يكسبها عذوبة وسهولة ويُسَهِّل حفظها وهذا هو الأهم حين تُرَى هذه الصورة اللغوية المتألّفة في القلب مصوِّرة لصورة هذا المنافق .

وبقي الأهم الذي سيق له الحديث وهو المعاني التي هيأ الحديث بيانه لحفظها وهي صِدْقُ الحديث وكذبه، وأثرهما في حياة الناس، والوفاء بالعهود والغدر فيها، وأثرهما في حياة الناس، والصدق في الوعد والخلف فيه، وأثرهما في حياة الناس، والفجور في الخصومة والنُبْلُ فيها، وأثرهما في حياة الناس. لأن الشرع كله إنما جاء لتوفير الحياة الأكرم، والأبرّ والأهدأ.

أما الكذب فهو يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار، وهداية الفاجر إلى النار نتركها له وإنما المهم في حياتنا أن الفجور الذي يهدي إليه الكذب هو فجور في واقع حياة الجماعة، والحياة مع الفجور والفَجَرة هي جحيم في الدنيا، والمجتمع الذي يكثر فيه الكذب والكَذَبة لا يصلح له حال وخصوصًا إذا امتدّ الكذب حتى دخل أجهزة الإعلام وأُذن لأصحاب المال الحرام المنهوب من الشعب في ظل أنظمة فاسدة من امتلاك وسائل إعلامية متنوعة وأغدقوا أموالهم على من لا يتورَّعُون عن الكذب من النساء والرجال ودخل الكذب أيضًا المنابر الثقافية والمؤسسات الثقافية، وصار في الشعب إعلاميون كذبة ومثقفون كذبة وسياسيون كذبة، ووزراء كذبة وذرٌ قرن الكذب في السُّدَّة العليا أو ممن يخادع ليصل إليها ولك أن تتصوّر الكوارث المترتبة على ذلك. وهل ترى شيئًا يدمّر الشعوب أكثر من ذلك؟ وهل ترى عدو البلاد المتربص بها على حدودها يعينُه على البلاد بلاء أكثر من ذلك، سيدنا رسول الله ﷺ المبلِّغ عن ربه العليم الخبير بهذا الحديث ومثله يُحصّنُ الأمة من أمثال هذه المهلكات التي دمّرت وتدمّر الجماعات، ويقول لنا عليه السلام الويل كل الويل من الذي إذا حدَّث كذب، الويل له والويل منه، ويقول لنا الفساد كل الفساد في الكذب والصلاح والإصلاح في الصدق

اصدقوا أنفسكم واصدقوا شعوبكم واصدقوا المسؤولين لتنقذوا أنفسكم وبلادكم وملايينكم من المعاطب المهلكة ، وعجيب أن تنزل آية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ في سورة الأحزاب التي بلغت كروبها وويلاتها ما بلغت والتي أحاط كل أعداء الإسلام في جزيرة العرب بالجماعة المسلمة الصغيرة وبلغت فيها القلوب الحناجر ، وجاؤوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، وحدث فيها الأمر الخارق وأرسل الله ريحًا وجنودًا لم تروها أقول تأتي آية الصدق وإصلاح الأحوال في آخر السورة للإشارة إلى أن ما يمر بالبلاد من ويلات لا سبيل إلى الخروج منها إلا بالكلمة الصادقة التي لاتنصر فريقًا ولا تُجامِلُ مغامرًا وإنما تنصر الحق وليس إلا الحق والله هو الحق وإن تنصروا الحق ينصركم الله ، ويجب أن يكون هذا عقد ميثاق في الشعب ومن يحكمون الشعب والإعلاميين والمثقفين والسياسيين والعلماء والذين إذا فسدوا فسد بفسادهم الناس وإذا صلحوا صلح بصلاحهم الناس لأنهم في الجماعة هم المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ولو كان يطاع لقصير أمر لقلْتُ هيا بنا نتفق على أن نَرجُمُ الكذابين والمنافقين بالحجارة وأن نورّث أبناءنا هذا لأن الصدق خير ما يورث .

قوله عليه السلام : «وإذا عاهد غدر» هذا موصول بقوله «إذا حدّث كذب» ليس من جهة التصاقب والتقارب في البناء اللغوي فحسب وإنما أيضًا من جهة المعنى لأن غدر العهد ضربٌ من الكذب لأنه أبطن الغدر وأظهر العهد كما أن الكذاب أبْطن الكذبَ وأظْهَر الصّدق ، والعهد هنا صالح لأن يكون عهد شخص ، أو عهد جماعة ، أو عهد دولة ، وصالح لأن يكون عهد مؤمن ، أو عهد كافر ، وصالح لأن يكون عهد صديق ، أو عهد عدو ،

وهذه بلاغة النبوة ، وهذا من جوامع الكلم ، وكل هذه العهود أوجب الله رعايتها وجعل لها حرمة ، وسُمّي العهدُ أي عهد لمؤمن أو لكافر عهد الله . فإذا عاهدت كافرًا فقد التزمت بعهد الله ، وصار لهذا الكافر في عنقي حرمة عهد الله ، ويد الله فوق يَدَيَّ وإنما أنا أعاهده ، أرأيت إلى أي مدى تَبْلُغ هذه الكلمةُ من الرُّقيّ والتحضُّر ، لا أقول إنها بلغت مبلغ الترقي الذي وصل إليه الناس في زماننا ، وإنما أقول إنها تجاوزته حتى تصل إلى نهاية الزمن لأن الناس في زمن الحضارة الذي نحن فيه لا يزالون يغدرون ، ويراوغون ، ويتعللون ، ومصدر هذه الجملة في الكتاب العزيز مثل قوله تعالى ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ وراجع ﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ وكذلك راجع أن العهد يمين ، ولو قلت عهد الله كأنك قلت يمين الله ، ومن مَصَادرها قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ وقد جاء هذا مقترنًا بوجوب الصلاة ، فأشعر أن آداء ذلك يذكر مع آداء الصلاة ، وجاء أيضًا مقترنًا ضياعه بضياع المحافظة على الأعراض ، وفي سورة الرعد بيان أن الوفاء بالعهد من خلال الذين يعلمون أنما أُنزل إليك من ربك الحق ، وأول ما ذكر عنهم أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، ثم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ثم يخشون ربهم ، ثم يصبرون ابتغاء وجه ربهم ، ثم يقيمون الصلاة ، ثم يؤتون الزكاة ، ومجيء الوفاء بالعهد في رأس هذه الفضائل التي يذكر بها المؤمنون دليل على أن الوفاء بعهد الله عند الله بمكان ومن المثير للنظر أنه جاء نقض الميثاق أول خلال الذين كفروا بعد تعداد خلال الذي هو أعمى كما في أول الآيات الجليلة ، ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ﴾ ، جاء في أول من يَعْلم قوله تعالى

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾ وجاء في أول من هو أعمى ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ ﴾ ، وسبق ذلك قوله تعالى ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني أن نقض عهد الله أسْبَقُ في سياق المذمَّة من الفساد في الأرض إلى آخر ما تجد في الكتاب العزيز مما يحتاج إلى دراسة متأنِّية ، والسؤال الآن لماذا كان الوفاء بالعهد أو نقض العهد أو إذا عاهد غدر بهذه المثابة ؟ والذي أفهمه أن هذا الدين الذي هدانا الله إليه تَصْنَعُ قيمُه وآدابُه وأوامرُه ونواهيه إنسانًا نبيلاً قويمًا كريمًا ، يحترم عهده إلى أقصى حدود الاحترام . ويحترم وعده إلى أقصى حدود الاحترام ، حتى إنه إذا جاءه أخوه يستنصره على عدو بَيْنَه وبينه ميثاق فلا يجوز أن ينصره ، ولو استَنْصَرتْ جماعةٌ مسلمة جماعة مسلمةً على عدو كافر فعليها النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق وهذا أرقى القِيمَ وهذه أرقى المواثيق ولا يقوم بها فرد أو جماعة أو دولة إلا إذا كانت بلغت مبلغًا من الرُّقى الحضاري والرُّقيّ السياسي لم تصل إليه أمة بعد ، ثم إن الدين يَحْرص على استقرار الأمان ، والطمأنينة ، في المجتمعات ، والأفراد ، وأن الذي عاهدته عهد الله لا يُصيبه منك أذى ، وقد أمَّنَك وأمَّنْتَه فإذا غدرت كانت غدرتك بشعة ، لأنك تغدر بمن أمَّنك ولم يتحوط من جهتك ، وهذه خساسة ، وخيانة ، وغدر ، وإذا أردت نقض العهد فيوجب عليك هذا الدين العظيم أن تعلن الطرف الثاني بأنك نقضت العهد ، حتى يستعد للقائك لأن هذه هي البطولة ، وهذا هو النُّبْل في الحروب ، وعليك أن تراجع أنت موقف الدين من غدر العهد لتدرك كيف يَغْرسُ كلام رسول الله ﷺ غَرْسَ المروءة والنُّبل ، والشهامة في حياة الناس وهذا حسبي .

قوله عليه الصلاة والسلام : « وإذا وعد أخلف » أذكر بالتصاقب الذي بين هذه الجمل ، وأنه يعني تصاقبًا في المعاني ، وهذا يعني أن خلف الوعد

الذي يمكن أن نتساهل فيه مذكور في قرن الغدر بالعهد ، وأن بينهما نسبًا أكيدًا ، لأن العهد كلمة يجب الوفاء بها ، ونقض الوفاء يعني الغدر ، وكذلك الوعد كلمة يجب الوفاء بها ، وأن خلفه مقترن في هذا البيان الشريف بالغدر بالعهد ، وكما أن هذه الخلال السيئة الخبيثة مغروسة وكائنة في نفس المنافق الخبيث الخسيس يجب أن يكون ضدها مغروسًا في نفس الإنسان الأكرم والأفضل يجب أن يكون الصدق مغروسًا في نفسه ويجب أن يكون الوفاء بالعهد مغروسًا في نفسه ، ويجب أن يكون الوفاء بالوعد مغروسًا في نفسه يجب أن تتطهر نفسه من الخسائس والخبائث ، وأنه إذا سَمِعْتَ منه وعدًا فأنت متأكد وضامن أنه لا يخلف موعدًا ، وبهذا تسير حياة الناس في سَيْرٍ حميد لأنك ترتب أمورًا على هذا الوعد ، وكذلك ترتب الجماعة أمورًا على هذا الوعد ، ولا بد أن نذكر أن الوفاء بها الذي يُوجبه الإنسان النظيف على نفسه ، ليس مشروطًا بشخص ولا بنوع مَنْ تَعِدُه كان صديقًا أو غير صديق ، كان من أهل الإسلام ، أو كان من غيرهم ، كان أميرًا أو كان خفيرًا ، الكل سواء والإنسان هو الإنسان ، وحقوقه عليك واحدة ، صِدْقُ الحديث والوفاء بالعهد ، والوفاء بالوعد ، وعليك أن تراجع هذه القيم التي يصنع بها الإسلام الرجال الصادقين ، الأوفياء ، الكرام ، والذين يقولون إن الدين صلاة وصيام فحسب يفسدون معنى الدين ، وكل هذا الحديث بيان لأن الدين المعاملة ، وأنك حين تُعامِلُ مَنْ تخلَّق بهذه الأخلاق فأنت تتعامل مع إنسان لا تطمح نفسُك إلى أكرم منه .

ويلاحظ أن كلمته ﷺ مطلقة تَشْمَلُ وعده بما هو واجب عليه كالوعد بسداد دين مثلاً ، ووعده بما هو نافلة كوعده بصَدَقةٍ مثلاً ووعده بما هو مُباح كوعده بأن يقابل فلانًا في مكان كذا وفي وقت كذا خلفه في كل هذا

داخل في جملة ، وإذا وعد أخلف ، لأن الخلف في كل هذا تترتب عليه مضرّة ، والشأن في الإنسان السويّ المتأدب بأدب الإسلام أن لا يكون كذلك ، مع صرف النظر عن الذي وعده برًا كان أو فاجرًا .

قوله عليه السلام « وإذا خاصم فجر » هذه الجملة لا تُؤَثِّم الخصومة لأنها مُتوَقَّعَةٌ بين الناس جميعًا الصالح وغير الصالح ، فقد نختصم على مال أو عقار ، وقد يختصم قويُّنا مع ضعيفنا وقد يختصم أميرنا مع عاملنا ولا شيء في ذلك وإنما المُؤثِّم هو الفجور في الخصومة ، وله صور لا تُحْصَى . منها أنك تُهدِّدُ خَصْمَك وتتوعَّدُه أو تلفق له تهمة ، أو تأتي بشاهد زور ، أو تدبّر له مكيدة ، كل هذا من الفجور وكل ما يتجاوز ما يوجبه بيان الحق في الخصومة من البيِّنة على المُدْعي واليمين على من أنكر فهو من الفجور ، وسَدُّ باب الفجور في الخصومة هو سَدُّ باب من أبواب الشرِّ ، والباطل والظلم في حياة الناس ، وَدَرْءٌ لمفاسد كثيرة وصيانة للحقوق ، وأسوأ صوره هو الخصومة التي بين قويّ متمكن وضعيف ليس له حيلة ، ولهذا كان أبو بكر رضي الله عنه يقول القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ، وهذا من دَحْر الفجور في الخصومة ، لأن الحاكم العادل والقاضي العادل والشاهد العادل كل ذلك من الضمانات التي يأخذ بها كل ذي حق حقه ، ولا يكون الفجورُ في الخصومة إلا إذا غاب الحاكم العادل والقاضي العادل والشاهد العادل وقوي بَطْشُ الظالمين وقويت شهوتهم وقوى سلطانهم .

وأسوأ من هذا الأسوأ أن تكون الخصومة بينك وبين الدولة وكانت الخصومة سياسية ، والأصل في هذه الحالة لو كان رجالات الدولة من الصِّنْف النبيل الراقي الذي يجب أن تكون هذه الخصومة حوارًا يَتَفَاهم

ويتفاعَلُ ويأخذ بعضه من بعض ، وأن يَنْتَقي منه الصواب لمصلحة الأوطان ، وهذا إذا كان الكل يَسْعَى لهذه المصلحة ، أما حين ترى البطش والقَمْع والتنكيل لكل معارض فاعلم أن الوطنية التي يتكلم عنها الكل غائبة ، وأن هذا المسؤول الذي يتقوَّى بسلطة البلاد من شرطة وجيش كاذبٌ وغادرٌ وفاجرٌ وخصوصًا حين يُلَفِّق التهم للأبرياء ويدمر الأسر باعتقال الراعي لها ، ويملأ المعتقلات بأكرم رجال الوطن ، وقد رأينا ذلك وعشناه منذ أكثر من خمسين سنة لما انتصرت علينا العصابات الصهيونية واحْتَلت الجزء الشرقي من الوطن وأكرم رجالنا في المعتقلات لأنهم قالوا ـ لا ـ ولم تكن ـ لا ـ هذه لتحقق لهم مصلحة ، وإنما لتحقق للوطن مصلحة ، ولو كانوا يَبْحثُون عن مصالحهم لنافقوا الطاغية ، وعاشوا تحت مظلّة الطغيان إلى آخره ، والمهم أن قوله عليه السلام وإذا خاصم فجر لا يظهر لك سرُّ معناه إلا إذا أَدَرْتَهُ على ما حولك من كل ضروب الخصومة ، وكل ضروب الفجور ، والمخاصم الكريم النبيل الذي يعطي من نفسه هو نموذج المؤمن المبرأ من داء النفاق ، ولم يَنْقَطِعْ في هذه الأمة ، وإن كان أندر من الكبريت الأحمر . كلمات سيدنا رسول الله كلمات مفتوحة جدًّا فإذا فسرناها بالخصومة بين زيد وعمر نكون قد أطفأنا نورها لأن كلامه عليه السلام نور تهتدي به أمته في الأزمنة كلها والأمكنة كلها ، وخصوصًا إذا طوّحت بها الأحداث في أدغال ألبسَتْها المُظْلِمَاتُ الحنادس كهذه الكوارث التي نحن فيها الآن والكلاب لا تشبع من لحوم الكرام ولا من دمائهم ، ونسأل الله أن يلطف .

وبقي أن أضع بين يديك بعضًا من كلام من يؤخذ عنهم العلم في هذا الحديث : قال النوَوِي رحمه الله : « هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء

مشكلا من حيث إن هذه الخصال توجد في المسلم المصدِّق الذي ليس فيه شك . وقد أجمع العلماءُ على أن من كان مصدِّقًا بقلبه ولسانه ، وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ، ولا هو منافق ، يُخلَّدُ في النار . فإن إخوة يوسف عليه السلام جمعوا هذه الخصال : وكذلك وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كُلّه» وهذا الذي ذكره النووي تصوير للإشكال ، أما حَلُّ الإشكال فقد ذكروه ورواه النووي عنهم ورضيه وخلاصته صرف كلمة منافق عن معناها الشرعي وهو الذي يبطن الكفر ويظهر الإيمان إلى المنافق بالمعنى اللغوي وهو الذي يبطن الشيءَ ويُظهر غيره فالكاذب يبطن الكذب ويظهر الصدق ، والغادر في عهده يظهر الوفاء ويضمر الغدر ، والمخلف لوعده يظهر الإنجاز ويُضْمِرُ الخلف وكل هذه الرذائل من خصال النفاق لأنها مؤسَّسَةٌ على معنى النفاق ، وهو إضمار شيء وإظهار خلافه ، وأن النبي ﷺ لم يرد أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في النار ، ومعنى قوله عليه السلام « كان منافقًا خالصًا » أي تسديد الشَّبهِ بالمنافقين ، وأنه منافق خالص ولكنه في العمل والسلوك وليس في الاعتقاد ، وذكروا أيضًا أن هذا الحديث فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه ، أما من يَنْدُرُ ذلك منه فليس داخلا فيه ، قال النووي بعدما شرح الذي أوْجَزْنا بيانَهُ « فهذا هو المختار في معنى الحديث وقد نَقَلَ الإمامُ أبو عيسى الترمذي رضي الله عنه معناه عن العلماء فقال : وهذا عند أهل العلم نفاق العمل» .

ومما ينطبق عليه كلام العلماء هذا ؛ حديث أبي هريرة الذي رَوَاهُ مسلم وكتبته مع حديث ابن عمر . روى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال آية المنافق ثلاث : « إذا حدّث كَذَب وإذا وعد أخلف ، وإذا أُتمِنَ خان . وفي رواية وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم» .

الفروق التي أُرِيدُ أن أنَبِّهِ إليها هي أن حديث عبد الله بن عمر قال «أربع من كنّ فيه» وهذا قال آية المنافق ، والفرق بين الكلامين هو أن حديث ابن عمر يتكلم عن الخلال المغروسة في طبع المنافق وأنها خلال سوء تسكن في قلبه وعقله ، وهذا الحديث لا يتكلم عن شيء يسكن في باطنه ، وإنما يتكلم عن أفعال وسلوك تَدُل عليه ، لأن الآية علامة ، ظاهرة ، ليست باطنة ، وإذا كانت الخلال هناك هي العلامات أو الآيات هنا ، فإن الحديث عنها هناك من حيث هو سواكن وكوامن في النفس يَنْتجُ عنها كذب الحديث وغَدْرُ العَهْد وخُلْف الوعد إلى آخره ، يعني هي في حديث عبد الله غرائز تُنْتِجُ كذب الحديث وخلف الوعد ، وفي حديث أبي هريرة هي ممارسات وأفعال وأقوال ظاهرة ، تدل على هذه الغرائز ، وبمعنى آخر حديث عبد الله يبدأ من الباطن إلى الظاهر ، وحديث أبي هريرة يبدأ من الظاهر إلى الباطن . والروايتان بهذا تتعاوران هذا الشأن من سرّه إلى علانيته ومن علانيته إلى سره ، وهذا ما أراه فرقا بين « كُنَّ فيه » - « آية » والأمْرُ الآخر بين الروايتين هو أن حديث أبي هريرة لم يذكر « إذا عاهد غدر » ولا « إذا خاصمَ فَجر » وذكر شيئًا لم يذكره حديث عبد الله ، وهو « إذا أُتمِنَ خان » وهذا معناه أن الحديث لم يقصد إلى حصر صفات المنافق وإنما ذكر الذي ذكر على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ، بدليل هذا التفاوت . هناك ذكر أربعًا من كن فيه وهذه العبارة لا تدل على حصر صفاته في هذه الأربع وإنما تدل على أن هذه الأربع من كنّ فيه كان منافقًا خالصًا وقد يكون فيه غيرها من صفات المنافقين وهكذا يقال في آية المنافق ، ثم إن خَلَّة أو آية (إذا أتمن خان) يمكن أن يدخل فيها (إذا عاهد غدر) لأن العهد أمانة والمعاهد مؤتمنٌ عليها ، والغدر خيانة وتبقى جملة وإذا أُتمِنَ خان أوسع من جملة وإذا عاهد

غَدر ، وشيءْ آخر هو أن جملة وإذا أُتمِنَ خان الشرط فيها الذي هو إذا أُتمِنَ ليس قيدًا للجواب وأنه لا يخون إلا إذا أُتمِنَ ، لأن هذا يجافي الواقع لأن من يخون إذا أُتمِنَ هو لا محالة يخون إذا لم يؤتمن ، لأن الأتمان يدعو إلى المحافظة على الأمانة ، وليس خيانتها ، والخائن إذا كانت فيه بقية من الخلق الإنساني يكف عن خيانة ما أتمن عليه . وهذا يعني أن هذه الجملة أكثر دلالة على تأصُّل الخيانة فيه ، وأنه يخون إذا أتمن فكيف إذا لم يؤتمن ، وهذا يشبه قولك فلان إذا أعطيته منعك ، وأنت تعني أنه يمنع أبدًا وإنما أكدت ذلك لأن الشرط الذي هو العطاء يُغرْي بنفي الجواب وليس يترتبه عليه » .

وقوله عليه السلام في الرواية الأخرى : « وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » فيه دلالة واضحة على أن الأصل في الذي يصوم ويصلي ويوصف بأنه مسلم أن يكون طاهر النفس من هذه الخبائث وأن الصوم والصلاة والإسلام كل واحد منها يَنْهي عن منكرات النفوس وخسائسها ، وأنه لا صوم لمن لم ينهه صومه عن الخسائس ولا صلاة لمن لم تنهه صلاته عن الكذب وخُلْف الوعد وخيانة الأمانة ولا إسلام لمن لم ينهه إسلامه عن هذه الصفات النفسية الوَضيعة ، وأن الصيام رُقِيٌّ بالخلال النفسية للصائم وأن الصلاة تزكية وتنقية للأخلاق من السفالات ، والندالة ، وهكذا . وهذا جيد جدًا ، وأذكر دائمًا بأن ما حضَّنَا الله عليه هو مكارم ، وكرامات ، وطهارة للنفس الإنسانية حتى تستشرف دائمًا إلى الأعلى ، والأرقى في سلوكها وحديثها وعهودها وأماناتها ، والخلاصة أن الإسلام يصنع الإنسان الأنظف والأنبل والأكرم ، وهذا حسبي .

• ثلاثة لا يكلمهم الله

روى مسلم بسنده عن أبي ذر أنه قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يُنظر إليهم ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . قال فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات . قال أبو ذَرٍّ خابوا وخسروا . من هم يا رسول الله ؟ قال المُسْبِلُ والمنَّانُ . والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » .

طريقة بناء هذا الحديث هي طريقة بناء حديث أربع من كنّ فيه مع اختلاف المعنى ، ولهذه الطريقة نظائر كثيرة في كلامه ﷺ ، ولو جمعنا الأحاديث التي حُذيت هذا الحذو سنجدها كأنها أخوات لأب وأم ، ثم سنجد أيضًا ما يُقاربها جدًّا وما يقاربها فقط وما يأخذ في البعد عنها شيئًا فشيئًا ، وكل هذا يجب أن يدرس وفاء لحق بلاغته ﷺ ، وقد راجعتُ مثل هذا التصاقب الشديد في حذو البناء في كلامه ﷺ ، ولماذا وُجِد ؟ هل كان عليه السلام إذا فتح لسانُه الشريف طريقًا من البيان يَسْتَحْسِنهُ وتُعَاود البناء عليه ؟ وجواب هذا بالنفي لأن هذا يعني شيئًا من التَّعَمُّلِ والتكلُّف . والذي عليه العلماء أنه عليه السلام كان يتكلم عَفْوَ الخاطر وعلى البديهي ، وبتوفيق وإلهام من غير تكلف واحتشاد . ولم أجد ما أعلل به هذا المنزع في بيانه عليه السلام إلا شيئًا فكّرتُ ألا أكتبه لأنه غريب ثم رأيتُ أن أكتبه ليستفزّ من يَرْفُضُه وليدفعه إلى البحث عن سبب آخر لأن الرفض فقط ليس طريق أهل العلم ، وإنما الرفض ثم محاولة طَرْح البديل ، هذا الشيء هو أن كل معنى من المعاني له نهج أعلى في الإبانة عنه يشبه هذا النهج أن يكون متلائمًا مع فطرة هذا المعنى وأن هذا النهج يتراءى لأهل البيان من بعيد وكل منهم يسعى ليقاربه وكل منهم يصل إلى ما يصل إليه من هذه المقاربة بمقدار ما تعينه موهبته البيانية ، وبيانه ﷺ أسبق بيان الناس وأقربهم إلى هذه الفطرة التي هي النهج الأعلى في التعبير عن المعنى أي معنى ، لأنه عليه

السلام أفصح من كانوا وأفصح من سيكون إلى يوم القيامة ، وكانت هذه الأحاديث التي هي أبناء أب وأم أقرب النهج البياني التي يستطيعه لسان البشر فليس لأحد أن يتجاوز هذه البلاغة النبوية في الإبانة عن هذه المعاني ، وإنما أدرك جيل المبعث الإعجاز في الكتاب أول ما سمعوه لأنهم رأوا فيه النهج الأعلى والمنزع الأعلى والسمت الأعلى في العبارة عن كل معنى تناوله . فإذا كان هناك نهج أعلى وكأنه هو فطرة بيان هذا المعنى وهو الذي تسعى إليه الألسنة ويتقدمها لسان سيد الخلق فإن الذي في الكتاب هو واقع الحُلُمَ البياني الذي كان يسعى إليه الكل ولم يصل إليه أحد ، وقد ذكر الرافعي شيئًا من هذا المعنى ، ولكنه ليس في هذا الموضوع الذي أنا فيه ، والذي أثاره ، تلك الأحاديث التوائم في طريقة الإبانة ، والمختلفات في المعاني ، وقد وجدت شيئًا من ذلك في الشعر الجاهلي ، ولكنه كان خافتًا جدًّا إذا قيس بالذي أنا فيه من كلام رسول الله ﷺ ، ووجدت في ديوان امرئ القيس قصائد هن أخوات ، وقلت إننا نستطيع أن نكتب دراسة نضع فيها قصائد الديوان على وفق تقاربها وتشابهها ولو فعلنا ذلك فلن نتردّد من وضع قفا نبك مع ألاعم صباحا أيها الطلل البالي ، وأنهما أختان من أب وأم ثم تأتي بالترتيب الأقرب فالأقرب ، وقل مثل ذلك في ديوان زُهير ، وقد ظهر لي فيه ما ظهر لي في ديوان امرئ القيس وهكذا .

ذكرتُ كلمة التصاقب كثيرًا وهي كلمة أبي الفتح وأراد بها التصاقب في بناء المفردات ، ورأيتها مضطردة في بناء التراكيب كما نبَّهتُ وأراها الآن في بناء المحاور المتقاربة أو بابات المعاني المتقاربة وهذه الأحاديث منها .

وهذا الحديث جملة واحدة مكون من مبتدأ وخبر وجملة حالية ملحقة بالجملة الأصلية ، وقد تقدَّم فيه الخبر . وأصل الكلام المُسْبلُ والمنَّانُ

والمنفق سلعته باليمين الكاذبة ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، ثم قدم الخبر وذلك لإثارة النفس وإيقاظها حتى تتلقى المقصود الإخبار عنه بعد هذه التهيئة والتوطئة ، وهذا كثير جدًا في كلام رسول الله ﷺ لأنه يُبلِّغُ دينًا قائمًا إلى يوم القيامة ، وقد ذكر البلاغيون من أسباب تقديم الخبر التشويق إلى المبتدأ ، وذكروا من شواهده قول الشاعر :

ثلاثةٌ تُشرِقُ الدنيا بِبَهْجَتِها شَمْسُ الضُّحى وأبو إسحاق والقمرُ

وكأن الشاعر قرأ هذا الحديث وحذا حذوه ، ويابعد ما بين الكلامين وإن كان الحذو واحدًا ، أراد الشاعر أن يجعل أبا إسحاق في قرن واحد مع شمس الضحى والقمر ، وكأن هذا الكون لا غنى له عن أبي إسحاق كما أنه لا غنى له عن الشمس والقمر ، ومع صرف النظر عن قدر أبي إسحاق وأنه يستحق كل هذا الثناء أو لا يستحقه ، ففرق بين هذا وبين كلام رسول الله ﷺ الذي يُطَهِّرُ المجتمعات من النماذج الإنسانية الشاذة والمثيرة ، والمفسدة في المجتمع ، وإذا كان النظم واحدًا في البيت والحديث وكنا نقول إن المعوَّل عليه هو النظم وأن الإعجاز يَرْجِعُ إلى النظم فليس معنى هذا في كلام الكبار من علمائنا إلا معنى واحدا وهو النظم الحامل للمعاني التي بعضها أرجح من بعض ، والدقة في النظم مرتبطة بالمعنى وسعته وعُمْقه وكيف يسيطر النظم على هذا المعنى ويَسْتَوْعِبُه ، ورجحان المعنى يعني ثقله وهو الحمولة التي يحملها الكلام ، وهي القول الثقيل الذي جاء في كلام ربنا ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ ، فإذا قلت إن التقديم في قول الشاعر ثلاثة تشرق الدنيا ببَهْجَتِها للتشويق كما في الحديث فلابد من مراعاة رجاحة المعنى الذي شكَّل هذا النظم ، وأن الأمر الداعي في البيت غير الأمر الداعي في الحديث ،

وتوخِّي معاني النحو على وفق الأغراض في البيت غير توخي معاني النحو على وفق الأغراض في الحديث ، وإذا لم يراع هذا كان النظم في مثل إن زيدًا قائم كالنظم في مثل إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وهذا لا يقول به من به طرق كما يقول العلماء والطرق بقية من شمم والمراد بقية من عقل .

قوله ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم» هذه الجمل الثلاث المكونة لجملة الخبر كل واحدة منها فيها من الوعيد والتهديد ما يفزع ويزعج ، ومجيئها هكذا متتابعة يبعث المزيد من الخوف والروع عند أهل العلم المؤمنين بالبعث والحساب والجنة والنار . ثم إن رسول الله ﷺ لم يكتف بتتابعها ، وإنما قرأها ثلاث مرات فبلغ بذلك قمة الإحساس عند السامع بغضب الله ومَقْتِه على هؤلاء الثلاثة الذين لا يزالون مجهولين . ثم إن الجمل الثلاث منقولة من الكتاب العزيز وقد جاءت في سياق عقاب الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنًا قليلاً ، وسِيقَتْ في بيان عقاب هؤلاء الذين لا يزالون بيننا بقوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤) وفي آل عمران مثل ذلك في شأن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً ، ولاحظ قوة المشابهة التي نبَّهَتْ إليها الآية وذلك بقوله تعالى في البقرة ﴿ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ وفي آل عمران ﴿ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ ولاحظ يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ، وبشاعة هذا الإجرام ، ولاحظ أيضًا ما يأكلون في بطونهم إلا النار ، ولا خلاق لهم في الآخرة أي لا نصيب لهم من رحمة الله التي لا يعرى منها من لقي الله وهو يشهد أنه لا إله إلا هو ، كل ذلك يجعل كلمات لا يُكلّمهم الله ولا يَنْظُر إليهم ولا يزكيهم أكثر امتلاء بالغضب ، ولما نقلها رسول الله في الحديث إلى المُسْبِل والمنَّان ، والمُنْفق سلعته

باليمين الفاجرة انتقلت هذه الجمل غير مفرغة من شُحْنَة الغَضَبِ التي أفرغها فيها سياق سورة البقرة وآل عمران ، لأن المفردات لا تَعرو أبدًا من أحوال السياق الذي جرت فيه ، وكذلك الجمل ، ولا يمكن أن أتصور أن سيدنا أبا ذر لما سمع من رسول الله ﷺ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم سمعها وهو بمعزل عن سياق الغضب البالغ الذي جرت فيه في الغرّاوتين البقرة وآل عمران ، ولاحظ خصوصية الذنب هناك وأنه ليس سرقة وليس كذبًا وإنما هو كتمان ما أنزل الله ، وهذا من التحدّي والمحاربة لأمر الله ، وهذا اجتراء على الله ، وليس اجتراء على أمره ونَهْيه ، ومثله الاشتراء بعهد الله ويمينه ثمنًا قليلاً ، هذه ذنوب فيها ما ليس في غيرها ، لأنها تُصيب حِمَى الله الذي ليس محارمه فحسب وإنما تسيىء إلى ذاته وجلاله جل وتقدس .

أقول كل ذلك من أول التشويق بذكر ثلاثة ثم وصف الثلاثة ثم تكرار هذا ثلاثًا ثم سياق البقرة وآل عمران كلُّ هذا جرى في نفس سيدنا أبي ذر فقال ما قال .

ومعنى «لا يكلمهم الله» ذكر أهل العلم لها وجهين من وجوه المعنى الأول أن يكون المراد أنه سبحانه لا يكلمهم كلام الرِّضَى والقبول كما يقول لعباده الذين رضيهم ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ وإنما يكلمهم كلام المغضوب عليهم من مثل قوله تعالى ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ والوجه الثاني أن يكون قوله لا يكلمهم كناية عن إهمالهم وأنه سبحانه لا يلتفت إليهم كما يقال فلان لا يُكلَّم بالبناء للمجهول أي لا يُلْتَفَتُ إليه ولا يُعبَأُ به وفيه شيء من معنى قوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ ﴾ (الجاثية: ٣٤) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ أولاً لابد من مراعاة التقارب في المعنى بين الجملتين وأن قولنا فلان لا ينظر إليهم قريب جداً من قولنا فلان لا يُكَلَّم ولا يُلْتَفَتُ إليه وليس له شأن ، وهذا مما يسميه علماء البلاغة مراعاة النظير ، وإن كانوا ذكروه في المفردات فهو قائم كذلك في الجمل بل والفَقَرَاتَ والمعاني الشاملة للسورة أو للقصيدة ، وهو باب محتاج إلى مراجعة في ضوء تحليل قصائد الشعر وتحليل السُّور وهو ظاهر جداً في أحاديث رسول الله ﷺ كما في هذه الثلاثة . ولا شك أن الله سبحانه وتعالى يَنْظر إلينا ويرانا ويَعْلَمُ سِرَّنا وعلانيتنا وكل ذلك بلا كيف ، لأنه سبحانه ليس كمثله شيء .

ولا شك أننا ننظر إليه سبحانه في كل حال ، وقد وَصَفَ ربنا أهْل مَحبَّته بأن وجوههم ناضرة ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ونظرنا إلى ربنا ليس كنظر بعضنا إلى بعض وإنما ننظر إلى لطفه وإحسانه ومَنِّه وَفَرَجِهِ وعطائه وكما أكرمنا ولَطُف بنا ونظر إلينا في الدنيا نَنْتَظِرُ لطفه وكرمَه ومَنَّه علينا يوم العرض يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، وقال العلماء في بيان قوله عليه السلام (ولا ينظر إليهم) المراد منع الإلطاف والعفو والإحسان .

وقوله عليه السلام « ولا يزكيهم » معناه لا يَعْفُو عنهم لأن العفو يَمْحُو الذَّنْب ومحو الذنب وغسل النفس من الإثم هو تزكيتُها وتطهيرها .

وقال العلماء إن نَفْي الكلام ونَفْي التزكية عن الله سبحانه لا يحتاج إلى تأول لأن الله سبحانه وتعالى يكلم عباده ويزكيّهم بمعنى يُطهّرهم بمغفرة الذنوب والذي يحتاج إلى التأول هو النظر ، ووجه التأول فيه ما قدمناه من أن المراد الإلطاف والإنعام فالذين ينظر إليهم ربهم هم أهل إلطافه ومَنِّه وإحسانه وكذلك الذين ينظرون إليهم هم المستشرفون لعطائه وإكرامه ، ومن

المهم جداً أن تدرك أن أبا ذر أدرك ذلك كله وأن العلماء حين يفسرون هـذه الجمل الثلاث وغَيْرها قُصَارَاهُم أنهم يستخرجون معناها الـذي أدركـه منهـا أصحاب اللغة ، من أمثال أبي ذر ، فَلَكَ أن تقول إن أبا ذر فهم من قوله ﷺ « لا يكلمهم » أنه لا يكلمهم كلام الرِّضَى أو أنه لم يلتفت إليهم إلى آخـره ، وهكذا تقول في كل كلام اتفق العلماءُ على معناه أو اختلفوا في معنـاه وأن شرحهم وبيانهم ليس يزيد شيئًا عن الـذى قـام في أفهـام مـن سمعـوه مـن رسول الله صلوات الله وسلامة عليه وعليهم .

وإذا وضَعْتَ هذا الحديث بإزاء أربـع مـن كُـنَّ فيـه أو آيـةُ المنـافق ثلاثًـا وجدت فرقين ظاهرين الأول أن حديث « أربَعٌ من كُنَّ فيه » تَنْبِيه لنا جميعًـا إلى الأمراض التي هي أمراض النفـاق ، والـتي هـي خِلالَـهُ وآياتـه وأن هـذه الأمراض قد تكون خَفِيَّةً ساكنةً في طيَّةٍ مِنْ طيَّاتِ نفسـي وأنـا لا أشـعر بهـا كالمرض النائم في خلية من خلايا الجسم ، والحديث يقول لي ولك راجـع نفسك واعمل عملية فحص شامل حتى لا تُفَاجأ بهذا الميكروب وقـد قـوي واشتد . كل ذلك وأنـا في فُسْحَةٍ مـن أمْـرِي والمراجَعَـةُ مُمْكنـةٌ والرجـوع ممكنٌ ، وهذا بخلاف حديث « ثلاثة لا يظلهم الله » لأنه بيان للحال وأنا بـين يدي الله ، ولا رجوع ولا مراجعة ولا يَنْفَعُ نفسًا إيمانُها لم تكـن آمنـت مـن قبل أوْ كسبَتْ في إيمانها خيرًا ، وهذا أهول وأفظع وأبشع لأننا رأينا السـماء تَشَقَّقُ بالغمام ورأينا الظالم يعض على يديه ورأينا الجبال قد سُيِّرت والعِشَار قد عُطِّلت والشمس قد كُوِّرَتْ وأشرقت الأرض بنور ربها، ووضـع الكتـاب، وهذا هو سياق « لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم » ثم نجد فرقًا آخر وهـو أن قوله عليه السلام « أربَـعٌ من كنَّ فيه » أو قوله « آية المنافق » لو قلت إنه مـن استنْباطِهِ عليه السلام ومن اجتهاده واستخراجه ومتابعته لمـرض قلـوب أهـل

النفاق ومواقعها في الكتاب أقول لو قلت هذا لجاز أن يُقبَل منك بل لو قلت إن هذا الذي استخرجه رسول الله ﷺ من أحوال هذه الطَّبقة من البَشَرِ وهم المنافقون يمكن لأهل العلم بأحوال الناس وبأخلاقهم وسلوكهم وأهل الحكمة والبصيرة منهم أن يَصِلُوا إلى ذلك ، وأنه يمكن أن تقرأ مثل هذا في كتاب لباحث في أحوال الغرائز الإنسانية ، أقول لو قلت هذا لكان كلامًا جائزًا أن يُقْبل وذلك بخلاف حديث ثلاث لا يكلمهم الله ، لأن هذا لا بد أن يكون وَحْيا ولن يكون غير وحي أبدًا لأنه لا يستطيع نبي مرسل أن يقول إن الله لا ينظر إلى هذه الجماعة التي من شأنها كيت وكيت إلا بوحي من الله ، وإذا كان كلامه ﷺ كله مَطْبوعًا بخاتم النبوّة فإن هذا الخاتم أظهر في بعض كلامه من بعض وخاتم النبوة هنا ظاهر جدًّا .

وقوله عليه السلام « ولهم عذاب أليم » أول ما يَلْفِتُ في هذه الجملة أنها اختلفت في حذو البناء عن الجمل الثلاث التي قبلها لأنها اختلفت في المعنى فإذا كانت الجمل الثلاث تدور حول أصل واحد وهو أن الله الذي هو مالك يوم الجزاء أهمل شأنهم غاية الإهمال فلا كلام ولا نظر ولا تزكية أقول إذا كانت الجمل الثلاث تدور حول أصل واحد فإن هذه الجملة تدور حول أصل آخر ، وفي مقام آخر ، وهنا معنى مسكوت عنه وهو أنهم بعد الموقف الذي تُجْزَى فيه كل نفس بما كسبت وكان من الله معهم ما كان ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار وهؤلاء لهم عذاب أليم ، وراجع الكلام في قوله تعالى (لهم) وكأنه استحقاق استحقوه وكَسْب اكتسبوه ، وملك امتلكوه . وفيها شوب من السخرية بهم ، وهي جملة حالية جاءت معها الواو لتشير إلى أن مضمونها يوشك أن يكون مَعْنًى مُسْتَقِلاً تقوم به جملة مستقلة وليست جملة فضلة تابعة لغيرها ، وأن معنى الاستئناف

المستكن في واو الحال يتحرك ويُومئ ويذكر بالاستئناف ونلاحظ أن عبد القاهر انتقل من جملة الحال التي بالواو إلى واو العطف، التي في الفصل والوصل لشدة القربى بين واو الحال وواو العطف وهذه الجملة الحالية كان يمكن أن تكون من غير واو كقولنا جاء زيد على كتفه سيف، وعدم مجيء الواو فيه إشارة إلى قوة إلحاقها بالجملة قبلها وكأن الجار والمجرور يُؤول لمفرد وتصير الجملة الإسمية أقرب إلى الحال المفردة، وكأنك قلت جاء زيد حاملاً سيفه، ولو قال سبحانه لهم عذاب أليم لكان المعنى مُسْتحقِّين عذابًا أليمًا ولآلت الجملة الإسمية إلى المفرد وسقط معنى مزيد العناية بالجملة الحالية، وأنها توشك أن تكون جملة مستأنفة لأن معنى الاستئناف الساكن والمُستكِنّ في الواو بدأ يتحرك ببطء ويعلن عن نفسه ولا يجاهر بذلك، ثم إن هذه الجملة بُنَيتْ على تقديم الخبر لأن المهم أن يقال «لهم» لأنهم هم موضع الحديث وهذا ظاهر أيضًا، ثم إن إسناد كلمة (أليم) إلى العذاب من الإسناد المجازي، وأليم اسم فاعل والعذاب آلة الألم كما تقول قطعه السيف، وكتبه القلمُ وأنت تعني قطعة قاطعُه بالسيف وكتبه كاتبُه بالقلم، وهذا الإسناد يوشك أن يلتبس بالحقائق لشيوعه، وفي هذا الإسناد إشارة إلى قوة أثر الآلة وقوة سببيتها في الفعل وكأن السيف هو القاطع والقلم هو الكاتب والعذاب هو المعذِّب، ولاحظ أنك حين تحلل مثل هذا التحليل أنت في الحقيقة تبحث عن المعاني الخفية المغُشَّاة والمُنْدَسَّة في مواطن بناء الكلام وهذا ما نقوله كثيرًا، وقليلاً ما نقول شيئًا آخر وهو من الأهمية بمكان، وهو أن صاحب السَّليقة الصادقة واليقظة الواعية يدرك عند سماع الكلام هذه الأسرار، وأن التركيب بكل ما يَخْتَبِئُ في مخابئه هو الواسطة بينه وبين المتكلم، وأن كل ما في هذه المخابئ هو

من رسالة القائل إلى مسامعه ، ما دام هذا السامع قريبًا من طبقة المتكلم ، قلت هذا لأقول إن أبا ذر وَعَى كل هذا ابتداء من تقديم الخبر على المبتدأ ومن معاني أن الله لا يُكلِّمهم ولا يَنْظر إليهم ومن معانيها التي عَلِقَتْ بها هناك في الاستعمال القرآني حيث كانت وصفًا لضلالة منكرة ، من ضلالات أهل الضلال ، وهي أنهم يكتمون ما أنزل الله وبئس ما يفعل الذي يعلم ما أنزل الله ويُشرِّفُهُ ربُّه بهذا العلم ثم ينكر ما عَلِمَه مِمَّا أنزله الله ليشتري به ثمنًا قليلاً وبئس ما اشترى وقد اشترى الضلالة بالهدى فما ربحت تجارته ، أدرك سيدنا أبو ذر كل هذا فقال بتلقائيته المعهودة خابوا وخسِرُوا يا رسول الله فمن هم ، ولاحظ أن سيدنا رسول الله كان سيقول من هم ؟ لأنه يستحيل أن يقول ثلاثة لا يكلمهم الله إلى آخره ثم يَسْكُت ، ولكن الذي وعَاه أبو ذَرٍّ مما قلناه وأعمق مما قلناه أثاره فاعترض بجملة اعتراضية بين الخبر والمبتدأ ، وهذا اعتراض آخر غير الاعتراض المتعارف ، لأنه اعتراض دخل في الكلام من متكلم آخر وهو لا يكون إلا إذا كان في الكلام الذي قبل هذا الاعتراض ما يثير السامع إثارة لا يَصْبرُ على السكوت معها فيدخل بكلام يشق به وحدة الكلام الأول ويَغْرُسُ ما اعترض به بين قسْمَي كلام لا بفصل بينهما كما هو شأن الاعتراض ، ولذلك كانت جمل الاعتراض المعروف من أقوى المعاني ومن أرقاها وتراها بين الكلام الذي وقعت اعتراضًا فيه كأنها لؤلؤة مُتميِّزة بين لآلىء . كما تراها أحيانًا كأنها وَمْضة إضاءة ، وقد أفلح أبو الفتح في بيان هذا ليس بحديث نظري لأنه لم يتكلم في هذا وإنما شواهد ساقها للاعتراض أصاب في اختيارها لأنها كانت جملا مُضيئة جدًا ، وسيدنا أبو ذر باعتراضه هذا علمنا شيئًا وهو أن الجُمْلَة السابقة

للاعتراض لأُبدَّ أن تكون جملة مُستَفِزَّة أو حالة مُستَفِزة كحالة رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذا الخبر ثلاث مرات .

والثلاثة أصحاب هذا الخبر هم المُسْبِلُ والمنّانُ والمُنْفِق سِلْعَته باليمين الكاذبة . أما المُسْبل فهو الذي يُسْبِل ثوبه ويُرْخِيهِ ويختال به . وليست الخطيئة في أنه يجر إزاره ، لأن هذا سلوك لا ضرر فيه على أحد ، ولو كانت الخطيئة في جر الثياب لذهب الحكم عنا وذهب الحديث عنا ، لأننا الآن لا نجر ثيابنا ، وليست ثيابنا مما يجُرُّ فلا بد أن يكون الكلام مُتَعَلّقًا بشيء أصلي في حياة الناس ، وليس بعوارض تتغيّر ، وهذا يعني أن الإثم في سَبْل الإزار هو الخيلاء ، وقال أبو بكر لرسول الله لما سمع الحديث إن جانب الإزار يسترخي فقال له رسول الله ﷺ لست منهم يا أبا بكر ، مع أن استرخاء جانب الإزار صورة من صور المُسْبل . الحكم متعلق بالذي وراء الإسبال من الخيلاء التي تتجاوز إعجاب المرء بما هو عليه كالذي ينظر إلى عِطْفَيْهِ ويغتبط بما هو فيه من نعمة وثياب حسن ورخاء . أقول كل هذا لا ذنب فيه وإنما الذنب في الخيلاء التي وراءها ذَرّةٌ من كِبْر أو مثقال حَبّة من خردل من كبر ، لأن الكبرياء لله لا يشاركه فيه أحدٌ ، ولأن هذه الكبرياء هي التي سَكَنَتْ في قلوب الذين كفروا فاسْتكْبَرُوا وعَتَوْا وصَدُّوا أنفسهم وصَدُّوا الناس عن الهدى ، وهذا هو المقارب للتهديد الذي جاء في الخبر ، ويلاحظ أن سيدنا رسول الله ﷺ قطع الطريق على مثقال حَبّة من خردل من كبر حين حَدَّد وهدَّد بداية الطريق وهو الإسبال أي جَرُّ الثوب اختيالاً ، وهذا يُشْبه ولا تقربوا الزنا فشدّد الوعيد والنهي عن القرب فكيف يكون الوعيد والنهي عن الذي نهينا أن نقترب منه ؟

والمنّان : الكثير المَنِّ على من تصدق عليه ، ويلاحظ أولاً صيغة المبالغة الدالة على أنه لا يتصدق إلا صدقة مصحوبة بالمَنّ الذي يؤدي إلى الأذى ،

فلو كان يَمُنُّ مرة ولا يَمُنَّ مرة فإنه لا يدخل في الوعيد ، والغريب أن هذا الذي يَنْصَبُّ على رأسه هذا الوعيد رَجُلٌ من أهل الصدقة والأغرب من هذا الغريب أن الله سبحانه وتعالى لما رغبَنا في الصدقات وجعل الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ثم الله يضاعف بعد ذلك لمن يشاء ، وجعل الصدقة تَقَعُ في يد الله قبل أن تقع في يد العبد وأن الله يضاعفها له حتى تكون مثل أحد أو أن الله يُرَبِّيها له كما يربي أحدكم فَلوُه إلى آخره ، أقول مع هذا الإغراء الذي ليس بعده إغراء حرّم الله علينا المَنَّ بالصدقة حتى لا نَجْرَحَ خاطر هذا المسكين ، ولا نكسر نَفْسه ، وإنما نُحافظ عليه ونكرِمُه وكأنه هو الذي يَمُنّ علينا ، وكأنه هو الذي يُعْطي الذي نُعْطيه . ولاحظ أن يده التي يأخذ بها الصدقة هي يد الله وأن يد الله عليها، وأن الصدقة تقع في يد الله أولاً ثم تَقَعُ في يده ثانيًا، وكل هذا من إكرام الله لعبده الذي قضى عليه سبحانه أن يكون محتاجًا ، وأن الفقراء هم عيال الله وأن جَرْح شعورهم إنما هو جرح لشعور عيال الله ، وأن المُنْفِق ليس مُنْفِقًا من ماله وإنما هو منفق من مال الله الذي جعله مستخلفًا فيه ، وأن كل هذه المعاني وحضورها في قلب المتصدق هي التي بها تربو صدناته وتَقِيهِ شحُ نفسه ، فإذا منَّ كان هذا المنُّ دليلاً على أن كُلَّ ذلك لا حضور له في نفسه ، ويوشك أن يكون قريبًا من الذي يقول إنما أُوتيتُه على علم عندي ، ومن الذي يجب أن نقف عنده أن الكلمة الطيبة التي تَطيِّبُ خاطر المسكين عند الله خير من صدقة يتبعها أذًى ، وهذا يَدُلُّكَ على عناية رب الناس بالذي يجري في نفوس الناس التي خلقها وعلم سرها .

والمنفق سلعته بالحلف الكاذب وجاء في رواية أخرى بالحلف الفاجر ، وجاء أيضًا ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا

وكذا فصدّقه وهو غير ذلك ، قال الشراح إنما ذكر صلوات الله وسلامه عليه (بعد العصر) لأنها الصلاة الوسطى ، والأصلْ أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وأن الوسطى التي هي أفضلها أقوى في النهي ، فإذا خرج صاحبنا من الصلاة الوُسْطَى ولم يجد في صدره ما يكُفُّه عن اليمين الفاجرة ليربح بهذه اليمين دريهمات زائدة ويَشْهَد أنه اشتراها بكذا وهو كذاب وشاهد زور وإن كان شهد زورًا على نفسه ، كل هذا يدخله في باب الوعيد ، ولاحظ أن الثلاثة اشتركوا في ذهاب مهابة الله من قلوبهـم ، فالمختال نسي المُنْعم وأن ما هو فيه من نعمة فمن الله ، والمنان نسي المنعم وأن ما أنفقه هو مال الله الذي جعله مُستَخْلَفًا فيه وصاحب اليمين الفاجرة اجترأ على الله ، وأقسم به ، وهو كاذب ، وقد طبعت قلوب أهل الإيمان على أن تصدّق القسم بالله ، وقال الجاهلي القديم «وليس وراء الله للناس مذهب» كل ذلك هو الذي وراء التغليظ والتشديد والوعيد في هذا الحديث ، واذكر بأن هذا الوعيد الذي هو لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم جاء في الكتاب العزيز عقابًا لمن اشترى الضلالة بالهدى ، ولما قرأته في الحديث ووجدت رسول الله ﷺ يزيد تكراره ثلاثًا فشعرت أنه وعيد لمن ارتكب ذنبًا هو من أكبر الكبائر ، ثم رأيت التهديد مُنْصَبًّا على أهل الإيمان من أصحاب المعاصي ؛ لأن المَنَّان متصدق وهو من أهل الإيمان والمنفق سلعته من أهل الصلاة والمُسْبل إزاره لو كان مشركًا ما وقع التهديد عليه لإسبال الإزار وإنما كان يقع عليه لشركه.

أقول كل هذا وقع في نفسي ووقفت أراجع كيف يزيد رسول الله ﷺ الآيات شدة وغضبًا بتكرارها ثلاثًا مع أنها موجهة في الحديث لأهل المعاصي من المؤمنين بل إن معاصيهم أقلُّ من قتل النفس وعقوق الوالدين والتولي يوم الزحف ، إلى آخره ، وسألت عن وجه ذلك وقلت ما وجه التغليظ والتهديد

مع هذه المخالفات التي يمكن أن تنتهي لو قصرّ المُسْبل ثيابه ، وكف المنفق لسانه ، وسكت البائع عن الحلف . وهذه كلها أمور ميسورة ، وأين هي من أكل أموال الناس بالباطل ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا إلى آخر الكبائر التي بعضها أكبر من بعض ؟ ولم أجد في بيان وجه هذا التغليظ والتهديد إلا أن رسول الله ﷺ يُنَبّهنا إلى خطايا ومحاذير قد تجد طريقًا خفيًا وسَهْلاً إلى نفوسنا فَتُفْسِدُ علينا كثيرًا مما نعمله قاصدين وجه ربنا ، فالمسبل نموذج للذي يتسلل العجب إلى نفسه ، بسبب الذي هو فيه من نعمة وهذه الحالة قد تتسلَّلُ إلى نفس عالم يرزقه الله المزيد من التوفيق فيداخله العُجْب بهذه النعمة فيُحْبِطُ هذا العجبُ عَملَه لأنهم قالوا لا يحبط عمل العالم شيء كما يحبطه العُجْبُ ، وقل مثل ذلك في المعلم الذي وفَّقَهُ الله ورزقه القُرْب من نفوس طلابه ، فأعطى ثم ابتلى بهذا العجب ، وكذلك الداعي والمُصْلح والسياسي الصادق الفَاهم ، كل هؤلاء وأمثالهم إذا تسلَّل إليهم العُجْبُ فقد باء عملهم بالخسران لأن الأصل أن يكون إحساس العالم بما رزقه الله من توفيق ، وإحساس المعلم بما رزقه الله من توفيق ، وإحساس الداعية إلى آخره ، كل هؤلاء يزيدهم الإحساس قربًا من الله والمزيد من شكر الله على ما أنعم عليهم ، وأن هذا الذي يقدمونه للأمة هو من الله وأنه سبحانه مَنَّ عليهم لما جعلهم سبيلاً يَصِلُ بهم إلى عباده ما صَنَعُوا ، وما بكم من نعمة فمن الله ، ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ (النور: ٢١) ، وكل ما يقدمه المسلم لأُمته هو عبادته وعبوديته لله وحده لا شريك له ، وقل مثل ذلك في المنان لأنك تجد الدعوة إلى الإنفاق في سبيل الله والتوسع في ثواب المنفقين تجد ذلك كثيرًا جدًا في كلام الله وفي كلام رسوله ﷺ وتجد العناية الشديدة بالمحتاجين والفقراء والمساكين ومن

هم في ضائقة كابن السبيل ، ومن هم معرضون للضياع كاليتامى والأرامل والعجزة . هذه الطوائف تشغل الكثير من الكتاب والسنة وكأن الله سبحانه وتعالى وتقدس ينحاز إلى هذه الطوائف ويكون معهم وينظر إلى من ينظر إليهم ، ويقرّب من يُقربهم ويكرم من يكرمهم ، حتى إن يده سبحانه تسبق يد المسكين حتى تقع الصدقة فيها قبل أن تقع في يد المسكين ، ثم إنه سبحانه يُرْبحها لك حتى تكون مثل أحد يعني أن الله سبحانه يرفع قدر الآخذ فيضع يده مع يده وتقع في يد الله ثم تقع في يده من يد الله وكأنه أخذها من الله ثم إنه يُكرم المعطي فيأخذها سبحانه وتعالى بيمينه ويجعلها له مذخورة عنده في تجارة لن تبور ، وكل ذلك ملأ قلب الأمة فزادت العناية بهؤلاء حتى إنك لا تجد يدًا فيها فضل طعام إلا امتدت به لليد التي لا تجد ، وقد تطوّر هذا وأصبحت في الأمة جمعيات خيرية وجماعات من الصالحين تقوم برعاية هؤلاء المطحونين حتى إنها لتنشئ مستشفيات للعلاج ومدارس للتعليم فيها قدر هائل من العطاء ، ونسأل الله أن يدفع عنهم ، لأن كثيرًا من سماسرة السياسة كثيرًا ما يبطشون بهؤلاء ويسمونهم إرهابيين ويقفون في صف واحد مع من نهبوا البنوك وأموال الشعب ، وهذا وإن كان يطرأ في الوقت بعد الوقت فإنه يذهب كما يطرأ المرض على الجسم المعافى ثم لا يلبث أن يذهب ، وإن الله يدافع عن الذين آمنوا وما يعلم جنود ربك إلا هو ، والمهم الذي معنا في الحديث أن المنّ يؤذي هذه الطوائف بل ويدمّر نفوسًا كثيرة منها أطفال وطلاب علم وأرامل ويتامى وأطفال ملاجئ ومن لا يعرف له أهل كل هؤلاء يعيشون من أموال الصدقات وتتسع هذه الشريحة باتساع غباء وجهل وانتهازية المسؤولين ، ولهذا اتسع التحذير من المنّ ، ولولا هذا التحذير وهذا التخويف وهذا التهديد من المن لكانت

أعمال البر كوارث نفسية تدمر هذه النسبة العالية من المجتمع ، ومن أجل شدة التخويف من المنّ وأيضًا من أجل صلاح نفوس أهل البر نرى هؤلاء المتحاجين يجدون كل تقدير واحترام وإكرام من الذين يقومون برعايتهم ، وقل مثل ذلك في المنفق سلعته باليمين الفاجرة وأن التغليظ والتشديد في وعيد أصحاب هذا السلوك هو متجاوب جدًّا مع شيوع العمل في البيع والشراء وأن حركة المجتمع تقوم عليـه وكلنا يشتري وكلنا يبيع ولا تجد في حياة الناس أكثر من البيع والشراء وتجد أكثر الباعة يلتزمون بسعر واحد حتـى لا تناقشهم فـي شـيء ولا تضطرهـم إلى الحديث عن أصل ثمنها . ولا يضطرون إلى أن ينفقوها بالحلف وهؤلاء كثرة في أسواق الناس ، وتبقى القلة الكذابة الحلافة ، والمهم أنك حين تنظر إلى سعة الحركة في البيع والشراء تدرك سِرَّ التشديد على الأمانة ، وكف اللسان عن الحلف الفاجر وتدرك أيضًا سرَّ تنظيم هذه المهنة والتزام أكثر المزاولين لها بالأسعـار المحدّدة ، كـمـا تدرك سِرَّ الضّياع الذي فيه بَعْضُ أفرادها ، وأنه ما إن يَنْتَهِ من يمين فاجرة ، حتى يبدأ بيمين فاجرة ، وقد ذكر رسول الله ﷺ هذا الحديث بحَذْوه ونَسَقه مع الاختلاف في الذين يُوَجّه إليهم هذا التهديد ، فإذا كان حديثنا هذا يقول إن المُسْبِلَ والمنَّان والمنفق سِلْعَتَه باليمين الفاجرة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، فقد جاء ذلك مع ثلاثة من المعاصي الأخرى ، وذلك في قوله عليه السلام « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ، شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مُسْتكبر ». ذكر من يؤخذ عنهم العلم أن هؤلاء الثلاثة كانوا في غنى عن الوقوع في هذه المعاصي ، أما الشيخ فإن تجربته وعَقْله ، وحِكْمته ووقوفه في طرف عمره وضَعْفِهِ وشَيْبِهِ كل ذلك من شأنه أن يكسر

حدَّة هذا الخطأ بالنسبة له ، وإنما وقع فيه مع ضعف دواعيه استهانة بأمر دينه ، والملك الكذاب في غنى عن الكذب لأنه يُنفذ في الناس أمْرَه بسلطانه ، والكذب طريق الضعفاء ولو أراد أن يَحْتال في أمر يريد إنفاذه في الناس له أن يُعرض ولا يكذب ، وإنما باشر الكذب لاستهانته بوعيد ربه ، هذا ما قاله العلماء ، ولك أن تضيف شيئًا آخر وهو أن الملك يدير سياسة البلاد والعباد وهو مأمون على مصالحهم ودمائهم وأعْراضهم فلا بد أن يكون صريح الطبع سديد الخُلُق قويم السلوك ، لأن أمر الناس يجب أن يكون في يد أهل الصدق ، والباحثين عن الصواب ، والمتجردين عن الأهواء . والكذب خسيسة ، تتبعها خسائس ، وحين يكون أمر الناس في يد أهل الخساسة ، يكون البلاء الأكبر الذي يُحيط بالبلاد والعباد ، ولا تزال الأمم الأكثر رشدًا مستمسكة بقوة المحاسبة على هذه الرذيلة ، إذا صَدَرَت عن واحد من أهل السياسة وقد يتسامحون في خسائس أخرى إلا أن يكذب لأن الكذب يهدي إلى فجور كثير وقد تكون منه خيانة البلاد ، والويل للناس إذا كان أمرهم في يد فاجر كذاب .

والعائل هو الفقير من قولهم عال الرجل إذا افتقر ، قال تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ويقولون أعال إذا كان ذا عيال ، وليس أغرب ولا أعْجَبَ من فقير متكبر ، لأن الكبرياء لله ، وهي ذميمة من فقير وغني وهذه معصية من الفقير ليس لديه ما يدعوه إليها ، وقد يُرَى الغنى وفيه نزوع إلى الكبرياء فيقال إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى مع أن القاعدة أنه لا عذر في معصية ، فليس الشباب عذرًا لمنكر وليس افتقاد الجاه عذرًا للكذب ، وهؤلاء المذكورون في الحديث اقترفوا هذه الخطايا استهانة بأمر الله ، وذكر القاضي عياض أن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بعدها منه وعدم

ضرورته إليها ، وضعف دواعيها عنده ، وإن كان لا يعذر أحد بذنب ، لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي ضرورة مُغْريةَ بها ولا دواعي معتادة أشبه إقدامهم عليها بالمعاندة والاستخفاف بحق الله تعالى ، وقَصْدِ مَعْصِيته ، قالوا وفي مقابل هذا كان الثناء على شاب نشأ في طاعة الله وإمام عادل وغني خفيّ تقيٍّ .

ومن المفيد أن أراجع الثلاثة الأُول المُسْبل والمَنّان والمُنْفِق سِلْعته باليمين الغموس الذي لا تكفّر بكفارة وإنما يغمس صاحبها في النار ، من أن أراجع هؤلاء وأن أضع بإزائهم العجوز الزاني وفخامة الرئيس الكذاب أو جلالة الملك الكذاب المهين ؛ والفقير الذي يَحُكُّ بيافوخه السماء ولأتبين الفروق بين الأحاديث ، وظاهر أن الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم نماذج كثيرة ، والذي يذكر في الأحاديث هو على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر .

والذي يبدو هو أن حديث المُسْبل والمنان والمنفق سلعته يحدثنا عن ذنوب الشأن فيها أنها تتكاثر بتكاثر لوازمها وتوابعها في حياة الناس ، فإنفاق السلعة مثلاً باب متسع جدًّا ، والبائقة التي تتعلق به هو إنفاق السلعة باليمين الكاذبة ، وكذلك الصدقة باب متسع جدًّا باتساع الإنفاق الذي حثّ الله الأمة عليه واستجابتْ والبائقة المحيطة به والمدمِّرة لآثاره هي المنًّ ، لأن المقصود مساعدة الفقراء والمساكين وليس تدمير نفوسهم بالمنّ ، وكذلك إسبال الإزار الذي هو متجه إلى الإحساس بالنعمة والثروة وأن هذا الإحساس يجب أن يضبط ويتوجه إلى شكر المنعم وليس إلى العُجْب الذي يدمر نعمة العلم ، ونعمة الدعوة إلى الله ، ونعمة الإصلاح إلى آخره .

أما حديث العجوز الهلاس والملك المهين فلن تجد فيه خلالاً تشيع ولن ترى فيه معاصي تتكاثر كتكاثر إنفاق السلعة مثلاً ، وإنما هي سلوك شاذ وقليل ونادر لأن ملتزمي هذا السلوك ليست لديهم دواعٍ تدعوهم إليه ، وإنما هو الاستخفاف بالطاعة والتهاون في المعصية ، وأنا الآن أحاول أن أجد الخيط الذي تحت كلامه ﷺ والذي يختلف به المؤتلف .

وجاء هذا الحديث في رواية أخرى قال عليه السلام « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم ، رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع رجلاً بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدّقه وهو على غير ذلك ، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا بدنيا فإن أعطاه وَفَى وإن لم يعطه منها لم يَفٍ» .

وقبل أن أبدأ في بيان هذا الحديث أُنَبِّهُ إلى أن تكرار صاحب السلعة الذي يحلف لأخذها بكذا فيه إشارة إلى تكرار هذا الحدث في الناس ، وهو ما نَبَّهْتُ إليه من التحذير من شيوع هذه البلايا والخطايا لأن أسبابها كثيرة في واقع حياة الناس .

ثم أقول إن هذا الحديث فيه أمران آخران : وهما الرجل الذي على فضل ماء في الفلاة يأخذ حاجته من الماء ثم يمنع عنه ابن السبيل ، وهذا سلوك إجرامي يجب بتره من جسم الجماعة لأنه سطو وحوزة ما تملكه الجماعة واغتصاب لحقوق الجماعة ، وهذا اللون من الجريمة ينبهنا ربنا إلى أنه لابدً أن يقابل بحسم لأن الله الرحيم الرحمن لا يكلمه ولا ينظر إليه ولا يغفر له هذه الخطيئة ، وأنتم في الدنيا لستم أرحم بالذي يخرج عليكم ويغتصب حق الجماعة من الرحمن ، وهذا يقاس عليه اغتصاب الأرض المملوكة للشعب

ووضع اليد عليها أو تصرف المسؤول فيها تصرفًا لا يحفظُ حقوق أصحابها الذين هم الشعب، ويخصِّصُها لمن يشاء ممن حوله وهكذا . قال العلماء هذا الماء ليس ملكه وإنما هو مِنْحَةٌ من الله ، وعباد الله فيها سواء ويحرم منع الماشية منه فكيف بالآدمي المحترم كما قالوا . وذهب مالك إلى أن هذا الممنوع من الماء لو مات عطشا لاقْتُصَّ من هذا الذي منعه ، ولا يجوز لنا أن نقف عند شيء من كلام الله سبحانه وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه من غير أن نستكشف إلى أي مدى يساعدنا هذا الكلام من إيجاد حياة اجتماعية أكثر نظافة وأكثر أمْنًا وأكثر طهارة ، وراجع مقدار غضب الله على هذا الذي يستبيح من أملاكنا ما ليس له ويَمْنَعُنَا من الشيء الذي هو من حقنا ، وكأن الله سبحانه وتعالى يمد يده ليحرس لنا بيده الكريمة حقوقنا من الشّاذين منا والأنانيين منا ، ويضع علامة غاضبة على كل من يتعدَّى حدود حقه ، ويخطو خطوة أو نصف خطوة في حقوق الشعب ، وأملاكه العامة ، ولاحظ كيف يكون الخطاب في هذا الشأن خطاب تغليظ وتهديد ، أما الذي بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا فهذا وادٍ آخر غير وادي السوق الذي فيه المُنْفق سلعته باليمين الفاجرة ، وغير وادي أملاك الشعب من أرضه وعيونه ، وأنهاره ، الحديث يتجوّل كما ترى في الأوْدِية الكثيرة التي فيها مخالفات ويتابع المخالفين بالتهديد والوعيد ، وبصورة أقوى من صورة شرطة أمن المرافق ، أو أمن الأموال العامة ، لأنه يخاطب الضمير والتخويف بالله رب العالمين ، أقول كلام سيدنا رسول الله عن الذي بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا كلام داخل دخولاً مباشرًا في السياسة لأنه صيانة للفرَّازات التي تفرز بها الشعوب قيادتها ، وأنني يوم أن أتوجه لأختار من يحكم بلادي لا يجوز لي أن أفكر لحظة واحدة في الذي يعود

عليّ من نجاح زيد أو عمر ، وإنما تفكيري كله في الذي يعود على بلادي من نجاح زيد أو عمر ، كيف يكون التعليم وكيف تكون الصحة ، وكيف يكون العمل الجاد والمخلص لمستقبل هذا البلد ومستقبل الذين يعيشون عليه ، هذه القضية الحيوية جدًّا والحديثة جدًّا يحدثنا عنها رسول الله ﷺ ويبين لنا ماذا نكتب في ورقة الانتخاب ، ولاحظ أن شكل البَيْعة متروك في الحديث لأنه قابل لأن يتغيّر بتغيّر الأحوال ، وإنما الذي لا يقبل التغيُّر هو التجرد في اختيار من يَنْفَع الناس ، ويخلص لهم ، وليس وراءه عصابة منتفعة أو مؤسسة تريد أن تتربحَ ، والبيعة الآن لها صور أفضلها الاختيار بطريق الانتخاب بين عدد من المتقدمين لخدمة البلاد ، ومنها أن يخرج الناس زرافات ووحدانا متوجهين إلى قصر الحكم ليبايعوا من اختاره أهل الحل والعقد ، وهم عادة ما يكونون من بني أبي الذي خرجت الزرافات والوحدان لتبايعه ، وهؤلاء الزرافات والوحدان بايعوا أو لم يبايعوا فإن بيعتهم لم تقدم ولم تؤخر والذي اختاره أهل الحل والعقد لن يتغيّر وإنما هذه الزرافات والوحدان تخرج ليكتمل المشهد المَسْرَحِي الذي يوهم أن الحكم للشعب وليست الانتخابات المزوّرة بأفضل من هذا ، وكل هذه المخلفات التي تجاوزتها الشعوب باقية في بلادنا ، وكلها بيعات لدنيا والذي يقول إنها مسرحيات يقطع منه الوتين ونسأل الله السلامة وهذا من أكبر وأهم أسباب التخلف الذي كتب علينا وهو كره لنا ومن كلماته صلوات الله وسلامه عليه التي كأنها حصون تحمي الأمة من مداهمات أخطار الخطايا ، والفساد والإفساد والتدمير . قوله ﷺ في الحديث الذي رواه حُذَيْفة : « لا يدخل الجنّة قَتَّاتٌ » وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة نمّامٌ »، والنمّام من نمَ يَنِمُّ بكسر النون وضمها وهو الذي ينقل الحديث على جهة الإفساد وقتَّ يَقُتُّ

بالضم بمعنى نمَّ ، وقوله عليه السلام « من غشَّ فليس منا » وهـذا غير مَـنْ غشّنا فليس منا لأن معنى « من غش » أي من كان منه الغش مع صرف النظر عن الذي وقع عليه الغش مُسْلِمًا كان أو كـافرًا ، نصـرانيًا أو يهوديًـا ، إن الله حرّم على المسلم الغش فلا يجوز له أن يغش يهوديًـا ولا مجوسـيًا ، وذكـر الفعل من غير مفعول في هذا الحديث يعني توفر الدلالة على بيان أن الفعل يقَع من الفاعل وأن هذا الفاعل يكون منه كذا كقولنا فلان يعطي ويمنـع أي يكون منه العطاء والمنع مع صرف النظر عـن الـذي يعطيـه قليلا أو كـثيرا، ذهب أو فضة، ومع صرف النظر عن الذى يعطيه غريبًا أو قريبًا إلى آخره ، قالوا ولو غش حيوانا ، وقرأت أن البخاري ذهـب يطلـب حـديثا مـن رجـل فوجده قد غش بعيره وخدعه فرجع ولم يأخذ عنه الحديث ، وراجع الإيجاز الشديد في كلام سيدنا رسول الله : « لا يدخل الجنة نمام أو قتات » ، لم يقل إن الله حرّم النميمة وإنما عمد إلى باب الرحمة التي هـي الجنـة وأغلقـه في وجه النمّـام وكفـى ، وتأمـل أمـر هـذا في حمايـة النـاس وحمايـة الـدماء ، وحماية الأعراض ، وماذا كان يكون الحال لو استحل النـاس هـذه الرذيلـة ، واعلم أنها وإن كانت تقع في مجتمعاتنا فهى في صور قليلة جدًا ، ثـم تأمـل تجاوب هذا مع الفطرة وأن النمّام محتقر في الناس لأن هذه الخسيسة لـو لم يصرف الناسَ عنها دينهم لصـرفهم عنهـا حسبهم وأدبهـم ومـا تعلمـوه مـن آبائهم ، وتأمَّل كذلك الطهـارة الـتي يعـيش فيهـا النـاس والمجتمـع ، عنـدما يُنْتزَع الغش من حياة النـاس ، وحينمـا يُخْـرِجُ المجتمـع وتُخْـرِجُ الجماعـة صاحب خسيسة الغش منها وتجعله منبوذًا مَطْرودًا كالطريد الذي كان يكون في الجاهلية وقد تبرأ منه الناس ، وعليك أن تضع قوله عليه السلام من غشَّ فليس منا بإزاء من حمل علينا السلاح فليس منا ، وأن لا تهمل التصاقب في

المبني وأن الذي بين الكلامين كالذي بيـن « أربع من كنّ فيه » وبين « ثلاثـة لا يكلمهم الله » وكل ذلك لحماية المجتمـع مـن الشـرور والأشـرار ، وكمـا راجعنا طهارة المجتمع من الذي يزاول الغش وأن الله حرم علـى المسـلم أن يَغُشَّ المجوسي والصابئ والملحد والوثني فضلاً عـن اليهـودي والنصـراني ، كذلك حرم على أي فرد أن يحمل السلاح علينا وأنـه إن فعـل فلـيس مِنّـا ، وراجع هذا الاختصار الشديد وما وراءه من مَعْنـى لا حـدود لـه لأنـه يحـرم على المسلم أن يحمل السلاح في وجه مسلم في كل ركن من أركان الأرض، وفي كل ركن من أركان التاريخ ، وفي كل ظرف وتحت أي مبرّر وكأنه عليه السلام كـان قـد أراه الله سبحانه ما نحن فيه من بلاء حين يداهمنا رجـال منـا يحملـون علينـا السـلاح ويسـمّون أنفسـهم بأسمـاء إسـلامية ووطنيـة مثـل الجهاديين والسلفيين ومن يكفروننا ويفزعوننا . هل قرأ هؤلاء هذه الجملـة المضيئة من كلامه ﷺ ، وإذا قلت إن ظلم الحكام وبطشهم هـو الـذي خـرَّج هذه الجماعات وأن عنف الحكام هو الذي ولّد هذا العنف ، قلـت لـك هـذا مع شيوعه باطل ، لأن الخطأ لا يُواجه بالخطأ ، والإجرام لا يواجه بالإجرام ، نعم أوافقك على أن هذا من الأسباب وأخالفك على أن هذا من المـبررات ، وأزيدك بيانًا لكلامه ﷺ وأقول إن أي نظام يخرج علينا بالسـلاح فلـيس هـو الآخر منا ، لأن كلمة رسول الله ﷺ عامة لأنه لم يقل من خرج علـى النظـام أو من خرج على الشعب لأن كلمـة «مِنّـا» في كلامـه ﷺ تشـمل الجماعـة حكامًا ومحكومين فالنظام الذي يقمـع الشـعب بالسـلاح والإرهـاب والقمـع ليس منا ؛ ويجب أن يسقط . وأزيدك أن كلمة (مِنّا) تشمل من يعيشون بيننا من غير المسلمين لأن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، فمن خرج على النصارى الذين هم شركاؤنا في الوطن فليس مِنّا لأنهم مِنّا ورسـول الله ﷺ هـو الـذي

قال لهم مَالَنَا وعليهم ما علينا فالأمن لهم كما هو لنا ، وكل المخالفات لها حلول أخرى وليس منها حمل السلاح ؛ وإنما هو القضاء الذي يجب أن يكون أنقى وأطهر من ماء السماء ، وكان ﷺ يَبْعثُ في كل إقليم قاضيا يقضي في المنازعات وهذا هو النظام الراقي وحمل السلاح هَمَجِيَّةٌ يرفضها الدين ، ولاحظ أنه عليه السلام قال من حمل علينا السلاح ، ولم يَقل من ضربنا وفي رواية من سَلَّ سيفه علينا ولم يقل من ضرب بسيفه ، المطلوب ألا يُروِّع الإنسان في أرضه ، وكأن الأمْنَ جُزْءٌ من معنى الوطن ومن روَّع هذا الأمن فليس من أهل هذا الوطن ، لأنه ما دام روَّع الناس في أوطانهم فليس منهم ، والمطلوب مراجعة هذه القيمة الإنسانية العالية ، وليس فقط أن نفهمها وأن نكتبها وإنما أن نَشْعُر بأهميتها ونُشعِرُ القارئ بأهميتها . ويُشْعِرُ المسلمين بأهميتها ، وقد قلت كثيرًا لو عرف غير المسلمين ما في الإسلام من حقوق الإنسان لطالبوا بتطبيق الشريعة ، والمشكلة أن هذا مجهول ليس لغير المسلمين فحسب ، وإنما هو مجهول بهذا القدر نفسه للمسلمين وخصوصًا الذين على الساحة السياسية ويطالبون بإقصاء الدين عن السياسة لأنهم كما يصنفون أنفسهم دُعاةُ الدولة المدنية ، وهذا الذي تراه من المحافظة الشديدة على سلامة الأمة وصفائها حتى تَصْرِف كلَّ قوتها نحو العمل المُنْتج في نظر هؤلاء لا يدخل في الدولة المدنية .

بقي أن أقول إن كثرة الفِرَق التي تحمل علينا السلاح وتُسمَّى بأسماء إسلامية لم تكثر في المجتمعات الإسلامية في تاريخ المسلمين الممتد إلى خمسة عشر قرنًا إلا بعد زمن الاستعمار ، واختراق أعداء الإسلام جماعات الشباب في مجتمعاتنا واستغلال ما يجدونه من قمع وتهميش وبطالة .

واستطاعوا أن يقنعوهم بالباطل لأننا في ظل الدول القمعية لم نَسْتطع أن نُقْنِعهم بالحق ، ولهذا لا أشك أن كل من يحملون علينا السلاح يعملون لصالح اليهود مع أنني أقطع بأنهم لا يعرفون ذلك ، لأنهم صُنِّعوا صناعة ماهرة ، تعرف كيف تضلِّلُ العقل وهو معتقد أنه على طريق الرشاد ، وكيف يُدَمِّرُ قومه وهو معتقد أنه يعمل لمستقبل وطنه ، وهذا حسبي .

* * *

• ستكون هناك هنات

وكما تجد أحاديث تحرص على السلام الاجتماعي في الأُمة وتحذر من الخروج عليها ، تجد أيضًا أحاديث تؤكد الحرص على وحدة الأمة ، وسلامة كيان الدولة ، التي تقوم على رعاية الجماعة ، وأن الخروج على الحاكم له حسابات دقيقة جدًّا لأنه إذا لم نلاحظ هذه الحسابات الدقيقة أفضت إلى التقاتل في الأمة وأفْضَتْ إلى مزيد من الدماء ، وهذا مما يرفضه الشرع إلا في الحالات التي لا يجد الناس فيها وجهًا لإزالة الحاكم الجاهل الغبيِّ الذي يعمل على تخلف الأُمَّة وإضعاف مَنعَتِهَا ويُوشك أن يُسْلِمَها غنيمة باردة لأعدائها . والذي أريده الآن هو بيان بعض من كلامه ﷺ في هذا الشأن ولا يجوز أن يُفْهِم منه أنه دعوة لقبول الحاكم الفاسد وموادعته وعدم الخروج عليه ، وأن على الشعب أن يتقبل هذا الفساد ، وأن يتعايش معه . كما لا يجوز أن يفهم منه عكسُ ذلك ، لأن معرفة متى يجوز الخروج على الحاكم الفاشل الغبي الذي لا يعتمد إلا على البطش والقمع ولا يستخدم القوتين الأساسيتين في الدولة وهما الشرطة والجيش إلا في قمع شعبه بعدما ساكن العدو ، وصار في ركب القوى الحامية له ، أقول إن جواز الخروج على مثله أو وجوب هذا الخروج أو حرمة هذا الخروج لا تؤخذ من كلامي هذا لأني أرْوي أحاديث فَرْديّة والأحكام لها طريق آخر ، وهي في كتب الفقه وليست في كتب الحديث ، ولا في كتب التفسير ، لأن الفقه هو العلم الجامع للتفسير والحديث والقياس والاستنباط واجتهادات الفقهاء .

وهذه المقدمة ضرورية لأني لا أتحمَّل الفتوى في هذا الأمر الجلل . روى مسلم بسنده عن شُعْبة عن زياد قال سمعت عَرْفَجَةَ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إنه ستكون هَنَاتٌ وهَنَاتٌ فمن أراد أن يُفرّق أمر هذه الأُمَّةَ وهي

جميع فاضربوه بالسيف . كائنًا من كان» والهنَّاتُ هي الأخطاء والخلافات وما يداخل كيان الأمة من مواطن الضعف ، قال صاحب اللسان (وفي فلان هنوات أي خصلاتُ شرٍّ ، ولا يُقال ذلك في الخير ، وفي الحديث ستكون هنات وهنات ، فمن رأيتموه يمشي إلى أُمَّةِ محمد ليُفَرِّق جماعتهم ، فاقتلوه ، ويفسر صاحب اللسان الهنوات بالشرور والفساد ويُبيّن أن واحدها هَنْتٌ بفتح الهاء وسكون النون ، وقد يجمع على هنوات ، ثم قال وفي حديث سطيح « ثم تكون هنات وهنات » أي شدائد وأُمور عظامٌ) انتهى كلام صاحب اللسان . ولأُبد من ملاحظة كلمة (وهي جميع) أي مجتمعة على قلب رجل واحد ثم هي مجتمعة حول حاكم أفضل ، وماضِيَة نحو العمل الأفضل والقول الأفضل ، والتعليم الأفضل ، والتطور العلمي والصناعي الأفضل ، وهذا من معاني اجتماع الأمة ولم يكن الحاكم الجاهل الغبي المتخلّف الذي جعل أرضنا مسكنًا لجيش عدونا الألدّ ثم جمعنا حوله بقمعه وبَطْشِهِ واعتقالاتِهِ وسخّر القوتين الصَلْبتين من شرطة وجيش لقمعنا وترويعنا وقتلنا وسحلنا ، واقتحام بيوتنا وإهانة أسرنا ، لابد من ملاحظة هذا كله ، إذا جاءنا ونحن مجتمعون حول العادل الراشد الصالح التقي النظيف الطاهر غير اللص ، وغير الخائن ، وأراد تفريقنا قتلناه كائنًا من كان ، وهذا لا شك فيه ولاحظ حديث اللسان « فمن رأيتموه يمشي إلى أُمَّة محمد ليفرق جماعتهم فاقتلوه» قوله يمشي إلى أمة محمد يُشْعر بأنه ليس منها كما يشعر بأنه جاءها من خارجها لأن داخلها لُحمة واحدة متماسكة ، ثم لاحظ كلمة (أمة محمد) لأني أفهم منها معنى التماسك ، والتآزر والتساند ، والتحابٌ لأن محمدًا ﷺ هو يَنْبُوع الحُبّ في قلب وضمير وروح الأمة ، لأن قلوبنا ما اجتمعت على شيء كاجتماعها على مَحَبْته ونُصْرته والصلاة

والسلام عليه ، فكلمة أمة محمد أقوى في الدلالة على التماسك من كلمة « وهي جميع » ، لأن ذكر محمد ﷺ وهو القلب الحي لهذه الأمة ، يُشْعر بأن رباط هذا الجمع هو الحُبّ والإيثار ، ويلاحظ أن الحديث عن الذي جاء حديث عن مفرد (فمن أراد أن يفرق) ولا ينطبق هذا على فصيل من الأمَّة لم يخرج عليها وإنما خرج ليخرجها تطالب بالإصلاح وتطالب بحقوقها وغير ذلك مما تطالب به الشعوب الحرة ، لا يقال في مثل هذه الحالة إنها جاءت لتفرق أمركم وقد حدث في البلاد مثل هذا وخرج المزيفون من الشيوخ يذكرون هذا الحديث . وكما فيه دراهم زيوف فيه كذلك شيوخ زيوف وسياسيون زيوف ورؤساء زيوف . ووزراء زيوف . وهذا زمان الزيوف ، ثم إن رسول الله ﷺ قال « أراد أن يفرق » وهذا شرط في قتله يَعْني لم يرد إيقاظها كما كان يفعل الشيوخ غير الزيوف مثل محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ومن على شاكلتهم ، فهم أفراد جاؤوا الأمة لإيقاظها حتى تنهض وحتى تَنْفِيَ خَبَثَها وتَتَخَلّص من أغلال الجهل ، والقمع ، والبطش ، وموالاة العدو ، والتعامل الخفي معه ، واتهام كل من ينازعها بأنه عميل لقوى خارجية ، على قاعدة « رمتني بدائها وانسلت » ، وكل الموالين للبيت الأبيض من حكامنا هم موالون لتل أبيب ولكن بواسطة ، ولذلك تراهم يهاجمون الاتجاهات الإسلامية بقوة .

• الإمارة :

وقد روى مسلم بسنده عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنه قال « إنه يُسْتَعمَل عليكم أُمراء فتعرفون وتنكرون . فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سَلِمَ ولكن من مضى وتابع . قالوا يا رسول الله ألا نُقاتلهم قال لا ما صلوا » .

وهذا الحديث دقيق جدًا في ضبطه للمعنى وأول ما يلفتك قوله «يُستَعمَل عليكم أمراء» يعني لم تختاروهم أنتم بإرادتكم الحُرَّة، وإنما فرضوا عليكم، وطرائق الفرض مسكوت عنها وهي كثيرة وأسوأها الغلبة بالجند، واستعمال الجيش المنوط به حمايتنا في كسر عظامنا. وتهيئة السلطة للذي استطاع أن يغلب بهذا الجيش، ومن الأسوأ في ذلك أن نورَّث من حاكم إلى ولده، وكأننا متاع يورث فالولد يرثنا كما يرث حظائرُ دَوَابٍّ أبيه، وكما يرث متاع بَيْت أبيه وخزائن مال أبيه يعني أن إنسانيتنا دُمِّرت تدميرًا. وحريتنا دُمِّرت تدميرًا، وفي أحسن أحوالنا نكون كالعبيد الذين تركهم الوالد ثم إننا لم نُوَرَّث وحدنا وإنما يورث معنا أحفادنا والأَجِنَّةُ في الأرحام، بل والذين لا يزالون في أصلابنا كل ذلك يُورَّث والأرض تورَّث والمُدُن تورث، والمباني تُورَّث، إلى زمن لا يعلمه إلا الله إلا إذا نُفِخ في الصور قبل نفخة إسرافيل ونادى المنادي حيّ على الحرِّية والفلاح، والخلاص. وخرج الكل إما أن يعيش حرًا على الأرض أو يُدْفَن في باطنها وليس هناك ثالث، وهذا وجه من معنى «يُستَعْمل عليكم أمراء» لا تختارونهم وإنما يفرضون عليكم فرضًا والسيف على أعناقكم. وربما كان مع السيف مُصْحَفٌ لأن سيدنا الذي نحن عبيده يحكمنا بما أنزل الله ونحن نقول نعم. وتحت ألسنتنا عبارة أبي العلاء الساخرة: «حديث خرافة يا أم جَحْش».

وقوله عليه السلام (فتعرفون وتنكرون) كلمة من أَجَلِّ الكلمات وأصفاها وأحلاها وأتقاها وأوجزها وحين أقول أحلى الكلمات لا أتجوز وكررها لأنك ستجد لها حلاوة. وحلاوة البيان أوقع في القلب من حلاوة العسل، وكم ظُلِم البيان في الكتب لما أكثر الناس من تداول قولهم كلام كالعسل في الحلاوة. وكان من أسباب حلاوتها أن كلمة «تعرفون» تعني أن لهم أعمالاً

هي من المعروف الذي تَعْرفه العقولُ والقلوب وتُقرُّه ولا تنكره والمعروف اسم مفعول لما تعارفه الناس وقبلوه وأقرُّوه وهو يقابل المنكر الذي أنكرته الطبائع الصحيحة والأخلاق الكريمة ، وهؤلاء الأُمراء الذين فُرِضُوا علينا أو تسلطوا علينا لهم أعمال نُقرّها ونعرفها ، وأعمال ننكرها ونرفضها يعني خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا ، والقاعدة الشرعية أن الحسنات يذهبن السيئات ، وليس هذا في سياسة الناس لأنه لا يُقْبَلُ فيها إلا الحسنات ، فإن كانت السيئات فلا بد من المبادرة بتصحيح الخطأ لأن حياة الملايين وتعليمهم ومعيشتُهم وقُوّتهم التي يحمون بها أرضهم وأعراضهم لا تتحمل إلا الصالح المعروف ، وبخطوات واسعة ؛ لأن عدونا من حولنا لا تنام له عين ، وهو ذئب غادر لن يتردَّد إذا وجد اللحْظة التي يُدَمِّر فيها البلاد . وأزكى من الذي قلته وأنبل هذه الفاء التي في قوله عليه السلام فتعرفون وتنكرون ، وذلك لأنها توجب علينا مراقبة الأمير فَوْرَ مزاولته لعمل الرياسة أو الإمارة وأن تكون المراقبة مراقبة متجردة ليس وراءها مصلحة شخصية ، وإنما هي متجردة لصالح الجماعة التي هي نحن جميعًا ، ثم تكون مراقبة زكية لا ترى المعروف منكرًا ، ولا المنكر معروفًا ، وإنما ترى الأشياء بحقائقها ، تعرف الشحم وتعرف الورم ، ولا يختلط عليها من شحمه ورم ، ولن يكون على هذه الدرجة إلا شَعْبٌ أوْ مجتمع قد بلغ درجة عالية من العلم والزكاء والمستوى الفكري ، ودرجة عالية بالأحوال والمزاولات التي تَنْهَضُ بالأُمَّة أو التي تَقْعُدُ بها ، ولَفْتُ الأمة إلى خطوات القيادة السياسية وضرورة أن تكون واعية بها ، وعيًا بعيدًا عن المزايدات ، في هذا الحديث يمكن أن يكون أصلاً لما قاله أبو بكر في خطبته الأولى إن رأيتموني على صواب فأعينوني وإن رأيتموني على خطأ فقوموني ، والمهم أنك تلاحظ افتراض أن الجماعة واعية وقادرة على نقد قرارات السلطة في مختلف

الميادين ، وهذا يعني ضرورة المحافظة على هذا المستوى من الفكر والنضج وإذا كنت تنكر عليَّ شيئًا مما أقول فراجع قوله عليه السلام « يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون» ولاحظ الفاء التي ترتب ما بعدها على ما قبلها بلا مُهْلة يعني ما إن يستعمل عليكم الأمراء إلا حصلتم من متابعتكم لهم ما تعرفون وما تنكرون ، وتأمل هذا وراجعه .

قوله عليه السلام (فمن كره فقد بَرِئَ) وهذه جملة بالغة الإيجاز وبالغة السهولة وبالغة السَّعة ، واعلم أني أعتقد أن رسول الله ﷺ وبيانه العالي أجل وأرفع من أن يتزيَّد مثلي في الحديث عن كلامه ولكني أقول ما تجده ذائقتي البيانية ، لأن هذه الجملة تُحيِّزُ فصيلاً من فصائل المجتمع الذي عَرَفَ وأنكر وكَرِهَ ما أنكر فبرِئَ .

فليس هو الفصيل الذي يريح نفسه ويكتفي بحسن الظن بالقيادة السياسية ويقول إن عندها المبررات أو عندها وضوح رؤية وإنما عرف أن هذا منكر ، وأنكره ، وكرهه ، واكتفى بما يجده في نفسه من انصراف وكراهية لهذه العصابة التي تحكم . وهذه هي أول خطوة من خطوات طريق التغيير ، لأن انصراف من لهم قدر عن العصابة هو أول خطوة لكشف حقيقتها ، وتَلْفِتني هنا كلمة (برئ) لأن قصاراها أنه ليس متهما وإنما لما كره المنكر صار بريئًا . وكأنه قبل أن يكره المنكر كان مُتهمًا . وكأن الشعوب التي ترى العبث في مقدراتها والعبث في ثرواتها والعبث في تربية أجيالها ، وتلوذ بالصمت الخالي من الرفض المعبر عنه فقط بالكره هي شعوب متهمة ، وهذا عجيب جدًّا ، وقوله عليه السلام وَمَنْ أنكر فقد سلم ، ظاهر من سياق الكلام وحركة المعنى ونمو هذه الحركة أن الإنكار أعلى درجة من الكراهية وأن السلامة أعلى درجة من البراءة وأن هذا الثاني خطا خطوة بعد الأول في رفض

الممارسة التي خلطت عملاً صالحًا وآخر سيئًا ، ثم إننا نعلم أن الإنكار منه ما يكون بالقلب ومنه ما يزاد عليه إنكار اللسان ومنه ما يزاد عليه إنكار اليد، وكلمة (أنكر) لم تذكر أكثر من أنه كان منه الإنكار ، أعني توفر وقوع الفعل من الفاعل كما قلنا في كلمة (غش) وهذا المعنى المفتوح لجملة أنكر ، يجعلها تتأرجح مبتدئة من القلب ومنتهية إلى اليد مرورًا باللسان ، ولكن الشراح فسروا الإنكار بالقلب ، وهم على الحق المبين لأن الإنكار على المسؤولين لا بد فيه من حسابات دقيقة ولا أقول إنه ممنوع ، ولا حرام ، بل أقول إنه تتوارد عليه الأحكام فقد يكون حرامًا وقد يكون مباحًا ، وقد يكون واجبًا ، وكل ذلك على وفق تقديرات يجب أن تكون محسوبة ألف حساب ، لأن الإرباك في حياة الجماعة ليس أمرًا سَهْلاً يُحْدِثُه أي مغامر أو أي مجموعة من الشباب المراهق ، وكلمة « سلم » فيها معنى بعيد لست أدري هل يمكن استخراجه منها أم لا ؟ وأعني به أن كل واحد في المجتمع الذي استعمل عليه الأمير يُصيبه لا محالة شوب من صوابه ومصيبة من خطئه فهل يمكن أن يقال إن هذا الذي أنكر كان إنكاره هذا خطوة مهمة في تغيير السيئ إلى الحسن فسلم من السوء ، ولم تصبه مصائبه ، وإذا لم يصح هذا فلا بد أن يصح القول بأن الذين أنكروا منكرات القيادة السياسية قد أوقدوا شمعة على طريق الخلاص من صُنَّاع المنكرات في سياسة المجتمع .

وقوله عليه السلام (ولكن من رضي وتابع) هذا الاستدراك يعني أن ما بعده مغاير لما قبله ، وقبله فصيلان فصيل « كره فبرئ » وفصيل « أنكر فسلم » ، وهذا فصيل ثالث لم يكره وإنما رضي ، ولم يسلم وإنما تابع . وجملة « رضي وتابع » ليس فيها تأثيم صريح لهؤلاء فضلاً عن التهديد ، والوعيد ، وإن كان السياق يشير إلى أنهم دون الذي كره والذي أنكر ، وهذا

الاحتياط الشديد في اللفظ يفتح بابًا لمعنى آخر هو أنَّ وجهاتِ نظر الناس في القيادة السياسية التي خلطت عملاً صالحًا وآخر سيئًا تختلف فقد تنظر إليها من جهة معروفها فترضاها ، وتتبعها ، وقد تنظر إليها من جهة مُنْكَرِها فَتكْرَهُهَا وتُنكرها ، والمهم أنك لا تبرأ من التهمة إلا إذا كنت متجردا في كرهك ، وإنكارك ، ورضاك أيضًا ، وأن حسابك على الله الذي يعلم ما في نفسك ، وراجع كلمتي (رضى وتابع) ولماذا جاءت هذه المخالفة بين الفعلية والاسمية في الرضى والمتابعة ، وكان يمكن أن يقال ولكن من رضى وتبع ، أو يقال ولكن راضٍ وتابع ؟ وظاهر أن صيغة فاعل في قوله تابع تدل على الثبوت والاستمرار ، يعني هو تابع متابعة دائمة ومستمرة ، لأنه رأى مصلحته في هذه المتابعة وأنه يعيش تحت مظلة هذا الأمير ، ولا يَعْنيه شيء آخر ، وهؤلاء هم جماعة المنتفعين بمثل هذا النظام الذي لم يكن سيئًا كله فيقطعه الكل ، ولم يكن صالحًا كله فيتبعه الكل ، وإنما كان بين بين ، ومثله لاتنهض به جماعة ولا تقوى به عدة ولا يَحْمي ولا ينهض وإنما يبقى قصِيرَ الخُطَا وحوله عصابات المنتفعين الذين يذكرون معروفه ويسترون منكره ، وهذا هو سر التعبير بالاسم في قوله « تابع » أما سر التعبير بالفعل الماضي في قوله « رضى » فلا أعرف له معنى إلا معنى واحدًا . هذا المعنى الواحد ناتج من أن صيغة الماضي تدل على أن الفعل كان بعد أن لم يكن يعني أن الرضى كان وحدث ولم يكن قبل حدوثه رضى ، وهذا يشير إلى أن هذا الفريق الذي رضى وتابع وقف في أول الأمر ، وتوقف وراجع ورأى مصلحته في المتابعة فرضى وتابع ، وأن حسابه لم يكن كحساب الذي كره فبرئ ، والذي أنكر فسلم أعني حساب مصلحة الأمة وأن هذه قيادة يداخلها خلل لأنها تنتج صالحا وآخر سيئًا ، ومصلحة الملايين لا تتحمل هذا العمل العشوائي الذي يصيب مرة ويخيب مرة .

وقد فهم أصحاب رسول الله ﷺ أن الذي رضى وتابع لم تكن حساباتهم مؤسسة على مصلحة الجماعة وإنما هم كالذين تراهم حولك كلاب حراسة وإن كانوا من ذوي الياقات البيضاء ، وكلاب الحراسة تحرس وتنهش بأنيابها من يرمي بحجر جهة الفاشلين ثم هي تأكل من فضلات السادة الذين تحرسهم ، أقول فهم الصحابة هذا المعنى فقالوا لرسول الله ﷺ « ألا نقاتلهم » وهذا السؤال مؤسس على الكلام قبله والكلام قبله نبوءة النبي ﷺ وأنه سيكون كذا والصحابة حين يسألون عن أحوال ليست واقعًا لهم وإنما ستقع لهم أو لغيرهم إنما يتعرفون على الأحكام التي يجب أن تلتزم بها الأجيال وأننا نحن الآن حين يستعمل علينا من نعرف منه وننكر ويكرهه بعضنا فيبرأ لدينه ولقومه ، وينكره بعضنا فيسلم ويتبعه بعضنا فماذا نفعل هل نقاتله ، وهذا جوهر سؤال الصحابة رضوان الله عليهم ، وأنهم لا يتركون مثل هذا الأمر الجلل للرأي والهوى لأن المقاتلة بين أبناء الأمة من أخطر وأسوأ وأصعب ما تقع فيها الأمة ، وأنها تَقْبَل الخطايا التي هي دونها والتي لا تُحْسَمُ إلا بالحرب لأن الحرب تَضْري إذا ضرَّيْتمُوها فَتَضْرَم ، وحينئذ تأكل الأخضر واليابس وتورث تارات وحزازات تبقى أجيالاً وهذا خطرها حين تكون بين أبناء الشعب ، أما بينهم وبين عدوهم فلها شأن آخر ويجيب سيد الأمة صلوات الله وسلامه عليه بالنفي الصريح القاطع ويقول « لا » ثم يبين حرمة دمائهم وأنهم منكم وأنهم يسجدون لله كما تسجدون ويقفون بين يديه كما تقفون وأن هذا الدين رحم يحفظ به الدماء وكلمة « ما » في قوله عليه السلام (ما صلوا) أي مدة ما صلوا فإذا تركوا الصلاة وخرجوا من أن يكونوا من الذين يقيمونها فقاتلوهم وفيه إشارة إلى أن هذا الظالم وهؤلاء المنتفعين حوله ليسوا من قلب الدين ، وإنما هم على شاطئ من شواطئه ،

وليس غريبًا أن تراهم يومًا من غير أهله ، لأن المعنى لا تقاتلوهم زمن صلاتهم فإذا لم يصلوا فقاتلوهم ، وفي هذا إشارة إلى أن الصلاة هي أمارة الإسلام فإذا عدمت هذه الأمارة فليس على الإسلام أمارة أخرى ، وكلمة صلوا هنا معناها ما شهدوا الشهادتين ولم يأتوا كفرا بواحا لكم عليه من الله سلطان ثم إن الصحابة رضوان الله عليهم إنما سألوا عن ذِرْوة الصّدام مع هؤلاء الأمراء الذين عرفنا منهم وأنكرنا والذين حولهم عصابة تابعة لهم ولم يسألوا عن الذي قبل ذلك الصدام ، لأنه معلوم ومنه النصح وكلمة الحق عند السلطان الجائر والتنبيه إلى ما عليه الناس من رفض وتذمّر وأنهم في سبيلهم إلى العصيان إلى آخره ، ثم يلاحظ أن رسول الله ﷺ نَهَى عن المقاتلة ، ولم يَنْه عن الذي قبلها ومنها المطالبة بالتّنحيِّ ونقل السلطة إلى الذي هو الأفضل ، ومنها الآن المظاهرات السلمية ومنها أيضًا العصيان المدني ، وكل ما من شأنه أن ينزع الملك من هذا الأمير والعصابة التي حوله وإنما يُستثنى من كل تلك الوسائل وسيلة واحدة وهي المقاتلة ، وذلك لعظم حرمة الدماء لأنه لم يقع على هذه الأرض جريمة أبشع من جريمة القتل ، ثم إنها تنتج اليتيم والأرملة والأم الثكلى إلى آخره ، وقبل ذلك هي هدم لقوة الأمة ، وأسوأ ما يمارسه نظام هو أن يقتل أبناء شعبه ، وكأنه يُمَهّد الأرض للعدو الذي لن يجد مقاومة لأن الرجال قتل بعضهم بعضًا ، هذه هي الخُطُوط الحمراء التي شدّد الكتاب والسنة على ضرورة البعد عنها ، وحديث آخر هو من هذا الحديث بسبيل متين قوله ﷺ : « خيارُ أئمتكم الذين تحبُّونَهُم ويُحِبُّونكم وتُصَلُّون عليهم ويُصَلُّون عليكم ، وشِرَارُ أئمتكم الذين تبغضونهم ويُبْغضُونكم وتَلْعَنُونهم ويَلْعَنُونكم ، قالوا قلنا يا رسول الله أفلا نُنَابِذُهَم عند ذلك ؟ قال : لا ما أقاموا الصلاة ، لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، ألا من وَلِيَ

عليه وال فرآه يأتي شيئًا من معصية الله فليكره ما يَأتِي من معصية الله ، ولا ينزعنَّ يدًا من طاعة».

قال الراوي فقلت لزريق يعني الذي حدَّثه هذا الحديث آلله يا أبا المقدام سمعت عَوْفًا يقول سمعت رسول الله ﷺ قال : قال فَجَثَا على رُكْبَتِيه واستقبل القبلة ، فقال أي والله الذي لا إله إلا هو لسمعتُه من مُسْلم بن قَرَظة يقول سمعت عَوْف بْنِ مَالِك يقول سمعت رسول الله ﷺ .

هذا الحديث وإن كانت نهايته هي نهاية الحديث الذي مضى وهي النهي القاطع عن المقاتلة ما أقاموا الصلاة فينا إلا أن بينهما فروقًا مهمة ، أبرزها أن الوالي في الحديث الذي مضى كان منه ما نعرف ومنه ما ننكر ، والوالي هنا إما يحبنا ونحبه ، يعني يَرْضانا ونَرْضَاهُ وإما يكرهنا ونكرهه فليس من الوالي الذي خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا ثم إن حالة الوالي هناك رَشَّحت لوجود جذر المعارضة غير المسلحة ، والتي لم يَرْفضها الحديث لأنه رفض المقاتلة فقط ، هذا الجذر تراه في الذي كره فبرئ والذي أنكر فسَلِمَ لأن هذين النموذجين لا بد أن يعبرا عن موقفهما الرافض لسياسة هذا الأمير ، ولا بد أن يكون الرفض غير مُسَلّح وبهذا تبزغ صورة المعارضة التي هي الآن ضرورة لكل نظام سياسي حتى لا يترك له الحبل على الغارب لأنه يرى في المعارضة الواعية والعاقلة والمتجردة عينا ترقبه فيتحسّس موضع قدمه ، والمعارضة الراقية النظيفة موجودة مع ولادة انتقال السلطة من رسول الله ﷺ وهو معصوم إلى أبي بكر وهو غير معصوم وهو الذي طلب تكوينها لما قال إن أحسنت فأعينوني وإن أخطأت فقوموني وهذا أصدق وأدق منهج تسلكه المعارضة المُخلصة الرشيدة ، والأنظمة التي لا تسمح بوجود معارضة هي بقايا أثريّة من مخلفات عصور الاستبداد التي تجاوزتها الأمم ، هذا وجه من الفرق بين الحديثين الشريفين .

وراجع هذا الحديث وتبين كيف وصف من أحوال الولاة حالتين . الأولى هي نهاية الحب والرضى بين الشعب وقيادته ، والثانية هي نهاية حالة البغض والسخط بين الشعب وقيادته ، ثم راجع هذه المقابلة في الصِّيَاغةِ وهذه السهولة في البيان ، حتى إنك لتحفظ الحديث من القراءة الأولى وهذا من أهم ما في البيان النبوي وهو سهولة حفظه لأنه دين ويجب أن يبقى في الصدور .

بدأ القسم الأول بقوله عليه السلام خيار أئمتكم وهذه كلمة سَهْلة وعذبة وتبعث على ما يتم به هذا المعنى لأن الذي يصفه رسول الله ﷺ بالخيار من شأن النفس أن تتشوّق إلى معرفته ثم إنها تقول خيار أئمتكم ، والنفوس مشغولة بأحوال من في أيديهم الأمر لأن صوابهم فيه خير للكافة ، وخطأهم فيه شر للكافة وكل هذا يشوّق إلى معرفة الصفة التي جعلت هؤلاء خياراً .

وقوله عليه السلام « الذين تحبونهم ويحبونكم » فيه نفحة من البيان العالي وذلك لأنه عليه السلام لم يقل الذين يَعْدِلُون فيكم ، أو الذين يقومون على رعايتكم ، ورعاية المحتاجين منكم ، ومثل هذا هو المتوقع عند ذكر الولاة ، وإنما قال يحبونكم فاستوعب كل ما يَفْعَلُه لكم من يحبكم من رعاية رشيدة لكم ولأولادكم ، وأحفادكم من تعليم ، وصحة ، وتقدم في البلاد وتقدم في صناعتها ، وازدهارها وعدتها ، وعتادها ، وجيشها ، واحترام كل مُواطن وإنفاذ القانون على الكل ، بالاحترام ، البالغ إلى آخر ما يزرع الحب في قلوب المواطنين وقدم قوله (تحبونهم) على قوله (ويحبونكم) ليشير إلى أنهم يقومون وهم صادقون على خدمتكم فتحبونهم ولم يَصْنَعُوا ذلك اجتلابًا لمحبتكم وإنما أداء لواجب لا بد أن يكون ولو قدم يحبونكم لربما أفاد أننا نحبهم لأنهم أحبونا ، وليس هذا بمراد وإنما نحبهم لصدقهم وجدهم

وعملهم الدائم لصالح الإنسان المواطن على هذه الأرض وصالح مستقبله ومستقبل أجياله ، وقوله عليه السلام «وتصلون عليهم ويصلون عليكم» الصلاة معناها الدعاء والفعل المضارع من هذا والذي قبله معناه أنه حب يتجدد ، وصلاة تتجدد ، وذلك بتجدد إنجازاتهم الناهضة بالبلاد ، ويتجدد تجردهم ، وبعدهم عن الريبة ، وأنهم لا يقدمون إلا أصحاب الكفاءات ، وتقديم تصلون عليهم فيه المعنى الذي قلناه في تقديم تحبونهم ، يعني أنتم تدعون لهم لجدهم ولعملهم وليس لأنهم يدعون لكم فلو قال يصلون عليكم وتصلون عليهم لكان من الممكن أن تكون صلاتنا عليهم جزاء لصلاتهم علينا وليس ذلك بمراد ، وإنما المراد أننا أحببناهم لخدمتهم البلاد والعباد ودعونا لهم لخدمة البلاد والعباد ، وجملة «وشرار أئمتكم» إلى آخر الحديث معطوفة على جملة خيار أئمتكم وهذا من المقابلة التي بها تتحقق حقائق الأشياء فحقيقة الخيار ، تعرف إذا وضعنا بإزائها حقيقة الأشرار ، وحقيقة الحب تعرف إذا وضعنا بإزائها حقيقة البُغْض ، وحقيقة الدعاء تعرف إذا وضعنا بإزائها حقيقة اللعن ، وهكذا تجد هاتين الجملتين تضيئان أمرًا جليلاً جدًّا من حياة الناس فليس أفضل من وال يُحِبُّنَا ونحبه ، وليس أبغض من وال يكرهنا ونكرهه .

وأُنَبِّهُ إلى قيمة المضارع وأننا نبغضهم بُغْضًا من بَعْد بُغْض ما داموا فينا ، وهم كذلك يبادلوننا بغضا يتجدَّد ، ولعنا يتجدد وهذا أسوأ ما يكون عليه الناس ، وأكتب هذا في آخر عمري وقد رأيته رأي العين ولا شك أن الاستبداد يهيىء الأرض لغزو العدو وما استبد جيش بشعبه ثم دخل حربًا إلا هزم فيها ونسأل الله السلامة ، وقولهم : قلنا يا رسول الله «أفلا ننابذهم عند ذلك؟» المنابذة الحرب ، والفاء تعني أفيؤذن لنا فننابذهم عند ذلك ؟ والمراد

الأئمة الذين نبغضهم ويبغضوننا ونلعنهم ويلعوننا وهذا غاية ما تكون عليه سوء العلاقة بين القيادة وشعبها ، والصحابة لعلمهم الأكيد حرص دين الله على حقن الدماء لم يجدوا في أنفسهم ما يبيح لهم حرب هؤلاء البُغَضَاء الذين أصبَحتْ مقاليد البلاد في أيديهم وهم لم يحسنوا إلى شعب يُبْغضُهم ويبغضونه ويلعنهم ويلعنونه . ويأتي جواب رسول الله حاسمًا قاطعًا مؤكدًا بحرمة حربهم فيقول عليه السلام «لا ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ما أقاموا فيكم الصلاة». ويكرر النهي مع أنه لم يكرره في حديث أم سلمة مع الأمراء الذين نعرف منهم وننكر ، ووجه ذلك أن الذين في حديث أم سلمة أمراء خلطوا عملاً صالحًا وآخر شيئًا والذين هنا عملوا عملاً سيئًا بَحْتًا ، فوجب التوكيد مع الذين عملوا عملاً سيئًا بحتًا لأن هذا العمل السيىء البحت مَظنّةً أن يُغري بحربهم ، ثم يلاحظ شيء أن الأمراء في حديث أم سلمة خلطوا كما قلت عملاً صالحًا وآخر سيئًا والحديث الذي معنا فيه فريقان من الأئمة فريق عمل عملاً صالحًا بَحتًا وفريق عمل عملاً سيئًا بَحْتًا وكأنك لو وضعته على حديث أم سلمة لالتأم الفريق الذين هم خير الأئمة مع ما نعرفه من الفريق الأول والتأم أشرار الأئمة مع ما ننكره من الفريق الثاني ، وكأن هذا الحديث فصَّل العملين السابقين وخص كل فريق بعمل ، وكل هذا في كلام سيدنا رسول الله ﷺ يُغْري بكتابة الأشباه والنظائر في الحديث وجمعها وتصنيفها وبيان فروقها كما هو الحال هنا ، ولا بد أن نذكر بأن المنهي عنه هو المقاتلة ، وكل ما دونها مباح ، في سبيل خلوص الشعوب من حكام السوء وشرار الأئمة ، ولا يجوز أن نُحمّل كلام رسول الله ﷺ ما لا يحتمل فأستشهد بهذا الحديث والذي قبله على حرمة التظاهر الذي تعبر به الشعوب عن معارضتها لأن الحديث خاص بالمقاتلة والمنابذة وكذلك قوله عليه

السلام في هذا الحديث «ألا من وَلِيَ عليه وال فرآه يأتي شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعنّ يدا من طاعة» أقول هذا خاص بالمعصية كأن سمعه يكذب أو يخلف وعدًا أو يغدر في عهد أو يخون أمانة كل هذا من المعصية وليس كفرًا بواحًا . والنهي عن نزع اليد من الطاعة مُقَيَّدٌ بما يزاوله الحاكم سن مَعْصيةٍ أما ما يزاوله من فساد وإفساد وسرقة ممتلكات الشعب وموالاة العدو الألد وإفساد التعليم والصحة ودخول البلاد في طريق التخلف الذي يمكن العَدُوّ منها فلا يدخل فيه النهي عن نزع اليد عن الطاعة لأن السكوت عن هذا والسمع والطاعة مع هذا التردّي يُفْضِي إلى تمكُّن أهل الكفر من ديار أهل الإسلام ، وعلى كل حال كل الوسائل التي يمكن أن تخلص الناس من هذا الجاهل الغبيّ المغامر الذي سيطر عليه رجال متهمون في صِلاتهم بالعدو كل وسائل التخلّص منه مباحة إلا المقاتلة ، ونزع اليد من الطاعة شبيه بما يُسَمّى الآن العصيان المدني ، لأن العصيان المدني نزع جزئي وليس نزعًا كليًا . ثم راجع عبارة رسول الله ﷺ ، وكيف بدأها بقوله (ألا) التي تفيد أن الذي يأتي بعدها كلام له شأن وله خطر ، وله بال ، ثم قوله عليه السلام «من وَلِيَ عليه والٍ» يعنِي هو لم ينتخبه وإنما فرض عليه من جهة الخليفة أو الإمام الأكبر أو فرضه نظام الملك الوراثى الذي هو من مخلفات عصور الانحطاط . وقوله فرآه يأتي شيئًا من مَعْصِيَةِ الله ، يفيد أن الذي رآه من الوالي شيء من المعصية وإنما يَسْتَعْظمُها الناس لأن الأصل في الوالي أن يكون بعيدًا عن الشبهات ، وهذا يعني أن الأصل في الذي يلي أمرًا من أمور الناس أن يكون صالحًا زاكيًا . في قلبه خشية من الله   أما الفجرة والفسقة والحشاشون وأهل الرِّيَب فالأصل ألا يؤمنوا على مثل هذه الأمانات ولاحظ أن الوالي هنا لم يوصف

بعلم الفقه ولا بعلم الحديث وإنما فقط أن يكون بعيدًا عن الشبهات في سلوكه ، وتعامله ، يعني هو رجل مدني يفهم وله دين يَعْصِمه من المَعْصِيَة وكفى . وقوله عليه السلام «فليكره ما يأتي به» إشارة إلى ما في الحديث السابق من ذكر الذي كره فبرئ ، ولا يجوز لنا أن نتقبَّل السقوط في المعاصي من مسؤول ، والدرجة المُنْجِيَةُ هي أن أكره ما يأتي به ، ولا أنزع يدًا من طاعة أما أن أقاربه وأركن إليه فذلك مَنْهِي عنه ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ . وتأمَّل الضبط الدقيق للعلاقة هو يكره ما يأتي به من معصية ولكنه لابد أن ينقاد للقانون والنظام المكلف به الوالي ، لأن ضبط حركة الحياة على أساس الأعراف والقوانين المرعيَّة في النظم ليست مما يتهاون فيه ، وليست متروكة لرضى الشخص أو غضبه وحُبُّه أو كرهه ، وهذا جيد جدًّا .

وقول الراوي (فقلت لزريق ـ يعني الذي حدّثه ـ آلله يا أبا المقدام سمعت عَوْفًا يقول سمعت رسول الله ﷺ قال : أراد الراوي أن يستوثق من أن رسول الله ﷺ قال هذا الحديث ، وهذا أمر لا غرابة فيه ، ويُضَاف إلى ذلك ما في الحديث من غرابة استشعرها هذا الصحابي الجليل ، وهي تحريم منابذة الحاكم الذي يكرهنا ونكرهه ، أو يُبْغِضُنا ونُبْغِضُه كما قال رسول الله ﷺ لأن البغض أشد الكره ، ولابد أن نذكر أن العرب لم يكونوا أصحاب دولة ، وإنما كانوا قبائل وأنهم لم يعرفوا الحاكم العام أو الخليفة ولم يعرفوا نظام الولاة الذين يَبْعَثهُم الحاكم ، كل ذلك لم يعرفوه إلا في حياة رسول الله ﷺ وبعد ما فتح الفتوح وبعث رسول الله ﷺ ولاته وعماله وقضاته إلى الأقاليم وصورة الإمام الذي يكره شعبه ويكرهه شعبه ويَلْعَنُ شعبه ويلعنه شعبه صورة أخبر بها رسول الله ﷺ ولم تكن عرفت في الواقع

وإنما عُرِفَتْ بعد ذلك بزمن ، وكان الصحابي يعرف أن الحاكم الظالم لن يخلع إلا بالسيف ، إذ لم تكن هناك وسائل عرفت في مثل هذه الأحوال المتوقعة إلا السيف ، حتى إنّ الصحابي قال لعمر لو أخطأت قومناك بسيوفنا ، وهذا الذي قاله الصحابي لسيدنا عمر لم يكن تشريعًا وإنما هش له عمر ولم يَرُدُّه لأن عمر أراد أن يلتفت الناس إلى الذي في يده الأمر ، وأن يَرْصُدُوا أفعاله ، وأن يحاسبوه ، وليس معنى قول أبي بكر وقول عمر من بَعده وإن أخطأت فقوموني أقول ليس معنى هذا التقويم بالسيف لأن هذا فتح باب يأتي بشر كثير .

وقوله « فجثا على ركبتيه واستقبل القبلة وقال إلى آخره » الجثو على الركبتين في مثل هذا السياق إعلان عن حضور جلال الحق سبحانه وأن القائل يقول ما يقول وكأنه بين يدي الله فلا يقول إلا حقًا وصِدْقًا وقد جثا عمر في مجلس رسول الله ﷺ لما استشعر غضب رسول الله ﷺ من بعض من سألوه في حديث سنذكره إن شاء الله . وإذا كان صلوات الله وسلامه عليه قد حذّر من مقاتلة ومنابذة الإمام الذي يكرهنا ونكرهه ، ويلعننا ونلعنه ، فإنه عليه السلام خاطبه خطاب تهديد ووعيد وحذّره من غضب لا طاقة له به والأحاديث في ذلك كثيرة وقبل ذكر بعضها أشير إلى شيء يجب أن يكون حاضرًا في نفس كل من شهد بالشهادتين وأن يكون حاضرًا حضورًا أكثر في نفوسنا جميعًا ونحن نزاول أي عمل صالح ، وأن يكون حاضرًا حضورًا أكثر وأكثر ونحن نصلي ونسلم عليه صلوات الله وسلامه عليه ، هذا الشيء هو أنه ﷺ بيّن لنا أن كل من شهد الشهادتين هو منه ﷺ ومن جماعته الكبيرة التي يسميها أُمته وأنهم جميعًا حَوْزَتُه ﷺ وحماه ، وحرمه ، وأنه عليه السلام يَغْضَبُ إذا أُوذِيَ مُسْلِمٌ وظلم كما يغضب أحدنا إذا ظلم

واحد من أهله وبني عمه ، وكما نرى أن من ظلم واحدًا من أهلك فقد ظلمك ومن اعتدى على واحد من أهلك فقد اعتدى عليك كذلك من ظلم واحدًا من أمته صلوات الله وسلامه عليه فقد ظلمه ومن اعتدى على واحد من أُمته فقد اعتدى عليه ، والعجيب أن هذا ليس خاصًا بالصالحين من الأُمة وإنما هو عام في كل من شهد الشهادتين برًا كان أو فاجرًا ، كما يحدث منك ومني ، وأن من اعتدى على واحد من أهلي ، فقد اعتدى علي من غير أن يكون هذا الواحد من أهلي بَرًا أو فاجرًا ، وقد قال عليه السلام في هذا المعنى كلامًا كثيرًا وذلك من مثل قوله عليه السلام «من خرج على أمتي يَضْرِبُ برَّها وفاجرها ، ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي لذي عَهْدٍ عَهْدَه فليس مني ولست منه» لاحظ قوله عليه السلام «من خرج على أمتي» ولم يقل من خرج علينا بسيفه ولاحظ الفرق بين علينا وعلى أمتي . وأن الكلامين يتفقان في وحدة الأمة أعني كل من شهد الشهادتين وأنها أمة واحدة وأنه عليه السلام منها وكأن الذي حمل عليها السيف حمله علينا وهو عليه السلام بيننا ، وأن الذي حمل السيف على من شهد الشهادتين من الأفغان حمله عليّ وعليك لأننا جميعًا لنا شرف الدخول في كلمة (علينا) أعني ناء المتكلمين ، كما أقول حمل اليهود علينا السلاح وأنا أعني المصريين الذين أنا منهم كذلك أقول حمل الأمريكان علينا السلاح وقد حملوه على مسلم في أفغانستان أو في باكستان أو في تركيا إلى آخره ، كلمة (نا) الدالة على المتكلمين في كلامه ﷺ تعني الأمة والشرف الباذخ لي ولك أننا داخلون في لفظه عليه السلام ، وفي الحديث الذي معنا قال عليه السلام «من خرج على أمتي» فأضافت هذه الإضافة معنى زائدًا وهو أننا جميعًا أصبحنا مضافين إلى ذاته الشريفة ، والإضافة إلى ياء المتكلم في مثل هذا المقام فيها مزيد

من القرب والوُدّ والتراحم والحميميَّة ، وأن الذي يضرب برنا وفاجرنـا إنمـا يضرب من أضافهم المصطفى إلى ذاته الشريفة ، وصيَّرهم في حمـاه ، وفي حَوْزَتِهِ كما أن أهلك وعشيرتك في حماك وفي حوزتك ، وهذا اعتداء مباشر عليك وكذلك فعل هذا الذي خرج على أمته ﷺ اعتداء مباشر عليه صلوات الله وسلامه عليه ، ولابد أن تذكر أن هذا ظاهر في أن الأمة كالجسد الواحـد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحُمَّى ، وأن المؤمنين إخوة . وأنه عليه السـلام أبٌ لهـم وأن أزواجـه علـيهن السـلام أمهـات لنـا ؛ المسلم الصيني والهندي والأفغـاني والتركـي أخـي مـن آذاه فقـد آذانـي وإذا استنصرني فعليّ النصر ، وهذا ظـاهر وإنمـا كتبتـه لأنـه فكـر يُـؤَثَّم الآن في مصر المحروسة ، ويقول رجال من النُّخْبة المختارة في الليل الطـامس الـذي تعيشه مصر الآن إنه لا يعرف شيئًا اسمه الأمـة الإسـلامية ، ويستشـهد علـى عـدم وجـود شـيء اسمـه الأمـة الإسـلامية بأنـه لا يعـرف شـيئًا اسمـه الأمـة المسيحية ، وهذا الجهل الفاضح يَبُثُّه إعْلام الكذابين ويتلقـاه الجيـل الجديـد المغيَّب عن كل الذي أنا فيه الآن ، ولذلك أبـادر بكتابـة هـذا قبـل أن يسـقط القلم من يدي ، وكلام سيدنا رسول الله لابـد أن يُحَلَّـلَ حتـى نعـرف كنهـه ، وأي رجل هذا الذي يخرج على الأمة المبثوثة في هذا الكوكب يضرب برّها وفاجرها وهي لم تكسر يده الـتي يضـربها بهـا ؟ لا يتصـور أن يكـون هـذا رجلاً فردًا ، ولو تصورنا أنه رئيس عصابة فإن قانون الدولة يحمي الناس منه ، ولابد أن يكون هذا المذكور في الحديث وراءه قوة تكسـر هـذه الأمـة أعـني الجيش والشرطة لأنه لا يستطيع كائنًا من كان أن يضرب برَّنـا وفاجرنـا إلا إذا كان مَحْمِيًا بهاتين القوتين ، ويوم تكون هاتان القوتان أدوات قمع وبطش وظلم لنا فلن يكون عندنا أسوأ من هذا اليوم ، ولا يمكن أن يكون هذا مـن

غير المسلمين لأن قوله عليه السلام فليس مني ولست منه ، إبعاد له عن الأمة ولو كان من غيرها فليس منه عليه السلام خرج أو لم يخرج ، إذن هذا الحديث متوجه إلى الحاكم الظالم الذي يستظهر علينا بأبنائنا الذين هم رجالنا في الجيش والشرطة ولا نستطيع الخلاص منه إلا إذا خلصنا منه القوتين اللتين يستظهر بهما على ضربنا وهما المسؤولان عن ذلك ، والتوعية في الجيش والشرطة يجب أن تكون توعية دينية ليتحملوا مسؤوليتهم أمام الشعوب لأنهما لو كانا مسؤولين عن تكسير عظام الشعب وبَقِيا كذلك فهذه خيانة لأننا إذا دمّرنا الإنسان الذي على الأرض فلن يبقى للتراب قيمة ، ولو وجدت لكلام رسول الله ﷺ معنى غير هذا فَبَيِّنْهُ للناس ، وقوله عليه السلام (ولا يتحاشى من مؤمنها) فيه دلالة على أن الإيمان أعني النطق بالشهادتين تَعْصِمُ النفس والظهر والأرض والعرض ، وأن على المؤمن أن يتحامى أهل الإيمان وأن يهابهم ويتحاشاهم لأنهم عصموا أنفسهم وأموالهم وأعراضهم بالإيمان ، ثم إن هذا احتياطا جيدًا جدًّا وهو أن كلمة الإيمان هنا تتوافق مع قوله قبلها بَرّها وفَاجَرها ، لأنهما معًا من أهل الإيمان ولو قال ولا يتحاشى صالحها أو ولا يتحاشى أبرارها لم يكن الكلام ملتئمًا . وقوله عليه السلام «ولا يفي لذي عَهْدٍ عَهْدَهُ» يقرب هذا الرجل الذي خرج يِضَرْبُ الأُمّة من الحاكم لأن كل فرد في الناس له على الحاكم عَهْد وذِمّة ، وهو أن يعدل معه وأن يحفظ له ماله وعرضه وكرامته وحقّه وظَهْرَه ، فإذا ضَرَبَ ظهره فقد نقض عَهْدَه ، والعجيب أن الله حمى ظهر المسلم ، ومعنى حماه جعله في حماه وأن من يضرب ظهر المسلم من غير حق فهو لم يعتد على المسلم فقط وإنما اعتدى على الله ؛ لأن الله جعل ظهر المسلم في حماه ، وإذا رأيت الإهانة والتعذيب والركل بالأحذية الميري في وجوه أصحاب اللحى وأهل

الصلاح والدين في مصر المحروسة في هذه الأيام السوداء ورأيت صمت الذين صدَّعوا رؤوسنا بالحديث عن حقوق الإنسان رأيت ما لا تُقرّه شريعة الغاب ورأيت كلابًا شَرِسَةً مسعورة تدمِّر الإنسان قبل أن يقتلوه ، ورأيت جثامين تُحرق بعد قتلها وليس هناك كلمة عن حقوق الإنسان . وليس هناك كلمة إنكار من المؤسسات الدينية المعتبرة في البلاد والذين يتكلمون يبررون ويشمتون ، وظهر فجأة شياطين غبية حولت البلاد إلى جحيم . أقول إذا رأيت كل هذا حسبت أننا رجعنا إلى ما قبل الجاهلية الأولى وتعجب حين تسمع أن كل هذا من أجل الوصول إلى الدولة المدنية الحديثة . ومن أجل الوصول إلى الحرية والديمقراطية ومصر الحديثة يعنى نُهان لنصل إلى الحرية وتُجْلَدُ ظهورنا لنتعلم الديمقراطية .

وقوله عليه السلام « فليس مني ولست منه » لا يجوز أن يفهم منها تكفير هؤلاء البغاة ، لأنهم يشهدون الشهادتين ، وليس في وُسع أحد أن يكفر بالله من قال لا إله إلا الله ، ولا في وُسْع أحد أن يُخرج من الملة من شهد أن محمدًا عبد الله ورسوله ، وإنما هو كلام أخرج مخرج التغليظ ، والتشديد ، كقوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فسميَّ الذي لم يحج كافرًا وهو ليس بكافر ، وراجع قوله عليه السلام « فليس مني ولست منه » وإنما قدم الأول للإشارة إلى أنه لما خرج على أُمتي يضرب بَرَّها وفاجرها فقد اختار هو ألا يكون منيٍّ لأنه لو استشعر أنه مني ما فعل ذلك ، وقوله عليه السلام « ولست منه » فيه معنى أن من لم يفعل ذلك ومثله فهو من رسول الله ﷺ . وكأنه قطعة منه صلوات الله وسلامه عليه ، وحين يَستَشْعِرُ المسلمُ أنه من رسول الله ﷺ ومن لَحْمِهِ ودَمِهِ فإن هذا يُدْخِلُ على قلبه ألف مَسَرَّة ويدعوه إلى مزيد من الزلفى

ومزيد من الاقتراب ومزيد من الطهر ، ومزيد من الحبِّ ومزيد من العلم ومزيد من الخشية إلى آخر ما كان عليه سيد الأولين والآخرين ، وعليك أن تستشعر أنك بَضْعَةٌ من سيد الأولين والآخرين وناهيك بهذا عزًا وكرامة وأن تَسْتَشْعِرَ أن كل الذين منه عليه السلام بهذه المنزلة ، ولذلك كان الرفق بهذه الأمة من أقرب القربات حتى إنه عليه السلام رأى رجلاً يتقلَّب في الجنة بسبب غصن شوك أزاحه عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين . أزاح عن الطريق ما يؤذي المسلمين بَرَّهُم وفاجرهم فتقلّب في الجنة راجع أنا منه وهو مني ، الذي تأسس عليه قوله عليه السلام فليس مني ولست منه ، وبيّن لهؤلاء الغافلين والمغفلين أنهم من رسول الله ﷺ وهو منهم ، حتى يَنْفُضُوا الغَفْلة والتغفيل . واعلم أن الذي يزيل عن طريقك غصن شوك حتى لا يؤذيك يكافأ على ذلك بأنه يتقلب في الجنة ، اعلم منزلتك عند الله لتستحيي من نفسك أن تعصيه .

ومن أشباه هذا الحديث ونظائره قوله عليه السلام « يكونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لا يهتدون بهداي ولا يَسْتَنُّون بسُنَّتِي ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنسيّ» وكلمة «لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي» تنفي عنهم الهدى والسُّنن الصالح ويدخل في هذا من بالغ في الضلال وخرج يضرب برها وفاجرها . وبالغ في العسف فكرهها وكرهته ولعنها ولعنته ، ويدخل أيضًا من كان منه ما تعرف وتنكر ، وهكذا ترى الأحاديث كما قلت تجتمع وتفترق وتُجْمل وتُفَصِّل ، وإذا وَضْعت بعضها بإزاء بعض رأيتها تلتئم من جهة وتبتعد من جهة . وكشف وجوه الالتئام والابتعاد والاقتراب من البحث في أسرار بيان النبوة وأسرار بلاغتها وليست المسألة فقط عند التشبيهات والمجازات والتقديم إلى آخره ، هناك فنون بلاغية لا تراها إلا إذا

حللت كلام النبوة كُلّه أو الكتاب العزيز كُلُّه أو شعر الشاعر كلّه إلى آخره وهذا الحديث والذي قبله من علامات النبوة لأن العرب لم يكونوا كما قلت أصحاب دولة يعرفون ما يطرأ على الدول من أحوال العدل والظلم والبر والفجور ، لم تقم في الجزيرة قبل الإسلام دولة لها نظام سياسي وإنما كان الشَّعْب العربي تحكمه القيم التي في ثقافته وشعره وأَدَبه وطبائع رجاله ، يخطئون ويصيبون ويئلُون إلى ما تعارفوا عليه وكأنه عهود بينهم ، المهم أن هذا كله وَحْي أوحاه الله إليه وقد أراه الله سبحانه وتعالى أحوال أمته ، ورأى ما نحن فيه ، ورأى الفتن تموج موج البحر . وهُدَاه ﷺ هو الكتاب العزيز . بدليل عطف السنة عليه وتقديمه عليها ، ولاحظ أيضًا إضافة الهدى إليه والسنة إليه وما يدل عليه ذلك من غضب على الذين لم يتركوا الهدى فحسب وإنما تركوا هداه الذي اهتدى هو به وتركوا سنته التي سَنَّها هو صلوات الله وسلامه عليه ووازن بين كلامه ﷺ وقولنا لم يَهْتَدُوا بالهدى ولم يستنوا بالسنن ، تجد الفرق الذي أردت أن أُنَبّهك إليه . وقوله عليه السلام « وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنسي» هذه الجملة الأخيرة وحدها علامة من علامات النبوة ، لأن هذا ما نراه بعيوننا ، ولن تجد من الولاة ضُلالاً لا يهتدون بهدي كتاب ولا سنة إلا وحولهم عصابة كما قلت كثيرًا تغريهم بهذا الباطل وهذا الضلال ، وهذه العصابة التي حولهم ليست عصابة منتفعين ولا كذابين فقط وإنما هي عصابة فيها كل هذا وزيادة عليه موت القلوب كما وصف سيدنا رسول الله قلوبهم قلوب شياطين في جثمان بشر ، ولابُدَّ من مراجعة قلب الشيطان حتى أفهم هذه العصابة وأول ما يبدو من قلب الشيطان أنه مغالط ومزَيِّف للحقائق ورافض لكل حق يأتيه من الحق الذي يؤمن هو أنه حق لأنه قال لله سبحانه ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ ﴾ فهو

يعرف عزة الله وجلاله ثم هو ليس في قلبه مثقال ذرة من الرحمة لأنه يهدي كل من ينجح في هدايته إلى سواء الجحيم ، هذه عصابة تقود البلاد إلى الخراب وهي تعلم ذلك ، ومن أجل أن أزيدك علما بهؤلاء الذين قلوبهم قلوب شياطين أقول لك إن الدول التي تحرص على مظهرها الحضاري وتريد أن تنكل بجماعات تنكيلاً يسيء إلى سمعتها الحضارية ترسلهم إلينا لأن وحوشنا الذين يأكلون لحوم البشر قلوبهم قلوب شياطين ولا يَعْنيهم ما يقال عنا ، وعندنا في بلادنا بؤر للجحيم وإذا كان عند الناس مراكز بحوث علمية يرحل إليها الناس فعندنا بؤر للجحيم يُقْتَادُ إليها الناس ، ولهذا قلت إن قوله عليه السلام (فيهم رجال قلوبهم قلوب شياطين في جثمان إنسي) من علامات الساعة .

قلت وإذا كان صلوات الله وسلامه عليه قد حذّر من مقاتلة ومنابذة الإمام الذي يكرهنا ونكرهه فإنه عليه السلام خاطبنا في شأنه خطاب تهديد ووعيد ووعدت بذكر شيء من ذلك ثم أرجأت الكلام فيه لأبين ما بينته والآن أعود إلى ما قاله عليه السلام من عقاب الله لمن ظلم رعيّته .

روى مسلم بسنده قال : دخل عبيد الله بن زياد على مَعْقِل بن يسار وهو وَجِعٌ فسأله فقال : إنيّ مُحَدِّثُكَ حديثًا لم أكن حدثتكه أن رسول الله ﷺ قال : « لا يَسْتَرْعِي اللهُ عَبْدًا رعيَّةً يموت حين يموت وهو غاش لها إلا حرَّم الله عليه الجنة » قال ألا كنت حدَّثْتِني هذا قبل اليوم قال ما حدّثتك أو لم أكن لأُحَدِّثُك .

وفي رواية أن معقل بن يسار قال لعبيد الله بن زياد لما زاره في مرضه الذي مات فيه : إنيّ مُحدِّثك حديثًا سمعْتُه من رسول الله ﷺ لو علمت أن

لي حياة ما حدَّثْتُك : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من عَبْدٍ يسترعيه الله رعيَّة ، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيّته إلا حرَّم الله عليه الجنة».

الأصل الذي يدور عليه هذا الحديث بروايتيه هو كلمة (وهو غاش لرعيته) وما قبل هذه الكلمة هو طريق سَيْر المعنى المتوَجِّه إليها ، وما بعد هذه الكلمة هو تعقيبات وتعليقات عليها ، وهذا طريق في بناء المعاني ظاهر ومتميِّز ، وأنا مولع باكتشاف الجملة أو الكلمة التي هي القلب أو التي هي العمود الذي عليه الاستقرار والذي عليه المدار وهذا من كلام العلماء وهذه الكلمة التي هـي القلب إذا فتَّحَت معانيها وجَدْتَ فيها الكثير أو أكثر ما في الحديث . وقد قالوا إن معنى غشه لأُمَّته أنه يُضيِّعُ حُقُوقَهم ، وأنـه يترك سيرة العدل بينهم ، أو أنه لم يدافع عن حدودهم ، وهذا كله تدلُّ عليه كلمة الغشّ أو هذا كله بعض ما تدل عليه كلمة الغِشّ ، وحقوق الشعب على الراعي أو حقوق الرعيَّة على الراعي ليست في أن يُوفّر لهم طعامًا وشرابًا ومسكنًا ومَلْبَسًا ، وإنما أن يوفر لهم تعليمًا يكونون به في صدارة الشُّعوب . وراجع ما وراء هذه الكلمة من مدارس ومستوى هذه المدارس ومن مراكز أبحاث ومستوى هذه المراكز ومستوى الأطباء والمهندسين وعلماء العلوم اللازمة للتقدم في كل هذه المجالات والصناعات والجيش الحامي للحدود . وعُدّته وعتاده والرعاية الصحيَّة وغير ذلك مما تتمتع به أرقى الشعوب المتقدّمة عِلْمِيًا لأن فكرة أننا من الدول النامية فكرة لا يتقبلها الفكر الإسلامي لأن الله قال لنا ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ ﴾ وقـال لـنا ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ولابد للذي استرعاه الله علينا أن يحتفظ لنا بهذا المستوى . وألا يكونُ قد غشَّنَا فإذا كانت الظروف التي لا يَدَ لَهُ فيها قد رمَتْنا بالتخلف فلا يُعْذَرُ إلا إذا بذل أقصى الجهد في سبيل طَيِّ هذه المسافة

الفارقة بيننا وبين الأمم ، وهذا يتضمّن سيرة العدل ، فليس الذي يُعيِّن أقارِبَهُ وأصهارهُ والرجال الذين مَعَهُ ويتجاوز الكفاءات العلميَّة التي في الوطن مُحتَفِظًا بسيرة العَدْل بَيْنَنَا ، وليس بمستطيع بهذا المنهج المتُخلّف الذي يتعاطف مع المتَخَلّفين ممن حوله ويُهْمل الكفاءات بمستطيع أن يَحْمِيَ حدودنا ، لأن أداء هذه الحقوق يتطلب أقصى طاقة من العمل المنُظَّم والمؤسَّس على العلم المتقدم إلى آخره ، وهذا بعض ما فسر به أوائلنا معنى كلمة وهو غاشٌ لأمَّته لأن اختيار رسول الله ﷺ لهذه الكلمة يَعْني هذا وأكثر منه . وأعود إلى طرفي الحديث .

قوله « دخل عبيد الله بن زياد على معقل بن يسار ، وهو وَجِعٌ فسأله فقال » أول ما يلاحظ في هذا أن الوالي الذي لم يكن حَسَنَ السُّمْعَة لم ينس حق الكرام من الذي وُلِّي عليهم ، فذهب لعيادة مرضاهم ، وهذا معنى كريم يدل على خير في الناس،ومن الضرورى أن يبقى هذا الخير في النفوس حتى لو ذهب منها خير كثير ، لأن تربية الأجيال وهي ترى عيادة أهل الفضل والدين والمقام المحمود من كبار رجال الدولة يؤكد في نفوس الجيل المُقْبل معنى كريمًا ، وهو احترام وتقدير الكبار الكرام ، وكنت أحب أن يرى الجيل الجديد المحافظ مثلاً وهو يعود كرام مرضانا ، كانوا معه أو كانوا عليه ، وأن نرى وزراءنا ورؤساءنا كذلك وأن يَبْقَى فينا هذا الخير وأن نتجاوز الخلافات السياسية استعلاء لهذا الحق ، وجملة « وهو وجع » جملة اسمية دالة على الثبوت والدوام ، ومجيء الواو معها فيه إشارة إلى أنها عند المتكلم بمقام لأنها من الإضاءات التي أضاءت كثيرًا من جوانب المعنى ، وتوشك أن تكون هي الجملة التي تَلِي جملة « وهو غاش لها » وقوله (فسأله فقال) تعبير بالغ الدقة لأن المعنى أن عبيد الله بن زياد سأل معقلاً عن حاله كما هو المألوف

في مثل هذه الحالة ، وقال له أنت بعافية إن شاء الله فتجاوز معقل كلام عبيد الله وقفز إلى الذي أراد وكأنه كان ينتظر تلك اللحظة وكأنه كان يَحْمِلُ هَمَّ بلاغ هذا الحديث إلى عبيد الله فلما جاءته الفُرْصةُ لم ينتظر وقال : « إني محدّثك حديثًا لم أكن حدّثتُكَهُ» .

راجع كيف بدأ كلامه معه بأم أدوات التوكيد وكيف قال «محدثك» ولم يقل أحدثك فأخبر بالاسم والفرق بين الإخبار بالاسم والإخبار بالفعل فرق تَمَسُّ الحاجة في علم البلاغة إليه كما قال عبد القاهر وحَفِظْنَا عَنْه لأن الإخبار بالاسم يدل على الثبوت والدوام وهو إخبار آكد وأثبت كما قال تعالى في شأن موسى عليه السلام ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ فالخوف وصف ثابت له عليه السلام لما جاءه رجل من أقصى المدينة يَسْعَى وقال له إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ، والمهم أن صيغة الاسم هنا تفيد معنى تأكيد الحديث وأنه لا محالة محدّثة وهذا ثابت لا ريب فيه ، ثم لاحظ تكرار مادة الحديث ، ومحدثك حديثًا ... حدثتكه» وهذا التكرار يدل على الحضور القوي لهذا الحديث في نفس الصحابي الجليل الذي هو الآن وجع أو هو الآن في مرض الموت كما في الرواية الأخرى ، وأنا أحاول أن أستكشف من اللغة وباللغة حالة المعنى في نفس القائل لأن حالة إحساس القائل بالمعنى جزء من المعنى ، وكلمة «لم أكن حدثتكه» لا أستطيع أن أتجاوزها وأن أتجاوز الثقل الذي في كلمة «حدثتكه» لأنها جمعت فعلاً وفاعلاً ومفعولاً أولاً ومفعولاً ثانيًا ، وهذا أدَّى إلى ثِقلها وثقل اللفظ يوحي بثقل المعنى للتلازم الأكيد بين اللفظ والمعنى ، أو التصاقب الأكيد بينهما كما قال أبو الفتح وهذا لا يمكن أن يُخْطِئَهُ لسان مَعْقل الجليل . وهو بذلك يشعرنا بوطأة الإحساس بثقل هذا الحديث الذي كان يحب أن يحدث به عبيد الله

ولكنه كان يجد مانعًا وهو الآن يُحدِّثُه وقد زال هذا المانع لما كان معقل في وَجعِهِ الذي مات فيه ، لا يمكن أن أتجاوز هنا في دلالة هذه الكلمة ورحم الله شيوخنا فلا زلت أسمع صوت الشيخ وأرى هيأته وهو ينطق قوله تعالى ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ ويحدثنا عن ثقل كلمة أنلزمكموها وتناسب ثقل نُطقِها مع ثقل معناها الذي هو إلزام النفوس بما تكره .

وقوله «أن رسول الله ﷺ قال» هو بيان للحديث الذي أثْقَلَهُ حين لم يكن يحدث به أي في الظروف التي جعلته لا يُحدِّثُ به . وكلمة (لم أكن حدثتكه) يمكن أن تدل كلمة (لم أكن) ليس على النفي فحسب وإنما تدُلُّ على أن هذا لم يكن ممكنًا ، كما تقول ما كان لك أن تفعل أي لم يكن ذلك متهيئًا لك ومثله قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ ﴾ أي أن ذلك غير ممكن وليس غير واقع فحسب ، الهَمُّ الذي أثقل معقلاً هو بلاغ رسول الله ﷺ للذي ينبغي أن يُبلَّغ به وهو الراعي ، وقوله عليه السلام (لا يَستَرْعى اللهُ عَبْدًا رعية) فيه معنى أن الله هو الذي استرعاه ، وهو عَامٌّ في كل راع لأنه لا يَقَعُ في ملكه سبحانه إلا ما يريده . فهو سبحانه الذي استرعى الصالح والطالح ، ولكن لهذه الجملة في هذا السياق معنى آخر بجانب هذا المعنى ، وهو أن استرعاءه كان بقدر الله وبقضائه ولم يكن عن كفاءة ولا عن اختيار منهم ولا عن ترشيح من أهل الحل والعقد الصرحاء الخلص ، وليس كما نرى في المسرحيات العبثية من حولنا ، ولفظ الجلالة هنا يشرق منه معنى الكمالات المطلقة ، وأن له في كل شيء حكمة ، وأنه لا يُسأل عما يفعل ، وكلمة (عبد) تحتها لومٌ وتعنيف لهذا العَبْدِ الذي استرعاه ذو الجلال والإكرام فلم يشكر هذا الاسترعاء ولم يخف جنب ذي

الجلال والإكرام ، وكلمة «رعية» كان يمكن أن تحذف وتغمض لأن كلمة يسترعى تُفْضِي إليها لأنه يستحيل وجود يسترعى الله عبدًا من غير أن تكون هناك رعية يرعاها هذا العبد ، ولكنها ذكرت ليكون لها حضور لأن المعنى في الحديث يعوِّل على حضورها لأنها هي التي سَيَغُشُّها هذا العبد وكلمة الرعيّة والراعي ، من الكلمات التي كثرت في كلام رسول الله ﷺ ولها معنى كريم جدًّا ونبيل وزاكٍ وطاهر ، ولكنها كدِّرَتْ لما جَرَتْ في لسان من كانوا يخاطبون الملوك في شأن الرعيَّة ويقولون رعاياك يا مولاي حتى حفز . هذا كاتبا جليلا هو المرحوم خالد محمد خالد فكتب كتابًا جعل عنوانه مواطنون لا رعايا ، لأنه فُهِم من كلمة رعية معنى الإهانة ولأنها تساق وأن الراعي يُصرِّفها حيث يشاء وهذا خطأ وإفساد للمعنى النبيل الذي جاءت به الكلمة على لسان المبلِّغ عن ربه صلوات الله وسلامه عليه ، لأن الراعي هو القائم على خدمة الرعية وهو المسؤول الأول عن أشياء لا تَتَيسَّرُ إلا له ولا يقدر عليها إلا هو من جهة أن مقدرات الدولة في يده ، وحديث «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» من أنبل الكلام وأقومه وأحرصه على كرامة الناس ، فالحاكم راع وهو مسؤول عن رعيته حتى لو عثرت بغلة في العراق لكان مسؤولاً عنها وهو في المدينة لأنه لم يُعَبِّد لها الطريق كما قال سيدنا عمر ، والرجل راع لأهل بيته أي قائم على أمرهم وخادم لهم ، والمرأة راعية أي قائمة على ما هي مسؤولة عنه ، والعبد راع وكلكم راع وكلكم رعيّة يعني كلكم خادم وكلكم مخدوم ، فالرعاية مسؤولية والراعي مسؤول والمرعي مسؤول حتى تصل إلى العبد ومال سيده فضلاً عن كل مرفق من مرافق الدولة في المدرسة والمَصْنع والجامعة إلى آخره ، ليس فيها معنى الترتيب الطبقي وإنما فيها معنى ترتيب المسؤوليات وهذا جيد جدًّا وتكديره

ليس له مستند من الفهم وإنما هي ضربات إعلامية ، ومثل هذا كلمة الذِمَّة التي جاءت في كلام سيدنا رسول الله ﷺ وشاعت في كتب الفقه وأُطْلِقَتْ على غير المسلمين الذين يعيشون بين المسلمين ، شُوِّهَتْ هذه الكلمة الكريمة في الأيام الأخيرة ، واتهمت بأنها تنفي حق المواطنة وتجعل أصحابها طبقة دون طبقة الأكثرية في الحقوق ، وهذا كله باطل ، ويراد به التشويه والتشويش على أصول فقهية جليلة جداً لأن هذه الكلمة لا تُنقص من حقوق المواطنة مثقال حبة من خردل لأن هذه الحقوق مضمونة بقوله عليه السلام لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وهي كلمة تكاد تَنُصّ نصًّا مباشرًا على ما نُسمِّيه حق المواطنة لأنه لا معنى للمواطنة إلا أن يكون الناس شركاء في هذا الوطن كل فرد فيه عليه ما على غيره لا يزيد ولا ينقص وله ما لغيره لا يزيد ولا ينقص ثم يضاف لهذه الجماعة التي تعيش بين المسلمين وليست منهم عهدٌ هو زيادة لهم حتى لا يستفزهم جاهل أو أحمق أو متعصب هذا العهد زيد في احترامه ومهابته وتقديره فسُمِّي ذمَّةَ الله ورسوله فمن خاشنهم أو قاربهم بسوء فقد اعتدى على عهد الله ورسوله واعتدى على ذمة الله ورسوله ، لأن الأغلبية إذا أَمِنَتْ واحتمَتْ بأغلبيتها فإن هؤلاء آمنون ومحتمون في عهد الله وحماية الله وأن حرمتهم في الوطن هي من حرمة الله ، وهذا هو المعنى الذي لا خلاف فيه ، وحين أقرأ هجومًا على كلمة الذمة أقطع بأحد أمرين إما أن يكون هذا المهاجم جاهلاً جهلاً بَحتًا ولا يعذر بجهله لأن من يكتب يجب أن يراجع وأن يكتب ما يعلم ولو سكت من لا يعلم لاستراح الناس كما قال كرامنا ، وإما أن يكون يعلم وإنما أراد أن يثير الغبار حول المصطلحات الإسلامية والفقهية والكلمات النبوية وهؤلاء سادرون لأن الله مُتِمُّ نوره ولو كره هؤلاء الهلافيت ، وقوله

عليه السلام (يموت حين يموت وهو غاش لها) أولاً أُنبّه إلى أن الجملة التي قلت إنها جذر هذا الحديث وعموده الذي عليه المدار هي كلمة (وهو غاش لها) وهي جملة حاليَّة من فاعل يموت ، ثم هي جملة اسمية جاءت بالواو لأهمية المعنى والعناية به وإنما أردت أن أنبه إلى حالة تكثر في بناء المعاني وهي أن الجمل الحالية كثيرًا ما تكون هي الوعاء اللغوي الذي فيه خلاصة المعنى وصفوه ، أو كثيرًا ما تكون هي اللؤلؤة الأم ومجتمع الخيوط المضيئة التي حين تجتمع تشرق بالمعنى الأصلي ، ولذلك كنت ولا زلت أفكر في دراسة مواقع المعاني في الجمل التوابع في ديوان شاعر وأن يستقصى ذلك في دواوين كثيرة أو في كل الدواوين ؛ لأن العجيب أن الجملة التي هي مسكن أصل المعنى نسميها في الإعراب فضلة وتقول في تعريف الحال : الحال فَضْلةٌ مُنْتَصِبٌ ، وهذا تباعد شديد بين مصطلح الإعراب والمعاني المدلول عليها داخل هذا الإعراب ، وأدع هذا وأقول لماذا قال عليه السلام «يموت حين يموت» مع أن كلمة يموت دالة بالضرورة على معنى حين يموت لأن كل من مات له حين أي وقت مات فيه ، وكل من قام له حين قام فيه فإذا قلت يقوم حين يقوم أو يعمل حين يعمل أو يكتب حين يكتب فلابُدَّ أن تكون هناك عناية بالحدث جعلتني لا أكتفي بذكر الحدث وذكر زمانه ضمنا وإنما أذكر معه لحظة أو زمن وقوعه وهذا لا يكون إلا إذا كان للحدث عند المتكلم شأن يجعل الخبر عنه من غير ذكر زمانه نقصًا في الإخبار عنه ، فما هو الداعي الذي دعا هنا إلى ذكر «حين» الموت ؟

والجواب أن المراد التنبيه والإيقاظ والتخويف من عقاب الله وتدارك ما قصَّر فيه قبل أن تأتي اللحظة أو قبل أن يأتي الحين الذي لا تَنفَعُ معه توبة ولا ندم وكذلك لو قلت فلان يكتب حين يكتب وهو مستغرق فيما

يكتب أذكر كلمة (حين) لقوة تعلقها بالغرض الذي هو (وهو مستغرق) وحين يموت في الحديث شديدة التعلق بجملة وهو غاش لها التي هي بيضة الحديث كما أن «وهو مستغرق» بيضة المثال الذي ذكرته، وقوله عليه السلام (إلا حرّم الله عليه الجنة) لابد من العودة إلى ملاحظة التدقيق في ضبط المعنى قبل أداة الاستثناء لأن القصر الذي يفيد أن ما قبلها مقصور على تحريم الجنة لا يتأتىً بما فيه من معنى الوعيد المفزع إلا إذا مات حين مات وهو غاش لها فلو كان ثمَّة مساحة ولو قليلة بين موته وغشه بمعنى أنه ترك غشها قبل حين الموت ولو بزمن يسير لم تحرم عليه الجنة وتحريم الجنة في الحديث كلام متأول، والمعنى حرّم عليه الجنة فلم يدخلها ابتداء من غير سابقة عذاب وذلك لأنه وإن مات وهو غاش فقد مات وهو يشهد أنه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، والقاعدة التي تزول الراسيات ولا تزول هي أن مات وهو يشهد الشهادتين دخل الجنة لا محالة وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر، رغم أنف أبي ذر كما مضى في حديثه وأن أصحاب الكبائر الذين ماتوا من قبل أن يتوبوا أمرهم مُفَوَّضٌ إلى ربهم إن شاء عفا عنهم وأدخلهم الجنة من غير سابقة عذاب وإن شاء عذبهم في النار ثم تدركهم الشفاعة فيخرجون من النار ويدخلون الجنة.

قوله «قال ألا كنت حدثتني هذا قبل اليوم» هذه الجملة دالة على أن عبيد ابن زياد لم يكن قد بلغه هذا الحديث من غير معقل كما يدل على أنه هاب هذا الحديث وخافه وراجع نفسه وفهم من كلمة «وهو غاش لها» أكثر من الذي قلناه وخلاصته أنه لا يكون غاشًا لها إذا بذل أقصى ما عنده في سبيل إصلاح أحوالها من جميع الجهات من الجهة الاقتصادية والتعليمية وبناء العمران وما يتطلبه كل زمان لأن ما يتطلبه زماننا في سياق السباق المحموم

نحو التقدم العلمي غير ما يتطلبه زمن هذا الجيل ، والمطلوب من الراعي أن يبذل قصارى ما عنده في تحقيق أحلام الشعب في الزمن الذي يعيش فيه وإن كان هناك ثوابت مستمرة في الزمان كله كالبحث عن الأكفأ في كل حقل من حقول العمل حتى في الإمارة على الجند وُصُولاً إلى أصغر الأعمال لا يجوز أن تَنْكَفُ اليد الأفضل وتتقدم اليد المفضولة وهذا عام في الزمان كله وله نتائج طيبة في الزمان كله فإذا رأيت الأصحاب والإخوان في المذهب أو الإخوان في العشيرة فلا تتوقع إلا التخلف والهزائم ، أقول فهم عبيد كل هذا وأكثر منه وقال له ألا كنت حدثتني هذا قبل اليوم ، والعبارة فيها ندم ، وفيها عتاب وفيها إحساس بأن فرصة ضاعت منه ، وأنه لو سمع هذا الحديث لعدّل شيئًا مما كان يزاوله في رعاية الجماعة وكل ذلك يدل على أن عبيد الله لم يكن يرفض الموعظة ولم يكن يضيق بسماع حديث مروي عن رسول الله ﷺ وأن لله وجودًا حيًّا وفاعلاً في قلبه وأمره مفوض لربه وكثير من الناس لم تحسن سمعتهم والله أعلم بما يؤولون إليه .

قوله : قال « ما حدّثتك أو لم أكن لأحدثك » قوله (ما حدثتك) تحصيل حاصل لأن عبيد الله قال ألا حدثتني يعني ما حدثتني وكان ينبغي أن تحدثني فقال سيدنا معقل ما حدثتك ، فلم يزد شيئًا على ما قاله عبيد وهذا هو الظاهر ، أما ما وراء الظاهر فهو أنك تعرف لماذا لم أحدثك وعليك أن تعود إلى نفسك وسوف تجد السبب هناك وأن ذلك لشيء تعلمه أنت من نفسك وأعلمه أنا منك ، وقد أفصح عن هذا في قوله في هذا الحديث « لم أكن لأحدثك » ولام الجحود التي في قوله لأحدثك لتأكيد النفي وليس المقصود تأكيد نفي أنّ الحديث لم يكن لأنه لا ينكر أحد ذلك وإنما المقصود تأكيد نفي أن الحديث لم يكن ميسورا أو مستطاعًا أو مقبولاً لما

تعرف أنت من نفسك ، لأن نفي الحدث بعد لام الجحود المسبوقة بالكون المنفي معناه لم يكن ليكون كما أقول لم يكن لك أن تفعل أي ما كان يكون ذلك ولا ينبغي أو ولا يليق أو ولا تستطيع المهم أن هنا شيئًا في الفعل يجعل حدوثه غير مستساغ أوغير سهل لأمر ما بيَّنه السياق كأن يكون لا ينبغي أن يكون منك أو أنك لا تستطيعه ، وهذا هو معنى قول سيدنا معقل لم أكن لأحدثك ، والذي وراء ذلك ظل غامضًا وقال بعض الشراح إنه لم يحدثه لأنه يعلم أنه لن يتعظ كما كان حاله مع من حدثوه ورُدَّ هذا بأن النصح واجب وإن علمنا أنه لا يتعظ ، وقالوا إنه لم يحدثه لأنه خافه ، وهذا الاختلاف في معرفة السبب الذي جعل الصحابي الجليل لا يحدثه راجع إلى غموض كلمة معقل (لم أكن لأحدثك) وهناك رواية أخرى تقرب السبب هي قول معقل (لو علمت أن لي حياة ما حدّثتك) وهذا من معدن لم أكن لأحدثك وإن كان يشير إشارة قريبة إلى السبب لأن معنى لو علمت أن لي حياة ما حدّثتك أن حديثك بهذا الحديث لا يجوز إذا علمت أن لي حياة لأن حديثك بهذا الحديث لا يتلاءم ولا يتعايش مع حياتي الهادئة الصافية التي أرْجُوها وهذا صريح في أنني لو حدثتك به وأنا حيٌّ حياة طبيعية لكدَّرْت عليَّ حياتي ، ولا أجد لهذا معنى إلا هذا وتأمل الجمل الثلاث التي رويت عن معقل قال ما حدثتك ، وقال لم أكن لأحدثك وقال لو علمت أن لي حياة ما حدثتك ، وراجع أنت أولها وآخرها ووسطها وكلها تتهم عبيد الله وأن له سلوكًا يكف الناصح عن نصحه ، والواعظ عن وعظه ، والراوي حديث رسول الله ﷺ عن بلاغه وكل هذا يَصُبُّ في سوء الذكر وسوء السِّيرة والبُعْد عن العدل وطلب الحق ، والغريب أن عبيد الله يُدْرك ذلك كله من كلام معقل بن يسار ولا يعقب عليه ولم يحاول أن يتبرأ من

التهم التي يتضمنها كلام معقل وهو في بيت معقل يزوره في مرضه أو وَجَعِهِ ولم يعلم هو ولم يعلم معقل أن هذا مرض لا شفاء بعده ، وهل كان قبول عبيد الله للتهم التي يتضمنها كلام معقل تقديرًا لسنّ معقل وفضله وشرف صحبته وسماعه من رسول الله ﷺ ولظروف مرضه أيضًا؟. وشيء آخر هو أنه كان يمكن معقل أن يسمعه حديث رسول الله ﷺ من غير أن يشير إلى أنه لم يكن ليحدِّثه به أو يشير إلى أنه لو علم له حياة ما حدثه به أعني يمكن أن يسمعه حديث رسول الله ﷺ من غير العبارات التي تتهمهُ ولو فعل ذلك لأراح نفسه ولكنه سيضيّع شيئًا ربما أدركه معقل فأراد أن تبين عنه غير ملتفت إلى ما فيه من تهمة لعبيد هذا الشيء هو أن معقلاً أراد لفت عبيد إلى ما يعلمه من عُبَيْد ويعلمه عبيد من نفسه من غلظة وجفوة تحول بينه وبين أن يَنْتَفِعَ بنُصْحِ الناصحين وعظة الواعظين وأنه يجب أن يُقلع عن ذلك وأن يكون هيّنًا ليِّنًا يألف ويُؤلف ، وأن يفتح قلبه لنصح أهل النصح وأن مَعْقِلاً أراد أن يكافئه على عيادته في مرضه بدعوته إلى التَّخليٍّ عن الذي هو عليه مما يبعد عنه أهل الصلاح . هذا والله أعلم .

وإذا كان في الناس من يَزِيغُ عن صراط الله المستقيم الذي هو الدين فإن في الناس من يَسْتَمْسِكُ بهذا الصراط المستقيم ولن يبرح هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة ، وصدق رسول الله ﷺ فقد مضى من الزمن ما مضى ولم يَخْلُ زمان إلا والدين فيه قائم وَلَهُ في كل زمان عصابة تقاتل عليه وكل عصابة تسلم عُدَّتها وعَتَادها للعصابة التي تليها ، والدين قائم لأن الله تعهد بحفظه وحفظ الله للدين لا يَعْني أن الله يحفظه في الكتب والدفاتر وإنما يحفظه في قلوب أهله وخاصته ، وأن لله في كل زمان رجالاً قائمين على أمر الله ، وهم العصابة الذين يَقُومون هذا الدينُ

فيهم ولم يبرح الدين قائمًا يقاتلون عنه حتى تقوم الساعة وهم القـوم الـذين قال فيهم رسول الله ﷺ (لن يزال قوم من أمتي ظـاهرين علـى النـاس حتـى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) نعم هم ظـاهرون علـى النـاس ولـو كـانوا في معتقلات الظلمة الأغبياء العملاء لأن الظهور هو الاستمساك بـالحق والقـبض عليه ولو تحول في أيديهم إلى جمر لظلوا قابضين عليه حتى يأتي أمر الله . ونعم مرة ثانية هم ظاهرون وهم شـهداء في سـاحات المنـاداة بـالحق ، هـم ظاهرون على الحق في كل أرض وكل وطن ولو قتلهم الأغبياء العملاء . هم ظاهرون في كل أرض ولو أحرق الأغبياء العملاء جثامينهم بعد قتلهم ، وكل هذا وقود في قلوب أهل الحق لن يبرح هذا الدين قائمًا تقاتـل عنـه عصـابة وإذا أراد الله شيئًا هيأ له أسبابه وهذا منها .

* * *

• عودة إلى الكبائر : (ومن اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه)

وأعود الآن إلى الكبائر وأكبر الكبائر ، وإلى الذنوب وأعظم الذنوب لأبين شيئًا واحدًا فقط وهو أنها ما كانت أكبر الكبائر وأعظم الذنوب إلا لأنها تصيبنا نحن بأكبر الضَّرر وأعظمه وأن الله سبحانه وتعالى ما غضب من عبد كان منه شيء إلا شيئًا يضرنا نحن لأنه سبحانه وتعالى أجل وأقدس من أن تنفعه طاعة أو تضره معصية ، الطاعة كانت طاعة وكان سبحانه يرضاها ويجزل ثوابها لأنها تنفعنا نحن والمعصية كانت معصية وكان سبحانه يَغْضَبُ منها ويعاقب عليها لأنها تضرنا نحن وتؤذينا في أموالنا ، أو في أعراضنا ، أو في دمائنا ، أو في كرامتنا وإنسانيتنا ولم أجد في الدين شيئًا يرضاه ربنا إلا وهو خير لي ولك ، ولم أجد في الدين شيئًا يكرهه ربنا إلا وهو شر لي ولك ، وكلمة الدين لله حق لأن الله هو الذي شرعه ولو قلت الدين لنا لكانت حقًّا أيضًا لأنه لأمْنِنَا ولبُرّنَا ولخَيْرِنَا ولسعادتنا في هذه الدنيا قبل أن يكون لسعادتنا في الآخرة .

روى مسلم بسنده عن أبي أُمامة أن رسول الله ﷺ قال : « من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة فقال له رجل وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله قال وإن قضيبًا من أراك » .

وفي حديث الأشعث بن قيس « من حلف على يمين صَبْر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان » .

الذي أوجب الله عليه النار وحرم عليه الجنة هو الذي اقتطع جزءًا من حقي أو من حقك أو من حق كائن من كان على هذا الوجود ، إلى أن تقوم الساعة . والذي يلقى الله وهو عليه غضبان هو الذي اقتطع جزءًا من مالي

أو جزءًا من مالك أو جزءًا من مال كائن من كان على هذا الكوكب إلى أن تقوم الساعة ، والمطلوب أن تقرأ هذا جيدًا وأن تَتَعرَّفَ على صاحب المصلحة التي من وراء هذا الدين ، وأنها ليست لمصلحة أحد إلا نحن بني البشر مسلمين ونصارى ويهود ومجوس إلى آخره ، وهذا معنى أن الدِّينَ لنا يعني أن نفعه لنا وشرعه لنا وثوابه وعقابه لنا ، وأنه كله لله بمعنى أن كل حلاله وحرامه وثوابه وعقابه وكل كلمة فيه كل ذلك لله ليس لأحد فيه شيء وسيدنا وسيد الإنس والجن ليس إلا مُبلِّغًا عن ربه .

وأعود إلى ما رواه أبو أمامة عن رسول الله ﷺ . واقتطاع حق الغير تؤثمه وتجرِّمُه كل شرائع السماء وشرائع الأرض ، وتَصِفُه بأنه قانون الغابة التي شكلها الوحوش والحق فيها لمن غلب ، ولابد من قوانين صارمة حتى لا تكون الأرض غابة يَسْكُنها وحوش من البشر ، وهذا هو فحوى الحديث وهذا هو تلاؤمه مع الوجود الإنساني الآمن الراشد المتحضِّر ، والغريب أن هذا القانون الذي يحمي حقوق الإنسان على هذه الأرض من يوم أن تكلم به رسول الله ﷺ إلى يوم أن يَبْطُل التكليف والذي لم يُفْلِتْ منه فَرْدٌ كائنًا من كان على رقعة الأرض المترامية وتباعد الأزمنة أقول هذا القانون الذي له هذا الوجود الفاعل المتمكن على رقعة مكان لا حدود لها وعلى رقعة زمان لا حدود لها جاء في سطر واحد ، ومن ورائه ملائكة الله يحصون ويحصرون كل من خالفه في قليل أو كثير ابتداء من قضيب الأراك وانتهاء بما لا نهاية له من ثروات الشعوب والأمم ولم يفلت أحد ولن يفلت أحد والأمر كذلك حتى يُنْفَخ في الصور ، وهذه من أبعاد كلام رسول الله ﷺ لا يجوز أن تَغِيبْ.

والحديث كما ترى جملة واحدة ولك أن تعتبر كلمة (من) التي بني عليها الحديث اسم موصول وما بعدها صلة وقوله فقد أوجب الله له النار هو

الخبر والمعطوف داخل في المعطوف عليه ، ويكون الكلام الذي فعل كذا أو يَفْعَلُ كذا فله كذا وكذا ولك أن تَعُدَّها شرطية وما بعدها شرط وقوله فقد أوجب الله له النار جواب الشرط وبينهما فرق غامض جدًا وأصل الفرق أن الصلة يجب أن تكون قصةً معلومة للمخاطب حتى يصح بها تعريف الموصول لأن الأصل فيه أنه نكرة وهذا يقتضي أن يكون حَدَثُ اقتطاع الحقوق بالأيمان حَدَثٌ معروف عند كل من يسمع هذا الحديث . وليس هذا داخلاً في دلالة من الشرطية وإنما هي أداة تربط حدثًا بحدث أعني وجوب النار وحُرْمة الجنة على الاقتطاع وهذا في رأيي أنسب لدلالة الحديث وأن كل من كان أو يكون منه اقتطاع كان ذلك معلومًا أو غير معلوم فقد وجبت له النار وحرمت عليه الجنة .

وكلمة اقتطع تراجع من جهتين : الأولى لماذا جاءت مادة القطع وكان يمكن أن يقال من أخذ حق امرئ مسلم أو استلب أو احتاز وفضل كلمة قطع على هذا كله هو أنها أشارت إلى أن هذا الحق جزء حيٍّ متماسك كالجسد الحي مع مال امرئ مسلم ، وأنه حِلٌّ لهذا المسلم وأن حاله كحال كل ماله وأن من انتزعه كأنما قطعه ، ثم إنه قال اقتطع وجاء بصيغة الافتعال التي تدل على احتفاله واحتشاده بهذا القطع ، وأنه جرَّد نفسه لذلك ونشط فيه وقام وقعد له ، وهذه خليقة من أسْوَأ خلائق البشر ، ثم إنه لما قال اقتطع بيمينه أفاد أنه جعل يمينه سكينًا مُصْلتةً على مال الناس تَقْتَطِعُ منه ما تَقْتَطِع ، وقوله عليه السلام حق امرئ مسلم خرج مخرج الغالب وليس بقيد فلو اقتطع يمينه مال غير المسلم مجوسيا كان أو وثنيا لوجبت له النار ، وحُرِّمت عليه الجنة لأن دين الله يَحْمي حقوق الناس من الناس مع صرف النظر عن ديانتهم ، فحرمة دم غير المسلم كحرمة دم المسلم وحرمة مال وعرض غير

المسلم كحرمة مال وعرض المسلم ما دام ليس محاربًا لنا لأن من ليس محاربًا لنا له ما لنا وعليه ما علينا ، نحمي ماله وعرضه ودمه كما نحمي مالنا وعرضنا ودمائنا ، أمَّا المحارب فله حكم آخر وهذا ما عليه العالم الذي يجب أن يكون مُتَحضِّرًا لأن عالمنا هذا الذي يقال عنه إنه متحضّر لا تجد حقوق المخالفين له في الدين على هذا الوجه الذي تجده في الإسلام . ويلاحظ أن رسول الله ﷺ قال «بيمينه» ولم يَصِفْ هذه اليمين بأنها فاجرة أو يمين صَبْر يعني يصير صاحبها في النار ويُحْبس فيها بسببها ، أقول لم يصف هذه اليمين لأنه لا يقتطع بها حق امرئ آخر مسلمًا كان أو كافرًا إلا وهي يمين كاذبة أو فاجرة أو غموس يغمس بها صاحبها في النار ، وقوله عليه السلام «فقد أوجب الله له النار» كلمة «قد» تفيد التحقيق والتوكيد ، والفاء الواقعة قبلها تفيد قوة ربط ما بعدها بما قبلها اعتبرته جواب شرط أو خبر مبتدأ والمعنى أن من كان منه هذا الاقتطاع فإيجاب النار وتحريم الجنة جزاؤه لا محالة ، وهذا من مزيد التشديد والتغليظ لأنه لو تاب تاب الله عليه والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ولو مات وهو يشهد الشهادتين ولم يَتُبْ من ذلك فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذَّبه في النار ثم تدركه الشفاعة فيدخل الجنة ، وهذا هو الأصل الذي تزول الراسيات ولا يزول . ولاحظ أن الجُرم هنا جُرْمان . جُرم هو اقتطاع حق امرئ مسلم أو غير مسلم ، وهذا الحق في حوزة الله يحميه لنا ربنا من غوائل أهل الغيلة وهو حماه جل وتقدس ، وحَرَمُه ومن اعتدى عليه فقد اعتدى على حماه جَلَّ وتقدس وحَرمه ، وهذا فيه ما فيه ، الأمر الثاني وهو أسْوأ من هذا وهو الاجتراء على جلالة ذي الجلال والإكرام . والإقدام على المَوْصُوف بكل كمال والمنزّه عن كل نقص والحلف بعزه وجلاله حلفًا

كاذبًا يقتطع به قطعة من مال غيره ، هذه جريمة أكبر ، لأن جلال الله في قلوب المؤمنين عاصم لهم ، فلا يقدمون به على الحلف كذبًا ولو كان هذا الحلف الكاذب يُنْجيه من الموت ، وكثير من الذين سقطوا في الخطايا رفضوا الحلف بالله كاذبًا وأقيم عليهم الحد وفَضَّلُوا إقامة الحد على الإقدام على اليمين الفاجرة أو يمين الصَّبْر فكانت الحدود لهم كفارات ، ومن أجل هذه القيمة الجليلة لجلال الله في نفوس أهل الإيمان أقام رسول الله ﷺ قاعدة القضاء التي لا ترى أعْدل منها وهي البَيِّنَة على المدعي واليمين على من أنكر راجع أن الذي وقع في فجْرة يقدم للحد ويرفض أن يحلف بالله كاذبا ، فإذا شاعت الأيمان الفاجرة في جماعة شاعت فيها رذائل وخطايا وبلايا وكوارث لا حدود لها . ولو لم يكن القسم بالله سدًّا مانعًا بين المسلم والكذب لسقط القول بأن اليمين على من أنكر ثم إن اليمين على من أنكر جاء في مقابلة البيِّنة ، والبَيِّنَةُ من البيان أي الظهور والانكشاف فلابد أن تكون هذه البيِّنَةُ دليلاً لا يقبل الاحتمال لأنه لو قَبِلَ الاحتمال لسقط به الاستدلال ويقابل هذا اليمين ، ولا تزال المحاكم تَطْلُب من الشاهد القسم على أن يقول الحق فإذا أقسم اعتبرت شهادته ، والواجب على الدعاة أن يؤكدوا على جلال اليمين بالله في نفوس الأُمَّة لأنه من العواصم التي يُعوّل عليها في إثبات الحقوق أو نفيها وقد أعجبتني كلمة قالها شاعر جاهلي وَثَنِي لم يُدْرك الإسلام وظني أنه لو أدركه لكان من السابقين إليه هذا الشاعر هو النابغة الذبياني والكلمة التي قالها خاطب بها النعمان بن المنذر وكان اتُّهم ظلما بتهمة تتعلق بشرف الملك النعمان قال النابغة :

حلفتُ فَلَمْ أتْرُكْ لنفسكَ ريبَةً وَلَيْسَ وراء الله للناس مذهب

الشطر الأخير هو الذي يروقني جدًّا وخصوصًا أن الذي قاله وثني ويؤمن

بأن الأوثان تقربه إلى الله وأن الله ليس وراءه مذهب لأحد ، فإذا أقسمت به على إثبات شيء أو نفيه فلا يجوز أن يُطْلَب منك دَليلٌ بعد الحلف به ، وأعتقد أن المحافظة على الصدق في القسم لا يكون إلا من نفس إنسانية نبيلة كريمة ذات طبع كريم وأن الكذب في القسم لا يَصْدُر إلا عن نفس خسيسة خبيثة . الكذب من غير يمين خساسة ، وتأكيده باليمين خساسة فوق خساسة . قول الراوي : « فقال له رجل وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله » هذا سؤال مهم جدًا وقد سأله السائل بإلهام من الله لأنه كشف لنا شيئًا مهمًا جدًا وقبل ذكره أقول إن الراوي يعرف هذا السائل ولكنه لم يشأ أن يذكره لأن معرفتنا به لا تدخل في الغرض المسوق له الكلام ، وإنما الجواب هو المقصود وقد أجاب عنه رسول الله ﷺ بكلمة موجزة جدًا وقال « وإن قضيبا من أراك » أي وإن كان قضيبًا من أراك وإنما حذفت كان ودُلّ عليها بنصب قضيب ثم بين القضيب بأنه من أراك يعني وإن كان عود سواك ، وأهمية هذا الجواب هو الدلالة على تطهير النفس من الطمع في حق الغَيْرِ كان هذا الطمع في قليل أو في كثير والمطلوب ألا تحرص على أخذ شيء ليس لك ابتداء من قضيب الأراك وانتهاء بما لا يتناهى من حقوق الآخرين . فإذا طمِعْتَ في قضيب الأراك واقتطعته بيمين فاجرة واجترأت على جلال ذي الجلال كان ذلك سقوطًا في الدرك الذي ليس بعده سقوط وكان خَسَاسَةً ليس وراءها خَسَاسَة وكان خَبَثًا ليس بعده خَبَثٌ وترى صاحب عود الأراك والذي اقتطع أرضًا أو دارًا أو ما شئت سواء في أن الله أوجب لهم النار وحرّم عليهم الجنة ، وكلمة أوجب من الوجوب الذي هو أخو الفرض يعني هو في النار لا محالة ، وجملة وحرّم الله عليه الجنة فيها دقائق منها الطباق بين أوجب وحرّم ، وهو طباق خفي لأن أوجب توجب الفعل وحرّم

توجب نَفْيَ الفعل ثم فيه الطباق بين النار والجنة ثم المقابلة بين الجملتين وهذا كله تحليل للعبارة اللغوية أما المعنى فإن وجوب النار يستلزم تحريم الجنة ، فلماذا ذكرت جملة وحرم عليه الجنة ما دام مدلولاً عليها بالتي قبلها؟ والذي عندي في هذا هو أن الحديث بني على التشديد والتغليظ حتى ينكفَّ الناس عن حقوق غيرهم . وحتى تُقطَع ألسنتهم ولا يحلفون يمينًا فاجرة بالألسنة التي خلقها من يحلفون به ليقتطعوا حق غيرهم ، وحتَّى لا يكون في نفس أحد أن يطمع في قضيب أراك في ملك غيره ، وكلها معان جليلة ، يدعو إليها الحديث ويكف عن أضدادها كفا زاجرًا حاسمًا ، وسيدنا رسول الله يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، وأن المقتطع حق غيره باليمين الفاجرة داخل في هذه المشيئة ، ولذلك يحمل كلامه على أنه تحرم عليه الجنة فلا يدخلها بدون سابقة عذاب وتجب له النار ما لم تتداركه المشيئة ، فهذا التشديد وهذا التنفير وراءه القاعدة التي قلت إنها تزول الراسيات ولا تزول وأنها مما أجمع عليه من يعتد بإجماعهم من علماء السنة رضوان الله عليهم . وقوله عليه السلام في حديث الأشعث « من حلف على يمين صَبْر يقتطع بها مال امرئ مسلم هو فيها فاجر لقي الله وهو عليه غضبان » وهذا من الأشباه والنظائر في كلام سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه وتكرار جملة « يقتطع بها مال امرئ مسلم » يجعل من حق كلامه علينا أن نُعنَى عناية خاصة بهذا الذي كرره لسانُه الشريف صلوات الله وسلامه عليه ، لأنه أصدق ألْسِنَةُ الناس كافة في انتقاء الكلمة الأفضل والأنبل والأكرم ، ولك أن تتلمس مدى حياطته لمال امرئ مسلم أو غير مسلم ، ومدى حرصه في أن يكف أي يد تمتد إلى غير حقها كما أنه لك أن تفهم كيف يأخذ بِحُجَزِنا حتى لا نقع في النار ؟ وكيف يقف مع

هؤلاء الطامعين في أموال غيرهم ويزجرهم مرة بوجوب النار ومرة بالحرمان من الجنة ومرة بأشد من هذا وذاك وهو لقاء الرحمن الرحيم وهو عليهم غضبان . وسيدنا هو الذي قال للمرأة التي لاعنها زوجها ووقفت تدرأ عن نفسها العذاب ، وشَهِدَت أنه من الكاذبين وبقيت الخامسة وهي أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين فقال لها عليه السلام يذكرها بعاقبة هذه الخامسة (غضب الله النار) ولاحظ أيضًا كيف بَشّع صلوات الله وسلامه عليه اليمين التي ذهب صاحبها ليحلف حتى يقتطع بها حق غيره فوصفها بأنها يمين صبر أي يُحبَسُ بها صاحبها في النار ، وأنها يمين فاجرة لأنه لا يقدم عليها إلا فاجر من الفجار . الذين هم في سجيل ، وأخيرًا راجع لقاء ربنا لعبد من عباده وهو عليه غضبان لأنه اقتطع من رجل ما قضيب أراك بيمينه وكيف يجعل ربنا من كرمه ومن رضاه وغضبه حماية لنا حتى قضيب الأراك الذي لا ينقص من ملكك شيئًا وكيف يوجب له النار ويغلق أبواب الرحمة في وجهه ثم يلقاه سبحانه وهو عليه غضبان راجع الأمن والأمان الذي وراء ذلك وأسأل هل يقول من عنده مثقال ذرة من علم بوجوب أبعاد الدين عن الحياة لأننا أعلم بشؤون دنيانا وأن الدين لله وليس لنا ، وأن الوطن للجميع هل ترى مَعِي أن الدين أيضًا للجميع وأن هذه الشعارات التي قالها رجال من زمن يجب أن تراجع وهذا حسبي .

* * *

• ألا أنبئكم بأكبر الكبائر

روى الإمام مسلم بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال : « كنا عند رسول الله ﷺ فقال : « ألا أُنبِئكُمْ بأكبر الكبائر : ثلاثًا : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور أو قول الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» .

كل الذي مضى من قوله عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزنى وهو مؤمن» إلى قوله « من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه» إلى آخره ، كل ذلك من الكبائر وسأقف الآن لأبين طرفًا من حديث العلماء عن الكبائر والصغائر لورود كلمة الكبائر في كلامه ﷺ في هذا الحديث ولم ترد في الأحاديث التي سبقت .

ولا شك أن الذنوب منها صغائر تُغْفَر بتجنب الكبائر وبالوضوء وبالصلاة والاستغفار ، وكبائر تُغْفَر بالتوبة النصوح ، وبالمَنّ والعطاء من المنعم الستار إذا مات العبد ولم يتب منها ، أو يعاقب فاعلها في النار ثم يخرج منها ويدخل الجنة ، ولا يُكَفَّر أحَدٌ بكبيرة خلافًا للخوارج ، ولا يخلّد في النار خلافًا للمعتزلة .

والكلام في تحديد الكبيرة مُتنوِّعٌ ومُنْتَشِرٌ ، ويُصوِّر طرائق أهل العلم المعتبرين في النظر إلى ما بين العبد وربه ، وهذا التنوع يُغْري بمتابعته لأنه يدل على استقلال النظر وأن أهل العلم ليسوا أسراب طير يتبع بعضها بعضًا ، ومن كلامهم في هذا أنه ليس هناك صغائر وأن كل معصية كبيرة ، وذلك نظرا لمقام من خالفته جلّ وتقدّس ، فمن خالف إلى مكروه كمن خالف إلى حرام لأن كلا منهم خالف . وما دُمْت تخطيتَ فَقَدْ اجترأت

يستوي في ذلك كل ما تخطيت إليه وهذا خلاف ما عليه جمهور العلماء وإن كان الأصل الذي قام عليه أصلا جيدًا . ومن الذين قالوا به عبد الله بن عباس رضي الله عنه وعن أبيه ومن كلامه قوله « لا صغائر لعظم من يُعْصَى بها » وابن عباس هذا صاحب الرخص والأصلُ أن يكون متوسِّعًا في قبول الصغائر لأن رخصه رحمة والتوسع في عد الصغائر رحمة ، ولكنه نظر إلى سعة الرحمة فقال بالرخص ونظر إلى جلال صاحب الأمر والنهي تعالى وتقدس فذهب إلى أن كل مخالفة له كبيرة ، وهذا جيد جدًّا .

ومن اللفتات البارعة في هذا المقام والتي تدلنا على مجالات النظر عند الكَمَلَة من علمائنا أن بَعْضَهم اعتبر في بيان الصغيرة والكبيرة أثرها في المجتمع وحجم المفسدة التي تكون بها فإذا كانت المفسدة صغيرة عُدّت المعصية من الصغائر ، وإن كانت المفسدة كبيرة عدّت المعصية من الكبائر وعليه يتغيّر الحكم بتغيّر المجتمعات فقد تَحْدثُ مَعْصِيَةٌ مُعَيّنة مَفْسَدَةً كبيرة في مجتمع ثم تحدث هذه المعصيةُ نَفْسُها مَفْسَدة صغيرة في مجتمع آخر ووصفها بالكبيرة والصغيرة راجع إلى هذه الحالة الاجتماعية ، وكأن أحوال الناس هو المرجع الفِقْهِي في هذه المسألة ، وهذا أيضًا نظر جيد جدًّا لأن الأصل الشرعي هو تطهير المجتمعات من المفاسد ، فالفعل الذي يُحْدث مساحة كبيرة من المفاسد هو ذنب كبير ، والفعل الذي يحدث مساحة صغيرة من المفسدة هو ذنب صغير ، ولا شك أنك مثلي تُحِبّ تنوُّعَ أنظار أهْل العلم وتحب متابعة تجوُّلها وهي تَتَجوَّلُ في سراديب حياة الناس ومعها النور الذي أنزله الله . وكل كلام سيدنا رسول الله ﷺ يَدُورُ في فلك الحياة الآمِنَةِ المُستَقِرّةِ التي لا يكدِّرها فَزعُ الفُسَّاق واللصوص ، والمجترئين على خلق الله ؛ ولو رأى الناس هذا وأحكموه لما رأيت أحدًا يعارض تطبيق شرع

الله ولطالب به غير المسلم ، لأن الكل ينْشُدُ الحياة التي يضع الشرع لها حدودا آمنة وأنه ليس هناك خير إلا حثَّنا عليه رسول الله ﷺ وليس هناك شر إلا حذّرنا منه .

وهناك من علمائنا من نَظَر في تحديد الكبيرة والصغيرة إلى الحالة النفسية المصاحبة للمعصية فكل ذنب يرتكبه المسلمُ وقلبه وجل من خوف الله ولكن غلبته عليه نفسُه فهو صغيرة ، يعني أن هَيْبَةَ الله في الصدر حال مزاولة الذنب تَخْسِفُ الكبيرة وتجعلها صغيرة ، وهذا ما قاله الإمام الغزالي الذي كان يَغْمِسُ قلمه في القلوب : قال رحمه الله « الكبيرة هو ما فُعِل دون استشعار خوف ، ولا اعتقاب ندم يُنغّصُ اللّذّة لأن المُوقع للذنب دون أحدهما مجترئ متهاون ، وما وقع مع أحدهما صغيرة» ، انتهى كلامه ، وهو قريب جدًّا من كلام ابن عباس وليس بعيدًا عن الذين أسسوا الفرق بين الصغيرة والكبيرة على حجم المفسدة في المجتمع لأن هؤلاء رجعوا إلى أثر الفعل في حياة الجماعة وقاسوه بهذا الأثر ، وهؤلاء رجعوا إلىحالة الفعل في النفس وما صحبه من أحوال ومشاعر فقاسوه بها ، ولهذا أحرص على هذه المتابعات لأنها تدلنا على (البوصلة) التي توجه أفكار أهل الحق من كرام وكبار علمائنا رضي الله عنهم وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين .

ومن العلماء من رأى عدم تحديد الكبيرة حتى لا تكون هناك حدود تُبيّن الصغائر والكبائر ورأى أن الأفضل هو ألاّ نُميِّز صغيرة عن كبيرة حتى تُجْتَنَبَ الذنوبُ كلها ، ويكون حالنا في تجنّبها كلها كحالنا في الاجتهاد في إدراك ليلة القدر في الشهر كله ، وفي الاجتهاد في الدعاء في يوم الجمعة كله لعلنا ندرك ساعة الإجابة التي أخفاها الله عنها في هذا اليوم .

والمشهور في تحديد الكبيرة كل فعل تَوَعَّد ربنا فاعلَه بالعقاب أو توعده بالغضب أو اللَّعْن أو وُصف فاعله بأنه فاسق أو ترتب عليه حد، وكل ما ذكر من الكبائر ليس على سبيل الحصر وكذلك كل ما ذكر من الصغائر. وهناك كبائر لم تذكر وهي أكثر وصغائر لم تذكر وهي أكثر قالوا (فالشرع وصف مخالفات بأنها كبائر ومخالفات بأنها صغائر لا على معنى الحصر فيما عَيّن من القسمين وبقيت مخالفات لم يصفها) وذكروا أن تكذيب ما جاء به الرسل من أكبر الكبائر، وأكبر منها شتم الرسل عليهم السلام، وأن الكفر بكتب الله كبيرة، ورمى هذه الكتب بما يستقذر أكبر، والتولي يوم الزحف كبيرة، ودلالة العدو على عورات المسلمين فيتمكن منهم ويقتل رجالهم ويسْبِي نساءهم أكبر وأفظع، وهكذا كل كبيرة، وراءها كبيرة أكبر، فالشرك بالله أكبر الكبائر وسب المشركين لله عَدْوًا بغير علم أكبر من الأكبر، وكل هذا جيد وأكثره مختصر من شرح الإمام أبي عبد الله الأُبي لصحيح مسلم. وهذا حسبي، وأبدأ الكلام في الحديث الشريف وأول ما يلاحظ فيه أن رسول الله ﷺ كرّر الكلام فيه في موضعين؛ موضع في أوله وهو قوله ألا أنبئكم بأكبر الكبائر وذكر ذلك ثلاث مرات وموضع في آخره وهو قوله عليه السلام وشهادة الزور أو قول الزور وما زال يكرر ذلك حتى قال أصحابه ليته سكت، وذلك لانخلاع قلوبهم من هذا الوعيد ولإشفاقهم عليه صلوات الله وسلامه عليه.

قلت هذا وهو ظاهر لأقول إن التكرار من حيث هو خصوصية بلاغية أوْ فَنٌّ بلاغي يختلف أثره في أداء المعنى من قائل إلى قائل لأن التكرار يعني إحساسا أبعد غورا بالمعنى المكرر، وهذا الإحساس عند زيد مغاير لهذا الإحساس عند عمرو، وإن كان من طبقة متقاربة فإذا كان هذا التكرار

من رسول الله ﷺ المُبلّغُ عن ربه كانت له دلالة لا يجوز أن تقارب دلالته في كلام غيره ﷺ ، وهذا مما تراجعه أنت ، ولا يستطيع كاتب أن يكتب فيه كلامًا علميًا محددًا ، لأن هذا مما يترك للذائقة البيانية عند المتلقّي ، ولقد درست صورًا كثيرة من التكرار عند كثير من الشعراء وكان التدبر في المعنى الذي تكرر هو الخطوة الأولى في فهم سره . ثم كان موقع هذا المعنى المكرَّر في سياق القصيدة ثم كان محاولة التدسُّس لأحوال المَعْنَى الذي أثار ما أثاره من خواطر عند الشاعر ودرجة عُمقِه وغَوْصِه في قرار هذا الشعر وكنْتُ ألاحظ فرقًا بين تكرار المعنى في رثاء مهلهل لكليب ، وتكرار المعنى في رثاء متمم لأخيه مالك ، وأن الفقد عند مهلهل غير الفقد عند مُتَمّم وهكذا ، ولو قلت إن أي فن بلاغي واحد يختلف عمقه وسخاؤه وإصابته وسداده من شاعر إلى شاعر لم تكن مخطئًا بل إنك تكون مخطئًا لو سوّيت بين التنيكر عند زهير والنابغة وكذلك التعريف والتقديم والالتفات والتشبيه إلى آخره لأن موطن الفن البلاغي في الكلام هو موطن ومسكن أنْفَس المعاني عند صانع الكلام ، وباختلاف دلالات هذه الفنون في دواوين الشعراء يكون اختلاف منازلهم . قلت هذا حتى لا نحلل موطنا من مواطن البيان في كلامه عليه السلام ونحن ذاهلون عن هذا الأصل الذي لو غاب عنا لغاب بغيابه الكثير من سر بلاغته صلوات الله وسلامه عليه ، وقد سُئل ﷺ عن الفرق بين كلام الله وكلام الناس فأجاب بأنه الفرق بين الله والناس ، وهذه الإجابة في جوهر علم البلاغة وأن كلام كل ذي بيان هو تجسيد لذات صاحب البيان وأن الفرق بين كلام زيد وعمر هو ذاته الفرق بين زيد وعمرو، وأنني لو رأيت بعين ذات بصر وبصيرة لرأيت زيدًا في فصله ووصله وحذفه وذكره وطيّه وبسطه إلى آخره وكل هذا مختلف اختلافًا شديدًا مع رؤيتي لعمر لأننى أراه هو في فصله ووصله وحذفه وذكره . وطيّه وبسطه ؛ ولو

رأيت صَنْعَتَهُ دالة عليه وعلى غيره كانت رؤيتي رؤية ضبابية وهذا هو المرمى البعيد الذي تسعى نحوه الدراسة البلاغية ؛ ويُسَهِّلُ عليَّ الحديث الإجمالي عن هذا في المصحف لأني أقول إن فصل الكتاب ووصله وحذفه وذكره وطيه ونشره كل ذلك وغيره بالغ الكمالات المطلقة التي لم نَسْتطع أن نضيء جوانبها على الوجه الأكمل بعد ما كَثُر ما قلنا فيها وما قاله أوائلنا ، لأن هذا في الكتاب العزيز باب مفتوح تتواتر عليه عقول الكملة في الأجيال المُقْبلة إلى أن تقوم الساعة ثم يرجع الكتاب إلى ربه بكرا وكأنه لم يُؤْخَذْ منه شيء وحاله في ذلك كحال كل أمر إلهي تَقْصرُ العقول عن بلوغ نهاياته ..

والجملة الأولى في الحديث الشريف (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) بدأت بكلمة (ألا) وهي أداة استفتاح تُنَبِّهُ وتوقظُ وتُعِدُّ السامع ليتلقى معنى له خطر وله بال عند المتكلم ، وناهيك عن معنى له شأن عند المبلغ عن ربه صلوات الله وسلامه عليه ، وقوله (أنبئكم) كلمة النبأ يزيد معناها عن كلمة الخبر لأن النبأ إخبار بخبر له شأن كما قال تعالى ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ لو قال بخبر لم يكن مناسبًا لما أراده الهدهد من لَفْتَ نبي الله سليمان لما جاء به ، والمراد في جملة رسول الله ﷺ أنه يخبرهم خبرًا ليس كغيره من الأخبار وإنما هو إخبار بأشد ما يَغضِبُ له رب الناس ، وهو الرحمن الرحيم ، وقال النابغة نبئت أن أبا قابوس أوعدني لأن هذا الإنباء هو المناسب لقوله « تَستَكُّ منها المسامع » أوْ أهتَمَّ منها وأنصب أو فبت كأني ساورتني ضئيلة إلى آخر ما قال وسُميَّ النبيّ نبيًّا لأنه ينبئ عن ربه ماله شأن أي شأن ، وكلمة (أكبر الكبائر) كلمة تنخلع لها قلوب المؤمنين بالبعث والحساب والثواب والعقاب لأنه ليس في طريق المُرْتحَل من هذه الحياة الفانية إلى

الحياة الباقية الدائمة عقبةُ أسْوَأ من أكبر الكبائر ، وليس أسْوأ من أن تَزِلَّ قدمه عندها ، وبناء كلمة أكبر الكبائر بناء سهل كقولنا أفضل الفضائل وأحسن المحاسن وأنبل النبل وأبلغ البلاغة وأبين البيان وأحسن الحسن وأقبح القبح إلى آخر ما يضاف فيه أفعل التفضيل إلى ما اشتق منه فيبين معنى أنه ذروة ما اشتق منه ، فأكبر الكبائر ذروة الكبائر ، وأحسن الحسن ذروة الحسن إلى آخره وعليك أنت أن تحسن تدبر ما كان أو يكون عليه أصحاب رسول الله ﷺ وهو يُبَلِّغهم عن ربه ويقول هذه العبارة الزاخرة بأداة الاستفتاح وكلمة النبأ وذروة المعاصي ، ماذا يكونون عليه وهم يسمعون منه هذا وإلى أي مدى تَتَشَوَّفُ نفوسُهم إلى معرفة ما شَوَّقهم إليه ثم ماذا يكونون عليه وهم يسمعونه يكرر هذا ثلاثًا ، واعلم أن تدبرك لوقع الكلام في نفوس سامعيه إذا لم يكن البلاغة كلها فهو ذروها وخالصها وزبدتها لأنك لم تدرس التقديم والفصل والوصل إلا لتدرك سبب ما صنعه البيان وسر ما أحدثه وكيف راق مسمعه ولطف موقعه ، ولذلك أحرص دائمًا على أن ألتفت وألفت إلى هذا ، وحسبي أن أشرح مكونات الجملة ثم أرْقبُ موقعها في نفس السامع ، وأحْيانا يتكلم السامع بما يجد وأحيانًا لا يتكلم وقد تكلم أبو ذر لما قال « خابوا وخسروا يا رسول الله من هم ». وقد أحسن أبو تمام لما وصف حسن الاستماع وأن الباعث لهذا الحسن عند السامع هو جودة قول القائل قال أبو تمام :

يَــوَدُّ وِدَادًا ان اعْضَــاءِ جِسْــمِهِ إذا أُنْشِدَتْ شَوْقًا إليهــا مَســامِعُ

وراجع طريقة التهيئة والتوطئة في هذا الحديث ، وكيف بَنَي هذه الجملة على ما بناها عليه ليهيئ النفوس إلى معرفة ما أراد أن يُعَلِّمَهُم إياها ووازن بينه وبين طريقة التوطئة والتهيئة في قوله عليه السلام أربع من كُنَّ فيه

أو ثلاثة لا يكلمهم الله تجد أنه وإن لم يبدأ الكلام بالعدد كما هناك فقد بدأ بجملة مُشوقة ومُثيرة ومُوقَظة ، وكلمة « ألا » وإن قلنا إنها تفيد معنى الاستفتاح فقد أشربت معنى العرض والطلب وبقيت في همزتها رَشْفَةٌ من رحيق معناها الأول الذي هو الاستفهام ، وامتزج هذا كله في سياق واحد لأن الأداة وإن جاءت مرة للاستفتاح ومرة للعرض والطلب ومرة للاستفهام فإن هذه المعاني لا يَحْجزُ بعضها بعضنا وإن بعض السياقات العالية تجمعها وتمزجها بلطف اللسان البصير الصنَّاع .

وقوله عليه السلام « الإشراك بالله » ، والإشراك بالله هو الأكثر دورانًا في الكتاب والسنة وهو أكثر صور الكفر ، وهو لا يعني نفي الألوهية لأن قليلاً من أهل الكفر هم الذين ينفون الألوهية لأن أدِلَّتها ظاهرة في كل شيء تقع عليه عيوننا وفي كل شيء تسمعه آذاننا وفي كل شيء تلمسه أيدينا ، بل هي ظاهرة في نفوسنا وفي خلقنا وإيجادنا من كَتْم العدم كما يقول علماؤُنا وإيجاد سمعنا وأبصارنا وأفئدتنا وأيدينا وأرجلنا ولساننا وكل شيء فينا لأننا جميعا نعلم أننا لم نخلق شعرة فينا ولاَ قُلاَمة ظفر ولذلك قال ربنا لنا ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ويروعني هذا الاستفهام وهذا التركيب وكلمة تبصرون : تأمل همزة الإنكار وأنه لا ينبغي لذي عقل أنْ لا يُبْصرَ الذي في نفسه لأنه لو أبصره لرأى الله في هذه ؛ لأراه ساكنًا فيها بآياته ولطفه وإحسانه ، ثم هذه الفاء الدالة على أن في الكلام حذفًا وطيا وأن هذه الفاء علامة على هذا الحذف وهذا الطيّ وكان الأصل أعَمِيتُمْ فلم تبصروا ثم كلمة تبصرون الدالة على أن البرهان الساكن في أنفسكم برهان قوي تدركه الأبصار مع البصائر المهم أن المشرك لا ينفي الألوهية وإنما ينفي الوحدانية : ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ وقد تَوَاتَرَتْ الأدِلَّةُ

في الكتاب العزيز على نفي الشرك والأدلة كلها قائمة على العقل الذي يوجب نفي الشركاء لأن الوجود لا يجوز في العَقْل أن يكون فيه إلاهان لأن الإله لا يكون إلهًا إلا إذا كان موصوفًا بالكمالات المطلقة أعني القدرة المطلقة والعلم المطلق والحكمة المطلقة والرحمة المطلقة إلى آخره ، والوجود لا يتسع إلا إلى واحد أحد لأنه لو كان معه إله آخر إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ولفسدت السموات والأرض لأن القدرات المطلقة ستتصادم وليس لتصادمها إلا نتيجة واحدة هي فناء الكل ، ووجود هذا الوجود وكلٌّ في فلكه يسبح أقوى الدليل على الألوهية والوحدانية ، ولذلك كان القرآن الكريم يكتفي بالأمر بالنظر إلى الأشياء ، والمراد النظر الذي يتدبر ويستَنْبِط كما في مثل قوله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ ، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ويكتفي بمثل هذا وكان القوم يدركون ذلك وإذا سُئِلُوا من خلقهم قالوا الله ، وإذا سُئُلوا من خلق السموات والأرض قالوا الله ومن أنزل من السماء ماء قالوا الله .

وقد تكرر ذكر الشرك وأنه من أكبر الكبائر في أحاديث كثيرة ومنها قوله عليه السلام : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك ، والندّ لله جل وتقدس هو الشريك ، والجملة الحالية (وهو خلقك) ليس المقصود منها أن اعتقاد الند كفران منك بنعمة الخلق ، وأنه ما دام خلقك وأنت مُقِرٌّ بهذا فالواجب أن تعتقد وحدانيته شكرًا لهذه ، أقول ليس هذا وحده هو المقصود من الجملة الحالية وإنما المقصود أيضًا ـ وهو أهم ـ أن خلقه لك يَنْقُض اعتقاد النِّدّ لأنه لو كان له ندّ ما خلقك ، لتدافع القُوَّتَيْن النّدِّيتين تدافعا يُنْتج عنه

لا محالة إبطال القوتين، وإعدام فعلهما، فالحديث الشريف يُنَبّه بقوله وهو خلقك على ما يوجبه العقل المقر بأن الله خالقه من نَقْض وبُطْلان أن يكون له سبحانه نِدٌ.

ويعلم الصحابة والتابعون ومن بعدهم بإحسان وبغير إحسان، أن الشِّرْكَ أكبر الكبائر، فلماذا ذكره ﷺ وجعله رأس أكبر الكبائر ليس في هذا الحديث وحده وإنما في أحاديث كثيرة؟ ومعلوم أن الله لا يغفر أن يشرك به، ومعلوم أيضًا أن الحسنات يذهبن السيئات وليست هناك سيئة تذهب بحسنة، وإنما كل الحسنات يذهبن بكل السيئات إلا سيئة واحدة تذهب بكل الحسنات وهي الشرك، العمل الصالح لا يُحبَط أبدًا ولا يُحبِطُه إلا الشرك، وهذا معلوم علم ضرورة فلماذا ذكره صلوات الله وسلامه عليه رأس أكبر الكبائر؟ وليس عندي جواب عن هذا إلا أن أقول ذكره عليه السلام لمزيد من التحذير والتخويف وأنه الكارثة الأكبر وأن همَّ سيدنا المصطفى هو الأخذُ بحجزنا حتى لا نقع في النار هذا وجه، ووجه آخر وهو أظهر وهو تَبْشِيعُ الكبائر أو أكبر الكبائر التي يذكرها في قرن الشرك لأنه عليه السلام لو قال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا وذكر الكذب مثلاً بدل الشرك لكان بشاعة عقوق الوالدين أقل منها الآن، لأنها استُبْشِعتْ في الحديث من جهتين. جهة هي أنها من جماعة أكبر الكبائر، وجهة أنها اقترنت بالشرك بالله، وجاءت في عقبه، وناهيك عن هذا الاقتران وكيف يرشح القرين على قرينه وقل مثل ذلك في شهادة الزور، ثم إن الشرك يتسلل تسللاً خفيًا فكثر ذكره لمواجهة كثرة تسلله وشدة خفائه. وقوله عليه السلام «وعقوق الوالدين» أول ما يلفت في هذا أنك تجد عقوق الوالدين يخترق كل الموبقات من قتل النفس والفساد في الأرض، والكذب، والفجور، والبَغْي

في الأرض بغير الحق . أقول عقوق الوالدين يخترق كل الخطايا التي تتعلق بحقوق العباد أو التي لا تتعلق بحقوق العباد كشرب الخمر ، وقتل النفس ، ليقترن بالشرك بالله وليوضع بإزائه وليشير إلى أن العاق ليس بينه وبين الشرك إلا ساتر رقيق ، وأن العاق لو خطا خطوة وراء ذلك لدخل في باب الشرك ، ولله سبحانه وتعالى في توصيف الذنوب شأن آخر لأنك لو رتَّبت الكبائر الأول فالأول لوضعت القتل على رأس القائمة أو لوضعت القتل الجماعي الذي يمارسه الحكم غير الرشيد على رأس القائمة ، وقد يَضَعُ غَيْرُك غيرِ هذا ولهذا تقف متدبرا لهذا التصنيف الإلهي وكيف يقف سبحانه وتعالى بجانب الوالدين ويقرن الإحسان إليهما بعبادته في قوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ ، ثم يأتي رسول الله ﷺ بالوجه الثاني للآية ويقرن الشرك الذي هو مضاد لقوله سبحانه ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ بالعقوق الذي هو مضاد لقوله تعالى ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ ، ثم إنَّ العقوق معناه القطيعة لأنه من العق وهو القطع والشق يقال عقّت الريحُ السحابَ إذا استَدَرَّتْهُ وكأنَّها شَقَّتْهُ فأفرغ ماءه ، وعقوق الوالدين يعني قطعهما ولو لم يكن من الولد إيذاء لهما ولا مَعْصِيَةٌ لهما لأن القطيعة وحدها إيذاء والجرم بمجرد القطيعة عقوق،ضَمَّه رسول الله ﷺ إلى الشرك.

وقد ذكر النحاة والمفسرون أن اقتران الإحسان إلى الوالدين بعبادة الله وحده فيه دلالة على أن الإحسان إلى الوالدين عند الله بمكان ، وفيه أيضًا إشارة إلى أن التوحيد يَهْدِي إلى البر ، وأن رأس البِرِّ هو البر بالوالدين ، وبرُّ الوالدين في الآية جارٌ قريب إلى التوحيد وصاحبٌ بالجنب ، وهذا من أكرم المعاني لأن التوحيد هو أبو البر لأنه برٌّ يبدأ ببر النفس وانعتاقها من ضلالات الشرك ، ثم البِرُّ بأولى الناس بالبر وهما الوالدان ثم البر بعد ذلك

بالخلق جميعًا ، من الناس والحيوان وكل ذات كبد رطبة وأن برّك بالذي خلقك هو ألا تعبد إلا إيَّاه ثم يليه برك بمن ولدك ، ومن برَّ بِمَنْ خلقه هو قمين بأن يبر بمن ولده ، وأن مَن عق من ولده هو قمين بأن يجعل لله ندًّا ، والواصل لمن أمر الله به أن يوصل هو واصلٌ لله والله سبحانه واصل له ، والقاطع قاطع لله والله قاطعه .

ومن المفيد أن نضع كل حديث بجانب الجملة القرآنية التي استخرج منها ثم نراجع المعنى في لفظ القرآن وفي لفظ الحديث وأن نحاول أن نتدبَّر وأن نتأمَّل الفرق بين كلامه ﷺ الذي هو صنعة لسانه صلوات الله وسلامه عليه ، وبيانه الذي أنزله الله عليه بلسانه العربي المبين وهو الفرق بين المعجز وغير المعجز ، وقد تقول وأنت صادق إنك تجد الفرق وتعجز عن بيان سره ولكن لابد من أن نقول ما عندنا وإن لم يكن هو حاق الفرق وحقيقته ، وأول ما يلاحظ أن الآية بدأت بقوله تعالى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ وليس بكلمة أمر أو أوجب وغير ذلك لأن القضاء حكم ولا يقضي في هذا الشأن وهو ألا يُعْبَدَ الناس إلا هو إلا الذي خلق الناس لعبادته ، وآية الإسراء أخت آية الذاريات ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ ، وكلمة (ربك) وإيثارها على ضمير العظمة فلم يقل سبحانه وقضينا أو لفظ الجلالة فيقال وقضى الله للإشارة إلى معنى التربية ، والرعاية والرزق ، والحفظ ، وأن من كان صاحب هذه النعم التي تدل عليها كلمة (ربُّك) فهو جدير بأن يُعْبَد ، وفيه إشارة بعيدة إلى أن البر بالوالدين من أهم ما يوجبه هو التربية والعناية والصون ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ وهذه وشيجة جيِّدَةٌ بين عبادة الله وحده والبر بالوالدين لأن الله سبحانه يُعْبَدُ لأنه خلق ورزق ورعى وربى ، وقد قضى أن يكون الوالدان سبيلا إلى خلق الولد ثم إلى رعايته وتربيته

وصونه . وقد خوطب محمد ﷺ في قوله (ربك) ولم يقل ربكم لأنه عليه السلام ساد مسدَّ البشر كل البشر ، وأنه عليه السلام خير من ولد آدم فصار الكل في واحد ، والذي أضافه الحديث الشريف إلى الآية هو أنه عدّ مفهومها المسكوت عنه من أكبر الكبائر ، لأن الآية دعت إلى أكرم الأعمال وأفضلها وهما التوحيد وبر الوالدين وهذا الترتيب ليس مضطردًا في كلام رسول الله ﷺ . لا ترتيب أفضل الأعمال ولا ترتيب أكبر الكبائر ، فقد سئل عليه السلام أي الأعمال أفضل فقال الإيمان بالله ثم ذكر الجهاد والعتق ، وسئل مرة أخرى أي الأعمال أفضل فقال الصلاة لوقتها فقيل له عليه السلام ثم أي؟ فقال بر الوالدين ، وقد روى ابن مسعود قال : « قال رجل يا رسول الله أي الذَّنْب أكبر عند الله ؟ قال أن تَدْعُوَ لله نِدًّا وهو خلقك . قال ثم أي قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قال ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك . فأنزل الله عز وجل تصديقها ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (الفرقان:٦٨) ».

والاختلاف في هذا الترتيب في أفضل الأعمال وأكبر الكبائر راجع إلى أحوال من كان يسأل ، فهناك من تقدم له الجهاد ؛ لأن حاله محتاج إلى أن يقدم له الجهاد ، وهناك من تقدم له الصلاة لوقتها لأنه في حاجة إلى ذلك ، وهناك من تقدم له في الكبائر عقوق الوالدين ، وهناك من تقدم له أن تقتل ولدك إلى آخره . وكل هذا وراءه معنى أساسي هو المقصود وهو تحرر الفتوى وانعتاقها من أن تكون صورة واحدة في الأحوال غير الواحدة ، وأن من تَيْسير الله الذي يحب لنا اليسر ويريد بنا اليسر أنه جعل للأحوال والعوارض ونوازل الأيام موطنًا في الفتوى ، مع الالتزام التام في القول بالحل

والحرمة فليس لأحد في أي ظرف من الظروف أن يُحلَّ شيئًا حرمّه الله ولا أن يحرِّم شيئًا أحله الله ، وإنما له إذا كنا في زمن حرب مثلاً أن يقول الجهاد الآن أقرب القربات إلى الله ، وإذا كنا في زمن مجاعة أن يقول الإنفاق في سبيل الله الآن أقرب القربات وهكذا ، ثم إن الجُرم يعظم بمقدار ما في القلب من جرأة ، والبر يعظم بمقدار ما في القلب من وجل يتفاوت الكل بتفاوت الأحوال هذا والله أعلم .

وقبل أن أعود إلى شهادة الزور أو قول الزور في الحديث الذي أنا فيه أقف قليلاً عند حديث ابن مسعود وقوله فأنزل الله تصديقها ، وهذا يعني أن كلامه عليه السلام منه ما هو بيان لآيات قد نزلت ومنه ما هو بيان لآيات نزلت بعد كلامه عليه السلام ، وكانت الآية تأكيدًا لكلامه وتقريرًا له ، والثلاثة الكبار المذكورة في حديث ابن مسعود من اجتهادات الرسول لأنها جاءت متفرقة في الكتاب العزيز ، لأن الشرك باطل ببداهة العقول ورأس كل النبوات بطلان الشرك ، أوَّل ما نزل من القرآن كان توحيد لأن قوله تعالى ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ يفيد أن عبادة غير الذي خلق من الضلال الذي لا يقره عقل ، وأن العبادة تَقْتَرِنُ بالخلق وهذه بديهة لا ينكرها إلا من ينكر المعلوم من العقل بالضرورة ، وكذلك تحريم قتل النفس كان قد نزل ومن باب أولى تحريم قتل ولدك مخافة أن يطعم معك . ومثله تحريم الزنى فضلاً عن حليلة الجار . وكل ما في هذا الحديث مما تواترت النبوات على تحريمه وكل ما في هذا الحديث جاء مُفَرَّقًا في سور كثيرة . وهذه الثلاثة لم تأت مجتمعة إلا في سورة الفرقان ، والفرقان من أوائل ما نزل في مكة ، وقد نزلت بعد السور القصار ، ولم ينزل قبلها من الطوال إلا الأعراف ويس ، وقد نزلت بعد الجن التي نزلت بعد يس وترتيب النزول ليس موضع اتفاق ،

والذي أقوله من ترتيب جابر بن زيد وكان رضي الله عنه من علماء التابعين الذين أدركوا أصحاب رسول الله ﷺ وأخذ عنهم ، والإسراء ذكرت هذه الثلاثة غير مجتمعة كاجتماعها في الفرقان ، والإسراء نزلت بعد الفرقان وهي مكية وكان بينها وبين الفرقان في ترتيب جابر بن زيد رضي الله عنه ، الملائكة وكهيعص ثم طه ثم الواقعة ثم الشعراء ثم طسن سليمان ثم طسم القصص ثم بني إسرائيل ، ويلاحظ أن كلمة الزنى كانت قليلة التكرار في الكتاب العزيز ، ذكرت في أول سورة النور في آيتين متتابعتين بلفظ التذكير والتأنيث أربع مرات ، وذكرت في الإسراء ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ وذكرت في الممتحنة بلفظ المضارع في بيعة النساء اللائي جئن إلى رسول الله ﷺ فبايعهن ألا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ، وهذه الآية اجتمع فيها النهي عن الإشراك والزنى وفرق بينهما النهي عن السرقة ، قلت هذا وكان ضرورة لفهم كلمة ابن مسعود « فأنزل الله عَزَّ وجلَّ تصديقها » لأن هذه الجملة كشفت عن علم ابن مسعود بالقرآن وأن الآية التي صدّقت الحديث كانت من أوائل ما نزل ولم يكن شاع في القرآن النهي عن قتل الأولاد والنهي عن الزنا وكان قول رسول الله ﷺ قبل هذه الاستفاضة .

وقوله عليه السلام « مخافة أن يُطْعَم معك » نهي عن خطيئة لا يكاد العَقْلُ يصدق وقوعها ، ولم أعرف أن واحدًا من العرب قتل ولده خشية أن يطعم معه ، ولا أنه قتل ابنته لهذا ، ووأد البنات كان نادرًا جدًّا ، وفي أطراف من العرب وله سبب غير الطعام وهو السَّبْي الذي كان يتعرض له الأقوام وكان يكون شاقًّا جدًّا ، ولم يكن هذا عامًّا في العرب وإنما كان في الأمم كلها وكانت له ضحايا من الرجال والنساء ، وكان أسوأ أحداث التاريخ الإنساني ، ولم أفهم من قوله عليه السلام أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك أن هذا

قد وقع وإنما هو تحذير من فعل إن وقع كان بشعا جدا مع إمكانية أن يقع. كما لا أفهم من قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ﴾ أن ذلك كان واقعًا لأن النهي عن الفعل لا يوجب أن يكون هذا الفعل قد كان، فلو قلت لإنسان لا تشرك أو لا تسرق أو لا تشرب الخمر أو لا تكذب لا يكون هذا النهي دالاً على أنه يفعل المنهي عنه، وإنما هو نهي عن خطايا يجب أن تجتنب فإن كانت مجتنبة كان النهي مرادًا به استمرار اجتنابها كما قال تعالى حكاية عن قول لقمان لولده، ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ فليس هذا دليلا على أن ولده كان يُصعّر خده للناس ولا أنه كان يمشي في الأرض مرحًا، ولم أعرف شيئًا من هذا في شعر الجاهلية، وأظن أني لم أدع منه شيئًا إلا قرأته، ولو كان هذا مما كان يكون منهم لكان مما يذكرونه في الهجاء، وكانت ألسنتهم في الهجاء تبالغ في التجاوز وتبالغ في الفحش ورمي الناس بما هم منه براء ومن عرف حجة على من لم يعرف، فإذا كنت عَرَفْتَ شيئًا لم أعرفه فبادر ببيانه ونشره، مع أن هذه الخطايا المخالفة للفطرة نَرَى في مجتمعاتنا لها نظائر عند بعض الشواذّ، فقد نقرأ في الحوادث أن هناك من قتل أُمَّه أو قتل أباه أو قتل أُخْته أو قتل ابنه، أو بنْتَه إلى آخره، ولكن هذه حالات نادرة كما قلت وشاذة جدًا، ومن المعقول أن يُنَبِّه الكتاب العزيز والسُّنة المطهرة إلى جرمها مهما كانت نادرة، وأعجب من هذا العجيب الشاذ أن هذه الخطيئة تحدث في مجتمعاتنا ولكن في صورة أخرى، ثم هي تكون من ناس ليسوا من الموغلين في البداوة كالأعراب الذين هم أشد كفرًا ونفاقًا، والذين هم أغلظ أكبادًا كما وصفهم رسول الله ﷺ، قلت شبيه هذه الجريمة تحدث من ناس هم متنورون جدًا ومُتَحضّرون جدًا ومتفهمون لمتطلبات العصر جدًا، وأعني

الزوجين اللذين رزقهما الله بمولودين ولا يريدون الثالث لأنهم يريدون أن يُحْسِنوا تربية المولودين ويريدون لهما حياة أكثر وَفْرة ، فإذا حملت الزوجة في الثالث بادروا إلى عملية إجهاض ، وأنا لا أقطع بأن الإجهاض من باب قتل النفس وإنما أقطع بأن هذا شبيه جدًّا بالذي نهانا ربنا عنه ، وحين أُقارن قوله عليه السلام مخافة أن يُطعَم مَعَك وقوله تعالى خشية إملاق ، أو من إملاق بقول من حولي إنه لا يريد ثالثًا حتى لا يُؤَثر الثالث على تربية الاثنين والوفْرِ في حياتهما أجد الشبه قويًا جدًّا ، ويتأكد في نفسي أن رسول الله ﷺ قال ما قال لنا لأننا حاولنا منع مجيء الولد الثالث أو الرابع بالوسائل الطبية ، فإذا حدث خطأ ووقع حمل مَنَعْناه بالإجهاض وهي وسيلة بَرْبَرِيَّة فإذا كانت قد جرت فيه الروح فذلك قتل لهذا الجنين وإذا لم تكن جرت فيه الروح فذلك الإجهاض استباق لجريانها ، وقطع طريقها إلى الحياة وهذا إذا لم يكن قتلا فهو من مقدماته ، والذي يَعْنِينِي تأكيد بيانه هو أنه في حالتي الإجهاض سواء بعد جريان الروح أو قبله إنما يذهب بهذا الجنين حتى لا يُطْعَم مَعَه أو خَشْية إملاق ، وإذا كان قياسي هنا غير مستقيم فلك رفضه ، وقول رسول الله ﷺ « مخافة أن يطعم معك » هي خشية إملاق مع زيادة استهجان لفعله ، وزيادة لوم وتشهير ، وقوله عليه السلام (أن تزاني حليلة جارك) هذه اللفظة (تزاني) مما يكنى عنها لأنها مما يُستَبشع ويُستَقبح ، وإنما ذكرت من غير كناية للدلالة على أن المراد معناها من غير تجوز لترتب الحكم ؛ لأن الحكم لا ينسحب على معانيها المجازية من مثل العين تزني ، وكذلك جاءت بلفظها في أول سورة النور لأن معناها الحقيقي شرط في الحكم فلا رجم ولا جلد إلا بهذا الفعل ، وكذلك لا يكون الذنب أكبر عند الله بالذي هو دون هذا المعنى المنصوص عليه بهذا اللفظ ، ثم إن القيد

بالحليلة إنما جيء به للتبشيع والتنفير ، والحليلة تطلق غالبًا على الزوجة ويكون أصلها من حَلَّ يحل بكسر الحاء كضرب يضرب ، وتكون الأُختُ أو الأم أو العمة أو الخالة أو من شئت ممن هم في حوزة الجار ، ويكون أصل اللفظ من حلّ يحل بضم الحاء من باب قعد يقعد والمقصود كل من تحُل معه أي تقيم ، وإنما كان هذا من أعظم الذنب لأن الله أوْصَى بالجار وبرعاية حُرْمته ورعاية حَقّه ، وأنه ليس منا من لم يأمن جارُه بوائقَهُ فالذي فعل هذا المنكر مع جاره قد تعدى حدودًا كثيرة ، وهذا باب من الشر إذا فتحت منه نافذة ضَيِّقة دخل منها شر كثير ، فإذا وقع هذا من جار لجاره ثم وقع من الذي وقع عليه وسلك الآخر طريقه إلى حليلة من فجر بأهله تحوّلت البيوت إلى بيوت دعارة وتحول الرجال إلى فَجَرة وزُناة وتحولت النساء إلى عاهرات ، وتلك أن تستَبْطن ما وراء ذلك من فساد واختلاط أنساب ؛ ولهذا كان تخصيص عظم الذنب بحليلة الجار مع أن الفعل منكر في الأحوال كلها ، وإنما نصّ رسول الله ﷺ على نوع من الجنس هو الأبشع ، فالكذب منكر والكذب على رسول الله ﷺ أشد نكرًا ، وراجع الإضافة في قوله عليه السلام (حليلة جارك) ولم يقل حليلة الجار ، لأن هذه الإضافة تشير إلى حقوقه عليك وأن الرجولة والشهامة ومكارم الأخلاق كل ذلك يجعل لجارك عليك حقًّا إن كنت ممن تَتَعلّق بهم الحقوق ، وهذا في فطرة النفوس وليس من الدين فقط ، وقد قال الوثني الجاهلي المغرور المُندفع عنترة بن شداد :

وأغُضُّ طرفي ما بَدَتْ لِـيَ جَـارتِي ... حَتَّـى يُـوارِي جـارتِي مأوَاهَـا

وراجع كلمة (تزاني) ودلالة المضارع على التجدد والحدوث وأن ذلك يحدث شيئًا فشيئًا ، ثم صيغة المفاعلة وأن هذه الخسيسة صارت إلفًا مألوفًا

بين الطرفين يمشي إليها وتمشي إليه وهكذا . وراجع أيضًا أمرًا أهم وهو أن كل هذه القيود ليست شرطًا في عظم الذنب ، وأعني بالقيود دلالة المضارع على التجدد والحدوث ودلالة المفاعلة على المشاركة ، ودلالة الحليلة على الزوجة أو التي تُحل حيث يَحُلّ ، فلو كانت امرأة طارئة عند الجار ليست زوجة وليست من أهل البيت تحُل حيث يَحُل لكان الجرم عظيمًا ، ولو كان فعلا لا يتجدد لكان فعلا عظيما ولو كان من جانبه وحده أو من جانبها وحدها لكان فعلاً عظيمًا ، وإنما ذُكِرَتْ هذه القيود لأن اجتماعها يدل على أبشع صور الغَدْر والفجور ، فإذا ما وُوجه الإنسانُ بهذه الصورة الأبشع كفّ نفسه عن الصور كلها ، وقد جاء على هذه الطريقة قوله تعالى ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ ، فليست إرادة التحصن شرطًا أو قيدًا في النهي حتى لو أقبَلَتْ من غير إكراه لجاز ، وإنما جاء الكلام على هذا الوجه لأن أبشع صور الإكراه أن تريد الفتاة العفاف ويُكْرِهُها سيّدُها على البغاء وأنها والحال كذلك أكثر منه طهارة ، ومروءة ، فإذا التفت مالكها إلى هذا المعنى انكف عن تعرضها لهذه الشناعة مكرهة ، ومختارة ، ومثله أيضًا قوله تعالى ﴿ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ﴾ ، فليست الأضعاف المضاعفة شرطًا في النهي عن الأكل حتى إنه ليجوز أكل ما دون ذلك ، وإنما الربا كله حرام قليله وكثيره ،وجيء بهذه الصورة لأنها أبشع صور الربا ، وأوغلها في الاستغلال ، وأكل الأموال بالباطل ، فإذا ووجه المخاطب بهذه الصورة الأبشع ، والأوغل في الباطل كف عن الربا كله ، وهذا منزع من منازع التربية وتَصْوير المنهيات في أبشع صورها حتى تَستَحْضِرَ في النفوس الصورُ الأبشع فيساعد ذلك على البعد عن كل صورها . وهذا مستخرج من كلام الزمخشري .

قوله عليه السلام (وشهادة الزور) قال عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه «أو قول الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس . فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت». وقول الزور هو الكذب وهو أعم من شهادة الزور ، وشهادة الزور هي قِمَّةُ شناعة الكذب ، وإذا كان آخر الأحزاب ربط صلاح حال الناس أفرادًا وشعوبًا بالقول السديد أي الذي يقصد إلى الصواب ويسدد هدفه إلى مصلحة الجماعة بالصدق والحق ، فإن فساد أحوال الشعوب ليس له طريق أيْسر من شيوع الكذب على ألسنة رجاله الذين لهم تأثير في حياة الناس كعصابات الإعلاميين الذين ولدتهم أُمٌّ سوء وكالمسؤولين الذين يكذبون على الشعوب ويسترون الحقائق حتى لا يعرف الناسُ حقيقة أحوالهم ، والذين يتعاملون مع العدو الألد في الغرف المغلقة ، ويكذبون على الناس في الغرف المفتوحة . وزيوف الشيوخ الذين صاروا هم الآخرون أذرعا للاستبداد وجعلوا عمائمهم سبيلا إلى تبرير القتل والكذب والتلفيق وأنا رجل أتابع ما يجري في بلادي وكل بلاد العرب بلادي ، وأرى كبارنا كأنهم أبناء أب وأم كذبا ، وزورا ، وخساسة ، وأرى إعلامنا كله من رحم سجاح ، وإذا كان القادة من صُلْب مسيلمة فلا بد أن يكون الإعلام من رحم سجاح ، والذي يؤلمني أن العمر قد انتهى ولم أر ضوءًا في آخر النفق المظلم ، قلت هذا لأكون في غنى عن بيان لماذا قال رسول الله ﷺ أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، وعقوق الوالدين ، وهو متكئ ولم يكرر هذا ، ثم جلس وقال قول الزور أو شهادة الزور وكرر هذا حتى قال الصحابة ليته سكت ، إشفاقًا عليه صلوات الله وسلامه عليه ، وقول الزور ليس أقل بشاعة من الشرك لأن الشرك هو نهاية الشوط الذي يَنْتهي عنده المبطلون ، ولكن رسول الله ﷺ لما جلس وكرر لم يكن يُنَبِّه إلى أن هذا الزور أبشع عند الله من الشرك ولا من عقوق الوالدين وإنما يُبَيِّن أنه أسْوأ ما يواجهه الجماعة ،

وأسوأ ما يَهْدِمُهَا وأبْشَع ما يَرُدُّها إلى الوراء . ويَقْضي عليها بالتخلف ، وأنا لم أتكلم عن شهادة الزور التي يُبَرَّأ بها المجرم القاتل أو السارق أو التي يعاقب بها البريء أو التي تلّفق فيها التهم للأبرياء ، ويستأجر فيها الكذبة لإثبات التُّهَم ، وإنما تركت ذلك لك لأني لا أستطيع حصر الكوارث التي تُصيبُ حياة الناس من الكذب وقول الزور ، وأهم ما أريده هو أن الخطيئة التي تترتب عليها مفسدة أكثر في حياة الجماعة هي التي نرى لرسول الله ﷺ إشارة عندها تشير إلى خطرها كأن يجلس بعد ما كان متكئًا وكأن يكرر الكلام وكأن يذكر قبلها أسوأ شناعتين ثم يخصها بإشارة كما هنا ، فقد اقترن قول الزور بالشرك بالله ثم خص بالجلوس بعد أن كان متكئًا ثم خص بالتكرار وليس عندي فيما أكتبه أهم من أن أُبَيِّنَ كيف كان صلاح الجماعة هو الهدف الرشيد من كل كلامه ﷺ ، وكيف كان صلاح دنيانا هو الهدف من كل كلامه ﷺ ، ويجب على الدعاة أن يبينوا للناس أن الكتاب والسنة يدعوان إلى صلاح الدنيا قبل صلاح الآخرة ، لأن الدنيا هي مزرعة الآخرة ، فَمَنْ زرع فيها خيرًا أي عملاً صالحًا وبرًا وعِلْمًا وصَلاحًا وإصلاحًا وجد ذلك في الآخرة ، وكلمة الإصلاح والمصلحين جعلناها دائرة حول زعامات وطنية أو سياسية أو فكرية وقصرناها قصرًا خاطئًا على هؤلاء ، مع أن كل ما في الكتاب من باب الإصلاح وكل ما في السُّنَّة من باب الإصلاح وكل عالم له بصيرة يفهم بها العلم هو مصلح في بابه وكل معلم مصلح ، وكل مخلص مصلح ، ومن يعيش من غير أن يكون مصلحًا فليس لعيشه قيمة .

ولابد أن يفهم الناس أن الإيمان بالله مقترن بالعمل الصالح ، ومن المفاسد في حياة المسلمين أنهم فهموا أن العمل الصالح هو الصلاة والصيام والزكاة والذكر وهذا حق ولكنه جزء من العمل الصالح ، لأن كلمة العمل الصالح كلمة شاملة لكل ما تصلح به حياة الشعوب ، وأن العبادات هي إعداد النفس

المسلمة للعمل الذي تعمر به هذه الأرض عمارة تقوم على العدل والبر والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وتنأى بهذه العمارة عن الفحشاء والمنكر والظلم والبغي والقتل والقمع والنهب إلى آخره ، والنفس التي تكسب في إيمانها خيراً هي النفس التي تزرع الخير في الأرض ما عاشت ، فإذا جاءتها الساعة وفي يدها فسيلة فإن استطاعت ألا تموت حتى تزرعها فلتزرعها ، وهذا هو شأن الإنسان الكادح إلى ربه كدحًا فملاقيه .

ومن باب الكبائر ما رواه مسلم عن عبيد الله بن أبي بكر قال سمعت أَنَس بن مالك قال ذكر رسولُ الله ﷺ الكبائر أو سُئِلَ عن الكبائر فقال : « الشركُ بالله وقتلُ النفس وعقوقُ الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال : شهادة الزور » قال شُعْبة : وأكبر ظني أنه شهادة الزور ، وعبيد الله هذا هو عبيد الله بن أبي بكر بن أنس بن مالك يروي عن جده وليس عبيد الله بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعًا .

وقد جاء في الحديث قتل النفس ولم يذكر في الحديث السابق الذي رواه عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه ، وقد جاء قَتْلُ النفس عقب الشرك بالله وقبل عقوق الوالدين وهو كذلك في ترتيب الكبائر ، فقد أجمعت الأمة على أن الكبيرة التي تلي الشرك بالله هي قتل النفس التي حرّم الله قتلها إلا بالحق، وقد ذكر الإمام النووي في هذا الباب كلامًا جيدًا أضَعه بين يديك ، قال رضي الله عنه « إن أكبر المعاصي الشرك ، وهذا ظاهر لا خفاء فيه وإن القتل بغير حق يليه ، وكذلك قال أصحابنا أكبر الكبائر بعد الشرك القتل ، وكذلك نصَّ عليه الشافعي رضي الله عنه في كتاب الشهادات من مُختصر المُزني ، وأما ما سواهما من الزِّنَا واللِّواط وعقوق الوالدين ، والسِّحْر وقذف المحصنات ، والفرار يوم الزحف وأكل الربا ، وغير ذلك من الكبائر فلها

تفاصيل وأحكام تُعْـرفُ بهـا مراتبهـا ، ويختلـف أمرهـا بـاختلاف الأحـوال والمفاسد المترتبة عليها ، وعلى هذا يقال في كل واحدة منها هي مـن أكـبر الكبائر . وإن جاء في موضع أنها أكبر الكبائر كان المراد من أكبر الكبـائر» انتهى كلامه رحمه الله .

ومن فوائده الجليلة أن القتل هو أكبر الكبـائر بعـد الشـرك بـالله وليسـت هناك أحوال تُزَحْزِحُه عن هذه المرتبة ، وأنـه أبشـع مـا يرتكبـه إنسـان بعـد الشرك بالله ، ولا يُبَـرِّرُ قتـلُ الواحـد أو قتـلُ الجماعـة بـالقول المرسـل بأنـه إرهابي أو أنهم إرهابيون ، لا يجوز أن يُصْرَعَ على قارعة الطريـق باسـم أنـه إرهابي ، ولا أن تصرع المئات والآلاف في أي منطقة باسم أنهم إرهـابيون ، ولا يجوز لأحد أن يَفْعَلَ ذلك بحجة أنه يحارب الإرهاب ، وإنما يحـاكمون أمام قضاء عادل ويمكنون من الدفاع عـن أنفسـهم والبِّينـة علـى مـن يَـدّعي واليمين على من أنكر ، أما استحلال الدماء تحت هـذه المُسَـمَّيات الغامضـة فهذا فجور ، وإجرام ، ولم أعرف سياسـيًا شـريفًا مسـؤولاً كـان أو مُعَارضًـا يَسْتَحِلُّ دماء الشعب ، والدفـاع عـن دمـاء النـاس واجب كالصـلاة والصيام ولا يجوز لمسلم أن يلقى الله وهو ساكت والدماء من حوله مستباحة والـذي بغضبه الحق لا يجوز أن نوصيه بالباطل .

والفائدة الأظهر في كلام الأئمة الذين استخلص النـووي خلاصـة كلامهـم هي أن الكبائر تختلف مراتبها على حسب اختلاف المفاسد المترتبة عليهـا . فالكبيرة التي تَتَرتَّـب عليهـا مفسـدة أكثـر هـي الكبيرة الأكـبر ، وأن حَجْـم الخطيئة يَكبُـرُ ويَصْـغرُ بمقـدار مـا يُصِيبُنَا مـن مفاسـدها ، وكـأن صـلاحنا وفسادنا هـو المَصْدر والأصـل الـذي تقوّم عليـه أعمالنا ، فأكثرنـا إصـلاحًا أو عملاً نافعًا لنا هو أكثرنا في باب الحسـنات والإحسـان ، فالحسـنات مـن

الإحسان والسيئات من السُّوء الذي يُصيبُنَا ، وهذه هي خلاصة الشريعة اتساع المفسدة المترتبة على الذنب هو ذاته الذي يُشكّل حَجْم الذّنْب فيصير كبيرة باتساعها وتصير هي أكبر بمزيد من اتساعه . وبهذا نجد أحاديث الكبائر تتغلغل في صميم حياتنا وتستمد حجمها وكبرها وأكبرها من خلال ما نعانيه نحن منها ، ولا أحِبُّ أنْ أُحدِّث الناس في دين الله بحديث أفضل من هذه الأحاديث ، التي أرى فيها دين الله يَحْرُس حياتنا من الفساد ، والإفساد ويَحْذُو عباد الله المخلصين إلى مزيد من الإحسان فبمقدار ما يُقَدِّمُ العَبْد الصالح لحياتنا من الصلاح والإصلاح تكون مرتبته عند الله . ابتداء من إزاحة غصن الشوك عن الطريق خشية أن يؤذينا وانتهاء بأقصى وسائل الرقيّ العلمي والتعليمي والصناعي ، وإعداد العُدَّة والجيوش التي تحمي الأرض ، وما يلزم كل ذلك من تقدُّم علمي ونهضة في كل المجالات ، وكل ذلك من أفضل القربات . والذين يَحْصُرون الدين في المساجد لا يعرفون شيئًا عن الكتاب والسنة ، وإن تبجّحُوا بأنهم نُخْبَة وأنهم مثقفون وطلائع ونفخ فيهم أحفاد مسيلمة وسجاح إلى آخره ، ولاحظ شيوع هذه الكبائر التي ذكرها العلماء من العقوق والفاحشة وقذف المحصنات والفرار من الزحف ، وأكل الربا كيف يكون حال المجتمع الذي تكثر فيه وإلى أي دَرَك من الانحطاط والضعف يصل إليه ؟ ثم لاحظ شيوع أضدادها من البرِّ والطهارة والصدق والأمانة والإقدام والإنفاق على ذوي الحاجات كيف يرتقي المجتمع الذي تشيع فيه هذه الفضائل ، وتستطيع أن تُلَخّصَ كل هذا وتقول شيوع الرذيلة في حياة الجماعة ، مهلكة لها ومَفسدة ، وشيوع الفضيلة في حياة الجماعة ، أمْنٌ للجماعة وبِرٌّ وتَقَدُّم ، وأن غَضَبَ الله مع التخلف وأسبابه وشيوع الرذائل . ومرضاة الله مع التقدم وشيوع الفضائل ، وأن الذين يعملون

الصالحات التي تصلح بها الحياة وتتقدم هم خير البرية والذين يعملون السيئات التي تسوء بها الحياة وتتخلف هم شر البرية ، أقول الذي يقول هذا هو داعية يعني يدعو إلى إصلاح حياتنا الدنيا إصلاحًا يُفْضي إلى إصلاح آخرتنا ، والداعية بهذا المعنى هو من الإصلاحيين ، وقد فَصَلْنَا الإصلاح عن الدعوة ، وقلنا زعماء الإصلاح وأردنا الذين يتكلمون في السياسة والوعي الصحيح بما في دين الله يعني أن الدعاة المتميزين هم من الإصلاحيين من أمثال الشيخ محمد الغزالي ومحمد شعراوي ، وكل كتب التفسير وكل كتب الحديث كتب إصلاح وهذا حسبي .

ولم أعرف في الكتاب العزيز ولا في سنة رسول الله ﷺ حرصًا على شيء كالحرص على حرمة الدماء ، ولم أعرف في زماننا تهاونا بشيء كالتهاون بالدماء ، وقد عشت مع نظم تقتل الآلاف وتجرح الآلاف وتعتقل الآلاف لأنهم قالو « لا » للذي فرضه النظام ، وتقول هذه الأنظمة إنهم يفعلون ذلك لأنهم يريدون أن ينتقلوا بنا إلى الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية يعنى أن نقول نعم حين نريد أن نقول نعم وأن نقول لا حين نريد أن نقول لا ، مع أن المجاذر التى لم تشهدها البلاد في حروبها مع أعدائها إنما كانت لأنهم قالوا لا ، وإذا لم تقبل هذا التاقض فأنت إرهابى أو متعاطف مع الإرهاب ، وأى نظام يضيق بكلمة الحق الصادقة التى ليس لها غاية إلا مصلحة البلاد فلا يجوز لعاقل أن ينتظر منه خيرا لهذا الوطن ﴿ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ ، ولا يعجل بالخراب للأوطان إلا الكذاب المنافق وتسأل الله السلامة . وهذا حسبى ، ويجب أن أقول في الجانب الآخر إنّي أيْضًا وجدتُ استهانة بالدماء عند فصائل تسمى نفسها بأسماء إسلامية كجماعة محمد والجماعة الجهادية والسلفية ثم

يقتلون قتلاً عشوائيًا ويفرطون في ذلك ويكفرون ويفرطون في ذلك ، وإذا كان الإجرام الأول يمكن معرفة الجهات التي صنعته . فإني لا أدري أين صُنِعوا هؤلاء ومن الذي قدمهم هدية لنا وكيف فهموا أن قتل الناس يفتح باب الجنة ؟ ومن أي علم كفروا من شهد الشهادتين ؟ ومن أي كتاب وأي سنة استباحوا الدماء ؟ كل هذا لا أعلمه وكان يجب على النظم بوسائلها المتاحة لها أن تُحدّدَ لنا البقاع التي أنْبَتَتْهم ، وكل الذي عندي أني كنت على صلة بالرجل الصالح الدكتور عبد العزيز الكفراوي وكان يعيش في الغرب وذكرنا الجماعات الإسلامية وممارساتها التي تتنافى مع ما هو معلوم من الدين بالضرورة فقال لي إنه لا يعرف في الغرب جماعة ذات شعار إسلامي إلا ووراءها لِحْيَةٌ عبرانية . وكما أن كلمة «لا» يوصف صاحبها في أرض الكنانة بأنه إرهابي ويُقتل ليكون ديمقراطيًا حرًا يؤمن بتداول السلطة كل ذلك بعد قتله ، كذلك الجهادي يجاهد في المجتمع المسلم ولا يجاهد العدو المغتصب للأرض وجيش محمد يقتلنا ولا يرمي العدو بحجر والسلفي يفجر دارك وأنت تصلي فيها ، وهو على حدود العدو مرابط لحمايته . ولا أملك إلا أن أدعو الله يكشف الغمة وأنا أستحي من الله ورسوله أن أسكت عن الذي أراه وأن أكتب في كلام رسول الله ﷺ الذي بلغنا عن ربه أنكم إذا عجزتم في بلادكم عن أن تقولوا كلمة الحق كان ذلك العجز برهانا قاطعا على ضياع أوطانكم ، وأرض الكنانة أعزُّ علينا من أنفسنا ولا نرضى أن تضيع .

* * *

• لا تقتله

أريد أن أذكر حديثًا يجب أن يحفظه الناس ويرددونه في الطرقات حتى لا يخدعنا أحد ونصدّق أنه يقتلنا لنؤمن بتداول السلطة ولا نصدق عبراني تحت اسم جهادي وجيش محمد وجيش القدس وجيش صلاح الدين ، وإذا كنت تظن أن الذي أكتبه من هذا الكلام ليس لازمًا لشرح الحديث فاترك كتابي لأن الأمر بيني وبينك مختلف جدًا ومتسع جدًا ، وقد قلت في هذا الكتاب وفي غيره إنني لا أتكلم في آية ولافي حديث إلا عندما أشعر أنـّها نزلت الآن ونزلت للأحداث التي أعيشها . روى مسلم بسنده عن المقداد ابن الأسود أنه أخبَره أنه قال يا رسول الله : « أرأيت إن لقيتُ رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يديَّ بالسيف فقطعها ثم لاذ مني بشجرة فقال أَسْلَمْت لله أفأقتُله يا رسول الله بعد أن قالها ؟ قال رسول الله « لا تقتله ». فقلت : يا رسول الله إنه قطع يدي ثم قال ذلك . بعد أن قطعها ، أفأقتله ؟ قال رسول الله ﷺ لا تقتله ، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله ، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قالها ». وفي حديث معمر فلما أهويت لأقتله قال لا إله إلا الله .

والمقداد بن الأسود هو المقداد بن عمرو بن الأسود الكندي كان حليفًا لبني زهرة وشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ .

وروى مسلم بسنده عن أسامة بن زيد قال : بعثنا رسول الله ﷺ في سريَّةٍ فصَبَّحنَا الحُرمَات من جُهيْنة فأدركتُ رجلاً فقال لا إله إلا الله فطعَنْتُهُ فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ « أقال لا إله إلا الله وقتلته؟ » قال قلت يا رسول الله إنما قالها خوْفًا من السلاح ، « قال أفَلا شَقَقْتَ عن قَلْبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ » فما زال يُكرّرُها عليَّ حتى تمنيّتُ أنـّي

أسلمت يومئذ ، وفي رواية أخرى حدث أبو ظبيان قال سمعت أسامة بن زيد ابن حارثة يحدث ، بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرَقَة من جُهَيْنة فصبحنا القَومَ فهزمْنَاهمُ ، ولَحِقتُ أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، فلما غشيناه قال لا إله إلا الله ، فكَفَّ عنه الأنصاري ، وطعَنْتُه برمْحِي حتى قَتَلْتُه . قال فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لي « يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟» قلت يا رسول الله إنه كان مُتَعوّذًا. قال فقال « أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟» قال فما زال يكررها عليّ حتى تمنَّيْتُ أنـي لم أكُنْ أسْلَمْتُ قبل ذلك اليوم .

وفي رواية لمسلم أن جُندَب بن عبد الله البَجَلِي حدَّث نفرًا من إخوانه زَمَن فِتْنَةِ ابن الزبير قال إن رسول الله ﷺ بَعَثَ بعثًا من المسلمين إلى قوم من المشركين ، وأنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له ، فقتله ، وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلته قال وكنا نحدّث أنه أُسَامَةُ بن زيد فلما رفع عليه السيف قال لا إله إلا الله فقَتَلَه فجاء البشير إلى النبي ﷺ فسأله فأخْبَره حتى أخْبَره خَبَر الرجل كيف صنع فدعاه فسأله فقال لِمَ قَتلته ؟ قال يا رسول الله أوْجَعَ في المسلمين وقَتَل فلانًا وفلانًا وسَمّى له نفرًا ، وإني حَمَلْت عليه فلما رأى السيف قال لا إله إلا الله . قال رسول الله ﷺ أقتلته ؟ قال نعم ؟ قال فكيف تَصْنَع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة ؟ قال يا رسول الله استغفر لي . قال وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة ؟ قال فجعَل لا يَزِيدُ على أن يقول كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة ؟

هذا المقتول الذي غضب رسول الله ﷺ لقتله في صفوف الكافرين يقاتل المسلمين ، وفي حديث المقداد ضرب يد المسلم فقطعها ، ثم لاذ بالشجرة ، لما أحاط به المسلم ، وتمكن مِنْهُ ، وإنما تعوّذ بالشجرة ثم تعوّذ بقوله

أسلَمْت ، وقد قطع يد المسلم فلو كان باطنه مسلمًا لتفادى قطع يد المسلم ، وكان يمكن أن يقول أسلمت قبل أن يُحيط به المسلم ، ولذلك اعتقد المقدادُ أن قوله أسلمت إنما قالها لينجو من السيف ، وقد كرر المقداد هذا المعنى لرسول الله ﷺ وأنه قال أسلمت بعد أن قطعها ، يَعْني لو كان صادقًا ما قطع يدي ورسول الله ﷺ لا يحيد عن قوله (لا تقتله بعد أن قالها) وقول سيدنا المقداد : أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني السؤال سؤال ليس عن شيء وقع ، وإنما عن حالة يُفْتَرَضُ حدوثها ، وكان رضوان الله عليه يريد أن يَعْلَم حُكْمَ حادثة هي مَظِنَّةٌ أن تَقع ، وبعض العلماء يكره السؤال عن شيء يفترض وقوعه ، أخذًا بظاهر قوله تعالى ﴿ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ والبعض يرى أن الكراهة مُتَعَلِّقَةٌ بالسؤال عن الشيء الذي لم يقع إلا نادرًا ، أمَّا المتوقع فلا كراهة فيه ، والأكثر من الفُقهاء وضعوا إجابات وسؤالات للأحوال البعيدة الحصول بل والمستحيلة أحيانًا ، والمقداد هذا السائل الكريم من أوائل من دخلوا في دين الله ، قال عنه ابن مسعود أول من أظهر الإسلام بمكة سبعة ذكر منهم المقداد ، ثم إن ما سأل عنه المقدادُ قد وقع من أسامة بن زيد بن حارثة حِبِّ رسول الله ﷺ ، ودخول همزة الاستفهام على الفعل (رأيت) في قول المقداد « أرأيت » معناها أخبرني خبرًا ظاهرًا في القلب كظهور الشيء تراه العين ، ولله در المقداد وكأنه كان يرى ما وراء الغَيْب ، وكأنه يرى الذي نحن فيه ، وأن منَّا من يَقتُلُنَا ونحن لم نقل أسلمنا فحسب وإنما نصوم ونصلي ونحج البيت ونجاهد في سبيل الله ، ومنا من يقتل جنودنا على حدودنا وهم في الرباط ، المقداد كأنه بيننا وكأن رسول الله ﷺ بَيْنَنَا والمقدادُ يسأله عن واقع نصطلي بناره ، وسيدنا ﷺ يقول (لا تقتله) يقول لمن يُسَمونَ أنفسهم جيش محمد ارموا السلاح من أيديكم ، ولمن يسمون المجاهدين ارموا السلاح من أيديكم ، ولمن يقتلوننا لنكون

أحرارًا ، أنتم كذابون سلاحكم كلكم يجب أن يوجه إلى صدور من يحتلون أرضكم . حرِّر بَيْتَ المقدس يا قاتل المصلين ، حرر بيت المقدس يا من تزعم أنك جيش محمد ، وهكذا وهذا هو الذي يجعل لكلام المصطفى مذاقًا خاصًا يذهب عني إذا أبعدته عن الواقع ، راجع الإيجاز الشديد والوضوح البيِّن في قوله (لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يديّ فقطعها) أراد رضوان الله عليه أن يشير إلى استبعاد أن يكون صادقًا حين قال أسْلَمْتُ لله ، فذكر أنه من الكفار ، وذكر أنه هو الذي قاتل ، لأن المقداد لم يقل فقاتلته وإنما قال فقاتلني ، ثم بيَّن هذه العبارة المجملة بقوله فضرب إحدى يديَّ بالسيف فقطعها ، وكأن المقداد وهو من السابقين أُلْهَمَهُ ربُّه كل هذه البيانات التي تؤكد أن الرجل مقاتل لأهل الإسلام ، وأنه لا يَحْمل السيف في وجههم فحسبُ ، وإنما يضرب بالسيف ويقطع ليأتِيَ جوابُ رسول الله ﷺ حاسمًا في هذا الأمر وأنك أيها المقداد صادق في كل ما قلت ، ولكنه حين قال أسلمت فقد جبّ بها كل ما قبلها ، ولو كان لا يزال السيف في يده ، ولو كان دم يد المسلم لا تزال عالقة بالسيف ، وما دام نطق بها فقد عَصَمَتْ دَمَهُ ومَالَه وعِرْضَهُ ، ولو قامت عندك كل الأمارات على أنه ليس صادقًا لأننا أُمِرْنا أنْ نقبل من الناس ظواهرهم ، ونترك لله سرائرهم وهذا أعدل وأكْرم وأنْبل ما يقال وما يقضى به في الناس ، وقول المقداد : « ثم لاذ مني بشجرة فقال أسلمت لله » تشير كلمة ثم إلى أن زمانًا قد مضَى بين قَطْعِه يد المقداد ولواذِهِ بالشجرة ، وأن ميزان القوة في هذا الوقت قد مال جهة المقْدَاد وكان يمكن أن يقول أسلمت بدل أن يلوذ بالشجرة ، ثم يلاحظ أنه لم يَنْفَعْه أنه لاذ بالشجرة فقال أسلمت بعد افتقاده الأمن بهذا اللواذ ، ولم تبق أمامه فُرْصَةٌ يَنْجو بها إلا أن يقول أسلمت ، وكل هذا ليؤكد لنا المقداد أنه قالها لِيَنْجُو ومع كل ذلك لا يسمع من الطيب الطاهر إلا كلمة واحدة لا يحيد عنها ،

وهي قوله «لا تقتله» والفاء التي في قول سيدنا صاحب السابقة (أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها) تشير إلى محذوف معطوف عليه ما بعد الفاء وكأنه يقول أتأذن لي فأقتله بعد أن قالها ؟ وهذا السؤال فيه إشارة إلى أن كل ما كان من الذي قالها ليس شافعًا ولا مبررًا لقتله عند سيدنا المقداد لأن قوله أسلمت كانت عند المقداد بمكان لا يجوز له أن يتخطاها ، وأن يَقفِزَ عليها ، وأن قتله رغم كفره وشراسته في الحرب وقطع يده لا يجوز أن يقتله من كان يحاول هذا الكافر قتله إلا بإذن من رسول الله ﷺ لأن قوله أسْلَمْتُ تَرْفَع عنه السيف ولو كان في لحظة الصدام التي يتوقع فيها نهاية أحد الطرفين ، وإنما كان تشبُّث رسول الله ﷺ بقوله (لا تقتله) وأنه كان عليه السلام لا يتزحزح عنها قيد نَمْلة لأنه يريد أن تصل منه رسالةٌ للأُمّة أبيضها وأسودها أن لا إله إلا الله وأسلمت لله تعصم الدماء عصمة لا يَخْترِقُها إلا جاهل مغرور ولو كان سيف من قالها لا يزال يقطر من دم مسلم ، ولما ألحَّ المقداد على رسول الله ﷺ ليتزحزح عن قوله لا تقتله ، قال الطيب الطاهر صلوات الله وسلامه عليه ليحسم الجدال مع المقداد (لا تقتله فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته) لا شك أن ظاهر هذه الكلمة مرعب وأنك حين تقتل من يقول لا إله إلا الله تكون بمنزلته قبل أن يقولها يعني قبل إيمانه بالوحدانية ، والذي بمنزلة من لم يؤمن بالوحدانية يكون معه أعني ، كافرًا ، ويكون هو مع الشهداء الأبرار أعني بمنزلتك قبل أن تقتله ، لأنك كنت قبل أن تقتله مجاهدًا في سبيل الله مقاتلاً لتكون كلمة الله هي العليا ، ولكنك لما قتلت من قالها انقلب أمرك رأسًا على عقب ، قلت هذا هو الظاهر المخيف ليؤكد عليه السلام حُرْمَةَ الدماء في هذه الأمة التي استحلت دماءها وحقنت دماء عدوّها أو تَلهّيْنَا في مجاهدين يقتلوننا ، ويقتلون جنودنا المرابطين على حدودنا ، وهذه مصايب لا أدري من أين

جاءَتَنا ثم نفاجأ بشياطين تنشق عنهم الأرض وشَرُّ الشَّر شيطانٌ يُطَاع ، وكأنهم ظماءٌ لدمائنا لتتحرَّر وكأنهم ثملوا بكثرة الدماء لنصير ديمقراطيين ويبعثوننا إلى القبور في جماعات لتداول السلطة هناك ، كلام يذهب عقل الحليم ، وإذا كنت لا أدْري من أي باب من أبواب الشياطين دخل علينا المجاهدون الذين يقتلون جنودنا تقربًا إلى الله فأنا كذلك لا أدري من أي شِقٍّ جاء هؤلاء المولعون بدماءنا ، حتى نتحرر ولا أملك إلا أن أدعو الله أن يزيل هذا الليل الملبس عن هذا الشعب الطيب وأعود إلى كلمة سيدنا رسول الله ﷺ بعدما ذكرت ظاهرها وهو بالطبع غير مراد وأن أستعين بقول النووي قال رحمه الله : «قال القاضي معناه أنك مثله في مخالفة الحق وارتكاب الإثم وإن اختلفت أنواع المخالفة والإثم ، فيُسَمَّى إثمه كُفْرًا وإثمك معصية وفِسْقًا».

والذي ارتضاه النووي ، والشافعي والأئمة أن قوله عليه السلام فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله يعني دَمُه مَعْصُوم كَدَمِكَ قبل أن تقتله وأنت الآن بمنزلته قبل أن يقول أسلمت لله وقد كان قبل أن يقولها غير معصوم الدَّم وإنما هي التي عصمت دَمَه وقد أصَبْتَ بقتله دَمَ امرئ مسلم فصار دَمُكَ غَيْرَ مَعْصُوم ، قال النووي «أحسن ما قيل فيه وأظهره ما قاله الإمام الشافعي وابن القصَّار المالكي وغيرُهما أن معناه فإنه معصوم الدم مُحرَّم قَتْله بعد قوله لا إله إلا الله كما كنت أنت قبل أن تقتله ، وأنك بعد قتله غير معصوم الدم ، ولا مُحَرَمُ القَتْل كما كان هو قبل قوله لا إله إلا الله» انتهى كلام النووي . ومن الواجب ليس أن نفهم ونكرر ما قاله كرام أهل العلم وإنما نراجع كيف استخرجوه من كلام رسول الله ﷺ وكيف تغلغلت عقولهم في مَنْطِقه صلوات الله وسلامه عليه حتى استخرجت من قوله فإنه بمنزلتك قبل أن

تقتله وأن هذه المنزلة هي عصمة دمه بقوله أَسْلَمْت ، وكيف استخرجوا من قوله عليه السلام وأنك بمنزلته قبل أن يقولها وهذه المنزلة هي عدم عصمة دمه ، ولم أجد أَمْتعَ من أن أتابع عقول هؤلاء الكملة وهي تدور في الكلام لتستخرج منه المعاني المتلائمة والتي تخالف الظاهر ، وإنما لم يقل عليه السلام هذا المعنى الذي استخرجوه بالعبارة الظاهرة في الدلالة عليه ، لأنه أراد تبشيع قتل من يقولها ، لأن الواجب على من يَسْمَعُها أن يَرْفَع سَيْفَه على من قالها ، ونسأل الله أن يلطف بنا ونحن لا نرى قتل من قالها وإنما نرى قتل الساجدين لله في صلواتهم ، ونجد مضاضة تحول بيننا وبين الدعاء لهم بالمغفرة ، وأعجب ما في أرض الكنانة التي كانت كعبة الإسلام أن من يقول للقاتل أنت قاتل يُعذَّب ويقمع ويقهر ويُذَل ويهان وقد يقتل ونسأل الله السلامة .

وقد ذكرت في هذا المعنى حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه وعن أبيه وهو مختلف عن حديث المقداد من جهة أن المقداد كان يَسْأل عن حدث لو حدث ماذا نَفْعل وأسامة يحكي واقعًا ، وظني أن حديث المقداد كان أسبق من حديث أسامة لأن حديث أسامة تسامع الناس به ولو كان قبل حديث المقداد ما سأل المقداد ، لأن الحكم فيه ظاهر ، وأقطع بأن أسامة لم يبلغه حديث المقداد ، ولو بلغه ما قتل الرجل ، ثم إني أؤكد معنى وهو أن المقداد كان يسأل لنا أيضًا لأنه لو كان يسأل لنفسه لاكتفى بقوله عليه السلام لا تَقْتُلْه ، وإنما كرر وذكر ما كان من الرجل مما يُغْرِي بأنه لم يكن صادقًا في قوله أَسْلَمْتُ ليؤكد لنا قبول ظاهر الرجل وأن لسانه القائل أسلمت أو القائل لا إله إلا الله يَعْصِمُ دَمَه لا محالة ، ولا يجوز لأحد أن يتأول غير ذلك لأن حُرْمة لا إله إلا الله عند الله بمكان ومثلها حرمة أسلمت لله ، قلت

إنها ترفع السيف عنه ولو كان سيفه لا يزال يقطر من دم مسلم ، وسيُبين حديث أسامة شيئًا من ذلك . وسأتابع لغة أسامة لأن من الواجب أن نقترب أكثر من لغة هذا الجيل لأنها كانت مُهَيَّأة بصفائها وإيجازها لنقل دين الله إلينا ، وما من حديث تحفَظُه عن رسول الله إلا وفيه من كلامهم ما هو أكثر من الحديث .

قال أسامة « بعثنا رسول الله ﷺ في سريَّة فصبَّحنَا الحرقات من جُهَيْنة فأدركت رجلاً » من أبرز ما يتصف به كلام هذا الجيل هو الإيجاز الشديد المؤسس على الحَذْف الذي يَنْصَبُ المتكلم على مواطنه نُصُبًا من اللغة تدل عليه ، دلالة ظاهرة ، وكأنك ترى المحذوف بعينك وتسمعُه بأذنك لقوة دلالة القرينة اللغوية عليه ، وتراه في هذه الجملة في موطنين الأول أنه قال بعثنا رسول الله ﷺ في سريَّة ، ولم يذكر الجهة التي بعثهم رسول الله ﷺ إليها ، ولو كنت أنا الذي أتكلم لقلت بعثنا رسول الله ﷺ في سرية إلى الحرقات من جهينة فصبحناهم ، ولكن أسامة رضوان الله عليه حذف من الأول وذكر في الثاني ، وكان الثاني قرينة ظاهرة جعلت الأول كأنه مذكور وكأنك تسمعه وتراه ، والفاء التي في قوله « فصبحنا » عطفت ما بعدها على قوله « بعثنا » وتدل على أن ما بعدها مرتب على ما قبلها من غير مهلة وأنهم كانوا يسارعون في طاعة رسول الله ﷺ في غير ريث وفي غير إبطاء ، والفاء التي في قوله فأدركت ليست عاطفة ما بعدها على قوله فصبحناهم ، وإنما هي عاطفة على كلام طويل طُوِي طيًّا ، وكانت كلمة « أدركت » التي دخلت عليها الفاء دالة على المحذوف دلالة ظاهرة وهي النُّصُب المنصوب الذي كُتِبَ عليه ما طُوِي تحته لأنه لا يدرك رجلاً منهم إلا إذا كان هذا الرجل هاربًا ، ولا يكون هذا الرجل هاربًا إلا إذا كان قومه مهزومين ، وكأن

أصل الكلام فصبحناهم ودارت الحرب بيننا وبينهم وكانت لا شك حربًا شرسة لأن الحرقات من جهينة وجهينة من قضاعة ، وكانوا يشبهون الحرب الشرسة بالحرب القضاعية كما كانوا يشبهونها بالحرب المضرية ، وزهير يقول وهو يعني الحرب (قضاعية أو أختها مضرية) ثم كان أن انتصرت سريَّةً رسول الله ﷺ وتفرّقتْ الحُرقَة فأدرك أسامة رجلاً منهم .

وقول أسامة « فأدركت رجلاً فقال لا إله إلا الله فطعنته فوقع في نفسي من ذلك فذكرته للنبي فقال « أول ما يلفتنا في هذا هذه الفاءات التي أمْسَكَتْ الأحداثُ فيها بَعْضُها ببعض ، وقد بيَّنا الذي وراء الفاء في قوله « فأدركته » والفاء التي في قوله فقال لا إله إلا الله ، تشبه الفاء التي في قول المقداد « فلاذ بالشجرة فقال أسلمت »، يعني أنه قال لا إله إلا الله لما لم يجد مهربًا من السيف ، وأنه قالها لينجو من السيف ، وقول أسامة « فطعنته » هي لب هذا الحديث وجذره ، ولا شك أن أُسَامة طعنه وصوت الرجل وهو يقول لا إله إلا الله في أذن أسامة لأنه أعقب الطعن بقوله « فوقع في نفسي »، وهو معنى قريب من قولنا أسقط في نفسي وليس هو ، وإنما أراد رضوان الله عليه فوقع في نفسي شيء من المراجعة ، والخوف من أن تكون طعنتي طعنة متجاوزة ، ولهذا بادر بقوله فذكرته للنبي صلوات الله وسلامه عليه ، والفاء التي في قوله فذكرته للنبي صلوات الله وسلامه عليه بينها وبين ما عطفت عليه وهو قوله « فوقع في نفسي » زمن ليس بالقليل وليس كالزمن النذي بين « فأدركت رجلاً فقال لا إله إلا الله فطعنته » ، لأنه ذكره للنبي ﷺ بعدما عادت السريَّةُ من الغزو ، وإنما أَرَادَ بالفاء أنه ما إن عادت السريَّة حتى ذكر ذلك للنبي وهو يشبه مثال النحاة تزوج زيد فولد له ، لا شك أن هناك مسافة بين زواجه وولادة ولده وإنما دلت الفاء على أنه ما إن مَضَتْ مُدّة الحمل حتى ولد له .

وقول أسامة « فذكرته للنبي ﷺ فقال أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟» الفاء التي في قوله (فقال) تعني أنه عليه السلام ما إن سمع فقال وهذا يعني أن الخطأ في هذا الشأن ظاهر جدًا وأن رسول الله ﷺ لم يجد له مخرجًا ، وكأن المخالفة في هذا ظاهرة لأهل الإسلام وأنه عليه السلام أبلغهم أن لا إله إلا الله تعصم الدماء وأنه أمرهم أن يقاتلوا من يقاتلهم من أهل الكفر حتى يقولوها فإذا قالوها عصمت دماءهم وأموالهم وأعراضهم ورفعت سيوف المسلمين عنهم ، وأنك إذا سمعتها من صفوف العدو وأنت في الحرب فلا بد أن تحتاط حتى لا يقع سيفك على من قالها ، ولهذا ما زاد رسول الله ﷺ على أن قال : أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟ والاستفهام هنا للإنكار وأن الذي كان ما كان يجوز أن يكون ، وفيه من التَّعْنِيفِ واللومِ والمؤاخذة ما فيه ، ولاحظ أن جملة سيدنا رسول الله ﷺ تَرْمِي في الصلب لأنها تفادت أن تدخل في الذي كان من الرجل وأنه كان هاربًا وأنه كان يمكنه ألا يَهْربَ وإنما يحمي نفسه بلا إله إلا الله وهو ثابت في مكانه ، وصوّبت الكلام إلى إنكار ما كان وأنه ليس له مُبرِّر ، ثم إنه عليه السلام قدم قوله أقال لا إله إلا الله وقتلته ولم يقل أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ لأن تقديم لا إله إلا الله على أقتلته ليس كتأخيره ، وأن من قالها ليس بمثابة أن يقتل ، وأنها هي الحصن المتين لأنها حصن الله ومن تحصّن بحصن الله فلا يجوز أن تناله سيوفكم ، وأنه بها كأنه دخل حَرَمَ بيت الله ، ومن دخل بيت الله فهو آمن ، لو قدم أقتلته على أقال لا إله إلا الله لذهب كثير من هذه الخواطر التي يثيرها تقديم هذه الجملة .

قال أسامة : « قلت يا رسول الله إنما قالها خوفًا من السلاح» قوله إنما قالها خوفًا من السلاح فيها أداة القصر إنما أى ما قالها إلا خوفًا من السلاح

ولم يقلها من قلبه هذا هو معنى القصر ، ومجيئه بإنما فيه دلالة على أن ذلك كان ظاهرًا لي منه ، وأن قصر قوله على الخوف من السلاح ونفي الإيمان الذي هو الإقرار بالقلب كان ظاهرًا لا يدفعه دافع ولا ينكره منكر ، ولهذا لم يقل أسامة ما قالها إلا خوفًا من السلاح ، وهذه هي الفروق الجليلة لأدوات اللغة ، والحقيقة أن سيدنا أسامة تورط في هذا القول وأن تورطه فيه كان بتوفيق الله لأن جملة أسامة هذه أنطقت رسول الله ﷺ بأحب كلامه إلى قلوبنا ، وأعود كلامه بالفائدة علينا ، لأنه علمنا في رده على أُسامة علمًا نافعًا جدًا لأوائلنا وأواخرنا ومريحًا جدًا لأوائلنا وأواخرنا ، وهو أن نقبل من الناس ظواهرهم وأن نترك لله سرائرهم ، وهذا من أهم ما يريحني في هذه الدنيا لأني أكره أن أفتش في صدور الناس ، وأُحِبُّ أن أكرر من خدعنا بالله انخدعنا ، وأن الكريم وذا الإسلام ينخدع ، وهذا لا يعني السذاجة لأن المؤمن كيّسٌ فطن ولكن هناك فرق بين أن أكون مُغَفَّلاً وأن أكلف نفسي بمعرفة غيب الصدور .

قلت إن جملة أسامة هذه استخرجت من نفس سيدنا وسيد سادتنا كلامًا من أجَلِّ كلامه ومن أحبِّه وهو قوله « أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا؟ » معنى هذه الجملة معقود في هذه الفاء التي دخلت عليها همزة الاستفهام؛ لأن وراءها جملة محذوفة هي التي تأسست عليها هذه الجملة لأنه لا يشق عن القلب فيعرف ما فيه إلا من أُوتِيَ أمرًا إلهيًّا ، لأن هذا الشق والعلم بما فيه لا يكون ولن يكون إلا من الله الذي يعلم وحده ما في القلوب ، ولهذا كان المعطوف عليه المحذوف من مثل قولنا أَؤُتيت أمرًا خارقًا من أمر الله فشققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ وتأمل هذه الجملة لأن صلاحها وإصلاحها لا حدود له ، وقد كررها ﷺ ليبلغ كل من

شَهِدَ أنه رسول الله ﷺ في كل زمان وفي كل مكان أنه لا يجوز البتَّة أن تحاسبوا الناس على ما تتوهمون بأنه في قلوبهم ، لأن العلم بما في القلوب ليس من شأنكم وإنما هو شأن الله وحده ، وإنما حاسبوهم فقط على أقوالهم وأفعالهم ، وإذا فتحتم باب المحاسبة على ما في القلوب فقد فتحتم عليكم وعلى شعوبكم شَرًّا مستطيرا لا يقادر قدره ، لأنه باب يَنْفُذُ منه كل ظالم إلى ما يريد ، لا يجوز أن نقول لأحد إنك تريد كذا لأن هذا ليس من شأنك وإنما قل له قلت كذا وفعلت كذا ، فكأنه عليه السلام عَلِمَ بما علّمه ربه أننا سنعيش تحت أنظمة السوء التي لم يعرف البشر في كل عصور البشرية لها نظيرًا ، وأن كل من يعارض الظلم والقمع تلفق له التهم من مثل (خلية نائمة) ومن مثل العمل في مشروع تكوين خلية إرهابية ، والذي رأيته بعيني أن شبابًا صالحًا حائزًا على أعلى الدرجات العلمية كانوا يلتقون كل أسبوع بعد صلاة الجمعة يقرؤون القرآن فاعتقلوا جميعًا ولُفِّقَت لهم التهم وأنهم مشروع خلية إرهابية أو مضموم لجماعة إرهابية أو يعمل على تعكير صفو المجتمع أو تغيير نظام الحكم ، وكل هذا قائم على أنه مضمر لذلك ولم يكن فعل أو قول يدل على شيء من ذلك ، وهذا هو السبب الأول لتخلفنا ولهزائمنا في مواجهة أعدائنا ، ولم يعرف التاريخ قائدًا ظلم شعبه ثم نجح وانتصر ولم يعرف التاريخ شعبًا مقهورًا حمى وطنًا . والشعب المقهور لا يكوّن جيشا حرًّا لأن الجيش من الشعب وإنما تحمى الأوطان الجيوش الحرة التى وراءها شعوب حرة وهذه سنة التاريخ ولن تجد لسنة التاريخ تبديلا .

قال أسامة : فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ ، راجع تمنّي أُسامة وأن هذا التمنّي فيه تضحية بجهاده وصلاته وصيامه وصحبته

لرسول الله ﷺ لأنه استشعر أن هذا كله لا يوزن به قتل من قال لا إله إلا الله وإن كان قبيل ذلك بدقيقة واحدة كافرًا يقاتل في صفوف الكافرين ، وما كان شيء يذهب بهذا الذنب إلا الإسلام الذي يجب ما قبله . وضع هذا بإزاء القتل الجماعي لمن قال لا إله إلا الله أو تفجير رؤوسهم وجثامينهم بالرصاص حتى صارت الجثث مجهولة لا يعرفها أهلها ، ثم تجد شيوخًا يبررون ذلك ، وأبرأ إلى الله منهم . وتجد رؤوساء يزعمون أنهم حماة الإسلام لا يبررون ذلك فقط وإنما يدعمونه بأموالهم التي انتهبوها من شعوبهم ، أقول لو عزلت أحاديث رسول الله ﷺ عن الواقع الذي نعيشه فقد عزلت حديثه عن رسالته ﷺ لأنه بعث رحمة للعالمين ليخرجهم من ظلمات القمع والظلم والقهر إلى محجّة النور والعدل والبر والمرحمة ، وهذا هو معنى الحديث ولو سَكَتُّ عن شيء من ذلك لم يكن كلامي شرحًا لكلامه عليه السلام .

والرواية التي رواها أبو ظبيان عن أسامة فيها أشياء أودّ أن أشير إليها بإيجاز .

قال أبو ظبيان سمعت أسامة بن زيد بن حارثة يحدث : بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحُرقة من جهينة فصبحنا القوم فهزمناهم ، يلاحظ أن هذا مختلف عن الرواية الأولى فقد ذكر هنا أنهم بُعِثُوا إلى الحرقة ولم يذكر ذلك هناك ، ثم ذكر هنا أنهم هَزَمُوهم وقد أضمر ذلك هناك على حد ما بينا ، وأن هذه الرواية لم تعتمد على طيٍّ بعض الأحداث اعتمادًا على الدلالة عليها بالقرائن كما كان هناك ، وإذا كان هناك دل على الهزيمة والفرار بقوله « فأدركت رجلاً » ، تراه هنا صرّح بقوله فهزمناهم ولم يقل أدركت رجلاً وإنما قال فلحقتُ أنا وَرَجُل من الأنصار رجلاً منهم،فلما

غشيناه قال لا إله إلا الله، وهذا نشر لما طُوِي هناك ، ولا شك أن كل رواية هي كيان لغوي مستقل بطريقته اللغوية وأن الذين كانوا يَسْمعون هذه الأحاديث المهمة كان يحرص أكثرهم على أن يبلغها ، وليس بعيدًا أن تتغيّر بعض العبارات التي لا تُعبِّر عن أصل المعنى ، مثل فأدركت رجلاً فقال لا إله الله أو فَلَحِقْتُ أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم إلى آخره ، وأستَحْسِنُ بيان الرواية الأولى التي فيها حذف الجهة في الجملة الأولى وحذف فهزمناهم لأني أحب دلالات القرائن وحذف ما تدل عليه هذه القرائن ، فقوله « فصبحنا الحرقات من جهينة فأدركت رجلاً» تدل كلمة فأدركت رجلاً على معناها ويدل معناها على الهزيمة والفرار وأنهم كَسَروا الحُرِيْقَات ، لأن إدراك رجل من القوم المحاربين لا معنى له إلا تفريق هذه الجماعة التي أغاروا عليها ، ولا شك أن دلالة المعنى على المعنى أَوْقَعُ في النَّفْسِ من دلالة اللفظ على المعنى ، لأن الدلالة هنا تحتاج إلى يقظة أكثر ووعي أكثر ، وهذا ليس من باب معنى المعنى الذي ذكره عبد القاهر لأنه هناك خاص بالاستعارة والكناية والتمثيل، وهذه الثلاثة يقودك لفظها إلى معنى ثم يقودك معناها إلى معنى آخر ، والذي هنا هو أن ذكر إدراك الرجل لا يتأتى إلا إذا كان القوم هزموا وتفرَّقُوا فالمذكور قرينة على محذوف ، وليس في معنى المعنى عند عبد القاهر دلالة على محذوف ، قلت إن اختلاف الروايات من أهم أسبابه رغبة من سمع أن يبلغ من لم يَسْمع وخُصوصًا في أمرْ مهم كهذا ، وقوله « فكَفَّ عنه الأنصاري وطعنته برمْحِي حتى قتلته» ، وإنما كف الأنصاري لأنه سمع من رسول الله ﷺ أن لا إله إلا الله تعصم الدماء وتأول أسامة وأعتقد أنه قالها خوفًا ، وظني أن قوله هناك «فوقع في نفسي من ذلك» إنما كان لما رأى الأنصاري كفَّ عنه

والحادثة واحدة وأسامة رواها أكثر من مرة ، وهذا هو وجه الاختلاف . وأُسَامَةُ يُجِيزُ لنفسه التصرف في العبارة أكثر مما يجيزه من يروى عنه ، والذي كرره رسول الله في هذه الرواية قوله : (أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله)، والذي تكرر هناك هو قوله عليه السلام (أفلا شققت على صدره) وفي الذي حدّث به جندَب بن عبد الله البجلي أن رسول الله ﷺ قال لأسامة « أقتلته ؟ قال نعم ، قال فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة » وكرر هذه الجملة ، وسوف أقف عند هذا بعد المراجعة السريعة للذي ذكره جُنْدَب ابن عبد الله وحدَّث به نفرًا من إخوانه أيام فتنة ابن الزبير ، قال إن رسول الله ﷺ بعث بعثًا من المسلمين إلى قوم من المشركين ، وأنهم التقوا... ».

يلاحظ الاختلاف في العبارة وأن الرواية الأولى سكتت عن الجهة التي بعث رسول الله ﷺ السريّة إليها ثم بينتها في جملة « فصبحنا الحرقات » ، والرواية الثانية « بعثهم إلى الحرقة من جهينة » ، وهنا بعث بعثًا من المسلمين إلىالمشركين فأيهم المبعوث والمبعوث إليه وأنهم بَعْثٌ من المسلمين إلى قوم من المشركين ، وكل هذا لا غضاضة فيه لأنه لا يتعلق به حكم وأنه كله مُقدّمَات للمقصود . أما حين يأتي الكلام إلى المقصود فإن المخالفة لا تكون إلا في حالات خاصة كالشك في الذي قاله عليه السلام ، وتجد الحرص الشديد على لفظ رسول الله ﷺ لأنه هو الدين الذي لا يجوز أن تَشُوبَه شائبةٌ من غيره ﷺ وهو المبلغ عن ربه .

وقول جندب رضي الله عنه : « وأنهم التقوا فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله » .

هذا الجزء من الحديث جاء شديد الاختصار في الرواية الثانية وذلك قوله « فصبحنا القوم فهزمناهم » ، ولم يذكر من هذا شيء في الرواية الأولى وإنما حذف ودلت عليه كلمة (فأدركت رجلاً) كما بينا ، ولاحظ أن جُنْدَب هنا لم يذكر ما كان في الحرب وإنما ما كان من الرجل الذي تدور الروايات ويدور الحكم حوله ، وأن أُسَامة قتله بعدما قال لا إله إلا الله ، وهـذه الروايـة تقـدم عذرًا واضحًا لأسامة وتقدم بيانًا واضحًا لهذا الحكم ، وأن هذا الرجـل الـذي كان منه أنه إذا قصد مسلمًا لم يُفْلِتْ منه ، وهذا معنى عبارة جندب « إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصدَ لـه فقتلـه » يعـني لم يقـف في وجـه قصده أحد ، وكأنه كان ينتقي من المسلمين ويقصد إلى من انتقاه ولا يحول حائل بينه وبين من قصده ، وراجع العبارة لتدرك جزالتها وإن كانت الجزالـة خفيَّة ، وربما كان ذلك في أنه جعل مشيئته فعل الشرط ، ولم يقـل إذا قصـد إلى رجل من المسلمين قتله ، ثم إنه جعل جواب الشرط « قصد له » ثم رتَّب بالفاء قتله على قصده له ، ولو كنت أنا الذي أُعبِّر عـن هـذا المعنـى لقُلْـتُ ما قصد إلى أحد من المسلمين إلا قتله ، ولكن عبارة البجلي العريـق خَلَـتْ من حدة القصر ، واستعاضت عن ذلك بشيء آخر وهو تعويلُه على مشـيئته وأن مشيئته ناجزة وأنه لم يشأ القتل وإنما شاء القصد ثم يأتي القتل عفوًا من غير احتفال ولا احتشاد ، كل ذلك يفيد بطريقة خفية ثقته في نفسـه وأنـه لم يحتشد ليقتل وإنما يقتل عفوًا وكأنه يمارس لُعْبَةَ القتـل كـمـا يمـارس أي شيء ، ثم تجد رأس ذلك كله مع أداة الشرط (إذا) التي يؤتي بـهـا لبيـان أن ما بَعْدِها يُتَوقَّع كثيرًا ، وأن جـوابـهـا لازم لشرطها لا يتخلف ، قلـت هـــذا ما أحاول به بيان جزالة هذه الكلمة العريقة من البَجلي العريق وأُنَبِّـهُ إلى أن بيان سر الجزالة أو سر السهولة أو العذوبة أو السلاسة كل ذلك صَعْبٌ جدًّا ،

وإنما نقول ما يقع في نفوسنا وربما كان بعيدًا جدًّا عن السرّ الذي أردناه ، وقوله « وأن رجلاً من المسلمين قصد غفلته » معنى أن هذا الرجل الذي هو أسامة قصد غفلته ، أنهُ كان يَرْقُبه ويرى نكايته في المسلمين وأنه أيضًا تهيَّب أن يلقاه وهو في غير الغفلة ، ووراء ذلك ما وراءه وهو يؤكد ما وقع في نفس أُسَامة وهو أن الرجل قال لا إله إلا الله لما رأى السيف وأنه قالها خوفًا من السلاح وقالها متعوذًا وكل ذلك وراءه ما وراءه مما نرجو أن نُرْزَق شيئًا من الإبانة عنه . ولاحظ أيضًا جزالة البجلي لما قال (قصد غفلته) ولم يقل كما نقول نحن انتهز غفلته ، وإنما لاءم بين قوله قصد رجلاً من المسلمين ، وقوله قصده فقتله ، وفرق بين قصد غفلته وانتهز غفلته لأن القصد إلى الغفلة يَعْني المُسارعة إليها لحظة وجودها ، وكل هذا لم يوجد في الروايتين السابقتين ، وقوله (فلما رفع عليه السيف قال لا إله إلا الله فقتله) هذه الفاء الداخلة على لما الحينية المُشْرَبَةُ معنى الشرط ، والدالة على سرعة وقُوَّة ارتباط جوابها بشرطها تفيد الحركة السريعة الخاطفة التي زَاوَلها أسامة لما قصد غفلته ، وقد طوت وراءها حركة وحدثًا وزمنًا لأن الأصل قصد غفلته وسارع إليه ورفع عليه السيف ، ولكن السرعة الخاطفة أوْجَبَتْ حذف ما قبل لما الحينية التي تمثل اللحظة التي كان يرقبها أُسَامة ليُخَلِّصَ سَرِيَّة رسول الله ﷺ من هذا الشيطان الذي كان يمثل المَوْت السريع لكل من شاء أن يقصد إليه ، ومجيء قوله قال لا إله إلا الله جوابًا لكلمة (لما) الحينية فيها أن الرجل فوجئ بالسيف وهو في الغفلة ولم يتمكن من مواجهة أسامة بسيفه ، فلم يكن أمامه إلا أن يقول لا إله إلا الله لينجو من السيف ، ولا أَشُكُّ من أن جُنْدَب بن عبد الله قصد إلى تصوير معنى أن الرجل لم يكن لأحد رآه أن يصدق أن نطقه بالشهادة مواطئ لقلبه ،

وكأن جُندب يمهدُ إلى حقيقة دينية لا يجوز لأحد أن ينازع فيها ، وهو يشهد فتنة عبد الله ابن الزبير وسيوف المسلمين تقطر من دماء المسلمين في الفريقين ، وهي أن لا إله إلا الله إذا سمعت من كافر فاجر غارق في دماء المسلمين بل في دماء أكرم المسلمين وهم أصحاب رسول الله ﷺ وهم المهاجرون والأنصار فلا مناص من رفع السيف عن من قالها ، ولو كان سيفُه يقطر دمًا من أهل السابقة ، وهذا هو المعنى الكريم الذي كان وراء تصوير هذا البُجلي العريق ، وراجع جملة « قصد غفلته فلما رفع عليه السيف قال لا إله إلا الله » لأن فيها كلامًا آخر أسمع وسوسته ولا أدرك معناه وإنما أقول في نفسي إن هذه اللغة فيها من الشَّفَافِيَةِ الطيِّعة في الإبانة عن سرائر خفيَّة وأن أَلْسِنَةَ من تكلموا بها أدركوا هذه الأسرار التي في داخل هذا اللسان ونَفَثُوا في هذه الأسرار أسرار نفوسهم ، ولم أستطع أن أترك هذه الجملة من غير أن أقول هذه الكلمة ، ولاحظ شيئًا آخر ظاهرًا نعلِّمه لطلاب العلم وهو أن جملة فقتله معطوفة على جملة الجواب التي هي « قال لا إله إلا الله » ، وهي صالحة لأن تكون جوابًا ، وأن نقول فلما رفع عليه السيف قتله لأنها ليست مترتبة على جملة قال فليست من باب إذا جاء زيد سَلَّمْتُ عليه وخرجت ، لأن جملة وخرجت لا تصْلحُ وحدها جوابًا ، فإذا قلت إذا جاء زيد خرجت قلت معنى آخر لأن الخروج ليس مرتبًا على الشرط الذي هو مجيء زيد ، وإنما هو مرتب على الجملة التي هي الجواب وكأنك قلت إذا جاء زيد سلمت عليه وإذا سلمت عليه خرجت ، قلت هذا لأقول إن جملة فَقَتَله لا يوجبها ما قبلها ، وإنما يوجبها نقيض ما قبلها ، لأن قوله « لا إله إلا الله » توجب نفي القتل ، ولك أن تقول إنك لو قلت فلما وقع عليه السيف قتله تكون قد حذفت شَطْرَ المعنى المهم وليس لك أن تقول

أصل الكلام فلما رفع عليه السيف قال لا إله إلا الله ولما قال لا إله إلا الله قتله أسامة ، لأن هذا حمل للعبارة على غير وجهها ، لأن أُسامة لم يقتله لأنه قال لا إله إلا الله وإنما كان يَنْبغي أن يكف عنه لما قال لا إله إلا الله كما كف الأنصاري ، ولكنه قتله ووجد في نفسه شيئًا ، وكأن أسامة يعلم أن لا إله إلا الله تعصم الدم وعلى ذلك اعتمد الأنصاري ولكن أسامة كان يرقب الرجل ويرى شناعته في قتل أصحاب السابقة وَوَلَعَهُ بدمائهم وأن هذا الولع ينفي أن يكون في قلبه مثقال ذرة من حب الإسلام ، فلم يكف عنه ومع ذلك بقي في نفسه خاطر يؤرقه .

قوله « فجاء البشيرُ إلى النبي ﷺ فأخْبَرَهُ حتى أخْبرَهُ خبر الرَّجلُ كيف صنع » لاحظ أن البشير أخبر رسول الله ﷺ بنصر السريَّة والبُجلي لم يذكر هذا اكتفاء بكلمة البشير وقوله « حتى أخبره خبر الرجل » كلمة « حتى » هنا وراءها طيٌّ لأخبار كثيرة ، وهي أخبار السريَّة في رحلتها وفي حربها وساعة انتصارها وما سبق ذلك من جلاد وأخبار الذين استشهدوا وأخبار الذين جُرحوا وأحوال جراحهم إلى آخر ما يتعلق بهذا الشأن ، وجاء خبر الرجل الذي كان إذا شاء أن يَقْصِدَ إلى أحد من المسلمين قصد إليه فقتله وهو خبر فرعي ضِمْن أخبار السريّة وكأنه في جملة البَجَلي (حتى أخبره خبر الرجل) هو نهاية الأخبار التي تحدث بها البشير إلى رسول الله ﷺ ، ويلاحظ أن أسامة قال في الرواية الأولى فذكرته للنبي ﷺ وليس معنى هذا أن النبي علم بحكاية الرجل من أُسامة وإنما مَعناهُ أن أسامة ذكر ذلك لرسول الله ﷺ لما طعنه فقتله ووقع في نفسه ، وفي الرواية الثانية فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ ، فأشار هذا إلى أن خبر الرجل بلغ النبي ﷺ لما قدمت السرية ، وهذا لا يتعارض مع الرواية الثالثة وهي أن البشير أخبر رسول الله ﷺ حتى أخبره

خبر الرجل ، لأنه لا مانع من أن يبلغ النبيَّ خبرُ الرجل بعد علمه به من البشير لأن الأمر شغل الصحابة وأرادوا أن يعرفوا من رسول الله ﷺ جليَّة حكم الله في الذي يقول أسلمت لله والسيف على رأسه .

وقول البُجلي « فدعاه فسأله فقال لم قتلته؟» الضمير في فدعاه راجع إلى أسامة بدلالة قرينة الحال ، وهذه الفاء طوت وراءها أحداثًا أو زمانًا لم يكن مقصود الكلام مُحتَاجًا إليها لأن البشير الذي أخبر رسول الله ﷺ حتى أخبره خبر الرجل كان كما هو المعتاد يسبق قدوم السرية ، وكأن زمانا مضى حتى عاد أسامة فدعاه رسول لله ﷺ ، وفي هذه الفاء معنى آخر جيد وهو أن رسول الله ﷺ دعا أسامة فور وصوله من غير إبطاء ، وهذا يشعر بأهمية ما فعله أسامة وأن قتل من قال لا إله إلا الله عند الله بمكان ولو قامت كل القرائن على أن الذي قاله لسانه ليس مواطئًا للذي في قلبه ، واقرأ هذه الجمل الثلاث قراءة جيدة (فدعاه فسأله فقال لم قتلته؟) وأول ما تراه فيها أن هذا الجزء الدَّالُّ عليه فيه إشباع للمعنى وكان يمكن الاكتفاء بالجملة الأخيرة (لم قتلته) وإنما أشبع الكلام وطال وامْتَدَّ لأن هذا هو لب الرواية ومقصود الحديث الشريف ، وحكم الله في مثل هذا فإذا كان الكلام يطوي معاني طَيًّا ويدل عليها بقرائن أو يسكت سكوتًا مُطْبقًا عن معانٍ فإن هذا القسم من المعنى له شأن آخر لا يصلح فيه الطيّ ولا يصلح فيه الطرح ، وراجع فدعاه فسأله وكان يمكن أن يكتفي بقوله سأله عن قوله دعاه لأنه لا يسأله إلا إذا دعاه وراجع قوله فقال له ، لأنها بيان لقوله فسأله وكان يمكن أن يقال فسأله « لم قتلته » وهذا من ألطف وأظهر ما في بيان أهل الطبع وهو معرفة المعنى الذي يجب أن يطوى وتكون أنطق ما تكون حين لا تنطق به ، ومعرفة المعنى الذي يجب أن يُنْشَر ثم يجب أن يُشيع ، ويلاحظ أيضًا أن سيدنا

رسول الله ﷺ لم يسأله هل قتلته ؟ لأن هذا مفروغ منه سواء علمه ﷺ من البشير أو ذكره له أسامة لأن المهم هو لماذا قتلته ؟ وكأنّي أَفْهم من هذا أن المراد لم قتلته بعدما قال لا إله إلا الله ولا يجوز أن يقتل من قالها لأنها عصمت دمه ، ولم يكن منه ما يزيل هذه العصمة . وقد قال أسامة في جواب لم قتلته ؟ « يا رسول الله أوْجع في المسلمين وقتل فلانًا وفلانًا وسمَّى له نفرًا وإني حملت عليه فلما رأى السيف قال لا إله إلا الله » ، وهذه الجملة في غاية الأهمية لأنها تَصُبُّ في الغرض المقصود من الحديث ، وقول جُنْدَب قبلها فدعاه فسأله فقال لم قتلته كانت وطاء لها لأن أسامة هنا يقول لنا نحن إنَّ كل هذه المبررات وهي أنه أوجع في المسلمين وأنه قتل فلانًا وفلانًا وأنّني ذكرت من ذلك نفرًا من الغُرّ الميامين الذين أخبرنا رسول الله ﷺ أن من أحبَّهم فبحُب رسول الله أحَبَّهُم ، كل ذلك لم يَشْفع لي في قتل من لم يَذكر لا إله إلا الله إلا والسيفُ على رأسه ، فاحذروا أن تقتلوا الذين يركعون مع الراكعين بحجة أنهم كانوا ينوون أن يقوموا بعمل إرهابي ، هذا كلام فارغ لا يُغَيّر شيئًا من حقيقة القتل المتعمد ومن قتل مؤمنًا مُتَعمدًا فجزاؤه جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه ، وأعود إلى قول أُسامة أوْجَعَ في المسلمين يعني الذين بَعثتُهم أنت وقتل فلانا وفلانا من أصحابك وذكر من ذكر ، ألا ترى يا رسول الله أن من فعل ذلك ثم لم يقل لا إله إلا الله إلا والسيف على رأسه ألا تراه لا يُقْتَل ، وسيدنا رسول الله ﷺ يسمع هذا ويعقل منه أجل وأكرم مما عقلنا ثم لا يزيد على أن يسأل سؤالاً يزلزل به نفس أسامة ، ولم يقل له لم قتلته وكأنه كان عليه السلام ينكر التسليم بأن أُسامة قتله فيعود ويسأل سؤال من يريد في مثل هذا المقام أن يتحقّق لأن الخَبَر لفظاعته لا يُصدَّق ، فيقول عليه السلام لحِبِّه وابن حِبِّه أقتلته ؟ فلا يجد

أسامة مناصًا من قوله . نعم من غير أن يذكر شيئًا مما برّر به قتله عنده لأنه أدرك أن رسول الله ﷺ سمع كل مبرراته وأنها عنده عليه السلام ليست مُبَررات ، ولا يزال قتل من قالها عند رسول الله بمكان فيُعيدُ السؤال ولم يجد أسامة بُدًّا من قوله نعم ، وكأنه أسلم أمره إلى الله وأسقط في يده وعاد من الجهاد ليس مأجورًا ، وإنما في عنقه دَمُ من قال لا إله إلا الله والسيف على رأسه ، وقول سيدنا رسول الله ﷺ (فكيف تَصْنَع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة) الفاء التي في قوله عليه السلام فكيف تصنَعُ ترتب كلامًا على كلام والكلام الأول قول أسامة (نعم) ورسول الله ﷺ رتب على قول نعم قوله فكيف تصنع إلى آخره ، ومعنى الجملة أن لا إله إلا الله تجيء لقاتل من قالها وتحتَجُّ عليه بأن الله سبحانه وتعالى جعلها عصمة للدماء والأموال والأعراض ، وأن من قتل من قالها قد أهدر حقها الذي مَنحَها الله وهي خير كلمة قالها رسول الله ﷺ هو والنبيون من قبله ، والغريب أن أُسامة لا يجد ما يقوله له وأن ما أوْجع به المسلمين ليس مُبَرِّرًا لقتله وأن قتله فلانا وفلانا من الذين هاجروا وجاهدوا وتبوؤوا الدار والإيمان لا يشفع لقتله ، وأن نطقه به والسيفُ على رأسه لا يشفع لقتله وأن يقين أُسامة أنه قالها خائفًا متعوذًا ويقين كل من رأى هذا المشهد وأنه كان لا يشْبَعُ من دماء المسلمين وأنه كان متميزًا في صفوف المشركين كل ذلك لا تعترف به لا إله إلا الله وهي تحتج على أُسامة يوم القيامة ، وأنّ أُسامة أيْقَنَ بكل ذلك وهو بين يدي رسول الله ﷺ وأسقط في يده ولم يجد شيئًا يقوله لرسول الله ﷺ إلا قوله يا رسول الله استغفر لي ، وأن رسول الله ﷺ لم يَلْتفِت إليه ولم يقل له سأستغفر لك وإنما ظل مع لا إله إلا الله التي تجيء إلى أسامة يوم القيامة وكأنَّ هذه هي البلوى يا أسامة ، وكأن استغفاري لك لا يَحُول بينها

وبينك وهي تَتَنَاضَاكَ حَقًّا مَنحَه الله إياها ، لأنها هي المُعَبِّرة عن الوحدانية التي هي سر هذا الوجود والتي هي سر النبوات والتي هي الفرق بين الإيمان والكفر ، ولم أعرف فرقًا بين قوله عليه السلام فكيف تصنع بلا إله إلا الله وقولنا فكيف تصنع مع لا إله إلا الله ، إلا أن تكون الباء في قوله عليه السلام مشيرة إلى أن لها حججًا تعيش في داخلها ولها مهابة تعيش في داخلها فكيف تصنع أنت بهذه الحجج وهذه الهيبة وهذه الغوائل التي تحيط بمن لم يرْعَ لها حرمتها ؟ كلمة بلا إله إلا الله تعني بالذي لها من حقوق ، وبقي شيء واحد هو ما تَغيَّر وما تكرر في هذه الروايات الثلاث والذي تغيّر تحدثنا فيه وقلنا إنه لا تتعلق به أحكام ولا يتعلق به وعد ولا وعيد ، وإنما هو حكاية الأحْداث المُوطّئة للمقصود من الحديث والذي تكرر من رسول الله ﷺ هو الذي نستمسكُ به ونعضُّ عليه ، ولو استطعت أن أجمع ما تكرر في كلام رسول الله ﷺ لفَعَلْت كالذي هنا والذي مضى من قوله شهادة الزور أو قول الزور ، وقد تكرر هنا من كلامه ﷺ ثلاث جمل الجملة الأولى قوله ﷺ أفلا شققت عن صدره ، والجملة الثانية قوله عليه السلام أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ، والجملة الثالثة قوله وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة ؟ ، والمخاطب في هذه الجمل هو أسامة وإذا كان لراوي الحديث أن يُبدِّل أو يُغَيِّر في أضْيق الحدود أو يروي بالمعنى فليس لأحد أن يُغَيِّر حَرْفًا في جملة كررها رسول الله ﷺ لأن هذا التكرار بمثابة تَحْصِين للجملة ، لأنه عليه السلام كررها ليؤكدها في قلوب كل من شهد له بالنبوة والبلاغ عن ربه سبحانه ، وكل هذه الجمل الثلاثة إنكار لقتل من نطق بها، وليس من حق أحد أن يقول إنه كاذب لأن القلوب لا يعلمها إلا الله وحده ، ومن العجيب الرفيع الرائع أن الإقرار بالوحدانية

تعصِمُ الدم والمال والعرض وإن دلّت الدلائل على أن قائلها كان مُتَعَوِّذًا أو خائفًا من السَّيْف أو كان سَيْفَه يقطر بدماء أفضل الناس بعد الأنبياء وهم أصحاب رسول الله ﷺ ، والرائع في ذلك أن الله جعل لها حرمة وحرَّم علينا أن نفتِّش وراء اللسان الذي نطق بها وأنها تأتي يوم القيامة تطالب بدم من نَطَق بها ولو كان القاتل من طبقة أُسامة بن زيد بن حارثة حِبِّ رسول الله ﷺ وابن حِبِّه . وليس هناك ما يَمْنَعُ من أن يكون أسامة سمع هذه الجمل الثلاث في وقت واحد من رسول الله ﷺ أو أن يكون أسامة ذاكر رسول الله ﷺ في شأنها ثلاث مرات . والمانع أن تكون قد كانت من رسول الله ﷺ جملة منها ثم رُوِيت بالمعنى لأن التكرار كما قلت يُحَصِّنُ كلمة رسول الله ﷺ وأنه عليه السلام لم يكررها إلا ليغرسها غَرْسًا في نفوس كل أبناء هذه الأمة ، ولا يزال الناس يقولون الله أعلم بما في القلوب ، ويقولون إن الذي يتدسَّسُ فيما وراء ألسنة الناس كأنَّه يشارك الله في العلم بما في القلوب ، ثم إن هذه الكلمات التي تكرَّرت في هذه الروايات هي ما نطق به رسول الله ﷺ وكل ما عداها هو من كلام الرواة وكل الذي تغيَّر وتبدل هو وصف راوٍ دون راوٍ ، فمنهم من ذكر الحريقات ومنهم من قال قوم من المشركين،ومنهم من ذكر هزيمة سريَّة رسول الله ﷺ للقوم وصرَّح بذلك ومنهم من حذفها ودل عليها بقرينة إلى آخره ، والخلاصة أن كلمة التوحيد التي هي كلمة التقوى تَعْصِمُ دم قائلها ولا أقول صادقًا كان أو كاذبًا لأني أترك ذلك لعلم الله ، وإنما أقول لو قامت كل الأدلة على كذبه وأنه قالها والسيف فوق رأسه أو قالها وسيفه يقطر من دماء أكرم أهل الأرض وهم من صحبوا أكرم من خلق الله إلى آخره ، وأذكر بأن الجمل المكررة هي وحدها من كلام رسول الله ﷺ . وقد قالها لأسامة واقتصرت كل رواية على ما اقتصرت عليه . والله أعلم .

• السبع الموبقات

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يا رسول الله وما هنّ ؟ قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

اقرأ قوله عليه السلام : « اجتنبوا السبع الموبقات » واسكت وارقب ما يقع في نفسك ستجد الذي وجده الصحابي الجليل الذي قال لرسول الله ﷺ يا رسول الله وما هنّ . وتعلّم من ذلك كيف تُسَكِّن المعاني في قلوب من تُحدِّثُهم وكيف تستثير أشواقهم إليها وكيف تهيىء نفوسهم وقد كثر هذا الطريق في كلام رسول الله ﷺ وهذا من حسن بلاغه عن ربه صلوات الله وسلامه عليه ، ومن المفيد أن نقتدى به صلوات الله وسلامه عليه في حسن بلاغنا عنه ، وقد ذكرت أن كلمة عبد القاهر الجليلة التي يقول فيها ليس إخبارك الشيء بَغْتةً غُفْلاً كإخبارك عنه بعد التهيئة والتوطئة ، قلت لعلّه أفاد ذلك من طريقته صلوات الله وسلامه عليه ، وإن كان قالها الشيخ وهو يُحَلِّلُ فضل ضمير الشأن وأن المعنى يعلو به وينبل لأنه يهيئ بالضمير الذي ليس له عائد فيما سبق يرجع إليه وإنما يرجع إلى ما بعده ، وهذا يعني أن هذه التوطئة والتهيئة في طرق اللغة في أداء المعاني ، أعني هي جزء من طرائق الإبانة في العربية . وليست فقط من صناعة أصحاب البيان وإنما أصلها في البيان نفسه .

قوله عليه السلام « اجتنبوا السبع الموبقات » كلمة اجتنبوا معناها ابتعدوا ، والمقصود الأمر ليس فقط بعدم اقترافها وإنما أمر بالبعد عنها وأن يكون بينك وبينها مسافة ، وكأن المَعْصِيَة ليست في مزاولتها فحسب وإنما أيضًا

في القرب منها كما قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ ليس المراد النهي عن الزنى فحسب وإنما النهي عن القرب منه لأن القرب منه يوشك أن يوقع فيه، كالذي يَرْعَى حول الحمى يوشك أن يُواقعه ، القرب يعني الوقوع في منطقة الشبهات ، لا يقع فيها من يستبرئ لدينه وعِرْضِه ، ومثله ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ لأن الولي إذا قارب مال اليتيم أوشكت يده أن تمتد إليه ...

وكلمة « السبع » ليس المراد بها خصوص العدد لأن الكبائر التي هي الموبقات قالوا هي سبعين وقالوا هي سبعمائة ، وقالوا ليس لها حصر ، وقد جاءت مرة سبعا ومرة ثلاثا ومرة أربعا وغير ذلك ، قال خُدَّام السنة ألْحقَنا اللهُ بخدمتهم إنما خُصَّ السبع هنا لأن العلم استجدّ بها الآن يعني علم رسول الله ﷺ وصل إلى أن هذه السبعة من الكبائر وقت أن حدّث بهذا الحديث . وكانت الشريعة تنزل شيئًا فشيئًا ، وكان عليه السلام كلما استجدَّ له علم بشيء حدّث به ، وقال آخرون وَجْهُ ذكر هذه السبع أنه عليه السلام سُئل عنها وأنه رأى أن الحاجة تدعو إلى التنبيه إليها ، ولم يقل أحد إن الكبائر محصورة في العدد المذكور .

والموبقات جمع موبقة أي مهلكة من قولهم وبَق يَبِقُ كوعد يعد إذا هلك . ويقولون وُبِق بضم الواو وكسر الباء إذا هلك والذي يَرِدُ بعد هذا هو إذا كانت الموبقات بمعنى المهلكات فلماذا آثر رسول الله ﷺ كلمة الموبقات ؟ وهل يستوي أن نقول السبع الموبقات والسبع المهلكات ؟ وهذا أغمض ما في اللغة وكثير من الألفاظ نُفَسِّرُ بعضها ببعض ولا يمكن قبول القول بأن بعضها يؤدي معنى بعض ، لأنه لو كان كذلك لكان وجود أحد اللفظين عبثا في اللغة وقد أجمع العلماء على أن اللغة مُنزَّهة عن العبث ، وقد صادفني هذا كثيراً في تفسير الكتاب العزيز وفي شرح الشعر وفي

تحليل كلامه ﷺ ، وكان يجب أن نَسُدَّ هذا الفراغ في الدرس اللغوي حتى تَتَبيَّنَ لنا الفروق الدقيقة التي فتح علماؤنا أبوابها في باب (الفروق في اللغة) ولكن الدرس اللغوي الآن أوشك أن يضع قبعة مكان عمامة العرب ، ولم يكن هناك سبيل إلى بيان هذه الفروق إلا استقصاء مواقع الكلمات التي نُفَسِّر بعضها ببعض واستقصاء سياق استعمالها واستشفاف الفروق التي بينها ، وكان الخطابي العدوي القرشي العريق يُسَمِّي هذا عمود البلاغة يعني لماذا جاءت موبقات مكان مهلكات ولماذا جاء جلس بدل قعد ووقف بدل قام إلى آخره .

وللراغب إشارة تعين على معرفة سر اختيار كلمة موبقات على مهلكات لأنها تشير إلى الفرق الدقيق بين الكلمتين ، قال رضوان الله عليه : وبق إذا تَثَبَّطَ فهلك وَبْقًا ومَوْبقًا ، وقال في ثَبَطَ في قوله تعالى « فثبطهم » حبسهم وشغلهم يقال ثبّطه المرض وأثبطه إذا حبسه ومنعه ولم يكد يفارقه : انتهى كلام الراغب .

وعلى هذا يمكن أن يقال إن من شأن هذه الكبائر التي وصفت بأنها موبقات أن تحبس النفوس عليها وأن تستهوى نفوس فاعليها وأن تَشْغَل هذه النفوس وأن تألَفَها وأن تحيط بها وأن تسيطر عليها لأن لها استهواء وغواية قَلّما استطاعت النفس الإفلات منها ، وأنها تنقص الإيمانَ وتَفْتَاتُ من سلامته وعافيته ، وهذا بخلاف الهلاك فإن المهلكات ليس فيها معنى حبس النفس عليها فليس قولنا وبق كقولنا هلك لأن الذي وبق أصابه ما أوبقه وحبسه ومنعه حتى هلك ، وهذا معنى زائد .

ولاحظ الفرق بين الاجتناب المأمور به وعدم مباشرة الفعل الذي هو المقصود ، ثم المسافة التي بين الوَبْق والإهلاك وأن الوبق بعد زمن من حبس

النفس على الفعل وولعها به واستحسانها له . نَظرًا لأن السيئة حضرت حلاوتها وغابت مرارتها ، وأن صاحب كبيرة السحر أو أكل مال اليتيم أو آكل الربا أو المستمتع بقذف حرائر النساء يبقى زمانًا يقتات هذا الخُبث من أخلاقه ودينه حتى يُفضي به إلى الهلاك ، أقول لاحظ المسافات بين دلالة منطوق الكلمات والمقصود منها ، لأن هذا من وجوه الدلالة ومن بلاغة الكلام ، ثم لاحظ شيئًا آخر أظهر من هذا الأخفى الذي أطْمَعُ في أن ألفتك إليه هذا الأظهر هو أن سيدنا وسيد سادتنا رسول الله ﷺ قال (السبع الموبقات) جمع موبقة وقد جمعها بالألف والتاء جمع مؤنث سالم وهو جمع ذوات العقول ، وكان يمكن أن يقول اجتنبوا السبع الموبقة ، وقد قال الصحابي الكريم يا رسول الله ما هنّ فذكرهُنَّ بضمير ذوات العقل وكان يمكن أن يقول يا رسول الله ما هي ؟ ولكنه رأى رسول الله ﷺ جمعهن جمع العاقلات فذكرهن ذكر العاقلات ، وليس هذا مرادي وإنما مرادي أن جمع العاقلات هذا أجرى في تلك الكبائر نفحًا من الحياة والروح فتغشتهن الحركة والإرادة والحياة ، وأن هذه الخبائث التي هي الكبائر والتي هنَّ الموبقات صِرْن ذوات حياة وإرادة وهذا يماشي ما استخرجناه من كلام الراغب وأن الموبقات لا تساوين المهلكات ، وإنما هُنَّ المُثَبطات المُسْكنات خُبثُهنّ في النفس المزاولة لهنّ ، لأن لهنَّ استهواء وحلاوة ولذة حتى يقضين بمن سكنَّ واحتبسن في قلوبهم بهلاكه .

قوله : قيل يا رسول الله وما هن ؟ هذا السؤال يعني أن رسول الله ﷺ لما قال اجتنبوا السبع الموبقات سكت هُنَيْهة فقال قائل يا رسول الله وما هن ، ولو تابع عليه السلام بيان السبع الموبقات ما سأل سائل ، ومن عادة رسول الله ﷺ أنه كان يتكلم بإشباع للحروف وللكلمات وأنه كان يعطي

الحروف حقها والكلمات حقها والأناة اللازمة لمتابعة السامع والبالغة له حَقّها ، حتى لو أن العادّ عدّ وراءه الحروف والكلمات لأمكنه ذلك كما قالت أُمُّنَا عائشة رضي الله عنها وأنه صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يَسْرُد كسردنا ، والصحابة يعرفون ذلك في كل ما يسمعونه منه ، فإذا رأينا في حديث أن سائلاً سأله صلوات الله وسلامه عليه فهذا يعني أنه سكت وهذا زيادة عن الإلف المألوف في طريقة خطابه ﷺ ، وهذه الهنيهة كأن يكون المراد بها زيادة تشويق لأن بناء معاني الحديث مؤسس على التشويق كما بيّنا وهذا من الزيادة ، لأنك حين تحوّل الخبر الذي استطعت أن تجعل النفوس مستشرفةً إليه حين تحوّله إلى جواب سؤال يكون أوْقَع وأمْكن في النفوس لأن الخبر الذي يتلقّاهُ السامع جواب سؤال جرى في نفسه أو جَرَى به لسانُه غير الخبر الذي ليس كذلك . وهذا ظاهر وهو باب من بلاغة الكلام الذي لا تجده في صورته العالية إلا في كلام من يُلْهمُون القول إلهامًا .

قوله عليه السلام « الشرك بالله » وهو أكبر الكبائر وهو الكبيرة التي لا يغفرها الله ويغفر ما دونها سبحانه وكل كبيرة هي دونها ، والشِّرْكُ تجد في لفظه بُرْهَانَ بطلانه لأن الشريك لا يكون شريكًا إلا إذا كان ندًّا لشريكه وخلق كخلقه وكانت قدرته كقدرته وإرادته كإرادته ، وقدره كقدره ، وقضاؤه كقضائه إلى آخره ، ومثل هذه المماثلات في الصفات البالغة الكمال لا يتصور تعدُّدها في هذا الكون لأنها لو وجدت لعلا بعضهم على بعض ولفسدت السموات والأرض ، وهذا ظاهر وقد تكرر ، وإنما ذكرته لأذكر استحالة شريك في الإنسان ببديهة العقل ، لأنه لو كان لله شريكًا في زيد مثلا لخلق الإله الثاني من زيد خلقًا يعني أن كل إله يخلق من زيد شيئًا فهذا الإله يخلق وجهه وهذا الإله يخلق قفاه وهذا يخلق عينه اليمنى وهذا يخلق

اليُسرى ثم يرعى كل إله ما خلق ، فيرعى إله قفا زيد ويرعى إله وجه زيد ويرعى إله يمين زيد إلى آخره ، وهذا شيء مضحك وتأباه العقول لأنه ضد ما عرف من العقول بالضرورة ، وقد ذكرت هذه الصورة المضحكة لأن المشركين عاشوا عليها وهم الآن يعيشون عليها وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ، ثم إنني رأيت إشارة خفية إليها في الكتاب العزيز وأعني بذلك قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ وفكّرت في معنى فيه شركاء متشاكسون يعني متنازعون ، وقال المفسرون في معناه يقول له إله افعل هذا ويقول له إله آخر لا تفعل هذا وهذا جيد ، ورأيت أن طاعته لهما لا يجوز أن تكون إلا بحق خلْق خلقه فيه كل إله فذكرت أن هذا خلق وجهه وهذا خلق قفاه وأن هذه الحسناء خلق إله أعلاها وخلق إله أسفلها أو خلق إله شقها الأمامي وخلق إله شقها الخلفي وكل هذا من خرافات أم عمرو . وهي كخرافات نزار قباني الشاعر الذي كان يقف مبهوراً عند حسن الحسان ويسأل كم من الوقت وكم من الدقة وكم من المهارة احتاجت هذه الحسناء حتى صارت إلى ما صارت إليه .

قلت إن الدلالة اللغوية لكلمة الشرك تنفي معناها ، وكلمة الند تنفي الندية لأن المعبود بحق ليس كمثله شيء ، فليس له ند .

قوله عليه السلام (والسحر) لا شك أن القتل أكبر في الذنب من السحر لأن الأمة اتفقت على أنه هو الكبيرة التي تأتي بعد الشرك بالله ، وابن عباس صاحب الرخص يرى أن القاتل يُخلَّد في النار وإنما قُدِّم السحر لأن ترتيب الكبائر في الذكر ليس مؤسسًا على ترتيبها في فظاعة الإثم وإنما يَخْضَع للأحوال المُحيطة بالمجتمعات ، فأحيانًا يقدم أكل مال اليتيم على أكل الربا ،

وأحيانًا يقدم أكل الربا على أكل مال اليتيم تبعًا لحال وجود الكبيرة في المجتمع ، وقد سبق بيان شيء مهم جدًا وهو أن حجم الكبيرة مؤسس على حجم المفسدة المترتبة عليها ، فأكل الربا مَثَلاً قد يكون أعظم جرمًا عند الله من أكل مال اليتيم ، وذلك إذا كان الربا قد شاع في جماعة حتى أوشك أن يَطْحَن فقراءها ويُتْخِمَ أغنياءها وهكذا .

والسحر أقرب في معناه والأصل الذي يقوم عليه إلى الشرك ، لأن الشرك قائم على خرافات كخرافات أم عمرو والشُركاء المتشاكسون في رجل على حدٍّ الصورة المضحكة التي قدّمناها ، كذلك السحر قائم على تَخيُّلات وأوْهام وأباطيل ، والغريب أن هذه الأوهام والتخيّلات والأباطيل تجد طريقًا تَسْلكه إلى عقول وقلوب الناس فتفسد عليهم حياتهم ويُفَرقون بهذه الأباطيل بين المرء وزوجه ، وتعجب لهذا الإنسان الذي جَعَل الله له الأرض مهادًا والجبال أوتادا وسخَّر له الفلك تجري في البحر وسخَّر له كل ما في هذا الوجود كيف يُهمل عقله وقلبه حتى يقع فريسة لهذه الأوهام والتخيلات والأباطيل ، وقد رأينا هذا الشر المستطير يعيش حيث يكون الجهل وتكون الأمية ، وكيف أربك حياة الناس ثم رأيناه وقد انقشع وانكشف لما استنارت العقول بالمعرفة .

قلت إن مجيء السحر عقب الشرك في هذا الحديث الشريف فيه إشارة إلى أن سَعة المفسدة تقدم الكبيرة الصانعة لهذه المفسدة على غيرها ، وإن كانت أفظع جرما منها ، وأشير هنا إلى أن اقتران السحر بالشرك ليس في هذا الحديث فقط وإنما اقترن السحر بالشرك في آية البقرة لما ذكرت هاروت وماروت وأنهما يعلمان الناس السحر ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ وهذه الجملة فيها نسب ظاهر بين السحر

والكفر ، لأن الإنسان قد يَتَوهَّم الأوهام والتخييلات حقائق فيتسرب إليه وهم الشرك ، حين يَرَى أثر السحر وهو لا يدرك ما نَبَهَتْ إليه الآية ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ومع هذا وهو أن السحر اقترن بالشرك كما اقترن به العقوق وأن السحر من الموبقات أجاز بعض أهل العلم تعلّمه وتعليمه حتى لا يَنْفِردَ أهل الباطل بهذا العلم الباطل ، وتقف الأمة جاهلة أمام هذا العلم الباطل ، وأذكّر إخواننا الذين يصرفون أبناءنا عن قراءة بعض علمائنا الذين يخالفونهم في المذهب ، وقد أكون معهم أحيانًا بأن فريقًا من علماء الأمة أجاز أن نتعلم السحر الذي هو كبيرة ممسكة بالشرك وصاحبة له في الجنب .

قوله عليه السلام : « وقتل النفس التي حرَّم الله قتلها إلا بالحق » سبق أن ذكرنا أن الأمة أجمعت على أنه لا تقع معصية على هذه الأرض بعد الشرك بالله أبْشع ولا أفْظع ولا أدْخل في غضب الله من قتل النفس ، وهذه الحقيقة كان من الواجب أن تكون معلومة عند عامة المسلمين وخاصتهم ، لأن هذه الجريمة الأم في هذا الوجود صارت شائعة وأول من أشاعها ومارسها ببلادة شديدة هي الأنظمة القَمْعِيَّة التي أَلِفَتْ دماءَ الشعوب وصارت مُولَعةً بها ، والذي يزاول هذا القتل يوصف بأنه مجرم وتُوصف الجماعة التي تزاوله بأنهم مجرمون ، وإذا كان الأمر في يد مجرم وحوله عصابة من المجرمين فلن تجد لتدمير الشعوب طريقًا أقرب من هذا الطريق ، وأُلاحِظُ أن هذا يكثر في الدول التي تشارك فلسطين في حدودها ، وأن العدو المحتل لها لن يجد سبيلاً يأمن فيه ويأمن به أفضل من تدمير الشعوب المحيطة به ، فسلّط على هذه الشعوب عصابة من المجرمين ليس بواسطته ولكن بواسطة أعوانه ممن تسميهم هذه الزعامات القاتلة أصدقاءنا ومن يعترض على أنهم

أصدقاؤنا فهو إرهابي ، ومن يخرج للمطالبة بإبعاد عصابة المجرمين المتسلطين على الشعوب فهو إرهابي ، وترى عصابات المجرمين هذه يساعد بَعْضُها بعضًا في محاربة ما يسمونه إرهابًا ، هذا اختصار يجب أن يعرف لأن العين التي لا ترى ما حولها جديرة بأن لا تفهم شيئًا في كتاب ولا سُنّة ، وليس للعلم ولا للكتاب ولا للمدرسة ولا للجامعة رسالة أقدس من صناعة الإنسان الحر الذي يرفض أن يكون عبدًا على أرضه .

ونحن الآن في أرض الكنانة نتعلم الحريَّة والديمقراطية على يد أئمة كبار في باب الحرية والديمقراطية ، ويقولون لنا مشيرين إلى طريق رأوْه الذي يخالف هذا الطريق هو إرهابي ، وجزاؤه إما القتل أو الحبس أو يُنفى من المشهد السياسي .

وشيء آخر لابد أن يذكر في هذا السياق الذي فيه تحريم قتل النفس وأنه ليس فوقه إلا الشرك بالله وهو أعجب من عصابة المجرمين ، لأن عصابة المجرمين لم تنسب القتل إلى الإسلام وإنما نسبته إلى المذهب السياسي الديمقراطي الذي لخْصتُه لك أعني عصابات تَسَمَّت بأسماء إسلامية كالجهاد وجيش محمد والسلفية المتشددة وجيش القدس وجيش بدر إلى آخره ، وتستبيح دماء المواطنين ودماء الجنود ودماء لا تُسْتَبَاحُ ، والدم المصون عندهم وله في أعناقهم عهد وذمة هو دم عُدَوّنَا الذي احتل أرضنا ، وأعجب وأنا أراقب المفرقعات التي تدمرنا والعدو الآمن حتى إنهم على حدودنا مع العدو قتلوا الجنود المرابطين في رمضان في ساعة المغرب ولم يُرْمَ العدو بحجر ، ويوم أن تعرف مصدر هذا الذي هم عليه في أبواب الجهاد وفي سنة رسول الله وفي كتب السلف الصالح وفي مدوّنة القدس فأرشدنا يرحمك الله ، وقد جاء رجل إلى سيدنا سعد بن أبي وقاص زمن حرب علي ومعاوية

وكان سعد قد اعتزل هذه الحرب فقال الرجل يدعوه إلى المشاركة فيها قال ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ فقال سعد لقد قاتلنا حتى لا تكون فتنة وأنتم تقاتلون الآن حتى تكون فتنة ، وأقول للجهاديين وجيش محمد وجيش بدر إلى آخره لقد قاتل السلف الذي تنتمون إليه حتى لا تكون فتنة وأنتم الآن تقاتلون حتى تكون فتننة وكفى وكفى .

وراجع عبارة سيدنا رسول الله ﷺ (وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق) وكيف أشبع المعنى وبلاغته عليه السلام أصلها الإيجاز وجوامع الكلم ليحفظ عنه بلاغ ربه ، ومع ذلك تراه أحيانًا يُطيل . تجد كلمة النفس يمكن الاستغناء عنها لأن القتل ليس له معنى إلا قتل النفس وكلمة (حرم الله قتلها) يمكن أيضًا الاستغناء عنها لأننا نتكلم في السبع الموبقات ولابد أن تكون مما حرّمه الله ، وهكذا يمكن أيضًا أن نقول إن قوله عليه السلام إلا بالحق يمكن الاستغناء عنه لأنها لا تدخل في الموبقات إذا قتلت بحق في قصاص ، وعلى هذا لو قال عليه السلام : الشرك بالله والسحر والقتل لكان كافيًا .

وإنما ذكر النفس لأن لها حرمة عند الله هي أعظم من حرمة الكعبة التي هي بيت الله والتي أوجب الله علينا الطوّاف بها في الحج والعمرة ، وجعل الطواف بها من القربات في غيرهما كالصلاة والذكر والدعاء ، ثم عظمّها ربُّنا وجعلها في قَمة تَعْدِلُ الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها ونفس وما سواها ، ثم زاد الحديث عندها عن نظائرها المذكورات في سياقها فأشار إلى دلائل وحدانيّته وأنَّ هذا ليس في خلقها وتسييرها كالليل والنهار والشمس والقمر ، وإنما أنه سبحانه ألْهَمها فجورها وتقواها ، وأسَّسَ على ذلك كلمته الخالدة ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ، ولاحظ حظ النفس من السورة التي سميت الشمس وضحاها

وكيف كانت من بين الكوائن العظيمة الدالة على بالغ القدرة مَوْضع عناية من الحق جلّ وتقدّس .

ولو رجعت إلى النفس في الكتاب العزيز لوجدتها قُطْبًا من أقطاب الذكر الحكيم التي تدور حوله معاني جليلة ، وكيف دعاها خالقها إلى أن ترجع إليه راضية مَرْضية ﴿ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ أقول كيف يكون غضب ربنا على من يقتل هذه النفس التي هذا شأنها ، وكلمة (حرّم الله) كلمة رادعة تَرْدَع كل من يخاف لقاءه ويؤمن بثوابه وعقابه،وجنته وناره، ولا يجترئ عليها إلا مجترئ على حرمات الله ، لأن معنى أن الله حرّمها أنه سبحانه جعلها في حَرَمِه وأن اليد التي تَمْتَدُّ إليها تمتد على قيمة كبيرة صانها ربنا ووضعها في حرمه ، ومسألة حرم الله ليس هو البيت فحسب وإنما لله حَرَمٌ في كل ما ذكر فيه لفظ التحريم ، فالنفس في حرم الله ، وأموال الناس في حرم الله ، وأعراض الناس في حرم الله ، ومال اليتيم في حرم الله وهكذا حيثما أمَّمْتَ وَجْهك وجَدْتَ حَرمَ الله .

وقوله عليه السلام « إلا بالحق » يؤكد حُرْمَتها وصَوْنها وتأثيم وتجريم قائلها ، وأنه لا يكشف ربنا عنها حُرْمته ولا يخرجها من حَرَمه الآمن الذي هو كل ما حرّمه ربنا إلا بالحق وحده الذي تحق به أن تُقْتَل . ولا تَقْتَل نَفْسٌ بحق إلا في قتل العمد لأن من قتل يقتل والنفس بالنفس والعين بالعين ، وأي نظام سياسي يقتل معارضيه هو باختصار نظام عصابة مجرمين .

قوله عليه السلام « وأكل مال اليتيم » يلاحظ أن كلام سيدنا المختار ليس عدًّا وحسابًا لهذه الموبقات السبع ، وإنما فيه تبشيع لها وكما رأينا في القتل من ذكر النفس التي حرمها الله إلا بالحق ، ترى هنا أن عليه السلام ذكر الأكل ، وليس المراد خصوص الأكل لأن من الموبقات أيضًا أن تنفق مال

اليتيم عليك وعلى من حولك في أي وجه من وجوه الإنفاق ، وإنما خص الأكل لأنه هو الصورة الحيوانية من بين صور الإنفاق فلو ذكر المسكن أو الملبس لكان هذا خاصًا بالإنسان ، والمقصود التبشيع ، فذكر الصورة التي تَنْفِرُ منها نفوس الكرام وهو أن تملأ بطنك من مال اليتيم الصغير العاجز عن حماية ماله ، والذي كُلِّفْتَ أنت أيها الولي برعايته وحمايته ، ثم إن كلمة الأكل هذه هي التي ترَدَّدَتْ في الكتاب والسنة كما ترَدَّدَتْ في أكل الربا ، ويلاحظ أن الأكل وقع على مال اليتيم وكلمة المال تجمع كل ما يملك من درهم ودينار ومسكن وماشية وأرض وزرع إلى آخر ما يدخل في ملكه وماله ، وفعل الأكل واقع على هذا كله وهذه صورة تُصَوِّر وتؤكد الشَّرَه والطمع وأنه يأكل الكل من غير ترتيب ، حتى إنه لا يَسْتَحسِنُ الحسن فيأكله وإنما يأكل الحسن وغير الحسن ، وهذا نهاية الطمع ونهاية انهيار كل الحدود التي يَحْتَمِي بها مال هذا اليتيم ، وأن هذا الولي الطامع استباح كل شيء ولم يتحرج من أكل أي شيء ، ثم إن إضافة المال إلى اليتيم تُضْفِي على هذا المال عند كرام الناس حُرْمَةَ وحِرْصًا على صَوْنِهِ وعدم مد اليد إليه إلا مدًّا يحقق فيه مَنْفَعَةٌ ، لأن كلمة اليتيم زاخرة بمعاني العَطْف والحُنُوُّ والإشفاق على هذا الصغير الذي قُضِيَ والده قبل أن يَرْعاه وأن يصونه وهذا معنى إنساني يجده من عنده بقية من معنى الإنسانية ، وإذا رأيت الحق يعطيه مزيدًا من العناية والرعاية حتى يقول ﷺ إنه وكافل اليتيم كهاتين مشيرًا بإصبعيه فلأن الدِّينَ هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها ، وهو حيٌّ في النفوس ما بقيت هذه الفطرة حيَّة والفطرة سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، هذا اليتيم الذي حَثَّنَا رسول الله ﷺ على مزيد العناية به وتخفيف حُزْنه وكأنه لما فَقَدْ الراعي الكافل وجب أن نكون جميعًا كافلين له

وآباء له ، لا تجد أحدًا يطمع في ماله إلا أحدًا خسيس النفس خبيث الطبع ، لأن الحرَّ تَعْصِمُه نَفْسُه قبل أن يعصمه دينه ، أما الذي ولدته أمٌّ خبيثة خَسِيسَة فإنه لا يجد نَفْسًا حُرَّة تَعْصِمُه ولا وازعًا من دين سكن قلبه يعصمه ، وإنما تراه يأكل في كل ماله أكلا لمًّا أعني يأكل الدرهم والدينار والدار والزرع والضرع ، ترى في صورة أكل مال اليتيم رجلاً مسعورًا يفتح فمه على كل ما يراه لهذا العاجز الذي لا يستطيع أن يحمي ماله من كلب مسعور .

قوله عليه السلام (وأكل الربا) الربا الزيادة وهو ما زاد على رأس المال والحكم مُتَعَلِّق به لأن أصل المال لا حُرْمة فيه قال تعالى ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ، ومعنى لا تَظْلِمُون لا تأخذوا أكثر منها وهو الزيادة التي جرها النفع في الربا ولا تُظْلَمُون يعني لا يضيع عليكم شيء من رؤوس أموالكم ، ولذلك كانت كلمة الربا هنا وفي القرآن الكريم كلمة واقعة ومُحَدَّدَةً وفاصلة بين الحلال والحرام ، وأن التائب من الربا لا يفسد عليه الربا شيئًا من رأس ماله ، وكلمة رأس المال كلمة قرآنية . والتعبير بالأكل ووقوعه على الربا فيه ما تقدم في أكل مال اليتيم لأنه ليس المراد خصوص الأكل وإنما كل وجوه الإنفاق ، وذكر الأكل للإشارة إلى أنه كأنه جائع ومُشْتهي أكل مال اليتيم وأكل الربا وأنه يملأ بطنه بغير حق ومن كل ما يصل إليه فَمُه ، كما أن الحيوان يأكل كل ما يصل إليه فمه من غير تفرقة لأنه ليس عليه حَدٌّ في الذي له والذي ليس له ومثله أكل الربا وأكل مال اليتيم ، ثم إذا رأيت بُعْدًا من جهة بين الربا واليتيم فإنك سترى قربًا من جهة أُخْرَى وهي الأكل الجامع بينهما ، أعني إذا رأيت بعدًا بين المرابي وآكل مال اليتيم وهو الذي سماه الباقلاني مختلفًا فإنك سترى ائتلافًا في

النظم واللغة يجمع بينهما وأنه كان يمكن أن يقال آكل مال اليتيم وآخذ الربا ، وإنما سمّي الأخذ أكلاً في الربا كما سمى الاستيلاء على مال اليتيم أكلاً ، فألف شريف النظم بين المختلف كما قال العلامة الملهم أبو بكر ابن الطيب ، وظلّت هذه العبارة غامضة عليَّ ولم يظْهر لي معناها إلا لما اشتغلت بتحليل بيان هذه العربية الشريفة في نموذجها البياني العالي والأعلى والذي فوق الأعلى ، أما العالي فهو الشعر الجاهلي وأما الأعلى فهو كلام سيدي رسول الله ﷺ وأما الذي فوق الأعلى فهو كلام المعبود بحق جل وتقدّس ، ثم إنك ترى أكل الحرام جامعًا بين آكل مال اليتيم وآكل الربا كما ترى تجاوزها ما يَحِلُّ إلى ما لا يَحِلُّ جامعًا بينهما وبين قتل النفس ، والسحر ، أما الشرك فهو ضلال خاص لا يضبطه ضابط لأنه لم يتجاوز شرعًا وإنما تجاوز عَقْلاً ، فالتجاوز هو الجامع المُؤلّف بين السبع الموبقات وهذا وجه تأليفها كوجه التأليف الذي في سبعة يُظلهم الله تحت ظله ، ثم يذكر أصنافًا متباعدة جدًّا من رجل دعته امرأة إلى إمام عادل وما كان لهؤلاء أن يجتمعوا إلا تحت مظلة واحدة وهي السبع الذين يظلهم الله تحت ظله ، والعرب لا تنافر بين كلامها ، فليس من كلامهم أن تقول زيد طويل وشاعر وإنما تقول زيد كاتب وشاعر ، ولا يجوز أن تقول الشمس طالعة والعسل كيلان بدرهم ، ذكرت كل هذا لأشير إلى ما أراه تأليفًا للمختلف بشريف النظم لأن الباقلاني اعتمد هذا الوجه وبيّنه ورآه بابًا من أبواب إعجاز القرآن الكريم .

وآكل مال اليتيم راجع إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ وناهيك عن الذي يأكل في بطنه نارًا ثم ناهيك عن حالة الشَّرَه والوَلَع والاشتهاء التي

يأكل بها مال اليتيم، ثم يكون هو نفسه وفي اللحظة نفسها آكلاً في بطنه نارًا، وكل هذا في الدنيا بدليل قوله ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ يعني في الآخرة، وهذا فيه إشارة إلى أنَّ آكل مال اليتيم لا محالة مُحَاسَبٌ في الدنيا وأن مال اليتيم الذي يحتازه إلى ماله سيحرق ماله لا محالة ولو خَاط عليه جلده واحتجزه في بطنه، وراجع كلمة في بطونهم والأكل لا يكون إلا في البطن كما قال تعالى ﴿ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم ﴾ والقول لا يكون إلا باللسان، والمراد التصوير والتوكيد ولذلك نجد معه صيغة المضارع الدالة على وقوع الحدث الآن، ثم راجع كلمة «إنما» التي تدل في لسان العربية الشريفة أن المعنى الذي دخلت عليه ظاهر ظهورًا بيِّنًا لا يجهله جاهل ولا ينكره منكر، وهو أنهم ما يأكلون في بطونهم إلا النار وأنهم سيصلون سعيرًا، وكلمة لا يجهله جاهل ولا ينكره منكر كلمة عبد القاهر وقد سَكَنَتْ في لساني لأنها عميقة الدلالة، لأن الأصل أن يقال لا يجهله عالم ولا ينكره عارف فزاد في المبالغة، وقال إنه لا يجهله عالم ولا جاهل لأنه إذا كان الجاهل لا يجهله فالعالم أولى وإذا كان الذي من شأنه الإنكار لا ينكره فالذي ليس من شأنه الإنكار أولى.

وكلمة «أكل الربا» راجعة إلى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾.

والذي يتخبطه الشيطان من المس هو المجنون، وقد روي عن ابن عباس أنه قال «آكل الربا يُبْعث يوم القيامة مَجْنونًا يَخْنِقُ، وقالوا لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صَرْعه وتخبُّط الشيطان له،

وذلك أنه يقوم قيامًا منكرًا» ، وقرأ ابن مسعود : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ يوم القيامة .

وقد ذكر البخاري في حديث إنه أتاني الليلة آتيان وشرحته في كتاب شرح أحاديث من صحيح البخاري أنه ﷺ رأى فيما رأى رجلا يسبح في نهر من الدم وعلى شط النهر رجل قد جَمعَ حَجرًا وأن ذلك السابح الذي يسبح إذا قارب الشط يَفْغَرُ فَاهُ فيلقمه الرجلُ الذي على الشط حجرًا ثم يرجع إلى آخره ، وأن رسول الله ﷺ سأل عن السابح الذي يسبح في نهر الدم ويُلْقِمَهُ الذي على الشاطئ حجرًا فقيل له هو آكل الربا . وروى أبو حاتم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «أُتيتُ ليلة أُسْرِيَ بي على قَوْمٍ بطُونُهم كالبيوت فيها الحيات تجري من خارج بطونهم ، فقلت من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء أكَلَةُ الرِّبا».

وكلمة (يتخبطه الشيطان من المسّ) لم ترد في الكتاب العزيز إلا في هذه الآية ، والخَبْطُ الضَرْبُ على غير هُدًى كضَرْب الرجل الشَّجَر بعصاه وآكل مال اليتيم وآكل الربا والسارق وصاحب النُّهبة الذي يَنْتَهِبُ مال الناس جهارا نهارًا كلهم لهم جِذْرٌ وَاحِدٌ وهو أكل أموال الناس بالباطل ، وأن لهم جزاء يوشك أن يكون شاملاً لهم وهو أن كل من أخذ ما ليس له جاء به يوم القيامة وهو على عُنُقَهِ فإن كان بعيرًا له خُوارٌ وإن كان بقرة لها جُؤَارٌ وإن كان شاه تَيْعَر وإن كان أرْضًا طوّق بسبع أرضين وإن كان ذَهبًا أو فِضَةً أُحْمِي عليها من نار جهنم فتَكوى بها جباههم وجفونهم إلى آخره ، والسؤال لماذا خُصَّ آكل الربا بهذه الثلاثة وأن بطونهم كالبيوت فيها الحيات وأنهم يَسْبَحُون في نَهَرْ الدَّم وأنهم يقومون من قبورهم كالذي يتخبطه الشيطان من المس ، يعني يَبْتَدئُون أحوال الآخرة بهذا الخبط ثم يكونون مَرَّةً بطونهم

كالبيوت ومرة يسبحون في نهر الدم إلى آخره . ولماذا خاطب سبحانه أكلة الربا وطالبهم بأن يذروا ما بقي من الربا إن كانوا مؤمنين ، ثم قال لهم فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وهذا غاية الغَضَب ، أقول لماذا كل هذا مع الربا مع أنه من جنس أكل أموال الناس بالباطل ؟ وقد تعلمنا من الكتاب العزيز أن ثمَّة علاقة بين الذنب وعقوبته وأول ذلك ورأسه قوله تعالى ﴿ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ ﴾ أعني المثل بالمثل كما علمنا العلاقة التي بين العمل الصالح وثوابه ، فجعل مثل النفقة في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وجعل ثواب من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا أن الله سبحانه يُنَفِّس عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن أَعْتَق رقبة أعْتَق الله له من النار مقابل كل عضو من أعضائها عضوًا منه ، وإذا كان كذلك فإني أفهم المناسبة بين البطون التي كالبيوت ، والتي فيها الحيَّاتُ ، وأن آكل الربا ملأ بطنه من هذا المال فجاء يوم القيامة ببطن كالبيت وفيها الحيَّات ، وأفهم أيضًا المناسبة بين أكل الربا والسِّبَاحة في بحر الدم ، وإلقاء الحَجَر لأنه عاش حياته يمتص دماء ذوي الحاجات ويَقْرِضُهم بالرِّبا فَسَبحَ في نهر من دمائهم ، وألقم حجرًا في الفم الذي أكل به عرقهم وجَهْدَهم وكدَّهُم ، ولكنني لم أفهم المناسبة بين أكل الربا والقيام من القبر وهو مصروع كالذي يتخبطه الشيطان من المسّ ؟ وأبحث دائمًا عن المناسبة التي تسكن إليها النفس ولو كان سكونًا قليلاً ؟ قلت إن كلمة (يتخبطه الشيطان من المس) لم تذكر في الكتاب إلا مرة واحدة وصفا للمرابي فلماذا كان المرابي خصوصًا من بين الضالّين والآكلين أموال الناس بالباطل يكون مجنونًا أو مصروعًا ، حين يَقُوم من قَبْرِهِ ؟ والناس يبعثون على ما ماتوا عليه ؟ هل كان المرابي الذي يُقْرِض ذوي الحاجات قَرْضًا

يجر نَفعًا هل كانت له حالة عقلية وحِسَابيَّة مُختلفة عن الناس لأنه مشغول بالذي عند زيد وعمرو وهند ودعد ؟ هل كان يلازمه الوسواس في الحساب والمتابعة وكان يعيش كما يعيش المُرابي اليهودي في القصص والروايات ؟ وأنه كان يراجع دفاتره دائمًا كالممسوس ؟ الحقيقة أنني لم أستطع أن أجد ما تسكن له نفسي ولو سكونًا قليلاً ، وقد راجَعْتُ هذا في كتابي التصوير البيان وهو من أوائل ما كتبت لما فتحت باب التشبيهات في سورة البقرة ووقفتُ عند تصوير الإنفاق في سبيل الله لأبحث فيه عن المُضَادِّ للرِّبا ، لأن الإنفاق في سبيل الله هو الوجه الآخر للمرابي ، ووُقفت عند قوله تعالى ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ ، ورأيت أن هذا يعني أن الذي وراء النفقة هو الاطمئنان لوعد الله وأن الذي وراء الربا هو القلق وافتقاد الثقة . وأن هذا القلق إذا زاد وغلب على النفس أفضى بها إلى الاختلال ، وفقدان السَّيْطرةِ ، والآن أرجع إلى سياق يتخبطه الشيطان من المس لأن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ الآية يُشير ظاهرُها إلى أن سبب تخبطهم كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان هو أنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، ولا شك أن هذا تخبُّط ولكنه تَخَبّط في القياس لأنهم أولا عكسوا وقالوا إنما البيع مثل الربا ، فقاسوا البيع على الربا ومرادهم قياس الربا على البيع ، وهذا تخبُّط عكس قضيتهم ، وليس المعنى فقط أنهم جعلوا الربا هو الأصل في الحل كما يُفَسِّر به البلاغيون هذا التشبيه وأنهم اعتبروه من القلب في التشبيه كما في قول الشاعر :

وبَدَا الصباحُ كأنَّ غُرّتَه ... وَجْهُ الخليفة حين يُمْتدح

فقد جعل وجه الخليفة أصلاً في الضياء وشبَّه الصباح به ، وليس الذي قالوه في الآية بالمقنع ، وإنما ذكر المَسّ إشارة إلى الخلط ، وافتقاد الضبط حتى إنهم لم يفطنوا إلى الفرق بين البيع والربا ، وأن البيع يكون بثمن مُحدَّد لا زيادة فيه ولا يكون مثلاً بمثل مع زيادة يعني لاتباع الفضة بالفضة مع زيادة ، ولا يباع الذهب بالذهب مع زيادة ولا يُباع البُرّ بالبرِّ مع زيادة إلى آخره ، والربا أصله الزيادة في المثلين تُعْطِي عشرين دينارًا وتأخذها أكثر من العشرين ، المهم أن قولهم البيع مثل الربا قول فاسد وقياس فاسد مُخْتَلٌّ ، وهذه إشارة إلى الاضطراب والخلط وأنهم ماتوا على ذلك ثم بعثوا كالذي يتخبطه الشيطان ، وليس عندي في هذا أكثر من ذلك . وقبل أن أنتقل إلى كبيرة التولي يوم الزحف أُنبّه إلى ضرورة النظر في الطباع التي تزاول هذه الكبائر الموبقة ليس لصاحبها فقط وإنما للمجتمع الذي تعيش فيه ، لأن كل هذا الحديث هو حماية وحَصَانة لحياة الناس ليس من المُجْرمين الكبار الذين يُمثّلون خطورة على حياة الناس وإنما هو حماية أيضًا من بؤر سَرَطانيّة تَتَوسَّع وتُحوِّل الحياة إلى جحيم ، وأقول إن القتل هو صناعة تزاولها نفس غير نفس آكل مال اليتيم ، فإذا كانت النفس التي تزاول القتل هي نفس مجرم حتى لو كان وزيرًا أو رئيسًا لدولة ، فإن أكل مال اليتيم تزاوله نفس رجل خسيس نذل غير مُؤتمن ولدته أم سوء لأنه لو ارتضع من ثدي حُرَّة لكان رجلاً أرفع قدرًا من هذه الخساسة ، ونَفْسُ المرابي نفس لا تعرف إلا نفسها وتعيش على امتصاص دماء الفقراء المطحونين والذي تُلجئهم الحاجةُ إلى الذهاب إلى هذا المرابي مع أن آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده كلهم في النار ، وفي النهاية أريد شيئًا ولا أستطيعه وهو غَمْسُ الحديث في سُوَيْداء هذه النفوس لأكشف طبائعها .

قوله عليه السلام (والتولي يوم الزحف) مَرّه ثانية وثالثة ارجع إلى هذه الكبائر وراجع أبواب الشرور التي تدمِّر البلاد والعباد، وكيف تَفْتَحُها هذه الكبائر وكيف نَحْمي البلاد والعباد منها، تجد حديث الشرك يُنْقِذُ الإنسان من نفسه ومن أباطيله وضلالته، وتجد حديث السحر يُنْقِذُ المجتمع من الخيالات والأوهام والتُّرهات، وتجد حديث القتل يُنْقِذُ المجتمع من النفوس المجرمة لأنه لا يَقْتُلُ نَفْسًا حرَّم الله قتلها إلا بالحق إلا مجرم، ولو كان في جلد وزير أو أمير أو زعيم أو ما شئت، لأن الإجرام يسكن نفوس الملوك كما يسكن نفوس الصعاليك، وحديث أكل مال اليتيم يحمي جيل المستقبل من أولاد ذوات الخطايا لأنه لا يُهِينُ يتيمًا إلا ابنُ لئيمة؛ وأكل الربا يحمي المجتمع من نفوس الجشعين الذين طالما دمروا قرى بأسرها، وقد رأيت ذلك بعيني، والثبات يوم الزحف يحمي الأرض والعرض والهيْبة ويَجْعَل حدود البلاد نارًا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى إذا ساورته نفسه بالاقتراب منها، وحاول أن تعقد نَسَبًا وشُبكة بين هذه الكبائر وأضدادها، وازن بين الشرك والتوحيد وبين السحر والحق الأبلج الذي يخرج الناس من الليل إذا يغشى إلى النهار إذا تجلى وبين القتل والبِرّ بكل ذات كبد رطبة واستمع إلى الناجين من أهوال القتل،والتعذيب لتعرف كيف يصير الإنسان وحشا ضاريًا، ولتعرف أيضًا كيف تأكل الوحوشُ أهْلَها وعشيرتها، ثم قارن بين أكل مال اليتيم، والقسط الواجب في معاملته ورعايته وكفالته، وكيف يكون مع رسول الله ﷺ، ثم قارن بين الربا والإنفاق في سبيل الله وهكذا قلب كل ما نهى الله عنه على الوجوه كلها لتعلم إلى أي مدى كان شَرْعُ الله حِصْنًا حَصِينًا لهذه الحياة التي خلقها الله بالحق، ولهذا الإنسان الذي لم يتركه الله سُدًى، وإنما جعل الله له شريعة من الأمر وأمره أن يَتبعها ولا يَتّبع أهواء

الذين لا يعلمون ، وأعود إلى التولي يوم الزحف ، واعتبار هـذا التـولي مـن الموبقات وهذه حقيقة عالية جدًّا وحماية لأرض المسـلمين ولـديارهم كمـا حماهم من الشـرك وحمـى نفوسـهم مـن القتـل ، وحمـى مجتمعـاتهم مـن التُّرَّهات حمى أرضهم من أن يتسلَّط عليها عدوُّهم فيذل رقابهم ، والمطلوب هو أن ننظر دائمًا إلى العوائد التي تعود على المجتمـع مـن الـذي حرَّمـه الله ومن الذي أحلّه ومن الذي رغّبنا فيه .

وكلمة التولي يوم الزحف وأنها من الكبائر راجعة إلى قوله تعالى في سورة الأنفال آية ١٥ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ ويلاحظ أن عقاب الذي تولى يوم الزحف قريب جدًّا من عقاب الذي قتل مؤمنًا متعمدًا كما جاء في قوله تعالى ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴾ (النساء:٩٣) ووجه ذلك والله أعلم أن الذي تولى وترك موضعه خاليًا مكَّن العدو من قتل إخوانه ، وكأنه لما كان سببَ القَتْل شارك عذابه عذاب من قتل مؤمنًا متعمدًا . ويلاحظ أن اقتران النهي عن التولي بذكر الغضب والتهديد بالعذاب وأنه بئس المصير هو من أمارات الكبيرة كما مضى ، ويلاحظ أيضًا أن النهي الصارم عن التولي يوم الزحف جاء في صورته المقابلة في الأنفال في الآية التي بعد هذه الآية بثلاثين آية وذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ (الأنفال:٤٥) ولاحظ تكرار كلمة (لقيتم) في الآيتين وإشارتها الحاسمة إلى أن هذا قدركم وأنكم في لقاءات متكررة مع أعدائكم وأن عليكم الثبات والصَّبر وكثرة الذكر ثم لاحظ

كلمة (فاثبتُوا) وصلة معناها بقوله سبحانه ﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ وأن ثباتكم في هذه المواطن الصعبة هو سبيل الفلاح والنصر والعزة والسيادة لكم على أرضكم ، ومن دلالات ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ في هذا السياق هو أن تكون نفسك ممتلئة بأنك تَثْبُتُ وتصبر وتلاقي وتقاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، ومن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، ولاحظ الربط بين علو كلمة الله الذي تقاتل أنت من أجلها وعلوك وعلوّ أمتك وعلوّ سيادتك على أرضك وعلوك على عدوك حتى لا يقهرك ولا يقهر أرْضَك ، وكأن هناك تلاحم ظاهر بين سيادة الأمة وعزها على أرضها وعلو كلمة الله ، وأن هذه الأمة بِعزّها وقوتها وغلبتها وازدهارها صورة رَمْزِيَّة في هذا الوجود لعلو الحق والصدق والعدل والبِرِّ وكل ما تدل عليه «كلمة الله» وهي كلمة شاملة لكل خير في هذا الوجود ، ورافضة لكل شرٍّ في هذا الوجود .

وهناك آية في سورة التوبة كأنها نزلت الآن من السماء على الدول المجاورة لأفعى صهيون ، هي قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ ، راجع كلمة (يلونكم) تجدها أفعى صهيون التي اغتصبت أرضنا وصارت على حدودنا ، وراجع كلمة ﴿ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ ، والغلظة هنا معناها القوة القادرة على قطع اليد التي تمتد على حبَّة رَمْل واحدة من أرضنا ، وهذه الغلظة لا معنى لها مطلقًا إلا التفوق في إعداد العتاد التي به تكون الحرب في كل صورها المتطورة وما هي عليه الآن وَمَا سوف تكون عليه غدا وبعد غد إلى أن تقوم الساعة لا يَزْعمُ أحد أنه يحكم بما أنزل الله إلا إذا كانت عدة الحرب وعتادها على أرضه ويرعاها رعاية بالغة قمة التطور وأنه غير مسبوق في أي

إنتاج حربي ، وفي أي تدريب وفي أي عمل قتالي وليس الحكم بما أنزل الله أن أقطع يد من سرق عَنْزة وأسكن الجيش الذي يحمي أفعى صهيون على أرض المهاجرين والأنصار ، وأعود إلى قوله تعالى ﴿ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ وأقول كلمة «زحفًا» تعني لقاء بعدد وعتاد حروب متكافئة لأن آلة الحرب في ذلك الزمن لم يكن بينها فروق كبيرة وإنما هي سيوف ورماح ودروع ومغافر وخيل ، فلم يكن هناك صعوبات في إعداد هذه الأدوات ، وما دام هناك تكافؤ في العتاد وتقارب في العدد على الحد الذي بينته سورة الأنفال ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ ﴾ فإن التولي حينئذ ليس له جزاء إلا الذي قاله ربنا ﴿ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، ويلاحظ أن عتاد الحرب لما طرأ عليه اختلاف مفاجئ في حرب الفرس وفوجئ المسلمون بالفِيَلَة ، ولا عهد لهم بها فرّ فريق منهم وكان الفرار يكاد يكون معدومًا في تاريخ حروب الإسلام إلى يوم الناس ، هذا لأن الرغبة في الشهادة تُنْسِي المجاهد كل كَرْب ، ولما حدث هذا ندم الفارُّون أشَدَّ الندم وهاموا على وجوههم ولما رجعوا إلى بيوتهم قبعوا فيها ولم يخرجوا حتى لا يراهم الناس لأن الذي كان منهم عَيْبٌ وعَارٌ ومَعَرَّة ، فذهب عمر رضوان الله عليه إليهم في بيوتهم ، وقال كلمة جليلة ، أنتم لم تفروا، وإنما كنتم متحيزين إلى فئة وأنا فئتكم ، يعني أن رأس الجيش هو الفئة التي ينحاز المُنْسَحِبون من الميدان إليه ليعد العدة لمواجهة جديدة ، ويتفادى الأخطاء التي كانت سببًا في انسحاب من انسحبوا ، وأنا لا أقول هذا لأُمَهِّد به إلى جواز التولي لأن هذا له حساباته وإنما لأقول إن المسؤول الأول إذا لم يُعد للجيش كل العتاد المتطور واللازم لملاقاة الذين يلونكم من الكفار ، فهو الذي تولى يوم

الزحف ولم يَعُدْ فئة يتحيّز إليها المنسحب كما قال عمر ، وأول ما يجب أن تقوم عليه الدولة هو الجيش القادر على حمايتها وما يتطلبه من مصانع وعلم وأبحاث ، هذا يجب أن يكون قبل رصف الطرق ، فضلاً عن تلهي الناس (بالمنتجعات) السياحية أو غير السياحية والذي لا يقوم أمره على هذا لا يجوز أن يبقى أمر الناس في يده لأن الذين يلوننا لا يرقبون فينا عهدًا ولا ذمة .

وكلمة سيدنا رسول الله (والتولي يوم الزحف) لا أستطيع أن أعزلها عن استدعاء ذلك كله ولا أستطيع أن أقول للذي في يده أسلحة مُتَخلّفة ويقابل عدوا بأسلحة متطورة اثبت واصبر ، لأن الفرد المقاتل الآن يُعَدّ إعدادًا خاصًا ويتكلف تكاليف عالية وليس من الحكمة التضحية به من غير ثمن وإنما يَثْبُت حيث يَطَأُ مَوْطِئًا يغيظ الكفار ، أو ينال من عدو نَيْلاً ، وهذا حسبي .

قوله عليه السلام «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» المسافات البعيدة بين التولي يوم الزحف وقذف المحصنات ، وكذلك بينها وبين أكل الربا وأكل مال اليتيم ، والقتل والسحر ، أقول كل هذه الموبقات متباعدة في معانيها وقد جُمعت أعناقها في ربقة واحدة وهي قوله عليه السلام السبع الموبقات ، فصار ابتعادها اقترابًا واختلافها ائتلافًا ، وهذا باب جيد من أبواب بلاغة الكلام ، والقذف والرمي أخوان وإن كانت كلمة القذف أشد فجعلت للمعنى الأشد فقالوا قذفه كما قالوا رماه ولكنه لوحظ في القذف معنى الأثر الأقوى كما في قوله جل شأنه ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ (الأنبياء:١٨) والفرق بين الآية وبين قولنا بل نرمي بالحق على الباطل فيَدْمَغه فرق ظاهر وما كان لكلمة فيدمغه أن تأتي إلا مع القذف ، وقال تعالى ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ (الحشر:٢) وشتان بين هذا وبين ورمى في قلوبهم

الرعب وقوله تعالى : ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ المراد ارمه بشدَّة ولا تخافي ولا تحزني فإنا رادوه إليك ، والقذف والقذع من جهة أخرى أخوان والتصاقب في اللفظ راجع إلى التصاقب في المعنى ويقولون تقاذفوا وتقاذعوا وبينهما مقاذفة ومقاذعة أي مشاتمة ومعنى المشاتمة هذا ساكن في قوله عليه السلام (وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) لأن هذا القذف الموجب للحد زاخر بمعنى المشاتمة .

والمحصنات هنّ الحرائر أو هن المتزوجات أوهنّ البعيدات عن الريبة حصان رزان ما تُزنّ بريبة أي ما تُتّهم أوْ هُنَّ الموصوفات بهذه الصفات كلها والغافلات أي اللائي هن غافلات عن ما يُرْمَيْن به لأنهن منصرفات عن باب قيل وقال وليس من شأنهن أن يَعْرِفن ما يقُال عنهن أوْ هن الغافلات عن رمي غيرهن فلا يشغلن بفلانة وفلانة ، وغالبًا ما يجتمع فيهن الأمران فلا يدرين ما يقال عنهن ، ولا يُشْغَلْن بمقالة السوء عن الأخريات ويبتن غرثى من لحوم الحرائر ، وراجع الصفات الثلاثة تجدها تتصاعد فأولى المراتب المحصنات ، ثم يرتقين فيحمين أسماعهن من سماع ما ترمى به الحرائر الكريمات ويحمين ألسنتهن من مقالة السوء ، ثم وصف الإيمان الذي هو ليس أعلى هذه الثلاثة وإنما هو أعلى كل الفضائل من كرم وبر وشجاعة وشهامة كلها فواصل صالحات ورأسها وسنامها الإيمان بأنه سبحانه هو الله الذي لا إله إلا هو وهذه الفضيلة ممنُوحة لنا ونحن غافلون عن قدرها الذي لا يُقَادَرُ وعن شأنها الذي لا يُسَامَى ، وتعجب حين تراجع الحديث من أوله فنجد أن أول الموبقات الشرك بالله وآخرها الإيمان بالله ، وهذا من رد العجز على الصدر لأن الطباق بين الكلمات رحم فيها تنازع ، فالنور والظلمة والخير والشر والظلم والعدل والرحمة والقسوة والليل والنهار لا يمكن لأحد

أن ينكر الرحم التي بين هذه الكلمات كما لا يمكن لأحد أن ينكر التنازع بينها والذي يظهر في مثل قوله تعالى ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ وكأن له عنده ثأرًا لا يَفْتأ يطلبه به .

وهذه الموبقة مستخرجة من قوله تعالى في سورة النور ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فقد ذكرت المعصية مصحوبة باللعن والعذاب وبهذا كانت كبيرة .

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ ذكر القذف مكان الرمي لأن الحديث الشريف ذكر السبع الموبقات وأولها الشرك وسياق الحديث سياق تغليظ وتشديد وحسبه ما فيه من أكبر الكبائر من الشرك والقتل ثم ساق السحر وأكل مال اليتيم إلى آخره ، فأكسب هذه الموبقات الكثير مما في هاتين الكبيرتين الشرك والقتل ، وسياق الآيات ليس كذلك وقد سُبِقَتْ هذه الآية التي هي أصلُ هذا الحديث بقوله تعالى ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، وأظن أن ذكر القذف بعد هذا وخصوصًا قوله تعالى ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ لا يكون متلائمًا ، وقد سبقت هذه الآية بقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ ولم تقل والذين يقذفون المحصنات وقد جاء فيها وقبلها التّشدِيدُ الشديد ترى قبلها ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ راجع ولا تأخذكم بهما رأفة واقتران ذلك بالإيمان ، يعني أن الأصل في المؤمن بالله واليوم الآخر ألا تأخذه رأفة في إقامة الحدود ، ثم راجع وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ثم راجع الآيات بعدها وآيات الإفك وعجيب جدًا جدًا أنْ تتخلّل هذه الآيات ذكر المغفرة والرحمة وأن يتكرر ذلك في كل فقرة من فقرات آيات الإفك :

راجع قوله تعالى ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ الذي جاء بعد الملاعنة ثـم راجـع ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ الذي جاء بعد الفقرة الأولى من حديث الإفك ، ثم راجع ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾ التي جاءت ساقه حديث الإفك ثم تجاوز ذلك إلى قـولـه تعالى : ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ وهكذا يبدو لنا لماذا جاءت الآيات كلها بكلمة الرمي في أول سورة النور إلى الآية التي استخرج منها الحديث هذه الموبقة وجاءت في الحديث بلفظ القذف . والله أعلم .

وتلاحظ أن لفظ رسول الله ﷺ لوحظ فيه تَبْشِيعُ هذه الكبيرة فذكر المحصنات والغافلات والمؤمنات وليست هذه الصفات شرطًا في تبشيع الذنب لأن قذف غير الموصوفات بهذه الصفات الثلاثة كبيرة ، لا شك فيها لأن الله حَمَى الأعراض والدماء والأموال مع صرف النظر عن أصحابها ، فَدَمُ الصالح حرام ودَمُ الطالح حرام ، ومال المسلم حرام ، ومال الكافر حرام ، وإنما جاءت هذه الأوصاف في الحديث لأن قذف هذا النموذج العالي في حصانته وعِفَّته وأخلاقه وإيمانه . بشع جدًّا ، ومواجهة النفس بالأمر بالكف عن الصورة البشعة جدًّا جدير بأن تستجيب هذه النفس وتنكف عن الصور كلها وهو مذهب قريب كما سبق من قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ والمطلوب النهي عن أكله في الحالات كلها وإنما خُصَّت هذه الحالة لأنها الأبشع والأجدر بأن تستجيب لها النفس ومثله أكل مال اليتيم ، فليست المعصية مشروطة بمال اليتيم لأن أكل أموال الناس بالباطل حرام كله ، اليتيم فيه وغير اليتيم سواء وإنما خص اليتيم لأنه الأجدر بالرعاية والصون ولا يضيعه إلا من لا مروءة له ، وكل هذا يرشح استعمال القذف مكان الرمي المذكور في الآية .

وكل الذي قلته يرجع إلى اللغة أما جوهر الكبيرة الموبقة فإن قذف المحصنة الغافلة المؤمنة الصالحة هو بمثابة اغتيال لسمعتها وتقبيح حُسْن سيرتها وتَشْويه نضارة سلوكها ، ولذلك أُلاحظ أن هذا القذف في هذا الحديث جاء في سياق ذكر فيه القتل ، ومثل هذا يقال في أكل مال اليتيم وأن هذه الجريمة في حقه بمثابة تدمير حياته عن طريق تدمير ماله الذي يعيش منه ويعيش به ، وأهم من ذلك أن الآية التي هي أصل هذا الحديث ذكرت في عقابهم ﴿ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فذكرت اللعن والعذاب العظيم وقد ذكر العذاب العظيم واللعن في سياق ﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء:٩٣) ووجود الكلمة الواحدة في سياق عقاب سيئتين أو كبيرتين يشير إشارة ظاهرة إلى تقاربهما في الإثم ، فقذف المحصنة إذا لم يكن قتلا فهو شبيه بالقتل لأن اغتيال سمعة الإنسان اغتيالاً ظالما هو بمثابة قتل لهذا الإنسان وهو حيٌ وخصوصًا اغتيال السيرة الحميدة للمحصنات الغافلات وإن أردت أن تزداد وعيًا بهذا فراجع الآية الرابعة من سورة النور ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ فلو رمى محصنة وجاء بثلاثة شهود شهدوا الشهادة المحددة في الفقه ولم يأت برابع يقام عليه الحد ولا تقبل له شهادة وأولئك هم الفاسقون ، أي الذين بَلَغُوا في الفسوق مبلغًا صاروا به أخص الناس بهذه الصِّفة وانظر إلى هذا من زاوية طلب ربنا الستر على عباده ، وأن ثلاثة عُدُول شهدوا بما رَمى به ومع ذلك يكون وصفه كما ترى في الآية ، وهذا الباب الذي هو باب الستر على عباد الله وإغلاق باب القيل والقال في هذا الشأن ليس الستر هو كل مَرْدُوده على المجتمع وإن كان الستر من أكرم عطاء الله لعباده الخطائين وإنما هناك شيء

آخر وهو أن إشاعة الوَصْف الخسيس الخبيث حول المحصنات يغري أهل البطالة بهذا الفعل المنكر ويقولون ما دام ذلك يحدث في البيوت المشهورة بالعفاف والطهر فليس على من هم دون ذلك حرج في فعله وبهذا تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، وإن كان أصلها كَذبًا وقَذْفًا بباطل والمولى سبحانه وتعالى حذَّر من إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا وحذّر من مَغَبّتها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور:١٩) راجع الفرق بين أن تنشأ الأجيال في مجتمعات نظيفة وأن تنشأ في مجتمعات موبوءة ، ثم راجع صيانة الدين لهذه القيمة العظيمة .

• ما يمحو الله به الخطايا :

ومراجعة كلام سيدنا رسول الله ﷺ ، ووضع ما تشابه منه في الغـرض في مَوْضع وما تعارض منه في مَوْضع ، ثم ملاحظة المعاني المتضادة والمتقابلة ووَضع بَعْضِها في مقابلة بعض ، أعني تصنيف الأحاديث على وفق الأغراض تصنيفًا يلاحظ أحوالاً إنسانية كأن أضع المكفرات للذنوب بعد ذكر الموبقات منها ليجد المسلم الذي زلّت به القدمُ فوقع في كبيرة فسحة في الحديث الثاني الذي يفتح له بابًا من أبواب الرحمة حتى لا يظل محبوسًا في سرداب العذاب الذي اشتد عليه فيه حديث التهديد والوعيد ، أقول هذا اللون من التصنيف أكثر فائدة من قراءة أحاديث رسول الله ﷺ معزولاً بَعْضها عن بعض لأن هذا التكامل يكشف لنا أسرارًا جليلة في دين الله ، فالأحاديث التي مَضَتْ فيها غَضَبٌ شديدٌ وعذاب أليمٌ ومُهِينٌ وعظيم ، لأنها تحدّث عن مفاسد ورذائل في حياة الناس وليس لمن يقترفها عند الله إلا الغضب والزجر ، والعذاب الأليم ، مع أن مفاسِدَها ومضارَّها لا يَنَالَ اللهُ منها شيء

وإنما يحمينَا رَبُّنا بوعيده وغَضَبه وعذابه ، والعجيب أنك تجد أحاديث للطِّيِّب الطاهر صلوات الله وسلامه عليه بُنِيتْ بِنَاءً لُغَوِيًّا على حذو هذه الأحاديث ، وكأنها تُنَادِيهَا بهذا البناء اللغوي الواحد ، وتستحضرها بين يديك لتدلك على الذي يمحو خطاياها ، ويذهب بذنوبها ، وكأنها لم تكن ، ثم إن هذا الذي يكفّر هذه المُوبقات المزَلْزِلَة سَهْلٌ جدًّا لا يُكلّف مَشَقّة .

خذ قوله عليه السلام : « ألا أَدُلُّكم على مَا يَمْحُو اللهُ به الخطايا ، ويَرْفَعُ الله به الدرجات؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط فذلكم الرباط ».

قوله عليه السلام « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا » هو كقوله عليه السلام « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » والكلام المتشابه في حذو البناء يَدْعو بعضُه بَعْضًا وكأن قوله « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا » الذي هو الدلالة على ما يَغْسِلُ النفس من درن الخطايا يستدعى ما يمكن أن يكون قد سقط فيه الإنسان في كبيرة من الكبائر ، وهذا الذي يمحو الله به الخطايا وإن كان المراد بها الصغائر كما قال العلماء فإنها لا تَبْعُد عن أن تكون نداء للتوبة والأوبة إلى الله لأن الذين يقْصِدُون ابتغاء مرضاة الله بإسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخطا إلى المساجد والرباط في هذه المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة غالبًا ما تكون نفوسهم قد برئت إلى الله ورجعت إليه وتابت وآبت من كل إثم وقعت فيه ويكون الطريق إلى محو الصغيرة مُفْضِيًا إلى طريق محو الكبيرة وهو التوبة النصوح . ولا ريب أن في الوضوء استغفارا وفي الصلاة ذكر واستغفار وانتظار الصلاة عقب الصلاة فيه ذكر واستغفار وكل هذا قرب وكل هذا فتح لباب المغفرة .

وراجع استفتاح الحديثين بأداة واحدة وكيف دلت هـذه الأداة علـى أهميـة المعنى الواقع بعدها وكيف استجاشت النفوس الصالحة إلى معرفـة الكـبيرة في الحديث الأول حتى تجتنبها ثم استجاشت النفوس الصالحة في الحـديث الثاني لمعرفة ما يمحو الله به هذه الخطايا حتى يَسْلك العبدُ الصـالح سـبيلَه إليها حتى يَلْقَى الله وما عليه خطيئة ، وراجع أنبئكم بأكبر الكبائر ، وأدلكـم على ما يمحو الله به الخطايا وكيف كان الحديثان الشريفان أحـدهما محـذِّرٌ من أكبر الكبائر ، وثانيهما دال على المحّاءة التي يمحو الله بها هذه الخطايا ، وكيف كان ﷺ يَرْعَانَا بهذين الحديثين فإذا زلَّت القدم في طريـق فعليـك أن تَنْقلُ هـذه الـقـدم إلى الطريق الآخر الذي تغسـل فيـه الزَّلَـة . وتـذوّق حـب رسول الله لك ورعايته لك .

وعجيب جدًّا أن الطريق الذي تُغْسل فيـه الـزلات سَـهْلٌ جـدًّا ولا يكلـف أكثر من إسباغ الوضوء والمشي إلى المسجد ولا يهلك على الله إلا هالك . أنا لا أقول أن هذا يكفر الكبائر لأن العلماء ذكروا أن الخطايا الـتي في هـذا الحديث هي الصغائر التي يكفرها الوضوء والذكر والصلاة وإنمـا أقـول إذا تعلق القلب بما يكفر هذه الخطايا الصغيرة فإنه لا محالـة يكـون قـد اجتهـد وسلك طريق التوبة النصوح ليكفر الله عنه الكبـائر إن كانـت قـد كانـت وإن كانت من الكبائر التي مـا زال ﷺ يكررهـا حتـى قـال أصحابه ليتـه سـكت إشفاقًا عليه صلوات الله وسلامه عليه لأننا نحبه لأنه أحبنا صلوات الله وسلامه عليه ولا يجوز أن ننسى أن المطلوب حضور القلب مع الوضوء ومع المشى ومع الانتظار الذي هو الرباط .

وإسباع الوضوء يعني تمامه وكماله قال تعالى ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ يعني أتمَّها وأكملها ، والدروع السابغة هي الدروع التي

تُغَطِّي كل ما من شأن الدرع أن يغطِّيَهُ ، والمكاره هي الأوقات التي يشق فيها هذا الإسباغ وذكروا منها أوقات البرد والأفضل أن تكون المكاره متروكة كما هو لفظ الحديث لأن المكروه بالنسبة إلى واحد ربما لم يكن مكروهًا بالنسبة إلى غيره والأهم من هذا أن أفهم من هذا الحديث الأهمية الكبيرة لإسباغ الوضوء مع المكاره ومع غيرها وأن هذا الإسباغ الذي هو تمام الوضوء وكماله عند الله بمكان لأن الله سبحانه لا يعطي به ثوابًا فحسب وإنما يكفر به خطايا ويرفع به الدرجة فلا بد من الالتفات إليه في كل مرة نزاوله حتى لا نباشره بغفلة فيفتقد حيويته وفعله في النفوس والذي يهدم الخطايا ليس هو الفعل المألوف المتواتر الذي ألفناه وإنما يهدمها القلب الوجل والذاكر وكان بعض الصالحين إذا قام إلى الوضوء تغيّر لونه لأنه استحضر موقف الوجل الذي يعدُّ نفسه بهذا الوضوء إليه ولذلك كان ذكر الله أكبر لأن حضور الله في القلب هو الطريق إلى الله سبحانه . ويلاحظ أن هذا الحديث الذي افتتحه سيدنا المصطفى بهذا الاستفتاح الموقظ والمثير والمشوّق كلّه حول الصلاة لأن الوضوء للصلاة ، والمشي إلى المسجد للصلاة ، والانتظار في المسجد للصلاة ، فالصلاة هي قطب الرحا في هذا الحديث الشريف ، وأذكِّر بطريقة سيدنا رسول الله في البلاغ عن ربه وأنه يُسكِّن المعاني في القلوب وأن المعوَّل عليه في بلاغته صلوات الله وسلامه عليه هو غرس الأفكار وغرس المعاني وليس فقط أن يُبَلِّغها الأسماع ، ويا ليتنا ننتفع بهذا المنهج في التربية والتعليم لأنه منهج يقوم على التغيير لأن المعاني إذا غُرست في القلوب غيَّرت الإنسان فإن كانت صالحة أصلحت القلب الذي غرسَتْ فيه وهذا القلب هو المضغة التي إذا صَلَحت صلح الجسد وإذا فسَدت فسد الجسد ، والمقصود بانتظار الصلاة بعد الصلاة الصلاتان

المشتركتان كالظهر والعصر ، والمغرب والعشاء ، والمنتظر الصلاة هو في صلاة والماشي إلى المسجد قاصدًا الصلاة هو في صلاة ، والمعنى الذي يفهم من هذا أن يكون إحساسك وأنت في طريقك إلى المسجد إحساس الخاشع الوَجِل وأن يكون قلبك مشغولاً بالذكر وأن يكون لسانك مشغولاً بالذكر ، وهكذا وأنت تنتظر الصلاة بعد الصلاة والصلاة عمود الدين وعمود العبادة ومفتاح باب الرحمة .

وقوله عليه السلام « فذلكم الرباط فذلكم الرباط » هذه الفاء التي في أول الجملة ترتب هذه الجملة على الذي مضى من إسباغ الوضوء وكثرة الخطا إلى آخره ، والجملة التي بعدها بمثابة الفاصلة القرآنية لأنها تضمّنت كل ما قبلها وعادت إلى ما قبلها . وَرَفَعْت مكانته عند الله لأن الرباط الذي هو حراسة ديار الإسلام من أقرب القربات عند الله ، والحديث انتقل بهذا الذاكر في المسجد إلى ثغور ديار الإسلام وجعله مع المرابطين هناك بل إنه جعله هو المرابط الحقيقي على ثغر الإسلام ، وهذا عجيب جدًا أن يكون المعتكفون في المساجد ينتظرون الصلاة بعد الصلاة هم المرابطون الحقيقيون وأنهم أولى بهذه الصفة من الجنود الذين على الحدود ، وهذا معنى سأعود إليه ، واسم الإشارة الذي للبعيد يشير إلى بعد منزلة هذا الرباط ، وأنه لا تناله كل يد تمتد إليه وإنما له رجال هداهم الله فهُدوا ؛ لأن المسألة ليست إسباغ الأعضاء وليست خطوات وليست بقاء في المسجد لأننا نرى هذا كله وإنما المسألة وجل في القلب تَسْبِغُ به وله الأعضاء وتُقْطَعُ به وله الخطا ، وتُحْبَسُ به وله الأجسام في بيت من بيوت الله ، وهذا الوجل نادر جدًا وهو عطاء الله لخاصة الخاصة من أوليائه ، ثم إن اسم الإشارة يفيد معنى آخر هو تمييز المشار إليه أكمل تمييز حتى يقع الخبر عليه الذي هو

الرباط والذي له مقام أي مقام ويُسْنَدَ إليه بعد هذا التمييز الأكمل ، وذلك لا يكون إلا حين يكون لهذا الإخبار مغزى جليل عند المتكلم صلوات الله وسلامه عليه ، وحين يكون أصلاً في الغرض الذي يساق له الكلام ، هذا هو معنى الإشارة ، أما الإخبار عن المبتدأ المعرف باسم الإشارة بالرباط المعرف بالألف واللام فإنه يفيد القصر قولاً واحدًا ومعنى القصر أن مدلول اسم الإشارة أو الراجع إليه اسم الإشارة وهو الإسباغ والخطا وانتظار الصلاة بعد الصلاة هو الرباط ولا يجوز أن يكون الرباط غير ذلك كما تقول المتنبي هو الشاعر وأنت تريد أنه لا شاعر سواه ، كذلك معنى التركيب هنا هو أن ذلك هو الرباط ولا رباط سواه ، وهذا النوع من القصر هو الذي يسميه البلاغيون القصر المبني على المبالغة كالقصر الذي في قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ يعني أن الخشية الجديرة بأن تسمى خشية هي خشية العلماء الذين رأوا آيات الله فيما ساقته الآية في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٧،٢٨) ولا شك أن كثيرًا من غير العلماء يخشون الله . ولكن الآية تشير إلى أن اتساع مساحة العلم يواكبها اتساع مساحة الخشية لله القادر الصانع الذي أحسن كل شيء خلقه .

الحديث الشريف يلفت إلى هذه القلوب الواجفة الضارعة التي حَبَسَتْ نفسها في بيت الله ، وقالت أنا دخيلك يا رب لن أخرج من بيتك حتى تضع في قلبى خيرًا وأرفع يديّ إليك وأنا في بيتك وأنتظر عطاء الكريم الذي يعطيه لمن قَرَّ إليه وأنا أفِرّ منك إليك ، ضع في قلبي الصدق الذي أعيش به ،

والإخلاص الذي أعمل به ، والتوجه الكامل إليك حتى لا يكون في قلبي سواك، وحتى لا أنظر إلا إليك ولا أبتغي إلا رضاك ، فذ لكم الرباط ، ثم إن تكرار هذه الجملة يؤكد معناها ويُرَسِّخُ حقيقتها في قلوب أهل الله ، وأريد منك ألا تنسى حفاوة الله بالعمل الصالح وأنه يثيب عليه ويحط به الخطايا ويرفع به الدرجات ولا يهلك على الله إلا هالك .

ومن رحمة الله بنا ولطفه بنا أن الرباط الذي هو حراسة ثغور أهل الإسلام والذي هو من أفضل الجهاد وأفضل القربات لم يعد متاحًا لكل من يرومه بعد تنظيم الجيوش وتحديد الشروط والخطوات التي تصل إليه ، ومثل الرباط في ذلك الجهاد ومواجهة العدو ومن مات ولم يحدث نفسه بالجهاد فقد مات على شعبة من شعب النفاق . أقول هذا الآن في ظل التطورات الجديدة ، صار غير متاح فجعل الحق بيسره ولطفه لنا بدائل ، وجعل الرباط على بعد خطوات من مسكني وجعله في المسجد ، وترك لي مسؤولية الإعداد النفسي له ، وجعل هذا الإعداد جهادًا أكبر وهذا من سعة رحمة الله ، هذا شيء ثم إن التواصل الروحي بين المرابطين على الحدود ، والمرابطين في بيوت الله تواصل في أعلى صوره ولو جَدَّ الجدُّ ونادى المرابطون على الحدود حيّ على الجهاد فلن تجد أسْرَع إليهم من المرابطين في المساجد ، لأن هذا الرباط في المسجد بمثابة مدرسة إعداد للمرابطين على الحدود ، وكتائب الفدائيين التي كانت أشد إصابة لجيش الاحتلال من الجيوش النظامية كانت من مدرسة المرابطين في بيوت الله ، وبذلك تجد التداخل والتقارب والتواصل وإن شئت قلت التماهي بين هذين الضربين من ضروب الرباط .

وقد ذكر العلماء أن قوله عليه السلام فذلكم الرباط من باب قوله صلوات الله وسلامه عليه الحج عرفة مع أن الحج له أعمال كثيرة ومثله الجهاد في قولنا الجهاد جهاد النفس مع أن للجهاد صورًا كثيرة ، وقالوا الذي قال هذه الكلمة الدائرة على ألسنة المسلمين هو إبراهيم بن عيينة ولفظه رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر قالوا وما الجهاد الأكبر قال جهاد النفس . ذكر ذلك ابن حجر في تَسْدِيد القَوْس ونقل على هامش كتاب المفْهم في حديث مسلم .

• إذا توضأ العبد

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج كل خطيئة نظر إليها بعينه مع الماء أو مع آخر قطر الماء فإذا غسل يديه خرج من يده كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء قال حتى يخرج نقيًّا من الذنوب».

وروى بسنده عن عثمان بن عفان قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره».

وروى بسنده عن نُعيم بن عبد الله قال رأيت أبا هريرة يتوضأ فغسل وجهه وأسْبَغَ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العَضِد ثم يده اليسرى حتى أشرع في العضد ثم مسَحَ برأسه ثم غسل رجله اليمنى حتى أشرع في الساق ثم غسل رجله اليُسْرى حتى أشْرَعَ في الساق ثم قال لي هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ، وقال: قال رسول الله ﷺ «أنتم الغُرُّ المحجَّلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله».

هذه بعض أحاديث الوضوء الذي ألفناه حتى افتقدناه أعنى أن الإلف جعل آداءنا له أداء أوْشك أن يكون أداء عادة، ونسينا أداءه أداء عبادة مصحوبة بالذكر ودقة المتابعة والانقياد والاستنان، وأنه طُهر نُعِدّ أنفسنا به للوقوف بين يدي الله. فيطهرنا بهذا الوقوف طهرًا فوق طهر، والمطلوب هو أن ترجع الأمة في عبادتها وبعبادتها إلى منابعها في القلوب التي تؤتى ما تُوتى وهي خائفة وَجِلَةٌ. وقوله عليه السلام «إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فَغَسَل وجهه» المراد إذا أراد الوضوء لأن غسل الوجه واليدين والرجلين لا تترتب

على الوضوء وإنما تَترتَّب على إرادته وهذه الإرادة هي النيَّة ، وهو من باب قوله تعالى:﴿ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، والمقصود إذا أردتم القيام إلى الصلاة فتوضأوا لأن القيام الحقيقي إلى الصلاة لا يكون إلا بعد الوضوء ، والتعبير بالفعل عن إرادة الفعل كثير في كلام الله وكلام رسوله ﷺ وكلام العرب وفيه إشارة إلى أن إرادة الفعل يجب أن تكون إرادة منتجة لفعل وليست إرادة متهاون متكاسل ، متكئ على أريكته يريد ولا يفعل ويعيش بالأقوال لا بالأمثال ، لأن عمارة الأرض لا تكون بأحلام المتكئين على أرائكهم ، وإنما بالعاملين الذين يراجعون ثم يريدون ثم تكون الإرادة هي نفس العمل ، وهذا هو الطريق ، وهذه الإشارة اللغوية إشارة جيدة جدًّا ، لأنها تَدْخَلُ في صميم عمارة الأرض التي هي أصْل خلافة الله فيها ، وهكذا نجد اللَّفْتَةَ اللغوية الخاطفة تفتح بابًا من الأبواب التي تخطو بها الأُمَّة إلى الأمام .

وقوله عليه السلام (العبد المسلم أو المؤمن) كلمة أو المؤمن شك من الراوي ، وهذا من تحَرّى الدقة والمحافظة على لفظ رسول الله ﷺ والمهم أن الوضوء الذي به تُعْرفُ هذه الأمة وأنهم يوم القيامة هم الغُرّ المحجلون لا يكون إلا من عبد مسلم فلماذا ذكر رسول الله ﷺ هذه الصفة ؟ المسلم أو المؤمن ؛ ولماذا تحرَّى الراوي وكان يمكن أن يقال إذا توضأ العبد فغسل يديه إلى آخره ، ولن ينصرف هذا العبد إلا إلى المسلم أو المؤمن؟ لا أشْك والله أعلم بمراده صلوات الله وسلامه عليه أن المقصود هو تذكير الذي أراد الوضوء بإيمانه وإسلامه ، وإحياء قلبه ورجاء طهره وغسل أعضاء ظاهرها وباطنها بالوضوء ثم الصلاة وأنه يجب أن نستحضر الموقف الذي يتوضأ له ، وهذا تحذير من الذي نحن فيه الآن ونحن نباشر الوضوء مباشرة العادة ولم يعد هناك فرق في اللحظة النفسية التي أغسل فيها اليدين بعد الفراغ من

الطعام أو من العمل واللحظة النفسية التي أغسل فيها اليدين شارعا في الوضوء ، كلمة سيدنا رسول الله ﷺ تذكر مريد الصلاة بإسلامه وإيمانه ليقوم لهذه الطهارة قيام المسلم المنقاد والمؤمن الذاكر .

وقوله عليه السلام (خرج كل خطيئة نظر إليها بعينيه) جواب الشرط المكون من جملتين « توضأ العبد ... فغسل وجهه » وهذا الموقع الإعرابي لهذا الجواب توكيد لترتب الجواب على الشرط وأن خروج كل خطيئة نظر إليها بعينيه أثناء غسل الوجه أو مع آخر قطرة حقيقة ثابتة وإخبار من الله لا ريب فيه وهذا وعد الذي لا يخلف الوعد .

وقوله عليه السلام « مع الماء أو مع آخر قطر الماء» الحالتان محتملتان وأن الصغائر التي لا يألَفُها العبد المسلم والتي هي من صغائر الصغائر مثلاً تسقط مع الماء ، والصغائر التي هي أكبر من أصغر الصغائر إلى الصغيرة التي هي دون الكبيرة يعني التي هي جارة للكبيرة ولو ارتفعت درجة لكانت كبيرة تسقط مع آخر قطر الماء لأنها تشبه أن تكون ناشبة في العضو وهذا ما أفهمه لأن العلماء قالوا إن الصغائر هي ما كانت دون الكبائر ، وأفهم من هذا أن منطقة الحدود بين الصغائر والكبائر مكونة من كبائر صغيرة. إذا نزلت درجة كانت صغيرة ، ومكونة أيضًا من صغائر كبيرة إذا ارتفعت درجة كانت كبيرة ، وأن الوضوء يَغْسل كل هذه الصغائر كبيرها وصغيرها وأن منها ما يخرج مع أول صَبِّ الماء على الوجه ومنها ما يظل إلى آخر قطر الماء . هذا والله أعلم .

وقوله عليه السلام (نظر إليها بعينيه) ليس المقصود ما نظر إليه بعينيه فحسب وإنما أيضًا ما قاله لسانه مما يدخل في الصغائر ، أما ما سمعته الآذان فليس داخلاً في الوجه لأن الآذان ليست مما يغسل مع الوجه وإنما حدٌّ

الوجه من صماخ الأذن إلى صماخ الأخرى ، وأقول إنما ذكر عليه السلام ما نظر إليه بعينيه لأن أكثر صغائر الناس من النظر الذي تمثله خائنة الأعين، الذي يقع للناس في حياتهم العاديَّة ولا يدخل فيه النظر المتعمَّد إلى عورات الناس لأن هذا من الكبائر ، كالذي ينظر من ثقب الباب هذا شيء . والشيء الثاني أنه لم يذكر اللسان مع أنه من الوجه لأن أغلب ما تكتسبه الألسنة من الكبائر ، وحصائد الألسنة تكبُّ الناس في النار والصغائر لا تكبُّ الناس في النار ، وهكذا يقال في قوله عليه السلام « فإذا غسل يديه خرج من يده كل خطيئة .. فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة » إلى آخر الحديث ، وقوله عليه السلام حتى يخرج نقيًا من الذنوب فيه عطاء آخر من الله لأن الذنب قد يكون خارجًا من غير أعضاء الوضوء فيمنُّ الله على عبده المسلم أو المؤمن ويغفر له ما كان من غير هذه الأعضاء ليكون هذا الوضوء طهورًا للعبد كله ، وقد ألمّ حديث عثمان بن عفان بهذا المعنى لأنه لم يذكر خروج الخطايا التي ارتكبتها الأعضاء وأنها تنزل من كل عضو مع الماء أو مع آخر قطر من الماء وإنما اكتفى بأنه توضأ فأحسن الوضوء فخرجت خطاياه من جسده .

وقوله عليه السلام في الذي رواه عثمان « مَنْ توضّأ فأحْسَن الوضوء » هو في حذوه وطريقة بنائه كقوله في حديث أبي هريرة إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن ... إلى آخره ، ويلاحظ أن كلمة توضأ في حديث أبي هريرة معناها أراد الوضوء كما بينا ومعناها هنا المعنى الحقيقي للوضوء ، ثم إنه قال في حديث عثمان (فأحسن الوضوء) ولم يذكر هذا الحسن في حديث أبي هريرة ، وهو متضمَّن بدليل خروج الخطايا من كل عضو ، والفاء التي في قوله « فأحسن الوضوء » عطفت ما بعدها على ما قبلها ورتبته عليه ترتيبًا رُتْبِيًّا لأن حسن الوضوء أعلى مرتبة من الوضوء ، وأجمل لأنه اكتفى بكلمة

(توضأ) لأنها تعني غسل كل الأعضاء الواجب غسلها وكلمة (أحسن) تعني غسل الأعضاء التى غسلها سنة أو مستحب ، وكما أن كلمة (توضأ) شملت كل الأعضاء كذلك كلمة (خرجت خطاياه من جسده) شملت خروج الخطايا من كل الأعضاء وهذا هو الاختصار الذي ترى فيه الكلمة مستوعبة لمعاني كلمات ، وقوله عليه السلام «حتى تخرج من تحت أظفاره» تأكيد لقوله عليه السلام قبله خرجت خطاياه من جسده لأن معنى حتى تخرج من تحت أظفاره أنه لم يَبْق في جسده خطيئة واحدة حتى الخطيئة المختبئة أو الساكنة تحت الأظفار تَخْرجُ . وقوله عليه السلام في حديث أبي هريرة حتى يخرج نقيًا من الذنوب يُفيد معنى آخر وإن كان يلتقي مع هذا المعنى لأنه لم يتكلم عن خروج الخطايا من الجسد حتى يخرج من خطاياه ما تحت أظفاره ، وإنما تكلم عن خروج العبد المسلم نفسه نقيًا من الذنوب وهذا آكد لأنه لا يخرج نقيًا من الذنوب وفي جسده منها مثقال حبة من خردل ، وهذا طريق أفاد ضِمنًا خروج كل الخطايا من الجسد كما أن حديث عثمان أفاد ضمنًا خروج المتوضىء نقيًا من الذنوب لأنَّه خروج الخطايا حتى التي تحت الأظفار تعني أنه صار نقيًا منها ، وهكذا نجد كلام سيدنا المختار حين نضع بعضه بجوار بعض يعطيك عطاء لا تجده إذا درست بعض كلامه بمعزل عن بعض ، حتى إنه يمكنك أن تتحذلق وأن تقول إن بين الحديثين احتباكا لأنه في حديث أبي هريرة ، وفي فاصلته الأخيرة أشار إلى خروجه نقيًا من الذنوب ، ولم يذكر في هذه الفاصلة خروج الخطايا وفي حديث عثمان وفي فاصلته ذكر خروج الخطايا وسكت عن خروج العبد نقيًا ، قلت لك أن تتفيهق وأن تقول هذا وأنا لم أقله وإنما أردت أن أبين التقارب والتباعد الذي بين الكلامين . ذكر الإمام عبد الله الأُبيّ

أحد شراح مسلم أن الحديث لم يُبين من أيّ المسام تخرج الخطايا وإنما بيّن أن كل خطيئة نظر إليها بعينيه تخرج مع الماء أو مع آخر قطر الماء، الذي غسل به وَجْهَهُ، وهكذا، ثم نقل الإمام أبي عبد الله الأُبي حديثًا من موطأ مالك حدَّد فيه سيدنا رسول الله ﷺ المسامّ أو المواطن التي تَخْرُجُ منها الخطايا: قال تخرج عند المضمضة من فمه، وعند الاستنشاق من أنفه؛ وعند غسل وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه، حتى تخرج من تحت أجفار جَفْنه، وعند غسل اليدين تخرج حتى من تحت أظفار يديه وفي رأسه تخرج من أُذُنَيْه وفي رجليه حتى تخرج من تحت أظفارها، ثم قال الأبيّ وعلى ما في مسلم فالتكفير يختص بأعضاء الوضوء، لكن قوله في الآخر «حتى يخرج نقيًا» ظاهره العموم، ويحتمل أن يُخصَّص بما ذكرنا ويكون العموم لقرائن من الخشوع والإخلاص ومعنى هذا أن غسل الأعضاء يكفر خطاياها ثم يكون إخلاص العبد وخشوعه لله مطهرا للعبد كله.

وخروج الخطايا بماء الوضوء من الجوارح التي اقترفتها يعني أن كل ذنب اقترفته العين يظل ساكنًا فيها، وكل ذنب اقترفته اليد يظل ساكنًا فيها وهكذا، وهذا معناه أن أجسامنا صارت مساكن لهذه الآثام وصار كل عضو من أعضائنا مَسْكنًا لعائلة من الآثام اقترفها هذا العضو، فالعين مثلاً صارت مسكنًا لكل خائنة الأعين وصارت الأُذن مَسْكنًا لكل خائنة السَّمْع وصارت اليد مَسْكنًا لكل خائنة اليد وهكذا، وهذا تبشيع لهذه الآثام التي تَنْشِبُ بالأعضاء التي اقترفتها فور اقترافها وتصير أعضاؤنا مرابض لهذه الذنوب ونحن نحملها ونقوم ونعقد بها، وأن الوضوء هو السبيل الوحيد لخلاصنا منها؛ وهذا من الحقائق وليس فيه من المجاز شيءٌ لأنني لو قلت إن خروج خطايا العين عند غسل الوجه مجاز عن المغفرة فإنه يصعب أن أجد وجهًا

من المجاز عند خروج خطاياها من تحت الأجفار ولماذا كان خروجها من هنا ، وكذلك يصعب عَليَّ أن أجِدَ وَجْهًا للمجاز من خروج خطايا الرِّجل من تحت الأظفار ، والقول بأن هذا من ترشيح المجاز قول ينبو به البيان كما أن كلمة الخروج المتكررة في كل حديث تعني أن هذه الآثام أجسام وأنها تخرج من مخارجها في الحديث تخرج من تحت الأجفار وتخرج من تحت الأظفار إلى آخره وهذا لا يُصْرَفُ إلا إلى الحقيقة ، ولا تقل لي إن قرينة الاستحالة توجب صرفه إلى المجاز لأن قرينة الاستحالة هذه تكون في أفعال المخلوقين وفي أحوالهم كاستحالة أن ترى أسدًا على صهـوة جواد ، أو بَدْرًا يُغنِّي أما أفعال الخالق فلا يقال فيها هذا لأنها لا تخضع للنظام الذي نعرفه نحن وإنما هي هناك مع منظومة الفعل الإلهي الذي يخضع كله لكلمة (كن) فيكون ابتداء من خلق السموات والأرض التي قال ربنا لهما ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ وانتهاء بالنفخ في الصور فإذا هم قيام ينظرون وهكذا لا يُقَاسُ الغائب على الشاهد ، واعتبار كل هذا من الحقيقة مثله كمثل اعتبار قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ﴾ ، وتأويب الجبال معناه ترجيعها دعاء داود معه وكذلك الطير ، ومثله أيضًا في داود ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ ، وغير ذلك مما لا يحصى ومما تأسس عليه إيماننا بالله وحسبك أن يكون من صلب عقيدتك أنه سبحانه وتعالى يوم يضع الموازين القسط ليوم القيامة يحاسب المكلفين من عباده من آدم إلى آخر إنسان على الأرض يوم الصعق لا يغيب عنه خائنة عين ولا مثقال ذرة في السموات والأرض ومن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره وإن تك مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين وتشهد عليهم ألسنتهم إلى آخره وكلها أبْعَدُ من خروج الخطايا مـن المسام المذكورة ، وكل هذا مرتبط بعضه

ببعض ، وإذا سأل سائل عن هذا فقل له إن الذي جعل الحدق الذي تحت الأجفار يرى قادر على أن يخرج ذنب رؤية الحرام من تحت هذه الأجفار ، وإن الذي خلق الأظفار قادر على أن يجعل الخطايا تخرج من تحتها والذي يقول إن عقلانيته لا تستسيغ هذا يذهب إلى الجحيم .

وبقي أن أذكر حديث أبي هريرة الذي بين لنا كيف كان يتوضأ رسول الله ﷺ لنَستْنَّ بسنته صلوات الله وسلامه عليه وأرجو أن تعود أنت بنفسك إلى حديث أبي هريرة إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه إلى آخره وأن تضع بإزائه حديث أبي هريرة الذي توضأ فيه وضوءًا كوضوء رسول الله ﷺ ورأى نعيمُ بنُ عبد الله أبا هريرة وهو يتوضأ ووصف وضوءه وأن هذا الوضوء هو التطبيق العملي لحديث إذا توضأ العَبْدُ المسلم أو المؤمن ، ولم يكن أبو هريرة ولا غيره من أصحاب رسول الله ﷺ يَرْوِي لنا حديثًا عنه إلا وهو مصحوب بالتطبيق العملي لهذا الحديث لأنهم لم يعلموا منه عليه السلام علمًا إلا عملوا به وهذه هي بداية حركة العلم في الأمة والتي وضع فيها المنهج وأن التطبيق العملي لم يكن ناتجًا للمعرفة وإنما كانت المعرفة من أجله ، فلم نتعلم علمًا لنعلم كما قال الجاحظ وإنما تعلمنا لنعمل ، فكل فكرة كانت مصحوبة بواقع لها في حياة الأُمَّة فليس فيها علم معلق في الهواء وليس فيها علم من باب الترف العَقلِي وإنما الواقع العملي هو الذي من أجله كان العلم ، والتغيير الدؤوب إلى الأفضل ، هو الذي من أجله كان العلم وهذه قيمة إذا افتقدها قوم ضاعوا وأضاعوا وإذا استمسك بها قوم غلبوا وسادوا ، رَوَيْت حديثَيَّ أبي هريرة متجاورين وبينهما حديث سيدنا عثمان بن عفان راجيًا أن ألْفِتَ إلى هذه الحقيقة . حديث مروي عن رسول الله وأن العبد إذا غسل أعضاء الوضوء خرجت منها خطاياه

ثم حديث كيف كان يتوضأ رسول الله ﷺ ، ولأهمية حديث كيف كان يتوضأ رسول الله ﷺ ورغبة في التبرك به أكتبه مرة ثانية، قال نعيم بن عبد الله رأيت أبا هريرة يتوضأ فغَسَل وجهه وأسْبَغَ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشْرَعَ في العَضُدِ ثم يده اليُسْرَى حتى أشرع في العَضُدِ ثم مسح برأسه ثم غسل رجله اليُمْنَى حتى أشرع في الساق ثم غسل رجله اليسرى حتى أشرع في الساق ، ثم قال هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال : قال رسول الله ﷺ « أنْتُم الغرُّ المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء فمن استطاع منكم فليطل غرته وتحجيله » أكرر لك القول ولا يكْفني أن تملَّ من تكراره ، لأنِّى مُولَعُ وَلَعًا شديدا بتفقد أساليب هذه الطبقة لأن أساليبها هي أساليب العربية في المستوى الإنساني الأعلى والذي ليس فوقه إلا كلام الله وأن هذه الفوقية لكلام الله على هذه الأساليب هي معجزة الكتاب العزيز إلى يوم أن يبطل التكليف ولو لم تكن هذه هي أساليب البيان الأعلى لانتقض هذا الإعجاز الذي تأسس على أنه أعجز أصحاب هذه الأساليب ، أما كلام رسول الله ﷺ فإنه من كلام قومه وإن كان كله في الذروة من كلام قومه وليس فيهم واحد غيره كل كلامه في الذروة من كلامهم وهذا هو سر ولعي بلغة هذا الجيل ، وأحاول أن تلمح عيني فيه شيئًا أدلكَ عليه وإن كان ذلك لا يأتيني وأرضى بأني أجد تميُّزه في نفسي ومن يكذب على نفسه فليس من الناس في شيء .

وتلاحظ أن نعيمًا لم يذكر المضمضة ولا الاستنشاق وإنما عمد إلى الفرائض التي تبدأ بغسل الوجه لأنه متجه من أول الأمر إلى أن يُنَبِّه إلى الغُرة والتَحجْيل وأنهما لا يكونان إلا في الوجه واليدين والرجلين وإنما ذكر

الرأس لأن الإسباغ بمعنى التمام والكمال وليس بمعنى الزيادة يكون فيها لضرورة اشتمال المَسْحِ كُلٍّ الرأس عند كثير من الفقهاء ، ثم تراه مع الإيجاز الشديد يحرص على بيان ما يتصل بإطالة الغرة والتحجيل فيقول فغسل وجهه وأسبغ الوضوء ، والغسل هو الإسباغ كما في حديث إسباغ الوضوء على المكاره ، وإنما قال «وأسبغ الوضوء» ليؤكد هذا المعنى ، ومن بابها جملة (حتى أشرع) التي ذكرت مع اليدين والرجلين وإن كانت تفيد زيادة عن العضو الذي يتحقق به الغرض ، لأن الشروع في العضد اليمنى واليسرى والشروع في الساق اليمنى واليسرى ليس من تمام الأعضاء وإنما هو من إطالة التحجيل كما أن ذكر إسباغ الوضوء بعد غسل الوجه من إطالة الغرة ، وهذا ما أفهمه من كلام نُعيم ، وقد وقفت عند تكرار كلمة «أشرع» كما قلت لأنها في صلب المغزى من الحديث ووقفت أيضًا عند تكرار كلمة (ثم) ولم أجد لها المغزى الذي هو ظاهر في تكرار أشرع ووجدتها وقعت في مفاصل ترتيب غسل الأعضاء وترتيب غسل الأعضاء على التوالي وليس على التراخي ، وهذا يجعل الفاء أولى بالموقع منها فوضعت الفاء مكانها ثم حاولت أن أتذوق الكلام فوجدت البيان قد نبا بهذه الفاء التي يظهر لي أنها الأولى بالموقع ، ثم بدا لي أن ثم جاءت لا لتدع مسافة زمانية بين غسل الأعضاء وإنما لتُنتجَ مددا نفسيًا لإشباع الإسباغ في الذي قبلها ، فقول نعيم رضوان الله عليه ثم غسل يده اليمنى أفادت «ثم» أسباغ إن إسباغ غسل الوجه قد بلغ أناه وقوله ثم غسل يده اليسرى أفادت ثم إن إسباغ غسل اليد اليمنى قد أشبع حتى إنه شرع في العضد الذي فوق المرفق ، وهكذا وقد اطمأنت نفسي لهذا المعنى . أما «ثم» التي في قوله : ثم قال لي هكذا

رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ ، فليست كاللواتي قبلها لأنها تفيد أمرين آخرين أولهما وأولاهما التباعد الرتبي بين رؤية وضوء أبي هريرة مع ماله من قدر ومكانة وبين إخباره بأنه هكذا كان رسول الله ﷺ يتوضأ ، لأن أهم ما في وضوء أبي هريرة أنه مثال لوضوء رسول الله ﷺ وإحضار له وتأكيده ، والأمر الثاني هو أن أبا هريرة قال له هذا بعدما فرغ من وضوئه واستغفاره ودعائه وهذا فاصل يقتضي « ثم » وينبو بالفاء . وقوله عليه السلام « أنتم الغُرّ المحجلون يوم القيامة من إسباغ الوضوء » من كلام النبوة لأنه إخبار عن حالة ظاهرة ومحسوسة يراها الناس يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، ومثل هذا مما لا تستنبطه العقول ولا تستخرجه الأفهام ولا يكون إلا خبرًا عن الله ولم يخبرنا عن الله إلا هو صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا طابع النبوة في الجملة ، ثم إن بناءها اللغوي مؤسس على القصر المستفاد من تعريف الطرفين (أنتم الغر المحجلون) وهذا قصر حقيقي تحقيقي لأنه لا يكون في هذا اليوم غر محجلون إلا أمته صلوات الله وسلامه عليه ، وبهذه الغُرّة وبهذا التحجيل تُعرف يوم المقام المشهود ، والغرة بياض في الوجه والتحجيل بياض في اليدين والرجلين وهذا هو رأس الجملة ، ثم أضاف عليه السلام زمان هذا الوصف وهو يوم القيامة ثم أضاف سبب هذا الوصف وهو إسباغ الوضوء ، فالجملة فيها الخبر الأصلي الذي هو العمدة وفيها الزمان الذي هو الفضلة والعلة التي هي فضلة أيضًا .

وقوله عليه السلام « فمن استطاع منكم فليُطِلْ غُرته وتَحْجيله » هذه الفاء ترتب ما بعدها على ما قبلها والذي قبلها يُغْري بالذي بعدها وهي وإن كان من الممكن أن تكون مُستَخْلَصةً من التي قبلها أو مُستَخْرجة منها فإنها

لا محالة من وحي الله وعليها طابع النبوة لأنه لا يستطيع أحد أن يُخبر خبرها إلا أن يكون مُبَلِّغًا عن الله لأن زيادة إسباغ الأعضاء لا يترتب عليه أن تكون هذه الزيادة داخلة في الغُرّة والتحجيل إلا بوعد من الله وإذا كان سبحانه قد أكرم أُمَّة محمد ﷺ بهذا الغُرَّة وهذا التحجيل فإنه أضاف إكرامًا إلى الإكرام بإدخاله الزيادة في الإسباغ في الغُرّة والتحجيل ، ثم إن هذه الغُرة وهذا التحجيل في اليوم المجموع فيه الناس لابدّ أن نذكر فيه أن الغُرّ المحجلين هم شهداء على الناس والرسول عليهم شهيد فهذا تميّزٌ آخر وإكرام آخر ، وشيء أخير في هذا وهو أنه عليه السلام قال فمن استطاع فَلْيُطِل غُرّته وتحجيله وحذف مفعول الاستطاعة في فعل الشرط لدلالة الجواب عليه ، وهذا إيجاز جيد ولا يقع إلا في فصيح الكلام وهو حذف من الأول لدلالة الثاني عليه والواقع في أَلْسِنَة الناس هو الحذف من الثاني لدلالة الأول عليه ، أكثرنا يقول من استطاع منكم أن يَحْمل هذا فَلْيَحْمِل وقليل منا يقول من استطاع منكم فليحمل هذا .

ويمكنك أن تستنطق معنى مسكوتًا عنه في هذه الجملة وهو أنها سكتت عن فرط بياض الغُرّة والتحجيل ، وكان يمكن أن يقال من استطاع منكم أن يزيد غرته وتحجيله من فرط البياض والضياء فَلْيَفْعل ولكن الكلام اتجه إلى زيادة مساحة الغُرّة والتحجيل وسكت عن زيادة بياض الغُرة والتحجيل وليس لهذا معنى في سياق فيض الإكرام إلا معنى واحد وهو أن الغُرة بلغ بياضها غاية ما يكون عليه بياض الغُرَّة وأن التحجيل بلغ بياضه غاية ما يكون عليه فرط بياض التحجيل وكل هذا مما اجتهدنا فيه ونسأل الله أن يغفر لنا ما خفي علينا .

• ذاق طعم الإيمان

عن العباس بن عبد المطلب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ذاق طَعْمَ الإيمان من رَضِيَ بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولاً » .

وعن أنس عن النبي ﷺ : « ثلاث مَنْ كُنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، مَنْ كان اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يُحبُّه إلا لله تعالى ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار ».

وروى مسلم بسند آخر عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث من كُن فيه وجد طَعْم الإيمان ، من كان يحبُّ المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ومن كان أن يُلْقى في النار أحبَّ إليه من أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه ».

هذه الأحاديث الثلاثة بُنيت على ما بني عليه أكثر كلام رسول الله ﷺ وهو التّنْبيه والإيقاظ وإثارة النفس واستشرافها إلى المعاني قبل أن تُخْبر بها ، وقد ذكرت أن هذا مكوّن من مكوّنات بلاغة النبوة لأن بلاغة النبوة بلاغ من الله الخالق لعباده المخلوقين وبلاغ لأمره ونَهْيه ودينه وأن هذا الأمر وهذا النهي وهذا الدين لم تكن له غاية إلا غاية واحدة وهي هداية الناس إلى الحق والخير والعدل والبر وعمل الصالحات وطرح الفساد والإفساد ومواجهة المفسدين في الأرض ، وكل أنبياء الله قالوا لأقوامهم ولا تَعْثُوا في الأرض مفسدين وقالوا لأقوامهم آمنوا بالله واعملوا صالحًا وهذا يعني أن المقصود بالبلاغ هو تغيير الإنسان وليس فقط تعليم الإنسان ، والتغيير لا يكون إلا بنقض بِنية فكريَّة غير صالحة وإقامة بِنْية فكرية وأخلاقية وقيمية صالحة ،

تعمر بها الأرض ويزيد بها الصلاح والإصلاح ، ويحاصر فيها الفساد والإفساد ، ولما أخبرنا أنه أنزل إلينا كتابه ليخرجنا من الظلمات إلى النور لم يكن القصد فقط أنه يخرجنا من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وإن كان هذا هو الأصل الذي تُؤَسَّسُ عليه عمارة الكون وخلافة الله في الأرض وإنما كان الأصل أيضًا أن يخرجنا من كل ما نَعِدُّه ظلامًا إلى كل ما نَعُدُّه نورًا ، وكلمة الظلمات أوسع من كلمة الكفر كما أن كلمة النور أوسع من كلمة الإيمان ، ولو قلت إنه سبحانه أنزل علينا الكتاب ليخرجنا من ظلمات الجهل إلى نور العلم كنت مصيبًا وكذلك لو قلت إنه أنزل علينا كتابه ليخرجنا من ظلمات التخلف إلى نور التقدم وليخرجنا من الضَّعْف إلى القوة ومن الفقر إلى الغنى ومن الظلم وقمع المسؤولين إلى العَدْل والبر والرحمة ، وهكذا كل ما يكدر حياة الناس ولو كان من جَهِلْ مسؤولٍ وضياعِ ضميرِ قاضٍ وفساد حاكمٍ وجهل مُعَلّمٍ وغِش بائعٍ كل هذا الذي يَكدِّر الحياة داخل في الظلمات وكل الذي يُصفي الحياة وينقيها ويجْعَلُها حياة طيبة آمنة مُطمئنة هو النور أقول لو فسَّرْت الظلمات والنور بهذا لكان ذلك منك تفسيرًا موفقًا جدًّا .

قلت إن تسكين المعاني والقيم المتضمنَّة في بلاغة النبوة في الطبع الإنساني وليس في الذاكرة الإنسانية أمر مهم جدا وهذه المعاني من شأنها لا مَحَالة أن تَنْتَقل بالإنسان من طور إلى طَوْر بل وأن تقذف به إلى مرحلة أرقى وأعلى وأكرم وأنبل ، إن تسكين هذه المعاني في سويداء القلوب كان من أهم أهداف البلاغة النبوية وأننا ندرس بلاغة النبوة من جهة ما بُنِيتْ عليه من فنون بلاغية وهذا جيد جدًّا ، ولكننا أغفلنا الغاية من هذه الفنون والغاية من أنه كان أفصح العرب وكان لسانه أقْدَرَ ألْسِنَةِ الناس في قذف الحقيقة الدينية في سويداء الروح الإنسانية ، لأن المسألة ليست خطابًا مألوفًا وإنما

هو خطاب تغيير . والفرق كبير جدًا بين خطاب أو تَعْليم يَبْقَى به الحال على ما هو عليه ، وخطاب أو تعليم يكون ريحا تقتلع الفساد والإفساد وتَغْرس الصلاح والإصلاح ، وتَقْتلِعُ القمع والقَهْرِ والتسلُّط وتغرس العدل والحب والحرية والكرامة ، وهكذا تمضي الأمة على طريق التقدم الذي هو صراط الأمم المستقيم كما يسميه ربنا ، وأعلم أن البلاغة لم تكن خاصة برسول الله ﷺ . وما بعث الله نبيًا إلا وهو أبلغ قومه وأفصح قومه لأن من أهم صفات الرسل التبليغ والفطانة وهذان هما جماع البلاغة في كل أمة وفي كل لغة .

وحديث ثلاث من كنّ فيه تقدم الكلام على مثله وكيف كان مُهَيِّئًا للإخبار وأنه ليس إخبارك الشيء بَغْتَةً غُفْلاً كإخبارك به بعد التوطئة والتهيئة كما قال الكملة رضوان الله عليهم .

وحديث ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا إلى آخره ليس بعيدًا عن هذا الطريق لأن كلمة ذاق طعم الإيمان من شأنها أن تَلْفِتَ وتثير وتوقِظ أهل الإيمان وكلهم يرجو ويطمح ويطمع في أن يصل إلى رِفْعَةِ ومقام ودرجة أن يذوق طعم الإيمان ، فإذا سمع هذه الكلمة ترقّب ما يأتي بعدها من أحوال مُفْضِيةٍ إلى هذه الدرجة ، ومراجعة هذا الحديث تبين أن سيدنا رسول الله ﷺ قدم المسبب على السبب أو قدم النتيجة على المقدمة أو قدّم الثمرة على الشجرة ، لأن الذي قدَّمه هو الأقرب مَسْلكًا إلى القلوب ، فذوق الإيمان هو نتيجة الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا ولو قال عليه السلام من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً ذاق طعم الإيمان لكانت المعاني مرتبة على وفق ترتيب الوجود ؛ لأنَّك إذا حصَّلْت الرضا بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً كنت قمينا ومؤهلا لأن تذوق حلاوة الإيمان ، ومثال

هذا أن تقول أكرمته لأنه عالم أو صالح ، وأن تقول هذا نفسه بترتيب آخر لأنه عالم أو صالح أكرمته ، وبينهما خلاف لأن تقديم اللفظ ليس كتأخيره ، وأنت حين تقول لأنه صالح أو لأنه عالم فأنت توطئ وتهيئ للخبر الذي يأتي بعد ذلك وهذا ظاهر. وعلينا أن نراجع العبارات الثلاث التي بُنيت عليها الروايات الثلاث :

١- ذاق طعم الإيمان في حديث العباس .

٢- وجد بهن حلاوة الإيمان رواية أنس التي رواها أبو قلابة .

٣- وجد طعم الإيمان : رواية أنس التي سمعها قتادة وحدَّث بها . وكلمة ذاق أكثر تمكنًا من كلمة وجد لأن التذوق غاية ما يدركه ذو الطبع من الشيء الذي يروزه ويتلبَّسُ به ، ومنه تذوق البيان وهي تعني التغلغل الواعي البصير في خفايا البيان تَغَلْغُلاً يُفْضِي إلى معرفة دقائقه ، وأسراره ، ما ظهر منها وما بطن ، فإذا كان بيانًا إنسانيًّا أفضى هذا التغلغل إلى معرفة ما وراءه من أحوال النفس وهواجس النفس وأهواء النفس التي انتهت إلى اللسان البصير بوسائل البيان فأفضى بهذه الهواجس والأهواء والغرائز ، وأنطق بها اللفظ والتركيب والرنين نُطقًا يظهر ويَخْفَى على وفق أحوالها في النفس من ظهور وخفاء وأن ما يهمس به ويوحي به هو سرُّه الأعلى وهو الأنْفَسُ والأسْنَى مما يَجْهر به ويُسْمع ، وتذوق طعم الإيمان يعني التغلغل في سرِّ اليقين وسر الاعتقاد والتعرف على براهينه القاطعة ، وملاءمته للفطرة ، وأن كل ما خلقه الله ؛ أودع الله سره في فطرته حتى الحيوان والجماد . وتسبيح مَنْ في السموات والأرض لله من معانيه أن كل مخلوق يجد لخالقه وجودًا عنده وقوله تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ تسبيحه قاطع في هذا الذي أقوله ؛ وقوله ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

ينفي تفسير التسبيح بالدلالة على الخالق وأن التسبيح معناه أن كل ما في السموات والأرض دالٌّ على وجود الله لأنه لو كان هذا هو المراد بالتسبيح لما قال لنا ربُّنا ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ ، ويجب أن نَسْتَيْقِن أنَّ سِرَّ الله في الوجود أكثره في مكنون علمه ، وقَدْ دَلَّتْ عليه آيات قليلة منها قول الهدهد لسليمان ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (النمل:٢٣-٢٥) وهذا قاطع في أن الهدهد يسبّح كما نُسبِّح ويرفض الشرك كما يرفضه أهل التوحيد وأن عنده من العلم بالله مثل الذي عندنا وإذا كان ذلك ثابتًا لا شك فيه فإنه يقرِّبُ لنا أن عنده تسبيحًا لا نعلمه ، أقول تذوق طعم الإيمان يعني إدراك هذا وأكثر منه إدراكًا ظاهرًا بيّنًا كل هذا بالقلب والعقل ثم إنه إدراك كإدراك اللسان طعوم الأشياء التي يَذُوقها وبهذا يصير إدراك الباطن للمعنويات كإدراك اللسان للطعوم المحسوسة وهذه غاية يرجوها كل من كان من أهل الرجاء ، وأهل الرجاء هم أهل الله وهم خاصته ، وليس لهم غاية ولا مرتبة أعلى من أن يذوقوا طعم الإيمان وأن تنتهي عند هذا المنتهى رحلتهم إلى الله .

وكلمة حلاوة أوقع من كلمة طعم لأن الطعم قد يكون حلوًا وقد يكون مُرًّا ، وقد يكون أحلى وقد يكون أمَر ، مع أن طعم الإيمان لا يكون إلا حلوًا ، وتبقى كلمة حلاوة أوقع لأنها نصٌّ على المقصود وإضافة الحلاوة والطعم إلى الإيمان أدخل في تصوير المعنى لأنها أسبغت على كلمة الإيمان معنى جديدًا لأن الحلاوة والطعم لا يكونان إلا فيما يذوقه اللسان ، والإيمان

حقيقة معنوية عقلية وكأن صاحب الإيمان الحيّ والمذكور في الحديث وجد الإيمان قد استحال في يقينه إلى شيء محسوس يجد له لذة في قلبه كالذي يجده اللسان في حلاوة الطعوم وكلمة طعم الإيمان مجازها كمجاز حلاوة البيان وكظهور الحجة وكل ذلك عند البيانيين مؤسس على تشبيه البيان بذي حلاوة وتشبيه الإيمان بذي طعم ثم حذف المشبه به ودل الكلام عليه بشيء من لوازمه وأضاف هذا اللازم إلى المشبه ، ووجه الشبه في مثل هذا لا يقوم في المشبه إلا على وجه من التأول وقد ذكر البلاغيون له قولهم حُجَّةٌ كالشمس في الظهور وقالوا إن الشبهة تقوم بين القلب وإدراك الحجة كما يقوم الغَيْم بين العَيْن وبين رؤية الشمس فإذا زالت الشبهة أدرك القلب الحجة كإدراك العين للشمس إذا زال الحاجب بينها وبين العين ، وهكذا الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب وجد القلب له من الحلاوة ما يجده اللسان لذي الطَّعْم الحلو ، وهذا من أفضل كلمات هذه الأحاديث .

والحديث الذي رواه سيدنا العباس مكوَّنٌ من جملة واحدة بدأت بالفعل (ذاق) وتقدم المفعول على الفاعل (طعم الإيمان) والفاعل مكوّن من الاسم الموصول وصلته (من رضي بالله ربًّا) وما عطف عليه ، وهذا بناء قريب جدًّا ليس فيه شيء أي شيء مما يشعرك بالاحتشاد والاحتفال ، والقصد إلى التجويد ، والصقل وإن كان قد جاء مع هذا الذي جرى به عفو الخاطر على أتَمِّ صور التجويد والصقل ، وهذا من أبرز سمات بلاغته ﷺ ، وإذا أردت أن تقترب أكثر من هذه الفصاحة رأيت أن عمودها هو اختيار الكلمات ابتداء من كلمة «ذاق» وهي كلمة حِسِّيَّة خاصة باللسان ثم وقوعها على الطعم وهي كلمة من معدن ذاق أعني حِسِّية خاصة باللسان . ثم إضافة الطعم إلى

الإيمان فأدخلت هـذه الإضـافة الإيمـان الـذي هـو عمـل القلـب إلى هـاتين الكلمتين الحسيتين والخاصتين باللسان وهذه الإضـافة كمـا حولّـت الإيمـان وألْحَقَتْهُ بالمطعوم رجعت من جهة أخرى إلى كلمتي ذاق وطعم ، وقربتهمـا إلى دائرة المعقول لوقوعهما على المعقول الذي هـو الإيمـان ، وكأنـك الآن بين ذوق وطعم ليسا هما الذوق والطعم اللذين تعارف عليهما الناس ، وإنما هما ذوق المعقول وطعم المعقول ، وكأنك الآن أيضًا مـع إيمـان لـيس هـو الذي يعرفه العامة وإنما هو إيمان يذاق ويطعم ، وهكذا كُلَّما تأمَّلْـت صـور المجاز وجدت فيه أحوالاً وأسـرارًا وتحـوُّلات ليسـت في الألفـاظ وإنمـا في المعاني والأشياء ، وكل هذا يْعني أن المقصـود إيمـان خـاص وذوق خـاص وطعم خاص ، ولا شك أن الإيمان الذي هـو التصـديق بالقلـب لـه درجـات ترتقي بالذكر وعمل الصالحات ، وتنقص هـذه الـدرجات بالغفلـة واجـتراح السيئات ، ثم إنه ينقص حتى لا يجد صاحبه له طعمًا وحتى لا يبقى منه إلا مثقال حبَّة من خردل ، ومن فضل الله الذي يذاق بـه الإيمـان أن مثقـال حبَّـة الخردل هذه إذا بقيت حتى يلقى الله بها فتح الله له بها باب الجنة وحرّم عليه الخلود في النار ، ومن النّصح الذي نصح به علماؤنا الناصحون للأمة أن الذي يجد في قلبه مثقال حبة مـن خـردل مـن إيمـان عليـه أن يتعهـدها بالتَّسْبيح والتهليل والتحميد واستحضار جلال ربه ومَنِّه ولُطْفه وعطائه ونكثر من ذكـر آلاء الله ، وبطول النظر في كتابه وتدبر آياتـه والوقـوف عنـد وَعْـدِه ووعيـده والإكثار من كل ذلك حتى تخالط بشاشة الإيمان القلوب ، وبذلك يتهيـأ لأن يذوق حلاوة الإيمان وطعم الإيمان ، وقد قال الكملة رضوان الله عليهم إن الله سبحانه قَسَمَ لكل أهل الحق مِنْ هذا الوِرْدِ شِربًا معلومًا ، فمن ورد لا يُحْرَم أبدًا ، وقوله عليه السلام « مَنْ رضى بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً »

أطلت الكلام في تحليل كلمة ذاق طعم الإيمان ، وبيّنت أن ذوق طعم الإيمان طريق لا يقطع بالهوينا ، وأن سبيله الذكر والتسبيح والتحميد والتدبر وتذكُّر الآلاء إلى آخر ما قلت ، وأقول كل الذي قلته هو ضرورة لتحصيل الرضا الذي بني عليه الحديث ؛ لأن أصل المعنى في هذا الحديث هو إسناد ذوق طعم الإيمان لهذا الفاعل الذي حصل هذه الكلمات الثلاث الرضا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً ، وهي ثلاث يرجع ثانيها وثالثها إلى أولها لأن الرضا بالإسلام دينا فرع للرضا بالله ربًّا لأن الإسلام من السلام والاستسلام والانقياد وهو دين أبينا إبراهيم ﴿ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ ، وكذلك يقال في الرضا برسول الله ﷺ مع ملاحظة فرق أساسي هو أن الرضا بالله ربًّا يُنتج لا محالة الرضا بالإسلام الذي شرعه سبحانه ولا يتم الرضا بالله إلا بالرضا بما شرعه وأوْجبه وبهذا يرتبط الرضا الثاني بالرضا الأول ، أما الرضا الثالث فهو الرضا ببلاغ من بَلَّغ وليس له عليه السلام من الأمر شيء وما هو إلا رسول أرسل برسالة ليس له فيها إلا ما أوحاه الله إليه ، وقد بلّغ الأمانة وأدى الرسالة ونصح الأمة وتركها على المحجّة البيضاء وهذا هو فضل الله عليه وإكرام الله له وأنه عليه السلام خير من خلق الله وبَرَأ .

الرضا هو الذي يختصر الطريق إلى ذوق الإيمان أو ذوق طعم الإيمان ، ولذلك وجب تحليل الرضا في هذا الحديث الذي عدّه بعض الأئمة أصلاً من أصول الإسلام لأنه كما قلت اختصار الطريق إلى الله والطريق إلى مرضاته والطريق إلى دار السلام التي يدعو الله إليها أو قل هو الطريق المستقيم الذي ندعو الله في كل حين أن يهدينا إليه .

وعبارة من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً بُنِيَتْ بناء واحدًا : جار ومجرور متعلق بكلمة رضي ، ثم تمام الصلة بكلمة وقعت حالا وتنوع معناها ، فهي مع الرضى بالله (ربًّا) ومع الرضى بالإسلام (دينًا) والرضى بمحمد (رسولاً) ومعقد معنى الجملة في هذه الأحوال الثلاثة أعني الرضا بالله حالة كونه ربًا ، وليس حالة كونه موجودًا أو خالقًا وإنما حالة كونه ربًّا ، وهي الحال المطلوبة في الحديث من بين أحوال كثيرة يُنْتجها الرضا بالله ، ومثلها مثل أن تقول رضيت بفلان أميرًا أو إمامًا أو صاحبًا ، أو شاهدًا ، أو مُساعدًا إلى آخر أحوال الرضا التي ينتجها الرضا عن فلان ، فإذا قلت رضيت بفلان أميرًا انصبَّ المعنى على الرضا به حالة كونه أميرًا وليس حالة كونه إمامًا أو صاحبًا إلى آخره ، وإذا كانت كلمة (رسولاً) في الكلمة الثالثة تعني فحوى الرضا عن رسول الله ﷺ وهو الرضا المطلوب من كل من آمن برسالته عليه السلام لأن الرضا عنه عليه السلام من هذه الجهة يعني من جهة كونه رسولاً هو الجامع للإيمان برسالته ، أما الرضا عنه عليه السلام من حيث كان سيدًا وابن سيد ومن حيث كان صادقًا وأمينًا وبَرًّا بقومه ورحيمًا بهم فهذه أحوال مسكوت عنها ويقربها إلى مجال الرضا ، الرضا عنه حالة كونه رسولاً ، لأن ذلك لا يتحقق إلا إذا كان أمينًا وكان فطنًا وكان كريمًا وكان سيدًا وابن سيد إلى آخره ، كذلك الرضا عن الله خالقًا والرضا عن الله رحمانا رحيمًا ، والرضا عن الله توابًا حكيمًا والرضا عن الله سميعًا بصيرًا إلى آخره ، كل ذلك مسكوت عنه والمطلوب من بين كل هذه الأحوال الرضا عن الله ربًّا وذلك لأن الرب هو المولى وهو العائل وهو الراعي وهو المعين والمساند والآخذ باليد في كل خطوات حياتي ، فإن أصبت خيرًا ألهمني ربي شكرًا وإن أصبت شرًّا أوهمني ربي صبرًا وإن عَزَمْتُ شدّ عزمي

وهداني إلى رشدي ووفق خطاي وهو الحول وهو الطول ، إلى ما لا نهاية مما يستند فيه العبد في سَعْيه كله ويتكئ على ربه ويلهمه ربه العمل الدؤوب في الذي تتحقق به آماله ، وكل من يعمل يجد نفسه في مواقف كثيرة وكأنه بين مفترق طرق لا يعرف أيها يختار وحينئذ عليه أن يعقلها أولاً ثم يتوكل ثانيًا ، ثم إن الرضى بالله ربًا يَعني الرضا بقضائه وقدره خيره وشره حلوه ومُرّه ، ويوشك أن تستوي عنده العطايا والبلايا لأن رضاه عن ربه يجعله موقنًا بأن البلايا مع الصبر عطايا ، وأن العطاء مع عدم الشكر بلايا ، وأن الله سبحانه يبتلي بالخير والشر ، والرضى يعني أن يكون حال النفس على وفق ما يجري به القدر ، ولابد أن تذكر أن هذا لا يُتحصَّلُ إلا بكثير من المجاهدة وبكثير من الذكر وليس كل ذكر مُفْضِيًا إليه ، وإنما الذكر الذي يواطئ فيه القلب اللسان والذكر الدائم لتذكر عطايا ربنا وإكرامه ونعمه ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ قال الإمام القرطبي رحمه الله (وعلى الجملة ، فالرضا باب الله الأعظم وفيه جماع الخير كله كما قال عمر لأبي موسى فيما كتب إليه أما بعد فإن الخير كله في الرضا فإن استطعت أن ترضى وإلا فاصبر).

وكلام القرطبي الذي من كلام عمر يفيد مرتبة الرضا وأنها باب الله الأعظم وفيه جماع الخير كله وهذا شيء ومعرفة ماهية الرضا شيء آخر ، وهذا أيضًا شيء ومعرفة علامات الرضا شيء آخر ، وقد ذكر بعض كرام علمائنا أن الرضا سكونُ القلب على مجاري الأقدار يعني أن يكون هواه على وفق ما جرى به القدر ، وعقَّب بعض أهل الفضل وقالوا إن سكون القلب على مجاري الأقدار هي البداية التي يبدأ منها وبها الرضا فإذا تحرك الرضا إلى الأمام واتسعت خطواته لم يعد سكون القلب على مجاري الأقدار صالحًا

لبيان ماهيَّته وإنما الصالح هو سرور القلب على مجاري الأقدار ، وفرق بين سكون القلب وسروره ، وقالت رابعة العدوية حين سئلت عن الرضا قالت : إذا سرته المصيبة كما سرّته النعمة ، هذه كلمتها ولك أن تفهم منها أن الرضا ليس هو المسرة بالمصيبة كالمسرة بالنعمة فحسب وإنما أن تقع المصيبة في النفس موقع النعمة ، فالمصيبة عند أهل الرضا نعمة لأن الله ينعم بالبلوى وإن عظمت وأن درجة الرضا يستوي فيها النعمتان نعمة البلوى وإن عظمت ونعمة الإحسان ، هذا كله ليس معناه كل المعنى المراد من الرضا بالله ربًّا وإنما هو مفتاح باب هذا المعنى وأن كل ما يكون من الله هو موضع الرضا لا فرق في ذلك بين ما يَسُرُّ وما يسوء ، وأن النفس يصيرُ هواها على وفق ما جرت به الأقدار وأنها لا تسكن إلى ذلك فحسب وإنما تُسرُّ به . هذا فيما يفدُ إلينا من الله الذي رضيناه ربًّا ؛ أما ما تتوجه به إليه من ذكر وتسبيح وتحميد وتهليل وعبادة وعمل الصلاح والإصلاح فإن الرضا عن الله ربًّا يجعل كل ذلك ليس من باب التكاليف التي تصاحبها مشقات ، وليس أصحاب هذا الرضى من الذين يقولون لولا المشقة ساد الناس كلهم ، لأنه ليس للذكر والصلاح والإصلاح وتلاوة القرآن والتدبر في آيات الله في الكون وفي الكتاب العزيز ليس في شيء من ذلك مشقة أي مشقة ، وإنما الذي فيه وفي مزاولته هو الغبطة والمسرَّة واللذة والمتعة أعني أن تكون قرّة عيني في ذكر الله فإذا وجد الإحساس بالمشقة سبيلاً إلى نفسي فإن ذلك لا يكون إلا إذا هبط الإحساس بالرضى لأن حالة الرضى هذه حالة متأرجحة تزيد بالذكر وتنقص بالغفلة .

أما قوله عليه السلام (وبالإسلام دينًا) الإسلام هو الإذعان والانقياد لكل ما في دين الله من أمر ونهي وغيرهما ، وهذا هو أصل الإسلام وكل مسلم

يباشر هـذا الانقياد وهـذا الإذعان وتبقى درجة الذين يـذوقون طعـم الإيمـان أو حلاوته ، وهم الراضون أعني هم المحبون الذين يزاولون هـذه التكـاليف بمحبة وينقادون بمحبة ولا يجـدون مشـقة في فعـل أو نهـي يحتـاجون إلى صبر عليه ، وإذا صبروا صبروا صبرًا جمـيلاً برضـى ومحبّـة . إنهـم لا يشـق عليهم أن يُطيعُوا وإنما يشق عليهم ألا يُطيعُوا . وإذا كان الشأن فـيمن رضـى بالله ربًا أن يجعل حياته لله محْياه ومماته فإن الشأن فيمن رضى بالإسلام دينًا أن يجعل حياته للإسلام فقها واجتهادًا واستخراجًا واستنباطًا إن كـان مـؤهلاً لذلك ، أو يجعل حياته لأمة الإسلام علمًا وصناعة وتقدمًا وقوة وعدة وعتادًا إن كان مؤهلاً لذلك وهكذا كل من رضى بالإسلام دينًا يكون في موقع عمله في الأمة بمثابة من يُفْني نفسه من أجل هذه الأمة ، ولـيس في هـذا إجحـاف به ولا إهمال لحقه من حيث هو فرد له أسرة وأولاد لأن كل ذلك يمكن أن يوجد بتناغم وتوافق ، وقد ربط الذكر الحكيم أصل الإيمان بعمل الصالحات وعمل الصالحات ليس مقصورًا على العمل في المساجد لأن المعامل عنـدنا محاريب والمصانع محاريب والمدارس محاريب والمزارع محاريب « جعلت لي الأرض كلها مسجدًا »، فالعامل في أرض القمح عامل في مسجد والعامل في المصنع عامل في مسـجد وهكـذا ، كـل مـا يعـود على الأمـة بالـقـوة والتقدم والازدهار هو عندنا محراب من أكرم المحاريب ، وقـد أشـار سـيدنا رسول الله ﷺ إلى أن العمل على قارعة الطريق ليس أقل أهميـة مـن العمـل في المحراب لما ذكر أنه رأى رجلاً يتقلب في الجنة بسبب غصن شوك أزاله عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين ، وإذا كان ذلك كذلك فماذا يقول عليه السلام عن المعتكف في المَعْمل أو في المصنع أو في المكتبة أو في مراكـز الأبحاث لينتج شيئًا يحمي به أرض المسلمين ؟ الرضـا بالإسـلام دينًـا يعـني

هذا وأكثر منه وإنما نفتح الباب ، وقل مثل ذلك في قوله عليه السلام (وبمحمد رسولاً) أشرت إلى أن الرضا عن الله ربًا والإسلام دينًا أمران متلازمان لأن الإسلام دين الله والرضا عن الله ربًّا هو الرضا عن دينه ، أما الرضا بمحمد ﷺ رسولاً فهو رضًى عن المبلغ لهذا الدين الذي هو دين الله ليس لأحد فيه شيء ، وبهذا يكون هذا الرضا الثالث راجعًا إلى الأول والثاني لأن كل ذكر لله بلَّغه رسول الله ﷺ ، وكل حلال وحرام وسنة ومكروه ومستحب في دين الله لم تَعْرف عنه شيئًا إلا من بلاغه ﷺ ، فالرضا عنه عليه السلام من حيث هو رسول مبلغ رضا عن كل ما بلّغه عن ربه بما في ذلك كيف نذكر الله وكيف نسبحه وماذا نقول في ذكرنا وتسبيحنا ودعائنا ؟ فالرسالة الخاتمة والمختومة التي جاءنا بها والتي هي الأصل في كونه رسولاً جامعة مانعة لكل ما يقال عن الله ولكل ما يقال في دين الله ، والرضا عنه ﷺ يعني حب الصلاة والسلام عليه والقيام على سنته وسيرته وأقواله وأفعاله وتقريراته قيام جد ، وكذلك القيام على خدمة أمته ﷺ ، وقد ذكر العلماء أن الرفق بها من أكرم أبواب البر ، وأن الصلاح فيها من أكرم أبواب البر ، وأن الإصلاح فيها من أكرم أبواب البر وأن خيريّة هذه الأمة ليست فقط في صحة اعتقادها فحسب وإن كان لهذا شأن أي شأن ، وإنما أيضًا بما تُقَدِّمه لغيرها وبما تتقدم به في نفسها ، ولا تتفق الخيرية مع قوم يستهلكون ما ينتجه غيرُهم ويعيشون أعباء على عقول غيرهم إن هذا لنقص كبير في هذه الخيرية ولابد أن نحقق في الأرض هذه الخيرية لأنها لن تكون لنا يوم يقوم الناس لرب العالمين إلا إذا حققناها في الأرض وليس لنا أي ثواب في الآخرة لم نؤسس له في هذه الدنيا .

وأنهي الكلام في هذا السطر الكريم أو هذه الجملة التي قالها صلوات الله وسلامه عليه وبلّغها عنه عمه العباس رضي الله عنه بالإشارة إلى أن هذا السطر يوشك أن يكون مُنْتَزعًا من قوله تعالى في سورة المائدة ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ، وهذه الجملة الأخيرة هي قوله عليه السلام ورضي بالإسلام دينًا والتغيير الذي حدث أن ربنا قال لنا ورضيت لكم الإسلام دينًا ، وسيدنا رسول الله قال لنا نَرْضَى ما رضيه الله لنا فإذا كان سبحانه قال لنا رضيت لكم الإسلام دينًا فإننا نقول له سبحانه ورضينا نحن الإسلام دينًا ما دمت سبحانك قد رضيته لنا ، وإننا نرضاك ربًا ، ونرضى ما بلغنا هذا رسولا . هذا والله أعلم .

وحديث أنس الذي رواه أبو قلابة « ثلاث من كُنّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » .

قوله عليه السلام « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان » طريقة في بناء الكلام شائعة جدًا في كلامه ﷺ وقد سبق ذكرها ، وهذا البناء نفسه هو الذي مضى في حديث ثلاث من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، وقد وقفت هناك عند كلمة « من كُنّ فيه » وقد تكررت هنا ، وأنبّه فقط إلى الفرق بين الثلاث اللائي هن في المنافق والثلاث اللائي هن في الذي وجد بهن حلاوة الإيمان ، وظاهر أن تعبير من كُنّ فيه يعني أنهن سواكن فيه ومستقرات في مضمر القلب وأنها صارت بمثابة جزء من سرائر النفس ولكنها هناك خسائس يكون مُحتقبها بها منافقًا خالصًا ، وهي هنا فضائل يكون حاملها من أهل الغبطة وأهل المروءة وأهل الصدق وأهل الإخلاص لأنه لا يجد

حلاوة الإيمان إلا من كان من أهل البر والرحمة والعدل ومكارم الأخلاق، وأن الثلاثة التي فيه هي عكس الثلاثة التي في النذل الوَخيم الخسيس المنافق الذي ارتضع الخساسة والنذالة من ثدي غير كريمة أو من ثدي أمٍّ سوء. وتعجب حين تجد العبارة واحدة والمعنيان مختلفان أحدهما في السماء والآخر في طين الأرض، وتلاحظ أن خصال الخير ممسك بعضها ببعض وخارج بعضها من بعض، فحب الله ورسوله منتج حب المرء لا يحبه إلا لله، وكراهية العودة إلى الكفر هي النتيجة الطبيعية لهذا الحب الذي وَلَدَ حُبًّا. ولهذا جاءت مجتمعة في هذا الحديث وفي حديث العباس وأن اجتماعها في الحديثين يمنح من اجتمعت فيه القدرة التي ترتفع به إلى وجود حلاوة الإيمان، وهذا بخلاف رذائل المنافق وإن اجتماعها ينتج منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق لأنها رذائل مستقل بعضها عن بعض، فالكذب في الحديث رذيلة وحدها وغدر العهد رذيلة وحدها وهكذا، وقد قال عليه السلام هنا (وجد بهن حلاوة الإيمان) فوجود حلاوة الإيمان إنما كان «بهن» مجتمعات، لأنه لا سبيل إلى فصلها لأن من أحب الله لا محالة أحب رسول الله، ومن أحب الله ورسوله لا محالة أحب من يحبون الله ورسوله ومن كان كذلك فهو لا محالة يكره الكفر كما يكره أن يقذف في النار، وهذه الباء صالحة لأن تكون باء السببية وأن هذه الثلاث الكريمات اللواتي لا تستشرف نفس إلى أكرم منهن هُنَّ سبب وجود حلاوة الإيمان أعني هُنَّ السبب في أن أجد لذة الطاعة ولذة الذكر ولذة كف النفس عن الذي لا يرضاه ربنا وأن إيماني بالله حصن حصين في نفسي يعصمني من الكذب والفجور والغدر وكل أخلاق المنحطين الذين تعلو أصواتهم في أرضنا على أصوات سادتهم الكرام البررة والذين يؤول إليهم أمر البلاد فتزداد بهم الكروب والأهوال والهزائم والكوارث إلى آخره.

ويحتمل هذه الباء أن تكون للمصاحبة كالباء التي في قوله تعالى ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ ﴾ (هود:٤٨) ، ومعنى هذا أنه يجد بصحبتهن حلاوة الإيمان أعني يجد حلاوة الإيمان وهو في صحبة حُبِّ الله وحُبِّ رسول الله وحب من أحب الله ، وهذه صُحْبة لا تجد صحبة أكرم منها ، وقد سبق الحديث عن طعم الإيمان وحلاوة الإيمان ووجد وذاق إلى آخره ، ومن المفيد أن تلاحظ تصاريف البيان وتقارب مبانيه مع تباعد معانيه وقد أشرت من ذلك إلى حديث ثلاث من كن فيه كان منافقًا خالصًا وثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وأشير أيضًا إلى أن وجد حلاوة الإيمان أو ذاق حلاوة الإيمان أو طعم الإيمان سبق أن كان هذا من الذي رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً ، وهو هنا من الذي كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ومن أحب المرء لا يحبه إلا لله ، وهذا يعني أن الرضا بالله ربًا وبمحمد ﷺ رسولاً بمنزلة من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما لأنهما يرفعان صاحبهما إلى درجة واحدة هي درجة وجود طعم الإيمان أو ذوق حلاوة الإيمان والرضى المبني عليه حديث العباس والحب المبني عليه حديث أنس مختلفان من جهة ومتفقان من جهة أخرى لأن الرضا يعني الغبطة بكل ما يكون به قضاء الله وقدره لأنه لا معنى للرضا عن الله إلا الرضى بكل ما يكون من الله وإن ارتقى بعضهم من درجة الرضى إلى درجة المسرَّة ، وحب الله يعني التغوّل في باب آخر وهو استغراق النفس بالإحساس بالنعم التي ليس بنا نعمة واحدة إلا منه ، وأهم من ذلك أن أعظم النعم التي نحن فيها لا تكون ولا يجوز أن تكون إلا منه كنعمة الهداية إلى الإيمان به والهداية إلى معرفته والهداية إلى طريقه المستقيم إلى آخره، فمنابع الرضى في النفس مختلفة عن منابع الحب وكلاهما ينتهي إلى حقيقة واحدة

هي نعمة النعم وهي أن نجد طعم الإيمان . ويلاحظ أن هذه الأحاديث التي تتحدَّث عن الذي يكون به طعم الإيمان لم تذكر ذلك على سبيل الحصر ، فليس المقصود لا يذوق طعم الإيمان إلا من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما إلى آخر ما ذكر وإنما هي مسالك يصل منها وبها الباحث عن مسرَّة ذوق حلاوة الإيمان . ويمكن لك أن تقول إن من ذاق حلاوة القرآن جدير به أن يذوق حلاوة الإيمان وإن الذي اعتاد على أن تُنْفِقَ يمينه ما لم تعلم به شماله جدير بأن يذوق حلاوة الإيمان ، وأن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى وجود طعم الإيمان ، وأن الصلاة في جوف الليل تعين على تذوق حلاوة الإيمان وهكذا ، ولكن رسول الله ﷺ استلهم آيات الله التي كانت تُوَجّه إلى الأصول ، ومنها الرضا بالله وبرسوله وحب الله ورسوله ، ويلاحظ شيوع كلمات طعم الإيمان وحلاوة الإيمان وليس شيوع كلمات مثل طعم الإسلام ، وحلاوة الإسلام ، ووجه ذلك أن طعم الإيمان أبعد غوراً في النفس وأن الوصول إليه والإحساس به أبعد منالاً لأنه أمر اعتقادي ، ووجود طعوم اعتقادات القلوب لا يستوي فيه الناس ، بخلاف الإسلام فإنه عمل وانقياد وسلوك ، وقد تجد طعم المروءة في رعاية يتيم وأنت لا تصلي وربما وأنت غير مسلم ، وهناك من وجد طعومًا حلوة لكسب المعدوم وصلة الرحم والإعانة على نوائب الدهر . وانظر إلى لَبِيد في الجاهلية الذي كان ينحر في الجَدْب إذا هبّت رياح أبي عقيل ، وقد رأيت ابن الدُّغُنة يصف أبا بكر بما وصفت به أمنا خديجة سيدنا رسول الله وأنه كان يقرى الضيف ويصل الرحم ويكسب المعدوم ويعين على نوائب الدهر ، وقد ذكرها ابن الدغنة بعدما ذكرتها خديجة رضوان الله عليها ولم أعرف هل أفادها منها أم أن هذه خلال كانت معروفة في القوم؟ المهم أن تذوق طعم الأعمال

النبيلة ليس موقوفًا على الإيمان وإنما هو موقوف على سلامة الفطرة ولذلك كان يتذوقها محمد بن عبد الله قبل أن يبعث ويوم أن كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان وكان يتذوقها أبو بكر ، ورأى ابنُ الدُّغنّة أن من كان على هذا الوصف الذي عليه أبو بكر لا يجوز أن يَخْرُج من مكة ولا أن يُخْرج منها وخاطب بذلك أشياخ قريش يوم أن عاد بأبي بكر من بَرْك الغماد وكان أبو بكر في طريقه إلى الحبشة وأجار ابن الدغنة أبا بكر ، والعجيب أن ابن الدُّغنَّة سيد من كنانة وكانت تكون الحرب بين قريش وكنانة ولكن الرجل يعرف أقدار الرجال وإن كانوا في صفوف أعدائه ولم تكن تصفية المجتمعات من الرجال ذوي المكانة خلقًا في الجاهلية وإن كانت الآن خلقًا من أخلاق الجهلة المتسلطين على الشعوب وهذا هو بلاء الكنانة في الزمن الذي أكتب فيه هذا الكتاب وهو بلا ريب ليس لصالح الوطن ، والوطني الصادق في وطنيته يحفظ الكفاءات ويحوطها ولو كانت معارضة له لأنها من أهم كنوز البلاد . قلتُ المهم هو تذوق طعم الإيمان .

وقوله عليه السلام «من كان الله ورسوله أحب إليه مِمَّا سواهما» بداية بيان وتفصيل المجمل في قوله ثلاث من كُنّ فيه . ثم إنك تجد ما يشبه أن يكون توحدًا في النغم بين (من كنّ فيه) (ومن كان) وكأن جملة من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ترتبط بكلمة ثلاث من كن فيه من جهة المعنى الذي هو تفصيل وبيان ومن جهة اللفظ الذي تتكرر فيه كلمة من كن ومن كان ولا تهمل مثل هذا لأن التقارب في الأصوات يعين على حسن الرضا بالكلام وحسن تذوقه وسهولة حفظه وكلام سيدنا رسول الله وخصوصًا ما كان مثل هذا الحديث المطلوب أن يكون حاضرًا في قلب وفي لسان كل من رضي بمحمد ﷺ رسولاً .

وهذه الجملة الكريمة من كلام سيدنا رسول الله ﷺ هي اختصار بارع لآية التوبة ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤) .

وقد اختصر رسول الله ﷺ ما ذكرته الآية مما له سلطان على النفوس من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن في كلمة (سواهما) وذلك لتُحفَظ الجملة المختصرة لأهميتها في الدين وذكرت مُفَصَّلة في الآية الكريمة لبيان أن الله لا يقبل إيمان عبد لم يكن الله ورسوله أحب إليه من ذلك كله ، فذكر الآباء والأبناء والأخوات إلى آخره بالتفصيل ليعلم من يريد أن يكتسب الإيمان أن هذا المذكور المفصل شرطه ، ومن لم يكن الله ورسوله أحب إليه من ذلك كله فإن الله غني عن إيمانه يعني أن بوّابة الإيمان لا يدخلها إلا من كان الله ورسوله عنده فوق ذلك كله وفوق نفسه وإلا فلا إيمان له ، ولم يتسامح ربنا في هذا الشأن ولم يقبل إيمان من كان يجد في هذا الوجود شيئًا أحب إليه من الله ورسوله أو من كان أي شيء في الدنيا حبُّه عنده بمنزلة حب الله ورسوله ، لا يدخل في أهل الإيمان من كان له أهل فوق هذا الإيمان إنما يدخل في الإيمان من باع نفسه له وملّك رقبته له وصار محياه له ومماته له ، الآية تشرح هذا وسيدنا المختار يلخّص هذا ويَعِدُّه للحفظة من أمته ، وهنا دقيقة خفية وهي أن الآية صريحة في أن القاصد إلى الإيمان لا يقبل منه الإيمان إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليه من كل ما ذكر وأنه لا يُؤمن أحدنا حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من نفسه ومن الناس أجمعين ، ثم إن هذا الحديث يجعل حب الله ورسوله حبًّا

لا يزاحمه حب سواهما يَجْعلُ لمن كُنَّ فيه ذائقة يذوق بها حلاوة الإيمان ، وهذا يعني أن من آمن الإيمان المقبول وجد حلاوة الإيمان ، وأنا لا أجد إشكالاً في هذا لأن الحديث الذي معنا يقرر حقيقة الإيمان لأن الذي قاله هو الذي قال لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين ، ولو قلت لي أن الرضا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً كل هذا شرط في تحصيل أصل الإيمان لقلت لك نعم ولو قلت كل هذا يذوق المؤمن به حلاوة الإيمان قلت لك نعم والخلاصة كل من آمن الإيمان الصحيح المقبول فقد ذاق حلاوة الإيمان ، والخلاصة أيضًا أن العمل الصالح والرضا بالقضاء والقدر والغبطة بالعمل الصالح وقرة العين بكل ما يرضي الله كل هذا من شأن المؤمن الذي حصل أصل الإيمان ثم يرتقي بذلك حتى يجد ما لا يجده من غفل في هذا الباب أو مَن قصرّ عنه في هذا الباب .

الآية تؤسس تحصيل الأصل ومن حصل الأصل ذاق والحديث يشير إلى المقامات التي هي لا محالة واردة على هذا التحصيل فقلما نجد اثنين سواء في ذلك ، وإذا كانت الطعوم تختلف وتتنوع وكان الإحساس بها يختلف ويتنوع فكذلك طعوم الإيمان في كل القلوب العامرة بهذا الإيمان ، هذا والله أعلم .

وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ ومن أصول الدين ، ومن الملاحظات في مجال النظر في كلامه صلوات الله وسلامه عليه أنني أجد الإيجاز الذي هو جوامع الكلم يتجلى في أبهى صوره وأنا أعني بأَبْهَاهَا الإيجاز الشديد مع الوضوح الشديد ، وهما أمران لا يلتقيان في أكثر الكلام ، أقول أجد هذا الإيجاز الشديد مع الوضوح الشديد في الأحاديث التي تعلمنا ما لا يجوز لنا

أن نجهله وكأنها تعد هذه الحقيقة الدينية في صورة بيانية تقتحم بها قلوب العامة والخاصة ، وتسكن هذه الحقيقة الدينية في هذا المسكن اللغوي الذي لا تجد هذه الحقيقة لها مسكنًا دونه ولا تجد هذه الصورة البيانية ساكنًا يسكنها أبر مما سكنها ، وهذا من علامات النبوة : تأمل هذا الحديث والحديث الذي قبله والذي قبل الذي قبله تجد قيمة عالية سكنت لغة عالية فتلقفتها آذان واعية ، وأذكر من هذا مثلا كلمة كنت أسمعها من العامة عند مكان الوضوء ، كان يقف رجل بسيط جدًّا لا يقرأ ولا يكتب ويقول ويل للأعقاب من النار فيلتفت كل متوضىء إلى عقبيه . وإن أردت أن تصل إلى أفضل مما قلته لك اقرأ جوامع كلمه عليه السلام وجوامع الجوامع أعني إيجاز الإيجاز من كلامه ﷺ وتبين كيف توضح هذه الجوامع وجوامع الجوامع المعاني المتسعة التي تضمنتها ثم اقرأ حكم ابن عطاء الله السكندري وهي حكم جليلة جدًّا ولغتها عالية جدًّا ولكن الإيجاز الشديد أضفى كثيراً من الغموض على جوانب هذه الحكم ومن قصور الدرس البلاغي أنه اختصر الإيجاز في إيجاز الحذف وإيجاز القصر ولم يدرس درجات الإيجاز في الكتاب ولا في السنة ولا عند الشعراء ولا عند الكتاب ولا عند الحكماء ولا عند الفلاسفة ولا عند الصوفية وكل هؤلاء مذاهب في الإشارة والإيجاز والإيحاء .

وقد ذكر علماؤنا كلامًا نافعًا في معنى مَحَبَّتنا لله ولرسوله . وأمهّد إليه بالذي أشرت إليه وهو أن النفوس جُبِلَت على حب من أحسن إليها ، ولم نعرف أحدًا أحسن إلينا إحسان ربنا إلينا لأن إحسانه لا يدخل في طوق أحد ، فقد أوجدنا من كتم العدم كما يقول الرازي وهي النعمة الأولى التي ذكرنا بها ربنا في قوله ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ (البقرة:٢٨) .

ثم جعل لنا السمع والبصر والفؤاد وسخر لنا ما في السموات وما في الأرض وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، وفوق كل هذا أنزل علينا كتبه وبعث فينا أنبياءه وأخرجنا بكتبه ورسله من ظلمات الجهل والتخلف والظلم والفقر والمرض إلى نور العلم والتقدم والعدل والغنى والصحة . ومَحَبَّتُنَا لرسول الله ﷺ لأنه هو الذي جاءنا بالخير كله والرحمة كلها والنور كله وكان عليه السلام رحمة ونورًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا إلى ما لا أستطيع حصر شيء منه من فواضله صلوات الله وسلامه عليه وعليّ وعليك وعلى الناس أجمعين ، وهذا الذي أقوله هو من أسباب الحب وليس معنى الحب ، وسأتابع ما قاله النووي لأنه من الأئمة الذين أتقرب إلى الله وإلى رسوله بحبهم قال رحمه الله : قال أبو سليمان الخطابي «لم يُرِدْ به حبَّ الطبع بل أراد به حبَّ الاختيار . لأن حب الإنسان نفسه طَبْعٌ ولا سبيل إلى قلْبه ، قال فمعناه لا تَصْدُق في حُبِّي حتى تُفْنَى في طاعتي نفسك وتُؤْثر رضايَ على هواك وإن كان فيه هلاكك» وقال ابن بطال . وقبل ذكر كلام ابن بطال أُنَبِّه إلى ما في كلام الخطابي وقول الخطابي لم يُرِدْ به حب الطبع بل أراد به حب الاختيار هو خلاصة رأي الخطابي وهو أصل الذي قال لأن حبك لولدك ووالدك وأهلك والناس والمال والجاه إلى آخره هذا حب طباع لأن طباع الناس تميل إلى هذا والطباع لا تحول ولا تزول ، أما حب الله فهو اختيار بمعنى أن أختار ما يُرضيه ولو خالف هواي ثم أن أُفْنِي فيما يُرْضيه فناء مجازيًّا في صالح الأعمال التي يرضاها سبحانه من العبادات بمعناها الضيق وبمعناها الواسع التي تشمل الصلاح والإصلاح وإحقاق الحق وإبطال الباطل وتثبيت العدل ، والبر ، والعلم ، والرحمة في الأرض ، ومواجهة الفساد والظلم والطغيان إلى آخره ، وإما أن أفني نفسي على سبيل الحقيقة وأحمل سيفي وأخرج لإعلاء كلمته وأطلب إحدى الحسنيين النصر

أو الشهادة ، هذا الاختيار وهذا الإفناء هو حب الله ، وعليك أن تذكر أن هذا ليس درجة واحدة وإننا متفاوتون فيه ، وبعضنا أكثر حبًّا لله من بعض ، والمهم أننا جميعًا نحب الله .

وأعود إلى ما نقله النووي عن كرام علمائنا قال رحمه الله : قال ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما ـ رحمة الله عليهم ـ المحبة ثلاثة أقسام : محبّة إجلال وإعظام كمحبة الوالد ، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد ، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس،فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته، قال ابن بطال رحمه الله : ومعنى الحديث أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين ، لأنه ﷺ استنقذنا من النار ، وهدانا من الضلال .

قال القاضي رحمه الله : ومن محبته نصرة سُنّته والذب عن شريعته. انتهى كلام النووي .

وللإمام الحافظ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي كلمة نفيسة في المراد بحب العبد للرب وطّأ لها بكلام بعض العلماء الذين لا يتأولون حب العبد لربه ويصرفون ذلك إلى الطاعة وإنما يقولون إن حب العبد لله هو الحب بمعناه الحقيقي حتى قال بعضهم المحبة لله تعالى هي الميل الدائم بالقلب الهائم ، وقال أبو القاسم القُشَيْري : أما مَحَبَّةُ العبد لله تعالى فحالة يجدها العبد من قلبه تَلْطُفُ عن العبارة ، وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم لله تعالى وإيثار رضاه ، وقلة الصبر عنه والاحتياج إليه ، وعدم القرار عنه ، ووجود الاستئناس بدوام ذكره ، انتهى كلام أبي القاسم .

وبعدما وطّأ الإمام القرطبي بهذا ذكر كلامًا نفيسًا جدًّا وسألخصه لك ثم لا أحرِمُك من بعض ما نطق به لسانه لأن كلام هؤلاء فيه من الصدق والإخلاص والضياء ما يذهب به تلخيصنا .

ذكر القرطبي أن الله سبحانه وتعالى جبل نفوسنا على حب الحسن والجمال والكمال ، وأن مَيْلنا إلى الشيء بمقدار ما نكتشفه فيه من هذه العناصر الثلاثة ، وقد يكون هذا الشيء إنسانًا وقد يكون كتابًا وقد يكون رياضة ، وقد يكون رَسْمًا وقد يكون شعرًا أو ما شئت . المهم أن مَيْلَك وحبَّك إلى شيء أي شيء إنما يكون بجاذبية جماله أو حسنه أو كماله أو بها مجتمعة ، ثم إن هذه العناصر التي هي سرُّ الحب في هذا الوجود قد تكون حسيَّة في الإنسان أو في الطبيعة وقد تكون معنوية كهذا الجمال والكمال والحسن الذي تجده في ذكر الصالحين والعلماء العاملين والأنبياء المكرمين فتتعلقَ بهم قلوبنا كحُبِّنَا لمؤمن آل فرعون وكلنا يحب الرجل الذي جاء من أقصى المدينى يسعى ، وكلنا يحب مريم ابنة عمران وكلنا يحب امرأة فرعون وكلنا يحب الأنبياء الذين ذكرهم لنا ربنا نموذجًا عاليًا لكمال الإنسان وحسنه وجماله ، وكلنا يحب الإمام البخاري والإمام مسلم والإمام مالك والشافعي ، والغزالي ، وأحمد ، والطبري وعبد القاهر ، وحبنا لله من هذا الباب ثم يزيد حبنا لله زيادتين الأولى أن الجمال والكمال والحسن في كل هؤلاء نسبي بمعنى أنه يشوبه نقص ما في زاوية من زواياه . والحسن والجمال والكمال في الله مطلق لا يلحقه نقص وبهذا يعلو حُبُّنا لله عن حبنا لهؤلاء جميعًا علوًا يزيد بمقدار زيادة المطلق على النسبي وهذه زيادة لا يقادر قدرها .

الزيادة الثانية أن هؤلاء الصالحين والعلماء العاملين والأنبياء المكرمين فضلهم علينا كبير ، وأننا نعيش بما نقتبسه منهم من علم وأدب وموعظة وحكمة ، أما فضل الله علينا فليس له حدٌّ يحيط به فما بنا من نعمة إلا منه سبحانه ، ولو لم تكن إلا نعمة الكتاب الذي أتم به النعمة لكانت أرفع من كل نعمة .

هذا ملخص ما ذكره القرطبي وهو يبدأ من النقطة الأولى التي يكون منها الحب المحسوس ثم يرتقي إلى الحب بظهر الغيب كحب الصالحين والعلماء العاملين ثم يرتقي إلى الحب الإلهي الذي يبدأ من الكمالات المطلقة في الصفات التي جَبَل الله النفوس على حبها .

ومن كلامه قوله : « وأما المعنوي فكمن اتصف بالعلوم الشرعية والأفعال الكريمة ، والأخلاق الحميدة فهذا النوع تميل إليه النفوس الفاضلة والقلوب الكاملة ميلاً عظيمًا فترتاح لذكره وتنعم بخُبْرِه وخَبَرِه ، وتهتزّ لسماع أقواله وتتشوّف لمشاهدة أحواله ، وتلتذ بذلك لذة روحانية لا جسمانية كما نجده عند ذكر الأنبياء والعلماء والفضلاء والكرماء من الميل واللذة والرقة والأُنس» ثم يقول : « فإذا كان هذا الموصوف بذلك الكمال قد أحسن إلينا ، وفاضت نعمه علينا ، ووصلنا ببره وعطفه ولطفه تضاعف ذلك الميل وتجدّد ذلك الأنس ، حتى لانصبر عنه بل يستغرقنا ذلك الحال على أن نذهل عن جميع الأشغال» ثم يقول : « وإن كان ذلك في حق من كماله وجماله مقيدًا مشوبًا بالنقص مُعَرّضًا للزوال كان من كان كماله وجماله واجبًا مطلقًا لا يشوبه نقص ولا يعتريه زوال وكان إنعامه وإحسانه أكثر بحيث لا ينحصر ولا يُعَدّ أولى بذلك الميل ، وأحق بذلك الحب وليس ذلك إلا لله وحده ثم لمن خصه الله تعالى بما شاء من ذلك الكمال وأكمل نوع الإنسان محمد عليه أفضل الصلاة والسلام» وأكتفي بهذا .

قوله عليه السلام « وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله» هذه الجملة مستخرجة من تحت الجملة التي قبلها وكأنها نَسْلٌ منها ومثلها كمثل ما جاء في حديث العباس من قوله عليه السلام ورضي بالإسلام دينًا فإنها مستخرجة

من تحت جملة رضي بالله ربًّا وكأنها نَسْلٌ منها ، وهـذا القصـر الـذي بنيت عليه الجملة ينفي أن يكون في هذا المرء شـيء أي شـيء يحبه مـن أجلـه ، فليس له عنده أي مصلحة يحبه من أجلها وإنما يحبـه لله لا لغـيره ، وبقليـل من التأمل يظهر لنا أن هذه الجملة مؤكدة للتي قبلها لأن الذي يحب شخصًا لله لا غيره يؤكد بحبه هـذا حبـه لله وهـذا راجـع إلى طبـع النفس لأنـك إذا أحْبَبْتَ وصدقت في حبك أحببت الذي أحب من تحب وحبك للذي أحببت من تحب يعني أن درجة حبك لمن تحب قد ارتفعـت درجـة ومثلـها كمثـل برك بوالدك فإذا زاد هذا البر اتسع واستوعب البر بأهل برّ أبيك ، وقريب من هـذا مـا تجـده في الشـعر مـن انتقـال حـب الشـاعر للصـاحبة إلى ديارهـا وعَرَصَاتها وآثارها ودِمَنها وثمامها ومواقد نارها ، وإذا سـألت لمـاذا يحـب الشـاعـر الدِّمَن ويخاطبها ويستنطقها فتنطـق أو لا تنطـق لم تجـد جوابًـا إلا الطبع الإنساني الذي إذا إضاء حب شيء في قلبه اتسع إلى كل ماله صلة بهذا الشيء ، ومن طرائف ذلك قول الشاعر العريق القديم :

وأحبها وتحُبني ويحب ناقتها بعيري

انتقلت صبوته بها إلى صبوة بعيره بناقتها فصار هو مولعًا وَالِهًا بها ، وصار بعيره مولعًا والهًا بناقتها ، وهذا من أدق وأوْعى ما وصفت به الروح الإنسانية ، وقد كنت زمانًا أتوهم أن كلمة (وتحبني) كلمة زائدة في البيت وأنها ليست من كلام أهل النسيب الصرحاء لأنهم لا يتحدثون عن حب الصاحبة لهم ، وإنما يتحدثون عن هجرها وقطيعتها ودَلِّها ودلالتها وقصارى ما يقولونه لها (وإن كنت قد أزمعت صَرْمي فاجملي) كما يقوله الكندي شيخ الشعراء والصرم هو القطيعة ، ثم وقع في نفسي أن الشاعر لما قال

«وتحبني» لم يكن يقصد إلى معناها وإنما يمهّد بها إلى معنى حذفه واكتفى بقرائنه وذلك أنه لما قال أحبها أسس عليه حب بعيره لناقتها وذكر ذلك ولما قال وتحبني أشار به إلى شيء لم يذكره وهو حب ناقتها لبعيره ولما أراد أن يعقد الأُلفة والشبكة المتبادلة بين ناقتها وبعيره بدأ بالألفة والشّبكة المتبادلة بينه وبينها وقال (أحبها وتحبني) وكلمة (المرء) في قوله صلوات الله وسلامه عليه (وأن يحب المرء) جاءت مطلقة من غير وصف فلم يقل عليه السلام المرء الصالح ، أو المرء القانت أو العابد أو ما يفيد تعلق وحب هذا المرء لله ، وإنما اكتفى بقوله «المرء» فشملت كل (المرء) والأنثى المرأة ، وكلاهما من المروءة يعني أن كلمة المرء تستحضر أصل اشتقاقها وهو المروءة ، وكذلك كلمة المرأة كما أن كلمة الإنسان تستحضر معنى الإنسانية وكلمة الرجل تستحضر معنى الرجولية وكلمة الأنثى تستحضر معنى الأنوثة ، وهكذا نجد لكلمات اللغة خلفيات أخلاقية وخصوصًا حين تطلق الرجل والمرأة ، وهذا الإطلاق في كلمة المرء يُغرَى أولاً وقبل ذكر ما يعده بحب كل ذي مروءة ، مسلمًا كان أو غير مسلم ، وقد يكون لك ميل لذي المروءة من غير المسلمين أعني الرجل الذي يفعل المعروف من القِرى وكَسْب المعدوم والإعانة على نوائب الدهر ، وكان الجاهليون يتمدحون بهذا ويرون أنه ينفعهم عند الله وقد أبطله الإسلام لأنه لا ينفع عمل صالح إلا بالإيمان ويلاحظ أننا لم نُنْه عن حب غير المسلمين الذين لم يظاهروا علينا ولم ينازعونا في ديارنا ، ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ وليس حب غير المسلم مرادًا هنا بدليل قوله (لا يحبه إلا لله) لأني قد أحب غير المسلم لمروءته ولأخلاقه أو لأنه جار أو لأنه فعل معي معروفًا ولكن

لن أحبه لله لأن من كفر بالله لا أحبه لله ، فالشرط في المرء المذكور في الحديث أن يكون مؤمنًا ، ولن يكون مؤمنًا إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليه من نفسه وماله وولده ، والناس أجمعين ، فأنا في الحقيقة أحب فيه حبه لله ، وليس بيني وبينه شيء أي شيء إلا الحب في الله وهذه تتحقق في كل من آمن ، والحب يزيد وينقص بمقدار ما يتصف به من عمل الصالحات ، وهذا معناه أيضًا أن كل من آمن بالله وجد حلاوة الإيمان بهذه المرتبة ، ثم إن وجود هذه الحلاوة يزيد بمقدار الذكر والتسبيح وعمل الصالحات التي هي الصلاح والإصلاح والتي يتخطى بها المؤمن الدائرة الضيقة التي يعيش فيها إلى دائرة الجماعة ، وإذا كان المقصود هنا حبّ المرء ، لا أحبه إلا لله فإن هذا يعني أن أحب كل من آمن بالله لا أحبهم إلا لله ويستوي في ذلك من لهم منهم عليّ يدٌ أعدها وأذكرها ومن ليس كذلك لأن التراحم بين أهل الإيمان تراحم عام وشامل ومؤسس على الإيمان الذي لا يصح إلا بحب الله ، فأنا مطالب بحب كل من أحب الله وهم كل المؤمنين ، وكلمة « المرء » تعني جنس المرء ، وهذا متلائم جدًّا مع قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ لأن الأُخوة حُبٌّ ومساندة ومساعدة ، وإذا استنصرني في الدين فعليَّ النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، ومعنى (فعليكم) النصر أنه واجب ، وهكذا تجد كلمة « وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله » مرتبطة بالأصول العامة الجامعة للأمة ونحن مأمورون بأن نجمع كل المؤمنين في دعائنا ، ونقول اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات وهذا أقرب إلى الإجابة من قولنا اللهم اغفر لي وارحمني .

كل هذا ظاهر في أن الحب والتحاب أصل أصيل بين كل من آمنوا بالله وشهدوا الشهادتين ، ومع هذا تجد جماعات إسلامية مختلفة فيما بينها حول

أشياء ليست في أصول الدين وأنا لا أعني الفرق القديمة كالمعتزلة والأشاعرة وإنما أعني الجماعات التي لم يكن خلافها كالخلاف الذي بين المعتزلة وأهل السنة ، وإنما أريد ما امتلأ به زماننا من جماعات جهادية وسلفية وإخوانية إلى آخر ما نرى على الساحة ثم هي - وهذا هو المهم - متنازعة فيما بينها تنازعًا سكنته البغضاء حتى إنك لترى بعض هذه الجماعات ينحاز إلى جماعات أخرى ليس لمذهبها أصل في الدين كأصحاب المذاهب المستغربة وشأنهم الدائم هو منازعة الاتجاهات الإسلامية ، أقول ترى بعض هذه الجماعات المُسمّاة إسلامية تضع يدها في أيدي المعادين للاتجاهات الإسلامية وأحيانا تحرض عليها وهذا أمر خارج عن فقه الإيمان الذي يوجب المحبة والتساند والتعاون بين كل من شهدوا الشهادتين من أهل الإسلام مع صرف النظر عن اختياراتهم السياسية والمذهبية ، وهذا يجب أن يراجع لأن الله الذي أوجب علينا التحاب فيه سبحانه هو الذي حذرنا من التنازع وقال لنا ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ ، وقد رأت عيني وسمعت أذني من يحرض منهم جهلة العسكر وفجار الحكام على بعض الفرق التي يتنازعون معها وأبرأ إلى الله من هؤلاء جميعًا وأعود إلى الأصل الذي جمعنا حوله ، وقد قلت لبعضهم إنك ستراني مع كل قلب يخشع عند ذكر الله جهاديًا كان أو إخوانيًا أو صوفيًا أو سلفيًا أو ما شئت لأن حبي هنا عند القلوب العامرة بحب الله لأني وضعت عصاي عند هذه القلوب وحططت رحلي عندها ، لأن خشوعها وخشيتها هي الدليل القاطع عندي على أن حب الله ساكنها وهذا حسبي .

قوله عليه السلام : « وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » .

علاقة هذه الجملة بالكلام قبلها ليست كعلاقة وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله بالذي قبلها لأن هذه الجملة مؤسسة على الكلام قبلها كما يؤسس المعنى المقابل على الكلام قبله وهي تؤكد حب الله وحب رسوله لأن كراهة الكفر تأكيد لحب الإيمان ، والحديث بذلك يؤكد أمرين الأول أن الحب أساس الإيمان وأن كراهية الكفر هي أصل البراءة منه فليس اجتناب الكفر كافيًا وإنما لابد من كراهيته ، فإذا كان الحب أصل الإيمان فإن كراهية الكفر أصل السلامة منه ، والذي يقود إلى كراهية الكفر هو أنه لا يعبد بحق إلا الذي خلق وأنعم ، ومن الفطرة أن تعبد الذي خلق وأنعم ، ومن نقض الفطرة أن تكفر بالذي خلق وأنعم وأن هذا الكفر مُبَغّض في الفطرة لأنه كفر بالنعم وبالمنعم .

وقد أومأ عليه السلام بكلمة (بعد أن أنقذه الله منه) إلى موجب كراهية الكفر لأن أفضل نعمه ينعمها ربنا على من رضي من عباده أن ينقذهم من الكفر ، وهذا الذي أنقذه الله من الكفر ملأ قلبه بحب الله وآمن به ودعا الله أن يأخذ بحجزته فلا يقع في الكفر الذي أنقذه الله منه ، وراجع جملة يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار وكيف توازنت في البناء: يكره أن يعود في كما يكره أن يقذف في النار . ومثل هذا مما يسهل به حفظ الكلام وتكون له به سهولة وسلاسة وحلاوة في اللسان ، وراجع العلاقة بين الكفر والنار ، وأنه لا محالة يفضي إلى النار وأن العودة إليه هي ذاتها القذف في النار فليس المشبه به الذي هو كراهية القذف في النار بأدخل من المشبه الذي هو كراهية العودة إلى الكفر في وجه الشبه لأنهما سواء الكفر والقذف في النار ، ثم راجع الحديث كله من جهة تصاقب المبنى أن يكون الله ورسوله أحب .. أن يحب المرء .. أن يكره أن يعود .. أن يقذف في النار ، عناصر الحديث تكاد تكون كلها من باب واحد ، وتذكر أن الفصاحة جزء

من حسن البلاغ وأن النبوة بلاغ وأن فصاحته عليه السلام إلهام وأن هذا البناء المتصاقب لا يكون من غيره عليه السلام إلا نتيجة الصقل والتثقيف والاحتشاد وهو منه عليه السلام إلهام لأنه من لوازم النبوة .

ورواية قتادة عن أنس التي رواها مسلم تقدم فيها من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله. على من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وهذه الرواية قَدَّمَتْ الفرع الذي هو حب المرء لا يحبه إلا لله على الأصل الذي هو حب الله ورسوله ، ولا شك أن أنسًا رضوان الله عنه سمع ذلك من رسول الله ﷺ كما سمع الحديث بترتيبه السابق ، وكان عليه السلام يكرر ليحفظ عنه أصحابه وليبلغوه إلى الناس كافة الذين أرسل إليهم ولم يكن لأنس ولا لغير أنس أن يغير ترتيب ما سمع من رسول الله ﷺ وقد كان هو وغيره يدققون في رواية ما سمعوا من رسول الله ﷺ وإذا التبس عليهم لفظ أشاروا في روايتهم إلى هذا اللبس ، قلت هذا لأقول إن تقديم محبَّة المرء لا تحبه إلا لله على محبة الله ورسوله جاء من قبله صلوات الله وسلامه عليه ووجه هذا فيما أفهم هو أن حبَّك لمن يحب الله ورسوله هو نفسه حبك لأمة محمد ﷺ أبيضها وأسودها وكبيرها وصغيرها وعربها وعجمها ، وأنه عليك أن تحب هؤلاء جميعًا لأنهم لم يدخلوا في دين الله إلا بحبهم لله ولرسوله ، وعلى كل واحد في الأمة أن يحب كل هذه الأمة ، وأن التماسك والترابط الذي أساسه هذا الحب هو تماسك الأُمَّة وأنها كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعتْ له سائر الأعضاء بالسهر والحمّى ، وهذا المعنى عند الله بمكان ومن أجل مكانته عند الله قدم رسول الله ﷺ حبك للمرء لا تحبه إلا لله على حبك لله ولرسوله لأن رسول الله ﷺ لم يقدم ما قَدَّم في هذه الرواية إلا بوَحْي لأنه لا ينطق عن

الهوى، وأن التهاون في حبك لأهل الشهادتين قد يفضي بك إلى التهاون الذي ينقض عليك الأمر كله، وأن بقاء هذه الأمة متماسكة متراصة هو سر بقائها في الأمم، فإذا تنازعت فشلت وإذا فشلت ذهب ريحها ثم إنه من المألوف أن نقدم أحيانًا ما هو أقل مرتبة حتى لا يُغفل، قلت هذا ما أفهمه وليس مما أخذته عن الذين يؤخذ عنهم العلم وقريب منه قوله عليه السلام في الحديث الذي رواه أنس «والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يُحِبُّ لجاره أو قال لأخيه ما يحب لنفسه» وهذا الحديث يؤكد اللحمة الرابطة بين الخلايا المكوِّنة للجماعة فإذا كان حب المؤمن كل المؤمن وأي مؤمن من الإيمان فإن حب الجار وأي جار من الإيمان. وتحليل هذا الحديث يكشف أشياء عجيبة يسكنها الإيمان في قلوب الناس وقد أغفلناها فشقّت علينا الحياة، وأول ما يلاحظ في هذا الحديث أن خبره جاء جواب قسم لرسول الله ﷺ وليس قوله عليه السلام أن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما وأن يحب المرء إلى آخره، ليس هو جواب قسم وإنما لم يقسم رسول الله ﷺ لتأكيده مع أنه لا يَتِمُّ الإيمان إلا به فهو أكثر أهميَّة من حُبِّ الجار، وإيثار هذا الخبر بالقسم فيما أرى هو أنه قد يظن التهاون به وأن الجار ليست له هذه الأهمية وخصوصًا أن الجوار كثيرًا ما تعتوره خلافات لأنه ليس المراد جار الدار فحسب لأن الحديث أطلق كلمة الجار فهي صالحة لجار الدار وجار الزرع وجار المصنع وجار العمل وجار الضَّيعة وكل جار، ولا تخلو هذه الجيرات من منازعة فأقسم عليه السلام على هذا الخبر ليواجه ما عساه يكون بين الناس من خلافات بسبب هذا الجوار. ونحن نرى هذا الواقع ونرى مُبَرِّر القسم، ونرى الحاجة إليه، ثم إنه عليه السلام أقسم بقوله والذي نفسي بيده وكان عليه السلام إذا أراد تأكيد قسمه أقسم بهذا القسم، ووراء ذلك شدة حرص رسول الله ﷺ على أن يبلغ أمته

هذه الحقيقة ليدرأ بقسمه هذا ما عساه يكون من منازعة ، ثم إنه عليه السلام لم يُوَجّه قَسَمَهُ للإغراء يترك التنازع مع الجار وإنما وجَّه قسمه إلى (لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره أو قال لأخيه ما يحب لنفسه) وذكر الشيخ أبو عمرو بن الصلاح أن هذا يُعدُّ من الصعب الممتنع ، وإنما يستقيم كلام ابن الصلاح لو كان المراد بنفي الإيمان نفي أصل الإيمان وهذا ليس بمراد لأن أصل الإيمان مشروط بحب الله ورسوله وإنما المراد هنا نفي كمال الإيمان ، وإنما خرج الكلام مخرج التبشيع والتغليظ وأن من لا يحب لجاره ما يحبُّه لنفسه ليس مؤمنًا كما في قوله عليه السلام «من غشَّ فليس منا» وليس المراد أن الغش يخرجه من الدين وإنما هو التغليظ والتخويف وقل مثل ذلك «من حمل علينا السلاح فليس منا» وإنما أراد ابن الصلاح اللَّفْتَ إلى المعنى العالي النبيل الذي في الحديث لأن المطلوب أن أحب لأخي المؤمن أو لجاري ما أحب لنفسي ، والذي أحبه لنفسي غالبًا ما يكون فوق الواقع الذي أعيشه ، فإذا كنت فقيرًا أحببت أن أكون غنيًّا وإذا كنت غنيًّا أحببت أن أكون أكثر غنى وإذا كنت مريضًا أحببت أن أكون صحيحًا وهكذا دائمًا أحب لنفسي الحالة التي هي أفضل من الحالة التي أنا فيها وهذا يتَّسِعُ جدًّا ثم هو باق ما بقيت صُبَابَةُ النفس . وأنا مطالب بأن أحب كل ذلك لأخي المسلم أو لجاري مسلمًا كان أو غير مسلم ، واعتمد أنه عليه السلام قال لأخيه وراجع الحديث ستجد أن أخاه هو الذي شهد الشهادتين في أي أرض كان ومن أي عرق كان وأن ما أُحِبُّه لنفسي هو أحلامي وآمالي وأنني مطالب بنصٍّ هذا الحديث أن تكون أحلامي وآمالي لكل أخ لي في شرق الأرض وغربها ، وكأن الأحلام الفردية ليست هي الأصل الذي تعيشه أحلام المسلم ، وإنما الأحلام الجماعية أعني أحلام الجماعة لأني أحب لكل فرد من أفرادها ما أحبه لنفسي لأنى أعيش واحدا مندمجا في أمة ، أعيش حياة

التساند والتماسك وليست حياة الأثرة والأنانية ، فلو كنت فقيرًا أحببت لجماعتي الغنى ولو كنت ضعيفًا أحببت لها القوة ولو كنت مريضًا أحببت لها العافية ولو كنت جاهلاً أحببت لها العلم ، وهذا يعني أنني متعلق بجماعة المسلمين الذين هم جماعتي تعلقًا لا أقول يزيد عن تعلقي بنفسي وأنني أهمل نفسي ولكن أقول الذي في الحديث أنه تعلق هو تعلقي بنفسي وأني لبنة في بناء أمَّة ولا يجوز أن تكون لبنة قوية متينة بين لبناتٍ ضعيفة لأن ضعف غيرها من المرتبطين بها وممن يتعلق مصيرها بمصيرهم ، ضعف لها ، وهذا معنى يجب أن يُفْتحَ وأن يُعْلَن في الأجيال لأن النزعة الفردية والأثرة الصارخة نَهَكَتْ كيان الأُمَّة وهذا الحديث يبرئها من ذلك ويحميها من خطره وهذا هو وجه القسم الذي إذا أراد عليه السلام أن يؤكد معنى أقسم به،ووجه التغليظ الذي هو نفي الإيمان وليس نفي كمال الإيمان، ولو قلت لي إن مثل هذا من علامات النبوة لأن آثار هذه الرذائل التي يعالجها هذا الحديث آثار بالغة الأثر السيئ في حياة الأمة وما كان لرسول الله ﷺ أن يدرك ذلك إلا بإلهام من ربه لو قلت هذا ما استطعت أن أُخطئك .

وإذا رجعت إلى الحديث واعتبرت أنه عليه السلام قال (حتى يحب لجاره) وأن أنسًا بدأ بها ، فسوف تجد في الحديث شيئًا آخر هو أن الجوار غالبًا ما يبعث في نفوس الجيران حالة من التنافس وأن حالة التنافس هذه لو أُرْسِلَتْ من غير قيد لترتب عليها معاطب كثيرة ، ولذلك تجد هذا الحديث كأن المختار صلوات الله وسلامه عليه وقف بين المتجاورين وأقسم ونادى بأعلى صوته وقال «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لجاره ما يحب لنفسه»، وبذلك تنطفئ حالة التنافس التي تولّد حالة التحاسد . وتأمل إنصاف كلمات

سيدنا رسول الله ﷺ وتعادل كفات الموازين عنده ، فأنت تحب المرء لا تحبه إلا لله ، وهو يحبك لا يحبك إلا لله ، وأنت تحب له ما تحب لنفسك ، وهو يحب لك ما يحبه لنفسه ، وأنت أيها الجار لا تؤمِنْ إلا إذا أحبْبت لجارك هذا ما تحبُّه لنفسك ولولدك وهو لا يؤمن حتى يحب لك ولأولادك ما يحبه لنفسه ولولده ، وهذا عجيب جدًّا لأن رسول الله ﷺ لم يوصك بجماعة المسلمين فحسب وإنما أوصى بك الجماعة ، ولم يوصك بجارك فحسب وإنما أوصى جارك بك .

وتدرك المعنى الإنساني الرفيع في كلام سيدنا رسول الله ﷺ إذا راجعت قوله « حتى يحب لجاره » لمطلق أنه جار مسلمًا كان أو نصرانيًّا أو يهوديًّا أو بوذيًّا أو وثنيًّا ، ليكن ما شاء أن يكون فيما يعتقد ولكن الجوار له حق ، وله في الإسلام شأن يصل إلى أن تحب له ما تحب لنفسك مهما كانت ديانته ، ثم يزداد حقه بزيادة الدرجات التي بَعْدَ هذا فقد يكون جارًا مسلمًا وقد يكون ذا رحم إلى آخره ، وراجع مكانة الجار في الجاهلية وكيف يكون دَمُه دَمَك وعِرْضُه عِرْضك ومالُه مالك ، وأنا لا أعني فقط الجار الذي صار جارا لفلان يعني صار في ذمته وحليفا له وإنما أعني جار الدار ، وقد زاد زهير بن أبي سلمى واعتبر الرجل المرتحل الذي يمر في رحلته بديار قوم جارًا لهم يحفظون دمه وماله وعرضه حتى يخرج من محلتهم وقال بيته النفيس :

وجار القوم والرجل المنادى   أمام الحي عهدهم سواء

وأراد بالمنادي أمام الحي عابر السبيل الذي نادى بطلب طعامًا أو ماء أو ما شاء وهذا من خيار الجاهلية الذي صار خيارًا في الإسلام .

• حقيقة الثراء

هذه الأحاديث التي سنتناولها في هذا القسم جاءت مجتمعة في صحيح مسلم ومعها غيرها من جنس معناها ، ولها مغزى جليل هو الذي أغراني بها ، هذا المغزى هو أنها جُنَّةٌ تَحْمِي النفس الإنسانية من داء الأثرة والأنانية وحب التملك ، وليست هذه الأثرة وهذه الأنانية قادحة في الدين فحسب وإنما أيضًا قادحة في إنسانية الإنسان ، هذه الإنسانية التي يجب أن تتوازن قواها ورغائبها ، وشهواتها توازنًا يحمي نوازع الخير في النفس الإنسانية ، فلا تتسلط عليها نوازع الأثرة التي هي شَرٌّ كلُّها ، والتي يتحول الإنسان معها إلى شيطان ، والخطيئة الأولى في تاريخ الوجود هي خطيئة إبليس الذي تشيطن في لحظة الأنانية التي رأى فيها نفسه خيرًا من آدم لأن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين ، ولم يفطن إلى أن النار تحرق وتدمر وتتآكل وأن هذا هو الأشبه بسلوكه الذي آل أمره إليه ، وأن الطين ينبت الزرع والزيتون والأعناب ويعمر الأرض بهذا الخير جيلاً من الزرع بعد جيل وأن هذا هو الأشبه بما خُلِق آدم له لأن زرعه يَعْمرُ الأرض جيلاً بعد جيل ، وأن الزرع يَنْبُتُ من الطين ثم ينمو ثم يهيج ثم يكون حطامًا وأن هذه الدورة هي ذاتها زرع آدم ، ينبت في الرحم كما ينبت الزرع الجنين في رحم الأرض ثم يكون طفلاً ثم يبلغ أشدَّه ثم يكون شيخًا ثم يعود ترابًا ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ .

قلت إن هذه الأحاديث كأنها دِرْعٌ وحِصْنٌ يَحمي النفس الإنسانية من كل ما يدمر إنسانيتها ، وأنا شديد العناية بما يَغْرِسُه كلام الله وكلام رسوله صلوات الله وسلامه عليه من معاني الخير في النفس الإنسانية لأن الخير الذي فيها منعكس لا محالة على كل ما حولها في هذا الوجود من كل ذات كبد رطبة ، وأن الرحمة السارية في هذا الوجود مرجعها إلى خير هذه النفس .

والشر الساري في هذا الوجود مرجعه إلى شرّ هذه النفس ؛ وإذا كان الحق جَلَّ وتقدّس سخَّر كل ما في السموات والأرض لهذا الإنسان فليس هذا الإنسان إلا هذه المضغة التي بين جنبيه إن صَلَحَت صلح مع صلاحها كل ما سخّره الله له وإذا فسدت فسد بفسادها كل شيء ، ومن أجل هذا قال صلوات الله وسلامه عليه « إنما بُعثتُ لأتَمِّمَ مكارم الأخلاق» وهذه الكلمة المختصرة جدًّا جامعة للدين كله وللنبوات كلها ، ومكارم الأخلاق معناها زرع الخير في النفس الإنسانية ، ومكارم الأخلاق في النفس الإنسانية يعني أن شأنها الصلاح والإصلاح وقد جعل الله سبحانه وتعالى الإصلاح مما يَغْسِلُ الله به الذنوب ويمحو به الخطايا لأنه سبحانه قرنه بالتوبة وقال ﴿ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ﴾ ، والصلاح ما تُصلح به نفسك والإصلاح ما تُصلح به الفساد من حولك وقال عليه السلام (لأتمِّم) ولم يقل بُعِثْتُ لأبْني لأسس مكارم الأخلاق لأن كلمة أتمم تعني أن كل نبوات الأنبياء قبله عليه السلام كانت بناء لمكارم الأخلاق ، وأن هذا الأصل الذي يُعَدُّ أساس نبوة كل نبي الواجب أن يجمع أهل الأديان السماوية وأنه من الكلمة السواء التي بينهم وأنه مساحة صالحة للتعايش السلمي بين أهل النبوات وعلى أساسه كان طعامهم حلا لنا وكانت المحصنات العفيفات من نساء أهل الكتاب حلا لنا وهن المحصنات من الذين أوتوا الكتاب كما قال ربنا ، وحديث « إنما بعثت لأُتممّ مكارم الأخلاق» أخ لأب وأم لقوله عليه السلام « مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى دارًا» إلى أن قال « وأنا اللبنة » فهذه اللبنة التي هي تمام ما بناه الله لخلقه بكتبه ورسله هي تمام مكارم الأخلاق ، وكل نبي وضع لبنة في هذه الدار والدار لا تكون لَبِنَاتُها غيرَ متشابهة لأنها لو كانت كذلك ما أعجبت أحدًا ، وكل هذا يؤكد أن ما يمارس من صراع أديان هو صراع سياسي

كُسِيَ بِثوبٍ زور وسُمِّي صراع أديان ، وكل نبي جاء مُصَدِّقًا للذي قبله وجاء محمد عليه السلام مصدقًا لكل أنبياء الله ورسله وكتبه لا نفرق بين أحد من رسله ، ولا نرى في ذلك شيئًا يوجب الصراع وكل نبي قال «لا إكراه في الدين» وفي القرآن سورة اسمها سورة الشوى قال المفسرون ليس فيها شيءٌ إلا وهو في كل النبوات قبل نبوته ﷺ وأولها ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ وفيها ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ وفيها ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ لأن الله علم أن نزعة التسلط في نفوس من يغلب على الحكم تدعوه إلى التفرد والاستبداد بالرأي فأنزل الشورى مع كل نبي والخلاصة أن كلمة (أتمّم) ترجع بنا إلى كل النبيين قبله عليه السلام وهو قوله مثلي ومثل النبيين قبلي .

وهذه جملة الأحاديث التي أود الوقوف عندها في هذا الباب وهي أحاديث تدور حول أصل واحد وإن كان لكل حديث مذاقه وطعمه .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : «ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس» .

وروى مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال «أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا قالوا وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال بركاتُ الأرض . قالوا يا رسول الله وهل يأتي الخير بالشر؟ قال لا يأتي الخير إلا بالخير ، لا يأتي الخير إلا بالخير . لا يأتي الخير إلا بالخير . إن كل ما أنْبَتَ الربيع يَقْتُل أو يُلِمّ إلا آكِلَةَ الخضرة ، فإنها تأكل حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس ثم اجترت وبالت وتلطت . ثم عادت فأكلت . إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بحقه

ووضعه في حقه فنعم المعونة هو . ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع».

وعن أبي سعيد الخدري أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ثم سألوه فأعطاهم حتى إذا نَفِدَ ما عنده قال : «ما يكن عندي من خير فلن أدّخره عنكم ، ومن يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّه الله ومن يَسْتَغْنِ يُغْنه الله ، ومن يَصْبر يُصبّرْه الله ، وما أعطى أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : «قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقَنّعَهُ الله بما أتاه» .

الحديث الأول من هذه الأحاديث هو جذرها وهو أخصرها لفظًا وأوسعها معنى وهو مكون من جملتين قصيرتين ، الأولى تنفي معنى عن لفظ شُهِرَ هذا اللفظ بهذا المعنى شهرة تعارف عليها الناس والجملة الثانية تثبت لهذا اللفظ معنى لم يتعارف عليه الناس وهو أشبه وأقرب إلى الدقة وحسن الفهم ، كما تقول ليست البطولة أن تحمي نفسك ولكن البطولة أن تحمي غيرك ، ومنه قوله تعالى ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ ﴾ ومثله أيضًا أن تقول «ليست التقوى أن تخاف الله ولكن التقوى أن تكون أشدّ حُبًّا لله» .

وجزالة هذا الأسلوب وقوته وبلاغته ليست في فنّ بلاغي تجده في مبناه وإنما ترجع قوة وبلاغة ورصانة هذا الأسلوب إلى أنه صدم النفس ونقض عليها ما تعارفت عليه ونقض الكلمة المشهورة والمتعارفة على معنى نقضها من هذا المعنى وألبسها معنى آخر هو أكثر قربًا من النفس وأكثر إئتلافًا مع الطبع ، وأدل على فهم أعمق وأدل أيضًا على بصيرة ترفض الوقوف عند الظاهر ولو كان مشهورًا وإنما تبحث عن معانٍ أخرى أبعد وأعمق وأكرم .

والجملة الأولى من الحديث الشريف تنفي أن يكون الغنى معناه كثرة العرض وهذا المعنى الذي تنفيه الجملة هو المعنى المتعارف عليه وهو المعنى المشهور وكان الناس ولا يزالون منهم غني وفقير بهذا المعنى . والعرض المذكور في الحديث هو ما زينه الله للناس من حب الشهوات من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث وكل ما يدخل في هذا الباب وهو الذي إذا كان لابن آدم منه واديان ابتغى ثالثًا ، وهو الذي يشب في ابن آدم يعني يظل شبابًا مع أن ابن آدم يشيب ، وهو الذي يدور عليه صراع كثير بين الأفراد في المجتمع الواحد وبين المجتمعات التي يأكل قويها ضعيفها من أجل الثروة ، وكم من دماء أريقت بسبب العرض المذكور في الحديث ، سيدنا رسول الله يطفىء هذا المعنى ويطفىء سعاره ويطفىء ما يفضي إليه من طغيان ويضع في الجملة الثانية بدلاً منه معنى نبيلاً ورائعًا ويقول دعك من هذا الولع الذي استعبد الإنسان أعني صيَّره عبدًا له وابحث عن المعنى الأسمى والأنبل للغنى وهو الكنز الذي بين جنبيك لأن الغنى هنا في داخل النفس فإذا غنيت النفس فذلك هو الغنى وإذا لم تَغْنَ النفس ووردت موارد العرض فستظل تشرب شرب الهيم تموت ولا تروى .

ومن الخطأ الصريح أن تفهم أن هذا الحديث يقدح في كثرة العرض أو يزهد فيه لأنه ليس فيه لفظة ولا إشارة تومئ إلى شيء من ذلك وإنما العَجَلة في الفهم هي التي تُفْضي إلى ذلك ، وإنما يقول إن الشبّع الحقيقي والغنى الحقيقي هو غنى النفس لأن هذا الغنى إذا وجد تجد النفس قد غنيت عند فقد العرض ، وقد غنيت أيضًا عند كثرة العرض لأن غناءها لم يأتها من خارجها وإنما يأتيها من داخلها أعني من الرضا بما جرت به مقادير الله لها

وأنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وليس بسط الله الرزق لعبد من عباده تُهمة لهذا العبد وليس ذمًا له وليس الفقر علامة الرضا من الله على عبده وإنما الرضا والغضب لهما مصدر آخر وهو هذه النفس ، فإذا كانت إذا أعطيت شكرت وإذا منعت صبرت ورضيت فذلك هو سبيل رضا ربنا عنها ، وهذا المعنى الكريم ينهي الصراعات حَوْل كثرة العرض لأن النفوس ليست وَلُوعة لما تجده في داخلها من رضا وبعبارة أخرى غنى النفس هو الضابط الصارم الذي يضبط حركة النفس في كسب كثرة العرض فلا تطلبه إلا بحقه وإذا حصَّلَتْهُ وضعته في حَقّه وأدت حق الله فيه ودخلت في قوله عليه السلام « نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح » ، وهذا من الاستقرار والأمان في حياة الناس .

وهذا الحديث يوشك أن يكون تَوْأما لقوله صلوات الله وسلامه عليه « ليس الشديد بالصُّرَعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » المعنى مختلف لأن كل حديث يعالج معنى غير المعنى الذي يعالجه الحديث الآخر ، أما بناء الكلام فهو بناء واحد ، الجملة الأولى من هذا الحديث الثاني تنفي أن تكون الشدة هي أن تكون قادرًا على أن تَصْرَعَ غيرك مع أن هذا هو المتعارف بين الناس والجملة الثانية تنقل الشدة إلى معنى آخر وميدان آخر هو ميدان النفس وتقول الشدة مسكنها النفس ومظهرها أن تكون قادرًا على أن تملك نفسك عند الغضب أعني أن تصرع غضبك ، وكما أن الغنى هناك هو في هذا الكنز الذي لا يَفْنَي وهو في داخل نفسك كذلك الشدة هنا يجب أن تكون هي القوة التي تملك بها غضبك ، ويلاحظ أن الغضب في النفس يلتقي مع شهوة النفس لكثرة العرض ، وكما أن الغضب إذا خرج عن سيطرة النفس صرع بالحق وبغير الحق ، وكذلك شهوة المال إذا استعرت

داخل النفس أفضت إلى كسب العرض من حقه ومن غير حقه وسيدنا رسول الله ﷺ كما يضع غنى النفس ضابطًا لطلب المال بالحق كذلك يضع القدرة على امتلاك الغضب ضابطًا وحاكمًا لهذه الشهوة حتى لا يُدَمِّر أقوياؤنا ضعفاءنا ، ومن أجل أن تعرف حقيقة هدى الله الذي أخرج به عباده من الظلمات إلى النور يجب أن تضع عينيك على مجتمع يسود فيه هذا الهدي النبوى ثم تضعها على مجتمع يسود فيه نقيض هذا الهدي .

وحديث أبي سعيد الخدري : «أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا . قالوا وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال بركات الأرض ...».

ابتدأ رسول الله ﷺ هذا الحديث ابتداء يثير ويخوِّف ويحذِّر . وإذا كان عليه السلام خاطب أصحابه بقوله «أخوف ما أخاف عليكم» فإن المقصود بهذا الخطاب كل من آمن به صلوات الله وسلامه عليه في كل زمان ومكان إلى يوم القيامة ، وكل مسلم عليه أن يسمع صوت رسول الله ﷺ وهو يقول له «أخوف ما أخاف عليك...» وهذه الجملة توقظ العقل والقلب إلى أقصى درجة من اليقظة لأنها تحذير شديد العبارة من الذي هو بنا صلوات الله عليه رؤوف رحيم، وقد مرَّ بنا الكثير من الجمل المهيئة نفوس من يتلقون عنه ﷺ وهم الأمة أبيضها وأسودها إلى يوم القيامة ، وكلمة أخوف ما أخاف عليكم من هذا وهي أشد في الإيقاظ من كل ما تقدم ، وراجع كيف دل هذا التركيب على نهاية خوفه علينا عليه السلام وأنه لا يخاف علينا من شيء كخوفه علينا من الذي يخرجه لنا ربنا من زهرة الدنيا ، فهو لا يخاف علينا من المرض ولا من الجهل ولا من القهر ولا من عدونا ولا من بطش حكامنا ولا أنه يتسلط علينا الجهلة منا ، ولا أنه يكثر فينا المنافقون والكذابون ولا أن

يتسلَّط شرُّ البرية على خير البريّة ، أقـول لا يخاف علينا مـن شـيء كخوفـه علينا من هذه الزهرة ، ووزان هذا أن تقول أقسى ما قاسيت هو كـذا وأضـرّ ما ضرني هو كذا وأفزع ما أفزعني إلى آخره وأفعل التفضيل حين يضـاف إلى اسم موصول صلته هي الفعل الذي اشتق منه دل ذلك علـى نهايـة صـور هذا الفعل ، فإذا قلت أقْسَى ما قاسيت كأنك تقول لم أقاسِ شيئًا كما قاسيت هـذا وإذا اعتـبرت « مـا » الـتي في قولـه عليـه السـلام « مـا أخـاف علـيكم » مصدريه كان المعنى أخوف خوفي عليكم وكذلك يُقَالُ في أقسى ما قاسيت أقسى قسوة قاسيتها وأضر ضرر أصابني إلى آخره ، والذي صاغ هذه الكلمة هو أعلم الناس بهذا اللسان العربي المبين ، والمهم أن ترجع إلى هذا المعنى وهو يعتلج في صدره عليه السلام قبل أن يجري بـه لسـانه الشـريف وتـدرك إلى أي مدى كان هذا الشاغل يشغله عليه السلام .

وقوله عليه السلام « ما يخرج الله لكم مـن زهـرة الدنـيا » كلـمـة فيـهـا ما يدهش وما يروع لأن أخوف الخوف من شيء يخرجه الله لنا يعني يأتينا من جهة ربنا ، والأصل في أخوف الخوف أن يأتي من جهة عدو لنا يفعله نكاية بنا ، ولو أنه عليه السلام قال « أخوف ما أخاف عليكم ما يخرجه الله لكم » ثم سكت عليه السلام ولم يقل من زهرة الدنيا لأفاد الكلام أن الذي يخرجه الله لنا ويخافه علينا نبينا صلوات الله وسلامه عليه هو من نوع المِحَن والابتلاءات ، ولكن بقية العبارة جاءت بصَدْمة ثانية وهي أن أخوف الخوف هذا مما يخرجه الله لنا من زهرة الدنيا ، وكنت أول مطالعتي لهذا الحديث أسأل نفسي لماذا قال الصحابة رضوان الله عليهم وما زهرة الدنـيا يا رسول الله ؟ مع أن معناها ليس خافيًا وكل من يعرف العربية يفهم كلمة زهرة الدنيا وأنها الثراء والبسطة في الرزق والعيش الناعم ، فكيف بأصحاب

رسول الله ﷺ وهم أعلى أجيال الأرض علمًا بهذا اللسان وفقها لخفاياه ؟ ثم فطنت إلى أن زهرة الدنيا في سياق الحديث جاءت صادمة بالنسبة لما قبلها للذي قلته وهو أن أخوف الخوف مما يخرجه الله لنا لا تتوقع النفس إلا أن يكون محنة أو ابتلاء ، فلما جاءت زهرة الدنيا في مقام الأصل أن تجيء فيه المحنة والابتلاء سأل أصحاب رسول الله ﷺ عن هذه الزهرة التي يخرجها الله لنا والتي لا يخاف نبينا علينا من شيء كخوفه علينا منها ، ولهذا لما أجابهم رسول الله ﷺ وبين لهم أن زهرة الدنيا هي بركات الأرض سألوا السؤال الأعجب وقالوا «وهل يأتي الخير بالشر؟» والخير الذي في سؤال أصحاب رسول الله ﷺ مقتبس من كلمة (بركات الأرض) لأن البركة النماء والزيادة وكلمة سيدنا رسول الله (بركات الأرض) مقتبسة من قوله تعالى ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا ﴾ ، وفكرة أن الخير قد يأتي بالشر فكرة خطرة ، لأنها تُسْكنُ في النفس هاجسًا يتوجَّسُ من الخير وأنه قد يأتي بالشرّ ، وجاء هذا الهاجس في نفوس الصحابة لما سمعوا من رسول الله أن زهرة الدنيا أخوف ما يخافه عليهم ، ولذلك سارع رسول الله ﷺ بنفي هذا الهاجس وقال لا يأتي الخير إلا بالخير وكرَّر ذلك ثلاث مرات وعدل عن جوابهم المباشر لأنهم قالوا وهل يأتي الخير بالشر والأصل أن يقال في جوابهم لا يأتي الخير بالشر وهذا ينفي أن الخير لا يُنْتِجُ شرًا وسيدنا رسول الله ﷺ قال شيئًا آخر وهو أن الخير لا ينتج إلا خيرًا ولا يأتي إلا بالخير ، وظني أن هذا السؤال من الأصحاب الكرام وهذا الجواب من سيد الكرام هو الذي دعا إلى ذكر بقية الحديث لأن بقية الحديث يؤكد حقيقة مُهِمَّة في السياق وهي أن الخير لا يأتي بالشر إلا عند من يسيئ الانتفاع بالخير وأن الخير الذي هو بَركاتُ الأرض جاء الربيع مِثالاً له وهذا

هو وجه ذكر الربيع الذي ينبت الخير ويخرج خيرات الأرض من بطونها إلى ظهورها وهذا هو الذي هيأ لذكر آكلة الخضرة التي كان منها ما كان .

وأعود إلى كلمة (زهرة الدنيا) لأقول إن أصحاب اللغة يفهمون منها ومن مجازها أن الدنيا صارت في صورة روضة وأُلْزِمُ لوازم الروضة الزهرة وهي أول وأقوى ما يجذب البصر نحوها فإذا تقلبت العين في هذه الروضة رأت فيها أطيب ما يؤكل وأحلى ما يذاق وأطيب ما يشم وكل ذلك إذا لم تواجهه بصيرة يقظة مصاحبة للبصر الذي قاد معه إلى هذه الروضة كل جماعة الحواس أقول إذا لم تواجهه بصيرة يقظة اختُطف الإنسان وأغفل كثيرًا من فضائله ، قلت إن إضافة الزهرة إلى الدنيا حوّلت الدنيا إلى روضة وهو أقرب وأظهر من أن تقول إن زهرة الدنيا من باب التشبيه الذي يضاف فيه المشبه إلى المشبه به كقولهم لجين الماء وذهب الأصيل وهم يريدون الماء الذي كاللجين والمعنى الدنيا التي هي كالزهرة ، لأن التخريج الأول يجعل الدنيا روضة فيها الحَبُّ والنخيل والأعناب والزيتون والتفاح والرمان وكل ما يكون في الروض الذي يخلب ويروع ، ويُرَشِّحُ هذا التصوير ذكر الربيع بعد ذلك ، وكان يمكن أن يقول عليه السلام أخوف ما أخاف عليكم زهرة الدنيا فلماذا ذكر كلمة « ما يخرج الله لكم » ومعلوم أن زهرة الدنيا وغير زهرة الدنيا وكل ما في الأرض هو مما يخرجه الله لنا ؟ والذي أراه في بيان ذلك هو أن كلمة « ما يخرج الله لكم » لها دلالات أولها هو أن زهرة الدنيا لا يجوز لنا أن نزهد فيها لأنها مما أخرجه الله لنا ، والله سبحانه وتعالى يقول لنا ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ وكلمة « زينة » من بنات عم كلمة زهرة وكلمة أخرج في الحديث كأنها مستخرجة من كلمة أخرج في الآية ، وكلمة (لكم) في الحديث كأنها من

كلمة (لعباده) في الآية ، وكل هذا ظاهر وجيد ، وشيء آخر وهو أن تذكير سيدنا المختار لنا بأن هذه الزهرة أخرجها الله لنا بقيد أنها نعمة من نعم الله تقابل بالشكر والثناء ، وأوفى الشكر لكل نعمة أن نستعملها في الحدود التي شرعها لها المنعم بها سبحانه وتعالى ، وظني أن الأمر أصبح بيّنًا للصحابة وأن المقصود هو شكر الله على نعمه ثم تصريف النعم على الوجه الشرعيّ وكان أصحاب رسول الله ﷺ أحيانًا يسألون لمن بعدهم مُدْركين حقيقة المسؤولية الدينية والأخلاقية وأنهم سمعوا الوحي من فم المبلغ صلوات الله وسلامه عليه وأنهم يسألون ليستوضحوا لمن بعدهم ، لأنهم حملة هذا الدين لمن بعدهم ولأنهم كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا ، ومن هذا الباب سؤالهم عن زهرة الدنيا ، لأنهم يريدون الشرح والبيان لأنهم لا يجهلون هذا المجاز الذي في مثل قولهم أظفار المنية وعيون الروض وعض زمان ورمقته عين الملك ومثل هذا في كلامهم وكلامه عليه السلام كثير وهو الذي قال أنف الغيرة وهي أخت زهرة الدنيا ، وهذا يعني أن زهرة الدنيا التي سألوا عنها ليست هذه التي يفهمونها من لفظه ﷺ وإنما أرادوا زهرة الدنيا التي أخرجها الله لهم والتي يخاف رسول الله ﷺ عليهم منها ، ولاحظ أن كلمة الخوف تعني الخوف من مستقبل يتوقع فيه شيء مكروه بخلاف الحزن فإنه أسف على ما فات ، والمثل المضروب بيان شافٍ لزهرة الدنيا التي أخرجها الله من الأرض وهلك بها من هلك وقارب الهلاك من قارب ونجا بها ومنها من نجا ، وأستطيع أن أقول إن قولهم رضوان الله عليهم وما زهرة الدنيا يا رسول الله المقصود به وما زهرة الدنيا التي تخاف علينا منها يا رسول الله ، ولكنهم لم يكونوا يقولون كما نقول وإنما كانوا يوجزون وخصوصًا في خطابه صلوات الله وسلامه عليه لأنه أشدُّ فِطْنةً ممن يُبيِّنُ لهم ، وأتجاوز ما جاء عقب هذا

السؤال لأنه سبق بيانه إلى قوله عليه السلام « إن كل ما أنبت الربيع يقتل أو يُلِم »ذكر ما أنبت الربيع ومَهَّد له قوله عليه السلام في تفسير زهرة الدنيا (بركات الأرض) لأن بركات الأرض تبلغ ذروتها في الربيع ، الذي تخرج الأرض فيه « من بطونها لظهورها نوراً تكاد له القلوب تنوّر » كما قال أبو تمام ، وتسفر فيه الأرض عن محاسنها وتأخذ زخرفها وتتزيّن وهذا خير ما يصور زهرة الدنيا وبركات الأرض ، وتأمل كلمة (ما أنبت الربيع) وما فيها من مجاز أريد به الدلالة على قوة سببية الربيع أو ظرفيته وعلاقته بهذا الإنبات وأنه زمانه الذي أنبته ، ثم راجع وصف ما أنبت الربيع فيما نقرأ من كتب الشعر ، من مثل قول البحتري :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكًا   من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وراجع أتاك الربيع ، وراجع يختال ، وراجع كاد أن يتكلم واستحضر زهرة الدنيا التي يخاف سيدنا علينا منها ، وراجع قوة الفتنة في هذا الربيع المختال وقوة الفتنة في الدنيا التي تبرَّجت في ثياب حسنها وزينتها ، حتى إن صحوها يكاد من الغضارة يقطر كما قال أبو تمام وأريد أن أُلفِت إلى شيء من قوله عليه السلام « كل ما ينبت الربيع » وقوله عليه السلام « يقتل أو يلم » يكاد يكون جذر المعنى في هذا الحديث لأن فعل كل ما يُنْبِت الربيع من القتل أو المقاربة من القتل هو أخوف ما خافه عليه السلام علينا ، وقد اتضح أن زهرة الدنيا هي بركات الأرض وبركات الأرض لا يصورها شيء كما يصورها الربيع . والربيع ملخص في كل ما ينبت ، وهذا هو القطب الذي دار عليه الحديث والعمود الذي عليه الاستقرار ، والكلمة التي عليها المدار . والمعنى الذي وراء هذا هو أنه لا مَنْجاة لأحد من زهرة الدنيا وأن هذه الزهرة إما أن تَصْرَعَ أو تُلم أعني تقارب الصرع وتصل بالشخص

إلى حالة ليست هي الموت وإنما هي أشبه بالموت وأشبه بالذي قارب الموت وكأنه في النَّزْع ، وعجيب بيانه ﷺ الذي أوْدَعَ في نفوسنا هذا المعنى « كل ما ينبت الربيع يقتل أو يلم » وكأنه عليه السلام سكت بعد هذا سكتة تقَرّ فيها هذه الجملة قرارها في نفوسنا ثم استثنى آكلة الخَضِرَة ، ولا تقف عند زهرة الدنيا التي هي بركات الأرض والتي هي كل ما ينبت الربيع لأن كل هذا ليس مقصودًا لذاته وإنما هي كلمات تعني الذي وراءها وأن من زهرة الدنيا مثلاً أن يختارك النظام الفاسد وزيرًا مثلاً أو مديرًا أو ما شئت ثم يتلعَّب بك أمْنُه ورجالُه فتصير شاهد زور يشهد بنزاهة اللصوص وعدل القتلة وكرم الذين استباحوا أموال الناس ، وهذا مما ينبت الربيع الآن وهو يقتل قتلاً كاملاً أو يُدَمِّر الإنسان ويُبْقِيه حيًا ، وكم عرفتُ وكم شهدتُ وكم سمعتُ وكم من رجال كانوا كرامًا ثم دخلوا في هذا الربيع الذي ليس كالربيع الذي أتاك يختال ضاحكًا ، وإنما هو ربيع المقصلة والمجزرة ، وإلى أي حد صار هؤلاء الذين كانوا مستورين بيننا شهاد زور وكذبة .

قلت إن الذين قتلتهم زهرة الدنيا أو أَبْقتهم أحياء كأموات يقابلون في هذا المثل البهيمة التي تأكل ما استوبل من نبات الربيع فتنتفخ ثم تموت حبطا ، وهكذا عقد المثل مشابهة بين من تستهلكهم زهرة الدنيا والبهيمة التي أهلكها الوبيل من نبات الربيع ، وبقيت آكلة الخضرة التي استثناها رسول الله ﷺ ، ولاحظ أن الخَضِرَة أقرب إلى الزهرة ، وقد جاء في هذا الحديث إن المال خضرة حلوة وفي غيره « الدنيا خضرة حلوة » و« المرأة خضرة حلوة » وهذا يعني أن هذه الآكلة التي جعلها الحديث الشريف نموذجًا لنا نحتذيه في مواجهة زهرة الدنيا التي لا يخاف علينا من شيء

كخوفه علينا منها هذه الآكلة أكلت أفضل ما أنبت الربيع ولم يَحْظ أحد من الربيع بأفضل مما حظيت به هي ، والمثل يعني أنه لك أن تنتفع بأفضل ما في زهرة الدنيا ولا تتحرَّج في ذلك لأنه ليس المراد أن تَزْهَدَ فيها لتتركها لغيرك أو لعدوك ، لا ليس هذا مرادًا وإنما عليك أن تراجع سُلُوك آكلة الخضرة وأن تتخذه مثلاً يُحْتَذَى ولهذا الذي قلته ترى بيانه عليه السلام بعد ما استثنى آكلة الخضرة استأنف كلامًا يُحدْثنا فيه عن آكلة الخَضِرة وجاء بالفاء التي هي للتفسير والبيان وترتيب ما بعدها على ما قبلها ليكشف ما عساه يكون قد تغشّاه من الغموض ، فقال عليه السلام « فإنها تأكل حتَّى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس ثم اجترت وبالت وتَلَطَّتْ . ثم عادت فأكلت » هذه هي خلاصة عمل الناجية من كل ما أنبت الربيع الذي من شأنه أن يقتل أو يِلمّ ، وكأنها بحسنْ تدبيرها نجت من هلاك محقّق لم ينج منه إلا هي ومن على شاكلتها وهكذا زهرة الدنيا لا ينجو منها إلا أقل من القليل الذين يأخذونها بحقها لأن هذه الآكلة ليس في قصتها شيء إلا شيء واحد ، وهو أنها أخذَتْ الخضرة بحقّها فأكَلَتْ وأكلت حتى امتدت خاصرتاها يَعْني بلغت أقصى الشِّبَع ولم تَعُدْ لها حاجة من هذه الخضرة ، وقلتُ أكلت وأكلت لأن هذا مما أفهمه من قوله عليه السلام (حتى امتدت) لأن حتى تدل على مطوى وراءها بقي زمنا والحدث المذكور معها قائم في هذا المطوى ولم يقل عليه السلام امتلأت خاصرتاها ، وإنما قال (امتدت) وفي هذه الكلمة بلوغ الغاية التي لو زاد الأكل بعدها لدخلت آكلة الخضرة في كل ما دخلت فيه آكلة الربيع التي كانت نهايتها القتل أو مقاربته، وتلاحظ أن بيان سيدنا رسول الله ﷺ بيّن أن آكلة الخضرة الناجية سلكت ثلاث مراحل : الأولى أكلت حتى امتدت خاصرتاها ، والثانية استقبلت عَيْن

الشمس فاجترَّت وبَالَت وتلطَتْ ، والثالثة عـادت فأكلـت . وتلاحـظ ترتيـب هذه المراحل واقتراب ثانيها من أولها إلى آخره ، وأول ما تلاحظه في ذلـك أن المرحلة الثانية التي ابتدأت باستقبال الشمس جاءت مترتبة على المرحلـة الأولى بلا مُهْلة ثم جاء الترتيب مؤكّدًا لأن قوله عليه السلام استقبلت الشمس وما بعده جاء جواب الشرط ومجـيء الجـواب عَقِـب الشـرط دال علـى قـوة الترتيب وقوة التعاقب وأن هذا التعاقب وهذا الترتب واقـع لا محالـة ، وهـذا يعني أنها ما إن انتهت من الأكل حتى استقبلت الشـمس ثـم اجـترت وبالـت وتلطَتْ ثم عادت . ولاحظ أن المثل سُمِّي مثلاً لأنه ليس هـو المعنـى وإنمـا هو مثال لهذا المعنى ، وبذلك يصير المعنى الذي وراء المثل مفتوحًـا لكـل ما تقبله اللغة وعلى هذا وهـو حـق لا يسـتطيع أحـد أن يجـادل فيـه تكـون مرحلة الأكل حتى امتدت الخاصرتان هي مرحلة إشباع الشـهوة مـن زهـرة الدنيا وأنك تُشْبع نفسك بما أُوتيت ولا تَنْسى أن الله أخرجه لك مـن الأرض فله الفضل والمَنُّ ، ثم تأتي مرحلـة اسـتقبال الشـمس والاجـترار إلى آخـره وهذا في البهيمة أما الإنسان المسوق له المثل فإن هذه المرحلة تقـول لـه إن إشباع الشهوة من الزهرة يجب أن يقف عند حَدٍّ ويجب أن يُقَدَّر بقدره ، فإذا كانت زهرة الدنيا لـك ثـروة فيجـب أن تسدّ بهـا حاجاتـك وأن تقـوى بهـا فتحصِّل مسكنًا أو مركبًا أو ما شئت ثم تنتهي مرحلة الشهوة هذه وإن كانت جاها فيجب أيضًا أن يبقى زمانًا مستمتعا ومنتشيا ومغتبطًا بهـذا الجـاه ، ثـم تذهب مرحلة لتعقبها مرحلة أخرى ، وهكذا ، وهذه المرحلـة الأخـرى لـن أسـتطيع أن أحـددها بخبرتـي لأن رسـول الله ﷺ حـدّدها بقولـه : اسـتقبلت الشمس ثم اجترت وبالت وتلطت . وأفهم من هذه المرحلة بعناصرها الثلاثة (استقبال الشمس ثم الاجترار ثم التبول ثم إخراج فضلات ما أكلت) لا أفهم

من هذا إلا شيئًا واحدًا وهو أنه بعد إشباع الشهوة تنتقل إلى مرحلة الانتفاع بهذه الزهرة إن أردت الإنسان أو بهذه الخضرة إن أردت متن المثل ، وهذه إشارة ترسلها إلينا آكلة الخضرة الرائعة التي صاغها وصنعها بيان سيدنا صلوات الله وسلامه عليه تقول لنا في هذه الإشارة يجب أن تحوِّلوا زهرة الدنيا إلى طاقة وقوة في بنيانكم فإذا كانت ثروة فأقيموا بها المصانع والمدارس وما ينفع وأهم ما ينفع هو ما يكون قوة في الكيان الكلي لكم وها أنذا فعلت ـ هكذا تقول آكلة الخضرة) بعد ما أشبَعْتُ شهوتي أسْلَمْتُ كل ذلك للأجهزة التي في داخلي لتحول كل ما أكلته من الخضرة إلى طاقة جديدة أقوى بها وأزاول حياتي بها حتى أكون بعد أكل الخضرة التي هي الزهرة في حالة أفضل من حالتي قبل أكل الخضرة ، وهكذا أنتم يجب أن تفعلوا ، فإذا كان الله سبحانه قد أخرج لكم من بركات الأرض وخيراتها زهرة الدنيا فلابد أن تحوّلوا هذه إلى قوة في ذاتكم فتكون لكم مدارس أفضل ومراكز بحث أفضل ومصانع أفضل وجيوش أقوى وعتاد أقوى وإلا كنتم كالتي قتلها ما بنيت الربيع لأنها حوّلت الربيع إلى الوبيل مما يؤكل ، ولاحظ أن المعادن من بركات الأرض وكل ما تخرجه الأرض سواء كان زرعًا نرعاه بأنفسنا أو أي خيرًا يخرج منها فإذا استهلكناه في غير ما يجب أن يستهلك فيه وإذا ضيعناه من غير أن يَعُود علينا بقوة جديدة وطاقة جديدة كنا كالتي قتلها الربيع حبطًا ولم نكن ارتفعنا إلى مستوى آكلة الخضرة ، وأنا أُحِبُّ هذه الآكلة وكنت أتمنى أن تكون مستشارة لسيدنا الكبير لأنها خير من كل من حوله ، وقديما قال الشاعر الجاهلي يذكر السيد الكبير :

فليت لنا مكان المَلْك عمروٍ رغوثا حَوْلَ قبتنا تَخُور

وليس ببعيد أن تكون الرغوث التي تخور حول القبة هي آكلة الخضـرة . وقوله عليه السلام « ثم عادت فأكلت» يعني أن هذا هو نشاطها لما أصـابت زهرة الدنيا تقتبس منها ما تقتبس ثم تحول ما اقتبسته إلى طاقة تقوى بها ثم تعود لتقتبس إلى آخره .

قوله عليه السلام « إن هذا المال خَضِرَةٌ حلوة فمن أخذه بحقّه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو ، ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع» .

من المهم أن نبحث عن هيئة بناء المعاني التي هي طريقنا لمعرفة سمـت الكلام ، وتلاحظ هنا أن هذا الحديث مكـون مـن ثـلاث فقـرات دارت علـى ثلاثة محاور ، الفقرة الأولى وهي ما قبل المثل وهي مقدمة لهـذا المثـل لأن ما جرى فيها من خبر منه عليه السلام واستفسار الصحابة الكرام عـن بعـض كلماته ثم سؤالهم عن الخير وهل يمكن أن يأتي بالشر إلى آخره أقول هـذه المقدمة هي التي أوجبت ذكر المثل الذي فرغنا منه ، وهذا المثل هو المحور الثاني وهذا الذي ذكرته من قوله عليه السلام إن هذا المال خضرة حلوة هـو بيان وتوضيح لما قبل المثل وللذي جرى في المثل وهو بمثابة وضع النقـاط على الحروف في هذا الحديث ، وأول ما تجده في ذلك قوله عليه السلام إن هذا المال خضرة حلوة ، فأشار بهذه الجملة إلى أن زهرة الدنيا التي أخرجها الله لنا والتي يخاف علينا منها ينتهي الكلام فيها إلى الثـروة ، ثـم إن وصـف المال بالخضرة التي أكلتها آكلتها ونجت إشارة واضحة إلى ربط هـذا القسـم بالمثل وأن زهرة الدنيا والخضرة كل ذلك راجع إلى المال الذي هو خضـرة حلوة ، وهكذا تجد كلمة (خضرة) جمعت خيوطًا كثيرة مما سبقها . وهـي تحاول أن تُضمر جزءًا من الذي مضى في هذا القسم الذي هو بمثابة الفاصلة الجامعة لكل ما في الآية وبعد ما زرع بيان سيدنا صلوات الله وسـلامه عليـه

هذه الكلمة في رأس هذا القسم الأخير ، بدأ يشرح لنا طريق التعامل مع هذه الخضرة أو هذا المال أو هذه الزهرة ، ثم جاء بعد ذلك بكلمة عالية جداً ليس في اللغة فحسب وإنما في المعنى الذي تقوم عليه حياة الناس وأن هذه الحياة تهنأ وتطمئن إذا جرى فيها كل شيء بحقه وأُخِذَ كل شيء بحقه ووُضِع كل شيء في حقه ولا أعرف كلمة أعدل ولا أنبل في تدوير الثروة من قوله عليه السلام « فمن أخذه بحقه ووضعه في حقه فنعم المعونة هو » جملة أخذ المال بحقه في سوق الاستثمار لا يساويها إلا أختها الثانية وهي أن يوضع المال في حقه ، وإذا سألت أهل الذكر من علماء الاقتصاد فلن يجدوا ما يقولونه في هاتين الكلمتين إلا ما قلته وهو أنه ليس أعدل ولا أبر ولا أطهر للثروة من أن تؤخذ بحقها وتوضع في حقها ولا تلُمْني حين تجد إعجابي بهذا الكلام يدفعني إلى تكراره وربطه بالواقع لأني كما قلت أعلم أن الذي قذفه على لسان سيدنا المختار هو الذي يعلم اللحظة التي نحن فيها وكأنه عليه السلام ينادي فينا الآن ويقول لأصحاب الأعمال وأصحاب الاستثمار وأصحاب الثروة خذوا المال بحقه وضعوه في حقه فإن فعلتم فنعم المعونة هو يعني يبارك الله لكم في ثرواتكم ويعينكم بها ويعين شعوبكم بها وحسبك أن يقول رسول الله ﷺ للذي في يدك من المال (فنعم المعونة هو). ولاحظ كلمة المعونة وأنها مطلقة فهو أى المال معونة لك ولأولادك وأحفادك وللجماعة التى أنت منها .

وقوله عليه السلام « ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع » لم يقل عليه السلام ووضعه في غير حقه لِيتم المقابلة لأنه لا قيمة لوَضْعِهِ في حقه ما دام أخذه بغير حقه ، وأشيع صور الفساد وأبشعها عندنا أخذ المال بغير حقه وتصوير هذا المستثمر في صورة الذي يأكل ولا يشبع تصوير بالغ

السداد والإصابة لأن هذا الصنف لا يشبع من أخذ المال بغير حقه فهو يأكل المال الحرام ولا يشبع ، والمشبه شديد القرب من المشبه به ومع ذلك فالتشبيه بعيد غريب ، ولم أقرأ مثل هذا التشبيه في كلام من نزل فيهم القرآن ، وإن كان في كلام رسول الله ﷺ مهتديًا بوصف الضالين المكذبين الذي جاء في سورة الواقعة ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ۝ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ۝ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ۝ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴾ (الواقعة:٥١-٥٥) والهيم هي الإبل العطاش التي تشرب ولا تروى، فنقل عليه السلام الشارب الذي لا يروى إلى الآكل الذي لا يشبع، ولم تأت كلمة (الهيم) في القرآن العظيم إلا في هذه الآية ، وأدعك لتفكر أنت في دقة هذا الوصف للذين حولك والذين ألفوا كسب المال من غير وجهه .

بقي أن نراجع علاقة هذا الحديث بآية سورة طه ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (طه:١٣١).

مدُّ العينين يعني طول النظر واشتغال النفس بزهرة الحياة الدنيا التي متّع الله بها من أراد أن يَفْتِنهم ، ورسول الله ﷺ معصوم بعصمة ربه له من مثل هذا ، والمراد بالنهي أُمّته عليه السلام ، وإنما توجه النهي إليه للإشارة إلى أن اشتغال القلوب بزهرة الحياة الدنيا أمر متوقع وأن غَلَبَةَ هذه الزهرة أمر متوقع وأن كف النفس عنه عند الله بمكان وهذا هو أصل قوله عليه السلام أخوف ما يخافه علينا ما أخرج الله لنا من زهرة الدنيا ، وهذا ظاهر ، ثم إن زهرة الدنيا في الحديث مختصرة من زهرة الحياة الدنيا في الآية ، ووجه حذف كلمة الحياة التي في الحديث يبيِّنه وجه ذكرها في الآية ووجه ذكرها

أنهم يعيشون زهرة الحياة هذه ، فزهرة الحياة في الآية قائمة ومعاشة ، والذي في الحديث خوف من الزهرة في المستقبل وهم لا يعيشونها الآن ، النقطة الأخيرة في الحديث هي لفتة في تاريخ علم المجاز وأن رسول الله ﷺ لما سُئل عن مراده بزهرة الدنيا بيَّن أن مراده بركات الأرض ، وبركات الأرض له لفظ دال عليه هو هذا الذي نقوله وسيدنا المختار بيَّن أنه قال زهرة الدنيا وأراد بركات الأرض يعني أنه استعمل كلمة زهرة الدنيا في غير معناها الذي وضعت له . والطبقة التي أسَّسَتْ العلوم كانت تفطن لهذا ولأبعد منه ، وذكر ابن جني أنهم استخرجوا مجيء الألف والنون زائدتين من قول رسول الله ﷺ لوَفْدٍ وَفَدَ عليه فسألهم ممن القوم فقالوا بنو غيان فقال عليه السلام بل بنو رشدان فاستخرج العلماء من هذا أنه عليه السلام بيَّن أن غيان من الغيّ ورشدان من الرشد وأن الألف والنون تقعان مزيدتين . وأكتفى بهذا وأنتقل إلى حديث أبي سعيد الذي قال فيه إن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم حتى إذا نَفِدَ ما عنده قال « ما يكن عندي من خير فلن أدَّخِره عنكم ومن يستَعْفِفْ يُعفَه الله ومن يَسْتَغْنِ يُغْنه الله ، ومن يصبر يصبِّره الله وما أعطى أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر ».

لو طلبت منِّي أن أرتب هذا الحديث مع حديث « أخوف ما أخافه عليكم ما يخرجه الله لكم من زهرة الدنيا » ، لقلت لك هذا الحديث يعطى الترتيب الأول لأن فيه بدايات التطلع لزهرة الدنيا والذين سألوا وأعطوا ثم سألوا وأعطوا هم من كرام المسلمين لأنهم الأنصار الذين آووا ونصروا ، وهم الذين يحبون من هاجر إليهم ، وهم الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وهم الذين وقاهم الله شحّ النفوس ومع كل ذلك سألوا فأعطوا ثم سألوا فأعطوا ، ومثل هذا كان من حكيم بن حزام بن خويلد الذي سأل

رسول الله ﷺ فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم قال عليه السلام له مثل ما قال لهؤلاء، وحكيم هذا من أكرم أصحاب سيدنا رسول الله . وقد شرحت حديثه في كتاب شرح أحاديث صحيح البخاري ، وحديث حكيم وحديث الأنصار بمثابة مقدمات لحديث زهرة الدنيا ، ويلاحظ أنني لا أحاول أن أؤرِّخ للحديثين لأن هذا صعب وإنما أحاول أن أضع المعاني بجوار بعضها وأن أتعرف على الأنساب التي بينها ، وأكتفي بهذه الإشارة لأنك لو اقتربت أكثر من أحاديث رسول الله ﷺ وجمعت الأشباه والنظائر ستجد لهذا شواهد كثيرة وستجد أنك تواجه بابًا متسعًا من أبواب دراسة السنة لم يُشبْع بعد والقسم الأول من الحديث من كلام أبي سعيد وهو بيان للمناسبة التي قيل فيها،وكلام سيدنا رسول الله ﷺ مكوّن من خمس جمل وهي جمل لا يبلّغها عن الله إلا رسوله عليه السلام أو من سمعها منه لأن فيها طابع النبوة فلن يستطيع أحد أن يخبر عن الله بأنه سبحانه يُغْني عَبْده الذي يستغنى ويُعفّ عبده الذي يَسْتَعْفِف وهكذا ، وفرق كبير في البيان بين أوَّل الحديث وآخره ومع أن أوله الذي هو كلام أبي سعيد بالغ الصفاء والدقة وفيه سمت ظاهر من سمت الكلام الأول ، فقد ذكر أبو سعيد أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم وتنكير ناس في مثل هذا المقام يشير إلى أن معرفة من هم مع أن أبا سعيد رضوان الله عليه يعرفهم أقول يشير إلى أن معرفة أشخاصهم لا يتعلق الغَرَضُ بها ويستوي أن يكون السائل من أي جماعة كان لأن المقصود الأصلي في هذا الحديث هو قوله عليه السلام ومن يَستغْن يُغْنِه الله وما بعده ، وهذا مَهْيع في بناء المعاني أغتبط به كلما رأيته لأنه يقودني من أول كلمة إلى الغرض الذي سيق له الكلام ويحرص على أن أصل إلى هذا الغرض وأنا مجموع النفس غير مَشْغول بصارف يصرفني ،

ولو قال مثلاً سأل فلان أو جماعة من قبيلة كذا لأخذ هذا التحديد قدرًا كبيرًا أو صغيرًا من اهتمامي وقد بُنِيتْ اللغة على أصل استخرجه القزويني منها ووصفه بقوله (ينبغي أن يقتصر من الكلام على قدر الحاجة) ولذلك كانوا يسكتون عن المفعول إذا كان القصد هو الإخبار بوقوع الفعل من الفاعل فحسب ، وهكذا الاقتصار في الكلام على قدر الحاجة في اللغة ذاتها وفي طرائقها .

ومما ساعد على توفير العناية بموضوع الحديث والحرص على جمع كل طاقة السامع حتى يصل إلى الغاية وهذه الطاقة مجموعة وموفورة ذكر الفعل من غير مفعول في الفعلين المكونين لطرفي الجملة : سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم فلم يقل سيدنا أبو سعيد إنهم سألوه عليه السلام مالا أو سلاحًا أو ثيابًا أو طعامًا وأنه عليه السلام أعطاهم مالاً أو سلاحًا أو ثيابًا إلى آخره ، لأن هذا لا يتعلق به الغرض ، وإنما الغرض أنهم سألوا فأُعْطُوا ثم سألوا فأُعْطُوا فلما كان منهم ما يوهم ببدايات تعلق بكثرة العرض أو بزهرة الدنيا قال لهم عليه السلام كذا وكذا ، وهذا المقول هو الذي انعقد عليه الغرض وكل هذا مقدمة له .

ومن المهم أن يكون من الحاضر في نفوسنا ونحن نطالع بعض ما كان يكون من أصحاب رسول الله ﷺ مما لم نكن نظن أنه كان أو يكون منهم مثل تكرار سؤالهم لرسول الله ﷺ الذي حدث من الأنصار في هذا الحديث وحدث من حكيم بن حزام في حديث البخاري ومثل ابن اللُّتبِيَّة الذي استعمله رسول الله ﷺ على الصدقة فجاء بها وبهدايا أهديت له ووضع الاثنين بين يدي رسول الله ﷺ وقال هذا لكم وهذا أهدي لي ، أقول من المفيد والمهم ونحن نطالع هذه الأخبار التي تثير عندنا تساؤلات واجب أن

نذكر أن هذا كان يحدث والشرع ينزل ولم تكن حقائق الدين قد تقررت عندهم في ذلك الوقت كما تقررت عندنا فابن اللُتبيَّة مثلاً لم يكن يعرف أن هدايا المسؤولين حرام وإنما كان يرى رسول الله ﷺ يقبل الهدية فقبل هو الهدية ، والأنصار لم يكونوا يعلمون أن رسول الله ﷺ حذَّر من استشراف النفس لطلب المال ، ولا أنه طالب المسلمين بأن يستغنوا فيغنهم ربهم ولا بأن يستعِفُوا فيعفهم ربهم وهكذا ، ولما سمع حكيم بن حزام تعقيب رسول الله ﷺ على سؤاله وأنه أعطاه ثم نَهاهُ عن استشراف نفسه للمال كان بعد ذلك إذا عُرض عليه حقه لم يأخذه .

ونعود إلى قراءة الحديث ونلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يوجّه لهم بلاغ ربه الذي بدأ بقوله ومن يستعفف يعفه الله إلا بعد ما أعطاهم مرتين وبعد ما سألوا أيضًا مرتين وبعدما نفد الذي عنده ، ولو أنه أبلغهم قبل أن يعطيهم ما بلغ بلاغه من نفوسهم ما بلغ ولو أنه أعطاهم بعد ما سألوا مرة ثم أبلغهم بلاغ ربه ما بلغ من نفوسهم ما بلغ وكذلك لو أبلغهم بعدما أعطاهم مرتين ولم ينفد الذي عنده . وإنما سألوا فأُعْطوا حتى إذا نفد الذي عنده قال لهم ما أوحاه الله إليه وهذه تهيئة بارعة لتلقي نفوسهم ما أراد أن يقوله لهم وقد كان الذي مع حكيم بن حزام مثل الذي كان مع ناسٍ من الأنصار ، وهذه التهيئة البالغة منه عليه السلام والتي نراها مرة بالكلام مثل ثلاث من كنّ فيه أو أخوف ما أخافه عليكم أو كانت سلوكًا وعملاً كالذي هنا والذي كان مع حكيم من دقيق وعيه عليه السلام ومن بلاغته التي ليست في لسانه فقط وإنما أيضًا في فعله وهي من إلهام الله له وأن الله سبحانه كما رزقه لسانًا هو أفصح ألسنة العرب كذلك رزقه سلوكًا وفعلاً هو أنجع وأرفع سلوك وفعل الناس .

ومن هذه التهيئة العالية الجملة التي قالها لهم قبل بلاغهم الموعظة وهي قوله عليه السلام «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم» ومهما أقوله لك في بلاغة وجزالة هذه الجملة فإنه لن يغني عنك شيئًا وإما أنصح بأن تكرر هذه الجملة بيقظة كاملة وبتفريغ خاطر أو كما يقول الباقلاني أن تُصغِي إليها بسكون طائر وخفض جناح وأن تقف عند كل كلمة وأن تُقلبها بلسانك وأن تحاول أن تذوقها ولا تتركها حتى تجد طعمها أو تذوق طعمها كما يجد المؤمن طعم الإيمان لأن محاولة تذوق مثل هذا من باب تذوق حلاوة الإيمان ، واحذر أن تعتمد على أي تحليل في البلوغ بك إلى سِرٍ العبارة العالية واعلم أن أقدر الناس على بلوغ سرها هو لسانك المرتبط بخواطرك وبذائقك وبحسك وهذا هو الرائد الذي لا يكذبك أبدًا ، ولا شك أن تكرار مثل هذا وترداده من القربات ، وقد قرأت في بعض الكتب أنه أفضل من صلاة النافلة ، ولا غنى لي عن أن أحدثك بالذي أراه في مبناها ولو كان ذلك مما يكدِّر عليك صفو تذوقها ، وأول شيء عندي هو أنها بُنيت على الشرط وأداة الشرط هي «ما» التي بدأ بها سيدنا صلوات الله وسلامه عليه وهي دالة على ترتيب نفي حجب المال عنهم على شرط وجود هذا المال والمعنى أنه يبذله لهم فور وجوده وهي أخت «ما» التي في قوله تعالى ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ فترتب علم الله بالخير على فعله ترتب قاطع لا ريب فيه وهي دالة على مطلق الشرط الذي هو عقد لازم يترتب فيه الجواب على الشرط وهذا تأكيد للمعنى الذي قلناه وهو أنه عليه السلام يعطيهم الشيء مالا أو غيره فور وجوده بلا ريب ، وهذه الأداة مع هذا المعنى الأصلي قد يداخلها الزمن ويكون المراد وقت وجود الخير لا يحجب عنكم وهي حينئذ أقرب إلى «ما» التي في قول الشاعر :

فما تَكُ يابن عبد الله فِينَا ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ فلا ظُلْمًا تخافُ ولا افتقارًا

فقد أفادت كلمة (ما) هنا ترتب نفي خوف الظلم والفقر على كونه فيهم ، وقد لحظ ابن مالك فيها معنى الزمن أي زمن كونك فينا لا نخاف ظلمًا ولا فقرًا والزمن يظهر أكثر في قوله تعالى ﴿ فَمَا ٱسْتَقَـٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ﴾ أي استقيموا لهم مُدَّة استقامتهم لكم وهذا من المواضع العالية لكلمة «ما» التي تكثر في النفي وفي الصلة ، وقوله عليه السلام «عندي من شيء» دخلت فيها «من» الزائدة على اسم يكن لتفيد استقصاء وجود شيء أي شيء ويلاحظ أن هذا الاستقصاء المدلول عليه بالحرف الزائد مدلول عليه أيضًا بتنكير كلمة «شيء» وكثير من جزالة هذه الجملة راجع إلى هذا الحرف وهذا التنكير ، ثم إنك تجد شَوبًا من هذه الجزالة راجعًا إلى تقديم الظرف (عندي) لأنها خبر يكن قدم على اسمها ، وكل هذا يرسل إشارات إلى حقيقة واحدة وهي أنه عليه السلام يؤكد معنى أنه عندما يكون عنده شيء أي شيء فهو بمثابة أن يكون عندهم وأن الذي يكون عنده هو عندهم ، ثم تجد شيئًا من هذه الجزالة أيضًا في هذه الفاء التي في قوله عليه السلام «فلن أدَّخره عنكم» وذلك لأنها تُقوِّي الترتيب والربط بين الجواب والشرط وهذه الدلالة لا يَدْفعها وجوب وجود هذه الفاء من جهة النحو لأن الوجوب النحوي يؤكد الدلالة ولا يجوز أن تقول إن هذا الوجوب يلغي الدلالة وإذا قلنا هذا أسقطنا أكثر الكلام ، ثم إن هذه الفاء داخلة على كلمة (لن) التي هي لنفي الاستقبال وبعدها المضارع الدال على الاستقبال وإذا دققت لحظت معنى فيه شوب من المقابلة وهو أنه أعطاهم حتى نفد الذي عنده ثم أخبرهم أنه سيعطي في المستقبل حتى يَنْفَدَ الذي عنده وأن ذلك سيتكرر كلما كان عنده شيء أي شيء ، وأردت المقابلة في الزمانين الحال والاستقبال والعطاء المستغرق الذي عنده كان ذلك الآن أو سيكون في الزمن المتجدد والاستقبال المفتوح .

وتذكر شيئًا قلت لك مثله وهو أن أزكى ما في البيان هو ما يجده المرءُ منه في فؤاده وأن هذا الوجود في الفؤاد لا يَصْنَعُه إلا تكرارُ النظر وتقليب الكلام بالعقل واللسان، وكل الذي أجهد في بيانه ليس من هذا في شيء لأنه لا يُوجِدُ أحد شيئًا في فؤادك إلا أنت، وإنما أحاول فتح مغاليق الكلام الذي له لَيْطَةٌ بالقلب وَبَرْدٌ على الكبد، كما يقول أبو حيان، ويَحْسُن أن أذكرك بكلمة قالها أبو العلاء وهو يُحدِّث عن أخذ ابن القارح عن الشيوخ قال (ولعله قد نزف بحارَهم بالقلم والفهم وفتحوا له أغلاق البُهْمَ جمع بُهَمَة وهو الأمر الذي لا يُهْتَدى له) انتهى كلام أبي العلاء، وإنما أردت قوله «البُهَم» لأني متأكد من أن التحليل هو جِدٌّ واجتهاد في فتح أغلاق «البُهمَ» ثم تبقى بُهَمًا حتى يَفْتِقها تَقْليبُ لسان القارئ المتذوق لها. وهذه الجملة العريقة التي طال كلامنا في فتح أغلاق بُهْمتها ثم ظلّت بُهْمة. كانت مقدمة لثلاث جمل من أعرق وأنقى وأزكى ما قرأت لأنها تَطِبٌّ لثلاث رغائب هن أحبُّ إليَّ وإليك من حُمْر النعم. الأولى العَفَافُ والثانية الغِنَى والثالثة الصَّبرْ، والعجيب أن هذه الجمل الثلاث تقول لنا إن هذه الثلاث الكريمات هناك عند الله يَمْنَحُها لمن يَطْلُبها، وهذا المعنى يضيء لنا جانبًا من اعتقادنا لأننا جميعًا نعتقد أن من هداه الله لا يُضِلّه أحَدٌ ومن أضله الله لا يهديه أحَدٌ ومن كان من ذَرْءِ النار فلن يكون إلا منها ومن كان ليس من أهل الشقاوة فلن يكون من أهل الشقاوة وأنه رفعت الأقلام وطويت الصحف، وكل هذا حق وكله مطوي في علم الله، وقد وعدنا ربنا بأن من مَدَّ يَدَه لله طالبًا الخير لا يرد الله يده صِفرًا حتى يَضَع فيها خيرًا، وهذه الجمل الثلاثة تقول إن أكرم الفضائل التي منها هذه الثلاثة قريبة منك جدًّا ولو مَدَدْتَ يدك وجَدَّتها، وهذا من أبرِّ البر الذي يمحنه الله لنا، وأكرر هذا المعنى وهو أن

أكرم ما عند الله قريب منك وليس عليك إلا أن تطلبه فتجِدُه ، لا يراد منك ثمن ؛ وإنما يراد منك فقط الصدق في الطلب ، وأكرر أيضًا أنه إذا كان شأني عند الله قد رفعت عنه الأقلام ، وطويت فيه الصحف فهذا لا أعلم عنه شيئًا ولي عند الله باب مفتوح يقول الله لي فيه تقرَّب مني ذِراعًا أتقرب منك باعًا ، وأقبل علي تمشي أقبل عليك هَرْولة ، ولا يهلك على الله إلى هالك ، وأكثر من هذا أنك حين تَذْهَبُ إلى الله تائبًا وأنت ملوّثٌ بِرِجْسِ المنكرات يفرح الله بمقدمك عليه كما يفرح أحدكم براحلته التي افتقدها وفيها ماؤه وطعامه ثم يفاجأ بوجودها .

قوله عليه السلام « ومن يَسْتَعْفِفْ يعفُّه الله » جملة شرطية جوابها الذي هو يُعِفُّه الله مرتب على شرطها الذي هو يستعفف ، ومُهِمَّتُها هي الربط بين الجملتين وهذا الربط هو غاية المراد من رب العباد ، لأنه يعني فور استجابة طلبك الذي تطلبه من ربك يعني أنك مستجاب الرجاء وأن ترتب عطاء الله لك على طلبك ترتب لا يَنْفَكُّ وهذا من أكرم المعاني التي تقع في قلب العارف بأن هذا الوجود في قبضة الموجود سبحانه وتعالى ، واستعفّ طلب العفاف وتكلف العفاف ، والعفاف معنى شامل مُتسِّعٌ لأن للعين عفافًا ، ولليد عفافًا ، وللسان عفافًا ، وللقدم عفافًا ، وللقَلْب عفافًا ولخواطر النفس عفافًا والذي يستعفف يطلب هذا كله وعدم ذكر المفعول كالذي في قول أبي سعيد سألوا فأعطاهم يعني أن المعنى متوفر على إثبات الفعل للفاعل أي إثبات العفاف له كما تقول فلان يعطي ويمنع أي يكون منه العطاء والمنع وهذا الطالب يطلب أن يكون ذا عفاف .

وقوله عليه السلام (يُعِفُّه الله) هذه الكلمة المألوفة جدًا لا أدرك لها غورا لأنه إذا أعفك الله فقد أُعْطِيت العفاف من الله وليس لَكَ فيه مجهود فالعين

تَعِفُ بما منحه الله لها وليس بما تبذله أنْتَ ، واللّسان يعفُ بما منحه الله من عفاف وليس بمجهود يبذله ، وكل ما يمنحه ربنا لعبده المؤمن بعد طلب هذا العبد وصدقه في طلبه يصير كأنه جزء من النفس كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ لأن هنا يعني أن الإيمان الذي كتبته يد الله في قلب المؤمن إيمان لا يزول ولا يحول ، وأنا أقيس (يُعفَّهُ الله) على ذلك وأقول إن الحق سبحانه إذا قذف العفاف في قلب عبده الذي يرضاه صار هذا العفاف طاعة ليس فيها مشقّة على هذا العبد بل هي طاعة مُحَبَّبة تزاولها النفس بلذة ، وقد ذكر سيدنا المسيح صلوات الله وسلامه عليه أن الحسنة حضرت مرارتها وغابت حلاوتها ، وأن السيئة حضرت حلاوتها وغابت مرارتها ، وهذا صحيح بلا ريب وهو الذي عليه الناس الذين يجاهدون أهواءهم في مرضاة الله فإذا ارتقى العبد في طلب العفاف وجاهد وصَبَرَ وقذف الله العفاف في قلبه صار يزاول هذه الطاعة بلذة ورضا وأريحية وتكون هذه الحسنات حضرت حلاوتها وغابت أيضًا حلاوتها ، ومثل هذا الذي يجد لذَّة في الذكر ويجد قرة عينه في الطاعة والعبادة والتحميد والتسبيح ، وكأن الحق جل وتقدّس إذا أسْكن العفاف في قلب عبده يكون حال العبد هذا كحال الزهرة التي أسْكن الله فيها أريجها فتفوح بطبْعها من غير أن تتكلف هذا الفوح ، ولله رجال يضع عنهم سبحانه إصْرَ التكاليف ومشقاتها حتى يكون سبحانه أيديهم التي يبطشون بها وأسماعهم التي يسمعون بها وهم الربَّانيُّون ولم ينقطِعُوا من أمة المختار صلوات الله وسلامه عليه . وهذا العفاف جزء من التزكية بمعنى التطهير والتنقية وقد وعد ربنا من زكى نفسه بالفلاح في قوله تعالى ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ والتزكية تخليص النفس من الشوائب التي غلِقَتْ بها على مدار عمر

الإنسان فحادَتْ بهذه الشوائب عن النهج الأول وهو نهج الفطرة التي فطر الله النفوس عليها وقد جاءت كلمة «زكاها» مقابلة لكلمة (دسَّاها) في سورة الشمس وضحاها ، وقال الراغب الدّسُّ إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإكراه وذكر قوله تعالى ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ وهذا معناه أن دَسًّ النفس المقابل لتزكيتها إكراه النفس على خلاف ما فُطرت عليه .

ومن الصواب أن أخطو خطوة أقول فيها إن كل من يَسْتَشْرِفُ إلى كريم الخلال ومكارم الأخلاق ويحاول اجتلابها إلى داخل نفسه وهو صادق ويستعين بالله في ذلك وهو صادق يجد يمين الله تمتد إليه وتزرع هذه المكارم في نفسه وإنما خُصَّت هذه الثلاثة لأن المقام مقام استشراف لعرض الدنيا ، وتكرار طلب ذلك من أصحاب رسول الله ﷺ ، وبناء على هذه الخطوة وهذا القياس أقول إن من رام البرً رزقه الله البِرً ، ومن رام الوفاء رزقه الله الوفاء ، ومن رام صدق النفس رزقه الله صدق النفس ، ومن رام صدق العمل ، رزقه الله صدق العمل ، ومن رام أن يقتلع من نفسه غرسًا غرسه الشيطان وجد الله عنده وكل هذا من التكاليف ولا يكلفنا ربنا إلا بالذي في الوسع .

وقوله عليه السلام «ومن يَسْتَغْنِ يغنه الله» معنى يستغني أنه يطلب الغنى بمعنى أن يرضى بالذي عنده ولا يمد عينه إلى ما متَّع الله به غيره وأن يجعل اللهُ غناه في نفسه ، وليست الثروة التي تكون في اليد وإنما الكنز الذي يكون بين الجنبين ، وهو أفضل الغِنَى وأكرمه وأبره بالنفس الإنسانية لأنه يرفع قدرها عن أن تكون في حالة تلصُّص دائم لما في أيدي الناس ، وهذا التلصّص يشعرها بالصغار والهوان ، أما التسَّامِي والإحساس بالرضا قل أو كثر فهو الأشبه بالعرق الكريم والطبع المتعالي والمتسامي ، ولاحظ

السلامة التي تتوفر لنفس ثروتها في الرضا بالذي عندها ثم سلامة الناس حين يكثر فيهم هذا النموذج ، ثم سلامة المجتمع الإنساني حين يكثر فيه هذا الخلق وتكف الدُّوَل القوية عن السَّطْو على ثروات الأمم الضعيفة وتستبيحُ الدماء والأعراض وكل ما يجب أن يكون مصونًا لِتَتَسَلَّط على ثرواتها وربما لا تكتفي بذلك وإنما تحتل الأرض احتلالا ظاهرًا أو احتلالا مُقَنَّعا كهذه الجيوش الساكنة في أرضنا حول ينابيع الثروة ويقول الكذابون إنها جيوش صديقة . وليس لنا سبيل إلا أن نصدق الكذب الصراح .

قوله عليه السلام : « ومن يَصْبِرْ يُصَبِّرْه الله وما أُعطِيَ أحد من عطاء خير وأوسع من الصَّبْر » .

وأول ما يلاحظ في هذه الكلمات أن الصَّبْر جاء في آخر هذه الفضائل الثلاث ، وأن الكلام فيه جاء أكثر طولاً ، وأن التعقيب لم يكن تعقيبًا على الفضائل الثلاث وإنما كان تعقيبًا عليه أعني لم يقل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وما أعطى أحد من عطاء خير وأوسع من هذه الثلاث وإنما خص الصبر بهذا التعقيب فأشار بذلك إلى أن الصبر له خصوصية تجعله فضيلة أعلى رتبة من العفاف والغنى .

وكلمة « ومن يصبر يُصبره الله » تعالج حالة أشق من الحالتين السابقتين ، ومعنى ومن يَصْبر يتكلف الصبر بدليل جواب الشرط يعني من يروض نفسه على مَدْرَجَة الصبر ويحاول أن يكتسب هذه الفضيلة يجد الله معه يعينُه بعونه ويمدُّه بمدَدَه والصبر أوسع من السابقتين لأنه صبر على الطاعة وصبر على الجهاد ، وصبر في طلب العلم ، وصبر في طلب الرزق ، وصبر في الإحسان والإتقان ، وصبر في كف النفس وردع أهوائها في كل ما ترومه مما نهى الله عنه ، والخلاصة أن الصبر خليقة رديفة ومقارنة لكل طاعة ولكل عمل يزاوله

الإنسان مع ملاحظة أن كل عمل يزاوله الإنسان يمكن أن يكون كله من الطاعات وأعمال العبادات إذا حضرت النية كما يقول القرطبي : (النيات الصالحات تصرف المباحات إلى الطاعات) وربما كان هذا هو وجه قوله عليه السلام «وما أعطي أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر» نعم هو خير لأنه يفضي إلى إتقان كل ما يصدر عن الإنسان من أعمال الدنيا والآخرة لأن الصبر هو الطريق الضروري لإتقان أي شيء ابتداء من الذكر والصلاة وانتهاء بالمصنع والمعمل والمدرسة والجامعة ، وما كان الصبر في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه وهو أوسع لأنه شامل لكل ما يصدر عن الإنسان.

ثم تلاحظ وجهًا من الترتيب في ذكر هذه الثلاثة فقد بدأ بقوله «ومن يستعفف» ويستعفف هذه أخت التي في قوله تعالى في شأن ولي اليتيم ﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ﴾ يعني لا يطمع في غير حقه ويقابله الذي يطمع في غير حقه وهذه خليقة غاية في الانحطاط والتسفُّل والأصل أن يعَف الإنسان عن ما ليس له وبعد ذلك جاء «ومن يستغن» وهذه مرتبة أوسع تشمل ما قبلها لأن من استغنى بالذي عنده فقد عف عن الذي عند غيره ، ومهم جدًّا أن ننظر إلى كلامه ﷺ من هذه الزاوية لأنك تجد ترتيبًا متصاعدًا وهو لا يتأتى لغير الملهم إلا بعد طول نظر وطول احتشاد وليس هذا من شأنه ﷺ وإنما كان يقول من غير مراجعة وعلى البديهة والإلهام ، والصبر باب واسع جدًّا وقد تكون في حاجة إلى الصبر لتعينك هذه الحاجة على استمرار الصبر ، وليس كل الصبر سواء وإنما هناك صبر أعلى من صبر وأشق من صبر وأعظم في رتب النفوس من صبر ، وربما كان أسماه وأعلاه صبر أولي العزم من الرسل الذين أمر ربنا نبيًّنا أن يصبر صبرًا كصبرهم ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ والذين عالجوا ضروب الصبر

صارت لهم خبرة بهذه الضروب وكان العقاد منهم وكان يصبر كما يقول حتى يعجز الصبر عن صَبْرِهِ ، وحسب الصابرين مكانة عند الله أن الله سبحانه وتعالى كرّمهم وجعل ذاته الكريمة في معيتهم وقال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ولم يقل إنهم معه وإنما قال هو معهم أي في معيتهم وله ما في السموات وما في الأرض وهو الغني الحميد وإن يشأ يذهب الكل ويأتي بخلق جديد وليس ذلك عليه بعزيز وإنما هو إغراء لنا بفضيلة الصَّبْرِ التي تجلِبُ لنا الخير وناهيك عن كونه سبحانه مع هذا الصابر الراضي ، فإذا رأيت صابرًا راضيًا فتأكد أن الله سبحانه عنده ومعه حيث كان ، هذا شيء ثم إن الله سبحانه وعد بأنه يوفي الصابرين أجرهم بغير حساب ، وراجع كلمة بغير حساب يعني ليست الحسنة بعشرة أمثالها ولا بمائة ضعف وإنما بغير حساب والذي وعد هذا هو الذي في يده مفاتيح خزائن السموات والأرض .

جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان قال فيه عليه السلام : « الصلاة نور والزكاة برهان والصبر ضياء » انتهى الحديث ، ولاحظ العلماء أن الضياء أقوى من النور بدليل قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ فكيف يكون الصبر ضياء وتكون الصلاة نورا والصلاة عمود الدين ، وقال الشيخ المناوي في ذلك : « الصبر رأس جميع الأعمال ولولاه لم تكن صلاة ولا غيرها والضوء فيه إحراق والنور محض إشراق ، والصبر شاق مُرُّ المذاق » انتهى كلام المناوي ، ولعله أراد بإحراق الضياء الذي هو الصبر المشقة التي يواجهها من يصبر ، والصلاة ليست كذلك وإنما هي محض إشراق كما قال وهذا كلام جيد .

وأعود إلى حديث أبي سعيد الخدري سأل ناس من الأنصار لأنظر فيه من جهة لم نَلْتَفِتْ إليها وهي أنه كان يمكن أن ينتهي هذا الحديث عند قول

أبي سعيد حتى إذا نَفِد ما عنده وأن يقول بدل ذلك حتى نَفِدَ ما عنده .
ويكون الخبر هو أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، حتى نَفِدَ ما عنده وانتهى الأمر ويكون المغزى من الحديث بيانًا لحالة وقَعَتْ وأن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يسألونه وكان يعطيهم حتى يَنفَد ما عنده وأنه يجوز سؤال الحاكم وأن يعطي الحاكم المسؤول وأن ذلك لا حرج فيه ويمكن أن يزاد على هذا قوله عليه السلام (وما يكن عندي من خير فلن أدّخِرَه عنكم) وبذلك تضيف هذه الجملة معنى زائدًا وهو أن المسؤول إذا مَنَع يَحْسِنُ منه أن يُبيِّن سبب المنع حتى لا يكون في نفس السائل من حرج ، ثم إنه يفيد أيضًا أن الحاكم لا يصح أن يكون عنده خير فيمنعه عن الذين ولاه الله أمرهم وأن ما في يده هو لهم وأنه يعطيهم من مال الله الذي هو لهم وجعله الله في يده ، ولكن رسول الله ﷺ لم يكتف بهذا فضلاً عن الذي قبله وإنما ذكر هذه الرغائب الثلاث التي هي من أُمهّات مكارم الأخلاق ومن أُمهّات فضائل النفوس ، والتي إذا استشرف العبد إليها ورجاها من ربه وتكلفها وَجَدَ الله سبحانه يَضَعُها في أعز ما توضع فيه الخيرات وهو قلب العبد المؤمن ، ثم إنه عليه السلام بنى هذه الجمل على الشرط ليؤكد الربط بين الشرط والجزاء والأهم من هذا أنه لما ذكر هذه الجمل صار الكلام السابق الذي كان صالحًا لأن يكون هو الغرض مقدّمة للغرض وصارت هي رأس الفائدة وهذا التسلسل الذي بَيّنْتُه لم تفتح بابه في دراسة الكلام لتَتَبيَّن أين تقع بلاغة النبوة من بلاغة الناس ، وأين يقع المُعْجز من غير المعجز .

وكان عليه السلام إذا بَدَتْ له نوازعُ وأهواءُ وشهوات يَرَى فيها خطرًا على مستقبل الناس ، وقف ونَبَّه ، والذي يبدو هنا من حب المال لو زاد وتوحش لكان وحشًا في حياة الناس لا يقاوَم كهذا التوحش في رأس المال الذي

حولك ، ولهذا كان يبادر عليه السلام بالإشارة إلى ما يَطِبُّ به هذا الداء القابل لأن يَتَوحّش ، وقصدي من هذا أن أقول إن رسول الله ﷺ يَعْلم أن من سألوه من الأنصار لن يكون منهم هذا التوحش لأنهم أهل صُحْبة وبأيّهم اقتدينا اهتدينا ، وأهل جهاد ، وأهل صَبْر وهم الذين يؤثرون على أنفسهم كما سبق أن ذكرت ، وإنما كان عليه السلام يُرْسِل هذه الكلمات التي ابتدأها بقوله « ومن يستعفف يُعِفّه الله » إلى آخر الحديث لنا نحن ولغيرنا في كل أرض دخل عليها هذا الدين الذي أخبر المصطفى عليه السلام أنه يدخل ما دخل عليه الليل ، وصدق رسول الله ﷺ ودخل هذا الدين كل أرض دخل عليها الليل ، وقد أخبر بذلك والإسلام في قُل أي في عَدَدٍ قليل وهذا من علامات النبوة ، والمهم أنه عليه السلام حين كان يُخَاطِبُ واحدًا من أصحابه لا يريده وَحْده بالخطاب وإنما يريد كل من كانوا على كل أرض دخل عليها الليل . فدخل عليها الدين الذي هو نور الله ولن يطفأ . هذا والله أعلم .

وكما كان من أصحاب رسول الله ﷺ من يسأل فيُعطى ثم يسأل فيُعطى كان من أصحابه أيضًا مَنْ يُعطى فلا يأخذ وكما وجَّه الذي يسأل كذلك وجّه الذي لا يأخذ وكما طبَّ للنفوس التي كانت على وشك أن تستشرف إلى زهرة الدنيا مخافة أن يتوحش هذا الاستشراف فتكون المضرّة ، كذلك طب للنفوس التي انصرفت عن حقها فلا تأخذه حتى لا يتوغل هذا الانصراف فيُفْضى إلى الزهد فيما لا يحسن الزهد فيه فتكون المضرة أيضًا ، وهكذا يضع رسول الله ﷺ نفوس الناس على طريق تتوازن فيه هذه النفوس وتكون وسطا ، فلا يطغى فيها شيء على شيء ، وهذا أعدل وأبر وأكرم لهذه النفس التي كرم الله صاحبها وسخر له ما في السموات وما في الأرض وكفّه

عن كل ما ليس له كما كفَّه عن أن يفرط في الذي هو له وهذا هو الطريق القِيمَ وطريق الأَمَنة .

روى مسلم بسنده عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال سمعت عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول قد كان رسول الله ﷺ يعطي العطاء فأقول أعطه أفقرَ إليه مني حتى أعطاني مرة مالا فقلت أعطه أفقر إليه منيّ فقال رسول الله ﷺ « خذه وما جاءك من هذا المال وأنْتَ غير مُشْرِف ولا سائل فخذه وما لا فلا تتبعه نفسُك » انتهى الحديث .

وقول عمر « أعطه أفقر إليه مني » فيه أن عمر كان فقيرًا ولكنه كان يؤثر الذي هو أفقر منه وهذه فضيلة قلما توجد في الناس لأن الذي يَرُدُّ المال وهو محتاج إليه ليعطى هذا المال للذي هو أكثر حاجة يبلغ الغاية في الإيثار وهذه أخلاق الذين ملكوا وعمروا ، وقد أدرك رسول الله ﷺ هذه المكرمة في نفس عمر وحقق له ما أراد وأعطى عطيته لمن هو أفقر منه وتكرر ذلك حتى أعطاه وليس في مجلسه أفقر من عمر قال لعمر هذه المقالة التي لا أعرف أكرم للإنسان ولنفس الإنسان ولإنسانيَّة الإنسانِ منها ، وأعجب كثيرًا بمعاني رسول الله ﷺ وأعلم أنه خير من ولدت حواء ومع ذلك أجد معاني لا يمكن إلا أن تكون إلهيَّة ومنها هذا الذي نحن فيه ، وراجع هذه الجملة « وما جاءك من هذا المال وأنْتَ غير مشرف ولا سائلٍ فَخُذْه » تجد القضية ليست هي المال قل أو كثر ذهبًا كان أو فضة أو متاعًا أو ما شئت وإنما القضية هي النفس الإنسانية ووضع خطوط حمراء حولها حتى تظل نظيفة نقيَّة لا يسيطر عليها شيء من هذه الأرض ، وأن الشيء أحيانًا لا يكون فيه حِلُّه ولا حُرْمَتُه ، وإنما حلالُه وحرامه يكون في هذه النفس فإن استشرفت له حَرُمَ عليها وإن كان قد جاءها ولا يمكن أن يكون

قد جاءها وهو حرام عليها ، ومفهوم هذه الجملة أن ما جاءك من هذا المال وأنت مشرف أو سائل فلا تأخذه ، أقول كلمة جاءك تَعْني أنه حَقٌّ له وإذا استشرفت نفسك لهذا الذي هو حق لك فلا تأخذه مع هذا الاستشراف حتى لا يتوحش هذا الاستشراف في نفسك وحتى يَغْلب نفسك والأصل أن تظل نفسك هذه سيدة الأشياء من حولك فإذا استعبدتها الأشياء من حولك فقد فقَدْتها ومن أجل ألا تفقدها فرد الذي جاءك إذا رأيتها مستشرفة له ، أقول هذا هو الحصن الإلهي الذي يُحصّنُ الله به هذا الإنسان الذي سخر له ما في البر والبحر والشمس والقمر والنجوم مسخرات كلها بأمر الله لهذه النفس التي يجب أن تكون أكرم عند الله من كل شيء سخره الله لها ، وأنا أريد أن أكرر وأؤكد معنى هو صريح لفظ الحديث وهو أن الذي يجيئني لا جدال في أنه حق لي وإلا لما جائني وأن رسول الله ﷺ يقول لي هذا الحق الذي جاءك لا تمد يدك إليه إلا إذا نظرت إلى التي بين جنبيك ، فإن رأيتها مستشرفة له وسائلة فكف يدك عنه وإن رأيتها غير مستشرفة ولا سائلة فخذه .

وأكرر أيضًا أن هذا في تنظيف النفس وتكريمها وإبعادها عن أن تتوحش فيها شهوة التملك ، أقول إن هذا في تنظيف النفس أمر إلهي ، حتى تكون في مستوى تسخير كل ما في الكون لها وليست هي مسخرة لشيء في هذا الوجود. وهذا هو مدخل الإنسان الذي أكرمه الله وحمله في البر والبحر ورزقه من الطيبات ، أقول هذا هو مدخل الإنسان الذي هذه مكانته عند الله إلى الثروة فإذا حَادَ عنه واستشرفت نفسه وغلبها المالُ وانتكست هذه الحال فصار المالك الذي هو الإنسان مملوكًا لهذا المال الذي الأصل فيه أن يكون مملوكًا تكون القضية قد انتقضت وصار الإنسان المكرم هو الإنسان الذي

حدثنا رسول الله ﷺ عنه وقال «تعس عبد الدينار وعبد القطيفة تعس وانتكس» راجع كلمة انتكس وقد دخل أثرياء الصحابة باب الثروة وفوق رؤوسهم وعيونهم وقلوبهم قوله عليه السلام «وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه»، وكانوا من أثرياء الناس حتى إن عبد الرحمن ابن عوف جَهَّز جيش العسرة من ماله وكان رضوان الله عليه ربيحا وقالوا عنه لو رفع حجرا لوجد تحته ذهبًا . والأمر ليس كذلك وإنما كان يدير المال بفهم دقيق ووعي شديد وبصيرة كأنها كانت تَسُدُّ مَسَدَّ دراسة جدوى كما تقول الآن لأن العشوائية التي تعتمد على رفع الحجر لتجد ذهبًا لم تكن من شأن هذا الجيل ولا من شأن أي جيل تقدّم وبنَى وساد .

والجملة الأخيرة هي قوله صلوات الله وسلامه عليه «وما لا فلا تتبعه نفسك» راجع هذه الجملة حتى تدرك اختصارها الشديد في مبناها وتدرك الحكمة في حذف ما حذف ثم تدرك الحكمة التي في معناها وأن العناية بالمبنى ليس له قيمة إلا قيمة واحدة وهي العناية بالمعنى لأن المبنى كان من أجل المعنى والمعنى هنا مقابل للمعنى في الجملة السابقة «وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه» ، وكلمة «ما» في الجملتين موصولة ، والمعنى والذي جاءك والذي لا يجيئك وكلمة (لا) في الجملة الثانية نافية لفعل محذوف دل عليه الكلام السابق والأصل وما لا يجيئك أو يجيئك وأنت مشرف أو سائل فلا تتبعه نفسك ، وهذا يعني أن الذي يجيئك وأنت مشرف أو سائل هو في حكم الذي لا يجيء وهناك حالة واحدة يؤخذ فيها المال وهي الحالة التي يجيء فيها المال وأنت غير مشرف ولا سائل ، وهذا هو أكرم مال تلقّاهُ أكرم نفس وهو المال الربيح وهو المال الذي تعْمرُ به الأرض وهو المال البار بمالكه والبار بعامله

والبار بالمجتمع الذي تدور حركة هذا المال فيه وهذه هي القيمة التي يتميز بها الاقتصاد إذا أدارته هذه النفوس .

وقد جاء خبر «ما» الموصولة مقترنًا بالفاء تشبيهًا لها بما الشرطية واقتران الخبر أو الشرط بالفاء لبيان قوة ارتباط الخبر بالمبتدأ والجواب بالشرط وقوة الارتباط هذه لها دلالة جليلة عليك أنت أن تراجعها وأن تَتَبَيّنها ، وكلمة «فلا تتبعه نفسك» التي هي الخبر مطلب رفيع من سيدنا صلوات الله وسلامه عليه وإنما يُلَقَّاها وَيَتلقّاها الذين صبروا وما يُلقّاها ويتلقاها إلا ذو حظ عظيم وهم الذين أُعْطُوا الصبر وما أُعطيَ أحد من عطاء خير وأوسع من الصبر ، قلت هذا لأن قوله عليه السلام فلا تتبعه نفسك آكد في النهي عن أخذه من أن لو قال فلا تأخذه ليقابل بذلك قوله أوّلاً (فخذه) وذلك لأن اتْباع النفس للمال قد يُفضي إلى أخذه لأن هذا الاتباع هو طريق أخذ المال والنهي عن اتباع النفس له مثل النهي عن المقاربة في قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ ، وهذا آكد من أن لو قال فلا تأخذوا أو تأكلوا مال اليتيم ، وكلمة (فلا تتْبعه نفسك) بضم التاء والنفس في العبارة مفعول به يفيد أنك لابد أن تكون قادرًا على كف نفسك حتى لا تَتْبع ما ليس لها ولابد أن تكون مسيطرًا عليها ولا ترسلها تتبع هواها وتتبع ما تشتهي ، وفيه أنك قادر على أن يكون لك سلطان على نفسك فتكفُّها عن ما يجب أن تكفها عنه ، ولو كنت لا تقدر على ذلك ما كلفت به لأن التكليف لا يكون إلا بالمستطاع ، والتكليف يعني السيطرة على النفس وضبط حركتها على الوجوه الشرعية وما تزال بها حتى يكون هواها تَبَعًا لما جرى به أمرربها وتكون قرة عينك في إنجاز هذه التكاليف ، وقديما قالوا :

والنفس كالطفل إن تَرُكْه شبَّ على حُبِّ الرّضاع وإن تفطِمْـه يَـنْفَطِمِ

وهناك ملاحظات وأحوال صاحبت نشأة العلوم في تاريخنا وهي من الأهمية بمكان وقد أهملناها بل وسِرْنا في الطريق المعاكس لها ، وأحسب أن وجودها وملازمتها لتاريخ الفكر والعلوم كان من العوامل التي تساعد على وجود أمة وصفها ربنا بأنها خير أمة أخرجت للناس ، وأعني بذلك أن العلم كان مرتبطًا بالعمل ارتباطًا لا ينفك بل كان يُبْحَثُ عنه من أجل أن يعمل به ، وكان العلم بلا عمل به يُعدّ ذنبًا يستعاذ بالله منه ، وكان عليه السلام يقول « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع » وهذا لا يجوز أن يقف عند علم الحلال والحرام وإن كان أبرَّ ضروب العلم بالإنسان لأنه هو العلم الذي يَرْتفع بالإنسان إلى المقام الذي كرّمه الله فيه وسخر له ما في السموات وما في الأرض وإنما هو عام في العلم كله كما يدل عليه إطلاق لفظ العلم في دعاء رسول الله ﷺ ، وقالوا إن من العلم ما تَثْقَفُهُ العينُ ومن العلم ما تثقفه اليَدُ ومن العلم ما تَثْقَفُه الأذنُ وهذا الربط الأكيد بين العلم والعمل ، وأن المسألة ما إن تُعْلَمْ حتى تتحول إلى عَمَل وإلى سلوك هو أهم أسباب التَّغْيير الاجتماعي في المجتمعات وأهم أسباب التقدُّم والنهضة ، وأن العلم لم ولن يكون تَرَفًا عَقلِيًا إلا عند الأمم الملفوفة بالغفلة والتي أخذتها سِنة من الجهل والاسترخاء وأوشكت أن تركن إلى أن تَذِلَّ للأقوياء أو أن تستقوى بأعدائها وهذا غاية العَمَه السياسي والاجتماعي .

أريد أن أقول إن ارتباط العلم بالعمل هو العامل الذي ساعد على وجود أجيال الفاتحين والذين عمَّر الله بهم الأرض وكشف بهم الظلم عن الشعوب المقهورة المستعبدة ، والتي استعبدها من استعبدها . وقد خلقهم الله أحرارًا كما قال عمر في إشارة إلى مسيرة الفتح الإسلامي وأنه كان عنوانه (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا) هذا الجيل الذي هو خير أجيال

الأرض ، كان ثمرة ارتباط العلم بالعمل فكانوا إذا سمعوا شيئًا من رسول الله ﷺ أنفذوه كما سمعوه ولم يكن هناك علم معطَّل يعني لم يكن هناك علم غير معمول به وأن الأمر سار على هذا الوجه وظل العلم مرتبطًا بالعمل ثم انقطعت هذه الصله وصرنا إلى ما نحن فيه والآن عندنا أفكار وعلوم تنامت واستفاضت واتّسعت وحصلت القطيعة التي تشبه أن تكون كاملة بين العلم والعمل ، وهذا مما يجب أن يراجع قلت هذا لأن عمر أنفذ ما سمع من رسول الله ﷺ ثم لما ولى الأمر بعد أبي بكر جاءه صحابي جليل رفض أجر عمل قام به وقال إنه عمله لله ورأى عمر موقف الصحابي يشبه موقفه الذي كان منه مع رسول الله ﷺ لما قال عمر أعطه من هو أفقر إليه مني فأبلغ عمر هذا الصحابي الجليل ما سمعه من رسول الله ﷺ فعمل به كما عمل به عمر . روى مسلم بسنده عن ابن السَّاعدي المالكي أنه قال استعْمَلني عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الصَّدَقة فلما فرغت منها وأديتها إليه أمَرَ لي بعُمالة فقُلْت إنما عَمِلْت لله وأجْرِي على الله . فقال خذ ما أُعْطِيتَ فإني عَمِلْتُ على عَهْدِ رسول الله ﷺ فعمَّلني فقلت مِثْلَ قولك فقال لي رسول الله ﷺ « إذا أُعْطِيتَ شيئًا من غَيْر أنْ تَسْأل فكُل وتصدَّق » والعمالة بضم العين أجر العمل ، ومعنى عمَّلني أعطاني أجر العمل ، قال النووي : وذُكِرَ بابن الساعدي لأنه استُرْضِعَ في بَنِي سَعْد بن بكر وهو أبومحمد عبدالله بن وقدان ينتهي نسبه إلى مالك بن حنبل بن عامر بن لؤَيٍّ بن غالب وهو صحابي جليل ذُكر بجَدّه مالك بن حنبل وروى عنه جماعة من كبار التابعين .

وقد ذكر النووي في تعليقه على هذا الحديث أن العلماء اختلفوا فيمن جاءه مال هل يجب قبوله أم يندب ؟ على ثلاثة مذاهب حكاها ابن جرير

الطبري ، والصحيح المشهور الذي عليه الجمهور أنه مُسْتَحَبٌّ في غير عَطِيَّة السُّلطان ، وأما عطية السلطان فحرَّمها قوم وأباحها قَوْم وكرهها قَوْم ، والصحيح أنه إذا غلب الحرام فيما في يد السلطان حَرُمَتْ وكذا إن أعطى من لا يستحق وإن لم يغلب الحرام فمباح إن لم يكن في القابض مانع يمنعه من استحقاق الأخذ ، وقالت طائفة الأخذ واجب من السلطان وغيره ، وقال آخرون هو مندوب في عطية السلطان دون غيره والله أعلم ، انتهى كلام النووي .

ولما سمع عبد الله بن عمر ما سمعه عمر من رسول الله ﷺ كان لا يسأل أحدًا شيئًا ولا يرد شيئًا أُعطِيَهُ . وإنه من الممكن أن يكون كل جيل من أجيال الأمة كهذا الجيل الأول وأنه لا يحتاج في ذلك إلا إلى شيء واحد فقط وهو أن يُنْفِذَ كل عِلْمٍ عَلِمَ به ، وهذا هو الذي كانوا عليه وهذا هو الذي جعلهم خير أجيال الأرض ، وهذا هو الطريق الوحيد لتحصيل هذه الخيرية في هذه الأمة .

هذه الأحاديث التي ذكرتها تحت عنوان حقيقة الثراء قليل من أحاديث كثيرة جاءت في معناها وأكتفى بها لأنها تحقق ما كتبتها من أجله وهو حماية النفس الإنسانية من طاغوت الثروة وسطوة المال ، وهذه الحماية لم أجد فيها صَرْفا عن الثروة ولا قدحًا في ثراء لأن قوة الأُمَّة في هذه الثروة وفي هذا الثراء وإنما هي ضوابط تَضْبِطُ شَهْوَةَ التملك وتضع خطوطًا حمراء أمام أصحاب هذه الثروات وأنه لا صدام بينهم وبين تنمية ثرواتهم إلى أقْصَى حد ما دَامُوا يلتزمون بوجوه الحلال في الكسب وما داموا يؤدون حق الله في المال الذي جعلهم مستخلفين فيه .

وأشرت في الذي مضى إلى أن الأحاديث التي تكون في باب واحد يمكن أن ننظر في ترتيب معانيها وأن نقول إن هذا الحديث مثلاً يأتي بعد هذا مع صرف النظر عن زمن مقالة رسول الله ﷺ له ، لأن تأريخ الأحاديث غير ممكن واحتمال أن يكون رسول الله ﷺ قال أولاً ما نراه نحن في الترتيب ثانيًا أو ثالثًا ، كل هذا لا يدخل في الذي أقصده لأني أقصد مثلاً إلى أن أقول إن قوله عليه السلام أخوف ما أخاف عليكم ما يخرجه الله لكم من زهرة الدنيا يأتي في ترتيب المعاني بعد قوله ليس الغنى كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس لأنه عليه السلام في هذا الحديث يعلمنا أن الثروة الحقيقية هي في النفس الراضية بما قسمه الله لها ، ثم يأتي الخطر الذي يخافه علينا من زهرة الدنيا ، ويمكن أن أقول إن قوله عليه السلام «وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه» يأتي قبل ليس الغنى بكثرة العرض ، ومثل هذا الترتيب الذي من المفيد أن نفتح بابه قابل للاختلاف ولك أن ترى فيه غير الذي رأيت وهو في الأحوال كلها يعين على مزيد من الفهم وهذا هو المطلوب .

قلت هذا لأن لرسول الله ﷺ أحاديث أراها أصلاً لكل هذه الأحاديث وهي أحاديث تتكلم عن موقف ابن آدم من الثروة وأنه خلق مولعًا بها وذلك من مثل قوله عليه السلام فيما رواه مسلم بسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «لَوْ كان لاٌبن آدمَ واديان من مالٍ لاٌبْتَغَى واديًا ثالثًا ولا يملأ جَوْفَ ابن آدم إلا التراب ويتوبُ الله على من تاب»، وقد روى هذا الحديث عن أنس وفيه اختلاف يسير قال : «لو كان لابن آدم وادٍ من ذَهَبٍ أحب أن يكون له وادٍ آخر ولن يملأ فاه إلا الترابُ ويتوب الله على من تاب»، وجاء أيضًا «لو أن لابن آدم ملءَ وادٍ مالا لأحب أن يكون إليه مثلُه ولا يَمْلأ نَفْس ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب» .

والمطلوب أن نقف عند ذكر ابن آدم وقالوا سُمّي آدم آدما لأنه خلق من أديم الأرض ، وكلمة آدم مرتبطة في الكتاب بخلقه من طين أو من تراب وهنا يعني أن هذه الأحاديث تتكلم عن خليقة في ولد آدم مسلمًا كان أو كافرًا عربيًا كان أو أعجميًا في أي زمان وفي أي مكان وفي أي مُستوى من العلم والثقافة وأن هذا التطلع للثروة هو خليقة الكل ، وكلمة الوادي تعني المكان المتسع الذي يسيل فيه الماء ويوجد فيه الشجر والزرع ، وسُمّيت الفرجة بين الجبلين واديًا وقد يكون الوادي أرضًا متسعة لا ماء فيها ولا زرع كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾ وامتلاء الوادي بأي معنى من هذه المعاني بالذهب أو بالمال صورة غريبة وعجيبة وأعجب منها الإنسان الذي عنده هذا الوادي الممتلئ ذهبًا أو مالاً ثم يبتغي ثانيا فإذا كان عنده الثاني ابتغى الثالث وهذه الطبيعة النفسية الخارجة عن كل معقول أو مألوف ناسبها هذه الصورة صورة وادي الذهب الخارجة عن كل معقول أو مألوف ومن فطنة المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ومن بلاغته العالية أنه يقول عقب ذكر هاتين العجيبتين ولا يملأ جوف ابن آدم أو ولا يملأ فاه إلا التراب يعني أن هذه الجبلّة ناشئة فيه ما عاش وإنما يرضى ويقنع يوم أن يموت ويدفن في التراب ويمتلئ جوفه أو يمتلئ فَمُه بالتراب .

وليس في كلام الله ولا في كلام رسوله ما يطالب الإنسان بأن يقتلع هذه الخليقة من نفسه ، وإنما جاء كلام رسول الله ﷺ لتنظيمها وتهذيبها والتسامي بالنفس أن تمتلك من وجوه الحلال ما تمتلك ، والشرط المطلوب هو عدم استشراف النفس وكبح هذا الاستشراف إن وجد حتى تظل الثروة مملوكة لصاحبها ولا تتحول الثروة لأن تملك صاحبها فيدخل في تَعِسَ عبد الدينار وعبد الدرهم ، المطلوب أن تسيطر النفس الإنسانية المتسامية فوق الشهوات والأهواء .

ويلاحظ أن ابن آدم المذكور في الحديث منهم النبيون والصديقون والصالحون ومنهم الذين اصطفاهم ربنا وقد اصطفى آدم ونوحًا وإبراهيم وإسماعيل واصطفى آل عمران واصطفى مريم صلوات الله وسلامه عليها ، ولابد أن تقف هنا وقفة لطيفة وهي أن آدم الذي أورثنا هذا لأن كل واحد منا فيه إرث منه عليه السلام خلقه الله من تراب وفطن إبليس إلى أن التراب هو أصل غريزة حب الملك فلما أراد إغواء أبينا ووسوس له وكان أبونا حديث النشأة لم يكتسب تجربة ولم يتلق من ربه إلا قوله تعالى له ولأمنا حواء ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أقول لما أراد إبليس إغواء أبينا آدم قال له ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ راجع كلمة وملك لا يبلى ثم ضم إليها شجرة الخلد وضع بإزائهما قوله عليه السلام يشيب ابن آدم ويشب فيه خصلتان الحرص وطول الأمل ، وطول الأمل هو الخلد والحرص هو الملك الذي لا يبلى والحديث في ابن آدم ، والمهم هو أن آدم لما عصى تلقى من ربه كلمات فتاب عليه وتَهَيَّأ لأن يكون أول من اصطفاهم ربنا ومن بعده بنيه وهذا يعني أن هؤلاء المصطفين الأخيار من الأنبياء والصالحين ضبطوا وكفوا خليقة ابتغاء الوادي الثاني والثالث وكفوا استشراف النفس ولم يسقط أحد منهم في سؤال المال .

وهذا هو المطلوب سلوكه ولو قلت إن حديث الوادي والواديين ناظر إلى قوله تعالى في آية آل عمران ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ إلى أن قال تعالى ﴿ وَٱلْقَنَـٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ والقنطار لا حدود له والمقنطرة تأكيد للقناطير ، ولو وضعت الكلمة القرآنية (القناطير المقنطرة) بإزاء واد من ذهب لرأيت تشابهًا شديدًا ولو قلت إن

الكلمة القرآنية هي أصل كلمة سيدنا رسول الله ﷺ لم تكن مخطئًا ، ولو قلت إن آية آل عمران جذر كل هذه الأحاديث لم تكن مخطئًا ، ثم إن جمع جميع بني آدم في حديث واحد فيه إشارة إلى الرحم الجامعة بين الناس جميعًا وهي رحم توجب التراحم والتسامح والتعاون لأنكم جميعًا مُسلِمكُمْ وكافركم أبناء أبٍ واحد وأنتم في هذا الوجود عائلة واحدة كعائلة الكواكب وعائلة النبات وعائلة الطير إلى آخره ، والقرآن العظيم يذكرنا بذلك كثيرًا وقد جاء نداء ربنا لنا بيني آدم في آيات متتابعة في سورة الأعراف ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾ و﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾ و﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ ﴾ و﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ ﴾ وكل هذا جاء بعد ذكر النشأة ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ﴾ وكأن الآيات تضمُّنا جميعًا في عائلة واحدة حول أبينا آدم .

وقد علم الله سبحانه أننا سَنَنْسَى هذه الرحم فكان يذكرنا أحيانًا بهذه الرحم ويحدثنا بكلمة (الناس) التي هي من النسيان كما في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ﴾ (النساء:١) راجع « من نفس واحدة » ، « وبث منهما رجالا كثيرًا » ، ثم كلمة « الأرحام » وعنوان هذا كله يا أيها الناس أعني الذين من شأنكم النسيان لا تنسوا هذا الجذر حتى لا تتهالكوا ، ومن هذا الباب أن كلمة (الإنسان) تأتي حين التذكير بما هو إنساني وبما لا يجوز لإنسانيتكم أن تهملوه تجد هذا في قوله تعالى ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ ﴾ ، وهذا باب جيد وجدير بأن يُستَقصى وتستخرج أسراره .

وراجع حديث أنس برواياته الثلاثة : لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديًا ثالثًا ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب .

لو كان لابن آدم واد من ذهب أحب أن يكون له واد آخر ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب .

لو أن لابن آدم ملءُ واد مالاً لأحَبَّ أن يكون إليه مثله ولا يملأ نفس ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب .

هذه الروايات الثلاث متفقة على أمرين : الأول وهو الرأس والأهم هو ابتغاؤه وحبه المزيد من المال وأن ماله كلما زاد وكلما تضخمت ثروته امتدَّ حُبُّه وزاد وتضخَّم بمقدار زيادتها وتضخمها فلو كان عنده واديان ابتغى ثالثًا ولو كان عنده وادٍ من ذهب أحب أن يكون له واد آخر وهذا راجع إلى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (العاديات:٨) ولقوله جل شأنه ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر:٢٠) وهذا نِصْفُ الحقيقة الأولى ، ونصفها الثاني أنه سيظل كذلك حتى يعود إلى التراب ويُدْفن فيه ، وفيه إشارة إلى أن هذا الحب الشديد للعرض الزائل مرجعه إلى العنصر الترابي الذي في جذره وأنه سيعود به إلى التراب .

والأمر الثاني الذي اتفقت عليه الروايات الثلاث هو جملة (ويتوب الله على من تاب) وهي التي يجب أن نقف عندها لأن المرء لا يُلام على حبه للمال ولا يؤثَّم بذلك والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ ، وقال ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ إلى آخره ، فما وجه ذكر جملة « ويتوب الله على من تاب »؟ ولو كان

الباقلاني يقرأ معنا هذا الحديث لقال لنا هذه الجمل الثلاث مختلفات ألف بينها شريف النظم ونرجو أن نبين ذلك ، والمؤتلف عند الباقلاني في الجمل يشبه مراعاة النظير في الألفاظ ، فقوله تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ - ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ - ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ - ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ كل هذه الجمل من المؤتلف لأن بينها من التقارب في المعاني ما ترى ، وقوله تعالى في آخر الآية ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ جملة مختلفة يعني غير مؤتلفة مع ما قبلها .

والجمل الثلاث التي معنا واحدة تقول : لو كان لابن آدم واديًا من مال لابتغى ثالثًا ، وواحدة تقول : ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، والثالثة تقول : ويتوب الله على من تاب ، وبينها من الاختلاف ما ترى ولهذا سُمِّيت مختلفة ، والذي ألف بينها شريف نظمه صلوات الله وسلامه عليه ، وبيان ذلك أن الثانية (ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب) هي امتداد لمعنى لو كان لابن آدم واديان إلى آخره وأن هذا الوَلَع غير المعقول بالثروة والذي هو جِبلَّة في ابن آدم مُمْتَدٌّ ما امتد به العيش ويبقى هذا الطمع المفرط ما بقي حيًّا فإذا مات ودفن في التراب سدَّ تراب الأرض هذا الفراغ المشتهى للمال لأنه فراغ لا يسده واد من المال ولا واد من الذهب وإنما يسده فقط تراب القبر ، وفي هذا من السخرية شوب لا ينكر ، وأنه يعيش ما يعيش جائعًا لا يشبع كما في الحديث كالذي يأكل ولا يشبع ، ويعيش أيضًا ظامئًا لا يَرْوَى بخلاف الذي يجد الغنى في نفسه فإنه يعيش بالذي عنده راضيا راويًا ، وهذا هو التآلف الذي ألَّفه شريف النظم وهو كما ترى رابط معنوي يعني براعة في إمساك المعنى بالمعنى وامتداد معنى إلى معنى .

أما جملة ويتوب الله على من تاب ، فإن أقوى مظاهر اختلافها هو أنها لم تسبق باقتراف ذنب حتى يبرِّر هذا الاقتراف وجودها وقربها ، لأن رسول الله ﷺ لم يذكر لابن آدم خطيئة في الحديث لأن حب المال ليس ذنبًا يتوب منه صاحبه لأننا فطرنا على حب الخير كما قال ربنا ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ والمال من الخير ، وقد مدح ربنا وأثنى على الذي يبذل الطعام على حُبِّه ويعطيه المسكين واليتيم والأسير ، والطعام من المال وحب الطعام ليس ذنبًا ، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ رجال بلغوا من الثراء ما بلغوا ومنهم مبشرون بالجنة ، ولم أعرف في كتاب ولا في سنة تأثيم حب الثروة ، ولا تأثيم امتلاك الثروة ما دامت قد اكتسبها صاحبها من وجوه الحلال وأدى منها حق الله الذي هو الزكاة ، وذنب الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله هو منع الزكاة ، فإذا كانت عندك كنوز الذهب والفضة من حلال ، وأديت زكاتها فلا لوم عليك ، لأن الله يعلم أن حاجة الأمة إلى ثروات أبنائها حاجة ماسَّة وأنه نعم المال الصالح في يد الرجل الصالح ، وأن عمارة الأرض لا تكون إلا بهذه الثروات ، وأن قوة الأمة لا تكون إلا بهذه الثروات ، وأن التَّصْنيع وإصلاح الأراضي ومشاريع التَّنمِية في الأمة لا يكون إلا بالثروات ، وأنه لا يجوز أن تكون ديارنا مجالات استثمار لأموال أعدائنا وأن يتحول أولادنا إلى عمال في مشاريع استثمار بمال غير المسلمين ، فلك أن تحب أن يكون لك واد ثان وثالث ورابع ، ولكن الشرط الذي لا تساهل فيه هو كَسْبُها بطريق الحلال وآداء حق الله فيها ، ولاحظ أن كَسْبها بطريق الحلال يطوي في داخله الكلمة النبيلة التي قالها سيدنا وسيد سادتنا صلوات الله وسلامه عليه وهي (وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه) لأن الذي يتوقف أمام الكسب

الحرام الذي كثيراً ما يكون شديد الإغراء وكبير الحجم هو الذي كبح استشراف نفسه وامتلك أمره وأملك أمره الذي يمتلكه إلى أمر ربه ونهيه فالذي يبتعد عن الصفقة المُغْرية بذهبها وفضتها لأنها تخالف أمر الله هو غير المشرف وغير السائل ، والذي يقبل الصفقة الحلال هو الذي لا يُتبعُ نفسه المال ، لأن ضوابط الشرع هي في الحقيقة ضوابط النفس الساميةُ المتسامِية التي تعمر بها الأرض العمران النظيف الذي خلقنا الله له وليس إعمار اللصوص والمغامرين والمقامرين بأرواح البشر والذين يعيشون على هذه الأرض كلابًا مسعورة ووحوشًا مفترسة .

ولا أظن أن هذا الذي قلته لا خلاف فيه ، وأُضيف أيضًا أن الحث على الإنفاق في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ ورد ذكره في آيات وأحاديث تزيد على ذكر الصلاة والصيام والحج ووعد المنفقين بمضاعفة الأجر إلى سبعمائة ضعف ثم يزيد ربنا من الأضعاف من يشاء أن يزيدهم من خلقه لعلمه بما في نفوسهم وأمرنا بأن نبذل من المال الذي جعلنا مستخلفين فيه ما نُعدُّ به جيوشنا لمقابلة جيوش أعدائنا ، وناهيك عن هذه التكاليف وقد رأيت ذلك واضحًا في آخرُ سورة القتال ، وهذا لا يكون في يد أمة تتقرب إلى الله بالفَقْر والحاجة لأن الفقر يورث الجهل والمرض ونحن مطالبون بأن نكون الأقوى والأعلى ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ وأهم من ذلك كله هو أن حب الثروة لو كان إثمًا لما استحق المنفق ثوابًا ، لأنه استحق الثواب على إنفاقه مما يحب والذي ينفق ما لا يحب لم يتكلف شيئًا ، وإنما كُنْتَ كريمًا وكُنْتَ مُعْطِيًا وكنت متصدِّقًا لأنك تعطي ما تحب ، ومن أجل أنْ يُغْرِيكَ ربُّك بالنفقة قال لك هي قرض حَسَنٌ مِنْك لي وأنا الذي لي ما في السموات وما في الأرض وسأعطيك الواحدة بعشرة أمثالها إلى آخره ،

الخلاصة أنه لو كان المال غير محبوب لما رأينا في الإنفاق شيئًا من ذلك ولما رأينا يمين الله تمتد إلى يد المُنفِق لتقع فيها الصدقة قبل أن تقع في يد المسكين ، ثم الخلاصة أيضًا أن جملة ويتوب الله على من تاب ليس قبلها ذنب يستحق التوبة وخصوصًا أن التوبة لا تكون إلا من كبيرة لأن الصغائر لا تحتاج إلى توبةٌ لأنه يكفرها اجتناب الكبائر وتكفر أيضًا بالذكر والصلاة فما وجه ائتلافها بما قبلها ؟ ووجه الائتلاف فيما أرى هو أن هذه الحالة من الوَلَع والافْتِتَان بحب المال مَظِنَّةٌ أن يُغرى ويُغْوى بتعدى حدود شرع الله في جمع الثروة وفي وجوه إنفاقها وأنه لا ينجو من ذلك إلا من عصم ربك وأن أكثر الآثام والشرور التي تحدث على هذا الكوكب سببها الثروة كما قلت وأن الأقوياء يأكلون الضعفاء من أجل الثروة وكم من شعوب دُمِّرت ودول حُوربت من أجل الثروة هذا فيما يتعلق بعلاقات الأمم أما علاقات الأفراد في المجتمع فعليك أن تترك الكتاب ساعة واحدة وتراجع ما حولك لترى حجم المظالم الواقعة على الناس من ظلم الناس بسبب الثروة ، وهذا يعني أن جملة ويتوب الله على من تاب رجعت بشيء من التحذير إلى الجملتين السابقتين ونبهت إلى أن هذه الحالة جعلتكم على شاطئ المخالفة فاحذروها لأنكم كأنكم وقعتم في الذنب ورسولكم الكريم يقول لكم لا تتمادوا في المعصية وإنما توبوا لأن من تاب تاب الله عليه ومن تاب توبة شرعية وعد الله بقبولها وهو لا يخلف وعده ، ثم إن من تاب لا يغفر الله له ذنبه فحسب وإنما يثيبه على التوبة لأن التوبة عمل صالح يعطي الله فاعله أجرًا ، وراجع هذا وتأمله لأن إكرام الله فيه لا حدود له ، ومن العجيب أن الله سبحانه وتعالى يحب التوابين والتائب لا يكون تائبًا إلا من ذنب فهو رجل مُذْنب ثم تاب ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى يُحبُّ التوابين فإنه يعني أنه

سبحانه وتعالى يحب المُذْنبين الذين يتوبون من الذنوب ، وكأن الذنب الذي اجترحه سيكون وسيلة وسبيلاً ابتغى به حُبَّ الله إذا تُبْتُ من هذا الذنب. قلت هذا عجيب ولا يهلك على الله إلا من يريد أن يهلك ، وكلكم يدخل الجنة إلا من أبي ، ومن الكلمات التي هي برد على قلوب الخائفين الوجلين قوله تعالى في سورة النساء ، ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ وراجع هذا لأننا ألفنا أن نكرر القرآن من غير تدبر ، وأفهم منها أن مالك السموات والأرض وما بينهما يريد أن يتوب عليّ وعليك ، وأنه ما يفعل بعذابكم إن شكرتم ، وإذا قلت لي إن مراد الله لا يتخلف وما دام يريد أن يتوب علينا فلماذا لم يَتُبْ علينا ؟ قلت لك هذا كلام سطحي لأن الجملة تقول إنه سبحانه يريد أن يتوب علينا وهذا قائم ومتحقق والمضارع فيه دال على أنه قائم إلى أن يسقط التكليف ، ولكن المشكلة عندنا نحن لأنه لا يتوب علينا إلا إذا تُبْنا ، فمَنْ تاب مِنَّا تاب الله عليه ، وإرادته سبحانه متعلقة بتوبته علينا وليست متعلقة بتوبتنا إليه فهي واقعة غير متخلفة إذا تبنا .

ومن العجيب أيضًا أنك إذا أذنَبْتَ ثم تُبْتَ تاب الله عليك فإذا عُدْت إلى هذا الذنب ثم تُبْتَ تاب الله عليك فإذا عُدْت إلى هذا الذنب ثالثة ورابعة وتبت تاب الله عليك ولو أذنبت هذا الذنب مائة مرة وتبت منه مائة مرة تاب الله عليك منه مائة تَوْبةٍ ، ولك في كل توبة أجر مع محو الذنب وكان الله أفرح بك من أحدكم ضلّت راحلته في فلاة وعليها طعامه وشرابه ثم فوجئ بها هكذا فرح ربك بك وأنت تذنب الذنب الواحد مائة مرة ثم تذكر ربك فتتوب وتنوب والمهم الوفاء بالتوبة التي حدّد العلماء شروطها .

قلت إن جملة ويتوب الله على من تاب لا تعني أن حب المال وحب وادي الذهب ووادي الفضة حبٌّ مؤثِّم ، وإنما تعني أن هذا الحب مما ابتلانا

ربنا به لأنه لا يسلم من غوائله إلا من خاف الله واتقاه وغوائله هي أن يكسب المال من غير الوجه المشروع ثم لا يؤدي فيه حق الله . وإذا حَفِظت هاتين وأمكنك أن يكون لك وادٍ من الذهب فحصِّل هذا الوادي وأنت مأجور غير مأزور ، واعلم أن الله الذي يحثنا على الإنفاق يَحُثُّنا في هذا الحث على كسب المال الطيب ، وحين يمُدّ يمينه وهو مالك السموات والأرض لتقع الصدقة في يمينه قبل أن تقع في يد المسكين إنما يغريك بهذا المد بالكسب الطَّيِّب بل وبالكسب الكثير ، حتى تضع في يمين الله الطيب الكثير ، وهذا ظاهر ، وظاهر أيضًا أن الله سبحانه وتعالى حين ينادي الذين آمنوا فيُقبِلون عليه ويجتمعون حوله سبحانه ليس كمثله شيء ويقول لهم قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، يقول لنا هذا ربنا سبحانه وهو يعلم الزمن الذي نحن فيه ويقول كل ما يقول لزمن نحن فيه ولزمن غيرنا فيه إلى يوم أن ينفخ في الصور ، أقول يقول لنا ربنا هذا وهو يعلم أن أفعى صهيون ستكون لنا جارة ، « فيا جارتا أنت ما أهول » ، وأن جوارها هذا جوار بَغِي وفجور لأنها اغتصبت من أرض أهل الإسلام ، وأننا لا نستطيع أن نُنْفِذَ أمرْ ربنا وأنْ نقاتلها حتى تجد فينا غلظة إلا إذا كانت عدتنا وعتادُنا أكثر تقدمًا من عُدتها وعتادها ، ويعلم سبحانه أن كل ما تنتجه مصانع الأسلحة المسيحية واليهودية كأنه في حوزتهم وأننا محتاجون إلى تفوق في العلم وتفوق في الصناعة حتى نستطيع مواجهة هذا التحالف الصليبي الصهيوني الذي فُرِضَ علينا وهو كره لنا ولا مفر من مواجهته وأن المطلوب منا في المواجهة هو أن نعد لها ما يتحقّق به النَّصر ، أقول علم الله ذلك وعلم التكاليف المادية والعلمية التي وراء كل هذا وأنه يستند على أشياء أهمها مع العلم والبحث والجد القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ولهذا وغيره أؤكد

وأنا مطمئن أن قوله عليه السلام « ويتوب الله على من تاب » ليس راجعًا لإثمٍ في حب المال ولو كان واديًا أو واديين أو ثلاثة ، وإنما هو راجع إلى الانحراف في التعامل مع هذا المال ، ولم أقرأ مثل هذا في كلام شراح الحديث الذين كتبهم بين يدي ومردُّ سكوتهم عنه أن أحداث زمانهم ليست كأحداث زماننا وأنا أقرأ ما أقرأ من كلام الله وكلام رسوله ﷺ في ضوء الواقع الذي يعيشه من خاطبهم الله ورسوله لأن أهم ما في الكتاب والسنة كما قلت وأكرر هو أنه كأنه نزل اليوم وأن ما أعيشه هو سبب النزول للتطابق الشديد والسداد الشديد في علاج الوصب الذي تعيشه الأمّة ، وفي قوله عليه السلام « ويتوب الله على من تاب » ومضة خفية كومضة الضياء تهش لها قلوب أهل الرجاء أعني قوله عليه السلام « ويتوب الله على من تاب » وتقديم « يتوب الله » على توبة العبد وكأن توبة الله عليَّ وعليك تسبق توبتي وتوبتك وأنك ما إن عَقَدْتَ العزم على الأوْبة والتوبة إلا وجدت توبة الله تسبق توبتك ، ولو قال عليه السلام من تاب يتوب الله عليه ، لذهب هذا المعنى ثم إن المضارع في قوله (ويتوب) يجعلُ هذا الحدث الذي هو توبة الله على من تاب فعلاً مُمتدًا من يوم أن نطق به سيد الخلق الناطق بوحي ربه إلى أن يَبْطلُ التكليف ، ولا يجوز أن تُثْقِلَنَا ذنوبُنا فلا نخف إلى الله تائبين مُنِيبين وأعجب من كل ما مضى وكله عجب من سعة رحمة الله ، أنك مهما ارتكبت من الذنوب فهناك ذنب هو أبشع منها جميعًا فاحذره وهو أن تيأس من أن تسعك رحمة ربك إذا مددت إليه يدك تائبًا نائبًا مستعظمًا ذنبك لأنك لم ترتكب ذنبًا أبشع من هذا اليأس وأراه أبشع من ذنب القتل الذي أجمعت الأمة على أنه هو الذي يأتي بعد الشرك بالله ، وقلت هذا مع علمي بإجماع الأمة لأن اليأس من رحمة الله قدح في الاعتقاد لأن الاعتقاد

متضمن التحذير من اليأس من رحمة الله وأنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون ، فاليأس أخو الشرك ، فلا تقعد عن طلب رحمة الله وإن قتلت وشربت الخمر ونهبت وكذبت وفعلت كل الكبائر ، وأرى في هذا المعنى في دين الله عاملاً من أهم عوامل سلامة المجتمعات لأن الخطائين إذا يئسوا من رحمة الله كانوا شراً مستطيراً في المجتمعات التي يعيشونها والله سبحانه وتعالى يفتح باب رحمته وينادي في عباده أنه سبحانه يريد أن يتوب علينا ، هذا والله أعلم .

• الجهـــاد

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال : قـال رسـول الله ﷺ : « تضـمَّن الله لِمَنْ خَرَجَ في سبيله لا يُخرجُه إلا جهـادًا في سـبيلي وإيمانًـا بـي وتصـديقًا برسُلِي ، فهو عليَّ ضامِنٌ أنْ أُدْخِلَه الجنة أوْ أرْجِعَه إلى مسْكنه الـذي خـرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة .

والذي نفس محمد بيده ما من كَلْمٍ يُكلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم لونهُ لونُ دَمٍ وريحهُ مِسْكٌ .

والذي نفس محمد بيده لَولا أنْ يَشقَّ على المُسـلمين مـا قعَدْت خـلاف سريّة تَغْزو في سبيل الله أبدًا ، ولكن لا أجد سَعَةً فأحْمِلهم ولا يجدون سَعَةً ويشق عليهم أن يَتَخَلَّفوا عنيّ .

والذي نفس محمد بيده لـوددت أن أغـزو في سـبيل الله فأُقْتَـل ثـم أغـزو فأُقْتل ثم أغْزُو فأقتل» .

* * *

هذا الحديث له سمت ظاهر لا يحتاج إلى تدبر وذلك لأنك تراه جاء في أربع فقرات هذه الفقرات جاءت مرتبة ترتيبًا دقيقًا جـدًّا جـاءت أولاهـا في صورة لا تكون إلا أُولاها لأنها المعنى الأصلي الذي دَارَ الحديثُ كلـه عليـه وهي ضَمَانُ الله سبحانه لمن خَرَج من بَيْته مجاهدًا في سبيله لم يُخرِجْـهُ إلا الإيمان بالله والتصديق برسله أقول ضـمان هـذا الخـارج علـى الله أن يُدْخَلـه الجنة إذا استشهد أوْ يعودُ بأجرٍ وغنيمة أو يَعُود بغنيمة .

وهـذا أصـل هذا المعنى في هذا الحديث وكل ما بعده متفَرّعٌ منـه وأهـم ما في هذه الفقرة هو عنايتها بخلـوص القصـد في الخـــروج إلــى سـبيل الله وأنه ليس وراء هذا الخروج شيء إلا نُصْرةُ الحق ، فإذا خرج لأي شيء آخر مع هذا الغرض فليس من الداخلين في هذا الضّمان وذلك بخلاف الحج مثلاً فإذا خرجت للحج ولتبتغي منـافع لـك فلـيس في هـذا الابتغـاء حـرجٌ ، ثـم اهتّمت هذه الفقرةُ اهتمامًا ظاهرًا بتأكيد الوعد مع أن المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ليسوا في حاجة إلى توكيد الوعد لأن الله سبحانه لا يخلف الوعد وإنما كان هذا التوكيد لمزيد العناية بمكانة الجهاد عند الله . ويلاحظ أن هذه الفقرة ابتدأت بكلمة تضمّن الله وهي كلمة مثيرة لأنـّها أقْوَى في الدلالة من كلمة وعد الله أو كلمة ضَمِن الله .

ثم جاءت الفقرة الثانية مبتدئة بالقسم الذي لا يبتدأ به إلا في كلام له عند المتكلم شأن أيَّ شأن وتدور هذه الفقرة على صورة الذي جرح في سبيل الله وأنه يأتي في المقام المشهود وجُرْحُـه هـذا يتفجـر منـه الـذي لونـه لـون دم وريحه ريح مسك ، وهذا أول مظهر من مظاهر ضمان الله له وإكرامه لـه لأن هذا المقام المشهود يأتي فيه الغاصب شبر أرض وقـد طـوق بسـبع أرضـين ويأتي فيه سارق البعير وهو يحمل هذا البعير وله رغاء كأنه يَلْفِتُ الناس إلى خَزِيِّه ، كل عليه شارة وأمارة وعلامة تُنْبئُ عن مَكْرُمتـه إذا كـان قـد أكْـرَم . وتُنْبِئُ عن خزايته إذا كان قد تسفّل ، وفي هذا المقام يأتي هذا الشهيد النبيـل الذي مات لتسود مكارم الأخلاق والطيب من حوله يُسْتَطاب وجُرْحُه كهيئتـه يوم جُرِح وكأن اللحظة التي كانت قمة الألم وقمـة التضـحية يعيـدها الله لـه وهي قمّة الغبطة والرضا والحفاوة والتكريم .

قلت إن هذه الفقرة امتداد ظاهر للفقرة التي قبلها، ثم يبتدئ رسول الله ﷺ القسم ويعيد القسم السابق بلفظه ويكرره على مسامعنا ليشعرنا بأن أمرًا آخر له شأن عنده عليه السلام أي شأن ، ونفاجأ بالذي بعد هذا القسم أنه ليس من وعد الله للمجاهد وليس صورة من صور إكرامه وإنما ينقل عليه السلام الحديث إلى نفسه ، وبدلاً من أن يُغرينا بثواب الله للمجاهدين وأن يقول لنا اظفروا بهذا الأجر وهذه المكانة حدثنا عن رغبته هو في أن يظفر بهذا الأجر وهذه المكانة ، وهذا أبلغ في إغرائنا بها من حديثه لنا كأن يقول مثلاً اظفروا بهذا الوعد وهذا الضمان ، ووجه الأبلغية أننا نعلم أنه صلوات الله وسلامه عليه خير من خلق الله وبرأ ، وليس في ولد آدم أكرم على الله منه وأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأنه صاحب الحوض ، وصاحب الشفاعة فأي زيادة يريدها عليه السلام بهذا الجهاد ؟ الأنبياء أفضل الخلق وهو خاتمهم عليه السلام وقد أخذ الله عليهم عهدًا ليؤمننّ به ولينصرنّه ، والمجاهدون يأتون بعد الأنبياء فأي شيء يُغريه عليه السلام هذا الإغراء بالجهاد ، هذه أسئلة يثيرها هذا القسم الثالث الذي انتقل الكلام إليه ، وأنا من المولعين بالكلام الذي يثير الحيرة ويثير أسئلة لا أعرف في كلام من يؤخذ عنهم العلم جوابًا لها . والسؤال عندي غير المجاب أفعل في نفسي من السؤال المجاب ، وخلاصة هذه الفقرة أنه عليه السلام لا يَقعُد خلف سرية من سرايا الغزو في سبيل الله إلا مخافة أن يشقّ على أصحابه لأنه حين يخرج لا يبقى منهم أحد يقعد دونه عليه السلام لفرط حُبهم لهُ ثم لفرط حبهم في الجهاد معه ، ثم إن كثيرًا منهم لا يجدون ما يُحملُون عليه وهو عليه السلام لا يجد ما يحملهم عليه ، ولهذه وحدها يقعد خلاف المجاهدين في الغزوات التي كان يقعد فيها جبرًا لخاطر هؤلاء الذين لا يجدون ما يحملهم عليه والذين يتولون أحيانًا وعيونهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون .

وهذه الفقرة في غاية الأهمية ويجب أن يَعْلَم كل من آمن بمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً أنه كان من أهل الجهاد الذين لا يضعُون السيف عن عواتقهم في أي غزاة إلا لجبر خاطر المحبيِّن للغزو والذين لا يجدون ما ينفقون ومن كان يحب محمدًا فهذا هو محمد الممسك بعنان فرسه والذين يقومون على إحياء سنة محمد ﷺ فهذه هي سنته .

والفقرة الرابعة والأخيرة في هذا الحديث هي امتداد لهذه الفقرة وفيها يذهب رسول الله ﷺ مذهبًا قلما أجده ذهب إليه وهو طريق الفرض والتقدير ويقول عليه السلام « والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل » ، ويبتدئ هذا القسم الأخير بالجملة التي جاءت في الحديث في مفاصل معانيه وهي صوت واحد تسمعه الأذن ويعقله القلب . وهذا يشير إلى أن ما بعدها له شأن .

ويلاحظ أن الفقرة الرابعة كما قلت امتداد للفقرة الثالثة لأنه في الرابعة انتقل من رغبته في ألا يتخلف عن غزوة لولا ما ذكر إلى القول بأنه يتمنى أن يجاهد فيقتل ثم يجاهد فيقتل وهذا وإن كان امتدادًا لما قبله إلا أنه أدخل في الغرض وأقوى في الدلالة حتى إنه تجاوز ما يقع في الوجود إلى ما لا يقع إلا على سبيل الفرض والتقدير .

وقد بينت أن الفقرة الثانية التي هي صورة الكَلْم كهيئته حين كُلِم وأنه يجيء يوم القيامة اللون لون دم والريح مسك قلت إن هذه الفقرة امتداد لما قبلها لأنها صورة من صور الوعد الحق بثواب وإكرام وتكريم الشهداء عند ربهم .

والآن أقول إن الصورة الثالثة والرابعة امتداد للصورة الأولى والثانية وأن ترتيب المعاني باختصار شديد ، ضمان من الله بثواب المجاهدين ثم صورة

من هذا الثواب ثم يطلع محمد عليه السلام لِمرتَبتهم وأنه لولا أن يشق على أصحابه ما تخلف عن غزاة في سبيل الله ثم تَوْقه إلى أن يغزو فيقتل ثم يغزو فيقتل ، وهذا هو بناء هذه المعاني وإمساك بعضها بحُجْزَة بعض .

ودراسة هيئة المعاني وبناء بعضها على بعض من أهم ضروب دراسة بلاغة البيان لأنها تكشف كيف قامت هذه الهيئة في نفس المتكلم وكيف ترتب بعضها على بعض وكيف قامت في النفس قيامًا واحدًا وهذه عبارة عبد القاهر ، وترى في هذا الترتيب وفي هيئة بنائه شيئًا آخر هو أن مطلع الحديث الشريف وهو قوله عليه السلام (تضمَّن الله لمن خرج في سبيله) أصل هذا الحديث وترى علاقته بمقصوده علاقة ظاهرة لأن كل الذي جاء بعد هذه الجملة هو بمثابة تحليل لها ثم تجد مقطع الحديث الذي هو ودادته ﷺ أن يغزو فيقتل ثم يغزو فيقتل راجعًا إلى هذا المطلع لأنه ثمرة هذا التضمن ، وبذلك ترى وجهًا آخر من وجوه رد العجز على الصدر يمكن أن يضاف إلى الصور التي ذكرها البلاغيون ، ومن غير المعقول أن نعتقد أن أوائلنا قالوا كل شيء وأنهم لم يُبقوا لنا شيئًا نقوله وهذا كلام جيد جدًّا للذين يريدون أن يناموا أما المشتغلون بالعلم فإنهم يعلمون أن كل علم تكلم فيه أوائلنا فيه بقايا أكثر مما قالوا وأن كل مسألة تكلموا فيها فيها زوايا أغفلوها ويبدو أن بعضنا نقل ما يوصف به الكتاب العزيز وأن الله سبحانه وتعالى ما فرّط فيه من شيء إلى العلوم وأن أوائلنا في النحو والفقه والبلاغة وغيرها ما فرطوا في هذا كله من شيء وهذا حديث خرافة .

ومن الواجب أن ندرس هيئة بناء المعاني في كل رسالة وفي كل مقالة وفي كل قصيدة وفي كل حديث وفي كل سورة .

وبعد هذه الرؤية الشاملة للحديث وبيان السمت الذي جاء عليه بناءُ معانيه أبدأ في التحليل الجزئي وأول ما نلقاه هو كلمة (تضمَّن) وهي تؤكد معنى الوعد يعني فيها معنى كلمة وعد وزيادة لأن الضمان آكد من الوعد ثم إنه عليه السلام قال «تضمَّن» ولم يقل ضَمِنَ الله ، لأن تضمَّن من صيغ الافتعال وهي دالة على مزيد من العناية بالمعنى ومزيد من الاحتشاد له والفرق بين تضمن وضمن ، كالفرق بين تكسَّب وكسب ، وهذا يلفت من أول كلمة في الحديث إلى أهمية المعنى الذي سيق الحديث له وأهمية الضمان والوعد لثواب عمل جليل ، ثم إن كلمة تضمَّن هذه اشتبكت بكل كلمات القسم الأول وصيَّرت كل كلمات هذا القسم بمثابة جملة واحدة لا يَحْسُنُ السكوت إلا عند آخر كلمة في هذا القسم ، وراجع هذه العلاقات «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهادًا في سبيلى وإيمانًا بي وتصديقًا برسلي فهو عليّ ضامن أن أُدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة» تابع حركة المعنى لتتبين أيْن طال ولماذا طال وأول ما تلاحظه هو ذكر الذي تضمَّن الله له الذي هو المجاهد ، وأن الكلام اتخذ عنده سبيلاً له هدف وأول هذا أنه عُرِّف بأنه خرج في سبيل الله وكان يمكن أن يقال تضمَّن الله للمجاهد مثلاً واللام في قوله عليه السلام (لمن خرج في سبيله) لبيان الذي له الضمان ثم وقف المعنى هنا ولم يكتف بقوله خرج في سبيله وإنما حدد الغاية والقصد من الخروج وجاء بأسلوب القصر الذي يؤكد معنى أنه لم يخرج إلا لسبيل الله ، وأنه ليس هناك أدْنَى شائبة تشوب خلوص هذا الخروج ، ولهذا المعنى دَخَلَتْ جملة في قلب الكلام لتحرر المراد ولتقيِّد المعنى وهي جملة «لا يخرجه إلا جهادًا في سبيلي وإيمانًا بي وتصديقًا برسلي» وفي جملة تحرير المعنى هذه أمران لافتان

الأول : نصب المستثنى المفرّغ والأصل فيه أن يكون متصلاً بما قبل « إلا » وأنه فاعله والمعنى ما أخرَجَهُ إلا الجهادُ في سبيلي والإيمان بي والتصديق برسلي ، فهذه الثلاثة التي هي أصل الضمان وهي الجهاد والإيمان والتصديق هي التي أخرجته وليس شيء غيرها ولكن الرواية جاءت بنصب هذه الثلاثة ، ووجهها العلماء توجيهًا يكسب الجملة معنى آخر وهو أنها مفعول لأجله أي ما أخرجه الذي أخرجه إلا للجهاد والإيمان والتصديق وقد جاءت رواية الرفع في بعض النسخ ولم تذكر رواية النصب وجاءت رواية النصب في بعض النسخ ولم تذكر رواية الرفع ، والروايتان صحيحتان ويحيطان بالمعنيَيْن لأن الرفع يؤكد أن الجهاد والإيمان والتصديق هم الذين أخرجوه من بيته ، وحملوه على راحلته وأن لهم من القوة في يقينه ما يجعلهم كذلك وهذا جيد جدًّا ، ورواية النصب تفيد أن الذي أخرجه من بيته ما أخرجه إلا للجهاد والإيمان والتصديق وهذا أيضًا جيد بالغ .

والأمر الثاني في هذه الجملة التي هي أساس الضمان وأساس كل ما في الحديث ولو اهتزّ معناها بأي خاطر يدخل في نفسه هذا المجاهد لأفسد عليه كل شيء ، أقول الأمر الثاني اللافت هو أنه عليه السلام قال « تضمّن الله لمن خرج في سبيله » فدل الكلام على أن هذا إخبار من رسول الله لنا بضمان الله وكلمة (سبيله) الضمير فيها راجع إلى لفظ الجلالة والخطاب خطاب الغائب ثم لما قال ، (لا يخرجه إلا جهادًا في سبيلي) أضيفت كلمة بسبيل إلى ضمير المتكلم بدل ضمير الغائب وهذا التفات وانتقال من الغيبة إلى التكلم والالتفات تنبيه وإيقاظ وهذا مهم جدًّا في هذه الجملة التي لو اهتز معناها كما قلت لانهدَمَ بها كل شيء في هذا الحديث وبهذا الالتفات تحوّلنا نحن السامعين من سماع سيدنا المختار وهو يحدثنا عن ربنا إلى

سماع ربنا سبحانه وهو يحدثنا بذاته ويقول سبيلي وإيمانًا بي وتصديقًا برسلي وكأنه يقول لنا هذه الثلاثة لا أقبل فيها شركا أي شرك وهذا جيد جدًا ، وذكر سبيل الله والإيمان بالله وتصديق رسل الله كل ذلك يعني فرط الثواب من الله الذي هو صاحب السبيل وصاحب الإيمان وصاحب التصديق .

وقوله « فهو عليّ ضامن » هذا استمرار للانتقال من الغيبة إلى الخطاب مع ملاحظة أنه ليس الالتفات المألوف لأن الانتقال لم يكن انتقال كلام من طريق إلى طريق كما في قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ وإنما انتقال صاحَبَ مَعَهُ تغيير للمتكلم فبعدما قال عليه السلام تضمّن ربنا لمن خرج في سبيله تحدث ربنا وقال لا يخرجه إلا جهادًا في سبيلي وإيمانًا بي وقال هنا « فهو عليّ ضامن » وقيمة « فهو عليّ ضامن » أن المجاهد الذي هذا شأنه يسمْع الضمان من رب العباد ولا يسمعه خبرًا يخبر به رسول الله ﷺ عن رب العباد ، مَعَ أن المُخْبِرَ صلوات الله وسلامه عليه أصدق من أخبر وأكرم من حدَّث ولكن هناك فرق لا ريب فيه بين أن يخبرك أحد أن فلانًا ضامن لك كذا وأن تسمع من لسان فلان أنه ضامن لك كذا ، هذا شيء وشيء آخر وهو أن جملة (فهو عليّ ضامن) راجعة إلى جملة « تضمّن الله لمن خرج في سبيله » ومؤكدة لها على وجه من التوكيد فيه بلاغة نادرة ، بيان ذلك أنه عليه السلام لما قال تضمّن ربنا لمن خرج في سبيله؟ وآثر كلمة « تضمّن » على كلمة ضمن ، وأسند التضمُّن إلى لفظ الجلالة الموصوف بالكمالات المطلقة فأومأ ذلك إلى أن هذا الضمان محفوف بالكمالات المطلقة ثم انتقل الكلام إلى بيان تحرير مراد المجاهد وأنه لا يخرجه إلا الجهاد في سبيلي إلى آخره كل ذلك دعا إلى تأكيد هذا الضمان ليس من جهة الضامن وهو الله سبحانه وإنما من جهة المضمون له

وهو المجاهد ، وهذه هي البلاغة النادرة أو التوكيد النادر كما قلت لأن الله سبحانه بجلاله وسلطانه يقول هذا المجاهد ضامن عليٍّ بكذا وكذا مما سيُذكر بعد ، وفيه لفتة عجيبة وهي أن المضمون له يصير ضامنًا لحقه لفرط ثقته في ضمان ربِّه وأنه مجاهد في سبيله ومؤمن به ومصدق برسله وكل ذلك يدعوه إلى فرط الثقة في ضمان الله له ، فهو مَضْمُون لَهُ من جهة ربه وهو ضامن لهذا المضمون كما تقول ضَمِنَ زيد لعمر كذا ولفرط ثقة عمر في ضمان زيد صار عمر ضامنًا لضمان زيد . وهذا معنى كريم جدًا .

ولا يغفلك هذا عن أننا نبحث عن أسرار طول الجملة ، وأن تحرير المعنى انتقل من تحرير نيَّةِ المجاهد وما عقد عليه عزمه إلى تحرير الأحوال التي يكون عليها ، وأنها حالتان الأولى الشهادة ، والثانية الأوبة إلى مسكنه ، ولاحظ أن الكلام إلى الآن لم يذكر ما هو الضمان ، وإنما بدأ بذكره بقوله (أن أدخله الجنة أوْ أُرْجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلا ما نال من أجر أو غنيمة) هذا هو الضمان وهذا هو الوعد وفيه من التفصيل ما تَرىَ لأن حاله لا يخرج عن واحدة من الشهادة أو العودة والعودة لا تخرج عن واحدة من الأجر والغنيمة أو الأجر إذا لم يغنم ، وهكذا نرى التدقيق والتفصيل والاستقصاء في أمرين لا يقوم هذا الحديث إلا بهما الأول تحرير العزم والنيَّة في القصد من الخروج ويقابله تحديد الثواب ، ويلاحظ أن الذي يقابل الرجوع إلى مسكنه هو الشهادة ولكن الكلام تجاوزها لأنها لحظة فيها رهبة وفيها خوف لأن الكل يخاف من الموت ثم إن الكلام لما تجاوزها ذكر ما بعدها مباشرة وهو دخول الجنة ولها من البشارة ما يُذْهِبُ وحشة لحظة الموت ، ولا يجوز أن أغفل كلمة مَسْكنه التي جاءت في الكلام بدل بيته أو أرجعه إلى أهله أو إلى داره ، لأن المسكن من السكن وهو المقابل لحالة

الفزع والحرب التي كان يشهدَهُا وأنه بعدها يحتاج إلى السكن والسكينة .
وأيضًا كلمة «ما نال» وما هذه اسم موصول وهي أخت ما التي في قوله تعالى ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾، أي مما لا يحاط به وفي قوله تعالى ﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أي ما لا يُحاط به ، وقول الفرزدق : وفعلت ما فعل امرؤ بشبابه .

أي فعلت ما لا يحاط به ، وبقي في هذا القسم كلمة يجب أن تقال وأن تذكر عند ذكر سبيل الله وأن الله لا يقبل منا عملاً إلا أن يكون في سبيله وابتغاء مرضاته . وسبيل الله هو العدل بدل الظلم والوفاء بدل الغَدْر والأمانة بدل الخيانة والصدق بدل الكذب والخير بدل الشر ، الجهاد في سبيل الله يعني جهاد الكذب والسَّرقة والخطف والقهر والظلم والزور والخيانة والغدر والنذالة والتآمر ، سبيل الله يعني تأكيد معاني الخير والنبل والصدق والكرامة والإيثار والمروءة في حياة الناس ، ومحاربة كل فساد وتأكيد كل إصلاح ، والواجب أن نفهم سبيل الله من هذه الزاوية التي أشير إلى جهاتها وهي إصلاح حال الجماعة الإنسانية وإشاعة البرّ والرحمة والمودَّة والصدق والعدل وكل معاني الخير ، سبيل الله هو عمل الصالحات ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ﴾ يعني أن سبيل الله هو الإحسان وليس الإحسان أن تعطى حسنة تعني درهمًا أو دينارًا وإنما أن تُحْسِن يَدُكَ فيما تعمل فتُحسن صنعتك وتحسن مهنتك وتحسن حيث تكون في فصل أو درس أو معمل أو محراب ، الكل سواء مع توفير النيات الصالحات ، والخلاصة أن سبيل الله يعني الحياة الطيِّبة الفاضلة الهادئة الراقية التي يسعى المصلحون في استخراج أُصول أخلاقها من يوم أن اجتمع الناس في جماعات على هذا الكوكب ، وهذه الجماعات تتنازع وتتخاصم وتتغالب ، والعقلاء منهم والحكماء والمصلحون يضعون لهذه الجماعات

الضوابط والقوانين لتتعايش في سلام وأمان ورخاء، سبيل الله هو الذي أنزله ربنا في كتبه وأرسل به رسله وكله يدور حول تثبيت الأمان والأمن والأمنةُ في حياة الجماعة، ولهذا قالوا حيثما كان العدل فثمًّ شرع الله، ولهذا لو أن عقلاً حُرًّا قرأ سبيل الله المنزل في كتبه لدعا الناس إليه ولو لم يكن مُسْلمًا لأنه في الحقيقة إذا كان سياسيًّا صادقًا أو باحثًا صادقًا هو يدعو إلى ما يدعو إليه سبيل الله، ونحن في دعوتنا إلى الله نختزل سبيل الله اختزالاً مُخِلاً لأننا نطوّف به حول المحاريب وحول الذكر وحول الدعاء وهذا كله صحيح وليس هو كل الصحيح المراد من سبيل الله، المجاهد إذنْ يجاهد في سبيل تثبيت الخير والرحمة والعدل وإخراج الجماعة البشرية من الظلمات إلى النور، فالذين يحاربون من أجل تحرير الشعوب يحاربون في سبيل الله، والذين يحاربون لتحرير الأرض يحاربون في سبيل الله والذين يجاهدون ليكون الناس أحرارًا فيما يختارون يجاهدون في سبيل الله، والإيمان شرط لازم وتصديق الرسل شرط لازم لأن الإيمان إيمان بالله واليوم الآخر والثواب والعقاب وهذه هي الأساس في تثبيت الحق والخير والعدل والرحمة والبر لأن المؤمن بأنه سيجد كُلًّ ما عمل بين يدي الله في كتاب ينطق عليه بالحق، يراقب كل هذه المعاني بِصِدْق وذلك بخلاف من يعمل هذا تحت سقف القانون فإنه إذا استطاع أن يتوارى عن القانون فعل ما يشاء، وهذا كله هو الجالب للخير في حياة الجماعة، وهذا بعض معنى الجهاد الذي يسميه البعض إرهابًا نعم الجهاد ضد المسلمين إرهاب وضرب جيوشنا لشعوبنا المسلمة إرهاب.

بقيت كلمة «بُرسُلِي» وهي ابتداء تخرج كل من لم يؤمن برسالة محمد ﷺ لأنه هو والمؤمنون به آمنوا بما أنزل إليهم من ربهم وآمنوا بكتبه ورسله سبحانه لا يفرقون بين أحد من رسله، ثم إن هذه الكلمة في سياق

الجهاد تشير إلى أن المجاهد الذي ضمن الله له هذا الضمان خرج يُدَافع عن كل ما جاء به الأنبياء جميعًا ، وعن كل ما في كتب الله جميعًا لأن جملة المبادئ الإنسانية من العدل والبر والوفاء والأمانة وحرمة الدماء والأموال والأعراض وتحريم كل الكبائر من السرقة والزنى والغصب والقهر والقمع وشهادة الزور كل ذلك وغيره جاء به كل الأنبياء عليهم السلام وهذا هو سبيل الله الذي بعث به أنبياءه وأنزل به كتبه ، ولو أنصف العقلاء والحكماء وعلماء الأخلاق والمصلحون من غير المسلمين لباركوا هذا الجهاد لأنه تثبيت للحق والعدل والخير في هذا الوجود ومدافعة الظلم والسلب والنهب والكذب والقتل وكل الشرور التي أجمع العقلاء والحكماء من المسلمين وغير المسلمين على ضرورة حربها وإبعادها وأنَّها مَفْسَدَةٌ في هذا العالم ، وبعبارة مختصرة الجهاد في سبيل الله هو مدافعة للفساد والإفساد في الأرض وتثبيت للصلاح والإصلاح في الأرض ، وهذه القيم المشتركة بين الناس جميعًا والتي يقرها كل الأسوياء من البشر والتي هي رسالة رسل الله جميعًا هي التي وراء قوله تعالى في سورة المؤمنون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ راجع قوله لأمم الأنبياء جميعًا (واعملوا صالحًا) لأن كل خطاب لكل نبي هو خطاب لأُمَّته ، ثم يقول بعد ذلك إن هذه أمتكم أمة واحدة ، يعني أن مجموعة الأخلاق التي تحت قوله واعملوا صالحًا واجتناب كل ما ليس صلاحًا وإصلاحًا هو الذي وحّد كل أتباع الرسل ، وجعلهم أمة واحدة ومثل هذا جاء في سورة الأنبياء ، قال تعالى بعد ذكر الأنبياء من نوح وإبراهيم وموسى وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وذا النون وزكريا ويحيى والتي أحصنت فرجها قال سبحانه ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠

رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ ، وهذا يؤكد أن صراع الأديان لا أصل له في هذه الأديان وإنما هي مصالح ورغبة الأقوياء في استنزاف ثروات من لا قوة لهم ، أوْ قل هي سياسة أو اقتصاد أو ما شئت إلا أنها ليست ديانة ، ومثل هذا يقال في توجس الأقليات غير المسلمة من تطبيق شريعة الإسلام في الشعوب المسلمة ، لأن أكثر هذه الشريعة جاء مصدقًا لما بين يديها من شرائع وكل الذي قلته مُتَفَقٌ عليه ومواجهة العالم غير الإسلامي للمسلمين المطالبين بتطبيق الشريعة مواجهة جاهلة ، والمشكلة الأخرى أن عندنا سياسيين ومثقفين ونخبة هي مسلمة في العقيدة ونصرانية في الثقافة وتجهل هذه المبادئ الأساسية وتعاند تطبيق الشريعة كما يعاندها غير أهل الإسلام ، وهذا الذي قلته ليس بعيدًا عن دلالة كلمة « وتصديقًا برسلي » .

القسم الثاني من الحديث قوله عليه السلام : « والذي نفس محمد بيده ما من كَلْمٍ تُكْلَمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم ، اللون لون دم والريح مسك » .

لم يقسم رسول الله ﷺ في رأس القسم الأول لأنه مقتبس من قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وقوله عليه السلام « تضمَّن الله لمن خرج في سبيله » ، هو الوعد الحق وهو أيضًا ومن أوفى بعهده من الله وقوله عليه السلام « فهو علي ضامن » داخل في الوعد الحق وقوله (أن أدخله الجنة) هو قوله تعالى (بأن لهم الجنة) .

وقوله عليه السلام «لا يخرج إلا جهادًا في سبيلي وإيمانًا بي وتصديقًا برسلي» هو قوله تعالى ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهذا ظاهر.

أما قوله عليه السلام «ما من كلم يُكلم في سبيل الله» إلى آخره فلم أعرف موضعه من الكتاب ومجيء الكَلْم يوم القيامة كهيئته يوم كُلِم اللون لون دم، والريح مسك، هو المقسم عليه، والذي أفهمه من هذا القَسَم ومن مجيء الكلم كهيئته هو أن هذه لحظة الشهادة في سبيل الله ولحظة إصابة الشهيد ولحظة نزف دمه ونزف روحه ومفارقته الحياة يعني هي لحظة عطائه أنفس ما يملك لتكون كلمة الله هي العليا فاستصحبته هذه اللحظة يوم يقوم الناس لرب العالمين لتكون لحظة عطائه أنفس ما يملك هي بإعادتها وبهيأتها في هذا المقام المشهود لحظة تكريمه وتمييزه والحفاوة به والمباهاة به، ولأهمية هذا كله جاء القسم لا ليؤكد هذا المعنى في نفوسنا نحن المسلمين لأن كل ما يقوله عليه السلام مؤكدًا وغير مؤكد نتلقاه بالقبول والاعتقاد الذي لا ريب فيه، وإنما كان القسم ليشير إلى مقام المعنى الذي أقسم عليه صلوات الله وسلامه عليه، واختيار هذا القسم من بين أقسامه صلوات الله وسلامه عليه لأنه كما قال أهل الحديث كان إذا أراد عليه السلام تأكيد القسم قال والذي نفس محمد بيده أو الذي نفسي بيده ثم إنك تجد مناسبة أخرى لملاءمة هذا القسم للمقام لأن كلمة نفس محمد بيده، تعني أن الأرواح بيد الله يرسلها إن شاء أن يرسلها ويقبضها إن شاء أن يقبضها ولكل نفس عنده سبحانه أجل محدود لا تتقدم ساعة ولا تتأخر ساعة وهذا هو المناسب في مقام ذكر الشهادة التي قبضت يد الله فيها نفس الشهيد، وإذا سألت وقلت لماذا لم يقل والذي نفسي بيده؟ قلت لك الذي عندي ولك ما ترى: حين يقول رسول الله ﷺ (نفسي) يكون في هذه الكلمة إشارة إلى

نفسه من حيث هو نبي لأن هذا هو الذي يتبادر إلى الأذهان وأنه النبي لا كذب وليس هذا بمراد لأن الحديث عن الشهداء وليس عن الأنبياء وكلمة نفس محمد تلحق زيدًا وعمرًا بمحمد لأنه يحدث عن نفسه من حيث هي نفس رجل اسمه محمد وهذا هو المناسب لأي نفس خرجت في سبيل الله لا يخرجها إلا إيمانًا بي وتصديقًا برسلي .

ويلاحظ أن هذا القِسْم من الحديث جملة واحدة أيضًا كالقسم الأول ولكنها قصيرة عن الجملة الأولى لأن القيود والمحترزات هنا أقل ، والحقيقة المعبر عنها حقيقة واحدة مختصرة قال فيها عليه السلام « ما من كلم يكلم في سبيل الله » فجاء بكلمة (من) الزائدة لتفيد الاستقصاء الشامل لكل كلم وآثر كلمة كلم على كلمة جرح لأن الكلم كما يقول أبو الفتح يعني الجرح الذي فيه ألم أكثر فليس كل جرح يُسَمَّى كَلْمًا قال أبو الفتح إن مادة ك ل م حَيْثُ تقلبّتْ أفادت معنى القوة والشدة أراد كلم ولكم وملك وكمل إلى آخره ، قال والكلم للجرح للشدة التي فيه ، والكلام بضم الكاف ما غلظ من الأرض وقالوا في قوله تعالى : ﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ ﴾ قولان أحدهما من الكلام والآخر من الكلام بضم الكاف أي تجرحهم وتأكلهم ، والتنكير في كلمة (كلم) يعني كلما أي كلم أفضى إلى الموت أو لم يفض .

وهل أنت إلا إصْبَعٌ دمِيت وفي سبيل الله ما لقيت

ويلاحظ أن كلمة كلم هنا مجاز عن الرجل المكلوم ، وبيان عنه وكأن الكلم يجيء وحده لأنه هو المقصود في الكلام وكلمة (يُكلم) كان يمكن الاستغناء عنها وأن يقال ما من كلم في سبيل الله إلا يجيء يوم القيامة إلى آخره ، ولكن ذكر هذه الكلمة أفاد أولاً مزيد عناية بالكلام وذلك بطول

الكلام فيه ومطله ومدّه كقولنا منادي ينادي وطالب يَطْلُب وكاتب يكتب ، ثم إن هذا المضارع يدل بوضعه على الحال والاستقبال وحاله دائم واستقباله قائم ، والكلام موجّه إلى الأمة كلها في الأزمنة كلها والأمكنة كلها وهذا هو التعبير الدال على ذلك لأنه ليس المقصود الذين جاهدوا في زمان معين أو مكان معين .

وقوله عليه السلام (اللون لون دم) لا شك أن لتنكير كلمة «دم» سراً ، وأن فرقًا كبيرًا بين اللون لون دم واللون لون الدم ، لأن التعريف يعني الدم المعروف المتعالم المشهور والتنكير يعني دَمًا غير معهود وأن الدم الذي تفجر منه يوم كُلِمَ استحال الآن وتبدَّل وصار شيئًا آخر ليس فيه من أوصاف الذي تعرفون إلا اللون ، وقوله والريح مسك جاء في رواية أخرى والريح ريح مسك والتنكير في كلمة مسك يعني أيضًا أنه مسك ليس كالمسك الذي تعرفون والكلام مبني على التشبيه في الجملتين اللون لون دم والريح ريح مسك ، وانتهى هذا القسم بإحضار صورة الكَلْم على الحدِّ الذي ذكره عليه السلام ثم استأنف صلوات الله وسلامه عليه معنًى آخر انتقل فيه الحديث عن الشهيد إلى حديثه ﷺ عن رَغْبته في الجهاد وحِرْصه عليه وبدلاً من أن يحُثنا نحن بلغة مباشرة نقل الحديث إلى رغبته هو وأن هذا التكريم الذي حكاه عن ربنا جعله ﷺ يود أن يكون واحدًا منهم مع أنه خاتم الأنبياء وأكرمهم صلوات الله وسلامه عليه ، ولا شك أن النبوة فوق كل مقام من مقامات الصالحين ، واستأنف عليه السلام هذا القسم بالجملة التي اختارها مُفْتَتحًا لهذه الأقسام الثلاثة ، (والذي نفس محمد بيده) وقد أشرت إلى مناسبة هذا القسم لِلْقسَمْ الثاني وألاحظ هنا مناسبة وهي أن المُقْسم عليه وهو أنه عليه السلام لولا أنه لا يُحبّ أن يشق على أمته ما قَعد خلف سريَّة هذه الرغبة في

أجر الخروج مع كل سريَّة هي رغبته من حيث هو واحد مـن النـاس الـذين يخاطبهم ، ولا شأن لنبوته فيها بمعنى أنها ليست رغبته من حيث هو نبي الله ورسوله ، وإلا فَقَدَ الكلام قيمته لأننا لا نَرْغَبُ فيما رغب فيـه رسـول الله ﷺ لأن مقام النبوة لا ينال ، وإنما نرغب في الذي يرغب فيه محمد بـن عبـد الله الذي هو واحد منا ، ولا شك أن استفتاح المقاطع التي استفتحت بهذا القسم من شأنه أن يُنبه ويثير ويوقظ .

وقوله عليه السلام (لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية) لولا هذه هي التي يمتنع جوابها لوجود شرطها كقولنا لولا زيد لهلك عمر امتنع هلاك عمرو لوجود زيد وهنا امتنع خروجه عليه السلام مع كل سَرِيَّةٍ لوجود المشقة على المسلمين ، وفاعل يشق محذوف دل عليه سياق الكلام والمعنى لولا أن يشق على المسلمين خروجي ، وكلمة «قعدت خلاف سرية» من مفردات سورة التوبة التي تحدثَتْ عـن الذين قَعَدُوا خـلاف رسول الله ﷺ ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ﴾ (التوبة:٨١) ﴿ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ وقد جاءت هذه الكلمات في السورة في سياق الذَّمِّ وقد اختارها رسول الله ﷺ مع ما تحمله من سياق الذم ليبشع القعود والتخلُّفَ عن السرايا وأنه قَعَدَ وتخلف مع كراهيته لهذا حتى لا يشق على المسلمين ، وهذا غاية حرصه على ألا يشق عليهم وأنهم لا يجدون ما يُحمَلُون عليه ، وأنهم تولَّوْا وأعينُهم تفيض من الدمع مع أنهم يعلمون أن الله عَذَرهم وقال ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ ومع ذلك لو خرج الرسول وقعدوا لشق ذلك عليهم ، ووراء ذلك ما وراءه من حُبِّ محمد ﷺ لأمته وحب أمة محمد محمدًا صلوات الله وسلامه عليه .

وقال عليه السلام «لولا أن يشق على المسلمين» ولم يقل لولا أن يشق عليكم لأن الخطاب تجاوز من حَوْلَه عليه السلام إلى المسلمين في الأزْمِنَةِ كلها والأمكنة كلها وأنه لا يجوز لأحد يستطيع أن يُجاهد في سبيل الله صَادقًا مخلصًا في أي باب من أبواب الجهاد بسيف أو بلسان أو بقلم ثم يقعد عن هذا الجهاد . ويلاحظ أن رسول الله ﷺ أخّر بيان المَشَقّة وقدّم على هذا البيان جواب لولا وهو قوله عليه السلام «ما قَعَدْت خلاف سرية» وهذا التقديم بين البيان والمُبيّن فيه دلالة على حرص رسول الله ﷺ على هذا المقدَّم وأن بيان هذا المَقَدَّم هو الأهم عنده وأنه عليه السلام به أعْنَى وذلك لأنه هو الذي انعقد عليه هذا القسم من الحديث ، وأن الذي تقدّم من فضْل الجهاد ومَنزلة المجاهدين عند الله في القسمين السابقين بعثت عنده عليه السلام هذه الرَّغْبة وتمكنت منه وهي ألا يَقْعد خلف سريَّة وأنه عليه السلام يَجْعل نفسه قُدْوة لنا في هذا وأن حُبَّنا له يُوجب علينا أن نحب ما أحبَّه ومن المفيد أن نحاول ونحن نقرأ البيان أن نتلمس ما تحت الكلمات وإذا كان الكلام كلام الناس وليس كلام رب الناس أن نتلمَّس المعنى الذي كان وراء الكلمة في نفس القائل وكيف قذف هذا المعنى بهذه الكلمة على لسان القائل . قلت هذا لأُنَبِّه إلى كلمة (أبدًا) في قوله عليه السلام (ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا) لأن هذه الكلمة تعود على الجملة كلها وتعطيها عُمْقًا مُتَغَلْغِلاً في نفس سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ، وأن الحرص على شهود كل غزوة حِرْصٌ بالغ ولكنه عنده عليه السلام واجه شفقة على المسلمين هي أشد وأقوى فتخلَّى عن هذه الشهود إيثارًا للشفقة بهم ووراء ذلك ما وراءه مما يجب أن تقف عنده لتدرك عمق وصف ربنا له عليه السلام وأنه عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم

وراجع أيضًا هذه الجمل الثلاث التي وصفه بها ربنا وهو العليم بسرائر النفوس .

وقوله عليه السلام «ولكن لا أجد سَعَةً فأحْمِلُهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني» .

قلت إن الجملة الأم في القسم الثالث قوله عليه السلام لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو في سبيل الله أبدًا وكلمة الاستدراك والجمل الثلاث التي بعدها هي التي وقفت سَدًّا في مواجهة هذه الرغبة الأكيدة ، وأضيف هنا أن كلمة (تغزو في سبيل الله) كلمة من شأنها أن تستجيش قلوب أهل الله ناهيك عن قلب أتقى الناس وأشد الناس لله خشية ، وجُمل الاستدراك الثلاث استطاعت بقوتها وعنفوانها أن تُقْعِده عليه السلام خلاف السرايا التي تغزو في سبيل الله وهو كاره ، وهذا يوجب علينا الوقفة الأفضل عند هذه الجمل الثلاث الواقعة بعد أداة الاستدراك . «وأولها لا أجد سعة فأحملهم» والسعة مجاز عن الوفرة والبَسْطة التي تُعين على إعداد المجاهدين من راحلة وزاد وعتاد ، والأصل في الكلمة السَّعة في المكان ثم انتقلت إلى السَّعة في الرزق والسعة في العلم ، فالسَّعة في الرزق كثرة الغرض والسعة في العلم الإحاطة المُتسعة بأصول المسائل وفروعها ووجوهها ، وهذا يوشك أن يكون من المجاز الملحق بالحقائق لشيوعه في هذا المعنى المجازي حتى تكاد حقيقته تُنْسى ، وراجع الإيجاز الشديد في هاتين الكلمتين (لا أجد سعة فأحملهم). ومثلها جملة «ولا يجدون سعة» في اكتناز المعنى وإيجاز اللفظ وتقديم الجملة الأولى يعني أن تكاليف الجهاد مسؤولية المسؤول الأول وأن توفير متطلبات هذه التكاليف مسؤولية الدولة بالغة هذه التكاليف ما بلغَت ومهما تطورت أداة الحَرْب واحتاجت

إلى علوم وأبحاث ومصانع هذا شيء والشيء الذي نحن فيه هو أن هاتين الجملتين تنفيان الحرج عن الذين لا يجدون نفيًا قاطعًا ، وليس بعيدًا عن بلاغة النبوة أن تقول إن سيدنا المختار صلوات الله وسلامه عليه اقتبسها من آية التوبة وهي هناك نَصَّان صريحان على نفي الحرج وذلك قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ وقوله سبحانه بعدها ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ ، ولهذا دلالة مهمة جدًا لأن هؤلاء يشق عليهم أن يتخلفوا عنه صلوات الله وسلامه عليه ، مع القطع بنفي الحرج وأنه عليه السلام قعد مع المخلفين على كُرْه منه حتى لا يَشُق عليهم ولا يجدوا في صدورهم حرجًا وهذا مما لا يجوز أن يكتفي فيه بهذا القدر من الكلام وإنما يجب أن نستخلص منه مقدار شفقة رسول الله ﷺ بالأمة ، وأن هذه الشفقة جزء من الدين بين المسلمين وهنا نذكر مرة ثانية وثالثة الذي رآه رسول الله ﷺ يتقلب في الجنة بسبب غصن شوك أزاحه عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين ، وكذلك شفقة ولي الأمر على الأمة من أوجب واجباته ونذكر هنا حديث ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لها إلا حرّم الله عليه الجنة ، ومعنى غاش لها أنه وضع الظلم موضع العدل ووضع الفجور موضع الرحمة ووضع القمع وقطع الألسنة موضع الحُبّ والاحترام والتكريم ، وأيضًا وضع الجهل موضع العلم ، ووضع القريب والنسيب موضع الأكفأ ، وتعجبني كلمة ابن القيم حيثما كان العدل فثم شرع الله ، والعدل هو وضع كل شيء في موضعه أعني وضع الإتقان في موضعه ووضع العلم في موضعه ، ووضع الرحمة في موضعها ووضع القوة في موضعها ، وبهذا وحده يعتدل الميزان وإذا نظرت نظرًا أوسع رأيت هذا

الحديث وإن كان مُصَوَّبًا نحو الحاكم لأن البليّة فيه أفدح والعدل فيه أكرم فإنه شامل لكل المسلمين ، وكأن رسول الله ﷺ يوصينا جميعًا ويوصي بعضُنا ببعض لأنه قال «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» وابتدأ المسألة من الأمير وانتهى بها عند العبد المسؤول عن مال سيده ، يعني أن هذا العبد مسؤول عن هذه الشاة وكيف رعاها وكيف أطعمها وكيف سقاها وأن هذا العبد إذا مات وهو غاشٌ لهذه الشاة حرَّم الله عليه الجنة وهكذا قل في المُعلِم المسؤول عن هؤلاء الطلاب إذا لم يَبْذُل أقصى الوُسْع في الذي يفيدهم يكون غاشًا لهم ويحرم الله عليه الجنة ، وهذا الموظف في أي ركن من أركان البلاد مسؤول عن مصالح الناس التي بين يديه فإذا قصّر كان تقصيره غشًا ويحرم الله عليه الجنة ، وإذا رأيت في كلامي تجاوزًا فنبّه إليه حتى لا أكون غاشًا للقارئ فيحرم الله عليّ الجنة ، وهذا من أعجب ما تقرأ وعليك أن تراجع حال المجتمع الذي تسود فيه هذه القيم .

قلت إن قوله عليه السلام «لولا أن أشق على المسلمين» فيه شفقته عليه السلام على هذه الأمة وأن الشفقة على الأمة من الدين ، وأن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يتقلب في الجنة بسبب غصن شوك أزاحه عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين ، وأن هذا الجانب من جوانب الدعوة إلى الله يجب أن يكون موضع عناية ليتعرف المسلمون عليه وليألف بعضهم بعضًا وليحرص بعضهم على بعض .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ كلما راجعتها وجدت أن ما فيها من معانٍ لا أتصوره إلا في والد رقيق القلب على ولد كريم برّ ، وأن قوله تعالى في سورة الأحزاب ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾

وهو أب لهم كما في بعض القراءات وأزواجه أمهاتهم أقول أبـوة سيدنا رسول الله لنا مؤسَّسَةُ على هذا المعنى الذي في الآية والذي لا أجده إلا عند والد رقيق القلب يُشْفِقُ على ولد كريم بَرّ ، وراجع في الآية قوله تعالى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ولم يقل منكم والنفس الروح ومنها النفَس بفتح الفاء الذي نتنفسه وهكذا سيدنا المختار هو من أرواحنا ومن النَّفَس الذي نتنفَّسُه . وكلمة ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ كلمة مثقلة بالشَّفقة والحُبّ وأنه عليه السلام يشفق علينا إذا أصابنا العَنَتَ وأن من شهد شهادة الحق في أي زمان من الأزمنة وفي أي مكان من الأمكنة وأصابه عَنَتٌ من المتعنّتين شق ذلك على رسول الله ﷺ وأنه عليه السلام حريص على كل من شهد شهادة الحق في هذا الوجود إلى أن تـقـوم الساعـة ، وهكذا تتدبَّر كلمـتـي رؤوف رحـيـم وما معنى الرأفة وَحْدها والرحمة وحدها ، ثم ما معنى اجتماعهما ثم ما معنى ضمّهما إلى (من أنفسـكـم) (عـزيـز عليه ما عنـتـم) ، (حـريـص عليكم) ولا أستطيع أن أتكلم في معنى لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سريَّة في غيبية شيء مما قلت . ولاحظ أنه عليه السلام شقَّ على نفسه وقعد حتى لا يشق عليهم إذا تخلفوا عنه ، وهكذا الأب يشق على نفسه حتى لا يشق على أولاده .

والقسم الأخير من الحديث وهو قوله عليه السلام : « والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأُقْتَل ثم أغزوا فأُقْتَل » ، أقول هذا القسم تأكيد لمعنى أنه يشق على نفسه ، حتى لا يشق عليهم ، لأن هذا القسم تجاوز بيان رغبته في الخروج مع كل سريَّة تَغْزُو في سبيل الله إلى رغبته في أن يُقْتَل ثم يغزو فيُقْتَل ثم يغزو فيُقْتَل ، وهـذا امتداد لمعنى ما قعدت خلاف سرية ولكنه امتداد أبعد كثيرًا ودخل في الأماني المُسْتحيلة ، وقد ميّز

رسول الله ﷺ هذا المعنى في إخبارنا به لأنه كان يمكن أن يدخل في القسم الثالث لأنه داخل في باب رغبته عليه السلام في أنْ لا يتخلف عن غزوة تغزو في سبيل الله ، وإنما قَطَعَهُ عليه السلام عن الكلام السابق واستأنف له قسمًا لِيُبَيِّنَ أنه مَعْنًى بِرَأسِهِ وليس معنى تابعًا للذي قبله ، وهنا تلاحظ طَيْفًا جديدًا يَبْعَثُه هذا القسم (والذي نفس محمد بيده) وهو أن المقسم عليه يغزو فيقتل ثم يغزو فيقتل أعني حركة حياة وموت ثم حياة وموت إلى آخره والذي نفس محمد بيده جل وتقدس هو وحده القادر على ذلك ، وقوله عليه السلام «لوَدِدْتُ أنـي أغزو في سبيل الله فأقتل» هذه الجملة مليئة بالدلالات الدالة عن شدَّة رغبة رسول الله ﷺ في مزاولته لمعناها - أول هذه الدلالات اللام الواقعة في جواب القسم (لَوَدِدْتُ) ولم تقع في جواب القسمين السابقين وهي دالة على تأكيد هذا المعنى في نفس المصطفى المجتبى صلوات الله وسلامه عليه والثاني كلمة (وَدِدْت) ولم يقل مثلاً لأحْبَبْتُ أو لرجوتُ لأنَّ الود من المودة والوداد ، وفيها معنى أنه عليه السلام يقبل على هذا الموت بحب ومودة وناهيك عن الإقبال على القتل بحب ووداد ومودّة ، وثالثها كلمة (في سبيل الله) وقد تكررت في الحديث وفي حديث آخر والله أعلم بمن يقتل في سبيله ، وهي الفاصلة في هذا الشأن وفي كل عبادة لأن مقدار الصدق والإخلاص يرتفع بمقدار قوة اليقين وكثرة الذكر والذي أريده هنا أن كلمة سبيل الله كلمة تنفذ دائمًا إلى قرار نفس المؤمن وحين يذكرها صلوات الله وسلامه عليه وهو يود أن يُقتل تشير إلى قوة هذا الوِدَاد لأنها تُنْسى المسلم كـل شـيء ، تُنْسِيه النفس والمال والولد ، وحيثما وجدت دخلت القلب وحركت كـل مـا فـي نفس المؤمن وَوَجَّهَتْ هذا الكلَّ إلى الله وحده لا شريك له ، وتكرار جـواب القسم بكل ما فـيـه مـن ثراء ثـلاث مـرات

لـه دلالته الـتـي لا تَخفَى على حرص رسول الله ﷺ ، ولستُ أدْرِي هل المراد ثلاث مرات أم أن العدد لا مفهوم له وأن هذا التكرار مطلق غير مقيد وكل ذلك وراءه ما وراءه ..

هذا فيما يتعلق بالبناء اللغوي ، والشيء الذي قبل ذلك وبَعْدَهُ والذي وراءه من أحوال النفس ، والذي أمامه مما يَجِبُ أن تكون عليه أحوال الأمة إلى أن يبطل التكليف هو أنه عليه السلام يَعْلَم بما علمه الله أنه ليس لأحد عند الله تكريم وعطاء يفوق تكريم الله له وعطاء الله له وأنه صاحب المقام المحمود والحوض المورود وصاحب الشفـاعـة وأن الله غـفـر له ما تـقـدم من ذنبه وما تأخر وأن الله وعده بأن يُعْطِيهُ حتّى يَرْضَى وأن الله وعده بأن الآخرة له خير من الأولى ، وأنه لا يَطلُبُ بهذا الجهاد مزيدًا من الثواب لأن ثواب الله له عليه السلام لا مزيد عليه ، وهذا قاطع في أنه عليه السلام يود ذلك لا رغبة ولا رهبة ، وإنـمـا هـو شُغْل القلب بالذي يـرضـاه الحق ابتغاء مرضاة الحق لا غير وهذا يفتح لأهل الله بابًا من أبواب الطاعة يتجاوز الرغبة والرهبة إلى مجرد الزُّلفى والحب والتقرُّب ، وأن هذا الضرب من العبادة أمْلَكُ للقلب حتى يكون القتل في سبيل الله من أغلى الأماني وأعزها مطلبًا ، وكذلك من ذاق حلاوة الإيمان وذاق حلاوة الذكر يكون ذكره وتكون ضراعته مجردة عن أي غرض لأنها هي ذاتها الغرض وهي ذاتها المطلب وثوابها فيها لأنه ذكر غِبْطة ولذَّة وعُروج بالقلب والعقل والروح إلى منازل أخرى ، ومن ذاق عرف ومن عرف لزم وهذا مقتبس من كلام الصالحين ، ولهذا وجدنا هذا القسم آكد الأقسام وأدخلها في فرض المحال لأن رسول الله ﷺ لا يقتل لأن الله أخبره بأنه عصمه من الناس ، وكان له حرس فلما نزلت آية ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ صرف هذا الحرس ، ثم إن من قتل لا يعود للحياة

مرة ثانية فيغزو ويقتل وكل هذا على سبيل الفرض والتقدير كما تُفْرض المُحالات . وهذا شأن الطاعة التي لا تَنْصَرِف إلى الخوف من النار والطمع في الجنة ، وهي من العطاء المضنون به على غير أهله ، هذا والله أعلم ، اللهم تقبل منا ما كتبناه واغفر لنا العجز عن تحقيق معناه .

وشبيه بهذا القسم الأخير في هذا الحديث أحاديث أخرى تخبر عن أصحاب الجنة وأن الذي له عند الله من نعيمها نصيب ولو كان من أدنى أهلها منزلة ما يسره بل ولا يرضى أن يرجع إلى الدنيا وله ملك كل شيء على هذه الأرض أو كما قال ﷺ « ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا ولو أن لها الدنيا وما فيها إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل في الدنيا لما يرى من فضل الشهادة » .

وروى عن أنس أنه قال « ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء غير الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة » .

حذو الكلام حذو واحد ويوشك هذا الحذو أن يجعل الكلامين كلامًا واحدًا مع ما بينهما من فروق ، تجد هذا الحذو في صورة ما النافية التي بعدها من الزائدة الداخلة على النكرة وهذا يعني استقصاء كل نفس كما تقول ما من أحد على أرض الكنانة إلا وهو مرتاع القلب على هذا الوطن الذي أصبح يخفق به جناح الشيطان لا يدرى إلا الله أين يُذْهَبُ به . والفرق الذي تجده هو أنه قال مرة ما من نفس ومرة ما من أحد والنفس كثيرًا ما تستعمل بمعنى الروح والنفس من النَّفَس بفتح الفاء وقالوا الروح هي النفس بفتح الفاء ، وفي العبارة الثانية كلمة أحد وهو واحد الآحاد ، وهي دالة على الإنسان بقسميه المادي والروحي ، وأن هذه الروح أو هذا الإنسان

يجري عليه ما في الحديث، وقال في الأولى «يموت لها عند الله خير»، وفي الثانية «.. من أحد يدخل الجنة» وكلمة لها عند الله خير تفيد خيرًا أي خير وإن قلَّ لأن القليل عند الله لا يقال له قليل. وكلمة (يدخل الجنة) أفادت مَعْنى تموت ولها عند الله خير، ودلَّت على أن الخير عند الله هو دخول الجنة، وقوله: يَسُرُّها أن ترجع إلى الدنيا ولو أن لها الدنيا وما فيها، وقال في الثانية: يحب أن يرجع إلى الدنيا ولو أن له ما على الأرض من شيء، قال مرة يسرها ومرة يحب فأفاد المعنيين معًا، لا تحب ولا يسرها. وراجع أنت الفرق بين لاأحب كذا ولا يسرنى كذا.

وقال: ولو أن لها الدنيا وما فيها وقال في الثاني ما على الأرض من شيء والأول أشمل، وهذا المعنى هو أصل هذا الحديث، وهو أن خيرًا أي خير عند الله هو أفضل من كل ما على الأرض من شيء وأفضل من الدنيا وما فيها، وأن الذي له واد من الذهب ويرجو واديًا آخر لا يساوي واديه هذا ذَرَّةً بالنِّسْبَة للدنيا وما فيها وأن الراكضين في هذه الأرض ويلهيهم سعار المال، لن يحصلوا هذه الذَّرَّة وأن الرجل الصالح الذي رضي الله عنه وأرضاه بذكره واستقامته وصِدْقه وصلاحه وإصلاحه وقيمه يؤول أمره إلى ما هو أفضل من الدنيا وما فيها وبصورة أخرى نجد ساكن الكوخ أو ساكن العشوائيات التي لا تصلح لسكنى البشر إذا استقرَّتْ نفسهُ ورَضِيَتْ وذكرت وشكرت وصبرت واجتهدت وجاهدت واحتفظت بقيم الخير التي هي الرحمة والأمانة والوفاء، وصدق النفس وصدق الحديث، بهذه المعاني يمتلك ما هو أفضل من كل ما على الأرض من شيء، وعليك أنت أن تتصور حجم (ما على الأرض من شيء) وأجد أصل هذا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ

فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ وقوله جل شأنه ﴿ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُۥ ﴾ وقوله سبحانه ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ أي تحولا ، نص في قوله عليه السلام « يسرها أن ترجع إلى الدنيا ولو أن لها الدنيا وما فيها » وفي ضوء هذا يكون الذي أزاح غصن الشوك عن الطريق قد امتلك بهذا خيراً ما يسره أن يتركه وأن يأخذ الدنيا وما فيها وهذا عجيب جدًّا لأنه يعني اقتلاع الأحفاد التي من شأنها أن تسكن في قلوب الفقراء على الأغنياء وتقتلع أيضًا مبررات الصراع الطبقي في المجتمعات الإسلامية التي تظاهر فيها الوعي بدين الله الذي تدل عليه هذه الأحاديث التي نحن فيها وإن كان أصحاب الثقافات غير الإسلامية من كثير من رجالنا ينقلون من الثقافات الأخرى أفكار الصراع الطبقي وأحقاد الفقراء على الأغنياء ويزرعونها زرعًا في تراب مجتمعاتنا وإن كانت تلفظها لأن الرضى بما قسمه الله يوشك أن يكون عَدْلَ الإيمان بالله ، وهذا لا يعني العجز والكسل والتراخي في طلب المستوى الأعلى من المعيشة والمستوى الأعلى من الاجتهاد والجهاد وأن هذا الاعتقاد الذي تدل عليه هذه الأحاديث لا يدعو إلى التهاون والتساهل في طلب الدنيا وطلب القوة فيها وطلب الغلبة فيها وطلب التفوق الذي يرهب عدو الله وعدونا أقول هذه الأحاديث لا تعنى شيئًا من ذلك لأن كل ذلك واجب ومن ورائه هذا الإحساس وهذا اليقين الذي يورث نفس المجتهد المتقن المحسن المكدود اطمئنانا ورضى واستسلامًا لما جرى ويجري به القدر ، ومن السذاجة أن تفهم أن الذي رآه سيدنا المختار يتقلب في الجنة بسبب غصن شوك أزاحه عن الطريق أنه لم يفعل في حياته إلا إزاحة هذا الغصن لأن ثواب الله الموفور لإزاحة الغصن إنما كان لما كان وراءه من صدق وإخلاص واجتهاد في جَلْبِ الخَيْر ونفي الضر عن هذه الأمة فتقبل الله

منه إزاحة هذا الغصن والقبول من الله لأي عمل وإن قلَّ وراءه ما وراءه من خير ، ولن أطمئن إلى قبول القليل إلا بعد إحسان الكثير وبعد المواظبة الدائمة على عمل الصالحات وخصوصًا في هذا الباب الذي يمثله إزاحة غصن شوك عن طريق الأمة ، ولا تنس هنا أن المعقود عليه الأجر في هذه الصالحة هو الرغبة في رفع الأذى عن الأمة وعليك أن تنتقل من حالة إزاحة غصن الشوك إلى حالة هذا العالم المنقطع في معمله ليبحث عن شيء تسبق به الأمة أعداءها في إنتاج عتاد أو عُدّة أو أن تنتقل إلى ميادين العمل الجاد الذي يخرج فيه الفرد عن حاجة نفسه إلى حاجة أمته ، وفي كلام رسول الله ﷺ معان ظاهرة ووراءها معان خفية كحديث إزاحة غصن الشوك فظاهره ظاهر ووراءه معنى آخر وهو شغل القلب برفع الأذى عن الأمة ، ووراء ذلك ما وراءه من أعمال وصور فهذا طب يدفع أذى الأمراض وهذه زراعة تدفع أذى الجوع وهذه صناعة تدفع أذى الحاجة إلى آخره ، وكلها داخلة تحت باب إزاحة غصن شوك وإنما اختار رسول الله ﷺ أقربها لأنه دال من باب أولى على غيره يعني إزاحة الأذى عن الأمة يبدأ بإزاحة غصن شوك . ثم لا ينتهى لأنه يتطور مع تطور العلوم والصناعات .

وأعود إلى الشهداء الذين يَوَدُّون أن يعودوا إلى الدنيا ليجاهدوا في سبيل الله ، ولفظ رسول الله ﷺ يقول في الأول (إلا الشهيد فإنه يَتَمنًّى أن يرجع فيُقتَل في الدنيا لما يرى من فضل الشهادة) وقال في الثانية (غير الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة) لا يتمنى الشهيد أن يرجع إلى الدنيا فيقتل لرفع درجته في الجنة لأن الشهداء رُفعت درجاتهم في الجنة والفرق بين درجة ودرجة كالفرق بين السماء والأرض ثم إن أهل الجنة كلُّهم أعلاهم وأدناهم راضون وواجدون ما تشتهي الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعين

ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين إذن فلماذا يتمنى هـؤلاء الرجـوع إلى الدنيا ليقتلوا ؟

لفظ رسول الله ﷺ يقول «لمـا يـرى مـن فضـل الشـهادة ولمـا يـرى مـن الكرامة» وكلمة يرى التي جاءت في الخبرين عِلّة لِتَمنّيه الرجـوع يَعْنِـي أنـه عاش في الجنة مُغْتَبِطًا بفضل الجهاد ومغتبطًا بكرامة الشهداء ، وأنـه لم يـرد أن يرجع طلبًا للمزيد من هذا وإنما يريد أنْ يرجع طلبًا لمزيد الشكر على هذا الفضل وهذه الكرامة ويلاحظ أن التَّضْحية العظمى بالنفس وتحمل القتل وسَفْحِ الدم والجراح التي تُفجر الدماء كل ذلك صَعْب جدًّا والنفس الصـادقة النقية التي تَبْتَغِي وجه الله لا يخرجهـا إلا جهـاد في سـبيله وتصـديق برسـله تتحمل هذا كله مرَّات ومرات مُبتغيةً بذلك شكر المنعم الذي تفضل بالفضل وتفضل بالكرامة ، ووراء هذا الظاهر معنـى آخـر وهـو أن الشـهيد لم يكـن يتوقع أن يجد هذا الفضل الغامر وهذه الكرامـة الـتي تفـيض ثوابًـا لشـهادته وإنما فوجئ بها ، ولم يجد بدًّا من أن يَتَمنّى أن يرجع فيقتل ثم يرجع فيقتل ليكون عبدًا شكورًا ، ويلاحظ أيضًا أنهم فاجأوا أهل الجنة الذين لا يريـدون أن يرجعوا إلى الدنيا ولهم كل ما علـى الأرض مـن شـيء والمفاجـأة في أن هؤلاء الشهداء يريدون الرجوع لا ليملكوا ما على الأرض مـن شـيء ولكـن لِيُقتلُوا ، وهذا أفظع ما يَسْعَى إليه الإنسان ، وذلـك لشـيء واحـد يَغِيـبُ عنـا الإحساس به وهو لذة المكافأة بالحسنى فإن الله سبحانه لمـا أجـزل وأغـدق وأفاض وأعطى من غير حساب صادف هـذا نفوسًـا طيِّبـة صـالحة فوجـدت اللذّة في أن تُقتل في سبيله مـا دام للقتـل في سبيله هـذا الرضـا منـه وهــذا العطاء ، وكأنها لم تجد شيئًا تبيع به النَّعيم في الدرجات العالية من الجنة إلا أن تُقْتل في سبيل الله ثم تعود فتقتل ثم تعود فتقتل وهذا نعيمها وهذا جَنّتُها

وهذا لذَّتها وغِبْطَتُها . وهذا معنى أبعد من أن تناله الألسنة والأقلام وإنما أفتح الباب وهذا حسبي . وأنت الذي عليك أن تتدبرّ .

وقوله عليه السلام « والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل » ، هو من باب تمني الشهيد الذي في الجنة أن يعود إلى الدنيا فيقتل لما يرى من فضل الشهادة ، إلا أن هناك فرقًا هو الفرق بين النبوَّة والشهادة هذا الفرق هو أن الشهداء تمنَّوا ذلك لما دخلوا الجنة ورأوا الكرامة ، وسيدنا المختار قال ذلك وهو بين أصحابه لأن الذي رآه الشهداء لما دخلوا الجنة علمه ورآه سيدنا رسول الله ﷺ بعلم ربه ، وبلاغه وَوَحْيه ، فكانت رؤية قلبه عليه السلام كرؤية عيون الشهداء .

وقد سئل عبد الله عن قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فقال أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال أرواحهم في جوف طير خُضْرٍ لها قناديل مُعَلَّقة بالعرش تَسْرَحُ من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلَّع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئًا ؟ قالوا أي شيء نشتهي ؟ ونحن نَسْرحُ من الجنة حيث شئنا . ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأو أنهم لم يُتركوا من أن يُسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقْتَل في سبيلك مرَّةً أخرى فلما رأى أنهم ليس لهم حاجة تركوا .

وقد ذكروا أن عبد الله هذا هو ابن مسعود وقيل ابن عمر وعقَّب النووي على نسبته إلى ابن مسعود وقال هو الصواب وقال هذا الحديث مرفوع لقوله إنا قد سألنا عن ذلك فقال ... يَعْنِي النبيَّ ﷺ وجاء في غير مسلم بطير خُضْر وفي حديث آخر بحواصل طير وفي الموطأ إنما نَسَمَةُ المؤمن طيرٌ

وفي حديث آخر عن قتادة في صورة طير أبيض ، وقد نوقشت هذه الروايات وفوضِل بينها ولم أقرأ أن أحدًا أنكر هذه الصورة أو استبعدها أو استغربها لأن الأمر فيها كما قال النووي (ليس للأقيسةِ في هذا حُكم وكله من المجوزات فإذا أراد الله أن يجعل هذه الروح إذا خرجت من المؤمن أو الشهيد في قناديل أو أجواف طير أو حيث يشاء كان ذلك ووقع). انتهى كلام النووي .

وهذا كلام جيد جدًا لأنه سبحانه إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون ووجود الأرواح في أجواف طير تسرح في الجنة ثم تأوى إلى قناديل مُعَلَّقة بالعرش ليس أبعد من قوله سبحانه للسماء وللأرض أتيا طوعًا أو كرها فتُجيب السماء والأرض بقولهما أتينا طائعين ، والخلاف الذي وقع في هذه المسألة كان خلافًا حول الجنة التي تسرح فيها هذه الأرواح هل هي الجنة التي سيدخلها الصالحون بعد البعث والحساب التي هي جنة الآخرة قال بذلك جميع أهل السنة وذهب المعتزلة إلى أن الجنة التي تكون بعد البعث غير موجودة الآن وهذه الطير تسبح في جنة أخرى ، وكذلك يقولون في جنة آدم عليه السلام وأنها ليست الجنة التي تكون بعد البعث .

ولا شك أن الشهداء لما سألهم ربهم هل تشتهون شيئًا أدركوا أن هذا السؤال تكريم لهم ومزيد من التقريب والرضا عنهم ومزيد من الرضا عن صالحتهم التي قدموا فيها أرواحهم في سبيله وهم مؤمنون صادقون مخلصون محتسبون ، فلما أجابوا بأنهم لا يشتهون وتكرر السؤال من الحق جل وتقدس وهو يعلم أنهم لا يشتهون شيئًا وأنهم في غاية الرضا ، جاء جوابهم لما علموا أنهم لن يتركوا بقولهم نريد أن تردَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقْتَل

في سبيلك فأفادوا أنهم لا يشتهون إلا العمل الـذي رضـيتَهُ سـبحانك والـذي أعطيتنا هذا العطاء وتفضّلْتَ علينا به هذا الفضل ، وأننا لا نريد رفع الدرجة لأنك رفعت درجتنا ، وإنما نريد مرضـاتك ونريـد الفعـل الـذي رضـيته وأن لذتـنـا التي نشتهيها هـي فـعـل ما ترضـاه ابتغاء رضـاك لا غـير . يَعنــي أن ما نشتهيه وما هو أفضل مما نحن فيه هو أن نُقْتَل في سبيلك مـا دام المـوت في سبيلك له عندك هذا القدر من الرضا ، وهذا القدر من الثواب وهذه هـي الدرجة التي ودَّها رسول الله ﷺ وهي العبادة التي ليست لطلب الجنة وليست للخوف من النار وإنما عبادة الرضا والشكر والقرب . العبـادة الخارجـة عـن دائرة المقابلة والمقايضة وإنما هي فقـط لابتغـاء الرضـا لأن إحسـاس العبـد بمرضاة الله عليه يعلو فوق الثواب والنعيم وهذا مقام آخر وعبادة لهـا مـذاق آخر ، هي عبادة الحب والرضا والقرب وندعو الله أن يذيقنا منها رَشْفَةً . هذا والله أعلم ، وهذا يشبه حب الصدق لا ليثاب المرء علـى صِـدْقه لأن الصـدق قيمة يحرص الإنسان النظيف عليها وحب العدل لا ليثاب المـرء علـى عَدْلـه وإنما لأن العدل قيمة يحرص الإنسان النظيف عليها ومثل هذا يقـال في كـل مكارم الأخلاق ليس الحرص عليها مقايضة ومبايعة ومبادلة وإنمـا الحـرص عليها هو شأن النفس إذا كانت نفسًا ، والثناء على الله والتّقـرُب إليـه وابتغـاء مرضاته فضيلة من فضائل النفس إذا كانت نَفْسًا لا تجد للثـواب لـذة تفـوق لذة الثناء من أجل الثناء ومثل هذا أن تحب مَنْ تحـب لا لأنـك تتربّـح بهـذا الحب وإنما لأنك تجده أهلاً لهذا الحب .

ومن عجيب كـرم الله أو من كمالات كـرمـه الذي يحب الله من يحبه لها لا رغبة ولا رهبة أن الجهاد الذي له عند الله هذا المقام ولأهله عند الله هذه الحفاوة يَمْنَحُ ربُنا كل عطائه هذا لمن تعلقت نفسه بـهـذا الجهاد ثم أقْـعَـده

ما غلبه على حبِّه ورغبته في صحبة المجاهدين لأن الله سبحانه وتعالى يكافئ على النوايا التي لا يَعْلَمُ حقيقتها إلا هو ولا يكافئ عليها إلا هو سبحانه ولا أعني بذلك الذين لم يجد رسول الله ﷺ سعة ليحملهم ولم يجدوا سعة لأن ثواب هؤلاء أمره ظاهر ويكفيهم أنهم تولوا وأعينهم تفيض من الدمع وأن رسول الله ﷺ قعد خلاف السرايا التي ما أحب أن يقعد خلافها حتى لا يشق عليهم خروجه عليه السلام وتخلفهم ، وإنما أعني المريض الذي في فراشه لا يقوى على الجهاد ، وخرجت الرجال للجهاد وأقعده مرضه فتعلق قلبه بهم وما هبطوا واديًا ولا نزلوا منزلاً إلا وقلبه وخواطره كلها معهم وكأنه سافر بقلبه وعقله وترك لفراشه جَسَدَه المُثْقَل ، مثل هذا له أجر مجاهد لا ينقص من أجر غيره شيئًا قال عليه السلام : « إن بالمدينة لرجالاً ما سِرتُم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم ، حَبَسهم المرض» قال القرطبي في التعليق عليه (إن النَّاوِي لأعمال البر الصادق النية فيها إذا منعه من ذلك عذر كان له مثل أجر المباشر)، انتهى كلام القرطبي رحمه الله ، وراجع الحديث والتعليق عليه لأنك ستجد في التعليق عقل فقيه يستنبط ويَقيسُ وليس يشرح الدلالة اللغوية فحسب ، فسيدنا رسول الله ﷺ يَتحدَّثُ عن الجهاد والذي حبسه المرض عن الجهاد مع شدة رغبته فيه واستعاض عن ذلك بتلك المتابعة النفسية التي كانت معهم في كل مسير وفي كل منزل ، والقرطبي استخلص من ذلك قاعدة شرعية وهي النية الصادقة لكل عمل من أعمال البر جهادًا كان هذا العمل أو غيره ثم منعة مانع من المباشرة يُعطى اللهُ هذا النموذج أجر الذي باشر فلو صدقت نيتك في الصَّدَقة ثم لا تجدها أخذت أجر المُتَصَدِّق ولو صدقت نيتك في رعاية اليتيم ثم عجزت أخذت أجر الذي رعى اليتيم وهكذا المطلوب إصلاح النفس وإصلاح النوايا ، وإشاعة النوايا الطيبة ومطاردة النوايا الشريرة والسيئة ونية

المرء خير من عمله ، وهذه هي غاية الشريعة وغاية سبيل الله ومكارم الأخلاق التي أرسل الله النبيين لبنائها ثم بقيت منها لبنة وجاء بها خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه ، المطلوب سلام النفوس مع النفوس ، وسلامة القلوب ، وقوله عليه السلام من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، وكلمة (كلمة الله) لها هنا مقام كريم وقد أفادت أن سبيل الله كلمة وأن صلاح أحوال الناس والأمم كلمة وقال تعالى ﴿ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ وسبيل الله هو كما قلت وأكرر العدل ودَفع الظلم والرحمة ودْفع القسوة والغلظة والعنف ، والبرّ بدل الفجور ، والأمانة بدل الخيانة والصدق بدل الكذب والحق بدل الباطل والإيثار بدل الأثرة وسبيل الله هو العلم بدل الجهل والإتقان بدل الغش والقوة بدل الضعف والنصر بدل الهزيمة ، سبيل الله هو باختصار أن تكونوا أنتم الأعلون وأن تتخذوا أسباب ذلك حتى تحققوه ، ومعنى أن تكون كلمة الله هي العليا أن يعلو الخير على الشر والعدل على الظلم والحق على الباطل والمعروف على المنكر ، والحُسْن على القبح ، وكلمة الله هي التي أرسل بها رسله وأنزل بها كتبه وأوحى بها إلى أنبيائه ولو أحْسَنَّا عرض حقيقتها على مجتمعاتنا لقاتل في سبيلها البَرّ والفاجر لأنه ليس أفضل لحياة المجتمع منها ، ولا أبرّ بالناس منها ، حتى تَخْرجَ الظعينة من المدينة إلى صنعاء لا تخشى إلا الله والذئب. أما الناس فقد أصْلحت كلمة الله نفوسهم ، فصاروا أمناء كرماء ، نبلاء رحماء ولم يكن الجهاد إلا لهذا ولم تكن كرامة الله للمجاهدين إلا لأنهم ساعون في الخير ، ومسارعون في الخيرات ، وقد عرفنا أن الرفق على عباد الله من أفضل ما يُتقرب به إلى الله ابتداء من إماطة الأذى عن الطريق وأعلاها الجهاد ، وهو أيضًا من باب إماطة الأذى ولكنه ليس عن الطريق وإنما إماطة الأذى عن حياة الناس يَعْني إماطة الظلم والقهر والقتل والفجور والغطرسة

والسلب والنهب والاستقواء على الضعفاء وإماطة الزور والكذب والنفاق ، الحرب التى هى الجهاد لإماطة الأذى عن الإنسان كإماطة الأذى عن الطريق ، سيادة الجاهل أذًى يجب أن يُماط ، سيادة الغادر أذى يجب أن يُماط ، سيادة الخائن أذى يجب أن يُماط ، سيادة القاتل أذى يجب أن يُماط ، وإذا كانت نقطة البداية إماطة الأذى عن الطريق فلابد أن يكون في النهايات إماطة الأذى عن عروش الرياسة والحكم والملك ، حتى تكون نظيفة صادقة طاهرة مخلصة وهذا هو معنى سبيل الله ومعنى أن تكون كلمة الله هي العليا .

ولو وضعت كلمة جاهد بدل كلمة قاتل وقلت من جاهد لتكون كلمة الله العليا فهو في سبيل الله وأردت الجهاد الذي ليس بالسيف والجهاد الذي يبلغ الجهد كأن تبلغ الجهد في تعليم طلابك لِتعدّ منهم رجالاً يميطون الأذى عن الأمة سواء كان هذا الأذى جهلاً ، أو مرضًا ، أو فقرًا ، أو استبدادًا ، واستشعرت هذا المعنى وأنت في درسك معهم وأحسست أنك لا تدرس مَنْهجًا فحسب وإنما تُعِدُّ رجالاً تعمر بهم أرضك ويرتفع بهم قومك ، أقول أنت في هذا مجاهد في سبيل الله ولا أزعم أنك تزاحم الغزاة الذين تَتَفَجَّر دماؤهم في لقاء العدو ، وإنما أنت في كرم الله وعطائه لا يُحزنك الفزع الأكبر ، وهكذا كل مجاهد في مَعْمَل أو مَصْنع أو أي مِرْفق من المرافق التى يُميط ضربًا من ضروب الأذى عن الأمة ، ومثل هذا يقال في قوله عليه السلام « لغدوة في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها » ، واللام فيها للقسم والتوكيد والغَدْوة بفتح الغين السير من أول النهار إلى الزوال ، والروحة السير من الزوال إلى المغرب .

والمراد أن الغَدْوة وحدها خير من الدنيا وما فيها والرَّوْحَة وحدها خير من الدنيا وما فيها ،وكلمة « أو » التي بينهما ليست للشك وإنما هي للتقسيم ،

وسواء كانت الغدوة والروحة سيرا في الطريق إلى الغَـزْو أو كانـت سـيرًا في ساحة الحرب ، هي خير من الدنيا وما فيها ، وكل هذا لتأكيـد قيمـة الجهـاد وضرورة تعلق الأُمَّة به واستحضارها له في كل وقت ، وقد تقدم أن من تعلَّق قلبه بالجهاد وأقعده عذره له أجـر مجاهـد ويقابلـه مـن مـات ولم يغـز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شُعْبة من نفاق ، قلت المطلوب أن يظل الجهاد حيًّا قائمًا غالبًا في نفوس الأمة وإن كانت الصورة قد اختلفت اختلافًـا كـبيرًا جدًّا وإنما تبقى الحقيقة حيَّة فالغُدْوة والروحة في سـبيل الله الـتي هـي خـير من الدنيا لم تعد باقية بمعناها الحرفي فلم نَعُـد نخـرج للقـاء العـدو بخيلنـا ورواحلنا ، وإذا كان ذلك قد تغير فـإن الحقيقـة لم تـتغيرّ ولا زالـت الغُـدوةَ والروحة ليس في معناها الحرفي وإنما هي باقية بفقه معناها ، فإعداد العُـدَّة في مصانع إعداد العُدَّة لا تزال فيها الغَدوة والروحة مفتوحة لأهل الصدق من العاملين المخلصين المتقنين والعلماء الباحثين المكتشفين ومراكز الأبحـاث المتقدمة والمتطورة التي تمد هذه المصانع بالمبتكرات والاكتشافات العلمية فتنتج أسلحة متطورة وعتادًا متطورا ، والغَدْوة والروحة في ذلك صارت أكثر وأفسح وأخَصب وبدلاً من الفارس المرتحل على راحلته وهو ممسك بعنـان فرسه صرنا إلى باحثين في معاملهم وصُنَّاعًا في مصانعهم ، ولا فـرق بيـنهم وبين الفارس المرتحل لأن كلا يحمل قلبًا مُولَعًا بالجهاد في سبيل الله لتكون كلمة الله هـي العليـا ، وهـم بهـذا الـذي يحملونـه في قلـوبهم سـواء يَسْـتَوِي صاحب الغدوة والروحة في مسيره إلى الغـزو وصـاحب البحـث والمجتهـد البالغ أقْصى الجهد ليصل إلى شيء يُفَاجأ به العدو من تطور سـلاح وعـدة ، ولاحـظ أن المرتحـل علـى راحلتـه والمُعتكـف في معملـه سـواء في الغايـة والهدف والغاية هي الجهاد والهدف أن تكون كلمة الله التي هي كلمة العـدل

والإحسان والبر والخير والرحمة هي العليا ، وبهذا تختلف حروبنا عن حروب غيرنا وتختلف مصانعنا عن مصانع غيرنا هم يحاربون من أجل سرقة وخطف ثروات الأُمم ويُقيمون المصانع ليحققوا الغلبة بالدمار والخراب وأشلاء البشر وليُفْسِحُوا للظلم والاستبداد والأثرة ورذائل النفوسُ وهذا شيء وكلمة الله شيء آخر ، وهذا هو السر في أن من مات ولم يغز ولم تحدثه نفسه مات على شعبة من نفاق ، وهذا خطر عظيم لأن النفاق أخسّ خسائس النفوس ، وبيان هذا السر ، هو أن سبيل الله كما قلت غلبة الخير على الشر وغلبة العدل على الظلم وغلبة الصدق على الكذب وغلبة الأمانة على الخيانة إلى آخره ، ومن لم تحدثه نفسه بالمشاركة في هذا الذي تكون به عمارة الأرض فقد عاش مَدْخُول النَفس ليس بمعاني الخير والبر والصدق والحق وإنما بغير ذلك وهذه الفضائل التي هي كلمة الله وهي سبيل الله لا تروغ نفس من مناصرتها إلا نفس خسيس خبيث ، والنفاق هنا ليس نفاق كفر ، وإنما هو المرض الذي يقعد بصاحبه عن مساندة الخير الذي هو سبيل الله .

وقوله عليه السلام « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها » هذا الرجل الذي هو خير الناس نموذج يناقض الذي مات ولم يحدث نفسه بغزو ومات على شعبة من شعب النفاق ، وهذان طرفان متباعدان جدًّا وبينهما وسائط كثيرة ، والمُمْسك بعنان فرسه هو المشبوب بالجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق الذي هو سبيل الله ، وممسك بعنان فرسه مجاز عن تهيئته في كل لحظة لدخول الحرب وكأن سيفه على كتفه دائمًا فشبّه الذي هو على هذه الحال من التهيؤ بالممسك بعنان فرسه والعنان كاللجام معنى ووزنا ، والعنان بفتح العين كالسحاب لفظًا ووزنًا وكلمة طار

استعارة تبعية استعير الطيران للإسراع وهو من باب الاستعارات القريبة لأن كلمة طار استعيرت لمعنى الإسراع وهما من باب واحد ، وهذه الصُّورة الحسِّية ليست هي المقصودة وإنما المقصود ما وراءها من توفر نفسه وانعقادها على الرغبة في الجهاد ، كلما سمع هيعة أي دعوة إلى الحرب وحيّ على الجهاد أسرع إليها وكأنه يطير على فرسه ، والصور الحسية في البيان تبقى دلالتها وإن كانت الأزمنة قد تجاوزتها ، ولا زلنا نقول : السيف أصدق أنباء من الكتب ، وإن كان السيف لم يعد أداة حرب ، ولك أن تقول فلان ممسك بعنان فرسه وأنت تعني قائدًا مُظَفَّرًا مولعًا بالدفاع عن تراب وطنه كما نقول فلان مُشمِّر في إنجاز كذا مع أن الجلباب لم يعد ثيابا عاما ، وتريد مجتهد كقولهم خارج نصف ساقه ، والذي يعنيني من هذا الحديث هو بيان هذه الهِمَّة المتوفِّرة وراء هذه الصورة،وأن خير الناس هو المولع بالجهاد في سبيل الله الذي هو إحقاق الحق في الأرض ، وإبطال الباطل والذي قلت لو فهم غير المسلم المراد بسبيل الله لجاهد في سبيل الله إن كان رجلاً حُرَّ القلب مُبْغضًا للبغْي والظلم والغطرسة والتوحُّش والكذب والزور إلى آخره ، لأن سبيل الله يعني الدفاع عن كل فضيلة إنسانية ومدافعة كل رذيلة من رذائل النفس الإنسانية التي أُشْبِعَتْ بفجورها ومن هنا كانت القيمة الإنسانية للمجاهد ، وكان تقدير الله له لأن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليخرج الإنسانية من كهوف الظلمات إلى مطالع النور في الأخلاق والسلوك والحكم والسياسة وكل ما يعود إلى إنسانية الإنسان بالتكريم الذي كرّمها الله به ، وقد وعد الله الذين جاهدوا فيه أن يهديهم سبلهم وأن يكون معهم ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ قال سبحانه ﴿ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا ﴾ ولا يمكن أن يكون الجهاد فيه جهاد ظلم وبغي لأن الله لا يحب الظالمين ولا يحب الخائنين وكلمة ﴿ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾

مؤكد باللام ونون التوكيد وهذا يعني أن الهداية هنا ذاتُ شأن عند الله وأنها هداية إلى الحق ، وترك الباطل ، وهداية إلى الصدق وترك الكذب وهداية إلى العدل وترك الظلم وما دامت هداية إلى سبيل الله فهي هداية إلى كل خير وهداية إلى ترك كل شر لأن الله سبحانه ما ترك خيرًا إلا حَثَّنا عليه ولا ترك شرًا إلا نهانا عنه وهذه هي الحياة الكريمة التي قتل المجاهد في تحقيقها ، ثم يشغلك في الآية أن الله سبحانه وتعالى قال في فاصلتها وإن الله لمع المحسنين ، والمحسن هو الذي يحسن كل عمل يباشره سواء كان من العبادات أو من شؤون دنياه وإن كانت أعمال الدنيا تصير عبادة بالنيات الطيبات ، وأفهم من هذا أن من هداية الله لمن جاهدوا فيه أن يكونوا من المحسنين أعني من المتقنين ليس لفنون القتال الذي هو سياق الآية القريب لأن من حقك أن تفهم من قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ أنها تعني الجهاد الأكبر والأصغر وأن مُعَاناتِكَ في الموقع الذي أتت فيه إذا سكن في نفسك الطموح إلى خدمة أُمَّتك واجتهدت وأفْرَغْتَ الجهد كنت في الجهاد الأكبر ويستوي أن تكون مُعَلِّمًا تذيب ذَوْب قلبك للجيل الجديد المُتحلّق بك أو كنت عاملاً في مصنع أو كنت باحثًا في معمل أو كنت في أي موقع وكأن كلمة ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ بالتأكيد الذي تراه فيها تحفزك من ورائك ومن قدامك ومن ظاهرك وباطنك لتُنَبِّهكَ إلى شيء هو أن بَذْلَ المَجْهُودَ في العمل لا تكون له ثمرة إلا إذا توفّرت للعمل وجوه إحسانه ، فالجدُّ في الصَّنْعة يعني أولاً جدًّا في إتقان أصول الصنعة والجد في الدرس يعني أولاً إتقان أصول الدرس والجد في المعمل يعني أولاً إتقان الأصول التي تبنى عليها البحوث وهكذا ، والجد في الحرب يعني معرفة الأساليب والعدة والعتاد التي تحقق النصر في الحرب ، فالجهاد يعني استيعاب الأصول والفروع في الميدان الذي نجاهد فيه وإذا صدقت هداك الله سبيله ثم

إذا صَدَقْت هداك الله سبيل الإتقان فإذا أحسنت رأيت الله معك ، وتأمل هذا واستقصه ثم انظر إلى أي مدًى يَفْتحَ أبواب الخير لهذه الأمّة ثم انظر أي جريمة يرتكبها السياسيون الجاهلون الذين يُصرُّون على أنه لا دين في السياسة ، وهم على حق إذا كان المراد الدين الذي يفهمون لأنه لا يصح أن يسمّى دينًا ونجد أيضًا حجْم هذا الخطأ عند الذين يُقْحمون الدين في السياسة من غير أن يكون عندهم الفقه اللازم لهذا الإقحام والفريقان لا تجدُ الله معهما لأنهما ليسا من المحسنين ، ولابد من قطع المسافات الضرورية لنصل إلى الإحسان الذي يفتح لنا باب معيَّة الله جل وتقدّس .

ومن الأكثر أهمية هو أن صورة الممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها ذات دلالتين الدلالة الأولى في لفظ الحديث وهي تشبثه بأقوى أدوات الحرب وأفْعَلِها في التقريب من النصر وهي الخيل التي معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وكانت هي العنصر الأصْلَب والأقوى والأشرس في مواجهة العدو ، والدلالة الثانية هي وَلَعُ هذا المجاهد الحرُّ بالجهادِ لتكون كلمة الله هي العليا يعني ولعه بالمعنى الإنساني النبيل حتى إنه يُقدمُ بنفسه وماله ليفسح له المجال في الحياة الإنسانية ، هو رجل خرج ليقاتل ويُقْتَل في سبيل الحياة الإنسانية الأكرم ، والأرْفعَ والتي يتجسد فيها تكريم الله للإنسان ، ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ ﴾ . أما الدلالة الأولى التي هي تَشبُّثه بالعنصر الصلب ، والحاسم في الحروب الذي كان عنصر الفَرَسِ والفارس حتى إن الجيوش كانت تقيّم بعدد ما فيها من فرسان ، أقول هذا العنصر صار الآن عِلْمًا وصِنَاعةً ومعامل ومراكز أبحاث ومراكز إنتاج آلة الحرب ، وهي أكثر ضروب العلم والصناعة تقدُّمًا ، والمُمسِكُ بعنان فرسه هو القائم في هذا الشأن وهذا الباب وهو بمثابة المسؤول عن مصانع الإنتاج

الحربي وما يَلْزمها من مراكز أبحـاث وكتائـب علمـاء منقطعين يكتشـفون أخذت النظريات لصناعة أحدث الأسلحة والواجب أن ترى كتائـب العلمـاء والصناع والباحثين هنا في هذه المَعْمَعة من المصانع ومراكز البحث قبل أن ترى كتائب الجنود في الميدان لأن كتائب الجنـود مـن غـير كتائـب العلمـاء والبـاحثين ليسـوا إلا ضـحايا حـروب ، وليسـوا إلا قـرابين يُقَـدِّمها الحكـام الجهلة لكتائب العدو التي وراءهـا كتائـب مـن الـذين يتعبـدون في المعامـل والمصانع ، وهذا هو الإمساك بعنان الفرس اليوم ، الفرس اليوم هي المصانع والمولع بعنان فرسه هو مولع بالمصانع ، ومن حق كل واحد منا أن يطمـح في أن يكون ممسكًا بعنان فرسه كلما سمع هيعة طـار إليهـا بـالمعنى الـذي نعيشه وهو المباشر للواقع وأن الإمساك بعنـان الفـرس صـورة حِسِّيّة لشـدة العناية بأدوات الحرب وشدة العناية بأصلبها وأجْلَبَها للنصر ، أقول من حـق كل منا أن يظفر بهذه الفضيلة التي ذكرها بني الرحمـة صـلوات الله وسـلامه عليه ووصف صاحبها بأنه خير الناس. والباب مفتوح والطريق واضح . وهـو شيوع ثقافة الجهاد بمعنى الجهاد الأكبر في الأمة كلـها وفي جميـع طبقاتهـا وألا يكون هناك مواطن واحد يترك مثل هذا الشأن لولي الأمر وإنمـا يشـعر كل مواطن أنه مسؤول وأنـه في كـل موقـع يشـغله لا ينسـى أنـه واحـد مـن جماعة عليها مسؤولية حماية الأرض وتوفير القوة لها حتى لا يطمع مغـامر في أخذ ذرة تراب واحدة من ذرات ترابها وأننا نحن جميعًا ولو كـان عـددنا مائة مليون على استعداد لأن نُفَدِّي هذه الذرة بدمائنا جميعًا ، وأن هذا لـيس هو البداية والنهاية وإنما البداية والنهاية هي أن يعمـل الجميـع لتـوفير القـوة وتوفير العلم وتوفير الصناعة التي توفر لنا الغلبة والحماية ، فإذا كنتُ معلمًا فأنا أعد علماء وأطباء وباحثين لهذا المجتمـع الـذي يجـب أن يكـون بنفسـه

قادرًا على حماية نفسه وحماية أرضه ، وإذا كنت صانعًا أجتهد في أن أُوَفِّر صناعة تملأ فراغنا وتغزو فراغ غيرنا لأننا يجب أن نكون أقوياء ، وهكذا كل فرد يسكن فيه الإصرار على أن يكون مجتمعه قويًا وبلاده قوية ، وليس هذا من الخيال وإنما هو الواقع في كل أمة تقدمت وإنما نجحت أفعى صهيون في أن تحشْد قلوب الأخلاط الذين جلبتهم بالإخلاص إلى الدولة ، والإمساك الدائر بعنان الفرس ، وتلهينا نحن بأغاني السلام ، رزقت قيادات رشيدة ورزقنا نحن قيادات استعراضية لا قيمة لها ، ومن أهم عوامل النهوض والتقدم استنفار روح الجهاد في الشعوب لأنها لا تعني فقط الخروج للحرب، وإنما تعني أولاً إعداد الجيوش للحرب ، بكامل العدة وكامل العتاد وكامل التدريب إلى آخر ما يبذله القادة المخلصون الصادقون الذين ليس لهم هَمٌّ إلا نصر البلاد وليس لهم همٌّ في حكم البلاد كهمٍّ من نرى ونسأل الله أن يقطع دابرهم والمهم أنه لا يتم هذا في حياة علمية متخلفة وإنما يستلزم استنهاض كل جهات الدولة في المدارس والجامعات والمزارع والمصانع إلى آخره ، لأن النهضة لا تكون في جانب دون جانب آخر ، وكلما قرأت تكريم الله للمجاهدين أحسست بالحَسْرة ، لأن النظم الحديثة لم تتح لي ذلك الجهاد وإنما يفرِّج عليّ هذا حديثُ من جهّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا فأجتهد في تجهيز الغازي وذلك عن طريق الجد والإخلاص في إعداد طلاب العلم الذين هم الجيل الذي يَغْزو والذي يصنع والذي يبحث إيمانًا مني بأن تدريس المنهج ليس هو الغاية وإنما الغاية ما يثيره المنهج من يقظة ووعي إلى آخره ، وتجهيز الغازي هذا باب مفتوح أمام كل معلم وكل مواطن .

وحديث الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة : ذكر العلماء أن قوله عليه السلام إلى يوم القيامة يَعْني أن الجهاد قائم في الأُمَّة إلى يوم القيامة وأن عِزّ الأمة في هذا الجهاد ، وأنه ما ترك قوم الجهاد إلا ذَلّوا ، وأفهم أن الذُّلة ليس سيطرة العدو على البلاد فحسب وإن كان ذلاً بشعًا يأباه كل مواطن حرًا كان أو عبدًا وإنما أفهم الجهاد بمعناه الأكبر الذي هو جهاد كل مواطن في موقعه يعني يبذل فيه قصارى جهده بصدق وشرف وإخلاص لأن هذا هو الضمان الحقيقي للحياة الحرة الكريمة ، وأرجع إلى الخيل المعقود بنواصيها الخير وأذكِّر بأن الخيل كانت هي العامل الأساسي في النصر لأنها هي القوة الصلبة في الجيش ولم تعد الآن كذلك وإنما القوة الصلبة هي إنتاج آلات الحرب الأكثر حداثة وما تستوجبه من علم وصناعة واكتشاف وإتقان وابتكار وإبداع وأن الخير معقود بكل هذه الوسائل العلميَّة والبحثية والصناعية التي تمثل القوة الصُّلْبة في الجيوش التي أصبح الدفاع عن الأوطان منوطًا بها وأن هذا الخير معقود بهذه الجهات إلى يوم القيامة وكلما تطوَّرت أدوَاتُ الحروب ونَهَضَت هذه الجهات ولم تواكب هذا التطور فحسب وإنما تكون فيه سابقة فالخير معقود بها ما دامت كذلك ، والمسؤول عن إنتاج أدوات الحرب إذا كان صادقًا مخلصًا واعيًا هو ممسك بعنان فرسه وكل المتعاونين معه من علماء وخبراء وصناع كل ممسك بعنان فرسه . والخير معقود بهم ما داموا كذلك فإذا تحوَّل هذا عن مساره الصحيح يكون الأمر كله قد انتهى ، وقد رأينا من جعل ذلك كله سبيلاً للثروة وأخطر من هذا أن يكون له تعامل مع العدو ، وكل ذلك جرى تحت سقف القمع والبطش والاعتقال ، ولو كان الشَّعْبُ حرًا وكانت المعلومات متاحة لما حدث شيء من هذا ولهذا تجد سماسرة السياسة وسماسرة السلطة يقفون

دائمًا في صف القمع ، والغطرسة ، وتغييب الشعوب ، وإن كان ذلك صار أمرًا صَعْبًا لأن الليلة لم تعد تشبه البارحة وبقيت حكمة أذكر بها وهي أن التطور والتفوق في هذا المجال لا يمكن أن يوجد على الوجه المطلوب إلا إذا كان جزءًا من تطور شامل في كل مجالات العلم والتعليم وكل مجالات الصناعة والزراعة وكل الميادين الحيويَّة في حياة الجماعة ، هذا والله أعلم . ولا أراني ابتعدت قيد أنملة من كلام سيدنا رسول الله ﷺ ولا تجاوزت في تحليل بيانه صلوات الله وسلامه عليه لأنه وحي الذي يعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة .

والرباط جهاد والمخاطرة فيه بالنفس هي ذاتها المخاطرة في ساحة الحرب وإذا كان هناك جهاد أكبر وهو الجهاد في كل ساحات الأوطان في مصانعها ومزارعها ومدارسها وجامعاتها ، فهناك أيضًا رباط أكبر في كل هذه الساحات والرباط ملازم للجهاد ودوامه أطول ، فقد تنتهي المعركة في الجهاد الأصغر وتضع الحرب أوزارها والرباط باق لا يَضَعُ أوزاره أبدًا لأنه حراسة ثُغُورِ البلاد وهذه الحراسة باقية إلى أن تقوم الساعة ، وإذا كان الدين قد دخل ما دخل عليه الليل ، فأرضه مُتَّسِعةٌ اتساع ما دخل عليه الليل ، والرباط هو حراسة هذه الأرض ، فهو متسع اتساع الأرض وباق ما بقيت الأرض إلى يوم القيامة .

وقد عرفنا منازل الشهداء وأنهم هم وحدهم من بين خير البرية الذين لهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار أقول هم وحدهم يودون لو عادت أرواحهم إلى أجسادهم ليعودوا إلى الدنيا لا ليملكوها ولكن ليقتلوا في سبيل الله مرة ومرة أقول والمرابطون من هؤلاء لا يأتون في المرتبة الثانية وإنما هم مجاهدون وأكرر أن الحرب قد تضع أوزارها والرباط لا يضع

أوزاره أبدًا لأن مطامع أعداء دين الله في أرض الموحدين لن تنتهي ولن تفتر ، وأريد هنا الإشارة السريعة إلى قوله عليه السلام : رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وإنْ مَاتَ جرى عليه عمله الذي كان يَعْمَلُه وأُجْرِي عليه رِزْقُه وأمن الفتَّان ، انتهى كلامه عليه السلام . وسُمّي الرباط رباطًا لأن الخيل تربط على هذه الثغور التي هي مظنة اقتحام العدو البلاد منها ، الخيل تربط فيها فلا تبرحها ، والخيل هي خيل الجهاد التي لاحظ رسول الله ﷺ فيها معنى المحارب المجاهد فأطلقها على المحاربين المجاهدين في قوله عليه السلام يَا خَيْلَ الله اركبي ، والرباط على ثغور الأُمة من أكرم الأعمال التي لا يقوم بها إلا أكرم الرجال لأن حراسة التراب والأرض والعرض لا يَدْفع الدَّمَ فيها إلا من كان لَيْسَ بَيْننا من هو فوقه ، وهذه التسمية تسمية جليلة لأن كلمة الرباط فيها معناها أن حارسها لا يبرحها لأنه ربط نفسه فيها، والرباط الآن قد تغيّر اسمه ورسمه وسُمّي سلاح الحدود وهو خير أسلحتنا ورجاله خير رجالنا والمقيمون على الحدود هؤلاء هم المرابطون المذكورون في كلام رسول الله ﷺ ، والمذكورون في الكتاب العزيز في قوله تعالى ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ .

وقوله عليه السلام « لرباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه » أُلاحظ فيه أن رباط اليوم مقابل لصيام شهر وأن رباط الليلة مقابل لقيام هذا الشهر ، كما أُلاحظ أن يوم الرباط وليله ، لم تُقَيَّد بأيام حرب ومنازعة وشدَّة ، وإنما أُطلقت فشملت أيام الاسترخاء ، وأن هذا القائم على الحدود في أيام الدَّعة والذي يكون فيها كأنه نائم على فراشه له أجر صيام شهر وقيامه ، ولاحظ أن ذكر صيام شهر وقيامه مستصحب المشقة لأن صيام النهار الموصول بقيام الليلة فيه مَشَقَّة وهكذا حال صاحب الرباط لأنه موصول الْهَمِّ ، وموصول

الاهتمام والاحتشاد ، واستشعار المشقة في هذه الجملة لا تجده في قوله عليه السلام لغَدْوةٌ في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، وقد تقدم الكلام في هذا الحديث والمراد الآن إضاءة معني الخيرية في الحديثين فالغَدْوة والروحة خير من الدنيا وما فيها ، وهذا يعني خيريّة عبادة وهي هنا غَدْوة أو رَوْحة على الدنيا وما فيها ، ولا أشك في أن أي عبادة أعني لحظة تقرب واقتراب من الله وذكر وتسبيح أو صلاة أو قراءة قرآن أو رعاية اليتيم أو إعطاء صدقة لذي مَقْرُبة أو ذي مَتْربة كل ذلك خير من الدنيا وما فيها بدليل الذي يتقلب في الجنة بسبب غصن شوك أزاحه وما يسَرُّه أن يعود إلى الدنيا وله كل ما في الأرض من شيء . والخيريّة هنا لا تعني المفاضلة بين الغَدْوة والروحة والدنيا ، وأن الغدوة والروحة أفضل من الدنيا لأن كل عمل صالح وإن قل أفضل من الدنيا ، وإنما ذكرت الدنيا هنا لأنها قد تَشْغل عن الغدوة والروحة أعني قد يشغل الرجل بإصلاح ماله وشأنه عن أن يرحل غاديًا أو رائحًا ليغزو في سبيل الله ، وهذا توجيه رأيته ولم أقرأه لواحد ممن يؤخذ عنهم العلم .

أما الخيرية في حديث الرباط فهي خَيْرِيَّة بين عبادة وعبادة وأن أجر اليوم والليلة في الرباط يزيد عن أجر صيام شهر وقيامه ، ولا شك أن صيام شهر وقيامه خير من الدنيا وما فيها ، ولا شك أيضًا أن رباط يوم وليلة خير من الدنيا وما فيها ، وكلمة لا إله إلا الله خير من الدنيا وما فيها ، والذي يجبُ تحريره هو أن خيرية ثواب أي عمل صالح يوم القيامة خير من الدنيا لأن الدنيا وإن كانت لا تزن عند الله جناح بعوضة فالواجب أن نعلم أنه ليس هناك عمل يقرِّب أحدًا أي أحد إلى الله إلا كان في هذه الدنيا ، فالجهاد فيها والرّباط فيها ومجالس الذكر فيها ، وقراءة القرآن فيها وعمل الصالحات فيها

والدعوة إلى الله فيها فلا يجوز أن نَفْهم من الكلام عن نفي الخيرية عنها شدة الاستهانة بها والانصراف عنها لأننا خُلِقْنا لعمارتها ولنعبد الله فيها وإنما المطلوب التحذير مما يفتح الله علينا من خيراتها كما مرّ ، وقلت خلقنا لعمارتها وعمارتها عبادة .

وقوله عليه السلام (وإن مات جرى عليه عَمله الذي كان يَعْمله) أفهم من هذا أن أجر الرباط وإن كان يومًا وليلة يجري عليه بعد موته وأنه يصير بمثابة صدقة جارية لا تنقطع بموت مُجْريها وأن هذا الرباط أيضًا في مكانة علم يُنْتَفَعُ به أو ولد صالح يدعو له ، لأن هذه الثلاثة هي التي يبقى أجرها جاريًا بعد انقطاع الأجر بالموت . وقوله عليه السلام « وإن مات جرى عليه عمله » يُلْحَقُ بها الرباط لأن كلمة جرى عليه عمله يَعْنِي جرى عليه ثواب عمله واستمرً ، وقوله عليه السلام (وأجرى عليه رزقه) قال القرطبي يَعْني به والله تعالى أعلم أنه يرزق في الجنة كما يرزق الشهداء الذين تكون أرواحهم في حواصل الطير تأكل من ثمر الجنة وهذا صريح في أنه إذا مات وهو في الرباط ولو رباط يوم وليلة فهو من الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، ولو مات في الرباط وهو على فراشه ، وأمن الفُتَّان أكثر الروايات بضم الفاء وهو جمع فاتن والفاتن هو جنس الفاتن أعني لا يعني نوعًا مُعَيَّنًا من الفتنة ولذلك فسر بأنه يأمن كل ذي فتنة وروى الطبري بفتح الفاء والمراد فتنة القبر ، ومجيء الروايتين تعني أمن الفتنتين .

والثغور التي يرابط فيها المرابطون المجاهدون الصادقون تطورت الآن وامتدت ولم تعد على حدود البلاد فحسب ، وإن كان هذا هو أصلُها وأهمها وإنما تسلّلتْ أصابع الأعداء إلى داخل الأوطان وأصبحت معنيَّة بإفساد كل شيء تقوى به البلاد في الزراعة والصناعة والعلم والسياسة والفكر وكل ماله

صلة بقوة الأمة ، ورأينا أصابعه تُفْسِدُ مشاريع الإنتاج وتهدم المشروعات الكبرى مثل مشاريع التصنيع وخصوصًا تصنيع العتاد العسكري حتى رأيناها تُفْسد تربة الأرض الزراعية ، والذي يعيش أحوال البلاد يرى ذلك رأي عين حتى البذور التي تبذر في الأرض رأيناها تصل من جهات معيَّنة ويلزم بها الناس ثم تنتج أضْعَفَ إنتاج ولا أشك في أن كل هذه ثغور مثلها مثل الثغور التي قال فيها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه رباط يوم وليلة كصيام شهر وقيامه ، وأرى اختراقًا شرسًا جدًّا وبشعًا جدًّا للحياة الفكرية يستهدف هذا الاختراق إبعاد علومنا وأصول حضارتنا وأصول كياننا وإحلال ثقافة أخرى وعلوم أخرى ، وقد كتب المرحوم فتحي رضوان عن المرحوم محمود شاكر ووصفه بأنه ديدبان حارس على ثغر الأمة الفكري يَعْني هو مرابط على هذا الثغر ومثله كل العلماء والكتاب المحامين عن فكر الأمة وعلومها التي هي بوابات الدخول إلى الكتاب والسنة بل إننا نرى اختراقًا للكتاب نفسه وللسنة نفسها وكل الذي يرى ويسمع يعرف ذلك . وهذا وغيره كثير جدًّا ، وهذا يجعل كل فرد منا في رباط في أي موقع يمكن أن تتسلَّل منه أصابع العدو لإفساده أو للحد من انطلاقه ، المدرس في رباط والصانع في رباط والباحث في رباط والسياسي الشريف في رباط وعالم الاقتصاد في رباط ، وهذا مما توجبه الديانة وتوجبه المروءة وتوجبه الوطنية الصادقة وليست وطنية السماسرة ، الذين يعيشون بالكذب وعلى الكذب ولا غرض لهم ، وأختصر لك ما أريد وأقول ادْرِسْ الجمعيات التي تتدفق عليها أموال من خارج البلاد وادرس أهدافها وخططها واسأل نفسك هل هذا ثغر تتسلل منه أصابع متهمة؟ وهل يمكن أن يخلو مثله من مرابطين شرفاء؟ ولو دققَت في نشاط كثير من الشعارات لوجدت أخطارًا تحتاج إلى مواجهة

المرابطين ولا أشك في أن الرباط هو حماية البلاد من خارجها ومن داخلها ومن عدو محارب وعدو مسالم من غير أبنائها ومن أبنائها ، ومادام لا يجوز عزل معنى الرباط عن هذا يصبح الكل مرابطا مادام قد عقد العزم على رفع الأخطار عن البلاد والعباد والشرط المطلوب هو العقل والفهم . والحكمة والنيَّة الطيبة التي تتحول بها المباحات إلى عبادات كما قال القرطبي . وإذا كان شيوع روح الجهاد في الأمة أمرًا توجبه الديانة وتوجبه الحميَّة الوطنية فإن الرباط جزء من الجهاد وشيوعه وانتشاره والقيام به بالعقل والحكمة أمْرٌ توجبه الديانة وتوجبه ضرورة الحياة الكريمة والنظيفة لنا ولأحفادنا وأجيالنا على أرضنا ، وهذا حسبي .

روى مسلم بسنده عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : « ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ألا إن القوة الرَّمْي . ألا إن القوة الرَّمْي . ألا إن القوة الرَّمي ».

من الأشياء التي أهتم بها مراجعة النظر في الأحاديث التي فيها جمل قرآنية ، أريد بهذا الاهتمام زيادة معرفة بالفرق بين البيان الإنساني في أعلى مراتبه الذي هو في كلامه ﷺ وكلام الله الذي هو من الأمر الإلهي . ولو راجعت هذه الجملة القرآنية التي في هذا الحديث والجملة التي هي من كلامه ﷺ وأدَرْتَ الجملتين في عقلك وقَلْبِك وقلَّبْتهما بلسانك لوجدت الذي أبحث عنه . وأصل الجهاد ورأس الجهاد هو هذه الجملة القرآنية لأنه لا جهاد بدون إعداد قوة ولا جهاد أيضًا بإعداد قوة ضعيفة ، لأن روح الاستشهاد عند أهل الإسلام لا تَسُدُّ الفَجَوات التي بين سلاحهم وسلاح أعدائهم ، وهذا الجملة القرآنية من أكرم الكلام وأنبله لأنها سياج يحمي الأمة ويدفع عنها غطرسة وشراسة أعدائها .

وكلمة «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة» ترى دلالتها وَاجب حياة وواجب بقاء فلا حياة لنا إلا بإِنْفَاذِ ما فيها لأن الآيات الكثيرة دلتنا على أنهم عدو مبين يعني بيِّن العداوة وحذّرتنا من اتخاذهم أولياء ودلتنا على أنكم لو تَغْفُلون عن أسلحتكم مالوا عليكم مَيْلةً واحدة ، ولهذه المعاني ونظائرها الكثيرة جاءت هذه الجملة ونظائرها في الكتاب العزيز وفي سنة سيدنا رسول الله ﷺ وكلمة (وأعِدُّوا) تعني أن الأصل أن تعدوا هنا بأنفسكم ورجالكم وعلمائكم أنتم وألا تعتمدوا في إعداد قوتكم وأسلحتكم على غيركم فضلا عن أن تعتمدوا في ذلك على عدوكم لأن اعتمادكم في إعداد قوتكم على عدوكم المبين عكس العقل وعكس المنطق ولا يكون إلا عند افتقادكم الرُّشد ، وكلمة (لهم) كان يمكن الاستغناء عنها ويقال وأعدوا ما استطعتم من قوة ، يعني لهم ولغيرهم ، ولكنها جاءت لتقول لنا ليس لكم إلا عدو واحد هو عدو الله وعدوكم كما جاء في الآية نفسها ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ فلا يخدعكم أحد عن هذا العدو الحقيقي وقُدِّمتِ كلمة (لهم) وكان يمكن أن يقال وأعدوا ما استطعتم من قوة لهم ، ولكن هذا التقديم أفاد مع التخصيص الذي يعني وأعدوا لهم لا لغيرهم ممن ليسوا عدو الله ولا عدوكم أقول أفادت مع هذا أنه يجب أن يكون هذا العدو ماثلاً بين أعينكم وأن تكون إعداد القوة الرادعة له مُتقدِّمة عندكم على كل شيء في حياتكم لأن ضَعْفَكم في مواجهته ليس له بديل إلا الذُّلّ والفناء . اللام تقول اجعلوه بين أعينكم ولا تغفلوا عن الاستعداد لمواجهته لأنه يترصَّد هذه الغفلة فيميل عليكم ميلة واحدة ، وكلمة (ما استطعتم) كلمة جليلة جدًّا لأنها تعني بذل أقصى الطاقة وأقصى الجهد وأقصى الاستطاعة ، وأقصى الوسع ، لأن هذا من تكاليف الحياة الكريمة وتكاليف البقاء الحر ، ولن تسقط عنكم التَّبِعَةُ وقد بقي في وسعكم شيء أي شيء ، وهكذا الناس الرافضون لأن

يُهْزَمُوا على ترابهم هم من حولنا يبذلون أقصى الوسع في تمكين قوتهم، وحماية أرْضِهِم وأنفسهم وكلمة (من قوة) فسَّرها القرطبي بقوله (التقوِّى بما يحتاج إليه من الدروع والمجان والسيوف والرماح والرمي وسائر آلات الحرب) وهذا تفسير القوة التي تعد للقتال في زمن القرطبي، والكلمة القرآنية لم ترتبط بأي أداة من أدوات الحرب، وإنما ذكرت القوة التي قد تكون كما قال القرطبي في زمانه وقد تكون القوة بعد تطوير أدوات الحروب بعد زمن القرطبى، وقد تكون الذي نراه في زماننا أو الذي تراه الأجيال من بعدنا لأن الجهاد قائم إلى يوم القيامة وإعداد القوة لمواجهة عدو الله وعدونا قائم إلى يوم القيامة، وقبل مضي خمسين سنة من الآن ستكون أداة الحرب بينها وبين الذي نحن فيه من طائرات ودبابات وصواريخ كالذي بين أدواتنا وأدوات زمن القرطبي، لأن التطور في صناعة آلة الحرب هو أسْبَق التطورات العلمية والصناعية لأنه هو الحامي للحياة الكريمة والحامي للثروات ومقدرات الشعوب ولا يزال الناس كما قالت الخنساء من عزّ بزّ ومن غلب سلب، ولذلك كانت كلمة (قوة) هنا واقعة أحسن وأدق موقع لأن قائلها جل وتقدس يَعْلَم أحوال خَلْقه ما كانوا عليه وما سيكونون عليه إلى يوم القيامة وستقرأ الأجيال هذه الكلمة بعد آلاف السنين وستجدها واصفة لما يجب أن يكونوا عليه وكأنها نزلت لهم، وهذه القـوة لها درجـة لا يجوز أن تنزل عنها وهي أن تكون قادرة على أن ترهب عدو الله وعدونا كما في الآية، وفي هذا أمران الأول أنها لا مفر من أن تكون من إعداد علمائنا ورجالنا ومن مصانعنا ومراكز أبحاثنا وبعقولنا وأيدينا لأنه يستحيل أن يقدم لنا غيرنا ما نرهبه به، ولاحظ أن الخطاب للأمة وليس لشعب من شعوبها لأن قوتها واحدة.

والأمر الثاني أن كلمة (عدو الله وعدوكم) توجب ضرورة إنفاذ هذا الأمر لأن الله سبحانه منَّ علينا بطلب إعداد القوة التي ترهب عدوه هو سبحانه وهو قادر على أن يرهبه بكلمة (كن) وإنما أشعرنا سبحانه بهذا التكليف بأننا جنده نحمي حوزته سبحانه ونذافع عن كلمته لتكون هي العليا ونقاتل في سبيله وهذا يستخرج من نفوس أهل الإيمان أقصى ما فيها من جهد وعلم وحكمة ثم إنه سبحانه كرّمنا كرامة أخرى وهي أن عدونا عدوه جل وتقدَّس وتحت هذا التكريم تحذير من أن نعادي غير عدوه فلا يجوز مطلقًا أن نحارب من شهدوا له بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالرسالة ومن رفع السيف في وجه من شهد الشهادتين فليس منا وإذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، لا يجوز أن نرهب من ليس عدوًا لله ، ولا بد أن تكون قوتنا قادرة على أن ترهب عدو الله وعدونا فيحسب ألف حساب إذا فكّر في المغامرة وأخذ حَبّة رَمْل واحدة من أرض المسلمين في أي مكان كانوا ، وعليك أن تقيس ما أمرنا الله به وما نحن عليه ثم تسمع وتضحك من هزل الهازلين الذين يزعمون أنهم يحكمون بما أنزل الله ، وحسبهم في ذلك أنهم إذا سرق فيهم الضعيف قطعوه وإذا سرق فيهم الشريف ستروه ، ولك أيضًا أن تعجب من الهلافيت المثيرين للضحك والذين امتلأت بهم أرض الكنانة ويصيحون صيحة حمر الوحش ويقولون لا دين في السياسة مع أن الشأن الذي فيه هذه الآية وأمثالها شأن سياسي بحت . وبقي أن أذكر بالذي ذكرته وهو أن تطور صناعة أداة الحرب التي يجب أن نكون سابقين فيها والتي هي أسْرَعُ خطوات التطور في حياة الأمم التي ترفض العيش غير الكريم لا تتحرك وحدها وإنما يَتْبَعُها ويساندها تطور في الحياة العلمية والصناعية ويكون في مستواها فليس هناك أمم تقدمت وسبقت غيرها في صناعة أدوات

الحرب ثم تخلفت عن غيرها في البحث العلمي والتقدم الصناعي والزراعي والاقتصادي إلى آخره لأن قاطرة التطور المتميز في باب صناعة أداة الحرب تجر وراءها سَبْقًا وتقدُّمًا في كل مناحي الحياة .

ثم أنتقل إلى قوله عليه السلام «ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي» وأول ما يلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يكمل الآية مع أن رباط الخيل من تمام القوة ، وكلمة «ترهبون به» هي الغاية التي لا يجوز لقوتكم أن تقف دونها وقد ظل هذا قائمًا في التاريخ كله وظلّت الأمة المسلمة هي القوة الغالبة في الأرض إلى نهاية الدولة العثمانية في القرن العشرين ولم تستطع دولة أوربية إسقاط الدولة العثمانية وإنما اجتمعت أوربا وتحالفت لإسقاطها ، قلت هذا حتى لا تستغرب كلمة «ترهبون بها عدو الله وعدوكم» لأننا الآن في حالة استثنائية بسبب قيادات جاهلة أقول سكت رسول الله ﷺ عن بقية الآية ليبيِّن لنا أن كلامه عليه السلام هو بيان للقوة وليس شرحًا للآية ، وبمعنى آخر يُبيِّن لنا رسول الله ﷺ أنه لا يفسِّر الآية وإنما يشرح لنا معنى كلمة مفردة هي التي نص عليها وجعلها رأس كلامه وهي القوة ، ويلاحظ أيضًا أن هذه المُفْردة ليست غامضة وأن معناها مشهور ومتعارف ومُتعالم ولم يسأله أحد عنها كما قالوا له مثلاً «وما زهرة الدنيا يا رسول الله» وكل هذا يؤكد حقيقة وهي أن رسول الله ﷺ يقول لنا إن كلمة القوة التي يأمرنا ربنا أمرًا حاسمًا أن نعدها لعدوه وعدونا كلمة لها في كل زمان معنى وأنها في زمانكم هذا الذي أنتم فيه الرمي ، وهذا ظاهر جداً وأعوذ بالله من أن أحمل معنى على كلامه وكلام رسوله ﷺ لا يحتمله كلامه ولا كلام رسوله ﷺ لأن هذا من الكذب على الله ورسوله ومن كذب

عليهما يتبوأ مقعده من النار ، وراجع قوله عليه السلام ألا إن القوة الرمي بعدما نطق عليه السلام بكلمة قوة التي في الجملة القرآنية تجد أنه عليه السلام يفسرها ثم أسأل لماذا يُفسَّر الواضح البيِّن ؟ والجواب هو أن هذا الواضح البين تتنوَّعُ معانيه وتختلف باختلاف الأحوال والأزمان والأطوار وهذا بيِّن جدًّا ، ثم إنه عليه السلام فتح جملته الشريفة بكلمة «ألا» وأنا محب لهذه الكلمة ونظائرها لأنها ليس لها معنى محدد مثل لا النافية مثلاً وإنما هي طَرْقة كطرقة الجَرَس توقظ من الغفلة وتستحضر الوعي والعقل ولم يأت بعدها في كلام العرب إلا كلام له خطر وله بال فإذا كان المتكلم في مقام سيدنا رسول الله ﷺ كانت الكلمة هي الأخرى في مقام آخر ونبهت السامع إلى ضرورة اليقظة الأشد لأن الذي يوقظه ويطرق قلبه وعقله بأداة الاستفتاح هو المبلِّغ عن فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، ثم تجد بعد أداة الاستفتاح هذه كلمة « إن » التي هي أم أدوات التوكيد ثم تأتي كلمة « القوة » مُعَرَّفة بالألف واللام وقد سَبَقَتْ في الآية منكرة ، وإذا جئت بالكلمة منكرة ثم جئت بعدها بها معرفة دل ذلك على أنك أردت بالمعرف المنكر الذي سبق كما في قوله تعالى ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۝ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ فالرسول الثاني المعرف هو الرسول الأول المنكر ، وهنا كذلك القوة الثانية المعرفة في كلام سيدنا وسيد ولد آدم ، هي الكلمة السابقة المنكرة في الآية الكريمة ، وهذا ظاهر ، ثم إن مجيء القوة متبدأ يُفيد أن المقصود التعريف بها ، والإخبار عنها ، ثم تأتي كلمة الرمي بعد كل هذا وهي المقصودة في جملته صلوات الله وسلامه عليه وتأتي أيضًا كلمة الرمي، معرفة وهي خبر عن القوة وتعريف الطرفين في الجملة يفيد القصر كما في قوله تعالى ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ يعني قصر الفلاح عليهم ،

فلا فلاح لغيرهم وكذلك المعنى هنا قصر الرمي على القوة . وكأنه عليه السلام قال إنما الرمي القوة ، وما الرمي إلا القوة ، وهذا غير قصر القوة على الرمي ، فرق بين إنما الرمي القوة وإنما القوة الرمي ، وكلامه ﷺ منصب على وصف الرمي بأنه القوة ، وليس على وصف القوة بأنها الرمي ، لأن القوة في الحرب قد تكون في الضرب بالسيف والطعن بالرمح وهذا لا يعني نفي أن القوة هي الرمي لأن تعريف الطرفين يفيد التماهي بينهما أعني اشتراكهما في الحقيقة والماهية كما تقول السعادة الرضا والرضا السعادة ، والكرم الصفح والصفح الكرم ، تريد مرة قصر الرضا على السعادة ومرة قصر السعادة على الرضا ومرة قصر الصفح على الكرم ومرة قصر الكرم على الصفح وكل ذلك يفيد تماهيا بين هذين الطرفين ، فالتماهي بين القوة والرمي واضح جدًا في كلمة سيدنا رسول الله ﷺ ثم قصر الخبر الذي هو الرمي على المبتدأ الذي هو القوة . وإذا أبيت إلا أن يكون من قصر القوة على الرمي فلك ذلك ويكون في القصر قدر من المبالغة وكأن القوة ما هي إلا الرمي مع أن القوة منها الكر ومنها السطو على العدو سطو المقتدر إلى آخره ، وتكرار هذه الجملة ثلاث مرات فيه لفت ظاهر لنا بأن تتعرفوا بيقظة ووعي على عنصر القوة الفاعل في مواجهتكم لأعدائكم ، وأن تستمسكوا بهذا العنصر ، وأن تعضوا عليه فإن كان الرمي فالرمي ثم الرمي ، وإن كانت مثلاً الصواريخ العابرات للقارات فهي ثم هي . وأيضًا يعلمنا صلوات الله وسلامه عليه الدقة في معرفة خير ما نصنع ، فإذا كنا أعددنا القوة وكانت هي الرمي فَلْنَسْتَمْسِك بالرمي وإن كانت القوة تكمن في الدبابات فلتستمسكوا بها ثم تبقى القوة إلى آخر الدهر والله يعلم أي شيء يكون فيه المَكْمَن الأساسي للقوة : قال القرطبي في بيان هذه الجملة الكريمة : (لما

كان الرمي أنكاها في العدو وأنفعها فسَّرها وخصّصها بالذكر ، وأكدها ثلاثًا ، ولم يرد أنها كل العُدَّة) ، انتهى كلام القرطبي ، يعني لما كان الرمي في زمانه ﷺ أشد ضُرُوبِ أدوات الحرب نكاية في العدو فسَّر ﷺ القوة بالرمي وأن القوة هي الرمي ، فإذا تغيّر الزمن وتبدلت الأحوال فسرنا القوة بأشد أدوات الحرب نكاية للعدو ، وكما قلنا هناك إن إنتاج أدوات الحرب السادة مَسَدّ الخيل يمكن أن يُعْقَد بنواصيها الخير وخصوصًا أن الخيل صارت عند أثريائنا المترفين المتسابقين في القُنْية والثروة لعبة يلعب بها في المناسبات .

والبلاد ليس فيها مصنع واحد يَصْنع رصاصة تحميها من كلب يتسلل إليها ، ومما يتصل بقوله عليه السلام ألا إن القوة الرمي جملة من الأحاديث التي ذكر فيها الرمي أعرض لها بإيجاز وهي تدور بين تعظيم أثر الرمي في الحرب وأنه أنكى للعدو وتعظيم ثواب الرمي وأن الله سبحانه وتعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر في الجنة صانعه ونابله ورامِيه .

وأول هذه الأحاديث ما رواه مسلم بسنده عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «سَتُفْتَحُ عليكم الأرضون ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يَلْهُو بأسهمه» وروى عن عبد الرحمن بن شماسة أن فُقَيْمًا اللخمي قال لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت كبير يشق عليك ؟ فقال عقبة : لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أُعَانِهْ فقيل لابن شماسة وماذاك ؟ قال إنه قال «مَنْ علم الرَّمْيَ ثم تركه فليس منا ، أو قد عَصَى» انتهى الحديث ، ومعنى قول فُقِيمْ اللخمي لعقبة بن عامر تختلف بين هذين الغرضين وأنت كبير يشق عليك ؟ أن عقبة كان يَلْهو بأسهمه فيرمي السهم ثم يذهب إلى موضع رميه ليرى أين وقع ؟ ثم يعود إلى مكان

رميه ، وقد عقب القرطبي على قوله ﷺ ستُفْتَحُ عليكم الأرَضُون بقوله إن ذلك قد كان وهذا من دلائل صحة نبوته ، وعقب على قوله ﷺ (فلا يعجز أحدكم أن يَلْهُوَ بِسَهْمِهِ بقوله : «جعل الرمي بدلاً من اللَّهْو فيندرج عليه ويُشْغَلُ به حتى لا يَنْساه ، ولا يَغْفُلُ عنه فيأثم على ما جاء في حديث عقبة ابن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله يُدْخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه يحتسب في صنعته الخير ومُنْبلة والرامي به . وأن ترموا أحبُّ إليّ من أن تركبوا ليس من اللهو إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه وملاعبته أهله ورميه بقوسه ونَبْله ، ومن ترك الرمي بعد علمه رغبة عنه فإنها نِعْمَةٌ تركها أو قال كفرها». أخرجه أبو داود . ثم قال وقوله من علم الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عصى هذا شك من بعض الرواة في أي اللفظين قال ﷺ ، وهذا ظاهر في ذَمٍّ من ترك الرمي بعد أن علمه ، وسبب هذا الذم أن هذا الذي تعلّم الرمي حصلت له أهلية الدفاع عن دين الله ، والغناء فيه والنكاية في العدو فقد تَعيّن لأن يقوم بوظيفة الجهاد فإذا ترك ذلك حتى يعجز عنه فقد فرّط في القيام بما تعيّن عليه فذُمَّ على ذلك ، وهذا مثل ما تقدم في كتاب الصلاة فيمن تعلّم القرآن فنسيه» انتهى كلام القرطبي ، وهو كلام جيد جدًّا ومن المفيد أن نقف عند قوله عليه السلام من ترك الرَّمْي بعد عِلْمه به رغبة عنه فإنها نعمة تركها أو قال كفرها وقوله عليه السلام من عَلِمَ الرمي ثم تركه فليس منا أو قد عَصَى ، وقول القرطبي وهذا مثل ما تقدم في كتاب الصلاة فيمن تعلم القرآن فنسيه ، وإذا وضعت هذا بإزاء إن القوة الرمي ، رأينا أن إثم ترك المرء لعلم علمه في الرمي هو راجع إلى الرمي من حيث هو القوة الأفعل والأنكى في العدو فإذا تحوّلَتْ القوة بفعل تطوير صناعة آلة الحرب إلى شيء آخر كالطيران أو الصواريخ

أو ماشئت تحول الحكم إليه وصار من عَلِم عِلْمًا في الطيران أو في علم صواريخ الحرب ونسيه فهي نعمة تركها أو قال كَفَرها ، وأن فقه كلام رسول الله ﷺ يعني أنه لا يتعلق بشيء معين وإنما هو متعلق بالقوة التي لها فعل في النصر وأنه يَدُور مع هذه القوة حيث دارت لأنه لا يعلم إلا الله ما هي القوَّة الفاعلة ، في الحروب بعد مائة سنة مثلاً وقد رأيناها تتغيَّر بسرعة شديدة جدًّا ، هذه واحدة الواحدة الثانية أن تأثيم الذي عَلِمَ عِلْم الرَّمْي ثم نسيه راجع إلى أنه كان بهذا العلم مؤهلاً لأن يدافع عن الأمة وبنسيانه له أهدر هذه الطاقة مهما كان حجمها من طاقات قوة الدفاع عن الأمة ، وهذا يعني أن القضية ترجع إلى شيء آخر هو توفر جهة علمية وعسكرية تحفظ علوم الحرب ويحسن ذلك سواء كان في التصنيع أو في مزاولة الحرب بالتدريب المُتْقن وأن الإثم يتعلق بضعف هذه الجهة وصيرورتها في الطبقة الخامسة مثلاً بالنسبة لشعوب العالم ، وأنها لابد أن يتوفر لها العزم والحزم على أن تكون سابقة في البحث العلمي الضروري لتطوير آلة الحرب وسابقة في التصنيع العلمي الدقيق لآلة الحرب المتطورة جدًّا وأن تكون هناك كتيبة من العلماء المنقطعين الذين كانوا يعيشون تحت الأرض لا يعلم الناس عنهم شيئًا يبحثون في الفيزياء والكيمياء والرياضيات وغير ذلك من العلوم اللازمة لاكتشاف آلة جديدة متطورة تكون هي القوة التي نعدها ما استطعنا لنرهب بها عدو الله الذي هو عدونا وأن لا نكون في ذلك عَالَةً على غيرنا لأن غيرنا لم يتقدم إلا بوجود هذه الكتيبة التي هي كتيبة الرهبان المنقطعة في المعامل ومراكز البحث وليست في الأديرة ، أو قُلْ تلك الكتيبة المنقطعة في محاريب العلم التي هي محاريب بيوت الله ، ويكون لهذه المحاريب أئمة ومن ورائهم تلاميذهم جيل بعد جيل ، ولن نكون شيئًا إلا إذا فعلنا هذا ،

ومن السخف الذي أسمعه وأقرؤه كثيرًا ويضيق به صدري القول بأننا نتابع أحدث منتجات العلوم في كذا وكذا وأقول متى ندرك الحقيقة الأعلى من هذه ونقول بدل نتابع ننتج بعقول علمائنا أحدث مما أنتجه غيرنا لأن الله يقول لنا ﴿ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ ﴾ أقول في النهاية إن تأثيم من أغفل علمًا علمه في الرمي يفضي إلى هذا الذي أقوله . والله أعلم .

وقوله عليه السلام (أو كَفَرَهـا) تـنفير وتبشيـع مـن التسـاهل وفي متابعـة البحث والكشف في باب علم الرمي الذي هو علم القوة الذي أُمرنـا بإعـداده كما أمرنا بالصلاة والزكاة والحج ، والذي كان اليوم والليلة فيه كصيـام شـهر وقيامه ، لأن رباط الجاهل العاطل من السلاح لا معنـى لـه إلا معنـى واحـد وهو أننا نقدم أبناءنا ضحايا وذبائح لأعدائنا على حدودنا .

وقوله عليه السلام « فليس منا » وإن كان بني الكلام فيه على التغليظ فإنني أضع هذا بإزاء رواية « كفرها » وأقْتربُ في قراءتي لهذه وتلك من القول بأن إهمال الرَّمْي الذي هو رمز للقوة أعني إهمال إعداد القوة التي ترهـب عـدو الله وعدونا يوشك أن يكون من باب الخيانة العظمى لأنك بإهمالـك البحـث العلمي الواجب ومن ورائه التصنيع الواجب لإعداد القوة التي تقذع أنْفِ مـن يفكر في أخذ حبَّةِ رمل واحدة أقول إن أي تساهل في هـذا يُعَـدُّ فَـتْحَ بوابـة البلاد للعدو حتى يدخل مدننا وشوارعنا ، وهو آمن وليس بعد هذا خيانة .

وقول القرطبي « وهذا مثل ما تقدم في كتاب الصلاة فـيمن تعلـم القـرآن فنسيه » هذا الربط بين تأثيم من نسي علمًا من العلوم الداخلـة في قـوة الأمـة التي أمرْنا ربنا بإعدادها إعدادًا فوق مستوى إعداد أعدائنا لأنها لا ترهبهم إلا إذا افتقدوا مثلها ، أما إذا كان عندهم مثلها فلن ترهبهم وأوْلى إذا كان عندهم

قوة فوقها أقول إن الربط بين كل من نَسِيَ علمًا تعلمه مما يكسب الأمة قوة بمَنْ نَسِيَ آية من الكتاب ربط يجب الوقوف عنده أوَّلاً لأننا أمرنا بأن نقرأ القرآن ونتدبره لنستَخْرج منه ديننا وقد أنزله الله علينا لهذا التدبر وهذا التدبر في الكتاب قائم في الأجيال جيلاً بعد جيل لأن لكل جيل مشاكله وقضاياه وهو يتدبر وفي ذهنه مشاكله وقضاياه فتكون نتيجة تدبُّره مخالفة لغيره تبعًا لاختلاف همومه ، وهكذا علم القوة التي نرهب بها عدونا الذي هو عدو الله وكما يجب أن يكون الكتاب مفتوحًا للتدبر كذلك علم الحرب هذا علم مفتوح للتدبر ، وكما لا يجوز لنا أن نطوي صفحة التدبر في الكتاب كذلك لا يجوز لنا أن نطوي صفحة التدبر في علم الحرب ، وكما أن التدبر في الكتاب يمدنا بمعرفة الفرض والواجب والممنوع والمستحب كذلك التدبر في عائلة علوم الحرب التي ليست هي علوم الميدان فحسب وإنما هى علوم تبدأ من إعداد الباحثين العباقرة المبدعين والمكتشفين والبحث عنهم في أجيالنا ثم علوم الصنائع ثم المصانع إلى آخر ما تنتجه هذه العائلة الكثيرة والمتسعة أقول نتدبر فيها لنستخرج الفرض الواجب لحمايتنا والممنوع المُفْضِي إلى كسر قوتنا والمستحسن الحريص على إيجاد مساحات زائدة عن الحاجة حتى لا نفاجأ بشيء نكرهه ، واعلم علم اليقين أن عندنا رجالاً في أعلى القيادات باعوا أنفسهم لذلك فهم قادرون على إنجازه ولكن الهلافيت الكبار يَضَعُون الأغلال في أعناقهم وربما اعتقلوهم أو لفقوا لهم تهما ، وأنبّه إلى الحَذَر من أن تَظُنَّ أنني أبتعد عن كلام رسول الله ﷺ واعلم أن نسيان شيء من العلم يعني تأخر خطوة إلى الوراء واعلم أيضًا أن الله حذّرنا من ذلك وأمرنا إذا قطعنا خطوة إلى الأمام أن نتلوها بخطوة ثم خطوة وأن لا نرجع إلى الوراء ، ولذلك كان من المكروه ترك النافلة التي تعودت عليها

أو ترك اليتيم الذي كنت تقوم برعايته ، وحديث الرّمي يَعْنِي أنه من الإثم وترك النعمة أو كفرانها فالذي تعلم ونسي يُصْبح آثمًا والذي لم يتعلم وهو بالطبع لم ينس لأنه ليس عنده ما ينساه يصبح غير آثم ، ويمكن استنادًا على هذا القياس الفاسد أن نركن إلى ترك التعلم حتى لا نقع في النسيان فنأثم قلت هذا فاسد لأن الذي تعلم اكتسب ثوابًا عظيمًا وصار غازيًا متجهزًا ، وليس مُجَهّزًا لغاز ، والقاعدة هي خطوة إلى الأمام لتكون أفضل واحذر من الخطوة إلى الوراء احذر من السيئ بعد الحَسَن ومن الطالح بعد الصالح ، وهذا هو منطق التقدم واحفظ قوله عليه السلام الذي رواه أنس وخرّجه الترمذي مرفوعًا قال عليه السلام « عرضت عليّ أعمال أُمَّتي لم أر ذنبًا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها »، أقول وهكذا علم الحرب الذي هو علم حماية البلاد من عدوها .

وراجع آيات وأحاديث الجهاد واسأل عن سر كثرتها وجزيل الثواب فيها وأن الجهاد ضرورة باقية ما بقى الدين وأنه جزء من الدين وهذا الجزء يحمي بقية الأجزاء وأن من مات ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من نفاق وأن من طلبه وهو صادق أعطاه الله أجر المجاهدين وإن مات على فراشه وأن النفقة فيه وفي إعداد القوة التي ترهب عدو الله كالنفقة على الفقير والمسكين ، وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ بناقة مخطومة لتكون مع رواحل الجهاد فقال له عليه السلام « لك بها سبعمائة ناقة مخطومة ».

والسهم الذي يدخل الله به ثلاثة نفر الجنة صانعه إذا احتسب وهو صادق ومنبله إذا احتسب وهو صادق والرامي به إذا خرج في سبيل الله وهو صادق، وعلينا أن نَنْقُل هذا الثواب لهذه الثلاثة في ضوء ما نحن فيه فالسهم أنكى أدوات الحرب وأدخلها في القوة فابحث عن أنكى أدوات الحرب الآن

وأدخلها في القوة وقسه على الحداد صاحب الكير وقد يكون الآن مصنعًا من أضخم مصانع الأرض في صناعة الآلة التي هي أنكى وأقدر وهذا هو الصانع ، ثم قس حالة إعدادها للقذف على حالة النابل وهكذا ؛ تجد الساحة كُلَّها قبل المعركة وبعد المعركة وهي تُعِدُّ الأداة للمعركة ساحة ثواب وإكرام وعطاء وتقريب من الله لكل من شارك في أي شيء في إعداد القوة المدافعة عن سبيل الله الذي هو العدل بدل الظلم والرحمة بدل القسوة والحق بدل الباطل والإحسان وإيتاء ذي القربى والنهي عن الفحشاء والمنكر وباختصار الحرب التي توفر للناس حياة نظيفة آمنة منتجة ، وأترك لك الباقي لتقيس ما لم يقل على ما قيل . والله أعلم .

وبقي أن أنبه إلى إشارة في قوله عليه السلام ليس من اللهو إلا ثلاث تأديبُ الرجل فرسه وملاعبته أهله ورَمْيه بقوسه ونبله ، وليس المقصود ما في هذه الجملة من تنظيم وقت الترويح والترفيه والراحة ، وأنه يجب أن يكون ترويحًا فيه إنجاز عمل لا يشق على النفس وإنما يُعينها على الراحة وتوفير النشاط كتأديب الفرس وملاعبة الأهل وإنما رأيت في هذا إشارة إلى شيء آخر ربما أثاره في نفسي واقعنا الذي يداخله خلل كثير وهو أنكم إذا انتصرتم في حرب وصار من حقكم أن تستريحوا وتَسْتَرْوِحُوا فاحذروا أن تخلدوا إلى الدَّعة وأن تنغمسوا في حياة السلام التي تنسيكم الحرب لأن المنتصر إذا غَشِيَتْه الراحة وركن إليها فقد يفاجئه العدو الذي خرج من المعركة مكسورًا مهزومًا وأصَرَّ على أن يُعَدُّ نفسه ويَحْشُد طاقته ويقوم ويقعد بإعادة قوته وإعدادها وينتهز غفلة الذي غرَّه النصر ونفض يده من الحرب وحينئذ تنعكس النتيجة فجأة ويصبح الكاسب خاسرًا والخاسر كاسبًا ، والحديث يُنَبِّه إلى أن تَزْجية أوْقات الفراغ وأوقات اللهو لابد أن

تكون ممسكة بخيط من خيوط الحرب فتؤدب فرسك وترمي بنبلك وقوسك ، ومن المعروف أنه الآن لا فرس ولا نبل ولا قوس وإنما ما وراء ذلك من التدريب على الأسلحة الجديدة ، وما طرأ على الأسلحة القديمة من تطور وكل ما هو من هذا الباب فلتكن راحتكم واستراحتكم حول أسلحتكم وعدتكم وليس بمعزل عنها لأن الدَّعة في الجيوش تورث الهزيمة .

الذي يرزقه الله سبحانه حسن التدبر في الكتاب والسنة يزداد يقينه في الله وفي الحق والثواب والعقاب والجنة والنار ، وما يزال هذا اليقين يزداد حتى يجد المرء نفسه من حيث يدري ولا يدري قد صار واحدًا من جند الله يبذل أقصى طاقته في الصلاح والإصلاح في هذه الأرض ويزرع من الخير ما استطاع أن يزرع في هذه الأرض وهذه الناس حتى يلقى الله ويجد الخير الذي زرعه في الأرض والناس حاضرًا بين يدي الله فهو طالب للآخرة من باب طلبه للدنيا بإحقاق الحق ودفع الباطل وإقرار العدل ورفع الظلم ونشر الخير ومحاربة الشر ونشر الوفاء ومطاردة الغدر ؛ هذا شأنه في الدنيا ليلقى عند الله هذا الخير الذي عاش له حاضرًا يفتح الله له به باب رحمته .

ومثل هذا يقال في آيات وأحاديث الجهاد لمن تدبرها وانقطع لها زمانًا بعد زمان يجد أنها نورت قلبه ، يعني حب الجهاد فيجاهد في سبيل الله في الموقع الذي هو فيه ويرابط في سبيل الله في سَدِّ الثغرة التي هو فيها ويتمنى أن يكون ممن يرزقون أجر الشهداء وإن ماتوا على فراشهم ويتمنى صدق النية التي ترفعه عند الله إلى هذه الدرجة ، قلت هذا لأنني أقرأ بعض الآيات وبعض الأحاديث التي تدل على أن في هذه الأمة طائفة قائمة على الحق وعلى نصرة دين الله وأنه لا يضرهم من يخذلهم وأنهم يظلون ينافحون عن هذا الدين الذي هو البر والرحمة والعدل والأمن واحترام الإنسان أقول يظلون

قائمين على هذا حتى يأتيهم أمر الله ، أقرأ هذا في الكتاب وأقرأ هذا في السنة وأحب قراءة هذا جدًا لأني أفهم منها شيئًا يريحني جدًا وهو أن كتاب الله وسنة سيدنا رسول الله ﷺ أَوْدَعَ الحقُّ فيهما طاقة معجزة في صناعة وإنتاج الإنسان المولع بالخير والمولع بالصلاح والإصلاح والمولع بالدفاع عن الخير والدفاع عن الصلاح والإصلاح والذي يرى ذلك وأضعافًا مضاعفة منه في الكلمة المختصرة التي نقولها كثيرًا من غير أن نستحضر تفاصيلها وهي دين الله أو كلمة الله أو سبيل الله أرى في آيات كثيرة وأحاديث كثيرة أن الدين هو الذي يصنع حماته ويصنع جنوده ويصنع علماءه وطلابه ورجاله وجيشه وعدته وعتاده ، وهذا عجيب في شأن هذا الدين لأن كل المذاهب الفكرية والعقائدية لها جهات تعد لها رجالها وتعد لها كُتَّابها وتعد لها مُسَوِّقيها وجنودها إلى آخره ، والعجيب أيضًا أنك قد تجد القيادات السياسية في البلاد الإسلامية التي تعيش تحت مظلة اليهود والنصارى تعارض هذه الطائفة التي يُعِدُّها الدين وتحاربها وربما أَعَدَّتْ معارضين لها ، ثم ترى إعداد الدين لحماته يغلب إعداد هذه القيادات التي ارتفعت إلى موقع القيادة في العالم الإسلامي بالظلم والقهر وربما ناصَرَتْ مذاهب فكرية وعقائدية معاصرة وهي لا تدرك أن هذه المذاهب والعقائد هي بديل لمذاهب كثيرة جاءت مع الزمان وذهبت مع الزمان وأن ما فيها لا يَصْلُحُ لزمان غير الزمان التي ولدت فيه ، وأن هذه المذاهب والأفكار لا تَصْنَعُ لها حُماة حملة على مر الأيام لأنها ليست فيها هذه الطاقة التي لا توجد إلا في دين الله لأن الذي زرعها في هذا الدين هو خالق الزمان والمكان والناس والعلم بصلاحهم وإصلاحهم ، وأكتفى بهذا وأعرض حديثين من هذا الباب رواهما مسلم بسنده . روى الأول عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من

أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» .

والحديث الآخر عن جابر بن سَمُرة عن النبي ﷺ أنه قال : «لن يبرح هذا الدين قائمًا تقاتل عنه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة».

وعن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم ، ولا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك» .

قال القرطبي : الطائفة الجماعة وهم العصابة في الحديث الآخر وهم الذين قال الله تعالى في حقهم : ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ وقد اختلف في هذه الطائفة من أي الأجناس هي ؟ قالوا العرب وقالوا غير العرب واختلفوا في الأمكنة فقالوا هم من جهة الشام وقالوا هم من جهة المغرب .

والذي في كلام رسول الله ﷺ صالح لكل ذلك ولغيره لأنه لم يشر إلى جنس ولا إلى مكان وليس بلازم أن تكون هذه العصابة أو الطائفة مجتمعة في زمان ومكان وليس هذا من المصلحة فقد يكون منها رجال في شرق العالم الإسلامي ، ورجال في غربه ورجال من الترك ورجال من الأفغان ، ورجال من العرب إلى آخره ، وهم في كل إقليم نجوم يهتدى بها ولم ينقطعوا في أي زمان ولا في أي مكان ولا في أي جنس ، وهم في هذه الأمة أنهار خير يستقي منها الناس .

وهذه الأحاديث التي فتحت بها هذا الموضوع يرجع الثالث فيها إلى الأول رجوعًا ظاهرًا وكأنه رواية له مع الاختلاف الذي يوجبه اختلاف

الكلمات، والحديثان الأول والثاني يشتركان أو يقومان على بيان أمرين الأول بقاء الدين قائمًا والثاني أن طائفة من المسلمين لا يزالون ظاهرين على الحق ، وأنهم يدفعون عن هذا الدين ، والمراجعة القريبة للحديثين تدرك فرقًا جوهريًا في إبانتهما عن هذين المعنيين ، بيان ذلك أن قوله عليه السلام : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق»، إلى آخره ، رأس الحديث هي الجملة الأولى التي تتكلم عن هذه الطائفة ، وما بعدها مزيد بيان لها ، ومعنى هذا أن الأصل في هذا الحديث هو ذكر هذه الطائفة وأن الحق الذي هو الدين جاء تبعًا لذكر هذه الطائفة ، والحديث الثاني الجملة الأم فيه قوله عليه السلام «لن يبرح هذا الدين قائمًا» وهي حديث عن الدين وما بعدها بيان وتحليل لها ويأتي ذكر الطائفة تبعًا لهذا الأصل ، وهذا فرق جوهري بين الحديثين وإن كانا يتكلمان عن حقيقتين إلا أن إحدى الحقيقتين هي الأصل في حديث والحقيقة الأخرى تابعةٌ لها وعكس ذلك في الآخر ، وهذا يعني تعادل هاتين الحقيقتين وأن بقاء هذا الدين قائمًا يوجب بقاء طائفة تدفع عنه وإذا كان الحق قد تعهد بحفظ دينه في قوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ إلا أن سنة الله في خلقه أنه إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابه ، فلما أراد بقاء الذكر محفوظًا هدى من أهل الله عددًا كثيرًا إلى حفظه والولع بترتيله وضبطه وحسن تلاوته وترى ذلك فاشيا جدًا وكذلك لما أراد بقاء الصلاة والزكاة والصيام والقيام قذف في قلوب أهل الإيمان حب ما أراد بقاءه ، وهكذا لما أراد بقاء الدين نَقِيًا بعيدًا عن التأويل والتحريف هيأ له هذه الطائفة أو هذه العصابة التي لم يخل منها جيل ولم يخل منها شعب في كل زمان وكل مكان ولو أتيح لي أن أجمع الأحاديث التي تناولت معنى واحدًا وأبانت عنه في بيانيين مختلفين على حد ما بينت في هذين الحديثين ،

أقول لو أتيح لي ذلك لفعلته لأنه مهم جدًا في معرفة أسرار بيانه ﷺ ومعرفة أقدار المعاني التي تنوعت طرائق الإبانة عنها .

وكلمة «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» تعني أن هذه الطائفة كانت في الماضي وهى كائنة الآن وستكون في المستقبل كله حتى يأتي أمر الله ، وهذا يعني بشارة لكل مسلم بأن نَهْر الخير سيظل جاريًا في هذه الأمة حتى يأتي نصر الله وأن عِرْق الخير فيها لا ينقطع ، وكما قال عليه السلام «لا يزال الخير في أمتي إلى يوم القيامة» وذكر القرطبي أن هذا من قوله تعالى ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ وهي آية من أكرم كلام ربنا لأن الله سبحانه الذي خلق الإنسان في كبد وخلق الناس وأكثرهم لا يعلمون وأكثرهم لا يؤمنون وأكثرهم لا يعقلون خلق منهم أمة على خلاف ذلك كله ووسمها سبحانه بوسمين الأول أنها تهدي بالحق يعني تعلم الحق علم هداية وعلم وعي وعقل وبصيرة وتدعو إلى الحق وتهدي إليه بالعقل والحكمة والهداية والبصيرة وهذا هو الوسم الأول ، أما الوسم الثاني فهو قيامهم أنفسهم في حياتهم وسلوكهم وتعاملهم في مجتمعاتهم على هذا الحق فهم هداة له مهديون به ويقولون ما يفعلون فإن أردت أن تعرف الحق عرفته من ألسنتهم وإذا أردت أن ترى الحق وهو واقع في الحياة رأيته في عَدْلهم واعتدالهم وهؤلاء هم الطائفة الظاهرة على الحق ، وقد وصفهم رسول الله ﷺ بوصفين لا ترى مذهبًا أو عقيدة أو فكرًا يوصف المدافعون عنه بأفضل من هذين الوصفين : الأول أنهم ظاهرون على الحق ، وهذه الجملة الموجزة وراءها معنى متسع جدًا لأن الظهور على الحق يعني الفهم المتمكن المستعلى على كل شبهة بالفهم الجليل الدقيق ثم يعني القدرة على تحليل كلام الله وكلام رسوله ﷺ والاستخراج منه والاستنباط منه كل

ذلك بالوعي المتنبه إلى أسرار كلام الله وكلام رسوله وأسرار الشريعة . ثم معرفة الأقضية التي استحدثها الزمن الذي تعيش فيه هذه الطائفة وموقف الحق الذي هو الدين من هذه الأقضية وكيف ننزلها على أحكامه ولا ننزل أحكامها عليه بعد تأويلها والتعسف في هذا التأويل ، وملاحظة أمر مهم وهو أن استحضار قضايا الزمان ونحن نقرأ الكتاب والسنة ينبهنا إلى أشياء في الكتاب والسنة لم يتنبه إليها من قبلنا لأن قضايانا لم تكن حاضرة عندهم وإنما كانت لهم قضاياهم فَنَبَّهتهم قضاياهم إلى ما استخرجوه ، وطول ممارستي لتحليل كلام الله وكلام رسوله ﷺ دَلَّتْنِي على أن هذه الآيات وهذه الأحاديث نزلت لنا كما نزلت لغيرنا لأنها علاج وشفاء للأجيال كلها في الأزمنة كلها مع اختلاف الأجيال والأزمنة والأمكنة وكل ظاهر على الحق كما في الحديث يُخيَّلُ إليه وهو يدرسها أنها نزلت له ولمن حوله في زمانهم هذا وفي مكانهم هذا وهذا ظاهر جداً وهو من أعظم وجوه الإعجاز التي لم نستوفها حقها .

قلت إن رسول الله ﷺ وصف هذه الطائفة بوصفين الأول أنهم ظاهرون على الحق وبيّنت من ذلك ما بيَّنْت والثاني قوله عليه السلام « لا يضرهم من خذلهم » وهذا فيما جرّبتُ وعلمتُ لازم من لوازم الظهور على الحق لأن المتمكن في باب من أبواب العلم لا يلتفت إلى من خالفه لفرط ثقته في الذي هو فيه ولأنه يرى أن كل من خالفه واعترض عليه ينقصه علم الذي هو فيه ، فإذا كنت ظاهراً في باب واعترض عليك من اعترض رأيت في كلام المعترض نقصاً شديداً في علمه بالباب الذي أنت فيه فأيقنت أنه جاهل فعذرته ، وهكذا هذه الطائفة لما عكفت على كلام الله وكلام رسوله وكلام الفقهاء والعلماء الراسخين وانقطعت ووجدت لذتها في ذلك وقامت بذلك

وقعدت أَبَتْ أن تلتفت إلى كلام المعترضين والمُثَبِّطين والخاذلين لأنها أدركت من الذي هي فيه ما يُرْضي ويُشْبع ويملأ القلب غِبْطة وما به تقر العين ، وأمتع من كل هذا وأعجب أن هذه العصابة يُتوَارثُ جِدُّها واجتهادها وانقطاعها واحتسابها من لا تعلمهم ولا يعلمونها وإنما الحق الذي صنعهم والثقافة التي صنعتهم وما وقر في قلوبهم من اليقين كُلُّ ذلك كان لمن يتوارثونهم لأن هذا ليس علمًا يُعْلَمُه سابق للاحق وإنما همم رجال صنعهم الحق وجعلهم ظاهرين عليه وألهمهم أنه لا يضرهم من خالفهم وأنه ليس لهم غاية أفضل من أن يأتيهم أمر الله وهم كذلك .

ويلاحظ أن كلمة (مَنْ) في قوله عليه السلام « من خذلهم » تَضْعُف وتقوى على وفق رشد من ولي أمر المسلمين وجهله فإذا كان من الذين تصلهم بالله واصلة قويةُ رأيتهم يضعفون ويكمنون كمون الأفاعي وهذا قليل جدًا لأن ولاية الأمر في يد الكذبة والفُجّار والملوثة أيْدِيهم بالدم الحرام والمال الحرام والعرض الحرام كل ذلك واقع أكثر وحينئذٍ تشتد شراسة الخاذلين وسمعت أوصافًا منهم للظاهرين على الحق أنهم ظلاميون ويجرون البلاد إلى الوراء ، وتفتح لهم أبواب المعتقلات والتعذيب ، والقهر ، والقمع ، وتشرّد أولادهم ، إلى آخر ما ترى وهم صامدون ثابتون حتى يأتيهم أمر الله لأنهم يعرفون ما هم عليه ويعرفون أيضًا الذي عليه من خذلهم ويخذلهم . والمشكلة الأم في العالم العربي أن من يوجهون الرأي العام ليس عندهم علم بالحق المذكور في الحديث لأن البلوى أنهم رُبّوا على ثقافة أعداء هذا الحق وتقرأ ما يكتبون وتجد جهلاً بألف باء هذا الحق .

والحديث الثاني رأسه كما قلت الكلام في الدين « لن يبرح هذا الدين قائمًا » وهذه الجملة من دلائل النبوة ، لأن الدين كما وصفت لن يبرح قائمًا ،

وبقية الحديث «تقاتل عنه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة» وهي في الموقع أخت «لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» والحَذْوُ يوشكُ أن يكون واحدًا ، والفطرة البيانية المتميزة عند صانع البيان تُفْضي إلى فطرة بيانية في البيان نَفْسه ويروقك أن تتأمل فطرته عليه السلام البيانية وأنت تتأمل الكلام الذي نسجه لسانه ﷺ نسجًا واحدًا ، كالذي تراه هنا والذي نبهنا إليه فيما سبق والذي أريد التنبيه إليه هو التدبُّر في الجملة الأم وهي «لن يبرح هذا الدين قائمًا» والذي قلت إنه من دلائل النبوة نقلاً مني عن علماء الحديث ، ونحن نسارع إلى القول في تعليل بقاء الدين قائمًا إلى آية الحجر ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ وهذا حق ومن الحق أيضًا أن أبحث عن المُقَوِّمات التي أودعها الله سبحانه في هذا الدين وضمنت له البقاء والخلود ، وأول ما أجده في ذلك ولا أتردد فيه هو أن كل أمره ونهيه قائم على الحق المطلق والصواب المطلق والكمال المطلق وقد استَعْصى هذا الحق المطلق والصدق المطلق والكمال المطلق على أن تسقط منه كلمة أو يُكدّر حكم أو يوجه نقد لأمر فيه أو نهي ، وهذه آية من آيات الكتاب البينات لأني لم أقرأ لملحد ولا لفاجر كلمة نقد واحدة لأمر أمر الله به أو نهي نَهَى الله عنه فاستعصى هذا الحق المبين على أن تَسْبِقَه الأيام والشعوب وأطوار تقدمها وإنما عاش مع الزمان كله والمكان كله والأجيال كلها وكأنه نزل لكل زمان مرّ به ولكل مكان مرّ به ولكل جيل مرّ به لم يستطع أحد في زمان أي زمان ولا في مكان أي مكان ولا في طور أي طور أن ينقض منه لبنة واحدة وهذا إعجاز لاشك فيه .

والعجيب أنك تجد أمور هـذا الكتاب وأحـوالـه متشابـهـة وأنه كـمـا أنـه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا مـن خلفـه في فقهـه وأمـره ونهيـه وقصصـه

وبراهينه إلى آخره ، لأنه في ذلك كله خارج عن مألوف إنتاج العقل الإنساني الذي يصيب ويخطئ ؟ كذلك بيانه الذي جاء عليه كان بمثابة حصن حصين للذي بين الدفتين ولا أعني هنا أن هذا الإعجاز دليل النبوة وأنه كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى هُدًى ونورًا ، وإنما أقصد أن هذا الإعجاز البياني كان من أسباب أنه لن يبرح قائمًا لأنه أي الإعجاز البياني منع منعًا قاطعًا أن تتسلل إليه كلمة من خارجه أو أن تسقط منه كلمة من داخله فظل داخله مصانًا من أن يسقط منه حرف وظل خارجه محصورًا عنه فلا يتسلل إليه منه حرف ، لأن سقوط كلمة أو حرف يتحول به البيان القرآني من الأمر الإلهي إلى الأمر البشري لأنه لا يقال قال الله كذا إلا إذا جيء بما قال سبحانه ولو غيرت حرفًا واحدًا وقلت قال الله فاستغفر الله لأنك كذبت عليه ، وهذا الأمر الإلهي في البيان القرآني حرس يحرس هذا الكتاب وأن الذي ملأ السماء حرسًا وشهبًا حرس كلامه بحرسه وشهبه والذي جعل لكل نفس حافظًا عليها جعل لكلامه حافظًا يحفظه والذي جعل على كل واحد منا رقيبًا وعتيدًا جعل على كلامه رقيبًا وعتيدًا فلا يلفظ أحد فيه لفظًا ولا يسقط أحد منه حرفًا ، وراجع وتأمل فستجد كثيرًا جدًّا من عوامل بقاء هذا الدين قائمًا وكل هذا من جنود ربك أعني الإعجاز البياني من جنود ربك والكمالات المطلقة من جنود ربك وما يَعْلَمُ جنود ربك إلا هو .

وقوله عليه السلام « تُقاتل عنه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة » هذه العصابة التي تقاتل عن هذا الدين هي من جند الله التي لا يعلمها إلا هو فليس فينا أحد يعرف أحدًا من هذه العصابة إلا على سبيل الظن والمقاربة المصحوب بحسن الظن بالمسلمين ، ويلاحظ أن الله سبحانه وتعالى غني عن عصابة تقاتل عن دينه لأنه سبحانه إن يشأ يمح الباطل ويحق الحق بكلماته

ولكنه سبحانه وتعالى تفضّل ومنّ وفتح باب الجهاد في سبيله وباب المقاتلة عن دينه ليدخل من يشاء في رحمته ويجزل الثواب والحسنة بسبعمائة ضعف ، كالناقة المخطومة التي جاء بها الصحابي الجليل وأعطاها لرسول الله ﷺ لتكون في رواحل الغزو ، ثم منّ سبحانه وقذف حب دينه والإخلاص لدينه وتوجّه الهمِّ والعَزْم في دراسته وتدبره ومزيد من الصدق والاقتناع . به ثم توفر الحياة كلها لخدمته والمقاتلة عنه فمن استطاع أن يقاتل بالسيف قاتل ومن استطاع أن يقاتل بالرأي والحجة قاتل ، وهذا عطاء آخر لهذه العصابة ، ثم وهو الأهم أن الدين ظل وسيظل قائمًا للحصون التي نبَّهْنا إليها وأنها حصون من داخله ، ونقول هنا أيضًا إن هذه العصابة التي تظل تقاتل عنه حتى تقوم الساعة هي أيضًا من داخله ، لأن دواخله التي هي الكمالات المطلقة في أمره ونَهْيه وحثِّه ومَنْعِه وكل ما جاء فيه ؛ هذه الكمالات المطلقة في دواخله هي التي غلبت على هذه القلوب والعقول وحوّلَتْها إلى أن تكون من جنوده ، والغريب أن هذه العصابة المقاتلة عن دين الله لا تعرف عن نفسها ذلك وإنما تقاتل عن دين الله ما تقاتل وتستغفر الله من ذنوبها وتدعو الله أن تكون من خدم هذه العصابة التي صيرها ربنا من جنوده ولا يعلمها إلا هو ، وكل هذا من عجائب هذا الدين الذي دخل ما دخل عليه الليل ودخلت معه هذه العصابة ما دخل عليه الليل لأنك حيثما وجدت دين الله ووجدت مآذن المساجد مرفوعة وسمعت نداء الله أكبر فأنت واجدٌ لا محالة واحدًا أو أكثر من هذه العصابة التي تقاتل عن دين الله وواجدًا بجوارها مِمّن يخذلها أو من يتربص بها ، ثم لا تلتفت هي إليه ، هذا والله أعلم .

• الولاية والرعاية

كان أبو سفيان رضوان الله عليه سيدًا في جاهليته صادقًا مخلصًا في إسلامه . ومن كلماته النافذة التي قالها بعد إسلامه وبعدما فتح الله قُفل قلبه كما قال وقد رأى حب أصحاب رسول الله ﷺ له عليه السلام ، قال ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا ، وهي نافذة لأنه رضوان الله عليه كأنه وجد طعوم حب المسلمين كل المسلمين لرسول الله ﷺ في الأزمنة كلها والأمكنة كلها ولا أشك أن هذا من هَدْي الله لأن حبه عليه السلام شرط في قبول الإسلام « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » وحبنا لله من الفطرة لأنه الخالق الرازق المنعم بكل النعم وجعل السمع والبصر والفؤاد وقد أودع الله سبحانه في فطرة المخلوق حب الخالق ، ولهذا يسجد له سبحانه الشمس والقمر والنجوم والشجر والجبال ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ .

والذي أريده ليس هذا وإنما أريد بيان حب رسول الله ﷺ لكل فرد من أفراد أمته وحرصه عليه ورأفته به ورحمته به ، ووصيته به وأن من فرّج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة وأن من ستر مسلمًا ستره الله ، وأنا وكافل اليتيم كهاتين ، ومن يسَّر عن مسلم يسَّر الله له ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، ومثل هذا كثير جدًّا ويقابله من غشنا فليس منا ، ومن رفع علينا السيف فليس منا ، ومن شق على مسلم شق الله عليه ، وكل هذا من المعاني الجارية على ألسنة المسلمين منه ما هو بلفظه ﷺ ومنه ما ليس بلفظه ، وإنما وطأتُ به لحديث هو من أكرم أحاديث رسول الله ﷺ ، والولاية والرعاية التي جعلتها عنوانًا لهذا الباب ليست ولاية الوالي الأكبر ورعايته لمصالح الناس وإنما أردت كما في

الحديث ولاية كل من تولى أمرًا من أمور الناس ولو كان موظفًا صغيرا في شركة الكهرباء أعني للناس عنده مصلحة ، أي مصلحة والحديث الذي وطأت له بهذا يبدأ بولاية الوالي الأكبر وينتهي بولاية العبد الذي يلي أمر مال سيده ، وإن كانت العبودية قد انتهى زمانها وكان يمكن أن أضع مكان العبد كلمة الأجير الذي استأجره صاحب المال لرعاية ماله ولكنني آثرت كلمة العبد لمجيئها في كلامه ﷺ ودلالتها العظيمة على أن هذا العبد والٍ كالأمير فهو والأمير ورب البيت وربة البيت كلهم سواء في أن كل واحد منهم في عنقه مسؤولية يثاب بحسن رعايتها ويعاقب بسوء رعايتها ، فالعبد المحسن في رعاية ما كُلِّف به أفضل من الأمير المسيئ في رعاية ما كُلِّف به وهذا الحديث مشهور جدًّا ولكنني لا أشبع من النظر فيه .

روى مسلم بسنده عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيْته وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية على بَيْتَ بَعْلها وولده وهي مسؤولة عنهم ، والعبدُ راع على مال سيده وهو مسؤول عنه ، ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

والبناء البياني لهذا الحديث بناء بالغ الدقة وأول ما ترى فيه الجملة الأولى التي هي قوله عليه السلام : « ألا كلكم راع » وهي الجملة الأم في الحديث وكل الذي بعدها متسلسل منها ، وراجع أنت لأن مراجعتك لك أجدر بك من مراجعتي لك ، وأجدر ما في البيان ما يذوقه الطبع وليس ما يكتبه الغير ، وهذه الجملة من حيث هي رأس المعنى في الحديث تشبه جملة إنما الأعمال بالنيات ، وكل الذي بعدها متسلسل منها وتشبه جملة الحلال بَيِّن من جهة أن كل المعاني التي فيها هي التي تَحَدَّدتْ منها إلى كل الشِّعاب

التي تخللها البيان في هذا الحديث ، وحين نقول هذه الجملة هي رأس المعنى كأننا نقول هي العقل الموجه لكل جزئيات المعنى الوارد بعدها ، وأهم ما يلفت في الجمل الرؤوس هذه أنها بُنيت على الشمول المتسع جداً والمضبوط جدًّا ، فالجملة التي معنا لم تدع واحدًا منا من يوم أن نطق بها سيدنا إلى يوم أن يسقط التكليف إلا وضعت في عنقه مسؤولية ما هو بصدده ابتداء من زعيم الأمة ومتولي أمورها كلها صغيرها وكبيرها وانتهاء بهذا العبد العَسِيف التائه في الشعاب وأمامه غنيمات لا يملك منها شيئًا ، وهذا عجيب جدًّا ومثله في العجب إنما الأعمال بالنيات التي لم تدع عملاً يعمله عامل إلا وضحته في هاتين الكلمتين وأن هذا العمل لا يُنْظَرُ إلى حَجْمه ولا إلى نوعه وإنما يوزن ويقوَّم بالقصد الذي انعقدت عليه نية عامله وهذا عجيب جدًّا ، وهكذا الحلال بيِّن لم تتكلم عن الناس مثل « كلكم راع » ولا عن نوايا الناس ، مثل إنما الأعمال بالنيات ، وإنما تتكلم عن أحكام الأعمال التي يزاولها الناس ، فهذا يتحرى الحلال البين ، وهذا لا يكف نفسه عن الحرام البين ، وهذا يبتعد عن الشبهات وهذا يفارقها إلى آخرها ، وكأنك حين تجمع جملة من كلام سيدنا رسول الله تصاقبت في مبانيها وتحاول ترتيب بناء هذه المعاني التي تصاقبت فستجد سبيلاً يجمعها وستجد لها مأمًّا تؤُمُّه عند اجتماعها وكلمة (ألا) في قوله عليه السلام « ألا كلكم راع » أداة استفتاح يؤتى بها في صدر كلام له خطر وله بال ، وهذا كلام العلماء وهو كلام جيد بالغ ، وقد تقدم كثيرًا والذي أضيفه هو أن أداه الاستفتاح هذه يَمنحَهُا الكلامُ الذي جاءت هي في افتتاحه لَوْنًا منه تختلف به اختلافًا ما عنها في كلام آخر جاءت هي في افتتاحه ، واللَّوْنُ المضاف هنا أو الظل المضاف أو المذاق المضاف هو شدة العناية بالمسؤولية صغيرها وكبيرها ابتداء بمسؤولية الوالي

الأكبر وانتهاء بمسؤولية العبد العسيف ، وحين تطرق هذه الأداة أسماع الذين يتلقون دين الله عن المبلِّغ عن الله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم تستشرف النفوسُ وترتفعُ الرؤوس وتستيقظ النفوس حتى لا تبْقَى فيها غفلة لأنها تتلقى تعليمًا من الذي ستقف بين يديه يوم يقوم الناس لرب العالمين ، الذي تقوم السماء والأرض بأمره فإذا دعا دعوة ونحن في الأرض ﴿ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴾ كل هذا له حضور حي وشهود حي في نفوس من يستمعون إلى كلمة (ألا) حين يطرق لسانُ المبلِّغ عن ربه بها أسماع أُمَّتِه ومنهم أنا وأنت وهذا هو الفرق بين ألا في كلام رسول الله وألا التي في مثل قوله

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ولا شك أن أطياف كلمة (ألا) في قول الملك عمرو بن هند ليست هي أطياف كلمة (ألا) في قول لبيد العامري :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وهكذا البيان كل كلمة لها حال وأحوال خاصة بها وكل قائل له حال وأحوال خاصة به .

ثم إن افتتاح الجملة بكلمة (كلكم) أو بالسور الكلي كما يقول المناطقة يشعر كل سامع أنه مقصود بالخطاب وداخل في بناء معنى الجملة وأن المبلِّغ صلوات الله وسلامه عليه يبلغني أمرًا منوطًا بي وهذا له مذاق آخر في الفهم . أنا لم أعُدْ بعيدًا عن المعنى أتأمله وإنما أنا الآن داخل في قلب المعنى وساكن فيه ومسكون به .

وكلمة « راع » في كلامه ﷺ من الإخبار بالاسم وهو دال على الثبوت والدوام ، وهذا جيد ، وكان عبد القاهر يقول إن الفرق بين الإخبار بالاسم

والإخبار بالفعل فرق تمسّ الحاجة في علم البلاغة إليه ، وقد أصاب رحمه الله ، وحين نقول إن اسم الفاعل الذي هو راع يدل على الذات والحدث نعني الحدث من حيث هو واقع منه ، منصرفين كل الانصراف عن الواقع عليه الحدث فليس في كلمة (راع) في كلامه عليه السلام أي إشارة إلى المرعىّ وإنما توفر المعنى فيها على وقوع الفِعْل من الفاعل ، فالكل راع ثم يتنوع المرعى على وفق أحوال الرعاة ، فهذا يرعى الأمة أسودهَا وأبيْضها وهذا يرعى غنيمات أبيه ، والمهم أنه ما منا من أحد إلا وهو يرعى ، وهذا تكليف لافت وملفت وتَنْبيه إلى أن لكل منا مهمّة ، وأنه لا يجوز أن يكون فيكم هَمَل ، ولا عاطل ، والشأن أن تجد كُلاً أمامه عَمَلٌ يتحمل مسؤوليته وأن وجود البطالة في مجتمعكم حالات شاذة يجب أن تزول ، ثم إن في هذا التكليف من الوجه الآخر إشارة إلى تكريمنا جميعًا لأن المسؤولية تكريم ممن ألقاه على عاتق المسؤول والسؤال عنها احترام للمكلف وتقدير له لأنه لا يحاسب إلا من هو أهل لأن يحاسب فحساب الله لك تشريف لك فإن كنت خاسرًا فأنت الذي حوّلت التشريف إلى خسارة وإن كنت رابحًا فأنت الذي حوّلت التشريف إلى ربح .

وقوله عليه السلام « وكلكم مسؤول عن رعيته » يلاحظ فيه أولاً أن هذه الجملة حالية من الجملة قبلها وأن الجملة الحالية جملة من تمام معنى الجملة الأولى أي أنها جملة خبرية وأن خبرها ليس مقصودًا قصدًا وإنما هو خبر تابع ومرتبط بالخبر الأول، وهذا الكلام النحوي قلته لأن المعنى كذلك؛ أعني أن الحق حين أناط بكل منا شيئًا يرعاه وهذا هو الجذر الأصلي في جملة « كلكم راع » ألحق به وربط به وعلّق به خبرًا آخر وهو السؤال عن هذا الذي أنيط بك أأحسنت رعايته ورعيته فتثاب أو أسأت فتعاقب ، وهذا

جيد بالغ لأنه يعني أن الثواب والعقاب منوط بكل ما هو منوط بك فإذا كان المنوط بك أن تعلّم في السنة الأولى الابتدائية فتأكد أن شيئًا آخر منوط بك وإن لم يكن في الجدول الذي تسلمته وهو الثواب والعقاب الذي ليس مصدره مسؤول يجاملك وتجامله وإنما الذي يسألك هو الذي يعلم من نفسك ما تعلم وما لا تعلم ، وهذا مهم جدًا وهذه هي قيمة هذه الجملة الحالية وأنك لو تدبرت لبذلت كل ما في الوسع لأن الرقيب يرى ويعلم ويسمع ما تُخفي الصدور «يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية» ، وهذا المعنى وحده إذا رجَعَتْ إليه الحياة والحيوية في مجتمعاتنا لكان وحده كفيلاً بإحداث نهضة لن يحدثها الثرثارون الذين صار أمر البلاد في أيديهم ويطاردون التوجهات الإسلامية ويساعدهم من يساعدهم من أعدائنا وإخواننا ، وأمر آخر أجده في هذه الجملة الحالية وأراه من البلاغة المسكوت عنها وهو أن أول الجملة «كلكم راع» خاطب أوليّة زمن تكليفنا لأنه لا يكلف إلا من آنستم منه رشدًا وبلغ منا الحُلُم ، والجملة الحالية المتعلقة بها نقلتنا من هذه الأولية إلى آخر عهدنا بالدنيا وأول عهدنا بالآخرة وهو ساعة الحساب التي ترى فيها كل أُمَّة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها وهذا هو معنى (مسؤول عن رعيته) لأن المسؤولية في الدنيا متروكة لنا لباطلنا وحقّنا واستقامتنا وانحرافاتنا إلى آخره ، والمراد هنا المسؤولية التي لا تُراجعُ لأنه ينطق بها الكتاب وتنطق بها ألسنتنا وتشهد بها جوارحنا وجلودنا ، وهذا الانتقال المترامي الأطراف من شأنه أن يثير ويحرِّك ويُدْهش أيضًا . وتتبع الانتقالات المتسعة في الشعر وفي الكتاب والسنة باب من البلاغة لم يشبع مع ما له من فعل في نفس القارئ والسامع وهو في كلام الله وكلام رسوله ﷺ بالغ الأثر .

ولو تدبرت مثل قولنا كلكم مكلفون وكل مكلف مسؤول عن ما كلف به لوجدت بناء المعنى بناء منطقيًا وهو مقدمة ونتيجة وقد حُذف جزء من المقدمة وهي نتيجة ملزمة لا ينازع فيها منازع وأصل الكلام هو كلكم مكلفون وكل مكلف مسؤول ، إذن كلكم مسؤول وحذف الجزء الذي حذف دال على أنه من المعلوم من العقل بالضرورة لأنه لا ينازع أحد في أن المسؤولية متلازمة مع التكليف وكذلك الحديث الأصل أن يقال كلكم راع وكل راع مسؤول إذن كلكم مسؤول عن رعيته ، وسياق المعنى على هذا الوجه فيه إشارة إلى أن هذا الأمر الجلل الذي هو تكليف كل من يصح تكليفه ومسؤولية كل مكلف مما تقتضيه بديهة العقل ولاريب فيه ولا مشاحة ، وهذا منزع بالغ من منازع سياقة المعاني ثم إن كلمة (كل) التي قلت إنها من سور القضايا الكلية في عرف المناطقة لو تتبعت جملها لوجدت لها مذاقًا خاصًا بها : راجع كلكم راع ، وكل نفس ذائقة الموت ، وكل امرئ بما كسب رهين ، وكل شيء ما خلا الله باطل ، وكل نعيم لا محالة زائل ، وكلكم يدخل الجنة إلا من أبى ، وكل من عليها فان ، كل ابن آدم خطاء ، وقلت كثيرًا إنه ليس أنجع ولا أقرب في إدراك أسرار البيان من مراجعة النفس لأن هذا الإدراك من الفطرة والمرجع الأول في الذي يتعلق بالفطرة هو النفس .

وقوله عليه السلام « فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته » هذه الفاء هي التي ترتب ما بعدها على ما قبلها في الذكر لأن الذي قبلها هو القاعدة الكلية والعقلية المنطقية التي لا يجادل فيها أحد وما بعدها هو تفصيل لها ، ويلاحظ أن هذا التفصيل المذكور في الحديث إنما جاء على سبيل المثال لأن مجيئه على سبيل الحصر متسع جدًا وقد حصر الرعاة هنا

في أربعة الأمير ورب البيت وربة البيت والعبد الذي يرعى مال سيده وهي أخت الفاء التي في الأحاديث التي حذِيَتْ هذا الحذو كالفاء التي في قوله عليه السلام «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله» والتي في قوله «فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه». وكلمة «راع» في قوله (فالأمير الذي على الناس راع)، هي خبر عن الأمير والمعنى أنه راع يرعى للناس مصالحهم، وقد ذكرت أن اسم الفاعل هو فاعل وحدث وليس فيه دلالة على مفعول والمعنى أن هذا الأمير من شأنه أن يرعى وهذا عمله وهذا مَنْصبه في الناس، يرعى ما يجب عليه أن يرعاه من شؤون الناس في الصحة والزراعة والصناعة والتعليم إلى آخر ما به تكون مقومات الجماعة ومقومات الدولة، ويرعى الوطن برعي حدوده وأمنه وتقدُّمه ونموه وازدهاره ويرعى إعداد القوة التي ترهب عدوه الذي هو عدو الله إلى آخره، لأن الإمارة ليست سيادة وتسلط وإنما هي خدمة ورعاية، وهذا كقولنا فلان يرعى لأبيه أي يرعى ماله ويقوم على خدمة والده ورعايته وهذا هو معنى الإمارة. والأمير واحد مرتضى من الجماعة لأمانته وخبرته وفطنته وصدقه وإخلاصه وتفانيه وحبه لجماعته وأرضه وقومه. وهو يَرْعى أوسع وأهم ما يرعاه كل راع، ولهذا كان يتهرَّب كثيرٌ من الصالحين من الإمارة. ويستطيع الأمير الصادق الأمين أن يصلح كل ما يجب عليه رعايته وإصلاحه بشيء واحد وهو أنه لا يختار لأي عمل يرعاه إلا أكفأ الناس وأعلمهم بهذا العمل وأصدقهم طبعًا في رعايته هكذا في الصحة والتعليم والصناعة والزراعة وكل مرافق الدولة ولا ينظر إلى هذا الأكفأ هل هو من قبيلته أو ليس من قبيلته المهم أنه الأكفأ حتى إنه لا ينظر إلى مقدار صلاحه وعبادته وإنما ينظر إلى مقدار قدرته وكفاءته، ولم يول رسول الله ﷺ سيدنا أبا ذر مع أنه كان من أحب وأقرب أصحابه إليه لأنه عليه السلام رأى نقصًا في كفاءته، ولا أشك

في أن هذا هو طريق تقدم من تقدم وأن من أهم أسباب ما نحن فيه راجع إلى اهتمامنا بالأقرب وموضع الثقة وليس موضع الكفاءة، وهذا يوجب أن يكون الأمير قادرًا على معرفة الأكفأ وليس من أهل الغفلة، لأنه لو كان من أهل الغفلة وأحاطت به بطانة السوء لكان الفساد والخراب، وفرق بين من يرعى الناس ومن يرعى السائمة، لأنه لا معنى البتَّه لرعاية الناس إلا رعاية مصالحهم المشتركة في التعليم والزراعة والصناعة والتقدم العلمي، فإذا اختلط الأمر عند السيد الأمير وتحوّلت رعايته للناس من هذا المعنى الذي لا معنى لرعاية الناس إلا هو إذا اختلط الأمر عليه وحسب أن رعاية الناس من باب رعاية السائمة فقل على هؤلاء الناس السلام ولا تحزن عليهم إذا قبلوا ذلك لأن الذي يُسَام الخسف ولا يتحرك لا تبكي عليه سماءٌ ولا أرض، وصورة الصحابي الجليل الأنف الأبي الذي يُعدُّ رجل دولة من أكرم رجال الأمم والذي قال لعمر لو أخطأت لقومناك بسيوفنا أقول هذه الصورة أذكرها كثيرًا لأنها صورة للشعب الرائع الذي يرقب حاكمه ويقوّمه عند اللزوم بسيفه وليس للسيف إلا نتيجة واحدة هي التقويم أو العزل، ولاحظ أن كل ما في هذا الحديث من المعاني العقلية التي لا ينكرها عاقل مؤمنًا كان أو غير مؤمن. والفرق بين المؤمن والكافر في تلقي هذا الحديث فرق واحد هو أن المؤمن معتقد في أن المسؤولية التي هي تابعة لهذا التكليف مسؤولية بين يدي الذي لا تخفى عليه خافية وأن الكافر مؤمن بأن هذه المسؤولية مسؤولية دنيوية يعني تدخلها المراوغة ويدخلها التهرب وفي التاريخ مختصرات جليلة تفيد الأمير صادق النية فإذا كان أمر الناس لا يصلح إلا بولاية الأكفأ في كل مرفق من مرافق الدولة وإذا كان الصلاح في هذا ضامنًا للصلاح في الأمر كله والفساد في هذا جالبًا للفساد في الأمر كله فليس على صادق النية أكثر من أن يرفع علم الحق، كما قال عمرو بن عبيد

لأبي جعفر المنصور لما قال أبو جعفر لعمرو بن عبيد أعِنِّي بمن معك وهو يعني أهل الكفاءة والصدق والطهارة قال له عمرو ارفع علم الحق يتبعك ذووه يعني حين يرى الناس منك صدقًا وإخلاصًا في عمل الصالح للأمة توافى عليك أهل الصدق ووجدت فيهم ومنهم ما يعينك وابتعد عنك المنافقون الكذابون المتآمرون الذين بهم تُهْدَم الدول وتسقط الأوطان والكاذب الخائن هو الذي يتولاهم ويجعلهم أذرعًا له .

قال القرطبي : (الراعي هو الحافظ للشيء المراعي لمصالحه . وكل من ذكروا في هذا الحديث قد كلّف ضبطَ ما أُسْنِدَ إليه من رعيته وأُتمِنَ عليه فيجب عليه أن يجتهد في ذلك ويَنْصح ولا يُفرط في شيء من ذلك فإن وفّى ما عليه من الرعاية حصل له الحظ الأوفر والأجر الأكبر وإن كان غير ذلك طالب كل واحد من رعيته بحقه فكثر مطالبوه وناقشه محاسبوه ولذلك قال ﷺ : « ما من أمير عشرة فما فوقهم إلا ويؤتى به يوم القيامة مغلولاً فإما أن يفكه العدل أو يوبقه الجور » وقوله عليه السلام : « من استرعى رعية فلم يجتهد لهم ولم ينصح لم يدخل معهم الجنة » انتهى كلام القرطبي بتصرّف ، وفيه معان جيدة جدًا . أولها أن تقصير رأس الدولة تقع آثاره السيئة على الناس جميعًا ويصير لكل واحد منهم حق له عند هذا الرأس ، ويطالبونه بحقوقهم يوم القيامة فإذا كان قد أساء في رعاية التعليم طالبه كل ولي أمر وكل طالب وقع عليه حيف في هذا الباب بحقه بل إن أهل الكفاءات من طلاب العلم الذين قتل فساد التعليم كفاءتهم صار لهم حق عنده وإذا كان الأثر السيئ في رعاية مصانعهم ولم يعمل على توفير كل شيء لهم من بلادهم ومن مزارعهم وإنما جعلهم عالة على الأمم في صناعتهم وفي سلاحهم وحماية أوطانهم صاروا جميعًا مطالبين بحقوقهم

وعلى ذلك يقاس كل ما كلف به وإصلاح كل ذلك ليس خارجًا عن الطوق لأنه يتم بالصحة والتمام والكمال بما قاله عمرو بن عبيد يعني يرفع علم الحق فتتوافى عليه الكفاءات الوطنية الصادقة ويبذل الناس أنفسهم وأموالهم من أجل تقدم أوطانهم . أما إذا جمع عصابات المنافقين والمدَّاحين فذلك شيء آخر ، ومعنى رعاية رأس الدولة حفظ كل شيء فيه مصلحة للناس ، حتى لو عثرت بغلةٌ في العراق لسئل عنها الوالي في المدينة كما قال عمر لأن العامل الذي في العراق لم يمهد لها الطريق وهذا فهم رفيع لمسؤولية رئيس الدولة ، وقول القرطبي « قد كلف ما أُسند إليه من رعيته وأُتمن عليه فيجب عليه أن يجتهد في ذلك وينصح ولا يفرط » .

كلام القرطبي هذا يوشك أن يكون بيانًا لعقد بين الناس الذين هم الشعب وبين من يختارونه أميرًا عليهم وأنه بموجب هذا العقد قد كلّف برعاية مصالحهم التي هى كل مرافق الدولة وقد كلف بأن يجتهد في هذه الرعاية وأن يكون ناصحًا أمينًا فإن وفَّي فله الأجر وإن قصّر وفرط فقد نقض ما كلّف به وانتقض بذلك الأصل الذي صار به في هذا الواقع ، ووجب عزله مع المحافظة التامة على الدماء والأموال والأعراض وقوله عليه السلام « ما من أمير عشرة فما فوقهم إلا ويؤتى به يوم القيامة مغلولاً إما أن يفكه العدل أو يوبقه الجَوْرُ » أقول لو أتيح لنا رأس دولة مخلصًا صادقًا لكتب هذا الحديث بخط بارز وعلقه على رأسه في حجرة مكتبه ، وفيه أن من قبل الولاية أو التكليف برياسة الدولة فقد قبل أن يأتي مغلولاً فإن كان قد طوى عَزْمَه وحَزْمَهُ وعقد نيته أن يعمل لصالح هذا الشعب وأن يكون صادقًا في ذلك ويستعين بالله فيعينه بأهل الصدق وأهل الخير وأهل الكفاءة وبكل ذلك تُفَكُّ قيوده ويكافئه ربه على ما قدم وعلى ما نوى فذلك هو الوالي الطيب

الذي يستحق أن تدعو الله له بطول العمر ودوام العمل الصالح وهذا نادر جدًا ولم أعرفه في المدة التي عشتها على أرض الكنانة ولا على أرض غيرها وإذا كان على غير ذلك أوْبقه جَوْره كما قال عليه السلام وقوله عليه السلام فإما أن يفكه العدل أو يوبقه الجَوْر من الكلام الذي يكتب بحروف من نور وليس بذوب التبر كما يقولون ، وهي من أنفس ما يَسْكنُ في القلوب ومن أبين ما يعلمنا غوامض العلم ومن أيْسَر وأسْلَسِ ما يقرب التباعد بين الفرقاء السياسيين في زماننا بل ومن أخصر ما يدلنا على طريق التقدم والتفوق على أعدائنا ، ولا تَظنّنّ أني أتزيَّد لأن كلامه عليه السلام أرفع قدرًا من أن يحاول أحد مهما كان أن يتزيّد في معانيه ، وإنما قلت ذلك ولو أرسلت القلم لقال أكثر لأن كلمة العدل هنا حَلّتَ الأغلال ولأن الأغلال كانت حُقُوق كل ولد وكل بنت وكل رجل وكل امرأة ممن كان يمكن أن يضيّع عليهم شيئًا هو من حقهم كما مضى من التعليم ومن الرعاية الصحية ومن توفير حاجات الناس ومن احترام حريات الناس في الاتفاق وفي الاختلاف إلى آخر متطلبات المواطن وإلى آخر أحلامه في العيش الراقي في وطنه وهذه حقوق لا حصر لها وأغلال لا يحاط بها ، وقد فك عدله عنه كل هذه الأغلال ولم يطالبه أحد بشيء لأنه لم يُقصّر في شيء وهذا لا يتطلب منه أن يكون من الملائكة وإنما يتطلب منه أن يكون مواطنًا محبًا لوطنه صادقًا في حبه متجردًا لعمل الخير والتقدم والنهوض ببلاده ، وهذه هي الصفات العادية التي إذا انحرف عنها كان منحرفًا يعني المطلوب أن يكون غير مُنْحرف وحينئذ سيصنع المعجزات في بلاده ، وأسباب تخلفنا هو أن كل وُلاةِ الأمر من ملوك ورؤساء وسلاطين إما جاهل وهذا هو الغالب فيهم أو متآمر مع القوى المضادة لنا ويكذبون علينا وعلى التاريخ ويقولون إنهم أصدقاؤنا وأن

جنودهم في بلادنا هي جنود صديقة إلى آخر الهزل الذي تسمعه ممن لا يستحي أن يكذب وسوأته عارية ، والمهم في الذي أنا فيه هو أن كلمة العدل في كلام المصطفى هي المفتاح السحري لفك الأغلال ، وهي الكلمة الشاملة الدالة على أن الذي في أخطر مناصب الدولة قد أدى ما عليه ، وليس هناك تكليف أوسع ولا أشق ولاأعقد من تكليفه فإذا أداه كان حقيقًا بأن يكون على رأس الناس وعلى رأس السلطة وعلى رأس قلب كل مواطن ومواطنة ، والمطلوب هو معرفة حقيقة هذه الكلمة التي بهذا المنصب ، وهي كلمة «العدل» وليس المقصود بها عدل القاضي في القضاء بين المتنازعين وإن كان هذا من الأهمية بمكان لأن العدل في قضايا النزاع يوصف به القاضي ولا يوصف به ولي الأمر . لأنه لم يعد مهيئًا لأن يَفْصِل في الخصومات لوجود المحاكم المختصة بذلك وإنما المقصود بالعدل معناه اللغوي يعني أن تضع كل شيء في موضعه فلا تعدل عن ذلك يمينًا ولا يسارًا فلا تولى أحدًا على إقليم أو مرفق أو وزارة أو زراعة إلا أقدرَ الناس على ذلك وأكفأ الناس في ذلك وقد سبق أن ذكرت أن هذه هي الوصفة السحرية للتقدم وأن ضدها هي الوصفة الشيطانية للتخلف وأن أقصر طريق لتقدم الأمم هو ولاية الأكفأ وأقصر طريق لتدمير الأمم هو ولاية الأصدقاء والأقارب وبقية العصابة التي تنتشر في البلاد انتشار الخلايا السرطانية في الجسم وظني أن ابن القيم لما قال حيثما كان العدل فثم شرع الله إنما أخذها من هذه الجملة الكريمة من كلام سيد من تكلم صلوات الله وسلامه عليه وأن الجور الذي هو ضد العدل والذي هو ليس السلب والنهب والقمع وقطع الألسنة وإهانة الإنسان أقول ليس هذا فحسب وإنما الأبشع من كل هذا مع بشاعته والأفتك من كل هذا مع شناعة فتكه هو أن تضع الرجل

غير المناسب في الموقع غير المناسب حتى ولو كان هذا رئيس عمال نظافة، لأن وضع الأكفأ يجب أن يكون ثقافة كثقافة الصلاة والصيام ويجب أن تجرم المخالفة فيه على مستوى كل الناس كما يجرم الذي يأكل ويشرب في نهار رمضان.

قلت إن كلمة العدل هذه هي المفتاح السحري الذي يقرب الفرقاء السياسيين المخلصين للبلاد لأن العدل بالمعنى الذي قاله سيد الناس لا يجوز أن يختلف عليه مسلم ولا غير مسلم فالكل يطلبه ويريده ويحرص عليه بل إنه مطبق في الدول العدوة اللدودة للإسلام والمسلمين لأنه هو وحده سفينة النجاة في هذا الوجود فركبها من ركبها وبقينا نتأرجح على غير ذات ألواح ودسر، ونحن ننتظر أن يأتينا المهدي المنتظر الذي ليس من طبقة الملائكة وإنما هو فقط ليس من طبقة اللصوص لأن صلاح أولياء أمورنا مُتوَقّف على أن يكونوا أسْوِيَاء يعني ليسوا منحرفين. هذا والله أعلم.

قال الفراء: (يقال تِرْعِيَّةُ مال إذا كان يَصْلُح المال على يديه» انتهى كلام الفراء، ومعنى أن الأمير راع لقومه أو على قومه أنه ترعية مال يعني يَصْلح الاقتصاد على يديه وترعيَّة تعليم يعني يَصْلحُ التعليم على يديه، وترعيَّة إدارة لشؤون البلاد يعني تصلح شؤون الإدارة على يديه إلى آخره وليس له من سبيل إلى فكّ أغلاله التي يأتي بها في الموقف المشهود إلا أن يكون ترعية في كل شأن من شؤون الدولة.

وكلمة «الرعية» شابتُها بعضُ المعاني الفاسدة والخاطئة كدّرت صفوها، وذلك لأن الكذابين والمداحين والمنافقين في الأنظمة التي يكون فيها الملك قمعيًا أكثروا من كلمة (رعاياك يا مولانا) فجرى في خواطر العامة أن

مولانا يَرْعانا بعصاه ونحن كالسائمة وهو من ورائنا يحمل عصاه على كتفه كالراعي الذي وصفوه بأنه أحْسَن الرعية بالعصا ، لأنه كما قالوا (بالضرب قد دمّاها) أي جعل الغنم كالدُّمى جمع دُمْية وأصلحها بعصاه . وقد قرأت في أول حياتي كتابًا ثائرا كتبه حر ثائر هو خالد محمد خالد رحمه الله حين كان الملك في البلاد مُلْكًا موروثًا والكتاب بعنوان « مواطنون لا رعايا » وأدركت الذي كدّر كلمة رعية أو ساعد على تكديرها بعد انحراف فهم العامَّة هو أن الملوك كانوا من سلالة واحدة وأفرادها أمراء فأوقع في أوهام العامة أنهم سلالة أرْقى من الشعب الذي هو الرعيَّة وهم الرعاة ، واقتربت الصورة من مولانا الذي يحمل عصاه على كتفه و« بالضرب قد دمّاها ».

قوله عليه الصلاة والسلام « والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم » إلى آخر الحديث . وقد وقفت طويلاً عند حظ الشعب كله من هذا الحديث وحظ الأسرة من هذا الحديث ووجدت أن نصيب الشعب هو قوله عليه السلام : « فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته » وبقية الحديث للأسرة الأب والأم والخادم ، ووجدت فراغًا متسعًا جدًّا بين قوله عليه السلام في الأمير وهو مسؤول عن رعيته وقوله في الرجل الراعي لأهل بيته . ووقع في نفسي أن هذا الفضاء المتسع بين مسؤولية الدولة عن الشعب ومسؤولية الرجل عن بيته كل هذا الفضاء المُتسع هو مسؤولية الأمير ، وراجع كلمة « على الناس راع » واستقصى إن أمكنك المرافق التي يجب عليه رعايتها ابتداء من حضانة الأطفال وانتهاء بأرقى المراكز العلمية وابتداء من أصغر مصنع إلى أرقى مصانع أدوات الحرب وابتداء من أصغر مزرعة إلى آخره كل هذا مسؤولية الأمير الذي يمكنه آداءها آداء يَفُكُّ الأغلال بالعدل لا غير وهو مستريح وآمن وينام ملء جفونه لأنه عدل فأمن فنام ثم

تأتي الأسرة التي هي مصنع يقدم الأدوات الخام لهذه الجماعة وأن هذه الأدوات لابد أن تكون لبنات صالحة لأن يُبْنى منها بناء رائعًا قويًا مُتماسِكًا متساندًا وأن رعاية الأب لابد أن يضاف إليها رعاية الأم ثم لا غنى لهما عن رعاية خادمهما وهذا التأكيد وهذا التنوع في فنون رعاية البيت الذي يمكن أن يكون مكونًا من خمسة أفراد يعني أن هذا البيت أمر بالغ الأهمية في تكوين المجتمع الذي يجب أن يُعِدَّ ما استطاع من قوة يُذهب بها عدوه الذي هو عدو الله وهذا شيء جيد جدًا .

ثم إن التصاقب في المبنى بين الحديث عن الأمير الراعي المسؤول عن رعيته والرجل الراعي على أهل بيته وهو مسؤول عن رعيته مع التجاور والاقتران وعطف الثاني على الأول كل ذلك فيه دلالة على أن هناك تشابهًا بين الرعايتين وأن رعاية الأمير تستقى من رعاية الوالد معنى الحب والرحمة والصِّدق والإخلاص لأن الوالد يَرْعَى رعاية مشوبةً بالحب ومؤسَّسَة على الإخلاص الصادق والحرص الأكيد على أهله وأولاده لأنهم لحمه ودمه وكذلك يرعى الأمير من وُلِّي عليهم وليس بخيرهم كما قال أبو بكر رعاية فيها هذا القدر من صدق الإخلاص وصدق الحرص والعناية والرعاية وأن هذا الشعب الذي اختاره هو لحمه ودمه ، وهذا هو سبيل النجاح لأن الفرق بين النجاح والفشل هو فرق في صدق النوايا وكذبها ، ثم إن الوالد يرعى أولاده في يومهم ويُهيئهُم للغد القريب والغد البعيد حتى يكونوا رجالاً أحرارًا كرامًا في أوطانهم ، والأمير عليه أن يرعى وأن يهيىء الشعب للغد القريب والغد البعيد حتى يكون شعبًا حرًا كريمًا على أرضه مستغنيًا بعلمائه ورجاله وقواته ومصانعه ومدارسه وهو في كل ذلك على المستوى الذي يضمن له الحياة الكريمة والاستقلال الكامل على أرضه ، وكل هذا ليس

صَعْبًا إلا عند العجزة الكذبة . ثم هناك شيء آخر وهو أن الوالد يُرَبِّي ولده على أن ينمو نموًا طبيعيًا يحاوره الوالد وينمِّي فيه الرأي الحر المستقل وأن يعبِّر عن ذات نفسه وأن له حقوقًا وأن عليه واجبات فإذا صار رجلاً حافظ على هذا كله وأصرّ على أن يكون حرًا وأصرّ على أخذ حقه وأصرّ على آداء واجبه وكذلك يربيه على الأمانة والحرص على ما هو مسؤول عنه من مال أبيه فإذا شبَّ وصار رجلاً كان أمينًا فيما يزاول من أعمال وكانت مصالح الناس عنده كمصالح أبيه وثروات الناس عنده مصونة كصيانته لمال أبيه وأكرر أن كل هذا ليس صَعْبًا وإنما هو قريب لأنه هو الفطرة وأكتفي بهذا وليُقَسْ ما لم يُقل .

وتلاحظ فرقًا بين قول رسول الله ﷺ والرجل راع على أهل بيته وقوله والمرأة راعية على بيت بعلها وولده ، فذكر أن الرجل راع على أهل بيته ، والأهل هم الناس الزوجة والولد ، والمرأة على بيت بعلها وولده ، ولم يقل على أهل بيت بعلها لأنها ترعى البيت الذي يرعاه الرجل لأن المقصود أنها ترعى ما في البيت مما يتعلق بمعيشتهم من طعامهم وشرابهم وثيابهم وماعونهم وأسرار هذا البيت مما تختص به ربَّة البيت ثم قال وولده ولم يقل وولدها لأن ولده الذي في بيته والذي ترعاه ربما كان ولده من غيرها وظاهر أن الأولاد في البيت اجتمعت لهم رعايتان رعاية الرجل ورعاية المرأة لأنهم هم العنصر الأنفس والأهم في البيت ولأنهم هم اللبنات المكونة لبنيان المجتمع والتي بها تكون رعاية الأمير لما يرعاه من شؤون الناس في العلم والاقتصاد والزراعة والجيش إلى آخره لأن كل هذه الرعاية في الحقيقة مؤسسة على هذا العنصر البشري فالأولاد في كل بيت عليهم رعايتان ثم في المدرسة عليهم رعاية المدرس ومدير المدرسة ثم عليهم رعاية المنطقة

التعليمية ثم عليهم رعاية الوزارة إلى آخره ولو أحسن كل هؤلاء الرعُاة ما استرعوا عليه لتغيّر كل شيء في زمن وجيز جدًا ولو طبقنا هذا الحديث وحده لتغير كل شيء في وقت قصير جدًا لأن الحديث يعني بعث روح الجد في كل خلايا المجتمع وفي كل مَوْقع. وجرى به النشاط الواعي واليقظ والصادق في كل شرايين الحياة، والعجيب أن كل هذا موجود من حكومة ووزارة وجامعة ومدرسة والكل كما يقول العسكر «محلك سر» أو «للخلف دُرْ» والناس من حولنا أنفذوا معنى هذا الحديث فأدلجوا ونمنا نحن.

بقيت كلمة في حديث رسول الله عن المرأة، فقد قال عليه السلام «والمرأة راعية على بيت بعلها» ولم يقل على بيت زوجها ولأن كل كلمة من كلام رسول الله ﷺ وراءها مغزى وسر، شغلت بالبحث عن سر ذكر البعل هنا يدل الزوج ورأيت ـ وأرجو أن يكون الذي رأيته صوابًا ـ أن كلمة الزوج تعني المساواة بين رعاية الرجل ورعاية المرأة لأن كلمة زوج تطلق عليهما. وراجعت دلالة كلمة بعل فوجدتها تطلق على الزوج وتطلق على السيد وعلى الملك. ولا شك أن هذين المعنيين «السيد والملك» ليسا مرادين هنا، وإنما يمكن أن تكون في كلمة بعل في الحديث دالة على الزوج وعلى الحماية والرعاية والصون وأن حديث رسول الله عن زوجها ببعلها فيه تذكير خاطف بحسن رعايته لها وحسن صونه لها وحسن حمايته عنها ومن شأن هذه اللمحة الخاطفة أن تدعوها إلى مزيد من العناية والرعاية لبنيها ولولده والله أعلم. وإذا قلت رأيت فلانة مع زوجها ورأيت فلانة مع بعلها أو مع رجلها لاختلفت الدلالة في الجمل الثلاثة لأن الزوج يعني التساوي والبعل

يعني الرعاية والصون والرجل يعني معاني الرجولة من الشهامة والنبل والمروءة إلى آخره . هذا والله أعلم .

قوله عليه السلام «ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ختم الحديث بالجملة الأم التي بدأ بها صلوات الله وسلامه عليه وهذا من باب رد العجز على الصدر ، وهذا الرَّدُّ يعني أنه أول معنى يطرق القلب وآخر معنى يطرق القلب ويبقى فيه زمانًا يخامره ، ولذلك لا يأتي هذا الفن البلاغي إلا في المعاني التي لها خطر ولها شأن وهذه الجملة التي كانت أول طارق وآخر طارق جملة لا يظهر لك غريب معناها إلا بالمراجعة وقلت غريب معناها لأنها تعني أن كل مكلف له رعيَّة يقوم على رعايتها ويُسأل عنها إما أن يفكه العدل أو يوبقه ويهلكه الجور ، وهذا غريب لأنك وأنت بين أولادك المكلفين ترى كل واحد منهم له رعيَّة إما أن يحسن رعايتها أو يسيئ وهكذا كل من تراه من الناس ، وهذا يعني أن فكرة البطالة والأيادي العاطلة والشباب المتسكع على المقاهي ليس لها وجود في تصور هذا الحديث الشريف لأن الأصل أن يعمل الكل وأن يُحسن الكل وأن يُتقن الكل وأن وجود العاطلين هو الشذوذ وأن على الأمير الذي على الناس أن يفتح آفاق العمل في المشاريع الكبيرة التي تستقطب هذه الطاقات وتحفزها وتستثيرها وأن يستعين بأهل الرأي في تصميم هذه المشاريع زراعية كانت أو صناعية أو ما شئت ، المهم أن الجماعة لم تكن فيها الأيادي العاطلة وإنما كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، هذا أو الطوفان أو كما قال أبو بكر رضي الله عنه إما الفجر أو البجر ، يعني إما الخروج من سراديب الباطل والظلم والجور والظلام أو البجر الذي هو الشَّر والداهية ، يعني إما أن يعمل الكل ويحسن الكل ويتقن الكل ونعيش كرامًا على أرضنا بدولتنا وهيبتنا أو الهلاك ،

وهذه الجملة كلما حاولت تركها جذبتني إليها لأنها تمثل نهضة وتقدم وإنجاز والعمل بها يُغيّر الواقع الراكد الآسن الذي نعيش فيه وأنها من سنن رسول الله ﷺ ، وأن إحياء هذه السُّنة هو إحياء للأمة وأن إهمالها موت وتخلف وضعف وانكسار ، وأنها دين وسياسة معا لا يمكنك فيها فصل الدين عن السياسة وهكذا غيرها من إحقاق الحق وإبطال الباطل والإصلاح ومواجهة الفساد ومواجهة النفاق والكذابين والمدّاحين كل هذا دين وسياسة معًا وظني أن الذين يصرون على عزل الدين عن السياسة لا يعرفون شيئًا عن الدين وإنما هم يقلدون أممًا أخرى عزلت دينًا آخر عن سياستها وإنك واجد كثيرًا جدًّا من حقائق الدين التي لا تستطيع مطلقًا أن تعزلها عن السياسة كباب الجهاد مثلاً ، وأرجع إلى الجملة الكريمة وأنبّه إلى أنها تكررت مع أداة الاستفتاح التي يستفتح بها الكلام الذي له خطر وكذلك يُقفل بها باب الكلام الذي له خطر ، فهي تستفتح أول الكلام ليستقبله العقل وتستفتح آخر العقل ليحفظه العقل ، ثم إنه عليه السلام قال في الأول « ألا كلكم » وقال في الآخر : « ألا فكلكم » فزاد الفاء التي أفادت ترتيب الجملة الأخيرة على الكلام قبلها من إجمال وتفصيل على حد ما بينا .

• المقسطون على منابر من نور يوم القيامة

التأكيد على العدل والتنفير من الظلم من أبرز ما يراه قارئ الكتاب والسنة ، والعدل وضع الشيء في موضعه ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه . ولا تجد أنفع في حياة الناس ولا أبر بهم ، ولا أجمع لمصالحهم من وضع الشيء في موضعه ، وهذا شامل لكل ما في حياة الناس ، ومن وضع الشيء في موضعه فقد عدل ومن وضع الشيء في غير موضعه فقد ظلم ، والظلم أول المعاول التي تهدم الدول والعدل أساس الملك ، والعدل

ما كان في شيء إلا زانه والجور ما كان في شيء إلا شانه ، فالكاتب الصادق والأستاذ الصادق هو الذي يضع الكلمة في موضعها والطبيب الرائع هو الذي يضع الدواء في موضع الداء وهكذا السياسي والاقتصادي والصانع والزارع وهذا المنهج الشامل لكل ما في الحياة هو الذي يكشف آفاقًا جديدة في الفكر والعلم والصناعة لأن وضع الشيء في موضعه ينتج خطوات صحيحة وأفكارًا صحيحة ونظريات صحيحة لأنه هو طريق البحث الجيد والفكر الجيد والسياسة الجيدة والاقتصاد الجيد إلى آخره ، ووضع الشيء في موضعه لا يتأتّى ولا يكون إلا بالعلم الصحيح والخبرة الكاملة والوعي اليقظ والصدق الخالص والإخلاص الصادق فالجاهل لا يَضَعُ الشيء في موضعه وهذا يعني ويتطلب المستوى العالي من المعرفة في كل باب من أبواب الحياة سواء في الحياة العملية أو الفكرية أو السياسية أو الاقتصادية لا يمكن لواحد من هؤلاء أن يضع الشيء في موضعه إلا إذا كان متناهيًا في العلم في الباب الذي هو فيه وتحقيق العدل الذي هو وضع الشيء في موضعه لا يكون إلا إذا كان مسبوقًا بجهود جادة وصادقة في التحصيل والفهم والتجرد وليس للحياة قيمة بدون هذا ومن ليس عنده استعداد لهذا البذل وهذا العطاء فليس عنده استعداد لأن يعيش حُرًا كريمًا مكرّمًا ، ولا شك أن الذي وراء كل خلل وفساد وتخلف واضطراب في حياتنا مرجعه إلى وضع الشيء في غير موضعه ، وأهمه وضع الرجال في غير مواضعهم ، وأفهم من كلمة القسطاس المستقيم والميزان هذا الوجه الذي هو وضع الشيء في موضعه بالدقة الكاملة لأن القسطاس هو العدل يعني وضع الشيء في موضعه والمستقيم هو الذي لا ميل فيه والميزان يعني المبالغة في التعرف على صحة وسداد وضع الشيء في موضعه وكأن الحق يقول لنا عليكم أن تَزِنُوا الرجال وزنًا دقيقًا جدًا لأن كفتي الميزان لا تتعادلان إذا كانت واحدة فيها مثقال ذرة زائدة

عن الأخرى فاحذروا أن تختاروا من الرجال من ينقص مثقال ذرة في كفاءته وإذا كان غيره يزيد عنه مثقال هذه الذرة وآثرتم الناقص على الكامل تكونون قد دخلتم في الجور والظلم الذي يهدم الدول ويهدم الممالك وإذا حرصتم على الذي يزيد مثقال ذرة كنتم على طريق العدل الذي هو أساس الملك وقل مثل ذلك في كل شأن لابد أن يكون قياسكم قياسًا دقيقًا جدًا وحسًاسًا جدًا حتى لا تَضَعُوا شيئًا في غير موضعه . وعليك أنت أن تتأمل أثر ذلك في تقدم الدولة ورخائها وازدهارها وقُوَّتَها وهيبتها وأن تتأمل الصورة المعاكسة وأثرها البالغ السوء على الدولة والناس ؛ واعلم أن الظلم قبل أن يكون ظلمات يوم القيامة هو ظلمات في الدنيا يعني في الوطن هو الفقر والجهل والمرض وهو السلب والنهب والقهر والغطرسة كل ذلك وغيره من السُّوسُ الذي ينخر في عظام الدولة راجع إلى وضع الشيء في غير موضعه ، ثم عليك أن لا تفصل الدين عن السياسة في هذه المسألة البالغة الأثر ، فالعدل دين محض وسياسة محضة وقبل أن يكون أصحابه على منابر من نور يوم القيامة هم على منابر من العزَّة والأنفة والتقدم والرخاء في بلادهم وأنا على يقين من أن الذين يحاربون الدين في السياسة لا يفهمون الدين وأحيانًا يغلب على ظني أن هذه قضية مفتعلة لا أصل لها وكما أن الذين يحاربون الدين في السياسة يجهلون الدين أقول وأرجو أن أكون مخطئًا إن الذين يطالبون بتطبيق الشريعة أيضًا لا يصيبون في فهم مقاصد الشريعة . وإن كانت القضية التي يتحملون مسؤوليتها لا خلاف عليها عند المسلمين وألاحظ شيئًا عجيبًا جدًا وظني أنك لا توافقني عليه وهو أن المقسطين على منابر من نور أي الذين يضعون الشيء في موضعه والقاسطين كانوا لجهنم حطبًا فمن وضع الشيء في موضعه على منابر من نور ومن وضع الشيء في غير موضعه هو من حطب جهنم والذي ألاحظه هو أن الفرق في اللغة بين

القاسطين والمقسطين فرق في حرف واحد فالمقسط عادل والقاسط ظالم والفرق حرف وهذا الحرف الفارق بين طائفتين متقابلتين لا تلتقيان البتَّة إشارة إلى أن حركة واحدة تتحول بها أيها المسؤول وتنتقل من إحدى الطائفتين إلى الأخرى وهي إما أن تكون صادقًا حازمًا فتضع الشيء في موضعه وتختار الأكفأ على غير الأكفاء وإما أن يَغْلبك الغالب الذي يغلبنا في بلادنا فتضع الأقل مثقال ذرة وتترك الذي يزيد مثقال ذرة فيخِفُ ميزانك بهذا المثقال وتصير في حطب جهنم ، ولاحظ أنه إذا كان لا يوضع في الميزان إلا الأكفأ جدَّ الكل في تحصيل المزيد من الكفاء وتغيّر كل شيء لأنه لا سبيل إلى الوصول إلى غاياتنا إلا بالجد والكدّ وتحصيل المعرفة وتحصيل الخبرة والصدق والإخلاص ، وعليك أن تتصور أثر ذلك ثم تتصور العكس الذي نحن عليه وأنه بدل أن نجتهد في المعرفة والخبرة يجتهد في النفاق والركض وراء المسؤولين ، وأكتفي بهذا .

روى مسلم بسنده أن رسول الله ﷺ قال : « إن المُقسطين عند الله على منَابِرَ من نورٍ عن يَمِينِ الرحمن عز وجل وكِلْتَا يَدَيْه يمينٌ الذين يَعْدِلُونَ في حكمهم وأهليهم وما وُلوا» .

كلما راجعت كلامًا من كلام سيد ولد آدم تذكرت كلمة صاحبه ضماد الذي سمع منه ﷺ كلمات بعدما فارقه زمانًا وجاء مكة بعد البعثة وذهب إلى صاحبه القديم لأن قريشًا قالوا له يجيئه رئي من الجن وكان ضماد يداوى من هذا الرئى ، فلما ذهب إلى رسول الله ﷺ لم يقرأ عليه رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن وإنما حمد الله وأثنى عليه واستفتح بما كان يَسْتفتح به صلوات الله وسلامه عليه فقال له ضماد أعد عليّ كلماتك هذه فأعادها عليه السلام فمد ضماد يده وبايع رسول الله ﷺ وقال كلماتك هذه

بلغت ناعوس البحر ، أو قاموس البحر والمراد بلغن لجة البحر والمراد أيضًا أنها مما يتناقلها الناس لصدقها وثرائها ونفعها ولم يكن العرب يركبون البحر فكان بلوغها ناعوس البحر هو نهاية صيرورتها وشيوعها ، وكل كلامه عليه السلام يبلغ ناعوس البحر ، ولا أستطيع أن أدفع الشبه بين كلمة (ناعوس) وكلمة (ناموس) التي قالها ورقة لما سمع من رسول الله ﷺ وقال له هذا هو الناموس الذي أنزل الله على موسى ، وما أشبه ورقة بضماد وما أشبه الناموس بالناعوس وما فتئ الناموس أن سكن في قلب كل ناعوس.

وهذا الحديث يشبه حديث «ألا كلكم راع» وموصول به لأن حديث كلكم راع تكليف ومسؤولية عن هذا التكليف وحديث المقسطين ثواب مَن استرعى رعية فأحسن رعايتها وليس الراعي هو الوالي فحسب وليست الرعية هي الناس وإنما الراعي هو كل من كُلِّف برعاية شأن من شؤون الناس ابتداء بالأمير وانتهاء بالعبد الذي استرعاه سيده على ماله ، والذين على منابر من نور كل من استرعى فأحسن ابتداء من الحاكم الذي يحكم وانتهاء بمن ولى أي أمر للناس فيه مصلحة ، وإذا كان كلكم راع تكاليف وكانت منابر النور مثوبة من استرعى فأحسن ، فالحديث الآتي بعد ذلك مُتَمِّم للصورة لأنه عقوبة من استرعى فأساء وصدقني أنني لم أقصد إلى هذا الترتيب وإنما وجدته بين يدي وأنا أعد أوراقي الأخيرة للطباعة فوقع في نفسي أنه من الخير أن نرتب كلام المصطفى ترتيبًا يراعي هذا الوجه ثم إن هذا الحديث يشبه حديث كلكم راع من وجه آخر ، هذا الوجه الآخر جاء في آخر هذا الحديث شرحًا للمقسطين وهم «الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولُوا» ووَلُوا بفتح الواو وهذه الجملة من الكلمات التي تبلغ ناعوس البحر لأنها لم تدع قدم عاقل يمشي على الأرض وعدل فيما هو

موكل به إلا جعلته على منبر من منابر النور وأول ما يبلغ ناعوس البحر من هذه الجملة هو آخرها قوله (وما ولوا) لأنها تضم بين واوها ولامها كل من ولى أمرًا ابتداء من الوالي وانتهاء بعامل النظافة الذي ولي أمر نظاقه هذا الشارع ، وهذا هو الشبه الذي بين الحديث وحديث كلكم راع ، وأنا من المولعين بمثل هذه الأحاديث التي تحرك كل إنسان حيّ في هذه الأمة وتقترب منه بالتكليف والمساءلة ثم الثواب العظيم ثم العقاب الشديد لأن هذا يَعْني تحريك كل خلايا المجتمع وكل شرايينه وكل عَصَبٍ حيّ فيه ودعوتهم نحو الصلاح والإصلاح والإحسان والإتقان ولا أعرف طريقًا لنهوض الأمم أبر وأخصر من هذا الطريق ، ولذلك أقول دائمًا إن إحياء السنة ليس في محاربة البدعة فحسب وإنما هذا وإن كان صوابًا فهو اختزال شديد ومُخل لإحياء السنة وإنما إحياء السنة يعني معنى أوسع ويعني أُفُقًا أوْسع لأنه يعني نهضة شاملة في كل ميدان من ميادين الحياة ويعني القوة التي ترهب عدو الله وعدو الأمة وليس من إحياء السنة في شيء أن تزعم أنك تحيي السنة وأنت مستظل ومحميّ بقوة أعداء الله وأعداء رسوله ، وليس من إحياء السنة في شيء أن تكذب على الأمة وتسميها قوة صديقة وليس من إحياء السنة في شيء أن تدفع قناطير المال المقنطرة لتقتل فصيلاً من شعب هو منك وأنت منه ، وإذا استخرجت من كلامي هذا حرفًا واحدًا لا يدخل في صلب معاني كلام رسول الله ﷺ فاطرح كتابي ولا تقرؤه ، وحسبي منك أن يستغفر الله لي .

قال القرطبي : (المقسطون جمع مُقْسط اسم فاعل من أقسط أي عدل ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ وقسط جار واسم الفاعل منه قاسط ومنه ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ وقد فسّر المقسطين

في آخر الحديث فقال الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم «وما ولوا»
انتهى كلام القرطبي ، وأنبه إلى معنى مخبوء فيه وهو أن تفسير المقسطين بالعدول فيه إشارة دعت إلى التعبير عنهم بالمقسطين ثم تفسيرهم بالعدول لأنه كان يمكن أن يعبّر عنهم بالعدول من أول الأمر وأن يقال إن العادلين على منابر من نور يوم القيامة ، وإنما آثر المقسطين لأن كلمة أقسط بمعنى عدل الهمزة فيها دخلت على قسط بمعنى جار فأزالت منها معنى الجور وهذه هي همزة الإزالة فالعدل هنا من فقه معناه ليس إقامة العدل فحسب وإنما أيضًا إزالة الظلم ومطاردته وغسل الحياة منه كما أن الهمزة غسلت كلمة قسط من معنى الجور فأنت من العدول حين تعدل فيما أسند إليك ، وأنت من المقسطين حين تتجاوز ذلك وتَخْسِف الظلم وأهله وإذا كان الحق يظلك تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله لأنك قلت كلمة الحق للسلطان الجائر فإنه سبحانه يظلك تحت ظل ما بمقدار بلائك حين تقول كلمة الحق لمن هو دون السلطان الجائر .

والمنابر جمع منبر وهو ما ارتفع من الأرض من قولهم نبر وانتبر إذا ارتفع . والواقع الذي نعيشه لم نعرف فيه منابر من نور لأن النور مهما زاد وجاء نور على نور لا يكوّن منبرًا يرقى عليه أحد ، وإذا أخذنا بظاهر الحديث وهو الأولى قلنا إن الغائب الذي هو شأن الآخرة لا يقاس على الشاهد الذي ألفناه في الدنيا ولك أن تقول إن هذا من المجاز والمقصود ليس ظاهر اللفظ وإنما المقصود المنزلة الرفيعة والمقام المحمود لهؤلاء المقسطين الذين أزاحوا الظلم الذي هو من الظلمات وكان من ثوابهم أن يكونوا على منابر النور وإذا كان الظلم ظلاما فالعدل ضياء وأن من أزال ظلمة الظلم عن شبر من الأرض أعطاه الله منبرًا من النور عن يمينه سبحانه ،

وفهم المجاز هنا يحتاج إلى فطنة لأن الذي ذكر في الكلام الشريف هو هيئة منابر النور والمقسطون عليها والمقصود هو بيان أن لهم عند الله منزلة رفيعة وهذا يعني أن الهيئة المذكورة المكونة من منابر النور والمقسطون عليها هيئة مصورة للمنزلة الرفيعة ، ووجه الشبه هو الظهور الساطع والبيان القاطع عن هذه المنزلة ، ولك أن تلجأ إلى الكناية التي لاتستوجب تشبيها وتكتفي بدلالات اللزوم لأنه يلزم من منابر النور علو المنزلة وبليغ الإكرام .

قال النووي : (قال القاضي يحتمل أن يكون على منابر حقيقة على ظاهر الحديث ويحتمل أن يكون كناية عن المنازل الرفيعة قلت الظاهر الأول ويكون متضمنًا للمنازل الرفيعة فهم على منابر حقيقة ومنازلهم رفيعة)، انتهى كلام النووي ، وقوله عليه السلام «عن يمين الرحمن عز وجل» كلمة «يمين الرحمن» مثل كلمة «وكلتا يديه يمين» ومثلها في كلام الله قوله تعالى ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ وقوله سبحانه ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴾ ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ ، «وبين إصبعين من أصابع الرحمن» «والحجر يمين الله في الأرض»، إلى آخره ويذكر العلماء معها دائمًا قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ وأنه سبحانه منزه عن مشابهة الحوادث ، وأنه سبحانه ليس له يد كأيدينا وليس له وجه كوجوهنا ولا يمين كيميننا إلى آخره ، وهذا لا خلاف فيه ليس لأنه إجماع وإنما لأنه صريح آية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ ، ثم يأتي الخلاف بعد ذلك وهو على وجهين وجه يقول نؤمن به كما جاء ونعتقد نفي الشبه والمثل ثم نفوض المراد به إلى الله ولا نحاول أن نؤول ونقول المراد باليد كذا والمراد بالوجه كذا لأن هذا التأويل حديث عن الله وليس لدينا الدليل القاطع على صحته ، والسلامة في أن نَنْفِي الدلالة الظاهرة ونفوض علم المراد بها إليه ، وهذا مذهب السلف وهو أسْلم وقال به كثير

من المتأخرين وكثير من المتكلمين ، ووجه آخر قال به كثير من كرام علماء الأمة رضوان الله عليهم وهو أن نؤول في ضوء استعمال اللسان العربي الذي خاطبنا الله به . وفيه المجاز وفيه الحقيقة فاليمين في كلام العرب يأتي ولا يراد به الجارحة وإنما يراد به العناية والاهتمام كما يقول الشماخ :

رأيت عرابة الأوسيّ يَسْمُو ... إلى الخيرات منقطع النظير

إذا ما رايةٌ رُفعت لمجد ... تلقاها عرابةُ باليمين

فاليمين هنا لا تعني الجارحة لأن راية المجد ليست راية حسيّة وإنما تعني تلقاها عرابة بالحفاوة والاحتشاد ، ووفرة النفس والنشاط ويقولون أخذه بيمينه أي جعله موضع عنايته ، وفلان مِلْحُه في يمينه يريدون موضع الحفظ . وملحه في شماله يعني أنه يُضَيِّعُ ما استحفظ عليه ومثل هذا كثير في مجازات اللغة ويرون أن هذه المحاولات التي تقصد إلى التنزيه وتبحث عن مراد الكلمة هي الأشبه بالحق ومعرفة المراد منها لأن الله خاطب عباده بما يعلمون ورأوا أن هذا أولى من القول بأن لها معنى يليق به سبحانه ، وهو أعلم بهذا المعنى كما يقول السلف وهو حق ، واجتهد الخلف في أن يتعرفوا على المعنى الذي يليق به سبحانه في ضوء العلم باللغة وطرائق دلالتها ، وهذا حق أيضًا وأكرر أن كرام علماء الأمة قال كل منهم بما يراه صوابًا ولك أن تأخذ بأحد القولين وعليك أن تحمي لسانك من القدح في القائلين بخلاف ما تختار ، أما أنا فقد بقيت زمانًا في أول اشتغالي بهذا العلم أقول بما قال به الخلف وأصرف الكلام عن الحقيقة إلى المجاز في هذه الآيات وأغراني بهذا قول بعض الخلف إنهم بادروا إلى التأويل حتى لا تعرض خطرات التشبيه إلى نفوس الجُهَّال ، وأنا الآن أكف يدي عن التأويل وأفوض العلم بالمراد إلى الله واستقر في نفسي أنه مما لا يعلم تأويله إلا الله

ولا أُخطِّئ من أوّل لأن يقيني أنه مجتهد في التنزيه واللغة تساعده ورحمة الله أوسع من أن تضيق بهم وهم جميعًا من أهل العلم وأهل التقوى وأهل النظر في كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

قال النووي : (أما قوله ﷺ «عن يمين الرحمن» فهو من أحاديث الصفات وقد سبق في أول هذا الشرح بيان اختلاف العلماء فيها وأن منهم من قال نؤمن بها ولا نتكلم في تأويله ولا نعرف معناه لكن نعتقد أن ظاهرها غير مراد وأن لها معنى يليق بالله تعالى ، وهذا مذهب جماهير السلف وطوائف من المتكلمين ، والثاني أنها تؤول على ما يليق بها وهذا قول أكثر المتكلمين وعلى هذا قال القاضي عياض رضي الله عنه المراد بكونهم عن اليمين الحالة الحسنة والمنزلة الرفيعة قال : قال ابن عرفة يقال آتاه عن يمينه إذا جاءه من الجهة المحمودة ، والعرب تنسب الفعل المحمود والإحسان إلى اليمين ، وضِدُّه إلى اليسار ، قالوا اليمين مأخوذة من اليُمن وأما قوله ﷺ (وكلتا يديه يمين) فتنبيه على أنه ليس المراد باليمين الجارحة تعالى الله عن ذلك فإنها مستحيلة في حقه سبحانه وتعالى). انتهى كلام النووي ، قلت إن الذين ذهبوا إلى التأويل كرام وكبار الأئمة وناهيك عن القاضي عياض وابن عرفة والنووي والبخاري والطيبي والسهيلي .

وأنقل لك نصًّا آخر في هذا المعنى قاله القرطبي وهو إمام لا يقدح في إمامته إلا من لا يعرف العلم وأهله ، قال رحمه الله «قد شهد العقل والنقل أن الله تعالى مُنَزَّهٌ عن مماثلة الأجسام وعن الجوارح المركبة من الأعصاب والعظام . وما جاء في الشريعة مما يوهم شيئًا من ذلك فهو توسع واستعارة حسب عادات مخاطبتهم الجارية على ذلك وقد توسعت العرب في اليمين

فأطلقوه ولا يريدون به يمين الجارحة بل الجهة المحمودة ، والظفر بالخصلة الشريفة كما قال شاعرهم :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

والمجد والشرف والراية عبارة عما يظهر من خصاله وهما معنويان ، فاليمين التي تُتلقى بها تلك الراية معنوية لا محسوسة . فأشبه ما يُحمل عليه اليمين في هذا الحديث ما قاله ابن عرفة عبارة عن المنزلة الرفيعة والدرجة المنيعة » انتهى كلام القرطبي ، وقد أخذ عن ابن عرفة كما أخذ القاضي عياض ، وهم جميعًا يؤخذ عنهم العلم وإذا رأيت من يؤخذ عنه العلم قد أخذ عن عالم فاستمسك بهذا الذي أخذ عنه من يؤخذ عنه لأن هذه طبقات هي من أكرم نعم الله علينا ولك أن تختار كما قلت وعليك أن تَحْميَ لسانك فلا يرمي واحدًا من الكملة بحصاة لأنك إن فعلت فهي الشهادة له بأنه كامل .

وقد ذكرت ما ذكره النووي وغيره في بيان معنى قول سيدنا وسيد ساداتنا « وكلتا يديه يمين » وأن المراد التنبيه على أنه ليس المراد باليمين الجارحة ووجه الدلالة على هذا المعنى هو أنه لو كان المراد باليمين الجارحة لكان من المحال أن تكون كلتا يديه يمينًا لأن اليمين الجارحة تقابلها الشمال ، وهذا الذي قالوه جيد ، ومن الجيد أيضًا أن يكون قوله عليه السلام وكلتا يديه يمين من التسبيح والتنزيه الذي يعقب قول أهل التشبيه مثل قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ﴾ جاءت كلمة سبحانه في عقب قولهم للمبادرة بالتنزيه ومن هذا أن أقول مثلاً له يد ليست كأيدينا سبحانه لأن قولي له يد ليست كأيدينا وإن كان اعتقادًا صحيحًا وعليه السلف الذين هم أول من تلقى كلام الله واعتقده أقول قولي له يد يحتاج مني إلى مبادرة

بالتنزيه ونفي المماثلة ، وكذلك لما قال عليه السلام عن يمين الرحمن احتـاج إلى المبـادرة بالتنزيـه ونـفـي المماثلة فـقـال وكلتا يديه يمين وأنا لا أتحدث عن مراد سيدنا رسول الله ﷺ وهو يحدثنا عن الرحمن جل وتقدس وإنما أتحدث عن الذي أفهمه من العبارة وقد أخطئ في هذا وأصيب ، وشيء آخر في هذه الجملة وهو أن لسان الناس جرى عن أن جهة اليمين هي جهة المدح وجهة اليسار ليست جهة القدح وإنما ليس فيها الثناء الذي في اليمين فبادرت العبارة بنفي ما يتوهم من كلمة عن يمين الرحمن فقد يتوهم أنهم في جهة اليُمن والثناء من جهات الرحمن وجل سبحانه عن الجهة وأن هناك من هم في الجهة التي هي دون ذلك فبادرت العبارة بنفي التوهم ، وظني أن مثل هذا في كلام رسول الله ﷺ هو الذي ألهم العالم الفذ عبد القاهر الجرجاني قوله إنه اختار التأويل في آيات الصفات للمبادرة بدفع خطرات التشبيه التي يمكن أن تقع في نفوس العامة لأن سيدنا رسول الله ﷺ بادر بقوله وكلتا يديه يمين حتى لا تخطر خطرات الشمال في نفوس العامة ، وقد وقع أهل زماننا من الطيبين الصالحين في الولع بمصطلح الإسلام الوسطى وقد قلت لمن أشاعوا هذا المصطلح إن فيه طعنا على الإسلام لأنه يعني أن المحمود من الإسلام هو الإسلام الوسطى وأن غير الوسطى من الإسلام ليس محمودًا ، وهذا طعن في دين الله فأجابوا بأنهم يؤيدون الفكر الإسلامي الوسطي فقلت لهم لماذا لا تقولون الفكر الإسلامي الوسطي ولو فطنوا لما في قوله عليه السلام وكلتا يديه يمين لقالوا الإسلام الوسطي وكله وسطي حتى يبادروا إلى نفي ما يتوهم ، هذا والله أعلم . ويلاحظ أنه عليه السلام قال إن المقسطين عند الله ثم قال عن يمين الرحمن . فلماذا ذكر لفظ الجلالة أولاً ثم ذكر الرحمن ثانيًا ، ولم يقل عن يمين الله كما قال عند الله

أو يقول عند الرحمن كما قال عن يمين الرحمن ؟ ولم أجد أحدًا يؤخذ عنه العلم أشار إلى هذا والذي أراه أنه ذكر لفظ الجلالة مع ذكر المقسطين لأنه هو الذي يعلم بحقيقة عمل المقسطين وما انعقدت عليه نياتهم وأن هذا القسط بكسر القاف الذي هو العدل مما يقبله الله لأنه كان لله سبحانه أو مما لا يُقْبل . فقد يعدل الرجل عَدْلاً يشكر عليه في الدنيا وليس له عند الله شيء لأن الله لا يقبل إلا عملاً كان له سبحانه ، والاسم المناسب للعلم بما تَخْفَي الصدور هو لفظ الجلالة ، أما لفظ الرحمن في قوله عن يمين الرحمن فهو الأنسب لأنهم في يمين الرحمة وفي مقام الرحمة وليس في مقام العدل لأنهم في هذه اليمين في فيض الرحمة ، هذا والله أعلم .

وأصل هذا الحديث والمقصود منه في الجملة الأولى التي تنتهي عند هذه الجملة الحالية الملحقة بالجملة قبلها « وكلتا يديه يمين » وأصل الكلام إن المقسطين على منابر من نور فاعترضت كلمة عند الله بين اسم إن وخبرها والعندية عندية تقريب وتكريم ورضى ، ولهذا المعنى الجليل الذي تدل عليه كلمة « عند الله » ساغ الاعتراض بها والجار والمجرور في قوله (عن يمين الرحمن) جاء ليشير إلى المنزلة الرفيعة لمنابر النور هذه وأنها عند الرحمن في مكان التكريم والعزة وكلمة (وكلتا يديه يمين) أفرزتها وولدتها كلمة (يمين الرحمن) وهذه هي الجملة الأصلية التي يقوم هذا الحديث عليها وهذه مكوناتها والدواعي التي أنتجت هذه المكونات . والجملة الثانية في الحديث وهي قوله عليه السلام « الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا » بيان للمقسطين الذين هذا شأنهم عند الله والبيان الذي فيها بعد الإبهام الذي تضمنته كلمة (المقسطين) من شأنه أن يَفْخُم به الكلام ويَنْبُل لأن الإبهام يثير في النفس الرغبة لمعرفة حقيقته فالذي يقرأ الجملة الأولى

تَسْتَشْرِفُ نفسه لمعرفة من هم هؤلاء المقسطون الذين لهم عند الله هذا المكان المكين . وفي أي شيء يكون القسط المفضي إلى هذا الفيض من الرحمة عن يمين الرحمن ، وهذا الطريق في البيان تقدم كثيرًا في كلام رسول الله ﷺ وله صور مختلفة وهذا الذي نحن فيه صورة من صوره ، وقلت كثيرًا إن هذا من تمام البلاغ الذي هيأ الله إليه بلاغة نبيه حتى لا يكون لأحد على الله حجة ، والوقفة عند هذه الجملة التي فسَّرت وبيّنت الجملة الأولى هي الوقفة المطلوبة في الحديث لأن هذه الجملة تشرح لنا العمل والسلوك الذي يفتح لنا باب هذا التكريم وناهيك عن أن تكون عن يمين الرحمن على منبر من نور ، وهنا يبدأ العقل المؤمن بهذا الحق يتلمس المعاني التي في هذه الجملة فيبدأ عليه السلام بالذين يعدلون في حكمهم ، ولا بد أن تذكر أن الاسم الموصول نكرة وأن الصلة هي التي تُعرِّفه وأنها لا تعرفه إلا إذا كانت معروفة وقصة معلومة ، وهذا يعني أن العدل في الحكم معروف متعالم في الناس ، فإذا وصف به جماعة مجهولة صارت به جماعة معروفة متعالمة مشهورة عند الناس وهذا ينتهي بنا إلى أن الذين يعدلون في حكمهم كوكبة في الناس ككواكب السماء لا تغيب إلا عن الأعمى ، لأنهم عرفوا بالحق وبالعدل وبنبذ الجَوْر ونبذ الظلم ، وهذا هو المعنى الذي تَرْشَحُ به الصلة في قوله عليه السلام الذين يعدلون في حكمهم ، واحذر أن تختزل هذا في الأمير أو الحاكم أو القاضي وإن كان هؤلاء من أهم الداخلين في دلالة الاسم الموصول ، وهذه الدلالة شاملة لكل من يعدل في كل حكم كبيرًا كان أو صغيرًا كان هذا الحاكم أميرًا كان أو خفيرًا ، الكل فيه سواء ترى الأمير الذي عدل في حكمه على منبر نور عن يمين الرحمن وبجانبه هذا الخفير الذي عدل في حكمه وهو على منبر كمنبره ومنبره عن يمين الرحمن وهذا

هو الفقه الحقيقي لبث العدل في طوايا حياة الناس من رأسها عند الأمير إلى قدمها عند أصغر من تولى أمرًا هو أصغر الأمور وعدل فيه فارتفع صِغَرُه إلى مقام الأمير وارتفع قدر عمله إلى قدر عمل الأمير لأن المطلوب أن يسكن العدل في القلب وأن يوجه حركة الإنسان مع صرف النظر عن مكانة الإنسان ومع صرف النظر عن مكانة العمل ، المهم أن هنا قَلْبَيْن سكن العدل فيهما سكونًا واحدًا فكان الثواب ثوابًا واحدًا وهذه هي عظمة بناء الإنسان ومقام الإنسان وهذا هو معنى أن الناس سواسية كأسنان المشط . وقوله عليه السلام « وأهليهم وما وَلُوا » لا شك في أنه داخل في الذين عدلوا في حكمهم وإنما ذكر من باب ذكر الخاص بعد العام وتلاحظ أن الحديث مع إيجازه الشديد جاء فيه البيان بعد الإبهام وجاء فيه ذكر الخاص بعد العام وهي من عائلة واحدة وكله يفيد تأكيد المعاني وتقريرها ثم فيه أيضًا استواء المعاني وتقويمها وكل هذا صادر عن مصدره من نفس سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه ، واستواؤه من استوائها ووضوحه من وضوحها وجلاله من جلالها .

وقوله عليه السلام « وأهليهم » المعنى الذين يعدلون في أهليهم وهو داخل في الذي قبله لأن الذي لا يعدل في أهله لا يكون عادلاً في حكمه وإنما ذكر عليه السلام الأهل لأنهم مظنة الغفلة عن العدل بينهم فقد يكون منهم المحسن وغير المحسن ، والمحسنون منهم درجات وغير المحسنين كذلك وقد يتبع المسؤول عنهم هواه فيكرم كُلاًّ على وفق درجته في الإحسان وهذا خلاف العدل ، وقد يوصي للبعض ويخصه وهذا من الجَوْر وهذا ظاهر ، وقوله عليه السلام « وما وَلوا » يوشك أن يكون جامعًا للذين يعدلون في أحكامهم وأهليهم وأن يكون فاصلة شاملة للمقسطين وكلمة

«وما وكوا» تفيد أن المراد بالعدل هنا ليس هو الحكم فقط وإنما تعني وضع الشيء في موضعه وإحسانه وإتقانه ومراقبة الحق في أمره كله وكل عامل في الدولة وغير الدولة له ولاية من أكبر رأس إلى أصغر رأس على ما جاء في قوله عليه السلام «كلكم راع» ابتداء من رأس الدولة إلى أصغر عامل في النظافة فعامل النظافة هذا وَلِي نظافة هذا الشارع والعدل أن يقوم بذلك على الوجه الأفضل والجور ألا يقوم بذلك وإذا وجدت ذلك خارجًا عن دلالة الحديث فقل لي لماذا قال عليه السلام (وما ولوا) وهل يخرج عامل النظافة من هذه الولاية ؟ وهل يخرج الموظف الصغير من هذه الولاية ؟ ، أليس لكل عمل قانون يحاسب العامل فيه أصاب أم أخطأ وهل يكون الحساب والصواب والخطأ مؤسسًا على غير ولاية ؟ النووي فسر هذا بقوله: (معناه أن هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده من خلافة أو إمارة أو قضاء أوحسبة أو نظر على يتيم أو صدقة أو وقف وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك ، والله أعلم) انتهى كلام النووي ، وذكر الذي ذكره على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر بدليل قوله (أو نحو ذلك) وقد تغيّرت بعد المسميات فلم تعد هناك خلافة ولا إمارة وإنما هناك رياسة وحكومة والمقصود ليس الوظائف بأعيانها وإنما المقصود العدل الذي هو وضع الشيء في موضعه بعلم وفهم وخبره وتجرد لأن العدل الذي هو الحكم في القضاء لا يدخل في الحسبة ولا في ولاية اليتيم ولا في عامل الصدقة ولا في عامل الوقف وإنما العدل في ذلك كله هو إحقاق الحق والفهم والقدرة العالية على معرفة ما يصلح به هذا الشأن ثم العمل الجاد على إصلاحه ، ولا أظن أني خرجت قيد نملة عن دلالة كلام المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وإذا قلت إن أصغر من ولى أمرًا وعدل فيه سيكون

على منبر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين مع الخليفة العادل وقد أشرت إلى ذلك وإلى أن المقصود أن يسكن العدل والحق وإعطاء كل شيء حقه من الفهم والإحسان والإتقان ، وأختم هذا بالقول بأنه عليك أن تتصور الأثر البالغ في حياة الناس إذا قامت فيهم هذه السنة وأن إحياءها يعني إحياءهم وإهمالها يعني إهمالهم وأن تدعو المولعين بإبعاد الدين عن سياسة الناس أن يفهموا هذه الأحاديث التي لا تزيد عن سطور معدودة وأن يقرؤوها بوعي ثم يراجعوا أنفسهم وهذا حسبي . والله أعلم . ولو علم المسؤول صغيرًا كان أو كبيرًا أنه لو أدى ما عليه أداء حسنًا لكان له منبر من نور على يمين الرحمن لاستقام كل مسؤول إلا من أبى هذا شيء . وشيء آخر هو أن هذه المنابر لهم زيادة عن أن لهم كل ما لأصحاب الجنة مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ثم لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم هم خالدون في هذا النعيم مع خير البرية وأنا أعجب من قيمة إتقان العمل ووضع الشيء في موضعه كيف يكون له عند الله هذا الجزاء وماذا يكون عند الله للعلماء العاملين والمجاهدين والمرابطين ؟ أفهم من هذا أن النعيم الذي عند الله والذي لا يخطر على قلب بشر إنما هو للذين يملؤون الدنيا بالعمل الجاد والإتقان والإحسان والذين يملؤونها بالرخاء وبالبر وبالعدل وبالرحمة ، وأنه ليس لأحد في الآخرة خير إذا لم يزرع في هذه الدنيا خيرًا ، فالخير في هذه الدنيا والجنة في هذه الدنيا والرضوان في هذه الدنيا والذي لهم عند الله أضعاف هذا ومن زرع في هذه الدنيا حسنة أعطاه الله عشرة أمثالها إلى مائة ضعف ثم يزيد من يشاء وأقول أيضًا إن النار في هذه الدنيا والجحيم في هذه الدنيا لأن كل ذلك عند الله لمن يزرع فيها شرًا وظلمًا وسلبًا ونَهبًا وقَمْعًا » .

«من وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فشق عليها» .

روى مسلم بسنده عن عبد الرحمن بن شُماسَةَ قال : أتيتُ عائشة أسألها عن شيء . فقالت فمن أنت ؟ فقلت رجل من أهل مصر . فقالت كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه ؟ فقال : ما نَقِمْنا منه شيئًا . إن كان ليموت للرجل مِنَّا البعيرُ فيعطيه البعيرَ والعبد فيعطيه العبد . ويحتاج إلى النفقة فيعطيه النفقة فقالت : أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعتُ من رسول الله ﷺ ، يقول في بيتي هذا : «اللهم من وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشْقُقْ عليه . ومن ولى من أمر أمتي شيئًا فرَفَق بهم فارفُقْ به» .

هذا الحديث عامر بالمعاني الجليلة والتي يتعيَّن علينا أن نُنَبِّه الأُمَّة إليها وهذه المعاني ليست في متن كلام رسول الله ﷺ وإنما في سياق الخبر وأولها أن عبد الرحمن بن شُماسة ذهب إلى أم المؤمنين يسألها وقد كان واحدًا في جيش معاوية الذي حارب محمد بن أبي بكر والي مصر من جهة عليّ وقتله ، ولم يَمْنَعْه أنه واحد في الجيش الذي كسر أخاها وقتله من أن يذهب إليها ليسألها ، وهذه جيدة جدًّا لأنها تُفرّق بين الأحداث ولا تجعل حدثًا يطغى على غيره ، وهناك فرق بين أن أُقَاتل أخاها في ولايته وأُشارك في الجيش الذي قتله وأن أسألها عن شيء في دين الله هي مظنة أن تكون سمعته من رسول الله ﷺ ، والواجب عليّ أن أسألها والواجب عليها أن تجيب ولا يجوز أن يطغى باب الخلاف السياسي الذي كان ضحيته أخاها على معرفة أمر من أمور الدين ، لأن هذه المعرفة بابها مفتوح أبدًا ويصل هذا إلى واقعنا في الأزهر ويقول لنا لا يجوز أن يصرف عن الباب طالب

علم جاء من بلد ساءت علاقتنا بها ، هذه العلاقات السياسية والتجارية وغيرها شيء وتعليم أبناء المسلمين علم الإسلام شيء آخر ، ثم إن أمَّ المؤمنين رضوان الله عليها وهي موجوعة القلب على محمد أخيها لم يَمْنَعْها ذلك أن تُحدِّث بحديث سمعته من رسول الله ﷺ يفتح معناه باب البشارة لقائد هذه الغزوة التي قتلت أخاها لأن قتل أخيها شيء ورفق هذا القائد بجنده ومشاركته لهم شيء آخر ، وهذا معنى لو تدبرته لوجدت فيه قلبًا كبيرًا جدًّا ووعيًا عظيمًا جدًّا لأم المؤمنين رضوان الله عليها ، وإلى أي مدى كانت تنحِّي ما تجده في صدرها عند حكمها على فعل قاتل أخيها ، هذا شيء من خصوصيات هذا الحديث ، وشيء آخر وهو أن هذا الحديث موصول بالخلاف الذي كان بين علي كرم الله وجهه ومعاوية رضي الله عنه ، وأنا لا أحب الخوض في هذا الخلاف لأنه خلاف بين من حدّثنا رسول الله ﷺ عنهم وقال لنا هم كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وأمرنا بحبهم وجعل حُبَّنا لهم من حبنا له ومن أذاهم فقد أذى رسول الله ﷺ ، وناهيك عن هذه وقد أجمع أهل السنة على أن أصحاب رسول الله ﷺ جميعًا عدول أمناء لا تُرَدُّ لهم شهادة ولا ترد لهم أمانة وقد كان من كرام أصحاب رسول الله ﷺ رجال في جيش علي ورجال وجيش معاوية ، والذي أعتقده أن كل واحد منهم كان معتقدًا أنه يدافع عن الحق وعن خير هذه الأمة وأنه ما حمل سيفه وخرج إلا لهذا ، وكان من أولاد أبي بكر من هو في جيش معاوية مثل عبد الرحمن بن أبي بكر ومن هو في جيش على مثل محمد بن أبي بكر ولما أوصى معاوية لولده يزيد غضب عبد الرحمن ووصف ما فعله معاوية بأنه هرقلية وغضب عليه بنو أمية وأرادوا تشويهه كما يفعل إعلامنا لمن يخالف سادتهم ، وقالوا إن عبد الرحمن هو الذي

نزل فيه قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى ﴾ وغضبت عائشة وضَحَدَتْ هذه الفرية وردت بما آلمهم ولجأ عبد الرحمن إلى بيتها يحتمي به إلى آخره ، وأقول كل هذا يجعل الذين يقولون إن أم المؤمنين وقفت مع معاوية ضد علي يراجعون أنفسهم وهذا علمني أمرًا مهمًّا جدًّا وهو أنه ليس من البعيد أن ترى مختلفين يشتد الخلاف بينهما حتى يحكم فيه السيف وهما معًا على الحق وإنما رأى كل منهم الحق من جهة وهذا غير بعيد لأني لا زلت أرى رجالاً صادقين لا أشك في صدقهم يختلفون في قضية واحدة لكل منهم وجه فيها فالخلاف ليس دائمًا خلافًا بين حق وباطل وإنما قد يكون بين حق وحق ، وهذه جيدة جدًّا يمكن أن ترأب صدوعًا كثيرة في حيواتنا السياسية ، وغيرها .

ولم تكن المسافة بين علي ومعاوية مسافة بعيدة لأنهما معًا من ولد عبد مناف بن قصيّ وكانوا هم وبنو عمهم من بني نوفل وبني المطلب عزّ قريش التي كانت عزّ العرب ، وقد جبّ الإسلام ما قبله ـ وكل الذين دخلوا في دين الله سبق منهم حرب شديدة لدين الله إلا القليل جدًّا كأبي بكر وعثمان وعلي وناهيك عن شدة عمر في حربه لدين الله ، وكل هذا كان في وعي الأصحاب وإذا كان أبو سفيان وولده وقومه حاربوا دين الله أشد ما تكون الحرب فهم هم الذين حاربوا أعداء الله أشد ما تكون الحرب وأكثر الفتوحات كانت في زمن بني أمية .

وأنا الآن أذكر حديثًا رواه مسلم بسنده عن عبد الرحمن بن شماسة الذي قاتل مع معاوية وقاتل في الجيش الذي قتل محمد بن أبي بكر وكل ذلك لم ينقص من تعديله مثقال ذرة ومثل ذلك يقال في كل الأصحاب ويعلم الله ورسوله أنهم هم الذين بلغوا عن رسول الله المبلغ عن ربه فهم رسل

رسول الله إلى الأجيال من بعدهم ولذلك عصمهم الله من الجرح الذي يُرَدُّ به خبرهم ، قال عبد الرحمن «أتيت عائشة أسألها عن شيء» ليس في الحديث ما يدل على هذا الشيء الذي جاء يسأل عنه لأن الذي بعد ذلك كانت عائشة هي السائلة وكان عبد الرحمن يجيب ، والحديث الذي روته عن رسول الله ﷺ لم يكن هو الذي جاء يسأل عنه وإنما قالته عائشة لما سمعت رفق صاحبهم لهم ، وكأنها تبشره بدعوة رسول الله ﷺ له جزاء رفقه بمن ولى . وقوله (أسألها عن شيء) جملة حالية ولها دلالة لا تجدها لو قال أتيت عائشة لأسألها لأن هذه الحال فيها معنى أنه أتاها رضوان الله عليها حالة كونه يسألها وأن السؤال كان حالة من ساعة أن تحرّك ليأتي إليها كما تقول جاءك يستغيث وكأنه كان يستغيث وهو في الطريق إليك وقبل أن يصل إليك .

قوله : فقالت «ممن أنت» هذه الجملة في غاية الإيجاز وكلمة أنت مبتدأ والجار والمجرور خبر قدم لأن الاستفهام له الصدارة ولأن معرفة من أي الناس هو ؛ هي المقصود الأول ، وليس هناك أوجز في بيان هذا المعنى من هذا اللفظ وكلمة (مِن مَنْ) أعني دخول حرف الجر على كلمة من التي يسأل بها عن العاقل من الكلام الذي يخطف المعنى خطفًا سريعًا .

وقول عبد الرحمن في الجواب «رجل من أهل مصر» بنى هذا الجواب على عكس ما بني عليه السؤال ، لأنه ذكر ألفاظًا كان يمكن الاستغناء عنها لأنه كان يمكن أن يقول من مصر ويستغنى عن كلمة أهل ، وكلمة رجل وهذا مقام يوجز فيه السائل ويُطيل فيه المجيب وما كان يجوز لابن شُماسة أن يوجز في جواب أُمّنا كما أوجزت في سؤاله ، وإشباع الكلام من الأدب حين تخاطب من هو أرفع منك مقامًا .

وقوله : فقالت كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه ؟ الفاء التي في قوله فقلت فقالت فقلت إلى آخره تفيد ترتيب قول على قول ، ولو سقطت الفاء لكانت جملاً مستأنفة تجيب عن تساؤل يجري في نفس السامع اليقظ ويقول ماذا قال ؟ وراجع سؤالها رضوان الله عليها كلمة كلمة لترى أنك لا تستطيع حذف كلمة كما استطعت ذلك في كلام عبد الرحمن رضي الله عنه . ثم إنك تذكر أنها تسأل عن حال قاتل أخيها وليس في كلامها حرف واحد يشير إلى غضبها وإنما سألت لتعرف حال الذي كان منه ما كان وكلمة «صاحبكم» تشير إلى أنهم يعرفونه كما يعرف الصاحب صاحبه . وكأن هنا لفتة خفية إلى اشتراك هذه الصحبة في قتل أخيها ، وقد اختلف في قتل محمد بن أبي بكر فقالوا قتل في المعركة ، وقالوا قتل بعد أسره ، واختلف أيضًا في الذي كان على هذا الجيش فقالوا عمرو بن العاص ، أرسله معاوية لقتال محمد بن أبي بكر ، وقيل هو معاوية بن خديج النجيبي قال العلامة الأُبيّ شارح مسلم يذكر معاوية هذا وأنه كان سيد نجيب ورأس اليمانية بمصر وهو الذي عَنَتْ عائشةُ بقولها هذا . انتهى كلام الأُبِّي ، ثم إن جملة أم المؤمنين رضوان الله عليها قيدت السؤال عن حال صاحبهم بقيدين القيد الأول قولها (لكم) فأفاد أنها تسأل عن حاله لهم ومعهم وليس في مطلق حاله وأنها لم تكن مشغولة بمعرفة شأنه إلا في هذا الشأن وهو كيف كان لكم ، والقيد الثاني قولها (في غزاتكم هذه) وبهذا تحدد السؤال ، ولا ريب أن أُمنا رضوان الله عليها حين قالت (غزاتكم هذه) كانت تسترجع ألمًا ووجعًا وفقدا ولكنها كانت تحبس ذلك كله وتريد فقط أن تعرف كيف كان لكم في غزاتكم .

قوله : فقال : ما نَقَمْنا منه شيئًا أول ما يلاحظ أن ابن شماسة في هذا

الجواب لفت والتفت لأنه نقل الكلام من المتكلم ابتداء من قوله أتيت عائشة وقوله فقلت إلى الغائب في قوله فقال وموطن الالتفات يحتاج منا إلى مراجعة لأنه يعني أن له شأنًا عند المتكلم هذا فضلاً عما فيه من الإيقاظ والتنبيه والشأن هنا في تقديري وأرجو أن يكون صوابًا هو أن سيدنا عبد الرحمن الراوي الأمين أدرك ما في سؤال أم المؤمنين من نقاء وابتعاد عما يشعر بالغمز أو العيب في هذا القائد وإن كان في قولها «غزاتكم هذه» أثر من ألم لأن هذه الغزاة قتل فيها محمد بن أبي بكر أخيها ، أقول أدرك ابن شماسة نقاء سؤال أم المؤمنين وحَيْدَتُه وعَدْلُه واعتداله فبدأ يجيب بأمانة شديدة ويذكر محاسن هذا القائد وأنه كان رفيقًا ومتعاونًا ومواسيًا لكل فرد في جيشه يصيبهُ أمر يكرهه وهو يعلم أنه سيذكر محاسن وفضائل قائد أصاب أم المؤمنين منه ما أصاب من ثُكل أخ عزيز وسيتبين ذلك في كلماته ، وشيء آخر في الانتقال إلى الغيبة في قوله (فقال) هو أنها تعني أنه جرّد من نفسه شخصا قال هذا القول ووراء ذلك اعتزازه الشديد بما سيقوله في صاحبهم وكأنه خامرته نشوة حين قال : «فقال» لأن شهادة الحق يطيب بها القلب والكلمة المتجردة لإحقاق الحق لا يعتزُّ أهل الله بشيء كاعتزازهم بها .

قوله «ما نقمنا منه شيئًا» هذه الجملة هي كل ما وصف به ابن شُماسة صاحبهم لأن الذي بعدها صور من عنايته واقترابه ومشاركته ورعايته لرجاله وكلمة «شيئًا» نكرة في سياق النفي والنكرة في سياق النفي تفيد العموم والتنكير يعني شيئًا أي شيء لم نجد منه شيئًا أي شيء يدعونا إلى النقمة عليه وسألت نفسي لماذا لم يقل ما كرهنا منه شيئًا ولماذا ؟ آثر النقمة هنا ؟ والكره أقل درجة من النقمة والنقمة منها الانتقام وهي الكره المشوب

بالغضب والغيظ والرغبة في المعاقبة . قلت لماذا آثر هذه الكلمة مع أن قوله ما كرهنا منه شيئًا أبين في أنهم لم يجدوا منه شيئًا يكرهونه ولم أقرأ في كلام من يؤخذ عنهم العلم ما أكتبه لك وليس أمامي إلا أن أكتب لك ما أراه وإن كنت ممن لا يؤخذ عنهم العلم ، والذي أراه هو أن السياق سياق حَنَقٍ وغيظ ونقمة لأن قتل محمد بن أبي بكر من شأنه أن يثير ذلك لمكانة والده الذي قال فيه رسول الله ﷺ « ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبي بكر إلا أن يكون نبيًا » ولاحظ أيضًا أن الذي قتله جيش ابن أبي سفيان الذي لم يحارب رسول الله ﷺ أحد كما حاربه أبو سفيان وإن كان الإسلام قد جبَّ كل ذلك ، هذا شيء والشيء الآخر هو أنه لا شك أن أُمَّنا رضوان الله عليها مغيظة وغاضبة على من قتل أخاها وكأن ابن شُماسة يقول لم نجد في هذا القائد ما ينقمنا عليه وإن كانت النقمة عليه قد يجدها غيرنا لسبب آخر ، وبهذا تكون كلمة ما نقمنا منه شيئًا أكثر ملاءمة في خطاب أُمِّنا في هذا الموقف ، قوله : « إن كان ليموت للرجل منا البعيرُ فيعطيه البعيرَ والعبدُ فيعطيه العبدَ ويحتاج إلى النفقةِ فيعطيه النفقة ».

هذه الثلاثة البعير والعبد والنفقة هي أهم ما يحتاج إليه الذين في غزاة ، وكان هذا الصاحب يسُدُّ الحاجة بسرعة إذا ظهرت لأي محارب في هذه الثلاثة .

ولغة ابن شماسة لغة فيها شيء زائد عن الذي قلت في بيان المعنى العام وذلك أنه بدأ بقوله « إن كان ليموت للرجل البعيرُ فيعطيه البعير » فبدأ بإن المخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف وضمير الشأن مخالف لقاعدة الضمائر كلها لأنها كلها تعود على ما قبلها فلا تشغل النفس كثيرًا في

معرفة مرجعها لأن الضمير معنى مبهم مجهول يفسره ما قبله وضمير الشأن يعود على ما بعده وليس على ذات ولا على فرد وإنما على جملة هي المفسرة له وحين يطرق القلب ولا يجد له مرجعًا في الذي مضى يتساءل القَلْب والعقل ويستيقظ والضمير يراوده ويناغشه فيستنفره وكل هذا ليس في لحظات وإنما هو في خطف أسرع من اللحظة وكأنه لا يَدْخُل في الزمن المعروف لأن للنفس مع اللغة زمنًا آخر له قياس آخر ، وقال العلماء إن ضمير الشأن لا يُؤتَى به إلا في كلام له عند قائله شأن وله خطر وله بال وهكذا كان الحال عند ابن شماسة وهو يخاطب أُمَّنا في شأن من قتل أخاها وقد سألته سؤالاً محدَّدًا وهو كيف كان صاحبكم لكم في غزاتكم هذه ، وهذا الصحابي الجليل لابد أن يقول الحقيقة من غير أن يكون فيها إشارة واحدة تخرج عن محض الحق والصواب ولا تنسى أنك في حوار بين صحابي جليل وأم المؤمنين الصِّديقة بنت الصديق وأن في خَلْفِيَّة الحوار محمد بن أبي بكر يتشحط في دمه وأن هذه الصدِّيقة منفطر قلبها على أخيها ، أقول في هذا السياق المشحون بالمشاعر المترقبة والمتصادمة بين رجل شارك في الحرب التي قتل فيها ابن أبي بكر وبين بنت أبي بكر وهي كعبة من كعبات علم الأُمَّة جاء ابن شماسة إليها ليسألها أقول في هذا السياق قال ابن شماسة بعد قوله ما نقمنا منه شيئًا ، إن كان ليموت فجاء بضمير الشأن وأكد الجملة بلام التوكيد في قوله (ليموت) وقوله « للرجل منا » فيه دلالة على أننا جميعًا عنده سواء في الرعاية فلم يخص أحدًا بشيء ثم إنه يتناسب جدًّا مع قول أمنا في السؤال (كيف كان صاحبكم لكم) فقابل قولها لكم بقوله « الرجل منا » والفاء في قوله « فيعطيه » تفيد أنه يرتب العطاء والمعونة والمساعدة على الفقد ترتيبًا من غير مهلة حتى لا يشعر صاحب

البعير الذي مات بجرح فما إن تسقط راحلته حتى ينتقل رَحْلُه إلى راحلة أخرى أعدها له صاحبنا وكذلك قل في العبد والنفقة ، ولاحظ دقة ابن شماسة في قوله فيعطيه « البعير » بالتعريف بالألف واللام ولم يقل فيعطيه بعيرًا ويموت العبد فيعطيه عبدًا ، وهذا هو الأجرى في مثل هذا الأسلوب لأنه مات له بعير معروف هو بعيره فيعطيه بعيرًا آخر غير معروف وإنما هو واحد من البعران التي عنده وإنما قال ابن شماسة « فيعطيه البعير » ليَدُل على أنه أعطاه بعيرًا مساويًا للبعير الذي فقد وعبدًا مساويًا للعبد الذي فقد لأن المقصود بيان سداده للحاجة وأنه لا يترك منها ثُلْمةً إلا سدَّها .

وقد وعت أمنا الصديقة بنت الصديق كل هذه الإشارات اللغوية في كلام ابن شماسة وأنه يؤكد لها حال الرجل فيهم بأمانة وصِدْق وأنه لم يتزيّد في الحديث عنه فلم يزده شيئًا ولم ينقص منه شيئًا وكان يمكن أن يَسكت عن هذه المحاسن لأنه يحدث بها أُختًا مكلومة على أخيها الذي قتله هذا الصاحب ، وأنا شديد الحفاوة بهذا الحوار لا لأن ابن شماسة كان فيه صادقًا ورائعا وشجاعًا فقط وإنما لأن أُمَّنا قدّرت منه هذا ولم ترد عليه كلمة قالها فيه وإنما أصغت وَوَعَتْ ثم أجابت إجابة المنصفين المنحازين للحق والذين يُجسّدون قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ وكانت أُمُّنا أقرب للتقوى وكانت بعيدة كل البعد عن (ألا تعدلوا) وقريبة كل القرب من (اعدلوا) ونحن في أشد الحاجة إلى إشاعة هذا السلوك النبيل في حياتنا التي لوّثها الكذابون والمزايدون والمنافقون والعملاء قالت رضوان الله عليها (أما إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت من رسول الله ﷺ) ولاحظ الشبه اللغوي بين كلام أُمّنا وكلام من يُحاوِرُها ، يظهر هذا الشبه في بناء

جملتها على ضمير الشأن كما بنى ابن شماسة وقولها « إنه لا يمنعني الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي أن أخبرك ما سمعت» ، الضمير في قولها « إنه » هو ضمير الشأن الذي يؤتى به في كلام أهل البيان لبيان أن الذي يأتي بعده وهو الجملة المفسرة له مِمًّا لَهُ عندُ المتكلم مكان أي مكان ، والذي يفسره في كلام أُمَّنا وله عندها شأن أي شأن هو أن الذي فعله في أخيها لا يمنعها من أن تخبرك يابن شماسة بما سمعت من رسول الله ﷺ ولاحظ أن في هذا المعنى تفظيع وتشنيع بما فعله بابن أبي بكر وأنه لا يجوز لأحد سمع من رسول الله ﷺ حديثًا أنْ يمتنع من الخبر به وأنه ليس هناك مانع من هذا أبدًا مهما كان بين الناس من نوازل وحروب ودماء وخلاف لا يجوز لشيء من ذلك أن يمنع من سمع من المصطفى صلوات الله وسلامه عليه أن يحدث بما سمع هذه حقيقة مقررة وقول أُمِّنا يُفيد أن شناعة ما فعله صاحبكم بمحمد أخي لو كان شيء يجيز كتمان الحديث لأجازه هذا الشيء وهذا هو معنى التفظيع والتشنيع ولم تشر أُمُّنا بهمٍّ نَفْسِها مِمًّا فعله هذا القائد إلا في هذه الجملة التي تُنحِّي ما فعله جانبًا وليسمع ما قاله رسول الله ﷺ في شأن من ولى أمر جماعة فرفق بها ، راجع المعنى الذي احتشد ابن شماسة في الإبانة عَنْه والمعنى الذي احتشدت أمنا في الإبانة عنه وقارب المعنيين وتأمل الصلة التي بينهما .

بقي من كلام أمنا استفتاحها بكلمة (أما) وهي أخت كلمة (ألا) وكلاهما دال على الاستفتاح يعني مؤذنٌ بأن المعنى بعدهما مما يجب أن يفتح له العقل والقلب كل باب لأهميته عند المحدّث به وإنما آثرت (أما) على (ألا) لأن كلمة أما يأتي بعدها القسم كثيرًا كما في قول الشاعر : أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر ، وأمنا لم تأت بعدها بالقسم

وإنما جاءت بأداة التوكيد الأم في العربية وهي كلمة (إن) وعدم مجيء القسم بعد كلمة (أما) في كلام أمنا رضوان الله عليها ، لا يعني إسقاطه بالمرة ، وإنما يعني أنه وإن لم يوجد لفظه فإن ظلاً من ظلال وجوده لا يزال يحوم في موضعه من الجملة ، وكأنه طائر يصيح على غائب ، ولا تظنَنّ أن العربية تَعافُ كلامي هذا وتتبشعه كما كان يقول أبو الفتح وإنما قلته قياسًا على ما قاله الشيوخ الذين تعلمنا منهم اللغة ، فقد ذكروا أن الحرف الذي يقع كثيرًا في موضع من مواضع بناء الكلام إذا غاب هذا الحرف فإن المتكلم يتوهم وجوده ويعطف على الكلمة التي كان يدخل عليها عطفًا يَعْتبر وجوده الإعرابي المتوهم وإن كان مفقودًا ويُلْغِي حالة الإعراب القائمة أعني يتعلق بالمتوهم ويُلْغي الواقع لأن توهم هذا الغائب يُعْطي الكلام نكهة من التوكيد ، وذلك كقول الشاعر وهو شاهد مشهور :

على أنني لستُ مُدْرِك ما مَضَى   ولا سابقٍ شيئًا إذا كان جائيا

قال ولا سابق بالجر وهي معطوفة على مدرك وهو منصوب لأن الياء كثيرًا ما تدخل على خبر ليس لزيادة التوكيد وكأن الشاعر توهم وجودها وكأنه هو نفسه قال لست بمدرك ما مضى وكل ذلك رغبة في توكيد أنه لا يدرك الذي مضى ولا يسبق الشيء الآتي .

قلت كل هذا لأن كلمة (أما) في كلام أُمِّنا كأن صوتا خافتا متوهما يصوّت بعدها بالقسم وهذا فضلها على «ألا» ولهذا آثرتها أُمُّنا فكان كلامها أكثر توكيدًا ، وقولها : الذي فعل في محمد بن أبي بكر أخي تحت كلمة (فعل) التي هي صلة الموصول والتي هي قصة معلومة ومتعارفة بين الناس أقول تحتها الكثير من الفجع والألم والذّم والأسى والإهانة ثم القتل بعد الأسر ، أقول تحتها في كلام أمنا ما لا يُحاطُ به ثم قولها محمد بن أبي بكر

أخي وكان يمكن أن يكتفي بالكلمة الأخيرة (أخي) ولكنها مطلت الكلام كما مطله ابن شماسة وهو يقول رجل من أهل مصر ، والفرق كبير بين المطلين هي هنا تمطل جسد الحسرة وجسد المأساة المروّعة تمطل اسم محمد الذي سماه أبوه محمدًا تيمنًا وتحببًا وتزلفًا لمحمد بن عبد الله الذي أنزل الله سورة في القرآن باسمه ثم تذكر أبا بكر ومكانته من رسول الله ﷺ ومناقبه وحب رسول الله ﷺ له ثم تختم هنا بأنه أخوها وأن حزنها عليه لا يتوقف على كونه محمدًا ولا على كونه ابن أبي بكر وإنما على أنه أخوها ، وبكاء الأخ والعويل عليه والتحسر والتحزن كل ذلك وأضعاف أضعافه معروف ليس عند العرب وإنما عند الناس من يوم أن ندم ابن آدم وقال ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِى ﴾ .

وقولها « يقول في بيتي هذا » ذكر مكان الخبر من باب توثيق الخبر وفيه شيء آخر وهو أن الذي سمعوه منه عليه السلام هم أهل هذا البيت وكونه قيل في مكان آخر وسمعه آخرون هذا مسكوت عنه لم يقارب بنفي ولا إثبات ، وهذا يعني ضرورة الإخبار عنه ممن سمعوه من أهل هذا البيت لاحتمال أن لا يكون قد قيل في غيره ، ثم إن قولها في بيتي هذا فيه نفح من الاعتزاز وذكر نعمة الله ومنّه وأن بيتها هو بيت رسول الله ﷺ وأنه عليه السلام يبلّغ عن ربه فيه وهذا فضل ليس فوقه فضل وقوله عليه السلام : « اللهم من ولى من أمر أمتي شيئًا فشق عليها فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتي شيئًا فَرَفَق بها فارفُق به » هذا الحديث من هامش آية آخر التوبة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ولاحظ أن قوله عليه السلام « من شق عليها فاشقق عليه » تقدم على من رفق لأنه تقدم في الآية ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾

والعنت هو المشقة ، ثم إن هذا الحديث موصول بحديث كلكم راع ، وأن هذا الراعي ولي من أمر الأمة شيئًا فإن شق عليها شق الله عليه وإن رفق بها رفق الله به ، وهذا ظاهر وهو شرحٌ لكلمة مسؤول عن رعيته لأنه حين يسأل عن رعيته سيكون على حال من أمرين إما أن يكون شق أو رفق وهذا جيد جدًا في تفسير الأحاديث بالأحاديث كتفسير القرآن بالقرآن ثم إنه موصول وصلاً أظهر بحديث المقسطين وأنهم عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يعدلون في أحكامهم وأهليهم وما وَلوا ، والكلمة الأخيرة (وما وَلوا) أظهر لوجودها في الحديث الذي معنا لأن هؤلاء ولوا من أمر الأمة شيئًا فرفقوا بها فرفق الله بهم وكان رفق الله بهم منابر من نور عن يمين الرحمن وهذا أيضًا ظاهر ومن تفسير الحديث بالحديث كتفسير القرآن بالقرآن ولا أخفى عنك اغتباط نفسي حين أجد هذه الخيوط الممدودة في الأحاديث المختلفة وأنها تأخذ لونًا في كل سياق فلونها في كلكم راع غير لونها في الحديث الذي معنا وغير لونها في حديث منابر من نور أقول وأكرر ولا أمَل ، هذا جيد جدًا ولو تقصيناه في كلام سيد الخلق وجعلنا كلامه تحت عيوننا بناء رحمة وبناء بر وبناء إكرام وبناء كرامة لرأينا جانبًا من جوانب رحمته وبره وحبه هو تائه في دراستنا للسنة دراسة تتباعد فيها الأحاديث وكأنها جزر معزول بعضها عن بعض .

وأبدأ في تحليل كلماته ﷺ قوله عليه السلام (اللهم) أصلها يـا الله حـذف حرف النداء وزيدت الميم في آخر لفظ الجلالة عوضًا عن حرف النداء وهذا خاص بلفظ الجلالة وذلك لكثرة جريانه على الألسنة فلـم ينـاد في الوجـود شيء كما ينادى لفظ الجلالة ووراء هذا التصرف اللغـوي معنـى هـو أن أول حركة للسان تكون ملتبسة بلفظ الجلالة بـدل حـرف النـداء ولهـذا معنـى في

قلوب أهل الذكر ؛ ومعنى آخر وهو إحساس القائل اللهم أن الله سبحانه وتعالى يُقْبِلُ عليه ويقترب منه ويسمع دعاءه قبل أن يناديه وهذه هي الخصوصية الخاصة بلفظ الجلالة فليس هناك منادي يقبل على من يناديه قبل أن يناديه إلا الله سبحانه لأنه يعلم توجه عبده إليه قبل أن ينطق بالنداء ولا أظن أن هذا المعنى كان يخفى على أهل الحق الذين يقولون اللهم اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم ، وليس هذا المعنى معنى استخرجته وإنما هو دلالة صريحة لقولك اللهم ، لأنك تذكر الله قبل أن تناديه لأن حرف النداء هو الميم من حيث هي عوض عنه وهي آخر ما تنطق به .

وقوله عليه السلام « من وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليها فاشقق عليه » .

ذكرت أن تقديم من شق على من رَفَق متلائم مع آخر التوبة ﴿ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ ﴾ والعنت من المشقة وأزيد هنا أن حرصه ﷺ على الأمة يظهر أولاً في دفع الأذى عنها ودفع المضرة مقدم على جلب المسرَّة ، وهذه هي الفطرة فحرص كل منا على من يحب من أهله ومن حوله يكون دائمًا في دفع السوء عنهم ثم إنه عليه السلام قال من ولى من أمر أمتي شيئًا فأفاد هنا شمول كل أفراد الأمة لأنه ما من حيٍّ يعيش على ظهر هذه الأرض إلا وقد وَلِيَ شيئًا من أمر الناس فالحائك ولى شيئًا والبزَّازُ ولى شيئًا والنجارُ ولى شيئًا والحَدادُ ولى شيئًا والكنّاس ولى شيئًا وكل من ولى شيئًا وأتقنه وجوَّده فقد رفق بالناس وكل من ولى شيئًا ولم يتقنه ولم يُجوّده فقد شق على الناس ، الحذاء الذي نشتريه إذا كان فاسد الصنعة فصانعه شقَّ عليك وإذا كان جيد الصنعة فصانعه رفق بك والعموم الذي في هذه الكلمة هو العموم الذي في قوله كلكم راع وهذا وذاك له دلالة واحدة هي شدة العناية بما به يكون صلاح الأمة ورخاؤها ولا يكون هذا إلا بشُيُوع الصلاح والإصلاح وخوفه

عليه السلام من شقائها وتخلفها وشيوع ما يشق عليها فيها كالجهل والمرض والرشوة والظلم والقمع وفساد القضاء وإطلاق أيدي أشرار الجنود في إيذاء الشعوب . أقول هذا ومثله داخل في عبارة ولى من أمر أُمتي شيئًا فشق عليها فاشقق عليه ، وكلمة «فاشقق عليه» لا تنكر عليّ أنني أقول لماذا لم يقل عليه السلام فشق عليه بالإدغام ولماذا فكّ الإدغام وقال فاشقق ؟ والجواب الذي أرتضيه هو أن فك الإدغام يمنح الكلمة قدرًا ولو ضئيلاً من الطول ووراء هذا قدر من الغضب يزيد على أن لو قال فشق ، ويلاحظ هنا شيء ضروري وهو أن رسول الله ﷺ كان يكون دعاؤه على من عدل عن الحق وظلم بالمغفرة كما كان يقول اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، وهو هنا يخالف هذا الطريق ليدل على أن من شق على هذه الأمَّة في شيء أي شيء فهو في جماعة من غضب عليهم رسول الله ﷺ غضبًا دعاه إلى أن يدعو عليه بالعقوبة وليس بالهداية ثم يلاحظ أن هذا الغضب لم يتجاوز العدل ، وإنما هي مشقة بمشقة من غير زيادة يعني يحاسبه ربنا بمشقّةٍ هي عَدْل المشقة التي شق بها على هذه الأمة ؛ واعلم أن هذه الدعوة لا تزال قائمة ، وستظل قائمة إلى أن تقوم الساعة واعلم أيضًا أن هذا مما يُغْرِيك بعمل الخير لهذه الأمة وأنه من أفضل القربات وأنك به تدخل في هذه الكوكبة التي دعا رسول الله ﷺ ربه أن يرفق بها ، ولاحظ هذه الإضافة الزاخرة بالحب والالتحام والتماهي بينه عليه السلام وبين أمته وإلى أي حد تُغْرِينا هذه الإضافةُ بحب الأمة وحب من أحبها ، وعمل الخير لهذه الأمة ، ثم لاحظ الإشارات التي لا يجوز إغفالها وأعني بها قوله عليه السلام من ولى من أمر أُمتي شيئًا وصلتها بقوله في حديث المقسطين الذين عدلوا في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا : كلمة وما ولوا وصلتها بولي ، وأن الذين رفقوا هم الذين

عدلوا فيما ولوا وأنهم على منابر من نور وأن الذين شقّوا هم الذين يقابلونهم وهم الذين من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل .

قال النووي في شرحه للحديث : هذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس وأعظم الحث على الرفق بهم ، وقد تظاهرت الأحاديث بهذا المعنى ، ولاحظ خصوصية هذا الحديث وأنه لم يخبر عن الله وإنما يدعو الله .

• النُّصح لمن وَلِي أمرًا :

روى مسلم بسنده : أن عائذَ بن عمرو وكان من أصحاب رسول الله ﷺ دخل على عُبَيْد الله بن زياد فقال أيّ بُنيّ إني سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « إنَّ شرَّ الرِّعاء الحُطمة فإياك أن تكون منهم . فقال له : اجلس فإنما أنْتَ من نُخاله أصحاب محمد ﷺ فقال وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النّخالةُ بعدهم وفي غيرهم ».

روى مسلم بسنده عن أبي الأشهب عن الحسن قال : عاد عبيد الله بن زياد مَعْقِلَ بن يَسَار المُزني في مرضه الذي مات فيه فقال معقل : إني مُحدّثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ . لو علمتَ أنّ بي حياةً ما حدَّثتك . إني سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما مِن عبدٍ يسترعيه الله رعيّةً يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة ».

وفي رواية أخرى عن الحسن أن عبيد الله بن زياد قال : ألا كنت حدّثتني هذا قبل اليوم ؟ قال ما حدّثتك أو لم أكن لأُحَدّثك .

وروى مسلم بسنده عن أبي المليح : أن عبيد الله بن زياد دخل على معقِل ابن يسار في مرضه فقال له مَعْقل إني مُحدِّثُك بحديث لولا أني في الموت

لم أحدّثك به : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من أمير يَلِي أمر المسلمين ثم لا يَجْهَدُ لهم ويَنْصَحُ إلا لم يدخل معهم الجنة».

هذا باب من أهم أبواب السنة وكلها مهمة بالغة ، وإنما كان كذلك لأنه يوجب تعهد كل مسؤول عن كل شأن من شؤون الجماعة بالنصح والتوجيه والتحذير من عقاب الله والإغراء بجزيل ثوابه حتى تستقيم أحْوَالُ الأمة لأن الفساد حين يكون في الرأس يكون فساده فسادًا وبيلاً جدًّا على الجسد كله ، وإذا دب الفساد والإفساد في أي جماعة كان ذلك إيذانًا بنهايتها وبعجزها عن حماية أرضها ونفسها وليس في الشر شر أبشع من هذا .

وكان العلماء ولا يزال الصادقون منهم يتعهدون الخاصَّة والعامة بالنصح حتى لا تَحْدُثْ تلك التشقّقات المؤذنة بتسلل الفساد والإفساد في الجماعة وكان أفْضَلُ الجهاد كلمةُ حق عند سلطان جائر لأن قائل هذه الكلمة يُدافع عن الجماعة ويعرض نفسه لإيذاء الجائر من أجل مصلحة الكل .

واستقامة أحوال الأُمة وإقامتها على الحق والعدل والصلاح والإصلاح هو مصدر قوتها التي بها تَحْمِي أرْضَها وثرواتها وشعوبها وتاريخها ودينها ، وأخلاقها ، والفساد والإفساد هو أبشع الأمراض التي تدمِّر الأوْطان وتدمر قوتها وتمكن عدوها منها ، ولهذا لم يكن تقديم النصح الواجب لكل مسؤول ابتداء من أكبر رأس في الدولة رفاهية سياسيَّة وإنما كان هذا ضرورة حياة والمسؤول الذي يرفض النُصْح لا يجوز أن يبقى في مكانه بشرط أن يكون النصح صادقًا وواعيًا وليس مزايدة سياسية وبقاء الدولة قوية قادرة على حماية نفسها ضرورة من ضرورات الحياة ولذلك وجب بقاء النصح الصادق الفاهم الواعي وأن يكون فريضة يوجبها الشرع ويوجبها الحرص على بقاء قوتنا وسلامتنا في بلادنا .

وأي أرض لا يَحْمِيها أبناؤُها بسواعدهم وسلاحهم هي أرض ضائعة وأي ثروة لا يحميها أبناؤها بسواعدهم وسلاحهم ودمائهم هي ثروة ضائعة وأسوأ ما سيذكره التاريخ يوم يتكلم بلسان صدق وليس بلسان كذوب هو أحوال هذه الدول العربية الإسلامية التي منحت أجزاء من ديارها وأسْكَنَتْ فيها جيوش أعدائها لحمايتها وهذا منطق غريب لأن هذه الجيوش الساكنة على ترابنا هي العدو الذي ليس لنا عدو سواه، لأنهم أعداء الله ورسوله وعدو الله هو عدونا ولأنهم يحرفون المصحف جهارًا نهارًا ويذبحون المسلمين جهارًا نهارًا ويحمون أفعى صهيون جهارًا نهارًا وهؤلاء الجنود الذين هم على أرضنا حماة الذين اغتصبوا أرضنا واحتلوا بيت المقدس والأقصى، ونحن نعطيهم رواتب من أموالنا ونسكنهم على أرضنا ونسميهم قوة صديقة وعليك أن تفهم أنت الذي وراء ذلك ثم تفهم كيف سكت العلماء على النصح بل كيف أباحوا ذلك واعتبروه أمرًا مشروعًا؟

ورحم الله أبا بكر الذي طلب من الكل أن يراقب وأن ينصح والغريب أن نصح العلماء الصادقين لمن يلي أمرًا من أمور المسلمين واجب وجهاد وهو دين وسياسة معًا ولا يفصل فيه بين الدين والسياسة. ومع ذلك نجد من يطالب ويلح ويعاقب من يدخل الدين في السياسة ويلاحقهم بالقتل والسَّحْل والتعذيب، ثم يجد من الكُتَّاب والمثقفين من يغريه بذلك، وربما وجد من الضلال المنتمين كذبًا إلى علم الإسلام من يغري بذلك ولا تعجب فإن العلم كالماء يزيد الحلو حلاوة ويزيد المر مَرَارة، ولا يغسل العِلْمُ نبات السوء، والناس خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فَقُهوا، وأنا أتابع ما يكتبه الكذبة الذين نسميهم مثقفون ونخبة أتابع ما يكتبونه في ضرورة بعد الدين عن السياسة فأجد جهلاً مطبقًا بعلوم المسلمين لأني أجد الدين

والسياسة أحيانًا متداخلين كما هنا وكما في سورة القتال وكما في آيات الجهاد وكما في ذكر الذين بينكم وبينهم ميثاق وكما في الأحاديث المتصلة بمن ولى من أمر المسلمين شيئًا أجد كل ذلك دينًا متداخلاً في السياسة كتداخل اللحم والدم فكما لا يمكنك فصْلُ اللحم عن الدم كذلك لا يمكنك عزل الدين عن السياسة أتابع ما يكتبه هؤلاء فأجد جهلاً مطبقًا كما قلت فأذكر قول أبي العلاء : وقد تجد الرجل حاذقًا في الصناعة بليغًا في النظر والحجة ، فإذا رجع إلى الديانة أُلْفِي كأنه عَيْر يُقْتَاد . انتهى كلام أبي العلاء ، وجماعة الأعيار التي تَقْتَاد هذه لم يكن لها قيمة في مصر حتى ظهر المغامرون وفيهم فريق رؤوسهم مغسولة حتى من الذي في رؤوس أعيار أبي العلاء وأعملوا القتل والقمع والسّحْل في كل من يطالب بتطبيق شرع الله وهذا بلاء نزل بأرضي أرض الكنانة والبلاء الذي أشد منه أن الدُّول العربية التي أباحت أرضنا لجنود عدونا وأسكنت في ترابنا من يحرفون المصحف ويحمون أفعى صهيون أيدت هؤلاء وأمدتهم بالأموال ليستأصلوا شأفة من ينادون بتطبيق شرع الله ، وتعجب هل هذه أوامر الجيوش العدُوَّة التي تحتل بلادهم احتلالاً تَوَافُقِيًّا ؟ أم هي حقيقة الجاهلية التي يعيشونها وزعموا أنهم حماة السُّنَّة والجماعة ؟ الله أعلم .

قال الشافعي « إن النصيحة لمن ولى أمرًا من أمور الأمة فرض لا ينبغي تركه ، وإدراك نافلة خير لا يَدَعها إلا من سَفِه نَفْسَهُ وتركَ موضع خَطّة ». « الرسالة صـ ٥٠ » أقول والواجب أن يكون هذا بعلم وحكمة لأن الشافعي نفسه يقول : « فالواجب على العالمين ألا يقولوا إلا من حيث علموا وقد تكلم في العلم من لو أمسك عن بعض ما تكلم فيه لكان الإمساك أولى به وأقرب إلى السلامة إن شاء الله» الرسالة ٤١ .

وهؤلاء الذين يتكلمون بغير علم هم أعلى الأصوات في أرض مصر المحروسة وكثير من عقلاء مصر يعرفون ذلك وأنهم المنطرون للمغرورين المساكين الممسوحة رؤوسهم حتى من الكر والفر .

لم يكن عبيد الله بن زياد رجلاً من رجال التاريخ الذين يرضى عنهم فريق ولا يرضى عنهم فريق آخر وإنما كان من الذين يَقِلُّ من يرضى عنهم ويكثر من لا يرضى عنهم أعني كان سيئُ السمعة وهكذا كان أبوه زياد ابن أبيه ولم يكن له أب ينسب إليه فقيل ابن أبيه لأنه وُلد من امرأة في بيت من بيوت البغاء في الطائف وكان ذلك في الجاهلية ولما شب زياد وبلغ مبلغ الرجال وهو زياد ابن أبيه ظهرت فيه مواهب ظاهرة في القتال وفي القيادة حتى قيل لو كان هذا من قريش لساد العرب والْتَفَتَ إليه معاوية ابن أبي سفيان وكان أبوه أبو سفيان يتردد على هذه المرأة البغيّ في الطائف وكان كلفا بها فزعم معاوية أن زيادًا هذا من ولد أبي سفيان فضمه إليه وسماه زياد بن أبي سفيان ، وهذا هو جذر زياد ابن أبيه الذي ولد عبيد الله ابن زياد ، وغفر الله لمعاوية فقد زرع زيادًا في تاريخنا وزرع ابنه واذكر الآن أن معاوية من أكرم كتاب الوحي وأنه صاحب الفتوح وأنه أول من غزا في البحر وأن أبا سفيان جاهد في الله حق جهاده وأن الإسلام يجب ما قبله وأنه كانت ترفع رايات على بيوت البغايا في الجاهلية وإن كان ينكرها كرامهم .

ولم يأنف سيدنا عائذ بن عمرو الصحابي الجليل من أن يدخل على عبيد الله بن زياد وأن يُبلغه النصح الواجب على علماء الإسلام وراجع كلمات سيدنا عائذ بن عمرو ، قال رضوان الله عليه (أي بني) كلمة أي نداء ولفت ومقاربة وهي لنداء القريب المفاطن وكلمة (بني) فيها تقريب له وملاطفة وأنه ابنه والتصغير هنا يفيد مزيدًا من القرب والحب والمداعبة والذي ينادي

حفيد البغَيّة ويجعله واحدًا من أبنائه ويلاطفه ويقاربه واحد من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قال فيهم أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وهذا من أدب عائذ الذي تعلمه من رسول الله ﷺ وهذه توطئة للنصيحة التي يريد بلاغها وتطييب نفسه لها قبل سماعها ، ثم قال له بعد هذه التوطئة (إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إن شرّ الرعاء الحُطمة فإياك أن تكون منهم) كلمة (سمعت من رسول الله ﷺ) تعني أنه يُبلّغه ما سمعت أُذُنه وليس ما بلغه وأنه يعني أنه كان في مجلسه الشريف صلوات الله وسلامه عليه وله شرف الصحبة وله شرف السماع والرؤية. والجملة التي سَمِعَها من رسول الله من أبلغ الكلام وأنْفَسِه وأعلاه ثم إن عائذًا وهو يبلغه ما سمع إنما يؤدي حق الله ورسوله في بلاغ ما سمع من رسول الله ﷺ ولا يجوز لأحد سَمِعَ من رسول الله ﷺ شيئًا أن يكتمه وكان الواجب أن يدرك ابن زياد هذا المعنى وأن يعرف لصاحب رسول الله ﷺ قدره ، وأن أهل الإيمان إذا سمعوا من الله ورسوله قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ولكن حفيد البغيٍّ لم يكن كذلك ، « وشر الرعاء » كلمة عامة تشمل كلَّ راع له رعية يرعى لها ، وكلكم راع وكلكم له رعية يرعى لها وكلكم مسؤولون عن رعاياكم يعني كلكم مكلفون وكل مكلف مسؤول عن الذي كلف به فليست الكلمة نصًا في الوالي وإنما هي شاملة له ولمن فوقه ولمن بعده حتى تصل إلى العبد الذي يرعى مال سيده كما بينا في حديث كلكم راع وهذا الحديث مؤسَّسٌ عليه لأنه يبين وجهًا من وجوه الخطأ في الرعاية . والحَطْمُ كسر الشيء وهَشْمُه ثم استعمل في الكسر المتناهي ويقال سائق حُطَم يحطم الإبل لفرط سوقه ، وسميت الجحيم حطمة وما أدراك ماالحطمة لأنها تَحْطم من

فيها ، وهذا ملخص من كلام الراغب وكلمة «شر الرعاء الحطمة» استعارة تمثيلية ومكوناتها حسّية هي الراعي الغبي الجاهل الذي يحطم ما يرعاه من إبل أو شاة أو ما شئت يعني أن الذي بين يديه لا يتحسّنُ حاله ولا يبقى على الحالة التي هو عليها ، وإنما يتخلف ويتحطم ويهلك ، وهذه الصورة الحسية يُرَادُ بها أولاً رعاية الوالي الجاهل الغبي أو رأس الدولة الجاهل الغبي الذي لا تتحسّن أحوال الشعوب برعايته ولا تقف مكانها فلا تتقدم ولا تتأخر وإن كانت هذه مصيبة وإنما تسوء بغطرسته وجهله واستعلائه فتجد التعليم حُطمة ورعاية الصحة حُطمة والجامعات حطمة والزراعة حطمة وحرية الناس حطمة ، وكرامة الناس حُطمة وهذا سِرُّ الراعي الأول ثم تتنزل حتى تصل إلى أصغر الرعاة وهو الذي يرعى مال سيده ، ويصير ما يرعاه من مال سيده حُطَمة وهذا كلام بالغ جداً وبليغ جداً وأنا أضع جملة شر الرعاء الحطمة مع الآن حمى الوطيس ، ويا أنجشة رفقاً بالقوارير وكل ما ذكره العلماء من البيان الذي ابتدأه ﷺ ولم يسمع من أحد قبله ، ومن العجيب الذي أراه من علامات النبوة أن الشعوب وثرواتها وتقدّمها وازدهارها كل ذلك وغيره إذا أراد عدونا أن يضع في طريقه سداً مانعًا فليس عليه إلا أن يعمل على أن يصل إلى أعلى السلطة واحدٌ من الحطمة وليست أوصاف الحطمة غائبة عن أحد لأن أهم أوصاف الحطمة هو الجهل والغباء ويتبعهما الغطرسة وتقريب الكذبة والمنافقين وإبعاد أهل البصيرة والصدق أو باختصار عمل عكس ما قال عمرو بن عبيد لأبي جعفر لما قال له أعِنِّي بمن ترى من أهل العلم فقال له ابن عبيد ارفع عَلَم الحق يتبعك ذووه ، والحطمة التى ابتلينا بها ترفع علم الجهل وعلم الباطل وعلم

النَّهب والغطرسة والفساد والإفساد فيتجمع حولها كتائب الكذبة واللصوص والمنافقين ، والخلاصة أنني لا أرى سبيلاً لإصلاح أحوالنا إلا سبيلا واحدًا وهو مطاردة الحطمة في كل موقع من حياتنا . هذا أو الطوفان .

وبعدما أخبر عائذ بما سمعه من رسول الله ﷺ عقَّب بقوله لعبيد الله (فإياك أن تكون منهم) والفاء ترتب هذا التحذير الزاخر بالحرص والمحبة والنصح الذي يكون مُوَجها لمن خاطبه أول ما خَاطبه بقوله « أي بُني » الفاء ترتب هذا التحذير على الخبر الذي سمعته أذناه من الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا التحذير لا يكون إلا لمن يحرص على ألا يقع في الوعيد المتضَمن في كلام رسول الله ﷺ الذى هو أن مَنْ كان من شر الرعاء فهو مِن شَرِّ البرية وأن هذا الشر أيضًا يجعله من أهل الحطمة التي هي نار الله الموقدة وأن ذكر الحطمة في الخبر المروي عن رسول الله ﷺ لا يخلو من استحضار الحطمة التي هي نار الله الموقدة ، وكنت أتوقع أن يدرك ابن زياد هذا الحرص وهذا التعهد بالنصح من صاحب رسول الله ﷺ وأن يدرك ما يدركه الناس من أن مَن يخوِّفك حتى تبلغ الأمن خير ممن يؤمِّنكُ حتى تبلغ الخوف وأن كل من يؤمن باليوم الذي يقومُ الناس فيه لرب العالمين لو سألته عن خير كلام سمعته ممن حولك لقال لك خير كلام سمعته أذني في هذه الدنيا هو الكلام الذي ذكّرني بالله وخوّفني من الله ونبهني إلى حق الله عليَّ ونبهني إلى ذكره وطاعته وطاعة رسوله ولكن ابن زياد يبدو أنه كان في حالة غَفْلة شديدة وأنه قد غلب عليه الرَّيْنُ وغَان على قلبه فلم يقع من كلام عائذ في نفسه شيء مع أنك لو راجعت هذا الحديث من أوله إلى آخره ونظرت إليه من جهة كونه نُصْحًا ودعوة إلى الخير لوجدته سلك طريقًا لا أظن أنه يمكن له أو لغيره أن يسلك طريقًا

أقرب منه ، فقد بدأه بالنداء الذي يكون للقريب المفاطن وحين تنادي القريب المفاطن تكون كأنك تدعوه إلى مزيد من القرب ومزيد من المفاطنة ثم ناداه بالكلمة التي ينادي بها الأب ولده الذي يرعاه ويحوطه ويصونه فناداه بالبنوة وجاء على صيغة التصغير التي يؤتى بها في الكلام العالي للدلالة على فيض القرب والحب ثم أسمعه ما سمعه من سيد ولد آدم ، ثم قال له يا عزيزي ويا بني ويا حبيبي احذر أن تكون ممن حدّث سيد الناس أنهم من شـر البـريـة ، ولا أجد سبيلاً لإيصال النصح أفضل من هذا السبيل ثم يرد ابن زياد بجفوة وغطرسة شديدة وعنجهية لا أدري من أين جاء بها وقد بقى أبوه لا أب له حتى ألحقه معاوية بأبيه لأن أبا سفيان كان يتردد على جدته في بيت من بيوت البغاء في الطائف وإن كان الإسلام قد جبّ ما قبله ولكن الذي يغيظ أن فتًى هذا أصله وفصله يقول لسيدنا عائذ بن عمر بعدما نصحه وقاربه وقرّبه اجلس فإنما أنت من نخالة أصحاب محمد ، فأساء أولاً إلى رسول الله ﷺ وذكره باسمه، ولم يقل رسول الله ولم يُصَلِّ عليه ، ثم أساء إليه عليه السلام وأنه كان من أصحابه نخالة ، والنخالة كما يقول النووي استعارة من نخالة الدقيق وهي قشوره والنخالة والحثالة والحفاوة بمعنى واحد وإنما أراد أنك لست من فضلائهم وعلمائهم وأهل المراتب منهم بل أنت من سقطهم ، قلت إن ابن زياد أساء إلى رسول الله ﷺ وأساء إلى أصحابه وأن فيهم نخالة وكأنه يصادم قوله عليه السلام أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم راجع كلمة بأيهم حتى لا تسقط منك كلمة في حق واحد منهم ثم أساء الإساءة البالغة لمن نصحه وحذره من أن يكون من شر البرية الذين هم أهل الحطمة ، وقد ذكر الشراح أن كل هذا ليس مستبعدًا من قاتل الحسين ابن علي كرم الله وجهه وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وحفيد سيد الثقلين

الذي كان يحبه ويحمله على كتفه وغفر الله لمعاوية الذي زرع جذر شجرة هذا الشيطان في تاريخ الإسلام ، حتى رأينا حفيد بغي الطائف يقتل حفيد رسول الله ﷺ قلت إنه أساء إلى سيدنا عائذ بن عمرو لأنه لم يكتف بقوله أنت من نخالة أصحاب محمد ، وإنما عدّ هذا خبرًا معلومًا لم يقصد إليه وإنما الخبر الذي قصد إليه هو أنك لست إلا من نخالة أصحاب محمد لأن كلمة إنما لا يؤتى بها للإخبار عن مضمون الجملة التي دخلت عليها لأنك تقول إنما جاء محمد لمن يعلم أن محمدًا قد جاء وإنما يؤتى بها للدلالة على الحصر وهو أنه لم يجيء إلا محمد وهذه دلالتها في كلام ابن زياد لم يقصد أنك من نخالة أصحاب محمد ﷺ وإنما قصد أنك لست إلا من نخالتهم رضوان الله عليهم ، وبئس ما قال ، وشيء آخر وراء استعمال كلمة إنما ، وهو أن هذا الحصر والقصر الذي قصد إليه أمر معلوم لا يَدْفَعهُ دافع ولا ينكره منكر وإنما هنا أخت إنما في قول المنافقين لما قيل لهم ﴿ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ فادعوا أن كونهم مقصورين على الإصلاح حقيقة واضحة لا يجهلها جاهل ولا ينكرها منكر وهكذا قال ابن زياد لسيدنا عائذ ولا يزال في مجتمعاتنا سفلة من أولاد الإماء يتطاولون هذا التطاول على من كانوا فينا أشْباه عائذ وكما أن سُلطة فاجرة مكّنت وساندت ابن زياد في زمانه فالسلطة الفاجرة فينا تساند أحفاد ابن جارية الطائف .

قوله « وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم » هذا هو رد سيدنا عائذ بن عمرو وهذا الرد يشرح لنا الفرق بين كلام السِّفلة وكلام العلية ويعطينا مثالاً لقوله تعالى ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا سَلَـٰمًا ﴾ ، قول ابن زياد إنما أنت من نخالة أصحاب محمد هو خطاب

الجاهلين ، ورَدُّ عائذ هو السلام . وأول ما تلاحظه في لغة العِلْيةِ أنه قال (وهل كانت فيهم نخالة ؟) وهذا الاستفهام استفهام إنكاري ومعناه النفي يعني لم تكن فيهم نخالة ، وإنما جاء على طريقة الاستفهام لأن من أدب عائذ أنه طلب منه أن يعود إلى نفسه وأن يسألها هل كان في أصحاب محمد ﷺ نخالة ؟ وهم المهاجرون الذين أُخْرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وهم الأنصار الذين يحبون من هاجر إليهم ولا يجدوا في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وهم الذين قال فيهم سيد الخلق «الله الله في أصحابي فمن أحبهم فبحبي أحبهم» وقال فيهم «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» وهذا من أعذب الكلام يحفظه كل من له ذائقة حيَّة تذوق البيان آمن أو كفر ، المهم أن سيدنا عائذًا أراد لهذا المُتَهَوِّر الكلف بإيذاء عِلْيَةِ من له حسب ونسب أراد له أن يعود إلى نفسه وأن يستحضر جهاد هؤلاء ومناصرتهم لله ولرسوله وأن يسمع جوابها لأنها إذا كذب الناس فلن تكذبه ، ولم يزد عائذ على هذا ولم ينف عن نفسه ما اتهمه ابن زياد به وإنما نفي أن يكون حول رسول الله ﷺ من أحد يوصف بهذا الوصف كما يقول لك قائل أنت من كذبة بني فلان فلا تقول له لست من كذبتهم وإنما تقول له وهل في بني فلان كذبة وهذا من باب نفي الكذب عنك بدليل ، وهو من باب الكناية لأنه يلزم من نفي الكذبة عنهم وأنت منهم نفي الكذب عنك . وهذا هو الرد الأبلغ ويلاحظ أن عائذا اهتم بالدفاع عن أصحاب رسول الله ﷺ وقدّم ذلك .

وقوله رضوان الله عليه (إنما كانت النخالة بعدهم) ليس المقصود به الإخبار بأن النخالة التي هي استعارة لسقاط الناس وحُفالتهم كانت بعدهم وإنما المقصود أنها لم تكن إلا بعدهم لأن الجملة دخلت عليها إنما التي هي

من أدوات القصر فقيّدت الدلالة وصار معنى الجملة محصوراً في هذا القيد وهذا من دقيق بيان العربية ثم إن سيدنا عائذ رضوان الله عليه الذي قال كلمة الحق للسلطان الجائر . لما جاء بكلمة إنما كأنه يردُّ بها على أختها في كلام ابن زياد وأن كون النخالة لم تكن إلا بعدهم من المعاني المتعارفة والمتعالمة والتي لا يجهلها جاهل ولا ينكرها منكر ، وهذا يقابل دعوى السفيه بأن كون عائذ ليس إلا من النخالة لا يجهله جاهل ولا ينكره منكر .

وقد عقب النووي على قول عائذ : «وهل كانت لهم نخالة ؟ إنما كانت النخالة بعدهم وفي غيرهم» قال : «هذا من أجزل الكلام وفصيحه وصدقه الذي ينقاد له كل مسلم فإن الصحابة رضوان الله عليهم كلهم هم صفوة الناس وسادات الأُمَّة وأفضل ممن بعدهم ، وكلهم عدول قدوة لا نخالة فيهم ، وإنما جاء التخليط ممن بعدهم ، وفيمن بعدهم كانت النخالة». وقوله رضي الله عنه وأرضاه (وفي غيرهم) داخل في مفهوم القصر المدلول عليه بكلمة إنما لأنه معطوف على قوله بعدهم يعني لم تكن النخالة إلا بعدهم ولم تكن إلا في غيرهم وهذا ظاهر ، ولك أن تقول ما فائدة قوله وفي غيرهم بعد قوله بعدهم وإذا كانت ليست إلا بعدهم فهي لا محالة في غيرهم ، ولي أن أقول إن هذا توكيد والمقام يقتضيه لأنه يخاطب جلفًا جافيًا لا يعرف قدر أصحاب رسول الله ﷺ ويرد عليه جرأته الفاجرة التي تتصادم مع قول الذي لا ينطق عن الهوى والذي زكّى لنا أصحابه ولا يجوز لمن آمن أنه نبي الله ورسوله أن يجرِّح أحدًا زكاه ﷺ ثم إن ذكر المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين يدفع كلام هذا الغبي الجاهل ، هذا شيء وشيء آخر وهو أن كلمة (بعدهم) ربما دلت على ذهاب زمانهم وربما تبقى منهم بقية في زمن غيرهم كهؤلاء الأبرار الذين أطال الله أعمارهم وكانوا آخر

من قبضوا من أصحابه ﷺ وأن هؤلاء الذين يعيشون منهم بعد زمانهم لا تكون فيهم النخالة فهم محصنون وزمانهم مُحصّن من هذا السوء ، وفي نهاية هذا الحديث أشير إلى شيء أرجو الله أن يغفر لي حِدتي في الحديث عن قاتل الحسين لأنه لا يقتل من حمله رسول الله ﷺ على كتفه إلا فاجر ولم تكن الجاهلية تنكر أن تلد البغايا من العاملات في دور البغايا ، وكانت ترفع رايات على هذه البيوت ليهتدي بها ضلال الجاهلية . والإسلام يَجُبُّ ما قبله وهذا اعتذار مني عن كل كلمة قلتها في ابن أبيه وابن ابن أبيه وليس هذا مرادي وإنما أريد أن أقول شيئًا طالما قرأته ولكنه أبهرني في هذه الأيام لأن أحداثها أَحْيَتْ في نفسي أحداث هذا الزمن القديم ووازنت فوجدت رشدًا وفهمًا وبصيرة عند أهل السياسة في زمن الفتنة افتقده أهل السياسة في زماننا مع أنهم درسوا علوم سياسية والأولون رجعوا إلى العقل والفطرة فهداهم العقل والفطرة إلى الذي لم يهتد إليه رجالنا : أقول عندما انتهت محنة الحروب التي كانت بين علي كرم الله وجهه ومعاوية رضي الله عنه واستقر الأمر لمعاوية في عام الجماعة انضم المعارضون له والمحاربون له إليه واصطفوا معه لأنه ما دام قد انتهى الأمر إليه فالواجب أن يعمل الكل تحت لوائه لإنجاح الأمة في مسيرتها وخاصة أنها كانت تزاول بابًا من أبواب الجهاد هو الفتوحات الإسلامية وقد توقف بسبب الخلاف الذي صدع وحدة الأمة ولابد من رأب هذا الصدع بسرعة ولابد من عودة الوحدة والقوة والقدرة ليست على حفظ الأرض فحسب وإنما أيضًا على فتح أرض جديدة وإزالة الموانع التي تمنع الناس من الدخول في دين الله ؛ تلك الموانع التي كان يقيمها الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله . وهذا هو الرشد السياسي وليس الذي نحن فيه من بذل المعارضة كل جهودها لإفشال من تولى الأمر

فتتوقف حركة النمو والتقدم والقوة والقدرة . هؤلاء ليسوا ساسة وإنما يسوسون الحياة بغير رشد كما قال أبو العلاء ، وذلك بخلاف الجيل الذي هدته الفطرة وهداه الوعي وهو خير الأجيال هذا الجيل رأى أنه ما دام قد انتهى الأمر إلى معاوية مهما كان رأينا منه فلابد من المساندة ليس لمعاوية وإنما للأمة وأكرر أن هذا هو الرشد وهذه هي المعارضة وقد أعد معاوية جيشًا للفتح قالوا إنه أمَّر عليه ولده يزيد ولم يكن نعم الابن لنعم الأب وإنما كان بئس الابن لنعم الأب ولذلك يقول العامة : سُبّ يزيد ولا تزيد : يعني لا يصل لسانك إلى معاوية كاتب وحي رسول الله ﷺ ، أقول لما جهّز معاوية جيشًا للغزو وخرج في هذا الجيش رجال من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ ومنهم من كان يحارب مع علي . وخرج في هذا الجيش ابن عباس بن عبد المطلب ابن عم علي بن أبي طالب بن عبد المطلب وخرج في هذا الجيش ابن عمر وأبوأيوب الأنصاري رضوان الله عليهم وقد توجه هذا الجيش إلى الروم الذين غلبوا في أدنى الأرض وأنزل الله في كتابه سورة سميت سورة الروم وتوغل هذا الجيش حتى صار إلى أسوار القسطنطينية ، وتوفي أبو أيوب الأنصاري هناك ودفن قريبًا من أسوار القسطنطينية التي فتحها محمد الفاتح وإخواننا الأتراك أعز الله بهم الإسلام وأهله ولا يزالون يستسقون بقبر أبي أيوب ولم يأنف سادات الصحابة أن يحاربوا تحت إمرة يزيد لأنهم لم يحاربوا ليزيد ولا لأبي يزيد وإنما خرجوا ينصرون الله ورسوله وذهب البعض إلى أن هذا الجيش لم يكن بقيادة يزيد وإنما كان بقيادة سفيان بن عوف ، وقالوا في تسيير هذا الجيش منقبة لمعاوية لأنه أول من غزا البحر ، وهذا حسبي .

ومما يذكر مع حديث عبيد بن زياد مع عائذ بن عمر حديث عُبيد مع معقل بن يسار وهو صحابي جليل والموضوع واحد وهو نصح العلماء للولاة والأمراء وكان ابن زياد مع جفائه مع عائذ جيد السماع جيد المراجعة مع معقل بن يسار ، وهذا عجيب لقد جفا مع عائذ وأساء إلى أصحاب رسول الله ﷺ وكان على العكس من ذلك مع معقل وهل كانت علاقته الشخصية مع الصاحبين الكريمين لها مدخل في هذا التغيُّر وهذه المباينة والذي يظهر في السياق أن عائذًا دخل عليه في مكان ولايته وكان ما كان وأنه هو الذي ذهب إلى معقل بن يسار في بيته يعوده وهو في مرض موته ، فهل كان لمرض معقل أثر في تغيير الموقف ويلاحظ أن معقلاً قال له شيئًا لم يقله عائذ وهو أنه لولا أنه على فراش الموت ما أبلغه بنصح رسول الله ﷺ وهذا اتهام صريح وواضح وأنه لا يقبل النصح وأن من ينصحه لا يأمن جوره عليه وقمعه له وكأنه واحد من سادتنا لابد أن نقول له حسن مافعلت وحسن ما تفعل وحسن ما ستفعل هذا وإلا لقيك منه هولاكو ، ولنقرأ الحديث .

روى مسلم بسنده عن الحسن قال : عَادَ عُبَيْدُ الله بن زياد مَعْقَل بنَ يسار المُزني في مرضه الذي مات فيه فقال مَعْقِلٌ إنِّي مُحدِّثُكَ حديثًا سَمعته من رسول الله ﷺ لو علمت أن لي حياةً ما حدّثتك إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من عبد يسترعيه الله رعيّةً يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة ».

وجاء في رواية أن عبيدًا لما سمع هذا قال لمعقل : ألا كنت حدثتني هذا قبل اليوم؟ قال ما حدّثتك أو لم أكن لأحدّثك . وروى مسلم بسنده عن قتادة

عن أبي المليح أن عبيد الله بن زياد دخل على معقل بن يسار في مرضه . فقال له معقل إني مُحدّثك بحديث لولا أني في الموت لم أحدثك به سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة». وهذا الحديث كأنه بيان للذي قبله وأن الغاش لرعيته هو الذي لم يجهد لهم وينصح .

وقد وَدِدْتُ لو أني جمعت كل ما في الكتب من أحاديث رجال هذه الأمة وهم على فراش الموت مثل حديث أبي بكر لما عاده عبد الرحمن بن عوف وهو وجع على فراشه الذي مات فيه ، وحديث عمر لما طُعِن وحديث معقل بن يسار هنا لأن هذه الأحاديث من أواخر الكلمات التي يقولها هؤلاء الكرام يخاطبون بها أمتهم ويضعون بها إضاءة في طريق المستقبل الطويل لهذه الأمة وهذا يعني أن الذي غلبهم على أنفسهم وهم في هذه الحالة التي يستدبرُون فيها الدنيا والعيال والأهل وكل ما فيها ويستقبلون الآخرة بغيبها الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه لم يكن لهم شاغل في هذه الحالة إلا شاغل واحد وهو شأن هذه الأمة والتحذير من الموبقات التي توهنها ،وهؤلاء هم بناة الأمم وبناة الأجيال وبناة الحضارات مع الاختلاف الشديد بين منزع كل في حديثه . وقد سبق أن ذكرت من حديث معقل ما ذكرت وأعيده لبقية فيه وحديث معقل بن يسار جملة واحدة ، ليس فيها مفصل واحد يحسن السكوت عليه ، وإنما هو جمل يبنى بعضها على بعض ويأخذ بعضها بحجز بعض من أول إن محدثك إلى قوله حرّم الله عليه الجنة وراجع هذا لتَتَبيَّنه بنفسك فالحديث الذي يحدثه به سمعه من رسول الله ﷺ وما دام سمعه من رسول الله ﷺ فالأصل أن يكون حدّثه به من زمن ولكن حياة معقل حالت دون ذلك وكأن الحديث بما سمعه من رسول الله لو حدّث به

لكان خطرًا على حياته فلما جاءه الموت لم يجد بُدًّا من الحديث به وهو أنه سمع من رسول الله ﷺ جملة واحدة هي «ما مِن عَبْدٍ يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته إلا حرَّم الله عليه الجنة». راجع هذا التسلسل وهذا التماسك .

وأول ما يطرق أذني في هذا الحديث هو أداة التوكيد (الأم) التي يؤكد بها معقل أنه محدّثه الحديث الذي هذا خبره وتعنيني أداة التوكيد هذه وتوابعها من حيث هي مَنْفَذٌ يساعدني على الولوج بقدر ما أستطيع إلى الذي في صدر معقل وأنه يؤكد أنه سيحدثه حديثًا سمعه من رسول الله وأنه حَبَسَه زمانًا وأنه كان همًّا غالبًا في نفس معقل ، وأن الباب الذي حبسه كان بابًا يجب إحكام غلقه لأن الذي دون فتحه هو شر هذا الوالي وإنما يفتحه حين لا تبقى له في حياته بقية تتّسع لتنكيل هذا الباغي .

ولا شك أن عائذًا ومعقلاً كانا في أرض واحدة لأن لهما واليًا واحدًا ولم أعرف أي الخبرين كان أسبق ؟ هل كان لقاء عائذ مع ابن زياد أسبق من لقاء معقل ؟ وإن كان شاهد الحال يرجح هذا لأن معقلاً هو الذي ذكر أنه لم يحدثه لشرّه وعائذ حدثه ثم بان له شرّه من حديث له ، وهذا يعني أن عائذًا حدثه وهو لايعلم شرَّه بدليل أنه خاطبه خطاب ملاطفة وقال له أي بني . ثم إن معقلاً عليه السلام أدخل أداة التوكيد على ضمير المتكلم وقال «إني» ثم أخبر عن ضمير المتكلم بقوله (محدثك) وهذا غير قولنا أحدثك أو سأحدثك لأن الإخبار بالاسم آكد من الإخبار بالفعل ثم قال حديثًا فأكد الفعل بالمفعول المطلق وكل هذا يفيد أن حديثًا أي حديث ظل مكتمًا في صدره وآن الأوان لأحدثك به وإني محدّثك به أقول إن قوله إني محدّثك تأكيد أنه يحدثه ووراء هذا التوكيد أنه كان يعاني أنّه لا يُحدِّثه بالذي يريد

الآن أن يحدثه به وقوله سمعته من رسول الله ﷺ ، وصف للحديث بأبلغ وأرفع ما يوصف به لأنه ليس فوق حديث رسول الله ﷺ حديث يحدث به لسان وفي هذا الوصف أيضًا ما يؤكد أن الذي حبسني عن أن أحدث حديثًا سمعته من نبي الله ورسوله هو شر حابس وشر مانع وفي كل هذا دلالة قوية على أنك شَرُّك يُتَّقَى بالصمت عن الحديث بأشرف الحديث وشرّ الشّرِّ ما يُتقَى بأفضل الخير ، وقد ذكرت في حديث عائذ أن قوله «سمعت من رسول الله ﷺ» فيه مناقب منها أنه حضر مجلسه ﷺ ورأته عينه وسمعته أذنه وأنه سمع هذا الحديث الذي سيذكره غضًا طريًا حديث عهد بوحي الله لرسوله ﷺ .

وقوله رضوان الله عليه «لو علمت أن لي حياة ما حدثتك» كلام صريح جدًا في أنك بئس الوالي ، لأن الذي كتمته في صدري من خير كلام سمعته من خير الناس إنما كان سببه أنه يهدِّد حياتي ويهدِّدُ أمْنِي ويُهدِّدُ راحَتِي لو حدّثتك به ولو كان لك قلب يخشع حين يسمع من رسول الله ﷺ لحدثتك به ولكنك يضيق صدرك وتضيق نفسك بسماع النُّصْحِ وسماع الأمر بالعدل إلى آخره ولذلك أرى أن معقلاً صارح عبيدًا بسوء رأيه فيه فاستقام له عبيد وربما كان شهود المرض المُوحي بالموت له أثر في نفس عبيد وربما كسر شيطان عبيد قول معقل (لو علمت أن لي حياة ما حدثتك) وأنه استشعر رهبة داخلية من خشية صحابي جليل من ظلمه وقَمْعه ، وهذا يرجح أن يكون حديث معقل بعد حديث عائذ وأن حديث عائذ هو الذي أشاع في الناس سوء أدب ابن زياد مع أهل النصح من أصحاب رسول الله ﷺ .

وجملة «لو علمت أن لي حياة ما حدثتك» جملة قوية في مبناها ومعناها ولو هنا تفيد انتفاء وقوع الجواب لانتفاء وقوع الشرط .

وأن حديثه بما سمعه من رسول الله ﷺ ترتب على علمه بأنه لا حياة له ، وأن كلمة الحق لك تهدّد حياة قائلها والتنكير في كلمة (حياة) يفيد نفي العلم بحياة أي حياة ، وأنه لم يعد بيني وبين الحياة سبب ولو بقي سبب أي سبب ما حدثتك لأن نصحك يُهدد أي سبب بيني وبين الحياة ، وليس هناك أبشع من ذلك ولم يخاطب والٍ بأشنع من هذا الخطاب ومثاله أن تقول لو علمت أن هذا يغضبك ما فعلته فقد رتبت الفعل على القطع بعلمك أنه لا يغضبه أعني على نفي العلم بأنه يغضبه ، ولو هذه أخت لو التي في قول الشاعر :

فلو كان حمدٌ يُخَلِدُ الناس لم تَمُتْ ولكن حَمْدَ الناس ليس بمُخَلِدِ

فقد أفاد شرطها نفي أن يكون الحمد مُخلدًا للناس وترتب جوابها الذي هو الموت على ذلك ومثلها في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ ﴾ ، أفادت نفي أنه سبحانه أراكهم كثيرًا وترتب عليه عدم الفشل .

وإنما تحدّث معقل لأن البلاغ واجب عليه وخاف أن يموت وفي صدره من كلام رسول الله ﷺ كلام لم يُبلّغْهُ ، وإنما جاز له التأخير لأنه خاف على نفسه ، ولأن هذا التبليغ واجب على السَّعة وليس على الفور كوجوب الحج ومن غلب على ظنه أنه لن يعيش للعام القادم فقد وجبت عليه المبادرة بالحج في هذا العام ثم إن السكوت عن بلاغ هذا الحديث إلى وقت مقاربة الموت فيه سَعَةٌ لأن مضمون هذا الحديث هو النهي عن الغش مطلقًا فضلاً عن غش الوالي وتحريم الغش من المعلوم الشائع فلم يترتب على تأخير البلاغ ضرر ، وهذا الكلام أكثره مستخلص من كلام الإمام أبي عبد الله الأبيِّ .

وجاء في رواية «إنيّ محدِّثك بحديث لولا أنـّي في الموت لم أُحَـدّثْكَ به» وقوله لولا أني في الموت أدخل في المعنى من قوله «لو علمت لي حياة ما حدثتك» لأن الذي في الموت تجاوز مرحلة العلم بأنه لا حياة لـه. وهذا أَوْجَعُ وأنكى في خطاب ابن زياد وتكميمه لأفواه الناصحين من العلماء المخلصين وقد ابتُلينا بهذا البلاء من زمن قديم. ونرجو الله أن يفرج الكرب بمن يحبون التعرف على الحق.

وقد ذكر الشافعي كلامًا جليلاً في حديث من أصبح في حالة أقرب إلى الموت وأن حديثه في هذه الحالة أقرب إلى التقوى، قال رحمه الله: «وللناس أحوال تكون أخبارهم فيها أصح وأحرى أن يَحْضُرها التقوى منها في أُخرى. ونيات ذوي النيّات فيها أصح وفكرهم فيها أَدْوَم وغفلتهم أقلّ، وتلك عند خوف الموت بالمرض والسفر وعند ذكره وغير تلك الحالات من الحالات المنبِّهة عن الغفلة» انتهى كلام الشافعي. قوله أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرّم الله عليه الجنة» قوله عليه السلام «ما من عبد يسترعيه الله رعية» هذا التركيب من الأساليب العالية وحين تراجع الجملة التي من كلامه ﷺ وهي مسلوكة في سلك كلام تجد هذه الجملة فيها خصوصية دالة على خصوصية بيانه صلوات الله وسلامه عليه وليس ذلك من جهة المعنى فقط وأن في معناه علامة من علامات النبوة لأنه هنا مثلاً لا يخبر عن دخول الجنة أو الحرمان منها إلا من يُبلّغ عن الله لأن مجازاة الأعمال في الآخرة نعيمًا أو عذابًا هو شأن الله وحده لا أقول إن جملة النبي ﷺ تتميز بهذا فحسب وإن كان هذا جاريًا في كل كلامه لأنه يستوي أن يكون في الكلام خبر من أخبار الآخرة أو أن يكون في الكلام حكم من أحكام الله وأمر من

أمره أو نهي من نهي كل هذا في الدين أمر إلهيٌّ محض ، وإنما أردت أيضًا ضبط المعنى واللغة التي كانت وعاء له وسورة مُسوّرة له لا يدخل في هذا المعنى شيء من خارجه ولا يتفلت من هذا السور شيء من داخله ، وراجع هذا النفي في قوله عليه السلام «ما من عبد» ثم دخوله على «مِنْ» الزائدة الداخلة على النكرة ، وهذا أسلوب شائع في كلامه صلوات الله وسلامه عليه «ما من أمير» وشائع في كلام الله : وما من دابة في الأرض وهو دال على الاستقصاء ودقة الحصر تقول ما من كتاب وما من صديق وما من أرض وما من سحاب وما من زرع إلى آخره ، ثم تجد في جملته عليه السلام شيئًا آخر واقعًا في مقامه أحسن موقع وهو قوله عليه السلام «ما من عبد يسترعيه الله رعيَّة» فيذكر الذي استرعاه الله بوصف العبد وفيه أنه واحد من عبيد الله استرعاه الله رعية من خلقه ويستوي في هذا الخلق الإنسان والحيوان والنبات لأن كلمة «من خلقه» تستوعب ذلك كله فالذي يرعى أرضًا زراعية عبد استرعاه الله عليها لأنها من خلقه وهذا عجيب جدًّا لأن كلمة من خلقه اتسعت بها الدلالة سعة لا حد لها فلم تشمل الراعي الذي يرعى إبل سيده وغنمه وإنما كل من يرعى شيئًا خلقه الله ولو كان يحرسُ رأس أبي الهول ثم إن كلمة عبد تذكر بأنه مخلوق لله والمخلوق لله مملوك له سبحانه ثم إن الله سبحانه هو الذي آثره واسترعاه وأنه مهما كان له فعل في توليه كأن يكون كان انقلابيًا أو وراثيًا أو انتخابيًا فإن نتائج كل ذلك هي من الله لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريده ، ثم إن كلمة يسترعيه مادتها من الرعاية فأنت ترعى لهم مصالحهم ، لأن الرعاية هنا ليست للبشر وأنه يسوقهم بعصاه كما يفعل الحاكم الجاهل الذي لا يصلح إلا أن يكون راعي حيوان وإنما الرعاية رعاية مصالح في التعليم وفي الصحة وفي التصنيع وفي الزراعة وفي

الاقتصاد وفي السياسة وفي كل شأن من شؤون الناس هذا هو الذي يكون الغش فيه ويكون النصح فيه وتكون الأمانة فيه وتكون الخيانة فيه ثم إن أقل مستوى من مستويات هذه الرعاية أن تكون كل هذه المؤسسات في أعلى مستوى بالنسبة إلى نظائرها في أرقى الدول بمعنى أن يكون التعليم في أعلى مستوياته بين أعلى دول العالم والصحة والاقتصاد إلى آخره ، لأنه بعد الوصول إلى المستوى الذي عليه أرقى الدول يبقى مستوى طالبنا الله به لما قال لنا ﴿ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ ﴾ فلا بد أن يرتقي بكل هذا فوق أعلى هذه المستويات لتتحقق لنا معنى (الأعلون) وهذا وأكثر منه داخل في قوله عليه السلام «استرعاه الله رعية» ولابد أن تراجع إسناد استرعاه إلى لفظ الجلالة الجامع للكمالات كلها وأن الجامع للكمالات كلها إذا أضاف فعلاً إلى واحد من خلقه فكأنه يطالبه بأن يصل به إلى أقصى الكمالات التي يستطيع الحاكم الصادق المخلص الذي آثره الله بها أن يصل إليها ، ثم إن في هذا استنفارًا لطاقة هذا العبد لأنه حين يستشعر أن الله سبحانه هو الذي جعله في هذا الموقع من أُمَّته وأنه سبحانه هو الذي استرعاه استحيي أن تذهب منه أي طاقة إلا في رعاية هذه الرعية التي استرعاه الله عليها ، وحين يبذل أقصى الجهد وأقصى الإخلاص سيجد يد الله تعينه وتمده وتسدّده .

وهذا الحديث يسبق في ترتيب الوقائع حديث كلكم راع لأنك صرت راعيًا وصار كل منا راعيًا باسترعاء الله له فالله سبحانه استرعانا فصار كلنا راع ، والحديث شديد الصلة بكلكم راع ليس من جهة أن الله استرعانا فصار كلنا راع فحسب وإنما أيضًا من جهة التعميم لأن الحديث شامل لكل من استرعاه الله رعيه ابتداء من الأمير الذي على الناس وانتهاء بالعبد الذي يرعى مال سيده ثم إن قوله عليه السلام « فيموت يوم يموت وهو غاش لها » هذه

الفاء للعطف والترتيب يعني استرعاه الله فيموت يوم يموت ومجيء المضارع لأنه المقصود أعني المستقبل فالله استرعاه يوم استرعاه ثم يموت يوم يموت وكلمة «يوم يموت» وإن كان معناها مفهومًا لأن كل من مات فقد مات يوم مات لأن كل حدث لابد له من زمن وقع فيه ، ولكن هذا أفاد هنا معنى آخر وهو تقييده بالجملة الحالية بمعنى أنه يوم موته كان غاشًا لها والخبر الذي يأتي بعد ذلك وهو تحريم الجنة مؤسس على هذا القيد لأنه لو مات يوم يموت وقد انكشف عنها غشُّه لها ولو كان قبل ذلك بيوم واحد أعني وقت قبول التوبة وقبل وقت الغرغرة لا يحرم الله عليه الجنة لأنه تاب مع أن أثر غشه باق على من استرعاه الله عليهم لأن غش ساعة في رعاية اقتصادها أو تعليمها أو زراعتها تترتب عليه عواقب ربما تبقى زمانًا وخصوصًا أن العالم في سباق محموم نحو التقدم وليس رَغْبة في التقدم فحسب وإنما أيضًا رغبة في الغلبة وكلام سيدنا رسول الله ﷺ جملة واحدة بُنِيَت على القصر وأداة القصر فيها النفي والاستثناء والمقصور عليه هو الواقع بعد إلا وهو قوله عليه السلام حرّم الله عليه الجنة والمقصور هو ما قبل إلا وهو العبد الذي استرعاه الله رعية فيموت وهو غاش لها وهذا العبْد الذي هذا شأنه لا يجوز عُقْلاً قصرُه على تحريم الجنة وإنما المقصود قصر أحوال العَبْد الذي هذا شأنه على حال واحدة وهي تحريم الجنة ثم إن القصر بالنفي والاستثناء فيه توكيد شديد لهذا المعنى وأن الخبر مما يخالف فيه وينكره من ينكره وأنه عليه السلام يؤكد هذا المعنى حتى لا يتهاون من استرعاه الله رعية في شأنها ، والغش هنا ليس غش بَيْع وشراء لأنه ليس مما يقع بين الوالي والشعب وإنما الغش هنا هو إهمال مصالح الجماعة وعدم السعي فيها بأقصى طاقة وأقصى وعي وجد ويقظة ، ووراء كل ذلك الحرص البالغ من

سيدنا رسول الله ﷺ على صلاح وإصلاح كل من يلي أمرًا من أمور هذه الأمة وعليه أن يتجرد لرعاية ما يرعى وأن يبذل كل طاقاته فيه لأن هذا هو مصدر قوتها ورخائها وحياتها الكريمة وهو اللائق بخَيْرِيَّتِهَا التي حدثنا الله عنها فالخيرية خيرية في العلم وفي الإنتاج وفي السياسة ، وفي كل شأن من شؤون الحياة ، وكل هذا لا تُنال الخيرية فيه إلا أن يبذل كل مواطن أقصى الجهد في إتقان رعاية ما هو راع له .

وقد عقب النووي على قوله عليه السلام « إلا حرم الله عليه الجنة » بقوله : إنه يحتمل وجهين أحدهما أن يكون مستحلاً لغشهم فتحرم عليه الجنة ويُخلّد في النار والثاني أنه لا يستحله فيمنع من دخولها أول وهلة مع الفائزين وهو معنى قوله في الرواية الثانية لم يدخل معهم الجنة أي وقت دخولهم بل يؤخر عنهم عقوبة له إما في النار وإما في الحساب وإما في غير ذلك ، وفي هذا الحديث وجوب النصيحة على الوالي لرعيته والاجتهاد في مصالحهم ، والنصيحة لهم في دينهم ودنياهم وقوله عليه السلام « يموت يوم يموت وهو غاش لهم » دليل على أن التوبة قبل حالة الموت نافعة ، انتهى كلام النووي .

وقد روى مسلم بسنده عن قتادة حديثًا آخر هو من تمام هذا الحديث ويُذْكَر معه وفيه بيان للقدر الواجب بَذْلُه في خدمة الجماعة التي ولاه الله أمرها . ويقاس عليه غيره . حدّث قتادة عن أبي المليح أن عبيد الله بن زياد دخل على معقل بن يسار في مرضه فقال له مَعْقل إني مُحدّثك بحديث لولا أنني في الموت لم أحدثك به . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من أمير يَلِي أمْرَ المسلمين ثم لا يَجْهَدُ لهم ويَنْصح إلا لم يدخل معهم الجنة » .

المقدمة التي يذكرها الراوي وهي أن ابن زياد دخل على معقل إلى آخره تعني أن الحديثين حديثًا واحد واختلاف الكلام يعني أنهما حديثان ، فهناك ما من عبد يسترعيه الله رعية إلى آخره وهنا ما من أمير يلي إلى آخره فالذي هناك هو كل راع والذي هنا هو الأمير والذي هناك غشَّ من يرعاه والذي هنا لم يَبْذُل أقصى الجهد في خدمة أهدافها ، وهذا مختلف جدًّا ، ولا شك أن مَعْقِلاً سمع الكلامين ولا يمنع أن يكون قال الكلامين لابن زياد في مجلسه الذي عاده فيه .

وأحب أن أشْتغِل بعلاقة المعنى في الحديثين لأن غش المسترعى هناك لم يحدد تحديدًا بيِّنًا . وظني أن هذا الحديث يبين المراد بالغش وأنه تقصير في بَذْل أقصى الجهد في عمل الصالح للجماعة فإذا كان الأول غشَّ ونَزَل بعمله دَرَكا أسْفَل فإن هذا لم يغش بل اجتهد ولكنه لم يبذل أقصى الجهد ولذلك قال هناك حُرِمَتْ عليه الجنة وقال هنا لم يدخل معهم الجنة ، وهذان الحالان داخلان في (كلكم راع) لأنهما تفاصيل لبعض أحوال الرعاية فالذي غش بئس ما فعل والذي لم يَبْلغ الجَهْد أحسن حالاً من الذي قَبْلَهُ ولكنه ليس هو المطلوب والمطلوب تقدم في حديث المقسطين الذين على منابر من نور على يمين الرحمن وكلتا يديه يمين .

قوله عليه السلام (ما من أمير يلي أمر المسلمين) قلت هو من باب ما من عبد يسترعيه الله رعيَّة ، وأقول إن بقية الحديث حُذِى على ذات الحَذْو الذى حُذِي عليه الحديث قبله وهو النفي والاستثناء فالمقصور عليه هنا هو لم يدخل معهم الجنة كما كان المقصور عليه هناك هو حَرَّم الله عليه الجنة ، والذي لم يدخل معهم أقل عقوبة من الذي حَرَّم الله عليه الجنة لأن الذَنْبَ هناك أنه مات وهو غاش ، والذنب هنا أنه لم يبلغ من نفسه الجَهْد في النُّصح

لهم ، والمقصور هنا هو الأمير الذي وَلِيَ أمرًا من أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح ، والمقصود هو قصر أحواله على حالة واحدة هي أنه لم يدخل معهم الجنة وقد قلت هناك مثل ذلك والذي لم أقله هو ضبط المعنى المقصور حالته وأنه هناك مات يوم مات وهو غاش لهم وهو هنا لم يَجْهد لهم وينصح ، وكنت أتمنى لو أتيح لي أن أكتب في تصاقب الأساليب في البلاغة النبوية وكل الذي مضى من الأحاديث فيه هذا التصاقب ظاهرًا . وعجيب أنك ترى تصاقب المباني في الباب الواحد ولكل باب حالة من أحوال البناء .

وهذا الحديث مختلف عن حديث ما من عبد يسترعيه الله ، وعن حديث كلكم راع لأنه مقصود به الأمير الذي يلي أمرًا من أمور المسلمين أو الذي يلي أمر المسلمين والأحاديث السابقة مطلقة في الذي يسترعيه الله حتى الذي يسترعيه الله ثُلَّةً من الإبل ، فيموت يوم يموت وهو غاش لها وهذه الأحاديث دَفع قوي بالترغيب والترهيب لصلاح الأعمال وإتقانها في كل ميدان من ميادين الحياة أعني إشاعة الجِدِّ والصّدْق والإخلاص في كل من يَمُدُّ يده ليعمل شيئًا صانعا أو عالمًا أو ما شئت ثم دفع قوي بالترغيب والترهيب للذي يَلِي أمر المسلمين ، ولو جمعت بعض الأحاديث التى قيلت في شأن الوالي الذي يلي أمر المسلمين ووضعتها بإزاء ما في الدساتير من ضوابط نظام الحكم ومسؤولية رأس الدولة ستجد فرقًا متسعًا جدًّا ويمكنك أن تكتفي بهذا الحديث الذي يطالب رأس الدولة بأن يجهد للناس يَعْني يبلغ أقصى الجهد في رعاية مصالحهم وينصح للناس يعني يبلغ أقصى الوعي في جمعهم على المشاريع المدروسة . وبذلهم هم أيضًا أقصى الجهد وأقصى النصح في العمل والإتقان والتقدم في كل ميدان من مَيَادِين حياتهم ، ومعلوم

أن بذل أقصى الجهد لا يعتدّ به ولا يُحسب له حساب ما لم يكن مؤسسًا على علم مدروس وخطط لا يُدَاخلها اختلال ومعلوم أيضًا أن كلام رسول الله ﷺ يستتبع أحوالاً وتفاصيل لا يَتِمُّ معنى كلامه عليه السلام إلا بها ويسكت كلامه عليه السلام عن هذه التوابع وتفاصيلها لأنها مُتَغيِّرة بتغيّر الأزمان ويكتفي عليه السلام بذكر رأس الموضوع بيان ذلك هنا أنه عليه السلام أقام حديثه هذا على كلمتي « ثم لا يجهد لهم وينصح » لأنك ترى أن هاتين الكلمتين هما قلب الحديث وأصله ومراده ، وأن ما قبلهما وطاءٌ لَهُما وما بعدهما ثَمَرةٌ لهما وهذا ظاهر والذي أريده أن الوالي الذي يجهد وينصح لشعبه لا يتصور أن يجهد وَحْدَه وأن ينصح وحده لأن ذلك غير مُجْدٍ وهو خلاف العَقْل والواقع وإنما الذي وراء أن يجهد نفسه وأن ينصح لهم أن يكون حوله كفاءات الناس العُلْيا في كل باب من الأبواب التي تقوم عليها حياة الناس ، أن يكون حوله أكفأ الناس في العلم وفي التعليم وفي الصناعة وفي الزراعة وفي الاقتصاد وفي السياسة إلى آخره وأن يكون كل فريق من هؤلاء الأكفأ قد وقعَتْ عينه على البارزين في ميدانه من العلماء الصادقين المخلصين فيكلفهم بشغل المواقع الأساسية في هذا الباب وأن يكون الكل ليس طالب صيد وإنما يكون الكل راغبًا في العطاء وتقدم هذه الجماعة ؛ الكل مَذْهَبُه العطاء والإيثار والدوران حول مصلحة البلاد وبذلك تجري هذه الروح في كل شرايين حياة الجماعة حتى لا ترى إلا شدة اليقظة وشدة الإخلاص وشدة التفاني وهذا شيء من معنى أن يجهد الأمير نفسه . والنصح يقتضي معرفة الحق الذي لا شك في أنه الحق والصواب لأن الناصح إذا لم يعرف حقيقة ما ينصح فيه لا يكون ناصحًا وهذا يوجب الوصول إلى محض الصواب في كل هذه الأبواب التي لا تقوم حياة الجماعة إلا بها وهذا يوجب

تكوين كتائب من شيوخ الباحثين في كل هـذه الميـادين وأن يكـون عملـهم متجاوزًا الحالة الـتي عليهـا الـبلاد في العلـم والتعليم والصـناعة والاقتصـاد والسياسة إلى آخره ، أن تكون هـذه الكتائـب متجـاوزة ذلـك إلى استشـراف آفاق جديدة في كل هذه الأبواب حتى تَسْبق الأمم فيها ولاتسبقنا الأمم فضلاً عما نحن فيه مـن وقوفنـا عنـد مضـغ رجيـع الأمـم المتقدمـة في كـل هـذه المجالات . أقول إن كلمتي يجهد لهم وينصح لهم تفتح آفاقًا مترامية وتـترك التفاصـيل الجزئيـة المتنوعـة بتنـوع أحـوال الزمـان والمكـان والمسـتويات الحضارية ثم أقول إن الذي قُلْتُه هو بعـض معانيهـا وإذا كنـت تـرى أن هـذا شرح لكلام خير البرية بما لا يحتمله فبين لي كلمة واحدة تخرج عن دلالـة كلمتيه صلوات الله وسلامه عليه وأزيدك بيانًا وأقـول إن الـلام الـتي في قولـه عليه السلام (يجهد لهم وينصح) هي اللام الفاصلة بين الأمير الصالح المصلح والأمير الفاسد المفسد لأن الصـلاح والإعْمَـار والبحـث الجـاد الـذي يخـرج النّاس من الظلمات إلى النور أعني من الفقر إلى الغنى ومن الجهل إلى العلم ومن التبعية إلى الاستقلال ومن الاعتماد على غيرنا إلى الاعتماد على أنفسنا إلى آخر هذه السلسلة الممتدة جدًّا والخارجة من تحت هذه الكلمة العريقـة البعيدة الغور التي هي إخراج الناس من الظلمات إلى النور لا يكون من ذلك شيء إلا إذا كان الأمير يجهد لهم لأن الذي يجهد لنفسه ويجمع الثروة ويمكن أهله وأصدقاءه وخدمه والكل همه الأثرة والتكوين والجمع والخَطْف والسَّلْب والنهب والقمع حتى لا تسمع الأصوات الفاضحة لهم هذا الأمير يجهد ولكنه لا يجهـد لهـم ، وانظـر حولـك فـإذا رأيـت مباشـرة المسـؤولية درّت علـى أصحابها ثراء وأرْضًا ومصانع فاعلم أنهـم يجهـدون لأنفسـهم وأنهـم يُبْقُـون الناس في الظلمات وإذا لم تـر ذلك كان هؤلاء مظنة الصلاح والإصلاح .

قلت إن إخراج الناس من الظلمات إلى النور معنى مُتَّسعٌ جدًّا وأن الأمير الذي يجهد لجماعته وينصح يكون كل عمله ومن حوله داخلاً في إخراج الجماعة من الظلمات إلى النور وأرى تفسيرًا آخر تدل عليه هذه الكلمة وهي أن من خرجوا بكتاب الله من الظلمات إلى النور هم خير البرية الذين لهم جنات عدن ثم إنهم في الدنيا أيضًا في جنات أخرى لأن الذين يخرجون من التخلف إلى التقدم ومن الضعف إلى القوة ومن العَجْز إلى القدرة ومن الجهل إلى العلم هم في جنة الدنيا ، لأن العَجز جحيم والهزيمة جحيم والتخلف جحيم والتبعيَّة جحيم وكل هذا من الظلمات القابع فيها شرُّ البريَّة وهم في نار الدنيا وهكذا ترى أحرار البلاد يحترقُون حين يرون البلاد يركب رأسها جاهل مغامر عاجز يجهد لنفسه ولمن حوله بأخلاق رئيس العصابة ثم إنك ترى الأمير الذي يجهد نفسه لهم وينصح هو الذي يَقفِزُ بدولته من طور إلى طور وهؤلاء موجودون وليسوا صورًا خيالية ونراهم حولنا نرى بلادهم بسرعة خرجت من طوابير التخلف إلى صفوف التقدُّم ومن الجهل إلى العلم ومن الحاجة إلى الوفرة ومن الأخذ عن الآخرين إلى العطاء للآخرين ونرى العصابات التي فوق رؤوس المتخلفين تهاجم هؤلاء صباح مساء لأن هؤلاء يغارون علينا ويرون أننا أهل لأن نتقدم ولكن أغلال القمع والخطف والجهل إلى آخر أوصاب التخلف كل ذلك قيودٌ ثقيلة حائلة بيننا وبين ذلك ، المهم أن الأمير الذي يَجْهَدُ ويَنْصَحُ هو الذي نرى له آثارًا ظاهرة على بلاده على مدارسها ، وجامعاتها ، ومراكز البحث فيها ، والذي لم يجهد لها تجد له آثارًا لا أُحدثك عنها لأنك تعيشها ، وهذا حسبي ، ورواية الحسن رضي الله عنه التي ذكر فيها زيادة وهي قول ابن زياد لمعقل بن يسار ألا كنت حدثْتَني هذا قبل اليوم ؟ قال ما حدثتك أو لم أكن لأحدثك ، ذكرت

بعض ما رأيته من أسباب اختلاف موقف ابن زياد مع معقل عن موقفه مع عائذ بن عمرو وأضيف هنا شيئًا رأيته أقوى مما ذكرت وهو أن حديث عائذ : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن شر الرعاء الحُطمة فإياك أن تكون منهم »، هذا الحديث أقرب إلى وصف إدارة ابن زياد لشؤون البلاد وأن القبضة الحديدية أو الأمنِيّة كما نقول كان هذا مسلك ابن زياد وخصوصًا في المناطق التي كانت فيها أغلبية مع سيدنا علي كرم الله وجهه والقبضة الحديدية التي هي البطش والقمع والتخويف والتنكيل هي ذاتها الحُطمة ، وهي ذاتها شر الرعاية ، ثم إن حكم بني أمية قام على تحطيم حكم عليّ كرَّم الله وجهه وكسر جيشه والاستيلاء على مقاليد الأمور في الولايات التي كان يحكمها ولاته كرم الله وجهه ، ولهذا كان حديث عائذ بن عمرو حديثًا صادمًا لابن زياد بخلاف كلام مَعْقل فليس في حديثه ما هو أقرب رحمًا إلى حالة ابن زياد ولهذا قال « ألا كنت حدثتني هذا قبل اليوم » والمعنى حتى أكون أكثر عدلاً وأكثر إخلاصًا وأكثر نُصحًا . وهذا قبول جيد للنصح وهو بخلاف ما قاله لسيدنا عائذ بن عمرو .

ولك أن تستخلص من كل هذا أن التخلف من باب الذنوب والمعاصي يعني أن خراب المدارس من باب المعاصي ، وانهيار مستوى الجامعات من باب المعاصي ، وانهيار الصناعات وتوقف البحث العلمي وتوقف التقدم كل هذا من الباب المفضي إلى عذاب الله ، وأن التقدم والخروج من الضعف إلى القوة ومن التخلف إلى التقدم والنهضة كل ذلك من باب صالح الأعمال ، ويمكن أن تختصر كل هذا وتقول إن التقدم فريضة إسلامية كما قال العقاد إن التفكير فريضة إسلامية وإن كان هذا يوشك أن يكون نصًّا ذكره الشافعي في الرسالة .

قلت إن هذه المعاني التي ترى فيها التفكير فريضة إسلامية والتقدم فريضة إسلامية ومثل هذا كثير في الكتاب والسنة أقول كان هنا أصل تكوين الدولة الإسلامية التي يبذل فيها كل مسؤول وكل راع أقصى المجهود في إتقان وإحسان ما كلف به ومضت في طريق القوة والفتوحات والتقدم في العلم والعمل واستولت على أوسع رقعة في الأرض ودخلت ما دخل عليه الليل ولم تعرف الهزيمة ولا التخلف ولا الضعف وبلغَتْ الحد الذي رأينا فيه المعتصم بالله يرد على رسالة ملك الروم برسالة يقول له فيها جوابك عندي جيش أوله عندك وآخره عندي ثم بنت حضارة وعلومًا ألهمت العالم ولا تزال تلهمه ولم يتوقف ذلك إلا في عصر الاستعمار . الذي بدأ باجتماع الدول الأوربية على حرب دولة الخلافة ولم تستطع أن تكسرها إلا بعد اجتماعها ، وتغيّرت الثقافة الواحدة المجتمعة والتي صنعت هذه القوة ، وظهر فينا من يدعو إلى فصل الدين عن الدولة ، لأنه لم يقرأ شيئًا من هذا التاريخ ثم ظهر فينا من يقتل الذين يرفضون فصل الدين عن الدولة وبلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين في أرض مصر وأنا أكتب هذا الكتاب ونسأل الله أن يلطف بالبلاد والعباد .

ولما كان ولي أمر الناس هو الذي يستنفر طاقات البلاد ويملؤها بالعمل الجاد والإتقان الجاد والصدق والإيثار والتفاني في خدمتها وليس في خدمة مصالحهم ، لما كان الأمر كذلك كان اختياره مسؤولية فيها الحياة أو الموت وفيها الجنة أو النار وأنا أعني الجنة التي هي الأوطان المتقدمة والغالبة والتي تتوفر للإنسان فيها كرامته وتتوفر للإنسان فيها العوامل التي تستَنْفِرُ كل طاقته العلمية والعملية وأعني بالنار هي نار الجحيم الذي يتمثل في الأوطان المتخلفة المقهورة المهزومة التي تأكل من يد غيرها إلى آخره ، ولم يكن

من العقل ولا من الشرع أن يلي أحد الأمر بالوراثة ولا أن يقفز مغامر على ولاية أمر الناس ، وإنما هي الاختيار البالغ في الصدق والتجرد ، وقد ترك رسول الله ﷺ هذا لتغيّر الأحوال فلم يضع لنا نظامًا معيّنًا وإنما أوصى بالعدل والصدق وبذل المجهود والنصح وتوعد على الغش والقمع ومن يَحْطِمون أحلام الناس وآمالهم وأخبر عن منابر النور لمن يستشرفون بالشعوب إلى آفاق العدل والخير والعلم والتقدم .

وقد سكت ﷺ عن الذي يلي الأمر بعده وكانت عنده الفرصة ليَخْتار أو ليوصي لأنه عليه السلام خيِّر فاختار يعني علم بوقت وفاته عليه السلام ، وقد حاول البعض أن يجعل لهم الأمر من بعده فلم يجب وكان ذلك علامة ظاهرة وتكليفًا ظاهرًا للأمة بأن تتحمل مسؤوليتها في ذلك ، وليس لأنه فَصل الدين عن الدولة كما يقال .

ولاحظ أنه عليه السلام كان حوله السابقون من المهاجرين والأنصار وحوله أبو بكر الذي ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل منه إلا أن يكون نبيًا ثم إنه عليه السلام لو استخلف أو أوصى لكان استخلافه سديدًا جدًا لأنه ملهم ولا ينطق عن الهوى ولكن الله جلّت حكمته لم يقذف في روعه ذلك لأنها ربما كانت سنة وإذا كان عليه السلام معصومًا لا ينطق عن الهوى فإن غيره ليس كذلك وفي هذا عَزْلٌ للشعب عن الاختيار وبقاء الاختيار أو الاستخلاف أو الوصية لمن يَلِي الأمر ، وهذا باب من أبواب الفساد يشبه باب الولاية الوراثية أو غيرها مما لايتاح فيها للشعوب أن تختار اختيارا حُرًا رشيدًا لأن الذين لا يختارون هذا الاختيار الحر الرشيد هم أسباب التخلف والجهل والفساد الذي نحن فيه وعلى سادتنا زعماء التخلف والجهل والفساد أن يبادروا مشكورين بتسوية معاش مبكر لأننا لا نطيق

تخلفًا أكثر من ذلك ولأن الفجر صدع ظلمة الليل وحصحص الحق وأوجب إبعاد الفاشلين .

والآن أقف وقفة سريعة في حوار كان بين أبي بكر وعمر لما استخلفه أبو بكر .

قالوا : لما عهد أبو بكر إلى عمر بالخلافة دفع إليه عهده مختومًا وهو لا يعرف ما فيه فلما عرف ما فيه رجع إليه حزينًا كهيْئة الثكلى يقول حمّلتني عبئًا لا أطّلع به وأوردْتني مَوْرِدًا لا أَدْرِي كيف الصُّدورُ عَنه ، فقال الصدّيق ما آثرتُك بها ولكن آثرتُها بك وما قَصَدْتُ مساءَتك ولكن رجوت إدخال السرور على المؤمنين بك .

هكذا كانت رؤوس الدولة الإسلامية في أولى خطواتها ، عُمر المعروف بالشدَّة والتي تضاف إليه الشدائد فيقال شدائد عمر لما علم باستخلافه عاد إلى أبي بكر حزينًا كهيئة الثكلى لاستشعاره بجلال المسؤولية ولم يَعُدْ فَرِحًا لأنه سيصبح خليفة ، وهذه مسؤولية الذي يجهد نفسه وينصح ولم يغش ويعدل ويحمي حدود الدولة ويَفرض مهابتها وقوَّتها ويَرْهِبُ عدوها ويطعم فقراءها إلى آخره .

وقول عمر (حملتني عبئًا لا أطلع به) لم يخش عمر من التقصير لأنه لن يُقصّر وإنما خاف من شيء آخر هو أن يكون كل جهده وكل طاقته وكل قصده ليس كافيًا للوفاء بهذا العبء وأنه إذا لم يوف الولاية حقها لأن قدرته لا تساعده سيكون مسؤولاً ومحاسبًا ، وهذا يعني شيئًا هو أنك لابد أن تكون قدراتك قادرة على الوفاء بالعمل الذي تكلف به فليس المهم أن تكون وزيرًا وإنما المهم أن تؤَدي لهذه الوزارة حقها وليس المهم أن تكون مديرًا ولكن المهم أن تؤدي لهذه الإدارة حقها وأن تجهد لها وتنصح لها وتحدث

فيها تقدمًا وتُضِيفَ إليْها ما تكون بـه أفضـل وأنفـع ، وعُمـرَ رضـي الله عنـه يقيس قوته بمتطلبات هذه الولاية التي يعلم أنه مسؤول فيها عـن كـل شـيء على أرضها حتى إصلاح الطريق للدابة كما قال لـو عثـرت دابـةٌ في العـراق لكنتُ مسؤولاً عنها في المدينة لأن عاملي لم يُصْلح لها الطريق ، وهذه هـي نقطة انطلاق الدولة نحو التقدم والتفوق والغلبة والهيبة .

وقول عمر «أوردتني مَوْرِدًا لا أدرى كيف الصدور عنـه» يعـني أنـه يبـدأ الطريق ولا يدري الحال الذي سيكون عليه يوم ينتهي هذا الطريق ، وهذا هو الإحساس بالمسؤولية التي ترسَّخَتْ في نفوسهم من كلام رسول الله ﷺ الذي ذكرنا بعضه وأن كلامه عليه السلام يُعِـدُّ الرجـال لتحمـل المهمـات الصَّعْبة والنهوض بالأعمال الجليلة ، ولم تكن الإمارة مَغْنمًا ولا وجاهـة وإنمـا هـي خدمة ورعاية وجهد ونصح وبذل وعطاء ليس من الـوالي وحـده وإنمـا منـه ومن كل من حوله ، ثم كل من في هذه الدولـة وهـذا هـو التقـدُّم والنهـوض الذي هو فريضة وخلافه التخلف والضعف الذي هـو فسـاد وإفسـاد وعـذاب وبهذا المعنى أجاب أبو بكر بكلماتـه الجليلـة لعمـر مـا آثرتـك بهـا ولكـن آثرتها بك وهذا معنى نادر لأن الرجل الذي تُـؤْثَر ولايـة الأمـر بـه لا يكـاد يوجد ، والرجل الذي تؤثره بها كثير جدًّا والفرق بينهما هو الفرق بين القـوة والضعف والنصر والهزيمة فالذي تؤثرها به يرفع النـاس والـذي تـؤثره بهـا يخفض الناس ، وهـذا هـو الفرق بين الصلاح والفسـاد والإصـلاح والإفسـاد وما أيسـر الطريـق المفضـي إلى الفشـل ومـا أصْعَب الطريـق المفضـي إلى النجاح .

ثم قول أبي بكر «وما قصدت مَسَـاءتك ولكـن رجـوت إدخـال السـرور على المؤمنين» لاحظ دقة أبي بكر في الإبانة عندما قال (وما قصدت) فعبَّـر

بنفي القصد عن الذي وجده في صدره لما استخلفه ثم قال ﴿ولكن رجوت﴾ فعبر بالرجاء عن الذي لا يملك تحققه لأن الذي يدخل المسرة هو عمر وهذا ما رجاه أبو بكر لما استخلفه ، ثم إن الخليفة الذي يدخل المسرة على المؤمنين هو الذي ما آثره بها ولكن آثرها به يعني لم تكن الخلافة هديَّة لَهُ ولكنه كان هو الهدية التي قدّمها أبو بكر للخلافة آخر عهده بها ، ولو أنزلت كلمة رجوت إدخال المسرَّة على المسلمين على زماننا لرأيت المسرة التي يعيش فيها المواطنون في غير بلادنا لأن الواحد منهم لا يحمل همَّ تعليم أبنائه وأن مستوى المدارس معنى باستخراج أقصى طاقات الطلاب العقلية واللغوية والعلمية والرياضية إلى آخر ما يسكن في الفطرة الإنسانية من طاقات ثم هو لا يحمل همّ العلاج لأن المستشفيات مجهزة بأبْرَز الكفاءات والإمكانات التي تجعله يواجه أي حالة من أحوال المرض له أو لأي أحد من أسرته ثم هو يعيش تحت سقف دولة قوية بجيشها وعلمها وسلاحها تحميه وتحمي أرضه وكرامته وتاريخه ثم هو مسرور بجامعاته التي تعلم أبناءه وأنها في الصف الأول في جامعات العالم وليست خرائب إلى آخر ما يدخل السرور على قلوبهم وعكسه يدخل الحزن والحسرة والأسف على قلوبنا وعلى أرضنا والفرق هو الرئيس الذي هو هدية للرياسة ، والرئيس التي تكون الرياسة هدية له ولذلك نجد الفروق التي بين الأعلى والأسفل في بدايتها فروقا قريبة فإذا اختار الناس من هو هدية يرجو الكل أن يدخل المسرة على كل من يعيش على أرضه أفلحوا ونصحوا وارتفعُوا وعزُّوا وإذا فرض عليهم من ليس كذلك إما بقوه العسكر أو بقوة التآمر مع أصحاب المصالح أو قوة التآمر مع أعداء الوطن وغالبًا ما تتفق هذه القوى الثلاثة قوة العسكر وقوة رأس المال والقوى الخارجية عاش المواطن في ظل هذا في

بؤس وحُزْن وحسرة ، وهذا هو تفسير كلمة أبي بكر ويفسرها من يعيش في ظروف أخرى تفسيرًا آخر وليس المطلوب مني إلا شيء واحد وهو أن يكون تنزيلي لها على أحوال زمني تنزيلاً صحيحًا ، لأنني أقررها في زماني وأنا غاطسٌ في مشكلاته ولم أر فيها إلا هذا .

والعجيب أن سرور الناس وحسرتهم بسبب الوالي الذي يُؤثَر بالخلافة ويُخَصُّ بها وتهدى إليه أو بسبب الوالي الذي تُؤثَر به الخلافة وتَخُصُّ هي به ويُهْدى هو إليها ، أقول العجيب أنه لهذا الفهم الواعى ترك رسول الله ﷺ ذلك للأمة ولم يضع لها فيه نظامًا لتتحمل هي مسؤوليتها في هذا الأمر الكبير الذي به سرورها وشقاؤها ثم اجتهد أبو بكر واستخلف ثم اجتهد عمر وأوشك أن يختار طريق رسول الله ﷺ وينفض يده من هذا الأمر ويُلْقي المسؤولية على الأمة ولكن ألح الناس عليه وأرادوا ألا يتركهم محرومين من مشورته في هذا الشأن الذي لا أعرف شأنا أهم في حياة الناس منه ولا أدْخَل في حياة الناس منه حتى أنه ليدخل على العجوز في خدرها بشقائه وسعادته ويجري صلاحه وفساده وشؤمه في كل شيء فيضعف الجيش الذي بَضَعْفه تضيع الأوطان ، ويضعف التعليم وتضعف الرعاية الصحيَّة وتضطرب حياة الناس وضد ذلك يحدث ويصلح بصلاحه وصِدْقه وجدِّه وجَهْدِهِ ونُصْحِهِ ورفقه . والآن أقرأ ما رواه مسلم بسنده عن سالم عن ابن عمر قال : دخلتُ على حفصة فقالت : أعَلِمْتَ أن أباك غير مُسْتَخْلف ؟ قال : فقلتُ ما كان ليفعل . قالت إنه فاعل . قال فحلَفْتُ أني أكلمهُ في ذلك . فسكتُّ حتى غدَوْت ولم أكلمه . قال فكنت كأنما أحمل بيميني جبلاً حتى رجعتُ فدخلتُ عليه . فسألني عن حال الناس . وأنا أخبره . قال ثم قلتُ له

إني سمعتُ الناس يقولون مقالة فآلَيْتُ أن أقُولها لك . زعموا أنك غير مستخلف وأنه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثم جاءك وتركها رأيت أن قد ضيّع فرعاية الناس أشد . قال فوافقه قولي قال فوضع رأسه ساعة ثم رفعه إليَّ . فقال إن الله عز وجل يحفظ دينه وإني لئن لا أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف . وإن أستخلف فإنّ أبا بكر قد استخلف . قال فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر ، فعلمت أنه لم يكن ليعدل برسول الله ﷺ أحدًا وأنه غير مستخلف . انتهى الحديث ، وللنووي كلام جامع شرح به هذا الحديث فيه فوائد كثيرة ومن الخير أن أضعه بين يديك قال رحمه الله « إن المسلمين أجمعوا على أن الخليفة إذا حضرته مقدمات الموت وقبل ذلك يجوز له الاستخلاف ، ويجوز له تركه فإن تركه فقد اقتدى بالنبي في هذا وإلا فقد اقتدى بأبي بكر ، وأجمعوا على انعقاد الخلافة بالاستخلاف ، وعلى انعقادها بعقد أهل الحل والعقد لإنسان إذا لم يستخلف الخليفة ، وأجمعوا على جواز جعل الخليفة الأمر شورى بين جماعة كما فعل عمر بالستة ، وأجمعوا على أنه يجب على المسلمين نصبُ خليفة ووجوبه بالشرع لا بالعقل» ، انتهى كلام النووى .

أول ما أحب أن ألتفت وأن ألفت إليه هو أن سيدنا عمر يَنْزِفُ والموت محيط به وبعد قليل يواريه الثَّرَى وهو مشغول بأمر الأُمَّة وحفْصة أُمُّنَا أبوها ينزف بطعنة مجوسي عاش آمنًا في عَدْله ثم هي مشغولة بأمر الأمة وأن عبد الله بن عمر أبوه ينزف بطعنة مجوسي وهو مشغول بأمر الأُمَّة وهذا كله غريب وتائه منا وتائه عَنَّا وأن تربية الإسلام وإعداده للناس جعلت أمر الجماعة يغلب على كل شيء حتى يغلب لحظة الموت ويغلب لحظة الحزن

التي في قلب ابنته رضوان الله عليها وفي قلب ولده رضي الله عنه . ولم يكن هذا خاصًا بعمر وابنته وولده ولكنه الحالة العامة لمن ربَّاهم الإسلام وهذا هو سر نجاح هذا الجيل والأجيال التي بعد وسر كل الإنجازات التي أنجزتها هذه الأمَّة في تاريخها كله ، لأن الإسلام نقل الإنسان من ضيق الأَثَرة إلى سعةِ الإيثار ومن ضيق النفس إلى سعة الجماعة ومن الانكفاء على الشأن الخاص إلى الاشتغال بالأمر العام وهذا ضاع منا وهو سر التقدم وسر الإنجاز والتفوق والغلبة لأنه في النهاية ينتج الإنسان الأفضل ويُبْرز المعنى الإنساني الأكثر طلاقة ويُخْرجه من سرداب الأنانية التي يزبل فيها ويقبح ويموت وهو يظن أنه يحيا ، ويجهل سادتنا الجهلة أن القمع والظلم واضطهاد النظام للناس هو الذي يدمر إحساس المواطن بروح الجماعة ويقهره قهرًا على الانزواء والبعد عن الشأن العام وهذا هو التخلف بشحمه ولحمه .

ولو قرأت : أعلمت أن أباك غير مستخلف ؟ فقلت ما كان ليفعل فقالت إنه فاعل . لو قرأت هذا الكلام وهو غير منسوب لنسبته على الفور لجيل المبعث لأنه عليه وسْمُه وميسمه وإن كنتُ لا أستطيع الإبانة عن هذا السَّمْت وهذا الوسم لأن إدراك سمت الكلام يكون بالدربة وكثرة المطالعة فيه وليس له علم يَدْرُسه ولم أعرف أحدًا ذكر شيئًا يصف سمت الكلام ورقته وهاتان الكلمتان مقتبستان من الباقلاني وهذا يؤكد شيئًا مهمًا وهو أن القارئ الجيد للشعر يعرف سمت كل شاعر ويفرّق بين الشعراء المتقاربين في المذهب فيفرق بين سمت شعر أبي تمام وسمت شعر مسلم ويفرق بين سمت شعر البحتري وشعر ابن الرومي ، وهذا جيد وربما ناله بعض الذين صبروا في طلب علم الشعر وثابروا وصدقوا ويعرفه الجيل الأول والذي يليه معرفة ظاهرة وكأن آذانهم كانت عيونًا تتفرَّسُ في الشعر فتعرف قائله معرفة

سريعة لا تلتبس كما كان من الفرزدق لما سمع أبياتًا من ذي الرمة كان جرير قد دسَّ له فيها أبياتًا من شعره فلما وصل ذو الرمة إليها والفرزدق يسمع قال له الفرزدق أعد عليّ هذه الأبيات فلما أعادها قال ليس هذا من بحرك قائلها أشدُّ لَحْيَيْن منك هذا شعر ابن المراغة ، قلت إن سمت الكلام يظهر ويعرف وأن تحليله ووصفه لا يظهرولم يكتب فيه أحد ، وإن كنت أحاول ذلك ولم أُصب وفي هذا العصر الذي هو عصر المبعث أشياء كثيرة لم تدرس وبَعْضُ أهْل الصدق فتحوا بعض أبوابها ، كالذي فعله المرحوم محمود شاكر لما فتح باب معرفة إعداد هذا الجيل إعدادًا بيانيًا حتى يستطيع أن يتلَقّى حجة محمد ﷺ التي هي الكتاب العزيز وأن يدرك إدراكًا لا يشوبه شك في أن الذي تسمعه أُذُنُه ويتلوه محمد عليه السلام ليس من كلام الناس ويستحيل أن يكون من كلام الناس . المرحوم شاكر يبين من أين كانت لهم هذه القدرة التي استيقنوها جميعًا ثم أسلم منهم من أسلم وضَلَّ من ضَلَّ وهو يعلم أن ما يقوله عليه السلام حق لا ريب فيه ، قال المرحوم شاكر في هذا نصًا كريمًا يَرْجَحُ به ميزان هذه الصفحات : « فالشعر الجاهلي الذي مارس عليه عَرَبُ الجاهلية تذوُّقهم قرونًا حتى بلغ التذوق ما بلغ تكمُنُ فيه وفي بيانه هذه الصفات المربية على ما في سائر الألسنة من الصفات إرباء حقيقيًا بالتأمل والتبين لأن هذه حقيقته التي دَلّتْ عليها هذه المطالبة الفريدة لجنس واحد من البشر في زمان واحد من الأزمنة ختمت بآيته النبوة في الأرض إلى أن تقوم الساعة » انتهى كلامه رحمه الله ، (قضية الشعر الجاهلي ١١٨).

ولا شك أن هذا الجيل الذي غُذِيت قدراته البيانية من بيان عناصره ومكوناته تَرْبُو على كل العناصر المكونة لبيان البشر صار هو ذا بيان فيه

الصفات التي يَرْبُو بها على كل بيان البشر ولولا ذلك لما صحَّ أن يطالب هو تلك المطالبة الفريدة وهي أن يأتي بسورة من مثله فإذا عجز كان عجزه دالاً على عجز كل أجيال البشر من بعده إلى أن تقوم الساعة ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ ﴾ وترتيب وجوب العلم بأنه كلام الله على عجزهم لا يصح إلا إذا كان في علم الله أنه لن يأتِيَ جيل من البشر يأتي بما عجزوا عنه ، ومن ينكر هذا يصير بمثابة من ينكر علم الله بما سيكون إلى يوم القيامة كتبت هذا لأن صورة هذا قول عبد الله «دخلت على حفصة فقالت أعلمت أن أباك غير مستخلف» لم أعرف في بلاغة هذه الجملة إلا شيئًا واحدًا هو أن عبد الله جرّد كلامه إلى الغرض الذي يسوق له كلامه وخلصه مما كان متلبسًا به فلا شك أن عبد الله حين يرى أخته حفصة في الوقت الذي طعن فيه أبوه الذي ملأ الدنيا وشغل الناس والذي كان أحد رجلين يذكران معًا أبو بكر الذي ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل منه إلا أن يكون نبيًّا حتى جرى على ألسنة الناس أبو بكر وعمر إلى آخره أقول إن عبد الله لما رأى أخته وقد طعن مجوسي ملعون أباهما لا شك كان بينهما شيء يتعلق بحزنهما وبكائهما على هذا الأب الذي اغْتِيل فجأة وهو يصلي بالناس ، ولكن عبد الله نحّى كل ذلك وقال دخلت على حفصة فقالت . وهذه الفاء التي في قوله (فقالت) . دالة على أنه ما دخل عليها حتى قالت لأن الفاء تجعل أول ما دخلت عليه ممسكًا بآخر ما عطفت عليه ، وقولها : «أعلمت أن أباك غير مستخلف» الهمزة الداخلة على الفعل تفيد الاستفهام الحقيقي لأن عبد الله كان لا يتوقع ذلك وفي طيّ هذا الاستفهام شوب من رفضه وإنكاره من أم المؤمنين رضوان الله عليها ، ومفعول علمت مصدر مؤول من أن وما دخلت عليه من مبتدأ وخبر وتقدير

الكلام أعلمت عدم استخلاف أبيك وإنما جاء على المصدر المؤول لإظهار التوكيد وهذا مثل أن تقول أعلمت أن شروح الحديث تكفي وحدها لتربية جيل قوي قادر على حماية أرضه ؟ أعلمت أن تراث أبي العلاء يكفي وحده لتربية جيل ؟ أعلمت أن الجيل الجديد ينمو وهو مغموس في الثقافة الأمريكية بواسطة المدارس الدولية ليتقبَّل وجود القواعد الأمريكية على أرض آبائه وليكون في خدمتها بدل أن يحارب وجودها ويغسل تراب وطنه من دنس عدوه ، إلى آخر هذه الصور التي تدرب لسانك عليها وتأخذ قالبها من لسان هذا الجيل وتجري عليها ما يجب أن تخاطب به الجيل الجديد الذي سيخرجه التوجيه الأمريكي مغيبًا عن نفسه ونحن آباؤه نسكت ونبتلع الذُّلَّ والصَّمْت معًا وفيهما الخيانة لهذا الجيل ، لأن قمع الشياطين الفجرة الذين يسمون أنفسهم أولي الأمر أبْشع من أن تخون أولادك وأحفادك وأبشع من أن تبتلع الذل والصمت والخوف ، قلت إن الذي شغلني في كلمة أم المؤمنين رضوان الله عليها ليس مبناها وإن كان صالحًا لأن يؤخذ قالبًا ومِنْوَالاً في بناء الكلام تربى عليه الملكات كما أسلفت وإنما الذي شغلني وهو من جوهر البلاغة أن حفصة وعبد الله تجاوزا مصابهما الجلل وشغلا بالاستخلاف وحال الأمة وأبوهما ينزف بطعنة مجوسي كلب نَعِمَ بعَدْله ، القضية كانت عندهما وهما في هذا المقام أين تتجه الأُمَّة ومن الذي سيختاره عمر ليأخذ بزمامها ويضبط أمرها ويَلُمَّ شَعَثَّها وقد اختلف الحال واتَّسَعَتْ الرُّقْعة وتنوعت الأجناس وتكاثرت وفيها الصالح والطالح والساكت عن حقد ودمنة لم تتكلم وينتظر الفرصة ، الشاغل هو الفراغ الذي تركه عمر فجأة في تلك البلاد المترامية والتي فيها أخلاط من الناس .

وقول عبد الله (ما كان ليفعل) فيه أن حفصة كانت أعلم بأبيها منه مع أنه

كان أكثر مخالطة له ، ولم نَدْرِ كيف تَيقَّنَتْ حفصة من ذلك وعبارة عبد الله ليس فيها فقط أنه لن يدع الاستخلاف وإنما فيها شيء زائد تدل عليه كلمة (ما كان) لأن معناه أنه لن يكون ولا يتوقع أن يكون ولا ينبغي أن يكون وهذا كقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ليس المعنى أنه لن يفترى وإنما المعنى أن الشأن فيه أنه لا يُفْترى من دون الله لأنه لا يكون من البشر وكذلك قول عبد الله إن عدم استخلاف عمر الشأن فيه أنه لن يكون حتى لا تضطرب أحوال الأمة ويَخْتَلُّ تماسُكها وهي أجْناسٌ وأخلاطٌ فإذا ما انفرط سلكها تَبَدَّدَتْ وتفرقَتْ . ولم يكن عبد الله يعلم أن لعمر حسابات أخرى ، ودلالة «وما كان» على هذا المعنى لا يقع إلا في كلام الذين يُلْهمون القول إلهامًا .

وقول أم المؤمنين «إنه فاعل» فيه معان أولها أنها أدركت جوهر كلام عبد الله وأنه يؤكد نفي ترك الاستخلاف لأن هذا الترك الشأن فيه أنه لا يكون فأكدت له الجملة كما يؤكد خطاب المنكر وظني أن العلماء استخرجوا قاعدة التأكيد للمنكر من مثل هذا الخطاب ، الأمر الثاني أنها عَدَلَتْ في بناء الجملة عن الفعل الذي جاء في كلام عبد الله والذي عقدت جملتها على نفيه وكان هذا يقتضي أن تقول إنه سيفعل ليتناسب مع قول عبد الله ما كان ليفعل وإنما عدلت إلى الاسم لمزيد توكيد الجملة التي صارت مؤكدة بإن وباسمية الجملة . ومن كلمات عبد القاهر الحيَّة المتجددة قوله إن الفرق بين الإخبار بالفعل والإخبار بالاسم فرق تمسُّ الحاجة في علم البلاغة إليه .

قول عبد الله «فحلفتُ أنـِّي أُكَلِّمه في ذلك فسكت حتى غدوت ولم أكلمه قال فكنت كأنما أحمل بيميني جبلاً» .

أدوات الربط بين الجمل من أهم الكلمات الدالة على المعاني المتوارية بين الكلمات فالفاء التي في قوله رضوان الله عليه (فحلفت) دلت على أنه ما سمع جملة أم المؤمنين التي أكدت أنه فاعل يعني لن يستخلف حتى بادر بالحلف وكأن رأس حَلِفهِ التحقت بآخر قولها إنه فاعل ، ثم إن عبد الله أكّد هو الآخر المعنى الذي آل إليه بعد سماع حفصة رضوان الله عليها فقد كان قبل هذا السماع يقول ما كان ليفعل ثم هو الآن يحلف أنه يكلمه ليفعل ويلاحظ أنه أكد كلامه بالحلف وإن المؤكد التي هي أم الباب وإدخالها على ضميره وكان يمكن أن يقول فحلفت أن أكلمه ولكنه عدل إلى ما جاء عليه كلامه ليؤكد إسناد تكليمه لأبيه إلى ذاته ، ثم قال « في ذلك » وأشار إلى الاستخلاف باسم الإشارة الدال على تميز المشار إليه أكمل تمييز وهذا معنى جليل في نفس المتكلم ثم الإشارة التي للبعيد للدلالة أيضًا على أن الاستخلاف له شأن أي شأن في حياة الأمَّة وقوله « فسكتُّ حتى غدوت ولم أكلمه » قوله « فسكتُّ » إثر قوله « فحلفت أن أكلمه » ربما كان وراءها معنى أن عبد الله ما إن حلف على أن يكلم أباه في شأن الاستخلاف حتى اعتراه ما يعتري من يكون في مثل حال عبد الله وأبوه مطعون طعنة نافذة وهو ينزف وبيَدِ مجوسي كل هذا طاف بنفس عبد الله كما طاف بها أيضًا خشية وهيبة عمر وأن له من البصيرة والعقل والحَدْس والحِرْص على الأُمَّة ما يُغْنيه عن النصح من ولده الصغير وكان يوصف بالمحدَّث أي الألمعي الذي يَظُنُّ بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا ووافقه التنزيل في مسائل منها مقام إبراهيم وحجاب أمهات المؤمنين وغيرها ثم إن مواجهة عبد الله لأبيه بأن يستخلف فيها ما تَنْبُو عنه نفس عبد الله لأنها مُصَارحة بأنك مَيّتٌ والمصارحة بهذا فيها غلظة وقسوة وقد كانوا يقولون لمن يعودونه في مرض

الموت نراك بارئًا كما قال سيدنا عبد الرحمن بن عوف لأبي بكر وهو يعوده في مرضه الذي مات فيه ، أقول الظن أن وراء قوله فسكتُّ هذه الأحوال والأطياف والهواجس التي طافت بنفس عبد الله ، وقوله (حتى غدَوْتُ ولم أكلمه) فيه أن الأحوال التي أسكتته غلبت على نفسه وأمْسكتَ لسانه حتى غدا يعني دخل في الغداة ولم يكلمه وما كان له أن يقول «حتى غدوت ولم أكلمه» إلا إذا كان قد انقضى وقت ما كان يظن أن ينقضي دون أن يكلمه وأن سكوته طال وأن حابسًا قادرًا حَبَسه رغم حَلِفِه وتأكيده أنه يكلمه ولغة عبد الله في بيان هذا المعنى الخفي الذي كان يمسكه فلا يُنجِزُ ما عزم عليه تشبه لغة كعب بن مالك وهو يصف الدَّبِيبِ الخفيَّ الذي كان يمسكه وينقض عَزْمَه على تجهيز راحلته مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حتى كان من الثلاثة الذين خُلِّفُوا وضاقت عليهم الأرض بما رحبت فقد كان مالك يعزم ثم يغدو ولم يَفْعل كما كان يقول عبد الله ثم غدوت ولم أكلمه بعد عَزْمِه على أن يكلّمه وظاهر أن وصف هذه الحالة بالبيان الكاشف كان متشابهًا في كلام الرجلين الكريمين كعب وعبد الله .

وقول عبد الله «فكنت كأنما أحمل بيمني جبلاً» هذا من بيان عبد الله العالي وراجع الهمَّ الذي بين جنبيه والذي أنْطَقَهُ بهذه الجملة وكيف كان هذا الهم جبلا يحمله والهم هو الاستخلاف الذي يحفظ هذه الأمَّة مع أن والده ينزفُ وهو في حالة الموت وطعنه عَبْدٌ مجوسي نَعِمَ بعدله وكان عمر يرى أنه مسؤول بين يدي الله ليس عن الناس في ولايته المسلم والمجوسي واليهودي والملحد وإنما هو مسؤول عن الدابة التي لو عثرت في العراق لسأله الله عنها هذا نموذج لم تعرفه البشرية وعبد الله ولده قد أفْرَغَ قلبه من كل هذا الهم وصار الجبل الذي يحمله هو هَمُّ الأمة وهذا نموذج افْتَقَدْنَاه

ولم أعرف له نظيرًا في التاريخ والهم الذي صار جبلاً عند عبد الله هو مُفَاتحَةُ أبيه في أن يستخلف ولم يقل كأنما أحمل جبلاً ، وإنما أدخل كلمة اليمين للإشارة إلى أن هَمَّ الأُمَّة يتلقاه عبد الله باليمين ، والتلقي باليمين له دلالة على شدة العناية والحفاوة بالأمر الجليل العظيم الذي هو الشأن العام وشأن الأُمَّة وشأن قوتها وهيبتها واقتدارها وما يجب أن يتوفر لها من العَدْل والحِكْمة والعِلْم وحسن القيادة والغريب أيضًا أن عبد الله حمل على عاتقه هذا وكأنه لم يكن في الناس غيره وكأن شأن الأمة قد أُلْقِي على عاتقِهِ وَحْدَه مع أن كرام أصحاب رسول الله ﷺ حول عمر من أمثال علي وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وهو في سنِّ أولادهم وكان يمكن أن يستريح من هذا الهم هو وحَفْصة وأن يتركوا ذلك لكبار أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار وأهل السابقة وأن يعيشوا اللحظة التي يعيشها الأبناء الذين ينزف أبوهم بطعنة الغَدْر من عدو الله أقول كل هذا غريب وكل هذا دال على أن هذا الجيل كان يعيش هموم الأُمَّةُ ويَنْسى هموم نفسه وهذا هو طريق التفوق والتقدم الذي افتقدناه ولاحظ أن هذه الطعنة تشير أن في الأمة مواطن اختلال وإذا كان هذا في المدينة فما بالنا بغيرها ، وهذا مقلق وقد وعاه عبد الله ووعته حفصة .

وقوله « حتى رجعت فدخلت عليه » كلمة حتى تفيد أن الهم الذي هو كالجبل في يمينه بقي يُثْقِلهُ زمانًا وسواء طالت المدَّة أو قَصَرَت فقد كانت اللحظات تمر عليه ببُطءٍ وتطاول وهو يريد أن يفاتح أباه في الاستخلاف ثم يغدو ولم يفعل ، وحَتَّى هذه أُخْت حَتَّى التي في الجملة قبلها (حتى غدوت ولم أكلمه) وكأن الكلمات ينادي بعضها بعضًا إذا تصاقبت المعاني وتقاربت، ولاحظ التتابع الذي في قوله (حتى رجعت فدخلت عليه فسألني) وكأن

الحبْسة التي كانت تمثلها كلمة (حتى) قد زالت بدخوله على أبيه فما إن دخل عليه حتى سأله عن حال الناس ، وراجع الفاء في فدخلت فسألني وقارن بين حركة المعاني في تناقلها وتباطئها في قوله فسكتُّ حتى غدوت ولم أكلمه ، وفي تتابعها وتلاحقها في قوله رجعت فدخلت فسألني ، وراجع أيضًا مقام التثاقل ومقام التلاحق لأنك في كل هذا تعيش اللحظة التي عاشها عبد الله في هذا الوقت الذي تتزاحم فيه الأحزان والآلام والإشفاق من الغد المجهول في تاريخ الأُمَّة بعد هذا الخطب الجلل وكان عبد الله صادقًا في همِّه وحَدْسه وأن الهم الذي كان جبلا في يمينه أطَلَّ أيام الخليفة عثمان بعدما فتح باب الفتنة التي كان أبوه سدًّا منيعًا لها وكان بابها المغلق والآن قد كسر ، وهذا يعني أن الفتنة كانت موجودة وكان عمر بابها المغلق .

قول عبد الله « فسألني عن الناس وأنا أخبره ثم قلت له » ليس المهم هنا أن عمر سأل عبد الله عن الناس فور دخوله وعبد الله يخبره وإنما المهم أنه كان ينزف من طعنة نافذة وأن الموت ينفذ إليه بسرعة وهو مشغول عن هذا ومشغول عن دمه الذي ينزف ومشغول عن ألمه ومشغول عن موته والذي هو مشغول به هو أحوال الناس ، وهذه هي قيمة الكرام الكبار الذين لا يشغلهم شيء عن أحوال الجماعة ولو كان الموت والدم الذي ينزف ، وعبد الله يخبره ولم يَقُلْ له خفِّفْ عن نفسك وحسبك وحسبنا ما نحن فيه ولم يحدثنا عبد الله كلمة واحدة عن أحوال الناس التي كان يسأل عنها عمر ويخبره بها لأن عبد الله يحمل هَمًّا كالجبل بيمينه وهو أن يستخلف عمر حتى لا يَحْدُث في الناس اختلاف وتفرق فيذهب ريحهم . وقوله « ثم قلت له » تشير كلمة ثم هنا إلى أن شغل أبيه بالناس قد طال في هذا الزمن القصير الذي تجب فيه المبادرة بالاستخلاف كما تشير أيضًا إلى أهمية

ما بعدها عند عبد الله وأنها مقصودة وأنه كان يغدو إلى أبيه ليكلمه في ذلك فيطوف به ما يُسْكِتهُ ولكنه الآن لم يجد بدًّا من مفاتحته في الذي يحمله همًّا كالجبل وأنه يحمله بيمينه .

قال « إني سمعت الناس يقولون مقالة فآلَيْتُ أن أقولها لك» قلت إن عبد الله كان يجد حَرَجًا شديدًا في أن يقول لأبيه استخلف لأن هذه الكلمة تُعْلِنُ نهاية حياة عمر ، وهذا شاق على ولده وشاق عليه أن يواجهه به ثم هو شاق عليه من وجه آخر وهو أن يكون نصيحًا لأبيه ولهذا أَلْبَسَ رَأيه لباسًا آخر وقال سمعت الناس يقولون مقالة ، فآليت أن أقولها لك ، وكأنه يقول لولا أني آليت أن أقولها لك ما واجهتك بها فاعذرني إذا كنت في هذا قد تجاوزت وقد قال « يقولون مقالة » فأبهم هذه المقالة وكأنه يُهيِّئُ أباه لسماعها وكان يمكن أن يقول يقولون كلامًا وبينهما فرق لأن المقالة تعني أنهم اجتمعوا عليها أما الكلام فإن كل قائل يقول كلامًا وافق غيره أوْ خالفه ، ثم أكد أهمية هذه المقالة بإيلائه أعني قسمه أن يقولها له فزاد بذلك أهمية هذه المقالة والفاء التي في قوله فآليت تفيد أنه ما سمعها حتى أقسم أن ينقلها إليك وفي هذا أيضًا تأكيد لأهمية المقالة وهو في كل ذلك يزيد تهيئة والده لسماعها ثم قال : زعموا أنك غير مُسْتخلف وإنه لو كان لك راعي إبل أو غنم ثم جاءك وتركها رأيت أن قد ضيّع فرعاية الناس أشد» وابتداء هذا الكلام بكلمة زعموا تشير إلى أن عبد الله لا يوافقهم على هذا وأن عدم استخلافه زعم زعموه لأن الأصل أنك تستخلف وهذا ما فهمه عمر كما سنبين من جوابه . وقد ترى شبهًا بين موقف عبد الله في هذه اللحظات التي يُصِرُّ فيها على الاستخلاف وموقف أبيه عمر يوم قبض رسول الله ﷺ وبدأت ريح خفيفة فيها خلاف بين المهاجرين والأنصار في شأن خلافة

رسول الله ﷺ ورأى عمر بنفاذه وحَدْسه أنه يمكن أن يَحْدُث شرخ في الأمة فبادر ومدّ يده إلى أبي بكر وبايعه وسمى هذه المبادرة فَلْتة لأنه كان لها ما يبررها وأن عبد الله الآن يخشى من مثل هذا وربما كان إلحاحُ عمر في السؤال عن أحوال الناس فيه شيء من الاطمئنان على أنهم لا منازعة بينهم في الذي يخلف عمر أو أن يكون ظهر منهم من يطمع في خلافته . وقد كان موقفه يوم السقيفة يُرشِّح استخلافه اليوم حتى لا يحدث اختلاف ولكن الذي كان يكفه عن هذا هو ما قاله في أنه لا يريد أن يتحمل أمرهم حيًّا وميتًا .

ونعود إلى ما قاله الناس وآل عبد الله أن يخبر أباه به وهو قولهم إنه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثم جاءك وتركها رأيت أن قَدْ ضيع فرعاية الناس أشد : هذا مثل جاء فيه المعنى المقصود بعد المثل ولم يجىء المعنى المقصود مصورًا في المثل وإنما ذكر المثل بصورته الحسية أولاً ثم جاء المراد ثانيًا وليس فيه معنى أن الناس إبل أو غنم وأن الخليفة راع يرعاه بعصاه . هذا فهم باطل لأنه لو أنزل الناس منزلة الإبل والغنم يكون قد أنْزَلَ الخليفة منزلة العبد الذي يرعى مال سيده ولو قلت إن الكلاب تَنْبَحُ مَنْ يرميها بحجر . وأنت تريد أن تقول للناس المقموعين اغضبوا في وجوه من يقمعونكم أنت لا تكون في هذا أنزلت الناس منزلة الكلاب وإنما تريد أن تحثهم على الغضب والثورة في وجوه من يُهينُونهم وكذلك تقول إن الكلاب تحمي مرابضها وأنت تريد أن تستحث الناس حتى يدافعوا عن ترابهم فالمقصود من المثل هو مضمونه المعبَّر عنه بصورته وليس للصورة ظل على المعنى المقصود ، وقد ضربت العرب الأمثال بالإبل وحُمرُ الوحش وبالطير وبالحيات إلى آخره ، وإن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها .

وقول عبد الله : لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثم جاءك وتركها : هذا الجزء من الجملة بني على الفَرْض والتقدير ووضع فيه عبد الله إشارات تلفت إلى مقصوده . أولها قوله «أو راعي غنم» وكان يمكن أن يكتفي بقوله لو كان لك راعي إبل لأن المقصود أنها تضيع لو لم يستخلف لها راعيًا ويستوي في ذلك أن تكون إبلاً فحسب أو غنمًا فحسب أو إبلاً وغنمًا ، ثم إنه كان يمكن أن يقول لو كان لك راعي إبل وغنم ، ولكنه كرر كلمة راعي وفي هذا مطل لهذا الجزء أو لهذا العنصر الداخل في تكوين الجملة ولَفْتٌ إليه لأنه هو جوهر المعنى ، هذا شيء والشيء الآخر أنه قال «ثم جاءك وتركها» وكلمة ثم هنا لاتفيد تطاول زمن رعيه لها فحسب كما هو أصل معناها وإنما تفيد أيضًا أهمية ما يأتي بعدها الذي هو ترك الإبل والغنم من غير راع وتضْييعه لهذه الرعيَّة ، والشيء الثالث أنه قال جاءك وتركها وكان يمكن أن يستغنى عن هذا ويقال ثم تركها ولكنه جاء بكلمة (جاءك) ليُبَيِّن أنه أعلمك بتركها وصار استخلاف راعٍ لها مكانه مسؤوليتك أنت وقد جاءك النذير وصار استخلاف من تستخلفه مكانك حتى لا تضيّع الناس أمرًا في مسؤوليتك كما أن رعاية إبلك وغنمك وحفظها من الضياع صار مسؤوليتك بعدما جاءك الراعي وتركها .

وهذا القياس الذي يحاول عبد الله أن يُلْزِم به أباه كان يمكن أن يخاطب به سيدنا رسول الله ﷺ وكان عنده فسحة من الوقت وأن الراعي جاءه وتركها بمعنى جاءه النذير وأن سيدنا المختار خُيِّر فاختار ولكنه سكت بوحي ربه ليتحمل الناس مسؤولية اختيارهم لأن مَثَل عبد الله فيه شيء يَرِدُ عليه وهو أن الإبل والغنم ليس في وسعها أن تختار لها راعيًا يتحمل مسؤوليتها بخلاف الناس وحين يتركون بدون استخلاف ؛ عليهم هم أن يختاروا من يتولى

المسؤولية وما داموا اختاروه فلهم أن يراجعوه فإن كان على حق أعانوه وإن كان على باطل قوّموه كما قال لهم عمر يوم تولى وعمر الآن يوازن بين أن يترك أمرهم في أعناقهم ومنهم مَنْ هم في طبقته أو من هم في طبقة تتماس مع طبقته كعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعلي وعثمان وغيرهم من أكابر أصحاب رسول الله ﷺ وحسبه هو منها ما كان؛ ولا يُريدُ أن يتحمّل أمرهم حيًا وميتًا ، المهم أن عبد الله يحتشد ويحشد قواه البيانية ليُقْنع أباه بالاستخلاف .

قال عبد الله : فوافقه قولي ثم وضع رأسه ساعة ثم رفعها إليّ فقال ومن أبرز خصائص بيان هذا الجيل هو الدقة البالغة في الإسناد الذي هو مناط الفائدة كما يقول الكملة رضوان الله عليهم : ترى عبد الله هنا يقول فوافقه قولي ولم يقل فوافق قولي لأنه لو قال فوافق قولي يكون عمر هو الذي وافق وما دام وافق فلا يقبل أن يرفض لأن القول قول بالاستخلاف وهذا هو الذي رَفضه عمر ، وقوله فوافقه قولي يعني أن القول هو الذي وافق عمر وأنه لما وافقه القول اعتبره ونظر فيه ، وهذا النظر قد ينتهي بموافقة عمر على القول أو بمخالفته ومثل هذا أن أقول وافق قولي شيخي وأعني أنه نظر فيه فإذا قلت وافق شيخي قولي أكون قد جعلت الشيخ هو الذي وافق قولي وفي هذا شوب من الغرور ومن المخاشنة يتحاشاه من كان في مثل أدب عبد الله ، ثم إنه دل على ما فهمناه من العبارة بقوله (فوضع رأسه ساعة ثم رفعها إليّ» وهذه هي حالة من سمع كلامًا ولم يقطع بقبوله ولا برفضه وإنما جَعَلَه موضع نظره فوضع رأسه وأطرق يفكر فيما سمع وخصوصًا قول عبد الله فرعاية الناس أشد . ثم معرفة عمربما يمكن أن يحدث في هذه الحالة وتتحرك الأطماع وتظهر العصبيات كما لحظ يوم السقيفة ثم استدرك وأنهى

الموقف بمبايعة أبي بكر وقوله بعدها كانت فلتة يعني لها ما يبررها لأنه لا يجوز لواحد أن يَتقَدَّمَ إلى آخر ويبايعه وإنما يكون ذلك بمشورة أهل الحكمة وهم أهل الحل والعقد ، ولابد أن يكون عمر لما وضع رأسه وأطرق قد شغل بذلك وغيره كما شغل بتغير أحوال الناس عن يوم وفاته صلوات الله وسلامه عليه وأن المدينة التي فيها جثمانه صلوات الله وسلامه عليه وفي باطنها كرام أصحابه وفي ظهرها ما بقي منهم فيها مع هذا مجوسي طعن عمر وهو يصلي بالناس وكان هذا يكون أكثر وأشد في دفع عمر إلى الاستخلاف ولكن تلك الفكرة القوية التي ملأت قلبه كانت تحول دون ذلك وهي أنه لا يتحمل أمر الناس حيًّا وميتًا ، وهذا شيء مما أفهمه من تحت لفظ عبد الله (فوضع رأسه ساعة ثم رفعها) ولاحظ أيضًا الفاءين في قوله فوافقه قولي فوضع رأسه يعني ما إن فرغت من قولي « فرعاية الناس أشد» حتى وافقه قولي وما إن وقع قولي في نفسه وأراد مراجعته حتى وضع رأسه ساعة ، ولاحظ كلمة الساعة مع رجل ينزف وألم الطعنة الحسي والمعنوي وأنها بيد مجوسي وقد حمد الله عمر لأنها بيد عدو الله أقول لاحظ أن الوقت هنا له حساب خاص وعبد الله يراقب ويعرض ويُلح ويُسابق الموت ليستخلص من أبيه كلمة تدل على أنه يرضى للناس فلانا بعده .

وقول عبد الله ثم رفعها إليَّ ، كلمة ثم هنا تدل على المهلة التي دَلَّتْ عليها كلمة ساعة وتدل أيضًا على أن ما بعدها له أهمية وله شأن لأن عمر بعد كلمة ثم أعلن موقفه وأنه لن يستخلف ، وقول عبد الله (رفعها إليّ) يعني رفعها وهي تحمل جواب ما سمعه مني من مقالة الناس التي آليت أن أقولها لك .

فقال « إن الله عز وجل يحفظ دينه وإني لئن لا أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلف » .

هذه هي كلمات عمر في هذا الحديث وهي كما ترى كلمات بالغة الاعتداد وبالغة السَّدَاد وهي منطقية جدًّا وصادرة عن عقل ذكي حاضر وعن قلب مطمئن وكأنه لَيس مطعونًا وليس ينزف والجملة الأولى وهي « إن الله عزل وجل يحفظ دينه » جذر الكلام الذي سيقوله وأن معنى حفظ الله لدينه حفظ الله لأهل دينه وأن الأُمَّة محفوظة استخلف عمر أو لم يستخلف فيجب أن يكون هذا حاضرًا عندك يا عبد الله وعند الناس الذين سمعت منهم مقالة فَآلَيْتَ أن تقولها لي ولا يجوز للحادثات أن تُرْبِكَكَ وتربك الناس فتنسى وينسى الناس هذه الأصول التي تطمئن بها القلوب وهي في قلب العاصفة وهذه الجملة وإن كانت مما يتعارفه الناس ويتناقلونه إلا أن موقعها هنا مَنَحَها شيئًا كأنها قيلت الآن وفي هذه اللحظة وهكذا تجد المقامات التي يُصِيبُ المتكلم في كلامه وجه الحق فيها نجد هذه المقامات لا تستوعبها المقالات فقط وإنما تفرغ هي على المقالات حيويَّة جديدة ومعنى جديدًا لأن المقام كثيرًا ما يكون زاخرًا بالمعاني التي لا تفيض عليها العبارات فحسب وإنما تفيض هي على العبارات ، وهذا ظاهر جدًّا في جملة عمر إن الله يحفظ دينه التي يقولها في مقام هو ينزف فيه والناس من حوله يلحون عليه أن يستخلف ، وقد لاحَظْتُ أن معنى أن الله يحفظ دينه جاء في سورة الحجر بلفظ الذكر : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ فتعهد سبحانه بحفظ الذكر ولا يحفظ الذكر إلا بحفظ الذاكرين ، وهذا ما يشهد به التاريخ فقد مرّت على الأمة فتن وحروب وكوارث وشدائد وهي ثابتة على دينها لم تغيِّر منه حَرْفًا ولم تَنْقُصْ منه حكمًا يذهب كل شيء ويصير ماضيًا ودينها

بين يديها حاضرا أبدًا لم يذهب منه شيء . وقول سيدنا عمر : وإني لئن لا أستخلف فإن رسول الله لم يستخلف ، وإن أستخلف فإن أبا بكر قد استخلف وهاتان الجملتان بهذين الدليلين يرفعان عن عمر الحرج إذا لم يستخلف وإذا استخلف ومعنى هذا خفّف عنك يا عبد الله ففي الأمر سَعة وإني إن تركت الإبل والغنم من غير راع فلا حرج وإذا جئتها براع فلا حرج ثم إنك تلحظ في اللغة ما يَنُمُّ نميمة ويشي وشاية بما في نفس عمر ، ترى ذلك ليس في تقديم أمر رسول الله ﷺ على أمر أبي بكر لأن هذا حق رسول الله ﷺ ولا يؤخذ منه أن عمر يميل إلى أن لا يستخلف ولم يعول عبد الله على هذا وإنما عوّل على أن ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر يعني لم يقل عبد الله فوالله ما هو إلا أن قدم رسول الله على أبي بكر ، لأنه لا يكون إلا ذلك وإنما الذي جعل عبد الله يَبُتُّ الحكم في أن أباه لن يستخلف هو ذكر رسول الله ﷺ وأبا بكر وأن رسول الله لم يستخلف وما دام ذكر فلن يحيد عمر عن طريقه ولو كان يريد أن يستخلف لذكر أبا بكر وحله . أقول إن تقديم ذكر رسول الله ﷺ ليست له دلالة هنا وإنما الدلالة في بناء اللغة هذا البناء الذي هو نميمة تنمُّ عن ما في النفس وهو قوله في الأولى (وإني لئن لا أستخلف) فبدأ بإن المؤكدة وأدخلها على ضمير المتكلم وأكد بها إسناد الخبر إليه والخبر مكون من تركيبة لغويَّةُ ذات دلالة ، وهذه التركيبة هي اجتماع الشرط والقسم والشرط في كلمة (إن) الدالة على تعلق الجواب بالشرط في المستقبل والقسم المدلول عليه باللام الداخل على الشرط (لئن) وهذا من جزل الكلام والأصل أن يكون له جوابان جواب للشرط وجواب للقسم وأن يستغنى بأحدهما عن الآخر وهنا استغنى عنهما لأن قوله فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف ليس جوابًا لأنه لم يترتب على الشرط ولا على

القسم وإنما هو حقيقة ثابتة وهو دليل الجواب المحذوف والمعنى وإني لئن لا أستخلف فلا حرج عليَّ فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف ولم تُبْنَ القرينةُ الثانية هذا البناء وإنما قال وإن أستخلف فجاء بالشرط من غير قسم ولم يكن الشرط هنا خبرًا لكلمة إنَّ التي هي أم باب التوكيد والجواب أيضًا محذوف والتقدير فلا حرج عليَّ فإن أبا بكر قد استخلف ، والفرق بين القرينتين في بناء الكلام هو الدال على رغبته في أن لا يستخلف .

وعلينا أن نتذكر مرَّة ثانية كلمة عبد الله المُحتَاطة والتي يقول فيها فوافقه قولي أعني فنظر فيه ثم ذهب إلى غيره ولو قال فوافق قولي لم يكن ليصح لأنه يَعْني أن عمر غيَّر رأيه في أنه لا يستخلف ولم يكن ذلك .

قلت إن وضع « إني ولئن لا أستخلف » بإزاء « إن أستخلف » وملاحظة الفرق في البناء اللغوي ليس هو المقصود وإنما هو منفذٌ ننفذ منه للمقصود وهو ما جرى في نفس عمر رضي الله عنه في هذا الشأن وفي هذه اللحظة الحرجة التي تُطْوى فيها صفحة حياته وأنه احتشد في قوله « إني لئن لا أستخلف » احتشادًا أكبر من الذي في قوله « إن أستخلف » . وهكذا تنطق اللغة بالذي دفع القائل إلى أن يَبْنيها على الوجه الذي بُنيت عليه ، وقد ذكر محمود شاكر رحمه الله كلمة نفيسة في هذا المعنى أختم بها الكلام في هذا الحديث .

قال رحمه الله : إن البحث في مأثور الآداب وفي أخبار التاريخ وفي سطور الكتب وفي روائع الشعر لم يكن قط إلا بحثًا متواصلاً في سرائر أُغلقت عليها صدور أصحابها أو قائليها أو كاتبيها وطويت معهم طيًّا ، وذهبت حيث ذهبوا بلا أمل لأحد بعد ذهاب أشباحهم في لقاء أو سماع أو سؤال .
انتهى كلامه رحمه الله .

ذكرت هذا النص لأن البحث في كلمات عمر كان بحثًا في سريرة أُغْلِق عليها صدر عمر ووعاه عبد الله وبقيت لنا في صحف التاريخ وأحب أن يكون عملي كله في التحليل باحثًا عن هذه السرائر التي أغلقت عليها صدور أصحابها وطويت معهم وذهبت حيث ذهبوا ولا أمل في سماع أو سؤال وهذا يوجب الدقة الكاملة حتى لا نكذب عليهم وعلى أنفسنا .

وأختم الكلام في هذا الموضوع بملاحظة نُغْفِلُها كثيرًا وهي مهمة ، هذه الملاحظة هي أنك لو نظرت إلى موقف أبي بكر الذي استخلف وموقف عمر الذي عهد بالأمر إلى الذين اختارهم وطلب منهم أن يختاروا واحدًا منهم وهم الستة الذين توفى رسول الله ﷺ وهو راض عنهم وهم علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص أقول لو نظرت إلى هذا الاختلاف بين موقف أبي بكر وعمر وأن عمر لم يقلد أبا بكر كما أن أبا بكر لم يقلد رسول الله ﷺ في هذا الشأن الذي تركه عليه السلام للاجتهاد لوجدت شيئًا مهمًّا وهو أن أكرم أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يُؤسِّسُون مواقفهم على الاجتهاد وليس على التقليد ومرجع ذلك للذى يجتهد في قراءة السنة هو أن رسول الله ﷺ كان يعلمهم العقل وهو يعلمهم الدين وكان يغريهم بالقياس والاستنباط وأنه عليه السلام كان يَدلّهم على مساحات الرأي والاجتهاد والاستنباط وراجع فقه جوابه للمرأة الكريمة التي قالت له إن أمي ماتت قبل أن تحج أفأحج عنها ، وكان الجواب يكون بنعم أولاً ولكنه عليه السلام لم يلقنها الجواب ، وإنما أراد لها أن تستخرج هي الجواب بنفسها ، ومَهّد لها الطريق لإعمال عقلها حتى تستخرج هي حكم الله وأن أحكام الله هي أصول ومبادئ يقاس عليها وليست تفصيلاً لوقائع الحياة التي لا تتناهى والخلاصة أن الدين مَناطُه في الاعتقاد هو العقل

ومناطه كذلك في الفقه والتشريع هو العقل الذي يقيس ما لا نص فيه على الذي فيه نص ويقيس ما لم يعلم على الذي علم وسميت آيات القرآن آيات يَعْني علامات يُهتدى بها إذا فوجئ المسلم بأمر مُلْبس قاسَهُ عليها وأضاءت الآية له جوانب اللّبْس والمهم صحة وضبط القياس وصحة وضبط الاستنباط وقد رأيت الأستاذ محمود شاكر يعود بأصل المنهج عند علماء المسلمين إلى أصحاب رسول الله ﷺ وأنهم عَلِموه من رسول الله ﷺ وأنه عليه السلام لم يكن يُعَلّم الدين فحسب وإنما كان يعلم العقل والتفكير أوْ قُلْ الدين الذي جوهره العقل والتفكير والاستخراج من الذي جاء في الكتاب والسنة ومن أجل هذه الطفرة التي حدثت في العقل والفكر والمنهج بدأت العلوم العربية والإسلامية في التكوين من بداية عصر الصحابة ولم يَنْتَه القرن الثاني إلا وقد تأصَّلَت أُصُولها وما جاء بعد ذلك هو فروع استخرجت من هذه الأصول ، وكانت القرون الثلاثة المفضلة متميزة بمزايا كثيرة منها تأسيس علوم الإسلام وأصول حضارة الإسلام ومنهج علماء الإسلام فضلاً عن الفتوحات والعدل والبر والمرحمة التي سادت بها وعزت وغلبت . هذا والله أعلم .

قال رسول الله ﷺ سَطْرًا واحدًا يَصْلحُ لأن تضعه أكثر الأمم تَعقُّلاً وتقدُّمًا أصلاً من أصول الحكم في أعرق دساتيرها وأحكمها وأجلِّها وقد ذكرت أن الأحاديث التي قالها رسول الله ﷺ كأنها قيلت لنا وكأنها تعالج قضايانا، وأنه عليه السلام كان يخاطب الأمة إلى آخر زمن التكليف ، بل إنه عليه السلام كان يخاطب الناس كافة الذين أرسل إليهم من آمنوا به ومن كفروا ، وهذا الحديث كان كذلك لأنه وضع الدواء الناجع للداء القاتل أو كما كان يقول أوائلنا طبّق المَفْصِلَ ووضع الهناء مواضع النُّقْبِ وسيظهر ذلك في تحليل الحديث الشريف .

روى مسلم بسنده عن الحسن قال : حدثنا عبد الرحمن بن سَمُرة قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عبد الرحمن . لا تسأل الإمارة فإنك إن أعْطِيتها عن مَسْألةٍ أُكِلْتَ إليها وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها ».

أشرت إلى الفائدة المتحصلة من النظر في علاقات معاني الأحاديث التي في باب واحد ، فهذا الحديث الذي نهانا عن طلب الإمارة يذكر معه الحديث الذي نهانا عن أن نولي أحدًا سأل هذه الولاية ، أو أحدًا طلبها ، والنهي مُوَجه إلى الأفراد فلا يسألوا وإلى الجماعة فلا تُولِّي أحدا سأل ، وهذا تأكيد شديد لمعنى إبعاد السائل عن الإمارة ، والإمارة والولاية ، وإن تبادر منها الولاية العامة أو الإمارة العامة فإن المقصود كل ولاية وكل إمارة ولو كانت ولاية يتيم أو الإمارة على رفقة في سفر ، وقلت إن هذا من وضع الدواء الناجع على الداء المُهْلك لأن الذي له غرض في الولاية لا يمكن أن تصلح به . ولا يمكن أن يقوم على خدمتها بتجرد ونزاهة وصِدْق لأنه مشغول بغرضه .

وإذا كان رسول الله ﷺ قد نهانا عن أن نسأل ونهانا عن أن نوليّ من سأل فالذي وراء ذلك أنه يقول لنا ليس أمامكم إلا أن تولوا الأكفأ والأصدق والأخلص وهذا إن فعلناه قادنا من رشاد إلى رشاد ومن رخاء إلى رخاء ومن تقدم إلى تقدم ومن قوة إلى قوة ، وعلينا الطاعة في المنشط والمكره ما دام يقودنا بكتاب الله وسنة رسوله ولا طاعة لأحد على أحد في معصية الله ورسوله وقل مثل ذلك في القوانين والنظم التي تقوم عليها الدولة لا طاعة لأحد ولا لقانون ولا للائحة في معصية .

وإذا كان الرأس الأول قد اختير لكفاءته وصِدْقه وتفوُّقه وحبه لوطنه

وحرصه عليه رَشَّحَ كل ذلك من قمة الهرم إلى قاعدته وشاع في الناس الصدق والإخلاص والإتقان وصار الناس على دين ملوكهم ولن يتحول موقعٌ أي موقع في أي ركن من أركان الوطن إلى وجاهة لأن هؤلاء المتطلِّعين إلى الوجاهة هم العثرات البغيضة التي تعوق حركة المجتمعات . والمجتمع لن يتقدم بأصحاب الوجاهة ، وإنما يتقدم بالأيادي المغموسة في قلب العمل ، ولن يتقدم بالذين ينظرون إلى أكتفاهم وإنما يتقدم بالذين يرمون بأبصارهم إلى الأحْلام البعيدة التي يريدون أن ينقلوا أوطانهم إليها ، والذي لا يحلمُ بالغَدِ الأفضل لبلاده ليس مواطنًا حُرًّا والإخلاص للجماعة الوطنية أفضل من الإخلاص للنفس والرغبة الصادقة في عطاء البلاد شيء والرغبة العارمة في الأخذ من خزائنها شيء آخر. والأصل في خلق الإنسان الذي خلقه الله لعمارة الأرض أن هذا الإنسان يعيش لينفع وليس يعيش لينتفع مع أن كل من عاش لِينفع فتح الله له أبواب الخير وستره وأكرمه ونعَّمه ، ولو لم يعطه إلا الرضا لكان رضاه بهذا الرضا أفضل من كل شيء لأن الذي يعيش لينتفع فحسب لو كان له واديان من مال لابتغى ثالثًا ، أو كالذي يأكل ولا يشبع أو الظامىء الذي يشرب ولا يروى .

وأبدأ في مراجعة هذا السطر الجليل من كلامه ﷺ .

قوله عليه السلام «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة إلى آخره» قلب هذه الجملة قوله عليه السلام «لا تسأل الإمارة» وهذا النهي كان له عند رسول الله ﷺ شأن أي شأن لأنه قدم له بالنداء الذي يعني طلب الإقبال والمراد اللفت والتنبيه لأن عبد الرحمن ليس بعيدا ينادى ليقبل وإنما كان في مجلس رسول الله ﷺ فتمحض النداء لطلب الإيقاظ وإحضار القلب والعقل ولا يكون إلا في المخاطبة بشيء له خطر وله بال ثم

إنه عليه السلام أعقب النهي ببيان علته وهذا أيضًا مما ذكره العلماء في تأكيد النهي ولو جَمْعت النهي في الكتاب والسنة المسبوق بالنداء والمتبوع ببيان عِلّة النهي لجمعت جملة من جواهر الدين ولآلئه لأن ذلك لا يكون إلا نهيًا عن شر أي شر وكلمة (الإمارة) الألف واللام فيها ليست للعهد وإنما هي للجنس الشامل لأي إمارة ولو على مدرسة ابتدائية لأن طلب ولاية أي شيء تدل على أن الطالب له مطمع في المطلوب ماديًا كان هذا المَطْمَع أو غير ماديٍّ ، والمطلوب أن الذي يلي أمرًا يكون له فيه مطمع واحد هو إحسانه أقصى غايات الإحسان ، وإتقانه أقصى غايات الإتقان والفاء التي في قوله عليه السلام (فإنك إن أعطِيْتها) هي الفاء الواقعة في علة النهي ، والأمر كالنهي في أنه يؤكد بالنداء قبله والتعليل بعده وكذلك جمع الأمر الذي هذا شأنه جوهرة من لآلئ الكتاب والسنة لأنها تجمع بين أيدينا ما أمرنا الله به على هذا الوجه الدال على أنه خير أي خير ، ومثله قوله تعالى وهو شاهده المتداول ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ وذكرت هذا الشاهد لأنه جاء من غير فاء وقالوا إن مثل هذا تكون جملة التعليل فيه مستأنفة وواقعة جواب سؤال تضمنه الكلام السابق ، وأثاره في النفس وأنه سبحانه لما قال ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾ صح لسائل أن يسأل عن عِلّة الأمر بالتقوى فجاءت جملة إن زلزلة الساعة شيء عظيم تُبيِّن جواب هذا السؤال الذي جرى في النفس ولم ينطق به اللسان ، فإذا جاءت الفاء كما في الحديث الذي معنا سارعت هذه الفاء وبيَّنَت العِلة وكفّت هذا التساؤل ولم تكن الجملة بعدها جوابًا عن سؤال سائل وإنما هي معطوفة بلا مهلة ومترتبة على قوله عليه السلام (لا تسأل الإمارة) وهذه فروق في الدلالة لا يدفعها دافع وأذكر بأن المنادى في اللفظ هو عبد الرحمن بن سَمُرة

والكلام موجّه في اللفظ إليه ، والمنادى في المعنى هو كل أفراد الأمة والنهي موجه إلى كل فرد من أفراد الأمة ، والمعنى لا تتعلق قلوبكم بشيء يغلب تعلقها بإتقان وإحسان ما أنْت فيه فإن جاءك الذي هو أعلى منه فلا يتعلق قلبك بشيء يعلو إحسانه وإتقانه واعلم علمًا لا ريب فيه أنك في لحظة إحسانك لأي عمل تأخذ عليه أجرًا إذا استحضرت نفسك النية الطيبة صار المباح الذي تعمله من الصالحات كما قال القرطبي الذي يبنى بهذه الكلمة حضارة وتقدُّما ، ثم اعلم أنك وأنت في لحظة الإحسان هذه الله معك لأنه سبحانه قال لنا هذا وقوله الحق قال سبحانه ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وأكد قوله وحيث ماكنت في لحظة إحسان فأنت في لحظة معيّة ..

قال العلماء إن النهي عن سؤال الإمارة ليس مطلقًا وإنما فيه حالات تجيزه وحالات توجبه فإذا رأى أنه لا يصلح لهذا الشأن ولا يصلحه إلا هو جاز له أن يسأله اقتداء بقول يوسف عليه السلام لعزيز مصر : ﴿ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ولا أشك في أن الذي رآه يوسف على خزائن الأرض لم يكن هو الأكفأ وإلا لما طلب يوسف هذا الطلب ثم إن يوسف عليه السلام كان خارجًا من السجن بعد التُّهمة الملفّقة التي نُسِبَتْ إليه «وتلفيق التهم قديم على أرضك يا أم البلاد» وكان في جعله على خزائن الأرض أمرًا مناسبًا لتمام غسل سِيرَة هذا الطيِّب الطاهر صلوات الله وسلامه عليه ، وقد ذكر أمرين متصلين تمام الاتصال بالولاية التي طلبها وهما «حفيظ عليم» والحفيظ مبالغة في الحافظ لخزائن الأرض والمدقق تمام التدقيق في صَرْفها في مصارفها ثم ذكر العليم أعني العلم المبالغ فيه في هذا الشأن الاقتصادي وهذا يعني أن كل من كان على شاكلة يوسف في الحفظ والعلم له أن يسأل عن الولاية في أي باب من أبوابها إذا كان الذي على هذه الولاية ليس في درجة حفظ وعلم يوسف عليه السلام .

وتبقى حقيقة يذكرها الكل هي أن من طلبها لإصلاح أحوالها وهو لا يرى أقدر منه على ذلك عليه أن يذكر أن هذا الذي في سر نفسه من تجرده للمصلحة وخدمة الولاية وبُعده عن الأثرة والأنانية والغرض الشخصي عليه أن يعلم أن سر نفسه هذا معلوم لله سبحانه وأنه سبحانه يعينه بمقدار ما علم منه من صدق النيّه وصحة العزم وبراءة القصد ، هذا ثم إننا في كثير من الشؤون نعوِّل على الاختيار الذي نُسَمِّيه انتخابًا سواء في الولاية العامة أو ما هو دونها حتى رياسة الأقسام ، وقد اختلط الحابل بالنابل والكل يزعم أنه ما عرض نفسه للاختيار إلا لأنه يقوم ويقعد بهموم البلاد وكل يدعى وصلا بليلى ونحن نذكر ونحن نباشر عملية الاختيار هذه وصية رسول الله لنا وأننا لا نعطي هذا الأمر أحدًا سأله ونذكر قوله لسيدنا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الولاية وهذا يوجب علينا التجرد الكامل في الاختيار وألا ننظر إلى أي علاقة إلا إلى علاقة واحدة وهي الصلاحية القائمة على الحفيظ العليم الصادق الطاهر ، لأن مثل هذه الأحاديث ذات شأن نَفْسِي لأنها تحولنا من الأثرة إلى الإيثار ومن الدَّوَران حول الذات إلى نكران الذات، ومن الانكفاء نحو الشأن الخاص إلى التوجه الكلي الكامل نحو الشأن العام ولا أرى أنفع ولا أنجع ولا أكرم ولا أقرب طريق إلى النصر في كل مستويات حياتنا من هذا الطريق . الذي يتلخص في أننا لا نُعْطي هذا الأمر أحدًا سأله كما قال سيدنا رسول الله ﷺ وإنما نعطي هذا الأمر لأحد سأل عنه هذا الأمر كما نَسْتَخْلِصُ نحن من كلامه ﷺ ويوم نَفْعَل ذلك يكون يوم إحياء السنة ومثل هذا هو الإحياء وليس الذي يتكلم عنه المتشبثون بهذا الأمر ، والذي يفعل ذلك ليس من السنة في شيء فضلاً عن الكذب المتبجح والذي يزعم أنهم حراس السنة .

قوله عليه السلام « فإنك إن أعطيتها عن مسألة أُكِلْتَ إليها ، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها » هاتان الجملتان الشرطيتان من أصفى الكلام وأصوبه وأعْدَلِه ، وراجع القرينتين المتقابلتين وما بين ألفاظهما من تعادل وتوازن . أداة الشرط وفعل الشرط فيهما واحد واختلف المتعلق في الأولى «عن مسألة» وفي الثانية «عن غير مسألة» وجواب الشرط في الأولى أُكِلْتَ إليها وفي الثانية أُعنت عليها وأُكلت وأعنت اتفقتا في الوزن وجاءت همزة أُكلت وأصلها وكلت لتتناسب مع همزة أُعنت وجاءت إليها لتتناسب مع عليها ، وأترك لك تكرار الجملة وتذوق بناء ألفاظها وسهولتها في اللفظ والحفظ مع أنها تعالج بهذه السهولة وهذه السلاسة أعْضَلَ مُشكِلَةٍ يواجهها الناس كافة مؤمنون وغير مؤمنين لأن هذا دواء ناجع لمشكلة القيادة في المجتمعات البشرية ، وأجترئ وأقول إن كان الخطاب في قوله عليه السلام (إنك) هو خطاب لكل من يصح خطابه من أُمَّة محمد ﷺ ، فهذا مسلم وليس فيه اجتراء ، وإنما الاجتراء هو أن أقول إنه خطاب لكل من يَصِحُّ منه الخطاب من الناس جميعًا مؤمنين وغير مؤمنين لأنه عليه السلام بُعِثَ وكان خاتمًا لِيُخْرِجَ الناس كافة من الظلمات إلى النور فشرعه شرع للكافة ويَهْدِي به الكافة وَمَنْ آمن به نجا ومن كفر به هلك ، ولو أنصف غير المؤمن لسلم بذلك .

وبناء الفعل للمجهول في قوله (أُعْطيتها) فيه إشارة بالغة النفاذ لأن الذي يعطى الإمارة لا سبيل إلى تعيينه وقد قلت إن الذي يتبادر من ذكر الإمارة هو الولاية العامة وليس هذا مقصودًا وإنما المقصود كل ولاية ولو كان أميرًا على رفقة في سفر ، ولما قال عليه السلام لا نعطي هذا الأمر أحدًا سأله يستحيل أن تدخل فيه الولاية العامة لأنها لرسول الله ﷺ حَيَاتَهُ وإنما هي

الولايات التي دون ذلك كالولاية على الزكاة أو على إقليم من الأقاليم إلى آخره والذي يعطى الولاية قد يكون رأس الدولة وقد يكون من هو دُونه وقد يكون جماهير أهل الإقليم إذا منحوا حق اختيار الوالي إلى آخره ولهذا جاء مَبْنيًا للمجهول يعني متروكًا فاعله في القرينتين .

وكلما صادفتني أداة الشرط (إن) ذكرت مقالة العلماء فيها وأنها تكون للشرط النادر فإذا وقعت في معنيين متقابلين كما في قوله تعالى ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ احتاجت إلى وَقْفة لأنه إذا كان نصره سبحانه لنا عزيزًا نادرًا لأننا لم نتأهل لنصرته لأن التأهيل لنصرته سبحانه أن ننصره : إن تنصروا الله ينصركم أقول إذا كان نصره لنا عزيزًا نادرًا كان المتوقع أن يكون خذلانه لنا متوقعًا لأنه المقابل ، ولكنه جاء أيضًا مع « إن » ولم تجد له وجهًا إلا أن تقول إنها تشير إلى أن الأصل أنه سبحانه لا يخذلنا لأن الأصل أن ننصره وإنْ هنا تقول إن الأصل أن يكون الذي أنتم عليه قليل نادر لأنكم رجاله ولكنكم لم تنصروه ، وهكذا يقال في إن التي في قوله ﷺ وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعِنْت عليها لأن الذين يملكون إعطاءها للذي هو أحق بها لأنه لم يسألها وهم الكرام العقلاء الحريصون على الأمر العام هؤلاء قليل نادر ، ثم إن الذي تَبْحث هي عنه ولا يَبْحثُ هو عنها بمعنى الذي لا يسألها وهو كفء لها ويبحث الكرام الأطهار عنه كل ذلك قليل نادر وهكذا تجد الحرف الواحد في الكلام العالي يعطي ظِلالاً وأطْيَافًا من المعاني تتفق وتختلف وتتقارب وتتباين .

ومعنى « أُكلت إليها » يُروى وكلت إليها لأن هذه الهمزة بدل الواو وهـذه الجملة ليست مقابلة لقرينتها التي هي أُعِنـت عليهـا لأن وكلـت إليهـا لـيس

معناه أنك لاتعان وليس المقصود أنـك وُكلـت إلى نفسـك مـع أن في هـذا هلاك وفي الدعاء « اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين » وفيه اللهم لا تكلني إلى نفسي لأنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتبعدني عـن الخـير ، أقول ليس هذا هو معنى « أكلت إليها » لأن هذا كله أقل تهديدًا وتخويفًا من معنى « أكلت إليها » والشيء الزائد فيهـا أنهـا أي الإمـارة تصـير موكلـة بـك وهي زاخرة بالفتن فيها المال المكشوف القريب مـن يـدك ، وفيهـا الحقـوق التي تنتظرك لتضعها في مواضعها ، وفيها القدرة التي تتسلط بها علـى النـاس وفيها من المفاسد الكثير جدًا وكل هذه المفاسـد سـتوكَّلُ بـك وتحـيط بـك وتتعاون عليك لأنك لست من أهل الإمـارة وركُضْـتَ هنـا وهنـاك ونـاورت وخادعت وتلوّنت حتى وصلت إليها وهـي تكـره غـير رجالهـا . وتكرهـك وتحتقرك ولا تملك إلا أن تسلط عليك كلٌّ مـا فيهـا مـن إغـراءات تفسـدك وتفسد دينك ودنياك وتجعلك عبدًا لها ومثلك مثل عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة لأن الدينار والدرهم يكـره أن يقـع في يـد غـير مسـتحقة فـإذا امتدت إليه يد غادر كاذب مناور تمكن الدينار منه واستبدّ به واستعبده وهـذا هو معنى وكلت إليها أي صارت مُوكَلة بك كما هو معنـى عبـد الـدينار أي صار الدينار سيدًا لك وأنت في الحالتين طالب لما ليس لك والأشياء تحتقر آخذها الذي لا يستحقها .

وقوله عليه السلام « أُعِنْتَ عليها » وأول ما يُلاحظ هو البناء للمجهول في هذه الأفعال الأربعة التي شغَلَتْ جزءًا كبيرًا من هذا السطر الذي هو أروع من الرائع ، وقد ذكرت أن البناء للمجهول في قوله عليه السلام « فـإن أُعطيتهـا » لأن الذي يعطيها له غير محدد فقد يكون الشعب وقد يكون مسؤولاً أكبر منه كالوزارة التي يعطيها رئيس الوزراء مثلاً أو المحافظ أو مـا شـئت مـن تعـدد

الولايات وتعدد من يُولّى هذه الولايات . أما البناء للمجهول في الجوابَيْن (أُكلت إليها .. أُعِنْتَ عليها) ففيه إشارة إلى أن الخذلان والعون لا يكونان إلا من قدرة فوق القُدرَة ومن قوة لا تُكتَنه ومن قُوّة معلومة لا يحتاج أحد إلى بيانها، ومن قوة تعلم خفايا النفوس ، وتعلم الطامع فيها ليأخذ منها والطامع فيها ليعطيها وتعلم سر نفسه التي لا يعلمها أحد من الناس ، ثم إن كلمتي أُكلت وأعِنت هما محض الحديث وخلاصته والشاطئ التي ترسو معاني الحديث عنده إما مخذولاً موكولاً إلى التي ركض وراؤها وإما مُعانا على التي جاءته هي وركضت وراءه هي وآتته منقادة تجرُّر أذيالها . فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها .

وهؤلاء هم الرجال ومع أن بلادنا صوّحت واقشعرت ورُعِيَ فيها الهشيم وولى أمرها المغامرون والهدّاجون إلا أنه بقيت فيها بقية كما أخبر المختار صلوات الله وسلامه وأنهم لا يزالون قائمين على أمر الله حتى تقوم الساعة . هذا شيء من معنى المجهول في هذا الحديث الكريم وأنه متناسب جداً مع المجهول من أحوال الأُمَّة إذا كثر ولاتها من الصِّنف الموكول إلى حرث الدنيا وإلى أين يذهبون بها وبنا أو كَثُرَ ولاتُها من الكرام ذوي الوقار الذين تبحث عنهم الإمارة والولاية والسيادة لأنهم يزينونها أعني تزدان بهم ولا يزدانون بها لأن شيم النفوس العالية هي الزينة التي ليس فوقها زينة وهي الجاه الذي ليس فوقه جاه وهي العِزّ الذي ليس فوقه عِزٌ ، ويوم يَسْمُو فينا أصحاب هذا السموُ ويَخْسِفَ الله جانبي البر والبحر بأصحاب السموُ المُزَيفيْن يومئذ يتغير كل شيء ويسمو كل شيء سمواً حقيقيًا .

وكلمة (أُعنت عليها) قلت التاء فيها وإن كانت خطابًا مباشرًا لسيدنا عبد الرحمن بن سمرة ، فإن المقصود بها كل من يتأتى منه الخطاب كما في

قوله تعالى ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ ﴾ والخطاب في كلمة النبي ﷺ منصرف إلى من آمنوا بأنه نبي الله ورسوله وأنه يقولها لي ولك وله ولها إلى يوم القيامة وأنه يوصيني ويوصيك بأن يكون همّي وعَزْمي وحَزْمي في إتْقَان العمل الذي ألازمه وفي خدمة من لهم مصلحة عندي من أبناء قومي وأن لا أتطلع إلى سيادة ولا إلى إمارة لأن الذي فوق السيادة وفوق الإمارة هو إتقان العمل إلى آخره ، ولو قلت إن تاء الخطاب هذه تشمل غير المؤمنين وأن من أعطى منهم ولاية من غير مسألة يعان عليها لم تكن متجاوزًا لأن الله مع المحسنين أعني الذين يحسنون ما هم بصدده سواء كانوا مؤمنين أو غير مؤمنين وأن العالم الباحث المنقطع في معمله يجتهد في كشف دواء يُفرِّج به كربات الناس إذا صدق وانقطع وجمع قلبه وعقله وفكره لغايته أعانه الله وفتح عليه ووضع نتائجه بين يديه ، لأن هذا عند هذا العالم الصادق المخلص الراتع من حرث الدنيا وقد أخبرنا سبحانه أن من يريد حرث الدنيا يؤته الله منها وقد أراد هذا العالم حرث الدنيا والذي أعتقده أن الفرق في النعم الإلهية هو فرق في الآخرة فالمؤمن يثاب في الآخرة وغير المؤمن لا يثاب في الآخرة لأنه غير مؤمن بها أما في الدنيا فإذا كان هناك فريقان من العلماء يبحثان في باب واحد فريق من أهل الإيمان وفريق من أهل الكفر فالنتائج لمن جدَّ أكثر واجتهد أكثر وصدق أكثر واتخذ المنهج الأصوب وأعطى الوقت الأطول ، ولما توهمت أن التاء في قوله عليه السلام (أعنت عليها) شاملة للمؤمن والكافر تخوفت من هذا الفهم واستوحشته ولما قاربته آنَسْتَه واستأنسته وكان من أهم استئناس له أن الله سبحانه وتعالى جعل نعمه في الأرض لخلقه جميعًا فجعل الأرض مهادًا للمؤمن والكافر وجعل الجبال أوتادًا للمؤمن والكافر وجعل سراجًا وهاجًا

للمؤمن والكافر، وجعل سقيانا ماء فراتًا للمؤمن والكافر وأنبت من الأرض حبًا وعنبًا وقضبًا وزيتونًا ونخلاً آلى آخره للمؤمن والكافر وسخر الشمس والقمر والنجوم والفلك التى تجرى في البحر إلى آخر كل ذلك لخلقه سواء ، وجعل السمع والبصر والفؤاد ، وألهم كل نفس فجورها وتقواها كل ذلك للمؤمن والكافر ، وأنزل كتابه هدى ورحمة للمؤمن والكافر فمن عمل به أخرجه من الجهل إلى العلم ومن الظلم إلى العدل إلى آخره وكلهم في هذا سواء والفرق هو أن من عمل به وهو مؤمن بأنه كلام الله الذي أنزله على نبيه كان عمله هذا صالحًا مقبولاً عند الله يوضع في ميزانه يوم القيامة ومن عمل به وهو غير مؤمن به لم يكن لعمله هذا قيمة يوم القيامة ولم يبطل الله نتائجه في الدنيا لأن الله أعطى الكل ما هو فوق العون الذي يمنحه لمن أعطيت له الإمارة من غير مسألة ولا تستبعد أبدًا أن يكون من غير المسلمين من تسعى له الإمارة ويأنف أن يركض وراءها لأن قيم النفوس واحدة والكريم في الجاهلية كريم في الإسلام والفرق في الشهادتين. هذا والله أعلم.

وكلمة «أعنت عليها» فيها إشارة واضحة إلى ثِقلِها ولاحظ أنها ليست خاصة بالولاية الكبرى وإنما هي شاملة وهي ثقيلة في كل مواقعها وأثقلها وأهولها الولاية الكبرى ، وفي الكلمة شيء آخر هو أنها تَسْطو عليك بما فيها من غواية من ثروة وجاه وسلطان وقوة وما يُفْضي كل ذلك إليه من البطش والقمع والقهر للمخالفين ، وكل هذا لا منجاة لك منه إلا بكثير من الحزم والعزم وذكر الله والآخرة والاستعانة بالصالحين ثم إن العون الإلهي لا يأتيك أحيانًا إلا بعد بذل أقصى المجهود وأقصى العزم وأقصى الصدق وأقصى الإخلاص ، في هذه الحالة ترى العون المُعين إلى الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم ، أقول كلمة (عليها) فيها إشارة إلى أن لها

سَطْوة ولها بَرْقٌ ولها رَعْدٌ ولها فتنة وأنت في قمة الاختبار فإذا جاءك المدد فقد ظفرت لأنه امتدت إليك يد القادر القاهر الذي إذا حاول الأمر لا يُغلب سبحانه وتعالى ويا سعد من امتدت إليه هذه اليمين لأن يد الله يمين وكلتا يديه يمين وليس هناك دليل على الولاة المعانين إلا دليل واحد وهو التقدم الظاهر في البلاد في كل مجالاتها وأنهم ينتقلون بها من طور التخلف إلى طور التقدم كما حدث في بعض البلاد الإسلامية التي صدق رجالها وأخلصوا فامتدت لهم يمين الله واعلم أن ما نحن فيه من تخلف ليس له إلا سبب واحد هو الولاة المخذولون الذين ليس لهم هَمٌّ إلا التشبث بالسلطة وقمع كل من يعارضهم ونهب كل ما تصل أيديهم إليه ، والمسؤولية على الشعوب التي تقبل البقاء على الحالة الأسوأ ، هذا والله أعلم .

روى مسلم بسنده عن أبي بردة عن أبي موسى حديثين أحدهما مختصر من الآخر وسأقرأ الحديثين لأبين كيف كان الاختصار . ثم إن الذي في هذين الحديثين بمثابة تعميم وتطبيق لحديث ابن سَمُرة لأن رسول الله ﷺ قال لابن سمرة لا تسأل الإمارة ، ويحتمل أن يكون عليه السلام نهاه عن سؤال الإمارة لشيء فيه يجعله غير قادر عليها ، والذي في الحديثين ليس نهيًا عن سؤالها وإنما هو أنها لا تعطى لمن سألها ولك أن تقول إن الترتيب العقلي للمعاني يرجح أن يكون حديث ابن سمُرة سابقًا لهذين الحديثين ، ولا تستطيع أن تقطع بذلك والمهم أن ننظر إلى علاقات المعاني في كلام رسول الله ﷺ ، وقد رتبها أهل الحديث في أبواب وهذا حسبهم وجزاهم الله خيرًا والذي علينا أن نبحث هذه العلاقات وأن بعضها يخص كما في حديث ابن سمرة وبعضها يَعُم ولو وضَعتَ حديث أبي ذر الذي سوف نتناوله بإزاء

هذه الأحاديث الثلاثة لرجح عندك أنه أسبقها لأن أبا ذر قال لرسول الله ﷺ يا رسول الله ألا تستعملني قال فضرب بيده على منكبي ثم قال «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وأنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها» يمكنك أن ترجح أن حديث أبي ذر كان قبل أن يوحى إلى رسول الله ﷺ بأن الإمارة لا تعطى لمن يسألها لأنه لو كان عليه السلام بلغه عن ربه هذا الشأن لقال لأبي ذر إنا لا نعطي هذا الأمر أحدًا سأله ومن الذي لا شك فيه أن هذا من وحي الله لنبيه لأن هذه القاعدة العامة والباقية في الأمة إلى يوم القيامة لا تحتمل إلا ذلك حتى ولو كانت من اجتهادات رسول الله فإنها اجتهادات مؤيدة من الله لأنه عليه السلام معصوم في بلاغه ومعصوم في اجتهاده في شأن الديانة وأكرر أنني كلف جدًا بهذا الجانب من النظر في الكتاب وفي السنة وإن كان في الكتاب له نجوم يهتدى بها فمثلاً لو أردت أن أتعرف على أول خبر من السماء إلى الأرض في قصة من القصص أو في أمر تكرر أو في نهي تكرر أو في دليل الوحدانية إلى آخره وأن أرتب آيات القصة أو آيات الأمر كالأمر بالصلاة أو بالزكاة أو أحوال البعث أو أحوال الحساب إذا أردت ترتيب ذلك على أساس النزول وأن أقول أول ما حدثنا ربنا في قصة آدم وإبليس هو قوله كذا ثم تبعه قوله كذا وأنظر إلى الذي زاد في الثانية أو الذي نقص ثم قوله كذا إلى آخر ما نزل وأقيم صورة كاملة لكل معنى تكرر في الكتاب أقول إذا أردت ذلك أعانني عليه ترتيب النزول وإن كان فيه بعض الاختلاف وهذا اللون من الدراسة جيد جدًا لأن تطور الخبر ونموه ومعرفة جزئيات معانيه وترتيب نزولها كل ذلك مفيد جدًا ، وليس لنا في الحديث نجم يهدينا إلا النظر

العقلي وفيه يخطئ في الحدس الفتى ويصيب والله يغفر لمن قصد إلى الصواب وأحسن الطريق إليه فوقع في الخطأ .

روى مسلم بسنده عن أبي بردة عن أبي موسى قال : « دخلتُ على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عميّ فقال أحد الرجلين يا رسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل وقال الآخر مثل ذلك . فقال : إنا والله لا نولِّي على هذا العمل أحدًا سأله ولا أحدًا حرص عليه » هذا الحديث رواه عن أبي بردة بريد بن عبد الله وحديث آخر رواه مسلم بسنده عن أبي بردة قال : قال أبو موسى أقْبَلْتَ إلى النبي ﷺ ومعي رجلان من الأشْعَريِّين أحدهما عن يَمِيني والآخر عن يَسَارِي ، فكلاهما سأل العمل ، والنبي ﷺ يَستَاكُ فقال ما تقولُ يا أبا موسى أوْ يا عبد الله بن قيس ؟ قال فقلت والذي بَعَثَك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسُهما ، وما شَعَرْتَ أنهما يطلبان العمل . قال وكأني أنظر إلى سِواكه تحت شفَتيه وقد قلَصَتْ فقال : « لَنْ أو لا نستعمل على عملنا من أراده ، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس ، فبعثه على اليمن ، ثم أتْبَعَهُ معاذَ بن جبل ، فلما قَدِمَ عليه قال انزل ، وألقى له وسادة ، وإذا رجل عنده مُوثق . قال : ما هذا؟ قال : هذا كان يَهُوديًا فأسلم . ثم راجع دينه . دين السُّوء ، فتهوَّد قال : لا أجلس حتى يُقْتَل . قضاءُ الله ورسوله ، فقال اجلس . نعم . قال لا أجلس حتى يقتل . قضاء الله ورسوله . ثلاث مرات . فأمَرَ به فقُتل ، ثم تذاكر القيام من الليل ، فقال أحدهما : معاذ . أمَّا أنا فأنام وأقوم ، وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي ».

لو قلنا إن الحديثين يحدثان عن موقف واحد وأن أبا موسى رضوان الله عليه دخل على رسول الله ومعه الأشعريان وكان ما كان مرة واحدة لو رَدَدَتْ

علينا اعتراضات لا سبيل إلى التخلص منها وأهمها أن أبا موسى كان شديد التدقيق في روايته ما سمع من رسول الله ﷺ حتى إنه كان يشير إلى ما شك فيه ولو لم تتعلق به أحكام كشكه في أنه عليه السلام قال له يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس وهما سواء إلا في الذي تفيده الكنية وكشكه في أنه عليه السلام قال له لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده والفرق بين لن ولا من الفروق الخفية واختلف فيه شيوخ اللغة من حيث الدلالة على التأبيد فذهب الكثير إلى أن الدالة على التأبيد هي كلمة (لن) وذهب الآخرون إلى أنها أختها (لا) وأيَّد السهيلي ذلك بالألف المنتهية بها لا والدالة على الامتداد المناسب للتأبيد بخلاف لن فإن الصوت فيها انقطع وانقطاع الصوت يشير إلى انقطاع النفي وذكرت ذلك لفرط إحساس السهيلي بدلالة الصوت على المعنى .

وإذا كان هذا حال أبي موسى في الاحتياط في بلاغ ما سمع من لفظ رسول الله فلا يعقل أن يكون قد وضع قوله عليه السلام إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدًا سأله ولا أحدًا حرص عليه فكان قوله عليه السلام لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده أو أن يكون سمع إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدًا سأله ولا أحدًا حرص عليه ثم رواه لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده ، لأن هذا هو جوهر الحديث وجوهر البلاغ عن الله وجوهر الحكم الشرعي وإذا قلنا إنهما موقفان وأن أبا موسى دخل على رسول الله ومعه الأشعريان مرة ثم دخل عليه ومعه أشعريان آخران مرة ثانية والاعتراض على ذلك أخف من الاعتراض على الحالة الأولى لأنه يقال فيه كيف يطلب الأشعريان اللذان دخلا في المرة الثانية مع أنه قيل لأخويهما في

المرة الأولى إنا والله لا نولي أو لا ولن نستعمل على عملنا من أراده ، وإن كان يمكن دفع هذا الاعتراض بأنهما لم يبلغهما ما قيل لأخويهما .

وأنبه هنا إلى شيء نبّه إليه العلماء وهو أن كل ما قاله رسول الله ﷺ لم يبلغ كل أصحابه فقد يتفق أن يتصرف الصحابي الجليل تصرف يخالف كلام رسول الله ﷺ لأنه لم يبلغه وقد ذكر بعض علمائنا هذا مع أبي بكر رضي الله عنه وهو شيخ أصحاب رسول الله ﷺ وهو من هو عند رسول الله ﷺ ، فقد رأيت العلماء وهم يتكلمون في هدايا الآباء لبعض الأبناء دون بعض والأكثر يحرِّم ذلك لحديث لا أشهد على جور الذي قاله رسول الله ﷺ للذي جاء يشهده على أنه اختص ولده بشيء زائد من ماله ، والقليل الذين أجازوا ذلك استدلوا بأن أبا بكر خص أمنا عائشة بشيء زائد من ماله ورد المخالفون بأن أبا بكر فعل ذلك لأن حديث لا أشهد على جور لم يبلغه ومثله حديث ابن اللُّتبيّة الذي جاء إلى رسول الله ﷺ بما معه من مال وقال لرسول الله ﷺ هذا لكم وهذا أهدى لي لأنه لم يكن يعلم بحرمة قبول الهدية للعامل ومثل هذا كثير وليس ببعيد أن يحمل سؤال الأشعريين الولاية على ذلك . والحديث الأول انصب الكلام فيه على أصل واحد هو « إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدًا سأله ولا أحدا حرص عليه » والكلام قبله بيان لسياقه وهو آكد ما قيل في هذا المعنى لأن سيدنا رسول الله ﷺ أقسم فيه واعترض بالقسم بين اسم إن وخبرها ، وهذا الاعتراض فيه دلالة لا توجد لو أنه عليه السلام قال والله إنا لا نولي هذا العمل أحد سأله لأن الاعتراض يدل على أن المعنى الذي اعترض به له في سياق الكلام شأن أي شأن وهو قسم رسول الله ﷺ بلفظ الجلالة والاعتراض إقحام كلمة أو جملة بين جزئى كلام ولا يَفْعَل المتكلم ذلك إلا إذا كان شديد العناية بالذي

اعترض به لأنه أخذ له موقعًا هو من حق غيره وصيانة الولاية من الحريص عليها من أهم أسباب سلامة الأُمَّة مهما كان شأن هذه الولاية كبيرة كانت أو صغيرة ، لأن طاقة الأمة وقوتها وضعفها متعلقة بجدّ هذه الولايات أو إهمالها .

والحديث الثاني . أول ما يلاحظ فيه أن سيدنا الأشعري اختصر في الحديث الأول الذي اختصر فيه سيدنا رسول الله ﷺ وقال دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي ، وفي الثاني قال : أقبلت إلى النبي ﷺ ومعي رجلان من الأشعريين أحدهما عن يميني والآخر عن يساري ، وفرق بين دخلت على النبي ﷺ وأقبلت إليه لأنك تقول أقبلت إليه وأنت في الطريق متوجها إليه وتقول دخلت عليه إذا دخلت عليه داره وهذا هو الاختصار المتناسب مع اختصار سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم إنه أضاف أحدهما عن يميني والآخر عن يساري ، وهذا معناه أنه يستحضر الحالة التي أقبل إلى الرسول ﷺ عليها وتأكيد أنه يذكر الموقف بدقائقه وهذا من زيادة توثيق الخبر ثم هو متناسب جدًا مع ذكره لحالة رسول الله ﷺ وهو يحدِّث وأنه عليه السلام كان يستاك وأنه كان ينظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصَتْ كل هذا من بلاغة أبي موسى التي يؤكد لك فيها أنه يروى عن رسول الله ﷺ والصورة حاضرة أمامه وكأنه يسمعه ﷺ وعينه تراه .

وعلينا أن نذكر شيئًا وهو حب رسول الله ﷺ للأشعريين وأنهم كانوا إذا مر الماشي في الحي الذي هم فيه استشعر أن أصوات قراءتهم للقرآن تحيط بكل ما في الحى ، ثم إن أبا موسى عليه السلام كان كأنه أوتي مزمارًا من مزامير داود عليه السلام وأن رسول الله ﷺ كان يحب سماع القرآن منه وأنه عليه السلام مرّ ومعه أمنا عائشة فسمعا أبا موسى يقرأ القرآن فوقفا لسماعه

وحسن قراءته وخشوع صوته ولما حدّث رسول الله ﷺ بما كان منه وأمنا عائشة قال أبو موسى لو علمت بذلك لحبرته لكما تحبيرًا ، كل هذا يستحضر ونحن نقرأ أن رجلين منهم سألا رسول الله ﷺ الولاية فقال لهما ما قال لأن هذه قاعدة شرعية لا يستثنى منها إلا ما كان يريد أن يصلح شيئًا لم ير غيره أكفأ منه في إصلاحه وهو يعلم أن الله سبحانه يعلم ما في الصدور فهذا يجوز له أن يطلبها وقد يُسْتحبُّ منه طلبها وقد يجب عليه طلبها وكل ذلك مرتبط بالواقع الذي هو فيه وأعني بذلك أن رفض رسول الله ﷺ ولاية الرجلين ليس قادحًا فيهما وإنما هي القاعدة التي لا يَسْمَحُ رسول الله ﷺ باختراقها لأنها إن استقامت استقام معها كل شيء وإن اختلت اختل معها كل شيء ، وعلينا أن نذكر ذلك جيدًا وأن نكرر هذا على أسماع الناس حتى إذا كان لهم حق الاختيار استحضروا هذا الحديث فيُدقِّقُوا في الذي يكون به الصلاح والإصلاح فإذا لم يجد هذا الرجل فعليه أن يبقى في بيته حتى لا يختار من لا يصلح ولو شاع في الناس هذا لكثر فيهم أهل الصلاح والإصلاح ولهذا أقول هذا الحديث كأنه قيل اليوم .

قول أبي موسى « فكلاهما سأل العمل » يلاحظ أنه رضوان الله عليه أخبر عنهما باختصار وأنهما سألا العمل وفي الحديث الآخر حدّث بما تحدّث به أحدهما وهو قوله يا رسول الله أمّرنا على بعض ما ولاك الله عز وجلَّ وقال الآخر مثل ذلك ، يعني لم يكتف الآخر بما قاله صاحبه مع أنه تحدّث بضمير الجماعة المتكلمين وقال أمّرْنا ولم يقل أمّرني ، قلت ليس هذا قادحًا في الذي يقوله وقد قال أبو ذر مثل ذلك وأبو ذر لا غميزة فيه ولم تكن معرفة الأحكام قد شاعت واستقرت وهما داخلان في الذين أجمع أهل السنة على أنهم عدول ولكن القاعدة التي أقسم عليها رسول الله ﷺ وأنها

لا ترخّص فيها وقوله عليه السلام (ما تقول يا أبا موسى أو يا عبد الله ابن قيس) ولا أفهم من سؤال سيدنا رسول الله لأبي موسى معنى هل جئت بهما لتشفع لهما لأن قول أبي موسى والذي بعثك بالحق ما أطلعان على ما في أنفسهما ليس نصًّا في الدلالة على نفي أنه جاء ليشفع لهما وإنما هو نص في أنه رضي الله عنه لم يعرف ما انطوت عليه نفساهما وأنهما لم يذكرا له شيئًا من ذلك لا على سبيل الشفاعة ولا على سبيل المشورة ، وليس في هذا أيضًا إشارة إلى أن أبا موسى يعلم أن القاعدة هي أننا لا نولي هذا الأمر أحدًا طلبه وليس في هذا أيضًا دليل على أن هذا الحديث ذكر أولاً قبل حديث إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدًا سأله، واللفظ يحتمل كل ذلك ، ثم إن كلمة أبي موسى ليس فيها اتهام لهما لأنهما ليسا مطالبين بأن يحدثا أبا موسى بما في أنفسهما ولا تنسى أن كل من جلس في مجلس رسول الله ﷺ وهو صادق الإيمان صحابي وكل صحابي مُعدَّل ، وقول أبي موسى : وما شعرت أنهما يطلبان العمل ، زيادة معنى على قوله ما أطلعان على ما في أنفسهما ، يعني ما حدثان في ذلك ولا ظهر لي منهما أنهما يطلبان العمل ، وربما يكون أمرًا قد عرض لهما وهما في مجلس رسول الله ﷺ ، وليس في كلمة وما شَعَرْت أنهما يطلبان العمل إشارة إلى علم أبي موسى بمنع ذلك . وإنما هو بيان لحاله مع صاحبيه في هذه المسألة وأنهما ما كلماه ولا فهم من حالهما ذلك وكل ما وراء ذلك مسكوت عنه .

وقول سيدنا عبد الله بن قيس : «وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قلصت» كلمة جيدة جدًّا وهي جزء من بلاغة هذا الصحابي الجليل لأنها تعيد لحظة سماع أهم جملة في الحديث وأهم جملة هي وديعة

رسول الله ﷺ في أمته التي أدار كثير من أمرائها ظهورهم إلى سنته واتبعوا سنة أعدائه ، هذه واحدة ، وثانيه أجدها في الجملة وقد تُنكرها عليّ وهي أن أبا موسى وجد في نفسه طُربة ونشوة وهو يحدث عن هذه اللحظة التي يرى فيها وجه أكرم من خلق الله وبرأ وسواكه في فمه وقد قلصت شفته أي انكشفت وكأنه يقول كانت أذني وكانت عيني على فمه حين قال هذه الجملة التي هي دواء يُستَطَبُّ به لكل أدواء أمَّته وهي «لن أو لا نستعمل على عملنا من أراده» ويلاحظ أن الشك والتردد بين أن يكون عليه السلام قال لن أو قال لا غير التردد في أنه عليه السلام قال يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس لأن جملة لا نستعمل هي لب هذا الحديث ولب أكرم وديعة تركها لنا سيدنا عليه السلام وهي جوهرة هذا الحديث والذي قبلها كان وطاء لها والذي بعدها كان توكيدًا لها وقد قدمت ذلك ، وكلمة (على عملنا) ليس المقصود على عمل رسول الله ﷺ لأن هذا انتهى بانتهاء زمنه ولم يكن العمل في الجهات التي كان يستعمل رسول الله ﷺ فيها عمالاً هو عمله عليه السلام وإنما هو عمل الجماعة ونسبته إليه عليه السلام تشريف لهذا العمل وتعليم كل واحد منا أن عمل كل عامل في الأمة هو عمل له كما أن عمل كل واحد منا في هذه الأمة إنما هو عمل لكل واحد في هذه الأمة ، وهذا هو معنى الترابط والتساند والتآزر والتآلف الذي بين الأمة وأنها جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحُمَّى ، فرأس الدولة عامل على عملي وعملك وعملي وعمله وعملها كل ذلك خيوط تنسج رُقعة هذه الأمة ولبنات في بنائها ووجود هذا المعنى السياسي الرفيع في قلوب أبناء الأمة هو التفوق وهو التقدم وهو الطاقة المتحركة إلى آخر ما تدرك أنت من ذلك . وهذا شيء مما أفهمه من إضافة أي عمل في الأمة

إلى ضمير المتكلم صلوات الله وسلامه عليه وهو القائد وهو الرائد الذي لا يكذب أهله .

وكلمة (من أراده) تعني من أراد عملنا هذا من حيث هو عمل وليس من حيث هو باب من أبواب الصلاح والإصلاح يريده ليس لذات العمل وإنما لإصلاحه وتنشيطه والقيام به على خير وجه خدمة للجماعة المسلمة ، فالإرادة هنا مقيدة بإرادة ما فيه من منافع له وليس للجماعة فإذا أرادها لإحسانها وإتقانها وليس للتربح منها استعملناه على عملنا ، وقوله عليه السلام « ولكن اذهب أنت يا أبا موسى أو يا عبد الله بن قيس فبعثه على اليمن » هذا الاستدراك يؤكد معنى أننا لن نستعمل على عملنا من أراده لأنه يفيد أننا في حاجة إلى من نستعمله ومع ذلك لن نستعمل عليه من أراده وليس قدحًا فيكما وإنما هو إنفاذ القاعدة التي لا يجوز الترخص فيها وهذه رسالة لنا نحن ولمن قبلنا ولمن بعدنا أنه لا يجوز أن تستعملوا على الناس من أراد أن يستعمل عليهم ولو كنتم في حاجة وإنما ابحثوا عن الكفاءات وليس لكم طريق إلا هذا وقد فوجئ أبو موسى بهذا البعث وزاد رسول الله ﷺ تأكيد ما أراد تأكيده ببعث معاذ بن جبل وأن اليمن محتاجة إلى عاملين وإنما رفض طلبكما لأنكما أردتم . وهذا يعني أن الصحابين الكريمين لم يكن عندهما علم بقوله عليه السلام إنا والله لا نولي على هذا العمل أحدًا سأله ، ولا أحدًا حرص عليه ، وجملة « ولا أحدًا حرص عليه » تفيد أن الذي سأله لم يكن حريصًا عليه وأن السؤال لا يعني الحرص ، وأن هذا لدرء الشبهات حتى لا يعمل إلا الذي يعمل للعمل نفسه وليس لنفسه منه شيء وبهذا يستقيم الأمر وبخلافه يحدث الذي تراه عينيك ، وعليك أنت أن تتدبر هذه القاعدة الرفيعة ونتائج تدخلها في السياسة وكذلك نتائج

إبعادها عن السياسة . الدين طهارة ونظافة والسياسة أحوج ما تكون إلى الطهارة والنظافة .

قال الراوي فبعثه على اليمن ثم أتبعه معاذ بن جبل فلما قدم عليه قال انزل وألقى له وسادة ، كلمة «ثم» تعني أن بعث معاذ كان بعد بعث أبي موسى بزمن ولم يكن بلا مهلة ، وكلمة قَدِمَ عليه تعني أنه وصل إليه ولا تعني أنه دخل عليه لأن قوله (انزل) تعني الوصول ولا تعني الدخول لأنه يصل إليه راكبًا ولا يدخل عليه راكبًا وتصوير هذا الموقف الذي هو القدوم عليه وقوله انزل وألقى له وسادة ، لم يكن المقصود منه بيان معانيه الظاهرة لأن هذا من مألوف عادات الناس وإنما المقصود منه ما بعده وهو رؤية الرجل الذي غيّر دينه وبيان موقف سيدنا معاذ من ذلك وأنه لابد أن يقتل وتكريره لقوله لا أجلس حتى يقتل قضاء الله ورسوله ثلاث مرات . ثم أمر به أبو موسى فقتل والرجل كان يهوديًّا فأسلم ثم رجع إلى اليهودية دين السوء كما قال أبو موسى .

وتلاحظ أن معاذًا يحرص على إنفاذ حد الردّة وأن ذلك حكم الله ورسوله وأن هذا الإنفاذ لابد أن يكون على الفور ولم يسأل معاذ هل استتابوا هذا المرتد أم لا ؟ وتلاحظ أيضًا أن موقف أبي موسى كان فيه اختلاف عن موقف معاذ لأن أبا موسى أوْثَقَهُ ولم يقتله ، وطلب من معاذ أن يجلس ثلاث مرات وهذا يعني جواز تأخير حد الردة عند أبي موسى ، ثم استجاب لمعاذ لظنه بأن الذي عند معاذ في هذا الباب أوثق من الذي عنده ، ومعاذ هو الذي اهتزّ عرش الرحمن لموته وهو الذي حكّمه رسول الله ﷺ في شأن اليهود ولما قضى فيهم بالذي قضى قال له رسول الله ﷺ لقد قضيت بقضاء

الله من فوق سبع سموات ، ومعاذ قال فيه رسول الله ﷺ إنه يسبق العلماء يوم القيامة برَتْوَةٍ أي رمية قوس . ومسألة المرتد فيها كلام أذكر بعضه :

ذهب مالك والشافعي وأحمد والجماهير من السلف والخلف إلى أنه يستتاب قال النووي ونقل ابن القصاص المالكي إجماع الصحابة عليه وقال طاووس والحسن والماجشون والمالكي وأبو يوسف وأهل الظاهر لايستتاب ، ولو تاب نفعته توبته عند الله تعالى ولا تُسقط قتله لقوله ﷺ «من بدّل دينه فاقتلوه» وقال عطاء إن كان ولد مسلمًا لم يُستَتَبْ وإن كان ولد كافرًا فأسلم ثم ارتد يستتاب . واختلفوا في الاستتابة أواجبة أم مستحبة؟ والأصح عند الشافعي وأصحابه أنها واجبة ، وأنها في الحال ، وله قول إنها ثلاثة أيام وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق ، وعن علي أنه يستتاب شهرًا . انتهى ما أردته من كلام النووي ، والقول بإجماع الصحابة على أنه يستتاب لا ينقضه موقف معاذ لاحتمال أن يكون معاذ قد عرف أنه استتيب ، وشيء آخر يجب أن يلاحظ وهو أن كثيرًا من الأحكام قد تعاور عليها التحديد والتحرير زَمَن نزول الوحي إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ، وقد نزلت هذه الآية في حجة الوداع وبها استقرت الأحكام ، ولابد أن يكون جمهور الخلف والسلف وإجماع الصحابة القائلين بالاستتابة قد اعتمدوا على شيء أضيف إلى حديث من بدّل دينه فاقتلوه ، ثم إنهم أجمعوا على قبول توبة المرتد لقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ ، وإذا كان ظاهر الحديث أنه يقتل فالآية تقيد هذا الظاهر قلت إن عليًا قال يستتاب شهرًا وأضيف أن النخعى قال يستتاب أبدًا ومعناه أنه لا يُقتل وإنما يترك وباب التوبة مفتوح حتى يأتيه الأجل وهذه الجملة المنسوبة إلى النخعى رأيتها في بعض الكتب ولم أعرف أن أحدًا وافقه عليها .

وهناك مسألة تتعلق بهذا الشأن وهي أن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ وقال لرسوله عليه السلام ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ فما وجه قتل المرتد ومعلوم أن الله سبحانه لا يقبل إيمان المكره ؟ والذي أراه وهو رأي استخرجته وليس منقولاً عن من يؤخذ عنهم العلم هو أن الدخول في الدين ثم الخروج منه يثير الشبهات عند العامة والضعفة وقد استعملها الذين كفروا زمن نزول القرآن قال تعالى ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (آل عمران:٧٢) وهذا الطريق الخبيث لا يزال ممتدًا وقد أُخبرت من بعض طلاب العلم الوافدين على الأزهر أن الروس المعادين لدين الله أيام احتلالهم لأفغانستان كانوا يوفدون إلى الأزهر بعض الشباب المتعاون معهم بأسماء إسلامية وهمية ليدرسوا في الأزهر وليحصلوا على شهادته ثم يعودون إلى أفغانستان ويعلنوا إلحادهم ويوهموا الناس أنهم رجعوا عن الإسلام بعدما درسوه ثم يطير ذكرهم في الصحف والإذاعات والخلاصة أن الردة كانت ولا تزال سلاحًا كاذبًا وخبيثًا لصد الناس عن دين الله فحُسِم هذا الأمر بحدّ الرِّدّة الذي بينت مقالة العلماء فيه . وليس للردة صلة بحرية الاعتقاد لأن من دخل هذا الدين لا يخرج منه لأمر يراه فيه فليس هناك خيرٌ إلا أمرنا الله به وليس هناك شر إلا نهانا الله عنه فلم يبق إلا حرب هذا الدين والصّدّ عنه وليس لهذا إلا الحد وهذا هو العدل .

قال الراوي ثم تذاكرا القيام من الليل فقال أحدهما ـ معاذ ـ «أما أنا فأنام وأقوم وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي» .

انجر الكلام من قول أبي موسى أقبلت إلى النبي ومعي رجلان من الأشعريين وكان يمكن أن ينتهي عند قول الراوي فبعثه إلى اليمن ثم أتبعه

معاذ بن جبل ولكن قصة الرجل المُوثق اجتنبت طرف الحديث لأهمية ما فيها من موقف حاسم لمعاذ وأن المرتد يقتل فورًا والموقف المخالف لأبي موسى وهو أنه أوثقه ولم يبين عزمه فيه وقد رأينا فيها كلامًا كثيرًا وكان يمكن أن ينتهي الحديث عند قوله «فأمر به فقتل» ولكن جملة معاذ الأخيرة وهي قوله «أما أنا فأنام وأقوم وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي» رأى الراوي أنها لابد أن تبلغنا لأنها من أصفى ضروب البلاغة وأصفى ضروب العبادة ، ولا أذكر أني قرأت مثلها في معناها ولاحظ أنه قال : فأنام وأقوم ، ولم يقل فأقوم وأنام وذلك لأن النوم عنده تهيؤ وإعداد قلب وعقل للذكر والتعبد ، وأنه يتهيأ لهذه العبادات بجمام نفس ووفرة نشاط وصفاء قلب لأن العبادة عند سيدنا معاذ تذوق أعني لسانًا يذكر وقلبًا يخشع ونفسًا تستشرف إلى الله وتسكن فيها آياته ويسكن فيها جلاله ، لم ير سيدنا معاذ أنه يقوم أبدًا لأن الذكر مع جهد النفس فيه ليس كالذكر مع جمام النفس ووفرتها ، وفرق بين عابد باحث عن الخصب خصب القلب وصفاء الروح فيذكر الذكر الذي به تطمئن القلوب وهي لا تطمئن إلا إذا وجدت لذة الذكر فرق بين عابد هذا شأنها وعابد ليس كذلك .

وقوله رضوان الله عليه وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي فيه أنه يرجو أن يكون ثوابه وهو نائم كثوابه وهو قائم ما دام قد نام ليقوم ، وهذا يعني أن ما نقدم به لأعمالنا الصالحة له ثواب هذه الأعمال ، فإذا كنت أحتسب في درس رغم أني أتقاضى عليه أجرًا فإن إعدادي لدرس له ثواب أداء درس ، وإذا كنت أنام من أجل أن أُحْسِنَ درسي فلنومي ثواب درسي ، وهكذا العامل الذي يسعى ليكتسب الرزق الحلال . هذا السعي من أقرب القربات ونومه الذي يمنحه النشاط الذي يحسن به عمله يصير هو الآخر من أقرب

القربات ، وقل مثل ذلك في الصانع في المصنع والعالم في المعمل والباحث في بطون الكتب ما داموا قد رزقوا النية الحسنة الصالحة لخدمة جماعتهم ، فكل ما هم فيه من العمل الصالح يرجون في نومتهم ما يرجون في قومتهم وهذا من معنى أن شأن المسلم كلّه خير ، ورحم الله القرطبي الذي استخرج لنا هذا المعنى الجليل وقال إن النوايا الحسنة تجعل المباحات من باب القربات وقد علق على جملة سيدنا معاذ التي لم أقرأ لها أُختًا وهي (وأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي) قال ولا يَتَفَطّن لمثل هذا إلا مثل معاذ الذي يسبق العلماء يوم القيامة بِرَتْوَة أي رمية قوس . كما قال ﷺ وعلى هذا فما من مُبَاحٍ إلا ويمكن أن يقصد فيه وجه من وجوه الخير فيصير قُربة بحسب القصد الصحيح والله أعلم . انتهى ما أردته من كلام القرطبي ، وأقول إن مثل معاذ وأقواله من نعم الله علينا وأن جملة معاذ هذه بين أيدي أهل العلم كنز من كنوز المعاني ثم إن الله سبحانه وتعالى أردف النعمة التي في كلام معاذ نعمة منها في كلام القرطبي الذي أخرج لنا من كلام معاذ لؤلؤة لا تزال في أيدينا رحمهم الله جميعًا وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين .

ومما يدخل في هذا الباب حديث أبي ذر وقد سأل رسول الله ﷺ أن يستَعْمِله فأجابه رسول الله ﷺ إجابة مختلفة عن إجابته لصاحبي أبي موسى .

روى مسلم بسنده عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله . ألا تستعملني ؟ قال فضرب بيده على مَنْكِبي ثم قال : « يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة . وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا مَنْ أخَذَها بحقّها وأدى الذي عليه فيها ». روى هذا الحديث عن أبي ذر ابن حُجَيْرَة الأكبر وحديث آخر عن أبي ذر رواه عنه سالم بن أبي سالم الجَيْشاني عن أبيه عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ

قال «يا أبا ذر . إني أراك ضعيفًا ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تـأمّرَنَّ على اثنين ولا تَوَلَّينَّ مال يتيم».

ويلاحظ أنه في الحديث الثاني لم يذكر أنه طلب من رسول الله ﷺ أن يستعمله وإنما هو نصح من رسول الله ﷺ لأبي ذر بأن لا يتأمّر على اثنين وأن لا يولّي مال يتيم ، وقول أبي ذر : يا رسول الله ألا تستعملني غير قولهم يا رسول الله أمّرنا على بعض ماولاك الله ، الثاني أمر وإن كان من الأدنى إلى الأعلى ، والأول عرض وهو طلب بلين ، وكلمة (ألا) في كلام الغفاري العريق أخت (ألا) التي في قـولـه تعالى ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ وهذه الآية برد على قلوب عباد الله لأنه سبحانه يطلب منا أن نحب مغفرته بلين ولُطف ورِفق فكيف يكون لينُه ورحمتُه وعطاؤه إذا كنا طلبنا المغفرة ونطلبها ونلحُّ في طلبها ونقول في كل وقت اللهم اغفر لنا وارحمنا . وقد أدرك رسول الله ﷺ ما في كلمة أبي ذر من لطف وتودُّد فلاطفه ﷺ وضرب بيده الشريفة على مَنكبه ليشعره بقربه منه وأن ما سيسمعه من رسول الله ﷺ وإن كان رفضًا لطلبه الودود إنما هو صادر عن حب له وحرص عليه ولابد أن تتذكر تفرد شخصيَّة أبي ذر وأنه عاش وحده ومات وحده وقد مات وزوجته الصالحة معه وكان في الطريق وكانت تقول للمارة هنا أبو ذر صاحب رسول الله ﷺ وتدعوهم إلى دفنه وكان يلازم رسول الله ﷺ وكان زاهدًا في الدنيا زهدًا متميزًا وكان يفهم آية الذين يكنزون الذهب والفـضـة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم فهما مخالفًا وقد أجمع الصحابة على أنها خاصة بالذين لا يخرجون زكاة المال وله حكايات في التاريـخ اختلف فيـها اختـلافـا ظاهـرًا عن أصحاب رسول الله ﷺ ، واختلف

معهم وكانوا يطأطئون رؤوسهم عند مخاشنته لهم احترامًا لمكانته عند رسول الله ﷺ .

ولم يقل له رسول الله ﷺ إِنَّا لَنْ نُوَلِّي هذا الأمر أحدًا سأله لأنه عليه السلام يعلم أن أبا ذر لم يسأل ذلك لغرض له ، وإنما سأل ذلك ليصلح وليعمل في خدمة الجماعة ، وأن سؤاله كسؤال يوسف عليه السلام لما قال للملك اجعلني على خزائن الأرض ، وبرر سؤاله بوصفين جليلين لا يُطْلَب في الذي يتولى خزائن الأرض أفضل منهما وهما الأمانة التى دل عليها بقوله « حفيظ » والخبرة التي دل عليها بقوله « عليم » سيدنا رسول الله لم يُوَلِّ أبا ذر لأنه سأل وإنما لم يوله لأنه كما قال عليه السلام (ضعيف) وقد بيَّن صلوات الله وسلامه عليه الضّعف الذي أراده بقوله « إنها أمانة » والأمانة تعني أداء حقِّها في حسن إدارة أحوال الناس في الدنيا والآخرة وكان أبو ذر لا يهتم بإدارة أموال الناس وكان يؤثم ذلك ويرى أن المال المدخر هو الذي يحمى على صاحبه في نار جهنم وكان يخاشن أصحاب رسول الله في خطابه معهم في هذا الشأن وكان كبارهم وصغارهم يطأطئون رؤوسهم حين يخاشنهم ولا يجيبونه بمخاشنة مثل مخاشنته لمنزلته من رسول الله ﷺ ، قال القرطبي : « ومن كان هذا حاله لم يَعْتَنِ بمصالح الدنيا ولا بأموالها التى بمراعاتهما تنتظم مصالح الدين ويتم أمره » انتهى كلام القرطبي ، الزهد في الدنيا خلق طيب وواجب وهناك فرق بين زهد يُحطّم حياتنا ويمكن منا عدونا فيستبد بأرضنا وثرواتنا وهذا ليس زهدًا وإنما الزهد الصالح هو الذي يُحطِّم روح الأنانية والأثَرَة ويَصْرِفُك إلى المصالح العليا للأمة وتثمِير ثرواتها والعمل على أن تكون حياة الناس حياة سَهْلة رَهْوة سخيّة غنية ، وتثمير طاقاتها في الصناعة والزراعة والعلم والقوة والتقدم وإعداد العدة القوية

لحمايتها وما يتطلبه هذا الإعداد من الثروة والعلم والتقدم ، كل هذا لا يتصادم مع الزهد وإنما الزهد أن تعمل على تحقيق هذا وأكثر منه ، ونفسك زاهدة فيما ليس لك لا تمتد عينك إليه ، ولا تستشرف نفسك إليه ثم لك من الحلال ما شئت ، الزهد الصالح ما كان مثل زهد أبي بكر الذي جهّز جيش العسرة من ماله وزهد عبد الرحمن بن عوف الذي مات رسول الله ﷺ وهو راض عنه وكان لسعة ماله يقال فيه إنه إذا رفع حجراً وجد تحته ذهبًا لأنه كان ربيحًا في تجارته وقول سيدنا رسول الله ﷺ لأبى ذر إنك ضعيف وإنها أمانة رسالة منه عليه السلام إلينا يقول لنا فيها ابحثوا عن الأقوياء الذين يحسنون إدارة دنياكم وإذا كان صلاحهم وطهارتهم مما لا ترخُّص فيه فكذلك القدرة والخبرة بصلاح المعاش وصلاح الدنيا وبقاء القوة الحامية لكم وما يتطلبه ذلك من علم وثروة وحياة كريمة ،واحذروا أن تهملوا هذا الشأن وأن تبحثوا عن أهل الورع فحسب وإذا كنتم تنظرون إلى الورع مرة فانظروا إلى القدرة مرتين لأن اختلال سياستكم يدمركم ويمكن عدوكم منكم ، وقوله عليه السلام : « وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها » .

« يقال خزي الرجل كفرح يخزى خزيًا إذا وقع في بلية وشر فَذَلَّ بذلك وهان . وقال أبو إسحاق في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ المُخزَى المُذَل المحقَّر بأمر قد لزمه ، والخزي الهوان وقد أخزاه الله أي أهانه ، وقال بعضهم أخزيته أي فَضَحْتُه ومنه قوله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام ﴿ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓ ﴾ أي لا تفضحوني ، وقالوا في قوله تعالى لهم ﴿ خِزۡيٌ فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ الخزي في الدنيا الفضيحة» انتهى ملخصًا من اللسان .

والوالي الذي لا يأخذ الولاية بحقِّها وليس كفأً لها يسقط في البلية والشر والفعل الفاضح فيذل بذلك ويهون ويحتقر فإذا نجا من ذلك في الدنيا بالقَمْع والقهر وإعلام الزور وسماه الكذابون زعيمًا وبطلا قوميًا فإن ذلك سيكون يوم القيامة على رؤوس الأشهاد يوم تبلى السرائر ويوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء .

وقوله عليه السلام (وندامة) معطوف على الخزي وبهذين الوصفين أو هاتين المفردتين تَمَّ وصف هذا الدجَّال الذي تولى أمْرَ الناس بالتآمر والغدر والخيانة والكذب لا تراه إلا في خزي يعني إلا في ذل واحتقار وامتهان وفضيحة ، وهذا من الإيجاز البالغ ولابد أن تدرك المناسبة بين الإمارة والوجاهة والغطرسة والاستكبار حين تكون الإمارة وصفًا لمن أخذها بغير حقها وبين الذل والفضيحة والإهانة والمهانة وهذا يذكرنا بما في الكتاب العزيز من وصف العذاب المهين حين يأتي في بيان عاقبة المستكبرين .

وقوله عليه السلام « إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها » انتقل الكلام بنا من صورة المفضوح المحتقر إلى صورة الكريم النبيل الذي لا يأخذ الشيء إلا بحقه وقبل الكلام في هذا راجع كلام سيد أهل البيان وكيف أجمل صفات المتحايل الدجَّال الذي يسعى بخسَّة وندالة حتى يأخذ ما ليس له كيف أُجْمِلَ شأنه في كلمتين « خزي وندامة » ثم أجمل حال الكريم الرائع الذي به وبأمثاله ترتقي حياة الناس وتسمو أخلاقهم وتستقر فيهم الفِطْرةُ التي فطر الله الناس عليها من خلق عف ورضا وبعد عن الدنايا والطمع والأثرة إلى آخره كيف أوجز عليه السلام شأنه في كلمتين (أخذها بحقها وأدى ما عليه فيها) وإذا أردت أن تشرح هاتين الكلمتين احتجت إلى

أن تكتب كتابًا في حق الولاية وواجبات الوالي ، وهـذا المقتبس من كلام سيدنا رسول الله ﷺ عنوان كتاب ، والحقيقة أنك تستطيع أن تَتعلَّم سُموَّ البيان الإنساني في كلامه ﷺ لأن بيانه يريك الفرق الذي بين بيانه وبيان غيره ومنه هذه الكلمات الأربع التي ترى في جانب منها الخزي والندامة وفي الجانب الآخر أخْذَ الشيء بحقه وبذل ما يجب على آخذه بحقه ما يجب عليه نحوه وصلى الله وسلم وبارك عليك ، ولاحظ أن جماعة الخزي والندامة كثيرة جدًا ولاحظ أيضًا أن الإمارة وأن انصبَّ حديثنا فيها على الإمارة الكبرى لأنها الأصل فإنها هي أيضًا كثيرة جدًّا لأنها تبدأ من الإمارة على اثنين وتولية مال اليتيم يعني تدخل فيها كل مسؤول عن أي عمل لأنه أمير عليه وقد شرحت ذلك مرارًا وأن رئيس شؤون الموظفين أمير وأن رئيس شؤون الطلاب أمير وأن المسؤول عن أي شيء هو أمير عليه ، قلت هذا وأقول لاحظ حولك تجد جماعة الخزي والندامة أكثر مما هبَّ ودبَّ وجماعة سموّ النفس وكريم الأخلاق والحفاظ على صورة الإنسان التي دمَّرها جماعة من هب ودبّ لا تزال فينا وهم كعروق الذهب الممتدة في هذه الأُمة ولا يزالون على الحق ظاهرين عليه إلى يوم القيامة .

وعليك أن تتصور صورة الحياة في المجتمع الذي أنت فيه كيف تكون إذا التزم كل إنسان بالتزام واحد فقط وهو أنه لا يأخذ الشيء إلا بحقه ، واختَفَتْ صورة المنافقين والدجّالين والدوارين على مكاتب الكبار ليأخذوا حقوق غيرهم ، اختفى هؤلاء وصار الحق يبحث عن صاحبه ويطرق عليه بابه ولا يحوج صاحب الحق أن يبحث عنه لأنه كفاه أنه جدَّ واجتهد وصار صاحب حق ويقف عند ذلك ليبحث حقُّه عنه ، تصور هذه الصورة الكريمة وكيف تكون حياة الناس ، ثم انتقل من الأفراد إلى الدول لو أن كل دولة

لا تأخذ الشيء إلا بحقه لكفتنا هذه القاعدة وَيْلات حُروب ودماء وسلب وجيوش ونهب إلى آخره ، وهذا هو الذي يُدْهشني في كلام سيدنا رسول الله لأني من أي جهة جئتُ الجملة وجدتها تَفْتَحُ بابًا من المعاني لا حدود له وقوله عليه السلام «وأدى الذي هو عليه فيها» أول ما تلاحظه فيها أنها مرتبطة أشدً الارتباط بجملة «أخذها بحقها» ووجه ذلك أن الشأن في الذي لا يأخذ الشيء إلا بحقه أنه يؤدي ما عليه فيه وهو عكس الذي يأخذ الشيء بغير حقه فإنه لا محالة لا يؤدي الذي عليه فيه لأنه لم يراع الحق حين أخذه فأولى به أنه لا يراعي الحق فيه وكما تجد هذا الرباط بين هاتين الكلمتين تجد أيضًا الرباط بين الخزي والندامة ، وأن الندامة ما كانت لتكون إلا بالخزي لأن غير أهل الخزي لا يعرفون الندامة ، وهكذا لو نظرت إلى الأرحام التي بين كلماته ﷺ لرأيتها وافية وفاء حقه صلوات الله وسلامه عليه برَحِمه ونحن جميعًا من رحِمه لأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ، وفي قراءة وهو أب لهم اللهم صل وسلم وبارك عليه في الأولين والآخرين .

وإذا اختصرت معنى أخذ الشيء بحقه في الكفاءة كنت مصيبًا فالكفاءة هي الحق ، والكفء في الشيء استحقاق للشيء وقَدْ لُوحِظَتْ الكفاءة في كل شيء حتى في الزواج فإذا دُمِّرت الكفاءة استبيحت الحقوق وأخذ القوس غير باريها وصارت السهام في يد غير النزعة واختلط الحابل بالنابل واضطربت حياة الناس. وأنفس ما في هذه الدنيا هو الكفاءة وكل شيء يكافأ إلا الكفاءة فإنها لا كفاء لها لأنها لا يحصلها راغبها إلا بلأي ولأواء ، فإذا دمرناها فقد دمرنا أنفس ما في الحياة . ومشكلتنا أننا لم نتعهد الكفاءات ولم نرعها حق رعايتها وربما حقد بعض الكبار عليها ووضعوها في زنازين انفرادية .

وإذا سألت وقلت ما الذي عليه فيها ؟ يعني ما واجبات الوالي الكفء في ولايته . قلت هو السعي الذي لا يني ولا يَفْتَرُ في تحقيق الخير للناس ، وهذا الخير الذي للناس يختلف باختلاف الأحوال وهو الآن أن تتعلّم أولادهم أحسن تعليم يستخرج منهم كل ما فيهم من طاقات فكرية وعلمية حتى يتهيأ من يتهيأ منهم لأن يكون من علماء العالم ، وانظر ما يوجبه ذلك من أحوال المدارس والجامعات ومراكز البحث وأن يجدوا من الرعاية الصحية أفضل ما يجد أَفَضَلُ الناس وقل مثل ذلك في زراعتهم وصناعتهم وقوتهم وحماية أرضهم إلى آخره ، ولا تظن أن هذا خَيالٌ لأن هنا ممكن جدًّا إذا وجدت الولايةُ من أخذها بحقها ومعلوم أنه لن يفعل ذلك إلا بفريق من الكفاءات بلغت الغاية في الكفاءة وبلغت الغاية في الحرص على البلاد لأنها بلادها وليست بلاد عصابة حول حاكم مُغَامِرٍ ولا بلاد عائلة وإنما الكل على أرضها سواء كأسنان المشط . وهذه التَّسْوية تربط الكل بتراب الوطن وتستخرج من الكل أفضل ما عندهم أما إذا كانت البلاد لعصابة ولا نصيب منها إلا الذي تمتد إلينا به يَدُ أَحَدُ أفراد العصابة أو أحد أفراد العائلة فهذه هي البلاد التي خَسِرَتْ أبناءها وذلك هو الخسران المبين .

ولاحظ أنك إذا فسّرت كلام رسول الله ﷺ بمعزل عن الواقع فأنت كأنك جعلت نبوَّتَهُ ﷺ في فضاء ليس فيه إنسان مع أنه عليه السلام لم يُبْعث إلا لهذا الإنسان الذي هو أنا وأنت وبقي ألا تُغفل عائلة كلام المصطفى في هذا الشأن وتربط بعضها ببعض وأن الذي أخذها من غير حق هو من شرِّ الرعاء وهو من الحُطَمة وهو الذي مات يوم مات وهو غاش لها ، وهو الذي لا يجد ريح الجنة ، وهو الذي يشق الله عليه لأنه شق على الأمة ، وأن صاحب الكفاءة التي أخذها بحقها وأدى ما عليه فيها هو الذي يكون على

مِنبرٍ منَ نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، وهو الذي يَرفُقُ الله به وهوَ المُعان عليها وهو الذي مات يوم مات وقد أجهَد نفسه لها ونَصَح لها وعجيب جدًّا أن نذكر أن الحُطَمة الذي هو شر الرعاء إذا رَاجَعْنا حديث الكتاب عنه وجدنا ربنا يقول لنا ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴾ وقد وقفت عند اطلاعها على الأفئدة التي هي موطن المعرفة وموطن القيم وموطن الأخلاق وكيف تحطمها وقد عِشْتُ زمن شر الرعاء وكان أبْشع ما وجدت فيه أنه دمّر أخلاق الناس ودمّر قيمهم وكنت أسمع ذلك من العقلاء حولي ويقولون شر ما في هذا النظام أنه غيّر الإنسان وصنع إنسانًا مشوَّهًا منافقًا وصوليًّا مُجْرمًا ولذلك صارت البلاد بعد سقوطه في حاجة إلى بناء جديد للإنسان وليس بناء مؤسسات الدولة فحسب ونضرع إلى الله ألا يعود شر الرعاء وألا تعود الحطمة لأن البلاد لم تعد قادرة على أن تتحمّل فسادا جديدا ، شيء آخر في هذا الحديث أُحِبَّ أن أقوله في دراسة بلاغة سيد الناس وهو أن أنظر في شكل البناء وهيئته التي جاء عليها الحديث وأسأل لماذا جاء على هذا الوجه من البناء الكلي وكان يمكن أن يأتي على وجه كذا ثم أبحث الفرق بين ما جاء عليه وما كان يمكن أن يجيء عليه وأُبيِّن أن هذا من مقاصد الحديث ، وأقول في هذا الحديث على سبيل المثال كان يمكن أن يقول عليه السلام إنها أمانة وإنها فوز وسلامة إلا على من أخذها بغير حقها ولم يؤد ما عليه فيها ، وأقدم الفوز والسلامة لأن الإمام العادل يظله الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله والعدل في الولاية أقصر الطرق لهذا الفوز العظيم . لم يَقُل سيدنا رسول الله هنا لأن هذا قليل نادر وأن الخِزْي والندامة هو الأكثر لكثرة مزالق الولاية وكثرة غوايتها وسهولة سُبُل الباطل فيها ثم إنه لا يقال هذا في خطاب سيدنا أبي ذر الذي كفه حبيبه رسول الله ﷺ عنها . هذا والله أعلم .

والحديث الآخر الذي رواه مسلم بسنده عن سالم بن أبي سالم الجيشاني عن أبيه عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال « يا أبا ذر إني أراك ضعيفًا وإني أُحِبُّ لك ما أُحِبّ لنفسي . لا تأمّرنّ على اثنين ولا تولينّ مال يتيم ».

هذا الحديث من تمام الحديث الذي سبق وإن اختلف عنه . وفيه خطاب رسول الله ﷺ لأبي ذر وأن رسول الله ﷺ يراه ضعيفًا وأن هذا الضعف لا يعاب به أبو ذر لأنه مجاهد شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ وإنما المراد به عدم القدرة على إدارة ما يتولاه لأن الولاية حسن إدارة وحرص على أموال الناس ومعاشهم وأبو ذر طلّق الدنيا والمال طلاقًا لا رجعة فيه وكان يُحرِّم كنز الدرهم والدينار . ولو ولى مال يتيم لأضاعه ، ولو ولى أمر اثنين لأجاعهما ، وهذا هو معنى الضعف الذي كرره رسول الله ﷺ وقال له مَرَّة إنك ضعيف ومرة أراك ضعيفًا . وقد دلنا رسول الله ﷺ على أن هذا الضعف الذي هو شدة الزهد في الدنيا لا يكرهه الله ورسوله بدليل قوله عليه السلام « وإني أحب لك ما أحب لنفسي» ولم يكن رسول الله ﷺ لا يحب شيئا كحبه صالح الأعمال وتعلقه بكل ما يرضى الله واجتنابه لكل ما لا يرضيه سبحانه . وهكذا كان يحب لأبي ذر ، وجملة « وإنيّ أُحِبُّ لك ما أُحِب لنفسي» من أكرم المبشرات لسيدنا أبي ذر وهي أفضل ألف مرة من أن يكون عليه السلام استعمله في أحسن ما يستعمل به أصحابه ، وإذا كنا قد ظفرنا نحن جماعة المسلمين في الحديث الأول بالخير الذي لا يقادر قدره في قوله عليه السلام « إلا من أخذها بحقها وأدى ما عليه فيها » فإن أبا ذَرٍّ ظفر في الثاني بقوله عليه السلام « وإنيٍّ أُحِبّ لك ما أُحِبّ لنفسي» ولاحظ أن الذي ظَفِرنَا به يُعدُّ أساس الملك وأساس الدول ، وأساس القوة ، وأساس النصر ، وأساس التقدم ، وأكثر من ذلك لأن كلمة أخذها بحقّها وأدى

ما عليه فيها لو وزنت بما قيل في علوم السياسة لرجحتها لأنها أساس أخلاقي وقَلّمَا يُراعَى .

وقوله عليه السلام « لا تأمَّرَن على اثنين ولا تولَّينّ مال اليتيم » يلفتنا فيه النهي المؤكد بنون التوكيد الثقيلة . وناهيك عن نهي عن شيء يُوَجِّهُ رسولُ الله ﷺ النهيَ فيه إلى رجل يحب رسول الله له ما يحبه لنفسه ، وعجيب أن يكون هذا النهي المؤكد نهيًا عن الولاية في أُولى خطواتها وهي النهي عن أن يتأمَّر على اثنين وليس بعد ذلك ولاية ؛ ومعنى هذا أن أبا ذر نهى عن أن يتولى أي ولاية ، وهو الصحابي الجليل الذي روى عن رسول الله ﷺ والذي كان له مقام عند كل أصحاب رسول الله لحب رسول الله له ولملازمته له ، ولا أجد لذلك سرًا إلا فَرْطَ زهد أبي ذر ، وأن مذهبه في الثروة أنه لا يجوز أن يبيت في بيتك منها درهم ، ولذلك كتب عنه بعض رجالنا زمن الاشتراكية واعتبروه أول اشتراكي في التاريخ ، وسيدنا رسول الله ﷺ يقول لنا من خلال هذا الحديث احذروا ولاية من نفض يده من الثروة ، وأدار ظهره للدنيا لأن الولاية هي صلاح الدين والدنيا فمن ضيَّع صلاح الدنيا فقد ضيّع صلاح الدين ، هذا والله أعلم .

* * *

انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني
وأوله « تحصين مال الدولة »

فهرس موضوعات الجزء الأول

دكتور
محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
كلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

شرح أحاديث من صحيح مسلم

دراسة في سمت الكلام الأول

الجزء الثاني

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة
ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

شرح أحاديث
من
صحيح مسلم
دراسة في سمت الكلام الأول
(جزآن)
دكتور محمد محمد أبو موسى
الطبعة الأولى ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة
١٠٨٨ صفحة ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع : ٢٠١٤/٢٢٢٠٧
الترقيم الدولي : .I.S.B.N
978-977-225-407-1

دار الكتب والوثائق القومية

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

الأمام مسلم ، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري ، ٨٢٠-٨٧٥
شرح أحاديث من صحيح مسلم : دراسة في سمت الكلام الأول / [شرح] محمد محمد أبو موسى.
القاهرة : مكتبة وهبة للطبع والنشر والتوزيع ، ٢٠١٤
مج ١-٢ ؛ ١٠٨٨ صفحة ؛ ٢٤ سم.
تدمك ١ ٤٠٧ ٢٢٥ ٩٧٧ ٩٧٨

١- الحديث - شرح
٢- الحديث - بلاغة
أ- أبو موسى ، محمد محمد (شارح)
ب- العنوان

٢٣٧,٣

تحصين مال الدولة

بعد الفراغ من بعض أحاديث الولاية التي رأيناها تُحصِّنُ الأمة وتحميها من أطماع ذوي الأطماع الرخيصة الذين يطلبونها من غير أن يكون فيهم الكفاءة لطلبها فيفسدون على الناس حياتهم ورأينا أن الولاية ليست هي الولاية العامة فحسب وإنما كل عمل يتولاه من يتولاه فهو ولي لهذا العمل وأنه لا يعطى عمل إلا بحقه أعني بكفاءته وأن يؤدى ما عليه فيه وهذه هي السلامة والصحة في داخل بناء الأُمَّة وأي تسرّب لأي آفة في هذا البناء يضعف شأن الجماعة أو الدولة أو الأمة أو ما شئت من أسماء أقول بعد هذا التحصين البالغ الجودة في هذا الباب رأينا أحاديث تحصِّنُ المال العام للشعب والدولة وتبين البشاعة والغضب والعقاب الذي يُشَهِّرُ بهم يوم يقوم الناس لرب العالمين وبذلك تلاحظ أن كلام سيدنا رسول الله ﷺ يتلمسُ المواطن التي يمكن أن تتسلل منها الجراثيم والأوبئة التي توهن بناء الأمة ويضع لها التحصينات لأن قوة الأمة وسلامة بنيانها وأركانها ومؤسساتها كل ذلك شرط لبقائها وبقاء هَيْبتها وقوتها ورهبة عدوها منها ، والمطلوب أن نعيش ونحن نرهب عدو الله وعدونا وليس من المطلوب أن نعيش مرهوبين من عدو الله وعدونا هذا ضد فطرتنا لأننا خير أمة أخرجت للناس وقد وضع المصطفى لنا الدواء الذي نعالج به أي داء يتسلل إلينا لأن هذه الخيرية والأعلون المفهوم من قوله تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ كل ذلك له تكاليف وله منهج وله طريق يتحقق فيه وبه .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال : قَامَ فينـا رسـول الله ﷺ ذَاتَ يَـوْم فَذَكر الغلولَ فعظمه وعظّم أمْرَه ثم قال « لا أُلفِين أحدكم يجيءُ يوم القيامـة

على رقبته بعيرٌ له رُغَاء يقول يا رسول الله أغثني . فأقول لا أملك لك شيئًا قد أبْلغتك . لا أُلفينَ أحَدَكم يجيءُ يوم القيامة على رقبتِه فَرَسٌ له حمحمة يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك . لا أُلفينَ أحدكم يجيء يومَ القيامة على رَقبته شاة لها ثُغَاء يقول يا رسول الله أغثني فأقولُ لا أمْلِكَ لك شيئًا قد أبلغتك لا أُلْفِينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رَقبته نَفْسٌ له صياحٌ فيقول يا رسول الله أغِثْنِي فأقول لا أمْلِك لَكَ شيئًا قد أبلغتك لا ألفيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رِقاع تخفق فيقولُ يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئًا قد أبْلَغْتُك لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صَامِتٌ فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك».

قبل أن أتناول الحديث من أوَّله أُشِيرُ إلى شيء مهم فيه ، وهو مُتَّصَلٌ ببلاغه ﷺ عن ربه ولا أراه إلا هداية من الله له صلوات الله وسلامه عليه ، وهو أن هذا الحديث المكون من أحد عشر سطرًا ، يمكن حفظه عند قراءته أو سماعه أول مرة ، لأن تكوينه البياني مؤسس على تكرر فقراته تكرارا كاملاً ، وكله تقريبًا ناتج من تكرار لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته ... يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك ، هذا هو الحديث وهذه كلماته التي تكررت مع إضافة الشيء الذي غلَّه فهو مرة بعير له رغَاءُ ومرة فرس له حمحمة ، ومرة شاة لها ثغاء ومرة نفس لها صياح ومرة رقاع تخفق ومرة صامت ، وهكذا تراك حفظت الحديث من أول مرة مع أنه من أرْفع صور البيان ، ومع أنه من أهم الأحاديث في حرمة الأموال والدماء ، وأن حرمة الأموال والدماء من أعظم الحرمات عند الله ، وأنه بعث أنبياءه جميعًا يؤكدون هذه الحرمة . ولم يُسْتبح شيء في بلادنا

الآن كما تستباح الأموال والدماء ، وهذا الحديث الذي يَسْهل حفظه كما بيَّنت من أكرم كلام سيدنا رسول الله ﷺ الذي له تَغَلْغُلٌ ظاهر في واقعنا وكأنه عليه السلام بَيْنَنَا ورأى هذا البلاء الذي انتشر في أمته شرقها وغربها وليس على الأرض حرمة كحرمة الدماء ولا يَسْتبيحها إلا متخلف لا شأن له بسياسة ولا بغير سياسة ، وليس هناك سبب يبرر استباحة الدماء والأموال والأعراض وإنما هذه عودة بالمجتمع الإنسانى إلى مجتمع الغابة الذي يأكل فيه القوى الضعيف ويتقطع قلبى وأنا أرى الأطفال يبكون آباءهم أو الأطفال الذين تنزف دماؤهم وأكره أى نظام سياسى يقتل أبناء شعبه وأطره كل يد تضغط على الزناد لتقتل إنسانا أى إنسان من أبناء الوطن وكأن الساسة صاروا ذئابا ونسأل الله أن يلطف بالبلاد والعباد . وهو سبحانه يعلم الظالمين القتلة ونسأله أن يفتح أبوابه لدعاء المظلومين الذي لا يرد ، أقول إن هذا التكرار لتحفظ هذه المعاني ولتكون حصنًا للدماء والأموال ، ويلاحظ أن الأموال هنا ليست هي الأموال الخاصَّة وإنما هي الأموال العامة التي لا يتورَّع عنها كثير من الناس وإذا كان هذا هو الحال معها فإن الحال مع المال الخاص أشد وهذا الحديث في الغلول والغلول هو الخيانة من الغنيمة وأن الذي يمد يده إلى مال الغنيمة قد يغريه أنه واحد من الجند الذين حقَّقُوا النصر وأصابوا الغنائم وربما كان له أثر في الحرب لشدة بأسه أو لموقعه من القيادة ، وهذا وغيره يُغْريه بالأخذ منها لأن لها شُبْهة فيها ، ولذلك كان هذا الحديث بكل ثرائه نصًا على المتوهم وذكر العلماء أنه يدخل غير الغلول في هذا الوعيد بطريق الأولى ، والخلاصة أن الحديث يكف اليد عن مال قد يتوهم صاحب هذه اليد أن له فيه حقًا ، وقريب منه المال العام فقد يتوهم متوهم أن له فيه حقًا .

قول سيدنا أبي هريرة « أقام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكر الغلول فعظّمه وعَظّم أمْرَه » .

هذه الجملة الموجزة من كلام أبي هريرة واضحة في دلالتها على عناية رسول الله ﷺ بالذي جاء في هذا الحديث ، وكان عليه السلام لا يكتفي بالمقال وإنما يصاحبه بما يدل على أهميته من أفعاله ﷺ ، وقد رأيناه عليه السلام يقول ما يقول ثم يكون متكئًا فيجلس فيدلنا بجلوسه على أهمية ما سيقوله بعد هذا الجلوس وقد يقوم كما هنا وكلمة « قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم » تعني أن الذي قام لبيانه أمرٌ له عنده عليه السلام خطر وله شأن ، وأحيانًا لا يكتفي بأن يقوم وإنما يضيف إليه أنه عليه السلام يصعد المِنبر ، وقد يكون أنه يشير بيديه أَو يَرْفَعُهما إلى السماء أو يزيد في ارتفاعهما حتى يُرى بياض إبطيه ، ورجوت لو جمعت هذه الأحاديث التي صاحبتها أفعاله ﷺ ووضعتها بين يدي أُمّته حتى تدرك العناية بالمعاني التي في هذه الأحاديث ، وأنه عليه السلام لم يكتف ببيانه العالي وإنما رأى أنه من تمام البلاغ أن يصاحب بيانه بما يرى من أفعاله وكان ﷺ يَبْذُل أقصى الطاقة في بلاغه عن ربه لأن آية البلاغ حاسمة وقاطعة في أنه إذا قصّر في شيء أي شيء يصير بمثابة من لم يبلغ عن ربه ونبوّته هي البلاغ ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ﴾ و﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ أقول هذا هو النموذج الأعلى والأرقى للبلاغ وليس في استطاعة أحد أن يتجاوزه ومن الأسوة الحسنة أن تنتفع بهذا النموذج الأعْلَى وكُلّنا أهل بلاغ ، المعلم يُبلّغ تلاميذه ، والأستاذ يبلغ طلابه ، والداعية يبلغ قومه ، والوالد يبلغ ولده ، والكاتب يبلغ قومه والمفكر يبلغ قومه ، وهكذا والملاحظ أنه عليه السلام مع تمام بلاغه كان قوله سهلاً مَيْسورًا وكان يسلك

طريقًا يتهيأ به مَنْ يُبلغه أن يحفظ بلاغه كما ترى في هذا الحديث الذي لو حَلَّلْتَ أي فقرة منه فقد حللته كُلَّه لأن الحديث ليس إلا تكرارًا للفقرة ، هذا بعض دلالة قول أبي هريرة قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم . يلاحظ أنه عليه السلام يبلغ أقصى الجهد في البلاغ والنصح كما أمرنا أن نبلغ أقصى الجهد والنصح . قوله فذكر الغلول وعظَّمه وعظَّم أمْرَه ، الغلول الخيانة وقيل الخيانة من الغنيمة ويقاس عليه كل أخذ من مال لا يستحقه الآخذ وفي الصدر من هذا مال الشعب المُتَمثّل في أرضه وموارده ، ومعنى عظَّم الغلول ، أفهم منها أنه عليه السلام ذكر شناعة الغُلول وشناعة الخِيانة ، وشناعة الأخذ من المال العام لأن الغنيمة ليست ملكًا لفرد ويدخل غيرها فيها من باب الأولى . ولم أفهم مراد أبي هريرة من قوله وعظَّم أمْرَه بعد قوله فذكر الغلول فعظمه وياليت أبا هريرة حدثنا بكل ما قاله عليه السلام في ذكر الغلول وتعظيمه وتعظيم أمره وقد اقتصر أبو هريرة على ما قاله عليه السلام في عقاب وعذاب صاحب الغلول يوم القيامة وسكت عما قيل فيه في الدنيا لأن الأهم والأهم أحوال الآخرة ، والبلاغ عن أحوالهم في الآخرة بلاغ له مذاق مختلف لأن رسول الله ﷺ لم يقل مثلاً إنهم يُسْحَبُون في الحميم ثم في النار يُسْجرون أو أنه كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودًا غيرها أو أنهم لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ، وإنما جاء بصورة . هذه الصورة هي صاحب الغلول وما غَلّه من بعير أو فرس أو شاة يحمل ما غلَّه فوق رقبته ثم يقول كلمة واحدة يا رسول الله أغثني وَيَسْمعُ كلمة واحدة لا أملك لك شيئًا وكأن البلاغ هنا بلاغ بالصورة ، والصورة تنبئك بما وراءها وعليك أنت أن تُنطقها وأن تقرأ ما فيها ، وإذا كان البيان الذي تسمعه الأذن تَتَّسعُ معانيه فإن البلاغ الذي تراه العين تكون معانيه أوسع . قوله

عليه الصلاة والسلام «لا ألفينَّ أحدكم» معناه لا أجدنَّ أحدكم والنهي نهي عن مضارع فعل ألفا الذي هو يُلْفِي والمتكلم يقول أُلْفِى وقد تأكد النهي بنون التوكيد الثقيلة التي بني الفعل معها على الفتح . وإذا قلت لك لا أُلفينك ههنا فليس المقصود النهي عن أن ألفيك ههنا وإنما المقصود ألا تُوجد ههنا لأن وجودك ههنا يلزم منه أن أُلْفِيَك ههنا ، فالنهي نهي عن اللازم الموجب للنهي عن الملزوم ، وهذا من أساليب الكناية وطريقه قول سيدنا عليّ كرم الله وجهه في وصف مَجْلس رسول الله ﷺ وأنه لا تُنْثَى فلتاته ليس المقصود أن فلتاتِه لا تُنْثَى أعني لا تذاع وإنما المقصود أنه لا فلتات فيه ، ونفي إذاعتها لازم لنفي وجودها ، لأنها لو وجدت لأذيعت ، هذا طريق للدلالة في قوله عليه السلام «لا أُلْفِيَنَّ أحدكم» وأن المقصود النهي المؤكد بنون التوكيد عن فعل ما يُوجب هذه الصورة وأنك لو أخذت بعيرًا بغير حق جاء يوم القيامة على رقبتك وله رغاء ، هذا مما لا ريب فيه فعليك أن تَحذَرَ المُوجب الذي يوجب هذه الصورة ، ثم إنه عليه السلام قال لا أُلْفِيَنَّ بضم الهمزة وكسر الفاء ، ونحن نفسر لا أُلفينّ بقولنا لا أجدنّ ، وفي القرآن ﴿ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ و﴿ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ وليس من المقبول أن نقول إنهما سواء ، وأن قوله عليه السلام لا أُلفِينّ أحدكم هو قولنا لا أجدنّ أحدكم لأن هذا يوجب العبث في اللغة وقد أجمعوا على أن هذه العربية الشريفة مُنَزَّهَةٌ عن العبث ووجه العبث أن تكون فيها كلمتان متساويتان في الدلالة لأن وجود الثانية عبثٌ ، واللغة فيها كثير من الكلمات التي تفسر بعضها ببعض كما هنا وقد صادفني كثير من ذلك في دراستي لآل حم ولم أجد كلامًا لمن يؤخذ عنهم العلم يُعينُني على أن أفرِّق بين الكلمتين ، وكنت أجتهد «ويخطئ في الحدس الفتى ويصيب» وطريقي في ذلك هو الرجوع إلى

أصل المادة في الاشتقاق الصغير أو الكبير ، وكلمة أُلْفاه فيها معنى زائد عن كلمة وَجَده لأن فيها شوبًا من الأُلفة وأَلْفَيْنَا عليه آباءنا أي وجدناه وألفناه ولا ألفينَّ أحدكم أي لا أجده وجودًا على حالة قد ألفها لأن البعير الذي على الرقبة يبقى يوم القيامة وهو يوم عند ربك كألف سنة مما تعدون وهو كذلك حتى يساق الناس بعد الحساب إما إلى جنة وإما إلى نار وكلمة ما وجدنا عليه آباءنا فيها شوب من الميل إلى الذي كان عليه الآباء وهذا الميل يرشح على الكلمة من أختها التي هي الوجد وهي أخت الوجود في الاشتقاق وأكرر أن المعنى في الحديث لا أجدكم على هذه الصورة التي أوقعكم فيها ما أغْلَلْتُم من بعير وفرس وشاة إلى آخره . وكلمة « يجيءُ يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء» المضارع في كلمة يجيء فيها شوب من إحضار الصورة لأن المضارع دال على الحال والاستقبال ودلالة الحال هذه تجتذب الحدث إن كان وقع من الماضي وتستحضره في الحال وتجتذبه أيضًا من المستقبل وتستحضره في الحال وهذا من تمام تصوير هذه الحالة الشّنيعة وإنما كان على رقبته ولم يكن على كاهله أو على ظهره لأنها حقوق . والحقوق في الرقاب يقال له في رقبتي كذا للدلالة على أنه حق تُسْتَرَقّ به الرقاب ثم إن الرقبة هي العضو الذي يعبَّر به عن الإنسان كما في قوله تعالى ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ ولا يصلح كل عضو ليعبَّر به عن الإنسان وإنما العضو الذي فيه حياة الإنسان وتَلَفُه ثم إنها موضع العِزّ والذّل يقال خضعت أعناقهم إذا ذلوا وانقادوا وقال سبحانه ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ (الشعراء:٤) وقوله سبحانه في الآية ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ وجمع وصفها جَمْعَ مذكر سالم ، ولم يقل سبحانه خاضعة وفيه إشارة إلى أن الأعناق هي الناس ، وقال عليه السلام (يجيء)

بالبناء للفاعل ولو قال يجاء بأحدكم يوم القيامة لكان مناسبًا لبناء أفعال هذا اليوم للمجهول كما في وسيق الذين كفروا وحُشر الناس ويوم يحشرون وإنما جاء على ما جاء عليه والله أعلم لأنه اختلس ما اختلس وهو حُرٌّ مختار وهو يعلم أنه سيجيء يوم القيامة يحمله على عنقه وكأنه كما اختلسه حُرًّا مختارًا يجيء به وكأنه هو الذي فعل المجيء به ساعة أن اختلسه ، الصورة تقول هذه الحقوق التي انتهبتموها حقوق في أعناقكم ، عشتم وهي في أعناقكم لم تؤدوها ومُتُّم وبُعثْتُم وحُشِرْتُمْ وهي في أعناقكم هي هي إن كان بعيرًا فهو بعير وإن كان فرسًا فهو فرس إلى آخره ، وقد جئتم بها مختارين كما انتهبتموها مختارين ولابد من أن نذكر أن هذا وغيره من بابه هو صون لمالك ولمالي ولمال كل من يعيش على أرض أهل الإسلام وأن الله سبحانه يَغْضَبُ إذا انتهب أحد لك بعيرًا ، أو فرسًا ، أو شاة ، أو ثيابًا ، وهذا هو سبيل الأمن واذكر أن الله سبحانه أعدّ جهنم لمن يظلمك أو يظلمني أو يظلمهُ أو يظلمها وأن القضية هي قضية خلقه والدفاع عنهم وأنه غني عن العالمين . ثم لماذا يكون للبعير رغاء وللفرس حَمْحَمة وللشاة ثغاء ؟ أول ما يتبادر من هذا أنه للتشهير به ، وبخزيَّته لأن الخاطف يخطف سرًّا والغالَّ يَغُلّ خفْيه وكان الناس ولا يزالون تُرْعِبُهم الفضيحة ، ويُؤْذيهم أن يكشف الله سبحانه سَتْرَهُ عن من سترهم والستر في الدنيا من نعمه والستر في الآخرة من رحمته ، والنداء على هؤلاء والتشهير بهم يوقعهم في كرب فوق كرب ، وهذا هو سر قولهم لرسول الله ﷺ أغثني لأن الإغاثة تكون لمكروب ، ثم إن العرب كانوا في جاهليتهم يتمدحون ببراءة ساحتهم من الخَزَايَا كالغدر والخيانة والغلول ، وكانوا في هذه الجاهلية التي ليس فيها قانون وليس فيها حكومة ولا سلطان كان تضبط حياتهم مجموعة من القيم الملزمة منها

التبرّي من الخزايا وكانوا يخاطبون صواحباتهم بهذه البراءة وكأنها من أسباب القرب والحُبّ والصَّبْوة ، وكانت المرأة الجاهلية تحب صاحب القيمة الإنسانية وكانوا يرفعون لواء للغادر تشهيرا بخساسته ترى ذلك في مثل قول الحادرة الذبياني يخاطب سُمَيّة :

أسُمَيّ وَيْحَكِ هل سَمِعْتَ بغَدْرَةٍ رُفِعَ اللواءُ لنا بها في مَجْمَع

والعجيب أنه يتحبَّبُ إليها ليس بنبله فحسب وإنما بنبل قومه ، هكذا كانت القيمة الإنسانية في هذه الجاهلية التي ما إن شهدت الشهادتين حتى كانت خير أجيال الأرض ، وأيضًا خير أجناد الأرض ، هذا وجه .

ووجه آخر ، هو أن البعير يرغو في أحوال الهياج ، ومنها أحوال الغَضَب وكذلك الفرس لا تحمحمُ في كل حال وكذلك الشاة لا تثغو في كل حال ، وقد أخبرنا أكرم من خلق ربنا وبرأ أن نحسن جوار نعم الله ، وأنّها إن ذَهَبَتْ عن قوم قلما عادت إليهم وقد رأينا ذلك بأعيننا والمهم أن النعم في هذا البيان النبوي تدرك حسن من أحسن جوارها وتدرك سوء من أساء جوارها وأنها تَنْفِرُ وأنها إذا نفرت قلما عادَت وهذا ظاهر من لفظه ﷺ ثم إنها تَرْضَى عن صاحبها كما يرضى عنها وهذا ظاهر لفظ قوله تعالى ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ ، فإذا قلت إن رغاء البعير وحَمْحمة الفرس وثُغاء الشاة إنما هو إعلان الغضب على من امتلكها من غير حق ومن اغتصبها وأهدر حق مالكها لأن كل ذلك ليس من حسن الجوار وليس من الرضا ، أقول إذا قلت ذلك لم تكن مُبْعِدًا وأُقوّى قولك هذا بأنه لا يُقَاس الغائبُ الذي هو اليوم المشهود على الحاضر الذي نعيشه وإنما لكلٍّ أحواله المختلفة وإلا فقل لي كيف يركب البعير على عنق من اغتصبه ؟ وإذا كان قد اغتصب بعيرًا وفرسًا فكيف يركبان عنقه ؟ وإذا كان اغتصب مع ذلك أرضا يُطَوَّقه الشبر فيها بسبع

أرضين ثم أضاف إلى ذلك بعرانا كثيرة وخَيْلاً كثيرة كيف يكون كل ذلك على عنقه ؟ وإذا كان الذي فعل ذلك سيدة من نساء سادتنا كيف تركبها كل هذه البعران ، وكل هذه الخيل وكل هذه التيُوس ؟ ثم كيف يطوق بخمسين ألف فدان انتهبها بالباطل ؟ وإذا أردت أن تجد تحقيق ما قلته ، وهو أن المال يَغْضَب على من أخذه بغير حقه ولم تقنعك كل الأحوال التي ذكرتها فقل لي كيف سبَّحت الجبال مع داود ؟ وكيف حشرت له الطير تؤوب أي تُرجِّعْ دعاء ؟ وكيف تسبح لله السموات والأرض والنجوم والجبال ولكن لا تفقهون تسبيحهم ؟ وإذا كان كل هذا لا يقنعك فَعُدْ بي وبك إلى نفسي وإلى نفسك كيف كنا من تراب ؟ وكيف كنا من عَلَقة فمُضْغة فخلقنا المُضْغَة عظامًا فكسونا العظام لحمًا ، أكل ذلك ممكن وإحساس البعير بسوء الجوار غير ممكن ؟ إذا قلنا إن إحساس الفرس بسوء الجوار غير ممكن فمن باب أولى أن أقول وتقول إن وجودي ووجودك غير ممكن ، هذا والله أعلم .

قوله ﷺ « يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك » جملة يقول « يا رسول الله أغثني » ، جملة حالية من جملة حالية قبلها هي (يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء) وتولُّدُ الحال من الحال له في نسق الكلام سبيل لا يهتدي إليه إلا اللسان المُبين ولك أن تقول هناك لا أُلْفين أحدكم يجيء حالة كونه على رقبته بعير وحالة كونه يقول يا رسول الله أغثني . ولاحظ دلالة المضارع في قوله يقول وعليك أن تَضُمَّها إلى المضارع في قوله « يجيء » وأن تذكر أن يجيء استحضار الصورة التي تراها العين « ويقول » استحضار الصورة التي تسمعها الأذن ، وبعد هذا أقول لك لقد دَمَعَت عيني وأنا أقرأ قوله عليه السلام (يقول يا رسول الله أغثني) ولماذا ؟ لأنني رأيت الذي آمن بأن محمدًا عبد الله ورسوله وقد سكن حبُّ

رسول الله في قلبه وسكن مع هذا الحب اليقين بحب محمد لأمّته واليقين بأنه بهم رؤوف رحيم ولم يبرح شيء من هذا قلبه وهو يخطف ويَغُلّ وهو في هذه الصورة الفاضحة يَوْمَ هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء والبعير على رقبته يَرْغو تشهيرًا به وفَضْحًا له ثم يتجه هذا المسكين إلى رسول الله وبَقِيَّة حُبّه في قلبه يناديه بالرسالة التي أمن بها ويستغيثه بخُلُقه الكريم الذي عرفه به . دمَعَتَ عيني وأنا أرى هذا الذي ارتكب هذه الخزايا ولم يجد من يغيثه منها إلا رسول الله ﷺ فناداه ثم استغاثه . وأحْسَسْتُ أن رسول الله ﷺ وجد في نفسه حنينًا إلى هذا الآثم فلم يَزْجُرْه ولم يَغْضب في وجهه وإنما قال « لا أمْلِكُ لك شيئًا » ومعناها لو كنت أملك لأغثتك مهما كانت خزيَّتك . وقوله عليه السلام (قد أبلغتك) من تمام قوله « لا أملك لك شيئًا » لأن معناها ليس لي في هذا الشأن إلا البلاغ وقد أبلغتك وليس لي في الحساب شيء لأن الحساب لله وحده ، ومن تمام معنى (قد أبلغتك) يعني أبلغتك هذه الصورة التي أنت عليها الآن وقلت لا أُلْفِينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة وعلى رقبته بعير له رغَاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول له « لا أملك شيئًا قد أبلغتك» وراجع قوله عليه السلام « لا أمْلِك لك شيئًا » ويجب أن تُحدِّثَ بها الناس لأن ضعف إدراكهم لدين الله جعلهم فريسة لمن يتوهمون أن أولياء الله ينفعونهم بين يدي الله وحسب الأولياء أنهم هم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، تحرير الاعتقاد وهو أن يوم القيامة أو يوم الدِّين ملك لله وحده ليس لأحد من خلقه فيه شيء إلا من ارتضى سبحانه من رسول ، وكم مرة نقف بين يديه ونقول : (مالك يوم الدين) قوله عليه السلام « لا ألفينَّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك» هذه صورة تختلف عن أخواتها

لأن البعـيـر والفرس والشاة كـل ذلك اغتصب وانتقلت ملكيتـه إلـى الـذي لا يَسْتَحِقُّه وبقي الكل حيًّا أما هذه النفس فقد قُتِلَت وإذا كان رغاء الإبل وحمحمة الفرس وثغاء الشاة كل ذلك حَسْرة على سوء الاغتصاب فإن صياح هذه النفس حسرة على قتلها وإذا حاولت أن تترجم صياحها فلن تجد أدق من أن تقول إنها تَصيح وتقول بأي ذنب قتلت ؟ وهذا أبشع ما يلقى المرءُ من ربه ، وكنت أتعاطف مع هذا المسكين وهو يقول يا رسول الله أغثني وأقول في نفسي عرفت أن نبيك كريم يغيث من يستغيثه ولو كان شاذًا شاردًا عن أخلاقه ودينه وكانت هذه اللمحة في نفس هذا المغتصب السارق تُميلني إليه إلا عند قتل النفس لأنه ليس هناك جريمة على أديم هذه الأرض من قطرة دم تسقط على هذا الأديم مـن غير ذنب وأجمعت الأمة على أن الكبيرة التي تأتي بعد الشرك هي القتل من غير ذنب ، وبلـغ العجب بي ما بلغ لما رأيت رسول الله ﷺ يقول له لا أملك لك شيئًا يعني لو كنت أملك لأغثتك . والذي يخفف هذا العجب هو أنـه علـيـه السلام يعلم أن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ولا حرج على فضل الله . والويل لمن قتل والويل لمن يعظم من قتل ويؤيده ويختاره .

وقوله عليه السلام (على رقبته رقاع تخفق) يعني الذي غلَّ ثيابًا وسميت رقاعًا لأنها تؤول إلى رقاع ومعنى تخفق تخفق بها الريح وكأنها رايـة تعلـم الناس بخزيْته .

وقوله عليه السلام (على رقبته صامت) أراد الذهب والفضة ولا أعرف السر في تسمية الذهب والفضة بكلمة (صامت) في هذا الحديث وقد قلت إن تكرار هذه الفقرة وبناء الحديث عليها يجعل حفظها أمرًا ميسورًا ، ويُيَسِّرُ حفظها من تمام بلاغها ، لأنها تحصنُ أموال الناس ودماء الناس وغرس هذه

الفقرات في النفوس يُغنى في أمن المجتمع عن جحافل جنود الأمن التي تنتشر الجرائم مع وجودها ، وزرع هذه الكلمات في القلوب لا حدود لآثاره الطيبة عليّ وعليك وعلى كل من يعيش في هذا المجتمع ، وإذا جمعنا الأحاديث التي بنيت على التكرار في كلام رسول الله ﷺ وراجعنا المعاني التي تكررت وجدنا لها شأناً في حياة الناس أي شأن وكذلك المعاني التي تكررت في كتاب الله لأنه ما تكرر شيء إلا ليتقرب وما تكرر شيء إلا وله شأن عند الله ورسوله وإذا كان من الواجب أن نَعْرف ما له شأن عند الله ورسوله فمن الواجب أن نجمع ما تكرر في كلام الله وكلام رسوله ، وأن نضع الحديث بجوار القرآن ما اتفق وما اختلف ، وكنت ولا زلت أجد الجمل التي تكررت في المصحف من الكلمات الجامعة لأصول الدين مثل قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ راجع هذه الجملة وهل ترى على الأرض بشاعة أبشع من تكذيب الصدق ، وهل ترى أضرّ بالناس وبالحياة من المكذبين للصدق إذ جاءهم ثم دع هذه وراجع قوله تعالى ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ هل ترى أدْخل في الباطل والضلال من تكذيب الآلاء التي تعيش في قلبها وأنت واحد منها ؟ وهكذا وكنت ولا زلت وأنا أقرأ سورة الشعراء وأقرأ خطاب الأنبياء لأقوامهم وكأنه لسان واحد ينتقل من فم نوح إلى فم هود إلى فم صالح إلى فم لوط إلى فم شعيب يقول قولاً واحداً فيتأكد لي أن أصول الرسالات واحدة لا تتبدل ولا تتغير . واقرأ الآتي :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

الأزمنة التي بين هؤلاء الأنبياء متباعدة وهم من أوائل الأنبياء قبل إبراهيم عليه السلام الذي هو أبو الأنبياء وهذه الكلمات الواحدة مع الأزمنة المتباعدة تقول لنا إن أصول النبوات واحدة وكأنهم يخاطبون أقوامهم بلسان واحد الكل يدعو إلى الشهادتين شهادة التوحيد وأنه رسول أمين يبلغ قومه شرع الله ثم يكون الاختلاف في أن لِكُلٍّ شريعة ومنهاجًا هذه الشريعة وهذا المنهاج متعلقة بالفروع وليست متعلقة بالأصول لأن الأصول واحدة.

قال العلماء إن هذا الحديث وإن ذكر في الغلول من الغنائم فهو عام في كل شيء أُخذ بغير حقه من الغنيمة أو من غيرها وأن هذا الوعيد يَلْحَقُ الظَّلَمَةَ بطريق أحْرَى لأنه إذا لحق الغالّ مع أنه له شركًا في الغنيمة فالغاصب الذي لا شرك له أحْرى أن يَلْحَقه هكذا نقل أبو عبد الله الأُبيٍّ عن الشيخ وهو ظاهر.

كان البعير والفرس والشاة من أظهر عناصر الثروة في زمن النبوة وليست هذه مرادة بأعيانها، وإنما كل من أخذ غير حقّه من ثروة خاصة أو عامة يعني مال الشعب وهي الآن مساحات من الأراضي وأعداد من المصانع

والمناجم وكل ما هو مملوك للشعوب كالبنوك وغيرها وقد شاع الفساد في هذا الباب حتى يُخيّل إليك أن الحديث قيل من أجلنا . الأراضي تباع بَيْع بخس يبيعها لِصٌ للصّ والمصانع تباع والثروات تُنْهَب ولست أدري كيف يجيء من نهب آلاف الأفدنة وقد طوق بها بسبع أرضين وكيف يجيء من نَهَبَ المصانع ومن نهب المناجم وقد أمَّنَ الشعبُ المسؤولَ عنها وخان الأمين ، وصار يتصرَّف في البلاد كما يتصرف في ملكه الخاص ، وكذلك تصرف أولاده ، ومن حوله من الكذابين والمنافقين ، الذي غلَّ من الغنيمة في الحديث الشريف مُقَاتِل مجاهد شارك في تحصيل الغنيمة ، وجاء الحديث لزجره فكيف بالذي لا يعرف الجهاد ، وليس له شبهة في الأرض التى ينهبها هو ومن حوله ، أقول ضَعْ هذا الحديث على هذا الواقع ليتأكد لك ما قلته من أن رسول الله ﷺ كأنه عاش بيننا وقال الذي قال والخلاف هو أن بُعْراننا اليوم ثروات في باطن الأرض وثروات هي الأرض وثروات هي المصانع والمرافق . هذا والله أعلم .

ومما يذكر مع حديث الغلول وهو منه بسبيل مبين حديث هدايا العمال ورأس أحاديث هدايا العمال حديث ابن اللُّتَبيَّة وقد شرحته في كتابي شرح أحاديث من صحيح البخاري وأريد الآن أن أُلم بعناصره المتشابهة مع حديث الغلول لأن هذه الموازنات لم تكن هناك لأني لم أذكره مع حديث الغلول وأبدأ بذكر الحديث لتستطيع أنت أن توازن لأن الموازنات بين أقواله عليه السلام تكشف أسرار ما كان لها أن تكشف إلا بهذه الموازنات ونرجو الله أن يهدينا وأن يتقبّل منا . أو قل أن يرزقنا إخلاص وصدق من يتقبل منهم ، والكل يسأله سبحانه من نِعمه والكل لا يسأله عن فعله لأنه لا يسأل عما يفعل .

روى مسلم بسنده عن أبي حُميد السَّاعديُّ قال : استعمل رسول الله ﷺ رَجُلاً من الأسْد يقال له ابن اللُّتْبيَة (قال عمرو وابن أبي عمر على الصدقة) فلما قدِم قال هذا لَكُمْ وهذا أُهْدِيَ لي . قال فقام رسول الله ﷺ على المنبر فحمِدَ الله وأثنى عليه وقال : « ما بال عامل أبعثه فيقول : هذا لكم وهذا أُهْدِيَ لي : أفلا قعد في بيت أبيه أو في بيت أُمِّه حتى يَنْظُرَ أَيُهْدَى إليه أم لا ؟ والذي نفس محمد بيده لا ينال أحَدٌ منكم منها شيئًا إلا جاء يوم القيامة يَحْمِلُه على عنقه بَعيرٌ له رغاء ، أو بقرة لها خُوَار ، أوشاة تَيْعر . ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال اللهم هل بلغت : مَرَّتَيْن » وفي رواية (رجلا من الأزد) وهما سواء لأن الأزد فيهم أسد والمعنى رجلاً من الأزد من الأسد الذين هم من الأزد ، وابن اللُّتْبيَّة جاء بسكون التاء وبفتحها وجاء أيضًا الأتْبيَّة . قالوا وكان على صدقة بني سُليم ، وقالوا كان على صدقة غير بنى سليم ، والذي أريد الإشارة إليه هو أن رسول الله ﷺ في حديث الغُلُول : قام وقال ، وفي حديث هدايا العمال قام وصَعِدَ المنبر وقال : وصعوده المنبر أمر زائد وهذا يعني أنَّ هدايا العمال كان التحذير منها عند رسول الله ﷺ أَشَدُّ من التحذير من الغُلُول ، مع أن الأصل في الهدايا أنه يُسْتحبُّ قبولها وتَهادُوا تَحَابُّوا وقد عشنا هذا التهادي وهذا التحاب في الريف الذي نشأنا فيه وقد كان يكون التهادي قَدَحًا من لبن أو طبقًا من طعام ولا أشك في أن ابن اللُّتْبيَّة وهو صحابي رضيه رسول الله ﷺ واستعمله وكان لا يستعمل على عمله أحدًا سأله ولا أحدًا حرص عليه كان لا يعلم أن هدايا العمال حرام لأن الأحكام لم تكن قد شاعت وأحاط الناس علمًا بها أقول إن هدايا العامل ليست أظهر في المخالفة من الذي يأخذ من الغنيمة بعيرًا أو فرسًا أو ثيابًا أو ذهبًا ، لأنها هدية جاء بها صاحبها ومالكها ومقدِّمها للعامل والعامل لم

تمتد يده في الظلام ليأخذ شيئًا لا يملكه وإنما مدَّ يده في النور وأخذ شيئًا قدَّمه له صاحبه أقول مع هذا الفرق رأينا رسول الله ﷺ يَغْضَبُ أكثر ويقوم ويصعد المنبر ، وكلمته عليه السلام في هدايا العمال مشبوبة بالغضب تجد ذلك في أول منطقه ﷺ وفي قوله «ما بال عامل أبعثه» والاستفهام هنا إنكاري أي أي شأن يكون شأنه وأي أمر يكون أمره وعلى أي وجه كان منه ما كان ؟ ثم قوله عليه السلام «أفلا قعد في بيت أبيه أو أمه» وفيها الذي ترى من الغضب ثم قوله عليه السلام والذي نفس محمد بيده ، وكان عليه السلام إذا أراد تأكيد القسم جاء بهذه الصيغة ثم إن هذا القسم ليس مُنْصبًّا على أنه يجيء يوم القيامة يحمله على عنقه وإنما هو مُنْصَبٌّ على أنه لا يجيء يوم القيامة إلا وهو يحمله على عنقه ، لأن المقصود من جملة القصر هو معنى القصر . وليس معنى الخبر ، يعني تقول ما جاء إلا زيد لمن يعلم أن زيدًا قد جاء وأنت تريد أن تقول له لم يجئ إلا هو ، فسيدنا رسول الله ﷺ لم يقسم على أنه يجيء يوم القيامة يحمله على عنقه ، وإنما يُقسم على أنه لا يجيء إلا وهو يحمله على عنقه ، ثم إنه عليه السلام يرفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه أي بياضهما المشوب بعفرة ، وهذا شيء لم يكن في حديث الغلول ، ثم يقول اللهم هل بلغت ولم يقل اللهم قد بلَّغت وإنما هو عليه السلام مع اجتهاده في البلاغ يقول يا رب أرجو أن أكون قد بلغت وهذا لا يكون إلا لأمر جليل أَمَرَهُ ربُّه أن يبلِّغه قلت كل ذلك لأقول حقيقة ظاهرة أراها وراء كل ذلك وهو أن الغالّ يسرق بعيرًا أو فرسًا أوشاة ومع هذه الخسيسة ينتهي أمرها عند خطف ما خطف ؛ أما هدية العامل فإن المصيبة فيها لا تنتهي عند قبولها سواء كانت بعيرًا أو بقرة أو شاة ، وإنما وراءها ما وراءها من ميزان قد يميل هنا أو هناك أو تَفْرِيطٍ في حق من

حقوق الناس أو ميل وظلم أو ما شئت مما تكون لهذه الهدية أثر فيه وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، والضعف ضَرْبَةُ لازب لهذه النفس الإنسانية وإذا كان من الولاة من لهم نَفْسٌ قوية لا تؤثر فيها هذه الهدايا فأكثرهم ليس كذلك ، والمطلوب من الوالي أن يتجرَّد لخدمة الجماعة ، وأن يَصُبَّ جهده كله وهم جميعًا سواء عنده ليس لأحدهم عنده يَدٌ يُفضى لها حين يَقْطَعُ الأمرْ قطعًا حاسمًا ويفصل بين الحق والباطل فصلاً لا لبس فيه وهذا هو طريق الأمن والأمان في حياة الأمة ، وفيها القادر على أن يقترب من الوالي وفيها من لا يستطيع ذلك ولا أمان ولا اطمئنان إلا بأن يكون الكل سواء وأن يكون الوالي بينهم على مساحة واحدة ليس أحدهم أقرب إليه من الآخر قيد نَمْلَة ، وهذا هو الدين وهذه سياسته ، ويجب أن نذكر أن الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما تنطوي عليه نفسه يعلم أن هذه الهدايا لو فُتح بَابُها لاتسعت وارتفعت قيمتها وصارت من أنفس النفائس وأن هذا الشأن لا تنجو من مخاطره نفوس كثيرة فوضع سبحانه هذا الجَدارَ بين هذه الإغراءات وبين نفس الرجل الذي صيَّره القضاء ذا شأن في الناس وتعلَّقت به مصالحُهم وأكثَرُ الخَرابِ الذي نحن فيه راجع إلى هذا . وأنا أتابع ذلك وكأنني متفرغ له وأرى الدَّجَّالات من بيوت أصحاب الشأن تعملن أعمالاً تسميها خيرية ويتدفق عليها المال من أصحاب المصالح ثم أرى الذي تبرَّع بأكثر بَعْد زَمنٍ أخذ من حقوق الشعب نصيب الذئب الجائع من الغنم الضالَّة التي ساء راعيها ، وهذا حسبي والله أعلم ، ولابد من ملاحظة شيء كان له أثر واضح في الفرق بين كلامه ﷺ في الغلول وكلامه في هَدَايَا العُمَّال . وهو أنه في الغلول كان يحذر من أمرٍ لم يكن وقع فيه أحَدٌ وكان يقول لا أُلْفِيَنَّ أحدكم يجيء إلى آخره والمعنى

لا يفعل أحدكم فعلاً يجيء به يوم القيامة على هذه الهيئة التي بلغتكم ، وفي حديث الهدايا يواجه انحرافًا وقع وأن رَجلاً كريمًا اختاره المختار صلوات الله وسلامه عليه وليس له فيها مَطْمَع قد غُرِّر به وجاء يقول هذا لكم وهذا أهدى لي ، وراجع جملة «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة...» وجملة «لا ينال أحد منكم منها شيئًا» وذكر الفرس في الغلول والبقرة في الهدايا لأن كلا أشبه بمقامه فالفرس أشبه بمال الغنائم والبقر أشبه بأموال الناس الذين بينهم العامل ، وذكر هناك الشاة لها ثُغاء وهنا شاةٌ تيعر واليَعَارُ صوت الشاة كالثغاء قال النووي في تعليقه على كلمة (تِيعْرَ) «هو بمثَّاة فوق مفتوحة ثم مُثنَّاة تحت ساكنة ثم عين مهملة مكسورة ومفتوحة ومعناه تصيح واليعار صوت الشاة» انتهى كلام النووي . وأثبته لنتعلّم منه كيف كان العلماء يضبطون ألفاظ اللغة ، لأن هذا من أهم بقائها سليمة سديدة كيوم تكلم بها رسول الله ﷺ وكيوم نزل بها القرآن الكريم وهذا واجب في أعناقنا .

ومما له صلة وثيقة بهذه الأحاديث حديث إثم مانع الزكاة . ومال الغلول مال حرام وهو غير أخذ المال الخاص بغير وجهه وإذا كان الغالُّ كما تقدم له شبهة فإن نهب المال العام أو حقوق الشعوب في أرضها ومصانعها ومناجمها وثرواتها يقاس عليه من باب الأولى ويدخل في هذا حيازة أي مال من هذه الأموال بغير ثمن المثل سواء كانت هذه الحيازة الآثمة بطريق الرّشْوة وبطريق التسهيلات التي تمنح لأبناء الكرام اللصوص أو المنافقين أو من له صلة أي صلة بمن يملك التسهيلات فَيُعْطِي ما لا يملك لمن لا يستحق ، وكذلك المال المكتسب عن طريق التربح بالمسؤولية الملحق بهدايا العمال ، وله وجوه لا تحصى أقول حديث إثم مانع الزكاة مُتّصل بهذه الأحاديث لأن الكل يجيء يوم القيامة ومعه ما نَهَب وقد عرفنا أحوال الإبل

والبقر والخيل إلى آخره وأنها في الذي مَضَى تجيء على رقبته وهي مسالمة له لا يكون منها إلا التشهير به فالإبل برغائها والخيل بحَمْحَمَتها والبقر بجؤارها إلى آخره والأرض مطوقة بسبع أرضين ولست أدري كيف تكون المصانع المنهوبة كيف تأتي وهي على رقبته ولها ضجيج كضجيج مكناتها حين كانت تدور ؟ ولابد أن تطوقه كما تطوقه الأرض المنهوبة وإذا كان من الغريب أن تتصور المصانع الكبيرة وهي تطوقه فلابد أن تستغرب مساحات الأرض المنهوبة وهي تطوقه من سبع أرضين ولابد أن نتصور المناجم المنهوبة وآبار البترول المنهوبة وهذا كله من الضروري أن نعتقده عقلناه أو لم نعقله لأن الله يقول لنا ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ وأحاديث سيدنا رسول الله التي تناولناها لم تخرج عن هذه الجملة القرآنية .

والغريب في حديث إثم مانع الزكاة أمران : الأول أن المال في الأحاديث التي مَضَتْ مال منهوب ومكتسب من وجه حرام أما مال مانع الزكاة فهو حلال كله ومكتسب من وجوه الحلال لا تدخله شائبة حرام ، وأن صاحبه كان يتق الله في كل ما تمتد إليه يده فلم يَمُد هذه اليد إلى دِرْهم واحد فيه شبهة ولكنه أغفل زكاة ماله الذي هو في الذهب اثنان ونصف من كل مائة . وكان الظن أن يكون مقدار الزكاة الذي حبسه في ماله هو الحرام ويبقى السبعة والتسعون والنصف حلالاً ، ولكن الذي حدث أن الاثنين والنصف أطلقوا حوابس الحرام فَشَمِلَتْ المال كله ومرجع ذلك والله أعلم إلى أن الزكاة طهر للمال ، وتزكية له ونماء فيه فإذا مُنِعَتْ منع معها طهره وتزكيته فصار حرامًا .

قلت الغريب في حديث إثم مانع الزكاة أمران . ذكرت واحدًا والثاني عجيب جدًّا لأننا رأينا المال المنهوب يأتي على رقبة صاحبه ولم يفعل فيه

إلا شيئًا واحدًا وهو رغاء الإبل وحمحمة الفرس وثغاء الشاة إلى آخره والمقصود فَضْحُه لأنه لما فعل ما فعل كان يستخفى ويتستر وأحيانًا يتستر بالقانون الذي يوضع ليقَنّنَ النهب فجزاه المال بهذا التشهير أما مال مانع الزكاة الذي اكتسبه صاحبه بكدِّهِ وعَرَقه ولكنه خابَ وطَمِعَ في مقدار الزكاة وجدنا إبله تَطؤُه بأخفافِها ، وخَيْلَه تطؤه بحوافرها وبقرة تطؤه بأظلافها ، فضلاً عن عضه ونَطْحِه ، ووجدنا ذهبه يتحول إلى صفائح يحمى عليها في نار جهنم وتكوى بها جَبْهتهُ وجَنْبيه وظهره إلى آخره ، وهذا عجيب جدًّا وقد صار المال الحلال الذي بذل فيه كدَّه وعرقه آلة تعذيب أبْشِع من آلات التعذيب في معتقلات الظالمين . وقد وقفت عند هذا الشيء الغريب ولم أجد تفسيرًا له إلا تفسيرًا واحدًا وهو محاماة ربنا عن هذه الطبقة المطحونة التي تُصْرَفُ لها أموال الزكاة ، وأن مَنْع درهمين ونصف عنها تُهيّج سَبْعًا وتِسعِينَ دِرْهمًا ونصفًا وتحولها إلى صفائح يُحْمى عليها في النار عقابًا لهذا الذي حبس الدرهمين والنصف عن هذا اليتيم أو هذا المسكين الشاحب اللون أو هذه المسكينة ذات الهِدْم العارى نواشرُها كما وصف أوْس . هذه الطبقة المطحونة التي قلما الْتَفَتْنا إليها هم الذين ضَمَّهم ربنا تعالى وتقدّس إليه وسماهم عيالُه وقَدَرَ عليهم في الرزق ، ثم بسط الرزق للآخرين الذين هم الأغنياء وسماهم وكلاءه وفرض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم ، ومن نكص من وكلائه وانتكس وضَنَّ على عياله كان جزاؤه ما جاء في هذا الحديث العالي المقام في تطهير الأُمَّة لأني أراه في طهارة القلوب من الطمع والحرص كتطهير نصاب الزكاة للأموال .

قلت إن السؤال الذي عَنَّ وكان لابد أن يَعِنّ لماذا كانت الإبل المنهوبة مسالمة لمن نهبها إذا قيس حالها بحال إبل مانع الزكاة التي كانت تطؤه

بأخْفَافِها وتعُضُّه بأفواهها ؟ ولم أقرأ جوابًا لهذا وإنما استخرجته وأضيف أن الذي ساعدني على ذلك هو اقتران الزكاة بالصلاة في الكتاب العزيز ، والصلاة عمود الدين ومن هدمها فقد هدم الدين وليس هذا الذي أردت وإنما أردت أن الصلاة تكررت في القرآن لأنها تتكرر في اليوم خمس مرات بالإضافة إلى السنن والنوافل والزكاة التي تكررت معها لم تتكرر وإنما هي كل حول يحول في الذهب والفضة والإبل والغنم إلى آخره وفي الحرث يوم حصاده ، فكان الذي وراء هذا التكرار هو التذكير بحقوق هذه الطبقة المطحونة والأطفال الجائعة والعارية إذا كُسِي الناس والتي تعيش في مساكن غير صالحة لأن يعيش فيها حيّ . إغفال هذه الطبقة وراء غضب الله على مانعي الزكاة ووراء تكرار لفظ الزكاة واقترانه بعمود الدين . هذا والله أعلم .

روى مسلم بسنده عن زَيْد بن أسْلم أنَّ أبَا صالحٍ ذكوان أخْبره أنه سمع أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ : « ما من صاحب ذَهَبْ ولا فِضَةٍ لا يؤدِّي منها حقَّها إلا إذا كان يومُ القيامة صُفِّحتْ له صفائح من نار ، فأحْمِيَ عليها في نار جَهَنّم فيكوى بها جَنْبُه وجَبينُه وظَهْرُهُ كلما بَرَدَتْ أُعِيدتْ له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يُقضَى بين العباد فيُرى سبيلُه إما إلى الجنة وإما إلى النار ، قيل يا رسول الله فالإبل ؟ قال ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها ـ ومن حقها حلبها يوم وردها ـ إلا إذا كان يوم القيامة بُطِحَ لها بقاعٍ قرقر . أوْفَرَ ما كانت لا يَفْقَدُ منها فصيلاً واحدًا ، تطؤه بأخْفَافها وتَعضُّه بأفواهها ، كلما مرّ عليه أولاها رُدّ عليه أخراها ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، حتى يُقضَى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يا رسول الله فالبقر والغنم ؟ قال ولا صاحبُ بقر ولا غنم لا يؤدّي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بُطح لها بقاعٍ قَرْقَرٍ ،

لا يَفقِدُ منها شيئًا ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عَضْباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مرّ عليه أولاها رُدّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقضى بين العباد فيُرَى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار قيل يا رسول الله فالخيل؟ قال الخيل ثلاثة هي لرجل وِزْر وهي لرجل سِتر ، وهي لرجل أجْر ، فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رياء وفخرًا ونِوَاء على أهل الإسلام فهي له وزر ، وأما التي هي له سِتر فرجل ربطها في سبيل الله ثم لم ينس حق الله في ظهورها ولا رقابها فهي له ستر ، وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام ، في مَرْج وروضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسناتٌ وكتب له عدد أرواثها ، وأبوالها حسنات ، ولا تقطع طِوَلَها فاستَنّتْ شرفا أو شرفين إلا كَتَبَ اللهُ له عددَ آثارها وأرْوَاثها حسنات ولا مَرّ بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يُريد أن يَسْقِيها إلا كتب الله له عدد ما شربَتْ حسنات . قيل يا رسول الله فالحُمُر قال : ما أُنزِل عليّ في الحُمُرُ شيء إلا هذه الآية الفاذّة الجامعة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ » .

قلت إن بلاغة بلاغ رسول الله ﷺ فيها عنصر بالغ الأهمية طالما أغفلناه وهو عرض بيانه عليه السلام في صورة يَسْهُل معها وبها حفظ بيانه ، وبلاغه ، ومن أهم البلاغ أن تيسّر حفظه ، وتُيسّر ذكره ؛ وقد نبهت إلى ذلك في حديث لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة ورأينا أن تكرار الفقرات التي بني عليها الحديث كان من أهم أسباب تيسير حفظه مع اختلاف المعاني وتنوّعها وأن تكرار الصيغ والجُمَل والفقرات لم يكن تكرارًا في المعنى ، وإنما هو تكرار المنوال الغالب الذي بُنِيت عليه المعاني ، والحال في هذا

الحديث كذلك تجد هنا في كل فقرة ، راجع «ما من صاحب ذهب ولا فضة» وما جاء بعدها إلى قوله «فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار»، ثم راجع الفقرة الثانية من أول ولا صاحب إبل ثم يجري البناء على الوجه الذي بني عليه في الفقرة الأولى إلى أن ينتهي إلى يوم مقداره خمسين ألف سنة ويُقْضَى في الناس فيرى سبيله إما إلى الجنّة وإما إلى النار ثم تبدأ الفقرة الثالثة ، وهذا هو المنوال الواحد الغالب الذي يتكرر وهو في كل مرة حَامِلٌ أثقالاً من المعاني والأحْوال والصُّور المختلفة اختلافًا شديدا كالاختلاف الذي بين الذهب والإبل والبقر والغنم ، وهذا ليس كتكرار فبأي آلاء ربكما تكذبان هنا تكرار في اللفظ والمعنى وهذا تكرار في الحذو مصحوبا بتكرار بعض الكلمات والجمل ، وأنا أُنَبّه إلى هذا وعليك أنت أن تتم جهات النظر في هذا الذي نبهتُك إليه ، واعلم أن البيان يتشابه كما تتشابه الوجوه ويتغاير كما تتغاير وقد رأيت ذلك في الشعر . رأيت في الديوان قصائد بعضها أقرب إلى بعض مثل القرابة التي تراها بين «قفا نبك» «وألا عم صباحًا أيها الطلل البالي» وأن أطلال الذكرى التي وقف يبكيها في قفا نبك هي كأطلال الديار البالية في أختها ولو رتبت الديوان على أساس درجات التقارب بين قصائده لكان غير الذي هو عليه ، وقل مثل ذلك في ديوان زهير والنابغة وإذا قلت أي قصائد زهير أشبه بمعلقته «أمن أم أوفى؟» قلت لك «صحا القلب عن سلمى» وهكذا وقرابة النسب في ديوان النابغة أقرب وشعره يشبه بعضه بعضًا ، فإذا انتقلت إلى الكتاب العزيز وجدت عالمًا آخر من التشابه والتغاير ووجدت فواتح السور كأنها رموز وإشارات إلى ضروب من التشابه حتى إنك لترى الحاقة ما الحاقة تستحضر لك القارعة ما القارعة ولو دققت في السورتين وجدت القارعة مُلَخَّصًا

للحاقة وأن من أوتي كتابه بيمينه في الحاقة وما تبع ذلك من كلامه وبيان أحواله هو الذي لخصته القارعة في كلمة (من ثقلت موازينه) وأن الذي أوتي كتابه بشماله وما تبع ذلك إلى آخر السورة هو الذي أضْمَرته القارعة في كلمة ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ وراجع لترى ما لم أر ، ومن هذا الذي راقني وراعني أني أجد السورتين تبتدئان بكلمة واحدة مُفْردة ، وكأنها غمزة عَيْن خاطفة تُوجِّهك إلى أختها كما ترى في كلمة (اقترب) التي بدأت بها الأنبياء ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ وابتدأت بها القمر ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ وأنا أشير إلى التشابه البعيد متجاوزًا ما ذكره علماء المتشابه اللفظي والروابط التي بين السور المبتدئة بالحمد أو السور المبتدئة بحروف المعجم أو السور المبتدئة بحروف واحدة من المعجم مثل آلم إلى آخره . وأزعم أن هـذا الحقل من حقول معرفة البيان لم يدرس لا في الشعر ولا في القرآن ولا في كلام رسول الله ﷺ ، وقد درست آل حم في أربعة مجلدات وظهر لي أنها بمثابة سورة واحدة ، وأن قصصها جاء على نسق واحد من الترتيب إلى آخره .

قلت إن حبس نصاب الزكاة ومنعه يوقد النار في المال كله ويحمى عليه في نار جهنم وتكوى بها الجباه والجنوب وقلت إن الزكاة حق الله سبحانه في ماله الذي جَعَلَنا مستخلفين فيه لأن المال عطاء من الله وقد جعل هذه الزكاة حقًا لهذه الفئة المطحونة وأضيف إلى ذلك أن إنفاق هذا النصاب هو عند الله بمثابة إنفاق المال كله ، وقد استخرجت هذا المعنى من آية التوبة التي هي أصل هذا الحديث وذلك لأن ربنا يقول ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أجمعت الأمة على أن المراد ولا ينفقون

زكاتها في سبيل الله ، ولكن الآية عبرت عن إنفاق النصاب بقوله سبحانه ﴿ وَلَا يُنفِقُونَهَا ﴾ والضمير راجع إلى الذهب والفضة فأومأ هنا إلى أن إنفاق النصاب بمثابة إنفاق كل المال ، ولما كان حَبْس النصاب يجعل المال كله حرامًا قوبل ذلك بفضل الله بأن إنفاق النصاب يجعل المال كله في سبيل الله .

ولاحظ أن الغنى الحميد يَصِفُ الزكاة والصدقة بأنها قرض له جل وتقدس ويغرينا بأن نقرضه سبحانه قرضًا حسنًا وهو يكافئ هذا القرض بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف ثم يزيد من يشاء ، ولو رجعت إلى الحساب لوجدتني قصّرت حين أقول إن إخراج النصاب الذي هو اثنان ونصف على كل مائة لو حسبته على أساس السبعمائة ضعف لوجدته أضعاف المائة التي هو نصابها ، لأن الاثنين والنصف في السبعمائة تعني ألف وسبعمائة وخمسين وهذا أجر زكاة المائة وهو أضعاف المائة ، هذا شيء والشيء الآخر هو أن أثرياءنا لو أخرجوا زكاة أموالهم لاختفت هذه الطبقة المطحونة وخصوصًا لو أخرجنا زكاة ركاز الأرض من المناجم وغيرها ولا أعرف سرًا لسكوت علمائنا عن زكاة الركاز ؟ هل يرون رأيًا يلغي زكاة الركاز ؟ وإن كان فما هو ؟ هل يخافون من أن يُغْضِبُوا المسؤولين وخصوصًا العصابات والعائلات المستحوذة على هذه الثروات التي لا نظير لها في العالم ، والتي بها صار كثير من أثريائنا الجهال معدودين من أغنى أغنياء العالم ؟ وهل نخاف منهم أكثر مما نخاف من ربنا يوم نبعث جميعًا ويسأل علماءنا عن صَمْتهم وهم يرون حق الله مُغْتصبًا ؟ والعجيب أنهم بَدَلَ أن يَفْتَحوا باب الكلام في هذا وليكن ما يكون يفتحون ملف الختان ورَضَاع الكبير ، والتداوي ببول الإبل ، ولا يجوز أن أستهين بشيء له أصل في دين الله ، ولكن رسول الله ﷺ علمنا ترتيب الأولويات بقوله : إن الله لا يَقْبل نافلة حتى

تؤدّى فريضة ، يَعْني لانفتح ملف الختان قبل أن نفتح ملف ضياع حق الله في الثروة التي هي من محض عطائه والتي جعلها في أرضنا حتى لا يكون فينا سائل ولا محروم ، ومن الإنصاف لهؤلاء الذين يضيعون حق الله أن نقول لهم إن من أمسك زكاة غَنَمِه وطأته يوم القيامة بأظلافها فكيف بمن أمسك زكاة مناجم الأرض ولو خَوَّفوا بالله خافوا فإذا لم يخافوا نكون نحن قد نجونا من أن نلقى الله ونحن شياطين خُرس لأن الساكت عن الحق شيطان أخرس فكيف إذا كان الحق حق الله سبحانه ، هذا والله أعلم .

قوله ﷺ : «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يومُ القيامة صُفّحتَ له صفائح من نار فأُحمي عليها في نار جهنم فيكوى بها جنبُه وجَبِينُه وظهره ، كلما بَرَدَتْ أُعِيدَتْ له ، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقْضى بين العباد فيرى سبيله إمَّا إلى الجنة وإما إلى النار» .

هذا القسم من الحديث الشريف بمثابة جملة واحدة لأنه لا يحسن السكوت إلا عند آخره ، ولو حاولت أن تقف قبل كلمة (وإمَّا إلى النار) فلن تجد المقصود من هذا القسم .

والحقيقة أنني كلف جدًّا بمعرفة أسرار طول الجمل الطويلة ولماذا طالت وكيف تولَّدت جملة من جمل وكيف كانت هناك جُملة أُمٌّ أو معنى أمٌّ تولدت منه هذه العائلة التي تضامت وتداخلت وتَنَاسَقَتْ حتى صارت جملة واحدة وقد رأيت ذلك كثيرًا في كلام الجاحظ ووقفت عند بعضه ورأيته كثيرًا في كلام أبي الفتح العبقري التائه ووقفت عند بعضه ، ورأيته في القرآن وفي الشعر وكان كتاب منهاج البلغاء لحازم كنزا لهذا اللون من البناء المتشابك وكان شوابك حازم كثيرًا ما يُغمِضُ المعنى ووقفت عند كثير منها في الكتاب الذي سميته «التقريب» وأردت به تقريب كلام حازم الرائع النافذ إلى طلاب

العلم لأن الرجل ظلم في حياته . ظلمه القوط النصاري حين أخرجوه من دياره ، وظلمه كتابنا الذين جعلوه نفثة من نفثات أرسطو في بلاغتنا إلى آخره .

وراجع هذه الجملة من كلامه عليه السلام التي هي بمثابة عائلة من الجمل شُدَّ بعضها إلى بعض حتى صارت بناء واحدًا آخذًا بعضه بحُجْزَةِ بَعْض وأول ما تلاحظه أن كل جملة مؤسسة على الجملة التي قبلها ولا تفيد معنى إلا بهذا التأسيس فجملة « لا يؤدي منها حقها » وصف لابد منه لصاحب الذهب والفضة ويكاد يكون هذا الوصف عمودًا لهذه الجملة لأنها بُنِيَتْ لبيان عذاب صاحب الذهب والفضة الذي لم يؤد منها حقها ، وجملة « صُفحت له صفائح من نار » جواب الشرط الذي هو (إذا كان يوم القيامة) وهذا الشرط الواقع بعد أداة الاستثناء المفيدة للقصر هو مقصور عليه وهو من الأهمية بمكان في دلالة هذه العائلة وهو في المعنى كأنه خبر صاحب ذهب الذي جاء مجرورًا بحرف الجر الزائد المفيد للاستغراق وأصل المعنى صاحب الذهب والفضة الذي لا يؤدي منها حقها تصفح له صفائح من نار إلى آخره ، وإنما تغيّر هذا الأصل ليُعبر القصر وأنه مقصورة أحوالهُ كلها على حالة واحدة وهي تصفيح الصفائح ، وجملة « فأحمى عليها » من تمام جملة جوابَ الشرط « صفحت له صفائح من نار » ومترتبة عليها بالفاء يعني صفحت فأحمى عليها ، وجملة « فيكوَى بها جَنْبُه وجَبِينُه وظهره » معطوفة على فأحمى عليها ومترتبة عليها ، وهي جزء من جواب الشرط وراجع (صفحُتْ فأُحْمى فيكوى) نجد المعاني ممسكًا بعضها ببعض ، وكأنها تخاف أن تسقط منها الفاء فتتناثر في البيان وهذا هو المَصْنَع الذي ذكره عبد القاهر في الباب الذي تعظم فيه المزية ولا تنسى أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يَتوجّه

لحظة إلى أن يصنع في الكلام مَصْنَعًا وإنما هو الإلهام وصدق الفطرة ، وسهولة التوفيق الإلهي كما هو في القرآن العظيم من سهولة الأمر الإلهي ورحم الله الرافعي فهذا من كلامه ، أقول جملة فيكوى بها جنبه وجبينه هي النهاية لهذا المعنى وهي بيت قصيده وقد حَوَّلَتْ كل ما قبلها وصيَّرَتْهُ وطاء لها وهذا من عجيب الكلام أن ترى الجملة أصْلاً برأسها ثم لم تلبث وأنت تتابع سِلْسِلَة البيان وحَلَقَاتُه أن يتحول الذي كان في يدك أصلاً إلى مقدمة ووطاء للذي بعده وكأنك ترى بعض المعاني خَدَمًا لبعض وترى الجملة تنبلُ قبل أن تكون خادمة لأخْتها فإذا ما صارت خادمة لأختها صار نُبْلُها أعْلَى وأرْفع ، وعجيب هو شأن البيان الذي هو الروح الإنسانية تتحرك أمامك ، وتنطق بما لا تسمعه الأذن وحين تنطق لك روح البيان تذكر قول بشار :

وكانَ رَجْعَ حديثها قِطَعُ الرياض كُسِينَ زَهْرًا
وكان تحت لسانها هاروتٌ يَنْفثُ فيه سِحْرًا

وجملة : « كلما بردت أعيدت له » راجعة إلى قوله « فأحمى عليها في نار جهنم » وأن هذا الحَمْى عمل دائم ، وكلمة « أُعِيدَت له » تطوى تحتها حذفًا لأن الأصْل كلما بَرَدَت أعيدت إلى نار جهنم فيحمى عليها ثم تعاد له . وجملة « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » راجعة إلى قوله « إذا كان يوم القيامة » لأنه الذي مقداره خمسون ألف سنة ، وإنما ذكر بعد بيان العذاب لتأكيد معنى أن هذه الحالة التي لا يطاق تصورها فضلاً عن أن يطاق احتمالها تبقى خمسين ألف سنة وجملة « حتى يقضى بين العباد » تفيد معنى أن هذا التعذيب وهذا العقاب كان قبل القضاء بين العباد وأنهم يعاجلون به قبل أن يحاسبوا .

قال القرطبي في قوله عليه السلام «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» قيل معناه لَوْ حاسبَ فيه غيرُ الله سبحانه وتعالى .. الحَسَنُ قدر مواقفهم للحساب .. ابن اليمان كل موقف منها ألف سنة .. وفي الحديث والذي نفسي بيده ليُخفف على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة .

وكلمة «لا يُؤدِّي منها حقها» أوثِرَتْ كلمة (يؤدي) على مثل قولنا يعطي أو ينْفق لأن كلمة يؤدَّى من الأداء وهذا يعني أن المؤدَّى دين عليه فهو حابس لما ليس له فالزكاة حق الله وعلينا أداء هذا الحق وهي كلمة مُسوِّغة لما يأتي بعدها من صور العقاب ، وقوله (منها) مثل كلمة يؤدي وتفيد نفي أي تبرير لحبسها لأنها تعني أنه يؤدي منها ، وليس المطلوب منه شيئًا خارجها يعني هي نَمَتْ وزَادَتْ وزكاتها مِنْها ، وكذلك كلمة «حقها» وأنه حقٌّ واجب وأنه حَقُّها يعني أن الزكاة ليست حقًّا لله فحسب وإنما هي حق المال أيضًا لأنها طُهرٌ وتزكيةٌ ونماء فإذا حبستها عن المال تكون حبست عَنْهُ طُهْرَهِ وزكاءَه ونماءَه وربما يكون ذلك قد أسْكَنَ قَلْبَه أعني قلب المال ضِغْنًا عليك فكان منه ما كان . صفائح تكوى وإبل تطأ بأخفافها وتعضُّ بأفواهها وليس هذا من المجاز لأن الغائب لا يقاس على الشاهد وجهنم تتميز من الغيظ وتقول هل من مزيد .

وقوله عليه السلام «صفحت له صفائح من نار» قال الإمام أبو عبد الله الأُبيّ «الصفائح جمع صفيحة وهي ما يُطبع مما يُتطرّق كالحديد والنحاس» أراد مما يُصنَّع بالمطارق فقد تكون الصفيحة نحاسًا أو حَدِيدًا أو ما شئت وقد رُوِيَ «صفائح» بالرفع والنصب أما الرفع فهو نائب فاعل لكلمة (صُفِّحت) والمعنى أنه صُفِّحت له صفائحٌ من نار ، وليس في الجملة ما يدل

على أن هذه الصفائح هي ذَهَبُه وفِضَتُه ، وذلك بخلاف رواية النصب لأن نائب الفاعل فيها هي الذهب والفضة وأن الذي صُفِّح له هو ذهبه وفضته وأنه يُكْوَى بذهبه وفضته وهذا هو الموافق للآية التي هي أصل الحديث ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ وهذا ظاهر في أن الذي يُحْمَى عليه في نار جهنم هو المكنوز الذي لم تُنْفق زكاته في سبيل الله ، والحديث قد اقتبس من هذه الكلمة قوله عليه السلام فأحْمِيَ عليها في نار جهنم فيكوى بها إلى آخره وقد تغيّر نسق الحديث عن عن نسق الآية تغييراً خفيفًا ، الحديث يقول إذا كان يوم القيامة صُفِّحت وعبّر بالماضي عن المستقبل لأن ما هو للوقوع كالواقع وكأنه وَقَعَ وسيدنا رسول الله ﷺ يَقُصُّ لنا قصته ، والآية تقول ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فأشارت إلى أنه حدث سيقع ، لاحظ الفرق بين فأُحْمِيَ عليها وبين يوم يحمى عليها ، وهذا التغيير الخفيف الذي خالف نسق الآية ذهب معه إعجازها البياني وصارت في الحديث من كلامه ﷺ وإن بَقِيَتْ جزالة القرآن مع ما بقي من ألفاظه في كلامه ﷺ ومثال هذا أن أقول أقسم ربنا بالعصر على أن الإنسان في خسر ، هذا شيء وقوله تعالى والعصر إن الإنسان لفي خسر شيء آخر لأن تفكيكي لنسق الجملة القرآنية في أي عنصرين من عناصرها يَذْهَبُ بإعجازها الساكن في نسقها الذي نزل به جبريل عليه السلام ، ورحم الله عبد القاهر الذي تعلمنا منه هذا فقد كان يهتدي بهدي الله .

وقوله عليه السلام (فأُحْمِيَ عليها) لا يظهر لك معنى هذه الجملة إلا إذا ذكرت التي قبلها (صفائح من نار) فالصفائح التي هي ما يُطْبع ويُتَطرَّق من

نار وهي ذاتها ذهبه وفضته صارت من وقود النار ولم يُكتف بهذا وإنما أُحْمِيَتْ النار على صفائح النار فالمَحْمِيُّ نارٌ والمَحْمِي عليه نارٌ أعني نار على نار وعليك أنت أن تراجع الصورة وأن تراجع ما وراءها من غضب وأن تتذكر أن كل ذلك ليس وراءه إلا هذه الطبقة المطحونة المكدودة من الفقراء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون ، وأن الذي في يده خزائن الأرض من ورائهم يدعو إلى مراعاتهم ويتوعّد من يُضَيِّعُ عليهم حقوقهم وأن الذي فتح باب حزائنه للأغنياء ، يُحذّرهم من ضياع حقوق عياله من الفقراء وأكرم من أكرمهم وجعل عطايا الأغنياء حق الله عندهم قَرْضًا حسنًا له سبحانه وتعالى ثم تراه جلَّ وتقدّس يَنْحَازُ إلى هذه الطبقة المطحونة المكدودة ويقف معها ويقول لمن فتح لهم خزائنه يدي ممدودة بين هؤلاء المطحونين وأن عطاياكم لهم ستقع في يدي قبل أن تقع في أيديهم فإذا أمْسكْتُم حقّي عندكم الذي هو حق الفقراء الذين هم عيالي ورفضتم أن تضعوا حقي في يدي فلا تلومُنّ إلا أنفسكم وهذا هو الذي وراء صفائح النار التي يُحْمى عليها مرة ثانية في النار لتكوى بها الجباه والجنوب والظهور ولا يهلك على الله إلا هالك . وراجع الجار والمجرور في قوله (في نار جهنم) ومعناه أن نَارَ جَهنَّم صارت ظرفا للحَمْى الذي هو حمى على صفائح من نار ، ولاحظ الفرق بين تُحْمَى عليها نار جهنم وإن كانت نار جهنم ليست ناقصة حَمْيًا وبيـن يحمى عليها في النار ، فرق بين أحميت عليه النار وأحميته في النار ، وعليك أن تكمل النظر لأنك كلما تدبرت ونظرت وجدت شيئًا ووجدت وراء كـل حرف معنى ، ولا أستطيع أن أستقصى ، وسأضَعُ بين يديك نصًّا نقله السنوسي من الكشاف وعقب عليه قال في الكشاف : « فإن قلت ما معنى قوله يُحْمى عليها في نار جهنم ؟ وهَلا قبل تُحْمَى من قولهم حَمِيَ الميسم وأحميته ،

ولا تقول أحميت على الحديد ؟ قلت معناه أن النار تُحمى عليها أي توقد ذات حمى وحرٌ شديد من قولهم نار حامية ولو قيل يُحمى لم يعط هذا المعنى ، وذكّر يحمى لأنه مسند إلى الجار والمجرور وأصله تُحمى النار عليها فانتقل الإسناد من النار إلى عليها» انتهى «قلت» معنى المبالغة التي أشار إليها أن إسناد الحَمْى إلى النار مع أنه معلوم أن كل نارٍ حامية إشارة إلى المبالغة في تناهي حرّ هذه النار التي تجعل فيها هذه الصفائح ، والتعريض بأن نار الدنيا بالنسبة إليها كأنها ماء يُستلذُّ به فكان وصفُ نار الآخرة بأنها نار حامية في قوله تعالى ﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ وصف تخصيص للمبالغة لا وصف تأكيد بل تقتضي عبارة تُحمى عليها النار أنه لم يُكتف في إحماء تلك الصفائح بحر نار جهنم الذي كان في غاية القوة ونسبة نار الدنيا إليه كلا شيء بل أُحميت تلك النار ثانيًا وزيد في إيقادها على تلك الصفائح المكويِّ بها ، ولو قيل تُحمى الصفائح في نار جهنم لفاتت هذه المبالغة العظيمة إذ لا يؤخذ من اللفظ حينئذ إلا أن الصفائح كانت باردة وأحميت في هذه النار وذلك متأت فيها وإن كانت تلك النار في غاية الضعف» ثم قال : ولم يبين صاحب الكشاف حكمة العدول عن إسناد الإحماء إلى النار الذي هو الأصل إلى إسناده إلى المجرور . وحكمته والله تعالى أعلم زيادة مبالغة في هذا الإسناد لأنه جعل ذريعة إلى إدخال «في» الظرفية على النار فحصلت بذلك مبالغة شديدة في إحماء تلك الصفائح لا مرمى فوقَها ، وذلك بأن جُعلت النار كبَيْتٍ وظرف للإحماء تدخل فيه الصفائح ، وتوقد عليها في ذلك البيت نارًا أخرى ومعلوم أن بيت النار ليس بحار في ذاته وإنما يكتسب الحرارة من النار التي توقد فيه فتكون نسبة حر نار جهنم إلى هذه النار الموقدة على الصفائح كنسبة بيت النار إلى ناره . فأعْظِم بحر نار

يكون بيتها نَفْسَ نار جهنم بحيث لو زالت عنها تلك النار لكانت نار جهنم بالنسبة إليها باردة كما تبرد بيوت النار عند مفارقة نيرانها لها ، وإذا كانت هذه نسبتها من نار جهنم فكيف تكون نسبتها من نار الدنيا . نسأل الله تعالى الأمن دنيا وأخرى من غضبه وأليم عقابه وما أشدَّ هذا الوعيد على أرباب الأموال المُقَصِّرين في الحقوق، لو عَقَلُوا مضمونه ولا حول ولا قوة إلا بالله. والعاقل من لا يَعْدِلُ بالسلامة شيئًا، وإذا كانت الأجسام والنفوس تَضْعُفُ عن مقاساة حَرِّ الشمس فكيف بنار الدنيا ؟ فكيف بنار جهنم ؟ فكيف بعظيم غضب الله تعالى فيها اللهم ألهمنا رشد أنفسنا يا أرحم الراحمين» . انتهى كلام السنوسي رحمه الله ، ورضي عنه ، وما نقلته إلا لتُجهد نَفْسَك في فَهْمِهِ وهو ظاهر لمن يتدبر ولتعرف إلى أيّ مَدَى كان العلماء من أهل التفسير والحديث كانوا متمكنين من فهم فروق الصّيغ الذي هو لب علم البلاغة ومن المفيد أيضًا أن تعرف لمحة من رِقّةِ وسداد فهم علماء القرن التاسع الهجري الذي أَلِفَ طَلابُنَا أن يُقَال لهم عنه إنه عصر الجمود وبعضهم يتجاوز حُدُودَ الأدب ويقول إنه من عصور الانحطاط ، وبعد كل هذا علينا أن نراجع مرة ثانية هذه الكلمات القليلة التي نَسَقَها لسانه الشريف صلوات الله وسلامه عليه وما يزخر تحتها من معان : «صُفّحَتْ له صفائح من نار فأحمي عليها في نار جهنم» واسترجع ما كتبناه وما نقلناه وتعرّف على الذُّخْر المذْخور تحت الصورة وتحت كل كلمة وتحت كل حرف وتحت كل إسناد وكيف كان ذلك كله غضبًا شديدًا وكيف لم نر المال المنهوب يُنْتَقِمُ من ناهبه بالشَّرَاسَةِ التي ترى عليها المال الحلال الذي طمع صاحبه في زكاته وكيف يرجع كل هذا الغضب الذي في هذا الوعيد والذي في الصفائح والإبل والبقر والغنم وكيف كان الغضب من كل هؤلاء ومن فوقهم الغضب من رب العالمين كان

ذلك كلُّه محاماة عن هذه الطبقة المطحونة وهذا الأب المُعِوْل الفقير الذي لا يجد قُوتَ أولاده وهذه الأم الأرملة التي بكاها أوس الجاهلي الوثني وذكر لها صورة في شعره زالت الأجيال وزالت الصُّمُّ الجنادل وهي باقية وذلك في رثائه فَضَالة بن كَلَدة الأسدي وهو يذكر الباكين لفقده ومنهم :

وذاتُ هِدْمٍ عارٍ نواشِرُهَا ... تُصْمِتُ بالماء تَوْلَبًا جَدِعَا

أراد أولادها الذين صاروا لحرمانهم وهزالهم كأولادٍ من غير البشر وأكتفي بهذا وأريد منك أن تزداد تأمُلاً في هذه الغضبة التي وصلت للمال من أجل حقوق البؤساء الذين يعيشُون على هذه الأرض والذين صيّرالله حقه في مال عباده حقًّا لهم ولم يَعِدْ أحَدًا بوعود فيها فيض عطاء وفيض قُرْبِ منه سبحانه كما وعد مَنْ يمُدّ يَدَه إليهم وحسبك أن تَرَى يمين الله ممدودة مع أيديهم ليقعَ مالك فيها أولا قبل أن يقع في أيديهم . وحسبك أنك وأنت تُعطيهم إنما تُقْرضُ الله قَرْضًا حسنًا ومن أوفى بعهده من الله ، أقول أترك لك هذا لتَرْتاضَ بنفسك في هذا الموقف البالغ في شفافيته وحِرْصِه على هذا اليتيم وهذا المسكين وهذا الذي لا يجد ما يُنْفِقُهُ لأفاجئك بشيء آخر ، وهو أنني أرى فُيُوض الرحمة تفيض وتزخر تحت أشدّ الوعيد والإنذار والتهديد ، وكلما زادت حِدَّة الغَضَبِ زاد تحته فَيْضُ الرحمة لأن الله سبحانه وتعالى في آية التوبة التي هي من أشد ضروب الغضب والوعيد يأخذ بأيدينا حتى لا نقع في الذي يكره ونحن في فُسْحةٍ من العمر وباب التوبة مفتوحٌ حتى الغرغرة ومن تاب وآمن وعمل صالحًا يُبَدّلُ الله سيئاته حسنات ، وكأنه يَخْرُجُ بالتوبة رابحًا لأن كل سيئاته الجالبة لغضب الله له مع حسن التوبة تتحوّل إلى حسنات والصفائح التي يحمى عليها في نار جهنم هذه يتحول منها إلى الغرف التي تجري من تحتها الأنهار ، ويتحول آكل زكاة الركاز من

الغمس في آبار الحميم التي يحمى عليها في قعر جهنم إلى الاتكاء على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وعَبْقَريٍّ حسان ولا يهلك على الله إلا هالك .

وإذا أردت أن تعرف من أين أخذت هذا فاقرأ قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ ثم قال بعد هذه الغضبة التي تهدّ الجبال هدًّا ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ، فصارت هذه الغضبة من آلائه التي لا يجوز لإنسيّ ولا جنّي أن يكذب بها .

قوله عليه السلام «فيكوى بها جنْبُه وجبينُه وظَهْرُه» راجع هذه الفاء وتواصلها مع الفاء في قوله (فأحمي عليها) وكيف تترتب المعاني وكيف بدأت بتصفيح ذهبه وفضته ثم أُحْمي عليها وكان الحمي في قاع الجحيم ثم اتصل الكلام إلى لب الموضوع وهو الكيّ ثم اخْتير من مواقع الكي الجنب والجبين والظهر ، ثم تبقى هذه الصفائح على هذه المواضع حتى تبرد ثم تعاد إلى الجحيم فيحمى عليها في الجحيم . واعلم أن قيمة المعنى أن تتأمله أنت لا أن يتأمله أحد نيابة عنك . واحذر مصيبة الزمن الذي نشأت أنا وأنت فيه وهي أننا وكّلنا غيرنا ليفكِّر لَنَا ووكلنا غيرنا لِيَصْنَع لنا ووكلنا غيرنا أن يحمينَا واعلم أن كل هذا يناقض شرف النفس التي يجب أن تكون أمام كل شيءٍ قُبُلاً أعني وجهًا لوجه . وهذا الذي أحدثك فيه في الآية صُورٌ وأحداث تراها العين وتسمعها الأذن ويجد لذْعَها من يحسن فهمها ، ولأبُدَّ أن تراجع مشهد هذه الصفائح وهي وقود يتوقد في صال الجحيم ثم يوضع على الجنب والجبين والظهر ثم تنتظر زمانًا وأنت لا ترى فيه إلا هذا الآثم يَصْطَرِخُ تحت هذا الجحيم ثم تَبْرُد ثم تعادُ وهكذا يَتَسَلْسَلُ هذا المشهد الجُهنمي زمانًا مفتوحًا لا تدري متى ينتهي حتى تسمع قوله عليه السلام «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» ثم نفاجأ بأن هذا الذي سقط في

هذه الغَفْلة التي يَسْقُط فيها كثير من الناس يُسَاق إما إلى الجنة وبذلك تحدث مفارقة مُذْهلة أو يُساق إلى النار فنبكي عليه مرة ثانية واعلم أني أحاول أن أُحَوِّل تحليل البيان إلى صُور وأحداث ساكنة في مخابئ البيان وأن أُطْلِقها من حَوابسها لأننا طالت مُصَاحبتُنَا للنظر في مباني المعاني وكان الطول أطول من مصاحبتنا للمعاني التي كانت عناية العرب بمبانيها من أجل عنايتها بمعانيها فشغلنا نحن بالفرع عن الأصل ، والأولى أن نجعل مبانيها مَدَاخِلَ لمعانيها لأنها هي أي العرب التي فعلت ذلك .

وقد تكلم الشراح في وجه تخصيص هذه المواضع الثلاثة : الجنب والجبين والظهر ، وأقرب ما قيل في ذلك أنها إشارة إلى أنه يكوى من جهاته كلها ، وذكر هذه الثلاثة ليس على سبيل الحصر وإنما هي إشارة إلى ما يُصيبُ أعلاهُ وجنبيه وخلفه ، وقالوا المراد أنها أشرف أعضاء الإنسان وأن كِيَّها أشَدُّ في إهانته من كيِّ غيرها أما الوجه فقد جعلوه كناية عن السيادة وقالوا فلان وجه قومه وكرَّم الله وجه فلان ، وأما الجنب فقد جعلوه كناية عن الحِمَاية وقالوا فلان في جنب فلان أي جهته التي يحميها ، وأما الظهر فهو موضع القوة والشدة . وقالوا ظاهر فلان فلانًا إذا سانده وشد أزره وتظاهروا عليه إذا اجتمعوا وتساندوا .

وقوله عليه السلام (حتى يُقْضَى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار) كلمة « حتى » تشير إلى امتداد زمن العذاب من ساعة أن صُفِّحَتْ له الصفائح إلى أن يُقْضَى بين العباد وهذه الجملة من كلامه عليه السلام مُقْتَبسةٌ من قوله تعالى في سورة الزمر ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ وبناء المجهول في قوله عليه السلام حتى يقضى هو بناء المجهول في الآية ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ وبناء المجهول في قوله عليه السلام « فيُرىَ سبيله » هو بناء

المجهول في قوله تعالى ﴿ وَسِيقَ ﴾ وسياق الحديث يُجِيزُ أنه بعد القضاء قد يرى في الجنة وقد قدّم رسول الله ﷺ الجنة على النار وهذا يعني أن منع الزكاة لا يذهبه حسناته ولا مَفَرَّ فيه من العقاب لأنه دين والدين لا يُمْحى والديَّان لا يموت ، والشهادة في سبيل الله تكفر كل ذنب إلا الدين وتأمّل محاماة رب العباد عن حقوق العباد . ومن أجل أن تعرف حُبَّ الله لليد الممدودة بالعطاء لذات الهدم العاري نواشرها استحضر صورة العذاب التي مضت وضع بإزائها قوله عليه السلام : « كل امرئ في ظِلِّ صدقته حتى يقضى بين الناس » وكأن سيد الخلق أراد مِنّا أن نضع هذه المقابلة وأن ننظر بعين للذي صفحت له صفائح من نار وأُحْمي عليها في الجحيم وبعين أخرى إلى الناعم في ظل صدقته وكأن صَدَقَتَه صارت رَوْضًا من رياض الجنة ، وهو ناعم فيه وناعم به أقول أراد أن نقارن فكرر كلمة حتى يقضى بين الناس في الصورتين وقد أشْبَعْنا المقابلة التي تأتي في كلام واحد كالمقابلة التي في سورة الليل إذا يغشى ولم نشبع المقابلات التي تكون بين كلامين كالمقابلة التي بين صفحت له صفائح من نار وبين كل امرئ في ظل صدقته . وقد رأيت ذلك في الكتاب العزيز كالمقابلة التي بين سورة الدهر التي بنيت على الرحمة وصُور النعيم : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ وبين المرسلات التي بنيت على الغضب والويل للمكذِّبين : ﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴾ ، وهذا لا يمنع أن ترى رقعة صغيرة من الجحيم في سورة الدهر ، ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَلَـٰسِلَا۟ وَأَغْلَـٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ وأن ترى صورة صغيرة من النعيم في سورة المرسلات : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ والمقصود الوصف العام للسورة . وبحث هذا يكشف أسرارًا لا تزال مخبوءة .

قوله : قيل يا رسول الله فالإبل ؟ هذه جملة استفهامية دل السياق على الاستفهام فيها . والمعنى قلت يا رسول الله ما قلت في الذهب والفضة فما شأن مانع زكاة الإبل ؟ وهذا يعني أن رسول الله ﷺ فتح الكلام من غير أن يسأل فذكر مانع زكاة الذهب والفضة ولم يكن الحديث لاستقصاء أحوال مانعي الزكاة فيما تجب فيه الزكاة . والفاء التي في قول السائل يا رسول الله فالإبل معناها ترتيب هذا السؤال على بيان رسول الله ﷺ في صاحب الذهب والفضة وهذه من الفاءات الجيدة التي لا تربط كلامًا بكلام من متكلم واحد وإنما تربط كلام متكلم بكلام غيره وتَنْسِقُ الكلامين نَسْقًا واحدًا وكأنهما من متكلم واحد ، ثم إن هذه الجملة الكريمة من هذا السائل الكريم بنيت على حذفين وليس على حذف واحد ، الأول أداة الاستفهام والثاني حقيقة ما دخلت عليه الفاء لأن رسول الله ﷺ لم يتكلم في الذهب والفضة وإنما تكلم في صاحبهما والسائل الكريم سأل عن صاحب الإبل وليس عن الإبل ، والإبل أكثر أموالهم ولو كان عندهم ركاز من الأرض لقال الصحابي الكريم يا رسول الله فالركاز ؟ والغريبُ أن كل ما تجب فيه الزكاةُ يبذل صاحبُه مجهودًا في رعايته إلا الركاز فإنه عطاء محض من الله لعباده أعني كل عباده وقد جعل زكاته الخمس من أجل هؤلاء المطحونين فتورّمت به ثروات غير الشرفاء وضاع فيه حق الفقراء .

قوله ﷺ : « ولا صاحبُ إبل لا يؤدي منها حقها ومن حقها حلبها يوم وردها إلا إذا كان يوم القيامة بُطِحَ له بقاعٍ قَرْقَر أوفر ما كانت لا يفقد منها فصيلاً واحدًا تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها كلما مرَّ عليه أولاها رُدَّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقْضِى بين العباد فيرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار » .

هذا كله جملة واحدة لأن المعنى المقصود منه لا يتوفر لك إلا إذا فرغت إلى آخره كالكلام الذي سبق ، ومعرفة الشوابك التي بين الجمل ومعرفة تداخلها وبناء بعضها على بعض حتى تكون كالشيء الواحد أقول معرفة ذلك يُعِينُك عليه النظر والتدبر والمراجعة وما قلناه في الأولى وإن كانت هنا بعض الإضافات يُستحسن الإشارة إليها ، ومن أولها أنه عليه السلام قال ولا صاحب إبل وهي معطوفة على قوله ما من صاحب ذهب ولا فضة ، وإنما رفعت لأن صاحب الذهب مرفوع محلاً ومجرور لفظًا لدخول حرف الجر الزائد عليه وهذا العطف يُجرى في قوله عليه السلام ولا صاحبُ إبل معنى حرف الجر الزائد وكأنه قال ما من صاحب إبل وجاء بهذا الحرف الدال على الاستقصاء وهذا من إمكانات اللغة وثراء وسائلها وقد أضاف عليه السلام هنا جملة اعتراضية بعد قوله لا يؤدي منها حقها ، وقد بيّنتْ هناك أن كلمة (منها) تعني أنه لن يتكلف شيئًا وإنما سيخرج منها وأنها بلغت النصاب وأن الله بارك فيها ونَمَتْ وربَتْ ثم قال حقها فجعل الزكاة حقًّا لها لأنها طُهْر لها وتذكر أن هذه الزكاة حق لله وحق للفقراء وحق للمال نفسه ، وراجع تَغَلْغُل هذا الحق في هذه الجهات الثلاث ثم قال وكأن الكلام فتح قوسًا جديدًا لإضافة معنى جديد (ومن حقها حَلَبَها يوم وردها) وحَلَبُها بفتح اللام لَبَنُها ، والمعنى من حق الإبل أن يكون لبنها يوم ترد الماء للفقراء والمساكين والسائلين وكان يجتمع هؤلاء عند مَوَارد الماء ليكون لهم عند الكرماء حق معلوم ، كان ذلك في الجاهلية وأقرّه الإسلام لأنه من مكارم الأخلاق ، وهذا واضح وغير مثير ولكن المثير وغير الواضح أن يكون التصدُّق بلبن ذوات اللَّبن من الإبل والغنم حقًّا للإبل والغنم وهل للعجماوات حق ؟ وهل يَعْرفن كرم الأخلاق حتى يكون حقهن مَدُّ اليد

بلبنهنَّ للسائل والمحروم ؟ أنا لا أستبعد شيئًا يمكن أن يكون وراء هذا العالم الأخرس الذي لا أعرف عنه شيئًا سوى عيونه التي لا أراها على حالة واحدة وإنما تتوارد عليها أحوال مختلفة والذي يعرف الإبل معرفتي بها يعرف أنها ترضى وتغضب وأنها تضمر حقدًا وموجدة وتكن ذلك زمانًا في صَدْرها وأنها إذا غضبت وانتقمت هدَّت ودَاسَتْ وقَتَلَتْ ولا أرى مجازًا في قوله عليه السلام « ومن حقها حَلَبها يوم وردها » .

وقوله عليه السلام « إلا إذا كان يوم القيامة » هو الكلام والحذو الذي مضى ووضع في جواب إذا هنا قوله عليه السلام بُطَح له بقاعٍ قَرْقَرٍ إلى آخره وقد جاء على المنوال نفسه الذي هناك والذي جاء في مكانه صُفِّحتْ له صفائح إلى آخره ، وهذا المنوال هو الذي ييسِّر الله به كلام رسوله ليحفظ ويحفظ معه الدين وكلمة « بُطِحَ لَهَا » يعني طرح لها على الأرض وأعدَّ لها لتُصيب منه ما تُصيب ، قال النووي « القاع المستوى الواسع من الأرض يعلوه ماء السحاب ، فيمسكه ، قال الهروي وجمعه قيعة وقيعان مثل جار وجيرة وجيران ، والقرقر المستوى من الأرض الواسع وهو بفتح القافين وقوله (بُطح) قال جماعة معناه أُلقي على وجهه . قال القاضي قد جاء في رواية البخاري يُخبط وجهه بأخفافها ، قال وهذا يقتضي أنه ليس من شرط البطح كونه على وجهه وإنما هو في اللغة بمعنى البَسْط والمدّ فقد يكون على وجهه وقد يكون على ظهره »، انتهى كلام النووي . وإذا كان القاع والقرقر يدلان على الاستواء فإن في القاع معنى زائدًا وهو أنه يمسك ماء السماء وكأنها تطؤه وهو غارق في الطين .

وقوله عليه السلام «أوفر ما كانت لا يَفْقِدُ منها فصيلاً واحدًا» كلمة (أوفر ما كانت) حال صاحبها محذوف وعاملها محذوف وإذا وضعنا هذه

الحال بجوار (بطح لها) يعني أعِدَّ لها دلنا ذلك على المحذوف وتقدير الكلام (بطح لها فجاءته أوْفَر ما كانت) وصاحب الحال ضمير الإبل وعاملها فعله ، وهذا من الحذف الخفي الجيد الذي لا يقع إلا في كلام أهل الطبع وتجد الكلام مع الحذف والاختصار واضح المعنى ، والوفرة هنا ليس المقصود بها العدد لأنه دل على العدد بقوله « لا يَفْقِد منها فصيلاً واحدًا» ولعل المراد بالوفرة هنا الوفرة في الجسم والصحة والسلامة وكثرة اللحم والقوة والشدة وما هو من باب قدرتها على إحداث الألم بالوطء بالأخفاف والعض بالأفواه . وفي هذا المعنى شيء آخر هو أنه كان شديد التعلق بوفرة عافيتها ، ولحمها وشدتها وعددها وأن ولعه بذلك هو الذي له حبس حق الله فيها فكان عقابه في الذي كان يحرص عليه فيها ، وفي قوله عليه السلام « لا يفقد منها فصيلاً واحدًا» معنى آخر هو أن عددها وزيادة هذا العدد هو الذي من أجله أمْسَكَ زَكاتها فجاءه الذي أمْسَكه ليشارك في عذابه وَوَطْئِهِ وعضّه ، ولو أنه أخرجه لطابت وطاب بها وكان في ظل صدقته مع هؤلاء الكرام الأبرار الذين يراهم الناس في ظلال صدقاتهم وقوله عليه السلام « تطؤه بأخفافها وتَعَضُّه بأفواهها » هو الذي كان من أجله كل الذي مضى في حديث الإبل وهو المساوي لقوله هناك « فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره» وهذه هي أصول المعاني في الحديث وما قبلها مقدمات لها ، ولذلك تجد مغايرة في البناء اللغوي فقد حذفت الجملة التي كانت كلمة (أوفر ما كانت) حالاً منها وهنا ذكر الكلام كلمتين يدل ما قبلهما عليهما ، فقوله عليه السلام « تطؤه» دال على أنها تطؤه بأخفافها لأن وطأ الإبل لا يكون إلا بأخفافها والخف للبعير كالحافر للفرس والظلف للبقر والشاة ، وكذلك قال « تعضه بأفواهها» والعض لا يكون إلا بالأفواه فلو قال تطؤه وتعضه لأفاد معنى

« تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها » وهاتان الكلمتان يشبهان كلمة الأفواه في قوله تعالى ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم ﴾ والقول لا يكون إلا بالفم وتشبهان كلمة «من فوقهم» في قوله تعالى ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ والسقف لا يجر إلا من فوق وإنما يجاء بمثل هذا للتأكيد والتصوير وزيادة العناية بالمعنى الذي يَرِدُ فيه ، وكأنه عليه السلام يصور لنا صورة الوطأ بالأخفاف والعض بالأفواه ، وتجد في كلامه ﷺ صنعة كأسلس وأعذب ما تكون الصنعة ولكنه عليه السلام لم يقصد إليها وإنما تأتي عفو الفطرة البيانية العالية كهذا التعادل والتوازن الذي تراه في قوله تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها جملتان متساويتان في عدد الكلمات وفي أنواعها ، كل جملة رأسها فعل مضارع يَسْتَحْضِرُ لك الصورة صورة الوطء والعض والفاعل واحد هو الإبل والجار والمجرور في الجملتين هو أداة الفعل وآلته ولو قال تطؤه أخفافها وتعضه أفواهها لأفاد ولكن الذي جاء عليه كلامه ﷺ فيه معنى زائد وله شأن وهو أن إسناد الفعلين للإبل فيه معنى قصد الإبل إلى إيذائه فهي التي تَطَأُ وهي التي تَعضُّ وهي التي تطفىء بهذا الوطء وهذا العض غيظها الذي أومأتْ إليه كلمة (حقها) في قوله عليه السلام لا يؤدي منها حقها ، وكلمة يؤدي فيها معنى أن حقها واجب الأداء وأنه ضَيَّع عليها هذا الحق الواجب فناسب أن تطأه هي وأن تعضه هي ثم هذه المقابلة التي بين أخفافها وأفواهها يعني أدناها وأعلاها وما بينهما للإشارة إلىحدة الغيظ .

وقوله عليه السلام « كلما مرّ عليه أولاها رُدّ عليه أخراها » ذكر العلماء أن في هذه الجملة تغييرًا أو تصحيفًا لأن المعنى أنه كلما مر عليه أخراها رُدّ عليه أولاها وقد جاء كذلك في رواية أخرى . قال النووي هكذا هو في جميع الأصول في هذا الموضع قال القاضي عياض قالوا هو تغيير

أو تصحيف وصوابه ما جاء بعده في الحديث الآخر من رواية سُهيل عن أبيه وما جاء في حديث المعرور بن سويد عن أبي ذر (كلما مَرّ عليه أخراها رُدّ عليه أولاها» وبهذا ينتظم الكلام ورواية سهيل التي ذكرها النووي هي: وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بُطِحَ له بقاعٍ قرقر كأوفر ما كانت تَسْتَنُّ عليه كلما مضى عليه أخراها رُدًّ عليه أولاها، ومعنى تَسْتَنُّ عليه تجري عليه وفي الحديث الذي معنا في ذكر خيل الجهاد «ولو استنت شرفًا أو شرفين كتب له بكل خطوة يخطوها أجرٌ» وفي قوله عليه السلام «كلما مرّ عليه أخراها رُدّ عليه أولاها» معنى آخر وهو أنها مرت عليه تطؤه وتَعَضه وهي منتظمة يتبع بعضها بعضًا ولم تتزاحم عليه وإنما تمر الواحدة فتطؤه وتعضه ثم تَدَعُه للتي تليها فإذا جاء آخرها لحق به أولها وهكذا وكأنها انخلعت من حيوانيتها العشوائية غير المنظمة وغير العاقلة وصيًّرت من نفسها بكل فصائلها فريقًا يؤدي عملاً مُدًّة خمسين ألف سنة لا تكل ولا تمل. هذا والله أعلم.

وقوله عليه السلام «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة» مضى شرحه. قوله: «قيل يا رسول الله فالبقر والغنم» قال «ولا صاحب بقر ولا غنم لا يؤدى منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة بطح له بقاع قرقر لا يفقد منها شيئًا ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما مرّ عليه أولاها رُدّ عليه أخراها في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقْضى بين العباد فيُرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار».

واضح أن نسج هذا البيان في هذا القسم الثالث تَمَّ على ذات المنوال الذي تَمَّ عليه النسج في الفقرتين السابقتين وأن تحليل البناء اللغوي الداخل في

هذا المنوال هو هو الذي مضى وأن وَحْدة هذا المنوال لم تكن خالية من الدلالة لأن أظهر ما تدل عليه أن هؤلاء الثلاثة : صاحب الذهب وصاحب الإبل وصاحب البقر والغنم مشتركون في معصية واحدة وهي منع الزكاة فكان كل شيء في الثلاثة واحدًا ما عدا التغاير في المملوك الذي مُنِعَتْ زكاته فهذا ذهب وهذا إبل وهذا بقر وغنم وكان هذا التغير يختلف في أن كل صنف من هذه الأصناف التي منع زكاتها هو آلة تعذيبه . والنسج واحد والحذو واحد والبناء واحد وهو من باب البيان الذي بنى عليه حديث « لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة » ، وهذا المنوال أو هذا المذهب أو المنزع في البلاغة النبوية يعين على حفظ هذه الأحاديث التي هي من أصول الدين وذلك بتيسيرها وتكرار منوالها وإن اختلفت ألفاظها ثم إنها ذات قيمة أخرى لأن هذا الأسلوب العالي والسهل والعذب يساعد قارئ السنة على صقل ملكته اللسانية وعلى زيادة قدرته البيانية ، وحقيقة العناية بالبيان في هذه الأمة ليست التفاصح والتَعَالُم وإنما هي من أصول الدين لأنه لا يقربك إلى كلام الله وكلام رسوله شيء كما يقربك الإحساس البياني الذي يُعِينُك على استكشاف خفايا البيان ، قال النووي قال أهل اللغة : « العقصاء مُلْتَوِيَةُ القَرنَين ، والجلحاء التي لا قَرْن لها ، والعَضْباءُ التي انكسر قرنها الداخل »، انتهى كلام النووي .

وأظلاف البقر والغنم تقابل أخفاف الإبل التي تطؤه بها . وقرونها التي تَنطِحُه بها يقابل أفواه الإبل التي تَعضّه بها ، والبطح لها بقاع قرقر هو هو ، وقوله في البقر والغنم لا يَفْقِدُ منها شيئًا فاعل يفقد هو صاحبها ومثله قوله في الإبل لا يفقد منها فصيلاً واحدًا ، وقال هناك أوفر ما كانت لأن الوفرة في الإبل تعني الامتلاء وكثرة اللحم وهذا مما يثقلها ويكون أنكى في وطئها له

وليس الحال كذلك في البقر والغنم وتكرار جملة لا يفقد منها شيئًا مع زكاة الإبل والبقر والغنم يؤكد معنى أنه ضَنَّ على زكاتها بنصاب هذه الزكاة التي ربما كانت واحدة أو اثنين أو ثلاثة ولا يزيد عدد النصاب إلا بزيادة مضاعفة لما رَزَقَه الله به أقول كلمة لا يفقد منها شيئًا تنبه إلى غفلته وأنه حرص على زيادتها في الدنيا وضنَّ بحقها الذي هو حق الله وحق الفقراء فجاءته للتعذيب وهي أوفر ما تكون عددًا لا يفقد منها شيئًا .

ومن أجل أن تجد حلاوة هذا البيان بصورة أوضح . ضع كلمة تَنْطحهُ بقرونها وتطؤه بأظلافها بإزاء تطؤه بأخفافها وتعضه بأفواهها ولاحظ التصاقب الشديد في المبنى والمعنى والكلمات التي كأنها لآلئ صغيرة ، وتلاحظ أيضًا أنه قدم وطأ الإبل على عَضِّها لأن الوطأ مع كونها أوفر ما تكون وقد بطح لها وأعدّ لهذا الوطأ بقاع قرقر أعني أرضًا مستوية مبسوطة ينحدر إليها المطر فتكون طينًا هذا الوطء أنكى وأوجع ثم قدم تنطحه بقرونها على تطؤه بأظلافها وذلك للعلة نفسها لأن نطح البقر والغنم بقرونها أنكى وأوجع من وطئها بأظلافها وخصوصًا أنه احتيط في بيان وصف القرون فذكر أنها ليست عقصاء ملتوية القرن ولا جلحاء ليس لها قرن ولا عضباء يعني مكسورة القرن من الداخل ، وهذا يعني أنها مكتملة القرون وأن قرون البقر والغنم حصونها وأن نطحها بها هو سلاحها وقوتها التي تدافع بها عن نفسها وأن هذا مقدم على الوطأ بالأظلاف ولا شك أن وطأ الإبل بأخفافها هو أقوى سلاحها وأنه أول ما يكون منها للذي بُطح لها ، هذا ولك أن ترى غير ذلك إذا اجتهدت لأني لم أقرأ هذا في كلام من يؤخذ عنهم العلم .

وفي حديث جابر بن عبد الله الأنصاري « ولا صَاحبُ كَنْزٍ لا يَفْعَل فيها حقّها إلا جاء كنزُه يوم القيامة شُجاعًا أقرع يَتْبَعُه فاتحًا فاه فإذا أتاه فرَّ منه ،

فيناديه خذ كنزك الذي خبأته فأنا غنيٌّ عنه فإذا رأى أن لا بُدَّ مِنْهُ سَلَك يده في فِيهِ فَيَقْضِمُها قَضْم الفَحْل» قال القرطبي : الكنـز الضم ، والجمع ، ولا يَخْتَصُّ ذلك بالذهب والفضة ألا ترى قوله عليه السلام : «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة» أي يضُمّه لنفسه ويجمعه ، واختلف في المراد بالكنز في الآية فقال أكثرهم كل مال وجَبَتْ فيه الزكاة فلم تؤدّ مِنْهُ ولا أُخْرِجَت وكل ما أخرجت زكاته فليس بكنز ، وذكر القرطبي أن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ ﴾ قال كبر ذلك على المسلمين فقال عمر رضي الله عنه : أنا أُفرِّج عنكم فانطلق فقال يا نَبِيَّ الله كبُر على أصْحَابِكَ هذه الآية فقال رسول الله ﷺ إن الله لم يَفْرض الزكاة إلا لِيُطيِّبَ بها ما بقي من أموالكم وإنما فرض المواريث «فذكر كلمة» لتكون لمن بعدكم «لتطيب لمن بعدكم» قال فكبَّر عمر رضي الله عنه ثم قال له رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة إذا نظر إليها سَرَّتْهُ وإذا أمَرَها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته» .

راجع قوله عليه السلام « إن الله لم يفرض الزكاة إلا لِيُطيِّب بها ما بقي من أموالكم» ومعناها أن الذي لم تُطيّبْه الزكاة مال غير طيّب وأنه ينتقم يوم القيامة من صاحبه الذي جعله غَيرَ طيِّب وأن ما بقي من المال بعد إخراج الزكاة مال طيّب لا حَرَج في كنزه لأن الزكاة أخرجته من الكنز المذموم وصارت به اليد العليا خيرا من اليد السفلى وصار نعمَ المال الصالحُ في يد العبد الصالح ثم إن هذا الطهر لا يكون إلا إذا وصل نصاب الزكاة إلى مُسْتَحقِّيه فلوصرفت الزكاة لغير المستحق لم تقبل ويبقى المال غير طيب ،

وأن اللقمة التي في فمك من مالك تصير طيبة إذا وصلت لُقمَةٌ منك إلى فم المسكين من يدك ، وأن فم المسكين إذا خلا من لقمتك خَبُثَتْ لقمتك ، وهذا في فقه شرع الله عجيب جدًا وفي رعاية شرع الله لهذه الطبقة المطحونةُ عجيب جدًا ، ثم إن شرع الله في المواريث طاب به مالي لورثتي ما داموا قد أقاموا شرع الله بينهم فإذا بَغَى بعضُهم على بعض أو استأثر أبنائي بشيء حرموا منه بناتي كان إرثهم مني غير طيب وهذه جاهلية لا تزال فينا ، الفرق بين الطيب والخبيث راجع إلى القسطاس المستقيم وإلى الحق والعدل الذي أقام الله عليه السموات والأرض . قال القرطبي : « والشجاع من الحيّات هو الحية الذكر الذي يُواثب الفارس والراجل ، ويقوم على ذَنَبِه وربما بلغ رأس الفارس ويكون في الصحاري .. والأقرع من الحيات الذي تمعَّط رأسُه وأبيض من السُّمِّ» انتهى كلام القرطبي . وكلمة : لا يَفْعَلُ فيه حقّه فيه معنى زائد عن قوله لا يؤدي فيه حقه وقد ذكرت أن الأداء يفيد معنى الوجوب كأداء الصلاة . ويفعل يفيد معنى أنه يفعل ذلك أبدًا أعني يؤدي حقه كل عام وحين وجوبه ويصير ذلك فعلاً له وشأنًا من شأنه كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴾ وهذه الآية مأخذ هذه الكلمة لبيان قوة الربط بين الحديث والكتاب وأنه عليه السلام يبين للناس ما أنزل إليهم .

ومجيء كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع يَتْبَعُه ليس متعارضًا مع ما جاء في حديث أبي هريرة وأنه يُصفَّح له صفائح من نار لأن اليوم طويل ومقاماته مختلفة فالشجاع الأقرع واقع لا شك فيه وتصفيح الذهب والفضة التي هي من نار ثم الحمى عليها في النار واقع أيضًا لا شك فيه وإذا كان مانع الزكاة صاحب ذهب وفضة وإبل وبقر وغنم ومنع كل ذلك فكل الذي في الحديث

واقع عليه لا يتخلف منه شيء يكوى بالذهب والشجاع الأقرع يتبعه وَيُبْطَحُ في قاع قرقر والإبل تطؤه وتعضه وكذلك البقر والغنم تنطحه وتطؤه ، وإذا اغتصب مع ذلك شبر أرض طوق بسبع أرضين إلى آخره ولا تسألني كيف يتبعه الشجاع الأقرع وقد بُطِح في قاع قرقر ، ولا كيف يطوق بسبع أرضين والإبل تطؤه وصحائف النار التي أوقد عليها في صال الجحيم تنتقل من جَنْبه إلى جبينه إلى ظهره لأني لا أعرف الكيفية والذي أعرفه أن هذا الذي بين أيدينا خَبَرُ من لا خلاف في خبره وهو أيضًا وَحْيُ الله الذي لا يأتيه الباطل من أي جهة .

وصورة الشجاع الأقرع الذي يواثب الفارس والراجل والذي تَمعط شعره وابيض لكثرة سُمّه صورة تَكْنِزُ وراءها أسرارًا فهو أولاً يأتيه فاتحًا فمه فإذا وصل إليه فرّ منه فيناديه ويقول له خذ كنزك فأنا عنه غني ، وكأن صاحب الكنز كان قد استودعه عند هذه الحيَّة فجاءت الحيَّة لتقول له خذ كنزك . ووراء ذلك إشارة إلى أنك لحظة أن تضع المال الذي بخلت بزكاته في وعائك الادخاري بنكا كان هذا الوعاء أو غيره ، فأنت تَضَعُه في فم حيَّة سَتَتْبعُكَ وتفِرُّ منها ثم تتبعك وتفر منها إلى اللحظة التي ترى فيها أن لابُدْ من مواجهة الحيَّة ، ولابد أن تمد يدك في فمها لاستخراج كنزك بعد ما يُغطَّى عليك فلا تجد في فمها إلا مقدمة أسنان ما إن تدخل يدك في فمها حتى تَقْضِمَ يدك قضم الفحل. قالوا القضم بأطراف الأسنان والخَطْم بالفم كله ، وقالوا القضم قضم اليابس والخطم أكل الرطب .

ويلاحظ أن الحق تعالى وتقدس يعاقبنا في هذا الباب بأعْمَالِنَا فصاحب الذهب يعذب بالذَّهب وصاحب الإبل والبقر والغنم يعذب بها وهذا إمْعَان في الزجر وأن ما تُسَرّ به وتَمْنعَ حق الله فيه هو ذاته آلة تعذيبك وأنك ستجد

الويل من ذات الشيء الذي أسرّك حتى منعت منه الحق لشدة ولعك به وتأمل الآية التي هي أصل ذلك كله ﴿ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ لم يقل سبحانه فذوقوا جزاء أو عقاب ما كنتم تكنزون وإنما أوقع الذوق الذي هو العذاب على ما كنا نكنزه أعني ذهبنا وفضتنا وإبلنا وغنمنا إلى آخره ، وهذا هو معنى ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ أي وجدوا الذي عملوه هو ذاته والثروة تتغيّر بتغيرّ الزمان وهي الآن ليست إبلاً ولا بقرًا وإنما هي مصانع وأرض ومزارع ومنها ما فيه زكاة وما ليس فيه زكاة ، والعقاب واحد من امتلك من حقوق الناس شيئًا بغير وجه حق وإنما بالرشوة أو كان ذا قرابة لمسؤول أو ما شئت من وجوه الباطل التي دمّرت بلادنا عُذّب بالشيء نفسه والذي منع زكاة الركاز ذهبًا كان أو غير ذهب عذب بالركاز كله ولو علم المسؤولون بذلك لرجع كثير منهم عن باطله إذا خلت ساحتهم من علماء السوء الذين يحلون لهم ما حرّم الله ويُورِدُونهم وهم معهم موارد الهلاك .

قوله : قيل يا رسول الله فالخيل ؟ قال « الخيل ثلاثة هي لرجُلٍ وِزْرٌ وهي لرجل سَتْرٌ ، وهي لرجل أجْرٌ ، أما التي هي له وزر فرجل ربطها رياء وفخرًا ونِواء على أهْلَ الإسلام ، فهي له وِزْر ، وأما التي هي له سَتْرٌ فرجل ربطها في سبيل الله ثم لم يَنْسَ حق الله في ظهورها ولا رقابها فهي له سَتْرٌ ، وأما التي هي له أجْرٌ فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مَرْجٍ ورَوْضَةٍ فَمَا أكَلَتْ من ذلك المَرْج والروضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات ، ولا تَقْطَعُ طِوَلها فاسْتَنّتْ شرفًا أو شرفين إلا كَتَبَ الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات ، ولا مَرَّ بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يَسْقيها إلا كَتَبَ اللهُ له عدد ما شربت حسنات » .

أول ما يلاحظ في هذا القسم أن المعنى مع تداخله وكثرة جمله الداخلة في بنائه وأن حال الجمل في ترابطها واستدعاء بعضها بعضًا وأن المقصود منها لا يتم إلا بآخر كلام فيها أقول مع هذا تراها أخَذَتْ حَذْوًا مغايرًا لحذو الكلام قبلها لأن المعنى انتقل من أحوال ثلاثة هي صاحب الذهب والإبل البقر الذين كان يجمعهم مَنْع الزكاة إلى وَادٍ بعيد ليست مشكلته هي منع الزكاة لأنه لا زكاة في الخيل وإنما الذي في الخيل هي هذه الأحوال الثلاثة الوِزْرُ والسِّتْر والأجـر . والمهـم معـرفـة الحـذو الواحـد أو المتقارب جدًّا أو المتقارب فقط والمراد بالحذو هو طريقة بناء المعاني التي هي ذاتها طريقة بناء المباني وسمِّها حذوًا أو منوالاً أو قالبًا تبنى عليه المعاني ، المهم هو ما بيَّنَاه في الحديث والأحاديث التي قبله وقد وجدت ذلك كثيرًا في كلام الله وراجع إن شئت أول سورة المدثر ولاحظ ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ ، ثم ينتقل المعنى وينتقل معه طريقة البناء ، ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ، ثم ينتقل المعنى وينتقل معه حذو الكلام : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ ، ثم ينتقل المعنى وينتقل معه قالب البناء ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾ إلى آخره ، وهذا باب من البلاغة لم يدرس ، وقد نبهت إليه وأكرر التنبيه إليه لعله يراجع ويقال فيه كلام أكثر نفعًا مما قلته .

وذكر الخيل في هذا القسم وإن اختلف حذو بنائه فقد قـام علـى طريقـة كلامه ﷺ الذي نرى تيسير حفظـه أمـرًا ظـاهر كمـا تـرى التهيئـة والتوطئـة

وإيقاظ النفس لِتَسْتَشرف إلى المعنى الذي يريده عليه السلام أمرًا ظاهرًا أيضًا وأوَّلُ ما تراه في هذا القسم هو الإجمال ثم التفصيل الذي يشوبه الإبهام ثم البيان ، قال عليه السلام الخيل ثلاثة وهذا إجمال وإبهام أيضًا ثم قال هي لرجل وزر وهي لرجل ستر وهي لرجل أجر وهذا وإن كان تفصيلاً لقوله ثلاثة وبيانا أيضًا إلا أنه بالنسبة لما بعده إجمال وإبهام ثم إنك تلاحظ أن القارئ أو السامع يحفظ هذه الثلاثة بسهولة ظاهرة . فقد تكرر فيها قوله عليه السلام هي لرجل ثلاث مرات ذكر في مرة وزر وفي الثانية ستر وفي الثالثة أجر ، وتلاحظ أن الكلمات الثلاث متشابهة جدًا فهي ثلاثية وهي أخف الكلام ثم حركه وسكون وهذا أيضًا من أخف الكلام ثم الحرف الثالث حرف الراء وتكرارها في الثلاثة جَعَلها أيْسر وأعذب ثم قال عليه السلام فأما التي هي له وزر ، فبدأ في التفصيل بحرف التفصيل الذي فيه توكيد وقوله عليه السلام فرجل ربطها رياء وفخرًا ونِوَاء لأهل الإسلام ، وهذا نفسه تكرر في قوله وأما التي هي له ستر فرجل ربطها وأما التي هي له أجر فرجل ربطها وهكذا نجد بيانًا كأنه أُعِدَّ ليحفظ وكأنه تكرر ليتقرّر ، ومعنى قوله عليه السلام نِواء لأهل الإسلام أي منازعة لهم وراجع كلامه عليه السلام مرة ثانية ستجد قوله بعد شرح حال التي هي له وزر (فهي له وزر) وهي من رد عجز هذه الحالة على صدرها وكذلك قوله بعدما شرح حال التي هي له ستر قال عليه السلام فهي له ستر ، ورد العجز هذا على الصدر هو ضرب من التوكيد وكأنه فتح الكلام عنه بقوله هي لرجل وزر ثم أغلق الكلام عنه بقوله فهي له وزر وهكذا فتح الكلام عن الثاني بقوله لرجل ستر ثم شرح ثم أغلق الكلام بما فتحه به وقال فهي له ستر ، وهذا عجيب جدًّا وقلَّما تراه ثم إن كل هذا ليس فيه لحظة واحدة للمراجعة والاختيار والصقل والتثقيف وإنما هو البديهة وإلهام الفطرة والتوفيق والتّسْدِيد .

وليس في الخيل زكاة لقوله عليه السلام (ليس على المسلم في فرسه صدقة) وخالف في هذا أبو حنيفة وقال إن في الخيل صدقة واستشهد بهذا الحديث لأن رسول الله ﷺ ذكر حق الله في ظهورها ورقابها ورُدّ هذا بأن هذا الحق أنه يحمل عليها في الجهاد وإن لم تكن اقتنيت للجهاد أو أنه يراعي حق الله فيما يأتيه من نفع لتَقَلُّبه عليها في تجارته ورزقه .

وذكروا أن هذا القسم الخاص بالخيل من أسلوب الحكيم لأن السائل سأل عن زكاتها فصرف رسول الله ﷺ الجواب إلى أحوال اقتنائها وكأنه يقول للسائل الأولى بك أن تسأل عن أحوال اقتنائها لأنها لا زكاة فيها وأن أحوال اقتنائها ثلاثة وأن حال الرجل الذي هي له أجر حال جيدة جداً والأجر فيها لا حدود له والأولى بكل من يستطيع أن يربط خيلاً ولو فرسًا واحدة ليحصل هذا الثواب الكثير أن يفعل ذلك ولا يتردّد .

ولاحظ الأحوال الثلاثة مرة أخرى لأنها للأول وزر يعني الذي يحصله من اقتنائها هو الذنب والثاني ستر يعني لا إثم ولا أجر ، والثالث أجر وكأن الخيل استوفت الأحوال الثلاثة الحرام والمباح والطاعة والخيل هي هي عند الثلاثة وإنما اختلفت النوايا والمقاصد فصارت ذنبًا بالنية وصارت مباحة بالنيّة وصارت أجرًا بالنيَّة ، وهذا جيد جدًّا لأن التَّقَلُّب في الحياة صورته واحدة فهذا يتقلب تقلُّبًا يعاقب عليه وهذا يتقلب التقلب الذي تقلبه غيره فلا يأثم وهذا يتقلب ما تقلبه الرجلان فيثاب ، وهنا يظهر معنى قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » ، وراجع نيَّة الأول الذي ربطها رياء وفخرًا ونواء لأهل الإسلام، تجدها نيَّة فارغة تافهة لأن الرياء والفخر خلق الفارغين

الذين قعدت بهم الهمَة فلم تتطلع إلى عمل نافع صالح وإنما هو تورُّم الذات والمباهاة والفخر ومثل هؤلاء لا تعمر بهم الأرض ولا تقوم بهم الأمم والجدير بالذي يشغل قلبه بالرياء والفخر ، أن يكون عدوا للحق والصدق وأصحاب القيم الإنسانية والمعاني الكريمة وإحقاق الحق وإبطال الباطل هذا أفق لم تستشرفه نفس هذا التافه فعاش منازعًا لأهل الإسلام الذين هم أهل الحق والعدل والبر ومكارم الأخلاق والذين تعلموا أن الله لا ينظر إلى أموالكم ولا إلى صوركم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ، ومن المهم جدًّا أن تفحص اهتمامات النفوس التافهة الباحثة عن الوجاهة والزعامة والثروة والمباهاة وأن لا تستغرب ما يكون منها من منازعة لأهل الحق والصدق الذين هم أهل عمارة الأرض ، ولعل من أسباب أننا لا نعطي الإمارة أحدًا سألها هو دلالة سؤاله لها على تفاهة نفسه وفراغ داخله واهتمامه بالوجاهة ومظاهر الزعامة .

« وأما الذي هي له ستر ، فرجل ربّطها في سبيل الله ثم لَمْ يَنْس حق الله في ظهرها ولا رقابها فهي له ستر » قلت إن هذا الصنف لا يأثم بتربية الخيل لأنه لم يجعلها من باب المباهاة وإنما ربطها في سبيل الله أي الجهاد ، ولم يَعْنَ بها عناية الثالث ، وإنما هي خيل كغيرها من الخيل قد تُطْلَب للجهاد فإذا طُلِبَتْ فهي جاهزة ، وفسَّروا قوله ولم ينس حق الله في رقابها أنه أحسن عَلَفها ورعايتها وحق الله في ظهورها يعني أن كَسْبَه عليها يراعي فيه حق الله ، ومثل هذا يؤجر على قدر ما يَعْلَم الله من حاله ، وكلمة ربّطها التي تكررت في الخيل أصلها من الربط أي الحبس ومنه الرباط والمرابطون وهم الذين ربطوا أنفسهم على ثغور البلاد حماية لترابها من أعدائها ونِعْمَ هُمْ ،

والذي أريده أن الرباط هنا رباط على الإثم وهو الذي رَبَطَهَا مُعاداةً لأهل الإسلام ، ورِبَاطٌ في سبيل الله من غير أن يكون مصحوبًا بعناية ورعاية ، الذي في الرباط الثالث . وهذا لا تستطيع أن تقول فيه إلا أنه ليس من الآثمين لأن الخيل من الخيلاء وهي مظنة الريًاء وما وراء ذلك مفوض لله وإن كان لا يخلو من أجْرِ ذِكْرِه حَقَّ الله في رقابها وظهورها وإعدادها للجهاد في سبيل الله .

قوله عليه السلام : وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهْل الإسلام في مَرْج وَرَوْضَةٍ ، فما أكلت من ذلك المَرْج أو الرَّوْضة من شيء إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات ، وكتب له عدد أرْوَاثِها وأبْوالها حسنات ولا تقطع طِوَلها فاستَنَّتْ شَرَفًا أو شَرَفَيْن إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات ، ولا مَرَّ بها صاحبُها على نهر فشرِبَتْ مِنْه ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات .

هذا القسم أعدت كتابته لأنه من أكرم المعاني في أكرم المقاصد ، ومن الذي يجعلني لا أشبع من تكراره أنني أرى فيض عطاء الله بيديه جل وتقدس للمَهْمُوم بحماية أرض وديار أهل الإسلام ، فلم أعرف عطاء في أرواثها وأبوالها إلا عطاء الذي يرعاها ليَحْمِيَ بها أرضه وعرضه وترابه وهيبَتَه وربما كانت استباحة أعداء الله لأرض أهل الإسلام في الزمن الذي قضى الله عليّ أن أعيشه هذه الاستباحة المصحوبة بالغَطْرَسة والإذلال هي التي جعلتني من أشد الناس وَلَعًا بالجهاد ولوازمه من إعداد العُدَّة لقطع يَد وَرِجل من يمتد إلى ذرة تراب من أرض قومي الذين هم أهل الشهادتين في شرق الأرض وغربها وفي القلب منهم قَوْمي الذين هم العرب الأعاريب وأعود إلى قول

سيد المجاهدين صلوات الله وسلامه عليه ، «أما التي هي له أجر» وأقول هذه الكلمات تكررت ثلاث مرات وقد ذَكَرْتُ ما في ذلك من تيسير حفظها وأقول الآن إنني أجد أَلْوانًا فيها تختلف في هذه الأحوال الثلاثة ، فدلالة كلمة «التي هي له وزر» يختلف عن دلالة كلمة «التي هي له ستر» ودلالة كلمة «التي هي له أجر» لأن المعاني الثلاثة مختلفة الظلال والأحوال ، وهذا الاختلاف منعكس لا محالة على الكلمات وإن كانت واحدة ، فالتي هي له أجر أَبْهَى وأَغْزَرُ وأَبْهَجُ والتي هي له وزر أَكْدَرُ وأَنْكَدُ والتي هي له ستر ، لون آخر بين اللونين وإن كان أقرب إلى الثالث ، ويالله للسياق الذي يوشك أن يَخْلَع الكلمات من معانيها المتعارفة إلى معان أخرى تسبح في محيطه .

وقوله عليه السلام «فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام» لاحظ أن الربط في سبيل الله كان مع الرجل الذي هي له ستر ، وأضيفت هنا كلمة انتقل بها الكلام إلى أفق آخر تدافقت فيه العطايا حتى لم أر لها نظيرًا مع أن الله سبحانه وتعالى ضاعف الأجر لكثير من الأعمال كمضاعفة أجر من يُقرِضُه جل وتقدس وهو الغني الحميد ومضاعفة ثواب الشهداء وكل هذا لم أجد فيه الذي أجده هنا من استقصاء عطايا ربنا من ثوابه حتى إنه ليعطى ثوابا على أرواثها وأبوالها ، وكل ذلك أراه في كلمة (أهل الإسلام) المذكورة هنا والتي انتقل بها المعنى من الثاني إلى الثالث ، ولم أعرف عملاً يَعْمَلُه العبدُ أكرم ولا أقرب ولا أرفع من عمل يعمله من أجل أهل الإسلام الذين هم أهل الشهادتين والذين هم أكرم من يعيش على هذا الكوكب وكل ما جاء في هذا القسم هو خارج من تحت كلمة لأهل الإسلام ، ولا تجد قَوْمًا يَلْتَفُون حول رجل كما تجدهم يلتفون حول من يقوم ويقعد بمصالحهم التي تجمعهم يعني رَبَطَ نفسه في سبيل قومه مسلما كان أو غير

مسلم ، لأن أزكى ما يعمَلُه الإنسانُ هو عمل يعمله من أجل المجموع لأن العَمَل من أجل المَصْلِحَة الفردية هو عمل الكل العامَّة والخاصَّة أمَّا أن نرى رجلاً يحمِلُ همَّ قومه فهؤلاء هم أفراد الرجال وهم أولى الناس بسيادة الأقوام ، وإذا كانت العصبيَّة الجامعة للأقوام عصبية أرض ووطن أو عصبية عِرْق فإن أهل الإسلام يجمعهم ذلك كله مع عصبية المِلَّة التي لا تأتلفُ القلوبُ حول شيء كما تأتلف حولها ، وأهل الإسلام هم أهل الله ، وهم أهلي وأهلك والمشغول بهم هو المشغول بي وبك ، ولذلك نحبُّهُم ونولع بما أُولعُوا به ، قلت الذي ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام هو الذي ربطها لله ، والذي ربطها لله فتح الله له خزائنه ، والذي ربطها لله ربطها لي ولك وحين يفتح الله له خزائنه فإنما يكافئ الله عني وعنك والخلاصة أن كلمة أهل الإسلام كما أجدها لا يُدْرَكُ غَوْرُها ، اللهم اجعلنا من خَدَم أهل الإسلام واجعلنا من خدم خدم أهل الإسلام الذين هم أهلك وخاصتك وأنت المجيرُ ولا يُجارَ عليك وأنت المعطي ولا تُعطى إلا الثناء والحمد .

وقوله عليه السلام « في مَرْج وَرَوْضةٍ » متعلق بقوله « ربطها » التي تعلق بها قوله في سبيل الله وقوله لأهل الإسلام وقوله في (مرج وروضة) وهذه التعلقات إنما هي من ضَبْط المَعْنى وأول خطوة هي في سبيل الله ، ويمكن أن تكون له إذا خرج للجهاد أو لغيره والخطوة التي تليها وهي أوسَعُ قوله لأهل الإسلام ، لأنها تَعْنِي أنَّها جزء من جيش أهل الإسلام ، وأنها ليست له خصوصًا ، وإنما هي له ولغيره ، والخطوة الثالثة هي « في مرج وروضة » لأنها تعني شيئًا زائدًا عن الذي قضى وهو أنها في عناية خاصة ورعاية لا تعلوها رعاية ، وأن الخيل لا تكون في شيء أشبع ولا أَرْبَحُ لها من أن تكون في مَرْج من المروج الخضراء اليانعة تأكل وتشبع وتقوى وتمرح

وسُمّي المرج مرجًا لأن الخيل تأكل فيه وتمرح وتمرج ، وهذه الثلاثة وخصوصًا الأخيرة منها تكشف مقدار إخلاص صاحب هذه الخيل لدينه ، وأهل دينه الذين هم أهل الله وأنه لا يَضِنُّ بشيء عنده وإن كان أنفس ما عنده وإنما يبذل الأنفس والأغلى من أجل قوتهم ومهابتهم ومَهَابة دَوْلتهم ومهابة أرضهم وسمائهم وثرواتهم ورجالهم ونسائهم وهذا هو الرجل الذي تَبحث عنه البلاد والذي نفتقده وهذا هو الذي لو وَجَدْتُه لوقفت على بابه ، راجع ربطها في مرج ورَوْضة وراجع الاختصار الشديد وما وراء هاتين الكلمتين من معانٍ وراجع خيل الله وهي ترتع في المرج والروضة ، ولا يعود على هذا الفارس الرائع منها شيء وإنما تعود هي عليه بالتكلفة والرعاية ولم يكن ذلك إلا لتكون أرضه عزيزة منيعة ويكون قومه في عزة ومَنَعة ، وتأمل كيف ضم رسول الله ﷺ في هذه الكلمات الثلاث المتعلّقة بكلمة «ربطها» كيف ضمَّ نَشْر معان لا يحاطُ بها في هذه الكلمات الثلاث ، وبعدما كشف لك بيانُه العالي صلوات الله وسلامه عليه همَّ ذلك الرجل الرائع وتعلق قلبه بعزة الإسلام وأهله أدار البيان على مدرجة أخرى لنكشف الثناء والعطاء والرضا عن هذا آثر سبيل الله على كل سبيل ، فبدأ عليه السلام بلغة فيها شوب من الانفعال الذي عكسه طريق القصر ، وذلك قوله عليه السلام «فما أكلت من ذلك المَرْج أو الرّوضة من شيء إلا كتب له عددَ ما أكلت حسنات وكتب له عدد أرواثها ، وأبوالها حسنات» ولاحظ أن الكلام أمْسَكَ بالجار والمجرور الثالث الذي هو في مرج وروضة المتعلق بربطها وكأن الثواب لم يكن لأنه ربط فرسًا في سبيل الله لأهل الإسلام وإنما كان الثواب لقيامه على رعايتها ولتقديمه أنْفَسَ ما عنده مما تأكله الخَيْل والإبل والغنم وهو المروج والرياض لم يكن الثواب إلا لذلك ، وقلت إن

القصر ليس المراد منه أداء معنى الجملة التي بنيت عليه وإنما المراد منه أداء معنى القصر فيها وليس المراد هنا أن ما أكلته يكتب له وإنما المراد قصر ما أكلته على أنه يكتب له ، وفرق بين أن أقول ما أخذته منك أكتبه لك عندي وأن أقول ما أخذت منك شيئًا إلا كتبته لك عندي ، والحق جل وتقدس لا يخبرنا بأنه يكتب له بما أكلت حسنات وإنما يخبرنا بأنها ما أكلت إلا كتبت لها حسنات وكأننا نستبعد أن تكون كل ورقة تأكلها أو فرع تأكله أو نبات تأكله كل ذلك لا يغيب عنه شيء وإنما هو مقصور على أنه يكتب وناهيك عن حسنات كتبها الله جل وتقدس على نفسه لعبده الذي يحامي عن أهل الإسلام الذين هم أهله وخاصته وراجع كلمات «من ذلك المرج أو الروضة من شيء» . تجد الإشارة التي للبعيد للمرج والروضة وأنها صارت مرجًا بعيد المنال وروضة بعيدة المنال يعني ليست كأي مرج أو كأي روضة بعد ما أُطعمت منها خيل الله المحامية عن دين الله الذي هو حرمه وهم أهل دينه الذين هم أهله ، وكلمة (من شيء) هي من الزائدة الداخلة على المفعول والدالة على الاستقصاء أعني شيئًا أي شيء ولو نباتة عُشب أو نباتة خَمضٍ ومعنى « كتب له » فيها معنى صار لها فرضًا كما في قوله تعالى ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ و﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ ﴾ ثم فيه معنى حُصِرَ وأُحْصِيَ ؛ والبناء للمجهول إشارة إلى أن الغيب يحيط بكم وأنتم لا تعلمون فالذي تأكله الخيل في المروج والرياض له هناك كتبة وما تأكل الخيل من شيء إلا كتبوه لصاحبها حسنة وأن ما لا تعلمون من خلق الله أضعاف ما تعلمون وأن الغيب أعمق من الشهادة ، وقلما تذكر أنت وأذكر أنا ما عليّ وعليك من رقيب وعتيد ، وتلاحظ أيضًا أن نائب الفاعل ليس هو كلمة (عدد) الواقع عليها الكناية وإنما انتقل إلى الجار

والمجرور لأن العناية متوفرة ليس على العدد وإنما على أنـه (لـه) ولاحظ أن الكتـابـة واقـعـة على عـدد ما أكلت وهــذا شيء لا يحاط به لا أستطيع ولا تستطيع أن تحصر عدد ما أكلت فرس واحدة في ساعة واحدة فضلاً عن عدد من الخيل ربطت في مرج وروضة وكأن هنا إشارة إلى إحساسنا بالعجز وأنكم أيها العاجزون حين تتجهون إلى عمل صالح ستجدون قوة غَيْبِيَّةً غالبة تكتب لكم ما تستطيعون حصره وما لا تستطيعون لأن حفاوة ربكم بالذي يـدفـع عـن أهـل ديـنـه الـذيـن هـم أهله وخاصته حفاوة لا تدركون شأنها ولا شَأْوَهَا .

وكلمة (حسنات) فيها إشارات منها ارتباط الحسنات بإذهابها للسيئات فكأنها تُبشِّر بثواب العمل الصالح وإذهابها لسيئاتنا ، ومنها وهو أهم أنها تذكرنا بالإحسان ، الذي هو إحسان النيَّة والقصد ، وتجردهما لله رب العالمين وسبيل الله الذي منه حماية أهل الإسلام ، وإحسان النيات يتبعه إحسان الأعمال ، وقوله تعالى ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ كما قال أهل العلم يعني إحسان النيّة وإيقاع العمل على الوجه الذي يرضاه ربنا وقد أخبرنا سبحانه أنه مع المحسنين أعني المتقنين لأعمالهم .

وقوله عليه السلام (وكتب له عددَ أرواثها وأبوالها حسنات) جاء فعل كتب بالبناء للمجهول ليؤكد لنا أن الغيب يُحيط بكم وأنكم ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً وأسند إلى الجار والمجرور لأن الكلام ببيان أن هذا الثواب له ؛ أكثر عناية والله سبحانه وتعـالـى لا يكتب عليه بمعنى لا يجبُ عليه ولا يُفْرَض علـيـه إلا ما كتبه سبحانه على نفسه وأوجبه على نفسه وفرضه على نفسه ومعنى كتب ربكم على نفسه الرحمة يعني أوجبها وفرضها ، وهذا من فيض عطائه سبحانه والعدد هنا عدد غريب وهو عدد أرْواثها وأبوالها ، والغرابة في

الذي قبله أقل لأن عدد ما أكلت وإن كان لا يحاط به إلا أن الثواب في عدد ما أكلت ليس غريبًا ، وإنما الغرابة هنا في عدد الأرْوَاث والأبوال وفي أن يكون فيها أجر لأنه ليس لصاحب الخيل فيه نية ، ولا عمل ، وإنما هو محض العطاء المؤسس على صدق نيَّة صاحبها قلة أجر فيما أكلت وله أجر فيما أخرجت من بطنها بعدما انتفعت بما انتفعت به ، فالذي أكلته مكتوب له والذي انتفعت به مكتوب له ، والذي أخرجته مما لا تَنْتَفِعُ به مكتوب له ، ولعل هذا والذي قبله هو الذي دعا إلى أسلوب القصر بالنفي والاستثناء الذي لا يؤتى به إلا لدفع إنكار ، والإنكار هنا ليس لصدور الخبر عن المُخبْر لأن المخبر معصوم ولا يحوم الخلاف حول إخباره وإنما الخبر غريب غير متوقع كما في قول نوح عليه السلام وهو يخاطب ربه ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ فقد محض نوح عليه السلام نَفْسَه لقومه فأصَرُّوا على الباطل واستكبروا استكبارًا ، وكأنه عليه السلام كان لا يصدق أنهم كذبوه فأكثر وهو يخاطب علام الغيوب وكذلك المعنى هنا لا يتوقع أحَدٌ أن يُثَاب راعي الخيل على أرواثها وأبوالها فجاء القصر على الطريقة التي يخاطب بها المنكر وبهذا انتهت الجملة الأولى التي بدأت بعد ذكر رباطها في سبيل الله ولأهل الإسلام وفي مرج وروضة وبدأت بقوله عليه السلام فما أكلت من ذلك المَرْج أو الرَّوضةِ ثم بدأت الجملة الثانية بمثل الحذو الذي بدأت به الجملة الأولى وطريقة القصر بالنفي والاستثناء فقال عليه السلام «ولا تَقْطَعُ طِوَلَها فاستَنّت شرفًا أو شرفين إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات» والطول بكسر الطاء وفتح الواو الحَبْل الذي تُرْبط فيه ويقال فيه الطيل بقلب الواو ياء لأنها تحركت وكسر ما قبلها . واستنت معناه جَرَت والشرف المرتفع من الأرض أو الطلق يعني المرة من الجري ويلاحظ أنه بدأ بالفعل

المضارع المنفي بلا التي تفيد النفي في المستقبل (ولا تقطع طولها) وذلك لأن قطع طولها غَيْر أكلها فهي تأكل أبدًا وتقطع طولها نادرًا وكأنها أكلت وستقطع طولها ، ثم إنها لا تقطع طِولَها لتستنَّ إلا إذا كانت قد أكلت ومَضَى زمن على رَبْطها بحبْلها ووجدت في نفسها وفرة من النشاط والرغبة في أن تَستَنَّ فتقطع طولها ، وهذا ملاحظ في الفرق بين الماضي في أكلت والمضارع في تقطع ، والأهم من هذا أن قوله عليه السلام «وكُتِبَ له عَدَدَ آثارها وأرْوَاثها» فتح باب كتابة الحسنات في أمر لا دخل له فيه فجرّ ذلك إلى كتابة الحسنات حين تقطع طيلها وهو أمر لا دخل له فيه ويزيد أنه خلاف رغبته لأن قطع الحبل أو غيرها حبالها مما لا يكون إلا عند تصرفها تصرفًا لا يَرْضاه القائم عليها ، وإذا كانت الحسنات التي هي عدد أرواثها وأبوالها كان له فيها سبب وهو إطعامها فإن الحسنات التي تكون بقطع الطِّيَل لا سبب له فيها بل هي على غير رغبته ونحن الآن مع رجل يثاب بما فعل وما لم يفعل وبما يرضى عنه وبما لم يرض ، له في كلٌ أجر ، كأجر المجاهد في سورة التوبة ﴿ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ﴾ ، راجع كتب لهم في الآية وكتب له في الحديث وتبين الأثر ، ثم إن عموم الأجر في كل ما يحدث ظاهر في الكلامين وإذا كان من غيرالمألوف أن يثاب بقطعها طيلها واستنانها فالأغرب أن يكون له في الأثر والروث أجر والأثر هو أثرها على الأرض في جريها يعني مواطئ رجمها للأرض ثم إن هذا من التنبيه كما يقول العلماء لأنه إذا أثيب هذا الثواب بقطعها حبلها وجريها شوطًا أو شوطين فكيف يكون الثواب لو ركبها هو وجرى بها شوطًا أو أشواطًا كما كانوا يفعلون بالخيل لتخف

وتضمر ولا تترهل ولا تثقل ، ثم يلاحظ أنها لما أكلت من المرج والروضة وراثت وبالت وسمنت وثقلت جاء بعد ذلك الجري والتضمير واكتناز اللحم ونفي ترهله أعني هناك ترتيب بين جملة ما أكلت وما بعدها وجملة ولا تقطع وما بعدها ومن غير المقبول وغير المنطقي أن تقدم جملة ولا تقطع طولها على جملة وما أكلت من ذلك المرج وما بعدها لأن التنسق هنا ظاهر .

ويلاحظ أن جملة ولا تقطع طولها فاستنت جاء فيها الفعل الذي هو قُطب معناها مبنيًّا للمعلوم على خلاف ما جاء عليه في جملة فما أكلت وهو قوله عليه السلام فاستنت شرفا أو شرفين إلا كتب الله له عدد آثارها وأرواثها حسنات قال كتب الله له وقال قبلها كُتب له ، ولا أستطيع أن أقول هما سواء وإن كان التصريح بالفاعل في البناء للمعلوم دال على أنه المراد في البناء للمجهول ولعل هذه المخالفة إشارة إلى أن استنانها شرفا أو شرفين هو أقرب إلى فعلها في الجهاد بخلاف الأكل ، فأسند الفعل إلى لفظ الجلالة ليلْفِتَ إلى هذا المعنى وكذلك يقال في قوله عليه السلام ولا مرّ بها صاحبُها على نهر فشربت منه وهو لا يريد أن يَسْقِيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات جاء فعل كتب مسندًا إلى لفظ الجلالة لأنه عليه السلام قال وهو لا يريد أن يسقيها وهذا مظنة أن لا يكون له في هذا حسنات فجاء هذا الإسناد ليشير إلى أن ذا الجلال سبحانه هو الذي يكتب له هذه الحسنات بيمينه ، ويلاحظ أن البناء للمجهول يحتمل أن يكون مَلَكٌ هو الذي يكتب بأمر الله ويحتمل أن يكون الذي يكتب هو الله سبحانه بدليل ما جاء في هذين الموضعين . قلت إنني لا أستطيع أن أقول إن البناء للمجهول والبناء

للمعلوم سواء لأن وراء ذلك سرًا وحاولت أن أبينه فإذا لم أكن قد أصبت فأرجو لغيري أن يصيب . هذا والله أعلم .

وعليك أن توازن بين رجلين رجل ربط الخيل رياء وفخرًا وتفاهة وهو فارغ من المعاني النبيلة ورجل يقوم ويقعد بِهَمٍّ قومه وهمّ الدفاع عن أرض قومه التي هي أرضه والدفاع عن عرض أمته الذي هو عرضه ويأبى ويأنف الهزيمة لأنها شر ما تُبْتَلى به الأُمم ولأنها تكسر الأنف وتذل الرجال ثم تراه يقوم بما تقوم به الدولة لأن إعداد العدة شأن الأمة وشأن الأفراد الذين يقال فيهم فلان أُمَّة وكان إبراهيم أمة قانتًا وكان يقال لمعاذ بن جبل أمة قانت ثم عليك أن تنظر حولك لترى رجالنا الذين لهم عناية بالخيل ويعقدون الأوقات والمناسبات لسباقها وتتصدع رأسك من سماع المسابقة وللخيل أسماء تسمْع أن فلانة سبقت وأن فلانة جاءت لاحقة وكأننا في زمان داحس والغبراء وليس في بلادنا مصنع واحد يصنع رصاصة إلا بنادق الصيد التي يرحل إليها السادة في صحرائنا . وازن أنت واحكم من أي الرجلين يكون سادتنا ؟ وأنا أعلم أن بينك وبين القوم عيبة مكفوفة ولن أسألك عن القوة التي تحمي الأرض والعرض ، والغريب أن حرب داحس والغبراء هي التي قال فيها القائل «ومن لم يَزُدْ عن حَوْضِه بسلاحِه يهدّم» فقال يزد هو يعني بساعده وقال بسلاحه هو، وأكتفي بهذا ولا تظن أني أقرأ كلام الله وكلام رسوله بمعزل عن الذي يحيط بي لأن الله أنزل كتابه وأوْحَى لنبيّه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . والتفاهة ظلمات واللهو ظلمات ، واشتغال الناس بما لا يعمّر البلاد ظلمات هذا ، والله أعلم .

والدعوة إلى أن تمتلئ البلاد بمصانع إعداد القوة بدل التلهي بالمسابقات دعوة لصالح الكل .

قوله قيل يا رسول الله فالحمر ؟ قال ما أُنزل عليّ في الحمر شيء إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ .

ذكر بعض أهل العلم أن قوله عليه السلام ما أُنزل عليّ في الحمر شيء دليل على أنه عليه السلام لم يجتهد وإنما يبلغ ما أوحاه الله إليه وذكر البعض الآخر أنه عليه السلام كان يجتهد ويقيس ما لم يعلم على ما علم وبلّغ عليه السلام بالوحي وبالاجتهاد والاستنباط كما أخبر بحرمة الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها قياسًا على حرمة الجمع بين الأختين لأن في كل قطيعة رحم وإذا كان المجتهد يصيب ويخطئ فإن اجتهاده عليه السلام معصوم من الخطأ لأن التوفيق الإلهي ملازم له عليه السلام .

والآية الفاذة هي الآية المنفردة في معناها والآية الجامعة هي التي لا تدع معنى في الباب التي هي فيه إلا وسعته ؛ ومن أجل أن تدرك سعة هذه الآية أذكر قوله عليه السلام ما أنزل عليّ في الحُمِر شيء إلا هذه الآية ، والظاهر أنها ليس فيها في الحمر شيء مع أن كلمة رسول الله ﷺ تشير إلى أن فيها شيئًا في الحمر ، وهذا يوجب المزيد من المراجعة وكأن سيدنا رسول الله ﷺ يعلمنا كيف نفهم كلام الله وكيف نفهم كلامه ، وكيف نفهم الكلام العربي ، ووجه ذلك في الآية ، أن الآية تقول ومن يعمل مثقال ذرة من خير أو من شر سيراه حاضرًا يوم القيامة ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ ومن الأعمال تعاملنا مع كل ذات كبد رطبة لأن رسول الله ﷺ أخبرنا أن في كل ذات كبد رطبة أجر وما دام فيها أجر لمن أحسن إليها فلابد أن يكون فيها وِزرٌ لمن أساء إليها والحمر داخلة في هذا دخول كل دابة في الأرض وكل طائر في السماء فمن تصرف مع هذه الأحياء بالبر والرحمة والشفقة

والروح الإنسانية الودُودَة الرؤَومة ، كان ذلك من الخير الذي يراه ، ومن تصرف معها بقسوة وغلظة كان ذلك من الشر الذي لا محالة سيراه ، هذا هو معنى أنها آية جامعة لأنك لا ترى عاملاً يعمل خيرًا أوشرًا في أي زمان وفي أي مكان وفي أي جنس وفي أي غابة وفي أي كهف وفي أي جبل إلا والله معه يحصى عليه عمله ابتداء من مثقال الذرة وانتهاء إلى ما ينتهي إليه العامل ، وكل ذلك في كتاب مُستَطر وكل ذلك يكون بين يديه يوم ترى كل أمة جاثية كل أمة تدعو إلى كتابها وهذا كتابكم ينطق عليكم بالحق ، ولم أعرف جمعًا أجمع من هذا ولا ثلاث كلمات تتغلغل في كل شبر في الأرض في الليل والنهار وتحصى ما فيه كهذه الكلمات التي أصلها من يعمل مثقال ذرة وقد تكرر هذا في الجملتين جاء الأول مع الخَيْر والثاني مع الشر والجواب واحد هو كلمة يره ، ولاحظ أن كثيراً مما حللناه من كلام رسول الله ﷺ مؤسس على هذا الحذو مثل لا أُلفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته ... ثم لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة ... إلى آخره وهنا ما من صاحب ذهب لا يُؤدي إلى آخره ، وحذو من يعمل مثقال ذرة ظاهر أنه أصل لذلك كله والمقصود بيان أنها جامعة وأنه عليه السلام كان يفهم معاني الجمل القرآنية على وجه يدرك منه خفاياه ويدرك منه سعته وعمومه وأن هذه الآية يدخل فيها كل ذات كبد رطبة من الباب الذي دخلته الحمر ، والعجيب أن الآية الفاذة من أوجز الكلام وفيها تكرار ثم هي من أوضح الكلام .

أما أنها فاذة . فذلك من قولهم فذّ الرجل أقرانه إذا انفرد من بينهم وهذه الآية انفردت من بين آيات القرآن بذكر مثقال الذرة من عمل الخير ومثقال الذرة من عمل الشر وأن من يعمل هذا المثقال من الخير يراه ومن يعمل

هذا المثقال من الشر يراه ليس هذا المعنى إلا في هذه الآية . نعم القرآن فيه الكثير من الآيات الدالة على أن كل عمله سيراه مكتوبًا في كتابه والذي انفردت به الآية أنها ذكرت مثقال الذرة من العمل ، وقد جاء مثقال الذرة في الكتاب في مواطن أخرى مثل أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم مثقال ذرة وأنه سبحانه لا يعزب عنه مثقال ذرة وأن الذين يعبدونهم من دون الله لا يملكون لهم مثقال ذرة أما من يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره فلم يأت إلا في هذه الآية ، وهكذا كان ﷺ يحادث أصحابه ويسألونه ويجيب والقرآن بكل تفاصيله وكل دقائقه حاضر في نفسه عليه السلام لا يعزب عنه منه مثقال ذرة ، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله الصالحين الطيبين وأكرمنا بكرامتهم وشرفنا بخدمتهم يا أكرم من سئل وياخير من أعطى : وهذا الحديث الشريف أوله محاماة عن فقراء هذه الأمة وتهديد بالغ لمن يُضَيِّعُ حقَّهم في ماله الذي هو حق الله وحق الثروة نفسها وآخره محاماة عن تراب هذه الأُمَّة وأرْضِهَا وثَرَواتها وأعْراضها وتجد خزائن الله التي لا تَنْفَدُ يتدفَّق منها العطاء لهؤلاء المشغُولين بإعداد العُدَّة لحمايتها نرى الله سبحانه يعطيهم ثواب ما عملوا وثواب ما لم يعملوا ويعطيهم بنيَّاتهم ويُعطيهم من غير نياتهم ، وعجيب جدًّا أن يجمع الحديثُ بين هذين فإنِّي لَمْ أعْرِف ثوابًا تضاعف كثواب الإنفاق على فقراء هذه الأمة وأنه يبلغ سبعمائة ضعف ويزيدُ ولم أعرف عطاء تدفَّق من غير حساب على أحد كما يتدفق ثوابه سبحانه على مَنْ أعَدَّ عُدَّة حَرْبٍ واحدة تحمي ديار هذه الأُمَّة لم أعرف أحدًا يثاب على رَوْث دابتِّه وبَوْلها كثواب هذه العَيْن الساهرة على خيل الرباط ، ولقد تمنَّيْتُ أن أكون خادمًا في مرابض خيل الرباط ، لهذا الذي رأيتهُ من إكرام الله لصاحب هذه الخيل .

ولابد أن يكون لصاحب الخيل التي هي له أجْر نظيرٌ ولكنه في واد آخـر هو ذلك القَيْن الصانع للسيُّوف والرِّماح والدروع الجواشن والمغافر والسهام وكل آلة حرب تدفع عن تراب هذه الأمة وستجد عطـاء الله عنـده مـا طـرق طـرقـة على سيف أو رمْحٍ إلا كتب الله لـه عــدد هــذه الطرقـات حسـنات ، ولا نفخ نارًا إلا كتب الله له عدد هذه النفخات حسنات ، ولا أحْمَـى حديـدًا في نار إلا كتب الله له عدد هذه الحديد الـتي أحماهـا حسـنات ، واحـذر أن تظن أن هذا قياس يُرَدّ لأن هذا القين يبذل في الطرق والنفخ والحمى أضعافًا من المجهود الذي يبذله من ربط الخيل في مَرْج ورَوْضة وقـد أعـطــى علـى ما لم يَبْذُل فأعطى على روثهـا وأبوالهـا وآثـار رجـم حوافرهـا في الأرض ، وهي تستنُّ شرفًا أو شرفين والشرف رمية قـوس ، قلـت احـذر أن تـرد هـذا القياس للذي قلته لك وللذي قاله مَنْ علمنـا صـلوات الله وسـلامه عليـه لمـا أخبرنا أن السَّهْم يُثَابَ راميها ، ويُثَاب نابُلها ، ويثـاب صـانعها وحسـبك مـن هذا دعوة إلى حماية أرض وأوطان وأعراض هذه الأمة ، ولو وَقَفْت عند هذا أكون قد أدّيتُ لأن القارئ ليس في حاجة إلى أن أقـول لـه إن العـبرة ليسـت بالسيوف والرماح والجواشن ولا بالخيل المعقود بنواصيها الخير وإنما العبرة هي إعداد القوة الحامية للأرض والعرض وأن الله سبحانه وتعالى يغار علـى ترابنا وعلى أعْرَاضنا وعلى كرامتنا وهو يعلم أنه لا يَذِلُّ النفوس شيءٌ كقهر عدوِّها لها ، وهذا هو سر فتح باب خزائنـه لمـن يشـغل قلبـه بإعـداد العُـدَّة الحامية ، وإذا كانت هذه العـدة خـيلاً وسيوفًا ورماحًـا في زمـان فإنهـا الآن ليست كذلك ، ولم يبق من عتـاد الـزمن الماضـي شـيء وإنمـا هـي دبابـات ومدافع وصواريخ وطائرات إلى آخره والله وحده هو الذي يعلم ماذا ستكون

بعد خمسين سنة ، وكل هذا لا يُغيّر من الحديث حرفًا واحدًا لأن القصد من كل حرف هو إعداد العدة الحامية للأمة فلو بعث صاحب الخيل التي هي له أجْرٌ في زماننا فلن تراه بخيله في مَرْج ورَوْضة ، وإنما ستراه في مصانع الذخيرة يقوم ويقعد بين عمالها ومكنها وإنتاجها وكيف يطور الإنتاج وكيف يسبق هذا التطور وكيف يفاجئ العدو بما لم يكن في حسابه ، وتراه أيضًا هناك في مراكز الأبحاث التي تستكشف وتجرِّب ، تراه في مدينة العلوم التي يعيش فيها شيوخ الكيمياء والفيزياء والرياضيات يُقَدِّمُون تجاربهم للمصانع والهيئات لأن أدوات الحرب الآن رأسها العلم والبحث في المعامل وليس في إطعام الخيل في المَرْج والرَّوْضة ، وكما كانت الخيل التي هي أشد أدوات الحرب نِكايةً في العدوّ معقودًا بنواصيها الخير الذي هو النصر والغنيمة فإن معامل البحوث الآن ومن فيها من شيوخ لانت عظامهم وشابت رؤوسهم ، وهم يحاورون المادة ويداورونها هؤلاء الغرّ الميامين في معاملهم معقود بنواصيهم الخير الذي هو النصر والغنيمة وهذا محتاج إلى إمكانيات مالية لابد أن تتوفر وعطاء الله مفتوح لمن يوفرها كما كان مفتوحًا حتى لآثار الخيل وأرواثها وأبوالها ، والمطلوب من أصحاب الخيل في زماننا والتي هي لهم ستر أن ينفقوا لهوهم بها على المصانع ومراكز البحوث وعلى العلم وعلى الصادقين من رجاله ، ونموذج الذي هي له أجر يعد نموذجًا رائعًا لأصحاب رؤوس الأموال الذين لهم قيمة في أنفسهم ولهم حميَّة في أنوفهم ولهم رجولة في صدورهم والذين أكبرهمهم حمايةُ الأرض والعِرْض . هذا والله أعلم .

• مثلي ومثل الأنبياء

روى مسلم بسنده عن جابر بن عبد الله قال «مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياء كمثل رجل بَنَى دارًا فأتمها وأكملَهَا إلا مَوضع لبنة فجعل الناسُ يَدْخلونَها ويتعجبُون مِنها ، ويقولون لولاموضع اللبنة قال رسول الله ﷺ فأنا موضع اللبنة جئتُ فختمت الأنبياء» .

وفي رواية أبي هريرة فجعل الناسُ يَطُوفون ويُعْجِبُهم البنيان فيقولون ألا وُضعت ههنا لبنة فيتمّ بنيانك؟

* * *

لم أكن لأنتخب من كلام رسول الله ﷺ لأن كل كلامه مختار ورحم الله شيخنا كامل الخولي الذي كلفني سنة تَخَرُّجي بدراسة مادة التفسير في الكلية فسألته أن يُرشّح لي سورة فقال لا يجوز لك أن تختار من القرآن لأن القرآن كله مختار وبقي هذا المعنى في نفسي إلى اليوم وأَلْحَقْتُ كلام رسول الله ﷺ بكلام الله ، والأحاديث التي كتبتُها في كتابي هذا والكتاب الذي قبله لم تكن اختيارًا ، لفضل بعض كلامه على بعض عليه السلام ، وإنما كنت أختار منها ما هو أقْربُ إلى قضايانا لأنه عليه السلام تكلّم للأجْيَال كلّها في الأزمنة كلها وفي الأمكنة كلها لأنه عليه السلام بعث لهؤلاء جميعًا ولكل جيل قضاياه ومشاكله ولذلك كان كلامه عليه السلام ممسكًا دائمًا بالجوهر الذي هو أقرب إلى فطرة الأشياء وليس مُمْسِكًا بالعرض المتغيِّر ، فحديثه عليه السلام عن الرجل الذي «الخيل له أجْر» كان ممسكًا باللب الذي هو الدفاع عن الأمة وليست الخيل إلا وسيلة من هذه الوسائل المتغيِّرة وهكذا ، ويستطيع أهل البصيرة وأهل العلم بكلامه عليه السلام أن يستخرجوا الشفاء

والعلاج والحلول لقضايا زمانهم من كلامه عليه السلام وليس هنا دَرْوشة وإنما من عرف كلامه عليه السلام يعرف ذلك ولو كان غير مسلم .

ودراسة بيانه عليه السلام تنحو بالدارس إلى باب الأمثال لأن المثل يتجاوز التصريح بالمعنى إلى وضع مثال له وهذا المثال أغزر دلالة وأوْسع معنى ويُعطي فرصة أوْسع للاستنباط والاستخراج وحديث « مثلي ومثل الأنبياء » من الأحاديث التي يجب أن يُحكم معناها أهل الأديان السماوية جميعًا بنفوس مبرَّأة من التعصب لأن الأديان كلها والنبوات كلها والرسل كلهم من أوَّلهم إلى آخرهم يكمِّل بعضُهم بعضًا ويتوارد كل دين وكل نبي على أصول عامة اتَّفَقَتْ عليها كل النبوات وهي ليست متجانسة فحسب ولا متشابهة وإنما أكثرها هو هو ويستحيل أن يكون بينها تدافع ونزاع فَضْلاً عما يسمى الآن صراع الأديان وكل تدافع بين النبوات والأديان السماوية باطلٌ وسياسة وسَطْو اتخذ الأديان ستارا .

والمعنى العالي السامي في هذا الحديث شائع في الكتاب العزيز وقد بدأ في المصحف مع أول آيات سورة البقرة بعد فاتحة الكتاب وذلك قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ .

فالإيمان بالغيب أصْلُ كل رسالة ومعناه الإيمان بالله وملائكته والإيمان بالبعث والحشر والجنة والنار ، ليس هناك مؤمن برسالة نبي إلا وهو مؤمن بهذا ، ثم إن الإيمان بالله يعني الإيمان بأنه واحد أحد حيٌّ قادر يحيي ويميت وله ما في السموات والأرض وهو الخالق والرازق والمنعم بالنعم كلها ، وله الأسماء الحسنى هو الخالق البارئ المصور المؤمن المهيمن العزيز الجبار الملك القدوس السلام هذا كله راسخ في قلوب المؤمنين بالنبوات كلها

ما داموا لم يُحرِّفوا ولم يُبَدِّلوا ومن المفيد أن أُنـبِّه إلى أن الآية الجامعة المانعة في الحديث عن الله سبحانه وهي قوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾ لم تـذكـر فـي الكتاب العـزيـز إلا مـرة واحـدة فـي سـورة الشورى التي أولها ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فعقدت الشبكة بين نبوته عليه السلام ونبوة الأنبياء من قبله وقال أهل العلم كل ما في هذه السورة جاء في كل كتب الله ومِثْلُها سورة سبح اسم ربك الأعلى التي ختمت بقوله تـعـالـى ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ .

وكل الأديان السماوية حرَّم الله فيها الدماء والأموال والأعراض والفواحش ما ظهر منها وما بطن والقهر والقمع والسطو والنهب وكلها دعت إلى العدل والبر والرحمة والمساواة ورعاية اليتيم والمسكين وذي الحاجة وماترك الله خيرًا إلا حث عباده عليه في كل كتبه وعلى ألسنة كل رسله وما ترك شرًّا إلا نهى عباده عنه في كل كتبه وكل رسله ، والمصدر واحد هو الله الموصوف بالكمالات كلها ، والمنزه عن كل نقص ، وهكذا كل أمره وكل نهيه ، تعهد بذلك خَلْقَه منذ أقدم النبوات ولم يتركهم سُدًى ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ولو جلس أهل دينين لم يحرّفا لوجدوا أنفسهم على أرض واحدة يَعْبُدون ربًّا واحدًا يسعون جميعًا إلى العمل الصالح وينكفُّون جميعًا عن اجتراح السيئات يصومون ويصلون ويحجون مع الاختلاف في صيامهم وصلاتهم وحجهم ، وقد جعل الله لكلٍّ شرعة ومنهاجًا ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ ومع اختلاف صلاتهم وحجهم فالمغزى واحد هو التوجه إلى الله وطلب رحمته والخشوع والتوسل والضراعة له سبحانه ، ولو جمع الله النبيين على صعيد واحد من نوح عليه السلام إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه لكان بعضهم من بعض ولكانوا كأبناء أب واحد ولو جمعت

الكتب التي أنزلها الله وكانت بعيدة عن عبث العابثين لوجدت كلاما بعضه من بعض والفرق بين أولها وآخرها هو الفرق الذي بين زمن أولها وزمن آخرها..

وقد خاطب القرآن الكريم أمم الأنبياء جميعًا وقال لهم أمتكم أمة واحدة : قال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ .

وأول ما يَلْفِتُ في هذا الحديث هو تصوير كل النبوات من أولها إلى آخرها في صورة دار أوْ بُنْيَان أو بَيْت على تنوع الروايات : مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتًا فأحسنها وأجملها وأكملها .... مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله .... مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارا ... وهذا البناء كان كل نبي يضع فيه لبنة ، ولما تَمَّ البناء وحَسُن وتحسّن أغرى الناس فارْتادُوه وطافوا فيه فكان يروقهم إلا أنهم كانوا يرون موضع لبنة ناقصة ويعجبون لماذا تركت هذه اللبنة فجاء سيد الناس ووضع بيده هذه اللبنة فَتَمّ البناء .

وأول ما يلاحظ أن اللبنات لم تَتَنَافر للمعنى الذي قدمته وثانيها أنها لم تتَقَادم لأن الصواب والحق والصدق لا تزيده الأيام إلا جدَّةً وطرافة وأصالة فلا يقال في الصواب قديم وحديث لأن الصواب حديث في كل زمان وكأنه من أوتاد الأرض التي تمسكها حتى لا تزول والخطأ والتهويش والتلبيس يولد ميتًا ، ثم إنك لو فكّرت لتعرف من أي شيء كان الناس يتعجبون وهم يطوفون في هذا الدار التي بُنيت لبناتها بأيدي النبيين عليهم السلام وهم أكرم الكرام وأبر البررة ، لا شك أنها كانت لبنات ليست من اللبنات المألوفة التي

تبنى منها البيوت؟ وكيف أدركوا مَوْضِعَ اللَّبِنة ؟ هذا التصوير الحسِّي في قلبه الأمر الإلهي لأن هذه اللبنات هي رسالات الرسل ونبوات الأنبياء وهي كتب الله وأن الإعجاب إنما كان إعجابًا بالعدل والبر والرحمة أو قل بالفطرة الإنسانية السامية النقيَّة التي أقام الله سبحانه النبوات عليها ، ثم أي شيء أدركوه وكان نقصًا في هذا البناء وقالوا لولا موضع اللبنة لابد أن يكون هذا الإحساس بالنقص صادرًا عن الإحساس بالصورة الأفضل التي جاء تمامها في شريعة الإسلام كضبط المواريث وضبط أحوال الأسْرة والطلاق وتعدد الزوجات ، وضبط الصلاة على الوجه الذي جاءت عليها وكذلك ضبط الصيام وضبط الحج لأن الصيام الذي في الإسلام نسخ الصيام الذي في النبوات وكذلك قُلْ في الصلاة والحج والمواريث ونظام الأسرة إلى آخره ، ولك أن تندس مع هؤلاء الطوافين وتتلمس مواطن إعجابهم وهم في دار النبوات ومواطن النقص التي استشعروها وقالوا لولا موضع اللبنة .

والشَّبَهُ ظاهر بين الدار والشريعة ، لأن الدار سكن تسْكُنُ فيه النفس وتأمن وتهدأ وتستريح وتحط فيها رحلَها المكدود ، وكذلك الشريعة هي الملاذ والمأوى والمنجا من البطش والظلم والجور والهلاك وقد امتن الله على خلقه بأنه سبحانه جعل لهم مَسْكنًا كما امتن على خلقه بأنه سبحانه جعل لهم شرعًا يئلون إليه كما يئل الحائر إلى مستقره .

وشيء آخر في هذا الحديث هداني إليه واقع العقم والجمود والتخلف الذى نحن فيه لأن هذا الواقع الذي يذبح النفوس لا أستطيع ولا يستطيع غيري أن يتجاهله ، والشيء الذي أخرجه هذا الواقع من هذا الحديث هو أن قوله عليه السلام «رأيت رجلاً يتقلب في الجنة لغصن شوك أزاحه عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين» لهذا الحديث دلالة متسعة وأهمها أن أي

عمل يعمله المسلم لخدمة هذه الجماعة التي هي أمة الشهادتين في أي أرض وفي أي زمان وفي أي جنس هي عند الله بمكان وأنا أكرر هذا الحديث كثيرًا لأن مسألة الإحساس بمصلحة الأمة يوشك أن يُنْسَى وخصوصًا أن الأصوات العالية في البلاد والتي تصل الناس هي أصوات الجهلة الأغبياء وقد سمعت واحدًا يوصف بأنه مبدع يقول ليس هناك شيء اسمه الأمة الإسلامية وهذا الصنف كثر جدًا في أيام كتابتي هذا الكتاب وهي تشبه أيام التتار والمغول والأغوات وكل أيام سوداء مرت على أرض الكنانة اجتمعت وكونت الليالي السود التي نحن فيها ،والله وحده هو الذي يعلم الذين أوقعونا في هذا البلاء، لأن الكل يتبرأ والكل منهم ، ونضرع إلى الله أن يخرج البلاد من هذا الليل الأسود وأن يعجل بعقوبته ليشفى قلوب المكلومين . اللهم آمين . وليس هذا مرادي وإنما هو اعتراض لم أستطع أن أتجاوزه المهم أن إنجاز أي عمل ولو كان زحزحة غصن شوك عن طريق المسلمين هو عند الله بمكان ولا شك أنك مثلي تعتقد أن المجتهد يضع باجتهاده لبنة في الباب الذي تخصص فيه وأنه إذا كان في النحو أو في الفقه أو في أي علم ينفع هذه الأمة من علوم الرياضيات والطب والهندسة وعلوم الصنائع من حقه أن يقول مثلي ومثل علماء هذا العلم كمثل رجل بنى دارًا فأحسنها وأكملها وزيَّنها فأخذ الناس يطوفون فيها ويعجبون ويتعجبون ويقولون لولا موضع اللبنة وأنا اللبنة وليست اللبنة التي أضعها هي خاتمة العلم ولكنها تُغْري غيري بوضع لبنة جديدة لأن النبوات ختمت بخاتم المرسلين والعلوم لم ولن تختم لأنها ستظل قائمة مفتوحة حتى تقوم الساعة وفي يد أهل العلم فسائل وسيدنا رسول الله يقول لهم « إذا قامت الساعة وفي يد أحد فسيلة فإن استطاع أن لا يموت حتى يزرعها فليزرعها » وهذه الفسائل هي اللبنات التي يصنعها

أهل العلم تاسيًا بلبنات الأنبياء لأن العلماء الصادقين المخلصين المحتسبين هم الطبقة التي تلي الأنبياء لأنهم هم ورثة الأنبياء والوارث للنبوة هو العالم الذي يقدِّم بعلمه ما ينفع الأمة ويستوي في ذلك علماء العلوم كلها التي من شأنها أن تتقدم بها الأمة وأجيالها خطوة إلى الأمام ومن الأفكار الضارة أننا قصرنا هذا على علماء الشريعة فاستشعر علماء العلوم الأخرى أنهم ليسوا من هذه الطبقة وضاع بذلك خير كثير وهو الذي أُريدُ التنبيه إليه وخلاصته أن كل عالم في أي فرع من فروع العلم يضع بين عينيه صورة الرجل الذي يتقلب في الجنة لأنه أزاح غصن شوك عن طريق المسلمين ثم يصر من خلال علمه أن يعمل شيئًا لهذه الأمة ما دام العمل لها عند الله بهذا المكان ثم يبدأ وهو ممتلئ بهذا المعنى الاجتهاد الذي يبذل فيه أقصى جهده في العلم الذي تخصص فيه حتى يكون عقله وفكره وسَهَرُه واجتهاده وانقطاعه لبنة من لبنات هذا العلم لخدمة هذه الأمة ويقول لربه أنت وحدك الذي تعلم ما تكن الصدور فإذا علمت مني رغبة صادقة في أن أعمل شيئًا نافعًا لأمة سيد المرسلين فأعني ولا تَخْذُلْنِي واهدني لأنه إذا لم يكن منك عون فأول ما يجني عليّ اجتهادي أقول يكون هذا شأن كل علمائها الذين هم الآن أساتذة جامعاتها وهم آلاف مؤلفة وهذه الحقيقة غائبة عنهم لأنهم صاروا نهبًا لضلالات العصر فمنهم الشيوعي ومنهم الماركسي ومنهم ومنهم ، أقول لو تغيَّر هذا وخرج منهم من ارتكس وخرج عنهم وحسبنا أن يكون نصفهم أو أقل من النصف وهم يعيشون بهذا المعنى ويعيشون لهذا المعنى وكل منهم يستن بسنة خير الناس ويقول وأنا اللبنة لو حَدَثَ هذا لم تمر خمس سنوات إلا والحال قد تغيّر وغابت خفافيش الظلام وأشرقت أرض المسلمين بنور ربها .

وقل مثل ذلك في كل معلم ابتداء من السنة الأولى الابتدائية إذا عقدوا العزم على أن يخرجوا للأمة أجيالاً تحطم عقبات التخلف وعاشوا بهذا المعنى وعاشوا له سيجدون لذة في عملهم وستكون المدرسة رباطًا وهم مرابطون وسيتغير كل شيء لأن النفوس إذا تغيّرت غير الله ما بالقوم والذي بنا هو التخلف وهو شر الشرّ وجحيم هذه الحياة الدنيا ، وقل مثل ذلك في العامل الذي أمام المكنة والذي تسكن فيه الرغبة في أن يقدم منتوجًا أفضل والزارع الذي في المزرعة والذي يُصرّ على أن يستخرج من الأرض أفضل أقواتها والطبيب في عيادته والمهندس في منشأته والباحث في معمله والعالم المفكر في مكتبته والذي يصبر على فك طلاسم التخلف الذي نحن فيه كل ذلك تتغير به الأحوال في أقصر وقت وكل ذلك مقتبس من ضوء « وأنا اللبنة » وكل ذلك ليس بعيدًا وليس محتاجًا إلى شيء أكثر من أن يسكن في النفوس مَعْنَى الإباء ورفض التخلف وحُبّ الأوطان بل هو الفطرة لأننا جميعًا نكره التخلف الذي نحن فيه ونحب أمتنا ونحب أوطاننا ولكن غياب ثقافة إزالة غصن شوك عن الطريق وثقافة وأنا اللبنة ومن رفع علم الحق تبعه أهل الحق .

روى مسلم بسنده عن أبي بردة عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « إنَّ مَثَلِي ومَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ به كمثِلِ رُجُلٍ أتَى قَوْمَهُ فقال يا قوم إني رأيت الجَيْشَ بعينيَّ وإني أنا النذيرُ العُريَان فالنجاءَ فأطاعه طائفة من قَوْمه فأدْلَجُوا فانطَلَقُوا على مُهلتهم ، وكذَّبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبّحهم الجَيْشُ فأهْلَكَهُم واجْتَاحهم . فذلك مَثَل من أطاعنِي واتّبع ما جئتُ به ومَثَلُ من عَصَانِي وكذّب ما جئتُ به من الحقِّ» .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إنما مَثَلِي وَمَثَلُ أُمتي كمثل رَجُل استَوْقَد نارًا فجعلَتْ الدوابُّ والفَراشُ يَقَعْنَ فيه فأنا آخذ بحُجَزِكُمْ وأنتم تقحَّمون فيه » .

وعنه أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « مَثَلِي كمَثَل رَجُل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حَوْلَها جعَلَ الفَراشُ وهذه الدوابُّ التي في النار يَقَعْنَ فيها ، وجعل يَحْجُزهُنَّ ويغلِبْنَه فيتقحَّمْن فيها فذلكم مثلي ومثلكم أنا آخذٌ بحجزكم عن النار هَلُمَّ عن النار فتغلبوني تقحمون فيها » .

وعن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلِي ومثَلَكُم كمثل رجل أوْقَدَ نارًا فجعل الجنادبُ والفَراشُ يَقَعْنَ فيها وهو يَذُبُّهنَّ عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تَفلَّتُون من يدي » .

الحديث الأول له صورة مختلفة وله تكوين مختلف وله مذاق ومنزع وسَمْت وهو مختلف في كل ذلك عن الأحاديث الثلاثة التي بعده لأنها تتفق في أصل البناء ثم ترى الثاني منها كأنه يتمُّ للذي قبله فالذي قبله رجل استوقد نارًا فأخذت الفراش والدوابُّ ثم يظهر سيدنا رسول الله ويقول وأنا آخذ بحجزكم وهذا يعني أنه عليه السلام هو الرجل الذي استوقد نارًا والحديث الذي بعده فيه إضافات ملحقة بأصول ذكرها في الحديث الذي قبله فأضاف إلى قوله كَمَثَل رجل استوقد نارًا قوله فلما أضاءت ما حوله . وأضاف إلى قوله (يقعن فيها) قوله « وجعل يحجزهن ويغلبنه».

والحديث الرابع الأخير يوشك أن يكون هو الحديث الثاني مع اختلاف في بعض الألفاظ .

قوله عليه السلام في الحديث الأول : « إن مثلي ومَثلُ ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه » هذه الجملة تعني أن الحديث منصرف إلى بيان مثله عليه السلام ومثل رسالته التي بَعَثَه الله بها . وقوله عليه السلام « كمثل رجل أتى قومه » أدخل القوم في المثل مع أن المثل مضروب له وللذي بعثه الله به كما هو دلالة الجملة الأولى ، وهذا يعني أن المثل مضروب له عليه السلام وللذي بعثه الله به وللقوم الذين بُعث لهم ، وأن الحديث في الرسالة منظور إليه من زاوية مَوْقفهم منها وهذا بخلاف حديث « مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم » لأنه منصرف إلى الرسالة وأن هذه الرسالة تصادف قلوبًا نقيَّة كالأرض الطيبة فيكون منها كذا وتصادف نفوسًا أخرى إلى آخر الحديث . وهذه مسالك في بيان الأمثال ، نجد ذكر الرسالة مرة لبيان من يَقْبلها ومن يَرْفُضُها كما هو في هذا الحديث ، ونجد ذكر الرسالة مرة لبيان ما تثيره في نفوس الذين يتلقَّوْنها وأن منهم المجتهد الذي يستخرج منها ويستنبط ويضيف إلى عطائها الفكري عطاء منها لم تفطن إليه إلا عقول الخاصة ، من أهل العلم ، ثم يأتي غيرهم فيستخرجون ويأتي غيرهم فيستخرجون وهي أرض طيبة أصابها غيث فيخرج منها كل حين ولم تتوقف الأرض الطيبة عن العطاء ما دام يُغيثها هذا الغيث الذي هو مثال ما بعثه الله به ولا يتوقف الاستخراج إلا إذا كانت الأرض زحف نحوها الجَدْب ولم يُخْصِبْها صاحبُها بالتحصيل والنظر والتدبر ، وإذا كان عليه السلام في بناء النبوات لبنة فإن رسالته حين تصادف القلوب الحيَّة تضع هي بهم لبنات يتسع بها عطاء هذه الرسالة ويتجدَّد بتجدد الأحوال والأزمان ، وكأن فكرة اللبنة تنتقل من دار النبوات إلى هؤلاء الورثة المجتهدين الكرام الذين يَبْنُون بُنيانًا بعد بنيان . وكل متقطع منهم لبنة يتطاول بها البناء ويتَّسع .

وخَطُّ سَيْر المثل هنا ليس هو هذا الخط وإنما هو بيان شديد الوضوح لشُغْله الشاغل عليه السلام بقَوْمه الذي أرسل إليهم ، وإذا كان قد أرسل إلى الناس كافة فقومه هم ولد آدم من يوم أن بُعِث إلى يوم أن يُنْفَخَ في الصور ، قوله عليه السلام « كمثل رجل أتى قومه فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعينيّ وأنا النذير العريان » هذه الجملة هي قلب المثل ولبُّه ولاحظ التوكيد الذي بُنِيَتْ عليه الجملة الأمّ ، ولم تؤكد جملة في الحديث كما أكدتْ نعم التوكيد في الجملة قبلها (إن مثلي ومثل ما بعثني الله) توكيد يُضْفِي على هذا المثل قدرًا من العناية ، وقد جاء مِثْلُه من غير توكيد كقوله عليه السلام مثلي كمثل رجل ، وفرق بين أن يقول عليه السلام إن مثلي وأن يقول مَثَلِي ، التوكيد يدل على عناية أكثر واهتمام أكثر ، وهذا في الجملة التي هي مَدْخَل المثل ، أما الجملة التي معنا والتي هي الأُم ففيها نداء من بعث إليهم بقوله « يا قومي » وهذا اقتراب شديد منهم وأنهم قَوْمُه الذين يَقُومون له ويقوم لهم، واحذر أن تظن أن هؤلاء هم العرب والواجب أن تستيقن أن كل من يدعوهم إلى الله هم قَوْمُه وهم الناس كافّة كما قلت ، واعلم أنك من الذين ناداهم رسول الله في هذا الحديث وقال « يا قومي » واعلم أنك من الذين يأخذ بحجزهم وأنك حين تجترح السيئات فأنت تتقحم النار ، وأنا أذكّر بهذا لأنه مما لا يخالِفُ فيه مخالف ، وراجع الفاء التي في قوله فقال يا قومي وأنها مترتبة بلا مهلة على قوله « أتى قومه » ثم راجع التوكيد والمجاز في قوله إني رأيت الجيش بعينَيَّ ، وهذا مثل والمقصود بالجيش الذي سيجتاح من كذّب هو الوعيد والتهديد والإنذار ، ثم إنه قال بعينيَّ والرؤية لا تكون إلا بالعين وأنه عليه السلام أضاف هذا الجار والمجرور لتأكيد أنه رأى الجيش وأن ما خاطبه الله به في عذاب المكذبين يراه عليه السلام حقيقة لا يقرها

العقل فقط وإنما أيضًا يراها عليه السلام بعينَيْه ، ثم قوله « وإني أنا النذير العريان» ولم يكتف بأن يقول وأنا النذير العريان ويدخل هذه الجملة في حيِّز التوكيد الذي في الجملة قبلها وإنما أعاد معها التوكيد ثم لم يكتف بأن يقول وإني النذير العريان وإنما أكد ضمير المتكلم في قوله إني بالضمير المنفصل في قوله « أنا » وفرق بين أن تقول إني فلان وأن تقول إني أنا فلان ، وكأنه عليه السلام لم يَشَأْ أن يُسْنِدَ إلى نفسه النذير العريان إلا بعد أن يؤكد الضمير المتصل بالضمير المنفصل ، حتى يقع الإسناد الذي هو الخبر على المسند إليه المؤكد وهو عليه السلام نبي الله ورسوله المبلِّغ أمره ونهيه إلى خَلْقه ، وإنما أطلق على نفسه كلمة (النذير العريان) لأنه لا يشك شاك في خبر النذير العريان ، ولا يُهْمِل ما جاء به إلا صَاحِبُ عَمَاية وعَمَه ، ومن يُورِدُ نفسه موارد الهلاك وهو مفتوح العينين وقالوا النذير العريان أصْلُه أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار إليهم إذا كان بعيدًا عنهم ليُخْبرهم بما دَهَمهم ، وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم وهو طَلِيعتُهم ورَقيبُهمْ قالوا إنما يفعل ذلك لأنه أبْيَن للناظر وأغرب وأشنع منظرًا فهو أبلغ في اسْتحثاثهم في التأهُّب للعدو ، وقيل معناه أنا النذير الذي أدركني جيش العدو فأخذ ثيابي فأنا أنذركم عريانا . انتهى كلام النووي .

وعلاقة كلام سيدنا رسول الله بالكتاب الذي أنزله الله على قلبه أراها تظهر وتخفى ، فإذا خَفِيَتْ ولحظتها من بعيد تُلحُّ على نفسي أن أُشير إليها وتقول لي لو احتملت الخطأ مرَّات فلعلها تحتمل الصواب مرة أو لعلها تُنَبه من يستطيع أن يجد لها منزعا في الكتاب غير الذي وَجَدْت ، قلت هذا لأن كلمة (النذير) في قوله عليه السلام « وإني أنا النذير » تستدعي في نفسي كلمة

النذير التي في سورة فاطر وخصوصًا أن النذير هنا نذير بالهلاك والاستئصال والنذير في فاطر جاءت وهم يصطرخون في النار وهم المكذبون في الحديث قال سبحانه : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ (فاطر:٣٦،٣٧) .

وقوله عليه السلام « وإني أنا النذير العريان » هو النذير الذي جاءهم وقد عَمَّرهُم الله بعد أن جاءهم النذير عمرًا يتذكر فيه من يتذكر فكذبوا ، وهذه الطائفة التي كذبت في الحديث الشريف هم الذين يصطرخون فيها وهذا ظاهر عندي ثم إن رسول الله ﷺ ضرب النذير العريان مثلا لنفسه وضرب الجيش الذي أهلك واجتاح واستأصل مثلاً لعذاب الله لمن كفر وعاند وكذّب ، ولا ريب أن رسول الله ﷺ أصدق ألف مرة من النذير العريان لأن النذير يخبر بخبر وهو صادق وسيدنا رسول الله يخبر الخبر وهو مُسْتَيْقن وفرق بين الصدق واليقين فضلاً عن حق اليقين ثم إن الجيش مهما كان هلاكه للمقاتلة وسبيه للنساء والأطفال وهذا أسوأ ما ابْتلى الله به العرب وغير العرب إلا أنه أقل كثيرًا من الذين لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ، وهذا أيضًا ظاهرًا جدًا وهذا يعني أن وجه الشبه في المثل المضروب أقل كثيرًا من الذي ضرب له المثل والأجرى في الكلام أن يلحق الناقص في وجه الشبه بالذي هو فيه أكمل ، وهذا الاعتراض لا يحتاج إلى أن يدفع أولاً لأن العرب لم يكن عندهم أصدق من النذير العريان فجاء المثل على ما هو عندهم مثل في بابه ولم يكن عندهم أنكى ولا أبشع ولا أفجع من جيش

يُغير على غِرّة ، فجاء المثل على الذي هو عندهم مَثَل « في بابه ولم يكن إلحاق الناقص بالكامل هو كل المقصود في التشبيهات والأمثال ، وقد أبان أبو تمام عن هذا المعنى في قوله :

لا تنكروا ضربي له من دونه مَثلا شرودا في النّدَى والباسِ
فالله قد ضرب الأقل لنوره مَثلاً مثلا من المشكاة والنبراسِ

وقوله عليه السلام (فالنجاء) هي سر الجملة التي هي سِرُّ الحديث وأعني قوله ﷺ « يا قومي إني رأيت الجيش بعينيّ وإنيّ أنا النذير العريان » لأن هذه الجملة هي جذر الحديث الشريف وكلمة فالنجاء هي جذر هذا الجذر فلم يكن المقصود من الإنذار والوعيد والتهديد والجيش والنذير العريان إلا النجاء ولا يزال صوتُ رسول الله ﷺ يصافح قلوب أُمّته بحُبّ ورِفقٍ ووُدّ ويقول لهم النجاء النجاء ، والفاء التي في قوله « فالنجاء » كالفاء التي في قوله « أتى قومه فقال » يعني ترتّب ما بعدها الذي هو النجاء على ما قبلها من الإنذار الصادر عن يقين بأهوال لا طاقة لأحد بتصوّرها فضلاً عن أن يعيش فيها وحسبك أن تتصور ظُلَلَ النار التي من فوقهم ومن تحتهم ، وهُمومُ النُّفوسِ تكسِبُ الكلمات معاني تجدها نفس ولا تجدها أخرى لاختلاف هَمِّ كل نفس ، قلت هذا لأني أجد معنى آخر لكلمة « النجاء » وسيدنا رسول الله ﷺ يرسلها فينا وقد أخبرنا ربنا عَنْه أنه عليه السلام عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، هذا الموصوف بكل هذا الحب لنا والرِّفْق بنا والحرص علينا والرأفة بنا والرحمة بنا حين يرسل فينا كلمة النجاء فإنها لا تعني فقط النجاء من ظُلَل النار في الآخرة وإنما تَعْنِي أيضًا النجاء من ظلل النار في الدنيا وخصوصًا أن صُورة المثل هي جيش يداهم قوْمه في الدنيا وهو رآه بعينه ويناديهم النجاء يعني ارتحلوا ،

من الضعف إلى القوة ومن الحاجة إلى السداد ومن الفقر إلى الغنى ومن الجهل إلى العلم ومن التخلف إلى التقدم ومن وثنية عبادة الناس إلى وحدانية واحدة لا تقبل الشركة ، وهي أن تختاروا من يحكمونكم وأن تحاسبوهم ، ارتحلوا من واقع صار الحاكم فيه وَثَنًا وطاغوتًا إلى مُسْتَقبل يصير فيه خادمًا لكم بأمركم ونهيكم ، كلمة النجاء هنا تقول وهي في صحبة الجيش المغير احذروا الهزيمة لأنها في الدنيا تساوي جحيم جهنَّم في الآخرة وتعرفوا على وسائل النصر والقوةِ وتشبثوا بها ، لأنه لا منجاة لكم إلا بها أقول كلمة النجاء في صوت سيد ولد آدم لها رنين في أذني التي لم تسمعها إلا رواية وخبرًا ، فكيف بمن سمعوها غضَّة من لسانه الشريف فأنفذوا كل ما قلت .

قوله عليه السلام « فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مَهْلِتهم» راجع الفاء في قوله فأطاعه .. فأدلجوا .. فانطلقوا .. وكيف تتابعت الأحداث التي دخلت عليها هذه الفاءات وكيف نَسَقْتها هذه الفاءات في نسق متلاحق يعني أنهم سمعوا قوله إني رأيت الجيش بعيني وأنا النذير العريان فأطاعوه ولم يَطْلُبُوا منه برهانا لأن برهان صدقه كان في كلامه وفي وَجْهه وفي تاريخه الذي يعرفون ، وكلمة فأطاعوا ليست ككلمة فآمنوا لأنها تعني الانقياد والفعل والاستجابة ولا يكون شيء من ذلك إلا بإيمان ، وقوله عليه السلام (طائفة) وهي مؤنث لفظي وكان من الممكن أن يقول فأطاعته طائفة كما قال وكذبت طائفة إلا أنه آثر التذكير مع أن أطاع لأن التذكير فيه معنى الرُّشْد وكمال العقل وكمال المسؤولية وكمال القَوَامة وهؤلاء هم الحكماء وهم الكرماء وهم العُقَلاء الذين لا تلعب بهم الأهواء والعواطف ، وأذكر قول الزمخشري في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي ﴾

قال الزمخشري لم يقل هذه ربي إبعادًا وتنزيهًا للرب عن شبهة التأنيث لأن في التأنيث ضعفًا ورخاوة ، وهذه حقائق الفطرة التي لا تُبَدِّلُها الثرثرة حول حقوق المرأة ، نعم للمرأة حقوق ولكنها يجب أن تكون في سياق الفطرة لأن الخروج عن الفطرة فسوق ، والتنكير في (طائفة) يعني نِعْم طائفة أطاعت وهم الأخيار وهم الأبرار وهم المهاجرون والأنصار ، وأهل السابقة من الأصحاب الأخيار رضوان الله عليهم وكلمة (فأَدْلَجُوا) تفسير للطاعة أو ترتيب عليها ، قال النووي (فأدلجوا) بإسكان الدال ساروا من أول الليل يقال أدلجت بإسكان الدال إدلاجًا كأكرمت إكرامًا والاسم الدلجة بفتح الدال . فإن خرجت من آخر الليل قلت دلَّجت بتشديد اللام إدلاجًا بالتشديد أيضًا والاسم الدلجة بضم الدال قال ابن قتيبة وغيرهم ومنهم من يجيز الوجهين في كل واحد منهما ، انتهى كلام النووي .

قلت إن قوله عليه السلام (إني رأيت الجيش بعيني وأني أنا النذير العريان فالنجاء) هو قَلْبُ وجِذْر هذا الحديث وقوله عليه السلام « فأطاعه طائفة » هو تفريع وبيان أحوال القوم بعد هذا الأصل الذي بيَّنه عليه السلام ، وقلت إن الطاعة لا تكون إلا بعد الصدق ولو قال عليه السلام فصدقته طائفة كما قال وكذبت طائفة وقابل التكذيب بالتصديق لاحتاج الكلام إلى شيء آخر يدل على الانقياد بالتصديق ، لأن التصديق لا يوجب العمل فقد يصدق المصدق ولا يَنْقَادُ فكانت كلمة الطاعة هنا أشدَّ وأرْشَدَ ، ثم إنها تكشف سترًا من أستار المثل فيظهر وراءه المضروب له المثل صلوات الله وسلامه عليه وهو أنه رسول يُطَاع وليس مُخْبرًا يصدَّق فحسب .

ولا شك أن كل نبي نذير عريان ، وأن كل داعية صادق مخلص نذير عريان وأن كل معلم صادق مخلص نذير عريان ، وأن كل من يواجه الفساد

الذي هو أبشع من جيش مُغير اغتصب شِقًا من أرْضِنا نذير عريان ولو تحولنا جميعًا إلى أن يكون كل واحد مِنَّا نذيرًا عريانًا يواجه الفساد في الشق الذي هو فيه ويعمل بجد لارتحال من حوله من الفساد إلى الإصلاح والهجرة من التخلف إلى التقدم لو فعلنا ذلك عامًا واحد لرأينا آثارًا تغرينا بأن نعيش على أرضنا ما نعيش وكل واحد فينا نذير عريان ، وإذا لم يكن هذا من الممكن فالذي نرجوه من ربنا أن يبعث فينا كريمًا صادقًا مستجاب النداء يقول فينا إنه نذير عريان وكما جرى قضاؤه سبحانه أن يظهر فينا أحفاد مسيلمة الكذاب ويقولون فينا إنهم المهدي المنتظر ، والنذير العريان وحولهم طلاب المغانم لا تزال باقية من النابحين حول كذاب اليمامة تنبح حول كذبة الكنانة ، إذا كان قد جرى قضاؤه أن يظهر فينا هؤلاء فنرجو من واسع رحمته أن يظهر فينا صادق مصدوق ويقول إنه نذير عريان وأن يَبْعث سبحانه في كل شعب من شعوبنا الإسلامية والعربية نذيرًا عريانًا ، وأعود بعد بيان ما آثاره كلام سيد الناس في نفسي إلى بيان قوله « فأدلجوا » أو فأدَّلجوا بالتشديد يعني خرجوا أول الليل أو آخره يعني أن من صدَّق دخل في غمرة الصدق وهو الطاعة ومن دخل في الطاعة سلك طريقه إلى العمل ، والسلوك إن كان أول الليل أوكان آخر الليل المهم أن هذه الثلاثيّة الكريمة في حياة الناس وهي التصديق والطاعة والسلوك يجب أن تكون مُنْتَظِمة انتظامًا لا ينفصم ثانٍ منها عن أوّل لأن التصديق الذي لا تعقبه طاعة تصديق مُعَطَّل ، والطاعة التي لا تكون سلوكًا هي طاعة نظرية لا تقدّمَ ولا تُؤخر .

وأفهم من هذا السطر « فأطاع طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا » أنها تقول لي ولك إذا عَرَفْتَ الحقّ فسارع إلى الطاعة والحركة السريعة في أول

الليل وآخره المفهوم كلمة (فأدلجوا) وانطلق مع من معك فمن عرفوا الحق وسارعوا في نصرته ودفع الباطل وحزبه حتى تتكون منكم العصبة التي لا تزال قائمة على الحق تحميه حتى يأتي يوم القيامة .

وأفهم من كلمة (فأدلجوا) أنهم ارتحلوا عما كانوا عليه من وَثَنِيَّة وجَهْل وضَلال وباطل إلى التوحيد الذي هو دين الفطرة ، وإلى الحق الذي هو سبيل النصر والعلم والعدل والبر ، وباختصار الإدلاج يعني الخروج من الظلمات إلى النور ولا يزال معنى الإدلاج قائمًا فينا وهو ارتحال من الجهل والتخلف إلى العلم والتقدم ، يعني أن نَنْتَزِعَ أنفسنا من حياة ملوَّثة بالكذب والقمع والسَّلْب والنهب إلى حياة نقية فيها البِرّ والعدل والقِسطاس المستقيم ، وكنا نسمع من بعض أهل العلم في توصيف حالنا ، «نِمْنَا وأُدْلَجَ الناس» والواجب الآن أن ندلج وأن نسبق الناس هذا أو الطوفان . ومن الجيد البالغ أن رسول الله ﷺ قال « فأدلجوا » وما كان يمكن أن يقول فاغْتَدَوا أي ساروا غدوة لأن المراد أنه جاءهم النذير صلوات الله وسلامه عليه وهم في ليل مظلم فتحركوا ليخرجوا من هذا الليل ، وكلمة فأدلجوا هنا تشبه كلمة الليل في قوله عليه السلام « ليدخلنّ هذا الدين ما دخل عليه الليل » أي ظلمات الجهل والباطل والتخلف وما كان يمكن أن يقول ليدخلن هذا الدين ما دخل عليه النهار .

قوله عليه السلام « فأدلجوا فانطلقوا على مُهْلتهم » المهلة بضم الميم وسكون الهاء وفي رواية « على مهلهم » بفتح الميم والهاء وهذا كلام دقيق جدًّا لأن الإدلاج يناسبه الانطلاق وأن هذا يؤكد انصرافهم إلى الحق الذي أطاعوه بشدَّة رَغْبة ووفرة نشاط ، وهذه الحركة السريعة المنبعثة من قوة الرغبة ووفرة النشاط تضبط حركتها وتكُفّ من غربها كلمة (على مهلتهم أو على مهلهم) فهو انطلاق متمهّل فيه رويّة ، وفيه أناة ولا تجد أفضل في

وصف العمل من الانطلاق المتمهل ووفرة النشاط المدروسة لأن الانطلاق الذي ليس على مُهْلة قد يشتط ويسيء من حيث يُتوهم أنه يُحسن ، وقد يُفسد من حيث يُظن أنه يُصلح والتمهُّل الذي لا تَدْفَعُه قوة الرغبة ووفرة النشاط قد يؤدي إلى الاسترخاء والترهل ، وهكذا تجد الكلمات محسوبة بحساب دقيق لأنه عليه السلام يُبلِّغُ دينا والدين عقيدة وشريعة وسلوك ، فإذا لم يكن البلاغ غاية في الدِّقة اضطرب علينا أمر اليقين وأمر السلوك ، ولم يكن من هذا شيء لدقة بلاغه عليه السلام ودقة لغته ودقة بلاغته ولا تزال الأُمَّة على المحجَّة البيضاء ليلها كنهارها وهي اليوم وغدًا وإلى أن تقوم الساعة كيوم كان فيها صلوات الله وسلامه عليه ، وأعجب جدًّا من أن يكون هذا الضبط الرائع عفو الخاطر ، وعفو البديهة وليس ثمرة مراجعة ورويّة ، ويذهب العجب حين أذكر أنه توفيق الله الذي لا يزال يصيب كثيرًا من علماء الأمة الذين لهم نصيب من ميراث النبوة .

قوله عليه السلام « وكذّبت طائفة فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم » هذه هي الطائفة المقابلة للطائفة الأخرى ووضع الطائفتين في هذه المقابلة مما يزيد بيان الحقيقة التي عليها كل طائفة . الذين يستمعون إلى الصدق ويصدقون به ويتجهون إليه ويسلكون سبيله والطائفة التي تكذّب بالصدق إذ جاءها ، وقد وصفهم ربنا بأنهم الأظلم لأنه ليس أسوأ في هذه الأرض من الكذب وليس أضرّ بالشعوب من الكذب وليس أضر بالبلاد من الكذابين ومن حولهم من خدم الكذابين ، وبئس الذي يختار أن يكون خادمًا لكذاب ، وقد مدح ربنا الذين يصدقون بالصدق والذين يجيئون بالصدق ويشير إليهم بأنهم المتقون الذين يتقون الخسائس التي يعيشها من كذب على الله وكذّب بالصدق ، والعجيب أن هذين الفريقين لا يزالان بيننا ولا يزال يَحْدُث بهم التدافع في هذه الأرض ولا يزال

يميِّز بينهم الناس ، ثم الأولون الذين أطاعوا وهم أهل غرف الجنة والذين كذبوا وهم وقود النار والعجيب أنك حين تكون مع الصادقين المخلصين كأنك تستروح ريح الجنة ، وحين تكون مع الكذابين كأنك تجد لفح الجحيم في معيّتهم ، قلت إن النذير العريان صلوات الله وسلامه عليه لا يزال فينا ولا يزال فينا الطائفة التي أطاعت فأدلجت فانطلقت على مَهْلِها ، ولا تزال فينا الطائفة التي كذّبت ، وقد أملى الله لها وجيش النذير هو ظُلَل النار .

قوله عليه السلام : «وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحَهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم» أنـّث فعل كذب مراعاة للفظ طائفة وفيه إشارة إلى نقص وعيهم بما جاء به النذير العريان ، وهذا النقص الذي أقوله مفهوم من قول شيوخ العربية إن التأنيث فيه لين ورخاوة . وهذا يعني أن عقولهم لم تقدْحَ ما سمعت قدح العقلاء الحكماء للخبر ، ثم إن هذا الفعل جاء من غير مفعول ولم يقل عليه السلام وكذبته طائفة كما قال فأطاعه طائفة وذلك ليتوفرً الخبر على إسناد الفعل للفاعل ولا يشغل الخبر بمفعول يقع عليه الفعل ويكون هذا إذا كان المراد أن هذا الفعل الذي هو التكذيب من شأن هذا الفاعل وخلقا من خلقه كما تقول فلان يعطي ويمنع من غير ذكر مفعول حتى يتوفر الخبر على بيان أن من شأنه العطاء والمنع ولو قلت يعطي القليل أو الكثير لذهب هذا المعنى ، والمراد هنا أنه لم يكذب النذير العريان إلا من كان التكذيب من شأنه ، ومن طبعه ، وهذا جيد بالغ .

وقوله عليه السلام «فأصبحوا مكانهم» مفهوم من قوله كذبت لأن الطائفة التي أطاعت أدْلَجَت وهذا يفهم منه أن الطائفة التي كذبت بقيت وأصبحت ، وإنما قال عليه السلام فأصبحوا ليشير إلى أنهم كانت لديهم فسحة من الوقت ليتذكر فيه من يتذكر وقوله عليه السلام : «فصبحهم الجيش» تفيد الفاء كما قلت الترتيب بلا مهلة يعني ما إن أصبحوا حتى صبحهم الجيش والمراد أنه

أغار عليهم واجتاحهم وقت الصباح وهذا وقت الغارة ، ولا شك أنك تجد سهولة وعذوبة في تجاور الكلمتين فأصبحوا فصبحهم وهذا وإن كان مما لا يجوز إهماله في درس البيان إلا أن هنا شيئًا آخر هو لماذا كانت الغارة عليهم في الصباح ، ولا يكفي أن يقال إن هذا وقت الغارة . ولا أرى لذلك وجهًا وإن كان السؤال مشروعًا وكل الذي عندي هو أن الصباح ضياء تذهب معه الظلمة وإذا كانت الظلمة تعني الجهل والباطل والعَمَه فإن ذهابها يومئ إلى إمكانية التعقل والتدبر والمراجعة ، وأن هذه الطائفة التي الشأن فيها التكذيب قد رأت نور الحقيقة وضياء الحجة في الذي سمعت من النذير العريان ولكن طبع التكذيب أغراها بأن تجحد الحق ما انكشفت عنه ظلمة الضلال ولم ترجع إليه ، وأنا من الذين يتبادر إليهم ظلمة الضلالة مع الليل إذا يغشى وضياء البصيرة مع النهار إذا تجلى لأن الكتاب العزيز علمني الربط بين الجهل والضلالة من جهة والظلمة من جهة أخرى وأنه كتاب أنزل ليخرج الناس من الظلمات إلى النور يعني من الكفر إلى الإيمان ومن الضلالة إلى الهدى ومن الظلم إلى العدل ومن الجهل إلى العلم ومن العجز إلى القوة ومن التخلف إلى التقدم .

وقوله عليه السلام «فأهلكهم واجتاحهم» الفاء التي في قوله فأهلكهم تعني ما تعنيه الفاء التي في قوله فصبحهم وهذه الفاءات روابط تتواصل بها المعاني ولها في الكلام العالي شأن أي شأن وتمسُّ الحاجة في علم تذوق البيان إلى الوقوف عندها ، وهي هنا تعني المبادرة بالهلاك والاستئصال ، والرجوع إلى المعنى المضروب له المثل تعني بالهلاك الهلاك في الجحيم وإن أملي لهم في الدنيا ، وقال العلماء إن الاجتياح معناه الاستئصال ، وقد ترى أن الاجتياح يعني الغارة الشاملة التي تطوقهم وتحيط بهم وكأن الأصل أن تكون سابقة لأهلكهم لأن الهلاك نتيجة الاجتياح وإنما قدمها عليه السلام

للمبادرة ببيان أن تكذيب الحق والصدق تؤذن بالهلاك ومفض إليه ومسارع في اجتلابه ، وفيه شيء من مثل قوله تعالى ﴿ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا ﴾ ، والإهـلاك يكـون بعـد مجيء البـأس ولا يذهب بهذا المعنى قول المفسرين إن المراد بأهلكناها أردنا إهلاكها لأن لفظ الآية ليس أردنا وإنما أهلكنا . هذا والله أعلم .

قوله عليه السلام «فذلك مثلُ من أطاعني واتَّبع ما جئت به ومثلُ من عصاني وكذّب ما جئت به من الحق» اسم الإشارة في قوله «فذلك» راجع إلى الحديث من أوله والفاء لترتيب ما بعدها على الحديث من أوله ، وإن كان يبدو في الظاهر أنه راجع إلى قوله عليه السلام فأطاعه طائـفـة مـن قومه .... وكذبت طائفة لأن الطاعة في قوله فأطاعه طائفة من قومه راجعة إلى ما جاء به وهو النذير في قوله وأنا النذير العريان ، فالطاعة والتكذيب يستدعيان الحديث من أوله . وقوله عليه السلام «من أطاعني واتبع ما جئت به راجع إلى قوله «فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مُهلتهم» وأن هذا الإدلاج وهذا الانطلاق على المهل هو المراد بقوله عليه السلام ، واتبع ما جئت به ، وهذا يدعونا إلى إعادة مراجعة هذه الكلمات الثلاث التي هي فأدلجوا فانطلقوا على مهلتهم لأن هذا وصف لاتباعه عليه السلام وأن الإدلاج الذي هو خروج من الظلمة شأن من شؤون المتبعين لسنته عليه السلام هم قوم مرتحلون من الجهل إلى العلم من كل ما يشبه الظلمة في حياة البشر إلى كل ما هو نور وضياء ، هم أهل هجرة دائمة مهاجرون إلى الأفضل والأنور وهذا هو شأن مَنْ شأنُهم الإدلاج لا يألف السكون فـي الظلمة ، فإذا كان الجور والعسف والفساد والتخلف ظلمة لا تراهم

يتعايشون معها وإنما هم ساعون إلى الحق والعدل والبر والصلاح والتقدم ، وكلمة الإدلاج في وصف أتباعه عليه السلام تفتح أبوابًا من المعاني لا حدود لها ومن وراء هذا الإدلاج الذي لا يَقَرُّ الذين هو شأنهم على شيء يعارض الحياة الأكرم والأفضل وفرة النشاط وصدق وحزم وعزم تشير إليها كلمة (فانطلقوا) ومن وراء هذا الانطلاق عقول تفكر وتخطط على روية وأناة ، وكما ينهضون إلى الصلاة والزكاة والحج ينهضون إلى مجالس العلم التي تحفهم فيها الملائكة وينهضون إلى المزارع والمصانع نهوضًا مصحوبًا بالنيات الطيبة التي تحول المبيحات إلى قربات،وترى عين الله ترعى عُمَّالهم المكدودين في مصانعهم ما داموا يريدون أن يزيلوا أغصان الشوك من طريق الأمة وما داموا يريدون أن يوفروا لها وسائل العيش الناعمة وأن يسدوا حاجاتها وآلات سلمها وحرمها حتى تكون الأمة ممنوعة على عدوها ومانعة لأرضها وعرضها . هؤلاء هم المتبعون المدلجون المنطلقون على مُهلتهم ، والذين يُسَبّحون وهم مكدودون في مصانعهم ومعاملهم وأبحاثهم لا فرق بين العالم في معمله والعامل في مصنعه عينُ الله تَرْعَى وعَوْنُ الله يُعين والرغبة في إعلاء شأن الأمة ودينها تحدو قافلة المدلجين ، هذا شيء مما أراه في وصفه عليه السلام لأتباعه ، وألاحظ شيئًا في وصف المكذبين أولا أنهم تشبثُوا وتحجَّروا وظلوا على موقف الباطل واستوى عندهم الظلام والضياء فَصُبحُهم كلَيْلِهم وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ومرجع ذلك في كلامه عليه السلام أنه لما قال وكذبت طائفة وجاء بالفعل المتعدي لازمًا ليشير إلى أن التكذيب من شأنهم جاء بفعل التكذيب بعد قليل متعديًا في قوله عليه السلام « وكذبت ما جئت به من الحق» ليقرر في نفوسنا أن من كان التكذيب من شأنه وجِبلّته وعادته لا يستغرب منه أن

يكذب ما جاء به الصادق المصدوق من الحق الذي هو أبلج وأظهر وأبين ، ويلاحظ أن مثل ما بعثه الله به الذي هو رأس الحديث ملخص في النذير العريان الذي رأى الجيش بعينيه وهذا خلاف مثل ما بعثه الله به من الهدى والعلم كمثل غيث ، والأمثال المتصلة بما بعثه الله به من أمثال متنوعة الدلالة ، تراها في حديث أبي موسى الذي فيه الغيث تتوجه إلى بيان القدرة الهائلة على إثارة العقول الحية واستفزازها واستنفارها حتى تتفجّر فيها أفانين العلم ، وأنه كالغيث الذي يفجِّرُ طاقات الأرض ويَسْتَخْرِجُ المطمور في باطنها يملأ به الحياة ثراء وخصبا وترى هذه الحقيقة ظاهرة ومبهرة في القرون الثلاثة المفضلة تدفقت فيها العقول الحية بهذا الفيض الزاخر من علوم الفقه والتفسير واللغة والشعر ومن علوم الحياة والصنائع ، وكان للشافعي مجلس يدرّس فيه علم الطب ، هذا ثم إن مثل ما بعثه الله به في حديث النذير العريان متوجه إلى تلقيّ الأمة لهذا الوحي لا من جهة أنه استخرج أقصى ما في قدراتها في بناء المعرفة وإنما من جهة أنه ميز الناس وَمَعَادِنهم فمنهم من عرف الحق واستيقن وأطاع وأدلج ولاحظ أن هؤلاء المدلجين هم بناة المعرفة في حديث الغيث ، ومن الناس معادن من شأنها الكذب والتكذيب لأن القرآن علمنا أنه لا يكذّب الحق إلا الكذاب وربط ربنا بين كذب وكذب في قوله سبحانه ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ وتذكر الملاحظة البعيدة التي نبهت إليها وأن كذبت طائفة جاء الفعل من غير مفعول ليتوفر الكلام على بيان أن شأنه التكذيب ثم يأتي بعده التكذيب بالصدق ، واعلم أن الطائفة التي كذبت ما جاء به من الحق هم الأرض السبخة التي لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ في حديث سيدنا أبي موسى رضي الله عنه .

والأحاديث الثلاثة الباقية التي كتبتها بعد هذا الحديث . رأس الحديث الأول منها « إنما مثلي ومثل أمتي » ورأس الثاني « مثلي كمثل رجل » والثالث « مثلي ومثلكم » والصورة في الأحاديث الثلاثة تبين مثله عليه السلام ومثل أمته وهي لا محالة متضمنة مثل ما بعثه الله به لأن مثله ومثل أمته مؤسس على نبوته وشدة حرصه على نجاتهم وهذه الأحاديث الثلاثة مؤسسة على أصل واحد هو قيام رسول الله ﷺ على أمته يَدْفعها ويذبُّها ويحجزها عن أن تسقط في النار وهو في ذلك يجهد ولا يَنِي ، ونرى شبهًا لطيفًا بينه وهو في هذه الأحاديث يمنع ويدفع ويحجز وبين ما كان عليه هناك وهو نذير عريان ينادي النجاء النجاء وهو في الحالتين ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذه الآية هي الجامعة لكل مثل له عليه السلام مع أمته .

والحديث الثاني في هذه الأحاديث الثلاثة هو أشملها وأكثرها استيعابًا لثلاثتها فإذا حللناه فكأنما حللناهما .

وقد فتحه عليه السلام بقوله « مثلي كمثل رجل استوقد نارًا » ولم يقل مثلي ومثل أمتي كما في الحديث الذي قبله ولم يقل مثلي ومثلكم كما قال في الذي بعده مع أن بناء الأمثال الثلاثة بناء واحد وأن الأمثال قائمة على مثله عليه السلام ومثل أمته ، وقد قال في آخر الحديث الذي بدأه بقوله ﷺ « فذالكم مثلي ومثلكم » فكان هذا التوضيح بديلاً للاختصار الذي بدأ به الحديث ، واكتفى بمثله في رأس الحديثين فلم يختمهما بمثل ما ختم به الحديث الثاني . وقوله عليه السلام « كمثل رجل استوقد نارًا فلما أضاءت ما حولها » . ظاهر من صريح كلامه عليه السلام أن الرجل الذي استوقد نارًا هو مثاله عليه السلام وأن الإضاءة الناتجة عن هذه النار هي الدين والنبوة

والكتاب وأن نور النبوة والكتاب والشريعة من ورائه نار يتهافت فيها من يتهافت وأن الحديث عن نور الشرع والدين يبدأ بذكر النار وهذا هو الإنذار والنذير ، وكان يمكن أن يذكر النور والإضاءة مع تجنب ذكر النار وهو كثير في الشعر كمصابيح الراهب ولكن النار هنا مركز الصورة لأن المسألة ليست أنه استوقد نارًا وإنما المسألة أنه وقف جادًا جاهدًا يَذُبُّ أمته عن أن تتقحم هذه النار ، ولذلك كانت كلمة استوقد مقدمة لذكر النار وليس فيها معنى يصح قصده لأن موقع استوقد في الحديث غير موقعها في آيةُ البقرة التي اقتُبِسَتْ منها لأن الذي استوقد نارًا في البقرة كان مثلاً للذي رأى منارة الهدى ثم ارتكس عنها وانتكس لأنه مثل الذي اشترى الضلالة بالهدى فما ربحت تجارته : كان في يده الهدى وآثر به الضلالة ، وهو أشبه بالفراش ودواب النار التي كان يدفعها رسول الله ﷺ عن أن تقع في النار، ثم إن رسول الله ﷺ لم يستوقد نارًا وإن كان طلب الهدى وتعبّد في غار حراء وهو لم يدع الناس للذي رآه في انقطاعه في الغار وتعبدُه وإنما دعا لما أنزله الله عليه والنور الذي استوقده في الحديث هو الوحي ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ويلاحظ شبه بين النور الذي مصدره النار في الحديث ومثل نور الله في السورة المسماة بالنور ، لأن مثل نور الله هناك مشكاة فيها مصباح ﴿ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ والمراد كلمة يوقد التي هي أصل المثل لنور الله ، وقد ذكروا أن نور الله هنا هو الشرع والدين وأن من ورائه النار ، التي هي الجيش الذي رآه بعينه النذير العريان ، وقوله عليه السلام «فلما أضاءت ما حولها» فيه اختلاف في مرجع الضمير بين الحديث والآية . في الآية «فلما أضاءت ما حوله» وفي الحديث «فلما أضاءت ما حولها» وهذا الاختلاف يوضح

جهة انْصِباب الظلام في الآية ، وأن المراد الرجل الذي استوقد نارًا وأنها أضاءت له وذهب الله بنوره ، فهو عمود الصورة لأنه كما قلت مثال للذي اشترى الضلالة بالهدى وهذا شيء مغاير جدًا للرجل الذي في الحديث لأنه هو نبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه وقال فلما أضاءت ما حولها لأن المراد النبوة التي يستوقد نارها هو عليه السلام وإنما أوحى الله إليه سبحانه وهو الذي يعلم أين يجعل رسالته ، ولذلك تلاحظ شبهًا لفظيًا شديدًا بين الآيـة والحديث وأنه عليه السلام اقتبس كلماته من القرآن ثم ذهب بها إلى واد يتعارض مع ما ذهبت إليه في الكتاب العزيز ، وهذا شيء بارع لا يكون إلا ممن لهم قدم في البيان لأني حين أقتبس يشدني ما اقتبسته إلى سياقه وليست فيّ القوة التي تجعلني أنزعه من سياقه وأصْنَعُ له سياقًا متقاطعًا مع سياقه ، ولم يقف هذا الحديث عند هذا الاقتباس اللفظي وإنما اقتبس من الآية اقتباسًا آخر أراها في صورة الفراش ودواب النار هذا الاقتباس هو أن الآية قالت فلما أضاءت ما حوله يعني ما حول المستوقد ذهب الله بنورهم ولم يقل سبحانه بنورها أي بنور النار لأن نور النار كان لما استوقد الرجل نارًا فأنارت النار وأضاءت فكان الأصل أن يقال فذهب الله بنورها ولكن عود هذا الضمير وجّه المعنى توجيهًا آخر وهو أن الله سبحانه أبقى النار بضيائها وذهب بنورهم هم ، ونورهم هو الإدراك والوعي والهداية التي يُدْرِكُ بها الحق ولا يدرك نور الحق إلا نور الهدى الذي يقذفه الله في قلب من شاء أن يَهديه سبحانه ثم إن الضمير تحول من واحد في قوله (حوله) إلى الجمع في قوله (بنورهم) لأن الذي استوقد نارًا كان مثالاً ووراءه كل من على شاكلته (مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا) وهم الذين كفروا وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم وهم الذين قالوا آمنا ولم يؤمنوا ، وهم الذين اشتروا الضلالة بالهدى

ثم لم تكتف الآية ببيان أن الله ذهب بنورهم الذي يرون به النور وإنما أضافت «تركهم في ظلمات» فذكرت الظلام المحيط بهم بعدما ذكرت ذهاب نورهم ثم أضافت أنهم لا يبصرون يعني ولو لم يكونوا في ظلمات ثم أضافت أنهم بطلت آلات الإدراك منهم فهم صم وهم بكم وهم عمي ، وهم لا يرجعون عن باطل تلبسوا به ، وإذا تدبرت حال الفراش ودوَابٍّ النار الذين يتهافتون على النار ويتقحمُّونها ويدافعون من يدفعهم عن الهلاك وجدت هذه الفراش وهذه الدواب صورة قريبة جدًّا ممن ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون ، والجملة الأخيرة التي بنيت على التوكيد وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي (هم لا يرجعون) تؤكد معنى أنهم لا يرجعون عن التهافت على النار والمنازعة للوصول إليها ، قال النووي : «أما الفراش فقال الخليل هو الذي يطير كالبعوض .. وأما الجنادب فجمع جندب وفيها ثلاث لغات : جندب بضم الدال وفتحها والجيم مضمومة فيهما والثالثة حكاها القاضي بكسر الجيم وفتح الدال». انتهى كلام النووي ، وذكر الفراء أن الجنادب غوغاء الجَرَاد وهذا تعريف جيد جدًّا لأن لكل طبقة ساقطة غوغاء هم ظهيرها في السقوط ففي السياسة غوغاء الجراد وفي الفكر غوغاء الجراد وفي كل جهة غوغاء الجراد ، وكان الفراء ذوّاقة في بيان هذا المعنى وقول سيدنا رسول الله «وهذه الدواب التي في النار» تعبير خصب جدًّا لأن رسول الله ﷺ ذكر أنها في النار قبل أن تقع فيها يعني هي في النار وإن لم تدخلها لأنها خلقت لها وهذا ناظر إلى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ وهؤلاء هم خلق النار قبل أن يدخلوها وفي هذه الآية وصف يقرب ذرء النار من هذه الدواب وهو قوله تعالى ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ

﴿ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ ولا تنس أن هذه الدواب مثال للناس وأن العَتَهَ التي هي فيه تمثيل للذين لهم قلوب لا يفقهون بها والذين ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .

وذكر قوله عليه السلام «فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش» إلى آخره فيه معنى زائد على قوله عليه السلام كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الدواب والفراش إلى آخره وكذلك في رواية أوقد نارًا فجعل الجنادب والفراش ، وهذا المعنى الزائد هو المدلول عليه بكلمة «لمَّا» لأنها تؤكد ترتب الجواب على الشرط وهذا التوكيد زائد عن مجرد الترتيب بلا مهلة الذي جاء عليه الكلام في الحديثين الآخرين وقد ذكر رسول الله الفراش والجنادب ودواب النار لأننا لا نعلم أحياء تتدافع على النار لتُحْرق فيها كهذه التي ذكرها رسول الله ﷺ ، وتدافعها نحو النار لتحرق فيها شيء غريب جدًّا ودليل قاطع على أنها لا تعقل شيئًا وأنها تتحرك بأهوائها وليس عندها أي بقية من تعقل وتبصّر ومعرفة ما ينفع وما يضر وإنما يدفعها الهوى الأعمى ثم يدفعها رسول الله عن هلاكها لنفسها فتندفع هي نحو هلاك نفسها وكلما جدّ في دفعها عن الهلاك جدت هي في اندفاعها نحو الهلاك وهذا غريب جدًّا ولو بحثت في كل مخلوقات الله عن مخلوق هو أكثر حمقًا وغفلة وعَتَهًا فلن تجد ووقوع لسان سيدنا رسول الله على هذه المخلوقات في هذا المثل من الشيء البالغ العجب ولا أعرف أن بيان العربية قد سبقت إليه هذه الصورة قبل كلام سيدنا رسول الله وهي من إضافاته إلى البيان كقوله الآن «حمي الوطيس» «ويا أنجشة رفقًا بالقوارير» «وكل الصيد في جوف الفرا» إلى آخره . ثم إنك تلاحظ فرقًا كبيرًا بين هذا الحديث وحديث النذير العريان مع أن بذل رسول الله ﷺ أقصى الجهد في إنقاذ أُمته من الهلاك

ظاهر جدًا في الحديثين وإنما الفرق هو أنه هناك ذكر الطائفة التي أطاعت وأدْلَجَتْ وانطلقت على مُهلتها ، وهذه الكلمات الثلاث من أنبل ما جاء في بيانه عليه السلام الذي فيه يَرْسُم خط السير لأُمته حتى تكون خير أمة وهذه الكلمات الثلاث كما بيَّنْتُ بعض معناها قادرة وحدها لو أنجزنا وصيته ﷺ التي يوصينا بها وهي الإدلاج والانطلاق على مهل لكنا خير أمة ولو أنجزها طالب العلم لكان من خير طلاب العلم ولو أنجزها الأستاذ لكان من خير الأساتذة إلى آخره ، وقبل ذلك وبعده وفوقه قول ربنا لنا ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ وعليك أن تتصور درجة الإتقان التي تصل إليها ما دمت مستحضرًا معنى أن الله يراك ؟ أقول إن الحديث الذي معنا ليس فيه إشارة إلى هذه الطائفة التي أدلجت وإنما الأمة فيه هي هذه الفراش والجنادب ودواب النار وهو عليه السلام يحجزها فتغلبه وتتقحّم . ويوشك أن يكون هذا خاصًا ببيان الذين كذبوا وإن كان النووي ذكر أنه شامل للمعارضين أعني المكذبين والعصاة قال رحمه الله : «ومقصود الحديث أنه ﷺ شبّه تساقط الجاهلين والمخالفين بمعاصيهم وشهواتهم في نار الآخرة وحرصهم على الوقوع في ذلك مع منعه إياهم وقبضه على مواقع المنع منهم بتساقط الفراش في نار الدنيا لهواه وضعفُ تمييزه ، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ساع في ذلك لجهله» انتهى كلام النووي .

وراجع قوله عليه السلام «وجعل يحجزهن ويغلبنه فيتقحّمْنَ فيها» والفعل المضارع في مثل هذا السياق يؤتى به في الحدث الأهم الذي يراد إحضار صورته ليشاهد الحدث وتُرى لحظة وقوعه كما وقع ، ولا يكتفى فيه بالحكاية عنه وليس من رأى كمن سمع ، وليس لهذا معنى إلا معنى واحد سبق أن ذكرته وهو أنه عليه الصلاة والسلام لم يبق في نفسه بقيَّة إلا

بَذْلها لإنقاذ هؤلاء من النار وتعجب وحق لك أن تعجب إذا كان هؤلاء هم المعارضون لدينه وهم الصادون عنه وهم المحادون له والمعلنون عداوتهم له وهم الكارهون ما أنزل الله وهو مع ذلك كله يأخذ بحجزهم حتى لا يسقطوا في الجحيم لأن قلبه عليه السلام لا يعرف الحقد ولا الكراهية ويعلمنا بذلك أن سنّته ليست هي الحقد والبغضاء على المخالفين وإنما هي الرحمة والرفق بهم وأخذ الحجزة منهم وألا ندعهم يسقطون في النار إلا إذا تفلتوا من أيدينا وهذا هو ما تَعَلّمَهُ عليه السلام من قول ربه له ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وهل تجد موضعًا للعنف في دين الله بعد هذا الذي تراه ، والحُجْزة هي موضع الإزار والإمساك بها أمكن صور الإمساك في الحجز والمنع ، ثم إنه عليه السلام لم يكتف بهذا الدفع وهذا الحجز للمصرين على أن يسقطوا في الجحيم وإنما ينادي ويقول « هَلُمَّ عن النار» ويجب أن يكون هذا الصوت العزيز باقيًا في نفوسنا كلما غفلنا وقاربنا ما يقربنا إلى النار ، ولاحظ أنه عليه السلام يقول هَلُمَّ عن النار لكل من بعث فيهم وهم الناس كافة وهم أعداء دينه الذين يهاجمون هذا الدين بكل شراسة ممن حولك من أبناء أمته ومن البعداء من كل أهل الملل والنحل والفلسفات الضالة ، النذير العريان هناك الذي يؤكد أنه رأى الجيش بعينيه هو هنا قائم « يَحْجزهُنَّ ويغلبنه فيتقحّمن فيها» والجيش الذي أهلك واجتاح هو النار التي أوقدت والذين كذبوا وأصبحوا فصبحهم الجيش هم الفراش والجنادب ودواب الأرض وراجع العلاقات بين معانيه صلوات الله وسلامه عليه لأنه يظهر لك منها شيء لا يظهر لك إذا قرأتها معزولاً بعضها عن بعض لأنك من خلال هذه النظرة السريعة تراه مرة يبذل قصارى ما عنده في إنذارهم وتخويفهم وتحذيرهم ووضع البرهان القاطع بين أيديهم وأنهم يرونه نذيرًا عُريانًا ،

ومرة أخرى تراه يبذل أقصى الجهد وهو يدفعهم عن النار ويكفهم ويحجزهم وهم يتهافتون فيها كأنه في الأولى يأتيهم بالنبوة وأصول الرسالة ويطلب منهم الطاعة فتطيع طائفة وتكذب طائفة وهو في الثانية واقف لهم في طريق النار الذي هو طريق المعاصي يكف ويَمْنع ويُمْسِك بالحجزة وهم يصرون على أن يتساقطوا فيها ، ويمكنك أن ترى هذا الكريم الحميم الواقف على طريق المخاطر يمنع أهله من أن يتساقطوا فيه في مثل قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ، ألم تر في هذا شيئًا من صورة الرجل الذي يَحْجزهُنَّ ويغلبنه فيتقحّمْنَ فيها ؟ بل ويمكنك أن ترى بعينك النذير العريان في مثل قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ ، ولو صارت الكلمات بشرا لصارت كلمات هذه الآية نذيرًا عريانا ، وقد انتقل عليه السلام عن هذه الدنيا من حيث هو بشر يموت ولم ينتقل عنها من حيث هو نذير وبشير وإنك لتراه في الكتاب نذيرًا عريانا وتراه في السنة وهو يقوم ويصعد المنبر ويقول وكان متكئًا فجلس وقال ، وهو يشبك بين أصابعه إلى آخر ما تحب أن تراه من أحواله صلوات الله وسلامه عليه وهو يُمْسِكُ بالحجز حتى لا نَقَعَ في النار . بل إنك لتسمعه وهو يقول مرة « النجاء النجاء » ومرة « هلم عن النار هلم عن النار ».

قوله عليه الصلاة والسلام : « فذالكم مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار فتغلبوني تقحّمْنَ فيها » اسم الإشارة الذي بني عليه هذا الجزء من الحديث راجع إلى كل الذي مضى وإن كان أقرب إلى قوله عليه السلام « كلما أضاءت ما حولها جعل الفراش » إلى آخره ،

وهذا الجزء الأقرب إلى اسم الإشارة يستتبع لا محالة الكلام من أوله ، وهذا ظاهر ، وراجع جملة (فذلكم مثلي ومثلكم) ولاحظ التقارب في الحروف والأصوات تكرار حرف اللام والميم والتناسب الذي بين ذلكم ومثلكم ، وكل هذا في الكلام لا يجوز أن يهمل وإنما أردت أن أنتقل منه إلى مافيه من إيهام وإجمال جاء بيانه بعده في قوله أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار هلم عن النار ، هذا مثله عليه السلام والآخذ بالحجزة لا يكون إلا بوفرة عَزْم وحَزْم ونشاط وقوة وجمع لجميع النفس ثم مصاحبة ذلك بصوت يخيف ويزلزل ويشعر بالوقوع في الهلكة ويقول هلم عن النار هلم عن النار ، يقول هذا وهو ممسك بالحجزة حتى تستجيب له وترجع عن ضلالك وجهلك وغيِّك وعَمِهكَ أيضًا وهو يرى فيك هذا كله ويتشبث بحجزتك ولا يملّ إسْمَاعك هَلُمَّ عن النار حرصًا عليك ورحمةً بك ، هذا مثله عليه السلام أما مثلنا فهو مغالبته ومنازعته والاجتماع عليه لم يغلبه واحد ولا جماعة من الجماعات وإنما تغلبه الجماعة كلها وكل ذلك لتتقحم هي بنفسها في النار وتَسْقُط فيها كما تسقط الجنادب التي هي غوغاء الجراد ، وهذا مثلنا .

ولا شك أن المخاطب في قوله عليه السلام (ومثلكم) هو كل من يصح منه الخطاب لأنه لا يُقْصَدُ به جيل بعينه ولا زمان بعينه ولا مكان بعينه كما لا يُقْصَدُ به من أطاع فأدلج فانطلق على مَهَل يعمل ويُتْقِنُ عمله إتقانَ من يَعْلَمُ أنه يَعْمَلُ تحت عين الله وسمعه سبحانه ﴿ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أما الله سبحانه فإنه هو الذي تَعْملون جادين مخلصين في نصرة دينه . وأما رسوله فهو الذي كان له شَرَفُ البلاغ عن ربه ، وأما المؤمنون فهم آباؤكم ينظرون إليكم راجين أن تكونوا كما كانوا خير أجيال

الأرض فإذا اجتهدتم وأتممْتُم هذه الخيرية كنتم مطيعين لله ومستجيبين لدعوته وأنكم خير أُمة والخيرية لا تنال إلا بالجدّ والإدْلاج والانطلاق على رَيْث وتُؤَدة ومَهَل ونظر وتدبُّر وإتقان اليدِ التي تعمل وهي ترى عين الله تراها .

أقول إن من أطاع فأدلج ليس فَراشًا ولا جَنَادِبَ ولا دَوابٌ النار وإنما أعني الفراش والجنادب هؤلاء العصاة والمعاندين لدين الله وهذه عصابة قائمة في الأرض وهي أكثر الناس وسيدنا المجتبى صلوات الله وسلامه عليه لا يزال يأخذ بحجزتهم ولكنهم يتفلّتون .

ثم إن هذا الحديث وحديث النذير العريان وردا في المثل على طريق واحد ، هو أن يضرب المثل ثم يُعقّب ببيان المراد منه . ولبيان العربية في هذا مسالك ثلاثة أولها أن يؤتى بالمعنى خَاليًا عن التمثيل ومُعَبّرًا عَنْه بطريق الحقيقة ، ثم يُعقّب بالمثل كما في قول الشاعر :

إنَّ مَـنْ أدَّبْتَـهُ في الصبا ... كالعودِ يُسْقَى الماءَ في غَرْسه

وكقول البحتري :

دانٍ على أيْدِ العُفَاةِ وشاسِعٌ ... عن كل ندٍّ في الندى وضريب
كالبدر أفرط في العلو وضوؤه ... للعُصْبة السارين جِدّ قريب

وثانيها أن يؤتى بالمعنى في صورة التمثيل كقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ وكقوله عليه السلام « مَنْ في الدنيا ضَيْفٌ وما في يده عاريةٌ والضيفُ مرتحلٌ والعاريةُ مؤداة » والثالث أن يؤتى بالمثل ثم يؤتى بالذي كان المثل له كما في هذا الحديث وحديث النذير العريان هذا والله أعلم .

بقي من أمثاله صلوات الله عليه حديث شرحته في كتابي شرح أحاديث من صحيح البخاري . وشرحته في مواضع أخرى من كتبي كما أَلْمَمْتُ بمعاني هذه الأحاديث التي شرحتها في هذا الباب ، وكنت أحرص في كل مرة أتناولها أن أصل إلى شيء لم أصل إليه ونيَّةُ المرء خير من عمله . وهذا الحديث الذي أكتبه الآن وسَبَق شرحي له كلما قرأته رأيت فيه عمقًا وغورًا وأن شروحي الكثيرة له لم تُصِبْ هذا الغور وهذا العُمْق ولهذا لا أستطيع أن أُغْفِلَ الكلام فيه وحسبي أن أحاول وأن أبذل أقصى الجَهْد تأسِّيًا برسول الله ﷺ الذي كان يبذل أقصى الجهد في رفع الأذى عنا ، ثم إن هذا الحديث شديد الصلة بأحوالنا ـ وكل كلامه ﷺ كذلك ـ والوادي الذي فيه هذا الحديث هو الوادي الذي أعاني مشكلاته وأعاني الأباطيل والزور والبهتان الذي يقال فيه ، ونرجو الله أن يَلْطُفَ بالبلاد لأن الأباطيل والأكاذيب التي في أرض أمته عليه السلام توشك أن تَعْصِفَ بها فالخونةُ والمغامرون زعماء ، وطنيون ، والأميُّون كُتَّاب ، والكذبة والمستأجرون إعلاميون ، والمرتزقة مُحَلِّلُون سياسيُّون واختلط الحابل بالنابل ونسأل الله السلامة .

روى أبو هريرة عن أبي موسى رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهُدَى والعِلم كَمَثَل غَيْث أصَابَ أرضًا فكانت منها طائفة طيِّبة قَبِلَت الماءَ فأنْبَتَتْ الكلأ والعُشْبُ الكثير ، وكان منها أجادبُ أمْسكَتْ الماء فنفع الله بها الناس فشَرِبُوا منها وسَقَوْا ورَعَوْا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً . فذلك مثل من فقُه في دين الله ، ونفعه بما بعثني الله به فعلِمَ وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

خُتِمَ الحديث بما خُتِمَ به الحديثان السابقان فقال عليه السلام فذلك مثل

من نَقُه إلى آخره كما قال فذلك مثل من أطـاعنى ، وذلـك مثلـي ومـثلكم . وهو بيان للمراد بالمثل وزيادة إيضاح للمعنى المراد .

وأول ما يَلْفِتُ في هذا المثل هو الربط بين ما بَعثه اللهُ به والغيث فالغيث من الغوث والناس يغاثون بالماء وكذلك يغاثون بالوحي ، والغَيْثُ يحيي الأرض بعد مَوْتها وكذلك الوحي ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ ﴾ وسُمّي المطر غيثًا لأنه يُغيث من الموت وقال اللغويون لما كان الجَدْبُ أخو الجَهْلِ جاء على وزنه ولما كان العِلْم أخو الخِصْب جاء على وزنه ، والعلم يسكن في القلوب والعقول فينمو ويَرْبُو ، وكذلك الماء يسكن في الأرض فيخرج منها جنات من نخيل وأعناب ، والعلم يحرك العقل ويستنفز طاقاته ويحركه العقل فيستخرج مخبآته ، ولو ذهبت تستقصى العلاقة بين ما بعثه الله به والغيث لوجدت تشعُّبًا واتّساعًا ، وأهم ما في هذا الشبه هو أن الذي يخرجه الغيث من الأرض لم يكن له وجود يُحَسُّ داخل الأرض ولكنك تفاجأ به على ظهرها وكذلك المعرفة التي يستخرجها العلم من باطن العقل والفكر لم يكن له وجود يُحسّ قبل استنفار العلم لطاقات العقل والقلب ولو درست العلاقة بين الغيث والوحي في الكتاب العزيز لوجدت عالمًا متسعًا جدًّا وأبرزه سوق الماء إلى الأرض الجرز فتحيا به وأن هذا برهان البعث وأن إحياء الموتى يقاس على إحياء الأرض الميْتة وأن إحياء الأرض الميتة جاء سهلاً رهوًا شأنه شأن سهولة الأمر الإلهي في كل شيء لا يَتَجَاوز كلمة كن فيكون ، أحيى الأرض بريح ساقت لها سحابةً فكذلك تخرجون ، الغيث سر من أسرار الله فيه روح تحيي الميت وكذلك ما بعثه الله به هو فيه من أسرار الله ، هو روح تحرك سواكن القلوب والعقول فتكون أكثر إنتاجًا للحياة والخصب من الأرض .

وإذا راجعت حديث النذير العريان ووضعته بإزاء حديث الذي استوقد نارًا وجدت بينهما قرابة قويَّة لأنهما يتحدثان عن المبلغ صلوات الله وسلامه عليه وعلى حرصه على هداية أمته ودفعه الشر عنها ، وهذا بخلاف مثل ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل غيث لأني لم أجد له ما يكرر هذا المعنى ويكرر مواقع الغيث على قلوب من نزل فيهم ، وصور نزول الغيث من السماء واختلاطه بنبات الأرض وإخـراجـه منـهـا ما يأكلـه النـاس والأنـعـام لا يفهم فعل ما بعثه الله به الذي هو غيث الوحي بالقلوب بمعزل عنها ، وكأن في القلوب بذور نباتات خافية التى هو قدرتها وطاقاتها ، وأن غَيْثَ الوحي الذي هو الهدى والعلم يختلط بهذه البذور الخافية في القلوب فيخرج هذا الخبء كما يختلط الماء النازل مـن السماء بنبات الأرض فيخرج مـنـه ما تأكله الناس والأنعام . المهم أن في قرار القلوب شيئًا يشبه نبات الأرض الساكن فيها والذي يهيجه ماء السماء ، وإذا كانت الحياة مستحيلة على الأرض بدون غيث كذلك الحياة مستحيلة على الأرض بدون الوحي ، وإذا كان ربنا قد جعل من الماء كل شيء حيّ كذلك جعل من الوحي كل قلب حيّ وكل فكر حيّ وكل معنى إنساني حيّ ، والأمر الخارق في إنزال الماء من السماء هو ذاته الأمر الخارق في إنزال الوحي من السماء وقوله عليه السلام (من الهدى والعلم) ذكرت له وجهًا في شرح أحاديث من صحيح البخاري وأضيف هنا أن الهدى الذي هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ملازم للعلم لزومًا لا ينفك وليس المراد بالعلم علوم الفقه والتفسير والحديث لأنها كلمة مطلقة في كلام رسول الله ﷺ وليس من حقنا أن نقيدها إلا بقيد من كلامه هو صلوات الله وسلامه عليه وخصوصًا أن الله سبحانه وتعالى سخر لنا ما في السموات وما في الأرض يعني كل هذا الوجود وهو

سبحانه لم يسخره لنا ثم يدعنا من غير أن تكون لنا القدرة على هذا التسخير والإفادة منه وهذا لا يكون إلا بأبواب من العلم لا يحاط بها وهذا يعني أن هذا التسخير يوجب علينا أن نتعلم العلوم التي بها ننتفع بكل ما في الكون وهذه هي العلوم التي يشغل بها الناس لأن كل علماء الدنيا لم يشغلوا بعلم خارج عن هذا الكون وقد أمرنا بالنظر في السموات والأرض وليس المراد النظر بالعيون فحسب وإنما النظر بالفكر أيضًا وقد جاء صريحًا في مثل قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ وهذا كله يعني أن تقييد العلم بما نسميه علوم الشريعة تقييد غير مبرر وأن ما بعثه الله به كما يثير القدرات على استخراج علوم الشريعة وما يتصل بها من علوم اللغة كذلك يثير القدرات على استخراج كل علم نافع ينفع الناس في معاشهم ومعادهم ولم تأت كلمة العلماء ويراد بها علماء الأمة إلا في آية فاطر ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ وسياقها سياق علم طبقات الأرض وعلم الدواب وعلم النبات وكان هذا العلم وكان هؤلاء العلماء ثمرة من ثمار الماء الذي أنزله الله من السماء ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ (فاطر:٢٧،٢٨) وحاول أن تتبين العلاقة بين هذه الآية وهذا الحديث وأن العلم الذين هو قرين الهدى الذي بعثه الله به في القلب منه علم هؤلاء العلماء الذين لا يخشى الله أحد كخشيتهم لله قلت إن كلمة علماء لم يقصد بها أهلُ الإسلام إلا في هذه الآية وذكرت مرة أخرى لعلماء بني إسرائيل ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ وقوله عليه السلام (كمثل غيث أصاب أرضًا) التنكير في غيث يعني أنه غيث ليس

كالغيث الذي تعرفون لأنه في الحقيقة هو ما بعثه الله به وأصاب أرضًا أي ليست كالأرض التي تعرفون لأنها في الحقيقة قلوب وعقول الذين سمعوا ما بعثه الله به .

وقوله عليه السلام « فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير » كلمة (طائفة) لها موقع حسن جدًّا لأنها وإن كان المراد بها الأرض ففيها إشارة إلى الناس الذين تمثلهم هذه الطائفة من الأرض، والطيبة: المنبتة الخصبة النقية النَّسُول وهذا يقابل العقل النَّقِيَّ الذكيَّ المُبرَّأ من الهوى وآفات النفوس وقبلت الماء تَشَرَّبته وهذا يقابل الذي تشرّب ما بعثه الله به من الهدى والعلم وجرى في كل جِهات النّفس والعقل وهزها وهزته وحركها وحركته ، وهنا أقف قليلاً لأشير إلى شيء هو أن العلماء العاملين الذين نفعهم الله بما أنزله على محمد ﷺ هم الذين أضافوا إلى العلم وتتبعوا مساقط غيث ما بعثه الله به في نفوسهم ، فأنْبَتوا من هذه المساقط المعارفَ الجديدة كالشافعي ومالك ومن في طبقتهم وكهؤلاء المتصوِّفة الذين استخرجوا أحْوالاً وشؤونًا مِمّا حفظوا من كلام الله وكلام رسوله ﷺ وأكثروا تَقَبَّلُ مِنْهُم ما تَقَبَّلُ وترفض ما ترفض ، ولا تستطيع أن تتجاهل ما استخرجوه حُلْوًا كان أو مُرًّا وضع هذا بإزاء ما يُنْبِتُ الربيع الذي فيه ما يَقْتلُ أو يُلمّ . المهم أن توازن بين شرّب الأرض الطيبة المُنْبِتَةِ للماء والقلب الحَيّ الذكي لِقَرِينِ الماءِ وهو الوَحْي ، واذكر أن هذه القلوب تُسقى بماء واحد ويفضَّل بعضها على بعض في الأكل ، والفكرة الأساسية هي أن غيث السماء يفجر طاقات الأرض فتؤتي أكلها ويُخْرج أقواتها وترى العُشبَ والكلأ والفاكهة وحدائق غلبا ، أصنافًا وألوانًا وطعومًا وكذلك ما بعثه الله به يفجر الطاقات الفكرية الهاجعة في النفس الإنسانيَّة ، وقد كان ذلك

وكانت القرون الثلاثة المفضّلة هي زمن ميلاد العلوم العربية والإسلامية وغيرها من العلوم النافعة التي امتدت وتطاولت واتسعت ولا تزال آثارها باقية من حيث هي أصول في علوم الطب والرياضيات والفيزياء وغيرها لأن علماءنا علموا علمًا يقينًا أن الأمة لن تعيش بعلوم الحلال والحرام وحدها وإنما لابد لها من علوم الطب وغيره لأن علوم الحلال والحرام وإن كانت الحاجة إليها ماسة في الهداية إلى دين الله فإن غير هذه العلوم من العلوم التي نُسَمِّيها علوم الدنيا الحاجة أيضًا إليها ماسة لعافية هذا الإنسان ومعيشةُ هذا الإنسان وحماية هذا الإنسان ولا ننسى أن رسول الله ﷺ أخبر أن صانع السهم له أجر الرامي به لأنه لو لم يكن هذا الصانع ما كان هذا الرامي وأنا لا أعرف الفرق بين علوم الدين وعلوم الدنيا لأن القواعد الشرعية التي تعلمتها تقول إن المنقطع لعلوم الطب والرياضيات وعلوم الصنائع إذا كان قد استحضر في نفسه أنه يبحث ليدفع عن الأُمَّة مرضًا أو جَهْلاً أو عَدُوا ليس أقل من الفقيه الباحث في الحلال والحرام ، والذي رآه رسول الله ﷺ يتقلب في الجنة بسبب غصن شوك أزاحه عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين ليس عمله هذا بأكرم عند الله من هذا العاكف والمنقطع في معمله ليكتشف شيئًا ينفع أهل الإسلام في حماية صحتهم وأموالهم ومزارعهم وحماية أوطانهم ، وحَيْثُما كانت مصلحة الأُمَّة فثَمَّ وَجْه الله وَحيثُما كان العدل فثم شرع الله وحيثما كانت المصلحة فثم حكم الله .

وهذه الجملة التي هي « فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبَتَتْ الكلأ والعشب الكثير » هي ما قصدته في هذا الحديث لأن المعرفة في العقول الحية لا تكون فيها بعد السكن فيها كما تَلقَّتْهَا هذه القلوب وإنما تصيرُ كأنها جذور تَنْبُت فيها وبها معارف هي من معدنها وليست هي ، وأن هذا

هو السبيل إلى اتساع المعرفة ونموُّها وتطوُّرها وأن أوَّلَها هو الذي يُنْتِجُ ثانيها وثانيها هو الذي يُنْتِجُ ثالثها وهكذا تستمر في النمو كل فكرة جديدة يُنْتِجُها هذا الجذر وليس أفضل ولا أصفَى ولا أنْقَى من الفكرة التي تولد من رَحم الفكرة ، والعَقلُ الحيّ هو الجهة الوحيدة المنُوط بها تناسل وتوالد الأفكار . وهذا شيء واجتلاب أفكار الآخرين شيء آخره ولا تناسب بينهما وحين يَرُوجُ في الأمَّةِ اجتلابُ أو استيراد الأفكار ويموت فيها توالد وتناسلُ الأفكار فَقُل عليها السلام لأن حياتها وحيويتها وقيمتها في هذا الوجود وبَيْنَ الأُمم بمقدار ما تُقَدِّم عقولها لهذا الوجود من الفكر الحَيّ السّدِيد . وليس أجدى ولا أسد ولا أطيب من فكر أثاره الوَحْي في القلوب الطيّبة المُنْبتة ، وليس هذا التصوير في الحديث بعيدًا عن تصوير القرآن الكريم للكلمة الطيِّبة بالشجرة الطيِّبة أصلُها ثابت لأنه وحي وفرعها في السماء لأنها من الكلمات الصاعدة إليه سبحانه ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ وسيدنا رسول الله ﷺ من خلال هذه الجملة يقول لنا انتجوا معارفكم بعقولكم ، واحذروا أن تعيشوا عالةً على عقول غيركم وأن تُبْطِلُوا ما أوْدَعَهُ الله في نفوسكم من قدرات لأن قيمة الأُمم بما تُبْدِعه وتقدّمه لهذا الوجود . وأنتم المُرَشحُّون لذلك ، وعليك أيها القارئ أن تنظر حولك لترى إلى أي مدًى نعيش على جهود غيرنا وإلى أي مدى أبْطَلْنَا مضمون هذه الجملة وهذا التّماسُك بين استخراج العقول علمًا من العلم وهدًى من الهُدَى وبين إنتاج الأرض الطيبة وإخراجها من باطنها العشب والكلأ يَعْني أنه لو أمْسَكَت الأرضُ الطيبة عن إخراج العشب والكلأ ولو على سبيل الفرض لا معنى له إلا مَوْتَهَا وموت من عليها من حياة ، وكذلك إمساك العقول الحيَّةُ النّقيْة الطيّبة عن إنتاج المعرفة لا معنى له إلا موتها وذهابها وليس ذهاب ريحها

فحسب ، وهذه حقيقة مغيَّبة والحاضر هو فقط أن نأخذ عن الآخرين ونُطوِّر علومَنا بعقولهم ، ونبني نهضتنا بما أنتجوه هُمْ وليس علينا إلا المتابعة وأفضلنا علمًا وثقافة هو الذي يتابع أحدث ما أنتجوا وليس هو الذي ينتج ومن ثمرة هذا بقينا من أول ما نسميه عصر النهضة ونحن محلك سر كما يقول سادتنا العسكر ، وهم كلما حكمونا قالوا لنا مَحَلّك سِرْ ، ونحن من يوم أن حكموا « محلك سر » ومسألة أن العقول الطيِّبة النَّقِيَّة التي تتلقى ما بَعْثه الله به صلوات الله وسلامه عليه هي التي يتناسل منها علومها ويخرج كله من هذه الرحم الذي هو الوحي تراها مُنطوية في مثل قول الشافعي كل ما أنتجته الأمة راجع إلى السنة وكل ما في السنة راجع إلى الكتاب العزيز وكل ما في الكتاب العزيز راجع إلى أسماء الله الحسنى زاد الراوي وكل ما في أسماء الله الحسنى راجع إلى اسم الله الأعظم . وهذا هو الجذر وهذه امتداداته وهذا اتساعُهُ وليس وراء ذلك إلا أمران الأول ما بعثه الله به والثاني طائفة العقول التي هي كالأرض الطيبة التي يُصيبها الغَيْث ، وقريب منه قول عبد الله بن مسعود من أراد العلم فليثوِّر القرآن أي يتدبره ويتغَلْغَل في بواطن كلماته .

قوله عليه السلام « وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقَوْا ورَعَوْا » قال الأصمعي الأجادب من الأرض ما لا يُنْبِتُ الكلأ ولكنه يحفظ الماء وينتفع منه الناس بالسُّقْيا لهم ولأنعامهم ، وهذه الطائفة من الأرض يقابلها العلماء الذين يحفظون ما بعثه الله به ويحررونه وينفون عنه تحريف المغالين ، ويعيش في عقولهم كما نزل وعلى الوجه الذي نزل لا يضيفون ولا ينقصون هي عقول بعيدة عن المغامرة والقفز ووثبة المجتهد وقد سمعت من هذه الطائفة وكان الكثير من شيوخنا في

الأزهر منهم وكانوا يبهرون عقولنا ببلوغهم الغاية في تحرير المسائل وتحرير المراد والتلخيص والتخليص وعرض حوار أكابر العلماء في مسائل الخلاف ولهذا الطريق عند البالغين فيه شأوه مذاق حسن جدًّا يُلهى عن السلوك في طريق إنتاج المعرفة الذي هو طريق الطائفة الأولى التي اعتادت على أن تجعل عقولها بمثابة حضّانات تقتنص وتحتضن الخواطر السانحة وتمسك بها ولا تزال تعالجها حتى تجعلها معرفة أو تسكن هي في باطن المعرفة وتبحث في زوايا هذا الباطن عن خبايا فتستخرجها ، هؤلاء ليسوا كذلك وإنما هم علماء حفاظ أجلاء لا يَفْلِتُ منهم شيء ، وقد صَادَفْتني في الأزهر قِلَّة من الطائفة الأولى وهؤلاء كانوا يتجاوزون بنا ظاهر المعرفة إلى بواطنها وكانوا أحيانًا يتركون لنا ظواهر لنحصلها بأنفسنا وكانت كلمات القياس والاستنباط والاستخراج وقدح الأفكار كثيرًا ما تطرق أسماعنا في دروسهم .

وأذكر من هذه الطبقة شيخين جليلين الشيخ محمد علي النجار محقق كتاب الخصائص لأبي الفتح بن جني والشيخ محمد رفعت فتح الله ، وأذكر من الطبقة الثانية الشيخ عبد السميع شبانة والشيخ محمد عنيبة ولا تزال أصواتهم في أذني رغم تباعد الزمان وعلو السن ، رحمهم الله وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين ، وهذا حسبي .

• كونوا عباد الله إخوانا

كثير جدًا من كلام سيدنا رسول الله متجهٌ نحو تحصين الجماعة من الأوصاب التي تصيب الجسد فيظهر فيه التباغض والتناحر والتدابر ويوصينا عليه السلام بالتصافي والتوادُد والمسامحة ويغرينا بعظيم الأجر لمن أحبَّ وسامح وصفح وأكرم وهَش بوجهه وجعل من الصدقة أن تَلْقَى أخاك بوجه طَلْق تفتح به باب المودة ومراجعة ذلك وهو كثير جدًا في كتب السنة ترى فيه فيضًا يُفْضِي إلى حياة طيبة كريمة عامرة بالود والقرب والمعاونة والمؤازرة والتساند والتعاطف وترى هذه الأحاديث كأنها تحصين لهذه المعاني الكريمة وهذا التعايش الطيب تحميه وتبقيه وتزيده ، وليس أفضل من حياة يسودها التآخي والمحبَّة والمساندة والمشاركة في الخير والشر ، وأن يجد المرءُ الناس من حوله في سرائه وضرّائه يُنَفِّسُون كربته ويزيلون عَسْرته ويحفظون غَيْبهُ ويكون هذا ليس بين أصحاب الشهادتين فحسب ، وإنما بين كل طوائف المجتمع على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وأحوالهم لأنها حقوق على الناس من حيث هم ناس ، فالجار له حق من حيث هو جار مع صرف النظر عن دينه . من حقه أن تكرمه وأن تحفظه وأن تكون بجواره تسانده وتعزِّره وتوقِّره ، هذا حقه من حيث هو جار فإن كان مسلمًا أو قريبًا زادت الحقوق ولكن هناك حق للناس من حيث هم ناس وهي الحقوق الإنسانية التي أوجبتها الإنسانية أعني الاشتراك في هذا الجنس وفي الرحم الأولى التي يذكرنا ربنا بها ويقول للناس ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ﴾ ، ولاحظ كلمة «الناس» التي تحذر من نسيان ذلك لأن مادتها نَسِيَ فهو ناس وهم ناس ، ولاحظ لتعارفوا والعرف كل ما أقرته النفوس الإنسانية وعَرَفَتْه ولم تنكره من خصال

المعروف وهذا باب يجب أن تُحفَظ متونه لأن مجتمعاتنا تعاني من بلاء بسبب ضياع أمثال هذه الأحاديث وغيبتها وصرنا في تنازع وتدابر بل وتحارب وأكثر ذلك راجع إلى سوء سياسة هذه المجتمعات التي تلهي الناس بعضهم ببعض لتأمَن هي ، ويروعك أن يكون منا من يهددنا بالأعمال التخريبية التي يقتل فيها الكبار والصغار من غير ذنب ويسمى هؤلاء المخربون أنفسهم بأسماء إسلامية كالجهاديين والجماعة الإسلامية وغير ذلك مما يتعارض أشد المعارضة مع مبادئ الدين الذي أوصى بالتراحم ليس بين الناس وإنما أوصى بالتراحم مع كل ذات كبد رطبة ودخلت امرأة النار في هرة حبستها تعجب أن يظهر هذا في مجتمعات أهل الإسلام ثم يصدّر إلى غيرنا ونُعْرف به وظنى أن هذه تدابير لتُشَوَّه بها صورة هذا الدين العظيم ويقوم بتنفيذها جماعات من المُغفَّلِين وزيادة الوعي بأمثال هذه الأحاديث نحاول بها محاصرة هذا البلاء ، الذي ترى أشنع ما فيه أن جماعات اسمها أسماء إسلامية تحارب جيش البلاد على حدود البلاد مع أشرس عدو لها وكأنها تَنُوبُ عن العدو في إنهاك هذا الجيش الذي يقولون عنه إنه كافر ، وهذا من أشنع المخالفات لدين الله ، وتلاحظ أن سيدنا رسول الله ﷺ يُسُدّ بهذه الأحاديث ثغرات صغيرة لأن هذه الثغرات الصغيرة قد يكون منها مستصغر الشرر الذي يؤدي إلى حريق في المجتمعات تحرق الأخضر واليابس ، كأن يقول عليه السلام « لا يبيعُ أحدكم على بيع أخيه » ، وهذا يحدث خلاف بين اثنين وسدٌ هذه الذرائع واجب في الباب الذي همُّه الأكبر نفي أسباب التنازع لأن التنازع لا محالة يفضي إلى الفشل والفشل لا محالة تَذهَبُ به قَوَة الأمَّة ومنعتها ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ ، ومن المؤسف أن ترى التنازع يتجاوز مجتمعاتنا إلى دولنا فقلما تجد صفاء بين دولتين إلا أن تكونا شريكتين معًا في إنفاذ مخطط لصالح أعدائنا كدول

الاعتدال التي هي في حقيقتها حامية لمصالح خارجية في بلادنا ومنها المحافظة على العدو الألد .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ : « لا تحاسَدُوا ولا تَنَاجَشُوا ولا تباغضوا ولا تدَابَرُوا ولا يَبعْ أحدكم على بيع بعض وكـونـوا عباد الله إخوانًا ، المسلم أخـو المسـلم لا يظلمـه ولا يَخْذُلـه ولا يحقره ، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امـرئ مـن الشر أن يحقر أخاه المسـلم ، كـل المسـلم علـى المسـلم حـرام دمـه ومالـه وعرضه ».

وسمع هذا الحديث من أبي هريرة سماعًـا آخـر زاد فيـه إن الله لا ينظـر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلـوبكم وأشـار بأصْبَعِهِ إلى صدره وفي سماع آخر عن أبي هريرة إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم .

وفـي روايـة لا تحـاســدوا ولا تباغـضـوا ولا تجسَّـسُوا ولا تَحَسَّسُوا ولا تناجشوا وكونوا عباد الله إخوانًا .

وحديث آخر رواه أبو هريرة « إياكم والظن فإنَّ الظـنَّ أكْذَبُ الحـديث ، ولا تَحسَّسُوا ولا تجسَّسُوا ولا تنَافَسُوا ولا تَحاسَدُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا وكُونُوا عباد الله إخوانًا » .

راجع هذا الكلام العالي وانظر إليه من زاوية سَدِّ الثغرات التي تتسلَّلُ منها أسباب الفرقة وأسباب الشحناء ، وكيف يُبْقِي على التقارُبِ والتوادِّ بين الناس وتذكر سوء الحياة المليئة بالمشاحنات والمنازعات وحسن الحياة المليئة

بالتعاون والتساند والتقارُبِ والتحابِّ ، ثم راجع كلامًا لَهُ صلوات الله وسلامه عليه وهو يأمر بعكس ما نهى عنه كأن تُحبَّ المرءُ لا تحبُه إلا لله ، وأن تحب لأخيك ما تُحب لنفسك وأن تحب لجارك ما تحب لنفسك ، وأن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، ومن فَرّج عن مؤمن كربةً من كُرَب الدنيا فرّج الله عنه كربة من كُرَبِ يوم القيامة إلى آخر هذه الأحاديث التي تدفعك دَفْعًا بقلب ممتلئ حبًّا إلى أحضان المجتمع الذي أنت فيه ، وتبحث عن عَوْن الله لك ببحثك عن محتاج لعونك لتعينه ، وتبحث عن تَفْرِيج الله عنك كربة من كرب يوم القيامة ، ببحثك عن مكروب تزيل كربته ، والله معك في كل لحظة تمد فيها يدك بخير إلى الجماعة التي أنت منها ، هذه هي الصورة ، وضع بإزاءها الذين يمدون أيديهم لنا ولأولادنا بالسيارات المفخّخة ويفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الله وامسك رأسك واسأل الله اللطف للبلاء الذي وصلنا إليه ، وأقسم وأنت غير حانث أن وراء هؤلاء لِحًى عبرانية وأصابع صهيونية وصليبية. ومن الأصول العامة لكل هذه المعاني ولغيرها في بابها قوله تعالى ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ (فصلت:٣٤) والمطلوب دفع السيئة ليس بمثلها وإنما بالحسنة وضع هذا بإزاء لا تحاسدوا ولا تناجشوا وكأن الآية هي خط الدفاع إذا وقعتم في شيء نهاكم الله عنه ، وبدت البغضاء فَتَدَاركوا بالدفع بالتي هي أحسن وراجع كلمة ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ وتصور الحياة والذي بينك وبين أعدائك ولاية حميمية يعني محبة دافئة ، وتأمل أيضًا حب ربنا لنا وتوجهاته التى تُفْضي بنا إلى هذا النوع من التعايش الكريم الودود والمبلّل بالمحبة والمودة والتآزر .

وقبل أن أشرح هذه الأحاديث أرجع إلى الوراء كثيرًا وأعرض حديث الرحم مع ربها يوم خلق الله الخَلْق وما قرأت استعاذة الرحم بربها ثم إجابة ربها لها إلا وجدت دمعة في قلبي شجنًا على أرحامٍ أهملناها بل وأدْميناها ، ولم نقطعها فحسب .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ من القطيعة قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت بلى ، قال فذلك لك » .

وهذا الحديث في الترتيب العقلي سابق لقوله عليه السلام : « الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله » لأن الحديث الأول كان حين خلق الله الخلق ووَقْتَ الفراغ من خَلْقه ثم إنها هنا تقول من وصلني وصله الله وهو الوعد الذي قاله الله لها فذلك لك ، والحديث الذي رواه أنس قال رسول الله ﷺ « من أحبَّ أن يُبْسَط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فَلْيصِل رحمه » وهذا الحديث يأتي بعد الأولين لأنه انتقل إلى معنى آخر ، تجاوز استعاذة الرحم بالرحمن لما فرغ سبحانه من الخلق وتجاوز نداءها تحت العرش تُحَدِّث الخلق بوعد الله لها إلى الانتفاع بهذه الصلة في سعة الرزق والبركة في العمر ، وقوله عليه السلام « حتى إذا فرغ منه قامت الرحم » فيه دلالة على أن الحق سبحانه ما إن فرغ من خلق الخلق حتى قامت الرحم لأن ترتيب الجواب على الشرط ترتيب مقطوع به من غير مهلة ، وإذا الشرطية أصل دلالتها على الشرط في المستقبل وشرطها هنا ماض وقد وقعت موقع (إذ) التي للشرط في الماضي والتعبير عن الماضي بالألفاظ أو الصيغ التي للمستقبل واقع ويقابله التعبير عن المستقبل بالألفاظ

التي للماضي وهو كثير أيضًا ووراء كل من المعاني ما يظهر وما يخفى ومن السهل جدًا أن أبين سر التعبير بالمضارع عن الماضي وأن المضارع يقتلع الحدث من ماضيه البعيد ويحضره ويحضر صورته وكأنك تراه وهو يقع وذلك لطبيعة دلالة المضارع وأن من دلالته أنه يعبِّر لك عن الحال واللحظة التي أنت فيها وهذا يعني أن هذا يعني أنك ترى الحدث وهو يقع ، والأمر ليس كذلك مع (إذا) التي هي للربط بين جوابها وشرطها في زمن مستقبل فإذا ربطت بين جوابها وشرطها الواقعين في زمن مضى كما هو الحال في الجملة التي معنا لم يكن في وسعنا إلا أن نقول إنها أفادت تقريب هذا الحدث البعيد الذي كان مع بدء الخليقة والذي يوشك أن تطويه دهور الدهارير فقربته هذه الأداة لعلنا ندرك شيئًا من غضارة هذه الاستعاذة ومن طراوتها وأنها قامت وهي حديثة الخلق ولا تزال فيها آثار هذه الحداثة وكان أول ما تكلمت وأول ما انتبهت أن استعاذت بخالقها من القطيعة وكان الخالق جل وتقدس أول ما دُعِيَ من أول داع له من خلقه وأول ما أُجيب أَحَدٌ من خلقه هو هذه الرحم فقال سبحانه وتعالى لها ما قال : أقول إن هذا موقف بالغ التأثير فخولف في أداة شرطه لتلفت إليه ولتقربه منك وهو غض في لحظة ميلاده التي هي لحظة ميلاد هذا الوجود .

ثم إنك تعجب كيف أدركت الرحم أن رسالتها هي التواصل والتراحم والتساند والتواد بين كل من خرجوا منها ، وأنها سترى من بعضهم عقوقًا وقطيعة تفسد عليها هذه الرسالة وأن هذا مزعج لها إلى حد أنها تستعيذ بالذي خلق الخلق في ساعة تجليات قدرته وخلقه وتقوم في هذا المقام وتدرك أن هذا مقام العائذ بالله من القطيعة ، فيجيبها ربنا بما أجابها به وهذا كله يعني أن لها عند الله شأنًا أي شأن وأنه لم يعط غيرها في لحظة خلق هذا الوجود مِثْلَ ما أعطاها ربها .

قوله عليه السلام «قال نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟» .

قوله سبحانه وتعالى للرحم (نعم) قبول منه سبحانه لقولها «هذا مقام العائذ بك من القطيعة» ولم يسأل أحد قبلها ولم يُعْطَ أحد قبلها وهذا أيضًا مما يجب أن يدرك بوعي ليعرف الناس قيمة أرحامهم وكان عطاء الله لها عطاء أرضاها وهي في لحظة أسفها وحزنها وشجنها من القاطعين لها ، قال لها ربنا «أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك» كلمة «أما» معناها الاستفتاح مثل كلمة «ألا» وتكثر قبل القسم كقوله :

أما والذي أبكى وأضحك والذي   أمات وأحيا والذي أمره الأمر

وهذا من كلام ابن هشام في المغني وذكر أن المالقي ذكر من معانيها العرض بَمْنزلة «ألا» فتختص بالفعل مثل أما تقوم أما تقعد ، وهذا هو المناسب لها هنا مع دلالتها على الاستفتاح الدال على أن المعنى الواقع بعد أداته معنى له شأن لأن المتكلم استفتح له القلب والعقل ، هذا هو المعنى اللغوي للكلمة . والمعنى الجليل الذي جاء بعدها سواء كانت استفتاحًا أو عرضًا أو كانت هما معًا ، أن الحق في لحظة خلق الخلق أرضى هذه الرحم العائذة قبل أن يستعيذ أحدٌ أرضاها بشيء امْتدً من إكرام الله لها إلى إكرام الله لنا ، هذا الشيء هو أنه سبحانه يجعل وصله تابعًا لوصلها ويجعل قطعه تابعًا لقطعها والخلق كله خلقه والسموات والأرض مطويات بيمينه ومع هذا صار سبحانه وتعالى وتقدس في رضاه وفي غضبه تابعًا لهذه الرحم ، يصل واصلها ، ويقطع قاطعها ، وتأمَّل هذا لأنه عطاء قَلَّ نظيره ، أمَّا إكرام الله لنا في هذا الشأن فهو وصل الله لنا هو أغلى أمانينا بمعنى أن إحساسنا بأن الله سبحانه يصلنا إحساس لا يعدله إحساسُ ، نعم إن كل النعم

التي نحن فيها من عطائه ولكن الإحساس بتميزنا بشيء آخر فإذا كان هذا الشيء هو صلة ربنا لنا كان هذا غاية ما نتمنى والوصول إلى هذا الشيء العزيز هو أن أطرق باب رحمي لأصله فيطرق ربي بابي ليصلني ، أرأيت سهولة الوصول إلى رغيبة هي من أعلى الرغائب وهي أن يمد الله يمينه لك بالصِّلة وأقول هذه نعمة زائدة لم تدخل في سؤال الرحم ولا في استعادتها لأنها قامت مقام العائذ من القطيعة ولم تذكر الواصل ، فأعطاها ربنا كرامة الواصل قبل أن يعطيها عقاب القاطع ، ولو علم القاطع أن الله يقطعه بقطع رحمه لما قطع أحد رحمًا .

وعجيب أن يعطي ربنا هذا العطاء لمن يصل أمه وأباه وأخته وأخاه وعمه وعمته وخاله وخالته ، وما شئت من ذوي القربى مع أن هذا واجب ولا شكر على واجب ، وفعلك هذا الواجب لا يكافئك عليه أحد كما يكافئك الله لأن وصل الله لك لا يعدله شيء .

ولا ننسى أن الرحم حقيقة تملأ هذا الوجود فليس في الوجود حيٌّ إلا وله رحم حتى الطير والدواب لأنها أمم أمثالنا وإنما عاذت الرحم من قطع الإنسان لأن كل هذه الكائنات الأخرى لاتقطع أرحامها لأن كل ذلك لا يزال على الحالة التي فطر عليها لم يَحِدْ عن النهج الأول ، وذلك بخلاف الإنسان التي استشعرت الرحم يوم خلق الله الخلق أنه سيضطرب ويختلّ ويتوه من تحت قدميه النهج الأول الذي هو نهج الفطرة لأن قطيعة الرحم ليست من الفطرة وصلة الرحم من الفطرة وصيرها ربنا سببًا لصلته لأن كل شيء هو من الفطرة وحرص الإنسان على حفظه هو من الله بمكان ومن يلق الله على الفطرة التي خلقه الله عليها لن يحاسب لأن الفطرة تعني أن الصحائف بيضاء .

وقوله تعالى للرحم (فذلك لك) الفاء فيه لترتيب هذا المعنى على قولها (بلى) أعني بلى أرضى بأن تصل من وصلني وأن تقطع من قطعني . واسم الإشارة عائد إلى قوله سبحانه للرحم أن أصل من وصلك وأن أقطع من قطعك ، والجملة مختصرة جدًا وبالغة في العطاء والإكرام وأنه لها أي هذا الإكرام الذي ترى فيه رب السموات يصل واصلها ويقطع قاطعها .

ذكر من يؤخذ عنهم العلم ، أن الرحم قَرابَةٌ ونَسَبٌ وليست إنسانًا يقوم ويستعيذ ويخاطبه الحق بما جاء في هذا الحديث وإنما كل ذلك تمثيل وتصوير وأن المعنى والمغزى هو بيان عظيم شأن الرحم وعظيم الثواب في وصلها وعظيم العقاب في قطعها .

قال القاضي عياض « الرحم التي توصل وتقطع وتُبرّ إنما هي معنى من المعاني ليست بجسم وإنما هي قرابة ونسب تجمعه رَحِمٌ وَالَدَةٌ ، ويتصل بعضه ببعض فسُمّيَ ذلك الاتصال رحمًا ، والمعنى لا يتأتى منه القيام ولا الكلام فيكون ذكر قيامها وتعلقها ضَرْبَ مثل وحسن استعارة على عادة العرب في استعمال ذلك ، والمراد تعظيم شأنها وفضيلة واصلها وعظيم إثمْ قاطعها » انتهى كلام القاضي كما نقله النووي . وهذا من القاضي عياض صريحٌ في أن هذه الصورة وهذه الحكاية بأحداثها كل ذلك من باب التمثيل أعني الاستعارة التمثيلية ، وأنه لا قيام ولا إعاذة ولا ترضية وكل هذا تمثيل وتصوير والحال فيه كالحال في الرجل الذي استوقد نارًا ولا رجل ولا استيقاد ولا نار وإنما هو تصوير وتمثيل وتخييل ، ولك أن ترضى بذلك ولا حرج عليك لأن القاضي من كرام علمائنا الذين عَلِمُوا وعلَّمُوا ، والنووي الذي نقل كلامه ولم يعقب عليه من كرام من يؤخذ عنهم العلم وأهل الحديث يعلمون مقام الرجلين ثم إن المجاز هنا والتمثيل ليس في

آيات الذات والصفات فهو مما يقل التنازع فيه وكثير من علماء أهل السنة يقولون به ما دام ليس في آيات الذات والصفات ، ولك أن تقول إن صرف هذا إلى التمثيل يجعل قوله سبحانه للرحم : أصل من وصلك وأقطع من قطعك من باب التمثيل الذي يراد به تعظيم شأن الرحم وتعظيم أجر واصلها وتعظيم عقاب قاطعها ، وهذا شيء يضعف به المعنى لأنه لا شك أن المراد أن الله سبحانه يصل واصلها ويقطع قاطعها حقيقة وليست مجازًا وقلت إنها من باب التوسعة علينا في طلب وصل الله لنا لأننا قد نَجِدُ في أن يصلنا ربنا ونقطع دون ذلك ، ونقف على الأعتاب ، ولا تنفتح لنا الأبواب ، فإذا وصلنا رحمًا فتحت الأبواب وصرنا من الموصولين الذين هم أهل الرحمة وأهل الستر وأهل المغفرة هذا شيء ، وقل مثل ذلك في بيان أنها أول من قام وأول من خاطب الرحمن وأول من سأل وأول من أُجيب وأُعْطِيَ ما سأل ، صَرْفُ كل ذلك إلى التمثيل يذهب بكثير من هذه المعاني الجليلة في هذا الحديث الذي هو من عطاء الله لنا جميعًا لأننا جميعًا ذو أرحام وتواصلنا مع أرحامنا فيه راحة ومودة واستقرار للقلوب والنفوس وبِرٌّ بمن عاش وبر بمن مات قلت هذا وأنا على يقين من أن حمل الكلام على التمثيل لا يذهب بهذا ولكنه يحوله من حقيقة إلى صورة وخيال .

والقول بأن الرحم نسب وقرابة ومعنى لا يتأتى منه القيام ولا الكلام ، وهذا هو الصارف للكلام من الحقيقة إلى المجاز لأنه هو القرينة المانعة وهذا أيضًا حق لا مشاحة فيه ولكنه لا يوجب ما ذهب إليه القاضي لأن رؤيتنا للرحم وأنها نسب وقرابة ومعنى كرؤيتنا للأرض وأنها جماد لا يخاطب ولا يؤمر فضلاً عن أن تقوم هي وتَنْفُذُ في لحظة الميلاد إلى ما سيكون وأنها سيكون من حولها أهل عقوق وأهل قطيعة إلى آخره ، أقول

رؤيتنا وعلمنا كما قال القاضي وهذه المخلوقات بالنسبة لنا كما قال القاضي ، وهذا شيء وموقف المخلوقات من الذي خلقها شيء آخر لأن خلقه لها أمر خارق للعادة وما دام هذا لا ينكر فكذلك خطابه لما خلقه إذا كان عندنا مستحيلاً فهو عند الله من الأمر الخارق وما دمنا قبلنا أن الله خلق السموات والأرض وقال لهما ائتيا طوعًا أو كرها فقالتا أتينا طائعين ، فلا بد أن تقبل أنه قال لها ذلك على وجه الحقيقة وقالت له على وجه الحقيقة وقل مثل ذلك في قوله للأرض يا أرض ابلعي ماءك فتنقاد وتبلع وياسماء أقلعي فتنقاد وتقلع وصرف ذلك إلى المجاز وحمل خطاب الخالق على خطاب الخلق أقول هذا ليس بواجب لأن أمر الله في خلقه يتجاوز حدود المألوف لأن الخلق نفسه متجاوز حدود المألوف فالذي خلق جهنم وهي حقيقة هو الذي قال لها هل امتلأت وتقول هل من مزيد وهو حقيقة أيضًا ويقاس كلامها الخارق للمألوف على وجودها بكن وهو أيضًا خارق للمألوف ، وهذا مما لم أقرأه في كلام من يؤخذ عنهم العلم فخذ ما تراه ودع ما لا تراه ولا حرج عليك وأرجو أن أكون أيضًا من الذين لا حرج عليهم .

وقد ذكر القرطبي احتمال أن يكون الله سبحانه وتعالى قد أقام من يتكلم عن الرحم من الملائكة فيقول ذلك وكأنه وكّل بهذه العبارة من يناضل عنها ويكتب ثواب من وصلها ووَزَرَ من قطعها كما قد وكلّ الله بسائر الأعمال كرامًا كاتبين وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكة متعاقبين . انتهى كلام القرطبي . وهو قول آخر للقاضي عياض وفيه دلالة على أنه لم يقتنع بأن يكون هذا تمثيلاً والذي ذكره القرطبي نقلاً عن القاضي أقرب إلى بقاء الاستعاذة على حقيقتها وأقرب إلى بقاء قولها هنا مقام العائذ بك من القطيعة وبقاء قوله سبحانه أمَا تَرْضَيْن إلى آخره كل هذا باق على الحقيقة

وكل ما في الموضوع أن الله سبحانه وكّلْ ملكًا يعبر بلسان المقال عن الحال التي لو نطقت لقالته ، وقد ترى أن نطقها غير بعيد إذا قيس بخلقها كما قلنا إن سماع الأرض أمر ربها وانقيادها لهذا الأمر غير بعيد إذا قيس بخلقها بكلمة «كن» ولاحظ أن ثمة معنى في قوله سبحانه ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ يعني أنه يقول للشيء الذي في كتم العدم كن فيسمعُ الشيءُ الذي في كتم العدم قول ربنا ويكون ، وهذا أبعد من خطاب المخلوق الموجود لأنه خطاب المعدوم فيوجد بهذا الخطاب والغائب الذي هو أحوال الخالق مع خلقه لا يقاس على الشاهد الذي هو أحوال المخلوق مع المخلوق والله أعلم .

ثم ما هي الرحم التي يصل ربنا واصلها ويقطع قاطعها ؟ مع ملاحظة أن وصل الله للواصل غير مشروط فلو كان الواصل مقترفًا للخطايا وصله الله لأن الله يصله لأنه وصل رحمه وليس لشيء آخر أقول ما هي الرحم التي هذا شأنها عند ربنا ؟

قال النووي : واختلفوا في حد الرحم التي تجب صلتها فقيل هي كل رحم مُحَرَّم بحيث لو كان أحدهما ذكرًا والآخر أنثى حرمت مناكحتها فعلى هذا لا يدخل أولاد الأعمام ولا أولاد الأخوال ، واحتج هذا القائل بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح ونحوه ، وجواز ذلك في بنات الأعمام والأخوال ، وقيل هو عام في كل رحم من ذوي الأرحام في الميراث يستوي المحرَّم وغيره قال النووي : هذا كلام القاضي وهذا القول الثاني هو الصواب ، انتهى كلام النووي ، وجواز الجمع بين بنات الأعمام يعني أن الرحم التي لا يجوز قطعها هي الرحم التي توجب التحريم كالرحم التي بين المرأة وعمتها وإنما رجح الرحم التي تكون بين المتوارثين خصوصًا لأن

مدلول الرحم قد يتسع اتساعًا كبيرًا كما في قوله عليه السلام في أهل مصر «فإن لهم ذمّةً ورحمًا» وليست الرحم بهذا المعنى المتسع مما يجب وصله ويحرم قطعه ولم تدخل في استعاذة الرحم من القطيعة، والذي يدخل في هذه الاستعاذة المحارم على الرأي الأول والرحم الموجبة للميراث على الرأي الثاني.

وذكر العلماء أن صلة الله تعالى للواصل عبارة عن لطفه بهم ورحمته إياهم وعطفه بإحسانه ونعمه أوصلتهم بأهل ملكوته الأعلى وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته قالوا وصلة الواصل درجات بعضها أرفع من بعض وأدناها ترك المهاجرة وصلتها بالكلام ولو بالسلام، ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة فمنها واجب ومنها مستحب. ولو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى قاطعًا ولو قصّر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى واصلاً.

وحديث الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله، يلاحظ فيه أولاً أنها معلقة بأعز مكان وأرفعه وأسناه وأنها مع الذين يحملون عرش ربك فوقهم وهم أكرم الملائكة كما كانت بين يدي الله في مقام العائذ به وهو أكرم مقام ثم إنها تذكِّر أهل رحمها من هذا المكان العزيز العالي بما وعدها الله به وتنادي دائمًا بهذا الوعد الكريم وأن وصل الله تابع لوصلها وقطع الله تابع لقطعها وكأنها صارت قدوة بوعد الله الذي لا يخلف وعده وجملة تقول من وصلني إلى آخره جملة حالية وفعلها مضارع يعني وهي معلقة بالعرش على هذه الحال تقول ونقول ونجدد القول ثم إنها في قولها هذا غبطة ولذَّة بما وعدها الله به وكلمة «من» شرطية ومعناها أن وصل الله مرتب على وصلها وهذا هو معنى أن وصل الله تابع لوصلها.

وأن من إكرام الله لها أن جعل وصله عَبْدَهُ تابعًا لوصل عَبْدِهِ لها وهذه صورة من أمتع الصور وتعبير من أصفى الكلام وأنقاه وهذه مُتْعةُ فيها جلال وحسبك أن ترى بمخيّلتك الرحم وهي مُعَلّقة بالعرش تنادي في الناس ـ ولاحظ المسافة التي بين العرش والناس ـ وتُحدّثهُم بما وعدها به ربها وتقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله ، وهذا الكلام الذي عليه طابع النبوة ، واعلم أنك لن تذوق غرابة ولطف وجلال هذه الصورة إلا بجهدك أنت ولم أعرف صورًا كهذه في غضارتها وجلالها وبهائها لا في شعرٍ ولا في نَثْر .

وحديث من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه . ومعنى ينسأ له أي يؤخر والأثر الأجل ، وبسط الرزق سعته ، وهذا خبر عن الله وليس من معدن الرحم معلقة بالعرش لأن الرحم هناك هي التي تتكلم والوعد هنا إغراء لمن يحب البسطة في الرزق وطول الأجل وأن أيسر الطرق لهذين المطلبين العزيزين هو صلة الرحم كما كان أيسر الطرق لأن يصلك ربك ويمد يديه لك باللطف والعون هو هذه الصلة ، وهذه المعاني وإن كانت متقاربة جدًا إلا أن لكل حديث طابعًا ، ونستطيع هنا أن نقول إن السعة في الرزق والنسيئة في الأجل هي مظهر من مظاهر وصل الله للواصل ، وليست وحدها لأن عطاء الله لا يحد وإنما ذكر هذين لأنهما من رغائب الناس ، والذي أريد أن أُنبَه إليه في هذا الحديث شيء آخر هو لماذا اختار سيدنا المختار السعة في الرزق وهو مُقدّر لا يزيد ولا ينقص والنسيئة في الأجل وهو أيضًا لا يزيد ولا ينقص ؟ وكان من الممكن أن يذكر من عطايا ربنا للواصل شيئًا آخر ليس فيه القطع بأنه لا يزيد ولا ينقص ، ومعنى هذا أن ما أخبر به سيدنا المختار متصادم مع هذا القطع بأن هذين اللذين هما

الرزق والأجل لا يزيدان ولا ينقصان ، تعجب حين تفكر في هذا وتعجب أن الذين سمعوا هذا من سيدنا لم يقم عندهم إحساس بالتصادم الذي أُبيِّنه ، ويذهب العجب إذا رأيت أن سيدنا يقول لنا إنك مستطيع أن تزيد في رزقك المقدر تقديرًا قاطعًا كما أنك مستطيع أن تطيل عمرك المقدر تقديرًا قاطعًا ، وذلك بحسن التدبير في الرزق الذي قدره الله لك حتى إنك لترى الدرهم الذي يوضع موضعه يعمل عمل الدينار وأن الدينار الذي لا يوضع موضعه لا يعمل عمل الدرهم وهذا توجيه عام لك في حسن إدارتك لما رزقك الله والقاعدة التي تزول الراسيات ولا تزول هي قوله سبحانه ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ ولاحظ النهي الثاني ﴿ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ وأنه نهي مفيد يعني لك أن تبسطها ولكن ليس لك أن تبسطها كل البسط فإذا بسطتها كل البسط كُنْتَ كمن يضع الدينار موضعًا فلا يعمل عمل الدرهم وإذا بسطتها بعض البسط كان درهمك يعمل عمل الدينار ، وهذا هو معنى البركة في الرزق الذي فسّر به العلماء البسط الذي في الحديث ولا أعرف أحدًا سلك هذا السلوك ثم اشتكى من فاقة كما لا أعرف أحدًا بسطها كل البسط سلم من فاقة ، وهذا مهم وأهم منه أن سيدنا صلوات الله وسلامه عليه وضع في يدك مفتاح طول العمر والأجل الذي إذا جاء لا يَسْتَقْدِمُ ساعة ولا يستأخر وكلام رسول الله ﷺ حَلٌّ ظاهر لهذا التناقض وهو يعني أن إطالة العُمْر هو أن تشغل وقتك كلَّه بالعمل ولا تعرف البطالة ولا مجالس المُبطلِين الفارغين والشرط الواحد لتحويل كل عملك إلى طاعة وعبادة سَهْلٌ جدًا وهو أن تستحضر النية الصالحة كما قال القرطبي رضي الله عنه وقد أخذه من قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته

إلى الله ورسوله» ونحن نعلم أن الهجرة التي حَظِيَ بها المهاجرون انتهت ولا هجرة بعد الفتح وإنما المراد هنا الخروج للعمل الصالح الذي تصلح به حياتك وحياة من حولك واعمل أي عمل والمطلوب أن تُحْسِنَ فيه وأن تخلص فيه وليس لنوعية العمل قيمة في نفسها وإنما القيمة في الإحسان والإتقان واعلم أن هذا الكناس الذي تراه في الشارع يميط الأذى عن الطريق هو من أهل الجنة إن أتقن وأخلص وأن الذين يميطون الأذى سَبَقوا إلى الجنة كما في حديث الذي أزاح غَصن شوك عن الطريق ورآه سيدنا يتقلب في الجنة حيث يشاء وهكذا حتى تصل إلى شيخ العلماء القابع في محرابه الذي هو مختبره يبحث ويَسْتَكْشِفُ والمعلم الواقف بين تلاميذه يَهُزُّ عقولهم هزًّا وهكذا في كل شق من أرض أهل الإسلام نجد العمل والدأب والتفاني والإخلاص وهذه هي البركة في العمر وهذه هي النسيئة فيه وراجع الذي أنجزه سيبويه وقد مات وهو شاب والذي أنجزه الزركشي وقد مات وهو شاب ولو ذهبت للبحث عن العلماء الذين ماتوا دون الخمسين سَيَهُولك أنهم أكبر العلماء عملاً وأشدهم إتقانًا وأوسعهم علمًا ولا تزال كُتُبهم كأنها عيون تفيض يَسْتَقِي منها شباب الأُمّة جيلاً بعد جيل ، هكذا علمنا رسولنا عليه السلام أن البركة في المال تعني السَّعة فيه والبركة في العمر تعني النسيئة فيه وبركة المال في حسن التدبير وبركة العمر في حسن العمل ، هذا والله أعلم .

كل هذا في تماسك وتراحم وتساند اللَّبنة الأولى من لبنات الجماعة التي بينها رحم مُحرّمة للزواج أو بينها رحم مُحَلّلة للتوارث ، فإذا انتقلنا من هذه العائلة إلى تواصل الجماعة من حيث هي جماعة وجدنا الأحاديث التي فتحت بها هذا الباب وهي أحاديث بمثابة تحصين من تسلُّل عوامل الفرقة والتَّشَاحُن والبغضاء وكما نُطَعِّم أطفالنا بنظام طِبيّ مُعيَّن ضد الفيروسات

كذلك يُطَعِّمنا رسول الله ﷺ كبارنا وصغارنا رجالنا ونساءنا ضد أمراض القلوب وهي الحسد والبغضاء . وهي أفْتَكُ من أمراض الأجسام ، ولاحظ شيئًا مهمًا وهو أن الرَّحم لما قالت من وصلني وصله الله وقال لها ربنا أما تَرْضَيْن أن أصل من وصلك إلى آخره لا يجوز لأحد أن يخصِّص هذه الرحم برحم أهل الإسلام لأن الله سبحانه وتعالى أطلق لفظ الرحم وكرّم الرحم من حيث هي رحم ولم يكرمها من حيث إنها رحم بين صالحين أو طالحين مسلمين أو غير مسلمين لأن هذا مما جاء في الرسالات كلها لأنها أعطيت سؤلها وأعادَها ربنا مما استعاذته منه قبل أن يرسل الأنبياء وقبل أن ينزل كتبه .

قلت هذا لأن النهيَّ في مثل قوله عليه السلام « لا تحاسدوا ولا تَبَاغَضُوا » موجه في الظاهر لأهل الإسلام وهذا حق ومن الحق أيضًا أن يكون موجهًا لهم ولغيرهم لأنه من شرع من كانوا قبلنا وشرعهم شرع لنا ما لم يرد ما يمنع من ذلك وكلمة كونوا عباد الله إخوانًا كلمة تُرَشِّح وترجح أنها شاملة لأن كلمة عباد الله ليست خاصة بأهل الإسلام وإنما هي عامة في كل من خلقهم الله لعبادته ، وهم الإنس والجن وأدع هذا وأبدأ في الشرح .

روى مسلم بسنده عن ابن كُرَيز عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ « لا تحاسدوا ولا تَنَاجَشُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا ولا يَبِعْ بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانًا ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخْذله ولا يَحْقِرَه التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحَسَب امرئٍ من الشر أن يَحْقِرَ أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه » وفي رواية أبي هريرة التي رواها الأعرج « إياكم والظن فإن الظن

أكْـذَبُ الحـديـث ولا تحسَّسُـوا ولا تجسَّسُـوا ولا تَنَافَسُـوا ولا تـحـاسَــدُوا ولا تباغَضُوا ولا تَدَابروا وكونوا عباد الله إخوانًا » .

والجملة التي ابتدأ بها الحديث في رواية الأعـرج عـن أبـي هريـرة وهـي « إياكم والظن فإن الظـن أكـذب الحـديث» توشـك هـذه الجملـة أن تكـون جامعة لهذه الرذائل المنهي عنها ، وأن تكون رأس هـذا الحـديث ، وتلاحـظ أيضًا أن الظن المنهي عنه هو رأس وجود هذه الرذائل في النفس فهـو الـذي تتولد منه كل ما دخلت عليه لا الناهية في الحديث من التحسس والتجسـس وما يشبهها ثم إن الحديث خُتم بما يفيد طهارة النفس من هـذه الرذائـل وأن الفضيلة الطاردة لها وهي التقوى سكنت ههنا كما قال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وكأن المسلم الذي يتلَقَّى قَلْبه عن رسول الله ﷺ قد سَمِعَ وانْقاد ونزَّه قلبه من هذه الرذائل وانتهى إلى نقيضها وهـو الطهـارة الـتي هـي ثمـرة التقوى والتقوى حصـانـة تحصن القلب من كل ما لا يُرْضِي الله سبحانه .

ونلاحظ أن هذه البلايا التي تصيب النفوس بالعطب جاءت في كلام سيدنا اثنين اثنين فالتحسس بالحاء المهملة الذي هو تتبع الظاهر بالسـمع والبصـر أخو التجسـس بـالجيم المعجمـة الـذي هـو التفتـيش في الـذي وراء الظـاهر والتنافس سائق يسوق إلى التحاسد ، والتباغض أخو التدابر ، وظلـم المسـلم وخِذْلانه أخوان واحتقاره من الباب نفسه ، ودمه وماله وعرضه كلها أخوات ، وكذلك قلوبهم وأعمالهم ، وهذا جيـد في كـلام سـيدنا رسـول الله ﷺ وهـو يعين على الحفظ وهو من عوامل خِفَّة بيانه ونعومة بيانه وقربه مـن القلـوب والعقول وهو مما تُسَمِّيه البلاغـة في البـديع مراعـاة الـنظير ، وهـو كـثير في كلامه ﷺ ، تجد رحمًا جامعة لكثير مـن كلامـه وهـي رحـم موصـولة غـير مقطوعة وكأنها صورة لقلوب أُمَّتـه اقتربـت فتآلفـت ومـن العجيـب أن تجـد

التآلف في اللبنات التي بني منها البيان الذي يدعو الأُمّة إلى أن تتآلف وتتقارب وتتساند كما تآلفت هذه الكلمات وتقاربت وتساندتْ وهذا مما يمكن أن يكون من تصاقب المباني لتصاقب المعاني ، وكلما غَلْغَلْت النظر في كلامه ﷺ وقعت على خبايا في زوايا ، راجع تآلف الوزن والرنين وجملة « إياكم والظن » ابتدئت بالتحذير بأم كلمات التحذير التي هي إياكم وهذا التحذير يكتسب كل قيمته من قائله ﷺ الذي يبلغنا عن ربه وربنا رحيم رحمان بنا يريد بنا اليُسْر ولا يريد بنا العُسْر وسيدنا رسول الله ﷺ رؤوف رحيم بنا ، وحين يأتيك التحذير من هاتين الجهتين فلا بد لك أن تتلقاه بعناية أُخْرَى وباهتمام آخر من أي تحذير يأتيك من غير هاتين الجهتين ، وهذا الحديث تنبيه إلى مواطن الضعف في النفوس التي تتسلَّلُ منها الأمراض والكروب التي تَشْقَى بها حياة الناس من التناحر والتنابز والتصارع وأن هذه يتآكل بها بنيان المجتمع والآن لا يحرص عدونا على شيء كحرصه على إشاعة عوامل الفرقة وإشعال نارها في المجتمع وأرى أن أرض الكنانة الآن تُصَبُّ فيها عوامل التنابز والتدابر والتباغض صبًّا ويقوم بإشعال كل ذلك رجال ليسوا بعيدين عن الشبهات وإن كانوا متسترين تحت ثياب الزور التي تتحدث عن الوطنية وحبّ الشعب والحنوّ على الشعب والدفاع عن الشعب وهم في الحقيقة يشعلون الحرائق على كل ربوات الكنانة والله غالب على أمره ، ونسأله أن يلطف بنا .

قال القرطبي : الظن هنا هو التُّهْمة ، ومحل التحذير والنهي إنما هو تهمة لا سبب لها يوجبها كمن يُتْهَمُ بالفاحشة أو بشرب الخمر ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك . أما ما يهجس في النفس من غير أن يتابعه بالحديث أو بالتحسس والتجسس لبيان حقيقته فليس فيه مؤاخذة لأن دفعه لا يدخل

في الوسع وقد أباح الله للأمة ما حدّثت به نفسها من غير أن تتبع ذلك بعمل ويشرط أن يكون ذلك مما لا يمكن دفعه والله هو الذي يعلم سرائر النفوس .

وقوله عليه السلام «فإن الظن أكذب الحديث» كلمة (فإن) هي التي تقع في صدر الجملة التي هي علة الأمر والنهي ، وهي أخت التي في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ، وهذه الفاء ترتبها على ما قبلها كما تترتب العلة على المعلول كما تقول احذر المال الحرام فإنه يُدَمِّر المال الحلال ، وهذه الفاء تمنع الجملة بعدها أن تكون جوابًا لسؤال مقدر كما هو حالها عند عدم ذكر هذه الفاء ، والعجيب أن يكون الظن أكذب الحديث مع أن هذا الحديث الأكذب مبنيًّا على الظن يعني أن نظن أن فلانًا يشرب الخمر مثلاً فتخبر بهذا فإذا كان حديثك الكاذب مؤسسًا على اليقين كأن تقول فلان يشرب الخمر وأنت على يقين أنه لم يشربها وإنما كذبت عليه كان حديثك هذا كذبًا ولم يكن أكذب الحديث ، فكيف صار المؤسس على الظن أكذب والمؤسس على اليقين كذبًا ؟ ولم أجد في المصادر التي بين يدي ما ذكر ذلك ، ولم أجد عندي ما أقوله إلا أن وصف الظن بأنه أكذب الحديث وصف لوحظ فيه تبشيع الإخبار بالظن أو الحديث بالظنون لأن الحديث بالظنون مؤهل لأن يستفيض في الناس ، وكل من تَوهَّم في غيره فعلا مُشِينًا تحدّث به ثم إنه قد يفضي إلى التجسس والاعتداء على خصوصيات الناس واختراقها وهذا باب من البلاء لو شاع في الناس لتحولت حياتهم إلى جحيم ، فأراد رسول الله ﷺ أن يُغْلق هذا الباب بهذا التغليظ في العقوبة ثم إنك لو علمت يقينًا أنه يفعل السيئات فلا تنس أن الله سبحانه ستَّارٌ ويحُب الستر على عباده ، فإذا فضحت الرجل بالظن كانت

إساءتك أشد . وهذا ما عندي والله أعلم . ثم إن الحق سبحانه لما طلب منا الستر على عباده ، كان يعلم أن الذي ارتكب هذه المهلكة قد يتوب فيتوب الله عليه ويرجع عبدًا صالحًا تحت كنف ستر الله فإذا فُضح كانت هذه الفضيحة إساءة تلاحقه بعد توبته وربما عاقت هذه التوبة ثم إنهم قالوا إن ستر الله للذين يجترحون السيئات في الدنيا ربما كانت مبشرة بستره سبحانه لهم في الآخرة ، فإذا أضفت إلى ذلك التحذير الشديد من الحديث بالظن أفضى بك هذان الأمران إلى صورة مجتمع نظيف بعيد عن القيل والقال واللغط في أعراض الناس وانصراف كل إلى شأنه واشتغاله بعيوبه عن عيوب الناس ، وهذه هي المجتمعات النظيفة ولا تكثُر التُّهم ، والقيل والقال ومضغ أعراض الناس إلا في المجتمعات المتخلفة وبين العاطلين الفارغين ، وكان ﷺ يقبل من الناس ظواهرهم ويترك لله سرائرهم وأحيانًا كان يعلم من خفاياهم التي تركها ما يخالف ظواهرهم التي قبلها وهذا هو السلوك الراقي ، ثم إن التُّهَم والرمي بالظنون وإشاعة ذلك في الناس يغري بالفساد ولذلك لا يحب الله أن تشيع الفاحشة وشيوع الفاحشة ليس شيوع أفعالها فحسب وإنما أيضًا شيوع أقوالها ، والنظم الاستبدادية التي ابتلينا بها ، استباحت خصوصيات الناس وزادت ولفقت التهم وأعدت ملفات بهذه التهم الملفقة لتفضح بها هؤلاء يوم يتمردون عليها ، وهم في ذلك مَثَلُ سوء في مجتمعاتنا التي نرجوا ونحب أن تكون نظيفة والتجسس مأخوذ من الجس الذي هو معرفة ما خفي ومنه الجاسوس وقالوا الجاسوس سر الشر والناموس سر الخير .

وحديث أبي هريرة الذي رواه الأعرج بدأ بقوله عليه السلام « إياكم والظن» ثم بقوله «ولا تحسسوا ولا تجسسوا» وهما من بنات الظن وغالبًا

ما يفضي الظن إليهما ، ولعل هذا مما جعله أكذب الحديث ثم بقوله (ولا تنافسوا ولا تحاسدوا) والتنافس يفضي إلى التحاسد والتحاسد يفضي إلى التباغض ، والتباغض يفضي إلى التدابر وهذا ظاهر لا تكلف فيه وهذا النسق العالي في كلامه ﷺ من سمت بلاغته العالية التي يقولها عليه السلام على البديهة من غير مراجعة وفيها من الإلهام ما ترى .

وقد جاء هذا الترتيب في الرواية التي رأسها «إياكم والظن» ، واختلف في الروايات التي ليس لها هذه الرأس . ووجه هذا الاختلاف هو أن المقصود النهي عن كل رذيلة من هذه الرذائل نهيًا مستقلاً وكأن كل رذيلة بلاء برأسه أفضى إلى غيره أو لم يفض .

قوله عليه السلام : (ولا تنافسوا) التنافس المنهي عنه هو التنافس على أمور الدنيا إذا خلا هذا التنافس من الرغبة في عمل الخير من الشيء الذي تتنافس عليه فإذا تنافست في جميع الثروة التي لا تنسى فيها حق الله ورعاية ذوي الحاجات فلست مذنبًا وكل عمل تريد أن تزرع منه زرعًا لآخرتك فليس عليك فيه ذنب وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، وهذا الضرب من التنافس لا يؤدي إلى التحاسد ولا إلى التباغض لأن كل عمل فيه قدر من الرغبة في صنع خير هو عمل نظيف يورث النفس سكينة ورضا وتسليما لله وحب الخير للناس ويبعد بها عن القلق والأثرة والبغضاء التي تجعل حياة صاحبها جحيمًا وتجلب له الأمراض قبل أن تجلب له الثروة وشر هذه المنهيات هو الحسد لأنه كلما رأى نعم الله على عباده وجد في داخله حسدًا يأكل نفسه ، ونعم الله على عباده لا تحصى وكذلك قلقُه وعذابه ثم إن فيه رذيلة أخرى وهو أنه يحقد على إكرام الله لخلقه ويضيق صدره بفضل الله على خلقه وهذا اعتراض على الله ، ولا يكون هذا إلا لضعف الإيمان

وضعف الإحساس بالجلال وأنه الخالق المالك الرازق الباسط القابض ولا يسأل عما يفعل وكأنه يريد أن يتصرف هو في خزائن رحمة ربه .

والتحاسد غير الحسد لأن الحسد فعل شخص غلبته هذه الغرائز الدنيئة وقد يكثر في الناس ولكنه لا يكون تحاسدًا إلا إذا كان بين طرفين والتحاسد أكثر تآكلاً في بنية المجتمع من الحسد مع أن في كل شر وصفة التفاعل تدل دائمًا على انتشار الحدث وخروجه من دائرة الفرد إلى دائرة الجماعة وإذا كان الحسد مرضًا فرديًا فالتحاسد داء جماعة وهذا أشد وأضرى وأفتك ، ونلاحظ أن سيدنا رسول الله ﷺ مع حرصه على سلامة كل فرد نراه حريصًا على سلامة الجماعة وتماسك بنيانها وتنقية هذا البنيان مما يمكن أن يعوق كونه كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء أو البنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضًا ، قلت إن هذا التحاسد خارج من رحم التنافس المنصرف كله نحو حطام الدنيا وأنه إذا جرى شوب من الخير وعمل الصالحات في هذا التنافس تحول تحولاً جذريًا من منهيّ عنه إلى مأمور به في مثل قوله تعالى ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ ، قلت هذا لأني أريد أن أنبه إلى شيء يكشف تفاهة عقول المتحاسدين مهما كانت أقدارهم وهو أن المؤمن وغير المؤمن يعلم أنه سيترك كل ما في هذه الدنيا لحظة مجيء الأجل ، وهذا يعني أن كل ملك فيها زائل . عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه وأعمل ما شئت فإنك ملاقيه ، وهذا مما اجتمع الناس على الإيمان به مؤمن الناس وكافرهم ، فالتقاتل والتحاسد والتنافس إنما هو على شيء ينتهي إلى ما يشبه السراب وإلى ما يشبه الحُلم . والناس نيام فإذا ماتوا انتهبوا يعني يستيقظون في اللحظة التي فيها يموتون .

وأهل الإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب وهم كل المؤمنين بالأديان السماوية يعلم مؤمنهم وكافرهم أن الذي عند الله هو خير وأن عمل الصالحات وإن قل أفضل من كل أعمال الدنيا الخالية من النية الصالحة ، وأن العقلاء الحكماء يجب أن يكون تنافسُهم في الباقي وليس في الفاني ، وأن التنافس في الفاني قلة عقل كما يقول العامة ، ثم وهو الذي أردته أن التنافس في الباقي وعمل الصالحات لا يعرف التحاسد أبدًا وإنما يعرف الغبطة ولذلك تجد الصالحين المجتهدين في عمل البر والصلاح متحابين متعاونين كل واحد منهم يدعو الله أن يقبل منه ومن غيره من السالكين المرتحلين على طريق مرضاته وهذا هو التنافس الحقيقي لأنه تنافس في شيء أبقى وليس في خيال وأنت في رحلتك إلى الله تملك نوعين نوعا هو في يدك عارية ، وأنت فيها ضيف والضيف مرتحل والعارية مؤداه وهذا قاطع لا يرتاب فيه مؤمن ولا كافر ، والنوع الثاني هو الزاد الذي يصحبك في الرحلة ولا يسترده أحد منك لأنه مكتوب في كتابك ومكتوب أيضًا في ذاكرة أعضائك يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، والتنافس في هذا الذي لا يفارقك حتى يشيِّعك إلى الجنة هو التنافس الذي يورث المحبة وأن تحب المرء لا تحبه إلا لله وأن تحب له ما تحب لنفسك وهذا هو الفرق الشاسع بين تحاسد الأغبياء وتنافس العقلاء ، والتناجش من النجش ومعناه الاستفزاز والإثارة وذكر العلماء من معانيه أن يتعرض من لا ينوي شراء السلعة إلى شرائها ويعرض لها ثمنًا أعلى من قيمتها ليخدع من يريد شراءها وكأنه متآمر مع البائع ومعنى المفاعلة في هذا أن يشيع ذلك السلوك المخادع بين الناس والكل يصنع هذا والكل يخدع الكل وهذه حياة كريهة جدًّا وبغيضة جدًّا والصدق ليس له

مكان فيها ، أما التناجش لمعنى الاستفزاز والإثارة فهو أشد بغضًا من هذا لأنه يعني أننا لا نحسن أن نتفاهم ولا أن نتحاور وإنما نتنابذ ونتشاتم مثل لغة سقاط الإعلاميين والمستفزين ممن ولدتهم أمهات السوء ولم يرضعوا من ثُدِيِّ الحرائر ولم تحتضنهم أحضان الطواهر الشريفات وكم من البلاء والدماء جره هؤلاء الكلاب علينا وعلى مجتمعاتنا والنهي عن التناجش نهي عن التخلف في الحوار والخلاف ونهي عن التفاهم باللفظ النابي واللغة الساقطة والمشكلة أن أصحاب رؤوس الأموال الذين سرقوها من كل طريق استغلوا ضعف نفوس هؤلاء الذين ولدوا لغير رشدة وصنعوا منهم كتيبة كلاب وكتيبة ذئاب تنهش لحوم الكرام الأشراف في البلاد فلم يبق كريم إلا رماه أبناء العواهر بالسوء ولم يبق خائن متآمر ولدته أم سوء إلا رفع هؤلاء الكلاب قدره وخدعوا الناس فيه ، قلت هذا لأقول إن النهي عن التناجش تعني الإثارة والاستفزاز هو أهم ما نحن في حاجة إليه . وبالمناسبة اجمع كل ما دخلت عليه أداة النهي في الكتاب والسنة وانظر فيه فلن تجد فعلاً فيه خير أي خير ونهينا عنه وإنما ستجد كل شر وراء لا الناهية هذه في الكتاب والسنة وكأنها جدار يصد عنَّا بلاء هذا الفعل كهذا الحديث الذي نحن فيه وكقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ ﴾ ﴿ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ ﴾ إلى آخره ، وأشهد أن هذا لا يكون إلا من الذي خلق وهو أعلم بمن خلق ، واحذر أن تتهمني بأنني أهاجم لغة الاستفزاز بلغة مثلها لأنك لو كنت تعيش هذا الزمن الذي أعيشه وتسمع ما أسمع وكنت تعرف من يرمونهم بكل زور وكذب ومن يمدحونهم بكل ما يمدح به الكرام وهم جهلة وجبناء وأغبياء لقلت أكثر من الذي قلته . وقوله عليه السلام « كونوا

عباد الله إخوانًا» من أكرم الكلام وأكرم المعاني ويفتح الباب لأكرم حياة في أكرم المجتمعات ، وهذه الجملة العالية تضمنَّت ما قبلها وهي بمثابة الفاصلة القرآنية التي تتضمَّن كل الذي مضى وقوله عليه السلام إياكم والظن ... ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا إلى آخره كل ذلك بمثابة إزالة العقبات وتعبيد الطريق للوصول إلى جنة الحياة وجنة المجتمعات والمدينة الفاضلة التي ترى فيها عباد الله إخوانًا ، ولو أن عاقلاً يقوم على أمر قومه فلن يقول لهم أفضل من إياكم والظن ولا تحسسوا ولا تجسسوا إلى أن يقول وكونوا عباد الله إخوانًا لا يقول لهم أفضل من هذا ولو كان يهوديًّا أو نصرانيًّا أو بوذيًّا أو مجوسيًّا أو ما شئت لأن هذه قيم إنسانية وليس أبر بالإنسان من اقتياده إلى قيم الإنسان .

ومن أسوأ ما أجده في بلادي أن أصحاب الكلمة النافذة يظنون ظن السوء ويتحسسون ويتجسسون ويتناجشون ويقولون لنا نحن شعب وأنتم شعب وندعو الله الذي خلص المسلمين من شرار أعدائهم أن يخلص الكنانة من شرار رجال منها ابتلوا بحب الدماء وحب الكذب .

ثم إن كلمة «كونوا عباد الله إخوانًا» المخاطب بها كل عباد الله مؤمنهم وكافرهم لأن كلمة عباد الله في الكتاب العزيز جاءت لمن آمن ومن لم يؤمن وهذا يعني أن المراد بهذه الإخوانية هو المعنى الإنساني حتى تستقيم حياتكم وحتى تتعايشون مُتسالِمين متعاونين مع اختلاف عقائدكم وقد أمرنا ربنا أن نغفر للذين لا يرجون أيام الله وهم الذين لم يؤمنوا وقال لسيدنا عليه السلام ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾ ثم إن كل ما جاء في هذا الحديث من التحذير من الظن والنهي عن التحسس والتجسس إلى آخره جاء في النبوات كلها لأن كل هذا من مكارم الأخلاق وسيدنا المصطفى لم يُبْعَث لِيُؤسس

لمكـارم الأخـلاق وإنمـا بعـث ليتمهـا ، فإيـاكم والظـن بالمسـلمين وبغـير المسلمين ولا تحسسوا على مسلم ولا على غـير المسـلم ولا تحاسـدوا ولم يحرّم ربنا علينا شيئًا يقع منا على مسلم ثم يبيحه لنا مع غير المسلم الدماء كلها حـرام والأعـراض كلـها حـرام والأمـوال كلـها حـرام والتجسـس حـرام والتناجش حرام هذا شأننا مع من عاشوا معنا من غير المسلمين مـن اليهـود والنصارى والمجوس والبوذيين كل ما حرمه الله علينا فلا يجوز وقوعه على أحد ، فَدَمُ المسيحي حرام ودم اليهودي حرام ودم المجوسـي حـرام وكـذلك ماله وعرضه وحرمة بيته فلا يجوز أن تتحسس عليه ولا تحسده ولا تستفزه وكذلك المسلمون الذين يعيشون في بلاد غير بلاد الإسلام دماء الناس حـرام عليهم وأموالهم وأعراضهم إلى آخره ، ليس عندنا نظام الأغيار الذي أدخلـوه في اليهودية واستباحوا به دماء غيرهـم لأن الحرمة هي حرمة الإنسان وليست لأنه يهودي أو نصراني أو مسلم .

وفعل الأمر في قوله عليه السلام « كونوا عبـاد الله إخوانًـا » معنـاه النصـح والتوجيه إلى عمل الصالحات ، ومعناه أيضًـا صـيروا وتحولـوا ، أي غـالبوا نوازعكم وغرائزكم المعارضة لهذه الأخوة من الأثـرة والأنانيـة وتحوّلـوا إلى المنازل الأعلى وهي منازل الأخوة وافتحـوا قلـوبكم وعقـولكم حتـى تتقبّـل الآخرين وروّضـوها علـى المعايشـة الهادئـة والناعمـة والطيبـة حتـى تـألفوا وتؤلفوا وهذا من الذي تستطيعونه ولو لم تستطيعوه ما كلفتم بـه ، لا بـد أن تخرج من السِّرداب المغلق الذي تطوي نفسك فيه وتنفـر ممـن يخالفـك في الدين أو في الفكر أو في السلوك ولابد أن تتحرّك في الفضاء الأوسع فتقبـل الآخرين لأن الله ما نهاك أن تبر الذين خالفوك في الدين ما داموا لم يقاتلوك ولم يخرجوك ولم يظاهروا على إخراجك .

وقوله عليه السلام (المسلم أخو المسلم) بداية حديث عن أخوة خاصة هي الأخوة التي مضت مضافًا إليها أخوة الدين وأن المؤمنين إخوة وأن أزواج رسول الله أمهات لنا وأنه هو جَدُّنا عليه السلام وأَبٌ لنا وأن جوامعها أكثر وأكثر ، وهذا تدعيم للذي مضى وليس إلغاء له ، ولاحظ أن نداءه عليه السلام لكل من خلق الله ودعوتهم لأن يكونوا إخوانًا مهّد عليه السلام بها لهذه الأخوة ، وإذا كانت علاقة المسلم بالإنسان من حيث هو إنسان هي علاقة تعايش هادئ وآمن وهانئ فإن علاقة المسلم بالمسلم تتجاوز ذلك إلى أن تكون علاقة عضوية فهم جميعًا كالجسد الواحد ، لأنه أضيف إلى العلاقات الأخرى الأخوة في دين الله ، والالتزام بشرع الله ، تجمعهم الصلاة ، والصيام ، والحج والزكاة ، التي تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، ويجمعهم الحب في الله وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ويجمعهم حبهم لرسول الله ﷺ إلى آخر ما هو معلوم في ذلك ثم نلاحظ أننا كنا مع التحذير من الظن ثم مع النهي عن التحسس والتجسس والسلبيات التي تكدر صفو الحياة في المجتمع وكل ذلك كما قلت مما اشتركت فيه كل الشرائع وحتى الديانات غير السماوية التي تحافظ على المعاني الإنسانية وبدأ الحديث عن علاقة المسلمين ليس بنفي السلبيات الأخلاقية وإنما بالإيجابيات التي أعلاها الأخوة .

وقوله عليه السلام «لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره» كلمة لا يخذله خارجة من رحم كلمة لا يظلمه لأن معناها أنه لا يخذله إذا ظلمه ظالم يعني هو لا يظلمه ولا يقبل أن يقع عليه ظلم من غيره وكذلك كلمة لا يحقره لأن من ظلمته فقد حقرته وكذلك من خذلته ، ثم نعود مرة أخرى وننبه إلى أنه لم يُنْهَ عن ظلم المسلم فحسب ، وإنما هو نَهْيٌ عن الظلم لكل إنسان بل

إن النهي عن الظلم يتجاوز الإنسان إلى الحيوان فالمسلم منهي عن الظلم مطلقًا للمسلم وغير المسلم وللإنسان وغير الإنسان من الحيوان والطير ، وإذا كان في كل ذات كبد رطبة أجر فكذلك في كل ذات كبد رطبة وزر وكذلك لا يخذل غير المسلم فإذا استغاث بك مكروب وجب عليك أن تغيثه وفي تفريج كربته أجر ، ولا يتقاعس عن إغاثة المكروب إلا آثم كان هذا المكروب مسلمًا أو غير مسلم ولم يقل أحد إنك تذهب إلى المستغيث وتسأله هل أنت مسلم فأغيثك أم غير مسلم فأتركك هذا سخف لم يقل به أحد ، ومثله قوله عليه السلام ولا تحقره لأن الله نهانا عن أن نسخر من قوم أي قوم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ كل ذلك راجع إلى المعنى الإنساني الذي لا يقر وقوع الظلم على أي إنسان كائنًا من كان وكل ذلك راجع إلى تقوية وتغذية الخلق الإنساني عند المسلم لأنه من تمام مكارم الأخلاق هذه المكارم التي هي المعنى الجامع لرسالة النبيين صلوات الله وسلامه عليهم والتي جاء خاتمهم ليتمها ، وأي جماعة سياسية أو غير سياسية تميز بين الناس بسبب الدين هي جماعة متخلفة وأي دولة تميز بين رعاياها بسبب الدين هي دولة متخلفة وإن ادعت التحضر والتقدم ورفعت شعارات حقوق الإنسان ولو رجعنا إلى أي دين سماوي وجدنا هذا وأكثر منه وهذه الثلاثة المذكورة بعد قوله عليه السلام المسلم أخو المسلم هي أبشع بكثير من الذي مضى لأنه لم يقع على الإنسان بلاء أفظع من بلاء الظلم ولم يقعد الإنسان عن شيء أبشع من قعوده عن الذي استغاثه لرفع الظلم عنه كما أن احتقار الإنسان لا يكون إلا من الكبر ولا يسكن في القلب الإنساني شر أبشع من الكبر لأنه يصده عن الحق بعدما تبين له ، وأنه إذا سمع آيات الله أو تليت عليه ولّي مستكبرًا كأن لم يسمعها واسأل لماذا ولّى ؟ ولماذا

يحاول أن يصرفها عن آذانه وكأنه لم يسمعها ؟ لم يكن ذلك إلا لأنه أدرك أنها الحق ثم ولّى وكأنه يهرب منها ويتناساها لأنها تحاول أن تغلبه على نفسه ولكنه الكبر الذي في صدره ، واحتقار الناس مصدره هذا الشر البغيض الذي يسكن قلوب الناس .

وإذا قلت إذا كان النهي عن الظلم والخِذلان والاحتقار نهيًا عامًّا فلماذا خصه سيدنا عليه السلام هنا بالوقوع على المسلم ؟ قلت لك لأن أبشع صوره هو أن يقع من المسلم على المسلم بعدما بيَّن عليه السلام في الجملة الأولى أنه أخوه وكأنه لحمه ودمه فكيف يُبيح لنفسه ظلمه وخِذلانه واحتقاره ؟ والحديث اختص أبشع الصور ووجه النهي إليها ، ولو قلت الإنسان أخو الإنسان فلا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، لم يستطع أحد من أهل العلم أن يعترض عليك ، وأعني أهل العلم بأي دين أو بأي أخلاق .

وقوله عليه السلام « التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات » كلمة التقوى ، التاء فيها مقلوبة عن واو وأصلها من الوقاية يعني الوقاية من غضب الله وعذابه بفعل ما أمر وترك ما نهى . وإشارته ﷺ إلى صدره يدل على مزيد عنايته عليه السلام بهذه الجملة وأنه أضاف الإشارة باليد إلى القول باللسان وكأنه عليه السلام يحدثنا بلغتين لغة اللسان الذي هو أبين ألسنة الناس ولغة الإشارة التي تكتسب قدرها وقيمتها من قدره ومقامه عليه السلام ثم إن هذا القول وهذه الإشارة تكرر ثلاث مرات ووراء ذلك ما تستطيع أن تجده بتَدَبُّرِكَ وكل هذا لأن هذه المضغة التي في الصدر إذا صلحت صلح بصلاحها كل شيء وإذا فسدت فسد بفسادها كل شيء وأن صلاح هذه المضغة هو بأن تسكن فيها الرهبة من القادر القاهر الذي عذابه هو العذاب الأليم وأن تسكن فيها الرغبة والطمع في عطائه ومغفرته ورحمته وأن يسكن

فيها اليقين في الكمال والجلال وأن هذه التقوى إذا سكنت ههنا فقد حسمت كل الأمر وتطهرت النفس من هذه السلبيات من الظن والتحسس والتجسس والظلم والخذلان إلى آخره وهذه التقوى من السهل أن تكون ههنا يعني في الصدر بالتذكر والتدبر والحساب الذي يَسْتَقْصِي عمله من مثقال الذرة فما فوق ومن كتاب لا يدع صغيرة إلا أحصاها ومن عذاب أقرأُ أوصافه بتدبر حتى كأني أجد لفح النار . ومن ثواب أقرأُ وصفه حتى كأني أجد ريح الجنة ويلاحظ أن الحديث فيه ثلاث انتقالات بدأ بالظن وتوابعه من التحسّس إلى آخره وانتهت هذه الجملة عند قوله عليه السلام المسلم أخو المسلم وابتدأت بها الجملة الثانية ثم انتهت عند قوله عليه السلام التقوى ههنا وابتدأت بها الجملة الثالثة أو الانتقالة الثالثة ، وكل جملة تتضمن عائلة من المعاني هي منها بسبيل وعند الجملة الثالثة التي هي فيصل قاطع في الأمر كله وهي التقوى يعود الكلام لتأكيد نفي المهلكات التي تقع من المسلم على أخيه المسلم ، فإذا كان قال هناك لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره فإنه هنا يقول شيئًا آخر هو « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » والغفلة داء يحجب عنك نور البيان ، وكلمة « بحسب » يعني حسبه وكافيه من الشر وكأنه بهذا الذي سيبينه قد أصاب كل الشر وليس عنده موضع آخر لشر آخر لأن هذا الذي سيقوله كافيه وهذه كلمة تثير وتخيف فإذا كنت قد أسلمت أُذُنًا واعية لكلامه عليه السلام وسمعته وهو يقول حسب امرئ من الشر ، لأفزعتك هذه الكلمة وزلزلتك قبل أن يأتي الجزء المتمّ الفائدة وقوله عليه السلام أن يحقر أخاه المسلم ، هو الذي ختم به قوله لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره وكأنه عليه السلام لما قدم ظلمه وخذلانه وهما شر أي شر أَوْهَمَ ذلك أن احتقاره يأتي بعدهما فاستدرك عليه السلام وقدمه في الانتقالة الثالثة ، وربما وقع في

نفسك أن الظلم أبشع ما يكون من الأخ لأخيه وهو كذلك لأن الظلم أبشع ما تمارسه النفس الإنسانية ، وإنما قال بحسبه من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، لأن الظلم في الحقيقة أثر من آثار الاحتقار والظالم محتقر للمظلوم ولولا ذلك ما ظلمه ، والحكام الظالمون لشعوبهم والمغيِّبون لها والقاضون أمر شعوبهم في غيبتها لا شك أنهم يحتقرون شعوبهم ، وكأنهم استشعروا أن هذه الشعوب التي يحتقرونها لا تصلح للدفاع عن نفسها فاستعانوا بأعداء هذه الشعوب في الدفاع عنها وهذا من الغريب المركب كالجهل المركب ، فالاحتقار جذر الظلم . ولاحظ اللذع الذي في كلام سيد أهل البيان « أن يحقر أخاه المسلم ».

راجع كلمة أخاه ، وراجع معنى أن يحقر أخاه وأنها تؤول إلى أن يحقر نفسه لأن من حقر أخاه الذي هو لحمه ودمه فقد حقر لحمه ودمه وحسب الإنسان من الشر أن يحقر نفسه وليس المقصود أنه ليس من الشر أن يحقر غير المسلم ، ولو قلت حسب الإنسان من الشر أن يحقر أخاه الإنسان لاستقام المعنى ولا تجد أحدًا يدفعه وإنما خص عليه السلام المسلم لأن احتقار من شهد الشهادتين أبشع وأشنع . وهذا مثل المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، وهذا من باب النّص على الأظهر الأبين لتأكيد النفي والنهي ثم ينسحب إلى غيره بالأدلة القطعية ، فالنص هنا على ظلمك لأخيك المسلم لأنه أبين الظلم وأظهره ثم ينتقل النهي إلى ظلم أي إنسان بالأدلة القطعية وهكذا احتقاره وهو قريب من مثل قوله تعالى ﴿ لَا تَأْكُلُوا الرِّبَوٰٓا أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ﴾ لأن وقوع النهي على الأضعاف المضاعفة وقوع على الأبين الأظهر ثم ينتقل النهي عن أكل كل الربا بالأدلة القطعية .

وقوله عليه السلام « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » كلمة « كل المسلم » كلمة نادرة لأن لفظ كل يدخل على ماله أجزاء مثل أخذ

كل المال وكل ذلك لم يكن والمسلم شيء واحد ، وإنما أراد منا عليه السلام أن نعرف حقوقه المتعلقة به فله مال وله عرض وله دم وله نسب وله سيرة وله أعمال بِرٍّ وله تاريخ وله جهاد وله أخلاق وله أولاد إلى آخره وكأنه وحده عائلة ، وكل هذه العائلة حرام لأنها حَرَمُه وليس من حقك أن تمد لسانك نحو واحد منها ، ولو قلت كل الإنسان على الإنسان حرام تكون قد أصبت لأن هذا في الشرائع كلها ، وإنما خُصَّ المسلم للذي قلناه في مثله ، ولم أعرف احترامًا لحقوق الإنسان كالاحترام الذي أجده في هذه الجملة وحدها والمكونة من كلمتين ولم أعرف صوتًا للحرمات كهذا الصوت الذي أجده في هاتين الكلمتين بل ولم أعرف أخصر لفظًا وأوفر معنى في كلام الناس من هاتين الكلمتين ، وتدبر أنت وراجع ، لأنني لو تابعت امتداد هذا المعنى واتساعه وسداده ومدى ما فيه من إكرام وكرامة لهذا الإنسان فسيطول بي الكلام ويصرفني عن غيره ، ولو أن عصبة الأمم كتبت على بابها كل الإنسان على الإنسان حرام دمه وماله وعرضه لكان ذلك بِحَسْبِها من الخير ، ولو أننا كتبنا لفظ الرسول الكريم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، ووضعناه على رؤوس المسؤولين في المكان الذي نضع فيه صورة فرعون ووضعناه أيضًا على أبواب أقسام الشرطة وأبواب المحاكم لأصبنا من ذلك خيرًا كثيرًا جدًا لأن شيوع هذه الثقافة تدفع الناس دفعًا إلى المطالبة بحقوقهم وحرماتهم وهذا يزلزل الأرض من تحت أقدام السادة المُجْرمين ، ويمكن أن أعتبر ذلك شرحًا كافيًا لهذه الجملة ، وخلاصة البيان هي أمْسك لسانك فلا تُحَدّثْ عن أحد بسوء وغُلَّ يدك فلا تمدها على أحد بسوء ، ومن أعجب العجب أنني لم أجد من الذين يفرضون أنفسهم بقوة السلاح علينا شيئًا عندهم أهون من الدماء والأموال والأعراض ، وهذا يعني أن

رسول الله ﷺ كان يضع أيدينا على المقاتل التي نُؤتَى منها ، ولست في حاجة إلى أن أقول لك إن النص على الدماء والأموال والأعراض هو من باب ذكر الخاص بعد العام أو هو من البدل وأن جملة كل المسلم على المسلم حرام متضمنة كل ما في الحديث لأن من حرام المسلم الظن والتحسس والتجسس والتحاسد وألا يُظلم وألا يُخذل وألا يُحتقر ، وعجيب مرة ثانية من بيانه عليه السلام الذي كلما فكرت فيه وراجعت وجدت عطاء وسخاء وعلمًا .

والفرق بين النهي عن الظلم والنهي عن التظالم كالفرق بين النهي عن الحسد والنهي عن التحاسد فالنهي عن الحسد يعني لا تحسد وإن كنت تعلم أن هناك من يحسدك ولا تظلم وإن ظُلِمْت ولا تَبْغض وإن بغضك الآخر ، وفي صيغة التفاعل معنى زائد وهو أن التظالم والتحاسد والتباغض فيه معنى أن مكونات المجتمع تتآكل بهذه الرذائل المتبادلة من الجانبين وأن الصيغة مؤذنة بالزيادة ، فتشتعل في الناس هذه الرذائل المتبادلة لأنك تواجه السيئة بالسيئة والظلم بالظلم والبغضاء بالبغضاء ومواجهة السيئة بالسيئة لا تطفئها وإنما تشعلها بخلاف مواجهة السيئة بالحسنة فهي التي تمحوها . والله أعلم .

• يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي

من أكرم الأحاديث القدسية وكلها أكرم هذا الحديث الذي يقترب فيه ربنا من عباده اقترابًا شديدًا ويحدثهم سبحانه عن امتلاكه أمر كل شأن من شؤونهم وأن مفاتيح كل شيء لهم فيه رغبة أو ليست لهم فيه رغبة في يده سبحانه ثم يرسمُ لهم طريق الوصول إلى خزائنه التي فيها رغائبهم ويقول لهم افعلوا كذا عند خزائن العطاء تعطوا وقولوا كذا عند خزائن الرحمة ترحموا ، وقولوا كذا عند خزائن الستر تستروا وهذا من أرجى ما قرأت في الأحاديث القدسية وسأجد مثله في الحديث الذي يليه الذي ترى فيه الخالق جل شأنه إذا أقبل إليه العبد شبرًا أقبل إليه ذراعًا وكان سيدنا أبو إدريس الخولاني الذي حدّث بهذا الحديث عن سيدنا أبي ذر كان إذا حدّث به جثا على ركبتيه من خشية الله .

روى مسلم بسنده عن أبي إدريس الخَوْلاني عن أبي ذَرٍّ عن النبي ﷺ فيما رُوي عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادي إنيٍّ حرَمتُ الظلم عَلَى نفسي وجعلتهُ بينكم مُحرَّمًا فلا تظالَمُوا .

يا عبادي كلكم ضَالٌّ إلا من هَدْيْتُهُ فاستَهْدُوني أهدكم .

يا عبادي كلكم جائعٌ إلا مَنْ أطعمتُه فاستطعمونى أُطعمْكم .

يا عبادي كلكم عَارٍ إلا مَنْ كَسَوتُه فاستكسُوني أكسكمْ .

يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغْفِرُ الذنوب جميعًا فاستَغْفِروني أغفرْ لكم .

يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فتضُرُّوني ولن تَبْلُغوا نَفْعِي فتَنْفَعُوني .

يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنّكم كانوا على أتْقَى قَلْب رَجُلٍ واحدٍ منكم ما زَادَ ذلك في مُلكي شيئًا .

يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكُم وجنكُم كانوا على أفجر قَلْبِ رَجُلٍ واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا .

يا عبادي : لو أن أوَّلَكُم وآخركُمْ وإنسكُم وجِنَّكُم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كُلَّ إنْسَانٍ مسألته ما نَقَص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخْيط إذا أُدْخل البحرَ .

يا عبادي إنما هي أعمالكم أحْصيتها لكم ثم أُوَفِّيكم إياها فَمَنْ وَجَد خَيْرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه » .

قال سعيد كان أبو إدْرِيس الخَوْلانِي إذا حدّث بهذا الحديث جثا على رُكْبَتَيْه .

أول ما يلاحظ في هذا الحديث هو تقسيمه إلى فقرات وأن كل فقرة تبدأ بنداء الحق جل وتقدس لعباده ، وتحدثهم عن نعمة من نعمه عليهم . ثم إن كل الفقرات حُذِيتْ حذوًا وبُنِيَت على منوالٍ واحد ، وتكررت أكثرُ ألفاظها ، وهذا يجعل حفظها ميسورًا جدًا وتثبيت معانيها في نفوس المكلفين بها ميسورًا جدًا وكأن هذه الطريقة المُيَسَّرة للحفظ من حجج الله على عباده . وأن التيسير في أمور الدين كلها فهمًا وحِفْظًا وأدَاءً وأنه يريد بنا اليُسْر وأنه يسَّر القرآن للذكر ويسَّر الحديث القدسي للحفظ وستجد ذلك فيما سنشرحه من أحاديث قدسية . وقد رأيْناه فيما شَرَحْناه في كتابنا السابق وقد تعلم رسول الله ﷺ ذلك وكانت أحاديثه تُصاغ صياغة تُيَسِّر حفظها كما مرّ بنا

وقد ذكرت أن المعاني التي يراد لها أن تشيع في الأُمّة وأن تكون أصلاً من أصول ثقافتها يلاحظ فيها جانب التَّيْسير هذا من مثل «لو اجتمعت الأمة على أن ينفعوك لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك» راجع هذا المعنى وراجع أثر شيوعه في الناس وراجع البناء الذي بنى عليه وإلى أي مَدَى هو قريب جدًّا من أن يحفظ ويسكن في القلوب وراجع الأثر الجيّد في بناء الإنسان إذا سكن هذا المعنى في قلبه ؟!.

وراجع المعنى والمبنى وسهولة الحفظ وأثر هذا المعنى الذي يسهل حفظه في بناء عقل وقلب وشخصية المسلم : كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهْدِكم كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أُطْعِمْكم . وهكذا حتى تصل إلى إنكم لن تبلغوا ضَرِّى فتضروني ، ويقابلها ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ثم تصل إلى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا ثم يعاد حذو البناء ونَمطُه ومنواله لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا .

وهكذا وأنا أُنَبّه فقط ولا أستقصى لأن الكلام في هذه المعاني يتسع اتساعًا لا نهاية له ، وأحاول أن أتذوق المعاني وحدي وأن أنصح من أخاطبهم بقلمي ولساني أن يتذوقوا المعاني وحدهم وألا يجلسوا جلوس المساكين على قارعة الطريق حتى يتصدق عليهم مُتَفِيْهِق ويحدثهم بأسرار البيان وعليهم أن يتأكدوا أن فطرتهم التي فطرهم الله عليها يدرك من أسرار البيان الأفضل . وأنا لا أحدثك عن أسرار البيان لأنه لا طاقة لي بذلك وإنما أحدثك بما وقع في نفسي من الكلام الذي لا أقرؤه لك وإنما أقرؤه معك .

وأول ما يثير ويَلفِتُ في هذا الحديث جملة (حرّمت الظلم على نفسي) ولم يُتداول بيننا أن الله سبحانه وتقدّس حرم شيئًا على نفسه كما تتداول بيننا كلمة حرَّم الظلم على نفسه ، ولم أذكر أني قرأت أن الله قال لنا إنه حرّم على نفسه شيئًا غير الظلم وهذا معناه أن الظلم أبْشَعَ وأشْنَعَ ما يقع على الإنسان في هذا الوجود ، وأن أشْنَع الناس وأبشع الناس وأخَسّ الناس وأنكد الناس هو الظالم ، وقهر الإنسان يهتزّ له عرش الرحمن ، وإذا كان القهر من الحاكم الذي لا يحاسب وممن يملك القوة والسلاح كان القهر أبشع وكانت دلالته على أن الذي يمارسه على الناس هو أخس الناس وأبغض الناس وأكثر الناس كراهية للناس ، والقلب الذي لا يفزعه وقوع الظلم على الناس هو قلب إنسان ميِّتَ والأصل أن يقف الناس بجوار المظلوم وأن يقفوا في وجه الظالم ، وقد أقام الجاهليون قبل الإسلام حلفًا اسمه حلف الفضول تحالفت فيه أكرم بطون قريش . ومُهْمتهُ أن يقف مع المظلوم في وجه الظالم وقال عنه رسول الله ﷺ «لو دُعِيتُ إليه في الإسلام لأجبت» وأنا أدعو ما بقي فينا من أشراف الرجال وأفاضلهم أن يكوِّنوا حزب الفضول في كل دولة من دولنا تَقْطَعُ يد الظالم حاكمًا كان أو محكومًا ، وهذا أكرم من هذه الأحزاب التي تُسمى علمانية أو ليبرالية أو يسارية لأن الأحزاب المتمذهبة بمذاهب البعداء لن يكون لها رواج عندنا والأحزاب التي هي من جذورنا هي التي تتعاطفُ حولها قلوبنا .

وقوله سبحانه « إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّمًا فلا تظالموا» الظلم نقص والله سبحانه وتعالى موصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ولا يتصور وقوع الظلم منه سبحانه ثم إن التحريم والتحليل لا يكون لأحد إلا من قوة هي أعلى منه والله سبحانه وتعالى ليس فوقه شيء

فلا يعقل أن يحرم أحد عليه شيئًا ثم إنه سبحانه مالك لكل شيء وخالق لكل شيء ويتصرف في ملكه كما يشاء لا يُسْأَلُ سبحانه عما يفعل وكل ذلك قاطع في أنه لا يظلم فما المراد بقوله سبحانه (حرّمت الظلم على نفسي) وأول ما يلاحظ أنه حرمه على نفسه يعني لم يحرمه أحد عليه ، ومعنى حرّم الظلم أنه سبحانه تعالى وتقدس تعالى عن الظلم هكذا قال العلماء وأن التحريم معناه المنع وأن منع الظلم لقدسه سبحانه وجلاله شبه بالتحريم وجاء هذا اللفظ من باب خطابه لخلقه بما يتخاطبون به وليهيئ لقوله «وجعلته بينكم محرمًا» وتعاليه سبحانه عن الظلم فيه إشارة إلى أن الظلم لا يكون من إنسان تستشرف نفسه نحو الكمالات الإنسانية ، وأنه يكون من الأسافل من ذوي النفوس الخسيسة التي لا تستشعر المعنى الإنساني النبيل ، ولو كان غير مسلم ، ومعنى جعلته بينكم محرمًا صيرته والجعل معناه التّصَير ، فالأصل فيه أن لا يكون ثم إنك ترى في قوله سبحانه حرّمته على نفسي وجعلته بينكم محرمًا إشارة إلى أن الحرام حرام على الكافة فلا يجوز لأحد أن يحرم على الناس شيئًا ويحله لنفسه فالمسؤول الذي يحرم الإهمال لا يجوز أن يهمل والذي يحرم الرشوة لا يجوز أن يرتشي ، وكُلُّ العالم المقهور الذي نحن منه يطالب ويلح في تطبيق القانون على الكل ،ليست هناك طبقة لا يطبق عليها القانون وتقطع يد سارق العنزة الجرباء وتقبل أيادي سُرّاق الملايين ، ولاحظ التوكيد في قوله تعالى «إني حَرّمْتُ الظلم» والذين يأخذون عن الله ليسوا في حاجة إلى توكيد وليسوا منكرين لخبر بأني من قبله سبحانه ، وإنما المراد بهذا التوكيد والله أعلم هو الدلالة على العناية بالخبر المسوق إليكم إنه سبحانه فتح الكلام في هذا بقوله يا عبادي ، وحين تَسْمع أو أسَمع قولُه يا عبادي أتنبه لأني واحد من

المقصودين بهذا النداء وأنت كذلك وعليّ وعليك أن تقول لبيك ربنا وسعديك والأمر كله إليك ووراء ذلك ما وراءه ثم إن النداء هنا جاء بكلمة (يا) التي لنداء البعيد والله سبحانه وتعالى قريب من كل مُنَادَى وإنما هي للدلالة على أنه ينادي لأمر له خَطَر وله شأن عند الله ومثله التوكيد كما قلت ثم إن هذا الحديث القدسي ليس فيه نَهْيٌ عن ذنب إلا النهي عن الظلم الذي هو رأس الحديث والذي تَقَدَّمهُ قوله تعالى « إني حرّمتُ الظلم على نفسي » والذي جاء بَعْدَه وبُنيَ الحديثُ عليه هو بيان الجلالِ وعِزِّ الألوهية وهَيْمنتِها على كل شيء في هذا الوجود ابتداء من اللُّقْمة التي نضعها في أفْوَاهِنا وبيان أن كل شيء من خزائنه ، وأنك لا تَحصُلُ على شيء أي شيء بما في ذلك الهُدى والرَّشاد إلا إذا كان من يده سبحانه ، وأنه فتح لنا الطريق الذي يَصِلُ بنا إلى خزائنه ابتداء من الهُدَى ولُقْمة العَيْش والثوب الساتر إلى آخره وكل هذا الجلال والكمال وأن كل شيء في يده وأن كل شيء تَنالُه هو من يده أقول كل هذا يؤكد حُرْمَةَ الظلم لأن الذي هذا شأنه حرَّمه على نفسه وجعله بيننا مُحَرمًا .

ثم إن قوله يا (عبادي) الذي افتتح به هذا الحديث وافتتح به كل معنى من معانيه هو نداء لكل عباده المؤمن والكافر ودعوة الكل إلى الإيمان بجلاله وهيمنته وهو من الأحاديث الشاملة التي تعرّفنا بالله وبسلطانه ، وكل الذي في هذا الحديث مما بَلّغَهُ كل النبيين لأقوامهم ولو أنصف غير المسلمين لكانوا مثلنا في حفظه وبيانه والإيمان بكل كلمة فيه وإنما الذي يحول بينهم وبين هذا هو أن الذي رَوَاه لنا عن ربه هو محمد صلوات الله وسلامه عليه الذي ينكرون نبوته .

ومن الأمانة أن أقول لك شيئًا أحاوله وأخشى أن لا أُصِيبَه فإذا فاتني فعليك أن تجتهد فيه وهو محاولة الوصول إلى الشيء الذي كان عنده يجثوا سيدنا أبو إدريس الخَوْلاني على ركبتيه وقد صَادَفني مثل هنا في كثير من الأحاديث التي كانت إذا ذكرت برك بعض أصحاب رسول الله ومِثْلها الآيات التي كان يُغْشَى على بعضهم عند سماعها ، أحاول الوصول إلى الشيء الذي كان يَنفُذُ إلى قلوبهم فيَجثُوا مَنْ يَجثُو ويبركُ من يَبْرِكُ ويُغْشى على الذي يُغْشَى عليه . وهذا محتاج إلى قدر من الشفافية يَهَبُ الله منها ما يشاء لمن يشاء .

وقوله تعالى (فلا تظالموا) تأكيد لقوله « وجَعَلْتُه بينكم مُحَرَّمًا » وقال « فلا تظالموا » ولم يقل فلا تظلموا ليكون أقرب إلى قوله « حرَّمْت الظلم على نفسي » لأن التظالم أنكى العوامل وأسرعها في هدم بناء الأُمة وأن الظلم حين يَنْتَشِر ولا يُواجَهُ يشيع ويصير تظالمًا لأن المظلوم يَحْرِصُ على الانتقام من الظالم فإذا لم تكن عنده القوة التي تُعينُه على ظلم ظالمه سلك غير طريق القوة لأخذ حَقّه وقد يظلم ظالمه بلسانه ونَهْش لَحْمه وعِرْضِهِ وكل هذا يَحدُث تآكلا في بناء الجماعة وترى فيها التخاذل بدل التساند والتباغض والتدابر ، بدل المحبة والتعاون .

وقوله سبحانه « يا عبادي كلكم ضال إلا من هَدَيْتُه فاستهدوني أهدكم » ابتداء كل جملة بهذا النداء وإضافة العباد إلى الذات الجليلة فيه اقتراب شديد من الحيّ القادر لخلقه ، وفي هذه الإضافة تشريف وتكريم وأُنس يأنَسُ إليه الذين آمنوا بأنهم عباده وعبيده ، وليسوا عبيدَ غَيْره وأنهم في كنفه سبحانه والذي بعد هذا النداء بهذه الصفة وبهذه الإضافة كأنه تفسير لها أعني العبودية وبيان لها فالكل ضال ، إلا الذي يهديه سبحانه والذي آنَسْتَه هذه الإضافة

وآنست خوفه وطمأنت قلبه ، والضلال هنا لا يتناقض مع حقيقة أن كل مولود يولد على الفطرة لأن الفطرة صفة له ساعة يولد . أما المخاطبون في قوله «يا عبادي» فهم المكلفون بالشرائع والذين زلّت أقدامهم عن نَهْج الفطرة ولعبت بهم الأهواء وسلكوا غير طريقها ونهجوا غير نَهجها ، ثم إن هذا الاستثناء (إلا من هديته) وإسناد الهداية إليه سبحانه وتعالى هو المناسب لكلمة عبادي ، وأنهم في قبضته وأنهم لا يملكون من أمرهم شيئًا وأنه سبحانه يهدى من عباده من يشاء ، ويضِلُّ من يشاء ولا يقع في ملكه إلا ما يريده ، ثم تراه جل وتقدس يفتح لك باب الهداية ويدعوك إليه ويعدك وعد الصدق أنك إذا سِرْت فيه ومددت يدك تريد الهدى هداك ، وإذا كانت جملة «كلكم ضال إلا من هديته» توقعك في بَلْبَال لأنك لا تدري هل أنت ممن قضى لهم بالهداية أم لا ؟ فإن جملة «فاستهدوني أهْدِكم» ترفع عنك الحرج وتذهب بِبَلبَالِكَ وحَيْرَتك ولا يجوز لك أن تتريث في إنفاذ أمره (فاستهدوني) لأن هذا الأمر صادر من دِفْءِ الإضافة التي في (يا عبادي) وأن هذه العبودية لله تُوجب عليك حقًا لله وهي أن تطلب منه الهداية ، وتجعلُ لك حقًا عند الله بوعده وهو الهداية ، فاستهدْ به ، والهمزة والسين والتاء للطلب وقد جاءت في قوله فاستهدوني وفي فاستطعموني وفي فاستكسوني ، كل ذلك للطلب ولكل طلب طريق أطْلُب مِنْه وطلب الهداية هو النظر في آيات الله المحيطة بك ، والتي في كل منها آية تدلك على الله ، وعلامة تَهْديك إلى الله ، النظر في السموات وأفلاكها وفي الأرض وجبالها وفي السحاب المسخّر والليل والنهار خِلْقة اقرأ آية واحدة ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أو انظر في نفسك وفي سَمْعك وبصرك وعقلك

وَوَعِيكَ وفي يدك ورِجْلك وفي أي شيء حولك أو فيك ستجد حقيقةً أوليَّةً لا تحتاج منك إلى تَنَطُّس ولا إلى تَفَلْسُف وهي منطقية جدًا وهي أن كل موجود لابد له من موجد وأن هذا الوجود من حولك لابد له من حيّ قادر ليس كمثله شيء . هذا وجه من آلاف الوجوه التي تستهدى بها فإذا استهديت هُدِيَت ، وهذا وعد الله الذي لا يخلفه ، ولا تشُكُّ في أن مجيء فقرة كلكم ضال إلا من هديته بعد فقرة إنّي حَرّمْتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم مُحَرّمًا فيه إشارة قاطعة إلى أن الظلم من الضلال وأن الظلم دال على أن من جَعَلَهُ دَيْدَنَهُ وشأنَهُ ليس من الذين هداهم الله ، وإنما هو ممن تصف الجملة الأولى (كلكم ضال) ولم يدخل في الاستثناء . ثم إن الإنسان الذي له حظ من الرشد لا يطلب شيئًا أنفس ولا أعلى ولا أغلى من الهداية ، ثم هو لا يشك أن الله سبحانه وتعالى مَا مَنحَ أحدًا أفضل من الهداية ، وأن مَنْ أنْعم الله عليه بهذه النعمة لم يَفتْه شيء من النعم ومن حَرَمه الله من هذه النعمة كأنما لم تُصِبْه نعمة ، ثم إن الهداية عند الله بهذه المنزلة وقدم عليها « فلا تظالموا» وعليك أنت أن تدرك بشاعة الظلم الذي قدّم الحق الكلام فيه على الهداية التي لم يُعْط الله أحدًا من خلقه أفضل منها .

ويمكن أن أفهم من جملة « فاستهدوني أهدكم» أن الهدى الذي يمنحه الحق بيده لمن يرضى من عباده هو الهدى الذي سبقه استهداء من العَبْد يعني طلب الهدى من الوجه الذي يطلب به وهو التفكير والتدبر في آيات الله في هذا الوجود وأن هذا الاستهداء هو المنتج للهدى ونذكر أن بعض علمائنا قالوا إن الإيمان بالله لا يتوقف على مجيء الرسل لأن العقل يهدي إليه على الوجه الذي ذكره الجاهلي اليقظ الذي قال البعرة تدل على البعير والأثر يدل

على المسير وسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج أفلا يدل هذا على الخالق الواحد.

وعلى هذا يقول هؤلاء العلماء إن من مات منكراً للوحدانية قبل بعثة رسول الله ﷺ يعذب على الشرك ولا يعذب على المعاصي لأنه ليس لديه شرع يبين له الحلال والحرام ويقولون إن أهل الفترة التي بين نبيين غير ناجين والأكثر على أنهم ناجون لقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ ، وحمل البعض التعذيب المنفي على تعذيب مخالفة الشرائع وليس تعذيب الشرك. قوله تعالى «يا عبادي كلكم جائع إلا من أطْعَمْتُه فاستطعموني أُطْعِمْكُم» راجع النداء بكل ما قلناه فيه وبما يمكن أن تراه مما لم نره ثم تكراره المؤكد للحقيقة التي بعده ورأسها كلكم جائع إلا من أطْعَمْتُه وتدبر كل لُقَمَةٍ تأكلها وأن مصدرها هذه الأرض التي أوْدَع الله فيها أقواتها، وتدبر القدرة التي تسكن في الأرض أقوات الإنسان والحيوان والطير من يوم أن قال لها ربنا كوني فكانت إلى يوم أن تكون جبالها كالعِهْن المنفوش وتأمل الجلال والكمال في هذا ولو أن الله سبحانه لم يخلق في الأرض هذه الطاقات المُبْدعة والخلاقة والمتجددة ما عاش عليها إنسان ولا حيوان ولا طير. وليس المطلوب أن تحفظ ما قاله ربنا وأننا كلنا جائعون إلا من أطعمنا وإنما المطلوب أن تكون هذه حقيقة واضحة في قلوبنا وفرق بين أن تحفظ كلام الله وكلام رسوله وأن تتبين كلام الله وكلام رسوله ﷺ ، ولما قال سبحانه «إلا من أطعمته» أعقب ذلك بقوله «فاستطعموني» يعني أنه لا يطعمنا ونحن متكئون على أرائكنا ولن يُطْعِمَنَا ونحن ندعوه ونَستطْعِمُه في المحاريب لأن السماء لا تمطر طعامًا ولا ذهبًا ولا فضة وإنما أخبر سبحانه أنه ينزل من الرزق الذي هو الماء الذي سماه

رزقًا لأنه به يكون الرزق ثم أخبر بأنه سبحانه أسكن في الأرض أقواتها ثم قال اعملوا وامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وجعل المشي في مناكب الأرض أي مواطن القوة فيها والإنبات أمرًا سابقًا للأكل من الرزق فجعل ثلاثة عناصر يكون بها الرزق ماء السماء وطينة الأرض ومجهود الإنسان ، الذي يستخرج من طينة الأرض بماء السماء طعامه ، وبمقدار تفوق هذا العنصر البشري في استخدام العنصرين الأساسيين تكون زيادة الغَلّة الخارجة من الأرض حتى إنك لتجد المساحة التي في أيدي علماء الزراعة وعمالها المهرة البارعين تنتج عشرة أضعاف نظير هذه المساحة عند المتُخلّفين وبسبب هذا نستورد طعامنا منهم لأنهم جَدُّوا وأدْلَجُوا وانطلقوا على مُهْلتهم ونمنا ، وهذا ما أفهمه من قوله تعالى «فاستطعموني أطعمكم» يعني اطلبوا ما عندي من الجهة التي يطلب منها وهي العلم والعمل وليس المراد أي عمل وإنما العمل الذي يراه الله ورسوله وهو أحسن العمل وأتقنه وقيامه على أحسن ما يكون من العلم والتقدُّم هذا شيء والشيء الثاني هو وجه اقتران قوله تعالى كلكم جائع بقوله تعالى كلكم ضال؟ من السهل جدًّا أن نقول إن الإنسان نَفْخة من روح الله في طينة من طين الأرض وأن الضلالة والهدى حالتان من حالات الروح . والجوع والشبع حالتان من حالات الجسد وأن الهداية قوام الروح والشّبع قوام الجسد ، وهذا وجه جيد وأن الله سبحانه وتعالى يملك الأمرين في يده فلا هدى إلا منه ولا إطعام إلا منه . والجائعُ والشبعان والجائع الذي لا يشبع والظامئ والريان والظامئ الذي لا يروى كل ذلك جاء في كلام رسول الله ﷺ بمعان مجازية ليس المعاني الحسّية مرادة بها فالمولع بجمع المال في كلام رسول الله ﷺ «منهوم لا يشبع» والمولع بطلب العلم في كلام رسول الله ﷺ منهوم لا يشبع ،

«منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال» والآخذ للمال بغير حقه ظامئ لا يَرْوَى ، وهل يجوز لنا أن نتخذ ذلك ذريعة في توسيع دلالة كلمة جائع في الحديث القدسي الذي معنا وكذلك كلمة الإطعام ؟ ونقول إن قوله تعالى «كلكم جائع إلا من أطعمته» يمكن أن يكون من معانيه كلكم مولع بما هو مولع به تائق إليه راكض وراءه إلا من أرْضَيْتُه وكففت رغائبه وأمْسَكْت جموحه عند الحد الذي لا يشتط به ولو تركته وسعار جوعه وجنون شهواته لهلك بهذا السعار وهذه الشهوات فاستطعموني أطعمكم أي اطلبوا مني كف هذا الغلواء أكفه عنكم اطلبوا مني أن أعينكم على كف أطماعكم أكفها عنكم ، ويكون هذا الجوع أو هذا السُّعار أو هذا الجموح بابًا من أبواب الضلال ويكون كَفُّه ورَدْعُه واعتداله من باب الهدى وبذلك تصبح هذه القرينة أكثر اتصالاً بالقرينة التي سبقتها ؟ هذا ما عندي .

قوله سبحانه : «يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم».

الجملة الأولى «كلكم عار إلا من كسوته» تعني أن كل ما نلبسه من ثياب ورياش وزينة من يوم أن أكل أبوانا من الشجرة التي نُهِيَا عنها وقال لنا ربنا قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوآتكم ، كل هذا مصنوع مما خلقه الله وليس فيه خيط واحد من خلق غير الله ، ومعنى استكسوني كمعنى استطعموني أعني اعملوا الأعمال المنتجة للكساء وعليكم أن تدرسوا هذه الوسائل المتطورة مع تطور الأزمنة لأن الله سبحانه لم ينزل اللباس الأول من السماء وإنما أنزل الماء على الأرض فأنبتت الذي كان منه هذا اللباس ، وهَدَى الإنسان بما أودعه فيه من عقل إلى صناعة اللباس والرياش والزينة .

ويمكن أن يتسع هذا المعنى وهو أقرب إلى الاتساع من الذي قبله

ويكون المراد بالكسوة الستر الذي لا يكشفه عن عباده البَرِّ منهم والفاجر ، وأن تكون الكسوة كسوة من الستَّار الذي يحب السَّتْر ، وأن يكون العري الذي فيه أشنع وأبْشع ما يرى من الإنسان والذي ارتبط في أول الخلق بالمخالفة والمعصية وأن أبوينا لما وسوس لهما الشيطان وأزلهما فأكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، ولما استبشعا ذلك أخذا يخصفان عليهما من ورق الشجرة مع أنه لم يكن هناك من يراهما ، لأن كشف السوأة مستبشع ولو كنت وحدك ، هل يمكن أن يكون المعنى كلكم عار إلى من سترته فاطلبوا ستري تستروا ؟ ولماذا لا يكون الكل مرادًا وكل ما يدل عليه اللفظ من قريب أو من بعيد يكون داخلاً في المراد ما دام من باب عطاء الله لعباده ؟

قوله سبحانه : «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم» .

أول ما يلاحظ في هذه الفقرة هو موقعها بالنسبة لما قبلها وما بعدها ، أما موقعها بالنسبة لما قبلها فهو مجيئها بعد ثلاث نعم هن أمهات النعم الأولى الهداية والثانية ما به قوام الحياة وهو الإطعام والثالثة ما به كرامة الإنسان وهي اللباس الساتر ثم تأتي هذه الرابعة وهي أنكم تقابلون ذلك بالخطأ في الأوقات كلها لأن الليل والنهار شاملان للوقت كله وأنتم تخطئون في الوقت كله . ولن يكون من كفرانكم هذه النعم الثلاث غضب مني يغلق في وجوهكم باب المغفرة ، وإنما أقول لكم إنني أغفر الذنوب جميعًا وليس عليكم إلا شيء واحد تحصلون به على هذه النعمة التي هي من شأني أعني مغفرة الذنوب جميعًا هذا الشيء هو أن تطلبوا مغفرتي فإذا طلبتموها من وجهها الذي هو التَّوْبة غفرت لكم وهذا وعدي وأنتم تعلمون أني لا أخلف

الميعاد ، «استغفروني أغفر لكم» والذي عندي معروض عليكم وشَرْطُه هو أن تطلبوه ، من الجهة التي يُطْلَب منها ، لأن الحديث يدور حول هذه الحقيقة التي ذكرها في آخره وهو «إنما هي أعمالكم أحصيها لكم» وكل ما في الحديث عمل فالظلم عمل وطلب الهداية عمل وطلب الطعام عمل وطلب الكسوة عمل والاستغفار عمل ، وجملة «وأنا أغفر الذنوب جميعًا» تفيد ترجيح أن المخاطب بقوله يا عبادي ما يطلق عليه لفظ العباد مؤمنًا كان أو كافرًا ضالاً كان ووقف عند ضلاله أو استهدى فهدى لأن الله سبحانه أخبر أنه لا يغفر أن يشرك به وهنا قال أغفر الذنوب جميعًا لأنه سبحانه يناديهم في الدنيا ويطلب منهم أن يطلبوا الهدى وأن يستغفروا ولو استغفر المشرك غفر له لأنه حين يستغفر يكون قد آمن ومن أعجب ما تسمعه هو أن تسمع الله يقول لك إنك تخطئ في الليل والنهار وتنسى أني أطعمك وأكسوك ثم أدعوك لأن تستغفر حتى أغفر لك ولا يهلك على الله إلا هالك .

أما علاقة هذه الجملة بما بعدها فإنها وطاءٌ ظاهر للجملة بعدها وهي لن تبلغوا ضَرِّي فَتَضُرُّوني ولن تبلغوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني وهذه الجملة هي الأصل للذي بعدها كما سنبين إن شاء الله .

ولاحظ الجمل ذات الموقع الواحد والمعنى الذي يُوحِّدها : جملة «وأنا أغفر الذنوب جميعًا» إخبار وليست وعدا بالمغفرة لأن وعد المغفرة بعد الاستغفار وهي أخت إلا من هديته وإلا من أطْعَمْتُه وإلا من كَسَوْته لأن كل ذلك إخبار بأنه سبحانه يفعل ذلك ولكن للذي استهدى والذي استطعم والذي استكسى والذي استغفر ، وهذه العناصر المتشابهة في الحديث هي التي تجعل له سَمْتًا يُعْرفُ به كما يعرف زيد من عمرو ، ويضاف إليها المعجم الذي تكوَّن منه الحديث وكيف كان معجمًا يَتَنَادَى ، فكلمة حَرَّمْتُ

تنادي « فلا تظالموا » وكلمة ضال تنادى « هديته » واستهدوني يُفْضِى باللسان إلى أهدكم وكلمة الجائع تنادي كلمة « أطْعَمْتُه » ، وكلمة استطعموني تفضى باللسان إلى كلمة أُطْعِمْكُم وهكذا تجد المعجم كأنه خرج من جذر واحد وكأن الكلمات من أرومة واحدة وأن بعضها يَسْتَدعى بعضًا ويَبْلُغَ ذلك منتهاه في آخر الحديث « أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم » ، راجع هذا الكلام وكيف كان سَهْلاً رَهْوًا وكيف كان طَلْقًا رسْلاً وكيف كان زاخرًا بما لم يزخر به كلام إلا كلام هو من طبقته .

وقبل أن أدع هذه الجملة « إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا » أُنبّه إلى المناسبة اللطيفة بين عموم الخطايا في الزمان كله وكيف قابل ذلك بقوله أغفر الذنوب جميعًا ، يعني وإن مَلأتْ لَيْلكم ونهاركم وعجيب أن تجد الحق يحدثنا عن خطايانا التي تَشْغَل زماننا كلّه حديثًا ليس فيه أي غضب وإنما يذكرنا سبحانه بما نَحْنُ فيه ثم يقول لنا إنه يغفر الذنوب جميعًا ثم يقول لنا إن أردتم مغفرة خطاياكم فليس المطلوب منكم إلا أن تستغفروني ووعدي لكم أن أغْفِر وهذا لو تأملته وجدت رحمة لا نهاية لها ويُسْر لا نهاية له وأعْجَبُ من التطرُّف والتشدُّد الذي نكدّ علينا حياتنا من أين جاء به إخواننا المنكدّون ، وأختم هذه الجملة بشيء هو أنك لو راجعت هذه المقدمات الكلية الموجبة التي هي كلكم ضال إلا من هديته وكلكم جائع إلا من أطعمته ، وكلكم عار إلا من كسوته ووضعت بجوار هذا قوله تعالى ﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ﴾ وجدت هذه الكليات صورًا جزئية من الآية وجدت نفسك توشك أن تجثو ، كما جثا سيدنا أبو إدريس الخَولانِي لأنه ربما استشعر هذا المعنى في الحديث وإنما كان يَجْثو لما وجده من الجلال والكمال وعظيم السلطان ، والمطلوب هو

أن تسكن المعاني في قلوبنا وإلا كان عملنا في الكتاب والسنة لَقْلَقَةَ أَلْسِنَةٍ لا تنجينا من عذاب ربنا وأصارحك بأن هذا الخاطر كثيرًا ما يراود نفسي فأفزع لأن الله غني عن العالمين جميعًا وإنما هي أعمالنا يحصيها لنا أو علينا ، وأُريد أن أذكّر بشيء هو أن الحقيقة من الحقائق الإلهية تراها ثابتة عندك وراسخة في قلبك كحقيقة أن كل شيء في يد الله وأن الخلق كله بين إصبعين من أصابعه ثم تقرأ قوله تعالى ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ وهذه مفردة من مفردات أن الكل في يد الله ومع ذلك حين نقرؤها أو نسمعها نجد فيها شيئًا لم نجده إلا فيها وهكذا نجد في كلكم ضال إلا من هديته وكلكم جائع إلا من أطعمته شيئًا لا نجده إلا فيها مع أن اليقين الذي لا شك فيه أنه ما بكم من نعمة فمن الله ، ولو استطعنا جمع هذه الأمهات ثم جمع ما تفرع من كل أم في كتاب أو سنة لوجدنا أشياء هي كالغائب الحاضر والمجهول المعلوم .

قوله تعالى : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني ولن تَبْلُغوا نَفْعِي فتنفعوني » .

بُنِيتْ هذه العبارة على أنكم لن تبلغوا ضَرِّي ولن تبلغوا نفعي وهذا هو المقصود من الجملة ، ليس المعنى أن الله سبحانه وتعالى لا يضره أحد ولا ينفعه أحد ، ولو كان هذا هو المراد لكانت العبارة عنه لن تضروني ولن تنفعوني ، ونفي النفع والضر عن الله سبحانه وتعالى من المعلوم بالضرورة لأن الضر نقص والله منزه عن النقص والنفع لا يكون إلا لناقص ، والمقصود بنفي أن يبلغ العباد حَدَّ ضَرِّه سبحانه وتقدس أو نفعه إنما هو بيان للنقص الذي فيهم في مقابلة الكمالات المطلقة التي ستَتَجلّى فيما يأتي من الحديث .

لأن الذي سيأتي شرح لنفي بلوغهم النفع والضر لخالقهم سبحانه وتعالى ، ثم إن مجيء هذا بعد ذكر الخطايا والاستغفار تأكيد لمعنى أن خطاياكم لا تضر إلا أنتم وأن استغفاركم وصلاحكم لا ينفع إلا أنتم ، وأن كل عناية الخالق بخلقه هي لخلقه وكل أمْر أمَرَ به هو لهم ، وكل نهي نهى عنه هو لهمْ ، وأنه ليس لله من ذلك شيء أي شيء فليس لله مصلحة في أن تكون صالحًا ، وليس على الله مضرة في أن تكون غير صالح ، وأن الذين يحاربون الله ورسوله يحاربون أنفسهم لا غير ، والذين ينصرون الله ورسوله ينصرون أنفسهم لا غير ، وكل سيلقى عمله ﴿ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أتينا بها ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضَرِّي فتضروني ولن تَبْلُغوا نفعي فتنفعوني هذه العبارة تبين المساحة غير المتناهية بين الخالق وخلقه وأن كل أمر إلهي هو فوق طاقة وإمكانات الأمر البشري .

قوله تعالى : « يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركُمْ وأنْسَكُم وجنكُم كانوا على أتقى قلب رَجُلٍ واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا » .

هذه العبارة من أبين صور البيان في هذا الحديث القدسي الشريف وأظهرها في الدلالة على عز الألوهية ، وهي موصولة وَصْلاً ظاهرًا بالنصف الثاني من القرينة التي قبلها لأنها توشك أن تكون بيانًا وشَرْحًا ظاهرًا لقوله سبحانه ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، وهذا ظاهر وظاهر أيضًا أن قوله ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني موصول بقوله قبلها فاستغفروني أغْفِر لكم وأن هذه المغفرة التي أطلب منكم أن تطلبوها لا نفع لي فيها . ثم إن الإيجاز الشديد في كلمة « لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم » من الإيجاز النادر الذي لم أقرأ له نظيرًا في غير كلام الله وكلام رسوله ﷺ وكيف جمع بين كلمة « أوَّلكُم وآخركُم » كل هذا العرمرم الذي لا يحاط به من أبناء آدم ثم صار

هذا الحشد في صورة قلب رجل واحد ثم اختير هذا القلب من بين ملايين القلوب التي لا حصر لها وأنه أتقى قلب ، ثم من هو صاحب أتقى قلب من الناس وفيهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ثم كيف انتقى البيان ما انتقاه ليؤكد الحقيقة الراسخة في القلوب وهي أن ملك الله لا يزيد بهذا .. كل هذا إذا تدبرته وجدت بيانًا لا عهد لك به ، وآفتنا أننا نقرأ الكلام الذي يقذف بمعناه في قلوبنا من غير أن نراجع كيف سيطر البيان على هذه المعاني المتسعة وكيف تولجت بها عبارة سمحة سهلة رَهْوة إلى ضمائر نفوسنا ، وعجيب أن يدخل في هذا عالم الجن كله بلفظة واحدة عطفت على أختها (إنسكم وجنكم) وكلمة (لو) الشرطية التي كانت أداة الربط بين هذه المعاني التي لا حدود لها هي لو التي يكون شرطها مبنيًّا على الفرض والتقدير لأن اجتماعنا من أولنا إلى آخرنا بما فيهم أنا وأنت وهذا العالم الحاشد في زماننا وقبل زماننا وبعد زماننا والجن كله على قلب أتقى رجل لا وجود له إلا على سبيل الفرض وذلك لتأكيد الجواب وهو أنهم لا يزيدون في ملك الله شيئًا أي شيء لأن ملك الله أوسع من أن يزاد فيه شيء أي شيء بهذه الصورة المبنية على الفرض والتقدير وهي أخت لو التي في قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ ، والمطلوب تأكيد أن كلمات الله لا تنفد ومِثْلُها لو التي في قول سيدنا عمر : نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه لأن عدم خوف صهيب من الله لا يكون إلا على سبيل الفرض والمراد أنه لا يعصى الله أبدًا ، وارجع إلى كلمة «أولكم وآخركم» تجدها جمعت طرفين متباعدين جدًّا ، أحدهما أول هذا الوجود والثاني آخر هذا الوجود وما بينهما هي الحياة الدنيا وكل أحيائها من الإنس والجن ، ثم راجع جمع كل هذه الأجيال المتباعدة والمتغايرة على قلب أتقى رجل وكيف يكون

ذلك ؟ ثم راجع كلمة «إنسكم وجنكم» وهو يخاطب الإنس المقصودين بقوله يا عبادي . فلماذا ذكرهم في قوله «وإنْسُكم» ثم ما معنى إضافة الإنس إليهم وهم الإنس والشيء لا يضاف إلى نفسه ؟ والظاهر والله أعلم هو أن المراد جمع طرفي الوجود ثم جمع نوعي الموجود ليكون ذلك أدعى إلى الاستقصاء ثم إن إضافة الإنس إليهم وهم الإنس ليس ببعيد لأنه يحمل على التجريد وأن البيان جرّد منهم قومًا أضاف الإنس إليهم كما تقول لزيد يا زيد احفظ زيدك كأنك جرّدت منه إنسانًا آخر طلبت منه أن يحفظ زيدًا ووسائل الإبانة في هذا اللسان الشريف تتسع لهذا وتتقبّله ولا تستبشعه ، وإضافة الجن إلى المخاطبين بقوله تعالى : يا عبادي ، إضافة لأدنى ملابسة . لأنهم ليسوا جنهم كما تقول كتاب زيد ودار عمرو وإنما أضيفوا إليهم لأنهم يذكرون معهم فيقال الإنس والجن ثم هما معًا الثقلان ، وبينهما من المغايرة ما بينهما وأبلغ ما في هذه العبارة وأبعده عن ألْسِنةٍ كثيرة هو الجمع بين أشد المتباعدات وأشد المتغايرات ووضع الكل في شيء واحد نادر جدًّا وهو أتقى قلب رجل واحد منكم وقل مثل ذلك في قوله جل وتقدس : يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا قلت كأن هذا البيان صيغ على هذا الوجه ليحفظ لأن الكلام تكرر كله مع أن المعنى تغيّر كله وإنما وضعت كلمة «أفجر» مكان كلمة «أتقى» ثم وضعت كلمة نقص مكان كلمة زاد فصارت القرينة مع اتحاد ألفاظها وتركيبها قرينة مقابلة للتي قبلها مقابلة التضاد ، وقد ترى هذا قريبًا وهذا القرب هو سر بلاغته لأنك لو حاولته لرأيته بعيدًا جدًّا ، وكان الباقلاني يضيف إلى تأمل البيان شيئًا مهمًّا وهو أن تحاول أن تَبْني كلامًا على شاكلته ومن خلال هذه المحاولة ستدرك بُعْدَ مناله .

وهذا وشبهه أصله في الكتاب العزيز قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (إبراهيم:٨) وجملة ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ ليست جواب الشرط لأنها غير مترتبة عليه لأنه سبحانه غني حميد كفروا أو آمنوا وغني حميد قبل الخلق وبعد الخلق والجواب محذوف وهذه الجملة دليل عليه والتقدير والله أعلم إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعًا فإن كفركم لا ينقص من ملكه شيئًا لأنه غني حميد وهذا هو الذي في قوله سبحانه في الحديث «ما نقص ذلك من ملكي شيئًا» وهذا مما يسكّن جأش أهل الله الذين يرون ضراوة الحرب لدين الله فيفزعهم ذلك ثم يسكّن فزعهم أن الله غني حميد وأن ضراوة الحرب هذه إنما هي ضراوة حروبهم لأنفسهم لأن عاقبة ذلك عليهم ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وهذه الجملة والتي قبلها تؤكد حقيقة واحدة وهي أن الله سبحانه وتعالى يحثنا ويغرينا بالعمل الصالح لأنفسنا لا غير ويحثنا ويغرينا بالبعد عن السيئات لأنفسنا لا غير وأن صالحاتنا لا تنفعه وأنه يرضاها لنا لا لغيرنا وأن سيئاتنا لا تضره وأنه لا يرضاها لنا ولا لغيرنا .

قوله تعالى : «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص مما عندي إلا كما ينقص المَخِيطُ إذا أدخل البحر» .

انتقل الكلام من معنى أنكم لن تبلغوا ضَرِّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني وما أعقبه من شرح وبيان إلى ما يؤكده من أن خزائنه لا يغيضها نفقة وهو من معنى «غني حميد» ويلاحظ أن طريقة البناء التي شرح بها

إنكم لن تبلغوا ضرّي هي طريقة البناء التي شرح بها توكيد هنا وأن خزائنه لا تنفد وقد سبق هذا الحَذْو الواحد بقرينة مختلفة وهي لن تبلغوا ضري ولو رجعت إلى الوراء لوجدت الحَذْو الواحد في «وكلكم ضال إلا من هديته» «وكلكم جائع إلا من أطعمته» «وكلكم عار إلا من كسوته» وهذه الثلاثة ذات حذو واحد ومعانيها متقاربة جدًا ، وهي مسبوقة بقرينة مخالفة في الحَذْو وهي إني حرمت الظلم على نفسي إلى آخره ثم جاء بعدها ثلاث قرائن ذات جذر واحد ثم جاءت قرينة مختلفة «لن تبلغوا ضري ثم جاءت ثلاثة بعدها ذات حذو واحد وهي متقاربة كتقارب الثلاثة التي قبلها وتذكر قبول العبقري التائه منا وهو أبو الفتح لما فتح باب معنى تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني ، وذكر الشيخ النجار محقق الخصائص وقد سمعت منه وهو قريب من طبقة أبي الفتح وقال إن باب تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني الذي ذكره أبو الفتح لم يفتحه أحد بعده مع أن النظر في اللغة والبيان يشير إلى تكاثره جدًا ويشير إلى تجاوزه في الحدود التى ذكره فيها أبو الفتح فيها لأن أبا الفتح ذكر التصاقب في بناء المفردات وهو كما ترى في بناء الكلام ، وقوله سبحانه «قاموا في صعيد واحد» هو كقوله تعالى « كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم» «كانوا على أفجر قلب رجل واحد» أقول هذه الثلاثة جاءت على سبيل الفرض والتقدير كما تفرض المحالات وتقدر لأن اجتماع الناس من لدن آدم إلى آخر من يصعق وقت النفخ من المستحيل وكذلك اجتماعهم هنا على صعيد واحد من المستحيل ثم سؤال كل واحد ثم إعطاء كل واحد مسألته . لو هنا تفيد أنه على فرض صحة ذلك ما نقص ذلك مما عند الله ، وتفيد في التي قبلها أنه على فرض صحة أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أفجر قلب ما نقص ذلك من

ملك الله شيئًا وهذه الشواهد ومثلها قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ ﴾ وقوله جل شأنه ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ وقول عمر رضي الله عنه نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه ، وكلها بني الشرط فيها على الفرض والتقدير استشهد ابن هشام بهذه الشواهد على بطلان ما جرى على ألسنة المعربين من القول بأنها تفيد امتناع شرطها وامتناع جوابها لأن امتناع الشرط والجواب في الشواهد التي ذكرها ابن هشام وأضَفْتُ إليها هذا الحديث يفيد عكس المراد لأنه يفيد في الآية أنهم يؤمنون وهو امتناع ما كانوا ليؤمنوا ويفيد عدم نزول الملائكة وعدم كلام الموتى وعدم حشر كل شيء عليهم لأن نزول الملائكة عدمه عدم نزولهم وهكذا وهو كلام جيد لابن هشام واحذر أن تظن أن هذا ليس من تخصصك لأنك لا تفهم الكلام إلا بعد فهمه ، وقوله تعالى : « إلا كما ينقص المخيطُ إذا أدخل البحر » مفعول ينقص محذوف والتقدير إلا كما ينقص المخيط من البحر إذا أدخل البحر ، وهذا الاستثناء يوهم قبل ذكر المخيط والبحر أن ثمّة نقصًا قد كان فإذا قرأنا المخيط والبحر والمخيط جسم صقيل لا يعلق فيه شيء أي شيء من ماء البحر مع أنه لو علق به الماء فليس للذي علق به قيمة بالنسبة لماء البحر أقول مَعْنَى هذا أن عطاء كلٍّ مسألته كأنه لم يؤخذ هذا العطاء من خزائن الله وليس المعنى أنه أخذ منها ولم ينقصها لأن المُشَبَّه به الذي هو المخيط لم يصب شيئًا من ماء البحر ، هذا شيء والشيء الآخر أن هذا الاستثناء مما يؤكد به المعنى لأنه يعني أن عطاء كل مسألته يُنْقِصُ من ملك الله إذا كان المخيط يُنقص من البحر شيئًا وهو من باب قولهم :

وبلدة ليس بها أنيس … إلا اليعافير وإلا العيسُ

فإن هذا معناه أنه لو كانت الظباء التي هي اليعافير والعيس التي هي الإبل أنيسًا كان في البلدة أنيس ، ومثله

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم … بهن فلول من قراع الكتائب

فإذا كانت فلول السيوف من قراع الكتائب عيبا كان فيهم عيب وهذا ظاهر ولم أعرف هذا التشبيه في كلام العرب والذي أعرفه أن هذا الحديث أول من فتح هذا المعنى أعني تشبيه ما لا يحصل أو من لا يحصل على شيء بوضع المخيط في البحر ، وهو في أوَّليّته كقوله تعالى ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ ، وقوله «فأعطيت كل إنسان مسألته» مع أن قوله قبلها «فسألوني» شامل للذين على الصعيد الواحد وهم الإنس والجن .

قال النووي : «قال العلماء هذا تقريب إلى الأفهام ومعناه لا يُنقص شيئًا أصلاً كما قال في الحديث الآخر «لا يغيضها نفقة» أي لا يُنقصها نفقةٌ لأن ما عند الله لا يدخله نقص وإنما يدخل النقص المحدودَ الفاني وعطاء الله تعالى من رحمته وكرمه وهما صفتان قديمتان لا يتطرق إليهما نقص فضرب المثل بالمخيط في البحر لأنه غاية ما يُضرب به المثل في القِلّة والمقصود التقريب إلى الأفهام بما شاهدوه فإن البحر من أعظم المرئيات عيانًا وأكبرها والإبرة من أصغر الموجودات مع أنها صقيلة لا يتعلق بها ماء والله أعلم» انتهى كلام النووي . والمقصود من هذا النص قول العلماء «وعطاء الله تعالى من رحمته وكرمه وهما صفتان قديمتان لا يتطرق إليهما نقص» ومعنى هذا أن قوله تعالى ما نقص ذلك مما عندي أي ما نقص ذلك مما يكون بقولي كن ، وأن الذي عند الله هو عطاؤه الذي يكون بقوله كن وأن قولنا خزائن الله معناها قوله كن وهو ما يكون برحمته وكرمه اللذين

هما صفتان قديمتان وهذا هو معنى مثل قوله تعالى ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ ﴾ لأن خزائنه هي صفات كرمه ورحمته ويكون ما يكون من عطائه بقوله كن وما دام كذلك فلا يجوز على خزائنه التي هذا معناه أن تنقص ولو كان أولنا وآخرنا وإنسنا وجننا على صعيد واحد وسألوا كل واحد ما شاء أن يسأل وأعطى الله الكل ما نقص ذلك شيئًا ولا يتصور النقص لأن كل هذا العطاء ليس من الخزائن التي نعرفها وإنما هو قوله سبحانه ﴿ كُن فَيَكُونُ ﴾ هذا ما أفهمه من كلام العلماء والله أعلم .

قوله سبحانه « يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أُوَفّيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنّ إلا نفسه » بنى هذا الجزء الأخير من الحديث على كلمة إنما التي تفيد الحصر وهي بمعنى « ما وإلا » وتختلف عنها في أن ما دخلت عليه معنى لا يجهله جاهل ولا ينكره منكرًا ، وغالبًا ما يسبق بما يهيئ له ، ثم إن المحصور هنا هو ضمير « هي » وهي ضمير الشأن والمحصور فيه مفسره وهو جملة أعمالكم أحصيها لكم وعطف على ذلك قوله ثم أوفيكم بها ، وترتب على ذلك قوله فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه ، هذا هو بناء المعنى وترتيبه . وضمير الشأن يفيد المعنى عناية خاصة لأنه يجعل النفس تَستَشْرِفُ للمعنى وتطلبه وذلك بتقديم الضمير الذي ليس له مرجع وإنما مرجعه ما بعده وهذا يعني عناية خاصة بهذا المعنى ولم يقع في الكلام إلا في المواطن التي لها شأن ، وهذا الجزء هو بمثابة الفاصلة القرآنية التي تأتي في آخر الآيات وتتضمن ما جاء في الآيات وتؤكدها ولو راجعت الحديث من أوله لوجدت هذا القسم متضمنًا كل ما مضى ولوجدته أيضًا من باب رد العجز على الصدر لأن أول الحديث تحريم الظلم وآخر

الحديث إحصاء للعمل وتوفيته فمن ظلم وجد ظلمه مُحْصِيًا ووجد توفيته ومن عدل وجد عدله محصيًا ووجد وفاءه ولو وضعت هذا الجزء في عقب كل قرينة في هذا الحديث لوجدته ملتئمًا ، قل إنى حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا وإنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم بها وقل كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم إنما هي أعمالكم أحصيها لكم إلى آخره . وقل فاستطعموني أطعمكم إنما هي أعمالكم وقل إنكم لن تبلغوا ضرّي إنما هي أعمالكم إلى آخره ، وهذا ظاهر لأن كل أجزاء الحديث حَثٌّ وحَضٌّ على العمل وأن العمل ليس إلا لكم لا يزيد في ملكي طاعتكم ولا تنقصوا من ملكي بمعصيتكم ، وأنني غني حميد لا تنقص خزائني ، وهذا هو الذي هيأ لمجيء « إنما » وصار المعنى بعدها بسبب ما تقدمه كأنه يوشك أن يلوح حتى إن النفس اليقظى والفهم المتسارع يكاد يدركه كما يقول العلامة سعد الدين في مثله .

وهذا يعني أيضًا أن حياتنا كلها قائمة على شيء واحد هو أعمالنا وأنها إذا خلت من العمل لا يتصور لها وجود ، وأن الله سبحانه شرع في ذلك شرعًا هو أن نتوجه إليه وأن نبتغي منه العون ابتداء من الهدى ثم ما به قوام حياتنا من الطعام والكساء ، ولاحظ أنه سبحانه لما قال لنا استهدوني يعني يطلب كل منكم الهدى ويمكن تحصيل كل فرد للهدى لأنه لا يستوجب عملاً جماعيًا ثم قال استطعموني ولا يمكن لي وأنا فرد أن أستطعم فأطعم كما كان في الهدى كذلك لا يمكن لي أن أستكسو فأكسى لأن الكساء لا ينتجه فرد كالطعام وإنما هو من أعمال الجماعة التي بها قوامها فالجماعة تطلب طعامها الذي تنتجه أيديها وكساءها الذي تنتجه أيديها ، ونطلب ذلك من الجهة التي يطلب منها كما بينت وبهذا يدخل في الحديث الأعمال

الجامعة للخبرات المتنوعة ولا أشك في أن هذا إشارة إلى أنكم يجب أن تسُدُّوا حاجاتكم بأيديكم ولا تكونوا عالة على غيركم فيما به يكون قوام وجودكم كالطعام وما به تَسْتَرُون بين الناس كاللباس ، وقسم الطعام والكساء في الحديث يوجب دخولنا في مَعْمَعَةِ الإنتاج اللازم لما به يكون قوام حياة الأحياء المكرَّمِين ، وأخيرًا أُلاحظ أمرا مهما هو أن ربنا جل وتقدّس يطلب منا أن نطلب منه في قوله استهدوني واستطعموني واستكسوني ، وأن طلبنا منه يقربنا إليه وأن الإلحاح في الطلب منه يزيدنا قربًا ، وهذا بخلاف الطلب من غيره لأن الطلب من غيره لا يقربنا من الذي نطلب منه بل ربما ملّنا وزَهِدَ فينا وابتعد عنا إذا أكثرنا من الطلب ، وهذا فَرْق ظاهر بين الطلب من الخالق والطلب من المخلوق ، الطلب من الخالق كرامة والطلب من المخلوق إهانة . هذا والله أعلم .

وقبل أن أطوي صفحة هذا الحديث الذي لا تنتهي عجائبه أكرر التنبيه إلى أشياء أولها أن ذكر قربته كلكم جائع وكلكم عار بعد كلكم ضال في هذا الاقتران إشارة إلى أن الجوع والعري من الضلال وأن طلب الطعام وطلب الكساء من الهدى وأن التخلف المفضي إلى جوع شرائح من المجتمعات ضلال وأنه من الهدى أن يعرف الناس وسائل العلم التي تعينهم على أن يستخرجوا من الأرض أقواتها وأن المستهدى هو الذي يطلب معرفة الحق والصواب أيًا كان الحق وأيًا كان الصواب وأن معرفة الله الذي هو الحق يقترن بها معرفة الصواب والحق الذي يذهب به الجوع ويذهب به العري . وأن نعمة الهداية لذكر الله لا تبعد عنها نعمة الهداية لمعرفة أسرار الأرض وأسرار الزرع هذه المعرفة التي يعيش بها الذاكر مكفيًا الحاجات عزيزًا منيعًا رافعًا رأسه بقدرته على حماية أرضه وحماية عرضه ولا شك أن

الجهل ضلال والعلم هدى ، وتحديد الجهل في أذهاننا بعدم معرفة القراءة والكتابة هو ذاته جهل والحقيقة أن السياق العلمي يجعل الجماعة التي في الصف الثاني من هذا السباق جماعة جاهلة والتقدم بشَرْطَةٍ واحدة هو العلم والتأخر بشَرْطَةٍ واحدة هو الجهل والتقدم بشرطة واحدة هو الهدى . والتأخر بشَرْطَةٍ واحدة هو الضلال ولابد أن يعيش الجيل على هذه الثقافة وإذا كان سيدنا أبو إدريس كان يجثو إذا حدّث بهذا الحديث فلا يجوز لي وأنا إحدى قدميّ في القبر أن أضيف إليه معنى لا يحتمله .

والأمر الثاني الذي أريد أن أكرر التنبيه إليه هو أن ذكر الجوع والعري وأننا نبحث عن وسائل توفيرها هذا البحث المفهوم من كلمتي فاستطعموني واستكسوني أقول ليس المعنى متوقفًا عندهما وإنما أفهم منه وهذا حق هو أن ما به قوام حياتكم يأمركم ربكم باتخاذ سبل تحقيقه مستعينين به وهو واعد بأن يُعين وَوَعْدُه لا شك فيه فإذا كنتم في زمان تصدير الصناعة فيه من المقومات الضرورية للحياة كالطعام واللباس فاسلكوا الطريق إليها بما أوْدَعَ الله فيكم من القدرات العلمية والعقلية واستعينوا تُعانوا ، وإذا كان التقدم العلمي ضرورة من ضرورات الحياة كالطعام واللباس فاسلكوا طريق التقدم العلمي واستعينوا تُعانُوا وهذا وعد ، واعلموا أني أعينكم لتكون صناعتكم ويكون علمكم ويكون تقدُّمكم من الخير لكم ولعبادي الذين أنتم جزء منهم ولا تنسوا أني أخاطب عبادي من آمن منهم ومن كفر ثم اعلموا أنها إنما هي أعمالكم أُحْصيها لكم ثم أُوفيكم بها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نَفْسَه ، ولا تَنْسَى أن كلمة فليحمد الله في هذا القسم الخاتم ناظر إلى قوله استهدوني أهدكم واستطعموني أطعمكم واستكسوني أكسكم واستغفروني أغفر لكم وأن أعمالكم التي وجدتم فيها

خيرًا هي جزء من قولي لكم كلكم ضال إلا من هديته ، وفيكُمْ ضُـلاَّلٌ لا يجهلون أنهم ضلال كهؤلاء الذين يقتلون المعارضين لهم في الشوارع ويكذبون ويقولون إنهم إرهابيون هم يعلمون أنهم ضُلاَّل وليس العلم كافيًا في الهداية ، فليس صالح أعمالكم لأنكم تَبَيَّنْتُمْ الرشد من الغيِّ فكم من أهل الضلالة تبين الرشد من الغيّ ولكن صالح أعمالكم أنكم مَدَدْتُم أيديكم تطلبون التعرف على الخير والحق فوُضعَتْ لكم المنارات فسلكتم الطريق . هذا والله أعلم .

* * *

• أنا عند ظن عبدي بي

ومما يحسن ذكره بعد هذا الحديث الذي كان يجثو عند ذكره سيدنا أبو إدريس الخولاني حديث قدسي آخر يفتح لنا أبواب رحمة ربنا والأحاديث القدسية وغير القدسية كالآيات القرآنية وكما أن في القرآن آيات توصف بأنها الأرْجَى يَعْني الأقوى في الرَّجاء والنجاة كذلك في الأحاديث أحاديث يقال فيها إنها الأرجى ، ومن هذه الأحاديث العظيمة الرجاء والتي هي برد على قلوب أهل الله ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا مَعَهُ حين يَذْكُرني إن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرتهُ في ملأ خيرٍ منه ، وإن تقرب مني شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » .

راجع هذا الحديث وراجع مكافأة الخالق لخلقه وكيف يكون اقتراب مالك السموات والأرض ومن فيهن إلى عبده أوْسع من اقتراب عبده إليه وأن العبد إذا مَدّ لله يدًا مَدَّ الله له اليدين أعني جازاه الجزاء الأوفى وكيف ترى الطريق إلى الله طريقًا ليس وَعْرًا ولامحفوفًا بمخاطر وإنما هو سَهْلٌ رَهْوٌ وأنّك لن تقطع المسافة التي تصلك إلى الله وإنما تتوجه وتقطع ثلث الطريق والحق يقطع إليك الثلثين لأن الذراع شبران والباع ذراعان وهذا الحديث قريب من حديث الرحم من جهة أن فعل الخالق جل وتقدس يَتّبَعُ فِعْل عَبْده فهناك نرى مالك الملك يتبع الرحم في وصله وقطعه فمن وصل الرحم وصله الله ومن قطع الرحم قطعه الله وهنا ترى شيئًا يُشْبهُ هنا فمن ذكر الله ذكره الله ومن اقترب من الله شبرًا اقترب الله منه ذراعًا ، ولا أعرف أجل ولا أكرم ولا أرحم من هذا وليس في الحياة شيء أفضل من أن يذكرك

الله وأن يُقْبِلَ عليك وإذا أرَدْتَ هاتين المنزلتين اللتين لا تعلوهما منزلة فحرِّكْ قلبك بذكره يذكرك، واقترب منه ذراعًا بِصَدقَةٍ أو كَلِمة صالحة يقترب منك، وتوجه إليه يتوجه إليك، واقطع على الطريق خطوة يقطع هو على الطريق إليك خطوتين، ولا يهلك على الله إلا هالك.

ومن المهم وأنت في رحلتك إلى الله أن تذكر شيئًا واحدًا وأن يكون هذا الشيء في راحلتك وهو أنك إن ذكرته ذكرك بشرط واحد وهو أن تكون صادقًا ما استطعت مخلصًا ما استطعت، متوجهًا ما استطعت مُبْتغِيًا وجهه ما استطعت. هذا هو الزاد الذي لا ينفد وهو لا يكلفك شيئًا خارجًا عن عَيْبَتِكَ وعن نفسك وإنما يكلفك أن تُصَفِّي هذه النفس وأن تُنَقِّيها من كل شائبة ومن كل كدر أعني أن ترجع بها إلى فطرتها البيضاء والصالحة والتي تسمو وتعلو على السَّفاسِفِ والخسائس. وتصير نفسًا ربانية تسمو فوق كل ما في الوجود من ضلالات وأكاذيب ودنايا.

والغريب أن كل فعل صالح حيّ من العَبْد مع ربه يقابله من ربنا فعل حيٌّ صالح فإذا تَرَفَّعْتَ زادك رِفْعةً وإذا صَفَّيت نفسك زادها صفَاءً وإذا خلَّصتها وأخْلَصْتَها زادها تخليصًا وإخلاصًا، وإذا صَدَقْتَ زادها صِدْقًا.

قوله سبحانه «أنا عند ظن عبدي بي» هذه الجملة هي جذر معنى هذا الحديث قال القرطبي في معناها، قيل معناها ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن قبول الأفعال عند فعلها على شروطها تمسكًا بظاهر وعده، وجزيل فضله، وقال النووي قال القاضي قيل معناه بالغفران له إذا استغفر، والقبول إذا تاب، والإجابة إذا دعا، والكفاية إذا طلب الكفاية، وقيل المراد به الرجاء، وتأميل العفو، وهذا أصَحّ، وكلام القاضي أصل لكلام القرطبي وقول القرطبي (عند فعلها

على شروطها) يجب أن ينسحب على الدعاء والتوبة والاستغفار ، لأن الداعي إذا دعا بقلب حاضر وصدق ظاهر وتوجه كامل وقع في نفسه القبول وكذلك التائب إذا تاب التوبة النصوح وندم ورد المظالم وكان قلبه حاضراً في كل لحظة يتوب فيها إلى الله وقع في نفسه ظن القبول وقل مثل ذلك في طلب الكفاية وفي الصلاة والزكاة والحج وكل عمل من أعمال البر وإن كان سَعْيًا على معاشه ودرسًا لطلابه ، ووقفة أمام الآلةُ في مصنعه لأن كل ذلك من أعمال البر إذا حضرت النوايا الصالحة ، وحضور هذه النوايا محتاج إلى صدق وصَفَاء وحينئذ يترجح عنده القبول أما الذي يصلي وهو غافل ويذكر الله بلسانه وقلبه مشغول فإن الشأن في مثله أن لا يظن القبول ، كل منا يعرف على وجه التقريب قبول عمله أو عدم قبوله لأنه يعلم أن الله سبحانه يعلم سريرة قلبه وقد يصلي وكأنه لا يصلي وقد يُزيحُ غصن الشوك عن الطريق فيتقلب في الجنة كالرجل الذي أخبر عنه سيدنا صلوات الله وسلامه عليه وليست الأعمال إلا بالنيات .

والخلاصة أن المسلم إذا أتى بعمله على وجهه ويئس من القبول فقد وقع في كبيرة لأن اليأس من رحمة الله والشك في إنجاز الوعد كبيرة بإجماع الأمة وإذا فعل العبد كل طاعاته على غير الوجه الذي حدّده الشرع واعتقد القبول فهو جاهل وحاله كحال من لم يفعل لأن كل فعل لم يكن على أمر الله فهو رَدٌّ وعلينا أن نُحْسِنَ العمل ونُتْقِنَه على وجهه الشرعي ثم نحسن الظن في الله ، وأحيانًا يجتهد العبد في تحقيق شروط التوبة ، والاستغفار والذكر والطاعة ثم يداخله الإحساس بأنه لم يحقق الشروط المطلوبة لقبول العمل يَعْني هو يصلي ويجتهد ويصاحبه الإحساس بالتقصير وأن عمله هذا لم يستوف الشروط التي ترفع فيها الأعمال إلى الله وهكذا هو في كل طاعاته

وهذا النوع لا يحسب من الذين لا يحسنون الظن في الله وإنما هو محسوب من الذين لا يحسنون الظن في أنفسهم وأرى هؤلاء من أهل القبول لأنهم يدخلون في قوله تعالى ﴿ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ .

قوله سبحانه «وأنا معه حين يذكرني» هذه الجملة التي يحفظها كثير منا لو سكنت في قلب فلن يدع ذكر الله لأنه ما دام يذكر فهو في معيّة الله ، ولا يمكن أن يرد في خاطر مؤمن أن يَقْطَع هذه المعيَّة والله سبحانه وتعالى وتقدس يقول وأنا معه ولم يقل وهو معي ، والفرق بينهما كالفرق بين أن تقول زيد معي وأنا مع زيد فرق بين أن يكون أنت في معية زيد وأن يكون زيد في معيتك وإكرام الكريم للذاكرين أن يكون هو بجلاله وكماله وسلطانه في معيِّتهم ، ومعية الله هي رحمته ولطفه وعطاؤه وإكرامه وما لا يحصى مما تفيض به هذه المعية التي هي على خطوة واحدة منا أو هي على طرف التمام كما كان يقول كبارنا والتمام شجر قريب جدًّا وطرفه في متناول كل يد ، ومن الضروري ملاحظة الظرف الذي هو «حين يذكرني» ولا تقر عيونُ العارفين كما تقرُّ حين تكون في تلك المعية ، وجملة «وأنا معه حين» توشك أن تكون كل الجمل بعدها امتدادًا لها ، وراجع ذلك وتدبّرْه ليكون عندك ظاهرًا وتوشك أن تكون جزءًا من معنى الجملة التي قبلها وهي «أنا عند ظن عبدي بي» والذكر الجالب لهذه المعية ليس ذكر اللسان وحده لأن إطلاق كلمة الذكر على ذكر اللسان وحده ليس من باب الحقيقة وإنما هو من باب المجاز لأن الذكر الحقيقي استحضار القلب والعقل للشيء المذكور تقول كنت نسيت كذا ثم ذكرته تعني استحضره عقلي ، قال القرطبي : «أصل الذكر بالقلب للمذكور والتيقُّظ له ومنه قوله اذكروا نعمتي التي أنْعَمْتُ عليكم أي تذكروها وقوله ﷺ «من نام عن صلاة أو نسيها

فليصلها إذا ذكرها أى إذا تذكرها بقلبه» انتهى كلام القرطبي . وقوله تعالى «وأنا معه حين يذكرني» أي يذكرني الذكر الذي يجده قلبه وتَغْشَاهُ السكينة والمحبَّة لله والقربُ منه وسئل ابن عطاء عن ذكر اللسان مع غفلة القلب فنصح بأن يستمر هذا النوع من الذكر لعله يواطئ القلب يومًا ما .

قوله سبحانه «إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي» النفس معناها الذات وأعلى أنواع الذكر أن تنفرد بذكره وتسبيحه وتقديسه وأن ترفّع به طبقة فوق طبقة حتى تصل إلى المرتبة الأعلى وهي أن تذكر الله وكأنك تراه فإنْ لم تصل إلى ذلك فاذكره وأنت تعلم أنه يراك ، وما دام يراك فهيئ قلبك عند ذكر الله لرؤية الله لك فيرى خواطرك ودواخلك وحالك كله وأن تذكره سبحانه بكل ما فيك من عقل وحسّ وكأن ذكره سبحانه يجْري في لحمك ودمك وكأن كل شيء فيك ينطق بهذا الذكر وهذا مع فضله سبحانه ومنّه يؤهلك للمعيّة وكلمة «إن» الشرطية التي بنيت عليها هذه الجملة تأتي في المعنى النادر وذلك للإشارة هنا إلى أن تحصيل مرتبة الذكر التي تفتح الطريق لهذه المعية المباركة بعيدة الشأو ولا ينالها إلا من اختاره الله لها وذكر الله لعبده قبول وقرب وفضل ثواب وأفضل ما في عطاء الذاكر أن يزداد ذكره حسنًا وصدقًا ومحبَّة وقربًا والله سبحانه يزيد الحسنة حُسْنًا بمعنى أنه يعطي صاحب الحسنة ما يُحسِّنُ به حسنة أخرى أعلى وأفضل ويعطي صاحب الذكر ذكر أعلى وأصفى وأصدق ، ويعطي صاحب الصلاة الحسنة صلاة أقرب وأحسن وأفضل ، يعني أن ثواب الصالحات فوق ثواب الآخرة هو التوفيق للمزيد من هذه الصالحات ، وإذا كان إكرامه للحسنة أنه يجعلها بعشرة أمثالها وهذا هو الحد الأدنى ثم يرتفع بها إلى سبعمائة ضعف فإن الذي هو أفضل من ذلك أن يُعْطيه التوفيق لحسنة أخرى ،

ولصدقةٍ أخرى ولصلاة أخرى ولعبادة أخرى ، وأقول لمن هم في مهنتي إن من أمارة قبول الله لدرسك الذي درّسته بالأمس أن يوفقك فتحسن درسك اليوم حتى يكون أحسن من درس الأمس ، وهذا من معنى ونزد له فيها حسنا ، أما مضاعفة أجرك في الآخرة فبدلاً من أن يكون على عمل قد كان . يكون أيضًا على عمل هو يكون ؛ وعلى عمل سيكون ، حتى يأتيك اليقين .

قال القرطبي : ذكر الله لعبده في نفسه أنه يعُدُّ له ما أُخْفِي لهم من قرة أعين قال رحمه الله « والأليق بهذا الحديث أن يكون معناه أن من ذكر الله تعالى خاليًا منفردًا بحيث لا يطلع أحد من الخليقة على ذكره جازاه الله على ذلك بأن يذكره فيما أعدّ له من كرامته التي أخفاها على خليقته حتى لا تعْلَم نفسٌ ما أُخْفِيَ لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » وقال في بيان وأنا معه حين يذكرني « لأن من ذكر الله في نفس مُفْرغَةٍ مما سواه رفع الله عن قلبه الغفلات والموانع وصار كأنه يرى الله ويشاهده وهي الحالة العليا التي هي أن تذكر الله كأنك تراه فإن لم يصل إلى هذه الحالة فلا أقل من أن يذكره وهو عالم بأن الله يَسْمَعُه ويراهُ ومن كان هكذا كان الله أنيسًا له إذا نَاجَاه ومُجيبًا إذا دعاه وحافظًا له من كل ما يَتَوَقّعه ويخْشاهُ ورَفيقًا به يوم يتوفاهُ ومُحِلاً له من الفردوس أعلاه » انتهى كلام القرطبي .

ولاحظ المناسبة اللطيفة التي لَحَظها القُرطبي بين الذكر المنفرد الذي لا يطلع عَلَيْه أحد والثواب الذي هو الكرامة التي أخفاها الله على خليقته كفاء ذكر هذا الذاكر الكريم الذي أخْفَى ذكره لله عن الناس ثم لاحظ الكلمة الجليلة التي هي أن من ذكر الله في نفس مُفْرغة مما سواه رَفَع اللهُ عن قلبه الغفلات والموانع وصار كأنه يرى الله وهذا يعني أن ثواب الصالحات هو توفيق الله لعبده إلى عمل مزيد من الصالحات ، ومَزِيدٍ من تَحْسين هذه

الصالحات برفع الغفلات وبذكر الله وكأنه يراه ، وهذا راجع إلى قوله تعالى ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ يعني بعد أن تكون حسنة اقترفها يقترف هو بالتوفيق حسنةً أكثر إحسانًا أو ليس للإحسان موضع أكرم من أن يكون إحسان الحسنة وإحسان العمل الصالح الذي تصلح به أحوال البلاد وأحوال العباد ، وتأمل المضارع في قوله (وأنا معه حين يذكرني) والمضارع دال على الحال والاستقبال الممدود بامتداد العُمْر أي في أي وَقْتٍ يذكرني فيه يجدني معه .

قوله تعالى « وإنْ ذكرني في مَلأ ذكرتُه في ملأ خَيْر منه» أولا نلاحظ أن أداة الشرط التي بني عليها الحديث هي « إن» التي للشرط في المستقبل ووقوع الماضي بعدها فيه إشارة إلى الحثّ على الذكر وأنه لو عرف ثوابه لسارع إليه ، وحين يوضع الماضي موضع المضارع في مثل هذا السياق يُفيدُ معنى أن ما كان للوقوع كالواقع وأن المؤمن يسارع إليه حتى كأنه وقع ثم إن كلمة (إن) تدل على أن شرطها هذا من النادر أن يتحقق لأن الذكر على الوجه المذكور والذي يقابله ذكر الله لعبده مُحتَاجٌ إلى تدقيق وإتقان ونفس مُفْرغة كما يقول القرطبي . وأنه مع هذه الأوصاف البعيدة المنال مما يجب أن يسارع إليه الراغبون في القُرْب من الله ثم إن هذه الجملة مقابلة للجملة قبلها « إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي» وحذو البناء حذو واحد وتكرار الكلمات التي هي أصل المعنى ظاهر ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي .. ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ ، وكل هذا يقرب المعنى من النفس ويُدخلها دخول المأنوس المألوف وقد مضى مثل هذا وأهم ما في هذه الأساليب التي تُدْخِلُ المعاني في النفوس أنها تُسْكنُ أسرارها في أسرار النفوس حتى تتغيَّر وتتحول إلى العدل والبر والرحمة والإتقان وإلى كل ما يكون به صلاح البلاد

والعباد ، وهذا هو الفرق بين تذوق البيان في الشعر وكلام الناس وتذوق البيان في كلام الله وكلام رسوله ﷺ .

وتقدم قوله تعالى « إن ذكرني في نفسه» على قوله وإن ذكرني في ملأ لأن الذكر في النفس أبعد عن الشبهات وإن كان الذكر في الملأ الذي يترتب عليه ذكر ربنا له في ملأ أفضل هو أيضًا بعيد عن الشبهاتَ والعبادة الخفية أفضل والصدقة الخفية أفضل والذكر الخفي أفضل وهذا لا يتنافى مع فضل مجالس الذكر التي تحفُّها الملائكة والتي لا يشقى جليسها الذي دخلها وليس منها لأن هذه لها خصوصية أُخْرَى وهم خلاف الملأ الذي يذكر العبد ربه فيه لأنه لا يشترط في هذا الملأ أن يكون ذاكرا معه كما هو الحال في مجالس الذكر ، والملأ الذي يذكر الله عبده فيه هم الملائكة وذكر الله عبده في هذا الملأ هو ذكر القبول والثناء من الملائكة وأن جبريل عليه السلام ينادي فيهم بقبول الله لهذا العبد وبالثناء عليه والدعاء له وقد استدل الذين قالوا بأن الملائكة أفضل من الناس بهذا الحديث كما استدلوا بقوله تعالى ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ لأن هذا التدرّج يَعْني أن الملائكة أفضل من المسيح عليه السلام ولا خلاف في أنه عليه السلام من خير خلق الله ولو قلنا إن الملائكة أفضل من الإنس لا يعني فضلهم على كل واحد من الإنس كما تقول بنو أسد أكرم من بني تميم وهذا لا ينفي أن يكون من بني تميم من هو أكرم الفريقين والمسألة كما يقول القرطبي لها غور لا يتسع المقام هنا لذكره ، وهذا القسم من الحديث جذره قوله تعالى « فاذكروني أذكركم » .

قوله تعالى « وإن تقرّب مِنيٍّ شِبْرًا تقرّبت إليه ذراعًا . وإن تقرب إلي ذراعًا تقرّبتُ منه باعًا » انتقل الكلام من حالتين للذكر إلى حالتين للتقرُّب ،

وبناء الكلام هو هو وإن التي للشرط النادر باقية لأن التقرب الذي يترتب عليه تقرّب من الله لا ينال بالهُوَيْنَا وإنما بصفاء القلب وتفريغه وخلوصه وصدقه ، وكما أن كلمة الذكر شاعت هناك وسهلت الحفظ مع وَحْدَةِ طريقةُ البناء فإن كلمة التقرب هنا حَلّتْ محلها وشاعت مع وحدة البناء وسهولة اللفظ وحُسْنه وسلاسته واقترابه من أن يحفظ من أول مرة ، والتقرب أوْسَع من الذكر لأنه يكون بالذكر وبالصلاة والزكاة وغير ذلك مما فَرَضَهُ الله علينا وبما ندبنا إليه وكل ذلك مشروط بشرطين مهمين الأول أن يقع على الوجه الشرعي لأن الله لا يعبد إلا على الوجه الذي شرعه وأي مخالفة يُردّ العمل بها ، والثاني الخلوص الكامل في التوجه بالعمل إلى الله والحذر التام من أي شائبة تَختَبِئُ منك في سرداب من سراديب نفسك تُدلّس عليك وتلتبس عليك وتنظر خفية إلى غيره سبحانه ، وهذا هو الذي لا يَسْلَمُ منه إلا من سلّمه الله . وهذا القسم مَبْني على المجاز لأن العبد لا يتقرب بمقدار الشبر المعروف والحق لا يقترب بمقدار الذراع جل الله عن ذلك وتقدس ، وإنما يتقرب العَبْدُ بالطاعة والتوجه إلى الله بمقدار ما مُنح من توفيق فإذا اقترب من مَرْضاته وقبوله ومغفرته ورحمته رأينا الحق سبحانه يمنحه من القبول والرضا وحُسْن الوسيلة وصفاء القلب ما يعينُه على أن يقترب أكثر ، قال القرطبي في تعليقه على هذا القسم : « هذه كلها أمثال ضربت لمن عمل عملاً من أعمال الطاعات وقصد به التقرُّب إلى الله تعالى يَدُلّ على أن الله تعالى لا يضيِّع عمل عامل وإن قَلّ بل يقبله ويجعل له ثوابًا مضاعفًا ثـم قال : ولا يفهم من هذا الحديث الخُطَا ونَقْل الأقدام إلا من ساوى الحُمُر في الأفهام» ، انتهى كلامه . والمقصود هذه الجملة الأخيرة « إلا من ساوى الحمر في الأفهام» لأن هذه اللغة ليست من شأن علمائنا ومنهم القرطبي

وإنما جاء بها مع شذوذها عن كلامه حتى تكون مجازًا بين القارئ وتصور التشبيه ، والذي يقترب بعمله إلى الله شبرا وهو قادر على أن يقترب ذراعًا هو متباطئ في سعيه إلى ربه ومع هذا التباطئ نجد الله سبحانه يقترب إليه بمعنى يتقبل عمله ويثيبه ويُوفّقه بأضعاف مضاعفة .

ذكر العلماء أن الذراع شبران وأن الباع ذراعان وأن هذا يوهم أن الله سبحانه يجازي الحسنة بحسنتين وهذا يخالف المعلوم بالكتاب والسنة وهو أن الحسنة بعشرة أمثالها وهذا هو الحد الأدنى للمجازاة ثم يزيد إلى سبعمائة ضعف ثم يزيد الله من شاء حتى تكون الصدقة مثل جبل أحد وأجاب العلماء ببيان أن الحديث لم تكن من مقاصده بيان مقادير الجزاء وأنها الضَعْف بدليل قوله تعالى « وإن أتاني يمشي أتيته هرولة » وليس في هذا شيء من معنى المثلين اللذين في الشبر والذراع . والذراع والباع وإنما الحديث متوجه إلى معنى آخر وهو أن الله سبحانه يفرح بطاعة عَبْده ويتقبّل الطاعة وإن قلت كالشبر ويغري سبحانه بالمزيد ويستجيب الصالحون وتزيد أعمالهم التي تقربهم إلى ربهم ويصبح الشبر ذراعًا ثم يصبح الذراع باعًا ، ثم يستقيم الأمر ويتوجه العبد على طريق الوصول ويمشي ساكنًا مطمئنًا على طريقه وهكذا ، قال القرطبي : « إن هذا الحديث سبق لتحقيقه أن الله تعالى لا يضيّع عمل عامل قليلاً كان أو كثيرًا وأن الله تعالى يُسْرِعُ إلى قبوله ، وإلى مضاعفة الثواب عليه إسراع من جيء إليه بشيء فبادر لأخذه وتبشيش له بَشْبَشَةُ من سُرّ به ووقع منه الموقع » والبشبشة في كلام الشيخ صِفَةَ مَنْ ضُرِبَ به المثل وهو الذي جيء إليه بشيء فبادر لأخذه .

قال صاحب اللسان عن ابن الأعرابي « البشُّ فرح الصديق بالصديق واللطف في المسألة والإقبال عليه والتَبشْبُشُ في الأصل التَبَشُّشُ فاستثقل

الجمع بين ثلاث شينات فقلب إحداهن باء ونقل عن يعقوب قوله يقال لقيته فتَبَشْبَشَ بي وأصْلُه فتبشّشَ فأبدلوا الشين الوسطى باء وفي الحديث لا يُوطِنُ الرجلُ المساجد للصلاة والذكر إلا تَبَشْبَشَ الله به كما يتبشْبَشُ أهل البيت بغائبهم إذا قدم عليهم وهذا مثل ضربه لتلقّيه جلّ وعزّ ببرّه وكراماته وتقريبه إياه» .

• للهُ أَفَرْحُ بتوبة عبده

رأينا في الحديث الذي مَضَى حُبَّ الله لعباده الذين يعملون الصالحات ، وإقباله عليهم وسَعْيَه جَلَّ وتقدّس للاقتراب منهم سعيًا يزيد عن سعيهم هم للاقتراب منه سبحانه ، والآن أذكر حديث التوبة ومعلوم أن التوبة لا تكون إلا من كبيرة أو كبائر لأن الله سبحانه وتعالى أكرمنا بالعفو عن الصغائر من غير توبة ويكفي اجتناب الكبائر وهذا الاجتناب نَفْسُه كفّارة للصغائر وهذه رحمة تضيعُ منا لأننا لم نتأملها لأننا مغموسون في الصغائر ، وليس هذا مرادي وإنما مرادي هو أن التائب لا يتوب إلا من كبيرة أو من كبائر ومنها الشرك والظلم والبغي والقتل وأن هذا المغموس في هذا المُسْتَنْقَع من المعاصي لحظة أن يتنبه ويرجع إلى الله لا يجد باب الله مفتوحًا فحسب ولا يجد المغفرة تُحيط بكل خطاياه وتمحوها وكأنها لم تكن فحسب وإنما يجد الله فَرِحًا به فرح من ضلت راحلته وهو في خرائَب الأرض وبَحَثَ عنها حتى بلغ من الجهد ما بلغ ثم يئس ثم فوجئ بها ، يفرح الله بهذا السكير الذي كان سكيرًا وبهذا العربيد الذي كان عربيدًا وهذا الظالم وهذا الضّال وهذا المشرك يفرح الله به وهو يطرق باب الله فرحا لم أقرأ لا في كتاب ولا في سنة فرح ربّنا جل وتقدّس بشيء كفرحه بأوبة هذا الذي كان منذ ساعة فاجرًا من الفجار وفاسقًا من الفساق وفاسدًا من المفسدين إلى آخره ، وقد أدهشني لما قارنت بين فرح الله بطاعة عبده وفرح الله بتوبة عبده ووجدت فرح الله بالتوبة أرجح وأوْفر وأظهر ، أقول عجبت من هذا ، وقد كان صاحب التوبة قبل ذلك بساعة أوْ بيوم في المواخير وصاحب الطاعة في المحراب ، يذكر الله في نفسه فيذكره الله في نفسه ويتقرب إلى الله شبرا

فيتقرب إليه ذراعًا إلى آخر نعمه وأحيانا يكون مُتباطِئًا مُتَثاقلاً في سعيه نحو ربه فَتَخطُو قَدَماهُ شِبْرًا وكأنه مقيد بأغلال ثم يهبه الله توفيقًا فتخطو قدماه ذراعًا وكأن الأغلال لم تذهب وإنما ذهب بعضُها فيقترب الله منه باعًا ثم يهبه العطاء والمنَّ فيتجاوزفى اقترابه من ربه تلك المسافات والمساحات المقيسة بالشبر والذراع ويمشي على قدمين معتدلين ذاهبًا إلى ربه ، المهم أنه مع الله في ذكره وسعيه وربُنا يعطيه العطاء الأوفى فإذا انتقلنا إلى هذا الذي تفلَّت من السُّجُون التي عاش فيها ، وقد حَبَس سِجْنُه كل نوازع الخير التي فيه وأطلق كل نوازع الشر التي هي فجور نفسه وجدنا الله سبحانه يستقبل هذا الذي آب بحفاوة لم يستقبل ربنا بها واحدًا من عباده الصالحين ولقاء ربنا للرجل الذي توطن المساجد للصلاة والذكر في الحديث الذي رواه صاحب اللسان غاية ما فيه أن الله سبحانه تبشْبَشَ به كما يتبشبشُ أهل البيت بغائبهم إذا قدم عليهم ، وهذا أقل بكثير من فرح الذي بالفلاة والتي ضاعت راحلته وفيها زاده وماؤه ، وبعد اليأس فوجئ بها ، وتبشبش به فرح به وهشَّ له والفرح الذي في هش وتبشبش أقل بكثير من الفرح الذي في قصة صاحب الراحلة ، والوجه في هذا الذي بدأنا نراه بعيدًا ثم رأيناه قريبًا هو الدلالة على سعة الرحمة والدلالة على أن الله سبحانه يريد بنا اليُسر ولا يريد بنا العسر وأنه لا يرضى لنا المَعْصية ولا يرضى لنا ما يقربنا من النار ، ويرضى أن نكون من أهل الخير وأهل الرحمة ، وأهل الجنَّة ، ويحب أن يرانا في دار السلام بدليل أنه يدعونا إليها ويكره أن يرانا في النار .

وحديث فرح الله بتوبة عبده جاء في روايات كثيرة مختصرًا مرة ومطولاً مرة كما جاء متداخلاً مع حديث أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني وسنُلِمُّ ببعض ذلك .

روى مسلم بسنده عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « قال الله عز وجل أنا عند ظَنّ عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني . والله لله أفْرَحُ بتوبة عبده ، من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، ومن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقرّبت إليه باعًا وإذا أقبل إليّ يمشي أقبلت إليه هرولة ».

وجملة والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة . جاءت في هذه الرواية موضع قوله تعالى هناك إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وهذه الجملة من كلام رسول الله ﷺ أدخلها في الحديث القدسي ، ويلاحظ أن سيدنا رسول الله ﷺ لما حَذَف جُمْلَة إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي والجملة المقابلة لها « وإن ذكرني في ملأ ذكرتُه في ملأٍ خير منه » أبقى جذرًا مُتضَمنًا لهاتين الجملتين وهو قوله تعالى « وأنا مَعَهُ حَيْثُ يذكرني » وكلمة حيث غير كلمة حين لأنها تعني المكان الذي يذكره فيه في نفسه والمكان الذي يذكره فيه في الملأ .

وإذا قلت لماذا أدخل رسول الله ﷺ هذه الجملة من كلامه في هذا الحديث القدسي ؟ لم أجد جوابًا لهذا في كلام من يؤخذ عنهم العلم وأتهيَّبُ أن أقول إنه عليه السلام أراد كذا ، وإنما قصارى ما عندي أن أنظر إلى الذي أضافته جملته الشريفة من معنى لهذا الحديث وهو ظاهر لأن الحديث يتكلّم عن ذكر الذاكرين وسَعْي السالكين إلى الله ، وحُبَّ الله لهؤلاء وإكرامه لهم أمر ظاهر وجملة سيدنا رسول الله تحدّث عن أهل الكبائر الغارقين فيها للأذقان ثم جاءتهم لحظة أضاءت لهم الظلمات التي عاشوا فيها فَمَدُّوا أيديهم إلى الله وهؤلاء هم الذين أضافتهم جملة سيدنا رسول الله ، حتى لا نَفْهَمَ أن

عناية الله وحفظه وكرمه وإكرامه خاص بالصالحين من عباده الذين هم بمَعْزِلٍ عن اجتراح السيئات وإنما تقول لنا الجملة إن لله حفاوة أكبر بهؤلاء الغارقين في مستنقعات المعاصي والذين يمدون أيديهم يَطْلِبُون النجاة ويطلبون الطُّهر من الذي كانوا فيه . ثم هم في لحظة تَحوُّل وهي لحظة لا تكون إلا مُهْتدية بنور الله ، وهي أفضل الأوقات التي فيها الخروج من الظلمات إلى النور ومعلوم أن الفرح بالمعنى الذي نعرفه مُسْتحيل على الله تعالى وإنما المراد به أنه سبحانه يتقبَّل هذه التوبة ويجزل ثوابها ويُحِلُّها سبحانه المَحَلَّ الأوفى .

لم يكن القصد من ذكر حديث التوبة هذا إلا أن أقف عند الجملة التي أدخلها رسول الله ﷺ على الحديث القدسي ثم أنتقل إلى حديث التوبة الذي رواه ابن مسعود والذي رواه البَرَاء بن عازب والذي رواه أنس بن مالك وهذا هو وجه ترتيبها في صحيح مسلم .

أما رواية عبد الله بن مسعود فقد أثبتها مُسلم عن الحارث بن سويد قال : دخلت على عبد الله أعوده وهو مريض فحدَّثَنِي بحديثين حديث عن نفسه وحديث عن رسول الله ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « لله أشَدُّ فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دَوِّيَة مَهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنامَ فاستيقظ وقد ذَهَبَتْ فطلبها حتى أدْرَكَهُ العطش ثم قال أرْجعُ إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتَّى أَمُوتَ فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده». ولم يذكر مسلم حديث عبد الله عن نفسه . قال النووي وقد ذكره البخاري في صحيحه والترمذي وغيرُهما . وهو قوله :

المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، والفاجر يرى ذنوبه كذباب مَرَّ على أنْفِه فقال به : هكذا .

والرواية الثانية التي رواها البَرَاءُ بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف تقولون بفرح رجل انْفلَتَتْ منه راحلته تَجُرُّ زِمَامَها بأرض قَفْرٍ ليس بها طعام ولا شراب وعليها له طعام وشراب ، فطلبها حتى شق عليه ثم مرّت بجذل شجرة فتعلق زمامُها فوجدها متعلقة به؟ قلنا شديدًا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ أما والله للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة عبده من الرجل براحلته » .

والرواية الثالثة عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « للهُ أشَدُّ فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحَدِكم كان على رَاحِلَتهِ بأرض فَلاةٍ فانفلتت منه وعليها طعامُه وشرابُه فأيِسَ منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيِسَ من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عَبْدِي وأنَا ربُّك أخطأ من شدة الفرح » انتهى الحديث ، وهذه الجملة الأخيرة لم ترد في صحيح مسلم إلا في هذه الرواية وهي تبلغ الغاية في دلالتها على فرح الله بتوبة عبده الذي كان منذ قليل شارب خمر مُتَسكِّعًا في مواخير البطالة أو كان سارقًا أو كان قاتلاً ثم انتبه وتحول وتوجه إلى الله فلقيه ربه بهذا الفرح وقلت إن فرح الله سبحانه بهذه الطبقة التي تحوّلتْ وصَدَقَتْ في انتزاع نفسها من الظلمات إلى النور فيه حثٌّ ليس بَعْدَهُ حث وإغراء ليس بعده إغراء بهذا التحول الذي يرضاه الله كل هذا الرضا وأنه فتح باب هو أكرم أبواب الرحمة لهؤلاء المتهالكين في الفجور والباطل .

وهذا الحديث خطب به النعمان بن بشير وجاء في خُطْبَتِهِ بأكثر ألفاظه ولم يتفق العلماء على أنه رفعه إلى رسول الله ﷺ ومن المفيد أن أكتب ما خطب به كما فعل مسلم .

روى مسلم بسنده قال حدثنا أبو يُونس عن سِمَاك قال : خطب النعمان ابن بشير فقال لله أَشَدُّ فرحًا بتوبة عبده من رجل حمل زاده ومزاده على بعير ثم سار حتى كان بفَلاة من الأرض فأدْرَكَتْه القائلة فَنَزَلَ فقال تحت شجرة فغلبته عَيْنُه وانْسَلَّ بعيرُه فاستيقظ فسعى شرَفًا فلم ير شيئًا ثم سعى شَرَفًا ثانيًا فلم ير شيئًا ثم سعى شرفًا ثالثًا فلم ير شيئًا فأقبل حتى أتى مكانه الذي قال فيه فبينما هو قاعد إذ جاءه بعيره يمشي حتى وَضَعَ خِطامه في يده فلله أشدُّ فرحًا بتوبة العبد من هذا حين وجد بعيرَه على حاله .. قال سِمَاك فزعم الشعبي أن النعمان رَفَعَ هذا الحديث إلى النبي ﷺ وأما أنا فلم أسْمَعْه ، وقوله « لله أشد فرحًا بتوبة عبده » جملة تكررت من غير أن يضاف إليها أو ينقص منها لأن معناها ثابت ومحدد ومُسَوَّرٌ بسور يَحْميه وقول النعمان « من رَجُل حَمَلَ زادَه ومَزَاده على بعير ثم سار حتى كان بفلاة من الأرض » وقوله عليه السلام في رواية أنس « من أحدكم كان على بعيره في أرض فلاة » راجع الكلامين وكيف نشر حديثُ النعمان ما طواه حديث أنس وأن النعمان خطا خُطْوَة بعد خُطْوة من أول حال الرجل وهو يضع زاده ومزاده . والمزاد قِرْبَةُ الماء وسميت مزادا لأنه يزاد عليها من جلد آخر لتكون أوسع ثم لما انتهى من وضع الزاد والمزاد سار حتى كان بفلاة ، وفي رواية أنس كان على راحلته بفلاة وهذا متضمن كل الخطوات من وضع الزاد والمزاد ثم السير ثم الكون بفلاة وراجع قول النعمان « فأدركته القائلة فنزل فقال تحت شجرة

فغلبته عينه وانسلّ بعيره» وهذه هي الخطوة الثانية في أحداث الحكاية التي بنى عليها التشبيه ، وكيف صوّرها النعمان ابتداء من قوله أدركته قائلة فنزل فقال إلى آخره راجع طريقة النعمان في تتبع الأحداث واحدة بعد واحدة واستقصائها ، وفي رواية أنس قال «فانفلتت منه» وطوى «أدركته قائلة فقال تحت شجرة وغلبته عينه وانسل بعيره» لأن الانفلات لا يكون وهو على راحلته وإنما يكون وقد نزل عنها ثم إنه لا يكون وهو يقظ وإنما يكون إذا غَفَا عَنْها ، وفي قوله «فانفلتت منه» معنى زائد عن الذى في كلام النعمان مع تقصِّيه هذا المعنى وهو أنه كان ممسكًا لها متشبثًا بها ولكن غلبه الجهد الذي غلبه فتراخت اليد الممسكة بالزمام فانفلتت كما ينفلت الشيء من يدك وأنت شديد الحرص عليه ثم قال النعمان «فَسَعى شَرَفًا فلم يَرَ شيئًا ثم سَعَى شَرفًا ثانيًا فلم ير شيئًا ثم سعى شرفًا ثالثًا فلم ير شيئًا» وكل هذا وأكثر منه جاء في رواية أنس في قوله «فأيِسَ منها» لأنه لا ييأس إلا بعد كدٍّ وركض هنا وهناك ، ولم يدع جهة يمكن أن تكون انْفَلَتَتْ إليها إلا طلبها فيها ، ومثل من كان في حاله لا يَبْلُغ منه اليأس من راحلته التي عليها طعامه وشرابه إلا بعد أن يستفرغ كل الجهد وبعد أن يَنْفُضَ ما حوله من خرائب الأرض سَهْلَها وحَزْنها ووهادها ونجادها إلى آخر ما يمكن أن يكون من مثله من رجال البوادي الذين كأنهم ولدوا على ظهور الرواحل .

وقوله عليه السلام في هذه الرواية «وعليها طعامه وشرابه» بعد قوله «فانفلتت منه» ومعلوم أن الراحلة عليها الطعام والشراب وأنها انفلتت بالطعام والشراب وغيرهما ، وإنما أراد عليه السلام أن يُنَبِّه إلى الهول الذي يَنْتَظِرُه بانفلات ناقته وأن يُنَبِّه أيضًا إلى المجهود الذي سيبذله حتى ييأس

منها وقال بعد ذكر طعامه وشرابه « فأيسَ منها » فأشار إلى أنه بلغ في البحث عنها غاية الجهد لأنه لا ييأس من البحث عن طعامه وشرابه إلا بعد ما لا يقادر قدره من بذل المجهود .

وهذا حسبي من الموازنة وعليك أن تتم ما بين خطبة النعمان ورواية ابن مسعود والبراء بن عازب ثم ما بين الروايات الثلاث المروية عن رسول الله ﷺ ونلاحظ في رواية ابن مسعود الإشارة إلى صعوبة الفلاة وسعتها ومخاطرها وأنها « دَوِّيَّة » ثم كيف كان الإيجاز في قوله « فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها » اقرأ الكلمات الثلاث مرة ومرة وكيف دلت الفاء التي في قوله « فاستيقظ » على أنه نام نومًا قليلاً وكأنه كان مُفزّعًا فما نام حتى استيقظ ثم جملة الحال « وقد ذهبت » والواو الداخلة عليها وقد التي للتحقيق والتي بنيت عليها ثم الفاء التي في قوله « فطلبها » وأنه ما إن أدرك أنها ذهبت حتى انتفض وطلبها وكيف جدّ في الطلب حتى أدركه العطش ، وكيف كان كل ذلك كفاء لما جاء في خطبة النعمان فسعى شرفًا فلم ير شيئًا ثم سعى شرفًا ثانيًا فلم ير شيئًا ثم سعى شرفًا ثالثًا فلم ير شيئًا .

ونرى زيادة في قوله « أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت » تأمل كلمة الموت وكيف تكررت وكيف أقْحَمَها هذا المكروب على الموقف وكيف أكّدها بالتكرار وكيف التمس لوقوعها أسبابًا واهية فهو يرجع إلى مكانه لينام حتى يموت ، ويضع رأسه على ساعده ليموت ، وأي علاقة بين وضع الرأس على الساعد والموت ، وكيف أشْبَعَ الكلام ومدَّه عند ذكر الموت فهو ينام ليموت ويضع رأسه على ساعده ليموت ، وكأن الكلام يُعِدُّ للحظة المفاجأة وهي لحظة الفرح بالحياة بعد ما أوشك أن يكون في قبضة الموت لحظة النجاة من البأساء بعد

وقوعها وفي رواية البراء عُنْصرٌ انفرد بها وهو قوله عليه السلام انفلتت منه راحلته «تَجُرُّ زمامها» وحين تقرأ هذه الجملة الحالية في أول الحكاية تتوقع أن لهذا الزمام شأنا في حكاية هذا المرتحل الذي اكتأب أبشع ما يكون الاكتئاب وسُرّ أحسن ما يكون السرور يعني ذاق المر في أبْشَع طُعُومه وذاق الحلو في أكرم طعومه ثم ما تلبث أن تجد الزمام غيَّر مجرى الحدث النهائي الذي عنده المفاجأة وكان من شأن الزمام أن تعلق بجذل شجرة وأن صاحبها وجدها في لحظة الفرج متعلقة بهذا الجذل وكأنه كان يمسكها له .

وللإمام النووي كلام مفيد ومُختَصر في التوبة وقد أحسن تلخيصه . والنووي يؤخذ عنه ما استخرجه وما لخّصه من كلام شيوخ الإسلام الذين يؤخذ عنهم العلم ، كالقاضي عياض وابن عبد البر وغيرهم من الكملة رضوان الله عليهم وألحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين وحين أنقل كلام هؤلاء في كتبي أقصد إلى أن يتعرف الجيل على كلامهم وفضل بيانهم وإلى أي حدٍّ تَخَلفنَا عَنهم ، ثم وهو مهم أيضًا أن أُسْمِعَ الجيل ألْسِنَةَ هؤلاء الكرام وهي تخاطبهم حتى تكون ألْسنتُهم وأقلامهم لا تزال ناطقة فينا ، وكلما قرأ قارئ كلمة مُشْرِقة لواحد من هؤلاء الذين هم وَرَثة النبوة رَفَع الله بها هذا العالم درجة ورفع القارئ بها درجة ولا حرج على فضل الله .. ولو قلت لك إني أدخل السرور على قلوب قراء كتابي بنصوص هؤلاء لأصبت . قال النووي في التوبة إن لها ثلاثة أركان الإقلاع عن المعصية والندم على فعلها والعزم على ألا يَعُود إليها أبدًا . فإن كانت المعصية لحق آدمي فلها ركن رابع وهو التحلل من صاحب هذا الحق ، والندم ركنها الأعظم ، واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة ، وأنَّها واجبة على الفور ، سواء كانت المعصية

صغيرة أو كبيرة والتوبةُ من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة ، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع ، وعند المعتزلة بالعقل ، ولا يجب على الله قبولها إذا وجدت بشروطها عقلاً ، عند أهل السنة ، لكنه سبحانه وتعالى يقبلها كرمًا وفضلاً ، وعَرَفْنَا قبولها بالشرع والإجماع خلافًا لهم ، وإذا تاب من ذنب ثم ذكره هل يجب تجديد الندم ؟ فيه خلاف لأصحابنا وغيرهم من أهل السنة قال ابن الأنباري يجب ، وقال إمام الحرمين لا يجب ، وتصح التوبة من ذنب وإن كان مُصرًا على ذنب آخر ، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها ثم عاود ذلك الذنب كتب عليه ذلك الذنب الثاني ولم تَبْطُلْ توبته ، هذا مذهب أهل السنة في المسألتين ، وخالفت المعتزلة فيهما ، قال أصحابنا لو تكررت التوبة ومعاودة الذنب صحت ، ثم توبة الكافر من كفره مقطوع بها ، وما سواها من أنواع التوبة هل قبولها مقطوع به أم مظنون ؟ فيه خلاف لأهل السنة ، واختار إمام الحرمين أنه مظنون وهو الأصح والله أعلم . انتهى كلام النووي .

وهذا الحديث بني على المثل ومَطْلَعُ الحديث في أكثر الروايات « لله أشَدُّ فَرَحًا بتوبة عبده حين يَتُوب من أحدكم كان إلى آخره» . وفي رواية البراء كيف تقولون بفرح رجل إلى آخره وهذا فيه زيادة لفت وإعداد لأن الاستفهام هنا يراد به استحضار الصورة المطلوب وُجُودُها في النفس وهي صورة الرجل الذي هذه حكايته وقوله عليه السلام « لله أفرح » فيها توكيد لا يوجد في رواية البراء ، والمهم هو تحليل هذا المثل لأن له شأنًا في الدين ويكفي أصحاب الخطايا أن يعلموا أن الله سبحانه يقبل منهم التوبة ويفرح بتوبتهم فرحًا أشدّ من فرح من نجا من هلاك محقق ، فإذا استمر الفاجر في فجوره ولم يَتُب هذه التوبة ، ولم يَحْظ بهذه الحفاوة ، والقبول والمنّ والعطاء فلا

يلومن إلا نفسه ؛ وقبول التوبة من الله مَنٌّ وعطاء وهذا حسبنا من ربنا أما أن يزاد على ذلك المَنّ والعطاء بالرِّضا والفرح وأن الله سبحانه الذي يسجد لكبريائه وقدرته كل من في السموات والأرض يفرح بتوبة هذا الذي كان بالأمس فاجرًا أو سارقًا أو شارب خمر فهذا فضل آخر وعطاء آخر ، وهنا تلاحظ فرقًا بين الخَلْق والخالق وهو أننا لا نَنْسَى سقطات الناس ونكتبها في صحيفتهم الجنائية ومهما تابوا ورجعوا فإنها تبقى نقطة سوداء وربما حالت بينهم وبين مواقع في الدولة صاروا صالحين لها ضع هذا بإزاء « لله أفرح بتوبة عبده » الحديث ، وإن كان الله سبحانه الذي يفرح بتوبة عبده علم من عبده سر نفسه التي آبت ورجعت إلى الله وعُـذْرُنَا أننا لا نعلم أن أصحاب السقطات منا رجعوا صادقين أم لا ؟

وأنتقل إلى الكلام في المشبَّه به وقد ذكر العلماء أن هذا مثل قُصد به بيان سرعة قبول الله تعالى لتوبة عبده التائب والتشبيهات المركبة قد تكون صورها منتزعة من الواقع وقد تكون خياليّة افتراضية وقد تكون قصة أو حكاية مختصرة كما هنا وكما في مثل قوله تعالى ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ وقد تطول قليلاً كما في قوله تعالى ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ وفي الشعر الجاهلي صور من التشبيهات المركبة تمتد وتطول حتى تكون أكثر القصيدة والدراسة الواعية يمكنها أن تستخرج من تفاصيل الصورة ودقائقها الكثير من المقصود من القصيدة ، ولذلك كان من الضروري الوقوف عند هذه الصورة التي في الحديث والتي تراها تَسْتَوْعِبُ أكثر الحديث لأن الحديث يقومُ على بيان أن الله سبحانه وتعالى أفرح أعني أكثر فرحًا بتوبة العبد من رجل هذه

حكايته وقد شغلت هذه الحكاية بقيَّة الحديث ولك أن تقول إن الحديث جملة واحدة وتلاحظ أن هذه الحكاية وقعت جارًا ومجرورًا متعلقًا بكلمة فَرِح في قوله أشد فرحًا أوْ بكلمة أفرْح في قوله لله أفرح ، والجار والمجرور من تمام معنى جملة لله أفرح ثم تأتي الجمل التي في تفاصيل حكاية أحدكم وكلها مُؤدّية معنى واحدًا وبعضها ترتب على بعض حتى وصل الكلام إلى نهايته ..

ولك أن تقول لماذا كانت الإبانة عن سرعة القبول وحب الله لهذه التوبة بصورة هذا المرتحل في الدَّويّة أو في المهلكة وكان يمكن أن تكون هناك صور كثيرة لبيان بلوغ الفرح غايته كأن نقول مثلاً لله أفرح بتوبة عبده من أم ضلَّ عنها ولدها وطلبته في كل جهة حتى يئست وغلبها الحزن وغلبتها الكآبة وأشرفت على الهلاك ثم فوجئت به يدخل عليها الدار ، أو نقول لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أم ثكلى لم يبق لها من بنيها إلا واحد ركب سفينة مع ناس فهاجت بها العواصف وهلكت وهلك ركابها فلم يرقأ لها دمع وبعد سنين فوجئت به يطرق الباب ومثل هذا كثير مما جمع الله فيه الخليلين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا ، لماذا جاء المثل من هذه المكونات التي في الحديث . هل يمكن أن نكتفي بالزبدة والخلاصة التي هي المفاجأة بمدد الحياة بعد استيلاء مدد الفناء ؟ وبذلك لا يكون لهذه العناصر المكونة لهذه الحكاية أي إضافة لمعنى الحديث ؟ لا شك أن الخِبْرَةَ بالبيان العربي الذي نزل به القرآن ترفض ذلك لأننا نرى فروقًا ظاهرة في الفرق بين تشبيه الناقة بالحمار الوحشي صاحب الحكاية أو بتشبيهها الثور أو بالظليم أو بالبقرة المسبوعة وكل واحد من هذه التشبيهات له حكاية وكل حكاية لها مغزى وفرق بين ثور مسالم وثور معاند وفرق بين حمار وحشي شرس في تعامله

مع عائلته من الأُتُن وحمار وحشي رفيق بعائلته وهكذا ، وهذا باب في بيان اللسان العربي لم يدرس على وجهه ولا تزال تحيط به غوامض كثيرة .

وكثير جدًا من قصص الحيوان في الشعر الجاهلي وهي غالبًا ما تكون في سياق التشبيه لم أفهم مغزاها رغم اهتمامي بالشعر الجاهلي هذا الاهتمام الذي دعاني إلى كتابة كتابين فيه ومثله تشبيهات كثيرة في الكتاب العزيز كتشبيهات سورة البقرة وخصوصًا تشبيه ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ ﴾ لو سألت عن المغزى الذي وراء كل دقيقة في الصورة والمعنى الذي تفتحه في معرفة أحوال الذين اشتروا الضلالة بالهدى وكنت من الذين يأخذون نفوسهم بالحقيقة السَّهْلة وهي أنك لا تقول إلا ما تعلم لوجدت كثيرًا من أحداث أهل هذا الصيب غامضة في دلالتها على الذين اشتروا الضلالة بالهدى وتشبيه سورة النور لأعمال الكافرين بالظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب إلى آخره أكثر ما فيها لا أعرف له دلالة في أعمال الذين كفروا وقد قدّمت بكل هذا لأن تحليل الصورة في هذا الحديث الشريف لا تقوم إلا على معانٍ مظنونة وليست معاني مقطوعة ولذلك قد ترى غير الذي أرى مع أنني لن أستطيع بيان كل دقائقها وقصارى الذي عندي فيها ، هو أن بيان حال التائب وقبول الله لتوبته في صورة صاحب الراحلة يمكن أن أقول إن له صلة بتصوير حياة الإنسان على هذه الأرض بالرحلة التي لأُبدَّ لها أن تنتهي وأن يضع صاحبها رحله عن راحلته وأن هذا جاء في كلام رسول الله ﷺ في قوله : «من في الدنيا ضيف وما في يده عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداه» وهذا كلام في غاية البلاغة وفي غاية الإيجاز وفي غاية البيان ولو ذهبت تبحث في البيان كله عن عبارة تؤدي هذا المعنى فلن تجد عبارة أصفى ولا أوجز ولا أبين منها وراجعها أنت وتأملها

بسكون طائر وخفض جناح كما كان يقول الباقلاني وكلمة «من» في هذه الجملة لا تعني الناس فحسب وإنما جاءت وهي للعاقل لأن الناس هم أشرف من في هذه الدنيا وهي صادقة على كل حي من إنسان وحيوان وطير فكل هؤلاء ضيوف فيها وكلهم مرتحلون بل إنها صادقة على نبات الأرض . كله ضيف وكله مرتحل ولو قلت إن أصل هذا الحديث له جذور كثيرة في الكتاب لم تكن متجاوزًا ومن هذه الجذور قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ والغيث الذي أعجب الناس نباته مثال لتسارع الفناء بعد مدد البقاء وليس الذي يصفر ثم يكون حطامًا هو النبات وحده وإنما كل حيٍّ من الإنسان والحيوان والطير كل ذلك يصفر ثم يكون حطامًا وهذه رحلة بكل مقوماتها وكل هذا الذي في الدنيا ضيف والضيف مرتحل لا محالة ، ولا أستبعد أن يكون نفاذ سيدنا رسول الله ﷺ استخرج من هذه الآية ونظائرها هذا الملخّص العجيب الذي هو من في الدنيا ضيف وما في يده عارية والضيف مرتحل والعارية مؤداه ، وليس ببعيد أن تنتقل الرحلة من قصة الإنسان على هذا الكوكب إلى سياق حديث التوبة لأن صور الأمثال أوسع من أن تحبس في سياق واحد ، ولو قلت لك إن الأرض «الدوِّيَّة المهلكة أو الفلاة» ليست دلالاتها بعيدة عن حياة الإنسان على هذا الكوكب إذا خلت من معرفة الله وذكره وطاعته ورجاء رحمته وهدايته ومنّه وكلمة الضال والضلال أصل معناها اللغوي هو الضلال في التيه والدوّية المهلكة وعدم الاهتداء إلى الطريق الذي يُنْجيه من معاطب هذا التيه ، وأن أصل كلمة الهدى هو معرفة الطريق الذي يسلكه الناجون من الهلاك في التيه ، والراحلة

التي عليها الزاد والمزاد هي الوسيلة التي أقطع بها هذه الدويّة المهلكة ما دمت ضَيْفًا مرتحلاً ، وهذه معان ليست متقاربة وإنما هي متماسكة فالرحلة لها وجهان وجه حسّي معروف ووجه معنوي ظاهر متضمّن في مثل قوله عليه السلام والضيف مرتحل ، والمرتحل له راحلة عليها طعامه ومزاده وهي الراحلة غير المرئية والطعام والمزاد غير المعروف ولاحظ قوله عليه السلام «عليها طعامه وشرابه» وهذه الجملة لا تؤسس معنى لأنه من المعلوم ببداهة العقل أن طعامه وشرابه على راحلته والجملة الشريفة تؤكد هذا المعنى المُضمّن ، وإنما أكده عليه السلام لِيَضَع الإصبع على موطن الحدث الأفجع والأبشع ، وليهيِّئ إلى الأمرين المهمين الأول اليأس ليس من وجود الراحلة وإنما من استمرار الحياة لاستحالة استمرارها في الدوّية المهلكة من غير طعام وشراب والأمر الثاني لحظة الفرح التي ينقشع فيها كل هم برُؤيةِ راحلته وعليها طعامه وشرابه ، وقد أشرت إلى أن رحلة الفَلاة طعامها هو الطعام وشرابها هو الشراب أما رحلة العمر فإن الطعام والشراب يتحور معناه من الذي هو عمود البدن والحياة الحسنة إلى الذي هو عمود الروح والحياة الروحية ، وليس هذا بعيدًا وإنما هو قريب واللفظ ممسك بالمعنيين وقد جاء الزاد صريحًا في معنى عمود الحياة الروحية في قوله تعالى ﴿ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ فالزاد هنا بصريح لفظ القرآن هو التقوى ، فإذا رجعت إلى الذي ضلّت راحلته في الدويَّة المهلكة وعليها زاده ومزاده ، وقلت إن تيه هذه الراحلة فيه إشارة إلى التيه الذي عاشه زمن ضلاله وبهته وفجوره وأنه كان يعيش من غير الزاد الذي أمرنا ربنا أن نتزوّد به ، والذي هو في الحقيقة نتاج التذكر والتدبر واليقظة والالتفات إلى الذي هو أكثر رشدًا وهو الطاعة أقول إذا قلت إن زمن ضلاله

عن طعامه وشرابه يشير إلى زمن باطله وفراغه، لم تكن في الذي أراه مبعدًا، ثم أبْنِي على هذا قولاً آخر وهو أن بحثه المضني الذي أرهقه وجعله يعود إلى مكانه الأول ليموت فيه أعني بحثه عن راحلته، ليس بعيدًا عندي من أن يكون مشيرًا إلى الأصوات التي كانت في داخله زمن ضلاله وبُهْتانِه وبطلانه تدعوه إلى الله وهي أصوات الفطرة التي فطر الله عليها كل شيء فكان كل شيء يُسبّح بحمده حتى الحجر والمدر ويرجح هذا عندي أن الذي انتهت رحلة ضلاله إلى التوبة التي فرح الله بها غير الذي لم تَنْتَهِ رحلة ضلاله إلى التوبة وإنما ظل في غيِّه حتى مات وهو ضال، وأن الأول لم يكن في غاية الرضا وهو في رحلة ضلاله وإنما كانت نفسه الصالحة الساكنة بين جنبيه توقظه وتنبهه حتى انتصرت في النهاية على فجورها، فألْقَى رحله على باب ربه وعاج براحلته من طريق الضلال إلى طريق الهدى ومن طريق المعصية إلى طريق الطاعة وكان الله سبحانه يعلم من حاله وهو في ضلاله ما سيؤول إليه فهشَّ له يوم جاء وبش وتلقاه باليدين وأعطاه باليدين وكان أفرح به من فرحه من وجد راحلته التي عليها زاده ومزاده والذي حوّل رحلتها من الضلالة إلى الهدى ومن الغيّ إلى الرشاد، وكم سعى وأوضع المطية في الجهل ثم أصرّ على أن يحوّل زمامها من الجهل إلى العلم ومن الضلالة إلى الهدى وهذه اللحظة لحظة التحول هذه هي لحظة فرح الله به لحظة جذب الزمام لتنتقل الخطا من طريق إلى طريق، يا لها من لحظة، وقوله عليه السلام «فنام فاستيقظ» قلت إن الزاد زاد الطعام وزاد التقوى وأن اللباس يواري سَوْآتكم ولباس التقوى وكذلك نام هو النوم الذي جعل الله له الليل لباسًا وجعله سباتًا ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ والنوم الذي هو الغفلة والذي تذهب النفس فيه في مهالك الهوى والضلالة والناس قيام فإذا ماتوا

انتبهوا وهذا عجيب يعنى لحظة الموت هي لحظة اليقظة كالذي استُشْهِدَ على أيدي البُغاةِ التتر في بلادنا يوم ميلاده وكأنه ولد يوم مات ولاحظ الفاء التي في قوله فاستيقظ وكأن هذا النوع من النوم وإن طال فهو قليل ، ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ .

وقوله عليه السلام « وقد ذهب فطلبها » وجملة وقد ذهبت جملة حالية مؤكدة بقد وجاءت بالواو لتدل هذه الواو على أن لها شأنًا في الخبر وأنها توشك أن تكون خبرًا وحدها وليست حالاً تابعة للخبر الأول ، وأنا أفهم من هذا ولك أن تُقَرَّ فَهْمِي أو لا تقره ، أنه لم يدرك أن الراحلة التي عليها زاده ومزاده في رحلته سواء كانت الرحلة الحقيقية المعروفة أو في رحلته التي هي رحلة الحياة بتقلباتها لم يدرك أن الراحلة ذهبت إلا لما استيقظ ، وأنه لما كان نائمًا كان لا يدري ، وقد عبَّر عن هذا المعنى في رواية أخرى « فغلَبْته عَيْنُه وانسلَّ بعيرُه » البعير الذي عليه الزاد والمزاد والذي هو سفينة النجاة في الرحلة في الأرض الفلاة انسلَّ في لحظة الغفلة وهي لحظة ابتداء مرحلة الضياع والحياة المقطوعة عن الهداية الحسية والمعنوية والتائهة في متاهات الضلال الحسي والمعنوي ، ولا أستطيع أن أدْفَع عن نفسي وأنا أقرأ قوله عليه السلام « وقد ذهب فطلبها حتى أدركه العطش » أو قوله عليه السلام « فسعى شرفا فلم ير شيئًا ثم سعى شرفًا ثانيًا فلم ير شيئًا ثم سعى شرفًا ثالثًا فلم ير شيئًا »، لا أستطيع أن أدفع عن نفسي معنى أنه لما ذهبت راحلته وعاش في مهمه لا يدري فيه طريق الهُدى واستنفرت نفْسُه كل طاقات فجورها كان وهو في هذه المَغْمَغة من الضلالة والهدى واللَّعب والزينة والتفاخر يجد صوتًا في أعماقه يَبْحث عن الزاد والمزاد ، ويبْحث عن الراحلة التي ترحل به إلى موطن الأمن والأمان وأن الشَّرف والشرفين

والثلاثة كل ذلك كانت له صورة حسيَّة لا شك فيها وكانت تصاحبه صورة نفسية هي أيضًا توشك أن تكون لا شك فيها ، وتَرُوقِني جدًا كلمة « حتى أدركه العطش » لأنها وإن دلَّتْ على المعنى الحسِّي دلالة لا شك فيها فإنها أيضًا تدل على الشوق إلى الغيث الذي هو مثل ما بعثه الله به ﷺ وأنه الشوق إلى الفطرة التي لا تجد في دين الله أمْرًا ولا نَهْيًا إلا وهو عائد إلى هذه الفطرة بالتزكية والطُّهْر والصَّفاء والنَّقاء ، قوله عليه السلام « ثم قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه حتى أموت » وفي رواية أخرى « فأقبل حتى أتى مكانه الذي قال فيه » ولك أن تسأل أي شيء في المكان الذي ذَهَبَتْ فيه راحلته وغلبته عينه فانسلت فيه ؟ لماذا حَرَص على أن يَعُودَ إليه وأن يموت فيه ؟ وأي شيء فيه يفضل به غيره حتى آثر أن يكون مضجعه الأخير فيه ؟ لا يجوز أن تدع هذا من غير نظر ، وإذا كان الذي تَقُوله أنت فيه لا يروقني فعليَّ أن أبحث عن الذي يروقني ، ومن سَلْبِيَّات حياتنا الفكرية أن الذي يقال لا يعجبنا ثم نكتفي بنقده من غير أن نقدم البديل الذي به تَسْخُو حياتنا العقلية ، قلت هذا لأنني لا أشك في أن هذا الموقف من صاحب الراحلة دالٌّ دلالة قاطعة على حنينه للمكان الذي كانت فيه راحلته مَعَهُ وكان في مأمَن على زاده وشرابه ولا يكون هذا الحَنْينُ البتَّة إلا إذا كان الزاد والشراب تجاوزا المعنى الحسيّ إلى المعنى الرُّوحي لأنه ذهب إلى هناك ليموت ولا معنى للزاد الحسيّ والشراب الحِسي للذي يبحث عن مضجعه الأخير ، وإنما هو زاد لحظة الموت ، وهو الفطرة .

بقيت إشارتان الأولى في رواية عبد الله بن مسعود وهي قوله عليه السلام « أرْجِعُ إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ وعنده راحلته » وأول ما يلاحظ أن الحديث الشريف أشبع

فكرة الموت وأطال الكلام فيها ، وأن الرجل لم يَعُد إلى المكان الذي فيه حنينا إليه لأنه المكان الذي كان فيه ومعه زاده وشرابه فحسب وإنما أيضًا رغب في أن يموت فيه ولا أعرف لهذا معنى إلا معنى واحدًا وهو رغبته في أن يموت على الحالة التي كان عليها قبل ضلال الراحلة ووراء هذا ما وراءه ثم إن كلمة (أرجع إلى مكاني) فيها إرهاص لا شك فيه في الرغبة في التوبة لأن التوبة أَوْبَـةٌ والأوبة رجوع والأمر الأخير هو أن الراحِلَةُ ذَهَبَتْ عند النوم الأول الذي هو النوم المألوف والذي هو غَفْلَةٌ وانقطاع وحضرت عند النوم الثاني الذي هو نوم الموت ، وأن كلمة فاستيقظ في قوله ليموت فاستيقظ قريبة جدًّا من اليقظة التي هي الرشد وعودة النفس الطيّبة لأنها يقظة من قارب أن يذوق المَوْتَ واليقظة هذه قريبة جدًّا من كشف الغطاء الذي في قوله تعالى ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ وليس بعيدًا أن يكون فَرَحُه هذا لأنه وجد نفسه ووجد زاده وأنها لحظة التوبة وأن فرح الله بتوبته قرين فـرحـه هو بالتوبة التي هي وجود نفسه المتمثل في وجود راحلته .

والإشارة الثانية في حديث البراء بن عازب وهي قوله عليه السـلام « كيـف تقولون بفرح رجل انفلتت منه راحلته تجر زمامهـا » كلمـة « تجـرُّ زمامهـا » توقع في نفس قارئ الحديث معنى هو أن زمامها له في هذه الرواية شأن لأنه لم يرد في كثير من الروايات وكأنها إرهاصٍ بشيء لا تلبث أن تراه في قولـه عليه السلام « ثم مرّت بجذل شجرة فتعلّق زمامها فوجدها متعلقة به » وهذه نهاية مختلفة عن رواية ابن مسعود لأنـه هنـاك نـام ليمـوت فاسـتيقظ وعنـده راحلته ، وتجربتي تقول إنك في طلبك ما تطلب من المطالب التي لها عندك شأن في أي باب من أبواب الحياة عليك أن تبذل أقصى ما عندك مـن جهـد

وأنت على يقين أن الله سبحانه سيحفظ لك جَهْدك ولن يضيع هذا فإذا بلغت درجة اليأس وجدت الباب قد فُتح ووجدت الضالة التي تبحث عنها بين يديك وقد سمعت ممن سمعت منهم العلم رحمهم الله وألحقنا بهم كلمة وأنا طالب ظلت حية في نفسي وهي أن لله عطاء يمنحه عبده إذا بذل أقصى ما عنده وهو صادق ومخلص وأرى أن هذا هو نهاية حديث ابن مسعود أما نهاية حديث البراء فهو أنه جَدّ واجتهد ولم يصل إلى حد اليأس وإنما وجد ضالته وهو يبحث ويقوم بها ويقعد وهكذا كل شيء له قيمة في حياة الناس لا ينال إلا بمكابدة والمكابدة التي تبلغ غايتها ثم تنقطع لا تعني أن هذا الشيء لا ينال وإنما لله عطايا قَدْ حدّدَ هو سبحانه زمانها وحالها ، وهذا حسبي والله أعلم .

* * *

• لولا أنكم تذنبون

وفرح الله بتوبة عبده يستدعى ويستحضر حديثًا آخر رواه سيدنا أبو أيوب الأنصاري ولم يحدِّث به إلا لما حضرته الوفاة . خاف أن يتكل الناس ، وإنما حدّث به خوفًا من أن يكون لم يسمعه أحد غيره أو أن يكون من سمعه لم يحدّث به ، قال رحمه الله كُنْت كَتَمْتُ عنكم شيئًا سمعته من رسول الله ﷺ . سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «لولا أنكم تُذْنِبُون لخلق الله خلقًا يذنبون يغفر لهم»، وفي رواية أخرى لأبي أيوب قال:قال رسول الله ﷺ «لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم جاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم». وفي رواية لأبي هريرة قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم».

كان يمكن لسيدنا أبي أيوب أن يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول ولم يبدأ بالجملة التي بدأ بها وهي أنه كتم عنهم شيئًا سمعه من رسول الله ﷺ ، ولكن أبا أيوب أراد أن ينبِّه إلى أن هذا الحديث ومثله ليس من الأحاديث التي يبادر الناس بالتحدُّث بها لأنها قد تُغْري أهل التساهل والتفريط بما هم فيه من تساهل وتفريط ، وأن كثيرًا مما سمعه الأصحاب من رسول الله ﷺ لم يحدثوا به حتى لا يتكل الناسُ ، وأذكر أننا ونحن طلاب في الأزهر الشريف حدثنا مدرس مادة الفقه المالكي في مسألة خلافية يرى بعض الفقهاء فيها رأيًا يُروّج عند المتساهلين والمفرطين باطلاً فعاهَدَنا على أن لا نتكلم في الناس بهذا الرأي مع أنه في الحقيقة لا يروّج لباطل وإنما يروِّج له عند المبطلين كما قلت وأنا لم أكتبه وفاء لعهدنا مع شيوخنا وهكذا تمتد السماحة في دين الله حتى تصل بعض جداولها إلى هذا المستوى الذي يغري بالتساهل .

والحديث برواياته الثلاثة كل رواية فيها جملة واحدة مكونة من شرط وجواب ، وصياغة الروايات الثلاث صياغة واحدة وكلمة (لولا) في قوله عليه السلام «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون يغفرُ لهم» تفيد معنى امتناع شيء لوجود شيء أعني امتناع أن الله خلق خلقًا آخرين غيرنا يذنبون ويغفر لهم لوجود ذنوبنا ، فلو كنا لا نذنب وكان حالنا كحال الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لخلق الله خلقًا يذنبون ويغفر لهم وكأنه قضى سبحانه أنه لا يعيش على هذه الأرض إلا من كان شأنهم الذنب أعني لا يعيش عليها معصوم من الخطأ وإنما يعيش عليها المخطئون ومنهم من يَسْتَغْفِر فيُغْفَر لهم ومنهم من لا يستغفر فيترك أمره للمشيئة إلا من أشرك ، وهذا شأن الله مع هذا الإنسان خلقه سبحانه وتركه حرًّا فلم يُلجئه على شيء إن شاء أصلح وإن شاء أفسد وإن شاء عَمِلَ عملاً صالحًا وإن شاء عمل عملاً غير صالح وهو سبحانه وتعالى من ورائه يعلم منه خائنة الأعيُن وما تخفي الصدور ولهذا العبد كِتَاب لا يفرط في شيء إن كانت صغيرة أو كبيرة أحصاها إلى آخره،وهذا نظام الله في خلقه وهذا يعني أنه سبحانه يقول لنا ليس من حق أحد أن يلجئ أحدًا على اعتقاد ما يكره وإنما يترك الكل ويحاسب الكل بدقة شديدة وأمانة شديدة ، والذي خلقهم تركهم في عقائدهم وسلوكهم أحرارًا وقال لهم من عصاني وأراد مغفرة فليستغفر فإني غفار وقد خلقتكم وهيَّأتكم لفعل الحسنات وفعل السيئات وأصحاب الحسنات لهم ما يشاؤون عند ربهم وأصحاب السيئات لا يحزنهم ما وقعوا فيه لأنهم إذا استغفروا وتابوا وأنابوا أصبحوا من أصحاب الحسنات ، ولو لم يكن فيكم أصحاب سيئات لذهبت بكم وأتيت بخلق يحسنون ويسيئون وهذا من أوسع أبواب الرحمة ويوشك أن يكون فرعًا من

حديث لله أفرح بتوبة عبده الذي مضى ، وكلمة « ولولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون » فيها محذوف لأن شرط لولا جملة اسمية خبرها محذوف وأن وما دخلت عليه مؤولة بمصدر والمعنى لولا ذنوبكم موجودة « وبعد لولا غالبا حذف الخبر » وهو هنا كون عام (موجود) فإذا كان كونا خاصًا لم يحذف القول « ولولا الغمد يمسكه لسالا » جملة يمسكه خبر المبتدأ « الغمد » وكلمة (لو) في الرواية الثانية « لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم » تفيد امتناع جوابها الذي هو مجيء الله بقوم غيرنا لهم ذنوب يغفرها لهم لامتناع شرطها الذي هو لم تكن لنا ذنوب هذا ممتنع لأننا لنا ذنوب وما دام لنا ذنوب امتنع أننا ليس لنا ذنوب لأن وجود الشيء يوجب امتناع ضده ووجود ذنوبنا يوجب امتناع نفيها وهذا قضاء العقل والمنطق الذي بُنِيَتْ عليه اللغة ، ومثل لو هذه التي في الرواية الثالثة « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » الشرط هنا لم تذنبوا وهو ممتنع لأننا نذنب وهذا الشرط الممتنع الذي هو لم نذنب أدى إلى جواب ممتنع وهو أن يذهب الله بنا ويجيء بقوم يحققون الشرط الممتنع وهو أنهم يذنبون ، ولا يزعجك هذا التحليل المنطقي لأن المنطق هنا ليس منطق الفلسفة وإنما هو منطق العقل الإنساني وأن صياغات اللغة بُنِيت على دقائق دقيقة من هذا المنطق ، واعلم أن الأعرابي الذي كان يعيش في خرائب البوادي لم يكن يعلم هذا فحسب وإنما هو الذي أسَّس استعماله لكلمة « لو » وكلمة « لولا » على هذا الأساس من أداء المعنى وأنه حين كان يقول لولا زيد لهلك عمر كان يعلم أنه يفيد امتناع هلك عمرو لوجود زيد وأن أصل كلامه لولا زيد موجود لهلك عمر ولكنه لا يقول موجود أبدًا وكذلك يعلم أنه لو قال لو جاء زيد لأكرمته

يعلم أنه يفيد نفي الإكرام لنفي مجيء زيد يعني يفيد امتناع الجواب لامتناع الشرط ، وأنه حين يقول لو لم يدركه لهلك فإنه يفيد نفي هلاكه لنفي لم يدركه لأن نفي لم يدركه يعني أنه أدركه فنجا ، ويغمض المعنى إذا كان الشرط منفيًا مثل لم تدركه لأن امتناع المنفي هو الإثبات وإذا كنت لا تصدق أن البدوي الذي لا يقرأ ولا يكتب يدرك هذا الذي يغمض عليك وأنت من النخبة أو مُرَشّح لأن تكون من النخبة فتذكر أنه لا يقول أأهنت زيدًا أم عمرا ولو نزعت لسانه من بين فكّيْه لأن قوله أأهنت يعني أن السؤال عن الفعل وأن الشك فيه وقوله أم عمرًا يعني أن السؤال عن المفعول وأن الشك فيه وهذان يتدافعان فاعرفه وقوله عليه السلام « يذنبون يغفر لهم » الأظهر أن فيه حذفًا وتقدير الكلام يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم ، لأنك لو حملت يغفر لهم على أنه وعد من الله لاقتضى ذلك تقدير محذوف لأن مغفرة ذنب العاصي لا تكون موعدًا إلا بعد التوبة والاستغفار توبة ، ويحتمل الكلام أن يكون على ظاهره من غير محذوف أي يذنبون يتوبون أو لا يتوبون ويغفر الله لمن تاب ولمن لم يتب لأنه يغفر الذنوب جميعًا والرواية الثانية « لو أنكم لم تكن لكم ذنوب يغفرها الله لكم لجاء الله بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم » ولاحظ أن مغفرة الله للذنوب تكررت في هذه الرواية وذكرت مرة واحدة في التي قبلها ، وأفهم من هذا التكرار أن إعلام ربنا لنا بالمغفرة لذنوبنا من أهم مقاصد الحديث ، وكأن المعنى أنه من أسرار بقائنا على هذه الأرض هو أننا نذنب وأن مغفرة الغفار تغفر ولو بقينا من غير ذنب فلن تكون هناك مغفرة وحينئذ نترك هذا الكوكب ليحل محلنا قوم يذنبون فتتجلى بذنوبهم مغفرة الغفار وستر الستار وكأن الذنوب على هذا الكوكب الذي كتب عليه أنه لا يسكنه إلا المذنبون هي السبيل إلى ظهور تجليات اسم

من أسماء الله الحسنى هو أمَسّ بنا رحمًا وهو المغفرة وأخوه الرحمة ، وهذا حين تتأمله تراه عجيبًا جدًا ثم لاحظ شيئًا آخر وهو قوله « فجاء بقوم لهم ذنوب يغفرها لهم » والذي يلاحظ في هذا أن مجيئه سبحانه بقوم آخرين لم يتحقق وإنما هو على سبيل الفرض والتقدير وأنه سبحانه أخبر بأن هذا الذي لم يكن وهو مجيئه بقوم آخرين لو كان لكانوا يكونون مذنبين يعني أنه سبحانه أخبر عن الذي لم يقع وأنه لو وقع لكان يكون منه كذا وهذا مما لفت إليه الكملة رضوان الله عليهم . قال القرطبي « هذا خبر من الله تعالى عن ممكن مقدور الوقوع مع علم الله تعالى أنه لا يقع فحصل منه أن الله تعالى يعلم حال المقدَّر الوقوع كما يعلم حال المحقّق الوقوع ونحو من هذا قوله تعالى ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ وقد عبر بعض العلماء عن هذا بأن قال إن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف كان يكون » انتهى كلام القرطبي . وأشهد أنني لو عشت عمرًا كالذي عشته ولم أنقطع عن طلب العلم يومًا فلن أستطيع أن أقول (وما لو كان كيف كان يكون) لأن هذه أقلام ذهبت مع الزمن الذي ربّاها والذي ربّي نظائرها في السياسة والقيادة وربينا نحن في الزمن العقيم .

وفي رواية أبي هريرة زيادات ليست في هاتين الروايتين أول هذه الزيادات وأهمها قوله عليه السلام (والذي نفسي بيده) ولم أعرف في أخبار الله وفي أخبار رسوله صلوات الله وسلامه عليه خبر يحتاج إلى توكيد كهذا الخبر لا لأننا نشك في خبر من أخبار الله ورسوله لأن الشك لا يعرف طريقًا إلينا فيما يَصِحُّ لنا مجيئه عن الله ورسوله ، وإنما أقول لم أجد في نفسي غرابة من إحياء العظام وهي رميم لأن الذي يُحْيِيها هو الذي خَلَقها أوَّلَ مَرّة والإعادة أهونُ عليه وإنما لأنني كغيري من عباد الله أستعظم الذنب الذي

يغضب الله مع وقوعي فيه وأستعظم أن يكون الله سبحانه خلقنا لهذا ولو لم يكن منا هذا لذهب بنا وأتى بخلق جديد يكون منهم هذا ، أقول هذا القَسَمُ هذا مكانه ومَوْضعُه والأمر الزائد الثاني هو قوله عليه السلام «لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون» إلى آخره ، والجواب الممتنع هو «لذهب الله بكم» وذهاب الله بنا مرتب على عدم الذنب ، يعني أن ضمانة بقائنا هي الذنوب وهذا هو الغريب والدال على سعة أبواب الرحمة سعة لا حدود لها ولابد أن نذكر أن ذهاب الله بنا في هذا الحديث والذي لم يمنعه إلا ذنوبنا جاء في الكتاب العزيز في سياق التهديد بسبب المخالفة والذنوب والمعصية وذلك كما في مثل قوله تعالى في آخر سورة محمد ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴾ وكقوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ .

أي فرق بين ما في الحديث من أن الله سبحانه يذهب بنا ويجيء بقوم يذنبون وما في الآيتين السابقتين ولماذا كان الذي في الكتاب من التهديد والغضب والذي في الحديث يخلو من التهديد والغضب بل هو أقرب إلى القبول والرضا وحسبك أن تكون معصيتنا هي المبرر لبقائنا وعدم الذهاب بنا ؟

والذي أفهمه أن سياق الحديث هو بيان أن الله سبحانه وتعالى يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر وأنه سبحانه يفرح بتوبتنا واستغفارنا وأن المعصية التي تورث التوبة والاستغفار معصية تورث طاعة لأن الاستغفار والتوبة ورجاء العفو والرحمة والمغفرة من أفضل القربات ، ولو كان أهل الأرض كأهل السماء لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لما كانت هناك مجالات تتجلى فيها وبها صِفَةُ الغفار الرحمن وقد علم سبحانه أنه يخلق

من عباده من يَعْصيه فأعلمنا بذلك بما علمه في الأزل ، وليُعَلِّمَنَا أن نقبل عُقوق من أكرمناه وأن لا تكون أياديكم على الناس وهي من نعم الله عليكم مُوجبة في اعتقادكم طاعة الناس لكم لأن الذي أنعم بنعمة الخلق والبصر والفؤاد والسمع وبنعمة الرزق والسِّتر والعافية وربما بالجاه والمال وخلق لهم البنين وجعل لهم مالا ممدودًا وبنين شهودًا أعطى كل هذا وأكثر منه ثم قوبل بالنكران والمعصية وأحيانًا بالشرك ثم قال لهؤلاء جميعًا استغفروني أغفر لكم ولا تيأسوا من رحمة ولو لم تذنبوا وتتوبوا لخلقت قومًا غيركم يُذنبون ويتوبون فأغْفِرُ لهم لأن هذا من تجليات الألوهية التي لو كان الخلق جميعًا أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم على قلب أفجر رجل فيهم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا ، وإنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أُوَفِّيكم بها فمن وجد خَيْرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَه وهذا هو مقام المعبود بحق . قال القرطبي : « وحاصل هذا الحديث أن الله تعالى سبق في علمه أنه يخلق من يعصيه فيتوب فيغفر له ، فلو قدِّر أنه لا عاصي يظهر في الوجود لذهب تعالى بالطائعين إلى جنته ولخلق من يعصيه فيغفر له حتى يوجد ما سبق في علمه ويظهر من مغفرته ما تضمّنه اسمه الغفار » انتهى كلام القرطبي ، وإنما ذكر القرطبي أن الله سبحانه يذهب بهم إلى الجنة لأنهم لم يذنبوا وهذا على سبيل الفرض والتقدير لأن عدم ذنوبهم هو ذاته على سبيل الفرض والتقدير ، وبهذا حسم القرطبي الفرق بين يـذْهَبُ الله بنا الذي في الحديث والذي في الآيات لأن سياق الآيات أن يذهب الله بهم إلى النار وليس إلى الجنة لأن المقام مقام غضب وليس مقام تقريب وإكرام . هذا والله أعلم .

* * *

• إن رحمتي غلبت غضبي

ومما هو من كرائم هذا الباب الذي هو باب البشارة وتهدئة النفس وزيادة طمعها في رحمة الله وزيادة أملها في النجاة من غضب الله. ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كتب في كتابه فهو عِنْدَه فَوقَ العَرْش إن رَحْمتي تَغْلِبُ غَضبي» وفي رواية أخرى عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجلَّ «سَبَقَتْ رحمتي غضبي».

ولا ريب أن هذه الجملة المختصرة والتي يفيض معناها على الخلق كل الخلق من يوم أن خلق الله الخلق إلى أن ينفخ في الصور أقول هذه الجملة التي لا حدود لمعناها والتي هي من أكرم المعاني مع هذه السَّعة هي أصل للأحاديث التي ذكرتها ولغيرها في معناها راجع إذا تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعًا تجد فيه ريحًا من رحمتي تغلب غضبي وراجع لله أفرح بتوبة عبده تجد فيه ريحًا منها وراجع لو لم تذنبوا إلى آخره، وراجع غير ذلك مما لا يُحصى وليتني جمعت كل ما يتشابه من كلام الله وكلام رسوله ورجعت إلى أصوله ولو لقيت الله بهذا وحده مع صدق وإخلاص لا يكونان إلا منه لكان ذلك كافيًا ولرجوت أن يكون عدل عمل الذي أزاح غصن الشوك عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين فرآه سيدنا وهو يتقلب في الجنة لأن المهم ليس هو حجم العمل ونوعه وإنما المهم القلب الذي وراء العمل، هذا شيء والشيء الآخر هو أن هذا الحديث الذي كتب في كتابه سبحانه وتعالى وهو عنده فوق العرش وفي يوم خلق الخلق يذكرنا بحديث الرحم وأنها تعلقت بالعرش واستعاذت من القطيعة في الوقت نفسه الذي فرغ الله فيه من خلق الخلق، وبقيت الرحم معلقة بالعرش ولا تزال تردد ما أكرمها به خالقها وتقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله والذي أردته بذكرها هو

أن أشير إلى أن الكتاب عنده جل وتقدس فوق العرش والرحم معلقةُ بالعرش وبينهما فرق كبير لأنها معلقة بالعرش كما يتعلق الداعي بباب الله وبباب البيت الحرام يدعو ويرفع يمناه إلى ربه وهذا شأن المخلوق أما أن الرحمة تغلب الغضب وتسبقه فهذا شأن من شؤون الخالق لأن الرحمة صفته والكتاب الذي كتبت فيه هو كتابه وهو عنده على العرش حيث استوى جل وتقدس ، الكتاب في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ولماذا كتب الله ذلك في كتابه الذي هوعنده فوق العرش وهو سبحانه لا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء ؟ وجواب ذلك أن هذه الكتابة في هذا الكتاب الذي هو عنده فوق العرش تشير إلى أهمية المكتوب وأنه عند الله بمكان وأنه كتب في كتابه هو سبحانه ، وحفظه فوق العرش حيث يكون الرحمن على العرش استوى أعني حيث يكون السلطان والاستيلاء والحكم وهيبة الألوهية وإن كان الاستواء معلومًا وكان الكيف مجهولاً والسؤال عنه بدعة ورحم الله الذين رزقهم بيانا هم أول أهل البيان بعد بيانه ومن عادة الله سبحانه وتعالى أنه يكتب وكل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر وأنه استنسخ ما كانوا يعملون والكتاب معلوم والاستنساخ معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة واحفظ كلام الأئمة لأنه من زوارق النجاة من الهلاك والغرق .

وأرجع إلى الوقت الذي كتب فيه هذا والذي استعاذت فيه الرحم ، وقد ذكرت أن الرحم كأنها أُلهِمَتْ وَحْشَةَ القَطْع وأُنس الوصل ساعة خُلِقَتْ فاستعاذت من وحشة القطع ورجت أنس الوصل ، أما المخاطبون برحمتي غلبت غضبي فهم المكلفون لأنه لا يتعلق بالرحمة ولا يرهب العذاب إلا الذي كُلِّف ولا يكلَّف إلا المختار وليس في خلق الله مختار إلا الإنسان ،

وكأنه وقد استشعر ما سيكون منه من أخطاء مع رؤيته لاقتدار الذي قال للخلق كل الخلق كونوا فكانوا قد خامرهم الخوف الذي يخلع القلب وأنه لا محالة سَيَقَعُ في الذنب وأنه لا محالة سيحصى عليه ذَنْبه وسيؤاخذُ فكان في أشد الحاجة إلى أن يسمع هذه الجملة التي يَسْكُن بها قلبُه ويهدأ بها خوفُه وكأنها مكتوبة في كتاب فوق العرش ترسل بهذه الرسالة إلى الأجيال جيلاً بعد جيل أن الرحمة سبقت الغضب وغلبت الغضب ووسعت الغضب والخلق كلهم شركاء في الرحمة ، وأما الغضب فهو خاص بالإنسان لأن الغضب يعني العقوبة مقترنة بالتكليف وحمل الأمانة التي عرضها الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان وقد اهْتَزَّ تَحتَ وطأتها أول حامل لها وهو أبونا وأمنا لما أباح الله لهما كل ما في الجنة مما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين وحرم عليهما شجرة من آلاف الأشجار في الجنة فأكلا منها فبدت لهما سؤاتهما ومن لحظتها بان للإنسان أنه لا غِنى له عن ستر الله لأنه ليس معصومًا من المعصية وأن المعصية كَشْفٌ للسوأة ولولا ستر الله لكان كل الناس بادي السوأة ، وهذه هي لحظة احتياج الإنسان إلى ما في هذه الوثيقة التي فوق العرش حيث يكون الرحمن على العرش استوى ، وحيث المقعد الصدق عند مليك مقتدر .

والرحمة التي نعرفها رقة في القلب تورث النفس انعطافًا نحو الشيء المرحوم طفلاً أو مريضًا أو ذا حاجة والغضب معنى في القلب يورث الكراهية والبغضاء وإرادة الشر بالمغضوب عليه ، والرحمة والغضب بهذا المعنى الذي نجده مستحيل على الله سبحانه لأنه ليس كمثله شيء ، وإنما المراد بالرحمة ما توجبه الرحمة من إيصال الخير إلى المرحوم ، أَعْنِي أن رحمة الله تعني الثواب والعطاء والإكرام والنعم وكل ما هو من هذا الباب

وأن غضب الله يعني الانتقام والعذاب وإيصال المكروه إلى المغضوب عليه من الضَّالين .

ومن الملاحظات اللغوية أن جملة « وإن رحمتي تغلب غضبي » جاءت مؤكدة بأداة التوكيد الأم ، وبتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي وبصيغة المضارع التي تفيد معنى التجدُّد والحدوث يعني أن هذه الغلبة تحدث الوقت بعد الوقت وجملة « سبقت رحمتي غضبي » جاءت خالية من هذه الثلاثة وبُنيت على الأصل الذي يبنى عليه الكلام ليفيد أصل المعنى من غير أي إشارة زائدة ، أعني ذكر الفعل ثم الفاعل ثم المفعول ، وهذا يعني أن سبق الرحمة الغضب أمر لا يحتاج إلى توكيد لقوة ظهوره ، وسأبين ذلك بعون من الله ، كما يلاحظ أن الجملة الأولى التي جاءت مؤكدة بإن وتقديم المسند إليه ومجيء صيغة المضارع ، جاءت مسبوقة بقوله عليه السلام « لما خلق الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش » وهذا من الذي تؤكد به المعاني وإن كان من غير أدوات التوكيد ، وهذا يعني توكيدًا آخر ، والسؤال الذي من حق النظر علينا أن نطرحه هو لماذا جاء ذكر « تغلب » في هذا السياق من التوكيد ؟ وجاء ذكر سبقت رحمتي غضبي خاليًا من هذا ؟ وقبل محاولة بيان هذا أُشير إلى دلالة لغوية أخرى في الكلمتين وأن تغلب تعني مُغَالبة بين الرحمة والغضب وأن هذه المُغالبة تحدث كثيرًا وأنها في كل مرة تغلب فيها الرحمة الغضب ، وكأن ثمة صراعًا بين الرحمة التي هي الثواب والنِّعَم وبين الغضب الذي هو العذاب والانتقام وأن كلاهما يُغالب الآخر ليصل إلى المخلوق وأن الرحمة التي هي الثواب والنعم تَغْلب ، ومثل هذا يقال في « سبقت » وإن كانت المنازعة بين الرحمة التي هي الثواب والنّعم وبين الغضب الذي هو العذاب والمؤاخذة ليست مغالبة وإنما هي سباق

وكأن كلا منهما يحاول أن يصل إلى العبد قبل الآخر ، وأن السبق دائمًا يكون للرحمة ، وهذا هو الذي تَرْشَحُ به كلمتا (تغلب وتسبق) وأما أن الرحمة سبقت الغضب وأن هذا مما لا يحتاج إلى توكيد فلأن الرحمة سبقت إلى كل مخلوق من إنسان وحيوان وطير فكل ذات كبد رطبة مرحوم ومحاط بالرحمة الكل فيها سواء من الناس والأنعام والطير والناس مؤمنهم وكافرهم وصالحهم وطالحهم ، النِّعم الأساسية في هذا الوجود الكل فيها شركاء الأرض الميِّتة أحيَاها للكل وأنزل من السماء ماء للكل وأنبت حدائق ذات بهجة للكل ، وَوَهَبَ السمع والبصر والفؤاد وما لا يحصى للكل ، مكلَّف وغير مُكلَّف وإنما وصل الغضب متأخرًا جدًّا ولفئة محصورة جدًّا ولم يصل منه لهذه الفئة المحصورة في الدنيا إلا قدر قليل جدًّا وبقية الغضب موقوف إلى يوم القيامة بعد الحساب وحين يساق أهل النار إلى النار والرحمة مع الخلائق من لحظة الخلق ، والنِّعم تحيط بالنطفة فالعلقة والمضغة ثم الطفل ثم الصبي وبعد ما يُكلَّفُ يكون النعم قد غمرته والرحمة قد شملته في كل وقت وفي كل لحظة والعناية تلحظه فإذا ما بلغ حدّ التكليف وكلف ورفض لم تنزع عنه الرحمة ويظل محاطًا بها في عافيته وسمعه وبصره وطعامه ولباسه وشرابه وأولاده وأحفاده وربما منح مالاً وبنين شهودًا إلى آخره ، وأكتفي بهذا ولست في حاجة إلى مزيد في بيان سبقت رحمتي غضبي وفي هذا كله لا ترى للغضب دبيبًا نحو العبد ولو قلت إن عرصات هذه الدنيا هي للرحمة وليس للغضب فيها إلا القليل جدًّا كان كلامك صحيحًا ثم إنه حين يتوقَّد يومُ القيامة يكون جحيمًا ويكو ظُللاً من النار ويكون ثِيابًا من نار ويكون سلاسل وأغلالاً إلى آخره .

وجملة إن رحمتي تغلب غضبي التي فيها التوكيد وفيها مغالبة بين

الرحمة والغضب ومن أجْل أن نَسْتَحْضِرَ هذه المغالبة يجب أن نقول إن الغضب لا يتحرك نحو أي شيء إلا الإنسان لأن الغضب لا يتوجه إلا إلى مكلف وليس في الوجود مكلف إلا الإنسان كما سبق أن قلت ثم إنه لا يتحرك نحو إنسان رجلاً كان أو امرأة وهو دون البلوغ ، ثم لا يتحرك نحو إنسان إلا إذا كان عاقلاً ثم لا يتحرك نحو بالغ عاقل مرتكب لإثم واستغفر الله وتاب ، ثم لا يتحرك إلا نحو مرتكب كبيرة لم يتب عنها ، وهذه هي الدائرة الضّيِّقة جدًّا لتحرك الغضب : مرتكب كبيرة لم يتب عنها والذي مات على الكفر لم تتحرك نحوه الرحمة وإنما يترك للغضب وحده ، وفي حدود هذه الدائرة الضيقة وهي المؤمن الذي مات بكبيرة لم يتب عنها تغالبه الرحمة لأن الله سبحانه غافر الذنب وقابل التوب وقالوا في غافر الذنب هو الذي مات عن كبيرة لم يَتُب عَنْها لأنه لو تاب لدخل في الكلمة الثانية « قابل التوب » وغلبة الرحمة للغضب بالنسبة لمرتكب الكبيرة ومات ولم يتب منها هي البشارة التي في الحديث ، وهي ما ينتهي إليها التحليل الذي قدمته وخلاصتها أن الغضب لم يَتَوجّه إلا إلى هذا النَّوْع من الذنوب لأن الصغائر مَغْفُورة باجتناب الكبائر والكبيرة التي يتوب العبد عنها داخلة في لله أفرح بتوبة العبد الذي مضى وعليه لا يبقي إلا مَنْ مات على كبيرة لم يتب منها .

وبقي شيء في سعة الرحمة وسبقها وغلبتها وهو أن ثواب الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف والله يضاعف لمن يشاء والسيئة بمثلها وهذا من سعة الرحمة ، وقبول التوبة من سعة الرحمة وامتداد وقتها إلى زمن الغرغرة من سعة الرحمة وبَعْثُ الأنبياء وإنزال الكتب من سعة الرحمة والقرآن رحمة ومحمد عليه السلام رحمة والهدي رحمة وآيات الله في السموات والأرض

رحمة ، والحسنات يذهبن السيئات رحمة ولو سبق الغضب الرحمة لكانت الحياة جحيمًا لا يطاق ولكانت السيئة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ولأغلق باب التوبة ولَمَحْت السيئةُ الحسَنَةَ والنهاية أن لله رحمة ترتجى ولله غضب يُتَّقَى وفي فيوضات هذه الرحمة لا يجوز أن ننسى أنه سبحانه لا يعذب عذابه أحَدٌ ولا يُوثِقُ وثاقه أحدٌ وأنّه شديدُ العقاب وأن عذابه هوالعذاب الأليم ، وهذا حسبي .

هذا الحديث الذي سبق إن رحمتي تغلب غضبي ، وسبقت رحمتي غضبي ، في تواصل الرحمة والغضب بالعباد وأن الرحمة تغلب الغضب وتُعْجزُه وتَسْبِقُ إلى العبد ، أما الرحمة التي هي صِفَتُه سبحانه فله سبحانه اسمان مشتقان من الرحمة وأمرنا أن نذكر الرحمن الرحيم في كل أمر نَبتدئهُ وفي كل صلاة وعند الطعام وعند الشراب على آخر ما تعرف مما تقول فيه باسم الله الرحمن الرحيم ، وقد روى عمر رضوان الله عليه عن رسول الله ﷺ حديثًا يبين لنا رحمة الله بعباده وأنه سبحانه أرحم بهم من الأم برضيعها الذي ضَلَّتْهُ .

قال عمر قُدِم على رسول الله ﷺ بسَبْيٍ فإذا امرأة من السَّبْي تَبْتَغِي . إذا وَجَدَتْ صَبيًّا في السَّبْي أخذته فألْصَقَتْه ببطنها وأرْضَعَتْه فقال لنا رسول الله ﷺ أتَرَوْن هذه المرأة طارِحَةً ولدها في النار ؟ قلنا لا والله وهي تَقْدِرُ عَلَى ألا تَطْرحه فقال رسول الله ﷺ « الله أرحم بعباده من هذه بولدها »، وقول عمر رضي الله عنه « قُدِمَ» بالبناء للمجهول فيه قطع الدلالة وإبعادها عن كل ما يشغل السامع عن الغرض الذي سيق له الكلام ، فلو قال قدم بالبناء للفاعل لفتحت هذه الكلمة الباب إلى مَعْرفة الذي قُدِمَ أعنى الذي بعثه رسول الله ﷺ على رأس السريّة ولفتح هذا الباب على معرفة الجهة التي

توجهت إليها السرية والقوم الذين غزتهم ولدخل الكلام ببناء كلمة قدم للفاعل في باب من أبواب التاريخ والسِّير ، وليس شيء من ذلك بمراد وإنما المراد الحالة التي كانت عليها المرأة وتعليق رسول الله ﷺ على هذه الحالة ... وهذا من أبرز ما تراه في سَمْت الكلام الأول وهو انْصِبَابُ الكلام من أول أمْرِهِ على مَعْرِفة الغرض الذي سيق له رأيت ذلك بارزًا في كلام كل الرواة الذين رووا عن رسول الله ﷺ وقدموا لكلامه بمثل ما قدم عمر رضوان الله عليه .

وقوله رضي الله عنه « على رسول الله ﷺ بَسْبي » يلاحظ في كلمة سبي أنها عزلت الكلام عن كل ما كان في صُحْبتها فلم يأت الغزاة بسبايا فقط وإنما كانوا يعودون بالغنائم وبالأسارى وبالسبايا ، وإنما كان لسان عمر رضوان الله عليه يَنْتَقِي من الكلام اللَّبِنَات التي يُؤسِّسُ عليها ما أراد فسكت عن كل ما عدا السبايا ، ولما وضع بين عينيك السبايا دون غيرهن أثارك وأيقظك وفاجأك بإذا الفجائية وقال « فإذا امرأة من السبي تبتغي » وهذه جملة من أكرم الجمل وقد خلَّص الكلام لها وكما نحَّى كل ما قُدِم به على رسول الله ﷺ وحدَّدَ المقصود في السبايا ، رجع ونحَّى كل السبايا وحدّد المقصود في المرأة التي تبتغي أي تطلب وتبحث ، ولاحظ كَيْفَ جَعَلَها وحدها في الصورة ونحَّى كل ما سواها وكيف بيّن ووَضّح صورتها ، ابتدأ بعد ذكر السبايا بإذا الفجائية كما قلت فَشَدَّتْ هذه الفجائية كل اهتمامك لما بَعْدها لأنك لو قلت خرجت فإذا الأسد أو الذئب كانت إذا صارفه عنك كل ما عدا الذي بعدها وموجهة حسَّك كله إلى الذي كانت به المفاجأة وهو الأسد أو الذئب وهذا من قدرة اللغة على التصوير لأن التصوير بهذه العربية الشريفة ليس بالتشبيه والتمثيل والمجاز فحَسْب ، وإنما بوسائل كثيرة ، قلت

إن إذا الفجائية في قول عمر « فإذا امرأة من السبي تبتغي » شدّت الانتباه كله نحو امرأة من السبي ، وكان هذا كأنه إعداد لتلقي هذه الصورة المَرْسُومة بالفعل المضارع (تبتغي) ومجيء المضارع هنا لَهُ مَغْزى لأنَّه يصورها وهي تبتغي أو تَسْعى هنا وهناك وتطلب في الصبيان ولدًا لها ، وهذه الكلمة التي هيأ لها لِسَانُ عمر هذا الموقع هي قطب الرحا في هذا الحديث وهي جُذَيْله المحكك وعِذْقُه المرجّب وحذف المفعول فعل (تبتغي) وإن كان السياق دالاً عليه وأنه تبتغي ولدها ، ليتوفر الكلامُ على أنه يكون منها ابتغاء وطلب أو سعي حتى ترى من خلال هذا المضارع وكأنها لا شاغل لها إلا أنها تبتغي أعني ترى سبيَّةً شأنها الابتغاء وموقع كلمة (تبتغي) موقعًا لا يزرعها فيه إلا لسان أي لسان ولا حظ أنني لا أحُلِّل وإنما أدُلَّ فقط على مكان الخبيء ليستخرج ولا يستخرج هذا الخبيء إلا طبع غُذّي بأفصح البيان والذي عليك هو أن تكرر هذه الجملة « فإذا امرأة من السبي تبتغي » وأن تحاول أن تدرك منها خفيَّ الهمس والصورة التي تَسْري فيها سريان النفّس في النفس وأن تَسْتَقْصِيَ ذلك وغيره بالتأمل والرجوع إلى النفس وهذا كله من كلام كرامنا الذين علمونا العلم وإن كنا لم نحسن الأخْذَ عنهم . وأرى أن تكرار الجمل العالية أعود عليك من قراءة أي تحليل لها .

وقول سيدنا عمر « إذا وجدت صبيًا في السَّبى أخَذَتْه فألْصَقَتْهُ ببطنها وأرْضَعَتْه » وهذه الجملة فيها شوب من تفصيل وبيان الإجمال الذى في كلمة « تبتغي » وليست نصًا في بيانها لأنها ليست نصًا في بيان أنها تبتغي ولدها ، وإنما هي نص في أنها إذا وجدت صبيا في السَّبْي أخذته وألصقته ببطنها وأرْضَعَتْهُ ، وهذا لازم من لوازم ابتغائها لولدها ، ثم إنك تلاحظ مَبْنَاها وأنها بُنِيَتْ على أداة الشرط « إذا » الدالة على أن شرطها الذي هو وجود صبية في

السبي كثير ، فدلنا بذلك على كثرة الرُّضعَ في السَّبْي ، ووراء ذلك ما وراءه ثم إنّها تدل كغيرها من أدوات الشرط على أن جوابها يترتب على شرطها ترتبا لا يَنْفَكُّ وأن أخذها للصبي الذي تجده لا يتخلف مع صبي واحد مع كثرتهم المدلول عليها بإذا ، والفاء التي في قوله « فألصقته إلى بطنها » دالة على ترتب إلصاقه ببطنها على أخذه ترتبا بلا مهلة حتى كأن أول الفعل بعد هذه الفاء يكون مُمْسِكًا بآخر الفعل قبلها فإلْصَاقُه ببطنها ممسك بأخذه والواو التي في قوله وأرضعته تعطف أرضعته على أَلْصَقَتْه وتدخل فعل أرضعته في حكم فعل أَلْصَقَتْه أي أن الإرضاع داخل في حيز الفاء التي في قولها فأرضعته وترى من وراء كل ذلك لَهْفة هذه الأم التي ربما كانت من كرام قومها ومن أحرارهم آمنة في عزهم وحمايتهم ، ثم تراجع هذه الجملة مرة ثانية « إذا وَجَدتْ صبيًّا في السبي أخَذَتْه فأَلْصَقَتْه ببطنها وأرضعته » وأول ما تلاحظه أن فيها كلمات كان يمكن الاستغناء عنها وأولها كلمة « في السبي » لأن الحديث عن امرأة في السبي تبغي وهذا يعني أنها إذا وجدت صبيًّا سيكون هذا الصبي في السبي ، ثم تجد كلمة « فألصقته ببطنها » لأن كلمة « أرضعته » تُفيدُ معنى فألصقته ببطنها لأن كل أُمّ تُرْضِع طِفْلها هي لا محالة تُلْصِقُ طفلها ببطنها ، لأن الإرضاع لا يكون إلا بذلك ، وهذا يَعْنِي أن سيدنا عمر صاحب البيان العالي إنما عَمَد إلى إشباع هذا الجزء من المعنى وَمَطَلَ الكلام فيه وأطاله ، وكان هذا المَطْلُ وهذا المدُّ وهذا الإشباع بعد كلمة بَلَغَتْ في الإيجاز ملبغًا قلّما يَنَالُه لسان وهي قوله رضي الله عنه « فإذا امرأة من السبي تبغي » وكان هذا الإيجاز البارع كأنه مقدمة لافتة لهذا الإطناب الأبْرَع ، وذلك لأن هذه الصورة التي مطل كلامها وأشبعه هي عمود المعنى في هذا الحديث وهي جُذَيله المحكك كما قلت وعِذْقَهُ المرجّب ، وفكر أنت لترى الذي قلت « هو كما قلتُ » ولاحظ الفاء في قوله فقال

رسول الله ﷺ «أَتَرَوْنَ هذه المرأة طارحةً ولدها في النار ؟» لأن هذا يعني أن سيدنا المختار صلوات الله وسلامه عليه كانت عينه على هذه الصورة التي أشْبعها عمر فأعْقَب حالتها هذه بهذا السؤال المفاجئ والصادم أيضًا ، وكل ذلك لربط المعاني بعضها ببعض وتأكيد الصورة وإحضارها لأن الكلام العالي الذي سيقوله سيد الثقلين بوحي من ربه مؤسس على هذه الصورة فلا بد أن تكون ظاهرة جدًا ولذلك قال عليه السلام «أترون هذه المرأة» أي التي بين أعينكم والتي ما إن وجدت صبيًا في السَّبْي إلا أخَذَتْه فألْصَقَتْه إلى آخره ، وقبل أن أنتقل إلى كلام سيد الثقلين مع خَيْرِ أجْيال أهل الأرض أرجع إلى هذه الصورة لأراجع فيها شيئًا آخر ، وهو أن الذي انتقاه عمر منها والذي تأسس عليه كلام سيدنا رسول الله ﷺ وراءه أشياء سكت عنها عمر سكوتًا تامًّا وضرب عنه صفحًا ، منه أن هذه المرأة في سبي من قومها وأن الذين معها في هذا السبي ربما كان منهم إخوة وأخوات أو أبناء عم وبنات عم أو أبناء خالات وبنات خالات أو جيران أو ما شئت مما يكون بين أهل حيّ غزوا وانهزموا وسيقُوا ، ولابد أن يكون من بين هؤلاء الصبية الذين تأخذهم فتُلصِقُهم ببطنها وترضعهم من تَعْرِفِهمُ ولابد أن يكون منهم من هو مع أمّه ومنهم من ضَلَّته أمه ولابد أن يكون بعضهم قد ساعدها في البحث عن ولدها ، والسَّبْيُ وإن كثر محصور ومحاط به وما هو وراء ذلك كله مما نَحَّاه عمر رضي الله عنه ولم يشغلنا به لأنه أراد أن يشغلنا بشيء واحد هو قوله عليه السلام «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» وأعود إلى كلام سيدنا رسول الله ﷺ «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟» قلت إن هذا سؤال فيه مفاجأة ظاهرة لأنه لا تطرح أم ولدها في النار فضلاً عن هذه المرأة التي يراها الأصحاب رضوان الله عليهم وهي والهة توشك أن تفقد عقلها لضياع ولدها وهذا السؤال المفاجئ والصادم إنما كان لإعداد نفوسهم

لتلقي أعظم بشارة يتلقاها عباد الله وأن الله سبحانه وتعالى الذي أمرنا أن نخافه في مثل قوله ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ ووعد الذين يخافون ربهم من فوقهم بأنهم لا خوف عليهم يوم القيامة هو سبحانه أرحم بنا من هذه المرأة بولدها ، وهذه هي زبدة هذا الحديث وبشارته ، والاستفهام في قوله عليه السلام « أتَرَوْن هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ استفهام إنكاري ومَعْنَاه أنها لا تطرح ولدها في النار وإنما عرضه عليه السلام في هذه الصورة لمزيد من إثارة الانتباه والوعي والإيقاظ لتلقي هذه البشرى الكريمة ، وكلمة « طارحة ولدها في النار » كلمة بارعة التصوير في الإبانة عن الأمر الذي لا يكون ، لأن الطرح في النار لا يكون من أشرس الناس على من هو أشد عداوة له ؛ ولم يكن العرب في جاهليتهم يألفون ولا يُقدْمون على الطرح في النار وربما قتلوا وأصابوا وأسَرُوا ولم أعرف في تاريخهم المليء بالحروب والدماء أنهم طرحوا أسراهم في النار . ولهذا كان السؤال صادمًا لأنه لو فَرَضْنَا أنه كان من عاداتهم في حروبهم فكيف يكون من أم بولدها ثم كيف يكون من هذه التي توشك أن تُجَنَّ على ولدها ؟

ولذلك بادر الأصحاب بقولهم « لا والله وهي تقدر على ألا تطرحه » وقولهم لا والله واضح في جوابهم لرسول الله ﷺ وهو يعني لا والله لا تطرحه ولكنهم أضافوا جملة « وهي تقدر ألا تطرحه » وهي جملة حالية مؤكدة بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي والواو في الجملة الحالية تعني أن لها أهمية توشك بها أن تكون عدلاً لجملة الخبر الأصلي ثم إن هذه الحال تعنى أنها لا تطرحه وهي تقدر على ألا تطرحه يعني صارت قيدًا لقولهم لا تطرحه ولو قلت على غرار هذه الجملة مثلاً زيد لا يهين صاحبه وهو يقدر على ألا يهينه لوجدت غموضًا في المعنى وكأنه يهينه حين لا يقدر ألا يُهينه يعني هو يهينه حين يضطر ويُرْغَمُ على إهانته وهذا

التركيب في المعنى الذي معنا يفيد أنها تطرحه حين لا تستطيع منع طرحه والذي أفهمه من هذا أنها لا تطرحه ولا تسمح لغيرها أن يطرحه وإنما تقاوم من يَطْرَحُه بكل ما لديها من قوة ، والخلاصة أن قولهم وهي تقدر ألا تطرحه تأكيد لقولهم لا والله ، وتضيف معنى وهو أنها لا تطرحه ولا تسمح لأحد أن يطرحه . وقوله عليه السلام « الله أرحم بعباده من هذه بولدها » وهذه الجملة حُذِيَتْ حَذْو جملة لله أشد فرحًا بتوبة عبده ، كما يلاحظ أن التهيئة والتقديم لهذا المعنى المهم في الدين كان متشابهًا في الحديثين . هناك ضَلّتْ راحلته وعليها طعامه وشرابه ويَئس من البحث عنها إلى آخره ، وهنا حكاية هذه المرأة التي في السَّبْي وتبغى ولدها إلى آخره ومنزع الكلامين منزع واحد وحذو الكلامين حذو واحد والذي يجب أن يُعْلم أن المغزى من الحديثين مغزى واحد وكأنه عليه السلام بهذا الحذو الواحد يجعل كل حديث يستدعى صاحبه وقد مرّت أحاديث كثيرة متشابهة في الحذو والمنزع والسمت وراجع مقاصدها لتجد التصاقب البارع الذي أهملناه ، وقوله عليه السلام « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » من باب التشبيه الذي يكون فيه المشبه أقوى في وجه الشبه من المشبه به كما تقول هو أجود من الغيث وأمضى من السيف والمشبه به هنا ليس صورة ترسُمُها اللغة كبيت الشاهد :

فأصبَحْتُ من لَيْلى الغَداةَ كقابضٍ　　على الماءِ خانته فُروجُ الأصابع

وإنما هي صورة حيَّة غير لغوية لأن المشبه به هو هذه المرأة التي إذا وجدت صبيًّا أخذته فألصَقَتْه ببطنها وأرْضَعَتْه وهذا أفعل في النفس من الصورة التي ترسمها اللغة وإن كانت في الحالتين تَنْقُل المعنى من الخفي إلى الجليّ ومما يدرك بالعقل إلى ما يدرك بالحس وقد أشار عبد القاهر إلى الفرق في المعنى بين أن تقول بيت الشاهد « فخانته فروج الأصابع » وأن تكون على شاطئ نهرٍ وبَدَلاً من بيت الشعر تملأ يدك بالماء ثم تقول

لصاحبك هل تراني قادرًا على أن أحْتَفِظ بهذا الماء وأن أمنعه من أن يتنزّل من فروج أصابعي ؟ أنت في الحالة التي تصور فيها المعنى تصويرًا حيًا حَادِثًا في الواقع تكون دلالتك أقوى ، وكأنه استخرج قاعدته هذه من هذا الحديث الذي يقول فيه سيدنا رسول الله ﷺ «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار» ؟ لأنه عليه السلام لم يحدث عن وَلَعِها بولدها ولا عن لهفتها وإنما ترك ذلك كله للواقع الذي تراه عيونهم وقال هذه المرأة يعني التي ترون ولعها بولدها طارحة له في النار .

ولنذكر أن الرحمة من الله ليست رقة في القلب كما هي فينا وإنما هي مَنٌّ وفضل وعطاء وإكرام ، وليس بعيدًا أن أقول إن الله أرحم بي من أمي وأبي وأرحم بولدي مني لأن فضل الله عليّ ونعمة الله عندى ليست من النعمة التي يملكها أمي وأبي لأنهما يملكان لي الطعام والشراب والرعاية والكسوة وما هو من هذا الباب ولا يملكان لي السمع والبصر والفؤاد وما بني عليه جسمي من أحوال وأعضاء ووظائف إلى آخره ، العطاء من الله لا يملكه إلا الله وإذا كانت رحمته مَنًّا وعطاء وليس انعطافًا لأنه ليس كمثله شيء فلا يرحم أحَدٌ أحدا كما يرحم الله خلقه ، هذا شيء ، وشيء آخر وهو أن رحمة الله بعباده لا تعني أنه سبحانه يجعل المجرمين كالمؤمنين وأن لا يعذّب الظالم والباغي والفاجر لأن هذا ينافي الحكمة التي بني الله عليها السماء والأرض وينافي العدل الذي أقام عليه الوجود ، وإنما يعني شيئًا آخر هو أن أصحاب الجحيم الذين يطرحهم ربنا في النار ويُلقيهم في قعرها ويصيّرهم من وقود النار كان منهم ما أغضب الرحمن الرحيم الذي هو أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها والذي غلبت رحمتُه غَضَبَه والذي لو تقربت إليه ذراعًا تقرب منك باعًا ، والذي يسبق إليك نعمه وعطاياه ليس

فيما سَخَّر لك من هذا الوجود وإنما منك أنت إذا نظرت إلى نفسك وقلّبت يَدَيْك ومشيت على رجليك ونظـرت بعينيك وتكلمت بلسانك ورأيت أنك لا تَعْدو من أولِكَ إلى آخرك أن تكون مجموعة نعم من الله وحين تتمرّد وأنت لست إلا مجموعة نِعم على صاحب هذه النعم فلا يجوز أن يَرِقَّ لك قلبٌ إذا أخذوك فغلّوك ثم في سلسلة زرعها سبعون ذراعًا سلكوك إلى آخر صُنوف العذاب وتيقن أن الذي جعل فوقك ظُلُلاً من النار وتحتك ظُللاً هو أرْحَمُ بك من هذه المرأة بولدها ولكنك كفرت بكل نعمة ، ثم لا تنسى أن الذي روى هذا الحديث هو عمر صاحب الشدائد ، لأنّهُ فهم الحديث وفهم أنه إذا لم يَأخذْهُ نفسه في دين الله بشدائده المعروفة فلن يفلت من عقابه ويمكن أن نقول إن كل هذه المُبَشّرات دليل عى حقيقة أبَان عنها رسول الله ﷺ لما قال كلكم يدخل الجنّة إلا مَنْ أبَى ثم إننا لابد أن نفهم أن الوعيد والتهديد والترهيب الذي في الكتاب والسنة وصور العذاب التي نراها في مثل قوله تعالى ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ وفي مثل ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا ﴾ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ إلى آخره كل هذا دخل في قوله عليه السلام « لله أرحم بعباده من هذه بولدها » لأن كل هذا التخويف لنبلغ الأمْن ولنجتَنِبَ الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وكل هذا مما جاء على لسان رسل الله جميعًا ونزل في كتب الله جميعًا . وكله من الرحمة ومن النِّعمَ والآلاء وليس هذا مما استخرجه الناس وإنما دليله من الكتاب مثل قوله تعالى ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وبعده ﴿ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وهذا صريح في أن صور الوعيد من الآلاء التي لا يَنْبغي أن

يكذّب بها إنس ولا جان ومن المفيد كما قلت ونحن نقرأ أحاديث البُشْرى وآيات البشرى أن نذكر قوله تعالى ﴿ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ ، حتى لا نتساهل لأنه لا يتساهل إلا الذي لا يَعْلم وقد نبهت إلى أن هذا الحديث رواه عمر صاحب الشدائد ، لأنه لا يُصِرُّ على الضلال والفجور بعد هذا الفيض الغامر من الرحمة إلا من يُصِرُّ على أن يُطْرَح في النار . ثم إن الطرح في النار من الرحمة فهؤلاء القتلة الذين يحصدون أرواح الشعوب بأيدي أبناء الشعوب وبتكاليف تدْفعها الشعوب وتعلو مراتبهم ورواتبهم بمقدار إيغالهم في قتل أبناء الوطن وحرقهم بعد قتلهم أقول طرح هؤلاء في قعر الجحيم من رحمة الله بالمقتولين واليتامى والأرامل اللهم عجل بانتقامك لتشفى صدور المقهورين .

لو ذهبنا نستقصي ما في الكتاب والسنة من الرحمة لكتبنا في ذلك أسفارا ، وإنما أُنَبِّه إلى بعض الصور التي في صحيح مسلم وأقصد صور المعاني التي تحت الكلمات ففي قوله سبحانه إن رحمتي تغلب غضبي صورة وفي قوله سبقت رحمتى غضبى صورة وفي قوله عليه السلام لله أرحم بعباده من هذه بولدها صورة أخرى إلى آخره وإن كانت كلها تؤول إلى معنى ؛ وأصل هو شأن الرحمة عند الرحمن الرحيم سبحانه وتعالى وأنه بنى الخلق على هذه الرحمة وأوْدَع في قلب كل ذي قلب من الإنسان والحيوان والطير قدرًا من هذه الرحمة فتراحم الخَلْقُ ولو جَفَّت القلوب من هذه الرحمة لكانت الحياة جحيمًا لا يُطاق ولم يجد الناسُ شَقاء كالشقاء الذي يجدونه في تلك الجهات التي انتزعت فيها الرحمة من قلوب أهلها كهؤلاء الظالمين من بُغاة الحكام الذين لم يمتلكوا القوة إلا ليقْهَرُوا بها شعوبهم والذين لم يقهروا عدوًّا قط والحديث الذي أنْقُلُ إليه الكلام حديث

عن الرحمة من وجه آخر غير الوجوه التي مَضت وهو وجه يعين عليه التدبر .

ذكر سعيد بن المسيَّب أن أبا هريرة أخبره أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « جعل الله الرحمة مائة جزء فأمْسَك عنده تسعة وتسعين وأنْـزَلَ في الأرض جُزْءًا واحدًا فمن ذلك الجزء تتراحم الخلائق حتى ترفع الدابةُ حَافِرَها عن ولدها خشية أن تصيبه ». وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « إن لله مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس ، والبهائم والهوامُّ فبها يتعاطفون وبها يتراحمون ، وبها تَعْطِفُ الوَحْشُ على وَلَدِها . وأخذ الله تسعًا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة ».

وروى عن سلمان أنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة كل رحمة طِبَاقُ ما بين السماء والأرض فجعل منها في الأرض رَحْمَةً فَبِهَا تَعْطِفُ الوالدة على ولدها والوحش والطير بعضُها على بعض فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة » .

قوله عليه السلام « جعل اللهُ الرحمة مائة جُزء » يعني أنه جعلها مائة جزء بعدما خلقها لأن الجعل معناه التَّصْيير ومثال أهل اللغة جعلت الطين إبريقًا ليس فيه معنى أنك أوجدت الطين وإنما كان الطين بين يديك فصيَرْتَهُ إبريقًا وقوله ﷺ إن الله خلق يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة يعني خلقها وجعلها مائة رحمة وقوله عليه السلام إن لله مائة رحمة يعني بعد الخلق والجعل وهذا هو ترتيب دلالة ألفاظ اللغة ونعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، ثم إن الحديث عن الرحمة التي خلقها الله تعالى يوم خلق السموات والأرض أما الرحمة المفهومة من أنه سبحانه الرحمن الرحيم فهي قديمة والتي يستحيل عليها الزيادة والنقص لأنها من

الكمالات المطلقة فهي غير هذه الرحمة المخلوقة لأنها لا تُعدُّ ولا تُحْصى ولا تُسْتَقصَى . وهي التي نتعلَّق بها وندعوه بها حين نقول يا أرحم الراحمين ارحمنا ، كما نقول يا غفار اغفر لنا ويا ستار استرنا ويا لطيف الطف بنا هي من أسمائه الحسنى التي ندعوه سبحانه بها .

وقوله عليه السلام يوم خلق السموات والأرض يعني أنها ملازمة للخلق ويوم أن كتب في كتابه عنده فوق العرش أن رحمتي تَغْلِبُ غَضَبِي ويوم قامت الرحم وقالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة فقال لها ربنا أما ترضين أن أصِلَ من وصلك وأن أقْطَعَ من قَطَعَك فقالت نعم فقال لها فذلك لك ومن المفيد أن نراجع كل هذا لنعلم أن للرحمة عند الله شأناً أي شأن وأن من سَكَنتْ في قلبه الرحمة يرحمه الله لأنه سبحانه وتعالى يرحم الرحماء ، وأن من لا يرحم لا يُرْحَم .

وقوله عليه السلام « كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض » قريب من وصفه سبحانه للجنة وأن عرضها كعرض السماء والأرض وأن الرحمة التي أنزلها إلى الدنيا طباق ما بين السماء والأرض وأنها تمنح هذه الدنيا شيئًا من ريح الجنة وأن الرحماء عليها أشبه بأهل هذه الجنة ، ثم تذكر أن الجنة في الآخرة تسمى الرحمة ، وأن المخلَّدين فيها مُخَلَّدُون في رحمة الله .

ولن يستطيع أحد أن يتصور هذه الرحمة التي في مائة جزء وقصارى ما يمكن إدراكه هو أن نَستَحضِر بعض صور الرحمة من الجزء الذي أنزله الله إلى الأرض مع ملاحظة أن هذا الجزء يتراحم به الخلق من الإنسان والحيوان والطير من أول الخلق إلى آخر الخلق وأن الذي تدركه من ذلك دون قَطْرةٍ من بَحْر ولكن هذا هو المتاحُ وأول شيء في ذلك هو الرحمة التي في قلب امرأة السَّبْي التي تبتغي وكلما وجدت صبيًّا أخذته وألصقته

ببطنها وأرضعته ، والتي قال سيدنا رسول الله في شأنها « لله أرْحَم بعباده من هذه بولدها » والفرق الذي في أفعل التفضيل في كلمة سيدنا المختار فرق شاسع جدًّا لأن رحمة هذه بولدها راجع إلى نصيبها من جزء الرحمة الذي أنزله الله إلى الأرض وبه يتراحم الخلق من أول الخليقة وعليك أن تتصور القسم الذي أصابها في هذه القسمة ثم تعود إلى التسعة والتسعين جزءًا التي عند ربنا والتي يرحم الله بها الخلق يوم القيامة ، ومن المهم جدًّا أن نفكّر في المعاني وخصوصًا ما جاء في كلام الله الذي لا يأتيه الباطل وما جاء في كلام رسول الله ﷺ وهو الصادق الأمين على وحي الله ، وعلينا أيضًا أن ننظر في نفوسنا وما في قلوبنا من رحمة بأنفسنا وأولادنا ومن حولنا وإلى أي مدى نتألم لألم الآخرين ونحزن لظلم المظلومين ، ونذكر أن هذا للإنس والجن والبهائم والهوامّ حتى ترفع حافرها عن ولـدهـا خشـيـة أن تـؤذيـه ولا شك أن أول دابة في الأرض رفعت حافرها عن ولدها خشية أن تؤذيه وآخر دابة في الأرض كذلك واقرأ الشعر والتاريخ تاريخ الإنسان وتاريخ الحيوان وتاريخ الطير لتبحث في هذا كله عن شيء واحد هو الرحمة التي بين كل هذه الأجناس وكيف تَحْضُنُ الطير بَيْضَها وكيف ترعى أفراخها ؟ وكيف تسقى القطا أهرت الشَّدقين ، وكيف تبادر إلى شرائع الماء لتملأ حوصلتها لتسقي فراخها ؟ وكيف يكون الصراع بينها وبين أمغر الساقين هو يريد هلاكها وهي تريد النجاة لأولادها وكيف تراوغه وهو صاحب قوة ولكنه غبيّ وهي صاحبة ضعف ولكنها صاحبة حيلة وراجع هذا الباب وحده لتدرك أن مقاومة القطا للموت ليس حُبًّا في الحياة فقط وإنما لأن لها فرخين قد تركا بوكر . فعشهما تُصَفِّقُه الرياح ، وراجع حنين الإبل وإذا حنت جمال الحيّ حنتَ جماليا وراجع وَلَهَ البقرة المسبوعة على رضيعها

وراجع ذات البوّ التي لها حنينان إعلان وإسرار والتي تجاوبها على التحنان أظآر وراجع عودة الظليم إلى بيضاته وكيف لا يخطئ مكانها في القَفْر الموغل في البعد وراجع الظباء وهن يَرْمين أعناقهن على أولادهن حماية لهن ولا يستطيع الجيلُ كلُّه أن يَسْتَقْصِيَ آثار الرحمة التي هي جزء من مائة جزء فضلاً عن أثرها في كل حيٍّ في كل زمان وفي كل مكان وأنه لا يخلو من الأرض شبرٌ من هذه الرحمة وأنها حيث كانت كان الحبُّ وكانت الأُلْفة وكان التعاطف وكانت المشاركة ليس بين الناس مؤمنهم وكافرهم فحسب وإنما بين الأحياء كلِّها والهوامُّ كلِّها والدواب كلها والطير كله وأي مكان من الأرض يخلو من آثار هذا الجزء يصير جحيمًا لا يطاق مثل غرف التعذيب التي يقيمها ويرعاها أشرارنا والذين هم ذئاب في جلود البشر . والذين هم شر البرية ومن غضب الله على أي شعب أن يولي أمره أشراره . فإذا تكونت لنا أي صورة عن مقدار الرحمة التي هي طباق ما بين السماء والأرض ورجعنا إلى التسعة والتسعين التي كل واحد منها طباق ما بين السماء والأرض وتدبرنا كيف تُقَسَّمُ علينا وحدنا لأن الحيوان والهوام والطير خارجين من القسمة وليس لهم في التسعة والتسعين شيء لأن الله سبحانه وتعالى أبقاها عنده إلى يوم القيامة والذي في القيامة ثواب وعقاب لا غير وكل ما عدا الإنسان خارج من الثواب والعقاب لأنه هو وحده المكلف وبهذا توفرت الأجزاء التي كانت توزع من الجزء على الحيوان حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه وبقي الناس وحدهم وليس في التسعة والتسعين وإنما في المائة لأن هذا الجزء يرد إلى الله بعد فناء الأحياء عند النفخ في الصور ، ثم إن الناس منهم المؤمن ومنهم الكافر ، والكافر لاحظ له من الرحمة ما دام مات وهو كافر وكل من مات وهو كافر لا يقبل منه مِلءُ

الأرض ذهبًا ولو افتدى به وبذلك تصير الرحمة التي جعلها الله في مائة جزء مقصورة على من ماتوا مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرقون بين أحد من رسله ، وأكثر الأنبياء ما آمن من أقوامهم إلا قليل ، وعليك أنت أن تراجع كل ما قلت وأن تَتِمَّ القسمة مع ملاحظة أن من عمل صالحًا من أهل الإيمان وثقُلَت حسناته فهو من المفلحين بهداية الله له وبنصيبه من رحمة الله من الجزء الذي أنزله الله إلى الأرض فهو في رحمة الله بوعد الله وتوفيقه وتبقى المائة رحمة لمن بقي من أهل الإيمان .

وقوله عليه السلام «أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها» قدم عليه السلام الجن على الإنس والأجرى أن تقدم الإنس على الجن لشرف الإنس وإنما جاء هنا على خلاف الأجْرَى والأشْهر لأن المقام مقام تعاطف وتراحم بهذا الجزء من الرحمة ، والجن أبعد عن التعاطف والتراحم فقدموا لبيان أثر هذا الجزء من الرحمة كما قدموا في قوله تعالى ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ ﴾ لأن المقام مقام تحدٍّ لقدراتهم بالأمر بالنفاذ من أقطار السموات والأرض وإذا كان ذلك مستطاعًا وهو ليس بمستطاع فالجن أسْبَقُ إليه لأنهم أكثر تمردًا من الإنس ، كما يلاحظ تقديم الجار والمجرور في قوله فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وبها تعطف الوحش على ولدها وهذا التقديم يفيد الاختصاص أي فبها لا بغيرها يكون التعاطف وبها لا بغيرها يكون التراحم ولولا هذا الجزء من المائة جزء الذي أنزله الله على الأرض لما وجد في هذه الأرض تعاطف ولا تراحم ولكانت الأرض جحيمًا لا يطاق ، ثم يلاحظ أنه خص الوحش وذكره من باب ذكر الخاص بعد العام لأنهم داخلون في البهائم لأن توحشهم

جعلهم أبعد من غيرهم عن التعاطف والتراحم ولكن سكون هذا الجزء في توحشهم عُطفَهم على أولادهم . ولولاه لما عطف وحش على ولده ، ولو تصورنا وليدًا لم تَعْطِفْ عليه التى ولدته لتصورنا أبشع الصور ثم راجع «فبها تعطف الوالدة على ولدها» وأنه لولا هذا الجزء ما عطفت أم على ولدها ، ولولا هذا الجزء ما رأينا امرأة السَّبْي كلما وجدت صَبِيًّا أخذته فألْصقته على بطنها فأرضعته ، وقال رسول الله ﷺ في شأنها ما قال ، ولو لم يكن لهذا الجزء من أثر في الأرض إلا ينابيع الحُب والعطف المتفجر من قلوب الأمهات لكان ذلك كافيًا في الدلالة على عِظَمِهِ وأنه هو الذي فجر هذه الينابيع من أول من ولدت من الإنس والحيوان والطير إلى آخر التي تلد قبل لحظة الفناء وراجع لأن هذا مذهل واحذر أن تقرأ الذي يذهل ثم لا تذْهل لأن هذا موت ، وأخيرًا قوله عليه السلام «فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة» يعني رجعت مائة وكأن الجزء الذي تعاطف به كل أهل الأرض راجع إلى الله كما أنزله الله سبحانه لم ينقص منه شيء ، لأن هذه الرحمة من خزائنه وخزائنه ملأى لا تغيضها نفقة .

وفي نهاية هذا الحديث المُطمع في رحمة الله والذي هو من أكرم المبشرات أذكر بأن الذي رواه عمر صاحب الشدائد التي تُنسَبُ إليه وأذكر بقوله تعالى ﴿ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾ وأن التساهل أو الاتكال قد يفضي إلى النار ، وأن المحدثين رضوان الله عليهم أدركوا ما في هذا الحديث مما يمكن أن يُغْري المتساهلين بالتساهل فأتْبَعُوه بحديث يَعْتَدِلُ به الميزان وهو ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لَوْ يَعْلَمُ المؤمن ما عِندَ الله من العقُوبة ما طمع بجنَّتِهِ أحَدٌ ولو يعلم الكافرُ ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد» صدق رسول الله ﷺ وفي هذا

الحديث معنى من قوله تعالى ﴿ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ . والذي قاله عليه السلام نبأ من هذا النبأ .

راجع بناء الحديث تراه تناول معنيين مُتَّسعَيْن جدًّا قلما يحيط بهما لفظ مثل لفظه ، والمعنيان هما سعة ما عند الله من العقوبة وسَعَةُ ما عند الله من الرحمة ، وأن هذا يَعْني أن العقوبة المذكورة في الكتاب والسنة ليست هي كل ما عند الله لأننا اطلَعْنَا عليها وأن الرحمة المذكورة في الكتاب والسنة ، ليست هي كل ما عند الله لأننا اطلعنا عليها وأن الله سبحانه وتعالى كما ادّخَرَ للصالحين من الثواب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر كذلك ادخر لأهل الباطل من العقاب ما لا عين رأت ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خطر على قلب بشر ، وقد قال المفسرون في قوله تعالى ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ إن هذا الثواب الذي لا تعلمه نفس لأبُدَّ أن يكون زائدًا عن كل ما في الكتاب والسنة لأننا نعلم الذي فيهما ، وهذا جيد .

أقول هذان المعنيان اللذان لا يحاط بهما أحاط بهما الحديث في جملتين بُنِيَتَا بناء واحدًا ، وبألفاظ تكاد تكون واحدة ، ثم بألفاظ هي غاية في الوضوح والسلاسة ، والجريان على الألسنة ، وقد جرت هذه الألفاظ العذبة السهلة الجارية على الألسنة جَرَتْ على المنوال الواحد الذي بُنِي عليه الحديث وكأنها تقرِّبُ هذين المعنيين اللذين لا حدود لهما ليس إلى الأفهام فحسب وإنما إلى الألسنة أيضًا وتُعِدُّهما ليحفظا في القلب واللسان وليسهل الحديث بهما حتى يُشَاعَ أمرُهما في الأُمَّة وهذا من البلاغة الخاصة بالنبوة لأنها تقوم على جزء أساسى فيها وهو تيسير الحديث للذكر على غرار

تيسير القرآن للذكر لأن الحديث من وراء الكتاب يُبيِّنُه ويُقرِّبُه ويُسكِّنُه في القلوب ، لأن هذين المعنيين من الأهمية بمكان وسكونهما في قلب المؤمن من الضروري لاعتدال توازنه وأنه بين الرّغْبة والرّهْبة وبين الرجاء والمخافة ولو قيست رغبته برهبته لتعادلتا فهو في المنطقة الوسط بين الرجاء والمخافة لا يبالغ في الرجاء فيتساهل في المخافة ولا يبالغ في المخافة فيضعُف في الله رجاؤه والمطلوب ما قاله أهل العلم : لو وُزِنَ رجاءُ المؤمن وخوفُه لتعادلا ، وترى تعادل الجملتين كَتَعَادُل الرجاءينَ ، وهذا مما ألحظه كثيرًا وأسكت عنه كبناء قُدِمِ في حديث امرأة السَّبْي للمجهول لأني لما قرأت أول كلمة من كلام عمر ووجدتها مَبْنِيَّةً للمجهول قلت لابد أن يكون في هذا الحديث شيء مجهول ثم رأيته صبي المرأة التائه منها وهو المجهول الأصلي في العبارة وكلمة (لو) الشرطية التي بُنِيَتْ عليها الجملتان المتعادلتان تفيد الامتناع أعني امتناع الجواب لامتناع الشرط فقوله عليه السلام «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد» الجواب هو «ما طمع بجنته أحد» أعني نفي الطمع في الجنة والواقع أن المؤمنين يطمعون في الجنة فامتناع نفي الطمع يفيد ثبوت الطمع ، والشرط الممتنع هو علم المؤمنين ما عند الله من عقوبة ، وهذا ممتنع لأنه لا يستطيع أحد أن يعلم ما عند الله من عقوبة وهذا النفي بدلالة العَقْل وليس بحرف نفي وهذا ما يعبر عنه النحاة بقولهم إن لو هنا تفيد الامتناع للامتناع أعني امتناع الجواب الذي هو نفي الطمع لامتناع الشرط الذي هو العلم بما عند الله من عقوبة ومثلها يقال في الجملة المقابلة وهي «ولَوْ يَعْلَمُ الكافرُ ما عِنْدَ الله من الرحمةِ مَا قَنَطَ من جنته أحد» الجواب هو «ما قنط من جنته أحد وهو ممتنع» والثابت هو القنوط من الجنة وإنما امتنع لامتناع أن يعلم الكافر

ما عند الله من الرحمة ، والمراد بالكافر هنا جنس الكافر بدليل قوله (أحد) أي ما قنط أحد أي أحد من الكفار ، وهذا قاطع في يأس الكفار من رحمة الله مع أن الله سبحانه يقول ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ﴾ ، ويلاحظ أن الكلام ابتدأ بالمؤمن ، ثم ثني بالكافر ، وهذه الجملة الثانية تفتح باب الأمل أمام الكافر الذي يعلم أنه يكفر الحق ويخامره اليأس من رحمة الله ، وهذه الجملة كآية الزمر التي تقول للذين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي والشرك ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ ، والجملة الأولى تكف المؤمن عن التَّسَاهل والاتكال الذي قد يتسلل إلى النفوس من مثل قوله عليه السلام «لله أرحم بعباده من هذه بولدها» وقوله «لو أنكم لم تكن لكم ذنوب» إلى آخره .

• من علامات النبوة

قلت إن قوله عليه السلام لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قَنطَ من جنته أحد، إن هذا من أوسع المعاني وأوجز الألْفاظ وأنه من دين الله بمكان، ومن معرفة الله بمكان وأنه سُهّل لفظه ليُحَفظ لهذه المنزلة في الدين، وأقول الآن إن هذا المعنى قاله رسول الله ﷺ في خطبة رواها ابن أنس عن أنس في مقام من أجلّ وأكْرم المقامات، وسيدنا رسول الله ﷺ في هذا المقام لم يُخْبر عن ما عند الله من العقوبة بخبر الله له، ولم يخبرعن ما عند الله من المثوبة بخبر أخبره الله به، وإنما أراه الله الجنة والنار فكان خبره عن معاينة، وليس من رأى كمن سمع، وإن كان السماع من الله آكد من كل رؤية، ولما عُرِضَتَا عليه عليه السلام قال «لم أر كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا» وفي هذه الخطبة جثا عمر على ركبتيه، وقال رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيًا، وغطّى الصحابة رؤوسهم ولهم من البكاء خنين قال الراوي لم يأت على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشدُّ منه. وجذر هذا الموقف أن رسول الله ﷺ كان يكره كثرة السؤالات في الدين، حين لا تكون هناك ضرورة لمعرفة الجواب وقال عليه السلام «إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرْما من سأل عن شيء ولم يحرم على المسلمين فحُرِّم عليهم من أجل مسألته» وفي رواية «رجل سأل عن شيء وتقرَّ عنْهُ» وقال عليه السلام «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرةُ مسائلهم واختلافُهم على أنبيائهم» وفي رواية «ذَرُوني ما تركتكم».

وروى مسلم بسنده عن موسى بن أنس عن أنس بن مالك قال : بلغ رسولَ الله عن أصحابه شيء «فخطب فقال : عُرِضَتْ عليَّ الجنةُ والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحِكتم قليلاً ولبكَيتُم كثيرًا» ، قال فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشدَّ منه قال : غطُّوا رؤوسهم ولهم خنين قال فقام عمر فقال : رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيًّا ، قال فقام ذاك الرجل فقال : مَنْ أبي؟ قال أبوك فلان . فنزلت : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

وقال ابن شهاب : أخبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس ، فصلَّى لهم صلاة الظهر فلما سلَّم قام على المنبر فذكر الساعة ، وذكر أن قبلها أمورًا عظامًا ثم قال من أحب أن يسألني عن شيء فليَسْألْنِي عنه ، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا .

قال أنس بن مالك فأكثر الناس البكاء حين سَمِعُوا ذلك من رسول الله ﷺ ، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول «سلوني» فقام عبد الله بن حُذافة فقال مَنْ أبي يا رسول الله ؟ فقال أبوك حذافة ، فلما أكثر رسول الله ﷺ من أن يقول «سلوني» برك عمر ، فقال رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا قال فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك . ثم قال رسول الله : أوْلَى والذي نفس محمد بيده لقد عُرِضَت عليّ الجنة والنار آنفًا في عُرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر .

قال ابن شهاب أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة قال : قالت أم عبد الله ابن حُذافة لعبد الله بن حذافة : ما سمعت بابن قط أعقَّ منك أآمنت أن تكون

أُمُّك قد قارفت بعض ما تقارف نساءُ أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟ قال عبد الله بن حذافة والله لو أَلْحَقَنِي بعبد أسود للَحِقْتَهُ .

وروى قتادة عن أنس بن مالك أن الناس سألوا نَبِيَّ الله حتى أحْفَوْه بالمسألة ، فخرج ذات يوم فصَعِدَ المِنْبَر فقال سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بيَّنْتُه لكم ، فلما سمِعَ ذلك القومُ أرمُّوا ورَهِبُوا أن يكون بين يَدَيْ أمْرٍ قَدْ حضر ، قال أنس فجَعلْتُ التفتُ يمينًا وشمالاً فإذا كل رجلٍ لافٌ رأسَه في ثوبه يبكي . فأنشأ رجل من المسجد كان يُلاحَى فَيُدَعى لغير أبيه ، فقال يا نبي الله من أبي ؟ قال أبوك حذافة ، ثم أنشأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً عائذًا بالله من سوء الفِتَن . فقال رسول الله ﷺ : «لم أر كاليوم قط في الخير والشر إنيّ صُوِّرت لي الجنة والنار فرأيتهما دون هذا الحائط».

ما بعث الله رسله إلا رحمة بعباده وما أنزل كتبه إلا رحمة بعباده وقد قامت النبوات كلها على التيسير وما جعل الله علينا في الدين من حرج والله سبحانه وتعالى يريد بنا اليسر ، ولا يريد بنا العسر ، وهذا لا يعني التساهل والتفريط وإنما حَدَّدَهُ سيدنا رسول الله ﷺ تحديدًا ظاهرًا في قوله عليه السلام «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم» وهذه الكلمة كلها يُسْر أمَّا ما نهانا عنه فإنه عليه السلام ما نهانا إلا عن كل ما تُنكرُه النفوسُ ذات العافية والمبرأة من الخسائس ، حتى إنه لو لم ينهاها ربها عنها لانْتَهَتْ هي عنها لأن كل ما نهانا ربنا عنه ليس من مكارم الأخلاق فالإنسان السوي لا يجد صعوبة أي صعوبة في الانتهاء عما نهى الله عنه فالله سبحانه وتعالى نهانا عن الكذب والزور والغدر والخيانة والخساسة والغيبة والقمع والخطف والسلب والفواحش إلى آخر مُعْجم الرذائل هذه ، وقد

أعجبتني كلمة لسيدنا عمرو بن العاص لما استشعر أن عمر بن الخطاب يُدَقِّق حوله مما أراب ابن العاص فقال يا أمير المؤمنين لو لم يَنْهانَا عن هذا دينُنَا لنهتنا عنه أحسابنا ، ومثل هذا كثير فليس هناك صعوبة مطلقًا في كف النفس عما نهى الله عنه ، أما فعل ما أمرنا ربنا به فإنه لتروقني كلمة سيدنا رسول الله لما قال فافعلوا منه ما استطعتم ، وهذا هو الدين كله وهو نعمة الله التي أتمَّها علينا ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ ولهذا كان رسول الله ﷺ يكره السؤال عن المسكوت عنه لأن المسكوت عنه في حكم المباح وكان يخشى أن يسأل الناس عن شيء مسكوت عنه فينزل حكم بتحريمه . وهذا من صلب التيسير ، ومنه قوله عليه السلام إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرْمًا من سأل عن شيء لم يُحرَّم على المسلمين فَحُرِّم عليهم من أجل مسألته . لاحظ قوله إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرمًا ، ولم يقل إن من أعظم المسلمين وأن هذا ليس من أعظم الجرم وإنما هو أعظم الجرم ، ثم إن الجُرْم في المسلمين الذين لهم عند الله مكان وأنا لا أعرف شيئًا كان مسكوتًا عنه ثم حُرِّم على المسلمين بسبب سؤال سائل ، وبطريقة أخرى لم أعرف شيئًا حرّمه ربنا علينا وعِلّة تحريمه هي سؤال سائل ، والحديث الذي معنا يشدّد التحذير من السؤال في المسكوت عنه ، قبل أن يكتمل الدين ، لأنه بعد الاكتمال ليس هناك حرج في أي سؤال وهذا ما تدل عليه الآية ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ وتحذير سيدنا رسول الله لا يعني أنها وقَعَتْ أو أنها لم تقع ؛ هو تُحذّر منها لما بدا أن بعض أصحابه أخذ يسلك مسلك الأسئلة الكثيرة والتي فيها تنفير أو فيها حَفْوِ ، والحقيقة أنني حاولت أن أتدبر الحكمة في هذا وخصوصًا أن الحِلَّ والحرمة بيد الله وكل شيء عنده سبحانه

له حكمة يظهر لنا منها ما يظهر ويخفى علينا ما يخفى ونَعْلَم أن هناك خطايا تقع من البعض فإذا لم يأخذ الآخرون على أيديهم أصابت البَلْوَى من أخطأ ومن لم يخطئ ، ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ أما أن يَشْرَعُ الله لنا في شرعه تَحْريم شيء يشق علينا جميعًا بسبب سؤال سائل فهذا هو الذي حاولت أن أتدبره مع اليقين بأنه سبحانه لا يُسأل عما يفعل والانقياد والإذعان الكامل لكل أمر له ونَهْي وإنما حاولت أن أتلَمَّس الحكمة في هذه العقوبة الجماعية التي يفرضها علينا ربنا لذنب وقع فيه بَعْضُنَا ، فبدا لي شيء هو أن الدين كله لله وليس عليك إلا أن تسمع وتطيع ، ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ وليس لكم أي مدخل في أي شيء ولستم وَحْدكُم في هذا وإنما معكم أنبياء الله ورسله ليس لهم من الأمر شيء وليس لهم في الدين شيء ، وإنما يبلغون عن الله لا غير ، فإذا سكت الشارع عن شيء فلا تنقِّروا حوله . هناك أمـر معلوم ونهي معلوم ، ومسكوت عنه . ليس لكم إلا أن تنتهوا عما نُهِيتُم عنه وأن تفعلوا ما استطعتم فيما أُمرتم به وانتهى الأمر ، واحذروا أن تضعوا أنوفكم في شيء لم يؤذن لكم في وضع أنوفكم فيه ولاحظ أن كل هذا والدين ينزل ويتكامل ويتشكّل فإذا ما تمّ ذلك فقد رفع الحرج ، ووجب البحث والنظر وَوَجَبَت كثرة السؤالات لأن كل ذلك يكشف حقائـق الدين الذي تمَّ وتَمّ بشقّيْن متعالمين ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ وما لم يأتكم ولم ينهكم فاتركوه كما تركه لأن الكلام فيه ليس من شأنكم فإذا تجاوزتم هذا الحد عوقبتم بالمشقة ، وإنما هلك الذين قبلنا ليس لكثرة أسئلتهم فقط لأنهم لو سألوا الأنبياء وأجابهم الأنبياء وعملوا واعتقدوا ما سمعوا ما هلكوا وإنما اختلفوا على أنبيائهم وراجعوا الإجابات واستحسنوا بعض ما عندهم وقد

هيأهم هذا الاختلاف مع الأنبياء وإدخال ما عندهم في الدين إلى التحريف والتَّبْديل حتى صارت الأديان أديانهم هُمْ وأهوائهم هم ولم يحدث شيء من ذلك في الإسلام ولم يُلْحِفْ المسلمون في الأسئلة ولم يختلفوا مع نبيهم وما سمعوه يحذرهم من كثرة الأسئلة حتى جثا منهم من جثا وغطوا رؤوسهم ولهم من البكاء خنين . هذا والله أعلم .

والباب الذي منه هذه الأحاديث سماه مسلم باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك .

وقال النووي : مقصود أحاديث الباب أنه نهاهم عن إكثار السؤال والابتداء بالسؤال عما لا يقع وكُرِّه ذلك لمعان : منها أنه ربما كان سببًا لتحريم شيء على المسلمين فيلحقهم به المشقة ، وقد بيّن هذا بقوله في الحديث الأول : «أعظم المسلمين جُرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحُرِّم عليهم من أجل مسألته»، ومنها أنه ربما كان في الجواب ما يكرهه السامع ويسوءه ولهذا أنزل الله تعالى في ذلك قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ ﴾ ، ومنها : أنهم ربما أحْفَوْه ﷺ بالمسألة والحَفْوَى المشقة والأذى فيكون ذلك سببًا لهلاكهم وقد صرَّح بهذا في حديث أنس المذكور في الكتاب في قوله سألوا نبيَّ الله حتى أحْفوْه بالمسألة إلى آخره ، وقد قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ انتهى كلام النووي .

وقال القاضي عياض في حديث «إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرْما» المراد بالجرم هنا الحرج على المسلمين لا أنه الجُرم الذي هو الإثم

المعاقب عليه لأن السؤال كان مباحًا ولهذا قال ﷺ «سلوني» انتهى كلام القاضي . وعقب عليه النووي بقوله ، وهذا الذي قاله القاضي ضعيف بل باطل ، والصواب الذي قاله الخطابي وصاحب التجريد وجماهير العلماء في شرح الحديث إن المراد بالجُرْم هنا الإثم والذنب قالوا ويقال منه جرم بالفتح واجترم وتجرّم إذا أثِمَ قال الخطابي وغيره هذا الحديث فيمن سأل تكلُّفا أو تعنُّتًا فيما لا حاجة إليه ، فأما من سأل لضرورة بأن وقعت له مسألة فسأل عنها فلا إثم عليه ولا عَتْب لقوله تعالى ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ انتهى كلام النووي .

وقوله عليه السلام في الحديث : «مَنْ سأل عن شيء لم يُحرَّم على المسلمين فحُرِّم عليهم من أجل مسألته» ظاهر في أن مسألته هذه أوقعت المسلمين في حرج لأنه حُرّم عليهم من أجلها ما لم يكن محرّما ، وهذا أيضًا ظاهر في أن كلمة «جرمًا» مفسرة بقوله «من سأل عن شيء لم يحرم إلى آخره» وأن هذا هو الذي دعا القاضي إلى أن يفسِّر الجُرم بالحرج وليس بالذنب ، فإذا داخل السؤالَ التكلفُ والتعنتُ فيما لا حاجة إليه ، يكون ذلك هو الموجب للذنب وكلام الخطابي وجماهير العلماء أنه لا إثم على من سأل لضرورة وأن السؤال مباح وبهذا يستقيم كلام القاضي ، وكلام الخطابي .

وبمراجعة رواية أنس لهذا الحديث ترى أنه سمعه منه ورواه عنه ابنه موسى بن أنس وابن شهاب وقتادة وهؤلاء الذين سمعوا من أنس وحدثوا بما سمعوا منهم من استوفى ما سَمِعَ ومنهم من اختصر واقتصر من الحديث على قدر المقام الذي كان فيه ودعاه إلى ذكر الحديث ، ولا حرج في التصرف في ترتيب الأحداث كأن يبدأ أحد ممن سمعوا من أنس بقول

رسول الله ﷺ عرضت عليَّ الجنة والنار أو أن يبدأ بقوله قال رجل يا رسول الله من أبى أو أن يبدأ أبو موسى بقوله إن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس ، ومع هذا التصرف تجد الالتزام والاتفاق في رواية ما سمع من رسول الله ﷺ مثل «عرضَتُ عليَّ الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر» أو في قوله «لو تعلمون ما أعلم» أو في قوله «سلوني» لأن هذا هو الذي لا تسامح فيه وقد كانوا جميعًا يحرِصُون على لفظه صلوات الله وسلامه عليه .

قول سيدنا أنس رضوان الله عليه «بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء» هذه الجملة السهلة التي تُرى واضحة فيها إبهام أكثر مما فيها من الإبانة ، من هذا الإبهام أن سيدنا أنس نكر كلمة «شيء» وعبر بهذا التنكير عن الذي بلغ رسول الله ﷺ ولم يبين ما هو ثم إنه قال «عن أصحابه» ولم يحدد أحدًا من هؤلاء الذين قالوا عن رسول الله ﷺ شيئًا ، ثم إنه قال «بلغ» ولم يبين الذي أبلغ رسول الله ﷺ ، ولا شك أن أنسًا يعرف كل ذلك يعرف الذين قالوا وماذا قالوا ويعرف الذي بلّغ رسول الله ﷺ ، ولكنه سكت عن كل هذا إكرامًا لهؤلاء الأصحاب الذين قالوا وإكرامًا للذي بلّغ رسول الله ﷺ ، وإجلالاً لمقام رسول الله ﷺ حتى لا تدور على ألسنة الناس مقالة قالها الكرام في أكرم خلق الله ، ولكل هذا احتاط أنس الذي رُبّي في بيت رسول الله ﷺ ، ولا أحب أن أُنقِّر عن الذي أخفاه أنس ومن أدب أنس رضوان الله عليه أنه قال «عن أصحابه» فذكر الذين قالوا ما أغضب رسول الله ﷺ بأحب أوصافهم إلى نفوسهم وبأحب أوصافهم عند رسول الله ﷺ وبأحب أوصافهم عند الأمة إلى أن تقوم الساعة لأنهم جميعًا عدول بشرف الصحبة وهم كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا وهذا وصف

رسول الله ﷺ وراجع كلمة «بأيهم اقتديتم اهتديتم» لتدرك أنها بُنِيتْ بناء لغويًا يُسَهِّل حفظها، لهذا الجناس اللطيف في كلمتي «اقتديتم اهتديتم» وقال فيهم أيضًا «الله الله في أصحابي فمن أحبهم فبحبي أحبهم ومن آذاهم فقد آذاني» إلى آخره.

وقول أنس: فخطب فقال: الفاء التي في قوله (فخطب) تعني أنه خطب عقب ما بلغه بلا مهلة حتى لا يتمدَّدَ هذا الذي بلغه ولا يتَّسعْ ولستُ من الذين تزعجهم أخطاء تقع من أكرم أهل الأرض وهم أصحاب رسول الله ﷺ ولا يؤثر هذا في الاعتقاد بأنهم جميعًا عدول وأنهم بأيهم اقتدينا اهتدينا لأنهم جميعًا بشر يخطئون ويصيبون كما نخطئ نحن ونصيب لأن الخطأ لا ينفي الخيرية إلا حين يكون طريقًا ومنهاجًا، وكنت أقرأ ما كان يَحْدُث بين الصحابة وما كان يحدث بين أمهات المؤمنين بغِبْطَةٍ لأنه يعلمني أن السابقين السابقين كانوا يخطئون كما نخطئ وأن الخطأ المصحوب بالاستغفار لم يسلم منه أحد وأنه لم يكن معصوم إلا سيدنا رسول الله ﷺ مع أنه قال إنه بشر يخطئ ويصيب وأن عصمته مقصورة على الوحي وبلاغه وأن النسيان مرفوع عن هذا فقط ومع كل هذا لم أكتب ولم أتحدث في شيء مما كان يكون من أخطاء الكرام حتى لا يتناقله الناس، ووقفت كثيرًا أمام حديث الإفك الذي رواه البخاري ومسلم وكان بيان أم المؤمنين فيه بيانًا عاليًا جدًّا وكان يغريني بأن أكتبه ولكنني تهيّبت ذلك.

قول أنس: فقال «عُرِضَتْ عليّ الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر» يقال رأيته عُرضَ عَيْن ونظرت إليه عُرض عين أي ظاهرًا عن قريب وعرضت الجارية والمتاع للبيع، وعرضت الجند عرض عين كل ذلك يفيد أنك رأيتهم من قريب وعرفت حالهم والمقصود أنه عليه السلام رأى الجنة

والنار رأي عين وأنه تفقدهما وأنه كان قريبًا منهما بدليل قوله : فرأيتهما دون هذا الحائط ، وقالوا إن الذي عرض عليه هو صورة الجنة والنار لأن الجنة عرضها كعرض السماء والأرض وكذلك النار بل النار أوسع لأن الله ذرأ لها كثيرًا من الجن والإنس وأكثر الناس ليسوا مؤمنين ، وذكر بعض علمائنا أن المقام مقام خرق للعادة وأن الذي عرض عليه عليه السلام هو الجنة والنار وليست الصورة ، وهذا من الإعجاز ولا يقاس بما ألفناه .

والفاء التي في قوله : فقال : للتفسير وليست للترتيب لأن قوله هو الخطبة وهي أخت الفاء التي في قوله تعالى ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ ، وليس بلازم أن يكون قوله عليه السلام « عرضت علي الجنة والنار » هو أول الخطبة لأنك لو قلت خطب فلان فقال صح هذا إذا ذكرت فقرة قالها في الخطبة كانت هذه الفقرة في أولها أو في وسطها ، وقد جاء في رواية أخرى لأنس أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى لهم صلاة الظهر فلما سلم قام على المنبر فذكر الساعة إلى آخره وكل هذا لا إشكال فيه لأن الذي سمع من رسول الله ﷺ قد يتخيَّر من كلامه ما يقتضيه المقام فيذكر جزءًا من الحديث في مقام وجزءًا آخر في مقام آخر وحديث أنس الذي بدأه بقوله « فذكر الساعة » ذكر فيه عرض الجنة والنار على رسول الله ﷺ بعد قوله عليه السلام « من أَحَبَّ أن يسألني عن شيء فليسألني عنه فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبَرْتُكمْ به ما دُمْتُ في مقامي هذا » وهذا الجزء من الخطبة هو الذي بَرَكَ عمر عنده واستشعر غضب رسول الله ﷺ .

وقوله عليه السلام « فلم أرَ كاليوم في الخَيْر والشر » المعنى فلم أر خيرًا كالخير الذي رأيته اليوم ولم أر شرًا كالشر الذي رأيته اليوم ، وهذا ظاهر لأن

نعيم الجنة الذي رآه عليه السلام لم ير لـه شَبِيهًا وسُـعَارُ الجحـيم الـذي رآه عليه السلام لم ير له شبيهًا وعبارة سيدنا رسول الله لم تقل لم ير خيرًا كالذي رآه اليوم وإنما قال فلم أر كاليوم في الخير والشر ، فسلط النفـي لـيس علـى شبيه الخير الذي رآه ولا على شبيه الشـر الـذي رآه وإنمـا سـلط ذلـك علـى الزمن ليفيد أنه لم ير زمنا كهذا الزمن الذي أرى فيه ما رأى من الخير والشر، ومثاله أن تقول لم أر كاليوم في الشر وأنت تريد أنك لم تر شرًّا كالذي رأيته اليوم تعني مثلاً جيش البلاد في بلد ما يحصد أرواح أبناء البلاد بـدلاً مـن أن يقف على الحدود يحمْيها تراه اليـوم يقـف في الميـادين ويصـوب رصاصـه لشباب الوطن وأظنك لن تعدم رؤية هذا الجيش في بلاد العرب حيث التفت يمينًا أو شمالاً فَتَنْقَل الكلام من الحدث إلى زمن الحدث وهذا أبلـغ وفـرق بين أن تقول أحداث في مصر تشيب لها نواصـى الوِلْـدان وأن تقـول أيَّامُـك السود يا أرض الكنانة تجعل الولدان شيبًا .

قوله عليه السلام « ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا » لو هذه تفيد امتناع جوابها الـذي هـو الضـحك القليـل والبكـاء الكـثير لامتنـاع شرطها الذي هوعلمهم ما يعلمه عليه السلام ، وهذه الجملـة الشـرطية تفيـد تأكيد وتقرير الجملة قبلها (فلم أر كاليوم في الخير والشر) ولاحـظ ترتيـب الجمل الثلاثة :

١- عرض الجنة والنار وأنه عليه السلام رآهما رأي عين .

٢- ويلي هذا تهويل ما رآه في هـذا العـرض ، وأنـه في الخـير لم يـر يومًـا كاليوم الذي رأى فيه هذا الخير ، وفي الشر لم يَرَ اليوم الذي رأى فيه هذا الشر .

٣- ويلي هذا الأمر ما يجب أن يكون وهو العمل الجاد للوصول إلى هذا الخير ، والابتعاد عن هذا الشر وذلك عن طريق التذكر الدائم ليس لصورة الخير لأنها لا تَبْعَثُ على البكاء وإنما لصورة الشر والعذاب والجحيم ومقاومة نوازع النفس ووساوِسَها التي تورثها الإثم . ولا تهمل اللام الواقعة في جواب لو . « لضحكتم قليلاً » والواقعة أيضًا في الجملة المعطوفة على الجواب والداخلة في حيزه . لأن هذا التوكيد يستمد كثيرًا من دلالته من الذي أدْخله في الجملة وأنه ﷺ يرى أن ما رآه يجعل الشَّجَنَ والخوف والحزن والبكاء هو الغالب وذلك لهول ما رأى من الشر .

قول أنس : « فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشَدُّ منه » وإسناد الشدة إلى اليوم امتداد للتجوز في قوله عليه السلام « فلم أر كاليوم في الخير والشر » وكان يمكن أن يقال فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ شدةٌ أشَدُّ من هذه الشّدة . ولكن تحول الإسناد إلى الزمان يُخيِّلُ أن الشدة لهولها استولت على الزمن الذي وقعت فيه ، وهذا الضرب من التجوز وصفه الشيخ عبد القاهر بأنه كنز من كنوز البلاغة ، والمهم أن أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم من بَلَغَهُ عنه شيء وفيهم من بلّغه هذا الشيء ما إن سمعوا قوله « عُرِضَتْ عليَّ الجنة والنارُ فلم أر كاليوم في الخير والشر » حتى صاروا هم في قلب اليوم الذي لم يأت عليهم يوم أشدُّ منه . ومن المفيد أن أرْجع إلى الجملة التي أوقعتهم في هذه الشدَّة لأن تلقيهم لبيانه عليه السلام مختلف عن تلقي غيرهم ، وإنْ كان عملى هو تحليل البيان وأن أتدسس في هذه الجملة عن الشيء الذي صَيرُهم في هذه الحالة ، ولماذا لم يخفف عنهم القسم الأول من كلامه عليه السلام وهو أنه لم ير كاليوم في الخير ولماذا تجاوز عليه

السلام هذا الخير لمّا قال لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا ؟ ولماذا كان جانب المخافة هو الأظهر ؟ وجواب ذلك أن الخوف من عذاب الله هو الذي يَقْمَع النّفْس ويَجْتذِبُها نحو الضراعة والرجاء وأن أهل الله يؤتون ما يؤتون من أعمال البرِّ وقلوبهم وَجلة وأن شأنهم أنهم إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم ، وقول أنس رضي الله عنه « فما أتَى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشدُّ منه » مع دلالته على ما دل عليه هو مُتَضمّنٌ توكيدًا للكلام قبله ، وأن الشّدَّة التي لم ير رسول الله ﷺ أشَدَّ منها انتقلت إلى أصحابه صلواتُ الله وسلامه عليه وكأنهم غُسِلُوا من الشيء الذي بلغ رسولَ الله ﷺ عنهم ، وأن الصادقين الصالحين قد تَغْشَاهم الغفلة فيكون منهم ما لا ينبغي ثم ما يلبثون أن تذهب عنهم هذه التّغْشِيةُ ويضيء مَعْدنهم النقي الشريف ويتألَّقُون تألق نجوم السماء التي يهتدى بها .

وقول سيدنا أنس « غَطُّوْا رؤوسهمُ ولهم خَنِينٌ » والخنين صوت يخرج من الأنف عند البكاء ، وقد رُوِي الحديث بالحاء المهملة وقالوا هو صوت يخرج من الفم قال النووي قال الخليل هو صوت فيه غُنَّة أراد الخنين بالخاء المعجمة وتَغْطِيَةُ رؤوسهم إنما كانت لشدة ما هم فيه من البكاء وقال أنس في رواية أخرى « فجَعَلْتُ الْتَفِتُ يَمينًا وشمالاً فإذا كل رجلٍ لافٌ رأسه في ثوبه يَبْكي » ولم يكن بكاؤهم في هذه الرواية بعد سماعهم ذكر الجنة والنار وإنما كان بعد قوله عليه السلام « سلوني . لا تسألوا عن شيء إلا بيَّنْتُه لكم فلما سمع ذلك القومُ أرَمُّوا ورَهِبُوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر » قول أنس « فجعلت التفت يمينًا وشمالاً فإذا كل رجل لافٌ رأسه في ثوبه يبكي » ويلاحظ أن أنسًا التفت يمينًا وشمالاً لما سمع القوم قوله عليه السلام سلوني فبكوا وأرَمُّوا ولَفُّوا رؤوسهم بأثوابهم والرواية التي معنا أنهم بكوا ولهم خنين

لما سمعوا قوله عليه السلام «لم أر كاليوم في الخير والشر» ويمكن أن يُحدث هذا لَبسًا عند القراءة العجلة لأن سبب بكائهم تردَّدَ في الروايات بين قوله سلوني وبين قوله «ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا» والحقيقة أنه لا لَبْس وأنهم بكوا ولفوا رؤوسهم ولهم خنين للأمرين، لحديثه عليه السلام عن عرض الجنة والنار، وأنه لم ير كاليوم في الخير والشر، وللذي لحظوه من غضبه صلوات الله وسلامه عليه وأن غضبه اشتد عليهم لأنهم يعرفون أنه عليه السلام لم يغضب لنفسه قط وإنما يغضب لله وأن الذين أحفَوْه بالأسئلة أو الذين سألوا تَعَنُّتًا أو تعجيزًا آذَوْه ﷺ وهم يعلمون أن الله سبحانه وتعالى هددَّهم بإحباط أعمالهم إذا رفعوا صوتهم فوق صوته، وهدَّدَهُم بالهلاك إذا آذوه صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا رَوَى أَنَسٌ أنهم أرَمُّوا أي أطبقوا أفواههم ورَهِبُوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر، وكذلك قل في موقف عمر، فقد جاء في روايات أنه جثا على ركبتيه حين قال رسول الله ﷺ «سلوني» وهي اللحظة التي فيها أَرَمَّ القَوْمُ ورهبوا أن يكون لأمر قد حضر، وفي رواية أخرى أنه قام وقال رَضِينَا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا بعد قوله عليه السلام «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا» قال أنس: فقام عمر فقال رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيًّا، يلاحظ أن الصحابة الكرام غطّوْا رؤوسهم ولهم بكاء وخنين ولا ريب أن فيهم من كبار الصحابة كأبي بكر وعثمان وعلي وأن ذلك كان في أواخر أيام نزول القرآن لأن آية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ ﴾ قد نزلت هذه الآية في هذه الحادثة وهي من سورة المائدة وسورة المائدة آخر ما نزل من كتاب الله وآخر آية نزلت قوله تعالى ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ ، أقول لا شك أن هذا المجلس فيه كبار الصحابة وكلهم غطى رأسه وله خنين وسلك عمر مسلكًا آخر ، وهو أنه قام وقال ما قال ، وكُتُب الحديث التي بين يديّ لم تُشْبع هذا الموقف لأن المهم فيه هو ما ذكرته مما تقرؤه الآن والذي لم يقولوه وأنا أتلمسه تلمسًا ، هو أن قول عمر رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيًّا كأنه رجوع بهم إلى اللحظة التي فارقوا فيها الجاهلية ودخلوا في الإسلام وأن عمر يتكلم بنون الجماعة ولم يَقُلْ رضيت وكأنه يعلن توبتهم على لسانه وكأنه يستعيذ بالله ويتعلق بتلك اللحظة التي جبّت ما قبلها ويستعيذ بها ويتوسَّل إلى الله بها ويَسْتشفع بها لأنه لم يكن في حياتهم يومٌ أبرُّ بهم من يومها يوم خرجوا من الجاهلية إلى الإسلام ومن الضلال إلى الهدى ومن الظلمات إلى النور ويوم أن هداهم الله للإذعان برسول منهم يطُهِّرهم ويزكيهم ويصلِّي عليهم ، أفهم من كلام عمر أن الذي أغضب رسول الله ﷺ والذي قال فيه أنس بَلَغَ رسول الله عن أصحابه شيء أن هذا الشيء كان فيه ريح من ريح الجاهلية وأنه بالقطع لم يكن من أمْر الجاهلية وإن كان أمر الجاهلية لم يَمُتْ موتًا كاملاً في كل النفوس ، وإنما كان ينازع بَعْضَها وأن رسول الله ﷺ كان يواجهه ويقول أتدعون بدعاء الجاهلية وأنا بَيْنكم وقال لعائشة « لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لبنيت الكعبة على قواعد إبراهيم » قُلْتُ هذا حتى لا تنكر عليّ أنه هبَّت هَبّة من ريح الجاهلية هي التي دعت عمر إلى أن يعلن إسلامهم جميعًا على لسانه وكأنه يسترجع اللحظة التي سمع فيها أول سورة طه التي ظأرتْه إلى أن يدير ظهره للجاهلية التي دخل بها بيت أخته وأن يولي وجهه شطر رسول الله ﷺ وفيها ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾

وكلما قرأت هذه الآيات أحسست أن من بركاتها أنها أدخلت عمر الإسلام وكان له في تاريخ الإسلام وفي فقه الإسلام ماله ، ويلاحظ في كلام عمر أمران الأول أنه قام وذلك لبيان شدة عنايته بالموقف وكأنه ينوب عن أصحاب رسول الله ﷺ من قال ما بلغ رسول الله وما لم يقل ومن بلّغ رسول الله ﷺ ومن لم يبلِّغه وقال ما قال بضمير الجماعة وكأنه كما قلت عائذ بالله من غضبه بتلك اللحظة التي قذف الله فيها الحق في قلوب هؤلاء الأصحاب الكرام والتي جبّتْ ما قبلها وكأنه بإعلانها يَجُبُّ بهذا الإعلان ما كان مما أغضب رسول الله ﷺ ، الأمر الثاني في كلام عمر أن كلماته الثلاث : رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا كان يكفي منها قوله رضينا بالإسلام دينًا لأن الإسلام يعني الإقرار بالشهادتين : الله ربنا ومحمد نبينا ، ولكن عمر في مقام يقتضي إشباع هذا المعنى وتوكيده وتكريره وتقريره .

قال أنس : فقام ذاك الرجل فقال من أبي ؟ قال أبوك فلان فنزلت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ . في هذه الرواية أغمض أنس الذي قال من أبي وعبر عنه بقوله فقام ذاك الرجل وقد ذكر في رواية أخرى أنه عبد الله بن حذافة ، والمهم أن قيام الرجل وسؤاله من أبوه جاء في هذه الرواية بعد كلام عمر ، وفي رواية أخرى قبل كلام عمر ، وهذا ليس مشكلا لأن أحداث القصة يُقَدَّم فيها ما يقدم على حسب السياق الذي يَرْوِي فيه سامعُ الحديث من رسول الله ﷺ ، وبعض الروايات لم تذكر عرض الجنة والنار ، وبعض الروايات لم تذكر قوله عليه السلام سلوني وقد حدّث شعبة الذي سمع الحديث من موسى بن أنس برواية ليس فيها إلا سؤال الرجل قال شعبة أخبرني موسى بن أنس قال سمعت أنس بن مالك

يقول : قال رجل يا رسول الله من أبي ؟ قال أبوك فلان ونزلت آية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ . وقبل أن أنتقل من هذا الحديث أرجع لأراجع أشياء منها أن قوله عليه السلام «عرضت عليَّ الجنة والنار» هذه الجملة إخبار بخبر يخلو الكلام فيها من الإشارة إلى أي أثر لهذا العرض على نفس رسول الله ﷺ ، وقد عبر عن هذا المعنى بعبارات مختلفة أشهرها هذه الجملة ومنها قوله عليه السلام «صُوِّرت لي الجنة والنار فرأيتهما دون هذا الحائط» وهذه كسابقتها تخلو من الإشارة إلى أي أثر ، قال القرطبي وفي البخاري : لقد رأيت الآن منذ صليت بكم الصلاة الجنة والنار متمثِّلتين في قبلة هذا الجدار . قال القرطبي ظاهر هذه الروايات وإن اختلفت أنه ﷺ رأى مثال الجنة والنار في الجدار الذي استقبله مُصَوَّرتين فيه وهذا لا إحالة فيه كما تتمثل المرئيات في الأجسام الصقيلة ، والذي يعنيني أن كل هذه الجمل مجرد إخبار ثم تأتي الجملة الثانية لتبين أنه رأى في الخير ما لم يره قط ورأى في الشر ما لم يره قط وتأتي الجملة الثالثة لتنقل أثر الذي رآه إلى نفوسنا : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا ، وما إن قال عليه السلام هذا حتى تحوَّلَتْ القلوبُ إلى الوجيب والبكاء والخنين ، ومن الذي أحاوله هو معرفة خط سير المعنى وما تحمله كل خطوة أعني كل جملة من حمولة معنوية وألوان هذه الحمولة وأنواعها . ثم إن قول أنس ما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه كأنه صدًى لقوله عليه السلام «فلم أر كاليوم في الخير والشر»، وكأن أنسًا رضوان الله عليه كان ينظر إلى جملة سيدنا رسول الله لما أنْقُلَ الحديث إلى الزمن وقول أنس غطَّوْا رؤوسهم ولهم خنين صدًى ورَجْع لقوله عليه السلام «لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا» وهكذا تجد الجمل تَتَشَابك تجاوَرَتْ أوْ لم تتجاور ،

وكل هذا ليس مقصودى وإنما مقصودي هو أن رسول الله ﷺ قرأ كلام ربنا في وصف نعيم أهل الجنة وهو نعيم ليس فوقه نعيم ، وقرأ عذاب أهل النار وهو عذاب ليس فوقه عذاب فما الذي رآه في عرض صورة الجنة والنار حتى قال ما قال ؟ ويلاحظ أن أصحاب رسول الله ﷺ كانت تنفذ إلى قلوبهم أوصاف الكتاب العزيز للجنة حتى كأنهم يجدون ريحها وأوصاف الكتاب العزيز للنار حتى كأنهم يجدون لفحها وهذا شأن الصالحين في الأجيال كلها فكيف برسول الله ﷺ وهو أفصح من نطق بلسان بشرى وأعلم الناس بهذا اللسان الشريف الذي نزل به الكتاب وأعلم الناس بطرق البيان وأن من المعاني ما يظهر ومنها ما يخفى ومنها ما يُطْوَى ومنها ما يُنْشَرُ ومنها ما يتجاوز فلا يُعبَّر عنه تصريحًا ولا تلويحًا وإنما يطوى طيًّا وقد يقام عليه منار وقد يترك هذا المنار ويبقى مكتَّما في اللغة تحسُّهُ النفس اليقظى والفهم المتسارع ، كما يقول العلامة سعد الدين أقول كان رسول الله ﷺ أدق الناس في فهم أوصاف الجنة والنار وهي كثيرة في الكتاب فأي شيء زادته هذه الرواية حتى كأنه لا يعرف خير الجنة وشر النار فقال ما رأيت كاليوم في الخير والشر وكل الذي رآه صورة الجنة والنار مصورتين في الجدار الذي استقبله ؟ ويضاف إلى هذا أن رسول الله ﷺ وصف نعيم الجنة في أحاديث كثيرة كما وصف عذاب النار في أحاديث أكثر وكان وصفه لعذاب النار وصفًا تنخلع له القلوب كما في حديث البخاري أتانى الليلة آتيان وغيره فأي شيء رآه في الصورة المتمثلة في الجدار الذي استقبله ؟

والذي أراه في جواب هذا السؤال هو الفرق بين ما تراه العين وما يستحضره القلب من صور البيان ، ولأجل هذا الفرق قال ربنا لملائكته في الحديث الذي رواه أبو هريرة وأن لله ملائكة سَيّارة قال الله سبحانه

لملائكته الذين حَفُّوا مجالس الذكر وماذا يسألون قالوا يسألون جنتك فقال هل رأوها قالوا لا أي ربّ فقال كيف لو رأوها ؟ ومثل ذلك قيل في الاستعاذة من النار وأنهم لم يروها وكيف لو رأوها ، وهذا قاطع في أن الذي تراه العين أقوى من الذي يراه القلب وأن إبراهيم عليه السلام طلب رؤيا العين مع اليقين الذي في القلب وقال ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ ، وأن سيدنا رسول الله ﷺ عرف أحوال الجنة بوحي الله الذي ليس وراءه مزيد من اليقين فلما رآها بعينيه كان لهذه الرؤيا من الأثر ما دعاه إلى أن يقول لم أر كاليوم في الخير والشر ، هذا والله أعلم .

وأنتقل إلى ما رواه ابن شهاب عن أنس بن مالك : قال أخبرني أنس ابن مالك أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلى لهم صلاة الظهر فلما سَلّم قام على المنبر فذكر الساعة وذكر أن قبلها أمورًا عظامًا ثم قال : من أحب أن يسألني عن شيء فليسألني عنه فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا .

قال أنس بن مالك فأكثر الناس البكاء حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ ، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول سلوني فقام عبد الله بن حذافة فقال من أبي يا رسول الله ؟ فقال أبوك حذافة ، فلما أكْثَرَ رسول الله ﷺ من أن يقول : سلوني برك عمر فقال رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولاً ، فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك ، ثم قال رسول الله ﷺ « أولى والذي نفسي محمد بيده لقد عُرِضت عليّ الجنة والنار آنفًا في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر » .

قال ابن شهاب أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة قال : قالت أم عبد الله ابن حذافة لعبد الله بن حُذَافة . ما سمعتُ بابن قطّ أعق منك أأمِنْتَ أن تكون

أمُك قد قارفت بعض ما تُقارف نساء أهل الجاهلية فتفضَحَها على أعْيُن الناس؟ قال عبد الله بن حذافة والله لو أَلْحَقني بعبد أسود للحقته .

هذه الرواية هي أقرب روايات الحديث إلى الوفاء بما كان وإلى ترتيب الأحداث ومن أجل أن أفهم ابتداءه عليه السلام بذكر الساعة وأن قبلها أمورًا عظامًا ثم قال من أحب أن يسألني عن شيء فليسألني عنه إلى آخر الحديث أقول من أجل أن أفهم هذا لابد من تذكُر شيئين : الأول أن شيئًا ما بلغ رسول الله ﷺ عن بعض أصحابه وهذا الشيء لم أجد في الكتب التي بين يدي أحدًا حاول الإشارة إليه ، ولابد أن يكون شيئًا لا يَرْضى عنه رسول الله ﷺ وليس عندي فيه كلام إلا ما أفهمه من تنكيره وما أفهمه من تعقيب رسول الله ﷺ بما جاء في هذا الحديث ، وأنه شيء لم يكن موضع الرضا من رسول الله ﷺ ، والأمر الثاني هو ما جاء في حديث أنس الذي رواه قتادة وهو أن الناس سألوا نبي الله حتى أحْفَوْه بالمسألة ، وأن عمر عاذ بالله من سوء الفتن وفي رواية أبي موسى عن رسول الله ﷺ : سُئل النبي عن أشياء كرهها فلما أُكْثِرَ عليه غَضِبَ ، والأسئلة التي ذُكِرَتْ في الروايات سؤالان أحدهما سؤال عبد الله بن حذافة من أبي يا رسول لله ومثله سؤال الذي أجابه رسول الله ﷺ وقال له أبوك سالم مولى شَيْبة وهي أسئلة يصح أن توصف بأنها في الظاهر تعجيزية أو أسئلة مُتَعنّتة كما جاء في بعض العبارات لأنها لا يعلم جوابها إلا الله ولا يجيب عنها من الناس إلا الذي يُوحَى إليه صلوات الله وسلامه عليه ولا أرى أن أصحابها قصدوا إلى الإعنات ولا إلى التعجيز بدليل قول عبد الله بن حذافة لوالدته والله لو أَلْحقنِي بعبد أسود للحقته وهذا لا يكون إلا من صاحب يقين قاطع في أن محمدًا ﷺ لا يجيب إلا بوحي ربه .

أما غضب رسول الله ﷺ من كثرة الأسئلة فاليقين الذي لا يحوم حوله ريب هو أنه عليه السلام لم يغضب لنفسه قط وإنما كان غضبه من كثرة الأسئلة راجعًا إلى خَوْفه من أن يسأل سائل عن شيء لم يحرم على المسلمين أعني شيئًا مسكوتًا عنه وداخلاً في دائرة المباح فيحرَّمُ عليهم بسبب مسألته كما جاء في حديث « إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرْمًا من سأل عن شيء لم يحرَّمْ على المسلمين فحرِّمَ عليهم من أجل مسألته » وأيضًا وَصِيَّةَ رسول الله ﷺ للأُمَّة أنهم لم يسألوا في الدين إلا أسئلة بقدر حاجتهم إلى الجواب وألا يُرْسِلوا الأعِنَّة لنفوسهم لتسأل في كل وادٍ لأن هذا لو كان من عادتهم في الزمن بعد الزمن لدخل في الدين ما ليس منه لأن المسؤول قد يجيب بغير اجتهاد محقّق أعني من غير اجتهاد توفَّرتْ أدواته فيُدخِلُ في الدين ما ليس منه وقد حَدَثَ هذا في أهل الأديان وصارت المسيحية التي عليها النصارى اليوم ليست في الصفاء والنقاء التي كانت في أزمنتها قبل التحريف وهكذا اليهودية وهذا ما كتبه علماء هذين الدينين ، ولهذا أؤكد أن غضب رسول الله ﷺ لم يكن راجعًا إلى أمر يتعلق بشخصه وأنه عليه السلام كان موضع توقير من كل أصحابه من بَلَغَهُ عنهم شيءٌ ومن لم يبلغه عنهم شيء بل إنه كان موضع توقير من الذين خالفوه .

والشيء الأهم الذي أُؤيدُه أن من سألوا رسول الله ﷺ عن أسئلة لا يعلم جوابها إلا الله ، ليسوا مسيئين ، ولو أرادوا بهذه الأسئلة مزيدًا من اليقين بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه لأن الله سبحانه وتعالى أكرمنا بهذا الشأن وهو أن من طلب زيادة اليقين رضي الله منه هذا الطلب وأخذ بيده إلى مزيد هذا اليقين فالحَواريّون قالوا لعيسى ابن مريم ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا۟ نُرِيدُ

أن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ ، راجع قولهم وتطمئن قلوبنا ونَعْلَم أن قد صدقتنا ، ومثل هذا كثير جدًا وقد مرّ قول إبراهيـم عليـه السـلام ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ إلى آخره وذكر عليه السلام اطمئنان قلبه ، ﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ ، هذا شيءٌ وشيء آخر وهو أن الدين لم يكتمل بعد ولم تتقرّر أصُوله وفروعه والقرآن ينزل وقد سأل رجل رسول الله ﷺ في الحج وقال أفي كل عام يا رسول الله قال لو قلت نعم لوجبت . وأيضًا الصحابة الكرام حديث عهد بجاهلية ويريدون أن يَغْسِلُوا قلوبهم من بقاياها وسيدنا رسول الله يعلم هذا وقال لأمنا رضوان الله عليها « لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لبنيت البيت على قواعد إبراهيم » ولما أسلم أبو سفيان ومشى مع رسول الله ﷺ في المدينة ورأى حفاوة المهاجرين والأنصار به عليه السلام جرى في نفسه خاطر يقول بأي شيء سبَقَنا محمد فضرب رسول الله ﷺ على كتفه وقال غلبك أو سبقك بالله يا أبا حنظلة ، فقـال أبـو سفيـان والله ما حدّثْتَ أحدًا بهذا وكان مِمَّا أكرم الله به أبا سفيان وغسل بقايا الجاهلية في نفسه ولهذا لا أجد حرجًا على واحد من أصحاب رسول الله ﷺ حين يسأل بما يشاء من أجل زيادة اليقين ثم أبدأ في الحديث .

قال ابن شهاب أخبرني أنـس بـن مالـك « أن رسـول الله ﷺ خـرج حـين زاغت الشمس فصلى لهم صلاة الظهر » وزاغت الشمس يعني مالت عن كبـد السماء وهذا وقت الظهر واللام في قول أنس « صلى لهم » فيها إشارة إلى أنه عليه السلام وإن كان غاضبًا من بعضهم إلا أن صلاته كانت لهـم وأنـه عليـه السلام دعا لهم وأنَّ إمامته لهم في الصلاة تزيد ثـوابهم حتـى كـان قـدرًا مـن صلاته يكون لهم ، وهذا يعني أن الصلاة وراء الصالحين فيها عطاء للمصلين

وثواب لا يكون إذا كان الإمام غير ذلك ، وهذا مما استشفه من هذه اللام ولم أقرأه في كتب العلماء ، وإذا قلت صليت لفلان تكون قد أشربت كلمة الصلاة معنى الدعاء .

وقوله « فلما سَلَّمَ قام على المِنْبر » لم يكن يكون هذا إلا لأمْر أهَمَّ رسول الله ﷺ وقد كان هذا بعد ما بَلَغَه الذي بلغه وبعدما أحْفَوْه عليه السلام بالأسئلة ، وقد جاء في رواية قتادة عن أنس أن الناس سألوا نبي الله حتى أحْفوْه بالمسألة فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال وقول أنس « فذكر الساعة وذكر أن قبلها أمورًا عظامًا » ذكر رسول الله ﷺ الساعة والأمور العظام التي قبلها من باب دلالة المطالع على المقاصد ، لأن الساعة علمها عند ربي ، وذكر الأمور العظام التي قبلها علمها عند ربي ، ولا يمكن لأحد أن يذكر الساعة والأمور العظام التي قبلها إلا بوحي ، وفي هذا إشارة إلى أن مسائلهم التي يسألونه عليه السلام عنها وإجاباتها متعلقة بغيب هو الآن متهيئ للإجابة عنها لأنه بدأ حديثه في خطبته بذكر المغيبات التي لا يعلمها إلا الله ، وكان هذا منه عليه السلام مقدِّمة لقوله « من أحب أن يسألني عن شيء فليسألني عنه والله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا » هذا ظاهر في أنه عليه السلام لم يقل هذا إلا بعدما وعده الله سبحانه بأنه تعالى سيوحي إليه بجواب أي سؤال متعلق بغيب وما كان له عليه السلام أن يقسم بالله أنهم لا يسألونه عن شيء إلا أخبرهم به إلا بعد هذه الموعدة من الله له ، ثم يلاحظ أنه أطْلَق السؤال الذي يسألونه وجعله عن شيء أي شيء يتعلق بأمور الدنيا والآخرة ، والأمر الثاني الذي يُفْهَمُ من هذه الجملة أن الأسئلة التي أغضبت رسول الله ﷺ كانت أسئلة لا يجاب عنها إلا بوحي ، وكأن الداعي إليها هو التأكد بأن الله سبحانه يوحي إليه كل أمر سُئل عنه حتى

الذي أراد أن يعرف سِرّ أُمّه وأنها اقترفت شيئًا مما كان يقترفه أهل الجاهلية أم لا ؟ وهذه أسئلة من باب الترف الفارغ التي قد يسيء جوابُها كما قالت أم عبد الله بن حذافة له وأنه لم يأمن أن يكون الجواب فاضحًا لها ، وهذا مما يغضب رسول الله ﷺ لأنه اشتغال القلوب بما لا يُفيد فضلاً عن أنه تجسس وتدسس وتحسُّس في حياة طويت صفحتها مع جاهلية كان فيها ما فيها . وهذا يؤكد ما قلته من أن رسول الله ﷺ لم يغضب لنفسه وإنما غضب لله لأن تقلب الصفحات المطوية في الزمن المطوي ليس فيه إلا الضرر والأولى بذي المروءة أن يشغل بيومه وغده .

قال أنس بن مالك : فأكثر الناسُ البكاء حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ ، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول سلوني . قوله رضي الله عنه : فأكثر الناس البكاء حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ يعني حين سمعوا قوله «من أحب أن يسألني عن شيء فليسألني عنه فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به ما دمت في مقامي هذا» لأنهم فهموا أن منهم من سأل رسول الله ﷺ أسئلة لا يعلم جوابها إلا الله وأن في هذا إعناتا لرسول الله ﷺ وأن الله سبحانه أيَّدَ نبيَّه في مقامه هذا وأوحى إليه أنه لن يُسأل وهو في هذا المقام عن شيء مغيب في علم الله إلا أطلعه الله عليه وبذلك أصبحوا أيضًا بين يدي معجزة من معجزاته ﷺ وكانوا كلما رأوا تأييد الله لرسوله بالأمر الخارق ازدادت قلوبهم خشوعًا لله وهم في هذه الحالة يرون التأييد له عليه السلام وأن سبب هذه المعجزة إكثارهم الأسئلة لرسول الله ﷺ وإغضابه بذلك ، وهذا هو الذي جعلهم يكثرون البكاء ويلفون رؤوسهم بأثوابهم ولهم خنين وقد وُصِفُوا بذلك في حالتين حالة سماع قوله عليه السلام عرضت عليَّ الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر وحالة قوله عليه السلام من

أحب أن يسألني عن شيء فليسألني عنه ، وهما حالة واحدة ولها سبب واحد هو إكثارهم الأسئلة التي فيها تعجيز لأنها أسئلة لا يعلم جوابها إلا الله ثم هي سر من أسرار خلقه كقول عبد الله بن حذافة من أبي ، ولهذا السبب صعد عليه السلام المنبر بعد صلاة الظهر وذكر الساعة التي هي من باب الإنباء بالغيب وعرضت عليه الجنة والنار وهو على المنبر وهذا من باب ليس الإنباء بالغيب كما في علامات الساعة وإنما هو نقل الغيب له ووَضْعه مُصَوَّرًا بين يديه حتى إنه رأى في النار فلانًا وفلانًا وذكر أسماءهم وحتى إنه تقدم وأوشك أن يَمُدْ يَدَه ليأخذ قِطفًا من الجنة وتأخر لأنه وجد لفح النار كما جاء في حديث الكسوف . ثم قال عليه السلام اسألوني بعد ذكر علامات الساعة وبعد رؤية الجنة والنار كما سيبين عليه السلام ذلك في قوله في هذه الرواية « والذي نفس محمد بيده لقد عُرِضت عليَّ الجنة والنار آنفًا في عرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر » والمراد قوله عليه السلام (آنفًا) أي سابقًا الوقت الذي أنا فيه وقوله « في عرض هذا الحائط »، مشيرًا إليه يعني في مقامه هذا الذي خطب فيه وأنه رأى الجنة والنار في عرض هذا الحائط الذي أمامه ، وسواء بكى أصحابه لقوله اسألوني أو لقوله فلم أر كاليوم في الخير والشر لأنهما شيء واحد وذُكِرا في مقام واحد وخطبة واحدة وأبْيَن ما قيل في بيان الحالة التي كان عليها أصحاب رسول الله ﷺ في هذا المقام النادر الذي كان من بعضهم ما أغضبه صلوات الله وسلامه عليه ما جاء في الرواية التي حدّث بها عنه قتادة « قال إن الناس سألوا نبي الله حتى أحفوه بالمسألة أي شقُّوا عليه فخرج ذات يوم فصعِدَ المنبر فقال سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بيّنْته لكم فلما سمع ذلك القومُ أرَمُّوا ورَهِبُوا أن يكون بين يدي أمر قد حضر » وعجيب شأن بيان هذا الجيل ،

انظر إلى الإيجاز الذي في قوله أحفَوْه بالمسألة فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال ، راجع ؛ وضَعْ بإزائه أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس إلى آخره وتبيَّن الذي طُوِيَ هنا ونشره هناك ثم راجع قوله « فلما سمع ذلك القوم أرَمُّوا أي أطبقوا شِفَاهَهُم ورَهِبُوا ، أن يكون لأمر قد حضر وأن أنسًا التفت في جهة يمينه فلم ير إلا رجالاً لافين رؤوسهم بأثوابهم يبكون والتفت جِهَةَ شِمَالِه فلم ير إلا رجَالاً لافين رؤوسهم بأثوابهم يبكون ، وضَعْ هنا بإزاء فأكثر الناس البكاء حين سَمِعوا ذلك وتبيَّن الذي طواه هناك ونشره هنا ، ويلاحظ الرَّبْط بين كثرة البكاء وقول رسول الله ﷺ : « سلوني » وهذا قاطع في أن الأمر في قوله عليه السلام (سلوني) فيه شوب من التبكيت واللَّوْم والمعاتبة وأنه عليه السلام يقول هذا بغضب ولهذا كان يكثر منهم البكاء بمقدار ما كان يكثر منه قوله « سلوني » وعلينا أن نذكر أنه عليه السلام مُسْتَنِدٌ في هذا على موعدة وعده الله بها ، وأنه قدّم لهذا بحديث عن الغَيب في شأن الساعة ، وبرؤية للغيب في عَرْض الجنة والنار ، وأنه ما كان له أن يجيب عن أسئلتهم إلا بوحي ، وأن الأسئلة التي تغضبه عليه السلام لَيْسَت أسئلة لفهم الدين ، وأنه عليه السلام يخشى أن يسأل أحدهم عن شيء لم يُحرّمْه الله فيحرّم على المسلمين بسبب مسألته وظني أن حديث « إن أعظم المسلمين في المسلمين جُرْمًا » لم يكن سمع من رسول الله ﷺ قبل هذا الموقف ولو كان سمع لاستجاب له كل أصحابه ، وإنما أكثر عليه السلام قوله سلوني وهو يراهم يكثرون البكاء كلما سمعوه وهو بهم رؤوف رحيم ظني أنه أكثر ذلك ليقتلع الإلحاف في السؤال من جذوره وأن يَبْقى السؤال في الدين على قدر الضرورة ، ولما رأى عمر الموقف يتصاعَد والغضب يتزايدُ من جانبه ﷺ والبكاء يتزايد من جانب الأصحاب المكرَّمين رضوان

الله عليهم بَرَكَ وكان بروكه هذا أفصح من كل كلام قد يقال في هذه اللحظة إلا الذي نادى به رضوان الله عليه وقال رضينا بالله ربًا وآثر كلمة رضينا على كلمة شهدنا مثلاً لأن الرضا أعلى مرتبة من الإقرار أو الاعتراف أو الشهادة لأنه يعني اغتباط القلب بما آمن به وكأنه أقرب إلى حالة من ذاق الإيمان ، وفي الرواية التي رواها قتادة عن أنس قال بعد سؤال عبد الله بن حذافة ثم أنشأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال رضينا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولا عائذًا بالله من سوء الفتن ولا لَبْسَ في أن يقال مرة قام عمر فقال ومرة برك عمر فقال ومرة ثم أنشأ عمر بن الخطاب فقال ومرة فلما رأى عمر ما في وجه رسول الله ﷺ من الغضب قال ، لأن كل هذا قد كان في مقام واحد فلا تناقض من أن يكون برك ثم قام ثم أنشأ يقول لما رأى ما في وجه رسول الله ﷺ من الغضب كما لا تناقض في أن يكون منه ما كان بعد قوله عليه السلام عرضت علي الجنة والنار أو أنْ يكون بعد ما قال عليه السلام سلوني لأن الأمرين أمر واحد فقوله عرضت علي الجنة والنار هو خَبر عن تأييد الله له في موقف إحفائه والمشقة عليه بالأسئلة وتعجيزه وتعنيته بالسؤال عن الأمر الذي لا يعلمه إلا الله ومثله قوله سلوني ما دمت في مقامي هذا لأنه لا يكون إلا عن موعدة وعمر كان منه ما كان في الحالتين ومن أجْل الحالتين لأنه رأى أمرين غضب رسول الله ﷺ وتأييد الله له بالأمر الخارق فخشي أن يكونوا قد أضحوا في نَفَسِ الفتنة فاستعاذ واسترجع ولاذ باللحظة التي انتزع هو وقومه أنفسهم من الجاهلية ودخلوا في دين الله وكأنه يقول اللهم قد غفرت لنا بدخولنا في دينك ما كنا فيه من الشرك والباطل فاغفر لنا بطولك وحَوْلك ما وقعنا فيه مما أغضب نبيك الذي بلغنا عنك دينك .

ولما رأى رسول الله ﷺ ما عليه عمر وأنه حمل على عاتقه كل ما كان من الأصحاب الذين أغضبوا رسول الله ﷺ ووقف معلنًا التوبة والبراءة مما كان وعائذًا بالله من الفتن هدأ روع رسول الله ﷺ وسكن وسكت بعدما كان يكثر من قوله سلوني وترك المقام واللحظة لعمر يعوذ ويلجأ ويسترجع ، ولاحظ أن تكرار كلمة سلوني وراءها شحنة من الغضب والتعنيف واللوم والمعاتبة وما شئت ثم وراءها شيء آخر يقول إن كنتم تريدون التعجيز فها أننا على المنبر هدفًا لكم فارْمُوا بالتعجيز والتعنيف وألْحِقُوا المشقة ما شئتم والباب مفتوح لكم لأنكم لن تزدادوا إلا يقينًا من أن الله معي ولن يخذلني في مقامي هذا ، قال أنس : «فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك ثم قال» قلت إنه عليه السلام سكت إكرامًا لعمر كما أن عمر برك إكرامًا له وشفقة على المسلمين لأن الله أخبر الثقلين ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ وذكر لفظ الجلالة وعطف رسوله عليه للإشارة إلى أن إيذاء رسول الله ﷺ عند الله بمكان لأنه لا يستطيع أحد أن يؤذي الله جل وتقدس ، عمر يعرف هذا وبرك خشية أن تكون فتنة وبكى الصحابة خشية أن يكون هذا الغضب وإيذاء رسول الله ﷺ مقدمة أمر قد حضر ، قلت سكت رسول الله ﷺ إكرامًا لعمر ورضى بما قاله عمر ، ولستُ من الذين يقبلون القول بأن قول عمر ورضينا بالإسلام دينًا ثم قوله تعالى بعد ذلك ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ مما تَمُرُّ عليه مرور الكرام ولا نقف عند هذا التشابه الشديد بين قول عمر رضينا بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبين قوله تعالى ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ ، ثم إننا لو أغمضنا عن هذه العلاقة فلن

تستطيع أن تغمض العين عن علاقة آخر آية نزلت من القرآن بهذه الحادثة التي كان فيها النهي عن أن تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وأن ذلك مرتبط بزمن النزول لأنكم إن تسألوا عنها والكتاب ينزل تبد لكم ثم رُفع هذا الحرج وهذا النهي بنزول ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ .

قول أنس ثم قال رسول الله ﷺ (أولى والذي نفس محمد بيده لقد عرضت عليّ الجنة والنار آنفًا في عُرض هذا الحائط فلم أر كاليوم في الخير والشر » .

كلمة « أولى » من الوَلْي وهو القرب ومعناها هنا اقتراب الشر ، وليست دعاء لأنه عليه السلام ما كان له أن يدعو على أحد وخصوصًا أصحابه وهم كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا ولأنه لو دعا لأجاب الله دعاءه ولنزل بهم الشر ، وإنما هو تحذير منه عليه السلام وأن الشر قد يقترب منكم وأنتم غافلون وقد يكون ذلك الاقتراب في صور غير لافتة لكم كاقترابه الآن منكم بسبب إلحاحكم وإلحافكم وحفوكم في الأسئلة ، ولاحظ أن الصحابة يَتَعلَّمُون يعني لم يَمُرّ عليهم حال كهذه الحال فقد يخطئون وهم لا يقصدون إلى الخطأ ولهذا قلت إن الأظهر أن يكون حديث « إن أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته ». لم يكن قد قيل ولو كان قيل ما سأل أحد عن شيء لم يحرم . وبعض الشراح يرى أن كلمة أولى تهديد قال النووي (أما لفظة أولى فهي تهديد ووعيد ، وقيل كلمة تلهف فعلى هذا يستعملها من نجا من أمر عظيم والصحيح المشهور أنها للتهديد ومعناها قرب منكم ما تكرهون ومنه

قوله تعالى ﴿ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴾ أي ما تكره فاحذره مأخوذ من الوَلْي وهو القرب) انتهى كلام النووي .

وقوله عليه السلام « والذي نفس محمد بيده لقد عرضت علي الجنة والنار آنفًا فلم أجد كاليوم في الخير والشر » لاحظ المؤكدات التي بدأ بها حديث عرض الجنة والنار وأنها بالقسم واللام وقد ، وهذه الصيغة من صيغ القسم آكد لأنها مع دلالتها على الجلال والهيبة والكمالات المطلقة تضيف معنى هو استحضار أن نفس القائل بيد الذي يقسم به وأنه سبحانه إن شاء أمسكها وإن شاء أرسلها وأن بقاءه وحديثه وحركته في هذا الوجود مرهون بإرادته سبحانه ومثل هذا يُبْعِدُ شائبة الشك في الذي أقسم عليه مع أنه عليه السلام يعلم أن كلامه مصدق من غير توكيد ومن غير قسم لأن هؤلاء يأخذون عنه الدين الذي ارتضاه الله لهم ويُذْعِنون لكل ما حدّثهم به عن ربهم ولكنه عليه السلام يؤكد لأهمية الخبر وليس لإزالة تردد ، ولا إنكار عند المخاطب ، ثم إنه عليه السلام يقول مرة والذي نفسي بيده ومرة والذي نفس محمد بيده ، والذي أراه في الصيغة التي معنا هو أن قوله (نفس محمد) فيها تجريد وأنه عليه السلام جعل من نفسه نفسًا أخرى هي نفس محمد كما تقول لي من فلان صديق وهو ذاته الصديق وإنما أردت أن تجرد منه صديقًا للإشارة إلى وفرة معنى الصداقة فيه وهو هنا عليه السلام يذكر محمد الرسول كما قال عمر وبمحمد رسولاً ، وذكر هذا بعد كلمة (أولى) يؤكد فيها يعني أن شرا يقترب وذلك لأنه عليه السلام قال لم أر كاليوم في الخير والشر وأضاف في رواية أخرى ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا وجواب لو فيها مؤكد باللام كما في قوله تعالى ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ وهذا هو الشر الذي اقترب .

وبقيت كلمة أختم بها الحديث في هذا الحديث وهي أن هذا كان أشد يوم على رسول الله ﷺ بدليل قوله فلم أر كاليوم في الخير والشر ، وإنما كان عرض الجنة والنار في هذه الحادثة ليخبر أصحابه عليه السلام بما أراه الله رَدْعًا لمن أغضب رسول الله ﷺ وأحفاه في المسألة وهذا الردع من نعمه سبحانه لأن ذلك لم يتكرر بعد ، ثم كان هذا اليوم أشد الأيام على أصحاب رسول الله ﷺ كما قال سيدنا أنس « فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يومٌ أشدّ منه » ولعل سيدنا أنس أراد فما أتى عليهم يوم أشد منه في حياته لأن يوم وفاته عليه السلام كان أشد من هذا اليوم وظاهر أن الشدة فيه لم تكن على الذين أغضبوه فحسب وإنما كانت عامة بدليل ما كان من عمر وفيه معنى أن من الأخطاء ما يجب أن يقف الكل في وجهها لأن الآثار المترتبة عليها تَعُمُّ ولا تَخُصُّ كمثل القوم الذين استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أدناها إلى آخره وليس في هذا وقوع عقاب على غير جارمه أعني ليس استثناء من قاعدة كل نفس بما كسبت رهينة لأن الذي يقع عليه العقاب حين يعُمَ كان عليه أن يقف في وجه الفساد حين ظهر فقصَّر وانكفأ على نفسه كما نفعل الآن في ظل الأنظمة القَمْعِيَّة والتي تضرب على يد من يواجه الفساد وتتهمه هو بالفساد ومن ورائها كلاب ينبحونه ، حتى أوشكت مصر أن تضيع في هذه الأيام التي هي أسوأ ما مرّ بها في تاريخها كله بما في ذلك أيام عبدت عجل أبيس .

وإذا لقينا الأشد وعشنا معه وامتلأت نفوسنا بمخاوفه رأينا في كلام الله وكلام رسوله في الجانب الآخر ما يشدُّنا إلى التفاؤل والأمل ويذهب عنا الخوف ويفيض علينا بالرحمة والتسامح والمغفرة حتى نسكن في نصف المسافة التي بين الرهبة والرغبة والخوف والأمن ، وهكذا تجد آيات كثيرة

وأحاديث كثيرة منها ما يشدك نحو الخوف المفزع ومنها ما يشدك نحو الأمل الآمن فلو علم المؤمن ما عند الله من عقوبة ما طمع في جنته أحد ولو علم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد ، وهكذا حتى الحديث الذي مضى ، ولم ير رسول الله ﷺ كيومه في الخير والشر ، عرضت فيه الجنة وعرضت فيه النار قلت هذا مقدمة لجملة من أكرم ما قرأت جاءت في الحديث القدسى « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكر إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرّب مني شبرًا تقربت إليه ذراعًا وإن تقرّب إلي ذرعًا تقربت منه باعًا وإن أتاني يَمْشي أتيته هرولة » ، وقد سبق شرح هذا الحديث وقد جاء هذا الحديث برواية أخرى لأبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، وأزِيدُ ، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئةٌ مثلها أو أغفر ومن تقرّب مني شبرًا تقرَّبتُ منه ذراعًا ومن تقرّب مني ذراعًا تقربت منه باعًا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ومن لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيتُه بمثلها مغفرة » .

المقصود من ذكر هذا الحديث والذي قبله هو الجملة الأخيرة « ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة » لأن هذه الجملة من أكرم وأوسع وأبر وأرضى المبشرات وقراب الأرض بضَم القاف أعني ما يقارب ملأها ، قال النووي وحكى بكسر القاف نقله القاضي وغيره ، وراجع الحديث في رواية أبي ذر وفي رواية أبي هريرة . تجد هذه الفقرة الأخيرة جاء في رواية أبي ذر فقط وجاء فيها أيضًا من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر ، وهذا لم يذكر في رواية أبي هريرة ، وإنما تمخضت رواية أبي هريرة لبيان أن العبد إذا

سعى إلى الله سعى الله إليه بخطوات أوسع فيقابل شبر العبد بذراع ويقابل ذراع العبد بباع ويقابل مشي العبد بالهرولة وهذا كله مجاز لأن الله ليس كمثله شيء وهو مجاز عن اقتراب الفضل والهداية والرحمة من العبد ليس بسعى العبد إلى الاقتراب منها فقط وإنما بزيادة فإذا سعى إلى الهداية والنعمة والفضل من الله بخطوة سعت إليه هذه العطايا التي لا تعطى إلا من يد الله بخطوتين .

ورواية أبي ذر فيها هذا المعنى وفيها زيادة ، وهي الجملة الأخيرة ، وقد هيأ لها بما يناسبها لما قال من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر ، والجملة الأخيرة مولودة من الكلمة الأخيرة (أو أغفر) والمغايرة الكبيرة في هذه الرواية هي أن عطاء الكمال انتقل من القرب إلى العبد بأكثر مما يقترب العبد إلى شيء آخر هو أفضل ما يُعطاه أهل الله وهو مقابلة السيئة بالمغفرة ، وليس بالعدل الذي هو جزاء سيئة مثلها ، يُلْغى هذا المِثْل الذي يوشك أن يملأ الأرض ويوضع بدله مغفرة توشك أن تملأ الأرض ، الأمر هنا تجاوز تقريب النعم والفضل إلى تبديل السيئات حسنات ، وهنا انتقلنا من العدل إلى الفضل وتعجب إذا رأيت أن كثرة الخطايا تقابل بكثرة المغفرة ، يعني الذي يخطىء أكثر يعطى مغفرة أكثر ، وهذا في القياس عجيب ومثله في العجب آية الفرقان : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ راجع السيئات التي تبدل حسنات وحجم هذه السيئات وحجم البديل من الحسنات وكيف ينتقل

الموقف من لقاء الآثام ويضاعف له العذاب ويخلد فيه مهانًا كل ذلك يبدّل ، والجرائم المذكورة ليس هناك جريمة أبشع منها لأنها مبتدئة بالشرك ﴿ يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ وبعدها القتل وأجمع العلماء على أنه ليس أكبر من قتل النفس إلا الشرك ثم الزنا ، كل هذه التلال من الآثام تتحول إلى حسنات ويغفر الله ويرحم والذي جاء بقراب الأرض ولقى الله بهذه الأثقال يلقاه الرحيم الرحمن بمثلها مغفرة ويبدل سيئاته حسنات وهذه المغفرة هي عطاء فاصلة الفرقان وكان الله غفورا رحيمًا وتبقى له الرحمة وهي الجنة .

وهذا التحوُّل الذي ينتقل فيه المرء من أقصى الشمال حيث السموم والحميم وظِلٍّ من يحموم إلى أقصى اليمين حيث المقام الأمين والجنات والعيون وتتحول فيه الأعمال من الشرك والقتل والفاحشة إلى موجبات الحسنات أقول هذا التحول الضخم بَيَّنَتْ الفرقانُ العامل الحاسم في إتمامه ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ نلاحظ أن التوبة توبة نصوح غَسَلَتْ القلب وهي محّاءة جَبَّتْ ما قبلها لأنها أَتْبَعَتْ بالإيمان يعني توبة دخل بها في دين الله وهذا ظاهر بالنسبة لمن دعي مع الله إلهًا آخر ، أما من قتل وزنى فإن هذا يعني أن توبته النصوح كأنه بها دخل في دين الله ، وتطهّر وتزكى بهذه التوبة وصار له قَلْب وَجِلٌ وتهيَّأ بذلك للعمل الصالح الذي تكون مثوبته عند الله مقدرة بقدر الإخلاص والتوجه والصدق والوجل فإذا تصدق بصدقة وقعت في يد الله والله سبحانه بجلاله وسلطانه يُرْبيها له كما يُرْبي أحدُكم فلوه أي ابن فرسه حتى تصير مثل أحد ، وإذا أزاح شوكة من الطريق تَقَلَّب في الجنة . هذه التوبة التي كأنها دخول في الإسلام من جديد وهذا العمل الصالح ، ولاحظ العمل الصالح بعمومه وهو كل ما تصلح به حياة الناس وينعمون حتى لا يكون في طريقهم غصن شوك يؤذيهم يعني

عمل صالح تصلح به حياتهم في كل مجالات الحياة ، وليست عملاً صالحًا في المحاريب فحسب وكان أصحاب رسول الله ﷺ يبكون في المحاريب ثم يخرجون إلى الدنيا فيزرعون فيها الخير بكل صنوفه حتى لو عثرت دابة في العراق لسأل عنها عمر في المدينة وهذا الجهد الصادق المبارك هو الذي تتبدَّلُ به السيئات ولو كانت شركًا أو قتْلاً أو فاحشة إلى حسنات ومن لم يدرك هذا فلا يجوز له أن يُغَرِّرَ بنفسه ويعبث ما يعبث ويتوهم أنه حين يتوب تتبدل سيئاته حسنات وأعود إلى الجملة التي هي فاصلة الحديث القدسي في رواية أبي ذر والذي هيأ لها بقوله سبحانه من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ثم جاءت فاصلة الحديث وكسرت القسم الثاني وهو المجيء بالسيئة وبدلاً من الجزاء بمثلها جاءت المغفرة بمثلها أعني تبدَّلت السيئات حسنات كما في آية الفرقان وأقول في هذه الفقرة شرط في الذي يلقى الله بقراب الأرض خطيئة . ويلقاه الله بمثلها مغفرة وهذا كما قلت عجيب في الجزاء هذا الشرط هو أن يلقى الله لا يشرك به شيئًا وراجع لفظ الحديث «ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشركُ بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة» ، وجملة لقيته بمثلها مغفرة يصح أن تكون خبر الموصول إذا اعتبرت «من» اسم موصول ويصح أن تكون جواب شرط إذا اعتبرتها أداة شرط ، والمهم أنها لا تترتب على ما قبلها إلا بشرط أن لا يشرك بي شيئًا وكلمة «لا» في قوله لا يشرك بي شيئًا نافية ، والمعنى استقر التوحيد في قلبه بصفائه ونقائه وصِدْقه ويقينه لم يخامره شك ولا ريب في لحظة من لحظات انحرافاته التي كان فيها مُنهمِكًا في صناعة الخطيئة التي كانت قُراب الأرض أي توشك أن تملأ الأرض ولا يبقى هذا اليقين في الله بقوته وصفائه وصيانته من لحظة الريب والشك إلا إذا كان

يسقى كل ساعة بذكر الله ، لأن الغفلة مع الخطيئة تنكُتُ في القلب نكتة سوداء ثم تأتي غفلة أخرى مع خطيئة أخرى فتنكت في القلب نكتة سوداء ولا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسلم اليقين في الله من كل هذه النكت إلا بمتابعة الذكر لأن نسيان الذكر يوشك أن يكون نسيانًا لأنفسنا أعني المؤمنة الوجلة التي تعيش في ظل الرحمة وفي كنفها ، وبهذا أفهم أن مِلأ الأرض خطيئة تقابل بمثلها مغفرة إذا كانت خطيئة لا تنكت في القلب نكتة سوداء لأنها أُعقبت بالاستغفار الصادق والندم الصادق وليس الاستغفار باللسان ونحن نباشر الخطايا ، ذكر القلب للرب يحول دون الانغماس فإذا ضعفت النفس وصَنعت الخطيئة أعْقَبها القلب بالذكر والخطايا التي من هذا النوع قد تكثر وقد تكون قراب الأرض وهي التي يقابلها ربنا بمثلها في المغفرة ولاحظ اقتران النعمة من الله بمعصية العبد لله في الدعاء الذي هدانا رسول الله إليه . أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، ونعم الله علينا تترْى في كل لحظة وفي كل غمضة عين وانتباهتها ونحن نبوء بها ونبوء بذنوبنا وهذا من حواشي ومن لقيني بقراب الأرض خطايا لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة . هذا والله أعلم .

الدعاء والذكر

كثير مما كان يحدث من أصحاب رسول الله ﷺ زمن نزول الوحي كان مرجعه إلى أنهم لم يسمعوا فيه حكمًا من رسول الله ﷺ لأن الدين كان يتنزل ولم تنزل أحكامه دفعة واحدة وإنما كان يتدرج فالنهي عن تمني البلاء لم يكن معلومًا ولذلك كان بعض الصالحين من أصحاب رسول الله ﷺ يخاف من العقوبة في الآخرة لأنه كان يقرأ أوصاف الجحيم في الكتاب العزيز ويعلم أنه لا طاقة له بعذاب النار فكان يسأل الله أن يعجل عقوبته التي كتبها عليه في الآخرة إلى الدنيا لأن عقوبة الدنيا مهما اشتدت هي أخف من عقوبة الآخرة واتفق أن رسول الله ﷺ عاد صحابيًا كريمًا فوجده قد أصابه ضرٌّ كثير وإعياء ووهن فسأله عن الذي يدعو به فعلم منه أنه دعا الله بتعجيل العقوبة فنهاه عن ذلك .

روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ «عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ فصار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه ؟ قال نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا فقال رسول الله ﷺ سبحان الله . لا تطيقه أو لا تستطيعه أفلا قلت اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار؟ قال فدعا الله له . فشفاه».

قال النووي : في هذا الحديث النهي عن الدعاء بتعجيل العقوبة وفضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار

واستحباب عيادة المريض والدعاء له وكراهة تمني البلاء لئلا يتضجَّر منه ويسخطه وربما شكا . وأظهر الأقوال في تفسير الحسنة في الدنيا أنها العبادة والعافية وفي الآخرة الجنة والمغفرة ، وقيل الحسنة نِعَمُ الدنيا والآخرة . انتهى كلام النووي . وقول سيدنا أنس « إن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَت فصار مثل الفرخ » فيه أنه لم يذكر الصحابي الذي عاده رسول الله ﷺ وهو يعرفه لأن تعيينه لا يتعلق به غَرَضُ الكلام والمهم أنه عليه السلام عاد رجلاً من المسلمين فكان في عيادته ما كان مما أراد أنس أن يبلغه الأمَّة وهُوَ النهي عن الدعاء بتعجيل العقوبة وربما كان من رسول الله ﷺ مع هذا الصحابي الجليل وأن ما كان منه عليه السلام كان سيكون منه صلوات الله عليه مع أي مسلم ولو ذكر أنه عاد فلانًا لأوهم ذلك أن خصوصية فلان لها أثر في الذي سمعه من رسول الله ﷺ ، ولهذا كانت دقة هذا الجيل في نقل الأخبار والأقوال وكانت شدة تحرزهم في الإبانة عنها بلغة محايدة كان لهذا أثر جيد في استنباط الأحكام ومعرفة الدين وقد رأينا النووي يقف عند الحادثة والحديث ليستخرج لنا المنهي عنه والمكروه ثم إن لغة سيدنا أنس لغة فيها نفح من بلاغة المصطفى ﷺ لأنه لازم رسول الله ﷺ ورفع الله شأن أنس بطول خدمته لسيدنا وسيد سادتنا صلوات الله وسلامه عليه ، راجع قوله « عاد رسول الله ﷺ رجلاً من المسلمين قد خَفَتَ فصار مِثْلَ الفرخ » وقد ذكرت المعنى الذي قصد إليه أنس لما لم يذكر الرجل من هو وأنه رضوان الله عليه اكتفى من الكلام بقدر الحاجة كما يقول البلاغيون لأن الزيادة عن الحاجة تُغَمِّي وتُلَبِّسُ موطن الحاجة من الكلام وجملة « قد خفت فصار مثل الفرخ » جملة من الكلام النبيل العالي ، وفيهما نفح من بلاغة رسول الله ﷺ وبيان الضعف الذي صار إليه الصحابي

الجليل بكلمة (خَفَت) بيان نادر جدًا وكأنه من أوليات أنس ، ولو استطعت لجمعت كل كلام أنس لأستخرج منه هذه الشذرات التي فيها ريح النبوة ، وكلمة مثل الفرخ كلمة شائعة لأن وصف الكبير الفاني وتشبيهه بالفرخ معروف ووصف الأطفال الصغار الذين يضيعون بضياع عائلهم وأنهم أفراخ زغب الحواصل أيضًا معروف ، وقد قال الشاعر لعمر لما أراد حبسه :

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخٍ زُغب الحواصل لا ماء ولا شجر

وكلام أنس يعني أن الرجل عاد في هزاله ووهَنه فرخًا لا ينهض ولا يطعم إلا إن أُطعم وهذا شائع كما قلت والذي في كلام أنس وليس شائعًا أنه هيأ لهذا التشبيه وأعدّ له وقدّم له يقول قد خَفَتَ وخفت ليس معناها أنه ضعف فحسب كما نفسرها بها وإنما فيها معنى أنه يوشك أن يموت وقد خفت كل ما فيه . خفت صوته ، وخفتت عافيته والخفوت فيه معنى التلاشي والضياع وخفت أخت خبت والفاء أخت الباء ، والخبت المطمئن الغامض من الأرض وأخبتوا لله خشعوا والخفت الضعف ويقال خفت إذا مات وفي حديث عائشة ربما خفت النبي ﷺ في قراءة وربما جهر ويتخافتون بينهم أي يتسارون قال صاحب اللسان ويقال للرجل إذا مات قد خفت أي انقطع كلامه .

قول أنس : فقال له رسول الله ﷺ «هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه» هذا سؤال غريب لأن المألوف في مثل هذه الحالة أن يقال له برئت أو أراك بارئًا إن شاء الله أما أن يتجه رسول الله ﷺ إلى هذه الجهة ويفتش عن الذي كان يدعو له أو يسأله سبحانه وأي شيء سألت الله ولأي شيء دعوت الله ؟ وكأنه عليه السلام كان يعلم الشيء الذي سأله من الله ودعا الله أن يُعْطِيَهُ إياه وهذا إلهام أو وحي لأنه تَعَلّق به حُكْمٌ وهو النهي عن الدعاء بتعجيل العقوبة

وقد وقفت عند هذا السؤال وقلت هل لاحظ ﷺ شيئًا في أحوال الصحابي الكريم ؟ وأنّه مغتبط بهذا الخفوت الذي صار به مثل الفرخ ؟ وأنه راض به رضا المرء بحصوله على رَغْبَتِهِ ؟ وأن ما هو فيه كان برغبته وطلبه وأن الله سبحانه لم يبتله بالمرض كما يبتلى الناس فهو يصبر ويحتسب وإنما أعطاه ما طلب ؟ وأن مثل هذا الصحابي يكون دائمًا في الحالة التي يريد أن يكون عليها ؟ وأنه مستجاب الدعوة ؟ هل لاحظ رسول الله ﷺ ذلك أم أن الله ألقى في روعه هذا السؤال ليتأسَّسَ عليه ما تأسس من حكم ، أم أنه الحَدْس والألْمعِيَّة ومهما يكن فإذا كان أنس قد رأى ظاهر ما عليه الصحابي ووصفه وصفًا بالغ الدقة في كلمتين « خفت مثل الفرخ » فإن كلام رسول الله ﷺ قد تجاوز هذا الظاهر وسأل عن الذي في السريرة ولا يسأل أحد عن شيء مقطوع بنفيه ولا عن شيء مقطوع بإثباته وإنما السؤال عن المشكوك فيه ، وسؤال سيدنا رسول الله يعني أنه كان عليه السلام يشك من أنه كان يدعو بشيء أو يسأله إياه وأن هذا الشيء النكرة هو الذي هو فيه الآن ، وقد جاء جواب الصحابي بقوله « نعم كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّلْهُ لي في الدنيا » وقول الصحابي الكريم « نعم » معناه نعم كنت أدعوه بشيء وأسأله إياه ، وهذا يعني الموافقة على حدس سيدنا رسول الله ﷺ وما توقعه ، ثم بدأ الصحابي يكشف هذا الشيء المُبْهِم في كلام رسول الله فقال : كنت أقول : « اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله في الدنيا » هذا دعاء مَنْ لَمْ تَسْتَقِرّ عنده حقائق الدين بعد . لأن الذي استقرت عنده حقائق الدين يسأل الله المغفرة والتوبة ويتوب وينوب ويرجع إلى الله سائلا العفو والمغفرة وليس تعجيل عقوبة الآخرة في الدنيا ويبدو أن رسول الله ﷺ أدرك من حاله وصلاحه وقصور معرفته أنه سأل ذلك لأن قول رسول الله له

هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه ثم يجيب بنعم كنت أدعو ثم يبدأ يفسر هذا الشيء كل ذلك يدل على أن رسول الله ﷺ بنفسه اليقظى وبفهمه المتسارع استشرف هذا المعنى أو تردد فيه ، وقول الصحابي الجليل اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجّلهُ في الدنيا يدل على أنه قاطع بالعذاب وهذا يعني أنه ليس طامعًا في المغفرة وعذره في ذلك أن أهل الصلاح إذا وقعوا في خطيئة استعظموها وكبر عليهم أن يجترئوا على حدود الله وكأنه وجد حَرَجًا في طلب المغفرة ورأى أنه يستحق العقوبة ولم يستحضر أو لم يعلم بالذي جاء في الحديث القدسي « ومن لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة» . ونظائر ذلك كثيرة وأننا لو لم نكن لنا ذنوب نسأل الله مغفرتها لجاء بآخرين لهم ذنوب فيستغفرون فيغفر لهم . ولله أفرح بتوبة العبد ، ولك أن ترجح أن الصحابي الجليل لم يكن عنده علم بشيء من هذا وقول رسول الله ﷺ « سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيعه» فيه تنبيه إلى أن عذاب الآخرة لا يطاق في الدنيا لأن أهل العقوبة في الآخرة ليسوا على هيئتهم التي هم عليها في الدنيا لأنهم يكونون وقود النار ولا يموتون ويضربون بمقامع الحديد ولا يموتون وتنضج النار جلودهم ويبدَّلون جلودًا غيرها ولا يموتون ، لأنهم يخلقون خلقًا آخر يصطرخون في النار ولا يموتون ومن فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ولا يموتون هذا ما أفهمه من قوله عليه السلام لا تطيقه أو لا تستطيعه ، أما قوله عليه السلام « سبحان الله» فقد ذكروا أنه تعجب ومن أجل أن أعرف الذي تعجب منه رسول الله ﷺ أراجع ما طلبه رسول الله ﷺ منه وحثَّه عليه ، وهو قوله عليه السلام « أفلا قلت اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» قوله عليه السلام « أفلا قلت» أصله ألا قلت ،

وألا هنا تفيد العرض والتحضيض المشوب بالعتاب والتنديم ، والفاء تعني أن ثمّة معطوفًا عليه محذوفًا وهذا المحذوف من أغمض ما يحذف من الكلام وتقديرنا له لا يصح إلا بضرب من المسامحة والمساهلة لأنه يعني معنى جرى في نفس المتكلم وسكت عنه وأومأ إليه بهذه الفاء وإذا كان المتكلم مبلغًا عن الله وكان بلاغه عليه السلام دينا زادت الصعوبة وزاد الحرج ولا مفر لنا من محاولة البيان والله يغفر لنا ما دمنا لا نجد في أنفسنا إلا هذا ، والذي أجده هو أنك عدلت عن سؤال الفضل إلى ما يقتضيه العدل أفلا عكست وسألت الفضل وقلت اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار وهذا يعني أن المذنب لا يطلب المغفرة لذنبه وإنما يطلب مع ذلك الزيادة وبدل أن يطلب العقوبة في الدنيا بدل عقوبته في الآخرة يطلب حسنة الدنيا وحسنة الآخرة وتنكير الحسنة في هذه الآية الكريمة صالحة لأن يراد بها حَسَنَةً عظيمة تليق بفيض عطائك وكريم إنعامك وصالحة لأن يكون معنى التنكير حسنة أي حسنة منك وإن قَلَّت لأن قليلك لا يقال له قليل ، كما قالوا في السلام الآتي من قبل الله في مثل قوله تعالى ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ ﴾ فإذا جاء السلام من قبل العبد جاء معرفًا كما قال عيسى عليه السلام ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ ﴾ . وقد قالوا أفضل ما قيل في حسنة الدنيا العبادة والعافية وأفضل ما قيل في حسنة الآخرة المغفرة والرحمة وهذا يعني أن الصحابي الجليل الذي كان يعتقد أنه لا مناص له من العذاب فيدعو بتعجيله في الدنيا يوجهه رسول الله ﷺ أن يدعو بحسنة زائدة في الدنيا بدل تعجيل العذاب وهذه الحسنة هي العبادة والعافية وليس بعدهما مطلب في هذه الدنيا عند عقلاء الناس لأن العبادة تعني الذكر الدائم والخشوع الدائم وأن يكون العبد دائمًا ساكن القلب مطمئن النفس في كنف

رب غفور رحيم لطيف ستار ثم العافية وهي العافية في البدن وفي المال وفي الولد ومن العافية أن يعيش حرًا كريمًا يقول ما يجده في قلبه خيرًا لبلاده بعيدًا عن القمع والخوف والعسف لأني لا أرى أحدًا منا يعيش في عافية ما دام يحكمنا الذين لا يملكون إلا القوة التى هى قوتنا والتى حوّلت رصاصها إلى صدورنا لأننا قلنا للظالم يا ظالم ، والذي لا يستطيع أن يقول للظالم يا ظالم لا يصح أن يتوهم أنه في عافية وهكذا أفهم العافية وهي المعافاة من كل سوء وأسوأ السوء حاكم ظالم ونظام جاهل وبلاد متخلفة ودور علم مهدَّمة ولا أظن أن العافية التي ندعو الله بها ومن أجلها أن نكون في قوة البغال وأفواهنا معصوبة وليس لبيوتنا حرمة وإنما يقتحمها أغوات الأغا في الليل والنهار يعتقلون ما يشاؤون أو ما يشاء الأغا من رجال ونساء ويَنْهَبون ما يجدون كعصابة المماليك ، وإنما العافية أن أعيش حرًا في وطن حر ، وأن أعيش إنسانًا في وطن يُحْتَرَم فيه الإنسان واحذر أن تظن أنني متزيد لأن هذا الدعاء أثْنَى الله سبحانه على الداعين به في كتابه العزيز فقال تعالى ذاكرًا عباده الذين قضوا مناسكهم فقال ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ . ولاحظ أن هذا دعاء جماعة وهو بنون جماعة المتكلمين وحمله على طلب الفرد حمل فيه تعسف وحسنة الجماعة أن يكونوا أحرارًا كرامًا لهم حقوق لا ينتهكها أغا مُضَلِلٌ ولو لبس عمامة الصالحين ، هذا شيء ثم إن حسنة الآخرة ليست المغفرة فحسب أعني مغفرة الذنب الذي دعا الصحابي الجليل أن يعجّل له عقابه في الدنيا فخفت مثل الفرخ وإنما دعا وطلب الرحمة التي هي فوق المغفرة وبعد المغفرة بمسافة لأن المغفرة ستر الذنب ومحوه وحينئذ يكون العبد لا عليه ولا له

وأحسن أحواله أن يكون في الأعراف بين الجنة والنار ولكن فَرْط الثقة في فيض الرحمة أطمع العارفين بالله أن يطلبوا الرحمة التي هي الجنة ، ثم تأتي الوقاية من عذاب النار وهي جامعة للمغفرة والرحمة لأن من زحزح عن النار دخل الجنة وذلك هو الفوز العظيم .

قارن بين الدعاء الذي دعا به الصحابي الوجل من ربه والدعاء الذي وجهّه إليه المبلغ عن ربه صلوات الله وسلامه عليه تعرف الذي تعجب منه رسول الله ﷺ وأنه تعجب مِمَّن وثق بالعذاب فطلب تعجيله وغابت عنه المغفرة والرحمة والعافية وهي في يد الله أقرب إلى عبده من عذابه سبحانه قلت ربما رجع هذا إلى أن مفاهيم الإسلام والعلم بالله لم يكن قد استقر في النفوس والتعجب له صِيَغٌ تدل عليه أشهرها ما أفعله وأفعل به مثل ما أحسنه وأحسن به تعجبًا من حسنه وكان يمكن أن يقال هنا ما أعجبك أفلا قلت ربنا آتنا في الدنيا حسنة .. إلى آخره ، وإنما عدل عن هذا عليه السلام إلى التعجب بالسبحان ، ـ والله أعلم ـ لأن المتعجَّب منه له تعلق بمعرفة الله سبحانه وأن ثِقَةَ العبد في عذاب الله له وغَفْلَةَ العبد عن المغفرة والرحمة مما لا يكون إلا ممن نسي أن الرحمة غلبت الغضب وأنه سبحانه يغفر الذنوب جميعًا وأن من تاب تاب الله عليه وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له وأن التوبة تمحق إثم الشرك فكيف بمَنْ هو دونه ، وكل هذا يرجح أن هذا كان في أول الدعوة ، أو أن الصحابي الجليل كان حديث عهد بالإسلام .

قال أنس فدعا الله له فشفاه : وهذه فاصلة عملية للحديث لأن الحبيب المختار صلوات الله وسلامه عليه لما نبّه الصحابي الجليل إلى خطئه وأرشده إلى الصواب لم يكتف بهذا وإنما أخذ بيده على طريق الصواب وأراه نتائجه

المطلوبة ، فدعا له فاستجاب الله دعاءه وشفي الذي كان قد خفت مثل الفرخ وهو لا يزال في طريقه إلى ما هو أشد لأن عقاب الآخرة لا يطاق في الدنيا ولا يستطاع .

وقد سأل قتادة أنسًا : أي دعوة كان يدعو بها النبي أكثر ؟ قال كان أكثر دعوة يدعو بها يقول : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

قال : وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها ، فإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه .

ويلاحظ أن هذا الدعاء وهو مقتبس من الكتاب العزيز يقدم حسنة الدنيا على حسنة الآخرة وأن هذا هو الواقع لأن الدنيا مقدمة على الآخرة ومن لم يزرع خيرًا في الدنيا فليس له خير في الآخرة وأن الآخرة هي المحاسبة على حصاد الدنيا وأنه لولا الدنيا ما وجدت جنة لصالح ولا نار لفاسد وفرق بين طلب حَرْثها وَحْده وبين طلب حرثها وحرث الآخرة : ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ، وليس هناك من يطلب الآخرة من غير أن يغمس يديه في زراعة الخير في الدنيا ، وحين يطلب أهل الإسلام حسنة الدنيا فإنما يطلبون أولاً الطاعة والعزة والكرامة والقوة والنصر وكل ما يفضي إلى أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس وكل ما يفضي إلى أن يكونوا الأعلون . هذا والله أعلم .

• القوم لا يشقى بهم جليسهم

أكثرتُ من الأحاديث الدالة على سعة الرحمة وسعة المغفرة حتى خشيت أن أكون مُغريًا بالتساهل والاتكال ، ثم دَفَعْت هذه الخشية بأن هذا دين الله وتعريف أهل الإسلام بالدين وما فيه من سعة الرحمة أمر واجب وقد ابتلى الزمان الذي أنا فيه بمن يكفِّر أهل الشهادتين ومن يستبيح دماء أهل المعصية ويكفر الحكام ويكفر الجيش وقابل ذلك قمع ملأ حياة الناس رعبًا وسلبًا ونهبًا ملأ حياة الناس فقرًا وجَهْلاً ملأ حياة الناس تخلفًا ومرضًا إلى آخر ما نحن فيه من بلاء كلما توهمنا صبحًا قريبًا دهمه لَيْلٌ دامس ، وطريق طامس ، فضلاً عن جماعة هلافيت يكتبون ويعرفون بالنخبة المثقفة وليس عندهم إلا الهجوم على الدين وأهل الدين ودعاة تطبيق شرع الله حتى أن بعضهم استحل دماء من يطالبون بالحكم بما أنزل الله وفي وسط هذا اللبس وهذا الليل لا أملك إلا أن أنشُر من كلام رسول الله ﷺ ما هو من صحيح الدين حتى يتعرف الجيلُ الجديدُ على هذه الحقائق ولا أملك إلا أن أسأل الله سبحانه أن يكشف الغُمّة عن الأمة والشعب حين يطالب بحقه يُقْهَر ويُقْتَل ويوصف بأنه إرهابي والقاتل بطل قومي ومن حوله من النابحين هم المواطنون الشرفاء ونسأل الله السلامة ، وقبل أن أبدأ الحديث عن الذين لا يشقى جليسهم أشير إلى أن لله أوْقَاتًا له فيها نفحات ولا يجوز لنا أن نهمل هذه النفحات . منها يوم الجمعة وعند الأذان وفي الثلث الأخير من الليل ووقت الصيام وعند الإفطار ووقت إقامة الصلاة ووقت السجود وأيام عرفة ومنًى وعند الطواف وغير ذلك كثير مما يكون فرصة تنتهز لأصحاب الحاجات يرفعون فيها حوائجهم إلى الله .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن لله تبارك وتعالى ملائكة سَيَّارةً فُضلاً يَتَّبِعُون مجالسَ الذكر . فإذا وجدوا مَجْلِسًا فيه ذكر قَعَدُوا مَعَهُم وحَفَّ بعضهم بعضًا بأجنحتهم حتى يملؤُوا ما بينهم وبين السماء الدنيا ، فإذا تفرقوا عرجوا وصَعِدُوا إلى السماء قال فيسألهم الله عز وجل ، وهو أعلم بهم من أين جئتم ؟ فيقولون جئنا من عند عباد لك في الأرض : يسبحُونك ويكبرونك ويُهلِّلُونك ويحمدونك ويسألونك . قال وماذا يسألوني ؟ قالوا يسألونك جنتك . قال وهل رأو جنّتي ؟ قالوا : لا أيْ ربِّي قال فكيف لو رأوْا جنتي ؟ قالوا ويستجيرونك . قال : ومما يَسْتَجِيرُوني ؟ قالوا من نارك . قال وهل رأوا ناري ؟ قالوا لا قال فكيف لو رأوا ناري ؟ قالوا ويستغفرونك . قال فيقول : قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا . وأجرتهم مما استجاروا . قال فيقولون رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مرَّ فجلس معهم قال فيقول : وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » .

من حقائق الدين أنه سبحانه وتعالى لا يُسأل عما يفعل . وإنما يَسأل ويَبْحثُ عبادُه عن الحكمة فيما يفعل سبحانه وهذا باب النظر والتدبر والذكر أيضًا ، تتفق فيه الأفكار وتختلف ، وتتباعد وتتقارب وقد رفع الله عنا الحرج في الخطأ إذا هيأنا أنفسنا لهذا النظر وهذا التدبُّر وتجردنا واجتهدنا وصَدَقْنَا .

والسؤال هو أن الله سبحانه وتعالى يعلم أحوال عباده الذاكرين والغافلين ، المنفردين والمجتمعين ، ويعلم ظاهرهم وباطنهم في كل أرض من شمالها إلى جنوبها وفي كل زمان من آدم إلى يوم أن ينفخ في الصور لا يعزبُ عنه سبحانه شيء في الأرض ولا في السماء فلماذا كانت هناك أفواج من الملائكة السيَّارين السائحين يبتغون مجالس الذكر ؟ ولماذا سألهم سبحانه وهو أعلم بهم ، وهذه الملائكة التي سألها ربنا سبحانه لا علم لها إلا ما علّمها ؟

ولا أعرف لذلك جوابًا إلا إعلاء شأن مجالس الذكر . وبمقدار مكانة الملائكة وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وأنهم طوائف لا حصر لها ، ثم بمقدار جماعات الذاكرين المجتمعين في كل صلاة . وفي كل مسجد وفي كل معهد وفي كل جامعة يدرسون ويتابعون ويحلّلون أقول كل هذا له مَدْخل أساسي هو شأن الذكر وأهله وأن الله سبحانه وتعالى أعدّ لهذه الجموع التي لا تحصى بين الذاكرين جموعًا أكثر منها وأكثر من أضعافها من الملائكة تحفهم وتَصْعَد إلى الله بحاجاتهم فيعطيهم الله سبحانه ما سألوا ويعطي من اتفق أنه كان معهم ولم يذكر ولم يسأل .

قوله عليه السلام « إن لله ملائكة سيارة فُضْلاً يتبعون مجالس الذكر » بدأت هذه الجملة بأداة التوكيد وليس المقصود من التوكيد تحقيق الخبر عند المخاطب لأن الذين يأخذون دين الله سبحانه من بلاغ رسوله لا يعتريهم شك أي شك فيما يسمعونه منه عليه السلام وإنما المقصود الدلالة على أن الخبر عند الله بمكان وإذا كان مضمون الخبر هو بيان مكانة مجالس الذكر عند الله كان الإخبار عن هذا المضمون عند الله ورسوله بهذه المكانة ، وتوكيد الكلام الصادر عن من لا خلاف في إخباره لا يكون لإزالة الشك كما لا يكون لغرابة الخبر لأنه ما دام صَدَرَ عن من لا خلاف في إخباره لا يعتريه عند الذي يتلقاه شك ولا إنكار كان الخبر غريبًا أو قريبًا وإنما هو لبيان مقام الخبر عند المخبر ومثله قوله تعالى في خطاب رسوله عليه السلام ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ راجع كيف يتلقى رسول الله ﷺ الخبر عن ربه ، وماذا يفهم من التوكيد ؟ هل يعتريه ريب فيما يسمع حتى يحتاج إلى التوكيد ؟ أم هو يعلم عليه السلام أن الله سبحانه الذي هداه إلى هذا الخلق العظيم رضي عنه وأرضاه ؟

والجملة التي دخلت عليها أداة التوكيد تقدم فيها الخبر على المبتدأ ، وذلك لتأكيد معنى الاختصاص لأن الاختصاص مفهوم من دلالة الكلمات وليس من أحوالها لأن الملائكة لا تكون إلا لله ، ثم إن لفظ الجلالة (لله) كَثْرَةُ إلفنا له أغفلنا عن دلالته على الكمالات المطلقة ، ولذلك يرجح البعض أنه اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذ سئل به أعطى ، كما نُغْفِل أيضًا أن هذه الكمالات المطلقة تُفْرِغُ أسباغًا منها على ما التصق بالاسم الدال عليها فإذا قلت ملائكة الله تكون قد أضْفَتْ إلى الملائكة شيئًا من هذا الجلال كما في قام عبد الله يدعوه ، وإذا قلت لله ملائكة تكون أيضًا قد مَنحتْ هذه الملائكة قدرًا من الكمال ، بل إنك تجد لفظ الجلالة هذا يرشح على ما حوله من معناه ، فكلمة سبحان الله تجد لفظ الجلالة رشح على التسبيح فضلاً تجد نظيره في الحمد لله ، وهكذا . والمعنى الذي أريده خفيٌّ جدًّا وهو هَمْسٌ لا تَسْمَعُه إلا الأذن الواعية التي أَلِفت سماع الخفي والأخفى ومن المعاني ما هو كالهَمْسِ أو كمسرى النَّفَسِ في النفس كما قال علماؤنا .

وقوله عليه السلام (سيَّارةً فُضْلاً) كلمة (فضلاً) رويت روايات مختلفة في الضبط ، قال القرطبي هي بفتح الفاء وإسكان الضاد رواية الشيوخ في مسلم والبخاري ، والمراد أنهم مرتبون لهذا وأنه ليس لهم عمل إلا هذا وأنهم غير الحفظة وغير المرتبين على أحوال الخلائق والكتبة والرقيب والعتيد إلى ما لا يعلمه إلا الله ، قال القرطبي ووقع عند بعضهم بضم الفاء والضاد وكأنه تأوله على جمع فاضل ورده القرطبي ، وذكر النووي أن بعضهم رجّح هذه الرواية التي هى بضم الفاء والضاد والذي رجحها ادعى أنها أكثر وأصوب وذكر النووي وجوهًا أخرى ثم قال : قال العلماء معناه على جميع الروايات

أنهم ملائكة زائدون على الحفظة وغيرهم من المرتبين مع الخلائق فهؤلاء السيارة لا وظيفة لهم وإنما مقصودهم حَلَقُ الذكر وقال عليه السلام « سيارة » ولم يقل يسيرون كما قال يتبعون لأن الوصف بالاسم يدل على الثبوت والدوام والوصف بالفعل يدل على التجدد والحدوث فالسير وصف ثابت دائم لهم واتباعهم مجالس الذكر يحدث ويتجدد كما قال تعالى ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ فالخوف وصف ثابت عبَّر عنه بالاسم والترقّب والالتفات يحدث ويتجدد فعبر عنه بالفعل ، وجملة يتبعون مجالس الذكر جملة حالية تعني أن لله ملائكة سيارة حالة كونهم يتبعون مجالس الذكر وفي رواية يبتغون مجالس الذكر ، وبينهما فرق لأن الابتغاء طلب المحبوب والاتباع ليس فيه هذا المعنى وإنما فيه معنى التّقصّي والمعنيان يتداخلان فالمبتغى قد يتتبع ويستقصى ، ثم إن المتتبع أصله من الاتباع والمبتغي من الابتغاء ، وهذان أصلان ، تتماسُّ فيهما الدلالة وهي مختلفة وتتداخل أيضًا وهي مختلفة ، والملائكة الكرام يتعبدون بهذا الذي هو عملهم وهو عبادتهم يعني يتقربون إلى الله بالبحث عن الذاكرين ، وراجع وتتدبَّر لتعرف قدر الذكر ومجالس الذكر عند الله الذي جعل خَلْقًا من أكرم خلقه وهم الملائكة يتعبدون بالبحث عنهم وتظليلهم بأجنحتهم والصعود إلى الله بمطالبهم وهنا شيء يجب أن يُعلم وأن ما يشيع في الأمة وهو معنى مجالس الذكر لأنه معنى متسع جدًّا وقد ضيَّقْنَاه وأغمضناه ، وقصرناه على التسبيح والتحميد والتكبير ، ولا شك أن هذه هي الأصل ولكنه أيضًا يضاف إليها مجالس العلم التي فيها دراسة للحلال والحرام والتفسير والحديث وكل العلوم التي هـي وسـائـل لهذه العلوم مثل علوم اللغة والسيرة وما أُثِرَ عن أصحاب رسول الله ﷺ وفتاوى الأصحاب والتابعين ومن تبعهم وهذا أيضًا لا شك أنه

من صَميم مجالس الذكر ويُلْحق بذلك كل العلوم التي تنفع الأمة في معاشها كعلوم الزراعة والصناعة وكل العلوم التي تدفع عن الأمة العجز والتخلف والفقر والمرض والضعف حتى يعيش أهل الإسلام في بلاد طيبة قوية متقدمة عندهم منهم من يداوي مرضاهم وعندهم منهم من يصنع لهم كل ما يحتاجونه وعندهم منهم من يُعِدُّ لهم أسلحة تدافع عن أرضهم وأعراضهم وكل المجالس التي فيها أي فرع من فروع العلم التي تعود على الأمة بالخير كعلوم الفيزياء والطب والهندسة والرياضيات كل هذه العلوم مجالسها مجالس ذكر إذا تنبَّه أعضاءُ هذه المجالس وعزموا على الجد للنهوض بحياة الأمة وجَلْبِ الخير لها ودفع الضُّرِّ عنها ؛ ولما أخبرنا سيدنا المختار بأنه رأى رجلاً يتقلب في الجنة لأنه أزاح غصن شوك عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين إنما دلّنا على أن كل عمل يزيح الفقر عن المسلمين هو عمل صالح وكل عمل يرفع التخلف عن الأمة هو عمل صالح وكل عمل يساعد على نصر الأمة هو عمل صالح ، وإذا استحضر العالم في معمله ذكر الله وخدمة أهل هذا الدين كان كأنه في صلاة وكأنه في محراب وإذا اجتمع أعضاء قسم أي فرع من فروع هذه العلوم وهم مستحضرون النيَّة الصالحة حفتهم الملائكة لأنهم هم أيضًا ذاكرون لأن الأصل في الذكر ذكر الله وفي أي وقت تستشعر فيه جلال الله فأنت ذاكر وإذا استحضرت ذلك في درسك فأنت في صلاة ، ويجب أن يشاع هذا المعنى ولا يجوز أن تحفظ حديث إزاحة غصن الشوك وتغفل عن إخراج الأمة من الضعف إلى القوة ومن الهزيمة إلى النصر ومن التخلف إلى التقدم والتخلف يعني أن في طريقنا آلاف أغصان الشوك ؛ والفقر يعني أن في طريقنا آلاف أغصان الشوك والمشكلة أن علماء العلوم القادرة على الانتقال بالأمة من طور إلى طور

يعتقدون أن علومهم ليست هي العلوم التي تفتح أبواب الجنة وأن علومنا منها علوم الدنيا ومنها علوم الآخرة والأصل أن كل ما ينفع الأمة يفتح أبواب الجنة وهو من علوم الدنيا والآخرة ، ولو اجتمع علماء الفقه من غير أن يستحضروا معنى خدمة المسلمين واجتمع علماء الرياضيات وهم يستحضرون هذا المعنى لكان مجلس علماء الرياضيات من مجالس الذكر ومجلس علماء الفقه ليس من مجالس الذكر والنيات الطيبة تحوّل المباحات إلى طاعات فكيف وهي ليست من المباحات لأن علوم الصنائع والزراعة والاقتصاد والفيزياء والطب وغيرها من الضروريات ، وفسَّر القرطبي وغيره مجالس الذكر بمجالس العلم والتذكير قالوا وهي المجالس التي يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله وأخبار السلف الصالحين وكلام الأئمة الزهاد المتقدمين ، وقد نبّه الأُبيّ إلى أن خلوص النية شرط في اعتبار رواية الحديث من الذكر. وذكر بعض العلماء أن الذكر يعني المجالس التي يُبيَّنُ فيها الحلال والحرام كيف نبيع وكيف نشتري وكيف نتزوج وكيف نصلي وكل ما له مدخل في تصحيح العبادة وكل هذا جيد واللفظ يحتمله ، وفي سياق هذا ذكر النووي كلامًا للقاضي عياض ذكر فيه أن الذكر ضربان ذكر بالقلب وذكر باللسان ، وأن الذكر بالقلب ضربان ذكر هو التفكير في آيات الله وفي قدرته وجلاله وكرمه ولطفه وهذا أعلى طبقات الذكر لقوله عليه السلام خير الذكر الخفيّ . والذكر الثاني بالقلب هو التسبيح والتحميد والتمجيد ، وقد اختلف في هذا القسم هل هو الأفضل أم الذكر باللسان ؟ قالوا الذكر باللسان أفضل لأنه يشمل هذا مع عمل الجوارح أعني اللسان ، وقالوا الذكر الثاني بالقلب أفضل لأنه من أعمال السر ، وذكر اللسان الذي يفاضلون بينه وبين ذكر القلب المراد به ما واطأ اللسان القلب ، أما ذكر اللسان من غير هذه

المواطأة فلا ينهض للمفاضلة ، قالوا والذكر من غير نيّة لغو وحضور القلب مع اللسان في الذكر هو النيّة قال الإمام الأُبيّ إن صحبته النية من الشروع إلى التمام فهو الغاية والمطلوب وإن صَحِبَته في الشروع وعزبت في الأثناء فقال ابن رشد إذا كان أصل العمل لله تعالى وعلى ذلك عُقد فلا يضر ما يعرض من الخطرات التي تقع في القلب ولا تُمْلَك وسُئل عن الرجل يُحب أن يُرى في طريق المسجد ويكره أن يرى في طريق السوق فقال إن كان أول ذلك لله تعالى فلا بأس ويدل قول مالك أن الرجل إذا خرج من أول أمره إلى المسجد بالنية المتجهة إلى الله تعالى ثم عرض له أنه يُحب أن يراه الناس في طريق المسجد فلا بأس من هذا العارض لأن أصل العمل لله .

وثواب الجماعة في مجالس الذكر كثواب الجماعة في الصلاة وللذي يذكر الله في مجلسه وحده أو في فراشه أو في طريقه ثواب كثواب الذي يصلي وحده .

ويلاحظ أن من العبادات ما هو جامع والصلاة جامعة تجمع أهل الحيّ في الصلاة المفروضة ثم توسع الجمع في الجُمَع والأعياد ثم تجمع المسلمين في الحج ثم تجمعهم وهم فرادى في رمضان فيمسكون معًا ويفطرون معًا وكل هذا له أثر بالغ في تماسكهم وتوادهم وتعاطفهم حتى يكونوا في سلمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعت له سائر الأعضاء وفي حربهم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا ، والكلام في المسلمين في الأقطار كلها والبلاد كلها فضلاً عن الشعب الواحد والبلد الواحد والدولة الواحدة ، كلهم لهم كيان واحد هي الأمة الإسلامية ولهم ديار واحدة هي ديار الإسلام والأفكار الخبيثة الجاهلة التي تَفْصِلُ المسلم في

مصر عن المسلم في الهند والباكستان وتركيا وغيرها من بلاد الإسلام أفكار لا قيمة لها . وإن كان أعداء الأمة يؤكدون على هذا الفصل ويردده إعلاميون جهلة ، الله وحده هو الذي يعلم لحساب مَنْ يعملون .

هذا شيء من معنى المجالس التي هي وحدات جماعية صغيرة لها عند الله هذا الشأن وتذكر أن طالب العلم تضع الملائكة أجنحتها عليه وأنه يبدأ تحت هذه الرعاية من الملائكة مع خطواته الأولى التي يتعلم فيها القراءة والكتابة وأنه ما دام يطلب العلم فهو تحت هذه الرعاية والشأن أن يطلب العلم من المهد إلى اللحد كل الذي في يده كتاب يقرأ فيه ليتعلم عِلْمَه وقلبه ذاكر وهو يفعل ذلك لخدمة هذه الأمة فهو تحت مظلة أجنحة الملائكة سواء الذي يقرأ في الفقه والذي يقرأ في الطب وسواء الذي في مكتبته أو الذي في معمله يَخْتَبِرُ ويكتشف لصالح هذه الجماعة وكلمة العلماء لم يحصرها الكتاب العزيز في علماء الحلال والحرام بل اتسع معناها حتى صارت تشمل علم طبقات الأرض وعلم الزراعة وعلم الأجناس وكل ما له صلة بحياة الناس وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ وقبلها الزرع المختلف ألوانه ومن الجبال جدد بيض ... ومن الناس والدواب وراجع وتدبر وارجع إلى مجالس الذكر التي منها مجالس العلم .

قوله عليه السلام : « فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذكر قعدوا معهم ، وَحَفَّ بعضهم بعضًا بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا » هذه الفاء التي في رأس هذه الجملة ترتب ما بعدها على ما قبلها وهي فاصلة بين حالتين حالة البحث وابتغاء مجالس الذكر وحالة وجود ما بَحَثُوا عنه ثم مزاولة ما كلفوا به ، وبصورة أخرى ما قبل الفاء كان بحثًا عن مواطن الطهر

والبر والذكر وصفاء النفوس ونقائها واقترابها من ربها وترابطها وتآلفها وما بعد هذه الفاء هو التقاءُ الملائكة الأطهار بالذاكرين والأبرار وحفاوة الأطهار بالأبرار والقعود في معيتهم وتظليلهم بالأجنحة التي يضم بعضها إلى بعض ويعلو بعضها بعضًا حتى تملأ ما بين مجلس أهل الصدق وأهل البر وأهل الإخلاص وما بين سماء الدنيا وعليك أن تتأمل ما وراء ذلك من إكرام ربنا لأهل الخير والبر والصلاح في هذه الأرض ولابد أن تتذكر أن مجالس العلم التي تحقق الخير لهذه الأمة في معاشها وتزيح الشوك عن طريق تقدمها وطريق امتلاكها للعلم الذي تدفع به عنها شرور الفقر والمرض والجهل والعجز داخلة في مجالس الذكر إذا انعقدت قلوب أصحاب هذه العلوم على خدمة الأمة وتحقيق خيريّتها في الأرض وتحقيق علوها حتى لا تَحْزَنَ أعني لا يُحْزِنُها الفقر والتخلف والمرض والعجز ولا أشك أن تخلف المسلمين من أكبر الكبائر التي تحمل أثقالها قياداتها الذين يسمون أنفسهم أولي الأمر وراجع كلمة « فيه ذكر » حتى لا تعترض على شيء قلته حين قلت إن مجالس علماء علوم الصنائع تدخل ما دام فيها ذكر ، لأن كلمة فيها ذكر لا تعني أنها كلها ذكر حتى أنه ليس فيها إلا الذكر ، وهذا من باب التوسعة ، وكنا نجتمع مع شيوخ صالحين في مجالسنا العلمية فيفتحون المجلس بالذكر ثم نتكلم في الذي هو من شأننا ثم يختمون المجلس بالذكر وبهذا صار مجلسنا فيه ذكر ، وكانوا يحرصون أيضًا على أن يتخلّل الذكر كل ما يزاول وإذا وجد الذكر بين شواغل أخرى غلب عليها وكسبها مَنْقبة ، وأعلى من شأنها وشبَّ من نارها مع أن الشواغل ذاتها وهي في صلب خدمة العلم وطلابه هي ذاتها من الصالحات لأنها بحث عن أفضل السبل لتعليم أبناء الأمة .

وكلمة « قعدوا معهم » لا يجوز أن نكتفي بمعناه الظاهر وإنما نحاول أن ننتقل من هذا الظاهر إلى هذه المؤانسة والألفة التي وجدها الملائكة الأطهار حين وجدوا الذاكرين الأبرار وأن الاقتراب من الحق وطلب مرضاته لا يؤلف بين قلوب الصالحين من الناس فحسب وإنما يؤلف بين قلوب الصالحين وقلوب الملائكة الكرام ، وأنك في هذا المجلس تجد مَعِيَّةً من أكرم المعيات ليست بين الناس وإنما معيّة تجمع الأبرار الكرام من الملائكة والناس ، وعجيب جدًّا أن تجد لطاعة الله أثرًا لا نظير له في ترابط قلوب أهل الحق من الناس والملائكة حتى أن من الملائكة من إذا أوجد مجلس ذكر قعد في معيته ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾ ثم علينا أن ننظر إلى أصحاب هذا المجلس وهم جلوس والملائكة معهم قعود ثم لم تكتف الملائكة بهذا وإنما تحفهم بأجنحتها.

قوله عليه السلام « وحَفَّ بعضُهم بَعْضًا بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا » وقد عقب النووي بقوله « هكذا هو في كثير من نسخ بلادنا « حفّ » بالفاء وفي بعضها « حَضّ » بالضاد المعجمة أي حثَّ على الحضور والاستماع وحكى القاضي عن بعض رواتهم « وحط » بالطاء المهملة واختاره القاضي قال ومعناه أشار بعضهم على بعض بالنزول ويؤيد هذه الرواية قوله بعده في البخاري « هَلُمُّوا إلى حاجتكم » ويؤيد الرواية الأولى وهي « حف » قوله في البخاري يحفونهم بأجنحتهم ويُحدِّقون بهم ويستديرون حولهم ويحوف بعضهم بعضًا » انتهى كلام النووي .

وهذه معاجلة بالكرامة قبل أن يُثيبهم الله يوم القيامة ومن الواجب أن

تكون صورتهم واضحة في نفوسنا وهم مجالس الذكر والعلم والتسبيح والتحميد وهم أيضًا مجالس البحث في شؤوننا التي تحقق الخير للجماعة والتي فيها ذكر وفيها حديث عن مصالح تحقق الخير للناس وتيسر لهم سبل العيش الحلال وسبل الرفاهية وسبل التقدم والتفوق والقدرة على حماية الأرض والعرض وكل ذلك من الذكر وإزاحة العجز عن الأمة من الذكر وإزاحة المرض عن الأمة من القربات وإزاحة الفقر من القربات ، وإزاحة تسلط أعداء الأمة عليها من القربات وإماطة النظام الجاهل الذي يجهل كيف تنهض الأمم وكيف ينهض العلم وكيف تنهض مراكز الأبحاث لأنه لم يغمس يده في شيء من ذلك يومًا ما أقول إماطة هذا الأذى عن الأمة من الذكر كل ذلك قياس على إماطة الأذى عن الطريق ولا ينازع في ذلك من له عقل . ويجب على الدعاة والخطباء أن يشيعوا هذا حتى يكون من الثقافة العامة بدل الثقافة الناقصة التي تعتقد أن علم الآخرة هو الفقه وما يتعلق به وأن علوم الصنائع خارج من دائرة العمل الصالح وأنه لا شأن لإصلاح الدنيا بإصلاح الآخرة وأن دنيانا غير آخرتنا كل ذلك باطل والحق أن دنيانا هي التي نُعِدُّ فيها رواحلنا إلى آخرتنا وأن الشعوب التي تقبل أن تعيش في قَهْرِ وظُلم وتَرَضى بذلك وتؤجل حقَّها إلى الآخرة وتكْسَل في الدنيا وتَعْجَز هي شعوب خَسِرَتْ الدارين لأن الجنة للصالحين المصلحين وعمل الصالحات هو العمل الذي تصلح به الحياة الدنيا ، وهو ذاته مفتاح الجنة مع الصدق والإخلاص والتوجه الكامل لله رب العالمين والاحتساب الكامل لكل ما نعمله لصالح دنيانا وديننا وأجيالنا نحتسب ذلك عند الله وندخره ليوم يقوم الناس لرب العالمين .

قوله عليه السلام «فإذا تَفرقوا عَرَجُوا وصَعِدُوا إلى السماء» يمكن أن تقول إن الذين تفرقوا هم الملائكة ، وأن المعنى فإذا تفرق الملائكة عَرَجوا وصَعِدوا إلى السماء وهذا متضّمن معنى آخر وهو انفضاض مجلس الذكر لأن الذاكرين ما داموا في مجلسهم فالملائكة قعود معهم ، وبذلك يكون تفرق الملائكة كناية عن تفرق أهل المجلس ، ويكون في الكلام دلالة على أن الملائكة عليهم السلام يَنْفَضُّون عن أهل المجلس متفرقين ويعرجون ويَصْعَدون متفرقين ثم يجتمعون عند سؤال ربهم لهم وفيه أيضًا إشارة إلى أنهم حين هبطوا على أهل المجلس لم يكونوا مجتمعين وإنما نادى بعضهم بعضًا هلموا إلى حاجتكم ، كما في البخاري وأن هذه الملائكة السيَّارة مُنْتَشِرون أفرادًا يبحثون عن مجالس الذكر ، فإذا رآها واحد منهم تنادَوْا وقعدوا وحطوا وحَفُّوا .

ولك أن تقول إن الذين تفرقوا هم أهل المجلس وأن الملائكة عليهم صلوات الله وسلامه باقون معهم حتى إذا ما تفرقوا عَرَجُوا وصَعِدُوا وحينئذ لا يكون في الكلام دلالة على أنهم عرجوا وصعِدُوا فرادى أو مجتمعين وأن هذا لا يتعلق به غرض الكلام كما أن تفردهم أو اجتماعهم حال نزولهم على أهل المجلس لا يتعلق به غرض الكلام وإنما الغرض أنهم ينزلون ويقعدون معهم ويحفُّونهم بأجنحتهم وأنهم يملؤون ما بين السماء والأرض ثم يعرجون والحق جل وتقدس يسألهم ويجيبون .

وقوله عليه السلام «عرجوا وصَعِدوا إلى السماء» وقفت عند كلمتي عرجوا وصعِدوا لأن العروج صعود وهو شأن الملائكة ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ فما وجه التكرار ؟ ولم أجد لذلك وجهًا إلا أن يكون المقصود تأكيد هذا المعنى ومدَّ الكلام عنده ومَطْلَهُ لأنه قلب الحديث ، وأن

نبأ هؤلاء الذاكرين تصعد به ملائكة أولو أجنحة مثنى وثلاث وأنهم يكثرون ويملؤون ما بين السماء والأرض كل هذا لأن قومًا اجتمعوا وذكروا آلاء الله ، ودلائل قدرته وذكروا الحكمة والعَدْل والنعمة والبِرّ وذكروا شؤونهم ذكر مصحوبًا بذكر الله فعصمهم ذكر الله من البغي والكذب والنفاق والتآمر والطمع والغش ، والصعود هنا ممسك بأطراف الحديث لأنهم صعدوا وهم يحملون رسالة هؤلاء إلى ربهم .

قوله عليه السلام «فيسألهم الله عز وجل ، وهو أعلم بهم» جملة وهو أعلم بهم من المعلوم من الدين بالضرورة وكل أهل الإسلام يعلمون أنه سبحانه لا يعزُبُ عنه بشيء في الأرض ولا في السماء وأنه سبحانه إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأتي بها الله . فما وجه قوله عليه السلام (وهو أعلم بهم)؟ وقبل ذلك لماذا يسألهم ربهم عن شيء هو أعلم به ، والله سبحانه وتعالى يعلم صدق الصادق ، ودرجة صدقه ودرجة إخلاصه علما هو أفضل من علم الذاكر نفسه بنفسه ؟ والذي أعرفه في هذا أن قوله عليه السلام « وهو أعلم بهم » يلفتنا إلى سر سؤال العليم عن الذي هو به أعلم ، وأن المراد والله أعلم الدلالة على مزيد من الكرامة والتكريم لأصحاب مجلس فيه ذكر وأن الله سبحانه يسأل والملائكة الطوافون يجيبون ليُعْلَم ذكرهم في الملأ الأعلى وأنهم لما ذكروا الله في ملأ ذكرهم الله في ملأ أحسن منه ، ولابد أن نُراجع حفاوة خالق السموات والأرض وهو غني عن العالمين بالذكر والذاكرين وأن هذا الذكر هو العاصم من كل رذيلة ومن كل شر ما ظهر منه وما بطن وهو الدافع الحثيث لكل خير وكل بر وكل أمانة وكل صِدْق ، ولو تصوّرْتَ مجتمعًا يجري فيه الذكر بكل توابعه من خير وصدق وإتقان وبر كيف يكون هذا

المجتمع ؟ وكيف يكون نموُّه وكيف تكون الحياة فيه وكيف تكون الحياة آمنة ونظيفة وبعيدة عن الغش والسلب والنهب والقمع والظلم ، وهذا كله استمداد من قوله تعالى ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ والقلوب إذا اطمأنت أنتجت وأبدعت والشعوب إذا اطمأنت تقدمت وازدهرت وانتصرت .

وقول الملائكة «جئنا من عند عباد لك في الأرض» لو قالوا من عند عباد لك في الأرض وحذفوا كلمة جئنا لدلالة السؤال عليها لاستقام الكلام . ولكنهم جاءوا بها اغتباطًا بأن تكرر ألسنتهم كلمة حديثة العهد بربهم واغتباطًا بإطالة الكلام حيث الإصغاء مطلوب كما قال الكملة رضوان الله عليهم . ثم إنهم نكروا كلمة «عباد» وكأنهم أرادوا بهذا التنكير تعظيم هؤلاء العباد وأنهم عباد أي عباد ، والفرق بين العبد الذاكر والعبد غير الذاكر كالفرق الذي بين السماء والأرض ، والذاكرون هم الذين سبقوا كما قال ﷺ «سبق المفرِّدون قالوا وما المفردون يا رسول الله قال الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات» ثم إنهم آثروا كلمة عباد على كلمة رجال مثلاً ، أو جماعة أو أهل مجلس ، لأن كلمة عباد تفتح لهم باب الرضا والعبودية لله رب العالمين . وتُسْتَنْزَل لهم وبهم الرحمة ﴿ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ وقد استسقى عبد المطلب بن هاشم برسول الله ﷺ وهو غلام وقال عَبِدَّاؤك وأبناء عَبِدَّائك». كلمة (عباد لك) تعني أنهم عطية من عطاياك وأنت الخالق والرازق والراعي والكالئ . ووصف العباد بالجار والمجرور يعني هم عباد لك لا شريك لك لأن الشريك لك محال والمزاحم لك محال وحين ننفي الشريك لا ننفي شيئًا يتوهم وإنما المقصود أنه من المحال لأن الشريك لا يكون شريكًا إلا إذا كان مثل شريكه ، والمثل لك محال ، لأنه ليس كمثلك شيء ، ثم إن كلمة (عباد) تطوي تحتها شيئًا آخر وأنهم على عهدك

ووعدك ما استطاعوا فقد خلقتهم ليعبدوك وها هم يعبدونك ويذكرونك ويسبحونك ، وجعلت عبادتهم لك في أصل فطرتهم وظلوا هم على أصل هذه الفطرة يدفعون عنها ما يمكن أن يتراكم عليها ويغيرها بذكرك. يحاولون أن يَخْلُصُوا منيبين إليك بفطرتهم ويجتهدون في أن لا تُخْتَطَفَ منهم هذه الفطرة ، وأن تختطفها خواطف الصراع المادي الذي يعيشون فيه .

وكلمة «في الأرض» تميز عبادك وأنهم في الأرض لأن لله عبادًا في السماء ولا بد من ملاحظة أن الملائكة حين يقولون في الأرض في سياق ذكر عباد الله إنما يفتحون بابًا من أبواب معاني الكلمة وهو أنهم ذكروك في عالمهم الأرضى وها نحن نذكرهم في العالم العلوي وأنهم بالذكر والطهر والصفاء غالبوا عنصر الطين الذي هم منه وتغلبوا على الغرائز والأهواء والنزوات والشهوات التي ولّدها هذا العنصر الترابي فيهم والذي له وبسببه كان أكثر أهل الأرض غير مؤمنين لأن الأهواء والشهوات التي هي بنات العنصر الترابي تقذف بهم دائمًا إلى غير الصراط المستقيم ، وقليل من عِبِدَّائك في الأرض مهتدون ، بخلاف أهل السماء فإنهم جميعًا لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

قولهم صلوات الله عليهم «جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك» هذه الجمل الخمس المتتابعة كلها أحوال ، والفعل المضارع دال على أنهم يجددون ذلك شيئًا بعد شيء ووجه ترتيب هذه الأفعال . أقوله على سبيل الاجتهاد وهو أن التسبيح الذي هو التنزيه عن كل نقص والوصف بكل كمال هو أول ما يذكر به المعبود بحق لأنه لو لم يكن كذلك ما صح أن يُعْبَدَ وأول خطوة في المعبود بالحق أن يكون مُنَزَّهًا عن مشابهة الحوادث وأن يكون ليس كمثله شيء ، وأن

يدرك المؤمن ذلك بفهم يقظ وأن يكون واضحًا عنده وأن يكون علمه به كعلمه بالضروريات وهذا اعتقاد كل أمم الأنبياء لأن التوحيد لا يكون إلا بهذا فالتسبيح هو رأس ذكر المعبود بحق ، ونحن في التسبيح نقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، والتحميد الذي نقدمه في الصيغة الجارية على ألسنتنا ونجعله بعد التسبيح جاء مؤخرًا في كلام الملائكة وسبقه التهليل والتكبير ، وهذا الاختلاف في الترتيب مُوَسَّعٌ فيه إلا التسبيح فإنه أصل لها والأصل فيه أن يقدم والروابط التي بين هذه المعاني روابط شديدة القوة . وعلى أي وجه ذكرتها رأيتها تتماسك فلو وصفت التحميد بعد التسبيح لاستقام ولو وصفت التكبير بعد التسبيح لاستقام وهكذا .

وتستطيع أن تتبين كيف يُفضي بعضها إلى بعض في مجلس الذكر على الوجه الذي جاءت عليه ، وحدّثت عنه الملائكة وكيف يُفْضي بعضها إلى بعض في الصيغة التي هي من غراس الجنة ، والتي تقولها في ذكرك وحدك وفي طريقك وفي فراشك وفي أي حالة تكون .

أما كيف يفضي بعضها إلى بعض في مجلس الذكر فالذي لا يَخْفَى هو أن الذاكرين إذا عظم في قلوبهم معنى السبحان بوجهيه الذي هو الوصف بكل كمال والتنزيه من كل نقص كبروا لأن توهج هذين الوجهين ينطق اللسان بالتكبير ، وإذا استشعروا معنى أنه سبحانه هو الأكبر أو أن الله أكبر أعني الموصوف بكل كمال والمنزه عن كل نقص هو وحده في هذا الوجود الأكبر قادهم ذلك لا محالة إلى التهليل وهو لا إله إلا الله، وإذا وجد الذاكرون ذلك فقد صاروا إلى سدرة المنتهى لأن التهليل إذا ملأ القلب وطوّع النفس على وفق مقاماته قاد لا محالة إلى سدرة المنتهى عندها جنة المأوى ومن وصل إليها فلم يبق له إلا الحمد ، ومن حمد فقد حط رحله وله أن يسأل .

أما وجه تَرتيبها في صيغة غراس الجنة فإن الذاكر وحده إذا اجتهد ووجد السبحان بوجهيه قائمًا في قلبه فعليه أن يسارع إلى الحمد ولاحظ تكرار لفظ الجلالة بجلاله وكماله في صيغة التسبيح التي هي من غراس الجنة أولها سبحان الله فإذا استقامت اقتضت حمد الله فإذا وُجِدَ هذان استشرف العبد إلى العروة الوثقى وهي كلمة التوحيد فإذا وصل العبد إلى هذه الذروة ، كبر كتكبير الذي أكمل عدة الصوم لأنه ظفر بالخير كله . ثم إن الذكر يجب أن يعطى حقه من تفريغ البال وجلال الاستحضار والانتقال في الأحوال من التسبيح إلى التكبير أو من التسبيح إلى التحميد وكل ذلك لا ينال إلا بالصبر والاصطبار «فاصطبر عليها» ولو كانت العبادات بالأقوال والأشداق لما كانت في حاجة إلى الصبر فضلاً عن الاصطبار .

قوله سبحانه «وماذا يسألوني» هذه الجملة هي بداية الغرض الذي انعقد عليه الحديث وقد تجاوز الحق الجمل الأربع التي قبل يسألونك ، من التسبيح والتكبير والتهليل والحمد ، ولم يقل مثلاً سبَّحني عبادي ولا حَمَدني عبادي وإنما قال وماذا يسألوني ، فأشار بهذا إلى قبوله ذكرهم مع أن سؤال الله مِنْ ذِكْرِه ومِنْ عِبَادته ، وهذا يعني أن سائل الله إذا أعطى مسألته فقد أُعْطي ما يريد وإذا لم يُعْطَ مسألته أعطى ثواب السؤال نفسه لأن سؤاله كتسبيحه وتكبيره وتهليله وحمده ، ثم إن قوله تعالى وماذا يسألوني ؟ فيه دلالة على أنهم صاروا من الذين إذا سألوا أُعْطُوا وإذا دَعَوْا أُجيبُوا وإذا أقسموا على الله أبرهم .

قولهم «قالوا يسألونك : جنتك قال وهل رأوا جنتي؟ قالوا : لا أي ربِّ قال فكيف لو رأوا جنتي» .

قولهم : يسألونك جنتك فيه أمران الأول : تكرار الفعل الوارد في السؤال وهو كلمة يسألونك على طريقة ما مضى من قولهم جئنا من عند عباد لك في جواب قوله تعالى «من أين جئتم» وهو إطالة الكلام والغبطة بالخطاب وتكرار الكلمة التي هي حديثة عهد بربهم ، والأمر الثاني إضافة الجنة إلى ضمير المخاطب جل وتقدس ، وكان يمكن أن يقال يسألون الجنة ومعلوم أنها جنته . وإنما أرادوا بذلك تعظيم سؤالهم بإضافة الجنة التي يسألونها إليه سبحانه وأنهم يطمعون في الذي عندك ، وأنهم يسألونها وهم يعلمون قدرها وقوله سبحانه وهل رأوها ؟ تعظيم لشأن الجنة التي عرفوا خَبَرَها ولم يروها وإن كانوا قرؤوا أوصافها في الكتاب العزيز وهي أوصاف تكشفها وكأن قارئ الكتاب العزيز يراها ولكن هناك فرق بين أن تقرأ عن الشيء وكأنك تراه وأن يراه ، فرق بين من كأنه رأى ومن رأى . وهذا التفخيم من شأن الجنة يعني أنه سبحانه وتعالى يعطيهم الجنة التي لو رأوها لرأَوْا شيئًا آخر غير الذي سألوه ، ولو رأوها لألحوا في مسألتها أكثر والعجيب أن إلحاح العبد في سؤاله لربه يَغْسِلُ نفسه من الخطايا ، ويقربه إلى الله ويقترب الله منه أكثر ، مع أن الله سبحانه ذم الإلحاح في سؤال الناس ، وأثنى على الذين لا يسألون الناس إلحافًا وقوله سبحانه هنا فكيف لو رأوها معناه لسألوا وسألوا وسيعطيهم ربنا هذه الجنة التي لم يروها وهي أكبر مما طلبوا يعني سيعطيهم أزْيد من سؤالهم ، ويلاحظ أن تعظيم شأن الجنة ليس فقط في قوله تعالى فكيف لو رأوا جَنَّتِي ، وإنما أيضًا في وضع الظاهر موضع الضمير مرتين مرة في قوله تعالى وهل رأوا جَنَّتي،وكان المقام أن يقال وهل رأوها. والثاني في قوله تعالى «فكيف لو رأوا جنتي» ؟ والمقام أن يقال فكيف لو رأوها ، وإنما ذكر الجنة في الموضعين عدولاً بوضع المظهر موضع المضمر تعظيمًا لشأن المظهر وإعلاء له كما في قوله تعالى ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ

﴿ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ ﴾ وذلك تمهيداً لعظيم الإكرام وأنه سبحانه سيعطيهم شيئًا عظيمًا جليلاً لم يطلبوه لأنهم لم يروه وإنما طلبوا ما عرفوا من غير رؤية ، ويابعد ما بين الجنة التي لها صورة في نفوسنا والجنة التي يمكن أن تراها عيوننا وهذا يذكر بقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي مضى « عُرِضَت عليَّ الجنة والنار فلم أر كاليوم في الخير والشر ».

« قالوا ويستجيرونك . قال وممن يستجيرونني ؟ قالوا من نارك يا رب قال وهل رأوا ناري قالوا لا قال فكيف لو رأوا ناري » .

الاستجارة طلب الأمان ، ومنه الجار المجير والجار المستجير ، والله سبحانه وتعالى يُجير ولا يجار عليه لأنه سبحانه وتعالى لا يُمْنَع من شيء أراده والمجير يَمْنَع جاره مما يمنع منه نفسه وماله وأهله . والملائكة المكرمون قالوا يستجيرونك كما قالوا هناك يسألونك ولم يبينوا ما يستجيرون منه كما لم يبينوا ما سألوه ، وكما سألهم ربنا هناك عن الذي يسألون وسألهم هنا عن الذي يستجيرون منه ، وكان يمكن للملائكة أن يقولوا ابتداء يسألونك جنتك ويستجيرونك من نارك ، ولكنهم قالوا الذي قالوه للإشارة إلى أن سائلك لا يسألك شيئًا هو أعلى وأغلى وأرفع من جنتك وأن مستجيرك لا يستجيرك من شيء أهول ولا أفجع من نارك ، وأن ملكك لا حد له وإنما عبادك الذين في الأرض لا يطمعون في شيء كما يطمعون في جنتك ولا يرهبون شيئًا كما يرهبون نارك وهم بين الرغبة في الأولى والرهبة من الثانية ما بقُوا أحياء فوق الأرض ، والحق سبحانه حين يقول وماذا يسألوني أو مم يستجيرونني يمهِّد لقوله بعدها وهل رأوها ، لأن جملة وهل رأوها من الغرض المسوق له الكلام بمقام لا يُجْهَلُ وقوله هنا عن النار وهل رأوها هو تهويل لهذه النار وتعظيم لها وفيه وضع الظاهر

موضع المضمر في قوله تعالى ـ وهل رأوا ناري وقوله فكيف لو رأوا ناري وهذا تهيئة لأنه سيجيرهم من هول أفظع من الهول الذي استجاروا منه ، وفي طيّ هذا الكلام أنهم لو رأوا الجنة لألحوا أكثر في طلبها ولو رأوا النار لألحوا أكثر في رجاء الإجارة منها ، والإلحاح والإلحاف في الدعاء قُرْبٌ واقتراب كما قلت آنفًا وأزيد هنا شيئًا هو أن الدعاء كان مُخّ العبادة لأنه تَضَرُّع مخلوق بين يدي خالقه وخالقه هذا لم يخلقه لشيء إلا ليعبده وهذا هو وجه أن التضرع مخ العبادة ، الضراعة بين يدي الله تعُود بك إلى أصل العبودية التي لا حول لها ولا قوة إلا بحول باريها وقوته ، ولذلك لا يُغْسَل القلب من الغفلة ولا تُغْسَل النفس من النَّزْوة كما يُغْسلها بالضراعة بين يدي الله ، ولا تجد لعبادة مذاقًا كما تجد للدعاء وأكرر لأنه يعود بك إلى فطرتك الأولى يعني طفولتك المبرّأة يوم ولدت وليس فيك إلا الفطرة ، وتعجب من دلال الله وتدليل الله لأهل الفطرة ، وأنهم إذا ازْدَلَفوا إليه ازدلف هو إليهم ليس شبرًا بشبر ولا ذراعًا بذراع ، وإنما الشبر منهم بذراع منه ، اللهم إنا نستحي من فيض كرمك . فلا تحرمنا من فيض نعمة شكرك .

ولاحظ أن التعظيم في قوله تعالى فكيف لو رأوا جنتي والتهويل في قوله فكيف لو رأوا ناري ليس المراد به الذاكرين وحدهم وإن كان الضمير في قوله تعالى « رأوا » نصًا فيهم وإنما المراد به الناس جميعًا المخاطبين بنبوة محمد ﷺ من آمن ومن لم يؤمن .

وأنكم أيها الجاحدون للحق تَرَوْن أهوال النار في بلاغ رسولي إليكم واعلموا أنكم لو رأتها عيونكم لرأيتم هولا فوق كل هول وكذلك يقول لأهل الإيمان جميعًا إنكم ترون النعيم المقيم في الجنات والعيون التي بلّغها عني إليكم رسولي إليكم فكيف لو رأتها عيونكم ؟

ويلاحظ أن خطاب الحق للملائكة في شأن الذاكرين ليس فيه إلى الآن موعدة بعطاء وإنما هو معقود على بيان أن ما عرفوه وطمعوا فيه إنما عرفوا عنه شيئًا وغابت عنهم منه أشياء وأن ما عرفوه واستجاروا منه إنما عرفوا عنه شيئًا وغابت عنهم منه أشياء . وجاءت الموعدة بل العطاء الوفر بعد قولهم «ويستغفرونك» ولم يقل الحق ومِمَّ يستغفرونني كما قال في يسألونك ويستجيرونك أولا لأن هذا السؤال كشف لستره عن عباده وهو سبحانه ستار ثم إنه لا معنى له لأنه لن يغفر ذنوبًا دون ذنوب وإنما سيغفر الذنوب جميعًا كبيرة كانت أو صغيرة بتوبة كانت أو بدون توبة ولذلك كان قوله بعد قولهم ويستغفرونك قد غفرت لهم وأكد الكلام بحرف التحقيق ويوضع الماضي موضع المضارع لأنه غفر بعد ما استغفروا ثم إنه أخبر عن هذا بالماضي لأن ما هو للوقوع كالواقع ومثل هذا في وضع الماضي موضع المضارع قوله سبحانه فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا كل ذلك لتأكيد الوقوع وتحقيقه لأنه وعد الذي لا يخلف وعده كقوله تعالى ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾ ثم إن الفاء التي في قوله فأعطيتهم رتبت العطاء على المغفرة ، وفيها شوب من السببية لأن المغفرة سبب العطاء ، والواو التي في قوله وأجرتهم مما استجاروا تعطف أجرتهم على أعطيتهم وتدخلها معها في حيز الفاء فترتب الإجارة على المغفرة ، وتمنحها شوبًا من السببية ثم إن هذه الجملة «قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا» هي التي تحقق فيها معنى الإكرام والعطاء والرضا والكرامة وكل الذي قبلها مُهَيِّئٌ لها كما قلت ويلاحظ فيها شيء هو أن آخر الكلام (ويستغفرونك) وأن أول العطاء رجع إلى أول قوله تعالى وماذا يسألونني ؟ ثم ومِمَّ يستجيرونني ؟ وهذا يعني أن يكون ترتيب الجمل التي فيها مطلب للذاكرين بعد تسبيحهم

وتكبيرهم وتهليلهم وتحميدهم هو الاستغفار . لأن مغفرة الذنوب هي الأساس الذي يبنى عليه طلب الجنة والنجاة من النار ثم يلي الاستغفار الاستجارة من النار يعني أن يكون الكلام (ويحمدونك ويستغفرونك ويستجيرونك ويسألونك) لأن طلب الحاجة يكون بعد تهيئة النفس للرجاء من ربها وهذه التهيئة تكون بالتسبيح والتكبير والتهليل والحمد ، وأول ما يطلب هو الطهارة من الذنوب بالاستغفار ثم الزحزحة عن النار ثم الفوز بالجنة ، والذي جاء في الحديث خالف ذلك وإن كانت الجملة الصادرة عن الحق أشارت إلى إعادة شَيْءٍ من الترتيب فبدأتُ بالمغفرة ولم تُثَنِّ بالنجاة من النار وإنما قدمت الفوز بالجنة وكل هذا راجع إلى شيء واحد وهو أن سياق الحديث سياق مزيد من الإكرام والتكريم والرضا والقرب من المجالس التي يذكر فيها الله فاقتضى ذلك سؤال الجنة قبل الاستغفار والنجاة من النار قبل الاستغفار ، هذا شيء وشيء آخر وهو أن الحق جل وتقدس ، استمع إلى قول الملائكة يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ، ولم يعقب وإنما عقب لما أخبرت الملائكة الأطهار عن حاجاتهم التي بدأتها من آخرها وهي يسألونك ثم من وسطها وهو يستجيرونك ثم أنهتها بأولها وهو يستغفرونك ، وكان تعقيب الحق على مطالبهم إيذانًا بإجابتها ثم إنه سبحانه لم يَعِدهم بالاستجابة عند السؤال ولا بالإجارة عند الاستجارة وإنما عظم ما سيعطيه وهول ما سُيجيرُ منه ، ثم أسس كل ذلك على يستغفرونك ليعلمنا أن الاستغفار عنده سبحانه بمكان وأننا لو لم تكن لنا ذنوب نستغفر منها فيغفرها سبحانه لجاء بخلق آخرين يُذْنبون ويستغفرون فيغفر لهم وإن كان أهل الذكر طمعوا وزاد طمعهم فسألوا الجنة قبل أن يستغفروا وسألوا الجنة قبل أن يستجيروا من النار ثم استجاروا أيضًا قبل أن يستغفروا وبعدما

سألوا الذي رغبوا فيه واستجاروا من الذي خافوه استغفروا ؛ وهذا يعني أنهم أصبح لهم فرط دالَّة على الله .

ولو علم علماؤنا الذين هم علماء علوم الصنائع الذين تُزيح علومهم أغصان الشوك في طريق تقدم الأمة وطريق حياة أفضل هي بها أحق أن الذي هم فيه ليس أقل من الذي فيه أصحاب مجالس التسبيح والتكبير والتهليل وغيروا مذاق مجالسهم ببث الذكر في ثناياه لتغيرت أمور كثيرة .

قوله عليه السلام « فيقولون ربِّ فيهم فلان . عبد خطاء إنما مرَّ فجلس معهم » وهذه العبارة فيها إشارات أولها النداء الذي في قولهم رب ، والذي حذف حرفه للإشارة إلى المسارعة ببيان ما بعده ثم إن النداء يدل على عنايتهم الشديدة بالذي نادوا ربهم إليه وهم يعلمون أنه أعلم وأنهم لا علم لهم إلا الذي علمهم الله سبحانه ﴿ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ وقولهم « فيهم فلان » من العلم الذي علمهم الله لأنهم ما كان لهم أن يعرفوا فلانًا هذا إلا بعلم الله لهم وقولهم « عبد خطاء » فيه دلالة على أنه كثير الخطايا لأن صيغة المبالغة تدل على أن الخطايا من شأنه كما تقول فلان كذاب يعني أن الكذب من شأنه ثم إن كلمة « خطاء » تعني أن خطاياه كبيرة لأنها لو كانت صغيرة لغفرت باجتناب الكبائر ، وفيه أنه لم يتب منها لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له فهو من أصحاب الكبائر وليس من الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، وراجع هذه الآية الكريمة وتأمل سعة الرحمة فيها وقد وصفت ذنوبهم بفعل الفاحشة وظلم النفس ، والفاحشة جاءت في الكتاب العزيز وصفًا لأقبح القبائح ومثلها ظلم النفس وأن هذه القبائح يغفرها ربنا للذين ذكروه واستغفروه ، وليس بعد هذا تسامح وليس هناك باب أوسع للرحمة من أن يكون ذكر الله مَحَّاءً للفواحش

ما ظهر منها وما بطن وهذا عَدل قوله تعالى « ومن لقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئًا لقيته بمثلها مغفرة» ولا يهلك على الله إلا هالك ، قلت : إن هذه الجملة فيها إشارات ومن إشاراتها قولهم « إنما مرَّ فجلس معهم» يعني لا يزال غافلاً ولا يزال في غيه وأنه لم يجلس معهم ليشارك في ذكرهم وأنه لم يتذكر خطاياه وإنما اتفق أنه مرّ فجلس معهم ، وكلمة إنما هنا تدل على معنى جيد وهو أنه لم يجلس معهم لشيء قط إلا لشيء واحد وهو أنه مر فجلس معهم ، يعني فليس لجلوسه علة إلا أنه مرّ فلم يجلس لشيء في هذا المجلس دعاه إلى أن يجلس والفاء في قولهم (فجلس معهم) ترتب الجلوس على المرور وأن الجلوس لم يكن له سبب إلا المرور وكل هذا تأكيد لمعنى وهو أنه لم يُشغل قلبه بشيء مما هم فيه وكل هذا التدقيق في عبارة الملائكة لبيان معنى وهو أنه مهما كان منه فإن جلوسه معهم هذا الجلوس الذي جاء عفوًا يغفر الله له ما دام في هذه المعيَّة لأنَّهم قوم لا يشقى بهم جليسُهم ، ولذلك جاء قول الله لملائكته « وله غفرت » فأكد المغفرة بتقديم الجار والمجرور الذي لا يفيد القصر وإنما يفيد التوكيد وأكد المغفرة أيضًا بوضع المَاضِي مَوْضِع المضارع وكأن الحق سبحانه سارع فغفر لهم فور استغفارهم وغفر لجليسهم معهم ، وقد ذكرت أن قوله تعالى « قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا وله غفرت» كل ذلك من وضع الماضي موضع المضارع إذا كان ذلك قد كان بعد قول الملائكة ويستغفرونك ، ويمكن أن يكون من وضع الماضي موضعه إذا كان ذلك قد كان يعلم الله وقبل أن يقول الملائكة ويستغفرونك ، وإذا قلنا إن الواو التي في قوله جل شأنه « وله غفرت » واو عطف عطفت وله غفرت على قوله « غفرت لهم » يكون قوله وله غفرت قد دخل في حيز كلمة التحقيق (قد)

وبذلك تكون مغفرته سبحانه لهذا الرجل الخطاء قد أكدت بمؤكدات منها حرف التحقيق ومنها تقديم الخبر ومنها العبارة عن المضارع بالماضي لتحقق وقوعه ، هذا والله أعلم . ثم إن العطف على قوله « غفرت لهم » يعطي هذا الخطاء ما ترتب على مغفرة الله لهم وهو فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما « استجاروا » وأن الله غفر للخطاء الذي لم يستغفر وأعطاه ما لم يسأل وأجاره مما لم يستجر منه وكل هذا إكرام من الله ليس لهذا الخطاء وإنما للذاكرين ولهذا جاء الاستئناف المؤسس على قطع الكلام السابق والذي فيه معنى من أكرم المعاني وهو قوله تعالى « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » .

والاستئناف طريق من طرق الإبانة في هذه اللغة الشريفة العالية والمعاني التي يشير إليها معان خفيَّةٍ جدًّا وإشارات الاستئناف إلى هذه الخافيات ليست بالكلمات وإنما بطريق بناء الكلام وليس الدال ألفاظًا محذوفة يقال فيها إذا أصابت مواقعها تراك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتمّ ما تكون بيانًا إذا لم تبن وهذا من الكلام النفيس ولك أن تقول إن دلالات القطع والاستئناف معبرة عن شيء جرى في نفس القائل فطواه ولم ينطق به وجَعَل القطع والاستئناف دالاً عليه ، وأنا أتكلم عن العربية المعبرة عن أحوال النفوس أما المعبرة عن المعاني الإلهية فإني فيها أقيس كلام الله على كلام الناس لأن الله خاطبنا باللسان الذي يتخاطبون به أعني تتخاطب به هذه العرب من بين خلقه جميعا لما أنزل كتابه بلسانها وإنه لذكر لك ولقومك .

قلت هذا لأقول : إن قوله تعالى « وله غفرت » هي أكثر العبارات إثارة في هذا الجزء لأن الله سبحانه قالها لملائكته لما قالوا فيهم فلان عبد خطاء إنما مرّ فجلس معهم ، ولو تدبرت جيدًا أدركت مدى ما فيها من إثارة لأن

الله يؤكد مغفرته لرجل خطاء لم يسبح ولم يذكر ولم يجلس معهم لأنهم يذكرون وإنما اتفق أنه مرّ فجلس ، وهذا هو موضع القطع لأن القطع فيما درست يكون دائمًا عند معنى مثير كذكر الديار والأقوام ويأتي هذا القطع ليستأنف الكلام معنى يزيل قدرًا من هذه الغرابة وهذه الإثارة ، والذي يزيل قدرًا من هذه الغرابة وهذه الإثارة هو جملة «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» وما داموا كذلك فلا عجب من قوله سبحانه قبل هذا القطع وهذا الاستئناف «وله غفرت» وكأن جملة هم القوم تعليل للمعنى الذي قطع الكلام عنده ، ولم أعرف قومًا أكرمهم الله سبحانه بكرامة تفضل هذه الكرامة وهي أنه لا يشقى بهم جليسهم لأن هذه العطية تجاوزت حقائق هي من الثوابت في الدين من مثل ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ وصاحبنا هذا الخطاء المحظوظ أعطى المغفرة والجنة والنجاة من النار من غير أن يسعى أي سعي ، ومن غير أن يشغل لسانه بالذي شغلوا به قلوبهم وألسنتهم وإنما كان جالسًا وكأنه أخرس وهم حوله يسبحون ويكبرون ويهللون إلى آخره ، ثم إن هذا أيضًا تجاوز أصلاً آخر وهو إنما الأعمال بالنيات ، وقد أخذ بلا نية وبلا عمل وهكذا تجد إكرام الله بهذه القاعدة للذاكرين من عبادته تتخطّى أشياء لا نتخطّاها نحن لأنها تخالف ما أُمرنا به والله سبحانه وتعالى يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولا يسأل عما يفعل ، والذي يسأل هو المكلف بشرع ممن هو فوقه وجلّ الله عن ذلك سبحانه وهو سبحانه لا مُسْتَكْرِه له ولا يَتَعاظَمه شيءٌ كما قال رسول الله ﷺ ولذلك نُهينا أن نقول في الدعاء «اللهم اغفر لي إن شئت» قال العلماء سبب النهي أنه لا يتحقق استعمال المشيئة إلا في حق من يتوجه إليه الإكراه والله تعالى مُنزّه عن ذلك .

وهل يصح لنا أن نتدسَّس في هذا الموقف الذي غفر الله فيه لرجل خطاء لم يستغفر وأدخله الجنة ولم يسألها وأجاره من النار من غير أن يستجير هل

لنا أن نقول إن هذا الخطاء مرَّ على مجلس الذكر بتوفيق من الله وهداية منه سبحانه وأن الله سبحانه هو الذي أماله جهة المجلس وأدخله فيه ؟ أو نقول إن هذا الخطاء جلس في مجلس الذكر بدافع حنين فطرة أهل الخطايا إلى الرجوع وحب الذاكرين وأنه من الممكن أن نرى بعض أهل الخطايا مُحِبِّين لأهل الذكر ومقدرين لهم ؟ وهل يمكن أن نقول إنه من الذين عملوا بعمل أهل النار حتى ما كان بينهم وبينها إلا ذراع فسبق عليهم الكتاب ولم يعمل بعمل أهل الجنة ودخلها ؟ وأنه هَفَتْ نفسه إلى عمل أهل الجنة ولم يعمل فوسعته الرحمة ؟ ولا شك في أن هذا الخطاء كان من المؤمنين لأن رحمة الله لا تسع المشركين وأن إيمانه بربه لم تزعزعه خطاياه فكان كالذي يلقى ربه بقراب الأرض خطايا فلقيه ربه بمثلها مغفرة وذكرت ذلك وأنا على يقين بالذي جاء في الحديث وهو أن إكرامه لم يكن لشيء مما قد تتوَّهمه وإنما كان إكرامه لأنه كان جليس الصالحين الذاكرين وكأنه كان مُحصَّنًا ضد الذكر والتسبيح والاستغفار فأكرم لجلوسه لا غير ، وهذا هو الذي يؤكده قوله سبحانه «هم القوم لا يشقي جليسهم» وتعريف الطرفين في هذه الجملة لا يفيد القصر ، ولا يفيد أنهم عرفوا بذلك وشُهِرُوا به كما في قول الخنساء :

إذا قَبُحَ البُكاءُ على قتيل ... رأيتُ بكاءَكَ الحسنَ الجميلا

وإنما يفيد معنى لم أعرف أحدًا استخرجه من الألف واللام قبل عبد القاهر وهو أنك إذا أردت أن تعرف أو ترى القوم الذين يقال فيهم إنهم لا يشقى جليسهم فهم هؤلاء الذين هم أصحاب مجالس الذكر كما تقول هذا هو الرجل وأنت تريد إذا أردت أن ترى الرجولة في وصفها النَّقْيِّ الخالص الكامل فانظر إلى هذا الرجل فإنه هو الصورة المثالية لهذا المعنى ، ومثاله قول البحتري :

هو المرء أبدت له الحادثاتُ ... عَزْمًا وشيكا ورَأْيًا سديدًا

أراد إذا أردت أن ترى القائد الذي لا يَلْقَى الحادثات برباطة جأش فقط وإنما تخرج منه الحادثات العَزْم والحَزْم وسداد الرأي فانظر إليه فإنه هو ذلك الرجل وهذا من أدق المعاني التي تفيدها الألف واللام ومن أخفَاها وأجَلِّها ، وأنا من الذين يُبْهرهم ويروعهم أمران الأول ما في اللغة من دقائق وأسرار خفية يستخرجها منها البيان العالي في الشعر ثم كلام الله وكلام رسوله ، والثاني القدرة المذهلة عند كرام علمائنا الذين فطنوا لهذه الدقائق وهذه الخفايا وأبانوا عنها .

وكلمة «القوم» تشير إلى أن مجالس الذكر تقوى بها الروابط بين الناس وإن كانوا من أجناس مُتباعدة ، ومن أماكن متطارحة لأنها هي الرباط الروحي وهي أقوى من رباط النسب والعرق بدليل أن الحروب الأولى لأصحاب رسول الله ﷺ كان يزود فيها الصحابي الذين بينه وبينهم روابط النسب عن الذين بينهم وبينه رابطة الإيمان ، ثم إننا مع ذكرنا لأن المؤمنين إخوة والمؤمن للمؤمن كالبنيان يجب أن نذكر شيئًا آخر وهو أن أمم الأنبياء جميعًا أمة واحدة كما قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ ، وذلك لأن عقيدة التوحيد وحدَّتهم وعبادة الإله الواحد جعلتهم أمة واحدة وإن تفرقوا في الأرض واختلفت بهم الألسنة والأجناس والألوان ولم تقم الصراعات والحروب بين أهل الأديان إلا لما غيروا ما أنزله الله إليهم فتعبدوا بغير ما أنزله الله على أنبيائهم ، ولم يكفروا بما أنزله الله على غيرهم فحسب وإنما كفروا بما أنزله الله عليهم ، فلم يعد اليهود يهودًا بعد تغيير التوراة وتحريفها وتبديلها ولم يعد النصارى نصارى بعد تغيير الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى وتحريفه وتبديله وقد نُسِخَتْ اليهودية لما نزل

المسيح وطالب الله اليهود بالإيمان بعيسى عليه السلام ومن بقي منهم على يهوديته فهي يهودية كاذبة محرفةً مُزَوّرة وقل مِثْل ذلك في المسيحية بعد بعثة محمد ﷺ ، المهم أنه ليس في روابط البشر أقوى من روابط الذكر ومجالس الذكر وأن القومية المؤسَّسة على ذلك هي القومية الممسكة بالأقوام والتي لا ينازعها منازع . هذا والله أعلم .

هذا شأن مجالس الذكر وقد رأينا أن التكريم فيه يستأثر بأكثر الحديث عنه لأن نزول الملائكة من التكريم وتناديهم أن هُلُمُّوا إلى حاجتكم من التكريم وقعودهم معهم من التكريم وعروجُهم إلى ربهم بعد انفضاضهم من التكريم وسؤال الحق عنهم وذكرهم في الملأ الأعلى من التكريم ثم يلاحظ أنهم ذكروا ثلاثة أذكار هي كلها لربهم وهي التسبيح والتكبير والتهليل ثم حمدوا ثم ذكروا ثلاثة أشياء هي لهم وهي سؤال الجنة والنجاة من النار والاستغفار ، ثم أعطاهم الله مسألتهم وتوّج عطاءه لهم بكلمة لم أعرف أن الله سبحانه قالها في حق غيرهم وهي « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » .

وأردت أن أعقب هذا العطاء الأكرم لمجالس الذكر بعطاء آخر للذاكرين الله فرادى لأننا لا نملك هذه المجالس في كل وقت وإنما علينا أن نبحث عنها وأن نُوجدها وقلت إننا نعيشها في مجالسنا ودراسة أحوالنا إلى آخر ما قلت وشيء آخر لم أقله وهو أن بعض الأنظمة التى تحارب الإرهاب يعنى الإسلامى تعتبر هذه المجالس مشروع تكوين خلية إرهابية وتعتقلهم وتوجه لهم التهم ولا يدهشك هذا فقد كان وقد يكون وخصوصا إذا وُسِّدَ الأمرُ إلى غير أهله وقد أخبرنا الصادق الأمين أنه إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة ، وأفهم أن الساعة ليست هى القيامة التى هى النفخ في الصور وإذا الشمس كوّرت وإذا النجوم انكدرت لأنهم قالوا من مات فقد قامت قيامته

وعليه إذا وُسّدَ الأمر إلى غير أهله في وطن فانتظر ساعة هـذا الـوطن يعنـى ضياعه وهلاكه ونسأل الله السلامة ، والأحاديث التي تدور حول ثواب الـذكر في غـير مجـالس الـذكر قوامهـا هـو ذكـر الثـواب ولـيس بيـان الإكـرام لأن الاجتماع على الذكر أوجب هذه الحفاوة وهذا الإكرام من الله الذي لا يجب عليه شيء إلا شيئًا وعد به .

وقبل هذا أذكر شيئًا أراه هو الـزَّرْعُ الأول مـن الـدعاء الـذي كـان يزرعـه رسول الله ﷺ بيده في قلوب من يدخلون في دين الله .

روى مسلم بسنده عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه قال : كـان الرجـل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات « اللـهم اغفـرْ لي وارْحَمْني واهدِني وعافِنِي وارزُقنِي ».

وفي راوية أخرى عن أبي مالك عن أبيه أنه سمع الـنبي ﷺ وأتـاه رجـل فقال يا رسول الله كيف أقول حين أسأل ربي ؟ قال : « قل : اللـهم اغفـر لـي وارحمني وعافني وارزقني ، ويجمع أصابعه إلا الإبهام فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك» .

وفي رواية رواها مسلم بسنده عن مصـعب بـن سـعد عـن أبيـه قـال جـاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال علمني كلامًا أقوله فقال : « قل لا إلـه إلا الله وحـده لا شريك له الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا سبحان الله رب العـالمين لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم ، قال فهؤلاء لربي فما لي ؟ قال قل اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني» .

وعليك أنت أيها القارئ أن تبحث عن العلم الـذي فـي هـذه الأحاديـث ولا تكن مثلي لأني رُبيِّت على تحصيل العلم وليس على البحث عـن العلـم

الذي في مثل هذا الكلام ، وإنما حاولته بعد ما شابت قروني وكنت كما قال الأول يصف قومًا :

لم يركبوا الخيل إلا بعدما هَرِمُوا فهم ثقالٌ على أكفالها مِيلُ

صارحتك بهذا حتى لا تتوهم أن الذي أستخرجه من الكلام الذي أدرسه هو كل ما فيه أو هو خير ما فيه أو كل ما استخرجته صواب ، واعلم أن الاستخراج هو نصف الطريق إلى الاجتهاد ونصف الطريق الذي إذا قطعه الباحث يكون فقط مرشحًا إلى أن يكون من الباحثين بشرط أن يقطع النصف الثاني وهذا هو الحق الذي يخرجنا جميعًا من هذا الباب لأننا أشبه بزماننا وهو زمان كذوب وزعاماته كذوبة وقياداته في الفكر والعلم والسياسة والحرب وما شئت كلها قيادات كذوبة فلا تتوهم أن فينا غير كذوب والوعاء كله كذوب . هذا من براءة الذمة .

وكلُّنا جَوًى يا رفيقي أنت تَهْوَى وقلبي المَكْلُومُ

وأبدأ بحديث الرجل الذي قال يا رسول الله كيف أقول حين أسأل ربي ؟ وهذا سؤال جيد لأنه يعني أن الرجل دخل في دين الله وهو الآن صفحة بيضاء لا يعرف الأبجديات التي أولها كيف أسأل ربي ، وكأنه لم يقرأ الفاتحة بعد لأن الفاتحة تعلمنا كيف نسأل ربنا . ومن المفيد جدًا أن تُرافق هذه القلوب من اللحظة التي كانت فيها صفحة بيضاء لأنها انتهت نجومًا يُهْتَدى بها . وكلام رسول الله ﷺ له هو بمثابة السُّطور الأولى في هذا القلب الذي صار نَهْرًا يُسْتَقَى منه الناس ، وعجيب جدًا أن تجد مُفْتَتَح تعليم وتثقيف هذا الصحابي الجليل هو مطلبان مطلب لآخرته ومطلب لدنياه ، أما مطلب الآخرة فهو المغفرة والرحمة والمغفرة يعني غفران الذنوب وستر هذه الذنوب بهذا الغفران وهذا يعني أنك لابد أن تتوقع أنك ستذنب

ولا تظن أنك بدخولك في الدين تحوّلت إلى مَلَكٍ من الملائكة ، لأن الخطيئة إرث قديم فيك من أبيك ومن أمك اللذين وسوس لهما الشيطان وأزلهما وقالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، ثم الرحمة ، واقترانها بالمغفرة تعني شيئًا لا يجوز أن نجهله لأن الرحمة عطاء ليس فوقه عطاء لأنها الجنة التي لن يدخلها أحد بعمله ، وتَعْجَبُ حين تكون هذه العطيَّة التي هي مَحْضُ فضل مُقْتَرِنةً بالمغفرة الدالة على خطيئة من سيُعطى هذه الرحمة ، هل أدركت ما أردتُه وهو أن خطاياك لا تَحْجُب عنك أكرم ما يعطيه ربنا لأكرم عباده ، ولاحظ أننا مع السُّطور الأولى التي كتبها المختار بيمينه في رأس هذه الصَّفْحة البيضاء . أو قل الآن نحن في أول المَتْن الذي سيستفيض ويصير صاحبه بحرًا من بحور العلم وبحور البلاغ عن رسول الله ﷺ وسيصير أيضًا رسول رسول الله إلى الناس أما مطلب الدنيا فهو أيضًا أمران ، العافية التي بها يمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزقها ويستخرج منها أقواتها التي قدّرها الله فيها يوم قال لها كوني فكانت ، ثم الرزق الدال على أن هذه العافية وحدها لا تَصلُ بك إلا إلى رزق كتبه الله لك فلا تَخْدَعنَّك العافيةُ وتطْغى بها وتعلَّقْ دائمًا بقولك لربك ارزقني لأن الرزق بيده ، والخزائن بيده ، وأنه سبحانه إن يتركك لنفسك يقربك من الشر ، ويبعدك عن الخير ، وإن كان هو حَوْلَكَ ، وطولك تَبُوء وفي يمينك نعمة من نعمه وفي يسارك ذنب من ذنوبك وهما معًا تحت بصرك ترى ذنبك الذي أغضبت ربك فيه وبجانبه وفي يمينك نعمته التي أنعمها عليك كما ترى ذنبك الذي تطلب سَتْره وبجانبه الرحمة التي تطمع فيها ، وهكذا وضع ﷺ سطورًا تفجرَّتْ بعد ذلك وصارت ينابيع يَسْتَقي منها الناس ، ويشير عليه السلام بأصابعه عدا الإبهام يعني الأربعة إلى هذه المطالب الأربعة التي جعلها قسمة سواء بين دنياه

وآخرته وهذا هو مسلك سيدنا رسول الله في الدعاء الذي هو ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ ثم هو منهج الإسلام في الربط الوثيق والطبيعي بين الدنيا والآخرة وأنه ليس للآخرة طريق آمِنْ نسلكه إليها إلا بعمل الصالحات في هذه الدنيا ومن أهمل دنياه ولم يشغلها بعمل الصالحات التي يصلحُ بها معاش الناس فليس له شيء في معادهم .

وهذا الذي قلته في هذا الدعاء يقال في كل الأدْعية التي كتبتها لأنه تكرر فيها وبقى شيء واحد وهو الزيادة التي قالها رسول الله ﷺ للأعرابي وهذه الزيادة هي : « قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا سبحان الله رب العالمين لا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم ».

قال الأعرابي فهؤلاء لربي فما لي ؟ قال « قل اللهم اغفر لي وارحمني واهدني وارزقني » الجزء الأخير الذي له هو الذي كان يعلمه رسولُ الله ﷺ لكل من دخل في دين الله ، وهذا الأعرابي ذكيٌّ وصريح ، وجيد لأنه سأل عن الذي له يعني سأل عن الذي لدنياه والذي تُعْمَّر به دنياه حتى يعيش مسلمًا كريمًا له قدر على هذه الأرض ولم يفهم أن الإسلام يعني أن تدير ظهرك لهذه الدنيا والمهم أن نراجع الذي قاله له رسول الله ﷺ ورأى الأعرابي أنه لربه . وأنها غَرْسٌ في قلب الأعرابي لأصول معرفة الله ، وأنه واحد لا إله غيره وأنه أكبر ثم الحمد له وَحْدَه وهو رب العالمين وأنه لا حَوْل إلا بَحْوله ولا حَوْل إلا بطوله ، وسكت سيدنا رسول الله بعد هذا وكأنه اكتفى بهذا القدر في هذه المرحلة ولكنه عليه السلام فوجىء بأن الأعرابي استوعب هذا وطلب الذي له والذي يعلمه رسول الله ﷺ لغيره من غير أن يذكر لهم هذا الجزء الأول الذي خص الأعرابي به لأن الأعرابي من الأعراب الذين وصفهم ربنا بأنهم أجْدَرُ ألا يعلموا حُدَودَ الله فكان لابد له أن يُثَبِّتَ هذه الحقائق الإلهية

في قلبه والذي هو أجْدَرُ ألا يعلم حدود الله هو أحوج إلى معرفة الله لأن كفر الأعراب كان أشد ونفاقهم أشد ، كما جاء في سورة التوبة ، هذا والله أعلم .

وقد وردت أحاديث كثيرة تفيد فيض ثواب الله للذاكرين الله كثيرًا والذاكرات ترى فيها فيض عطاء ذي الفيض لأهل الثَّناء عليه ، وإذا كان الناس يثيبون على الثناء فإن رب الناس يُثيب أهل الثناء عليه بثواب هو رب الثواب ولا أعرف أحدًا يقرأ هذه الوعود التي لا تُخلَفُ ثم يتخلف عن الثناء إلا إذا كان والعياذ بالله قد رغب عن الذي عند الله .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال : « مَنْ قال لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عَدْل عشر رقاب ، وكتبت له مائةُ حسنة ومُحِيَتْ عنه مائة سيئة ، وكانت له حِرْزًا من الشيطان يومه ذلك . حتى يمسي ، ولم يأت أحدٌ أفْضَلَ مما جاء به إلا أحدٌ عمل أكثر من ذلك ، ومن قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حُطّتْ عنه خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر » .

وقد روى مسلم بسند آخر عن عمرو بن مَيْمون قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عَشْر مِرَارٍ كان كمن أعْتَقَ أربَعة أنْفُسٍ من ولد إسماعيل ».

قال سليمان ـ الذي روى عنه مسلم ـ حدثنا أبو عامر حدثنا عمر وحدثنا عبد الله بن أبي السَّفَر عن الشَّعْبي عن ربيع بن خُثَيْم بمثل ذلك قال فقلت للربيع مِمَّنْ سمعته ؟ قال من عمرو بن ميمون قال فأتيت عمرو بن ميمون فقلت ممن سمعته ؟ فقال من ابن أبي ليلى قال فأتيت ابن أبي ليلى فقلت ممن سمعته قال من أبي أيوب يحدثنا عن رسول الله ﷺ ، انتهى .

راجع الثواب : التهليل مائة مرة . ثوابه عشر رقاب وكتابة مائة حسنة ومحو مائة سيئة وكانت له حرزًا من الشيطان يومه .

وثواب التسبيح مائة مرة مغفرة الذنوب ولو كانت مثل زبد البحر ، إذا نظرت إلى المغفرة الشاملة للذنوب ولو كانت مثل زبد البحر وقارنتها بعشر رقاب إلى آخره ، وجدت أن مغفرة الذنوب كلها مرة واحدة عطاء مُخْتَصَرٌ وجامع لمغفرة الكل ، وعلى هذا تقول التسبيح أفضل .

وإذا نظرت إلى عشر رقاب وأن من أعتق رقبة واحدة أعتق الله بكل عضو من أعضائها عضوًا له من النار . يعني من أعتق رقبة واحدة أعتقه الله من النار فكيف بعشر رقاب ؟ ثم بكتابة مائة حسنة ثم بمحَوْ مائة سيئة ثم بحرزه من الشيطان كل ذلك يجعلك تقول إن التهليل أفضل وعلى هذا دار كلام العلماء ، قال النووي : قوله ﷺ في حديث التهليل ومُحيت عنه مائة سيئة وفي حديث التسبيح حُطّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر ظاهره أن التسبيح أفضل، وهذا يعني أن النَّووي نظر إلى جملة وحُطَّت عنه مائة سيئة، ومعناه أن ما بعد المائة لم يُحَط عنه ما دام الحط قيِّد بمائة سيئة فالحط مع التسبيح أشمل ، ثم قال النووي قال القاضي في الجواب عن هذا إن التهليل المذكور أفضل ويكون ما فيه من زيادة الحسنات ومحو السيئات وما فيه من فضل عتق الرقاب ، وكونه حرزًا من الشيطان زائدًا على فضل التسبيح وتكفير الخطايا ، لأنه قد ثبت أن من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار . فقد حصل بعتق رقبة واحدة تكفير جميع الخطايا . مع ما يبقى له من زيادة عتق الرقاب الزائدة على الواحدة ومع ما فيه من زيادة مائة درجة وكونه حرزًا من الشيطان ويؤيده ما جاء في الحديث بعد هذا : « إن أفضل الذكر التهلّيل» مع الحديث الآخر : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي لا إله

إلا الله وحده لا شريك له...» الحديث وقيل إنه اسم الله الأعظم وهي كلمة الإخلاص ، والله أعلم .

هذا ما قيل في حديث أبي هريرة الذي ذكر التهليل أولاً ثم ألحق به ذكر التسبيح وراجع الحديث ومن المفيد أن نذكر أن حَطٍّ كلِّ الخطايا ولو كانت مثل زبد البحر ليس هو نهاية المطاف ، كما أن العتق من النار ليس هو نهاية المطاف لأنه وراء ذلك من رفع الدرجات ما يتسع للتفاوت المتسع بين الناجين من النار .

ثم إن الأقرب إلى الخلاف ليس هو الخلاف بين التهليل والتسبيح لأن أدلة فضل التهليل على التسبيح ظاهرة وقوية وإنما الأغمض هو الخلاف بين ثواب التهليل في الحديث الذي رواه أبو هريرة وتقدم الكلام فيه والحديث الذي رواه عمرو بن ميمون والذي فيه أن من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شي قدير عشر مرار كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل ، والذي رأينا سليمان بن عبيد الله يتتبع الرواة التابعين رضي الله عنهم ، وكان كل واحد يوجهه إلى من سمع منه الحديث حتى انتهى إلى ابن أبي ليلى الذي سمعه من أبي أيوب الأنصاري وموقف سليمان هذا يدل على أن الثواب في هذا الحديث أكثر بكثير وأنه رضوان الله عليه أراد أن يتأكد أن هذا الوعد صدر من رسول الله ﷺ لأن قول هذا الذكر عشر مرات يُثَاب بعتق أربعة أنفس بينما الذي يقوله في الحديث الأول مائة مرة يثاب بثواب عتق عشر رقاب يعني الرقبة الواحدة ثواب قول هذا الذكر عشر مرات ، وهذه العشر مرات هنا ثوابها أربعة أنفس ثم هي مقيَّدة بأنها من ولد إسماعيل وعتق الرقبة من ولد إسماعيل أفضل عند الله من عتق الرقبة التي ليست من ولد إسماعيل ، وهذا

من إكرام الله لرسوله ﷺ لأنه خَيْرِ ولد إسماعيل وهم خير الناس وهذا معنى أنه خيار من خيار ، هذا شيء ثم إن إسماعيل عليه السلام كان منه ما لم يكن من غيره لما قال له أبوه إبراهيم عليه السلام ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ﴾ ، وإسماعيل يعلم أن رؤيا الأنبياء حَقٌّ فقال يا ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ وهمَّ الأب والابن بإنفاذ الرؤيا وهذا عجيب جدًّا ومُحتَاج إلى تأمل لأنه ليس شيء في الدنيا أفضل من الحياة وليس شيء في الدنيا أفضل من الولد ، ولكن الذين يعرفون الله ويعرفون مقام أمره لا يترددون في إنفاذ أمره مهما كان ، وليس هذا هو المقصود وإنما المقصود أن عتق الرقبة من غير ولد إسماعيل في حديث أبي هريرة تحتاج إلى تكرار الذكر عشر مرات وعتق الرقبة من ولد إسماعيل في حديث عمرو بن ميمون لا تحتاج إلا إلى مرتين ونصف وإن كان هذا الذكر لا يُنَصَّفُ فما وجه ذلك ؟ والذي أراه والله أعلم أن حديث عمرو بن ميمون حصر الأجر في العتق وحديث أبي هريرة أضاف مع العتق كتابة مائة حسنة ومحو مائة خطيئة وأنها حرز له من الشيطان ، وهذا يعني أن هذه الزيادات عند الله بمكان فكتابة مائة حسنة ومَنْحها من واسع الرحمة . ثوابا لذاكر لابد أن تكون ذا شأن . وحَطٌّ مائة خطيئة لابد أن تكون من الخطايا الثقال لأن الذي يحطها عن كاهل الذاكر هو واسع الرحمة ، ومثل هاتين الحرز من الشيطان ويلاحظ أن سيدنا رسول الله ﷺ ذكر أنها حرز له يومه هذا ، وليس يومه وليلته ، فإذا أراد الحرز في ليلته فعليه أن يقولها حين يمسي بل إن العلماء اشترطوا لهذا الحرز أن يقول هذا الذكر مرة واحدة في أول النهار لأنه لو قال بعضه ثم أتمَّه بعد ذلك لا يتحقق الحرز ولو قاله في وسط النهار لا يتحقق الحرز في النصف الذي لم يقلها فيه ، وهذا جيد

لأن الحرز من الشيطان عطية من أكرم العطايا فإذا عوّذك الله منه لا تكون محتاجًا لحط خطايا ولا لكتابة حسنات لأن الذي حرزه الله من الشيطان لا يَقْتَرِفُ إثمًا ولا يغفل عن ذكر وكل هذا يعني أن عتق عشر الرقاب في حديث أبي هُريرة هو جزء من مثوبة الذكر وأن عتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل هو كل المثوبة ، هذا والله أعلم .

وقوله عليه السلام « ولم يأت أحدٌ أفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك » وهذه العبارة تكررت في حديث آخر لأبي هريرة مع التسبيح قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « من قال حين يُصبح وحين يُمْسِي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه » وظاهر أن المراد نفي الأفضل وليس نفي المساوي ، لأن الذي جاء بالتهليل كالذي جاء بالتسبيح والفضل فيهما سواء وأن الثواب الذي كان لصاحب التهليل كان ثواب مثله لصاحب التسبيح والأفضل هو الذي قال الأكثر .

وهذه الأذكار يرجع بعضها إلى بعض لأن الذي يقول سبحان الله وبحمده يُنزِّه الله عن كل نقص وينزهه عن مشابهة الحوادث ويصفُه بالكمالات المطلقة ، ويجعل الحمد لله سبحانه ، وليس من الخطأ أن نقول إن المُنزَّه عن كل نقص وعن المشابهة والموصوف بالكمالات المطلقة لا يمكن أن يوجد هذا التنزيه إلا للذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، فلا غرابة أن تجد الثواب يتقارب لأن الأذكار لم تتقارب فحسب وإنما هي هي ، والفرق أن هذا صريح في معنى ومتضمّن لمعنى وهذا صريح في الذي تضمنّه الأول ومتضمّن للذي صرّح به الأول ، ودلالة التصريح كدلالة التضمين في اللغة والشرع غالبًا ، هذا شيء ، والشيء الثاني أنك تلاحظ أن التسبيح في هذه

الروايات مُختَصر وقائم على كلمتين سبحان الله وبحمده ، وفي حديث أبي هريرة كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، ويلاحظ اقتران التسبيح بالحمد ولهذا دلالة . هذه الدلالة هي أن المسبح يثني على الله بكمالاته وهذا يعني علم المسبح بالله ، وهذا جيد ، والحامد ذاكر لنعم الله عليه وشاكر لهذه النعم وهو يعلم أن حمده وشكره لا يفي بشيء منها ولكنه لا يملك إلا هذا وهو جهد المُقِلِّ ، الذي يَضَع عجزه ونقصه بإزاء كمالات ربه ويقول يا ربي هذا كمالك وهذا نقصي فاجبر نقصي بشيء من كمالك ، وهذا اقتدارك وهذا عجزي فاجبر عجزي بشيء من اقتدارك أنت المحمود بِقُدْسِكَ ونحن الحامدون السابحون في بحار عطاياك .

أما صيغة التهليل فقد قامت على البسط والنشر والتوكيد ولو قلت إن أصلها ما جاء في رأسها وهو قوله سبحانه « لا إله إلا الله » لم تكن متجاوزًا لأن هذه الجملة تفيد معنى قصر الألوهية على لفظ الجلالة الدال على الكمالات المطلقة قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا ، ولاحظ أن لفظ الجلالة حيث رأيته أو نطقته فقد سبّحْت لأنه دال على الكمالات المطلقة وهذه الدلالة محض التنزيه والكمالات المطلقة تَنْفِي النقص لأنها تضاده وتنفي المشابهة للحوادث لأنه لا يجوز عقلاً أن يكون لها ندٌّ أو شبيه ولا يتسع هذا الوجود لاثنين موصوفين بالكمالات المطلقة ، لأن الكمالات المطلقة لا تكون إلا لواحد أحد ، وتدَبَّر هذا لتراه في عقلك وليس على طرف لسانك فالمالك الموصوف ملكه بالكمال المطلق لا يُبْقي لغَيْره شيئًا يملكه والخالق الموصوف بقدرته على الخلق بالكمال المطلق لا يُبقي لغيره شيئًا يخلقه والقادر لموصوف بالكمال المطلق في القدرة لا يبقى لغيره شيئًا يقدر عليه وهكذا .

قلت إن جملة لا إله إلا الله تعني قصر الألوهية على لفظ الجلالة الذي هو جامع لكل أسماء الله الحسنى وهي كمالات الله المطلقة ومن كان كذلك فهو بالضرورة (وحده) وكأن كلمة وحده خارجة من رحم هذا القصر وهي بِنْتُه وإنما ذكرت لتقرر هذا المعنى الذي هو أصل الديانات كلها وهي جملة الوحدانية وهي كلمة التقوى وهي رأس رسالات النبيين من قبله ﷺ وهي التي بُنيت عليها السموات السبع والأراضين السبع لأن كل هذا ناطق بهذه الحقيقة والنطق بلسان الحال أدخل في الصدق من النطق بلسان المقال ، ثم إنه إذا كان وحده فهو لا محالة لا شريك له لأن الشريك ينقص الوحدانية والوحدانية تَنْفِي الشريك ولذلك أقول إن جملة لا شريك له خارجة من رحم كلمة وحده كما خرجت كلمة وحده من رحم جملة التوحيد ، ولاحظ أن الإعراب الذي بني عليه هذا اللسان الشريف يُعْطِي هنا إشارات فجملة لا إله إلا الله الخبر الأصلي وكلمة وحده حال ، وفيها إشارة إلى أنه لا إله في هذا الوجود إلا الله . [illegible]ة كونه سبحانه وحده في قلب الذين آمنوا به هو وحده في الوجود بدليل جملة الخبر الأصلي ووحده في قلوب عارفيه لا يزاحم سلطانه على هذه القلوب سلطان مهما كان لهذا السلطان الثاني من غواية أو بطش أو قمع ، لا يتربع على عرش قلوب أهل الإيمان إلا الواحد الأحد .

وقوله لا شريك له ، جملة مستأنفة بنيت على القطع لأن توكيد الوحدانية في جملة التوحيد ومَا لَحِقَ بها من حال استحثت النفس على طلب المزيد من هذا المعنى الذي هو الوحدانية والذي تُحِسُّه الفطرةُ بسريانه في الوجود كلِّه وقد بُنِيَتْ فطرة الأشياء على هذا التوحيد وهذا معنى قولنا التوحيد دين الفطرة أقول إن جملة الوحدانية وما تبعها من حال بيان وجودها في قلب

المؤمن بها ، استحثّ النفس على طلب المزيد من هذا المعنى فقطع الكلام واستأنف حديثًا جديدًا في بيان وجه من وجوه الوحدانية وهو قوله لا شريك له ، وهي جملة مكوّنة من لا النافية واسمها وخبرها ، وهي مثل لا ريب فيه ، ولا إله إلا الله وإن كانت هذه دخلتها أداة الاستثناء . وظاهر جدًّا أن قوْلك لا شريك له مُمْسِكٌ بقولك «له الملك» لأن التقديم هنا يفيد الاختصاص وأنه لا ملك إلا له ولو بَنَيْتَ الاختصاص على النفي والاستثناء قلت لا ملك إلا له أو لا مالك إلا هو ، وكأن عبارة التهليل في بنائها اللغوي ذات سَمْت واحد ، وبناء يشبه في هيئته هيئة الأُخوة من أب وأُم ، ولاحظ أن جملة لا شريك له فصلت عن التي قبلها لأنها توكيد لها . ومثلها مثل جملة لا تأخذه سنة ولا نوم وأنها مؤكدة لجملة الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، لأن الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم وجملة له الملك وله الحمد ، توكيد لجملة لا شريك له ولهذا فُصِلت . ومثلها مثل جملة له ما في السموات وما في الأرض من جملة لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولو جمعت الآيات التي تتكلم عن الحق ودرستها وتَبَيَّنْتَ بواطنها التي بُنِيَت عليه ظواهرها لأخرجت منها شيئًا لم يعرفه الناس ، ويلاحظ أن الواو جاءت في جملة (وله الحمد) وهي واو من أنفس الواوات ، لأنها أشارت إلى أنه من الفطرة أن يعطف الحمد على الملك لماذا ؟ لأنه ما دام الملك كله له وليس لأحد من الملك شيء فكل الذي أنا فيه وأشعر بلذة امتلاكي له هو في الحقيقة له وهو بكرَمه الذي استخلفني فيه فله الحمد كله على كل الذي أنا فيه لأن كل الذي أنا فيه عطيَّة من عطاياه ومن يُعط يَحْمَد ، والممسك عن حمد المحمود ، هو الذي يأكل المعروف سُحتًا ، وتشحَبُ عنده بِيضُ الأيادي وأحب أن أكرر هاتين الجملتين (له الملك وله الحمد) لأن فيهما معنى من مكارم الأخلاق ، وأن

من يُعْطِ أتمان المحامد يُحْمد ، والذي له الملك هو الذي له الحمد والموصوف بالكمالات المطلقة محمود بلا منازعة والحامدون للمحمود هم الذين هم أنفسهم من هِبَاته وهم أنفسهم من عطاياه ، ولا يقولون من جدواك راحلتي وزادي ، وإنما يقولون من جدواك نحن وما ملكت أيماننا ، ونمسي ونصبح ونحن نتقلب في نعمائك .

وجملة « وهو على كل شيء قدير » جملة حالية وإذا رجعت بها إلى الجملة الأم « لا إله إلا الله وحده » وجدتها تلتئم معها وتقول لا إله إلا الله وحده حالة كونه على كل شيء قدير ، وكذلك تقول لا شريك له وهو على كل شيء قدير له الملك وله الحمد وهو على شيء قدير ، فهي حال مصاحبة لكل معاني التهليل ثم هي جملة قرآنية متضمِّنة معنى كل ما مضى وكأنها في الحديث فاصلة من فواصل الكتاب العزيز .

ولك أن تقرأ التسبيح والتهليل من زاويتك الخاصة فتقول لا أعبد إلا الموصوف بالكمالات المطلقة والمنزه عن كل نقص والمنزه عن المشابهة للحوادث ولا أعبد إلا الذي يرجع إليه الحمد كله ، ثم تقرأ التهليل هذه القراءة فتقول لا يصح ولا يجوز أن أعبد إلا الذي لا إله إلا هو وحده ولا يجوز أن أعبد إلا الذي لا شريك له ولا يجوز أن أعبد إلا الذي له الملك وحده وله الحمد وحده وهو على كل شيء قدير ، هذه الأوصاف لو سقط منها حرف لما كان الموصوف بها معبوداً بحق ، لأننا لا نعطي أنفس ولا أغلى ولا أرفع من العبودية التي هي انقياد وإذعان وتزلف وإخْبات وهذا الأنْفَسُ لا نعطيه إلا إلى الذي له الخلق كله وله الأمر كله وهو وحده الله الذي لا شريك له وهو على كل شيء قدير .

هذا التسبيح وهذا التهليل مراجعة عقلية وروحية لبعض أوصاف الذي أسجد له وأُخبِتُ له وأتضرع له وأتذلل له لأن هذه أحوال غالبة عليّ جداً ولا أبذلها إلا لواحد أحد سبحانه يُجير ولا يُجار عليه ، هذا شيء من غراس التسبيح والتهليل في نفسك وأي معنى يسقيكه ، ثم لك أن تنظر إليه من زاويتك الخاصة أيضًا ولكن من جهة أخرى فتقول إذا كان الساكن في قلبي هو الموصوف بالكمالات المطلقة وهو حَوْلي وهو طَوْلِي وهو سِنادِي وهو عَتَادي ، وهذا يمنح النفس قوة وأنفس ما يمتلكه الإنسان هو هذه النفس القوية التي لا ترى أن أحدًا له سلطان عليها إلا الذي خلقها والذي هو وحده المالك والقادر والقاهر وأن حَوْلَها من حول هذا القادر وطولها من طول هذا القادر وإذا كانت الجماعة كذلك فستُنَفِّي خبثها يعني لا يستطيع الظالم أن يجد له مكانًا فيها لأن الحقيقة أن المظلومين هم الذين صنعوا الظالم لأن الظالم وجد مظلومًا يقبل أن يظلم فلو أن المظلوم كسر أنف الظالم لارتدع الظالم ولو أن المقموع كسَرَ ذراع القامع لانتهى القمع ولو أن الجماعة لها أخلاق ترفض الكذب والكذابين لما وجدنا كذابين يَرْتفِعُون إلى الأماكن العالية ، وهكذا لو أن هناك وَعْيٌ ونضج ويقين قاطع وعدم خوف إلا من الله وقدرة نفسية لا تحدُّ لأن سندها هو الواحد الذي لا شريك له والذي له الملك وله الحمد لما ساد المنافقون ولما اعتلى الخونة ولما رأيت غادرًا خائنًا قاتلاً قتَّالاً يرفعه الأوْباشُ على أعناقهم ، النفس الإنسانية هي سِرُّ هذا الوجود وأذكار التَهْليلُ والتسبيح ليس لهما عمل إلا أن تقوى بها هذه النفس وأن تواجه النقائص والخسائس ، الذين سكن الواحد الأحد في قلوبهم ليسوا غشَّاشين وليسوا مزوِّرين ، وليسوا كذابين وليسوا مخادعين ، ولو تأملت أنت أثر هذا التسبيح والتهليل في تكوين الإنسان الحرُ والجماعة الحرة والوطن الحر والشعب الحر لوجدتُ الكثير .

ولم نُؤمر بالإكثار من شيء كما أمرنا بالإكثار من الذكر ولم يأمُرنا ربنا بشيء إلا وفيه خير لنا ، والخير في الذكر خير عائد إلى النفس الذاكرة ، وصلاح هذه النفس صلاح للوجود كله ، هذا والله أعلم .

بقيت كلمة جليلة قالها القرطبي في تفاوت الثواب في الذكر ، وأن من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرار كَمَنْ أعْتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل وفي حديث أبي هريرة مائة مرة كانت له عَدْل عشر رقاب ، وقد قلت في ذلك ما قلت وقال القرطبي شيئًا يجب أن يُقَال : قال رحمه الله : « وهذه الأُجُور العظيمةُ والفوائد الجَمَّة إنما تحصل كاملة لمن قام بحق هذه الكلمات ، وأحضر مَعَانِيهَا بقلبه وتأملها بفهمه ، واتضحت له معانيها وخاض في بحار مَعْرِفتها ، ودفع في رِيَاض زهرتها . ووصل فيها إلى عين اليقين ، فإن لم يكن فإلى علم اليقين ، وهذا هو الإحسان في الذكر فإنه من أعظم العبادات وقد قال ﷺ فيما قدمنا أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ثم لما كان الذاكرون في إدراكاتهم وفهومهم مختلفين كانت أجورهم على ذلك بحسب ما أدركوا ، وعلى هذا ينزل اختلاف مقادير الأجور والثواب المذكور في أحاديث الأذكار ، فإنك تجد في بعضها ثوابًا عظيمًا مضاعفًا ، وتجد تلك الأذكار بأعيانها في رواية أخرى أكثر أو أقل كما اتفق هنا في حديث أبي هريرة المتقدم فإن فيه ما ذكرنا من الثواب ، وتجد تلك الأذكار بأعيانها وقد علق عليها من الثواب عتق رقاب أكثر مما علقه على حديث أبي هريرة ، وذلك أنه قال في حديث أبي هريرة من قال ذلك في يوم مائة مرة ، كانت له عَدل عشر رقاب وفي حديث أبي أيوب من قالها عشر مرات كانت له عدل أربع رقاب وعلى هذا فمن قال ذلك مائة مرة كانت له عَدْل أربعين رقبة ، وكذلك تجده في غير هذه الأذكار فرجع الاختلاف الذي في

الأجور لاختلاف أحوال الذاكرين ، وبهذا يرتفع الاضطراب بين أحاديث هذا الباب والله الموفق للصواب» . انتهى كلام القرطبي ، وأقول هذا الاختلاف الواسع في الأجور يعني التباين الأوسع في إدراك الذاكرين وهذا يوجب على الذاكر الاجتهاد الكثير في عمق الإدراك وعمق الوعي ، وعمق التثبيت في النفس .

وهناك أحاديث في باب الذكر كثيرة الفوائد أرغب إلى الله في بلاغها لعباده في كتابي هذا وأعقب عليها تعقيبات مختصرة لأن الغاية من كتابتها أن يقْرأ كلام سيد الناس صلوات الله وسلامه عليه وإنما تعقب بما يزيد الفهم ويساعد على الوصول إلى المعنى الأخفى ولهذا أجَزْنا لأنفسنا أن نكتب في التفسير والحديث لأن الإقدام على التعليق على كلام الله وكلام رسوله ﷺ إقدام على أمر صعب وفيه خطر عظيم ونسأل الله السلامة .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم» راجع هذا الكلام مرةً ومرةً حتى تدرك الطريقة التي بُني عليها والتي تربط بعضه ببعض حتى يسهل عليك حفظه ، راجع : كلمتان .. خفيفتان .. اللسان .. ثقيلتان .. الميزان .. حبيبتان .. الرحمن ، تجد بلاغة عالية جرت عفو الخاطر ، وتجد كلامًا تسبق معانيه إلى قلبك ألفاظه إلى سمعك ، وتجد كلامًا قريبًا سَهْلاً فإذا رُمْتَه رأيته بعيدًا صَعْبًا ، ثم لاحظ المقابلة بين خفيفتان على اللسان وثقيلتان في الميزان وليس ما بني عليه الكلام من السجع الذي يُسَهِّلُ حفظه لأن الذي بُنِيَ عليه أجلُّ من ذلك . وتأمل هذه المقابلة وما وراءها من خفة على اللسان يعني ليس فيها مَشقَّةً وأن تحصيلها سَهْلٌ جدًا والتعبد بها ممكن في الأوقات كلها وأنها مِمَّا يذْكرُ

أهلُ الله بها ربَّهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، ثم هي مع هذه السهولة المُفْرِطة ثقيلة في الميزان واحذر أن تقرأ هذه الكلمة بغفلة وتذكر أن لحظة الميزان هي أحرج اللحظات وأشقّها وأشَدها وعندها يقول الكافر يا ليتني كنت ترابًا ، وأن من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية في جنة عالية لا يسمع فيها لاغية ومن خفت موازينه فأمُّه هاوية وما أدراك ماهية نار حامية ، كل هذا يجب أن يكون حاضرًا حين تذكر المقابلة بين خفيفتان علم اللسان وثقيلتان في الميزان لأن الوقوف عند الدلالة اللغوية دون الأنْدِفاع إلى ما وراءها من حقائق البلاغة يفسد علينا تذوقنا للمعاني ، ثم إن فضل هاتين الكلمتين الخفيفتين والثقيلتين في وقت واحد ليس محصورًا في الميزان وأنه يثقل بهما وإنما لهما فضل آخر هو أي فَضْل وهو أنهما حبيبتان إلى الرحمن وناهيك من أن يدورلسانك بكلمتين يحبهما الرحمن ، وكأنك في طول الوقت الذي ترددهما بخفَّتهما على لسانك وأنت تتحبَّب إلى الرحمن بما يُحبُّه فإذا رزقت صِدقًا أصدق وإخلاصًا أخلص وطال وقوفك عند الأعتاب ووجدت لذَّة مناجاة الرحمن بما يحبه الرحمن فتح لك الرحمن باب محبَّته لك بعد ما استغرقتك محبتك له ، فإذا أحبك كان سمعك وبصرك وكانت لك عليه دالة إذا سألته أعطاك وإذا أقسمت عليه أبرَّك ، كل هذا من كلمتين خفيفتين على اللسان ولا يزيغ عن هذا إلا هالك وأعتقد أننا إذا بلَّغنا المؤمنين بما أنْزَله الله على محمد ﷺ خَفوا إليه لأن الإسلام إذا وقر في قلب ملكه وإذا خالطت بشاشته القلوب لا تبرحها ونستطيع أن نُزِيل ضلالات كثيرة إذا أحسنا البلاغ عن رسول الله ﷺ ، ولا يجوز أن تتوهم أن كلمة الرحمن جيء بها هنا للسجع وإذا كان السجع مما يسْهُل به الحفظ وكان العرب يقصدون إليه لتحفظ عنهم معانيهم وكانت عنايتهم

بألفاظهم من أجل عنايتهم بمعانيهم كما قال أبو الفتح وكان ﷺ من أقدر العرب على تهيئة كلامه لأن يحفظ لأنه مبلغ دين الله أقول ليس المقصود بذكر الرحمن هو هذا وإن كان أفاده وإنما المقصود أن ترديد الكلمات الحبيبة إلى الرحمن جديرة بأن تفتح لهذا المُسَبِّح باب رحماته وأن يفيض الرحمن على هذا القائل من رحمانيَّته ولو قال حبيبتان إلى الغفار لكان المعنى أنه يستشرف إلى المغفرة ، والرحمة تقتضي المغفرة فكلمة الرحمن تطوي وراءها كلمة الغفار لأن الله سبحانه يرحم من غفر له ولو قال حبيبتان إلى الوهاب أو إلى السميع البصير لذهب هذا المعنى ، هذا وإذا رجعت إلى الكلمتين وبحثت فيهما عن الخفة وجدتها ظاهرة لأن كلمة سبحان الله التي هي رأس المعنى في الكلمتين تكررت يعني حفظت وخفت واقترنت في الكلمة الأولى بالحمد فأفادت أن الموصوف بكل كمال والمنزّه عن كل نقص هو المحمود حمدًا لا يناله سواه ثم إنها أيضًا استحضرت من المسبِّح نعم الله التي يَبِيتُ ويُصبحُ متقلبًا فيها فَهُو يَحْمَده سبحانه ثم إن التوفيق إلى التَّسْبيح نعمة أي نعمة فهو يحمده سبحانه على أن ألهمه هذا التسبيح وألهمه الذكر بالكلمات التي يَثْقُل بها الميزان والتي هي حبيبة إلى الرحمن والكلمة الثانية هي الكلمة الأولى ولكنها مقترنة بالتعظيم فهو مرة مع التسبيح يستحضر النِّعم التي حين نَحْمَدها ونَشكرَها يَرْضى الله حَمْدَنا وشكْرَنا وفي الثانية تستحضر الجلال والعظمة والسلطان ، وأنه لا سلطان على قلب الذاكر إلا سلطانه ولا عظمة إلا عظمته جل وتقدَّس ، ولا يمكن إغفال تكرار لفظ الجلالة الذي هو اسم الله الأعظم والمتضّمنُ لكل أسماء الله الحسنى وهي متضمنة لكل ما في الكتاب العزيز وأعني يرجع إلى لفظ الجلالة كل أسماء الله الحسنى ويرجع إليها كل ما في الكتاب وكل

ما في السنة راجع إلى الكتاب وكل ما قالته الأمة راجع إلى السنة وهذا من كلام الشافعي الذي ينتهي إلى أن لفظ الجلالة انطوى فيه كل ما في الكتاب والسنة ولا أعرف كلمة لها أثر في نفوس الناس كلفظ الجلالة حتى إن المجرم المحترف للإجرام إذا سمع كلمة الله جرى في نفسه شيء لم يجره في نفسه سوى هذا اللفظ وأرجو أن يكون هذا شيئًا من الفهم والإدراك للذكر الذي رجع القرطبي بتفاوت الأجر إليه .

وبقي شيء وهو أن هذا الحديث المختصر جدًّا فيه سمت كلامه ﷺ وهو أنه ذكر كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان حبيبتين إلى الرحمن فاستشرفت نفوس المؤمنين بالله والراغبين في مرضاته والخائفين من لحظة الميزان وأنها أحرج اللحظات حين يوضع الكتاب وترى المجرمين مشفقين مما فيه يقولون يا وليتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، أقول هذا يستثير النفوس المؤمنة بالله ويجعلها تتشوّف وتتهيأ إلى معرفة الكلمتين اللتين هذا شأنهما عند الله ، فإذا سمعوا من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم تلقته النفوس بعد استشراف وتطلع فيكون المعنى عندها أمكن وأرسخ وأنبل وقد سبقت أحاديث كثيرة حُذِيَت هذا الحذو وقلت إن القاعدة الذهبية التي استخرجها علماؤنا من بلاغة اللسان وهي ليس إعلامك الشيء بغتة غفلاً مثل إعلامك له بعد التنبيه إليه والتقدمة له وقلت إن هذا أظهر ما يظهر في كلام رسول الله ﷺ وأن بيانه عليه السلام هو الذي أُلْهِم علماءنا هذا المعنى ، ولو قلت هنا سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن لكان كلامًا آخر ، مع أن الكلمات هي هي . وإنما تغيّر الموقع لا غير ، وهذا يعني أن الموقع الذي

تُصيبه الكلمة يَسْقيها برحيق من البلاغة مختوم وأن الموقع لغة مُبينة ينطق الكلمة بسر من أسرارها فإذا وقعت الكلمة في غيره أصابها الخرس وافتقدت هذا الثراء .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لأن أقول سبحان الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبرُ أحَبُّ إلي مما طلعت عليه الشمس »، وقوله عليه السلام لأن أقول معناه لقولي واللام للتوكيد وأنْ وما بعدها سُبِكَتْ بمصدر هو مبتدأ والجمل الأربعة سبحان الله ـ والحمد لله ـ ولا إله إلا الله ـ والله أكبر ـ مقول القول والخبر الجزء المتم الفائدة قوله عليه السلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس وهو جذر الحديث وقطب معناه ، وهو يقابل في الأحاديث السابقة كانت له عَدْل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ... إلى آخره ، وراجع الكلامين لترى أنّ الحُبّ هنا وضع موضع الثواب هناك ، ولأن أقول هنا وضعت موضع من قال هناك . وأن « من قال » خطاب للأمة وأن من قال منكم كذا فثوابه كذا والأُمَّةُ مَهْمومة كلُّها بحط السيئة وزيادة الحسنة والعتق من النار ثم بالظفر بالرحمة ، وهذا مما نرجُوه على استحياء ولولا أن الله طلب منا ذلك لوجدنا حرجًا أشد لأنه يخجلنا أن نطلب ما لا نستحق ولكن سعة رحمته ثم سعة إكرامه لخلقه هو الذي أطْمَعنا فيما لا طَمَع لنا فيه ، ذنوبنا هي الحشرجة التي في حناجرنا وتطلعنا إلى ثواب العبادة وعَزْمُنا على فعل الخيرات هو الذي نغالب به هذه الحشرجة ، وخالقنا يَعْلَم مِنَّا ذلك فبسط الحَبْل لنا فأطعمنا حتى طلبنا الفِرْدَوْس الأعلى ، والحال أننا نبوء بنعمته علينا ونبوء بذنوبنا ، يعني نتقلب في هذه الحياة وفي أيماننا نعمه وفي شمائلنا ذنوب اقترفناها بنعمه . هذا حالنا ، وكان مقتضَى هذا الحال أن يقول لنا عليه السلام من قال كذا فله كذا .

أما قوله عليه السلام لأن أقول ، فالقائل هو ، وهو الذي يحدثنا عن نفسه وليس المقصود الأظهر قولوا ، وقد غفر الله له ذنبه ما تقدم منه وما تأخر ورفع ذكره ، وحط عنه وِزْره ، ووعده ربنا بأن الآخرة خير له من الأولى وهو في الأولى سيد أهل الأرض ، وهذا يعني أنه في الآخرة سيد أهل الجنة ، فليست له حاجة عليه السلام في حط ذنب ، ولا في رفع درجة وإنما هو من باب أنه عليه السلام كانت تتورَّمُ قدماه من الوقوف بين يدي الله فسئل عن ذلك وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أفلا أكون عبدًا شكورًا . فعبادته عليه السلام ليست رغبة ولا رَهْبة وإنما هي عبادة شكر ، وحمد وثناء ، وهي أيضًا عبادة لَذّة وعبادة غِبْطة وأن ثوابها في لَذَاذَتها ، وهي تشبه نعيم الملائكة في الآخرة ، وأن جَنْتهم هي الذكر ، كجنة الصالحين في الأرض تلك الجنة التي أشار إليها رسول الله ﷺ لما شبَّه مجالس الذكر برياض الجنة . وقال إذا وجدتم رياض الجنة فارتعوا وهو يعني مجالس الذكر ، وسيدنا رسول الله ﷺ في هذا الحديث يرشدنا إلى ضرب من الذكر خارج عن دائرة التقاضي التي نراها في مثل من قال ذلك مائة مرة كان له كذا وكذا ، وهذا طريق التجارة التي لن تبور وهي نعم التجارة وندعو الله أن نكون من أهلها ، أُقول رسول الله ﷺ يرشدنا إلى ضرب من الذكر خارج عن حسابات التجارة لأن الحُبَّ فيه لا يَعْدِلُه شيء والغِبْطة به لا تعدلها غبطة ، وأنك لو ذقت منه ذوقة لوجدته أحب إليك مما طلعت عليه الشمس ، والشمس تطلع على السموات والأرض وعلى كل ما في الأرض وهو لا حصر له وأنت أيها الإنسان جُبِلْت على حب الخير وحب الملك وتغتبط يوم أن تمتلك شبرًا من الأرض ، وأنت منغمِسٌ في دنياك هذه لا تكاد تصدق أن حب الذكر بقولك سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أنفذ في قلبك وأحب إليك مما طلعت عليه الشمس . سيدنا

رسول الله ﷺ وهو القُدوة والأُسْوة يقول لنا جَرِّبوا الذي جَرَّبْتُه واستنوا بسنتي وروُضوا أنفسكم على مناقات ومقامات أنتم أهل لأن تتوقوا إليها وعليكم بشدة الحزم وصدق العزم ثم السير والاتكال على الله وحينئذ ستجدون في نفوسكم هذه نفوسًا أخرى وستجدون بدل آمالكم هذه آمالاً أخرى ، وبدل أحلامكم هذه أحلامًا أخرى ، وأنتم تعلمون أني أصدقكم فخوضوا غمار هذه التجربة واذكروا الله ذكرا هو أحب إليكم من كل ما تهالكتم وتتهالكون فيه .

عجيب أن يكون تحت لساني وفي قلبي شيء ساكن إذا أثَرْتُه ثار وإذا استحضرته حضر ثم هو يكون أحبَّ إلي مما طلعت عليه الشمس ، ولاحظ أن الشمس تطلع على ولدي ووالدي وصاحبتي وعشيرتي وخيلي المسوّمة وأنعامي وتجارتي التي أخشى كسادها ومسكني الذي أرضاه ، وما قمت وقعدت به من مال وجاه . عجيب أن يكون تحت لساني ماهو أحبُّ إلي من ذلك كله وأعجب من هذا العجيب أن هذا العجيب مَقْطوع به لأنه خبر الصادق الذي لا يكذب أهله والذي جاء بالصدق وصدَّق به ، ولابد أن تتأكد أنَّ مِنَّا رجالاً يجدون هذا الذكر أحب إليهم مما طلعت عليه الشمس وأنه لم يخل منهم زَمَنٌ من عهد سيدنا رسول الله ﷺ ، وقد وصف عمر سيدنا صُهَيْب بما يفيد أنه رضوان الله عليه لم يكن يعبد الله خوفًا وإنما كان يعبده حبًّا قال عمر : « نعم العبد صُهيب لو لم يخف الله لم يعصه » .

ويرجح ما قلته من أن رسول الله ﷺ يعلِّمنا في هذا الحديث بابًا من الذكر يبتعد عن مقايضة العمل الصالح بالثواب وكتابة الحسنات وحط السيئات ومَغْفرة الذنوب ولو كانت مثل زبد البحر وأن المقصود بالذكر الحب لا غير وهذا الذكر الذي ذكر سيدنا أنه أحب إليه مما طلعت عليه

الشمس أقْرَبُ الأذكار إلى أذكار الملائكة وقد ذكر المفسرون أن نعيمهم في الآخرة والبديل للجنة والسرر المرفوعة والأرائك التي عليها يتكئون والجنات والعيون واللؤلؤ المنثور واللآلئ هن الياقوت والمرجان البديل لذلك كله هو قولهم سبحانك اللهم وبحمدك ، وآخر سورة الزمر يشير إلى ذلك لأنه بعد الحساب وبعد ما سيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا وسيق الذين آمنوا إلى الجنة زمرًا بَقِيَتْ الملائكة فأخبر الله عنهم أنهم حافون حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين ، ثم إن هذا الذكر الذي هو أحب إلى رسول الله ﷺ مما طلعت عليه الشمس هو أشبه الأذكار بأذكار الذين يحملون العرش ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ ثم هو أقرب إلى ذكر أهل الجنة وذكر أهل الجنة ليس تكليفًا وإنما هو ذكر الحب والغبطة والحمد كذكر رسول الله ﷺ ، ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

راجع دعواهم فيها سبحانك اللهم ، وآخر دعواهم أن الحمد لله وضع هنا بإزاء سبحان الله والحمد لله .

وبقي أن أقول : إن من الأذكار ما هو تَهْليل كما في قولنا لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ومن الأذكار ما هو تسبيحٌ كقولنا سبحان الله وبحمده ، والذي في هذا الحديث تسبيح وتهليل وقد ذكرت أنهما يتداخلان وأن لا إله إلا الله تُوجب معنى سبحان الله لأن الواحد الأحد لا يوصف إلا بكل كمال والموصوف بالكمالات المطلقة هو لا محالة منزه عن كل نقص ، وهكذا يُفضي بك التهليل إلى التسبيح كما يُفضي بك التسبيح إلى التهليل لأن الموصوف

بالكمالات المُطلقة لا يتعدَّدُ ولا يتسع الوجود إلا لواحد قادر قدرة مطلقة مالك ملكًا مطلقًا وهذه قضية عقل ، والحديث هنا له شِقَّان شِقٌّ هو سبحان الله والحمد لله وشق هو لا إله إلا الله والله أكبر ، ولاحظ أن التسبيح يستصحبُ الحمد وأن التهليل يستصحب التكبير ، لأن الموصوف بالكرم المطلق وهو أحد الكمالات لا يحبس كرمه عن أعدى أعدائه فله الحمد والواحد الأحد لا يجوز لأحد أن يكون أكبر منه لأنه هو الأكبر ، ولو قلت إن هذه الصّيغة شاملة للتسبيح والتهليل كنت على حق ولو قلت إنها صيغة تسبيح اشتملت على تهليل كنت على حق ولو قلت لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله لكان تهليلاً مُشْتملاً على تسبيح ، وإنما قال رسول الله ﷺ ما قال واستفتح بالتسبيح لاستحضار ذكر الملائكة وذكر أهل الجنة لأنه ذكر لا يراد به إلا الحب فليس ذكر طلب ثواب ولاحط خطيئة لأنه عليه السلام غفر الله ذنبه وحط عنه وزره ورفع له ذكره .

روى مسلم بسنده عن أبي موسى عبد الله بن قيس قال كنا مع النبي ﷺ في سَفَرٍ فَجَعَلَ الناسُ يَجْهرُون بالتكبير فقال النبي ﷺ «أيُّهَا الناسُ إربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصَمَّ ولا غائبًا إنكم تدعون سَميعًا قريبًا وهو معكم قال وأنا خلفه وأنا أقول : لا حول ولا قُوَّة إلا بالله . فقال يا عبد الله بن قيس ألا أدُلُّكَ على كنْزٍ من كنوز الجنة ؟ فقلت بَلى يا رسول الله قال قل : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وفي رواية فَجَعَل رَجُل كُلَّمَا عَلا ثَنِيَّةً نادى لا إله إلا الله والله أكبر . وفي أخرى . والذي تدعونه أقربُ إلى أحَدِكُم من عُنِقِ رَاحِلَةِ أحَدِكُمْ» .

أذكر بما قلته مرارًا وهو أن رواة الحديث عن رسول الله ﷺ كانوا يوجهون كلامهم إلى لُبِّ الحديث وما يتعلق به من أمر شرعيّ ويَدَعُون كل

ما هو حول هذا ، فأبو موسى رضوان الله عليه قال كنا مع النبي ﷺ في سفر فجعل الناسُ يَجْهَرون بالتكبير ، ولم يذكر كلمة واحدة عن هذا السَّفر وغالبًا ما كان يكون غزوا لم يشر أبو موسى إلى أنه كان غزوا ولم يشر إلى الجهة التي كانوا متجهين إليها لأن الغرض لا يتعلق بشيء من ذلك كما لم يُشِرْ إلى هؤلاء الذين كانوا يَجْهَرَون بالتكبير ، ولا أشك في أنه كان معه عليه السلام في سفره هذا أبو بكر وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وغيرهم من كبار الصحابة لأنهم ما كانوا يتخلفون عن رسول الله ﷺ في سفر ، وهل كان منهم من يجهر بالتكبير ؟ وهل كان الأمْرُ بالذكر تضرُّعًا وخِفيةً لم يكن قد شاع في المسلمين ؟ ذلك وغيره لم يلتفتُ إليه أبو موسى لأن القصد هو أن يبلغنا مقالة رسول الله ﷺ لهم ، وقوله عليه السلام «أيُّها الناسُ إرْبَعُوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائبًا» الكلمة التي هي أصل هذا الحديث قوله عليه السلام «إرْبَعُوا على أنفسكم» بفتح الباء أي أرفُقُوا بها ولا تشقوا عليها ، وهذه الكلمة الأصل هيأ رسول الله ﷺ لها القلوب بالنداء الذي نرى فيه عناصر من التوكيد وقد حُذِف حرف النداء للدلالة على المعاجلة والمسارعة بالأمر ، وهذا دالٌّ على الأهمية بهذا الأمر ثم جيء بكلمة (أي) التي هي وصلة لنداء ما فيه الألف واللام وهي كلمة مبهمة يفسرها المنادى المعرَّف ، ودخول حرف النداء على كلمة أي التي يفسرها ما فيه الألف واللام يعني أن الجملة بُنِيَتْ على الإيضاح بعد الإبهام ثم كلمة (ها) التي للتنبيه وكل ذلك دال على أهَمِيَّة ما يناديهم رسول الله ﷺ إليه ، ثم أعْقَبَ الأمر بعلَّته وأكد هذه العلة بإن المؤكدة والتي كررها في الجملة الثانية لأن العلة مُكوَّنَةٌ من هاتين الجملتين (إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم» الجملة الأولى فيها قدر من اللوم

والمؤاخذة وقدر من الغضب والإنكار ، وهم جميعًا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى منزه عن النقائص كلها فضلاً عن الكلمتين المذكورتين في الجملة الأولى (أصم وغائب) ولكنهم لحرصهم على الجهر بالتكبير نزلوا منزلة من غفل ذلك كما في قوله تعالى ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ ﴾ ، تنزيلاً له عليه السلام منزلة من يرى أنه يسمع الصم أو يهدي العُمْيَ وذلك لفرط إصراره على أن يُسْمعهم الحق ويبصرهم بالحق ، والجملة الثانية « إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم» وهم جميعًا يعلمون ذلك وإنما أكدت الجملة تنزيلاً لغير المنكر منزلة المنكر ، والتأكيد فيها كالتأكيد في قوله تعالى ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾ ، مع أنه ليس هناك من ينكر هذه الحقيقة وإنما غفلوا فنُزِّلت هذه الغَفْلَة منزلة الإنكار ، ثم إنك تراجع الجملتين مراجعة ثانية فتجد الأولى نَفْيًا للعيب والثانية إثباتًا للكمالات ولو قلت الأولى تخلية والثانية تحلية كنت مُبيِّنا ، وهذا يكثر في بيانهم كأن يبدأ الشاعر مثلاً بنفي العيب وهو يذكر الصاحبة ويقول : « إنها ليست من السود أعقابا» ثم ينتهي بوصفها بما لا توصف امرأة بأفْضَل منه وأنها من أحسن خلق الله خَلْقًا وأكمله خُلقًا وقد جاء هذا في صورته العالية في شعر النابغة وهو يذكر البلوية التي صادفته في طريقه إلى الحج ، وبالغ في جمالها وذكر إعجابها به ثم انصرف عنها لأنه مُتَوجِّهِ إلى البيت وهكذا كان البَيْتُ بجلاله في نفوس الوثنيِّين ، راجع التقارب بين قوله «قريبًا وهو معكم» ثم أضف إليه ما جاء في الرواية الأخرى «والذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلة أحدكم» ولم يقل عليه السلام من عنق راحلته ، لأن عنق راحلة الذي هو ورائي أقرب إليَّ من عنق راحلتي ، قال النووي : «وحاصله أنه مجاز كقوله تعالى ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ وقال وهو معكم بالعلم

والإحاطة وقال في تفسير لا حول ولا قوة ، وأنها كنز الجنة قال العلماء سبب ذلك أنها كلمة استسلام وتفويض إلى الله تعالى واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ، ولا راد لأمره ، وأن العبد لا يملك شيئًا من الأمر ، ومعنى الكنز هنا أنه ثواب مُدَّخر في الجنة وهو ثواب نفيس كما أن الكنز أنفس أموالكم قال أهل اللغة الحَوْلُ الحركة والحِيلَة أي لا حركة ولا استطاعة ولا حِيلةً إلا بمشيئة الله تعالى ، وقيل معناه لا حول في دفع شر ولا قوة في تحصيل خير لا حول عن مَعْصِية الله إلا بعِصْمته ولا قوة على طاعته إلا بمعونته وحكى هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه وكله متقارب قال أهل اللغة ويعبر عن هذه الكلمة بالحوقلة والحولقة» انتهى كلام النووي ، وجيد جدًّا أن يكون الكنز المدّخر في الجنة يحصله أهل الله بغاية الاستسلام والتفويض والتبري من الحول ومن الطول وأننا لا نُطِيعُه سبحانه إلا بحَوْلِه ، ولا نعْصِيه إلا بحوله وإذا كان هذا في الطاعة والمعصية فهو في غيرهما أظهر ، فليس لي في الذي أفعله حَوْلٌ ولا طَوْلٌ وليس لقلمي ولا لساني ولا ليدي حَوْلٌ ولا طَوْلٌ ، وإذا كان حولي من صاحب الحّول وطولي من صاحب الطول فهو حول أيُّ حَول وهو طول أيُّ طول وترى القوة البالغة في هذا الذي تعْتَقِد أن حوله من الله وأن طوله من الله وأنه يرمى بيد الله وأنه يسدّد بعون الله ومن يتأكد عنده هذا الاعتقاد فلن يرمى أحد رَمْيه ولن يفري أحدٌ فريه والذي مَدَدُه من الله لا يُغلب .

وأخيرًا راجع كلمة « إربَعُوا على أنفسكم» لتجد فيها معنى آخر وهو أنها تَنْفِي عن نفسك مشقّة الذكر وأن النهي عن الجهر بالتكبير ليس لأنه مظنّة الرياء في مثل مقامه عليه السلام مع أصحابه الكرام وإنما هو توجيه لنا بأن نأخذ أنفسنا في العبادة كلها بالهُوَيْنَا حتى نحسِنَ التأمل والتدبُّر ونحسن

تذوق العبادة وأن نَحْرِصَ على أن يكون هذا الذكر عند جمام النَّفْس واجتماعها ، ووفرة نشاطها ، لأن النفس المكدودة لا تحسِنُ تأملا وتدبرًا وتذوقًا الذكر يفتح باب القبول . ولا يجوز أن أدع هذا الحديث الشريف من غير أن أشير إلى أن سيدنا عبد الله بن قيس قد أدخل رسول الله ﷺ على قلبه ما أسرَّه لما سمعه يقول لا حول ولا قوة إلا بالله فقال له « ألا أدُلّك على كنْز من كنوز الجنة فقال بلى يا رسول الله قال قل لا حول ولا قوة إلا بالله »، وكأنه عليه السلام يقول له هديت وَحْدك يا عبد الله بن قيس إلى كنز من كنوز الجنة وأن الله سبحانه هداك بهدْيهِ وامَدّك بحوله وطوله بما يدّخره لك . ولا شك أن هذه بشارة لعبد الله بن قيس الذي أوُتي في تلاوته مزمارًا من مزامير داود وكان عليه السلام يحب سماع القرآن منه .

روى مسلم بسنده عن الأغرّ المزنى وكانت له صُحْبة أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّهُ ليُغانُ على قلْبِي . وإنيّ أستْغفِرُ الله في اليوم مائة مرة». وعن أبي بُرْدة قال سمعت الأغرّ وكان من أصحاب النبي ﷺ يحدث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أيُّهَا الناسُ توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة ».

هذان الحديثان كأنهما حديث واحد وإن كان النووي ذكرهما في بابين باب الاستغفار وباب التوبة ، ولو قلت إن الاستغفار توبة لأنه طلب المغفرة من ذنب ، وطلب المغفرة من الذنب توبة منه ثم إنه لا توبة بدون استغفار ، ولهذا قلت إن التوبة والاستغفار شيء واحد وإن كان العلماء جعلوهما في بابين ، ووجه جعلهما في بابين هو أن للتوبة شروطًا أوجبت إفرادها لأني أستغفر الله من الذنب الذي كان ولو كان فيه شيء يتعلق بحقوق العباد فليس ردُّ هذا الشيء شَرْطًا في الاستغفار وإنما هو شرط في التوبة .

وقوله عليه السلام : فإني أستغفر الله في اليوم مائة مرة قريب جداً من قوله عليه السلام فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة ، وقربُ الشيءِ من الشيء لا يعني أن الشيء هو الشيء .

وأول الكلام في هذين الحديثين هو بيان معنى قوله عليه السلام « إنه ليغان على قلبي» وقد فسر العلماء الغين المذكور في الحديث ووجُّهوه وُجُوهًا مختلفة جمع النووي أكثرها في نص جيد قال فيه : قال أهل اللغة « الغين» بالمعجمة والغيم بمعنى ، والمراد هنا ما يتغشّى القلب . قال القاضي « قيل المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدّوامَ عليه فإذا فتر عنه أو غَفَل عدّ ذلك ذنبًا واستغفر الله منه» أقول وهذا يعني أن الغين هو تراجع درجة الذكر التي كانت من شأنه عليه السلام ، وليس المعنى أنه ترك الذكر زمنًا ولو قَلَّ ثم قال القاضي : « وقيل هو هَمُّه بسبب أُمَّته وما اطلع عليه من أحوالها بعد» قلت وهذا معناه أن الهم الذي شغله عليه السلام بسبب ما أطلعه الله عليه من أحوال أُمَّته همٌّ عظيم فشغل حيزًا من ذكره ولك أن تراه بعيدًا لأن همَّ الأُمَّة الذي أطلعه الله عليه وهو همٌّ عظيم ونحن نعيش في شيء منه الآن يدعوه عليه السلام لمزيد من الذكر والرجاء أن يَلطُفَ الله بأمَّته حين تنزل بها هذه النوازل ، ثم قال القاضي « وقيل سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أُمَّته وأمورهم ومحاربة العدوِّ ومُداراته وتأليف المؤلفة ، ونحو ذلك فيشغل بذلك من عظيم مقامه فيراه ذَنْبًا بالنسبة إلى عظيم منزلته» وإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال فهي نزول عن عالي درجته ورفيع مقامه من حضوره مع الله تعالى ومشاهدته ومراقبته وفراغه مما سواه فيستغفر لذلك» قلت إن الذي ذكره القاضي ووصفه بأنه من أعظم الطاعات وأفضل الأعمال ، وأنها أفضت عند

رسول الله ﷺ إلى ما يَسْتَغفر الله منه يعني أن المقامات التي شغلت عنها عظيم الطاعات وأفضل الأعمال مقامات، أخرى أعني مقامات أفضل من الأفضل وهي مقامات الحضور والمشاهدة التي كان يعيشها ﷺ والتي كانت هي شأنه وكان شأن البلاغ وشأن الأُمَّة وشأن حروبها وأعدائها مما يعد طارئًا على حالة الحضور والمشاهدة التي هي الأصل ويكون الغين عند الخروج للجهاد وتأليف المؤلفة وغير ذلك مما كان يزاوله رسول الله ﷺ، ثم قال القاضي : وقيل يحتمل أن هذا الغين هو السكينة التي تغشى قلبه لقوله تعالى ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ ويكون استغفاره إظهارًا للعبودية والافتقار وملازمة الخشوع وشكرًا لما أولاه» قلت وهذا يعني أن حالة الغين حالة فاضِلةٌ وليست حالة مفضولة ، أولاً لأن حال نزول السكينة عليه وهذه من أعظم الحالات ثم إن استغفاره يكون حينئذ استغفار شكر وإظهارًا للعبودية وملازمة الخشوع ، وهذا يعني أنه ليس استغفار ذنب ويَعْنِي أيضًا أن حالة الغين هذه حالة تجليات العبودية ، وتجليات الافتقار والخشوع والشكر ، وهذا ينافي سياق الحديث لأن الحديث يقول راقبوا قلوبكم وسارعوا إلى الذكر إذا أحسستم أن الغفلة تزحف عليها وإني لأستغفر الله مائة مرة لأن الغين الموجب للاستغفار أراه يزحف على نفسي ، ولذلك أرى القاضي قد أحسن لما ذكر هذا الرأي آخر الآراء التي حكاها النووي عنه ، وقد عقب القاضي على هذا بقول المحاشى «خوف الأنبياء والملائكة خوف إعظام وإن كانوا آمنين عذاب الله تعالى» أقول وهذا يعني أن المقصود بالغين الخوفُ وأنه خوف إعظام وليس خوف عقاب . قال القاضي : وقيل يحتمل أن هذا الغين حال خشية وإعظام يغشي القلب ويكون استغفاره شكرًا كما سبق وقيل هو شيء يعتري القلوب الصافية مما تتحدّث به النفس فهوَّشها . والله أعلم .

وأقرب هذه الوجوه إلى دلالة سياق الحديث هو ما ذكره القاضي أولا وهو الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليها ، والله أعلم .

وقبل أن أرجع إلى الغين والغيم والرين بالنسبة لنا أريد أن أُنبّه إلى شيء وهو أن هذين الحديثين يخرجان لنا جملة استغفروا ربكم وتوبوا إليه أو ثم توبوا إليه وهذه الجملة الكريمة من إرث الأنبياء قبله صلوات الله وسلامه عليه وسأشير إلى ذكرها في سورة هود التي طالما راجعتها لأستخرج منها الشيء الذي شيَّبه عليه السلام فخصَّها بقوله شيَّبتني هود ، ولا أقول إن الذي أحاول بيانه الآن هو الشيء الذي شيبه عليه السلام وإنما قصارى ما أريده هو أن يكون من الشيء الذي شيبّه عليه السلام لأن تلقيه لما أنزله الله عليه له مستوى من الوعي واليقظة والتأثير لا يستطاع وصفه وإن كنا في أشد الحاجة إلى معرفة ما يمكن أن يعرف منه وهذه الجملة المُستَخلَصة من هذين الحديثين بدأت بها سورة هود ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ ، هذا ما أمر رسول الله ﷺ أن يقوله لنا ، ويلاحظ قوله : إنني لكم منه نذير وبشير وقدم النذير على البشير ، وقال سبحانه ﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ وقال هود عليه السلام لقومه : ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ﴾ ثم قال ﴿ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ ، ثم قال ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ ، ثم جاء بعد ذلك أن الله سبحانه نجيَّ هودًا والذين آمنوا معه وأن قومه الذين جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله أُتبِعُوا في هذه الدنيا لعنة وهي الاستئصال ثم قال تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ ، ولاحظ قوله

تعالى : ﴿ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ ﴾ وهم إنما عصوا هودًا ، ولكن لما كان الذي أمرهم به هود هو الذي أمر به الأنبياء قبله وهو الذي سيأمر به الأنبياء بعده كان عصيانهم لهود عصيانًا لكل رسل الله ، ثم كان من صالح ما كان من هود وقال لقومه ﴿ فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ ، فتولوا ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ﴾ وكذلك قال شعيب لقومه ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ، ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ثم جاء في آخر السورة ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ﴾ ، ثم قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَـٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ ، والظلم الذي هو سبب أخذ ربك للقرى هو التولي وكل هذا فيه أن قومك أنذروا كما أُنذِر أهل هذه القرى وتولوا كما تولوا وأخذ ربك القرى التي تولت كما أخذ قوم نوح وقوم لوط وفرعون وقومه كل هؤلاء الذين أخذهم ربك أخذه الشديد ظلموا أنفسهم بالتولي كما ظلم قومك أنفسهم بالتولي ، وهذا إيحاء شديد بل وإنذار شديد بأخذ قومه عليه السلام وأقول هذا مما شيّبه صلوات الله وسلامه عليه وأعود إلى الحديثين : فأقول إن طريقة حديث « إنه ليغان على قلبي ، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة ». مختلف لأنه ليس فيه أمر مباشر ولا حَثٌّ على شيء مباشر وإنما يحدثنا رسول الله ﷺ عن نفسه ويقول لنا إنه حارس لقلبه حراسة يقظة وأن الغين الذي هو فتور يعترى قلبه عليه السلام يهاجمه كل يوم وأنه ليس له سبيل في مدافعة هذا الغين إلا الاستغفار وأنه يستغفر في اليوم مائة مرة والغين بالنسبة لنا غفلة ، وكلما زاد الغين زادت الغفلة وزاد البعد واقتربت القسوة ، وصارت المُضْغَة

التي هي القلب أقرب إلى الفساد وأبعد عن الصلاح والإصلاح ثم إن الغين الذي يعترينا له أسباب كثيرة منها الذنب ثم إنه غين خَصْبٌ نُسول ، يتكاثر حتى يحيط بالقلب ولا يبعده عن الذكر فحسب وإنما يبعده عن الهدى ويقربه من الضلال ، وإذا تقربت من الضلال ذراعًا تقرب منك باعًا ، بل إنه أزيد لأن السيئات حضرت حلاوتها وغابت مرارتها وهي عكس الحسنات الصالحات التي حضرت مرارتها وغابت حلاوتها كما قال سيدنا المسيح عيسى ابن مريم، وكل هذا يجعل حاجتنا إلى مدافعة الغين أضعافًا مضاعفة، وإذا كان عليه السلام يدفع غينه الذي هو فتور يعتري النفس بأن يستغفر الله مائة مرة فعليك أن تَحْسِبَ ما نحتاجه نحن من الاستغفار . ولاحظ أنه عليه السلام لم يكن غينُه من أثر ذنب والغين الذي هو من أثر الذنب أشد غشاوة .

ثم إن هذا الحديث يحسن أن نَضعَ مَعَهُ حديث إن في الجسد مُضغة إذا صَلَحَتْ صلح الجسد وإن فَسَدَتْ فسد الجسد ، لأن هذا الحديث يعني أن مدافعة الغين عن القلب أو المضغة مدافعة جادة لأنها مدافعة للفساد ومحافظة على الإصلاح ، هذا شيء .

ثم إن طريقة الحديث كما قلت بُنِيَتْ على بناء بيان الهادي البشير على وجه يقول لي لا توجه طلابك إلى الجد في طلب العلم باللسان فحسب وإنما حدّثهم عن طلبك للعلم، وسهرك ومراجعاتك ثم اتركهم، ولا تحدِّث أولادك عن مكارم الأخلاق فحسب وإنما يراك أولادك وأنت متمسك بمكارم الأخلاق ، اجعلوا القدوة العملية سبيلاً إلى تربية أجيالكم ، وكفاكم فسادًا تتحدثون عن الجد وأنتم متكئون على أرائككم وتتحدثون عن مكارم الأخلاق وأنتم بعيدون عنها. هذا سبب ما أنتم فيه .

ولابد أن نلاحظ أمرًا آخر في هذا الحديث وهو أن ثواب الذكر والصلاة والزكاة والحج والصوم وكل عمل يعمله المسلم راجع إلى حيوية القلب وخشوعه وإخباتِهِ ورجائه وضراعته وأن هذه أحوال شديدة التفاوت وترفع قيمة العمل القليل حتى يكون أجره كبيرًا جدًّا لأن الله سبحانه وتعالى يثيب العامل ليس فقط على قدر وحجم عمله وإنما أيضًا على مقدار ما في قلبه من تَوَجُّه وصدق وإخلاص وابتغاءٍ لوجه الله وهذا يعني أن هذه المُضْغة عليها المعوَّل في حساب كل الأعمال ، في الخير والشرّ فقد تفعل الشرَّ وأنت لا تريده ، فلا يؤاخذك اللهُ عليه ، ومن هنا كانت المدافعة عن سلامة القلب مدافعةً عن عمل الإنسان كله وعن حركة الإنسان كلها ولك أن تصل هذا الحديث بقوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات» والنيَّة محلها القلب والغين باب مغلق على القلب ونيّة صاحب الغين نية واقفة على باب القلب لم يأذن لها الغين بالدخول ، وهكذا نجد الغين إذا زاد صار رَيْنًا ، والرين إذا ران على القلوب أضلّها كما قال تعالى ﴿ بَلْۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ وأكتفى بهذا وليُقَسْ ما لم يُقَلْ .

وجملة إنه ليغان على قلبي مثلُها مَثَلُ جملة وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة في بناء كل على التوكيد وإن كان التوكيد في الأولى أكثر لأن المعنى في الأولى معنى غريب هو مَظِنَّة الشك والإنكار ، ولذلك أكده رسول الله ﷺ بجملة مؤكدات أولها كلمة (إن) التي هي أم باب التوكيد وثانيها اسمها الذي هو ضمير الشأن والحال والقصة والمعنى أنه أي الحال والشأن ، وضمير الشأن لا يأتي في كلام عربي إلا ليَلْفِتَ إلى معنى له خطر وله شأن وله بال ، لأنه يعود على متأخر وحين يَطرق الضمير النّفس وليس له مرجع في الكلام الذي سبق تتطلع النفسُ إلى معرفة المراد به وتستشرف

لذلك وتترقبه فإذا جاءها تمكن منها وتأصل ، ولهذا تجد مواقعه في الكتاب العزيز في المعاني التي يراد ترسيخها في النفوس وتثبيتها فيها كما في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وهكذا تجده في كلام الجيل الذي نزل فيه الكتاب كما في قول الشاعر

وإنما نُوَكِّلُ بالأدْنى وإنْ جَل ما يمضِي   علــــى أنهـــــا تَعْفُـــــو الكلــــوم

ثم تجد اللام المؤكدة في قوله عليه السلام «ليغان على قلبي» ويعنيني جدًّا أن أرجع إلى المعنى الذي أراده رسول الله ﷺ بهذه المؤكدات أو قل المعنى الذي وجده عليه السلام في نفسه فأكده بهذه المؤكدات لأنه من النقْص المعيب أن تُحلّل التوكيد من غير أن تدخل إلى ما وراءه من الأحوال التي أنتجَتْه ، وأقول في جواب ذلك كلامًا يراجع ولا يُؤخذ على أنه علم موثق ، لأني لم أجده في كلام العلماء ، أقول إن الذي عندي أن هذا البناء لهذا المعنى إنما أراد به عليه السلام أن يؤكد هذا المعنى الغريب وهو أن الغين يغين على قلبه عليه السلام ، وأنه عليه السلام يعتريه ما يعترينا من أحوال لأنه بشر مثلنا ، وأن الفرق بيننا وبينه هو فرق الاجتهاد في مدافعة الشر الذي يعتري القلب ، وهذا لا يدفع أنه عليه السلام مُعَانٌ ومؤيد وموفق ، لأن الاجتهاد في مدافعة ما يُدَاهِمُ القلب من الغين هو عين العون والتأييد والتوفيق ، ولو حاولنا ما حاول لوصلنا إلى ما وصل إليه لأن الله سبحانه إذا تقربنا إليه ذراعًا تقرّب منا باعًا . ولست أدري ماذا يقول الذين يصرفون الغين عن معناه في سر هذه المؤكدات في إبانة رسول ﷺ عن أنه يعتريه ؟

وإذا كان يغان على قلبه عليه السلام وهو المعصوم المُعان فانظر الذي يداهم قلبك ثم انظر ما كان يكون منه عليه السلام حين يغان على قلبه عليه السلام وماذا يجب أن يكون منك حين يداهم قلبك ؟ وهذا يدعوك إلى أن

تراجع قوله وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة . تراجع التوكيد بأن واللام لأنه عليه السلام يستغفر وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ثم هو يستغفر ولم يذنب ، ثم هو يستغفر مائة مرة كل يوم ولولا قوة الدفاع اليقظة هذه حَوْل قلبه لداهمه الغين أكثر ، لاحظ مائة استغفار في كل يوم من قلب محمد الذي أنزل الله عليه الكتاب وقال له سبحانه ﴿ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ فكم من الاستغفار أحتاجه أنا وتحتاجه أنت والغين يداهمنا من هَنَّا وهنًّا واستغفارنا استغفار من قلب يوشك الغَيْن أن يحتجزه في سرداب مظلم ، وشيء آخر أراه في هاتين الجملتين اللتين هما من الدين بمكان ، وهو أنه عليه السلام ذكر الغين وهجومه على القلب ثم أعقبه بالمدافعة بالاستغفار ولم يبين لنا أسباب الغين الذي يعتريه عليه السلام والذي يمكن أن يعترينا ، وإنما ترك لنا هذا لنُدْركه نحن من خلال واقعنا ، لأن أسباب الرين تتفاوت وتختلف باختلاف أحوالنا ، ولكل نفس من نفوسنا همومها وشواغلها وعلى كل واحد منا أن يتلمَّس الجهات التي تُهَاجِمُه منها الغفلة ، نعم طوى رسول الله ﷺ ذلك ، وكان يمكن أن يحدّث عن الأسباب التي تفتح الباب للغين ، وإنما تركها فاختلف فيها العلماء الكرام على حد ما بينا ، وسارع عليه السلام إلى بيان ما يُزيل الغين وهذا هو سر وبلاغة عطف الجملة الثانية على الجملة الأولى في هذا الحديث الشريف « وإني لأستغفر الله .. » ووراء ذلك وصية أخرى من وصاياه لنا عليه السلام والتي أرى وصيته لنا في كل جملة يحدثنا بها ، هذه الوصية هنا تقول لنا إذا رأيتم ما يسوء فبادروا بإزالته ولا تتوقفوا في البحث عن أسبابه لأن إزالة السلبيات أمر ضروري لا يُبرَّرُ التأخر عن إزالتها ، ثم بعد المبادرة إلى إزالتها ابحثوا أسبابها ، وليكن شغلكم الأول هو المبادرة بهذه الإزالة .

والغين بالنسبة لنا من الشيطان وليس كذلك بالنسبة لرسول الله ﷺ لأن الشيطان مكفوف عن أنبياء الله ، وهذا الشيطان عدو مبين أي بيِّن العداوة . وهو بهذا الرَّيْن إنما يقصد إلى أهم معاقلنا ويداهمها كالعدو الذي يوجه ضرباته إلى مقاتل قوة عدوه فإذا أصابه فيها فقد أصاب ، والقلب صالح لأن يكون مزرعة خير وبرٍّ وعَمَلٍ صالح وصدق وعدل وصلاح وإصلاح لكل ما يصلح به المعاش والمعاد وصالح أيضًا لأن يكون مزرعة شر فينتج الظلم والبغي والقهر والسطو والكذب والنفاق إلى آخر الرذائل التي هي في طريق الشعوب وتضربها بالتخلف والفقر والفساد والإفساد ، والرَّيْن هو الذي يحول هذه المزرعة من إنتاج الخير إلى مزرعة لإنتاج الشر ، وهو الذي يُميت القلب فيموتُ فيه كل خير وهذا حسبي . وأبدأ في الحديث الثاني : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة » .

ذكرت ما ذكره العلماء من أن الأمر أو النهي إذا سبق بالنداء دل هذا السبق على أن هذا الأمر أو هذا النهي عند المتكلم بمكان لأنه لم يشأ أن يفجأ النفس به وإنما ناداها بصيغة النداء هذه التي تتزاحم فيها عناصر التنبيه والإيقاظ لينبهها وليوقظها حتى تتلقى الأمر أو النهي بعد التهيئة له والتقدمة له ، ومثل النداء في ذلك ضمير الشأن الذي كان في قوله عليه السلام إنه ليغان على قلبي وقريب منه طريقة التشويق التي رأيناها تشيع في كلامه ﷺ من مثل قوله ثلاثة من كن فيه ذاق حلاوة الإيمان إلى آخر ما أشرنا إليه من منازع بلاغته ﷺ ، ولو رجعت إلى المصحف واستقصيت الأمر والنهي الذي قُدّم له بالنداء لوجدت الذي قاله العلماء كما هو كما قالوه خذ قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخره وجمع هذا في كلام الله وكلام رسوله ﷺ وتحليله وبيان علاقة بعضه ببعض وبيان أثره في حياة الأمة كل هذا من الأهمية بمكان .

وهذا الحديث « توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة » هو وحديث « إنه لغيان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة »، بينهما تقارب شديد في المبني والمعنى ، وكأنهما توأم ، إلا أن أحدهما في أمر الغين الذي يتسلل إلى القلوب مهما كانت درجة صلتها بالله ، والثاني في التوبة وقد يتوب المرء من ذنب وهذا شأننا وقد يتوب المرء من فتور اعتراه فعدّه ذنبًا كما هو شأن رسول الله ﷺ وحتى هذا الذي لا نعده نحن ذنبًا وهو فتور النفس الذي يعتريها كما هو مقتضى الطبع الإنساني ، هذا الفتور الذي عده رسول الله ﷺ ذنبًا قد غفره الله له ثم هو يتوب في اليوم مائة مرة كما يستغفر في اليوم مائة مرة وهذا يعني أن التوبة استغفار وذكر ، ومن أفضل ما يقع في نفسي من كلامه ﷺ قوله افعلوا كذا فإني أفعله توبوا فإني أتوب اذكروا الله فإني أذكره ، لأنه يعلمنا شيئًا مهمًا جدًا وسلوكًا نبيلاً جدًا وهو أنك تأمر بالخير بعدما تفعله وتنهي عن الشر بعدما تنتهي عنه ، أعني تأمر بالجد لأنك تجد وتأمر بالصدق لأنك تصدق وتأمر بالبر لأنك تَبَرّ وتأمر بالعدل لأنك تعدل أما أن تأمر بالذي لم تفعله قبل أن تأمر به فهذا ليس مظنة القبول لأن الناس يقبلون منك أن تأمر بالخلق بعد أن تأتي مثله وهذا جيد جدًا .

وألاحظ شيئًا في قوله عليه السلام « يا أيها الناس توبوا » لأنه عليه السلام نادى الناس ولم يناد الذين آمنوا ، ولك أن تقول المراد بالناس هم الذين آمنوا ، ويكون في الكلام إشارة إلى أن الجديرين بأن يكونوا ناسًا هم الذين

عرفوا الحق وآمنوا به كما في قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ ﴾ والمراد الناس الذين آمنوا وإنما قيل لهم الناس للإشارة إلى أنهم هم الجديرون بأن يكونوا ناسًا ، ولك أن تقول إن ذكر الناس هنا فيه إشارة جيدة أخرى وهي أن الذكر الذي هو سبحان الله أو لا إله إلا الله ، والذي تقدم شأنه هو عمل يعمله العامل ليرفعه الله به درجات ويحط عنه خطايا إلى آخره ، وهذا يختلف عن التوبة لأن التائب من الذنب لا تقبل توبته إلا إذا خلع نفسه من الذنب وعزم عزمًا أكيدًا أنه لا يعود ، وقد يكون هذا الذنب غشًا أو كذبًا أو خداعًا أو سرقة أو ظلمًا أو ما شئت مما له صلة بحياة الناس وحينئذ تكون التوبة محققة لمصالح الناس ، فإذا تاب الغشاشون أمِنَّا نحن في المجتمع من الغش وإذا تاب المنافقون أمِنَّا نحن من النفاق وإذا تاب الكذابون أمنا من الكذب وإذا قال الناس للظالم أنت ظالم كف عن الظلم أما أن يقولوا للظالم أنت مبعوث العناية الإلهية لتخليص الناس أو أنت بطل قومى فهذا بلاء يقع على رؤوسنا جميعًا وهكذا نجد الرذائل الأخلاقية من الكذب والنفاق والظلم إلى آخره تقع على المجتمع والتوبة في صالح المجتمع ، وكل العبادات التي أمرنا الله بها هي في صالح الجماعة ولكن بعضها أدخل في مصلحة الجماعة من بعض ولا شك أن توبتك في صالحي وتوبتي في صالحك وهكذا ولا شك أيضًا أن الذي نشتري به الجنة هو زرع جنة في الدنيا لأننا نشتري الجنة بالبر والعدل وقول الحق والنصح لمن ولى أمرًا من أمور المسلمين والمجتمع الذي قوامه البر والعدل والإيثار والرحمة والتساند هو مجتمع آمن ، وكأنه جنة الأرض في الدنيا وأن الظلم والعقوق والفجور والسلب والنهب وكل ما يؤدي إلى الجحيم في الآخرة هو صورة في جحيم الدنيا ، وهذا ما أراه في خطاب المأمورين بالتوبة بلفظ الناس

لأنهم لو تابوا لعاش الناس في جنة الدنيا ولاحظ أن في القرآن سورة اسمها سورة التوبة لأنه ذكر فيها توبة الله على الثلاثة الذين خُلِّفُوا ، وهذه آية واحدة في السورة وتسميتها بها تعني أن التوبة عند الله بمكان وقد سبق حديث فرح الله بتوبة عبده .

سبقت أحاديث كثيرة في باب تحصيل الحسنات من مثل « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرار فكأنما أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل» ومثل « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده »، وقد ذكر مسلم بسنده عن أبي موسى الجُهَنِي عن مصعب بن سعد قال حدثني أبي قال كنا عند رسول الله ﷺ فقال « أيَعْجَزُ أحدكم أن يكسب في اليوم ألف حسنة ؟ فسأله سائل من جلسائه كيف يكسِبُ أحدنا ألف حسنة ؟ قال يسبِّح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة أو يحط عنه ألف خطيئة ».

وأحب أن أضع هذا اللون من مضاعفة أجر الذاكرين بإزاء التوبة لأتبين بابًا من أبواب سعة الرحمة ، وأننا مع وجهين من وجوه هذه السَّعة وجه هو مضاعفة الأجر ، أعني الطريق الذي دلنا عليه ربنا لمضاعفة ثوابه . ووجه هو محو الذنب أعني الطريق الذي دلنا عليه ربنا لمغفرة الذنوب ، وهو التوبة المحَّاءة ، وأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له وهدفي من هذا هو تدبُّر واستحضار الصُّور التي هيأها لنا ربنا لنظفَر برحمته ، ونَنْجو من عذابه ، وأنه سبحانه يريد بنا اليسر وأن هذا من دعوته لنا إلى دار السلام .

وأعجب من مغفرة الذنوب بالتوبة أن تكون التوبة نفسها من عمل الصالحات فالذي ارتكب كبيرة وذكر الله وندم حتى تمزَّقت نفسه من الندم وعزم عزمًا أكيدًا على أنه لن يرجع إلى الذنب ، وأنه يكره أن يعود فيه كما

يكره أن يقذف في النار ، وأنه يرد المظالم إلى أهلها أقول هذه اللحظة لحظة الذكر والندم والعزم الصادق عن التخلّي عن المعصية والجد الصادق في الأوْبة إلى الله لحظة من أكرم لحظات القربات وفيها وبها تتحوّل السيئات إلى حسنات وأكرر أن هذا من أعجب العجب ولو قلت إنه من باب عز الألوهية وبيَّنتَهُ بقولك إن الجاري في الناس أن من أساء ثم اعتذر عن الإساءة فقصارى ما نحن فيه أن نقبل اعتذاره ونَنْسى إساءته أما أن نُثِيبَهُ على اعتذاره فهذا لم يكن ولن يكون لأنه باب لم يستطع الإنسان أن يرقى إليه ومثله أنك ترى ربنا ينعم على المتمردين على شرائعه والمحاربين لرسله ، ولا يمكن أن نجد هذا في الناس وإنما هو من عز الربوبية لأن الله سبحانه غني عن العالمين ، ومثل هذا في العجب أن المقترف للسيئات يجب عليه شرعًا أن يعتقد أن رحمة الله تسع توبته ويغفر الله له ذنبه ويبدل سيئاته حسنات وإذا يئس من رحمة الله واستكثر ذنوبه كان هذا اليأس ذنبًا أكبر من ذنوبه كلها ولو كانت مثل زبد البحر ، وأنا أحب التدبر في الأمور الإلهية وأحب أن أضعها بإزاء أحوال الناس ، لأن هذا يجعل عز الألوهية أكثر جلاء . والتوبة رجوع إلى الله يقال تاب يتوب مثل آب يؤوب وناب ينوب والرجوع إلى الله عمل من أعمال العبودية وهذا هو وجه أنها من القربات وأنه ليس المقصود بها طلب المغفرة فحسب ، والعبد الراجع إلى ربه والتائب إليه والآيب إليه عبد صالح ، وفيه معنى أن الذنب أبْعَدُه عن الله ، وأن استمرار المعصية مع عدم التوبة يزيده بُعْدًا عن ربه ، حتى إنه ليَزْنِي الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ومهما زادت مسافة البعد فالعودة إلى الله لا تحتاج إلا إلى الصدق والعزم وخلع الذنب .

قلت إن التوبة رجوع إلى الله وأن تكرارها زيادة في الرجوع والقرب فإذا كانت مائة توبة في كل يوم فهذا غاية القرب وقد شرح بعض العلماء القرب

من الله وبيَّنوا أنه زيادة في الهداية وزيادة في صفاء النفس وزيادة في خلوصها وتخليصها إلى أن لا تبتغي إلا وجه ربها الأعلى يعني أن التوبة تقرب من توبة كما أن القُرْب يقرِّب من القُرْب وهكذا حتى يُلْقى العبد رَحْلَه في كنَفِ وكلأ ورعاية ربه ويصبح ويمسى في ذكره كأنه يرى الله . وتكرار التوبة ليس مرتبطًا بذنب وإنما هي نفسها طاعة ولها مذاق الإحساس بالرجوع ، ووضع عصا المسير هناك في جنب ربه وعند الحِصْن الذي لا يقترب منه شيطان ، وتدّق قبله أعناق الشياطين . وإذا قلت تاب إلى الله معناه رجع إليه وإذا قلت تاب من ذنبه معناه أنه رجع منه وكأن الذنب كان حابسًا له آخذًا به ، وإذا قلت تاب عنه فمعناه رجع عنه وكأنه كان مرتميًا في مستنقع هذا الذنب .

وقوله عليه السلام «فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة» وأول ما يلاحظ في هذه الجملة تقديم كلمة (اليوم) على الجار والمجرور ، الذي سبق في أول الحديث اقترانه بالتوبة في قوله عليه السلام «توبوا إلى الله» وهنا يقول «فإني أتوب في اليوم إليه» ولم يقل فإني أتوب إليه في اليوم ليكون أشبه بالذي مضى ، وإنما كان ذلك لتأكيد أن التوبة مائة مرة في كل يوم ، وليست المائة مرة في اليوم والليلة ، هذه واحدة ، الثانية أن قوله عليه السلام «توبوا إلى الله فإني أتوب إليه» هو في صورة الأمر بالشيء وذكر علة الأمر الحاثة على امتثال الأمر كما في قوله تعالى ﴿ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ولو نظرت إلى علاقة فإنـّي أتوب إليه بالأمر لوجدت أن داعية الامتثال هي الاقتداء به عليه السلام والاستنان بسنته وهذا داعٍ نعم الداعي ، وكان يمكن أن يقال توبوا إلى الله فإنه تعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين وحينئذ سيكون الداعي للامتثال للأمر هو أن الله يحب التوابين وأن التوبة طهر والله سبحانه وتعالى يحب المتطهرين وهذا دافع قوي جدًا

وباعث حثيث على التوبة ولكن رسول الله ﷺ أراد مع حثنا على الاستنان بسنته أن يقول لنا توبوا مثل ما أتوب واستغفروا مثل ما أستغفر ولا آمركم بشيء إلا كنت أولكم في فعله ولا أنهاكم عن شيء إلا كنت أولكم في تزكه وهكذا تكون القيادة وتكون الريادة وتكون السيادة أيضًا ، وأحب دائمًا أن أفكر في الكلام الذي بين يدي وألا أحفظ ظاهره فحسب وأرى أن رسول الله ﷺ يقول لنا اقطعوا الطريق قبل أن تطالبوا من حولكم بقطعه وقولوا للظالم أنت ظالم قبل أن تطالبوا من حولكم بأن يقولها وافعلوا الخير ثم أمروا به فذلك هو الأقرب للقبول واحذروا أن تكون أقوالكم في وادٍ وأفعالكم في واد آخر فإنه لا يُبْطل دعوة الداعي إلا هذا ولا يُبْطِلُ أثر المربِّي لطلابه وأبنائه الذين هم لحمه وشحمه إلا هذا ، وأخيرًا أقول إن قوله عليه السلام فإني أتوب إليه فيه فائدة أخرى وهي أن التوبة عمل صالح يحبه الله ولم ترتبط بالذنب فإن رسول الله ﷺ يتوب في اليوم مائة مرة وهو معصوم وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولو قال عليه السلام توبوا إلى الله فإن الله يحب التوابين لذهب هذا المعنى وهو أن التوبة رجوع وأوب إلى الله والله سبحانه يحب الأوابين وكان أبونا إبراهيم عليه السلام أوابًا حليمًا ،وعليك أنت أن تراجع معنى أن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين وهذا عندي عجيب لأن اقتران المتطهرين بالتوابين يرجح أن التوابين تائبون من ذنوب وصيغة المبالغة تعني أنهم يتوبون كثيرًا ، وكلما قارفوا سيئة تابوا وتطهروا لأن الذنوب رجس من الشيطان وهذا ظاهر والعجيب فيه أن الله سبحانه يحب هذا الصنف الذي هو خطاءٌ وتوابٌ ، وليس هذا مغريًا بالخطأ والتوبة وإنما هو دافع لهاجس اليأس من رحمة الله ، ولا شك أن الله سبحانه أكثر حُبًّا لأهل الطاعة الذين هم بمعزل عن الخطأ

والتوبة ؛ وإنما ذكر أنه يحب الخطائين والتوابين لإغراء الخطاء بالتوبة لأنه إذا كان خطاء وأدار ظهره للتوبة فَوَيْلٌ للناس منه وإن شِدَّة بغض الله لليائسين من رحمته إنما هو لتطهير المجتمع من هؤلاء اليائسين لأنهم هم الذين نَسْمَعُهم في المجتمع يقولون ليس عندنا شيء نَخْسَره ولا رحمة ننتظرها ويبالغون في الشر والإيذاء ، ونسأل الله السلامة ، هذا والله أعلم .

أنتقل إلى حديث جليل وكل كلامه ﷺ جليل ولكن لهذا الحديث مذاق مختلف لأنه ملتصق التصاقًا شديدًا بعلاقات التراحم والتساند وأن الذي يعيش بين إخوانه من أهل الإسلام يشعر أنه له سندًا منهم وأنه لن يترك في أزمات الأيام وحيدًا وإنما حوله من يُنفِّس كُرَبَه ويُيسِّر عُسْرِه ، ويَسْتَره ويُقيلُ عثرته . وقد سبق أن أشرت إلى أن الحث على الذكر والتسبيح والتهليل والاستغفار والتوبة كل ذلك حين يشيع بين أهل الإسلام يُنتج مُجتمعًا نظيفًا صالحًا ليس فيه غشٌ ولا كَذِبٌ ولا ظلم ولا غَدْرٌ وأن الحياة في مثل هذه المجتمعات الفاضلة حياة هي أصفى وأنقى وأرفع ، وأن الذين يقولون إن اليقظة الإسلامية رجوع إلى عصور الظلمات يجهلون هذا الدين جهلاً كاملاً ، ولما فتحت في دراستي هذه هذا الباب الذي هو أثر الانقياد لأمر الله ونَهْيه على حياة الناس واتسع هذا المعنى واتسع خيره أَرَدْت أن أنبِّه إلى شيء هو أننا لا ندعوا لما أمر الله ونهى من أجل الحياة الأفضل والأكرم وإنما ندعوا لما أمر وما نهى لأنه أمر الله ونهيه ، لأني لا أقول للناس ابتعدوا عن الكذب والزور والنفاق لأن ذلك يُفْسِدُ حياتنا وإنما أقول ابتعدوا عن الغش والكذب والزور والنفاق لأنه يُغْضِبُ الله ، أعني افعلوا ولا تفعلوا انقيادًا وامتثالاً لأمر الله لأنه فِعْل أي شيء وترك أي شيء إذا لم يكن انقيادًا لأمر الله ونهيه فلا أجر فيه لأننا لا نَعْبد المجتمع وإنما نعبد الله ، وهذا لا يمنع من أن

نقول ما أجمع عليه أهل العلم وهو أن كل ما أمرنا الله به هو خير لنا وكل ما نهانا الله عنه شرٌّ لنا لأن الله أنزل كتبه وبعث رسله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور والظلم ظلمات والعدل نور والكذب ظلمات والصدق نور والغش ظلمات والأمانة نور والحاكم الصالح هو الذي يقول لو عثرت بغلة في العراق لكنت مسؤولاً عنها في المدينة لأني لم أعبّد لها الطريق ، وشيوع الأمن والأمان واجب على الحاكم حتى تخرج الظعينة من المدينة إلى صنعاء لا تخاف على نفسها من شيء .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «مَنْ نفّس عن مؤمن كُرْبةً من كُرَبِ الدُّنْيَا نفّسَ اللهُ عنه كُرْبَةً من كُرَبِ يوم القيامة ، ومن يَسّر على مُعْسِرٍ يَسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن سَتَرَ مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، ومن سَلَكَ طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة وما اجتمع قوم في بَيْتٍ من بيُوتِ اللهِ يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغَشِيَتْهُم الرحمةُ وحفَّتْهُم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ،ومن بطَّأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

راجع هذا الحديث من جهة أثره في حياة الجماعة ، وكيف ترى شعبًا لا يوجد فيه مكروب إلا وهو يرى الناس حوله يُنفِّسُون كربته كل بما يستطيع ولا يوجد فيه ذو عُسْرة إلا وهو يرى الناس حوله ييسرون عُسْرَه ، ولا نجد فيه أحدًا يبحث عن عورات الناس ليفضحهم أو يُلَفّق لهم تهما لَيَحْبسهم ويُعذِّبهم وإنما يستر الكل على الكل ، وترى فيه طُرُقًا تُطْرُقُهَا أقدامُ العلماء الذين يلتمسون العلم وطرقًا تطرقها أقدام أهل الذكر الذاهبين إلى بيوت الله يقرؤون الكتاب ويتدارسونه والكل في عون الكل ، ولا ترى فيه

شريفًا ينام وفقيرًا يُكابد وإنما الكل يعمل والكل يُـتْقِن والكـل يُنْـتَجُ والكـل آمن في ظل عَدْلٍ وبرٍ وأمانة.

الحق جل وتقدّس يحث كل مـن صـدّق بكتابـه الـذي أنـزل وبنبيـه الـذي أرسل أن يذهب إلى المكروب والمعسِر ليزيل كَرْبَـه وعُسْره ، ويقول لنا إن من فعل ذلك فلا ينتظر من هذا المكروب أو المُعْسِر جزاء لأن الجزاء مـني وأنا سادٌّ عن هذا المكروب وهذا المُعْسر وأنا وَلِيُّهم وناهيك عـن حـق لـك عند الله ، وناهيك عن ثواب منه .

قوله عليه السلام « من نفّسَ عن مؤمن كربة من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة » هذ الجملة تتناول الشطر الأول من هذا الحديث وإنما كان أوّلاً لأنه يصف حالة هي أولى بالمبادرة والمعاجَلة لمعالجتها . وقوله عليه السلام « من نَفَّس » إلى آخره كقوله من قال لا إله إلا الله إلى آخره أعني هو عرض ثواب عمل وعرضٌ جزيلٌ جدًّا ودال على كثرة الرضا وكثرة الإكرام ثم تركنا نفعل أولا نفعل ، وهذا غير قوله عليه السلام « توبوا إلى الله » ومثله أن يقول عليه السلام بدل توبوا إلى الله من تاب فله كذا .. هو عليه السلام ينادي فينا ولا يزال ويقول من نفّس عن مُؤمِن كربةً من كُرَب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، وعليك أنت أيها المؤمن أن تَنْظُرَ إلى كرب يوم القيامة وأن تنظر إلى حاجتك في تَنْفِيسِهَا والمعروض عليك الآن هو أن الله سبحانه بجلاله وكماله هو الذي ينفسها عنك وهذا وعده ، ووراء ذلك ما وراءه ، ومثله قوله عليه السلام إن الله يحب كذا ويكره كذا ، ثم يتركنا ، وكلمة « نفّس » فيها إشارة إلى أن الكربة قد حبست عليه أنفاسه ، وأنها بلغت به أقصى ما يُبلغه الكُرُبَات والنوازل والنون والفاء

والسين تدور مادتها حول النفس بفتح الفاء وهو خروج النسيم الذي يَتْبَعه روحٌ واسترواح ، وقوله تعالى ﴿ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ فيه أن الليل كأنه آخذًا بكظمه وباطشًا به وحائلاً بينه وبين أن يرسل نَفَسَه وقد عبّرت آية أخرى عن قريب من هذا المعنى أو عن الرحلة التي تسبق هذا المعنى وهي قوله تعالى ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ فإذا ما ظفر به حبس ضوءه ثم يأتى الوقت الذي يتنفس فيه الصبح ثم يطلب الليل حثيثًا ، والكربة قال ابن فارس الكاف والراء والباء أصل صحيح يدل على الشدة والقوة والكرب والغم الشديد وتنفيس الكُرْبة يعني أعانه حتى يجد نَفَسًا وزحزح الكربة عنه قليلاً حتى استطاع أن يتنَفَّس وهذا من المجاز العالي ، الذي تجد بعضه يعين على فهم بعض فتنفّس الصبح يعين على تنفيس الكربة وقال الشراح إن هذا التنفيس قد يكون بعون مالي وقد يكون بنصح وقد يكون بعلم وقد يكون بغير ذلك وليس المطلوب أن تزيلها وإنما بمقدار ما تستطيع وفي مقابل هذا التنفيس فقط يُنفّس الله عنك كربة من كرب يوم القيامة وتنفيس الله لكُرْبتك يوم القيامة يعني إزالتها وكأنها لم تكن وإنما سُمّي تنفيسًا لوقوعه في صُحْبة التنفيس ووجه ذلك فيما أعلم أن الله نَدَبك لتنفيس كربة أخيك ولم يطلب منك إزالتها لأن ذلك ربما لا يكون في مقدورك وعليك فقط أن تبذل ما تستطيع في تنفيسها ، وهذه هي طاقة نفسك والذي يكافئك سبحانه قادر على إزالة كربتك وجزاؤه لعملك جزاء مضاعف فلا يجوز أن تتوقع شيئًا غير إزالتها ، وأنك تكون يوم القيامة آمنا طيّبًا يُقال لك مِنَ الملائكة سلام عليكم طبتم ، ولا تخافوا ولا تحزنوا وهؤلاء لا يعانون كُربًا ولم تنفس كرباتهم وإنما أُزيلت ثم إن القرآن الكريم أشار إلى شيء من أحوال كربات يوم القيامة في قوله تعالى ﴿ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ وراجع

الصورة وارجع إلى تنفيس الكربة ولو بكلمة وكيف يزال بها عنك حالة القلوب لدى الحناجر كاظمين وكلمة (مؤمن) وإن لوحظت في تحقيق كمال الثواب فليست شرطًا في أصله وذلك لأن غير المسلمين الذين يعيشون في ديار الإسلام لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وإعَانتهم واجبة وعونُهم واجب ودماؤهم وأموالهم وأعراضهم كدمائنا وأموالنا وأعراضنا ، فالذي عليّ نحو المسلم هو نفسه الذي على نحو غير المسلم ما دام له ما للمسلم وعليه ما على المسلم ، وفي كل ذات كبد رطبة أجر ، ونكرم جارنا ما دام فينا ونُتْبعه الكرامة حيث كان وهذا من مكارم الأخلاق التي بعث عليه السلام ليُتمِّها . ولم يستبح دَمَهم إلا جاهل فاجر ولم يستبح مالهم وأعراضهم إلا جاهل فاجر ، ويجب أن يعلن أنه بجهله وفجوره فعل ، وليس بالإسلام فعل ، لأن الإسلام أكرم وأبر بالجار من هذا الفجور .

وقوله عليه السلام «من كرب الدنيا» معناه مفهوم من الكلام لأنه ليس فينا ولا في الناس جميعًا من ينفس كربة إلا أن تكون في الدنيا أما كرب يوم القيامة فلا حول لنا فيها وليس في القيامة تكليف وإنما ذكرت هذه الكلمة تهيئة لقوله عليه السلام «كربة من كرب يوم القيامة» ولتضع بين عينيك كرب الدنيا ثم كرب يوم القيامة لترى الفرق الذي هو أبعد من الفرق الذي بين السماء والأرض ، وأنت في الدنيا حر طليق وتستطيع أن تعين بأي شيء ولو بنصح لسان وأنت في الآخرة مكروب يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، يوم يقوم الناس ﴿ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴾ ، وترى كل أمة جاثية ، وهكذا تتوارد عليك صور كربات يوم القيامة التي يذهب الله عنك كربها ويذهب عنك الحزن والخوف . كل هذا تبعثه كلمة «في الدنيا» ومن التدبر في خطاب الله لنا ، أن نقول إنه سبحانه وتعالى قادر

على أن ينفس كربة المكروب ، فلماذا حثّنا على تنفيسها ؟ والجواب ظاهر وهو أنه سبحانه يفتح باب التراحم والتساند والتواصل والتحابّ بيننا ، وبدلاً من أن يُزيلها هو سبحانه نجتهد نحن ليرانا المكروب حوله فيأنس ويُحِبُّنا ونُحِبُّه ثم إنه سبحانه يفتح لنا باب عمل يجزل عليه الأجر ، ويقول لنا بدل أن أزيل كرب المكروب في الدنيا سأزيل كرب من يزيل كربه يوم القيامة فسارعوا إلى إزالة كربه بما تستطيعون لأزيل كربكم الذي لا تطيقونه وأنتم بين يديّ ، وهذا من واسع الرحمة .

قوله عليه السلام « ومن يسّر على مُعْسِرٍ يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة » طريقة بناء الجملة هي طريقة بناء الجملة قبلها وكأنها أختها جاءت على شاكلتها وهكذا تجد الحديث تتشابه جمله ويتشابه نظمه وتتشابه مَلامِحُه كما تجد القصيدة كذلك والسورة كذلك وإن كان هذا مكنونًا في البيان لم تفتح عليه أبوابه ، ويلاحظ أن هذه الجملة تعالج حالة أقل حِدَّةً من الحالة التي تعالجها الجملة التي قبلها لأن العسرة أخَفّ من الكربة ثم إن كلمات هذه الجملة أقل من كلمات الجملة قبلها وأخف منها وأقرب إلى أن تحفظ منها وراجع يسّر ومعسر ، ويسر ... الدنيا والآخرة وهذا لتناسب خفة المبني مع خفة المعني .

ثم راجع أيضًا مسألة أن الذي يملك التيسير بكُنْ طلب منا أن ييسِّر بعضنا على بعض ثم يكافئ من ييسر الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكان يمكن أن ييسّر هو وإنما كما قلنا المراد أن يأنس أخوك المسلم حين يراك بجانبه في عسرته وأن يوسّع الله عطاءه لكل من آنسه ولا تعجب إن قلت لك إن في هذا لشوبا من عز الربوبية لأن المطلوب أولاً أن يفتح الله لك نافذة لإجابة ما نَدبَك إليه ثم يوسِّع عطاءه لكل من شارك في

تيسير العُسْرة ، ولا يتصور أن يكون هذا من الناس يعني لا تتصور أن يُكلَّف رجل رجلاً بأن يعطي فلانًا دينارًا ليعطيه هو بدل هذا الدينار سبعمائة وإنما يقوم هو بإعطائه الدينار ويوفر ما بقي له ، ولكن الله سبحانه في هذا الذي نحن فيه يؤكد لنا أنه ليس كمثله شيء جل وتقدس ولاحظ أن الجزاء هنا هو التيسير في الدنيا والآخرة وهناك تنفيس كربة الآخرة ، وهذا حَسْبُه ثم إن العسر أكثر وقوعًا من الكربة فكان التيسير في الدارين .

قوله عليه السلام « ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة » لا يزال الكلام جاريًا على حذو واحد وبَعْضُه من بعض في تصاقب المباني لتصاقب المعاني ، وهذه الجملة تختلف عن الجملتين السابقتين اختلافا ظاهرًا وتتفق معهما اتفاقًا ظاهرًا أيضًا ، أما الاختلاف الظاهر فإن الذي أخذت الكربة بكظمه لم يكن آثمًا ولا فعل فعلاً فاضحًا وكذلك الذي غلبته العسرة وهذا بخلاف الذي ندبنا الله إلى ستره لأنه لابد أن يكون فعل فعلاً فاضحًا وضرب له الشراح مثلاً بشارب الخمر وأنه من سَتْرِه إذا ظننت به أنه يشرب الخمر ألا تقترب منه لتختبر ريحه وإذا رأيته سكرانا فأغمض العين عنه ، وهذا هو وجه الخلاف بين هذه الجملة والجملتين السابقتين أما وجه الاتفاق فهو أن المطلوب منا ستره لو كشفنا ستره لوقع في كربة وصار مكشوف الستر بين الناس وهذا من البلاء ، ولابد أن تعجب من الذي يثير العجب ولن تدرك الذي يثير العجب مع الغفلة والذي يثير العجب هنا هو أن الله سبحانه يحثُّنا ويُثيبنا على سَتْر من عصاه واجترأ على حدوده ، وحدوده سبحانه أوامره ونواهيه هي حدوده التي حدها وحِمَاهُ الذي حماه ، وناهيك عن مجترئ يقتحم حدود الله ، ويقتحم حَرَمه سبحانه ، هذا المجترئ الذي لم يحدد

الحديث حدود اجتراحه واجترائه يطالبنا ربنا بستره ويعدنا بأن من يستره منا يستره الله في الدنيا وفي الآخرة أليس هذا عجيبًا؟ وأليس فيه من عز الربوبية؟ وهل نُطَالِبُ من حولنا بأن يتستروا على من يحاول إيذاءنا ؟ ونعد من يتستر على الآثمين بثواب جزيل ؟ أم أن قوانيننا تعُدُّ المتستِّر على المجرم مجرمًا ؟ وربما لم يكن مجرمًا في الحقيقة وإنما لفُقَتْ له تهمة إجرام وأنا أحسد الذين يعيشون في أنظمة لاتمتهن مِهْنة تلفيق التهم للأبرياء لتصفية حسابات سياسية أو غير سياسية وكثير ديار الإسلام الآن فيها بلاء وبلاء وبلاء ، وشر ما فيها هو تلفيق التهم لكرام الناس ، والمهم أن الدهشة من جزاء الساتر لذي الخسيسة بِسَتْره في الدنيا والآخرة ، أما ستره في الدنيا فإنه لا يأمَنُ أن تَزِلَّ قَدَمُه وأمَّا سَتْرُه في الآخرة فإن هذا هو الثواب الأعظم وأن الله سبحانه يقول لمن ستره سترتك بين الناس وأنا الآن أسترك بين يدي ومن ستره الله وقاه عذاب النار . ثم إنه سبحانه يُسْتُر من سَتَره وراجع . وكان الستر قيمة على من عصاه سبحانه وتمرّد عليه وعلى أمره ونهيه لأنه أولاً من مكارم الأخلاق التي بعث الله أنبياءه لترسيخها في نفوس خلقه ولأن كشف المستور سبب في إشاعة الفاحشة بين الناس ، لأن هذا الكشف يُفْضِي إلى استباحة ما يستحيا من ذكره ، ولو تكاشفنا لتدافعنا ، ثم إن الآثم الذي ستره الله ربما استشعر نعمة الستر فمد يَدَهُ بالتوبة ، بخلاف المفضوح فإن فَضْحَهُ سيزيدُه انهماكًا في الخطايا لأنه لم يعد عنده ما يخسَرُه كما يقول العامة ، ولا تنسى أن الله يسترك بكنفه وستره في الدارين إذا سترت مجرمًا ، وقد ذكر العلماء أن الذي رأى الجريمة وسترها إذا طلبت منه الشهادة فعليه أن يشهد بما يرى لأن هذا باب آخر .

قوله عليه السلام « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » اختلف حذو الكلام لأنه آذن بالانتقال إلى معنى آخر ، وتأمُّل هذه الجملة يُبيِّنُ أن عون العبد لأخيه ليس مقصوراً على تنفيس الكربة وتيسير العسرة وستر السوأة وإنما هو عام وشامل لكل ما يصح فيه أن يعين أحَدٌ أحداً وأن الثلاثة التي ذكرت إنما هي على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر وأن الباب مفتوح لكل ما تعين به أخاك بفضل عافيتك ولو أمسكت بذراعه لتَنْهِضَهُ من كبوته أو أجبته عن سؤال التبس عليه في منهجه ، ولهذا جاءت هذه الجملة شاملة للذي قبلها وجاءت خاتمة هذا القسم من هذا الحديث الشريف ووقعت موقع الفاصلة وقد وصف العلماء هذا الحديث بأنه حديث عظيم جامع لأنواع من العلوم والقواعد والآداب .

ولاحظ أن سيدنا صلوات الله وسلامه عليه قدّم عون الله لعبده وقال ما كان أي مدة كونه في عون أخيه وهذا يعني شيئًا أنك تعين أخاك من عون الله لك ، أنك ما بقيت تعين فأنت من الله مُعان وما بقيت تُعْطِي فأنت مستقبل عطاء الله لك ، والعون قد يكون بالمال والحول والطول وكل ذلك لك من الله لا حول لك ولا طول ومن يبخل بحوله الذي هو حول الله وبطوله الذي هو طول الله ، فقد بخل بحول الله على خلقه وليس في اللؤم أشنع من ذلك .

ولا تسأل هذا السؤال الذي طالما أجبنا عنه وهو أن الله سبحانه كان يمكن أن يعين عبده بدل أنْ يَنْدُب عباده لمعونة أخيهم وهو سبحانه يعلم أنهم يعينون بحوله وطوله ؟ وحين يرى ذا الحاجة مَنْ حوله يَمدُّون يد العون إليه يَسُرُّه أن يكونوا ذا حول وذا طول فلا يعرف قلبه الحقد عليهم ولذلك تطهَّرت المجتمعات الإسلامية عن الأحقاد الطبقيَّة والصراعات الطبقية التي يريد جهلتنا جَرَّ شعوبنا إليها ، ثم إنه سبحانه يفتح أبواب المدَدَ

والعون لكل من مد يدًا بِمَدَدٍ وعَوْن ، ولو تصورْت مجتمعًا طبق هذه الجملة وحدها لرأيت حياة أخرى ومجتمعات يسود فيها الحب والخير والألفة وليست مجتمعات تتصارع فصائلها وخصوصًا حين يُنادِي غِرْبَانُها على شُرفاتها بالأحقاد والكراهية والبغضاء وأنا لا أعجب من هذه الغِرْبان وإنما أعجب من شعب يسميهم ساسة والسياسة كياسة وليس من الكياسة أن تزرع الأحقاد بين طوائف الشعب ، وهذا هو شر البلاء ونسأل الله اللطف .

قوله عليه السلام «ومن سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة» .

من ناحية بناء الكلام فإن هذه الجملة عادت إلى طريق البناء في الجمل الثلاثة الأولى وهذا ما يؤكد ما قلته من أن مباني الحديث الواحد تتشابه ومباني القصيدة تتشابه وكذلك مباني السورة،وهذا مما لا يزال مسكوتًا عنه، وهو محتاج إلى جد وجهد من العلماء الذين أحكمتهم التجربة وليس من المبتدئين وإن كان الذي أنا فيه ظاهرًا جدًا ، وقلت إن جملة والله في عون العبد كانت بمثابة الفاصلة فخالفت لأنها متضمنة الذي مضى ومضيفة إليه ، وهذا الرجوع إلى الجمل الثلاث له دلالة يُعين على بيانها العطف الموجب للرحم بين المتعاطفات ، ولاحظ كلمة (العطف) وكأنها من الرحم ، وهذا معناه أنه لأبُدَّ من رحم بين المعطوف والمعطوف عليه وجملة من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة قد عطفت عليها الجملة التي بعدها وهي ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده وهذه الجملة أخت الجملة التي عطفت عليها وهذا ظاهر وليس مرادى ، ثم إن الواو التي في قوله عليه السلام ومن سلك طريقًا

عطَفتْ هذه الجملة وما عطف عليها على جملة من نفس عن مؤمن كربة وما عطف عليها وهذا من باب عطف جملة من الجمل على جملة من الجمل وهو في معرفة علاقات المعاني بعضها ببعض وكيف ترى حزمة من الجمل رُبط بعضها ببعض ثم عطفت على حزمة من الجمل ربط بعضها ببعض وهو باب مسكوت عنه في البلاغة والشعر وكلام الله وكلام رسوله ﷺ وكل هذا مقدمة لمحاولة كشف الرحم التي بين الحزمة الأولى وهي من نفس عن مؤمن كربة ومن يسر على معسر ومن ستر مسلمًا والحزمة الثانية وهي من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا وما اجتمع قوم ، وهذه الرحم هي التي يسميها علماؤنا التوسط بين الكمالين أي كمال الاتصال وكمال الانقطاع .

والتنكير في كلمة يلتمس فيه علمًا ينفي أن يكون المراد علمًا معينًا كعلم الفقة والتوحيد والتفسير وإنما يعني علمًا أي علم ويدخل فيه علم الطب وعلم الصيدلة وعلوم الصناعات إلى آخره ولا يشك عاقل أنه لا ينفس الكربات كما ينفسها أهل العلم ، والكربات إما أمراض وهذه لها الأطباء والدواء وله الصيادلة والعلم هو مفتاح باب الخير كله وقل مثل ذلك في تيسير العُسْرة وستر السوأة لأن الجهل لا يُغيثُ ولا يَفرِّج كُرْبة ولا يستر سوأة وربما زاد الجهل الكربات وزاد العسرات وكشف السوآت وكلام سيدنا رسول الله في هذا الحديث يَطِبُّ لداء الأُمَّة وقد أشرت إلى ما ذكر من تنفيس الكربة وتيسير العسرة إنما هو على سبيل المثال بدلالة الجملة الأخيرة والله في عون العبد وكل هذا سبيله هو العلم ، وقد قالوا من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معًا فعليه بالعلم ، ومشكلة أرض الكنانة هي الجهل وأعني جهل المسؤولين الذين استباحوا

دماء الشعب ، ووصفوا علماءنا وأساتذة جامعاتنا وأطباءنا ومهندسينا بالإرهاب ، وما أشبه الليلة بالبارحة وإن كان جاهل الليلة لم ينتفع بالبارحة وهذا في تكوين الجمل وعلاقاتها .

وكلمة « يلتمس فيه علمًا » كلمة واقعة موقعها لأنها تشير إلى أن العلم لا يؤخذ جزافًا جَزْفًا وإنما يُلتمسُ بالحيلة والتدبر ويقظة القلب وكأنك تنتقي أطايبه وتتلمسها بيديك كما تتلمس اللآلئ الكريمة ولو قال يَطْلُب فيه علمًا لما كان فيه هذا المعنى الذي هو أشبه بالتدبر وقراءة ما بين السطور وجسِّ الكلمات وتفليتها وتقليبها وتلمس المخبوء فيها والمخبوء تحتها وهذا هو طريق نمو المعرفة والتماس جديدها ، وأرى في كلمة يلتمس هذا المعنى وقال الشراح إن تنفيس الكربة وتيسير العُسْرة قد يكون بمشورة علمية لأن العلم هو الحل لكل مشكلات البشر ، ومشكلاتنا مُزْمنة لأن حكامنا جهلة وهذه الجملة « ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة » ، لو وَعَاها أساتذة الجامعات وطلاب الجامعات لتغيّرت أشياء كثيرة جدًا ، لأن العالم الذاهب إلى مَعْمَله يَدْرس ويحلل ويكتشف ما يُنفّس كربات الأُمَّة يدخل في قلب هذا والطالب الجاد الباحث يدخل في هذا وليس الفقيه بأولى في ذلك من الذي سلك طريقًا يلتمس فيه علم الرياضيات أو علم الفيزياء أو أي علم للأمة حَاجَةٌ فيه ونفع فيه ، وأخشى أن أقول إن هذه الجملة هي مظلة تظل كل طلاب مدارسنا وجامعاتنا وهذا لا يمنع أن نتعلم لنعيش ونتقدم لأن النيات الطيبات تحول المباحات إلى طاعات كما قال القرطبي رحمه الله ، وقد ذكر العلماء أن الذاهب إلى العالم ليسأله عن مسألة في دين الله هو في وقت ذهابه هذا سالك طريقًا يلتمس فيه علمًا إذا استحضر النيَّة وحين أقوم لأراجع كلمة في

لسان العرب فأنا سالك طريقًا ألْتَمِسُ فيه علمًا وكذلك حين أمد يدى على شرح النووي أو كتاب المُفْهِم أو كتاب الأُبيِّ لأتأكد من معنى الحديث فأنا سالك طريقًا التمس فيه علمًا والذي يحرمنا من بركات هذا كله هو حظنا من الإخلاص وصدق التوجه لخدمة هذه الأمة ومِثلُ هذا لا حيلة لنا فيه لأن حوله وطوله من صاحب الحول والطول ، ولولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صَلّيْنا. والعلوم لا يَسُدُّ بعضُها مَسَدّ بعض وكل علم للأمة فيه حاجة فهو داخل في هذا الباب وأنا أكرر هذا وأؤكده لأن علماء الطب والصناعة والزراعة عندنا غافلون لأنهم يعتقدون أن الثواب في طلب الفقه والتوحيد وبقيَّة العلوم الإسلامية وهذا خطأ بيّن وهو من أسباب تخلفنا لأننا اعتقدنا أن العلوم غير الشرعية لا تطلب إلا للدنيا والدنيا ملعونة وهذا رأس البلاء وقد نبهت إلى أن تنكير كلمة « يلتمس فيه علمًا » صريحة في إطلاقها على كل علم يلتمسه الناس لإصلاح حياتهم .

وقوله عليه السلام « سهّل الله له طريقًا إلى الجنة » جواب الشرط هنا مختلف عن الأجوبة السابقة لأن الأجوبة السابقة كانت منتزعة من الشرط وكان الثواب من نفس العمل والفرق بين الفعل والثواب أن التنفيس والتيسير والستر كان منك لأخيك المسلم والتنفيس والتيسير والستر الذي هو ثوابك كان من الله لك في الآخرة أو في الآخرة والدنيا وفرق بين ما يكون منك لأخيك وما يكون من الله لك ثوابًا وقبولاً وعطاء ، أمّا هنا فإن الجواب هو تسهيل الله لك طريقًا إلى الجنة وهذا فوق تنفيس الكربة وتيسير العسرة والستر ، لأن الطريق إلى الجنة هو الغاية الأخيرة أو هو غاية الغايات ويتجاوز كل ذلك ويطويه وراءه ، وتسهيل الطريق إلى الجنة يعني الهداية إلى عملها وقبول عملها وهو طريق محفوف بالمخاطر ومحفوف بالمكاره

ولا تأمن مكر الله وإن كانت إحدى قدميك في الجنة كما قـال سيدنا شيخ الأصحاب الكرام رضوان الله عليه وتسهيل الله لهذا الطريق يعـني الأمـان مـن كل هذا ولم يبق بينك وبين النعيم المقيم إلا أن تخطـو بقيـة الخطـوات وأن تَتَنبَّه دائمًا إلى الذي بين جنبيـك وتتعهّـدَه ليسـكُنَ فيـه المزيـدُ مـن الصـدق والمزيدُ من الإخلاص والمزيدُ من خلوصه من كل شيء إلا ابتغاء وجه ربـه الأعلى ثم تمضي إليها براحلتك وزادك ومن الله راحلتك وزادك ، وهنا يعني أن أفضل ما ذُكِرَ في هذا الحديث هو سلوك طريق تلتمس فيه علمًا لأنك لو لاحَظْتَ ملاحظة ثانية ووضعت الثواب بجوار العمل وجـدت سـلوك طريـق تَلَمُّس العلم هو ذاته سلوك طريق الجنة وكأنك تَسْلُك طريقًـا تلـتمس فيـه الجنة وأن العلم وَضَعه سيدنا المختار في مقابـل الجنـة ويقـول لنـا مـن أراد الجنّة فعليه بالعلم ، ثم تَقُول أنْتَ في ظل كلامه هنا إن العلم إذا كان مُحَاذِيًا بالجنة الآخرة فهو أيضًا جنة الدنيا ، وكـأن سيدنا يقـول مـن سـلك طريقًـا يلتمس فيه علمًا فهو سالك في طريق يلتمس فيه جنـة الـدنيا ، وهـذه درجـة أقل بكثير مما جاء في الحديث لأن جنة الآخرة التي في الحديث هي النعـيم المقيم والجنة التي يُنْشِئها لكم العلم في الدنيا هي الجنة الفانية ولكنهـا جنـة بدل جحيم التخلف والجهـل والفقـر والقمـع والظلـم وشـياطين المغـامرين المولعين بالسلطة والمستحوذين عليها بالرصـاص الـذي يطلقونـه في بطـون أبنـاء الـوطن وفي رؤوسـهم وفي أعنـاقهم ثـم يـبررون هـذه البربريـة بـأنهم يحاربون الإرهاب . وفجأة اكتشـفنا أننـا إرهـابيون وكـل ذلـك بسـبب جهـل الشعوب وعجزها عـن أن تَفْهـم الحقـائق وأن تقـول للمغـامر أنـت مغـامر وللظالم أنت ظالم ولو أشرقت الأرض بنور العلم ما عاشت على ربواتها هذه الخفافيش لأنها لا تعيش إلا في ظلام الجهل وسوف يسألني ربي لو تزيّدت

معنى واحدًا على كلام المبلغ عنه ﷺ واقرأ الجملة مرة ثانية بقلب أكثر تفتّحًا فستجد كلمة سهل الله له طريقًا إلى الجنة دالاً على كل الذي أقوله دلالة واضحة كدلالته على جنة الآخرة ، ومن عاش في الدنيا في جنة البر والعدل والطهارة والإيثار والمساندة والصدق وقول الحق وطلب العلم فهو جدير بأن يعيش في جنة الآخرة ، هذا والله أعلم .

قوله عليه السلام : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » .

هذه الفقرة جملة واحدة وهي معطوفة على الجملة قبلها كما قلت وقدمت الأولى لأنها الأصل ، لأنها تحدث عن من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، وهذه الجملة هي جملة ناس سلكوا طريقًا يلتمسون فيه علمًا لأنها حاصل جمع من الأولى ، وقد بُنيتْ بناء مختلفًا ، فأشار تغاير المبنى إلى تغاير المعنى لأنها لم تقل من فعل كذا فله عند الله كذا ولم تؤسس على ذلك كما أسس الكلام قبلها وإنما بنيت على بيان حفاوة الله تعالى بهم وإكرامه لهم وحفّ ملائكته بهم وذكره لهم سبحانه في الذين عنده والعندية هنا عندية منزلة ورفعة ومكانة لأن الله سبحانه وتعالى منزه عن المكان ، ويلاحظ أن هؤلاء الذين اجتمعوا كلهم سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ، وكلهم سهّل الله له طريقًا إلى الجنة لأنهم مجموعة من الأفراد الذين عُطِفُوا عليهم ولهذا قلت إنهم محصول جمع ما قبلهم ، ولهذا لم يذكر هنا أن الله سهل لهم طريقًا إلى الجنة اعتمادًا على ما ذكر في الجملة السابقة وإنما ذكر في الخبر عنهم حفاوة الله بهم وهذا لم يذكر في الجمل السابقة ابتداء من تنفيس الكربة وإنما ذكر هناك الأجر وذكرت هنا الحفاوة ..

وقد بُنيت هذه الجملة على النفي والاستثناء وهو الطريق الأم في الدلالة على القصر ، وإنما يؤتى به في المعنى الذي يجهله المخاطب وينكره أو المعنى الذي من شأنه أن يجهله المخاطب وينكره لشيء فيه إما غرابة أو فرط حفاوة وإكرام وهو دال هنا مع هذا على شيء آخر وهو عناية المتكلم صلوات الله وسلامه عليه بالمعنى وعلى رغبته في توكيده وتقريره في نفوسنا وأنهم لم يجتمعوا قط لهذا الغرض المذكور إلا وكان الذي ذكره ﷺ ، وهذه الفقرة من هذا الحديث الجليل تستدعي حديث مجالس الذكر وتستدعي منا مقارنة بين الحديثين وأول ما يظهر أنهم هناك يسبِّحُون ويكبرون ويحمدون ويسألون الجنة ويستعيذون من النار ويستغفرون ، وهم هنا فقط يتلون كتاب الله ويدرسونه ، وهذا هو المناسب للاقتران بالسالك طريقًا يلتمس فيه علمًا لأن التلاوة هنا مقدمة للدراسة وكأنهم هنا اجتمعوا للدراسة وكأنه مجلس علماء وباحثين سبق منهم أنهم سلكوا طريقًا يلتمسون فيه علمًا أهَلَهم لمجلس علم يتدارسون فيه كتاب الله ، وهذا ظاهر لا تكلف فيه ، ثم إنهم هناك غفر الله لهم وأعطاهم الجنة التي سألوها وأعاذهم من النار التي استعاذوا منها ، وليس من هذا شيء هنا لأنهم سَبَق لَهُم أن سهَّل الله طريقهم إلى الجنة وهذا التسهيل هو غاية الغايات ، ثم إنهم هناك أيضًا حَفَّتْهم الملائكة وهنا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكَرَهُمْ الله فيمن عنده وهذا يؤكد أن مقصود الحديث هو الإكرام والحفاوة لأن هذه الأربعة تشمل حَقَّ الملائكة وزيادة ونزول السكينة يعني اطمئنان القلب وسكونه واجتماعه وهو المناسب للمدارسة لأنها لا تكون إلا بهذا السكون وبهذا الاجتماع لأن انتشار النفس وتشتتها وتفرقها لا تتم بها مدارسة وكان الباقلاني رحمه الله يُوصي الدارس بأن يَنْظُر بخفض جناح

وسكون طائر وهذا فيه رجوع بزيادة معنى على الجملة السابقة وهي تلمس العلم لأن هذا التلمس لا يكون إلا بهذا السكون وهذه السكينة والسكينة من السكون ، وهذا ظاهر ، وغشيان الرحمة لهم يعني أنهم مشمولون بالرحمة وكائنون تحت غطائها ، وهذان اللذان هما نزول السكينة وغشيان الرحمة حالان من أحوال قلوبهم وهما متقاربان جدًّا حتى إن بعضهم فسَّر السكينة بالرحمة وردَّ ذلك لعطف الرحمة عليها ، والآخران اللذان هما حفُّ الملائكة وذكر الله لهم عنده أمران خارجان الأول تكريم لهم في الأرض بنزول الملائكة وإحاطتها بهم ، والثاني تكريم لهم في الملأ الأعلى بذكر الله لهم وليس وراء هذه الأربعة شيء ، وقوله عليه السلام « في بَيْتٍ من بيوت الله » ليس شرطًا لأنهم لو اجتمعوا على تلاوة الكتاب حق تلاوته ومدارسته في مدرسة أو جامعة أو رباط كما قال العلماء والمراد به الوقف لكان لهم هذا العطاء ، وإنما ذكر بيت الله لأنه الغالب ولأن أهل الله يلتمسون العطاء والإكرام بدخولهم بيوت الله سبحانه ، ومن دخل بيت الله فهو آمن ومن دخل بقلب وجل له عند الله النُزُل الذي يُقَدَّمُ للقادم على الغني الكريم ، وندعو الله أن يحفظ بيوته وأن يحفظ المتعلقين بها وألا تتحوّل إلى ثكنات للأمن ، اللهم أمين . راجع مفردات الحديث وانتقال الكلام فيه من الخاص كتنفيس الكُرْبة وأُخْتِها إلى العام في الجملة الكريمة ، « والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » وكيف تحول الكلام من هذه الأحوال الثلاثة المذكورة إلى كل يد يَمُدها كريم تعين أخاه في أي شيء يكون فيه في حاجة إلى العون وكيف تتلاقى فيها القلوب وتتآزر وتَتَساند وتتحابّ وتترابط ثم كيف يَنْتَقِلُ الكلام من الحياة اليومية والسلوك العملي إلى العلم وإعمال العقل والتماس المعرفة في أي باب من أبواب العلم أعني في كل ما يصدق عليه أنه علم

سواء علم الدين أو علم الدنيا . وكيف كان هذا الانتقال ارتقاء من السلوك اليومي في طلب العيش إلى آفاق المعرفة الدقيقة التي تلتمس التماسًا وتنال بالتطلف والحيلة والتدبر والمراجعة ثم كيف كانت منزلة هذه الجماعة التي تجتمع على العلم وهي رَمْزٌ لحياة المجتمع المشوق بطبعه إلى المعرفة والتعلم كيف يكون مجتمعًا محفوفًا بالتكريم والحياة المسالمة التي تنزل فيها السكينة وتتغشاها الرحمة وتحفُها الملائكة ويكون لها لسان صدق في الملأ الأعلى أرأيت كيف يرتفع العلم بحياة الناس ، وأرأيت كيف تكون الفظاعة حين يكون أمر الناس في يد جاهل لم يذق لذة المعرفة ساعة واحدة ؟ ولم يعرف فيصلا يفصل به بين مُلْبسات الأمور إلا الرصاص والدماء ، أسأل الله السلامة واللطف ، ثم تأتي الجملة الخاتمة وقبل أن أقف عندها أذكرك بأن تضع حديث مجالس الذكر الذي مضى بجوار هذا الحديث لا لتراجع الذي ذكرته ولكن لترى فيه شيئًا واحدًا وهو اجتماع جماعة يسبّحون ويُهلّلون ويكبرُون ويحمدون ويسألون ويستجيرون ويستغفرون وهذا هو كل ما كان منهم ثم كان من الله لهم ما كان ، وهذا بخلاف هذا الحديث فإن لله تنوعات لا حصر لها لأن ذكر الكُرْبة والعُسْرة والستر مقدمة للعون في ما لا حصر له ثم الانتقال من العالم العملي المعيشي اليومى إلى قباب العلم ومعارجه إلى آخره .

والجملة الأخيرة هي قوله عليه السلام « ومَنْ بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه » وهذه الجملة في عموم معناها وإيجاز لفظها وسهولة مخرجها أخت جملة « والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » ولاحظ ما في هذه من تسهيل الحفظ نجد لفظ الجلالة والعون والعبد هي الكلمات الأساسية في بناء الجملة : الله في عون العبد ، ثم يحدث البيان في هذا المعنى نفسه قلبًا

خفيفًا فيكون العبد في عون أخيه ، وكذلك التي معنا أبطأ به عمله . شقها الثاني لم يسرع به نسبه ولاحظ عمله ونسبه وما بينهما من شبه و« بَطَأَ » وهي أخت أسرع وهكذا تتأمل كلامه عليه السلام من زاوية المادة اللغوية التي يتكون منها وليس من زاوية دقة المَبْنَى وصواب المعنى فحسب وإنما من الزاوية التي كان الكلام هُيِّئ بها ليحفظ ، ثم إن الجملتين من صواب المعنى وسداده بمكان متين لأن هذين المعنيين من المعاني التي تُسَلِّمُ بها العقول في كل أُمَّة وفي كل جنس وفي كل جيل وهي من هذه الزاوية من البلاغة الإنسانية العامة التي يحفظها كل إنسان مؤمنًا كان أو غير مؤمن ثم إن موقع معنى هذه الجملة من سياقها موقع حميد ، كما بيّنا في موقع الجملة السابقة وبيان الموقع الحميد هنا ، هو أنها مولودة من رحم الجملة التي قبلها لأن التي قبلها مدارسة لكتاب الله ، ومدارسة جماعية وليست فردية وكأن هذا التجمع في الدرس وتحلق الملائكة به إشارة إلى استحسان العمل العلمي الذي يقوم به فريق لأن كثيرًا من الأعمال العلمية الآن لا يمكن أن تُنْجز إلا بما يسمونه فريق عمل ، المهم أن هذه الجماعة التي تتدارس الكتاب وتستخرج منه ما أمر الله وما نهى لا تفعل ذلك ترفًا علميًّا وإنما تفعل ذلك لنعمل ما أَمَرَ ونكف عن الذي نهى لأننا لم نتعلم العلم للعلم وإنما نتعلمه لنعمل به وليس هناك عاقل في أي زمان ولا في أي أُمَّة قال إننا نتعلم العلم للعلم لأن العلم إذا لم يتحول إلى عمل فهو كنز مُغلق عليه ومُقيّد ومحبوس، ومن الطريف أن هذه اللغة الشريفة صاقبت بين العلم والعمل ، فإذا كانت هذه الجماعة التي نزلت عليها السكينة وغشيتها الرحمة وحفتها الملائكة وذكرها الله فيمن عنده دائبة دؤوبة في البحث والنظر ومن ورائها أهل الله وخاصته يسمعون أمره فينقادون ويسمعون نهيه فينكفون فإن جملة ومن « بطأ به عمله » حين تأتي بعدها وأقول إنها من رحمها فلست متجاوزًا

ولا متكلفًا لأن هـذه الجملـة الأخـيرة مسـبوقة بمعمعـان علـم ومـن ورائـه مَعْمعان عمل فإن ذكر بعد ذلك متكئٌ على أريكته واهمـا أن حسـبه ونسـبه سَيُسْرِعُ به كان هذا كلامًا متلائمًا جدًا ، وإن كان فيه شوب من السخرية بهذا المُسْتَرْخِي وهو على حافة معمعان علم وعمل يَعنِي وهو بمقربة منهم ولم يتفاعل معهم وإنمـا ظـل مُتَمـدِّدًا ثِقـةً منـه بـأن رفـات أبيـه الـتي في الـتراب ستنهض به . وإذا قلت إن هذه الجملة امتداد للحديث كله فلست متجاوزًا لأن الحديث شقّان كما بيّنا شق عملي ذكرتْ منه أحوال ثلاثة على سبيل المثـال وهي تنفيس الكربة وتيسير العسرة وستر الزَّلـة ثـم جـاءت الجملـة الأخـيرة فذكرت كل أحوال المساندة والمساعدة ، ثم جاء القسم الثاني وهـو الجانـب العلمي في الحديث وبدأ بسَعْي المفرد وسلوكه طريقًا يلتمس فيـه علمًـا ثـم سَعْى الكوكبة على هذا الطريق ، ثم جاءت هذه الجملة الفاصلة وهـي ومـن بطأ به عمله والمراد بالعمل هنا عمـل السـعي كمـا في الشـطر الأول وعمـل العقل كما في الشطر الثاني وعليه تكون هذه الجملة فاصـلة للحـديث كلـه ، وأذكرك بأني أستعيذ بالله من أن يكون من همومي التزيُّـد في تعظـيم بلاغـة سيدي وسيد سادتي لأنها عظيمة بنفسها وكـل همِّـي أن أكْشِـفَ بعـض هـذه الجوانب لأنه عليه السلام ليس أفصـح مـن نطـق بالضـاد فحسـب وإنمـا هـو أفصح من أرسل إليهم وقد أرسل عليه السلام إلى الناس كافـة ولـذلك نجـد بلاغته بلاغة الإنسان ومعانيـه معـاني الإنسـان أعـني بلاغـة يحفظهـا الإنسـان المعتدل الطبع أينما كان ومعانيه معان لا ينكرها ذَوُوا العُقول في الأمم كلها والأزمنة كلها كهذا الذي نحن فيه ، ثم إن هذه الجملة تحـذِّرُنَا مـن وهـم لـو شاع فينا لكان من أهـم أسـباب التخلـف وهـو التغنّـي بمـا كـان مـن آبائنـا وأجدادنا مع أن أعمالهم الكريمة طويت كما طوى زمـانهم وذكـرهم وذكـر فعالهم شيء وفعلنا الذي نعيش به على أرضنا ونُنْجزه لزماننـا شـيء آخـر ،

ولهذا لا تجد هذه النعمة وهذا الغناء لا يشيع إلا عند المتخلفين الذين كلما أوشك اليأس والتخلف والجهل والفقر والمرض أن يأخذ بكظمهم يهرعون إلى ماض مات ومات أهله وقالوا نحن أبناء حضارة عمرها سبعة آلاف سنة نعم يا عزيزى وأنا معك ولكن هذا لا يملأ بطون الجائعين ولا يشفي المرضى ولا ينقشع به ظلام الجهل ولا ظلام الظلم ولا ظلام القمع والقهر والفساد . وأظن أن الذي وضع هذا تحت ألسنتنا هم أعداؤنا لأن حضارة سبعة آلاف سنة تَطمِسُها العشوائيات التي يعيش نصف الشعب فيها وتطمسها الأميَّة التي تزحف على النصف الثاني وتطمسها الأمراض التي لم نتفوق في شيء كتفوقنا فيها فنحن الدولة الأولى في الفقر والمرض والجهل وحين نبدأ الثورة الإصلاحية لتغيير الحال الذي ليس من المحال سمعت إخواننا يقولون نحن أبناء حضارة سبعة آلاف سنة يعني علينا أن ننسى ما نحن فيه أو نتصالح معه ونغنِّي لبناة الأهرام وننسى بناة العشش أقول هذه الجملة تطارد هذا التخلف اللابس ثوب الثقافة وثوب التاريخ ، ولم يبق إلا أن أحلل بناء هذه الجملة الكريمة وأول ما يلاحظ فيها إسناد كلمة « بطأ » إلى العمل ، هذا الإسناد الذي أشرَب كلمة العمل شوبًا من المجاز صار العمل به في صورة راحلة يرحل عليها هذا الإنسان وأن الكل يرحل من شاء ومن أبَى وأن الرحلة فرض مفروض وكتاب مكتوب وأننا لم نرحل بأعمالنا وإنما نرحل عليها ، فهي راحلتنا وعليها زادنا وشرابنا ، وأن المتخاذل بدل أن يوصف هو بالبطء وصف عمله بأنه يُبطِّئ به والتشديد في كلمة (بطأ) يشير إلى التضعيف وأنه بطء بطيء ، ثم إن الجار والمجرور في قوله عليه السلام (به) وتقديمه على الفاعل ، تأكيد لمعنى أهمية العمل ، وأنه هو الذي يسرع بك وهو الذي يبطئ بك فإذا كنت جادًّا متجردًا ناهضًا في عملك ، كنت من المسرعين أعني المسارعين في الخيرات والسابقين السابقين في كل ما يكون

فيه الإسراع حسنًا في الدنيا والآخرة وكل ما يكون فيه السبق حسنًا في الدنيا والآخرة ، وعكسه البطيء العاجز الناظر إلى الوراء والذي دفن نشاطه ونفسه مع رفاة آبائه ، فإنه مع الاعتراف بفضل آبائه قد صار عبئًا عليهم لأنه اكتفى بأن سُلَّ من ماجر محض ولم يَبْنِ كما بنوا ، الجملة الكريمة تقول لذوي الحسب الموروث افعل كما فعلوا فتذكر بفعلك ويُذكر معك حسبك وإذا لم تذكر بفعلك فلن تذكر ولن يذكر حسبك وكنت أنت بتخاذلك سببًا في إماتة ذكر آبائك ، وهذا مما تعارف عليه العقلاء وقالوا :

وما الحَسَبُ الموروث لا درّ دَرُّه ... بمُحتَسَبٍ إلا بآخر مُكْتسب

الخلاصة أنه لا يجوز أن تبقى في الجماعة شريحة عاطلة فارغة مستغية بمحصصاتها الظالمة عن أن تمَدُّ أيديها في الكفاح مع الأيادي الكريمة الممتدة ، وأن تكون على رأس الناس لأن لهم حسبًا موروثًا كان هذا الحسب كفاحًا شريفًا نبيلاً أم كان سَطْوًا غير شريف ولا نبيل ، ولاحظ أن الجملة الكريمة تضع العمل في كفة والحسب في كفة ثم ترجح كفة العمل على كفة الحسب وتقول لغامض النسب انجز أعمالا كريمة لتكون أفضل من ابن السيد الشريف الذي عجز عن أن ينجز أعمالاً كريمة ، ثم إن هذه الجملة مقتبسة من قوله تعالى ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ، ومن مثل قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ ومن مثل قوله تعالى ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ ولو جمعت نظائرها في كلام الله وفي كلام رسوله ﷺ لوجدت خيرًا كثيرًا تشحذ به همم أبناء الأمة .

ومما يذكر مع هذا الحديث ما رواه مسلم بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه « قال خرج معاوية على حَلْقَةٍ في المسجد فقال ما أجْلَسَكُمْ ؟ قالوا جلسنا نذكر الله ، قال : آللهِ ما أجْلَسَكُم إلا ذاك ؟ قالوا والله ما أجْلَسَنا

إلا ذاك . قال أما إنِّي لم أستحْلِفكُمْ تهمة لكم وما كان أحَدٌ بمنْزِلَتِي من رسول الله ﷺ أقلَّ حديثًا عنه مني وإن رسول الله ﷺ خرج على حَلْقةٍ من أصْحابه فقال ما أجلسكم ؟ قالوا جلسنا نذكر الله ونحمدُه على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا قال آلله ما أجْلسَكُم إلا ذاك ؟ قالوا والله ما أجلسنا إلا ذاك قال أمَا إنِّي لم أستحلفكم تُهْمةً لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة».

الذي ألاحظه هو أن بالغ إكرام الله لمجالس الذكر أكبر بكثير من الذي استخرجته منها واعتبرته من أسباب هذا الإكرام البالغ لأنني لم أستطع أن أستخرج إلا أنها تقوّي عُرَى الأُخَوّة والتماسك والترابط بين أهل هذه المجالس ، ومن أكثر ضروب التراحم بين الناس الذي عشت بينهم هو الترابط الناشئ من الرفقة عن الصلاة وفي لقاءات المساجد ، والذكر ، لأنها تكون خالصة لله وما كان لله دامَ واتّصَلَ وما كان لغير الله انقطع ، أقول هذا مع أهميته ليس كافيًا من حيث هو سَبَبُ هذه الحفاوة التي تراها تَبْلُغ ذروتها في أنهم لا يشقى بهم جليسهم ، وأنهم تتنزّل عليهم السكينة وتغشاهم الرحمة ، وتحفُّهم الملائكة ويذكرهم الله فيمن عنده ، ثم يباهي بهم الملائكة ، وهم ما زادوا على أن نقلوا التسبيح والحمد والذكر من الحالة الفردية التي يعالجها كل منهم وحده إلى الحالة الجماعية مع ملاحظة أن ذكر الرجل وحده بعيد عن الشبهة ، وذكره في الجماعة ليس بعيدًا عنها ، قلت هذا لأني لا أشك أن وراء مجالس الذكر من الفضل والأهميَّة ما لا يزال غائبًا كما أننا لا ندري الذي وراء مثل يد الله مع الجماعة والعلم لا يضيع بين اثنين إلى آخر ما تجد فيه التوجيه نحو الجماعة .

والذي في نفسي الآن وأكره أن أسْكُت عنه ، هو أنني أرى إلحاق كل اجتماع يبحث في مصالح الأُمَّة ويُحقِّق لها شيئًا من الخير هو ملحق بمجالس الذكر بشرط أن تُحضِرَ النفوسَ النوايا الصالحة التي تستهدف ابتغاء وجه الله في دفع المضرة أو جلب المسرة لهذه الأمة التي انحصرت فيها الوحدانية وانحصرت فيها عبادة الله في الأرض فليس في الأرض عابد يعبد الله على الوجه الذي يرضاه سبحانه إلا أن يكون واحدًا منهم وإذا كانت الأعمال العلمية الكبيرة التي تحدث تقدمًا في الصناعة أو في الزراعة أو في تنمية الثروات الحيوانية أو تطويرًا في صناعة آلة الحرب هذه الأعمال الكبيرة التي تكتشف سرًا من أسرار الوجود تتأسَّسُ عليه تطورات في أي مجال لا تتم إلا بفريق علمي بطريقة منظمة ومَدْرُوسة فإن فريقنا العلمي إذا استحضر النوايا الطيبة كان اجتماعه ملحقًا بمجالس الذكر وكانت كل الكرامات التي رأيناها لمجالس الذكر له نظيرها ويزيد ذلك وينقص بمقدار ما في القلوب من نوايا وتوجهات ، ومن الواجب أن نستحضر الحقائق التي غابت في دين الله وهي أن الأعمال الصالحة تتجاوز المألوف من معناها إلى كل ما تصلح به حالة من أحوال الأُمّة وأظن أن تنفيس الكربات ربما كان باكتشاف دَوَاء يكتشفه هذا الفريق العلمي وأن تيسير العسرات ربما كان بتنمية ثروة زراعية أو حيوانية تجعل حياة الناس أكثر رخاء . هذا والله أعلم .

الحديث المروي عن رسول الله ﷺ في هذا الحديث والذي سمعه معاوية ورواه عن رسول الله ﷺ هو قول سيدنا معاوية : إن رسول الله ﷺ خرج على حَلْقة من أصحابه فقال ما أجلسكم ؟ قالوا جَلَسْنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ به علينا إلى آخره ، وكان المألوف أن يروي معاوية ما رأى وما سمع وأن يروي عنه أبو سعيد كما يروي الرواة ولكن الأمر هنا

اختلف فقد رأى معاوية حَلْقَة في المسجد فاستحضرت عنده حلقة أصحاب رسول الله ﷺ فقال لها ما قاله رسول الله ﷺ لحلقة أصحابه ثم كان من أبي سعيد ما كان من مُعاوية أعني حكى لنا ما كان من معاوية مع الحلقة التي رآها كما حكى معاوية ما كان من رسول الله ﷺ مع الحلقة التي رآها فصار الحديث حكاية أحداث أكثر من أن يكون حكاية أقوال ، وهذا هو الفرق بينه وبين غيره .

قول أبي سعيد « خرج معاوية على حلقة في المسجد » كان يمكن أن يقول أبو سعيد رأى معاوية حلقة في المسجد ولكنه آثر طريقة إبانة معاوية عن ما كان من رسول الله ﷺ فسلك سبيل معاوية في الإبانة مع أن خروج رسول الله ﷺ على حَلْقة في المسجد هو الأمر المتوقع لأن بيوت رسول الله ﷺ كانت في مسجده وليس الأمر كذلك مع معاوية ولذلك كان الأنْسَبُ أن يقول أبو سعيد رأى معاوية حلقة أو مرّ على حلقة وإنما آثر أن يقول خرج معاوية ليعين كلامه من أوله على استحضار ما كان من رسول الله ﷺ لأن كلام معاوية لأهل الحلقة ليس دِينًا يؤخذ لأنه غير مبلغ عن الله وإنما الذي يؤخذ كلام رسول الله ﷺ لحلقة أصحابه ، المهم أن كلمة خرج في كلام أبي سعيد استدعت صورة خروج رسول الله ﷺ على حلقة أصحابه لأن هذا هو الأهم .

وقول أبي سعيد خرج معاوية على حلقة في المسجد هو من قول معاوية إن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه . والفرق الذي بينهما هو أن معاوية أكّد الخبر بتقديم المسند إليه وبحرف التوكيد وأبو سعيد أرسل الخبر إرسالاً وذلك لأن معاوية يحدث حديثًا عن رسول الله ﷺ ويبلغ بلاغًا عن رسول الله ﷺ بلَّغهُ جبريل وهذا مَوْطِنُ التوكيد ومقامه أما أبو سعيد فإنه

يحدث عن معاوية وعن خروجه إلى الحلقة وهذا شيء آخر ، وقول أبي سعيد «فقال ما أجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله» سؤال معاوية هو سؤال رسول الله ﷺ والسائل مختلف والمسؤول مختلف والحال مختلف وكل ذلك له أثره في المعنى ، وسؤال معاوية للجالسين في المسجد وقوله ما أجْلَسَكُم سؤال غريب لأن الأصل في الجالسين في المسجد أن يكونوا جلسوا للذكر ومعاوية يعرف ذلك ولكنه اغتبطت نفسه لما استحضر موقف رسول الله ﷺ وأراد أن يُبشرّهم بما بشَّر به رسول الله ﷺ أصحابَ حَلْقته ، وظني أنهم لم يفطنوا إلى ذلك إلا في آخر الحديث بل إن هذا السؤال أوحشهم وفرق بين أن يقول رسول الله ﷺ لأهل حلقة ما أجلسكم وأن يقول ذلك معاوية لأنهم يأخذون دينهم عن رسول الله ﷺ ويتوقعون من سؤاله تعقيبًا هُوَ من الدين أو بشارة بالقبول ، أو نصحًا يكون به الذكر أعظم أجرًا أو غير ذلك ، ولذلك جاء جوابهم مُشْبعًا قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده على أن هدانا للإسلام ومنّ به علينا ، وفي طيّ هذا ثناء منهم على رسول الله ﷺ لأنه هو الذي جاءهم بالذي أُنْزِلَ إليهم ، وكان يكفي أن يقولوا جلسنا نذكر الله كما قالوا لمعاوية وإنما أضافوا الحمد والثناء والمنّ لأنهم يخاطبون الذي بلَّغهم عن ربه صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا هو الفرق بين تلقّيهم لسؤال رسول الله ﷺ الذي هشّتَ له قلوبهم وبشّت فأشْبعت الكلام وأطالت حيث الإصغاء مطلوب ولم يكن شيء من ذلك عند الذين سألهم معاوية . أولاً لأن معاوية واحد من الناس لا شأن له بالذي هم فيه ولأن الذين في المسجد لا يقال لهم ما أجلسكم لأنه لا يجلسهم إلا الذكر ثم إنه ربما كان من هؤلاء من هو من أهل السابقة ومعاوية من مسلمة الفتح ،

وربما كان منهم من كان مجاهدًا مع رسول الله تحت راية الإسلام ومعاوية كان محاربًا لدين الله تحت راية أبيه قبل أن يفتح الله أقفال قلوبهم والذي يرجح عندي أن هذا السؤال لم تتلقّاه نفوسهم بالبهجة هو أن جوابهم كان مقتضبًا إذا قيس بجواب أصحاب حلقة رسول الله ﷺ فقد قالوا لمعاوية جلسنا نذكر الله ، وكأنهم لم يقولوا شيئًا لأن المعلوم أن الجالس في المسجد لم يجلس إلا لذكر الله وخصوصًا هذا الجيل .

وقول معاوية آلله ما أجلسكم إلا هذا هو بلفظه قول رسول الله ﷺ لأصحاب حلقته وفرق كبير بين تلقي أصحاب الحلقتين لأن رسول الله ﷺ حين يسأل هذا السؤال فهو عند أصحابه المبلغ لدين الله وهو يقصد إلى أن يعلمهم ما يجب أن يعلموه ولا يتصور أن يكون وراء سؤاله عليه السلام شيء إلا أن يعلمهم وليس الأمر كذلك بالنسبة لمعاوية مع حلقته لأنه ليس من حقه أن يتدسس في الذي في نفوسهم ومن حق رسول الله ﷺ أن يتدسس ولذلك كان استحلاف معاوية لهم من الممكن أن يكون فيه مغاضبة لهم أو من الممكن أن تغضبهم ولو لم يقصد المغاضبة مع أنه لو قال لهم ما أجلسكم إلا هذا من غير استحلاف لكان كلامًا مقبولاً لأنه سؤال عن أنه ليس لهم مقصد في هذا المجلس إلا الذكر وهم لم يخبروا عن ذلك في قولهم جلسنا نذكر الله ، لأن معنى هذه الجملة لا ينفى أن يكون مع الذكر شيء آخر كالمشاورة في أمر مثلاً لأنك إذا قلت جاءني زيد لم تنف أن يكون قد جاء مع زيد غيره ، فإذا قلت لك ما جاءك إلا هو كان سؤلاً عن جواب لم أفهمه من قولك جاءني زيد ، وإنما كانت الغرابة في الاستحلاف ولاحظ الفرق بين صياغة الجملتين (جلسنا نذكر الله) ما أجلسكم إلا ذاك ، وأن الجلوس في الجملة الأولى مسند إليهم والإجلاس في الجملة الثانية

مسند إلى اسم الإشارة العائد إلى الذكر وضمير الفاعلين في الأولى صار مفعولاً في الثانية وهذا من التجوز في الإسناد ، وقد دَلَّ النفي والاستثناء على أنه لم يجلسهم إلا هذا ، وفي هذا التجوز في الإسناد شوب من التخييل وأن الذكر هو الذي أمْسكهُم وأجْلسهم كما تقول محبتك جاءت بي إليك ، وكأن المحبة هي التي حَمَلَتْك إليه ، وكان السؤال من رسول الله ﷺ وأنه استحلفهم مع أن جبريل أبلغه أن الله يباهي بهم الملائكة وهذا قاطع في أنه ما أجلسهم إلا الذكر لأنه عليه السلام أراد أن يضع أيديهم على الشيء الذي بلغوا به هذه المرتبة عند الله وهو خلوص مجلسهم لذكر الله لا غير وأن يقول لهم هكذا العمل إذا كان خالصًا خلوصًا تامًّا لله فليس له عند الله إلا القبول والرضا والجزاء الأوفى وهذه رسالة منه عليه السلام ليس لأهل الحلقة فحسب وإنما لكل من شهد الشهادتين إلى يوم ينفخ في الصور ، أما سؤال معاوية رضي الله عنه فقد كان مقدمة لبيان ما كان من رسول الله ﷺ مع أهل حلقته وأنه يبشرهم بما بشَّر به رسول الله ﷺ أصحابه وأنهم ما داموا لم يجلسوا إلا للذكر فلهم عند الله ما لأصحاب حلقة رسول الله ﷺ لأن الله سبحانه يعطي للأعمال وليس للعاملين هذه الأعمال فمن عمل مثقال ذرة خيرا كان ذلك أم شرًّا يره ، وهذه أيضًا رسالة من معاوية لهم ولنا ، وكأنه رضوان الله عليه يقول إذا طمعتم في إكرام الله لعباده المكرمين فافعلوا مثل فعلهم ولكم مثل كرامتهم ، لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى .

قول سيدنا معاوية : « أما إني لم أستحلفكم تُهمه لكم » التُهمة بسكون الهاء وفتحها وأصلها من الوهم أبدلت الواو تاء واتهمه نسبه إلى الوهم وهذه الجملة قالها رسول الله ﷺ لحلقته ولم يكن أحد منهم يظن أن رسول الله ﷺ يتهمه وإنما كان الذي يقع في نفوسهم اليقظى أنه يمهد بذلك للإخبار بقبول

الله لذكرهم وحمدهم لأنه عليه السلام موصول بربه ، ولأنه أيضًا يريد أن يعلمهم ضرورة خلوص الذكر والحمد لله وخلوص مجلس الذكر والحمد للذكر والحمد لا ينازعه في مجلسهم قصْدٌ آخر أما في كلام معاوية فإنها لإزالة ما يُتَوَقَّع وجوده في أنفسهم وأنه رضي الله عنه يتهمهم وهم معذورون في ذلك لأنهم لا يجدون في خطابه لهم بهذه اللغة وجهًا آخر غير التهمة يحملونه عليه ، ولم يكونوا إلى هذه اللحظة يعلمون أنه يحكي لهم خطاب رسول الله ﷺ مع مشهد كمشهدهم وإنما كان كل كلام معاوية مقدمة للحديث الذي رواه عن رسول الله ﷺ ، وبدأ الكلام يشير إلى هذه الرواية إشارة قريبة في الجملة التي قالها بعد هذه الجملة وهي قوله رضوان الله عليه « وما كان أحَدٌ بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقلّ عنه حديثًا مني » وبدأ بعدها يروي الحديث « وأن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه » إلى آخره. والمراد بالمنزلة في قوله وما كان أحد بمنزلتي ، هي قربه منه وسماعه منه عليه السلام وليس المراد بالمنزلة القرابة لأن أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ بعد بني هاشم هم بنو عبد شمس وبنو المطلب وبنو نوفل وكلهم أولاد عبد مناف ليس هذا مرادًا لأنه لا دخل له في الرواية ولم يقل معاوية لم يكن أحد بمنزلتي من رسول الله وأنه أقرب الناس إليه عليه السلام وإنما قيد هذا بقوله (أقل عنه حديثًا مني) والمعنى أن كل الذين كانوا بمنزلتي من رسول الله أكثر حديثًا عنه مني ، وإنني كنت أقل نظرائي رواية عنه وذلك لتحرجه رضوان الله عليه ، وأنه يدقق فيما يرويه عن رسول الله ﷺ وأنه سمع أكثر مما رَوَى وكل هذا يؤكد ويوثق الحديث الذي بدأ روايته بقوله عن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه إلى آخر الحديث . ومن الواجب أن نلتفت إلى قوله رضي الله عنه أقل عنه حديثًا مني من جهة تقديم الجار

والمجرور (عنه) على متعلقه وهو (حديثًا) وأصل الكلام أقل حديثًا عنه مني وذلك لأهمية الجار والمجرور وأنه أساس في بيان الغرض ولذلك قدم .

وقوله عليه الصلاة والسلام «ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة» كلمة «يباهي بكم الملائكة» ليست من قولنا يباهي فلان فلانًا أي يفاخره لأن الله عز وجل منزه عن ذلك وإنما المراد كما قال الشراح يُظْهر حسنكم وحسن عبادتكم للملائكة من البهاء الذي هو الحسن والجمال وأن جلوسكم للذكر ما أجلسهم إلا الذكر له عند الله هذا القبول وهذا الرضا وهذا الحسن ، ومعنى الاستدراك في قوله عليه السلام أما إني لم استحلفكم تهمة لكم ولكن أتاني جبريل ، يعني أنني أستحلفكم لأعلم مقدار تجرد مجلسكم وخلوصه للذكر لا يشركه فيه أحد حتى أعلم وأعلمكم أن تجرد مجلسكم للذكر لا يشركه فيه أحد هو عند الله بهذه المكانة وأنه سبحانه يذكر ذلك لملائكته الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . هذا والله أعلم .

• من دعاء رسول الله ﷺ

روى مسلم بسنده عن زيد بن أرقم : قال : لا أَقُولُ لكم إلا ما كان رسول الله ﷺ يقول : كان يقول : « اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك من العَجْز والكسل ، والجُبْن والبُخْل ، والهَرَم وعذاب القَبْر . اللهم آت نَفْسِي تقواها وزكّها أنت خير من زكَّاهَا ، أنت ولِيُّها ومولاها ، اللهم إني أعوذُ بك من علم لا يَنْفَع ، ومن قَلْب لا يَخْشَعُ ، ومن نَفْسٍ لا تَشْبع ومن دعوة لا تستجاب » .

روى مسلم بسنده عن عبد الرحمن بن يزيد بن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمْسَى قال : « أمْسَيْنَا وأمْسَى الكلُّ لله والحمد لله ، لا إله إلا الله وَحْدَه لا شريكَ له قال : أراهُ قال فيهن له الملك وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير ، رب إني أسألك خير ما في هذه الليلة ، وخَيْرَ ما بَعْدها ، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة وشر ما بعدها ؛ رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكِبْر ، رب أعوذ بك من عذاب في النار ، وعذاب في القبر ، وإذا أصبح قال أيضًا أصبحنا وأصبح الملك لله » .

روى مسلم بسنده عن أبي بُرْدَة عن عليٍّ قال : قال لي رسول الله ﷺ قل « اللهم اهدني وسدّدني ، واذكر بالهدى هداية الطريق ، والسداد سداد السهم ».

باب الدعاء في الكتاب والسنة باب حافل بالمعاني الكريمة التي يضرع فيها الداعي إلى الله أن يسكنها في قلبه حتى تأخذ بيده إلى صراط الله المستقيم وأنه ليس أعلق بقلب المؤمن من هداية تَهْديه إلى الطريق الذي يصل به إلى مرضاة الله تعالى لأن رضى الله هو غاية المسير ونهاية الرحلة وليس وراء هذه الغاية غاية تُرْجى ثم إنه زاخرٌ أيضًا بالمعاني غير الكريمة التي يضرع المسلم فيها إلى الله أن يحفظ قلبه منها وأن يحفظ حياته منها

لأنها إن سكنت القلب عثّرت طريقه وبدَّلت سبيله وسارت به إلى غضب الله والويل لمن لم يدفع عن نفسه هذا الغضب والويل لمن يؤمن بأن مرجعه إلى الله حين يتصور أنه سيلقى الله وهو عليه غاضب .

ويلاحظ أن لغة الدعاء لغة متميزة وأهم ما يميزها أنها لغة مشبوبة ودافئة وحيَّة ، ترى القلوب فيها وَجلَة والرجاء فيها رجاء شديد الولع .

ولم تكن الغاية دراسة الدعاء في صحيح مسلم لأن هذا باب وحده وإنما ذكرت ما أفتح به باب دراسة هذا الباب لأني أرى أن ما طلب رسول الله ﷺ من ربه أن يعيذه منه وما طلب من ربه أن يمنحه إياه أرى أن هذين فيهما طب لداء الأُمَّة وأن رسول الله ﷺ لما أراه الله ما يُصيب أُمَّته في أيام مستقبلها علمنا دعاء متضمنًا شفاء لهذه الأوْبئة التي علم رسول الله ﷺ أنها ستصيب أُمّته ، وأنا حَرِيصٌ على أن أستخرج من كلامه ﷺ ما هو طبٌّ لأدوائنا لأن يقين أنه لن يشخص داء هذه الأُمَّة ولن يصف لها ما تبرأ به أحد يقارب تشخيص سيدها صلوات الله وسلامه عليه لأنه مبلغ عن ربه وهذا هو الأساس الذي تقوم عليه الأمة الإسلامية وما استعاذ منه رسول الله ﷺ لا أشك لحظة أنه هو داء هذه الأمة وما رجاه ﷺ هو دواء هذه الأمة ثم إن الحق جل وتقدَّس لما جعلها خير أمة أخرجت للناس وخَاطَبهَا ونهاها عن الوهن الذي هو الضعف ونهاها عن الحزن الذي هو الانكسارُ وذكرها بقوله سبحانه ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ ﴾ فتح لها باب الخيريَّة وفتح لها باب الأعلون ورسم لها الطريق إلى الخيرية وإلى الأعلون وحَدَاها على الطريق الواصل بها بدعاء رسول الله ﷺ وبيانه لها ما تَسْتَعِيذُ بالله منه لأنه مُعوِّقٌ لها عن الوصول إلى الخيرية والأعلون وبين لها ما رجاه رسول الله ﷺ وطلب من ربه أن يعطيه إياه وأن هذا هو الطريق الواصل بها إلى الخيرية والأعلون .

وأكتب هذا لأنه هو الذي وقع في نفسي من أحاديث الدعاء ولم أقرأ شيئًا في كلام الله وكلام رسوله ﷺ إلا أنزلته على واقع الأمة في الزمن الذي أكتب فيه وكأنه نزل لهذه اللحظة التي نعيشها وأرجو أن يهيىء الله لهذه الأمة علماء نصحاء يُبيِّنُوا أفضل مما بيّنت ويقنعوا أفضل مما أقنعت وَوَدِدْتُ لو أني كتبت جملة الرذائل التي استعاذ رسول الله ﷺ منها وجملة الفضائل التي دعا رسول الله ﷺ ربه أن يُثبتها في قلبه لأني لا أشك أن جملة الرذائل هذه هي التي تأكل قوة الأُمَّة وتُوهِنَها وأن جملة الفضائل هذه هي التي تجمع قوتها وصلابتها وتدفع بها إلى التقدُّم والقوة والنصر ، وأنا أنبه إلى الذي لم أفْعله ، واكتفيت بدراسة الأحاديث ومنها ما يجمع بين ما يستعاذ بالله منه وبين ما يُرْجى من الله أن يَمْنَحه قلوبنا ، وحديث زيد بن أرقم رضوان الله عليه قال فيه رسول الله ﷺ رذائل يستعيذ بالله منها وهي : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، والجبن والبخل ، والهَرَم وعذاب القبر ، وهذه الكلمات السِّتَّ جاءت أُخْتَيْن أختين ، فالعجز أخو الكسل ، والجُبْن أخو البخل والهرم أخو القبر ، ثم إنك تجد قرابة ونسبًا بين الأختين الأولتين والأختين الثانيتين لأن العجز ضعف العزم والجبن من هذه السلالة وكذلك البخل ، ولو قلت إن الجبن والبخل مولودان من العجز والكسل لم تبعد ، ثم إنك تجد الهرم وعذاب القبر ممسكًا كل بكل لأن الهرم رسول المنية وطائرها ونذيرها وصائحها وهذا ظاهر ، والذي فيه شيء من الخفاء هو صلة هاتين الأختين (الهرم وعذاب القبر) بما قبلهما ، والذي أراه أن ذكر الهرم بعد الاستعاذة من الأربع السابقات يعني أنه عليه السلام يستعيذ بالله منها حتى يلقاه وهو برىء من قليلها فضلاً عن كثيرها وقد أومأ عليه السلام إلى هذه الرابطة في حديث عبد الرحمن بن يزيد لما قال عليه السلام وأعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، فجمعهما عليه السلام .

وراجع قوله عليه السلام : «اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها» ، وفي هذا القسم انتقل عليه السلام من طلب السلامة من أوصاب النفوس وسيئاتها وسوآتها إلى طلب الخيرات وعمل الصالحات وهذا انْتقَالٌ من التخْلِية إلى التحلية أعني تخلية النفوس من الرذائل إلى تحليتها بالفضائل ، وأوَّلُ فضيلة طلبها رسول الله ﷺ بعد طلب التبرئة من الأدواء هي قوله «آت نفوسنا تقواها» وهذا إذا حدث وأوْدَعَ الله في نفوسنا تقواها فقد برئت من كل شرٍّ ومُنِحَتْ كلَّ خَيْر لأنه لا شيء أعلى من أن تسكن تقوى الله في القلوب وأن تقواها إذا كانت عطية من الله لهذه القلوب فلن يُزَحزحها من هذه القلوب شيء ، لأن الذي ثَبَّتَه يدُ الله لا يبرحُ القلب ، ثم إنه عليه السلام كما بدأ في هذا القسم بأم الفضائل بدأ في القسم الأول بأم الرذائل وهو العَجْز لأن العجز يقعد النفس عن كل خَيْر ، وقابله بالتقوى التي تَشحذُ النفس لفعل كل خير ، وتقواها وقايتها التي تقيها من عذاب الله والتاء بدل من الواو والذي يقى من عذاب الله لا يكون إلا من الله فليس لك منجاة من عذابه إلا بيده سبحانه .

وقوله عليه السلام «زكها أنت خير من زكاها» التزكية الطهارة والنماء ومنه الزكاة المعروفة وهو عليه السلام شديد العناية بالنفس لأنها منها الصلاح والإصلاح والفساد والإفساد ، وأن الله لا يغيِّر ما بنا من حال إلى حال أحسن حتى نغيِّر ما بأنفسنا وأنها هي الفاعل الحقيقي على هذه الأرض تفعل الخير وتفعل الشر ، ولم يكتف عليه السلام بأن يُؤتيها ربنا تقواها وإنما دعاه عليه السلام أن يزكيها بنفسه وجلاله وكماله لأنه خالقها ويزكيها تزكية لا يزكيها غيره سبحانه ، وعطف زكها على آتها تقواها يعني التغاير بين الأمرين وأن إتيانها تقواها لا يكفي وإنما الخير أن يجمع لها وَلِيُّها

ومولاها العطائين وهي بهذين العطائين تتقي غضبه سبحانه وتنكف عن كل ما يغضبه ثم بتزكيتها وطهارتها تكون صالحة لأعمال البر والخير الذي تَصْلح به حياتها وحياة أمتها وكأنها بهذه التزكية تصير أرضًا نقية تنْبِتُ الخير وتصير مَزْرعة خصْبَة لصالح الأعمال وليس معنى هذا أن تقواها محصور في الكف عن السيئات لأن تقواها أيضًا تُنتجُ الصالحات كما قال عليه السلام اتق النار بشق تمرة ، ومن اتقى الله لا يغش ولا يَخْدع ولا يكذب ، ولا يخطف ولا يقمع ولا يظلم ولا يقتل وإذا رأيت مسؤولاً يتكلم عن الله وأنه أعلم بما في قلبه ثم يقتل ويبرر القتل بالأكاذيب وأن المقتول إرهابي أو قطع الطريق أو كدّر السلم العام فاعلم أنه كذاب والويل للأوطان إذا ولى أمرها كذاب ، وإذا سمعت من يقول إن من يدعو إلى خلع وليّ الأمر فهو إرهابي ثم رأيته يساند من خلع ولى أمر في بلد آخر فاعلم أنك أمام كذاب ، ومرة ثانية ويل للأوطان إذا ولى أمرها كذاب ، أقول تقواها يمنع كل ذلك وتقِي المجتمعات من الإفك والغش والفساد وتزكيتها تعني أنها تضيف للحياة أعمال خير وبر ومرحمة ، فالمربي الذي زكى نفسه نعِم هو ونعم عطاؤه لجماعته والعالم الذي زكى الله نفسه نعم هو ونعم عطاءه .

وقوله عليه السلام « أنت وليها ومولاها » تَـوَدُّدٌ لله وتقرب وما دمت سبحانك وَلِيّها أعني ولي أمرها ومولاها يعني خالقها ومالكها وسيّدها فلها فيك مطمع ، ولها عندك دالّة ، تتوددُ إليك بمطمعها ودالتها أن تعطيها تقواها وأن تزكيها لأنها لا تنكف عن باطل إلا بحولك ولا تَعْمل الصالحات إلا بطولك وها هي ترجو منك الحول الذي يحولها عن المعصية إلى الطاعة وترجو منك الطول الذي يُعينها على عمل الخير والبر والإحسان والعدل ثم إن التزكية التي تكون بيد الله والتي دَعَا بها سيّد الناس وقال لربه أنت خير

من زكاها وكأنه يطلب أن يزكيها هو سبحانه بذاته وجلاله . أقول هذه التزكية تورث العقل نورًا وبصيرة فيتحرك الإنسان في حياته حركة المهتدي بنور الله فإذا كان عاملاً أتقن وأصاب وإذا كان عالمًا اهتدى بهدي الله إلى الصواب وإذا كان داعيًا هزّ القلوب ، وإذا كان باحثًا في محراب علمه أعني في معمله هدى إلى ما يريد لأنه مجموع القلب بحرز التقوى ونافذ النظر بهدى نور البصيرة ، والتزكية التي بيد الله هي التي تضع لنا ذوي البصائر ، الذين هم أضواء في هذه الأرض ، وإذا انقطعوا في وطن فلن ترى فيه إلا خفافيش الظلام وإذا رأيت من يعتقل العلماء ويسميهم إرهابيين ويرعى الكذبة واللصوص والمزورين فاعلم أنه يَحْفُر قبرًا لهذا الوطن وإن أكثر الكلام عن حبِّه له وعطفه عليه ، وإذا كنت تتوهم أن هذا بعيد عن لفظ رسول الله ﷺ فتذكر أنه عليه السلام أتاهُ الله تقواه وأنه عليه السلام قال أنا أتقاكم لله ، وأن الله زكى قلبه لأنه سبحانه أنزل عليه كتابه الفرقان وإنما قال عليه السلام ما قال ليعلمنا الرذائل التي يجب أن نحذرها لأنها تدمرنا والفضائل التي نحرص عليها لأنها تَنْصُرنا .

جملة « أنت وليها ومولاها » بُنيت على القطع والاستئناف لأنها بمثابة توسل بمعناها لإجابة المطلبين السابقين آتها تقواها وزكها أنت خير من زكاها وكأن الكلام لأنك وليها ومولاها ، والقطع والاستئناف له دلالة سَبَقَ أن أشرنا إليها .

وقوله عليه السلام : « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا تستجاب » .

هذه هي الفقرة الثالثة والأخيرة في هذا الحديث الشريف وقد بدأها بما بدأ به سابقتاها ، وهو الدعاء باسم الله الأعظم على القول بأنه لفظ الجلالة ، ورجع به إلى الاستعاذة التي بدأ بها يعني بدأ دعاءه بالاستعاذة ثم بالطلب ثم بالاستعاذة وكأنه يرد العجز على الصدر ، وقد بدأ هذه الفقرة بالاستعاذة من العلم الذي لا ينفع ، وهذه الاستعاذة تعُدُّ طرقة قوية على باب غريب ، وأن العلم المُعطَّل من أن يُنْتَفع به كأنه ذنب يُسْتَعَاذُ بالله منه وكأنه رذيلة كرذيلة العجز والكسل والجبن والبخل ، وأنك حين فرغت لطلب العلم وأفنيت وقتك وجَهْدَكَ في هذا ولم تعمل به كنت كمن تفرغ لاكتساب مأثم ، وكما أن العلم الذي يعمل به عالمه يضعه في المرتبة العالية حتى إنه ليشهد مع الله والملائكة وأولوا العلم كما جاء في الآية الكريمة فإن المقابل لهذا وهو تعطيل العلم وعدم الانتفاع به مما يستعاذ بالله منه ، وأن العلم يرفعك بالعمل به ويخفضك بدون العمل به فهو إما رافع لك أو خافض لك وليس بينهما حالة ثالثة وكذلك يقال بالنسبة للجماعة ، فالجماعة التي تحوِّل ما حصلت من علم إلى عمل ، ونَشِطَ فيها أمران : الأول طلب العلم وتحصيلهُ والثاني ترجمة هذا العلم إلى خطوات عملية تغيِّر في حياة الأُمَّة على حسب ما حصلت منه وأن كل فكرة في هذه الجماعة وراءها موقع من مواقع العمل ، إذا كانت الجماعة كذلك صارت بمنزلة العالم العامل بعلمه وإذا كان علم العلماء فيها مُعَطلاً واكتشافاتهم فيها معطّلة كانت أمة يُسْتعاذ بالله من الحالة التي هي فيها ، وأختصر لك الذي عندي ولك أن تقبله أو ترفضه وأقول إن جملة اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع صالحة لبناء تقدم ظاهر في الأُمَّة وخصوصًا أني أعلم أن كثيرًا من أفكار علمائنا

المُخلصين ومشاريعهم واكتشافاتهم مودعة في أدراج مكاتب الجهلة الكرام من المسؤولين .

وقوله عليه السلام «ومن قلب لا يخشع» إذا وازنت بين علم لا ينفع وما بعدها وجدت أن جملة علم لا ينفع هي المنتجة لكل ما وراءها ، لأنك لو تدبرت خشوع القلب أو عدم خشوعه وجدته يدور حول العلم النافع والعلم غير النافع لأن العلم النافع يهتدي به القلب إلى معرفة الله وإلى لقائه وحسابه وثوابه وعقابه ، وليس لخشوع القلوب سبب إلا معرفة الله وجلاله وسلطانه وثوابه وعقابه ورضاه وغضبه وقربه وبعده ، فإذا نجح العلم النافع في القرب من القلب خشع القلب وإذا كان العلم علمًا مكفوفًا عن هذه المعاني بقي القلب فارغًا من معرفة الله وقَدْسيه وجلاله وثوابه وعقابه ، وكذلك يقال في النفس التي لا تشبع ، لأن النفس التي لا تشبع توشك أن تكون نفسا بهيمية لم يتسلّل إليها شيءٌ من نور العلم وإنما هي شهواتها وأهواؤها التي لم يهذّبها علم ولم يُنَظّمها علم ولم تعرف حدود حلال من حرام وما تعرف به ما تسأل عنه ، وما لا تسأل عنه ، العلم ترقى به النفس وتعرف ما لها وما عليها وتعرف به معنى القناعة والرضا ، وأنه ليس ثمة مَذَمّة أنكى وأبشع من الذي يأكل ولا يشبع كما جاء في كلام رسول الله ﷺ.

وقوله عليه السلام «ومن دعوة لا تستجاب» لو قلت إن الدعوة التي لا تستجاب هي بِنْتُ العلم الذي لا ينفع كان كلامك صوابًا ولو قلت إنها بنْت قلب لا يخشع كان كلامك صوابًا ولو قلت إنها بنت النفس التي لا تشبع كان كلامك صوابًا وهذا من دقة بيانه ﷺ وكأنها فاصلة هذا القسم والغريب أن كلام سيدنا رسول الله ﷺ كلما نظرت فيه وراجعت وجدت روابط وتلاق

تعجَبُ كيف قام عليها الكلام ، من ذلك أن هذه الفقرة الأخيرة وهي الاستعاذة من العلم الذي لا ينفع والقلب الذي لا يخشع والنفس التي لا تشبع ، هي المعنى المقابل للفقرة الثانية «اللهم آت نفوسنا تقواها وزكها أنت خير من زكاها» لأن العلم الذي لا ينفع لا يعيش إلا في نَفْسٍ لم تؤتَ تقواها ولم يزكها الذي برأها فسوَّاها ، وكذلك تقول إن القلب الذي لا يخشع هو القلب الذي حُرم من التقوى ومن التزكية والنفس التي لا تشبع كذلك ، وكأن سيدنا رسول الله لما ضرع إلى رَبّـه وسأله تقوى النفس وتزكيتها حضره الإحساس بوحشة حرمان النفس من هذا المطلب الشريف فرآها نفسًا لا ينفع فيها ولا معها علم ، وقلبًا قاسيًا كقلوب اليهود التي هي كالحجارة أو أشد قسوة ، ثم أومأ إلى أنها من أهل النار بقوله ومن نفس لا تشبع لأن أهل النار يشربون شرب الهيم وهي الإبل العِطاش التي لا تُرْوَى ، ولما وصف عليه السلام الذي يأخذ المال باستشراف نفس وكأنه يأكل ولا يشبع إنما أومأ بهذا إلى أهل النار وذكَّر بهمْ .

هذه علاقة الفقرة الثانية بالثالثة ولو رجعت تبحث عن علاقة الفقرة الثانية بالأولى ، لرأيت الأولى التي هي استعاذة من أوصاب ورذائل النفوس ، والتي ذكر منها العجز والكسل والجبن والبخل ، من شأن الإحساس برفض هذه السخائم أن يجعل النفس تستشرف إلى طهارتها وأن يضع الله سبحانه بيده تقواه فيها وأن يزكيها لأنه وليُّها ومَوْلاها وما دامت رافضة للسخائم التي هي العجز والكسل والجبن والبخل وما هو من بابها فإنها تأمل وترجو وتطمع أن يَمُدها وليُّها ومولاها بما يحفظها من هذه السخائم ، وهكذا نجد الكلام يُمْسِكُ أوَّلُه بوَسَطه ويمسك وَسَطُه بآخره ، وكُلُّ هذا موقوف على ما قاله الباقلاني (وجه الوقوف على شرف الكلام أن تتأمل) ونظرة أخرى ترى فيها

شيئًا جديدًا في هذا الحديث وهو أن الفقرة الثالثة كانت بمثابة الثمرة للفقرتين السابقتين وهي ثمرة نِعْم الثمرة لأنها علم نافع وقلب خاشع ونفس راضية ودعوة مستجابة والاستعاذة من أضْدَادِهَا طَلَبٌ بوَجَلٍ وحياء لها ، هي نهاية الحديث وهي التي يَعُوذُ بها الداعي ، وهي التي يَضَعُها ربنا في يَدَيْه الممدودتين إلى الله وكل يد امتدت إلى الله لا تعود فارغة حتى يضع الله فيها خيرًا وهذه هي إجابة الدعوى التي هي آخر كلمة في الحديث الشريف .

ولك أن تراجع الحديث مراجعة أخرى لتعلم أن عليه السلام بَدأه بالاستعاذة من العجز ، والعجز كما قال أهل اللغة نقيض الحزم ، وإذا نظرت إلى كل عمل جليل صَنَعَهُ فرد أو صَنَعَتْه أمَّةَ لن تجد وراءها إلا حزمًا أكيدًا وعزمًا شديدًا فالطالب الذي يعقد عزمه على التفوق في طلب العلم واصل إلى هذا التفوق قطعًا والباحث الذي يعقد عزمه على أن يضع لبنة في العلم الذي يبحث فيه سيضع هذه اللبنة قطعًا ، والصانع الذي يَعْقِد عَزْمه على الإتقان وأنْ يخرج صنعة جيدة تذكر في الناس سيصلُ إلى ذلك قطعًا ، وهذا العزم هو سِرٌّ كل عمل جيد وسر كل تقدم وكان علماؤنا يقولون إن كل عمل جليل وجديد على هذه الأرض وراء مجهود لأن جلائل الأُمور لا تُنالُ إلا بمشقَّة ولا يبذل المجهود ويتحمَّل المشقة إلا من عقَدَ عزمه وجمع همَّه حول إنجاز عمل جليل ، والعجز الذي هو نقص الحزم لا يُنتجُ إلا التخلف والفشل ، وما عقد شعب عزمه على التقدم إلا تقدم ، وما أصرَّ شعْبٌ على تطوير صناعته وزراعته وكل مؤسساته إلا كان له ما أراد ، والناس لا يُقَدرُون إلا هذا الضرب من البشر . أما الذين تصالحوا مع التخلف وقبلوا أن يأتوا في أعجاز الأمم وأن يعيشوا عالة على عمل غيرهم وصناعة غيرهم فلا يمكن أن يوصف هؤلاء إلا بالعجز الذي هو

نقض الحَزْم ولا يجوز أن نُبعْد هذه الدلالات عن كلام رسول الله ﷺ لأنه نصٌ فيها والذين يقولون إنهم حماة السنة عليهم أن يدركوا أن هذه هي السنة ، وأنه من المغالطة أن تَزْعُمَ أنك تحمي السنة وأنت تأكل من كَسْب يد أعدائها وأن تكون بلادنا سوقًا تُباع فيه مُنْتجات مَصَانِعهم وأن تكون آلة الدفاع عن أرضنا من أيديهم وأن يكون كل الذي في بيوتنا منهم ونحن قادرون على تغيير كل ذلك بالعزم الأكيد والحزم الأكيد ولابد أن يكون سادتنا هم سادة في قوة العَزْم وقوة الحَزْم وبذل المشقة وسَدٌ كل حاجاتنا بأيدينا ، وكل الذي تفوق وغلب وساد لم يتفوق إلا بقوة الحَزْم والعَزْم الذي لا يُنقض وكل الذي تخلف لم يتخلف إلا بالعجز ونقض الحزم وهذا ظاهر وحين يستعيذ رسول الله ﷺ من العجز فإننا نعلم أنه مبرأً منه لأن نقض العزم لا يكون في الأنبياء وإنما يُعَلِّمنا عليه السلام أن نستعيذ بالله من العَجْز لأن العجز يطفئ أكرم نعم الله على الإنسان وهي عَزْمُه وحَزْمه التي هي الوقود والمولّد الذي يستنفر كل طاقات الإنسان العقلية والروحية والجسدية لتحقيق ما عقد عزمه عليه وهو الذي يَدْفع إلى تحمل المشقات التي تكون عند أولي العَزْم والحزم مشقات محبوبة ولا يَملُّها أهل العَزْمِ وإنما يَملُّون إذا خلعوا أنفسهم من هذه المشقات ، ترى الباحث في معمله كأن معمله جزء منه وكأنه حين يخرج منه إنما يخرج من بيته الذي ألف الحياة فيه وهكذا نرى العامل المتقن لا يجد لذّة إلا وهو بين آلاته والعالم الفاضل لا يجد لذة إلا بين مصادره وأوراقه ، سنة رسول الله المفهومة من الاستعاذة من العجز لا تعني إلا هذا الذي أقوله لك ، وأهل السنة الذين استباحت بلادَهم أعداؤهم لا يجوز أن يهينوا السنة ويزعموا أنهم أهلها ، لأن أهل السنة الذين هم تحتَ كلمة اللهم إني أعوذ بك من العجز قوم مستنفرون

للجِدّ والعمل هم الذين يغيّرون الحياة في كل يوم إلى أفضل ، ونحن نأخذ من السنة أيسرها مثل السواك وإرسال اللحية وتقصير الثياب وهذا جيد لا يجوز التفريط فيه ولكننا نترك جوهرها الذي هو العَزْم والحَزْم والإصرار على أن تكون خَيْر أُمَّة أُخْرِجَت للناس والإصرار على أن لا نهن ولا نحزن لأننا الأعْلَون وحسبي هذا وعليك أن تتابع ولو وجدت في كلامي كلمة واحدة تخرج عن مدلول الاستعاذة من العجز فنبهنى إليها لأني أجد كل ما كتبته قطرة من غمامة تمثّلها هذه الجملة الشريفة . وأزيدك إحساسًا بإحساسي وهو أن رسول الله ﷺ بدأ بالاستعاذة من العجز في هذا الحديث الذي لو أحكمنا فهمه لكفانا .

وقوله عليه السلام « والكسل » كلمة شديدة الالتصاق بالعجز ، الذي هو نقيض الحزم ، وقال أهل اللغة الكسل هو التثاقل حين لا ينبغي التثاقل ، يعني التثاقل حين تجب المبادرة والمعاجلة وراجع هذا لتجد أن هذا التّثاقل المضيِّع للفرصة لا يكون إلا من عَزْم منقوص لأنه لوصح العزم لما كان إلا الجد ولما كانت إلا المبادرة ، وكما أن منقوض العزم إنسان معطَّل لا يعمل شيئًا كذلك المتثاقل المتباطئ المُسْتَرْخِي إنسان فارغ لا يعمل شيئًا ، وكان صلوات الله وسلامه عليه يُعدّنا لعمارة الأرض ، ويقول لنا بادروا بصالح الأعمال ، وكما قلت إنه ليس هناك على هذه الأرض عمل جليل إلا بعزم شديد ورأي سديد كذلك لا تجد على هذا الكوكب شيئًا له قيمة إلا وهو نتيجة مبادرة وجد ووَفْرة نشاط ووَفْرة حيويّة ، وكلام اللغويين لا يعني أن التثاقل كله مَذْمُوم لأنهم حصروا الكسل الذي هو مذموم في التثاقل في ما لا ينبغي التثاقل فيه ، فقد تتباطأ لتراجع وتحلل وتزداد معرفة ولكن إذا كان التثاقل ليس له ما يقتضيه وتثاقلت فقد أهدرت على نفسك شيئًا كنت

جديرًا بتحصيله ، والكسل بهذا المعنى ضد المبادرة ، والمعاجلة ، وكم من فرص ضاعت على الأفراد وضاعت على الأمم بسبب هذا الكسل وبسبب هذا التثاقل .

وكما أن الحزم والعزم يكونان مكان العجز الذي استعاذ رسول الله ﷺ منه فيُغيّران وجه الحياة في كل يوم كذلك العمل الدائم الدؤوب والنشاط والحيوية يَحُلان محل التثاقل والكسل الذي استعاذ رسول الله ﷺ منه حتى تصير الديار وكأنها خليّة حيّة دائمة الجد ودائمة الفعل فتتغير حياة الفرد وحياة الجماعة لأنك تجد هذا النشاط الذي لا يداخله استرخاء في المدرسة وفي الجامعة وفي المصنع وفي مراكز الأبحاث وفي كل شبر من الأرض وهذا هو التقدم وهذه هي السنة ومن يَسْتَنُّ بسنته عليه السلام وهو مسترخ على أريكته فقد كذب على نفسه ، سنته عليه السلام شعارها اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل ، وعليك أن تراجع كم من شعب أخذ بذمام المبادرة وجدًّ فنهض وكم من شعب تثاقل في ما لا يَنْبغي التثاقل فيه وتاه طريق الجدِّ من تحت أقدامه فوقف كأنه مشلول ، وتقدم من كانوا معه وتخلف هو ، وقد بدأت مصر نهضتها قبل اليابان ولكن اليابان أمسكت بزمام المبادرة فصارت إلى ما هي عليه وبقيت مصر يَعْبَثُ بعَقْلها كل دجّال وكل مغامر وغاب فيها الوعي بالتراخي والترّهُّل والذي أراه فيها الآن أنه لو بُعث مُسَيْلمة الكذاب وجاء بلادنا ومن ورائه بعض جنده ومعه مال ربيعة وادعى النبوة لوجد فينا من يبايعه لشيوع الكذب وشيوع ثقافة مسيلمة .

واستعاذ رسول الله ﷺ من البخل . والبخل المستعاذ منه ضده الجود والعطاء والبذل الذي يكون حاضرًا بدل البخل واذكر بأننا جميعًا نستعيذ مما استعاذ منه سيدنا صلوات الله وسلامه عليه وبذلك لا يكون للبخل وجود

فينا ، والبخل بالمال مفردة من مفردات البخل وإذا أديت حق الله في مالك فلا تلام على إمساك أمسكته لأن البخل المذموم بخل بحق الله في مالك ، والعطاء الذي لا عذر لي ولا لك في منعه هو عطاء كل ما ينفع الناس من علم ونصح وإغاثة ملهوف وتنفيس كربة مكروب وتيسير عسرته وكل هذا ليس بلازم أن يكون مالا ، ولابد أن أجهّز نفسي لأن أكون ذا عطاء أعني أكون مستعدًّا لأن أعطي من جهدي ومن نصحي ومن علمي ، فإذا كنت معلمًا أعددت لطلابي دروسًا كأنها غيث تحيى به نفوسهم وإن كنت صانعًا أعطيت إتقانًا وإحسانًا وإن كنت طبيبًا أعطيت علمًا وفهمًا وهكذا يكون كل واحد في الأمة عنده ما يعطيه في موقعه ، ولا يمسك واحد منا شيئًا يمكن أن ينفع واحدًا ممن حوله ، البخل الذي هو أشبه باستعاذة سيد الخلق منه لا يجوز حَصْرُه في الدرهم والدينار لأن هناك عطايا أَنْفَسَ من الدرهم والدينار وهي أن تعطيني كيف حصَّلْتَ الدرهم والدينار ، الجود بالخِبْرة من أسمى صور الجود ، والجود بالنفيس من المهارات أسمى صور الجود ، وكان عليه السلام أجود من السحب الممطرة ، ليس ذلك في عطاء الدرهم والدينار وإنما كان يجود بما لا يُعَدُّ الجود بالدرهم والدينار جودًا بالنسبة له ، وإذا أشاع هذا في الناس وكانت الديَّارُ عامرةً الكل يُعْطي الكل ، لا تُغْلِق نَفْسٌ بابًا على شيء تَضِنٌّ به والعطاء يعني حبَّ الجماعة والاندماج فيها وأنها مِنّي وأنا منها وأنّي أشُدُّها وتشدني وهكذا تَجِدُ المعاني تتلاقى وتتداخل وتجد بناء اجتماعيًا مختلفًا في تآلفه وتعاونه وتحابه وتعايُشِه ، وقد ظهر جليًا في القرون الثلاثة المفضلة .

واستعاذ ﷺ من الجُبْن ، والجبان كما قال صاحب اللسان هو الذي يَهَابُ التقدم على كل شيء وهذا يعني أنه صار كيانًا مُعطَّلاً لأن كل عمَلٍ لا يتم إلا بالإقدام ، ولاحظ جملة ما يدعونا إليه سيدنا ؛ الحَزْم الذي هو ضِد العَجْز

والمبادرة التي هي ضد الكسل والعطاء الذي هو ضد البُخْل ثم الإقدام الذي هو ضد الجُبْن وهذه الصفات الأربع إذا استُنْفِرَتْ وتوهجت ورُزِقَتْ حُسْن قيادة وحسن سياسة غيَّرت وجه البلاد في سنوات قليلة وغابت عن سمائها خفافيش الظلام ، وراجع المُنجزات الكبرى في تاريخ الأمم فلن تجد وراءها أفضل من هذه الأربعة ثم راجع الفشل الأكبر في تاريخ الشعوب فلن تجد وراءه أبْشَع من نَقْضِ الحزم والتثاقل حين لا ينبغي التثاقل والإمساك عن كل شيء والضنُّ به ، ثم تهيُّب الإقدام على كل شيء ويكفي واحدة من هذه لتدمير شعب ، والإقدام الذي هو ضد الجبن مشروط بشروطه وإلا أصبح تهوُّرًا ومغامرةً وهو أضرُّ من الجبن وأهم شروطه ما قالوه في الزمن القديم (والرأي قبل شجاعة الشجعان) فلابد من دراسة ما تقدم عليه ولا بد من وعيه فإذا كان الإقدام في الجهاد فلابد أن يكون هذا المقدام في يده سلاح لا يَقِلُّ عن سلاح عدوه ولابد أن يقدم في ضوء خطة مدروسة أحسن ما تكون الدراسة ، وإذا كان الإقدام في باب العلم فلا يجوز أن يوجد إلا بعد الإعداد الجيد أعني إعداد العقل وإعداد أدوات البحث وامتلاك زمام المادة العلمية وكل عمل علمي جاد وراءه لحظة إقدام فَتَحَتْ بابه ولم يَتهيَّب الخطأ ، والاجتهاد في العلم وفي الفقه هو ابن شرعي لروح الإقدام ، ولولا الإقدام لما كانت هناك هذه القامات التي ملأت حياة الناس عِلْمًا ، وغيَّرت وجه التاريخ وهكذا قل في كل باب من أبواب العلم لولا الإقدام ما اكتشف الذين اكتشفوا شيئًا من أسرار الوجود ، ولاحظ أن هذا من السنَّة وأنني أتكلم في السنة أعني في التأسِّي والاستنان بسنة خير الأنام وأنه حين استعاذ من الجُبْن وحفزنا نحو الإقدام إنما حَفَزنا إلى الإعداد للإقدام وهذا جهاد آخر لأن التهيُّب يجب أن يبقى زمانًا حتى نُعدَّ لهذا الإقدام عُدَّته في كل شيء نريدُ

إنجازه ، وهذا الإقدام هو الذي صنع أحْدَاث التاريخ ومرة ثانية راجع هذه الأربعة عَقْد العَزْم عقدًا لا يُنْقض والمبادرة بعمل الصالحات والوَلَع بالعطاء الذي هو شأن النفس الغنية ثم الإقدام الواعي اليقظ ، وكيف يكون حال الجماعة أوْ حال الشعب إذا شاع فيه هذا ، وحين ترى ذلك غالبًا على الناس وشائعًا في كل ركن من أركان البلاد فاعلم أنك رأيت أهل السُّنة وحُماة السُّنة فإذا انخرم واحد منها فلا يجوز أن تظلم السُّنة ، ونقول إننا حماتها .

قوله عليه السلام « والهَرَم وعذاب القبر» ذكرت أن ذكر الهَرم عقب الاستعاذة من هذه الأربع يعني أن رسول الله ﷺ استعاذ بالله منها حياته كلّها ويلاحظ أن الهَرَم الذي هو سوء الكبر استعاذ منه رسول الله ﷺ ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ وذكر هذا الهَرَم وهو من الذي لا حيلة للإنسان فيه يشير إلى معنى آخر لم أذكره في هذه الأربع وأنني وأنت لا نستطيع أن نتخلص من خسائس نقض الحزم الذي هو العجز ومن التثاقل حيث لا ينبغي الذي هو الكسل ، ومن الضنّ بكل شيء الذي هو البخل ومن افتقاد القدرة على الإقدام الذي هو الجبن لا نتخلص من هذه إلا بحول الله وطوله وأن حالنا في العجز عن مواجهتها كحالنا في العجز عن مواجهة الهَرَم وهذا غاية الاستسلام مع وجوب بذل كل جهد في التخلص منها حتى تكون مثل الذي أفلح لما زكاها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ هذا شيء في ذكر الهرم وشيء آخر وهو أنك إذا بلغت الهَرَم وراجعت مدوّنة تاريخك فاحذر أن تجد فيه صفحات تستحي منها واحذر أن تكون واحدة من هذه السخائم قد تسلّلت إليك يومًا هي أوغيرها لأنك لو وقعت على شيء دنيء في حياتك وأنت في هرمك فسوف يكدر عليك حياتك وأنت في وهن الشيخوخة وسوف تتوارى خجلاً منه ، احذر أن تسجل مُدَونتك أنك كنت (نَذْلاً) يومًا ما ، أو أنك

صانَعْت ظالمًا وبرّرْت ظلمه أو وصفت خائنًا بالوطنية أو لصًّا بالشرف ولا يمكن أن تُبرّر نفاقك وكذبك بأنه ظالم وأنت تَتّقيه لأنك إذا عجزت عن أن تقول للكذاب أنت كذاب وللص أنت لص ، وللفاجر أنت فاجر وأن البلاد بلادنا وليس بلدك وحدك وأننا لن نسمح لفاجر أن يحكمها ولا لكذاب ولا لغادر أقول إذا عجزت عن أن تقول هذا فلن تعجز عن أن تسكت إمًّا أن تتطوع وتطالب المظلوم أن يعتذر للظالم وتصف المقتول بأنه إرهابي وأن القاتل وطني شريف إلى آخر ما كتب الله علينا أن نراه في مصر التي وصفها الإمام البدر العيني بأنها كرسي الإسلام فهذا مما تستحي منه في هَرَمك إن كان فيك بقية من معنى الإنسان» .

قلت إن الهَرَم آخر مراحل الدنيا وأن القبر أو عتبات الآخرة وأن الهرم الذي تستعيذ بالله منه كما علمنا رسول الله ﷺ لا حيلة لنا في دفعه وأن مجيئه عقب هذه السخائم الأربعة التي استعاذ منها سيدنا صلوات الله وسلامه عليه فيه إشارة إلى الحذر منها وتجنبها حتى لا يُثقِلَك تذكرها وأنت في ضعف وشيبة وأقول إن قريبًا من هذا كان في جيل المبعث وقد كان من مألوف الشعراء أنهم إذا هَرِموا ، راجعوا قصة حياتهم وذكروا ما كان لهم من الأفعال التي كانوا يتمدَّحون بها وأنهم اجتنبوا ما يعابون به ، وكانت الصَّبوة من أبرز ما يتمدحون به لأنها لم تكن تسكعا حول الصبايا وإنما كانت رمز الفتوة والمروءة والنجدة والبطولة ، كما كانوا يذكرون سخاءهم وشربهم وحربهم وقراهم إلى آخر قيم الجاهلية ، ومثل هذا الحديث يُعيد تبديل وتنظيم هذه القيم ويلخّصُها في نَفْي العجز والكَسل والبُخْل والجبن ، وإثبات أضدادها من العزم والحزم والمبادرة إلى أعمال الصالحات والعطاء من كل ما يستحسن عطاؤه . إلى آخره ، هذا والله أعلم .

وأذكر بالرحم التي بين مفردات هذا الحديث فالعجز أخو الكسل لأم وأب وكذلك الجبن أخو البخل ثم هما من عائلة العجز والكسل وإن لم يكونا شقيقين ثم إنك تجد نَغَمَ الرجاء قد اختلف عند قوله عليه السلام اللهم آت نَفْسِي تقواها وزكها أنت خير من زكاها ، وختمت الكلمة بإطلاق النفس للإشارة إلى بعد المدى في طلب تقواها وتزكيتها لأنهما أنْفَس ما يطلب ولأن حاجة النفس إلى تقواها حاجة ماسَّة وأن تقواها مَدًى بعيد ، ولاحظ كلمة (تقواها) وإضافة التقوى إلى ضميرها ولم يقل عليه السلام اللهم ارزقني التقوى وإنما حدَّد مقدار التقوى بما يلائم النفس فقال «تقواها» كما قال تعالى ﴿ زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ أي الزلزال الذي هو زلزالها وليس زلزال غيرها فلم يبق فيها شيء لا في ظاهرها ولا في باطنها إلا زلزل وكذلك كلمة (تقواها) أي التي تَعُمّها وتملؤها وتُشبعُها ولا تبقي فيها شيئًا إلا لَفَّتْه بتقواها ثم أعقب ذلك بالتزكية وهذا إلحاح في طلب العطاء الذي يَعْصِم هذه النفس وأن فجورها مدسوس في طياتها وتلافيفها وسراديبها الخفيَّة ، ثم تجد النغم اختلف في الفقرة التالية وختمت الكلمات الثلاث الأولى بالعين الخارجة من المخرج السحيق ، وكأنها تخرج من هذه النفس سخائمها التي طَرَدَتْها التزكية ، والعلم والعمل أخوان في اللفظ والمعنى فالعلم من غير عمل يستعاذ بالله منه والعمل من غير علم يرشد إلى صوابه وخطئه عملٌ عشوائي ، ويلفتنا قوله عليه السلام قلب لا يخشع ونفس لا تشبع فيجعل الخشوع للقلب والشبع والجوع للنفس وليس من المستقيم أن تقول اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تخشع ومن قلب لا يشبع ، لأن القلب هو موطن الخشوع ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ والنفس موضع الشهوات والأهواء تطمع وتقنع وتجوع وتشبع قال النووي الاستعاذة

من النفس التي لا تشبع استعاذة من الحرص والطمع والشرَه وراجع الحديث المراجعة الأخيرة لتدرك الفرق بين الاستعاذتين ، الاستعاذة الأولى من أوصاب تصيب النفس من العجز والكسل والجبن والبخل ، والاستعاذة الأخيرة من نتائج يسوء المؤمن أن تواجهه لأنها توقع في نفسه أنه مخذول وليس معانا فهذا علم لا ينفع وهذا قلب لا يخشع وهذه نفس لا تشبع وهذا غير العجز والكسل وما بعدهما ، الأولى أمراض نفوس متغلغلة داخل النفس والثانية رفض النفس الانتفاع بما ينتفع به كالعلم والإحساس بجلال الألوهية وعز الألوهية الموجب للخشوع ورضاها بالقناعة ثم إن الكلمة الأخيرة (ومن دعوة لا تستجاب) فيها ملمح جليل تجده في كلمة (دعوة) ولم يقل عليه السلام ومن دعاء لا يستجاب له ، وكأن الأصل أن يستجاب الدعاء كله فإذا حَدَث ورُدَّتْ دعوة واحدة كان هذا الرد للدعوة الواحدة مما يستعاذ بالله منه ومردُّ ذلك إلى وعده الذي لا يخلفه في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ وقوله عليه السلام « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة »، وكلنا يدعو الله وكلنا يستجاب له إلا أن الاستجابة لم تكن في كل حال استجابة مباشرة لما تدعو به فقد تدعو الله بشيء ويعطيك غيره لأنه سبحانه يعلم أن هذا الغير هو الأنفع لك ، وهذا حسبي .

وأنتقل الآن إلى الحديث الثاني الذي رواه مسلم بسنده عن عبد الرحمن ابن يزيد عن عبد الله قال : كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال : « أمسينا وأمسى الكل لله ، والحمد لله لا إله إلا هو وحده لا شريك له . قال : أُراه قال فيهن له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ـ ربّ أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة ، وشر ما بعدها رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب في النار ، وعذاب في القبر وإذا أصبح قال ذلك أيضًا : أصبحنا وأصبح الملك لله ».

كل ما في هذا الحديث من السؤال والاستعاذة سبق ذكره وسبق شرحه إلا شيء واحدًا اختلف به هذا الحديث عن نظرائه وهو ذكر الإمساء والإصباح ، وهذا لفت كريم من رسول الله ﷺ لنا ويجب أن نلتفت إليه وهو أن هناك ساعات تتجلى فيها آيات الله البينات في هذا الكون وأن لحظات التجلي هذه يكون للذكر فيها مذاق آخر والإمساء والإصباح آيتان من آيات الله تراهما العيون رؤية حسّية لا ينكرها إلا مكابر معاند .

ترى الشمس عند غروبها تسلَخ النهار عن الليل وترى الليل يطلب النهار حثيثًا وترى النهار وهو يتولج في قلب الليل ، والليل يطبق عليه الظلمة وترى الحق سبحانه وهو يكوّر الليل على النهار وترى الشمس عند طلوعها تسلخ الليل عن النهار وترى الليل يطلب النهار حثيثًا وترى الليل وهو يتولج في قلب النهار فينشر عليه ضياءه وترى الحق جل وتقدس وهو يكور النهار على الليل ، وقد جاء وصف القرآن لهذين الزمانين وصفًا بالغًا في آيات من أعظم آيات الكتاب العزيز وحين أقرأ مثل قوله تعالى ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ أو قوله تعالى ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أو قوله جل شأنه ﴿ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ﴾ أجدني أمام آيتين آية هي التي تراها عيني في هذا الوجود وآية يذوقها بياني لوصف ما عليه هذا الوجود ، وكما أنه لا يملك أحد ضبط هذه الحركة بين الليل والنهار إلا الذي له الخلق والأمر كذلك لا يملك أحد أن يبين عن هذا بمثل هذا البيان إلا الذي له الخلق والأمر ، وقد نبَّهتُ في بعض ما كتبته إلى أنه من غفلتنا في درس البلاغة أن نتكلم عن المجاز في مثل قوله تعالى ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ وهو مجاز مُعْجز بلا ريب ونُغْفل الإعجاز الإلهي الواقع في الكون والذي عبر عنه هذا البيان المعجز ، ومن الواجب أن يكون

حديثنا عن البيان المعجز مصحوبًا بالتنبيه إلى الحقيقة الكونية التي عبر عنها هذا البيان المعجز لأن هذه الحقيقة الكونية هي الآية الأم التي ما جاء الإعجاز البياني إلا للإبانة عنها ، وقل ما هو قريب من ذلك في الشعر فإن بيان الفن البياني في الشعر واجب لا ترخُّصَ فيه وكذلك بيان الحقيقة النفسية التي صاغت هذا الفن البياني ووضعته تحت اللسان فنطق بها واجب بلاغي لا ترخّص فيه .

ومن الذي لا تجوز الغفلة عنه أن الله سبحانه وتعالى جعل خلقه وفِعْلَه في هذا الوجود آيات دالة عليه دلالة حسيَّة وجعل كتابه آيات دالة عليه دلالة عقلية وهذا يعني أن آيات الله في الكتاب عَدْل آياته في هذا الوجود فإمساكه جل وتقدس للسموات والأرض أن تزولا آية وكذلك قوله سبحانه في وصف هذه الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾ آية ليست إحداهما بأرجح من الأخرى لأن الآيات هي من الأمر الإلهي قليلها ككثيرها وهذا ظاهر إن شاء الله وينبني على ذلك أن التدبر في خلق السموات والأرض كالتدبر في آيات القرآن وهذا من أكرم الذكر وأعلاه ، ومثله محاولة العالم المؤمن اكتشاف السنن الكونية في هذا الوجود في الإنسان وفي الحيوان والطير والنبات والرياح والفلك التي تجري في البحر كل ذلك من أعظم الذكر والعالم المؤمن العاكف في معمله كالعاكف في محرابه وهذا أيضًا ظاهر أو يجب أن يكون ظاهرًا ، لا فرق مطلقًا بين المفسر لكلام الله وكلام رسوله والمُفَسِّر بآية من آيات الله في هذا الكون ، الكون مصحف صامت والمصحف كون ناطق والعمل فيهما سواء وأبرز ما في هذا الحديث هو الدلالة على الأوقات والأحوال الكونية التي يكون الدعاء والذكر فيها له مذاق خاص كما قلت واذكر مع هذا الحديث آيات كثيرة ندبنا ربنا إلى ذكره

عندها ، ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ ، ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ ، ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ وهذه الأوقات فضلاً عن أنها أوقات تجليات عز الألوهية هي من الأوقات التي لربنا فيها نفحات، ولاحظ أن معظم العبادات مرتبطة بأوقات التجليات فالصوم من الفجر إلى غروب الشمس وصلاة الصبح عند الفجر وصلاة الظهر عندما تكون الشمس في كبد السماء وصلاة المغرب عند الغروب وصلاة العشاء عند اختفاء الشفق الأحمر ، وصلاة العصر حين يتجلى انحدار الشمس نحو المغيب ، قلت إن كل الذكر الذي في هذا الحديث سبق شرحه وبقي أن أقول هل هذا السياق الذي هو حين تمسون وحين تصبحون يضيف إلى كلمات هذا الذكر معنى جديدًا ؟ والجواب أنه لا شك في ذلك ولا شك أنني حين أقول الحمد لله حين أمسي أو حين أصبح فإني أضيف إلى معنى الحمد الذي أقوله في غير هذا الوقت حمدًا جديدًا لأنه سبحانه وتعالى يريني آياته التي تزيدني إيمانًا وأن من أكرم نعمه الموجبة لحمده نعمة تجليات عزه وسلطانه هذه التجليات التي أراها حين يطرد الليلُ النهار ، لا شك أن الإحساس بسلطان الحق في لحظة التجليات إحساس أكثر توهجًا وهو لا محالة يضفي ظلالاً على حمدي وتسبيحي ولا أشك أن حمدي وتسبيحي مغموس بأحوال نفسي التي تختلف في تقلباتها وأن حمدي لله في السراء فيه شيء ليس في حمدي لله في الضراء وأنا صادق في الحمد في الحالتين ولكن الحمدين يحمل كل واحد منهما ظلاً من ظلال نفسي فيكون كل حمد مختلفًا اختلافًا ما باختلاف هذه الظلال وهذا ظاهر جدًّا ، وقل مثل ذلك في التسبيح والتهليل وكل الذكر وأنه لا محالة مصبوغ بأصباغ نفسي وأحوالها في الخوف والرجاء بل وفي درجات الخوف ودرجات الرجاء .

قوله عليه السلام «رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها» بدأت الجملة بحذف حرف النداء للإشارة إلى القرب والمعاجلة بما يريد وذكر لفظ الرب الذي فيه معاني التربية والعطاء والحفظ والصون وإضافة إلى ضميره وهذه الإضافة تودّد «واقتراب» وكلمة (أسألك) بعد هذا النداء وهذا الاقتراب وهذا التوّدد إنما هو تهيئة للاستجابة وقوله عليه السلام «خير ما في هذه الليلة» فيه إشارة إلى تقديم ما يُطمع السائل في استجابة سؤاله لأنه يسأل الخير وسائل الخير لا يخيب، ثم إن معناها خير ما فيها من برٍّ وذكر وعمل صالح، وسؤال خيرها يحتمل أن يكون سؤال ثواب كل خير كان فيها وحين تسأل الله ثواب عمل صالح، يكون سؤلك هذا مجازًا عن معنى آخر وهو أن يهديك وييُسّر سبيلك لتعمل ما تثاب عليه فيها، وأن يكون لك منها كل خير كان لعباده الصالحين فيها، ثم إن في الليلة خيرًا آخر هو المغفرة والستر والعطاء والنعمة وإجابة الدعاء وقبول التوبة، إلى آخر ما يكون من خير من الله لعباده. وفي رواية «اللهم إني أسألك من خير هذه الليلة وخير ما فيها» وبينهما فرق لأنه هنا ينادي الله ويسأله ويؤكد السؤال بقوله إني أسألك وهناك ينادي ربه ويسأله من غير تأكيد للسؤال، والذي يسأل الله يستحضر الجلال والكمال المطلق والعطاء المطلق والسلطان المطلق إلى آخر الكمالات التي ليس لها آخر والذي يسأل ربه يستحضر عطاءه ورعايته وكلأه وحفظه وصونه، وهذه المعاني المستحضرة تُفْرِغُ على ألفاظ الدعاء منها ما تختلف به دلالتها ثم إنه قال هنا «إني أسألك من خير هذه الليلة» فهو لم يسأل خيرها وإنما سأل من خيرها، وهناك سأل خير ما في هذه الليلة وكلمة خير ما في هذه الليلة كلمة شاملة لكل خير فيها وكل صلاح فيها وكل ذكر فيها وكل اقتراب وكل ضراعة وما لا يُحْصى لأن

الخير معنى متسع ، ثم إنه هنا قال «من خير هذه الليلة» فجعل لليلة خيرًا والليلة زمان والزمان لا يوصف بخير ولا بشر وإنما هو ظرف للخير والشر ، وحين يوصف الزمان بالخير أو بالشر يكون المعنى أن الخير كثر فيه وشغل زمانه كله حتى صار الظرف الذي هو الزمان موصوفًا بالحدث الواقع فيه كما تقول يوم صائم وليل قائم ، ونحن نقول في الدعاء اللهم اجعل خير أيامنا يوم لقائك وتريد أن يكون يوم اللقاء مُفْعمًا كُلّه بالخير والمغفرة والرحمة والعطاء وأنه لا شر فيه البتَّة ولا غضب فيه ولا حزن فيه ، ودخول كلمة من في قوله عليه السلام «من خير هذه الليلة» يعني أنه يسأل الله بعض خيرها وحين أقول اللهم إني أسألك من خير هذه الساعات فأنا أقول لربي إني أقنَعُ بقليلها وقليلها منك لا يُقَالُ له قليل ، وحين أقول اللهم إني أسألك خير هذه الساعات فأنا أقول لربي إني أطمع في فيض عطائك وعطاؤك لا يَنْفَدُ وأطمع في خزائنك وخزائنك لا تغيضُ وقوله عليه السلام «وخير ما فيها» يعني ومن خير ما فيها لأنه معطوف على خير هذه الليلة وداخل في حكمه والمعنى أن الليلة خير وفيها خير ، وهو عليه السلام يسأل من خيرها ومن الخير الذي فيها ، كما أقول اللهم أسألك من بركة هذه الساعة وبركة ما فيها ، وحين أسأل الله عطاء فإنه يحتمل أن أسأله العطاء سواء عملتُ أو لم أعمل لأني أطمع في خزائنه وأطمع في جوده وهو لا يعطي من يستحق العطاء فقط وإنما يعطي من لا يستحق ثم إنه ليس هناك من يستحق شيئًا من الله لأن أقل نِعْمةٍ أنْعَمها الله على المنقطعين لذكره وعبادته لا يكافئها منهم ذكر ولا عبادة ، وهذا هو الذي يُجرئنا على أن نطلب منه الفِرْدَوْسَ الأعلى ونحن نبوء بذنوبنا ونبوء في الوقت نفسه بنعمه علينا ، يعني أنا في كل لحظة في يميني نعمة من نعمة الله وفي شمالى ذنب اقترفته

واجترحته ويقولُ بعض علمائنا في مثل قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ إننا ندعوه بالوفاء وهذا ليس من الأدب وإنما المعنى اهدنا بهديك حتى نكون مع من وعدتهم على لسان رسُلك ، وحين أقول اللهم ارحمني فأنا أريد اللهم سدِّدْ قَدَمِي على طريق الذين تَرْحَمُهُمْ .

قوله عليه السلام « وأعوذ بك من شرّ ما في هذه الليلة وشر ما بعدها » وفي رواية أخرى « أعوذ بك من شرها وشر ما فيها » بيَّنْتُ أن نِسْبَةَ الشر أو الخير إلى الليلة نسبة مجازية ، وأُنَبِّه إلى أن رسول الله ﷺ يُعَلِّمنَا جميعًا هذا الدعاء فالأصل أن نسأل جميعًا الخير وأن نستعيذ جميعًا من الشر والخير كله صلاح وإصلاح والشر كله فساد وإفساد والخير بِرٌّ وعَدْل وصِدْق وعطاء ورحمة والشر كله ظلم وسَلْبٌ وقهر ونهب وحين تسأل أنت الخير يصيبني منه نصيب لأن العَدْل والبر والصدق والأمانة والوفاء كل ذلك خيرٌ للكافة ، والظلم والغش والغدر والخيانة كل ذلك بلاء للكافة ولا يُدَمِّر المجتمعات والأمم شيء كما يدمرها شيوع الشر فيها ، وأعداء الشعوب الآن لا يضربونها بطائراتهم وإنما يتسللون إليها بوسائلهم لإشاعة الشر فيها فتتفانى الشعوب من داخلها وتتحوّل الحياة فيها إلى جحيم ما لم تكن لها قيادة واعية تعرف كيف تحميها وهذا هو الذي يكون به الفلاح ولن يفلح الناس ما لم يواجهوا الشرّ بحكمة ، والشر لا يواجه بشر لأننا لو واجهنا الشر بالشر سيُصْبِحُ عندنا شران بدل شر واحد ، وإنما الوعي والعلم واليقظة هما الحل لكل مشكلة بحكمة ، فإذا غاب الوعي والعلم واليقظة ولم يبق إلا الشر بالشر فويل للناس .

قوله عليه السلام « رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر » وقد مضى شرحهما ، وقد قال عليه السلام هناك « الهَرَم » وفي رواية أخرى لهذا الحديث

« إني أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكبر » فدلت هذه الرواية على أن الهرم الذي استعاذ منه سيدنا ليس هو سوء الكبر ، وكتب اللغة تقول الهرم بفتح الهاء والراء كبر السنّ وهرم الرجل كفرح كبر سنه ، فالهرم والكبر أخوان وسوء الكبر هو سوء الهرم وهو ما يعرض في هذه السن من الضّعْف والعجْز والحاجة وهو أرذل العمر ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ﴾ ، وقلت إن الاستعاذة من الهَرَم والكِبَر كلها في يد الله فإذا كان يمكن أن أعالج الجبن أو البخل وأن أتخلص بمعونة الله منهما فإن الهرم وسوء الكبر مما لا دخل لي فيهما ، ومما يخطر في نفسي وأنا أقرأ الاستعاذة من الهرم وأرذل العمر والتنكيس في الخلق أن جذر الوجود الإنساني وأصله الأول هو ما حدّث الله ملائكته بقوله : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ وخلافة الإنسان لله في الأرض تعني عمارتها ولا تكون عمارتها إلا بالمشي في مناكبها والضرب فيها ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ وهذه كلمة قرآنية ذات قيمة عملية في رواج الحياة ورغدها ، ثم إن المولى جل وتقدس فسر خلافته في الأرض المشي فيها والضرب فيها بعبادته في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فإذا وضعت هذه الآية بجوار ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ نتج لك أن خلافة الله في الأرض والضرب في الأرض هو محض العبادة . وفي مرحلة السنّ التي يعجز فيها الإنسان عن الضرب في الأرض والفعل في هذا الوجود ويكون الهَرَم قد جنّبه وأبعده عن كتيبة الضاربين في الأرض « وطلع على المعاش» فإن الحياة عنده تكون قد فقدت قيمتها لأنه لم يصبح قادرًا على أداء حق خلافته لله في الأرض وهي العبادة الحقة لأن الصلاة والصيام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي كل ذلك وغيره هو من إعداد الإنسان لعمارة الأرض والضرب فيها .

ووراء هذا معنى آخر هو أيضًا خاطر يبعثه في النفس كلام سيدي وسيد الناس صلوات الله وسلامه عليه وهو أن حب الحياة والرغبة فيها بمقدار القدرة على المشاركة فيها والفعل فيها والعطاء لها وهذا العطاء هو جذر وجودي ووجودك لأن الله خلقني وخلقك لخلافته في الأرض أعني عمارتها ومنَّ وتفضَّل وجعل عمارتها جذر عبادته ثم منّ وتفضل وجعل الآخرة ونعيمها والخلود في الجنة بلا موت لمن أَحْسَنَ خلافة الله في الأرض وعبده بهذه الخلافة فإذا أحسن الخلافة وهو ينكر خالق الأرض فليس له قيمة ، وإنما هو كذابة وجدت لا تدري من أين ؟ ولا إلى إين ؟

قوله عليه السلام : «رب أعُوذُ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر» وفي الرواية الأخرى «وفتنة الدنيا وعذاب القبر» وكلمة من عذاب في النار غيرُ قولنا من عذاب النار لأن الأولى تعني من عذاب أي عذاب في النار والتنكير في كلمة (عذاب) للتقليل والتحقير ، وذلك بخلاف عذاب النار لأنه يعني عذاب النار الموصوف في الكتاب والسنة ، ومعلوم أنه عليه السلام له مقامه في الجنة وإنما يعلمنا عليه السلام أن نستعيذ بالله من عذاب أي عذاب في النار ومن عذاب أي عذاب في القبر ويقول لنا احذروا عذاب الله وإن قلّ لأنكم لا تطيقونه وهذا من دلالة المسبب على السبب لأن المقصود ليس هو الاستعاذة من عذاب في النار وإنما الاستعاذة من أي عمل يُغْضِبُ الله ويوجب عذابًا أي عذاب في النار وهذا الدعاء استعاذة من المعاصي كلها كبيرها وصغيرها والاستعاذة من المعاصي أعني من الغش والكذب والزور والظلم والغَدْر وكل ما تراه يشيع ويَتَبنَّاه سفلة الناس هو أكرم ما يستعاذ بالله منه ، والمعصية توجب الغضب والذي لا يستعيذ بالله من موجبات غضبه وهو يتقلَّب في نعمائه هو فاسد النفس . ورَاجِعْ أنك تَسْتَعِيذُ به من الذي

يُغضِبُه فيعيذك من الذي يغضبه ويكافئك بعد ذلك بالجنة ، وراجع ما تقوله «اللهم إني أستعيذ بك منك» وتأمل كيف تكون في قبضة الله .. ثم إن هـذه الاستعاذة في آخر الحديث ترجع إلى الحديث كله ولها نظائر كثيرة في كلام سيدنا رسول الله ﷺ وهي تشبه الفاصلة القرآنية ، من حيث هـي خاتمة ونهاية وإقفال للمعنى وطيّ له بما يرجع عليه كله ويَرُدُّ آخره على أوله ، فالاستعاذة من عذاب أي عذاب تعني سؤال خير هـذه الليلة وخير ما فيها وخير ما بعدها والاستعاذة من شرها وشر ما فيها وشر ما بعدها كما تعني الاستعاذة من الكسل والهَرَم وسوء الكبر .

وفتنة الدنيا لها دلالة عامة ودلالة خاصة بموقعها في هذا السياق بعد الاستعاذة من الهَرَم والكبر ، أما الدلالة العامة ففيها تنبيه على أن هذه الدنيا فيها ما يُفْتَتَنُ به ، وأن النفوس متَهيِّئةٌ لهذا الافتتان وقد بين ذلك سيدنا المصطفى في أحاديث كثيرة كالذي مضى في قوله عليه السلام الدنيا خَضِرَةَ حلوة ، وقد زَيَّنَ الله لنا فيها ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ﴾ .

وهذه الآية ونظائرها في الكتاب العزيز بيَّنَت لنا عناصر الفتنة وأن أصلها وجذرها الشهوات كما بيَّنَتْ لنا طريق النجاة منها وأن هذه العناصر كلها متاع وأنها زائلة ثم وَضَعَت المقابل الذي لا يَفْنى ثم تركتنا للاختيار وكل يتحمل مسؤولية اختياره ، وراجع كلمة ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ وتبين إلى أي حدٍّ تكون شهوة المال لا حدود لها ، ثم انظر إلى سعار الثروة فيمن حولك وكيف تتضخم الثروات حتى تحسب بالمليارات

ولا يزداد صاحبها إلا ركْضًا وراءها بالحق والباطل والنفاق والتآمر وبيع الضمير وبيع شرف النفس وكيف رَدَع القرآن هذا السُّعارَ وقدعه بكلمة واحدة ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ وهذه الكلمة هي التي نبَّهَنَا رسول الله ﷺ إلى نجاعتها في قوله «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» وقد ذكرت أن هذا ليس ذمًّا للنساء وإنما هو بيان لسلطانهن على القلوب كما نَبّه عليه السلام إلى أنه ما ترك فتنة أضر على الرجال من النساء ، ومن الواجب أن نذكر أن الذي يستعيذ بالله من فتنة الدنيا هو المعصوم صلوات الله وسلامه عليه وأن هذا يعني أننا معرضون فيها لفتنة هي أشدُّ وأهْوَل ونسأل الله النجاة منها .

هذا شيء من المعنى العام لفتنة الدنيا ، أما الذي يضيفه إليها السياق فهو ذكرها بعد الهَرَم والكبر ، وأن هذا الهَرمُ قد وهن العظم منه واستلقى وهدأت شهوته وحِدَّتَهُ إلا شيئان وهما الحرص وطول الأمل لأن هاتين يسلكان في نفسه الطريق المعاكس فإذا شاب هو شَبَّتَا فيه يعني هو يسير بعمره نحو المغيب وهما يزدادان شبابا وضراوة وحِدّة كما قال عليه السلام «يشيبُ ابنُ آدم وتَشبُّ فيه خصلتان الحرص وطول الأمل» وكأنه كلما استشعر أن الدنيا تتفَلَّت من يده ازداد حرصُه عليها وازداد تشبُّثه بها ، وهذا يجعله أكثر تعرُّضًا للفتنة . وعطف عذاب القبر على فتنة الدنيا يعني تقارب بينهما وأن فتنة الدنيا تفضي إلى عذاب القبر لأنه لا يعطف الشيء على الشيء إلا إذا كان بسبب منه ، أو كما قال الكملة رضوان الله عليهم إلا إذا كانت الثانية لَفقا للأولى ومضامَّة لها . ويلاحظ أن الثنائية بارزة في هذا الحديث فالعجز والكسل أخوان والجبن والبخل كذلك ، والهرم وسوء الكبر ، وعذاب القبر وعذاب النار وخيرها وخير ما فيها وشرها وشر ما فيها وسيأتي الهدى والسداد وهكذا وهذا كثير في كلامه ﷺ ، ولعل جذر ذلك هو الثنائية التي تراها في

الهدى والضلال والإيمان والكفر والتوحيد والشرك والإنذار والتبشير والرغبة والرهبة والجنة والنار إلى آخره .

ومما يَحْسُن ذكره مع هذا الحديث ما رواه مسلم بسنده عن أبي بُردَة عَنْ أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : « قُل اللَّهُمَّ اهْدني وسَدّدني ، واذكر بالهدى هدايتك الطريق والسداد سداد السهم » .

حين يقول رسول الله ﷺ لواحد من أصحابه قل كذا يكون هذا موجهًا إلى الأُمَّة كلها إلى أن تقوم الساعة ، والصحابي يعلم ذلك ويعلم أنه مكلف ببلاغ ما سمع من رسول الله ﷺ وكل من يَبْلُغُه هذا عليه أن يُبلِّغه .

وهاتان الكلمتان جامعتان كل خير ، وهذا من أظهر جوامع كلمه عليه السلام ، ومن أوجز الدعاء وأشمله ، وكلمتا اهدني وسدّدني جمعتا شطري العمل ، وهما العلم والعمل ، فكلمة الهداية متمحِّضة للعلم ، وكلمة السداد متمحِّضة للعمل ، ومن الهداية أن أعرف الطريق الذي يُرْضِي الله ويَصلُنِي به ويقربني منه ، وأن تهتدي نفسي إلى أهم حقيقة وهي تجرد النفس والهمّ لا يبتغي إلا وجه الله ، وأن تتخلص لذلك وأن تُخْلص فيه ، فإذا كنت معلمًا بذلتُ ذات نفسي إلى طلابي راجيًا أن أشارك في صنع كفاءات تتحمّل مسؤوليتها بأمانة في مستقبل هذه الأُمَّة وأن أُفَتِّشَ في داخلهم عن قدرة مخبوءة وكفاءة مطمورة فأثيرها ، وأفتحُ الأبواب أمامها حتى تَنْطَلِق وتتجلّى وتَرُوع وإن كنت عالمًا في الطب أبْذُل كل مجهودي لأهتدي إلى دواء ناجح أو أواجه به كوارث الأمراض التي تفاجىء المجتمع وتحصُدُ قُوّته وإن كنت عالمًا في الفقه اجتهدت حتى أستنبط وأستخرج وأقيس لأضع بين أيدي الأُمَّة حلولاً فقهية صحيحة مُوَثّقة لتواجه بها قضاياها ، وكل هذا وأشباهه

وأكثر منه داخل في كلمة اهدني أعني إلى معرفة حقيقة ما يَنْفَعُنِي في الدارين ، والذي ينفعك في الدارين لا حدود له والمطلوب ممن شهد الشهادتين أن يقول اللهم اهدني يقولها المعلم والفقيه والطبيب والصانع والسياسي والكاتب والإعلامي كل من شهد يقولها وهو يزاول عمله وهذا هو معنى السَّعة في هذه الكلمة وأنها شَطْر حياة الناس أعني شطر البحث الواصل إلى الحقيقة ، والمفهوم من قوله عليه السلام واذكر بالهدى هدايتك الطريق ، وقصر الهداية على ما يكون في المساجد وما يتصل بها وإبعادها عن الدراسة والبحث والمعمل والمستشفى والداء والدواء إلى آخره حذف وطرح وإهمال لأوسع معنى في الكلمة لأنها في كلام رسول الله ﷺ مطلقة غير مقيدة ومشروحة بهداية الطريق الذي قد يكون إلى المحراب وقد يكون إلى المعمل والجامعة والمكتبة .

وقبل أن أتكلم في السداد أكرر أن الهداية هي معرفة الطريق الذي أصل به إلى الهدف والغاية التي حددتها في المجال الذي أعمل فيه وهو هدف لصالح الجماعة التي أنا منها والتي رأى رسولها صلوات الله وسلامه عليه رجلاً يتقلّب في الجنة بسبب غصن شوك أزاله عن الطريق خشية أن يؤذي المسلمين وكل عمل يعمله العالم والباحث والمربي لصالح الأمة ليس أقل من إزاحة غصن الشوك من الطريق .

قلت إن الهداية دراسة الطريق وحسن معرفته والسداد يأتي بعد ذلك لأنه سلوك في الطريق وقطع خطواته كسداد السهم الذي انطلق نحو الهدف ، وسدادي وأنا أعلم هو موقفي بين طلابي أشرح وأبين وسداد كلماتي هو أن تسلك طريقها إلى قلوب وعقول طلابي لا تخطئ هدفها ، وهكذا إذا كنت

مجتهدًا في باب من أبواب العلم تكون أدواتي وآلاتي كتبًا كانت أو مختبرات بين يديّ آخذ منها ما يصيب الهدف وتكون يدي مُسَدّدة لا تقع على شيء وقوعًا عشوائيًا وإنما كل شيء مدروس ويكون كل شيء متجهًا نحو القبلة التي اتجه بحثي إليها ، وتكون آلة الصنعة في يدي ماضية على وجه صحيح ويكون كل شيء مُصَوّبًا نحو قبلته سالكًا طريقه نحو غايته فإذا قلت فلان العالم أو الباحث مُهتدٍ مُسَدّد فأنت تريد هذا الذي أقوله وأكثر من هذا الذي أقوله .

ولو وقف شعب على صعيد واحد وقال اللهم اهدنا وسددنا وأجاب الله دعاءه لكان من أفضل شعوب الأرض علمًا وخلقًا وقوة وثروة ولسلك الكل سلوكه في حياته من بيع وشراء وهو آمن فلا غش ولا خداع ولا سلب ولا نهب ولا ظلم ولا قمع ، ولن تجد فيه من يأخذ ولا يعمل ، وليس فيه من يستحل أموال الشعب بنسب أو صهر أو انتماء لطبقة كائنة من كانت الكل تحفى أقدامه على أرض وطنه يعمر والكل يأخذ بمقدار ما يعطي والكل آمن على نفسه وماله وعرضه وكل هذا بعض عطاء كلمتي اللهم اهدني وسددني . هاتان الكلمتان تغيّر الواقع المتردي والمتخلف إلى واقع أفضل في وقت قصير جدًا ، ينتقل فيه الناس من الضعف إلى القوة ومن الجهل إلى العلم ومن الفقر إلى الغنى وليس في كلامي حرف واحد خارج عن معنى هاتين الكلمتين بل إنني أفتح بما قلت باب فهمهما وهما في وجازتهما واستيعابهما تشبهان كلمتي : قل آمنت ثم استقم ، لا ترى شيئًا في أمر الدين والدنيا يخرج عنهما وقوله عليه السلام : « واذكر بالهدى هدايتك الطريق والسدادِ سداد السهم » وأفهم من هذا أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يدعونا إلى أن نستحضر الدلالة الحسية لتقوى في نفوسنا الدلالة

المعنوية التي انتقل الكلام إليها ، ومن عرف طريقه لا تضيع منه خطوة في غيره ، ويكون كالسهم السديد لا يخطئ هدفه وقلما نبهنا صلوات الله وسلامه عليه إلى الدلالات الحسية التي انتقلت إلى المعاني العقلية وإنما خص الهدى والسداد بذلك لأن من حصل الهدى والسداد لم يضع منه شيء ومن ضيَّعهما لم يبق له شيء ينفعه ، وهذه الكلمة « واذكر بالهدى هدايتك الطريق والسداد سداد السهم » جديرة بأن تُنْقَل إلى كتب البلاغة لأنها تقول في هذه الكتب إنك حين تستعمل الكلمة في غير ما وضعت له مثل كلمة الهدى التي انتقلت من هداية الطريق إلى الهداية في معرفة الحق كل أنواع الحق وكلمة السداد التي انتقلت من سداد السهم إلى إدراك كل صواب أي صواب أقول حين تنقل الكلمة من معنى إلى معنى في المجاز فالواجب أن تَعْلَم علمًا يقينيًا أن هذه الكلمة في المعنى الجديد تَسْتَصْحِبُ معها معناها القديم المنقولة منه . واعلم أن الكلمات المنقولة لم تُغْسَل من معناها الأول وخاصة إذا كان بين المعنى المنقولة إليه والمعنى المنقولة منه علاقة مشابهة كما في هاتين الكلمتين وإنما يبقى معناها القديم فيكسبها في معناها الجديد مذاقًا جديدًا وعليك واجب أيها المتذوق للبيان والمعلم له وهو أن تستحضر معناها القديم وأن تخطره في نفسك ليتحقق لك هذا المذاق الجديد فلا تنس هداية الطريق وأنت تذكر هداية قلبك إلى ما يُرْضي الله ، ولا تنس سَداد السهم وأنت تحاول أن تُسدِّدَ طريقك الذي تسلكه إلى مرضاة الله ..

هذه الجملة تشرح المجاز وتقول إن الكلمة قد تنقل من معناها الأصلي إلى معنى آخر وتُستعمل في هذا المعنى الآخر استعمالاً مؤسسًا على المشابهة بين المعنيين ثم إنها تفرغ شيئًا من معناها الأصلي على المعنى المجازي الذي استعملت فيه ، ولا معنى للقول بأن المعنى الأصلي هو كل

معنى استعلمت العرب فيه الكلمة لأن سيدنا رسول الله ﷺ لما قال واذكر بالهدى هداية الطريق والسداد سداد السهم كان يرجع إلى الأصل ويوحي باستحضاره فالهدى جذره هداية الطريق والسداد جذره سداد السهم فإذا استعملت الكلمات في غير هذا الجذر كان استعمالاً على سبيل النقل وهذا قاطع . وقوله عليه السلام (اذكر) معناه استحضر المعنى الأصلي حتى تُحْسِنَ تذوق الدلالة الجديدة للكلمة لأنها وإن دلت على الهدى المعنوي فإن نصفها الدلالي على الأقل يحتفظ بمعناها الحسِّي وهذه الوصية الكريمة تقول لي وأنا في الدرس أُدرّس الاستعارة إذا قلت لطلابك مثالكم المتوارث رأيت أسدًا وأنت تريد شجاعًا فقل لطلابك إن كلمة أسد لا تدل على حقيقة معنى الشجاع دلالة وافية إلا إذا استحضرت وتذكرت واسترجَعْت المعنى الأصلي لها وهو الحيوان المفترس وذكرت قوته وبطشه وعبالته وهيأته وأنه لا يخامره خوف وأنه لا تُفلت منه فريسته وهذا التذكر هو ضروري لدلالة الكلمة على الرجل الشجاع ، وإذا كنت تشرح لهم مثال الشيخ عبد القاهر الذي كرره في الأسرار وهو غنّت لنا ظبية لا تكتفي بالقول بأن الظبية نقلت من معناها المعروف إلى الحسناء على سبيل المجاز وإنما قل لهم اذكروا صورة الظبية وملاحَتَها وخفّتها ورشاقتها واذكروا عيون العين في حَوَرها وجمالها وسعتها وشدة بياض بياضها وشدة سواد سوادها وعودوا بكل ذلك إلى الظبية التي تغنينا وعليك أن تخفف اللوم على البلاغيين لما قالوا إن المشبه صار فردا من أفراد المشبه به ونقل اسمه إليه لأنه ما دام صار فردًا من أفراده فله الحق في هذا الاسم وأنك لم تنقل اللفظ وإنما نقلت المشَبّه إلى عائلة المشبه به ، ثم خففوا اللوم على السكاكى لما قال إن المجاز يوجد لنا فردًا ثالثًا لا هو الحيوان المفترس ولا هو الشجاع وإنما هو مكوّن منهما ، أقول خَفّف يا صاحبي اللوم عن العلماء لأن كلمة رسول الله ﷺ وهو أفضلُ

من تذوق البيان دالة على ذلك كله ، ولا تنكر شيئًا من ذلك لأن أهْل اللسان كانوا يعرفون كل ما انطوى عليه مما صار بعد ذلك علوم العربية كانوا يعرفون دقائق النحو ودقائق الصرف ، ودقائق البلاغة ، ودقائق المعاني اللغوية ودقائق الفروق وإن لم يسموها بأسمائها ، ومن أفضل ما في كتاب الخصائص أنه ذكر أن الذي علّم آباء النحويين النحو هم العرب والأعراب وأن هؤلاء الآباء كانوا متنبهين أشد التَّنَبُّه لما يقوله العرب والأعراب في شأن اللغة وقد عرفوا أن الألف والنون تقعان زائدتين في الكلام في مثل شبعان من الشبع وريان من الري وسكران من السكر ، وحيران من الحيرة أقول استخرجوا ذلك من كلمة قالها رسول الله ﷺ لوفد وفد عليه فسألهم ممن القوم ؟ قالوا بنو غيان فقال بل بنو رشدان ففهموا منها أن غيان من الغيّ ورشدان من الرشد وأن الألف والنون زائدتان وهكذا استخرجوا الحذف طلبًا للخفة من قراءة (ولا الليل سابق النهار) بفتح النهار وحذف التنوين من سابق والأصل أنك إذا نونت اسم الفاعل نصبت مفعوله ، وإذا حذفت التنوين أضفته فقيل للقاري ماذا أردت أعني بقراءته قال أردت سابقٌ النهارَ بالتنوين فقيل له لماذا لم تقل سابق النهار قال لو قلته لكان أوزن أي أثقل وهذا يعني أنه حذف التنوين للخفة وهذا من أكرم ما يدرس في هذا اللسان .

ومن أكرم ما دلنا عليه رسول الله ﷺ من صور الذكر ما رواه مسلم بسنده عن ابن عباس عن جُوَيْرية أن النبيَّ ﷺ خرَجَ من عندها بُكْرة حين صلى الصبح وهي في مَسْجدها ثم رجع بعد أن أضْحَى وهي جالسة فقال ما زِلْت على الحال التي فارقتك عليْها ؟ قالت نعم . قال النبي ﷺ : « لقد قلت بعدك أربع كلمات . ثلاث مرات لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحَمْده عَدَدَ خَلْقِه ، ورضا نَفْسِهِ وزنة عَرْشِه ومداد كلماته » انتهى الحديث .

قال النووي (وهي في مسجدها) أي موضع صلاتها ، قوله «سبحان الله وبحمده» مداد كلماته هو بكسر الميم قيل معناه مثلها في العدد ، وقيل معناه مثلها في أنها لا تَنْفدُ ، وقيل في الثواب . والمداد هو مصدر بمعنى المدد وهو ما أكثرت به الشيء ، قال العلماء واستعماله هنا مجاز لأن كلمات الله تعالى لا تحصر بَعَدٍ ولا غيره والمراد المبالغة في الكثرة ، لأنه ذكر أولا ما يحصره العد الكثير من عدد الخلق ، ثم زنة العرش ثم ارتقى إلى ما هو أعظم من ذلك وعبَّر عنه بهذا أي ما لا يحصيه عد كما لا تحصى كلمات الله تعالى . انتهى كلام النووي .

وقوله عليه السلام «ما زِلْت على الحال التي فارَقْتُك عليها» يعني ما زلت تذكرين وتسبحين وتتعبدين بما سمعته منك وفارقتك وأنت عليه ؟ والحال التي يسأل عنها رسول الله ﷺ تَنْصَرِف إلى ذلك لأن الحديث بعدها كان مترتبًا على الحال التي هي الذكر والتسبيح الذي سمعه منها رسول الله ﷺ ويلاحظ أن نبيّ الله لم يحدثنا عن ذكرها الذي قال إن كلماته الأربع تَزِنُه . وهذا شيء عجيب وجليل لأنه ليس من المقصود في السياق أن نعرف الذكر المفضول وإنما نعرف الذكر الفاضل والأفضل ، ولو عرفنا أن جويرية رضوان الله عليها كانت تقول كذا وأن الكلمات الأربع التي ذكرها رسول الله ﷺ تزنها لانصرفنا عنها إلى كلمات سيدنا رسول الله ، وليس من المهم أن نعرف ذكرًا ننصرف عنه إلى غيره وإنما ننصرف إلى كل الذكر ثم نتخيّر ما أشار إليه رسول الله ﷺ وأغرانا به .

وقوله عليه السلام : «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن» هذا هو لب الحديث والكلمات الأربع هي «عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته» وهي من المعاني التي

تقع في النفس في إثر التسبيح لأن التسبيح هو «سبحان الله وبحمده» وهذا يعني أن التسبيح يفضل بما يعقبه مما يجري في النفس ولو قلت سبحان الله وبحمده عدد زَبَد البحر أو ما هبت الريح وذر مشارق أو عدد نجوم السماء لم يكن كما قال رسول الله ﷺ لأن الذي يجري في النفس ويُعبّر عنه بقولنا عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته غير الذي قلناه لأن كل كلمة من هذه الكلمات الأربع هي تسبيح وذكر وحمد وثناء فالذي وراء كلمة عدد خلقه هو أنه سبحانه خالق الخلق كله من إنسان وحيوان وطير وبَرٍّ وبَحْر وسماء وأرض ، وهذا هو شأن المعبود بحق ولا يكون شيءٌ أى إلا من الواحد الأحد الموصوف بكل كمال والمنزه من كل نقص ، ثم إن رضا نفسه تستشرف إلى أن يبلغ تسبيحي وحمدي وذكري رضا نفسه ، لأنه لا غاية لها فوق غاية أن تبلغ رضا ربها الخالق لها والمالك لها والتي لا حول لها إلا بحوله ولا طول لها إلا بطوله ، ولا تَرَى ولا تسمْعَ ولا تعقِلُ إلا من عطائه ، ثم يأتي قوله عليه السلام «وزنة عرشه» واستحضر الآيات والأحاديث التي ذكر فيها العرش واستحضر المهابة والجلال والهيمنة والسلطان المصاحبات لذكر العرش وذي العرش وكل الآيات التي يذكر فيها العرش لها مذاق خاص ولها أُخْذَة خاصة ومهابة خاصة ، ولا تنس أنها من الآيات التي قادت سيدنا عمر إلى ربه لما سمع ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ ، وعليك أنت أن تجمع الآيات التي ذكر فيها العرش وتتأملها وتأمل ما قبلها وما بعدها ، ولن يدلك على الخير الذي في الكتاب إلا عقلك ، وكذلك ذكر العرش في الحديث كهذا الحديث الذي يذكر فيه زنة العرش مع عدد الخلق ورضا النفس ومداد الكلمات وكلها من أجل

الأمور الإلهية وقد ذكر ابن عباس أن نبي الله ﷺ كان يقول عند الكرب «لا إله إلا الله العظيمُ الحليمُ لا إله إلا الله رَبُّ العرش العظيم لا إله إلا الله ربُّ السموات ورب الأرض رب العرش الكريم» وراجع كيف تكرر رب العرش وكيف اقترنت بكلمة لا إله إلا الله التي هي أفضل ما قالها عليه السلام والنبيون من قبله ثم راجع ارتباط ذلك بالكرب ودعاء تفريجه وكيف كان ذكر العرش هو الأبْرَزُ والأبين في طلب تنفيس الكربات، وأي شيء بين رب العرش وتنفيس الكربات؟ وهل العرش في مثل هذا السياق عنوان لعز الألوهية وأن المكروب يُمْسِكُ بباب عز الألوهية حتى يُفرّج رب العرش العظيم كربه؟

قال الخطابي كان السلف يدعون بهذا الحديث ويسمونه دعاء الكرب قال الإمام أبو عبد الله الأبيّ: كيف يسمى بذلك وليس فيه دعاء؟ وإنما فيه ذكر؟ يريد أبو عبد الله أن حديث رسول الله الذي مضى هو ذكر وليس فيه طلب تفريج الكرب وكيف يسمى دعاء؟ وأجاب رحمه الله بقوله: أجيب بوجهين: أحدهما أن هذا الذكر يستفتح به ثم يدعو بما أحب، وقد جاء مفسرًا بذلك في بعض الطرق، والثاني ما أشار إليه ابن عُيينَة وقد قيل له هذا فقال أما علمت أن الله تعالى يقول من شغله ثناؤه عليّ عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين وقد قال أمية بن أبي الصلت:

إذا أثنى عليك المرءُ يومًا ... كفاك من تعرُّضه الثناء

وقد يُسمّى دعاء ما ليس فيه دعاء ففي النسائي من حديث سعد ابن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ «دعوة ذي النون إذا دعا في بطن الحوت لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لن يدعو بها مسلم في شيء إلا استجيب له» انتهى كلام الأبي.

وقد جاء الدعاء في القرآن بمعنى طلب الحاجة وبمعنى العبادة قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ فقابل الدعاء الذي هو طلب الحاجة بالاستكبار عن العبادة ، وهذا يعني أن الدعاء يكون بمعنى العبادة ، ثم إن طالب الحاجة كالمغفرة والهداية يعلم أن هذا لا يكون إلا منه وحده سبحانه وهذا توحيد والتوحيد رأس العبادة . وهذا أيضًا تنزيه عن الشرك لأن الواحد لا شريك له ثم هو أيضًا وصف بالكمالات المطلقة إلى آخره وهكذا تجد المعاني كلها متماسكة وتجد مثل قولنا لا يغفر الذنوب إلا أنت أصلا ممسكًا بهذا كله ومن هنا كان طلب الحاجة من الله عبادة .

وراجع هذه الكلمات الأربع من جهة أخرى وهي صلة معناها بالتسبيح والحمد ، وقد قلت إنها من صيغ الذكر لأن ذكر عدد خلقه ، سبحانه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته كل ذلك عبادة وثناء على الله وأقول الآن إن هذه الأربعة موصولة جدًّا بالتسبيح والحمد لأنها تقول إني أسبحك وأنت أهل للتسبيح وأحمدك وأنت أهل لأن تحمد لأنك خلقت خلقًا لا يُحدّ ولا يُعدّ ولأن رضا نفسك غاية كل مخلوق لك وأن زنة عرشك وسعت السموات والأرض ولك السلطان ولك الملك ولأن كلماتك لا تنفد وأنا أسبحك وأحمدك تسبيحًا وتحميدًا لا ينفد ، وهذا يسوقنا إلى ذكر شيء هو أنني قلت أستغفر الله مائة مرة أو أحمده وأسبحه وأكبره ألف مرة مثلاً فهل تحسب المائة أو يحسب الألف لي ؟ وما الفرق بين سبحان الله وبحمده ، وسبحان الله مائة مرة ؟ وما الفرق بين اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وبين اللهم صل وسلم عليه ما تعاقب الملوان أو ما هبت الريح إلى آخره . والذي أراه في هذا أن قولي سبحان الله ثلاثين مرة تحسب لي مرة واحدة بدليل أننا نسبح الله عقب كل صلاة ثلاثًا وثلاثين ونحمده ثلاثًا

وثلاثين ونكبره ثلاثًا وثلاثين ولا يجوز أن أقول سبحان الله ثلاثًا وثلاثين والحمد لله ثلاثًا وثلاثين والله أكبر ثلاثًا وثلاثين وأكون بذلك أتممت الذكر عقب الصلة ، ووجه ذلك فيما أعلم أن تكرار التسبيح على اللسان مع مواطأة القلب له فضل في تصفية القلب وإزالة كدر الذنب وإزالة رين الغفلة وقولي اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد عدد الحصى والرمال ، يعني أنني صليت عليه مرة واحدة ، ولي ثواب في قولي عدد الحصى والرمال لأني لا أقولها إلا وقلبي متعلق بالصلاة والسلام عليه كما أن الحمد لله ملئ السموات والأرض وما بينهما فهذا يعني حمدا واحدا هو الذي أثاب عليه ثم أثاب على قولي ملء السموات والأرض وما بينهما لتعلق قلبي بدوام الحمد وإحساس الصادق المخلص بالرغبة القوية في نفسي بكثرة حمده وكثرة الثناء عليه سبحانه .

وبقي أن نقرأ معًا هذه الكلمات الأربع : عدد خلقه ، ورضا نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته ، ونلاحظ فيها التوازن الصوتي في كلمات خلقه ، ونفسه وعرشه ، ثم هذا التقسيم المتوازن وأن كل كلمة منها مكونة من كلمتين عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ، وكيف كان ذلك الصقل البالغ الدقة بما يجري به لسانه صلوات الله وسلامه عليه على البديهة وكيف تسهل كلامه بهذا وصارقريبًا من كل نفس . المتعلم وغير المتعلم سواء وكيف كان حفظه سهلا وكيف بلاغه كله عن ربه مما يَسَّره الله للحفظ ، بتوفيقه له عليه السلام ثم ألاحِظُ الكلمة الأخيرة ، ومداد كلماته ، وكيف خالفت التأليف الصوتي للثلاث السابقات ولم تكن امتداد لهن لأنه بها انتهى الحديث ولو قال وعدد كَلِمِه لظل السامع منتظرا شيئًا بعدها كما عودته الكلمات الثلاث السابقات وتلحظ هذا في غير هذا الحديث كالذي مضى في قوله عليه السلام « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع » ثم

خولف هذا النغم في قوله ودعوة لا تستجاب فأنهى المعنى وأشعر السامع بأن الكلام انتهى ولو قال عليه السلام ودعاء لا يرفع لبقي السامع متوقعًا لبقية الحديث كما عوَّدَتْه الكلمات الثلاث ، ثم راجع أيضًا أن حديث الاستعاذة هذا ختم بأربع كلمات كما ختم حديث جويرية رضوان الله عليها بأربع كلمات . وهذا والذي قبله مما ينبغي أن يستقصى في كلامه ﷺ ويدرس ويبين وكما أنه لا يجدُ أحدٌ عُسْرا في حفظ «علم لا ينفع وقلب لا يخشع» إلى آخره كذلك لا يجد أحدٌ عسرًا في حفظ «عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته» ، وخذ معهما قوله عليه السلام في الحديث الذي رواه أبو هريرة : «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله» ثم قال أبو هريرة : وأحسبه قال «كالقائم لا يَفْتُر والصائم لا يفطر» ، راجع الكلمتين الأخيرتين وما بينهما من تلاؤم القائم أخو الصائم ولا يفتر أخو لا يفطر ، وعجيب هذا الجناس بين القائم والصائم وهو جناس لاحق ، لأن القاف ليست من مخرج الصاد ، ولا يفتر ولا يفطر من الجناس المضارع لأن التاء والطاء من مخرج واحد هل يجد أحد عسرًا في حفظ هاتين الكلمتين ؟ وحفظهما يعني شيوع ثواب الساعي على الأرملة والمسكين وراجع شيوع هذا الثواب بين الناس حتى إنهم ليتنافسون في السعي على الأرملة والمسكين ، ثم راجع أيضًا كلمة الساعي ، ولله هذا الساعي ، ولله سعيه وابتغاؤه الرزق من فضل الله ليسد حاجة الضعيفين الأرملة والمسكين ، وكيف كان سعيه أولا جهادًا في سبيل الله ، ولو مات في سَعْيه لكان له أجر شهيد وليس هذا فحسب وإنما هو قائم أي هو أخو الذي وصفه ربنا بقوله ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ ثم هو يزيد أنه صائم لا يفطر .

• إن العبد ليتكلم بالكلمة

ذكرت ذروا من كلام رسول الله ﷺ في الذكر والتسبيح والتهليل وكل هذا وغيره كثير جدًا وجه من الوجوه المضيئة والمشرقة للكلمة حتى إنك وأنت ماش في الطريق تذكر صيغة من صيغ التسبيح والتهليل والحمد والتكبير فتكون عَدْل عشر رقاب وأن تعتق من النار برقبة واحدة لأن الله يعتق بكل عضو أعتقته أنت منها عضوًا لك من النار ، وهذا من أوسع باب رحمة الله ومن أوفر عطائه سبحانه وتعالى ، وأرى من الضروري أن أذكر حديثًا واحدًا يحذر من الكلمة الخبيثة ، وإذا كانت الأحاديث التي مضت تدخل في باب الكلمة الطيبة التي هي كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء فهناك كلمة أخرى يجب الحذر منها وهي الكلمة الخبيثة مثلها كمثل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن العَبْد ليتكلَّمُ بالكلمة ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» وفي رواية أخرى « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتَبَيَّن ما فيها يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب» .

هذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ ولابد أن نَضَع هذا بإزاء الكلمة التي تفتح لقائلها خزائن رحمة الله ، وأن هذه تفتح لقائلها باب الغضب المفضي إلى صال الجحيم ، وهذان الضربان من الكلام اللذان يفتح ضرب منهما خزائن الرحمة ويفتح الضرب الآخر أبواب الجحيم هما لنا في الدنيا كذلك، كلمة الصدق وكلمة الحق وكلمة الإخلاص تفتح للبلاد أبواب الخير وأبواب الصلاح والإصلاح وكلمة الكذب وكلمة النفاق وكلمة التآمر تفتح على البلاد أبواب الفتن وأبواب الشر وأبواب الخراب وأبواب الجحيم في الأرض ، وقد

جاء هذا صريحًا في آخر سورة الأحزاب وأمرنا ربنا أن نقول القول السديد الصائب الذي كالسهم المسدَّد الذي لا يخطئ هدفه من إصابة الحق والصدق وجعل ذلك سبيلاً إلى صلاح الأعمال ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴾ ويقابل الكلمة المسدَّدة نحو الصدق والحق الكلمة المصوَّبة نحو قلب الحقائق وطَمْسِهَا والغشّ والنفاق والكذب وخداع الشعوب وتضليلها لحساب الفساد والمفسدين ولحساب المغامرين والغادرين ولحساب أعداء البلاد ، وواضح أن المقابل لصلاح الأعمال هو فسادها ولا معنى لفسادها إلا خراب البلاد وتخلفها وعجزها وإعدادها غنيمة باردة لأعدائها ، وإن أردت أن ترى ذلك على وجهه وكنت تعيش على الأرض التي أعيش عليها وأنا أكتب هذا الكتاب فافتح على القنوات الفضائية التي تخصَّصَتْ في الكذب على البلاد والعباد وليس لها همّ إلا همٌّ واحد وهو تشويه الاتجاهات السياسية المستمسكة بالهوية الإسلامية مع ما في هذه الاتجاهات من أخطاء ، واعلم علم اليقين أن الحرة لا تلد كذابًا ولا منافقًا ولا خائنًا ولا غادرًا ، وكلما نظرت في عيون هؤلاء اعتراني إحساس بصورة الذي ولـد لغير رِشْدَةَ ، لأنه لا يبيع لسانه وضميره مَنْ سُلَّ من أصلاب طاهرة ، وأبشع من هذا حين أسمع الكذب والنفاق والتضليل من فم امرأة ، وأعلم علم اليقين أنها أَجَّرَتْ لسانها ولسانها بَضْعة منها ، أقول إن أردت أن تعرف بشاعة كلام الكذابين والغشاشين والمستأجرين والذين أجروا ألسنتهم وضمائرهم وحناجرهم فلا يراد منك إلا أن تعيش زمنًا في أرض الكنانة وإن أردت أن تعرف الفساد والإفساد التي تنتجه الكلمة الخبيثة فلا يطلب منك إلا أن ترقب الطريق الذي تسير فيه بلادي وأنها سائرة على نفق طامس وطريق دامس وليل عابس واعلم أنه لا يمكنني أن أتكلم في الكلمة التي تنزل بصاحبها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب دون أن أذكر هذا لأنها

قبل أن تنزل بصاحبها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب أراها تنزل ببلادي في التخلف والضياع والانهيار أبعد ما بين المشرق والمغرب ورحم الله الإمام بدر الدين العيني الذي كان يقول مصر كعبة الإسلام ، وأرجو من الله أن يُنْهضَها من كبوتها وأن يقطع دابر الخونة الغادرين الكذابين وأن يحفظ كعبة الإسلام ، ولا شك أنك تكلفني المستحيل حين تطلب مني السكوت وأرى بلادي يشتعل فيها الخراب وعدوها ينتظر لحظة الضعف ليصيب المقتل .

وإذا كان سيدنا ﷺ يقول « إنما يكبُّ الناس في النار على مناخرهم حصائد ألسنتهم » فإن الذي يكُبّ الأوطان على مناخرها في الخراب والضياع حصائد ألسنة الكذابين من الإعلاميين والسياسين والمغامرين وطلاب السلطة .

ولا يجوز أن نهمل التوكيد الذي بدأ به الحديث إن العبد ليتكلُّم بالكلمة وهو توكيد بإن واللام ، والمهم في هذا التوكيد هو حرص سيدنا رسول الله ﷺ أن يبلغنا خطر هذه الكلمة وقد لوحظ هذا المعنى نفسه في الحديث الآخر الذي ابتدأه سيدنا بكلمة (إنما) الدالة على الحصر وكأنه لا يكبهم في النار إلا حصائد ألْسِنَتهم ، وهذا أيضًا تحذير واجب على من يتلقى أدب نفسه من سيدنا سيد الخلق وسيد أهل الأخلاق وراجع أيضًا كلمة العبد وكلنا لله عبد ولكنها هنا تشير إلى أن الكلمة الكاذبة والمنافقة والمضللة والمدلِّسِة لا تكون من حر ربي في جحر حرة ، وخرج من صلب طاهر ، لأن النسب الكريم يَعْصِمُ من الخساسة ، وقد قال عمرو بن العاص لسيدنا عمر بن الخطاب إذا لم يعصمنا عنها ديننا عصمتنا عنها أحسابنا ، ولله دره ، لأن الأحساب تعصم من الخسائس وهؤلاء النابحون حولي ليسوا

من أحرار الرجال وليس لهم أحساب تعصمهم وليس لتلك النابحة حر يَسْتُرُ خسائسها ، ولا أشك في أن الخطوة الأولى لعمران البلاد هي الرفض القاطع للكذب والنفاق والمسؤول الكذاب لا يجوز أن يبقى والمحب للنفاق والمنافقين لا يجوز أن يبقى هذا أو الطوفان .

وراجع قوله عليه السلام «ما يتبين ما فيها» لأنها تضيف فصيلاً من الكلام وهو غير المُعَد للتضليل والتدليس ، وليس له فريق يُعِدُّه في الزور والكذب والتدليس وإنما هو الضرب الذي لا يحرره قائله ولا يراجعه ولا يتأمله وكأن المراد أن يكون لعقلك سلطانًا على لسانك فلا يتحرك اللسان إلا بعد أن يرى العقل جوهر ما سينطق اللسان به وأنه لا ضرر فيه ولا ضرار وحينئذ بفتح العقل الباب للسان لِيُسْمَع ، وهذا هو الأدب العالي والكلام الغالي الخارج من نور العقل ونور البصيرة . وبه تهتدى الأوطان .

وقد عنَوْنَ النووي لهذا الحديث ومثله بعنوان «باب حفظ اللسان» وقال في بيان الحديث ، معناه لا يتدبرها ويفكر في قُبْحِها ولا يخاف ما يترتب عليها وهذا كالكلمة عند السلطان وغيره من الولاة ، وكالكلمة تقذف أو معناه كالكلمة التي يترتب عليها أضرار مسلم ونحو ذلك ، وهذا كله حث على حفظ اللسان كما قال ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت وينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبر في نفسه قبل نطقه فإن ظهرت مصلحته تكلم وإلا أمسك» انتهى كلام النووي .

وهذا كلام جيد وخصوصًا قوله وينبغي لمن أراد أن يتكلم بكلمة أو كلام أن يتدبر إلى آخره ، وفيه أيضًا أن هذه الكلمة التي تنزل بصاحبها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب كلمة يقولها المسلم ، كالكلمة عند السلطان والمراد بها الكلمة التي تغري بعذاب أو عقاب شخص آخر ، ويدخل فيها

التقارير الكاذبة والملفقة التي تخصصت في كتابتها هيئات ومؤسسات في الدولة وتلفق للمعارضين تهمًا وتكذب عليهم تُبرِّرُ بذلك التنكيل بهم ، وما دامت هذه المؤسسات قائمة على ذلك فإنها تنزل هي ومعها البلاد في قعر جحيم الدنيا الذي هو جحيم التخلف والجهل والفقر والظلم وتُدمِّر ملايين الشعب الذي قادته أكاذيبها إلى هذا الجحيم الذي كتب عليه وهو حي ، ولن تنهضي يا أم البلاد إلا إذا ظهر فيك حر ارتضع ثدي حرّة ورفض كل ذلك وقاد قواك السياسية والعسكرية نحو الرشاد الصحيح وليس الرشاد الزائف المصحوب بزفة الكذابين والكذابات ، هذا والله أعلم .

* * *

• اسْقِ حديقة فلان

كل الذي ذكرته من عبادة الأذكار والأقوال وبيان فضلها وأثرها وقدرها عند الله وثوابها وذكرت في طي ذلك ضربًا من العبادة ليس باللسان وإنما بالسعي وهو الساعي على الأرملة والمسكين وأنه كالمجاهد في سبيل الله أو القائم لا يفتر والصائم لا يفطر .

وأضيف حديثًا قريبًا من هذا لأن الإنسان الذي أكرمه الله في هذا الحديث ليس في يده قلم يكتب به ويجتهد ويحلل ويُقرّب ، وليس له لسان يُبْدع في الإبانة عن قلب وجل وإنما في يده فقط مِسْحَاةٌ أي فأس يضرب بها وجه الأرض ويخرج منها بعض أقواتها لأن الله سبحانه لما خلق الأرض وقدّر فيها أقواتها لم يشأ أن يجعلها سبحانه تخرج من بطنها إلى ظهرها أقوات الناس وإنما قضى فيها أنها لا تخرج أقواتها إلا بالضرب فيها والمشي فيها يعني أن يَبْذُلَ الإنسان مجهودًا لإخراج هذه الأقوات وجعل ضرب الإنسان فيها يبتغي منها أقواتها من أجل صنوف العبادة ، وإن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها إلا هذا الضرب ثم إن الضرب فيها وابتغاء الرزق بهذا الضرب وإخراج أقواتها التي قدّرها الله فيها وأمرها ألا تخرجها للمتكئين على أرائكهم وإنما تُخرجها للكادحين على ترابها أقول هذا الضرب هو عمارتها وهو خلافة الله فيها نعم هو سبحانه قادر على أن يعمرها بكلمة كنّ ونحن نعمرها بحولنا الذي هو من حوله سبحانه وبطولنا الذي هو من طوله سبحانه ، وهذا من فضل الله علينا .

وصاحب المسحاة في هذا الحديث أجرى الله له كرامة الأولياء وكرامة الأولياء أمر خارق للعادة ، ليس بينه وبين معجزات الأنبياء فارق إلا فارق واحد وهو أن الولي لا يدعي النبوة .

روى مسلم بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «بَيْنَا رجل بفلاة من الأرض فسمِعَ صَوْتًا في سَحَابةٍ اسقِ حديقةَ فلان فتنحَّى ذلك السحابُ فأفرغَ ماءَه في حرَّة فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّراج قد استوعَبَتْ ذلك الماءَ كلَّه فتتبَّع الماءَ فإذا رَجُل قائمٌ في حديقته يُحوِّل الماء بمسحاة فقال له يا عبدَ الله ما اسمُك ؟ قال فلان للاسم الذي سمِعَ في السحابة فقال له يا عبد الله لم تسألُني عن اسمي ؟ قال إني سمعت صَوْتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقُول اسْقِ حديقة فلان لاسْمِكَ فما تصنع فيها ؟ أمَّا إذا قلت هذا فإني أنظر إلى ما يَخْرُج منها فأتصدَّقُ بثلثه ، وآكل أنا وعِيالِي ثلثًا وأرُدُّ فيها ثلثه». انتهى الحديث .

ذكرت في بعض ما كتبت أن أكرم لَحظَةٍ يَعيشُها المؤمِنُ بالله وكتبه ورسُله هي اللحظة التي تَسْتَغْرِقُه فيها آية من آيات الله سواء كانت هذه الآية هي من آيات الكون المحيطة بنا والتي هي من فَوْقَنا وتَحْتِنا وعن أيْمانِنا وشمائلنا والكون كله آيات ثم إن الكون كله آية كبرى أو كانت من آيات الكتاب والكتاب كله آيات ثم إن الكتاب كله آية كبرى وأنه لا فَرْق بين آيات الكتاب وآيات الكون ولو قلت إن الكون قرآن صامت ، والقرآن كون ناطق ، لم تكن قد أخطأت وقد سبق ذلك . ولو فكرت في ذات نفسك وليس فيما حولك وتساءلت كيف أكتب ، وكيف أفهم وكيف أتكلم وكيف أسْمَع وكيف أرَى وكيف أقومُ وكيف أقْعُد وما شأن هذه الطاقات التي أوْدَعها الله فيَّ ولا حول لى ولا قوة في وجودها ، وإنما حولي وقوّتي التي هي من حول الله وقوته في تطويرها ، واتساعها والارْتِقَاء بها أقول لو أدمت النظر في هذا رجعت بعد هذه اللحظات بيقين أصدق وهكذا لو فكرت في النَّبْتَةِ التي تخرجها الأرض وقلت أين كانت بذرتها قبل أن تَلِجَ إلى باطن الأرض ؟ ومن

أي زمان هي فيها ؟ وماذا حدث لها لما نزل عليها الماء ؟ وماذا حدث لها حتى نَبَتَتْ واستمر نمُوُها ؟ وكيف شقَّت ظهر الأرض ؟ وكيف طالت ؟ وكيف صارت ذات فروع وذات ثمار ، وأي قوة وراء ذلك إلى آخره وعشت مع أي شيء في الكون رجعت بيقين أكثر يقينًا وأكثر إشراقًا وأكثر صدقًا وأكثر قُربًا ، وهذا اللون من التفكير هو أعلى ضروب الذكر ، فإذا أكرمك الله ورأيت أمرًا خارقًا كما أكرم ربنا الرجل الذي بالفلاة في هذا الحديث تكون قد وقعت على آية من آيات الله من غير أن تسعى نحوها ، وقد دلنا الكتاب العزيز على أن الذين طلبوا مزيد اليقين أتاح لهم ربنا ذلك ، ولما قال الحواريون لسيدنا عيسى عليه السلام ادْعُ لنا ربك أن ينزّل علينا مائدة من السماء غضب عيسى وقال لهم اتقوا الله فلما قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا دعا عيسى ربه وأنزل الله عليهم المائدة وما عاش الحواريون لحظة يقين أكرم من هذه اللحظات التي أنزل الله عليهم فيها المائدة وقد نزلت كلمات محدودة في شأنها فسمّيت السورة التي نزلت فيها هذه الكلمات بسورة المائدة إعلاء لشأنها ، ولم أعرف أن أصحاب رسول الله ﷺ عاشوا لحظات أكرم من تلك اللحظات التي كانوا يرون فيها الماء يتفجر من بين أصابعه صلوات الله وسلامه عليه ، وكلنا يحب زيادة اليقين ومن فضل الله علينا أن درجة تصديقنا لما في الكتاب والسنة جعلتنا كأننا كنا مع الحواريين وهم يرون المائدة تنزل من السماء وكأننا كنا مع سيدنا موسى عليه السلام وهو يسمع النداء ويقول له ربه سبحانه ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ وهكذا ، إعجاز بيان الآية استصحب إعجاز اللحظة .

قلت هذا لأن هذا الحديث له طابع مختلف عن كل الذي مضى وليس فيه إلا هذا الأمر الخارق ، فليس فيه وعد لهذا الرجل الصالح بِرَفْـع مائـة درجـة وحط مائة خطيئة ولا أن الله تقبّل منه صَـدَقَته ووقعـت في يمـين الله وأن الله يربيها له حتى تكـون مثـل أحـد ، وإنمـا الـذي في الحـديث هـو مـا تـرى ، وعليك أنت أن تطل من هذا السطر القريب إلى الأبعاد المتراميـة مـن ورائـه ومن قدامه .

قال النووي : معنى تنحَّى قَصَدَ يقال تنحَّيْتُ الشيءَ وأنْتَحيْتُـه ونحوتـه إذا قصدته ، ومنه سُمّيَ علم النحو ، لأنه قصد كـلام العـرب ، أمـا الحـرَّةُ بفـتح الحاء فهي أرض مُلْبِسةٌ حجارةُ سودًا والشَرْجَةُ بفتح الشين المعجمة وإسكان الراء وجمعها شِراج بكسر الشين وهي مسايلُ الماء في الحِرار . انتهـى كـلام النووي.

قوله عليه السلام «بَيْنَا رجل بفلاة مـن الأرض فسـمع صـوتًا في سـحابة» هذه الجملة لو لقيتها بفلاة من الأرض لقلت إنها من كلام أهل البيان الأول ، وذلك لأنها جمعت همّها نحو الغاية والغرض المسوق له الكلام، وحرصـت حرصًا شديدًا على ألا ينتشر من السامع والقارئ خاطر هنا أو خاطر هنـاك وإنما عليه أن يتوفر كلُّه نحو التعرف على إكرام الله للـذي يَكْـدَح بمسـحاته في الأرض يبتغى من فضل الله ، ثم يجعل للفقراء والمساكين نصيبًا مفروضًا فرضه هو على نفسه ويسوّي بينهم وبـين عيالـه فيجعـل لهـم الثلـث ولعيالـه الثلث ، وكل ما في الجملة موجه نحو هدفها ومنه هذا التنكير المتلاحـق في الجملـة فـذكـرت رجـلا ودل تنكيـره على أن المقـصـود رجـل أي رجـل ولا يعنيك أن يكون منّا أو من الأمم قبلنا فضلاً عن أن يكون زيدًا أو عمـرًا لأن كرمه وإكرام الله لكرمه قيمة إنسانية ومكرمة من مكارم الأخلاق ندب الله

الناس جميعًا إليها وأنزلها في كل كتبه وكانت من بلاغ كل أنبيائه ، وتلاحظ أن الذين سمعوا الحديث من رسول الله ﷺ لم يسألوه عن الرجل من أي الناس أو من أي الأمم لأن بلاغه عليه السلام البالغ الدقة كان يقع في أذن واعية تدرك ما فيه من دقة وما وراء هذه الدقة من غاية وانتقل كل ذلك إلينا لنتعلم ولتبقى سجاياهم وملكاتهم وأسماعهم وألسنتهم فينا كل بمقدار ما يهيئ نفسه إليه ويستعين بالله عليه ، وقل مثل ذلك في كلمة « فلاة » فقد جاءت هي الأخرى منكرة لأن المقصود فلاة أي فلاة وليس لخصوصية الفلاة أي أثر في بيان الغرض المسوق له الكلام ولذلك جاء بعدها الجار والمجرور لبيان هذا المعنى وليس لبيان أن فلاة من الأرض لأن كل فلاة هي من الأرض ولو لم ندرك لمحة في معنى هذا الجار والمجرور لأبقيناه عاطلاً من الدلالة في كلام أفصح من نطق بالبيان ﷺ ، وهذا مما لا يجوز ، فلابد أن تكون كلمة (من الأرض) مرادًا بها أن المقصود ليس فلاة معيَّنة لأن كل فلوات الأرض في الغرض المسوق له الحديث سواء ، ثم إن كلمة (بينا) التي فتح بها لسان سيد الناس هذا الحديث كلمة مثيرة ولافتة ومنبِّهة لأنها غالبًا ما يكون بعدها مفاجأة وأصل معناها البينية كما تقول هذا مشترك بين زيد وعمرو ومسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين ، وهذا المعنى باق فيها هنا لأنها تفصح عن خلاف واختلاف بين حالين الحال الأولى والحال التي فيها المفاجأة ، وكما في قول الشاعر :

فبين المرءُ في علياء أهوى ... ومنحطٌ أُنيح له اعتلاءُ
وبينا نعمةٌ إذا حال بؤسٌ ... وبؤسُ إذا تعقبه رخاءُ

هي هنا بين حالتين متضادتين . . علياء . . أهوى . . منحط . . اعتلاء . . نعمة . . بؤس . . بؤس . رخاء ، وهذه تعاقبات جيدة .

والحالتان اللتان في الحديث ليستا متضادتين وإنما مختلفان أشد الاختلاف ، وإذا أردت أن تجعلهما متضادتين أمكنك ذلك وقل إنهما بين المألوف والخارق للمألوف ، وجملة « فسمع صوتًا في سحابه اسق حديقة فلان» هي رأس هذا الحديث أعني هي رأس معناه وهي رأس مبناه وكل الذي جاء بعدها هو استمداد من هذه الرأس ، وهو بمثابة الخواطر التي تُنبِتُها الفكرة الأم ، لأن الحديث دار كله على هذا الصوت وقوله عليه السلام فسمع صوتًا في سحابة ، يعني ليس صوت سحابة وليس بعيدًا عنها وإنما هو فيها وكيف يكون فيها وليس منها ؟ وكيف صارت السحابة ظرفًا لهذا الصوت ؟ والتنكير في كلمتي صوتا وسحابة له دلالة غير دلالة التنكير في الذي تقدم لأن المراد سمع صوتًا ليس من جنس الأصوات المألوف سماعها، وإنما هو صوت غريب من مصدر غريب لم تُؤْلَفْ منه الأصوات وهو السحابة ، ثم إن التنكير في سحابة يعني أيضًا أنها سحابة غريبة ليست كالسحاب لا لأن فيها صوتًا فقط وإن كان هذا كافيًا ولكن لأنها سحابة تسمع وتطيع فهي فوق كل ما ليس يحيى لأنها حية وهي فوق كل حيّ لأنها ما إن تسمع حتى تنقاد وليس لها إلا أن تنقاد ، وكأنها في لحظة واحدة كلفت وأمرت فأطاعت ، وهذا هو الأمر الإلهي الذي هو لله في خلقه وتنحية السحابة وقصدها إلى الحديقة فور أمرها هو من باب وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وإن لم تذكر آية هود أن الأرض بلعت والسماء أقلعت على الحد الذي ذكرته هنا في قوله عليه السلام فتنحيّ ذلك السحاب أعني قصد وإنما ذكرت سورة هود ذلك تضمينًا في قوله تعالى ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ والرَّابح في رؤية هذه الكرامة هو الرجل الذي بالفلاة ، وأنا وأنت ، ومن بلغهم لك ، وإنما هو الرابح الأول لأن الله أسمعه أمره الإلهي للسحابة وأنعمْ بالذي يُسمعُه ربنا أمره الإلهي المُضْمَر في الأشياء لأنه كان يمكن أن

تحمل الريح هذه السحابة إلى حديقة فلان ثم تحط ماءها عندها كما هو الحال في كل سحاب يسوقه ربنا إلى الأرض الذي خصها بهذا السحاب ، وإنما كشف الله شيئًا من سره في شيء من خلقه فأسمعنا صوت الحق بأمر السحابة فتنقاد مع أن السحابة منقادة أبدًا من غير سماع الأصوات وإنما هي لحظة إضاءة وهداية وتنوير أَذِنَ بها ربُّنا لهذا الرجل الذي بالفلاة ولي ولك ولكل من بلغه هذا الحديث حتى يعلم أن إطعام الجائع عند الله بمكان وأن كسوة العريان عند الله بمكان وأن ستر الحالة المكشوفة في الأسرة الفقيرة عند الله بمكان ويجب أن يعلم الكل أن هذه الطبقة التي يَحُثّنا ربنا على رعايتها هي خلق من خلقه وأن كلمة « كن» التي بها يكون كل ما يكون قادرة على أن تسدّ حاجة الجائع والعريان وذي الحاجة ولكنه جعل ذلك بابًا من أبواب رحمته لتمد يدك إليهم فيمد الله يده إليك ولتُطعمهم من جوع فيطعمك من كل ما تشتهي ولتسترهم فيسترك ولترعاهم فيرعاك ، وكلمة « رجل بفلاة من الأرض» فيها إيماءة إلى أن شأنه أنه بفلاة من الأرض ، وكأنه جزء من هذه الفلاة وجزء من هذه الأرض ، وهو دائم الحال تحت سمائها وتحت سحابها ولا يسمع في هذه الفلاة إلا دَوِيِّها ففوجئ بصوت في سحابة ، وقوله عليه السلام « اسق حديقة فلان» هو بيان لهذا الصوت وكأنه قال سمع صوتًا في سحابة يقول اسق حديقة فلان ، ولكنه جاء على ما جاء عليه ليكون أشبه بكلام أهل الطبع ، ولو قال يقول اسق حديقة فلان لكان أشبه بكلام المولدين لأنه يمكن الاستغناء عن كلمة « يقول» التي ذكرناها في الصياغة المقارنة ، وذلك لقوّة دلالة كلمة « صوتًا » عليها وقلت لو قلناه لكان أشبه بكلام المولدين تأسيًا منيّ بقول بشار لما قال :

بكــرا صــاحبي قبــل الهجــير   إن ذاك النجــاح في التــبكير

فقيل له لِمَ لم تقل بكرا فالنجاح في التبكير قال لو قلته لكان أشبه بكلام

المولدين، والذي أراه في ذلك هو أن تكرار كلمة بكرًا حيث لا يقتضي المعنى تكراره هو الأشبه بكلام المولدين وكذلك هنا حيث ذكر يقول والمعنى لا يقتضي ذكره يكون أشبه بكلام المولدين والقاعدة الذهبية المستخلصة من كلام أهل الكلام الذين كانوا قبل المولدين ولم يلدوهم أنه ينبغي أن يقتصر من الكلام على قدر الحاجة .

وقوله عليه السلام «فتنحىّ ذلك السحاب» توجب وقفة إعجاب لبلاغة أبلغ لسان ، وذلك أولا لأن الفاء توجب أن تكون تنحية لسحاب نحو جهة حديقة فلان فور سماع الصوت بلا ريث حتى إن رأس التنحيّ الذي هو التوجه كان ممسكًا بآخر ما قبل الفاء وهو «اسق حديقة فلان» وهكذا يجب أن يكون انقيادنا لأمر ربنا ثم إن هذه الفاء ليست كالفاء التي قبلها وهي فسمع صوتًا في سحابة لأن هذه الفاء تعطف فعلاً على فعل ترتب عليه وهو سببه فالتنحي مترتب على الأمر بالسُّقيا ، والأمر بالسُّقيا سبب التنحيّ ، والتنحيّ مُسببٌ عنه وليس الأمر كذلك في قوله فسمع ، لأن السماع لم يسبق بحدث يتسبب عنه السماع ، ولم يرتب عليه ، وإنما هذه الفاء واقعة موقع إذا الفجائية التي كانت هذه الفاء إرهاصًا بها وستراها بعد ذلك في بيان حدث جديد مفاجئ وهو «فإذا شَرْجة من تلك الشِّراج» وعند حدث آخر مفاجئ أيضًا وهو «فإذا رجل قائم في حديقته» ، وقلت إن جملة سيدنا وسيد سادتنا توجب وقفة إعجاب ليس لهذا وإنما لبناء جملة (ذلك السحاب) لأن اسم الإشارة عائد على سحابة في قوله عليه السلام «فسمع صوتًا في سحابة» فتحولّت السحابة لمَّا حدث فيها ما حدث من أمْر إلهي إلى سحاب وكأن ما حول الصوت من قطع سحاب تجمعت وهرولت لتأنس بالانقياد لمن تعلم هي أن أمره الأمر سبحانه ، ثم إن الأمر لم يتوقف عند تحويل

المفردة المؤنثة إلى جمع مذكر ، وإنما أضيف إليه الألف واللام ولها معنى هنا خفيّ كالهمس يقول هذا المعنى الخفي هو السحاب الجدير بأن يسمى سحابًا كما تقول هو البطل المحامي على حد تمثيل عبد القاهر تريد أنه الذي تتوفر فيه كل الصفات التي بها يقال له البطل المحامي ، وهنا تتوفر كل الصفات التي يصح أن يقال فيها إنه السحاب ليس من جهة حمله الماء وإنما من جهة أنه آية وقد ذكرت هذه الآية في القرآن كثيرًا وعُدَّت من آياته البينات وأنه سبحانه يرسل لها ومعها وفي خدمتها آية أخرى وهي الرياح مبشرات وليسقينا ربنا من السحاب الذي يحمله سُقْيَا من رحمته والسُّقْيَا التي هي من رحمة الله سُقْيا الماء للحامدين الذاكرين الشاكرين يجدون سُقيا الرِّيّ من الظمأ وسقيا أخرى تروي القلوب باليقين والاطمئنان لأنها تذكر مَصْدَرَ النّعمة وآيتها العظيمة قلت إن تعريف السحاب وَالجٌ في هذا الباب وأن المعنى الذي كالهمس هو المغموس بالآية ، وليس هذا أيضًا كل مرادي بالوقفة عند جملة سيدنا وسيد سادتنا ، وإنما اسم الإشارة الذي من شأنه أن يُميّز المشارَ إليه أكمل تمييز كما قال أهل العلم ، وهذا ليس وراءه إلا معنى واحد هو شدة العناية بمضمون هذه الإشارة لأنك لا تَميزّ الشيء أكمل تمييز إلا إذا أَرَدْتَ أن تخبر عنه بخبر له شأن فأحْضَرْته ليمسك بالخبر إمساكًا لا يَنْفَكُّ وذلك لثراء وسخاء الخبر الذي هو السحاب كما بَيَّنْتُ ، الأمر الأخير في هذا هو أن اسم الإشارة للبعيد ليدل على بعد المنزلة وكان يمكن أن يقال فتَنَحَّتْ السحابة ويسكت الكلام عن وضع الجمع المذكر موضع المفرد المؤنث ويَسْكُت عن دلالة اللام ويَسْكت عن دلالة اسم الإشارة ، وأقول مرة أخرى لو قلنا فتنحت السحابة لكان أشبه بكلام المولدين وجملة (ذلك السحاب) من عائلة جملة (ذلك الكتاب) وحلل وراجع حتى تسمع

صوتًا في جملة ذلك الكتاب يحدثك عن أنها قاطعة للأطماع وقاهرة للقوى والقُدَر وأن آيتها غير آية (ذلك السحاب) لأن آية ذلك السحاب آيـة حسية وآية ذلك الكتاب آية معنوية وبها وبأمثالها كان رسـول الله ﷺ أكثـر النـاس تابعًا يوم القيامة .

قوله عليه السلام «فأفرغ ماءه في حرَّة» لا تزال هـذه الفـاء هـي العنصـر الأكثر في الحديث دورانا والأظهر بلاغة لأنها مُمْسكة كـل الأحـداث بعضـها ببعض ومُحدْثة أثرًا لا يُبَيِّنُه لـك إلا أن تذوقـه بنفسـك تدركـه بطبعـك ولـو وضعت ما بعد الفاء وهو إفراغ المـاء مـع مـا قبلـها وهـي التنحِي وجَدْتَ الحدثين بينهما مسافة لأنه لم يُفْرِغ الماء إثـر التنحِّـي الـذي هـو القصـد إلى جهة الحديقة وإنما تنحَّى ثم قطـع المسـافة إلى الحَـرّة فـأفرغ المـاء فيهـا ، وإنما من سمت الكلام الأول أن يطوي المعنى بين المعنيين يَدُلان عليه ، ولو قلت فتنحَّى جهة الحديقة وسار نحوها حتى إذا وصل حَرَّة أفرغ ماءه لكـان من كلام المولدين الذين هم نحن وكلمة «فأفرغ ماءه» غير كلمة فأنزل ماءه لأن كلمـة فـأفرغ تعـني أن السـحاب لم يُبْـق فيـه ولا في خوافيـه ولا قطعـه الصغيرة المحيطة به قطرة واحدة من الماء ، وإنما أفرغ ماءه أعني صار فارغًا من الماء ، ولاحظ أن السحاب هو الماء وأنـه لا يفـرغ مـاء وإنمـا أفـرغ نفسه وأنه ما دام أفرغ ماءه فقد صار لا يبقى منـه شـيء يسمى سحابًا لأنهـا لا تسمى سحابة إلا لأنها تسحب ماءها والريح تَسْحَبُها والحَرة أرض مُلبسة حجارة سوداء ، ولاحظ أن السحابة لم تفرغ ماءها في حديقة فلان لأنهـا لم تتلق أمرًا بذلك وإنما تلقت الأمر بالسقيا ، والسقيا تكون من صاحب الحديقة ومن تصرفه في الماء وقسمته بين زروعـه في حديقتـه وإعطـاء كـلٍّ المقـدارَ الذي يستحقّه وهذا هو معنى السّقْيا وهو خلاف إنزال مـاء السـحابة عليهـا ،

وتعجب لأن السحابة تصرفت تصرُّف الخبير الواعي فأفرغت ماءها بعيدًا عن الحديقة وفي أرض صلبة مُلْبِسةٍ حجارة سوداء حتى لا يتسرب شيء من مائها في باطن الأرض لو أفرغت ماءها في غير الحرة .

وقوله عليه السلام « فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماء كله » إذا الفجائية هنا لها موقع جليل لأن ما بعدها وهو بُرُوزُ شَرْجَةٍ واحدة من بين شروج كثيرة تقوم باستيعاب الماء . وهذه هي الشرْجةُ الوحيدة الواصلة إلى حديقة فلان دون غيرها من الشِّراج التي تذهب كل شرجة منها إلى جهة أخرى أقول هذه مفاجأة في حَجْم سَماعٍ صوت في سحابة وكلمة « استوعبت الماء كله » كلمة فيها معنى إلهي ، لأنها تعني أن الماء عندها صار أمانة فاستَوْعَبَتْه ولم تبق منه شيئًا وأجْرتْهُ إلى حديقة فلان ، والشراج عادة لا تستوعب ماء المطر وإنما تَبْقَى منه بركٌ بين الحجارة ، وماء البرك هذا من أنفع الماء عند أهل البادية وله ذكر كثير في الشعر وكانوا يخلطونه بالخمر ، ويلاحظ أن الصوت كان في السحابة ووجه أمْرَهُ إلى السَّحابة ولكن الذي حدث أن إنفاذ هذا الأمر كان بعمل جماعي ، وكأنه كان أمرًا مصحوبًا بأن تقوم كل جهة لها علاقة بتنفيذه بما يجب عليها فأفرغت السحابة ماءها في الحَرّة ثم جاءت شَرْجةٌ واستوعبت الماء ثم حملته إلى الحديقة ، ثم قام صاحب الحديقة يحوّل الماء بوعيه هو على حسب حاجات زرعه ، وكل من أنفذوا أمر الله قبله كانوا سحابًا وحَرّة وشرجة ، وكان يمكن أن يقال فإذا شرجة استوعبت الماء وإنما أضاف عليه السلام قوله من تلك الشراج ليبيِّن أنه كان هناك شراج كثيرة والذي استوعب الماء واحدة منها ، وهذا بلاغ آخر وأن الشِّراج الذاهبة إلى غير جهة الحديقة مُنِعْنَ أن يتسرَّب إليهن أيُّ قطرة من ذلك الماء ، وهذا خارق آخر ، ثم إنه عليه السلام أكد ذلك الاستيعاب

بكلمة (قد) التي للتحقيق ثم إنه قال «ذلك الماء» وأعاد اسم الإشارة الذي للبعيد وكان يمكن أن يقال فإذا شرجة قد استوعبته وإنما وضع الظاهر موضع المضمر ليعيد ويكرر ذكر الماء الذي هو أصل الأمر الخارق في الحديث والدال على إطعام الفقير عند الله بمكان حتى إن الماء ليركض نحو حديقته ليسقيها فتعطى ، ثم إن اسم الإشارة كان يمكن أن يُستَغْنى عنه ويقال فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت الماء ، ولكن تمييزه أكمل تمييز وإحضار صورته والإشارة إليه باسم الإشارة الذي للبعيد كل ذلك يعني مزيد عناية بالماء الذي أوشك أن يكون جنسًا من الماء غير الماء وإن كان قد جعل ربنا من الماء كل شيء حيٍّ ، وكلمة «كله» في قوله عليه السلام «استوعبت ذلك الماء كله» لها لَفْتٌ جيد إلى الشرجة التي هذا شأنها وأنها لم تدع من الماء شيئًا إلا نقلته لحديقة فلان ، وهذا اللَّفْتُ منه عليه السلام يقول لنا راجعوا هذه الكرامة ، وقفوا عندها كثيرًا ، لتعرفوا مكانة أن تمد يدك بما يُطْعِمُ الجائع وبما يكسو العريان وقوله عليه السلام «فتتبع الماء» هذه الفاء كالفاء التي قبلها ، لأنها وإن أمسكت به ، فإنها تخفي وراءها حدثًا لا يكون التتبع إلا إذ وجده وهو أنها استوعبت الماء واتجهت به نحو جهة الحديقة التي ليست معلومة للرجل الذي في الفلاة وأنه لا يزال إلى الآن وهو يراقب هذه الخوارق المتتابعة والتي بَدَأت بصوت في سحابة ثم تنحى ذلك السحاب ، ثم إفراغ الماء في حَرّة ثم قيام الشَّرجة باستيعابه كله أقول هو يَرْقبُ ذلك ولم ير الحديقة بعد ولم يعرف صاحبها ، ولم يعرف سرًا لكل الذي يراه ، وهو بخلافنا لأننا قرأنا الحديث وعرفنا سر إكرام الله له ، ونراجع الأبْنِية والأحداث وقد اطلعنا على أواخرها ، ولكن هذا البدوى المعرق في بداوته يتابع الأحداث وهو لا يدري كيف تكون نهايتها ، قلت إن

كلمة « فتتبّع الماء » تخفي حدثًا ولو ذكرناه ، وقلنا فإذا شُرجة من تلك الشراج استوعبت ذلك الماء كله وتحركت به فتتبعها الرجل ، لكان هذا أشبه بكلام المولدين وسأدخل قبري وفي عقلي سؤال جوابه حائر عن الفرق بين كلام العرب الذين هم أهل البيان وكلام المولدين . وإنما أشير إلى ما أتوهم أو أزعم أنه من هذا الفرق ، ولاحظ أن كلمة (الماء) أيضًا تتكرر وراجع كلمة « استوعبت ذلك الماء كله فتتبّع الماء » ستجد اسم الإشارة يعني الماء ثم لفظ الماء ثم المراد بالتوكيد يعني كل الماء ، ثم كلمة الماء في قوله فتتبعّ الماء ، وهذا يعني العناية البالغة بالماء الذي هو أصل هذا الحديث ، ويُوضح لك هذا ، أن البيان الشريف لم يقل فتتبع الرجل الماء ، وإنما أضمر ذكر الرجل واكتفى بالضمير الدال عليه ولو قال (فتتبعه) لسوّى بين الفاعل الذي هو الرجل والمفعول الذي هو الماء في أنه ذكرهما معا بضمير الغائب ، وليس هذا مرادًا وإنما المراد تهميش الرجل وتغييب لفظه وإغماضه لتبقى المساحة كلها لكلمة (الماء) الذي هو هديَّةُ الله لهذا الرجل الصالح .

قوله عليه السلام « فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته » أول ما يلاحظ في هذه الجملة أنها افتتحت بحرف المفاجأة مثل أختها « فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت الماء كله » ومما يجب وعيه وإدراكه أن المفاجأة جاءت في جملتين يدلان دلالة ظاهرة على مرحلتين من مراحل تحول الماء : الأولى تحوُّله إلى الشَرْجة الذاهبة به إلى حديقة فلان ، والثانية تحوله منها إلى الحديقة وبذلك انتهت رحلة الماء الذي كان في السحابة التي سمع الرجل فيها صوتًا يقول اسق حديقة فلان وبدأ رجل البادية يواجه بداية نهاية هذه الحكاية التي عاشها لأن كل الذي مضى وإن كان فيه علامات ظاهرة على تحرك الماء صوب جهة واحدة لكنه لم يضع البدوى وَجْهًا

لوجه مع صاحب الحديقة وهو الآن يواجهه ولم تبق إلا الأسئلة أما الأحداث وما كان من السحابة من وقت أن سمع صوتها فقد انتهت وها هو الماء يتحول إلى الحديقة وها هو فلان واقف بمسحاته يحوّل الماء ، وكان كل ما سمعه يقع شيئًا فشيئًا وفي حال بعد حال على الوجه الذي سمعه ، وقد أشرت إلى أن إذا الفجائية جاءت في حالتين ظاهرتين لتحوُّل الماء كما أشرت إلى عناية بيانه عليه السلام بالماء وأنه كان يبرز لفظه في المواطن التي كان يمكن أن يَكْفِي فيها الضميرُ وهو أخف وأخصر ، والآن ترى هذه الجملة فيها إشارات أولها كلمة (قائم) وهذا غير كلمة واقف ، لأن القائم على الشيء مَعْنِيٌّ به ومُحْتفل به ومحتشد له ، ويقال فلان قائم على مشروع كذا ولو كان نائمًا ، لأن المراد شدة الاهتمام ، ثم إنك تلاحظ أن قوله عليه السلام « فتنحَّى ذلك السحاب .. فأفرغ ماءه .. فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت الماء كله » ، كل هذه الأحداث كانت من السحابة ومن الشَّرْجة ثم توقف هذا الفِعْل الخارق وبدأ فعل الإنسان ولم يتحول الماء إلى الحديقة بنفسه كما انتحى نحوها بنفسه وكما استوعبته الشرجة بنفسها وإنما نطالب نحن بأن نقوم محتشدينَ جادِّين وفي أيدينا الأدوات التي بها ننجز ما نريد إنجازه لأنه لا مَفرَّ لنا من هذا وإن إكرام الله وإن بلغ الذي نراه في هذه القصة لا يَضَعُ ما نريده في أيدينا إلا إذا غَمَسْنَا أيدينا بجدٌ وفهم واكتمال أدوات لنصل إلى الذي نريده ، وهذا جيد جدًّا لأن الله تعبَّدنا بالعمل ، وهذا العبد الصالح الذي سخّر الله له ما تراه تُرِكَ عند لحظة معينة ومرحلة معيَّنة ليضرب في الأرض وليبتغي من فضل الله ليؤجر بذلك ، ثم إنك تقرأ في هذه الكلمة « فإذا رجل قائم في حديقته يحوِّل الماء بمسحاته » أن هذه الكرامة وهذا الأمر الخارق لم يكن من الله لرجل يتعبد في محرابه

ولا لرجل يتلو القرآن حق تلاوته ولا لفقيه في يده قلمه وقرطاسه وإنما لرجل في يده فأس يضرب بها وجه الأرض ليخرج منها قوته ، وإن كان لله عطايا لصاحب المحراب وصاحب القرآن وصاحب الفقه وإنما أردت أنَّ عطاء الله وإكرامه وتكريمه شامل جامع لكل مخلص صادق ولو لم يكن في يده إلا الفأس وكل مُيسَّر لما خلق له تحت سحائب عطايا الرحمن والذي لا ترخص فيه هو العمل والجد والصدق والإخلاص وعمارة القلب بذوي الحاجات ومساعدتهم وإعطائهم من عطايا ربنا لمن أعطاه ، هذا القائم على حديقته المُمْسك بفأسه هو نموذج واضح وسهل الفهم للفرد الذي يعيش أحوال الناس من حوله في ضمير نفسه ولا يملك ما يقدمه للجماعة التي هو منها إلا ما يخرج من هذه الأرض بفأسه وعرقه وبمقدار وجود حاجات الناس في داخله كان إكرامه وكان رضى ربه عنه ، وعلى ذلك تقاس النماذج الأخرى فالفقيه الذي تعيش حاجات الأمة في نفسه فيبحث لها عن حكم الله في قضاياها المتجددة هو فقيه نعم الفقيه وهذا الباحث الذي تعيش حاجات الأمة إلى العلم والتقدم ورفاهية العيش وقوّتها ومتعتها وقدرتها على حماية أرضها ويعمل في ذلك هو عالم نعم العالم وعلى ذلك يكون القياس ويكون علم الله بما تنطوي عليه القلوب ويكون عطاؤه ويكون كرمه وإكرامه وإذا كان قد أرانا خرقه للنواميس على الحد الذي رأيناه وانتهى بنا المسير إلى قائم وليس في يده إلا فأسه وقلبه العامر بحاجات أمَّته وبذله ما عنده في سدّ هذه الحاجات فإنه سبحانه يَرْضَى من الكل بالذي رضيه من هذا الإنسان المتواضع إذا كانت نفوسهم عامرة بمثل الذي في نفسه وكان كل واحد منهم مُمْتلكًا أدواته اللازمة لإنتاج عمله كامتلاكه لفأسه وكان كل منهم قائمًا على عمله كقيامه يحوّل الماء إلى حديقته . ولك أن تراجع ما لم أراجعه وأن

تستخرج أفضل من الذي استخرجته ، بشرط أن تكون في يدك أداتك (فأسك) وأن تكون قائمًا غير قاعد .

قوله عليه السلام «فقال له يا عبد الله ما اسمك؟» واضح جدًا أن الرجل الذي بفلاة من الأرض قد استوعب كل ما في الحديث ولم يبق إلا أن يسمع من الرجل الاسم الذي سمعه في السحابة ليزداد اطمئنانًا وإلا فقد رأى السحابة وهي تتنحى وتفرغ ماءها والشرجة وهي تحمل الماء حتى وصل إلى حديقة فلان ، ولما أجابه الرجل وقال له اسمه الذي سمعه في السحابة سكت ولم يبادر بقوله لقد سمعت صوتًا في سحابة اسق حديقة فلان الذي هو أنت . وهذا السكوت سكوت استرجاع واستيعاب لأن المشهد مشهد مهيب وتصور نفسك وأمامك رجل لا يملك إلا مسحاة أعني ليس من الذين يقرؤون الكتب ويهتزون لحل العويصة ، وليس إماما في مذهب ، وليس مرابطا على ثغر ، وإنما هو كما ترى ثم يكون له في هذا الكون وفي هذا الوجود أن تتحرك السحابة نحوه تحملها الريح أو لا تحملها وتستجيب عائلة من العائلات في توصيل الماء إليها ابتداء من الحرة ثم الشرجة لاشكَّ أن هذا المشهد المهيب من شأنه أن يسكت ، ثم قطع الرجل هذا الصمت وقال له يا عبد الله لم تسألني عن اسمي ، وهذا سؤال رجل فارغ النفس من كل هذا الموقف الجليل الذي كان من الله له ؟

قوله عليه السلام «فقال إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك . فما تصنع فيها ؟» هذه الجملة هي التي بدأ بها الحديث وهو الآن يختم بها ، ويرد بها عجز الحديث على صدره . وهذا ظاهر وسهل ، والأمر الخفي هو أن صاحب الحديقة لما سمع أن صوتًا في

السحابة يأمرها أن تسقي حديقته ويذكر الصوت اسمه لم يعقب ولم يدهش ولم يُرَعْ ولم يقل له أعد عليّ ما قلت وهل أنت متأكد من ذلك ، ولم يسجد لله شكرًا ولا شيء مما يكون من الذي يسمع خبرًا كهذا . ثم إن الرجل الذي شهد الأمر من أوله وصل بالخبر قوله فما تصنع فيها ؟ ولم يترك له وقتًا يراجع فيه الخبر الأول ويستوعبه وكأنه يقول له عدِّ عن كل هذا وأخبرني عن الذي تصنع فيها لأن المهم عندي ليس هو هذا الإكرام لأنه يخصك والذي يهمُّني هو أن أعرف الذي فتح لك باب هذا العطاء والقبول والرضا من الله . ولهذا أجابه صاحب الحديقة وقال له : « أمَا إذا قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثًا وأردُّ فيها ثلثه » .

ليس لهذا العبد الصالح الذي أكرمه الله الكرامة التي في الحديث والتي هي من كرامات الأنبياء إلاَّ العناية بالفقراء والفرق بين ما يجريه الله على يد العبد الصالح ، وما يجريه على يد نبي من أنبيائه هو أن ما أجراه على يد نبي صحبته دعوة النبوة من النبي فكان ذلك معجزة مؤيدة له ودالة على صدقه أما عباد الله الصالحين فإن الله يجري لهم ما أجرى لأنبيائه فتكون كرامات وهي ذاتها للأنبياء معجزات والذي في هذا الحديث من جنس أن يُبْرِئ المسيح الأكمه والأبرص ، وأن يحيي الموتى وأن يخلق من الطين كهيئة الطير إلى آخره ومن جنس قلب عصا موسى عليه السلام حيَّة تَسْعَى ومن جنس حنين الجذع لسيدنا رسول الله وتفجير الماء من بين أصابعه صلوات الله وسلامه عليه وكل ذلك باب واحد لأن الأمر الخارق قليله مثل كثيره فتصريف الرياح كخلق السموات والأرض وما بينهما كلاهما لا يكون إلا من الله ، وهذا هو أصل الإعجاز أو أصل الكرامات ، قلت إن هذا العبد

الصالح ليس له في هذا الحديث الذي هو حديث له إلا هذه الجملة ، وهي جملة فيها أَدَبٌ شديد وفيها حياء وفيها نصاعة بيان ، أما أدبه الشديد فقد كان الشأن فيه أنه لا يحدِّث بما كان يكون منه من صدقة وأنه كان يكون ذلك بينه وبين الله ولكن الرجل الذي لا يعرفه قَبْل ذلك سأله فقال له « أَمَّا إذ قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج » إلى آخره ، وأما حياؤه فإنه لم يخذل السائل ويمسك عن جوابه مع أنه قال له قبل ذلك لم تسألني عن اسمي؟ مع أنه من المألوف أن يسأله القادم عليه عن اسمه وأن يسأله هو الآخر عن اسمه ، وأن يتعارف الرجلان وهذا من شأن الناس ولكنه لم يسأله ، وربما يكون قد لاحظ دهشةً أو حَيْرةً أو أثر مفاجأة في وجه الرجل الذي سأله عن اسمه لمَّا سَمِع الاسمَ الذي سمعه من صوت السحابة فدعاه ذلك إلى أن يقول له يا عبد الله لم تسألني عن اسمي لأن من شأن إحساسه بدهشة القادم عليه لما ذكر له اسمه أن يشتغل صاحب الحديقة لماذا أحدث معرفتك لاسمى هذا الدَّهش ، أقول ربما .

وفي هذه الجملة بيان ناصع بدأ بكلمة (أمَّا) وهي تفيد التوكيد تقول زيد منطلق فإذا أردت أنه لا محالة منطلق قلت أما زيد فمنطلق ، وهذا كلام الزمخشري وأختها الصغيرة (أما) بدون تشديد من طلائع اليمين وهذا أيضًا كلام الزمخشري أما والذي أمات وأحيا ... وقوله « إذ قلت هذا » كلمة « إذ » دالة على الظرف في الزمن الماضي ، وكأنه يقول له من أجل أن قلت هذا فإني لا أجد بُدًّا من أن أقول لك ما لم أقله ، ثم بدأ ببيان ما يطلبه السائل . وقوله « فإني أنظر إلى ما يخرج منها » مؤكد بكلمة (إن) التي هي أم باب التوكيد والفاء الداخلة عليها واقعة في جواب أمَّا أو في خبرها ، وكأنه قال أما قولك هذا فإني أنظر ، وقوله « فإني أنظر إلى ما يخرج منها » من أهم

أجزاء معاني هذا الحديث ولو قلت إنه الحديث كله لم تخطىء لأن تسخير السحابة لسقيا الحديقة لم تكن إلا لهذا فهذا هو الذي أرضى ربَّه فأرضاه ربُّه وذلك لأنه جعل ما هو لربِّه مرتبطًا بأصْل ما يخرج منها أعني جعل حق الله مرتبطًا بالمنبع ، فإذا كثر ما يأتي من هذا المنبع كثر ما أوجبه لربِّه وإذا قل ما يأتي من هذا المتبع فلا حول للرجل ولا قوة ، وكأنه عاهد ربَّه وقال إذا باركت عطاءك في هذا المنبع كان ثلث بركته راجعًا إلى ما أوْصَيْتَنَا بهم وأنا لم أقم بأداء وصيّتك بعبادك المساكين إلا بالذي تعطيه من يدك فلهم الثلث ولي وعيالي الثلث لا نزيد عنهم وأنا وعيالي فقراء إليك فلم أزدهم عن الفقراء الذين هم أهل الصَّدَقة ، فأنا أتصدق على أهل الصدقة ثم أنتظر أنا وعيالي صدقتك ، وما كان يمكن أن أقبض يدى عن الذين أوصيتني بهم لأن الذي في يدي هو ما أخرجته أنت من الأرض وليس في يدي إلا فأسي أضرب بها وجه الأرض وأنت الذي تخرج منها حبًّا فمنه يأكلون وتخرج منها جنات من نخيل وأعناب ، ومعايش ، وأنا أستحي منك أن يفيض على خيرك ثم أكون سدًّا بينه وبين عبادك الذين أوصيتني بهم وإنما جعلت عطاءك مناصفة بيني وبينهم فلهم الثلث ولي الثلث ولرعاية هذه الأرض والضرب فيها الثلث الباقي ، ولك عليّ أن أقدّم ثلثهم على ثلث عيالي مسرة وغبطة بالذي يرضيك .

هذا الممسك بفأسه يحوّل الماء يقول لنا من خلال صَمْتَه الوقور يا من تتحدثون عن التقدم وبناء الحضارة والرقيّ الاجتماعي ويُسمّيكم الناسُ النُّخْبَةَ اعلموا أن أهم ما تبني به وتبني عليه الحضارات هو أن يسكن في نفوس الناس حب العطاء وليس حب الأخذ ، والعطاء يا سادة ليس مالا فقط وإنما تعطي مما في يدك وهذا أقله ومما في قلبك وعقلك الكل يعطي الكل

فليس فينا من يعطي ومن يأخذ إنما الكل يعطي من الذي عنده فلو لم تجد عندك إلا إماطة الأذى عن الطريق فحسبك هذا العطاء وإني وإن كنت أتصدق للفقراء الذين يسكنون في البادية فإن الذي يعطيهم التعليم أفضل مني والذي يعلِّم كالذي يكسو وكالذي يطعم كلُّه يسدُّ فراغات في الجماعة يجب أن تسدَّ كل الذي كان مني وأكرمني الله به أنني وضعت لَبِنَةً حولي وساعدت بعض فقراء البادية المجاورين لي ، ولو أن كل واحد وضع لبنة حوله وسدَّ ثلمة في حياة الجماعة في المدرسة أوفي الجامعة أو في المصنع أو في المزرعة أو في تكوين العقول المضيئة التي تُضيءُ للجماعة طريق القوة والكفاية والغلبة لحققنا ما نريد ، المطلوب أن تكون عقيدة الإيمان مقترنة بعقيدة العمل الصالح كما في الكتاب العزيز والعمل الصالح عطاء وإيثار وحب الخير ، ورفض الغش والغدر والخيانة وكل ما هو من أمراض الناس .

صاحب هذه الفأس هو مصلح يُنجِزُ إصلاحًا ولا يتكلم إصْلاحًا وهو فيلسوف يَصْنَع ما تقتضيه الفلسفة ولا يتكلم في الفلسفة ، وهو سياسي يعمل ما توجبه السياسة الراشدة ، ولا يتكلم في السياسة ، يقول كلمة واحدة أعطوا مثل ما تأخذون ولتكن عيونكم جميعًا على مواطن الضعف في الجماعة ولتكن أيديكم جميعًا متعاونة على تقويتها وإصلاحها لا تسألني عن مذهبي في السياسة ولا أسألك ، وتَقَبْلني وأتقبَّلُك ، ولكن لا أجد يدك غائبة ولا عينك غائبة عن كل ما تصلح به حياة هذا الوطن ، الخطيئة الكُبْرى أن تكون سياسيًا تأخذ وتَنْهب أو إعلاميًا أجَّرتَ لسانك وضميرك وشرف نفسك للذي نهب الشعب ويريد بقاء الفساد ليظل النَهْبُ باقيًا ، صاحب الفأس يقول فتش في داخلي فلن تجد غَدْرًا ولا غشًّا ولا خيانة ولا تدليسًا

وإنما تجد شيئًا واحدًا هو حبّي للعطاء ، وابحث في كل فلسفات الدنيا فلن تجد أنفع للأوطان من أن يكون أبناؤها جميعًا من عُشاق عطائها ، لا تكتبوا في الأوطان شعرًا وإنما أعطوها جَهْدكم واحرصوا عليها واجتمعوا حول صالحها ثم اختلفوا ما شاء لكم الاختلاف .

وإذا كنت تستكثر الذي استَخْرجْتُه من صورة هذا الإنسان الرائع الذي شكر الله له ما فعل فضع أمامك الصورة التي تكوّنت في نفسي واستخرجت منها ما استخرجت ، وهي صورة رجل يعمل وينتج ولا يتكلم ويقسِّم ثمرة عمله بَيْنَهُ وبين أبناء محلته المحتاجين منهم وهم في اصْطِلاحنا أبناء الوطن ثم يقدم حقهم الذي فرضه على نفسه على حق عياله بدليل تقديم ثلث الصدقة وأسأل نفسي ماذا يكون حال قومي لو تخلقوا بخلق هذا النبيل الذي أعطى ما عنده . وراجع كلمة أعطى ما عنده وانظر حولك لأن هذا عنده علم وهذا عنده تربية وهذا عنده خبرة وهذا عنده مال ، ماذا يكون حال بلادي لو أعطى الكل للكل في صمت وعمل الكل في صمت ؟ هذا والله أعلم .

* * *

• من مات على التوحيد دخل الجنة

ذكر مسلم في الجزء الأول من كتابه ثلاثة عشر حديثًا بعضها مختصر من بعض وكلها تدور حول بيان أن من مات على التوحيد دخل الجنة وهذه الأحاديث في الباب العاشر الذي سماه مسلم «باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا».

وأحاديث الباب مرتبة ترتيبًا دقيقًا وطريقة الاختصار طريقة تُغْري بمراجعتها لأنها تعلمنا كيف يُختَصَرُ الكلام المُشْبَع وكيف يُشْبَعُ الكلام المختصر ، وكيف تُقْبضُ المعاني وكيف تُبْسَطُ ومثل هذا في الكتاب العزيز كثير جدًا ترى المعنى الواحد أو القصَّة الواحدة جاءت مختصرة في موضع وجاءت مُشْبعةً في موضع وأكثر الكتاب مَبْنيٌّ على ذلك ودراسة القبض والبسط ومقامات القبض والبسط كل ذلك من الأهميَّة بمكان ، وباب الإيجاز والإطناب في الدراسة البلاغية أقل أبوابها شواهد . وأقلُّ فنون البلاغة دورانا في كتب التفسير والحديث وتحليل الشعر وذلك لغموض هذا الباب .

وبين يدي حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم بسنده من روايتين عن أبي هريرة رواية رواها ابن مِغْوَل عن طلحة بن مُصَرِّف عن أبي صالح عن أبي هريرة ، ورواية رواها أبو معاوية عن الأعمش عن أبي صالح . والروايتان صورتان ظاهرتان لما أريد من بيان من قبض المعنى وبسطه وعلاقة ذلك بالغرض المسوق له الكلام وأعلم أن هذا شيء غامض ولكني كلف باقتحام الغوامض مُوقنًا بأنني إذا لم أُصِبْ أكون قد وجهت إلى الموضوع من يمكن أن يصيب .

وشيء آخر في هذا الباب وهو أني وجدت فيه كلامًا جليلاً لكرام علمائنا من أمثال القاضي عياض وعمرو بن الصلاح وعمر بن عبد البر والنووي ،

والقرطبي ، وهذا الكلام تمسُّ الحاجة إليه في أيامنا هذه لأنه من باب تأليف المختلف ولا أعني تأليف المختلف الذي تكلم عنه علماء الإعجاز وعلماء البيان وإنما أعني أن نصوص الشرع قد يبدو ظاهرها أحيانًا مختلفًا ، فيزيل هؤلاء العلماء هذا الظاهر المختلف ويعودون بالكلام إلى الباطن المتفق وهذا هو جهد الكرام لأنهم لا يشرحون الحديث أو الآية بمعزل عن نظائرها المشتركات معها في الموضوع وبمعزل عن ما اتفقت عليه الأُمَّة في أُصُول عقائدها وإنما يجمعون كل ذلك ويحللون ويُدَقِّقُون ويستخرجون وهذا هو الطريق الذي قلت إنه تمسُّ إليه الحاجة في زماننا وذلك لأنه ظهر فينا من يتكلم في دين الله من غير مراجعة دقيقة على الوجه الذي أَلِفَهُ العلماء المتخصصون وأقاموا فتاواهم على نص معزول له ظاهر لا يأخذ به العلماء لأنهم يضعونه بإزاء نصوص وآيَات وأحكام وإجماع وغير ذلك مما تفسر به الآيات والأحاديث وهؤلاء الذين يُسَمّيهم الناس شيوخًا وليسوا بشيوخ أوقعوا الناس في بَلْبَال لأنهم لم يتعلَّمُوا مراجعة الآيات والأحاديث لأن هذا عِلْم له رجاله ، وسمعنا فتاوى غريبة واختلط الحابل بالنابل ورأينا أَيْضًا سُلُوكًا غريبًا كالذين يخرجون إلينا حاملين السلاح في وجوهنا أو الذين يكفرون أهل الشهادتين ، وكل ذلك من البلاء الذي لا يكشفه عن الأمة إلا بيان حقائق العلم ومناهج العلماء والرجوع إلى الجذر من الفتوى وقد أخذنا العلم عن شيوخ أجلاء يروغون من الفتوى ونَسْأل الله السلامة ، وستجدني في هذا الباب أخالف طريقتي وأكثر من نصوص علمائنا لأن كلامهم عِلْمَانِ وليس علمًا واحد ، علم وهو ما أبانوا عنه ، وعلَم هو لغتهم النقيَّة وأساليبهم المحدَّدَة الجامعة لما يريدون والمانعة لما لا يريدون ونسأل الله أن يلحقنا بهم كرامة نفس وقرة عين .

وسأورد ما أورد من أحاديث هـذا البـاب على وفـق ترتيبهـا في مسـلم ، روى مسلم بسنده عن حُمْران عن عثمان قال قال رسـول الله ﷺ « مَـن مـات وهو يَعْلَم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة » .

حمران بضم الحاء هو حمران بن أبان مولى عثمان ، راجع هـذه الجملـة وتبين اختصارها الشديد وهي مكونة من اسم موصـول وصـلته (مـن مـات) وخبره « دخل الجنة » وجملة حالية صاحبها فاعل الصلة ، وهي مع إيجازها وسهولة مبناها وشـدة وضـوح معناهـا تحتـاج في توفيـق معناهـا لنصـوص الشريعة إلى كلام كثير ، لأن هذه الجملة تعني أن من شَهِدَ بالواحدانية دخـل الجنة لأنها لم تذكر الشهادة الثانية التي هي النبوة ، ثم إنها لـيس فيهـا إشـارة إلى أي عمل وظاهرها يفيد أنه يَدْخل الجنة ولو لم يُصَلِّ ولو لم يَصُمْ ولـو اقترف السيئات وكل هذا يخالف ما عُلِمَ من الدين بالضرورة ، ولهذا الحديث نظـائر كـثيرة ، لا تشـترط في دخـول الجنـة إلا الوحدانيـة أو إلا الشـهادتين الوحدانية والنبوة ، وليس فيها ذكر لعمل آخر كما أنه ليس فيها أنه لم يقترف سيئات .

وقد فتح النووي باب الكلام في أحاديث هذا الباب بـنص جيـد جـدًا لأنـه ذكر فيه الأصول التي لا يَجُوز أن تخالف ، والـتي يجـب تأويـل أي حـديث يخالفها ، لأن كلام الله وكلام رسوله ﷺ يُفَسِّر بعضه بعضا .

قال النووي : اعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحديث من السلف والخلف أن من مات موحدًا دخل الجنة قطعًا ، على كل حال فإن كان سليما من المعاصي كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ ، والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يُحْدث معصـية بعـد التوبـة والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلاً فكل هـذا الصـنف يـدخلـون الجنـة

ولا يدخلون النار أصلاً ، لكنهم يردونها على الخلاف المعروف في الوُرُود ، والصحيح أن المراد به المرور على الصراط ، وهو منصوب على ظهر جهنم ، أعاذنا الله منها ، ومن سائر المكروه وأما من كان له معصية كبيرة ومات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى فإن شاء عفا عنه ، وأدخله الجنة أو لا ، وجعله كالقسم الأول ، وإن شاء عذّبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى ثم يدخله الجنة ، فلا يُخلَّدُ في النار أحدٌ مات على التوحيد ، ولو عمل من المعاصي ما عَمل ، ولا يدخل الجنة أحد مات على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل .

هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة ، وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع من يُعتد به من الأمة على هذه القاعدة ، وتواترت بذلك نصوص تحصِّل العلم القطعيّ ، فإذا تقرَّرت هذه القاعدة حُمِل عليها جميع ما ورد من أحاديث الباب وغيره فإذا ورد حديث في ظاهره مخالفة وجب تأويله عليها ليجمع بين نصوص الشرع ، وسنذكر من تأويل بعضها ما يعرف به تأويل الباقي إن شاء الله والله أعلم ، انتهى كلام النووي .

وأهل العلم الصادقين في طلبه والذين يمكن أن يكونوا من أهله لا يقفون عند فهم مسائله من كلام علمائه وإنما يقفون عند لغتهم لأن العلم باب واللغة المعبرة عنه باب آخر فقد تحسن أن تَفْهم ولكنك لا تحسن أن تُفْهِم وقد تعلمنا من علمائنا أن ثمة خطوات أولاها أن تفهم وثانيها أن تقتنع بما تفهم وثالثها أن تحسن الإبانة عما فهمت ورابعها أن تحسن دفع الشبهات عما فهمت وإذا توفّر لك هذا يؤذن لك في الدخول على طلاب العلم وإلا فلا ، وكلام النووي هذا يجب أن يكون إحكامنا للغته عَدْل

إحكامنا لمعناه وقد أوجز ما أجمع عليه أهل الحق ، وفي ضوئه تفهم أي كلام لله أو لرسوله ﷺ يُتَوهم أنّ فيه ما يخالف ما أجمع عليه أهل الحق ، كهذا الحديث . وأن نقول إن من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة مع السابقين إذا كان غير عاص أو كان عاصيًا وغفر الله له أو دخل الجنة بعد عقابه على ما اقترف إذا كان لم تشمله رحمة ربه ولم يغفر له ، ويستقيم المعنى ويذهب الإشكال ، وكنت ولا زلت إذا وجدت إشارة مفيدة في فهم الكلام وتحليله في كتب التفسير أو علوم القرآن أو أصول الفقه أو فيما شئت حاولت أن أنقلها إلى علم الشعر لأن الكل من البيان وأن أشير إلى ما يمكن أن يضاف إلى ما في هذه المجالات أو أن يحذف حتى يتهيأ الطريق إلى اصطناعها في الشعر ،ولما رأيت النووي أولاً يجمع أحاديث الباب ما تقارب منها وما تباعد ، وما ائتلف منها وما اختلف وثانيًا يضع لها إطارًا عامًّا هو مقالة أهل الحق لتُفهم في ضوئه ويؤول منها ما يخالف ما اتفق عليه أهل الحق ، رأيت أنه يمكن أن أجمع مثلاً من ديوان الشاعر المعاني المؤتلفة والمعاني المختلفة وأن أضع بإزائها ما جاء في معناها عند شعراء زمانه ، وأن أدرس ما كان من شعره وما كان من شعر شعراء زمانه وأحلل وأوازن وأبين وإن أردت أن أتسع استخرجت معاني الباب الذي أدرسه في شعر الشاعر من الشعر الذي سبقه والذي كان هو امتدادًا له وَدَرَسْتَ وحلّلْتَ وبيّنْتَ وبهذا نُضِيفُ إلى ما نحن فيه من دراسة القصيدة وحدها منهجًا آخر يستحضر الصور المتقاربة في الأزمنة المتباعدة ، وكل صورة عليها ميسم زمانها وما أروع أن تجد بين يديك صورًا من الشعر وعلى كل صورة منها علامة من زمانها الذي ولدت فيه ، وكأنك تجد فيها ريح مهدها الأول .

ولو اتجه علماء الشعر في زماننا الذين نسميهم نقادا لطرائق التحليل في

الكتاب والسنة واستخلصوا وخلصوا مناهج منها تتلاءم مع تحليل الشعر لكان لنا من ذلك خير كثير في فهم الشعر وفي فهم الكتاب والسنة لأن تطوير هذه المناهج المستخلصة من كلام العلماء يعود على تحليل الكتاب والسنة بما ينفع ، وهكذا تعمل عقول النابهين منا في علومنا .

وبعدما بين النووي الأعلام الذين رَوَوْا هذا الباب وأراد الشرح وضع كلام القاضي بين عينيك وأسمعك كلام القاضي من لسان القاضي وأرى أن مثل النووي حين ينقل كلام القاضي لا ينقله استعانة وإنما ينقله استحسانًا ، ويقدم لك به مذاقًا آخر ونكْهةً أخرى ليجدد نشاطك ويوسّع معرفتك ، وقد أهملت هذا فيما كتبت .

قال النووي : وأما معنى الحديث وما أشبهه فقد جمع القاضي عياض رحمه الله كلامًا حسنًا جمع فيه نفائس فأنا أنقل كلامه مختصرًا ثم أضم بعده إليه ما حضرني من زيادة .

قال القاضي رحمه الله : اختلف الناس فيمن عصى الله تعالى من أهل الشهادتين . فقالت المرجئة لا تضره المعصية مع الإيمان ، وقالت الخوارج تضره ، ويكفر بها ، وقالت المعتزلة يخلّد في النار ، إذا كانت المعصية كبيرة ولا يوصف بأنه مؤمن ولا كافر ولكن يوصف بأنه فاسق . وقالت الأشاعرة بل هو مؤمن وإن لم يغفر له وعذّب فلابد من إخراجه من النار وإدخاله الجنة قال وهذا الحديث حجة على الخوارج والمعتزلة ، وأما المرجئة فإن احتجت بظاهره قلنا محمله على أنه غُفِر له أو أخْرِجَ من النار بالشفاعة ثم أدخل الجنة فيكون معنى قوله ﷺ « دخل الجنة » أي دخلها بعد مجازاته بالعذاب وهذا لابد من تأويله لما جاء في ظواهر كثيرة من عذاب بعض العصاة ، فلابد من تأويل هذا لئلا تتناقض نصوص الشريعة .

ثم ذكر القاضي بعض الأحاديث الدالة على أن من مات على التوحيد دخل الجنة من مثل قوله عليه السلام «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة» ، «ومن لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة» ، «وَمَا مِنْ عَبْد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلاَّ حرّمه الله على النار» .

ثم قال : وهذه الأحاديث كلها سَرَدَهَا مسلم في كتابه فحكى عن جماعة من السلف رحمهم الله منهم ابن المسيَّب أن هذا كان قبل نزول الفرائض والأمر والنهي واعترض على هذا وذكروا أنه ضعيف لأن راوي الحديث أبو هريرة وقد أسلم متأخرًا عام سبع باتفاق وكانت أحكام الشريعة مستقرة وأكثر هذه الواجبات كانت فروضها مستقرة وكانت الصلاة والصيام والزكاة وغيرها قد تقرر فرضها ، قاله النووي .

وقال بعضهم هي مجملة تحتاج إلى شرح ومعناه من قال الكلمة وأدى حقها وفريضتها وهذا قول الحسن البصري ، وقيل إن ذلك لمن قالها عند النّدم والتوبة ومات على ذلك وهذا قول البخاري ، وهذه التأويلات إنما هي إذا حملنا الأحاديث على ظاهرها ، أما إذا نزّلت منازلها فلا يشكل تأويلها على ما بيّنه المحققون ، فتقرّر أولاً أن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح وأهل الحديث والفقهاء والمتكلمين على مذهبهم من الأشعريين أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى وأن كل من مات على الإيمان وتشهّد مخلصًا من قلبه بالشهادتين فإنه يدخل الجنة فإن كان تائبًا أو سليما من المعاصي دخل الجنة برحمة ربه وحُرّم على النار بالجملة ، فإن حملنا اللفظين الواردين على هذا فيمن هذه صفته كان بيّنًا وهذا معنى تأويل الحسن والبخاري ، وإن كان هذا من المخلطين بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه أو بفعل ما حرم عليه فهو في المشيئة لا يقطع في أمره بتحريمه

على النار ولا باستحقاقه الجنة لأول وهلة بل يقطع بأنه لابد من دخوله الجنة آخراً وحاله قبل ذلك في خطر المشيئة إن شاء الله تعالى عذّبه بذنبه وإن شاء عفا عنه بفضله» انتهى ما أردته من كلام القاضي . قوله وهذا معنى تأويل الحسن والبخاري ، أراد الحسن البصري الذي نقل قوله من قال الكلمة وأدّى حقها وفريضتها لأن حقها وفريضتها التوبة والسلامة من المعاصي ، وإذا سألنا وقلنا ما حق لا إله إلا الله وفريضتها ؟ وهل يمكن أن يموت الموحد وهو يعلم أنه لا إله إلا الله وقد ضيّع حقها وفريضتها ؟ وقد نبهت أحاديث أخرى كثيرة إلى معنى (وهو يعلم) يعني والحال أنه يعلم والكلمات التي جاءت مكانها في الأحاديث الأخرى لها هذا الموقع الإعرابي مثل لا يلقى الله بهما عبد غير شاك يعني كان حال نزع نفسه وحال الغرغرة يعلم أنه لا إله إلا الله وكان غير شاك وكان مستيقنًا بها قلبه ، وهذا يعني أن الله ختم له بالإيمان وهذا من أكرم مطالب المؤمنين .

وحقها هو الطاعة واجتناب المعاصي ومعلوم أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وأن زيادة الإيمان تعني أن يَسْكن في القلب وأن يستوطن فيه لا يخرج منه ولا تزعزعه الأحوال والأحداث والكروب ولا يكون ذلك إلا بالذكر الذي أُمِرْنا به في الأحوال كلها ، والأوقات كلها ، وأن هذا الذكر يقوى به الإيمان ويزيد ويترسخ وهذا هو الجدير بأن يموت وهو يعلم أنه لا إله إلا الله يعني تبقى الوحدانية مرافقة له ومطمئنة له وهو في أحرج اللحظات التي يمر بها الإنسان وهي لحظة الموت .

والمعاصي يَنْقُصُ بها الإيمان وإن كان العاصي من أهل التوبة وأهل الذكر رجع وزاد إيمانه ، ويلاحظ أن الحق - جل وتقدس - وضع الذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم أقول وضعهم

ربنا في مقام الصالحين لأن ذكر الله والرجوع إليه والتوبة من عمل الصالحات ، والصالحات يُذْهبن السيئات ، أما إذا كان مقترف الكبائر ليس من هؤلاء وإنما يزاول ما يزاول من خطايا ولا يذكر ،ولا يتوب،ولا يؤوب فهذا لا يزيد إيمانه إلا النّقْص ، فإذا كان الذين تراهم حولك يقتلون الناس ويدمّرون أبناء وطنهم ، ويقولون نحن نحارب الإرهاب ، وهم يقصدون الاتجاهات الإسلامية ذات الطابع السياسى أقول يقتلون الآلاف ويعتقلون البنين والبنات الذين هم دون البلوغ ويُعرّضُون شخصيات هؤلاء البنين والبنات للتدمير وإذا نصحهم ناصح إما أن يقتلوه أو يُعذّبوه أقول هل يتصور أن يموت هؤلاء وهم يعلمون أنه لا إله إلا الله ؟ وهل يتصور أن تبقى كلمة التقوى التي هي الوحدانية والتي هي أفضل ما قال رسول الله ﷺ والنبيون من قبله هل يمكن أن تبقى في قلوب هؤلاء الذين لم يقدموا لأوطانهم إلا القتل والتعذيب وتلفيق التهم وترويع الناس حتى لأوشك الناس أن يكرهوا أوطانهم ولو وجدوا أرضًا بديلة لهاجروا إليها بل منهم من هاجر هل يمكن أن يموت هؤلاء وكلمة التقوى التي لم تَرْدَعْهم عن ارتكاب أفظع ما يرتكبه الإنسان في حق الإنسان باقية في قلوبهم ؟ والسؤال الآن للمرة الثالثة أو الرابعة هل تبقى كلمة التقوى في قلوب هؤلاء إذا بلغت الروح الحلقوم ؟ أنا أسأل ولا أثبت ولا أنفى وإنما أترك الأمر لله وأفوض أمرى إلى الله لأنه سبحانه هو البصير بالعباد !

أحيانًا أجد في نفسي تَفَهُّمًا للخوارج لما كفروا مرتكب الكبيرة ، وأعلم أن فيهم شعراء وفقهاء وفرسانًا ولكن يبدو أنهم وجدوا ما دَفَعَهم إلى ذلك ، وأعذر أولادنا الذين يخرجون من سلخانات النظم الفاجرة وهم يكفرون الناس وأعلم أن تكفير من شهد الشهادتين كبيرة ، ولكن يجب قبل أن نتوجه

باللوم إلى هؤلاء الذين خرجوا من سلخانات التعذيب نُوجّه كلمة النصح للذين أوقعوا بهم ما جعلهم يُفتتنون عن دينهم ويلعنون ظلمهم وبَغيَهم ، وحرب الإرهاب واجب حين نصدق في تحديد الإرهاب حتى لا نصف ماليس إرهابا بأنه إرهاب .

شيء آخر يجب أن يقال وهو أن سيدنا داود الذي آتاه الله منه فضلا وقال للجبال يا جبال أوبي معه والطير ، ولم أعرف أن أحدًا أوتي مثل هذه الكرامة والتأويب معناه ترجيع ذكره ودعائه . هذا النبي الكريم قال له ربنا ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فجعل سبحانه اتباع الهوى سببًا للإضلال عن سبيل الله ، وأهم سبيل الله كلمة التقوى ثم قال سبحانه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ ، يعني لو أن داود اتبع الهوى لكان من الذين نسوا يوم الحساب ، فكيف بالقتل الجماعي واليومي لشباب ينتظره الآباء والأمهات أو لآباء ينتظرهم أطفالهم .

وشيء آخر في الجهة المقابلة هو أن الذين آمنوا يهديهم الله بإيمانهم ثم إذا هداهم الله واهتدوا زادهم الله هدى ، وهكذا ترى الهدى يزيد هدى حتى يصير العبد يعبد الله وكأنه يراه ، هؤلاء إذا عُثروا أقال الله عثرتهم بالتوبة ، وهم الذين يكرمهم ربنا ويموتون وهم يعلمون أنه لا إله إلا هو وفي النهاية لا حرج على فضل الله ، وهؤلاء الذئاب ربما عملوا بعمل أهل الجنة وماتوا وهم يعلمون أنه لا إله إلا هو وإنما أردت أن أنبه إلى أن الإيغال في الفجور والقتل والقمع لا تكون معه كلمة التقوى حية في القلب ، وأحاديث هذا الباب قريبة جدًا من قوله تعالى في آية الزمر ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ فاجتناب الطاغوت والإنابة إلى الله هو شهادة أن لا إله إلا الله ، والبشرى هي قوله عليه السلام لأبي هريرة فمن

لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة ، هذا والله أعلم .

وقد جاءت بشارة من مات على التوحيد بالجنة عقب أحداث كان في بعضها تجليات لكرامة سيدنا رسول الله ﷺ ، كما في حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة بطريقين : طريق مختصر وطريق غير مختصر وسأورد الطريقين وأحاول أن أضع اليد على مواطن الاختصار في المختصر ومواطن الإشباع في غير المختصر لأن هذا باب جيد وكثير جدًا في الكتاب والسنة ولم يأخذ من عناية الدارسين ما هو جدير به ومثله في الأهمية والإغفال باب حل المنظوم وهو الآخر باب من أبواب الفصاحة العالية التي ترى الكلامين يتواردان على معنى واحد ويحاول كل كلام أن يبلغ في الإفصاح والإبانة والإحسان درجة عالية جدًّا ، وأفضل ضروب الدراسة البلاغية هو ضرب الموازنة لأنه جذر كل استحسان وجذر كل محاولة لبيان فضل كلام على كلام ، بل هو جذر الإعجاز لأنهم قاسوا ما سمعوا من رسول الله ﷺ على ما ألفوا من شعر ووضعوه على أقرانه فلم يلتئم كما قالوا . قال أبو هريرة : كنا مع النبي ﷺ في مسير . قال فنفدت أزواد القوم قال حتى هَمَّ بنحر بعض حمائلهم قال فقال عمر يا رسول الله لوجمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوت الله عليها قال ففعل قال فجاء ذو البُرّ ببُرّه وذو التمر بتَمْره قال « وقال مجاهد وذو النواة بنواه » قلت وما كانوا يصنعون بالنوى ؟ قال كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء قال فدعا عليها حتى ملأ القوم أزودتهم قال فقال عند ذلك « أشهد أن لا إله إلا الله وأنيٍّ رسولُ الله لا يَلْقَى الله بهما عَبْدٌ غيرُ شاك فيهما إلا دخل الجنة » انتهى حديث أبي هريرة الذي رواه عنه أبو صالح ، ورواه عن أبى صالح طلحة بن مُصَرِّف وهو الرواية المختصرة .

والرواية غير المختصرة عن أبي هريرة أو عن أبي سعيد (شك الأعمش) وقد حدّث بها الأعمشُ عن أبي صالح ، قال أبو هريرة أو أبو سعيد لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة « قالوا يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضِحَنا فأكَلْنَا وادّهَنَّا فقال رسول الله ﷺ « افعلوا » ، قال فجاء عمر فقال يا رسول الله إنْ فَعَلْت قَلَّ الظهرُ ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادعُ الله لهم عليها بالبركة لعل الله أن يَجْعل في ذلك فقال رسول الله ﷺ « نعم » ، قال فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف ذرة قال ويجيء الآخر بكف تمرْ قال ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ، قال فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة ثم قال خذوا في أوعيتكم قال فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه قال فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلةٌ فقال رسول الله ﷺ : « أشهد أن لا إله الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيُحْجَبُ عن الجنة » . انتهى الحديث .

وقبل أن أبين ما أستطيع بيانه أُنبّه إلى أمر ظاهر وهو أن الاختصار والتغيير في العبارة لم يمس ما نطق به المبلغ عن ربه ، وإنما هو في حكاية الأحداث التي عبر عنها الرواة ولم يعبّر عنها كلام رسول الله ﷺ والذي له عليه السلام في الروايتين هو الجملة الأخيرة وهي الشهادتان وأن من يلقى الله بهما دخل الجنة أو أنه لا يحجب عن الجنة ثم جوابه لمن رأوا نحر النواضح وقوله افعلوا وقوله لعمر نعم ، وما عدا ذلك فهو من كلام الرواة ، ولا تتعلق به أحكام .

جاء في الرواية المختصرة : كنا مع النبي ﷺ في مسير ، وفي الرواية الثانية « لما كان غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة » سكتت الرواية الأولى عن

بيان جهة المسير ، وهي غزوة تبوك لأن خصوص غزوة تبوك ليس مما يتعلق به غرض الكلام في الرواية الأولى لأنها لا تتكلم عن غزوة تبوك وإنما تتكلم عن الحدث المقصود في الحديث والرواية غير المختصرة تتفق مع هذه في بيان الأحداث ولكنها أضافت غزوة تبوك وأشبعت الكلام بهذه الإضافة وقال في الرواية الثانية « أصاب الناس مجاعة » وفي الرواية الأولى « فنفدت أزواد القوم » والعبارة الثانية أخف في بيان الشدة لأن الأزواد قد تنفد ولم تصب الناس مجاعة بعد ، ثم إن عبارة (أصاب الناس مجاعة) متلائمة مع ذكر المسير وأنه كان في غزوة تبوك لأنها غزوة العسرة وكانت في زمان الشدة ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ راجع المهاجرين والأنصار ومعهم سيدنا رسول الله وأن العسرة كادت تزيغ قلوب فريق من هؤلاء الذين لم يمش على أرض الله أحد أفضل منهم إلا أن يكون نبيًّا ، وكيف استدعَتْ كلمة تبوك هذه الصورة وكيف لاءمتها كلمة « مجاعة » وكيف أغمضت الرواية الأولى كل ذلك وبدأت بكلمة (مسير) بدل غزوة تبوك ، ثم ذكر نفاد الزاد بدل المجاعة وراجع كيف يتلاءم الكلام وكيف يتكون السَّمْتُ ، وكيف تختلف الظلال .

وجاء في المختصرة « حتى همّ بنحر حمائلهم » رُويت الحمائل بالحاء والجيم المعجمة أما الحاء فالمراد بها جمع حمولة وهي الإبل التي تحمل المتاع ، والجيم جمع جمالة بكسر الجيم وجمالة جمع جمل مثل حجارة وحجر .

وهذا المعنى في الرواية غير المختصرة جاء في هذه العبارة قالوا يا رسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا فقال رسول الله ﷺ

« افعلوا » والمراد بقولهم « ادَّهنا » أخذنا دهنا من شحومها واحتفظنا به زادًا لنا ، ولاحظ أن نحرهم نواضحهم موقوف على إذنه ﷺ وأنهم عرضوا طلب الإذن في عبارة بالغة التوقير وحسن الأدب لأنهم قالوا لو أذنت لنا وجاؤوا بكلمة « لو » المفيدة معنى التمني وأن رسول الله ﷺ قال لهم افعلوا ، ولم ينحر ولم يهم بنحر وقد لخصت الرواية المختصرة كل هذا في قول الراوي « حتى همَّ بنحر حمائلهم » وأسندوا الهم إلى رسول الله ﷺ مع أن الذي همَّ بنحر الحمائل هم القوم ولكنه عليه السلام لما أذن لهم بالنحر صار النحر مسندًا إليه من باب المجاز العقلي لأنه سبب الهم وليؤكد لك معنى أن كل ما يكون من الصحابة وهم في مثل هذا الشأن العام إنما يكون بإذن من رسول الله ﷺ ، والهم كما يقول العلماء وسط بين العزم والفعل ، ووراء كلمة « همَّ بنحر بعض حمائلهم » أنهم استأذنوه فأذن ولا يمكن أن تفهم على ظاهرها لأنه عليه السلام ما كان له أن يطوف بحمائلهم فينحرها ، ولهذا كان هذا الإسناد دالاً على استئذانهم الذي جاء في الرواية غير المختصرة وفي الرواية المختصرة : قال : فقال عمر يا رسول الله لو جمعت ما بقى من أزواد القوم فدعوت الله عليها ، وفي الرواية غير المختصرة : « فجاء عمر فقال يا رسول الله إن فعلت قلَّ الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك » الرواية المختصرة سكتت عن قول عمر يا رسول الله إن فعلت قلَّ الظهر ، وعمدت إلى ما اتجهت إليه وهو مشورة عمر بجمع الأزواد والدعاء عليها ، وبَنَتْ هذا المعنى في حيِّز كلمة (لو) الدالة على العرض وفيها شوب من التمني وشرطها هو جمع ما بقي من أزواد القوم وجوابها هو الدعاء عليها ، وكان ذلك كافيًا لأن المقصود الأهم هو مواقعة رسول الله ﷺ على عرض عرضه أصحابه وأغمضته هذه الرواية

إغماضًا بيّنًا وأومأت إليه إيماء بعيدا بإسناد الهم بنحر بعض الحمائل إلى رسول الله ﷺ . وكأن الأمر قد تأكد وها هي بعض الحمائل يهم رسول الله ﷺ بنحرها ثم يأتي رأي آخر يراه رسول الله ﷺ رأيًا أكثر رشدًا وهو ما عرضه عمر فيرجع سيد الخلق إلى الصواب حين يراه وإن كان الرأي الأول أوشك أن يقع وينفذ وهذه قيمة جليلة جدًا لأن رسول الله ﷺ ترك الأمر لأصحابه ما دام ليس فيه من الله شيء ولم يتدخل إلا بالموافقة ثم إن رأي عمر رضوان الله عليه ليس نفيًا لنحر بعض الحمائل وإنما هو تقليم محاولة أخرى عليها فإن استجاب ربنا لدعاء نبيه صلوات الله وسلامه عليه وهذا هو المتوقع نكون قد كفينا نحر بعض الحمائل وكفينا قلة الظهر وإذا لم يكن ذلك وهو غير متوقع فلنرجع إلى الرأي الأول . يلاحظ أنه قال في المختصرة حتى همّ بنحر بعض حمائلهم فقال عمر ، يعني أن عمر قال بعد الهمّ ، وهذا يعني أن عمر لم يكن حاضرًا حين استأذنوا رسول الله ﷺ في نحر بعض حمائلهم ولو كان حاضرًا لقال ما أراد ، ولكن رسول الله ﷺ قال افعلوا فهمّوا فقال عمر ، وهذه الدلالة المغمضة هنا جاءت صريحة في الرواية غير المختصرة في قول الراوي فجاء عمر فقال يا رسول الله إن فعلت قلّ الظهر ، وكلمة فجاء عمر دالة دلالة ظاهرة على أنه كان غائبًا لما قالوا يا رسول الله لو أذنت وكلمة (جاء) لها مواقع كثيرة في الكتاب العزيز من مثل قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ - ﴿ جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ﴾ ، ﴿ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ وهي كلمة مؤذنة بانبعاث صورة لأن الأصل في معناها مجيء ما كان غائبًا ، وكأنها تُريكَهُ وهو قادم وقول عمر في الرواية المختصرة « لو جمعت ما بقي من أزواد القوم فدعوت الله عليها » يقابله : ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم ادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في

ذلك ، والجملة الأخيرة « لعل الله أن يجعل في ذلك » فيها حذف للمفعول والمقصود لعل الله أن يجعل في ذلك البركة قال النووي فحذف المفعول به لأنه فضلة وأصل البركة كثرة الخير وثبوته ، وتبارك الله ثبت الخير عنده وقيل غير ذلك .

الذي في غير الرواية المختصرة تفصيل أكثر ، وفيه كلمة « ثم ادع الله عليها بالبركة » وكلمة ثم تشير إلى بعد المنزلة بين دعوتهم أن يحضروا فضل أزوادهم والدعاء عليها ، ثم إن المختصرة لم تذكر كلمة « البركة » ولم تذكر « لعل الله أن يجعل في ذلك » وقوله « لو جمعت ما بقي من أزواد القوم » متضمن لقوله « ادعهم بفضل أزوادهم » وموضع التضمُّن هو إسناد الجمع إلى رسول الله ﷺ لأنه لن يجمع ذلك بنفسه وإنما سيدعوهم إلى جمعه .

وقد ذكر العلماء أن عرض عمر على رسول الله ﷺ ما رآه بعد قوله عليه السلام « افعلوا » فيه معنى أن للمفضول أن يعرض على الأفضل ما يراه وليس في ذلك حرج لأن المقصود هو الوصول إلى مصلحة الجماعة من غير نظر إلى قدر ومقام من يرى الرأي ، لأن قدره محفوظ ومقامه محفوظ وليس في مخالفته أي غضاضة وهذا مبدأ جيد جدًا ولا يرى غضاضة في عرض رأي يخالف رأيه من له مقام وله أهلية تؤهله لمسؤولية أعْلَى ، ثم إن ما عرضه عمر كان مُسْتخلصًا من أحوال متشابهة كما كان في الحديبية مثلاً وأنهم افتقدوا الماء فوضع رسول الله ﷺ يده الشريفة في فضلة فضلت من ماء الحديبية فتفجرّ الماء من بين أصابعه صلوات الله وسلامه عليه فكثر الماء وزاد عن حاجتهم ومثل إناء اللبن الذي سقى منه أبو هريرة أهل الصفة فشربوا جميعًا وشرب أبو هريرة وشرب رسول الله ﷺ وبقي الإناء وكأنه لم

يؤخذ منه شيء وإنما لم يعرض رسول الله ﷺ هذا العرض الذي عرضه عمر وإنما ترك الكل يجتهد ويفكر في حلول المشاكل في ضوء الواقع الممكن ولو أنه عليه السلام بادر بما قاله عمر لكان تشريعًا ولكان لنا أن نُحيل حلول مشاكلنا إلى الغيب الذي ليس في أيدينا وإنما كان موقفه حين قال للذين رأوا نحر بعض الحمائل افعلوا ، وقال لعمر نعم ولم يكن له موقف محدد حتى نكون نحن المسؤولين عن ما ليس فيه وحي وهذا جيد بالغ .

ثم إن في كلام عمر وفي موافقة رسول الله ﷺ له إشارة تقول لنا إذا نزل بكم ما تكرهون وبذلتم أقصى ما عندكم في دفعه ولم يُدْفع فاستشفعوا بالصالحين منكم وكما أنكم تستسقون بالصالحين فاطلبوا من الله كشف البلاء أيضًا بالصالحين ولن تزالوا بخير ما دام فيكم بقيَّة من رجال الله ، ولن تنقطع هذه البقيَّة لأن الصادق الأمين قال لنا الخير فيكم إلى يوم القيامة وقد قال الأوزاعي : إن الله تعالى لم يكن ليُضِلَّ أمة فيها ابن مُحَيرز وقال رجاء ابن حيوة بعد موت ابن مُحَيرز : والله إن كنت لأعد بقاء ابن مُحَيْرز أمانا لأهل الأرض ، وابن محيرز هذا هو عبد الله بن محيرز بن جنادة بن وهب القرشي الجُمَحي ، اللهم لا تقطع منا أشباه ابن محيرز واحفظ البلاد بما بقي فيها من الصالحين .

وشيء آخر في استجابة رسول الله ﷺ لعمر ، وهو أنه يعلمنا عليه السلام أننا إذا واجهنا قرارًا يتخذه أكبر مسؤول ومن شأنه أن يضر بالمصلحة العامة فالواجب أن نبادر بالاعتراض عليه وبيان وجه الاعتراض وأن نجتهد في طرح البديل ، ولاحظ أيضًا أن عمر لما جاء وقَدْ هَمَّ الأصحاب بنحر بعض الحمائل . أوجز الكلام وبادر ليستدرك وبيان هذا الإيجاز في جملة « إن فعلت قل الظهر » وراجع هذه الجملة وإدراك الإيجاز من أخفى صور إدراك

أسرار البيان ، أولا لاحظ كلمة «إن» ومعناها هنا أن هذا الذي يوشك أن يكون لا ينبغي أن يكون ، ثم كلمة (فعلْتَ) وحذف مفعولها والمبادرة ببيان خطر جواب (إن) وهو قِلّة الظهر ونحن في هذا السَّفَر البعيد وفي مواجهة جيش من أقوى جيوش العالم ، ثم كيف سارع وطوى ما طوى في الكلام وقال «ادْعُهُم بفَضْل أزوادهم» وأصل الكلام ادعهم يأتوا بفضل أزوادهم فحذف الفعل وأدخل حرف الجر على كلمة (فضل) لتدل هذه الباء على أن المراد لا محالة ادعهم يأتوا بفضل أزوادهم ، لأن هذا الفعل المحذوف هو متعلق الجار والمجرور ، وإنما دعا بفضل الأزواد أو جمع ما بقي من أزواد لأن الدعاء بالبركة لا يكون إلا على شيء موجود فإن كان قليلاً بارك الله فيه فعمل عمل الكثير ، المهم أن يكون هنا بقية من كسبنا فيباركها ربنا فتزيد وهذا بخلاف أن ندعو بالبركة على غير شيء ، المهم أن يكون هناك أصل تعبنا فيه وحصلناه ووضعناه بين أيدينا ودعونا ربنا أن يبارك لنا فيه ووراء ذلك معنى جيد ويلاحظ أن سيدنا رسول الله ﷺ كان يعالج القليل من الماء حتى يفيض ، ولم ينبع الماء من بين أصابعه إلا وأصابعه في الماء والله قادر على كل شيء وإنما يقول لنا لا تهملوا أنفسكم حتى لا يبقى في أزوادكم شيء أو حتى تكفأ أوانيكم ، وإنما بادروا حتى لا تأخذ المشقة بخناقكم .

أما جمع ما بقي من أزواد القوم والدعاء لها بالبركة وأنه عليه السلام لم يدع بالبركة لبقايا هذه الأزواد وهي في رحالهم فذلك لأن منهم من بقي عنده بُرٌّ ومنهم من بقي عنده تَمْر ومنهم من بقي عند نَوَى فالبركة التي هي الزيادة ستزيد التمر لمن ليس عنده إلا التمر وتزيد النوى للذي ليس عنده إلا النوى أما جمعها وزيادتها فإن كل واحد سيأخذ في أزواده من كل الأصناف الموجودة ، هذا شيء وشيء آخر وهو أن جمع طعامهم وخلط

بعضه ببعض وأخذهم من عطاء الله لهم ضرب من المشاركة والإيثار وأدعى لنفي الأثرة ولما عرض عمر هذا وأقره رسول الله ﷺ صار عند بعض علمائنا سنة ، قال النووي وفي هذا الحديث جواز خلط المسافرين أزوادهم وأكلهم منها مجتمعين وإن كان بعضهم يأكل أكثر من بعض وقد نص أصحابنا على أن ذلك سنة وقالوا : إذا قلَّ زاد القوم وهم في سفر يجمع ما عندهم ثم يقسم بالسواء بينهم وهكذا كان يفعل الأشعريون ورغب فيه رسول الله ﷺ وأثنى عليه .

قول الراوي : « فدعا بنطع فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم ».

ذكر النووي أن في كلمة (نطع) أربع لغات مشهورة أشهرها كسر النون مع فتح الطاء والثانية بفتحهما والثالثة بفتح النون مع إسكان الطاء والرابعة بكسر النون مع إسكان الطاء .

ويلاحظ إشباع المعاني بطريقة ظاهرة في هذه الحالة وراجع فدعا بنطع ... فبسطه ثم دعا بفضل أزوادهم .. فجعل الرجل يجيء بكف ذرة قال ويجيء الآخر بكف تمر قال ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير ، قال ودعا بنطع فبسطه ، ولو حذف فبسطه لفهم معناه وقال فجعل الرجي يجيء بكف ، ولو قال فجاء ذو البر ببره لكفى كما في الرواية المختصرة ، وأضاف هنا كلمة (كف) فدقق في بيان قلة ما عندهم وهذا بخلاف فجاء ذو البر ببره وذو التمر بتمره ، لأن كلمة (ذو البر) تحتمل القلة والكثرة بخلاف كلمة (بكف تمر) وهذا ظاهر ودال دلالة ظاهرة على الاستقصاء في الرواية غير المختصرة .

وقال مجاهد (وذو النواة بنواه) وخالف في هذه ولم يقل وذو النوى بنـواه ولهذا قالوا إن النواة هنا من المفرد الذي يراد به الجمـع ، وقـد يقـال الكلمـة ويراد بها الكلام كما يقال كلمـة الحويـدرة وهـم يريـدون قصيدته «بكـرت سمية» وقال ابن مالك «وكِلْمَةٌ بِهَا كَـلامٌ قَـدْ يُـؤَمّ» وهـذا أيضًـا ظـاهر وأن اللغة تجيزه ويبقى شيء لم يذكروه وهو لماذا قال (النواة) وهو يريد النوى؟ وما الفرق بين قولنا قصيدة الحويدرة ، وكلمة الحويدرة ونحن نريد القصيدة هل هذا من الافتتان في التعبير وليس وراءه سر ؟ ليس من التدقيق في الفهـم أن تقول : نعم ، لأنه لأُبـدَّ أن يكـون وراء ذلـك معنـى يـراد ، وهـذا المعنـى المراد ليس له دليل ولذلك نختلف في تقديره ، وأقول إن النواة هنـا جـاءت مفردة وخالفت النسق لنلفت إلى شدة الحال وأن النوى صار زادًا ثـم هـو زاد مفتقد ، لأن النوى لم يكن زادا لهم وإنما كان زادا لإبلهم وخيلهم ثم هـو زاد لا يؤكل وإنما قصاراهم معه أنهم يمصونه ليشـربوا عليـه المـاء ، ولـيس في الحديث كله كلمة تصف هول ما هم فيه كالكلمة التي ذكر فيها النوى وأنهم يمصونه ، أعني أن النوى الذي لفتت إليه كلمة النواة هي الكلمة التي انعقدت فيها شدة العسرة ، أما قولنا كلمة الحويدرة ولا زلنا نقول ألقى فلان كلمة في مؤتمر كذا أو في مناسبة كذا ، فلا أعرف سرًّا وراء هذا إلا سرًّا واحدًا ، وهو الإشارة إلى أنه ينبغـي أن تكـون القصـيدة في تماسـكها وتلاحمهـا وترتيـب معانيها كأنها كلمة واحدة وكما أنك لا تستطيع أن تسقط حرفًـا مـن الكلمـة كذلك لا تستطيع أن تسقط بيتًا من القصيدة وكما أنـك لا تسـتطيع أن تُقـدِّم حرف على حرف في الكلمة كذلك لا تستطيع أن تقـدم بيتًـا علـى بيـت في القصيدة وهكذا يقال في كل خطبة أو مقالة نطلق عليها كلمة (كلمة) ولـيس بلازم أن تكون القصيدة كـذلك وإنمـا تشـير إطـلاق الكلمـة عليهـا إلى أنهـا

ينبغي أن تكون كذلك وقد ذكر حازم القرطاجني أن ترتيب الجمل في بيت الشعر أو في فقرة النثر كترتيب حروف الكلمة وأن تماسك الجمل وتشابكها كتماسك حروف الكلمة وتشابكها وأرجو ألا يعجبك ما قلته لتقدم للناس أفضل منه .

وازن بين « فدعا عليها حتى ملأ القوم أزودتهم » وبين فدعا رسول الله ﷺ عليها بالبركة ثم قال خذوا في أوعيتكم قال فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه قال فأكلوا حتى شبعوا وفضِلَتْ فضلة . وقد خلصت الجملة الأولى إلى مرادها لأن الرواية الأولى كانت تسْعَى وهي عجلة إلى الأمر الخارق فطوت معاني وأحْداثًا . ترى ذلك واضحًا في بيان الجملة الأولى التي أخذت بطرفي الموقف وضمّت الطرفين وطوت ما بينهما الطرف الأول هو « فدعا عليها » والطرف الثاني هو « حتى ملأ القوم أزودتهم » ووصلت بينهما بكلمة حتى المؤذنة بانتهاء المسير ، وأن الدعاء اتصل بملء القوم أزودتهم - وانتهى الأمر وطوى ما طُوِيَ ، أما الرواية الثانية وقد كانت تسعى هى الأخرى إلى الأمر الخارق وما بعده لأنه من أجل علامات النبوة ومن أجل تجليات إكرام الله لرسوله ﷺ ومن معه وكانوا أكرم من مشى على الأرض بعد الأنبياء وهم المهاجرون والأنصار المذكورون في آية التوبة أقول كانت تسعى ولكن بقدر من الريث والإبطاء والتأمل والتدقيق والمراجعة ، قالت الرواية الثانية فدعا رسول الله ﷺ عليه بالبركة فأضافت كلمة (بالبركة) ثم سكت الكلام سكتة ظاهرة بعد الدعاء ليتأتى لك أيها القارئ أن تراجع هذه اللحظة التي هي لحظة الكرامة والإكرام وكأنك تنتظر نتيجة دعائه عليه السلام عليها بالبركة وأنت تشاهد القوم وبينهم سيدهم سيد الخلق وهم في العُسْرة قلت سكت الكلام وطالت السكتة ودل

على هذه السكتة كلمة (ثم) في قوله ثم قال ، وهذا يعني أن لحظة الانفراج قد جاءت وسيدنا المختار يقول لهم خذوا في أوعيتكم من عطاء الله لكم وإكرامه لكم وتكريمه لكم ولا مانع من أن تكون هذه اللحظة منطوية على بشارة بالنصر لأن الذي بارك لهم في كفوف من الأزواد حتى أخذوا في أوعيتهم وأكلوا وفضلت فضلة قادر على أن يحقق لهم وبهم النصر وأن يزرعوا دين الله في أرض الشام التي لا زالت من يومها وهي حصن حصين من ديارنا ديار الإسلام ، ويدلكم على أن الكلام هنا يبطئ عن عمد لتراجع أجل اللحظات أنه قال « فأخذ القوم في أوعيتهم » وكان هذا مما يفهم من الكلام السابق ثم أضاف حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه قال فأكلوا حتى شبعوا وفضلت فضلة ، راجع « حتى شبعوا » وهي لا محالة سَتُفْهم من قوله وفضلت فضلة ولكن كل هذا لإشباع هذه اللحظة كما قلت وللإشارة الدالة على رعاية الله لهم وأنه سبحانه أعطاهم ما أرادوا وزاد حتى فضلت فضلة وكان فضل هذه الفضلة وحده فيه معنى أنه لكم ما تطلبون وزيادة عن الذي تطلبون ؛ وسيروا في مسيركم على بركة الله وستحصلون على ما تريدون وزيادة ، وكل هذا مطوي هناك وإنما هناك دَعَا حتى ملأ القوم أزودتهم ، وقول عمر في الأول في الرواية الثانية « ثم ادع الله لهم عليها بالبركة » فيه إشارة إلى مكانة هؤلاء عند ربهم وأن مكانتهم عند الله من أهم أسباب الإجابة وإن كان الله سبحانه وتعالى ما رد لرسوله دعاء ، هذه الإشارة في الجار والمجرور الذي قدمه على أخيه (لهم عليها) ولو قال ادع الله عليها بالبركة لأفاد المعنى ولكن يسقط منه أن الدعاء لهم وهم الصادقون الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ، وصلاح من تدعو له له مدخل في الإجابة وقد قال ﷺ لمن طلب منه الدعاء أعني على ذلك بكثرة السجود .

قلت إن الرواية المختصرة كانت تسعى عجلة نحو الأمر الخارق وما أعقَبه من قوله عليه السلام «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة»، ويدلني على ما قلت كلمة (عند) التي جاءت في قول الراوي (فقال عند ذلك أشهد أن لا إله إلا الله إلى آخره) لأن كلمة عند ذلك كأنها تضع يدك على المقصود من الرواية وأنه عند الأمر الخارق قال عليه السلام شهادته وخبره عن ربه ، ولم يأت هنا في الرواية غير المختصرة وإنما ظل الكلام في هدوئه حتى وصل إلى غايته فقال الراوي : فقال رسول الله ﷺ أشهد .

وقوله عليه السلام عند ذلك يعني عند رؤية الآية وعند رؤية الإكرام والكرامة وناهيك عن رسول الله وأصحابه وهم يرون ما على النطع من شيء يسير وهو ينمو ويتغازر حتى يملأوا أزودتهم ولا يبقى في العسكر وعاء إلا ملأوه وأن يأكلوا ويشبعوا وتبقى بقية أقول هذه لحظة لا يطمع عبد مؤمن في أن يرى أفضل منها ، ولا يقال فيها كلام أفضل من الشهادتين وهي اللحظة التي طلبها إبراهيم عليه السلام ليطمئن بها قلبه وسيدنا رسول الله ﷺ الذي ينزل عليه الوحي لما شهد هذا المشهد زاد إيمانه بأنه رسول الله . ولم يزد عن نقص .

قال النووي «وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوة الظاهرة وما أكثر نظائره التي يزيد مجموعها على شرط التواتر ، ويَحْصُل العلم القطعي وقد جمعها العلماء وصنفوا فيها كتبًا مشهورة ، والله أعلم» ، وقوله «يحصل العلم القطعي» حقيقة تجدها في نفسك وكأنك كنت معهم في هذا المشهد الذي أراهم فيه هذه الآية ويبقى شيء يَفْضُلُوننا به وهو أنهم شهدوا بعيونهم

ونحن خبّرنا واستيقنا بقلوبنا وليس من رأى كمن سمع ولهذا الفرق طلب إبراهيم عليه السلام الرؤية وقال أرني صلوات الله وسلامه عليه .

وقد عقب الشيخ أبو عمرو بن الصلاح على قول الراوي « حتى ملأ القوم أزودتهم» بقوله : الأزودة جمع زاد وهي لاتملأ إنما تملأ بها أوعيتها قال : ووجهه عندي أن يكون المراد حتى ملأ القوم أوعية أزودتهم فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه» انتهى كلام ابن الصلاح ، وهو كما قال ويبقى لماذا سلك البيان هذا المسلك وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه ، وقبل الإجابة أذكر توجيه القاضي عياض وهو أن المراد بالأزودة هنا الأوعية وليس في الكلام حذف وإنما فيه مجاز وهو تسمية الأوعية بالتي فيها ، كما يسمى الظرف بالمظروف تقول أعطني هذا الماء وأنت تريد وعاءه وهكذا ، وهذا شرح لكلام القاضي وليس نصّه ، والجواب هو أن الأزودة ذكرت من باب حذف المضاف أو من باب تسمية الظرف بالمظروف لأن المقام مقام مجاعة وعُسْرة فذكر الزاد الذي هو الطعام وأبرز لأن هذا مقام ذكره وإبرازه .

وأفهم من قول سيدنا عند ذلك أشهد إلى آخره أن الشهادة بالله وحده وبأن محمدًا عبده ورسوله عند رؤية أي آية من آيات الله كاختلاف الليل والنهار أعني عند الإصباح أو عند الإمساء أو عند سوق السحاب أو عند نزول المطر أقول كما أن الذكر في أمثال هذه الأوقات أنجع وأبين كذلك الشهادتان لأنهما أفضل الذكر .

وقوله عليه السلام لا يلقى الله بهما عبده غير شاك فيهما إلا دخل الجنة وفي الرواية الأخرى لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيحجب عن الجنة ، وهذه جملة من أنبل البيان وأكرمه وراجع لتدرك بنفسك صورة العبد الذي يلقى الله بهما يعني كأنه يلقى الله في صحبتهما لأن هذه الباء التي في قوله

« بهما » هي باء المصاحبة ، وهي أخت الباء التي في قوله تعالى ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ ﴾ أي مصاحبًا السلام ، المصاحبة هنا تعني أنه اصطحبهما ليستشفع بهما عند ربه وكأنه يقول يا ربي لا ألقاك إلا بهاتين وليس لي سَنَدٌ في مرجعي إليك إلا هاتين فأكرم صحبتي لهما لأنهما عندك بمكان وراجع قوله (غير شاك) وهي حال مؤكدة لأن معناها مفهوم من لقائه الله بهما فلو كان شاكًا ما لقي الله بهما ، وهذا التأكيد يعني فيما يعني أنه حفظهما وعاش وهو يستيقنهما ثم إنهما هما الإيمان لأن الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ، والإيمان كما سبق يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ولا أفهم لزيادتهما معنى إلا معنى واحد وهو رسوخهما في اليقين وكلما زادت الطاعة زاد هذا الرسوخ وزاد هذا اليقين وفي المقابل كلما زادت المعصية زاد النقص وزاد الوَهَنُ وابتعدنا عن الرسوخ في القلب وهكذا حتى يُصْبح وجودهما في القلب وجودًا سطحيًا لا يؤثر في السلوك ، ومن كان كذلك فإن لقاءه ربه بهما حالة كونه غير شاك بعيد ، وهؤلاء الذين يمارسون القتل والسَّلْب والنَّهب والقمع والترويع والتزوير والكذب حتى صارت هذه الآثام كأنها مهنة لهم يزاولون ذلك في كل يوم لولا أننا نُهينا عن أن نتحدث عن الذي في القلوب لقلنا إن قلوبهم خالية من هاتين وأنه بعيد أن يلقى أحدهم ربه بهما وقوله عليه السلام « إلا دخل الجنة » يفسر في ضوء ما تقدم من بيان أحواله أي يدخلها مع الأولين أو يدخلها بدون عقاب أو يدخلها بعد العقاب والمهم أنه يدخلها قطعًا وكذلك يقال في قوله عليه السلام فيحجب عن الجنة إما أولا وإما بعد العذاب ، هذا والله أعلم .

ومن أحاديث هذا الباب حديثان رواهما مسلم بسنده عن عبادة ابن الصامت عن رسول الله ﷺ .

الحديث الأول قال فيه عبادة : قال رسول الله ﷺ « مَنْ قال أشْهَدُ أنْ لا إله إلا اللهُ وَحْدَه لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله وابن أمته ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنّة حقٌّ وأن النارَ حَقٌّ ، أدخله الله من أيّ أبْوابِ الجنة الثمانية شاء » وفي رواية أخرى « أدْخله الله الجنة على ما كان مِنْ عمل » ولم يذكر من أي أبواب الجنة الثمانية شاء .

والحديث الثاني قال فيه عبادة : دخلت عليه وهو في الموت فبكيت . فقال مَهْلاً لِمَ تبكي ؟ فوالله لئن استُشْهِدْت لأشهدنّ لك ، ولئن شُفِّعْتُ لأشْفَعَنَّ لك . ولئن استطعتُ لأنْفَعنَّك . ثم قال : والله ما من حديث سَمِعْتُهُ من رسول الله ﷺ لكم فيه خَيْرٌ إلا حدَّثتكموهُ . إلا حديثًا واحدًا ، وسوف أُحَدّثكمُوه اليوم . وقد أُحِيطَ بنفسِي . سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله حرَّم الله عليه النار » .

قوله ﷺ : « من قال أشهد أن لا إله إلا الله » أراد عليه السلام مستيقنًا بها قلبه غير شاك ، وليس من قالها بلسانه فحسب وإن كان الاستيقان ونفي الشك مما يعلمه الله لأن الله سبحانه هو الذي يدخله الجنة ويحاسبه على ما يعلمه منه أما نحن فإننا نقبل من الناس خواطرهم ونترك لله سرائرهم ومن نطق بها لسانه عصم بها نفسه وماله وولده ولا يملك أحد أن يكفر من نطق بالشهادتين وقد مضى كل ذلك والزيادة التي لم تذكر قبل ذلك قوله عليه السلام « وأن عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » وأول ما يُسأل عنه هو لماذا خص عيسى عليه السلام من بين أنبياء الله ورسله ؟ ولماذا خص ذكر الجنة وأنها حق والنار وأنها حق ، ولم يذكر البعث والحشر والحساب إلى آخره ، ثم لماذا ذكر هذا مع أن الشهادة بأن محمدًا رسول الله مُغْنية عن هذا كله لأن القرآن الذي أنزل على رسول الله فيه

هذا كله والإقرار بنبوة محمد ﷺ إقرار بكل ما في الكتاب . والكلمات التي ذكرت عيسى عليه السلام كلمات قرآنية ولماذا لم يقل عليه السلام من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله وأقام الصلاة وآتى الزكاة وصام رمضان إلى آخره ، لماذا ترك عليه السلام كل هذا إلى ما جاء في الحديث ؟

ويلاحظ أن ذكر عيسى عليه السلام والجنة والنار مع الشهادتين أضاف ذلك أمرًا زائدًا في الثواب لأنه بدون ذكر هذه الزيادات كان الثواب دخول الجنة أو نفي الحجب عنها أمَّا مع الزيادات فإن الثواب دخول الجنة من أي باب شاء من أبوابها الثمانية .

والجواب عن كل هذا جواب واحد ، لأن الحديث ليس في شرح الإسلام حتى نقول لماذا لم يذكر الصلاة والزكاة والصيام ، وليس من مقصوده أن يحدث عن الأنبياء عليهم السلام حتى تقول لماذا ذكر عيسى ولم يذكر موسى صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا وإنما الحديث في بيان العقيدة وبيان ما يجب أن تُحرسَ به العقيدةُ وبيان ما يجب الإيمان به وقد ذكروا أن عيسى ابن الله وأكد القرآن على نفي هذا ومثله ، والمقصود صفاء الوحدانية ونقاؤها والبعد عن شوائب الشرك ، ونحن نقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتأمل ما في هذه الجملة ، من توكيد ، لم نكتف في الدلالة على الوحدانية بطريق القصر (لا إله إلا الله) وإنما أضفَنا تأكيدًا بقولنا وحده ، ثم أضفنا توكيدًا آخر بقولنا لا شريك له ، وهكذا تكون عبارتنا عن التوحيد مُصَاحبة لنفي أي خاطر من الريب أو من الشك يمكن أن يَتَسلَّلَ لهذه الوحدانية وآيات القرآن كثيرًا ما تعرض الوحدانية في صيغ التوكيد والتقرير وأيضًا في صُحْبة الأدلة الظاهرة على تحققُها وراجع ما شئت من الآيات

تجد عائلة من المعاني تصاحب لا إله إلا الله وتؤكدها بكلام مباشر أو غير مباشر وذلك بذكر الصفات التي لا تكون إلا للواحد الأحد كملك السموات والأرض أو خلق السموات والأرض والقدرة على كل شيء ، والقيوم على كل شيء والحيّ الذي لا يموت ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نَوْم إلى آخره ، وهذه التأكيدات باللغة وبالأدلة المُقْنعة الظاهرة التي أسكنها القرآن في قلب كل من شهد الشهادتين ترسَّخَتْ الوحدانية ونُفِي عنها كل ريب وكل خاطر شرك حتى إن أكثر من انحرفوا عن جادة الحق وطريق الله المستقيم وفجروا وظلموا وغدروا وخافوا وسلبوا ونهبوا فعلوا كل ذلك وأكثر منه ولا تجد للتوحيد في قلوبهم خَلْطًا ولا اضطرابًا فمحمد عليه السلام نبي الله ورسوله ليس عليه إلا البلاغ وليس له من الأمر شيء والأمر كله لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ، وهذا من فضل الله وحراسته لهذه العقيدة الخاتمة والتي جعل وأقام حولها حرسًا من الأدِلَّة والبراهين التي لاتأذن بتسلل أي شائبة تكدرها . الوحدانية هي الكنز الذي لا نملك ما يَسُدُّ مَسَدَّه ، وإذا سكنت في القلب صار هذا القلب لا ينقصه خير وإذا خرجت منه أعاذنا الله لم يعد في هذا القلب خير ، وأنا شديد العناية بهذه المعاني القرآنية التي هي حَرَسٌ شديد تحرس هذه الوحدة في القلوب . وأجدها في آيات كثيرة مثل آيات العتاب كعبس وتولي وآيات المخاشنة مثل ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ ، هذا ونظائره وهي كثيرة في الكتاب العزيز تؤصل وتجذِّر في القلوب الفرق بين المقامين مقام الألوهية المهيمن ومقام النبوة المكرَّم والمبلِّغ .

قال النووي «هذا حديث عظيم الموقع، وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج من جميع مِلَل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها فاختصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين به جميعهم. وتسمِّي عيسى عليه السلام «كلمة» لأنه كان بكلمة (كن) فَحَسْب من غير أب بخلاف غيره من بني آدم قال الهروي: سُمِّيَ كلمة لأنه كان عن الكلمة فسميّ بها كما يقال للمطر رحمة قال الهروي وقوله (وَرُوحٌ منه) أي رحمة قال وقال ابن عَرَفة أي ليس من أب إنما نَفَخَ في أُمّه الروحِ وقال غيره وروح منه أي مخلوقة من عنده، وعلى هذا يكون إضافتها إليه إضافة تشريف كناقةِ الله وبَيْتِ اللهِ وإلا فالعالم له سبحانه وتعالى ومن عنده والله أعلم، انتهى كلام النووي.

ومن المفيد أن نذكر أن عيسى عليه السلام جاء بالتوحيد الخالص الذي جاء به الأنبياء جميعًا ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ وأنه عليه السلام أُرسل إلى بني إسرائيل وهم أهل التوراة التي هي هُدًى ونور وأنه عليه السلام جاء مبشرًا برسول يأتي من بعدُ اسمه أحمد وكان صلوات الله وسلامه عليه مَفْصِلاً من مفاصل النبوات واقعًا بين نبيين كريمين موسى عليه السلام ومحمد صلوات الله وسلامه عليه وَمَع جلال كل هذا تسلل الشرك إلى التوحيد الذي جاء به وقالوا المسيح ابن الله وقالوا الله ثالث ثلاثة، وهذا من وجوه الحذر حتى لا يقع ما كان من النصرانية في الإسلام ونحن نقول دائمًا عيسى عليه السلام كلمة الله ألقاها إلى مريم وروح منه وكأن هذه الكلمات نور تَتَسَلَّط على مواطن الاختلال التي أفسدت نبوة هذا النبي الكريم فلا يقع فيها أحد من أهل الإسلام.

وقد ذكر العلماء أن صيغة الشهادتين صيغة تَعَبُّدِيَّة يعني لا يجوز لأحد أن يتصرف فيهما فلا يجوز لك أن تقول أشهد أن محمدًا رسول الله وأنه لا إله إلا الله ، وهذا يعني أن ترتيب الشهادتين وصياغة معانيهما فيه شيء لا يجوز تغييره ، وهذا يوجب مراجعة ثانية لهذه الصّيغة التّعَبُّدية والذي ألحظه باختصار شديد هو تقديم العبودية على الرسالة في قولنا وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله يعني قبل أن أشهد أنه رسول حمل إلينا دين الله وبلّغه وأوجب الله علينا طاعته وقال لنا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول قبل أن أشهد بهذا الذي يرفع مقامه ﷺ عند ربه أشهد بأنه عبد من عبيد الله وكلنا لك عبد، وكل ما خلق الله فهو له سبحانه عبد ثم هو غني عن الشركاء فلا يجوز لمن كان عبدًا له أن يكون عبدًا لعبد وهذه هي أسمى غايات وصور حرية وكرامة من أيْقَنُوا أنهم عبيد الله لأنه يحرم عليهم أن يجعلوا نفوسهم عبيدًا لغيره سبحانه وإنما كل العباد سواسية لا فضل لعربي على أعجميٍّ إلا بالاستقامة التي هي التقوى ثم إن شهادتي بأن محمدًا عبد الله تأتي بعد شهادتي بأنه الواحد الأحد ، وأنا أعلم بما علمني ربي أنه سبحانه لم يخلق أكرم ولا أحَبَّ ولا أطهر منه صلوات الله وسلامه عليه وأنه خير ما خلق الله وما برأ وكل هذا حاضر في نفسي وأنا أشهد أنه عبد الله قبل أن أشهد له بالرسالة ، هذا شيء وقد قلت كثيرًا أن تنزيل الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على واقعنا وكأنها لم تنزل منذ أربعة عشر قرنًا وإنما نزلت اليوم وأقول إن هذا يكشف الأمر الإلهي فيها الذي أضاءتْهُ أحوال زماننا ، وهذا الحديث في ضوء هذه الحقيقة يقول لنا قد علم الله سبحانه أن دين المسيح ودين محمد عليهما السلام سَيَبْسطان سلطانهما على هذه الأرض وأنه سيكون تداخل شديد بين أهل الدينين ، وأن كثيرًا منهم سيخالط الكثير منهم وأن أهل الإسلام سيأخذون من أهل النصرانية آدابًا وفنونًا وعلومًا وسلوكًا وقيمًا

وهذا ما نراه إن حتى إن كثيرًا من أهل الإسلام يعيشون بيننا بقيم المسيحية وسلوكها وأعني أهل المسيحية لأن المسيحية براء من كثير مما يمارسون من ظلم وخطف وبطش ومفاسد أخلاق ومن هنا وجب التَّنبيه وتأكيد وبيان وإظهار ما فَسَدَ من العقيدة المسيحية وخطر زرع ذلك في قلوب أهل الإسلام حتى لا يأخذوا عنهم فساد الاعتقاد في الله وهم يأخذون عنهم ما يأخذون وهم يتبعونهم حذوك النعل بالنعل حتى لو دخلوا جحر ضب لرأيت منا من يدخلونه من ورائهم ، وقد صدق الله فلا تجد أكثر أهل الإسلام إيغالا في ثقافة النصرانية قد تسَلَّل إلى عقيدة التوحيد في قلبه شيء من دغل أو وَثَنيَّة النصرانية تلك الوثنية الحديثة جدًا والمتنوِّرة جدًا والتي تسكن في عقول من صَنَعُوا هذه الصنائع وأنتجُوا هذه المنتوجات . هذا والله أعلم .

أما ذكر الجنة والنار فإنه يوجب ذكر الإيمان بالغيب والإيمان بأحوال الآخرة كما وصفها الكتاب والسنة ابتداء من الموت وسؤال الملكين والبعث والصراط والميزان والحساب وكل أمة جاثية تُدْعي إلى كتابها ، والكتاب الذي ينطق بالحق والاستنساخ لأعمالهم وشهادة أيديهم وألْسِنتهم وجلودهم وأوصاف النار وأنهم يصطرخون فيها ومقامع الحديد التي يُضْربون بها والسلسلة التي ذرعها سبعون ذراعا وصفات الجنة والحوض كل هذا يجب أن نعتقده وأن نذكره ونذكر الله به ، وليس من حق أحد أن يصرف شيئًا منه إلى المجاز أو التمثيل ويجب أن نحذر من الانزلاق إلى القول بأنه عذابٌ بالروح لا بالجسد ونعيم بالروح لا بالجسد وأن الحشر حَشْر أرواح وليس حشر أجسام كما يقول الفلاسفة وأن ما تشتهيه الأنفس وتلذه الأعين هو كما جاء في الكتاب وأنهم يأكلون لحم طير مما يشتهون ويأكلون فاكهة مما

يشتهون وأنهم يتكئون على الأرائك وعلى السرر المرفوعة وأن الحور العين هن الحور العين كما يدل اللفظ من غير تأويل ولا صرف عن الظاهر وقد تأوله بعض المتنطسين وصرفوا اللفظ عن الظاهر وأعلم أن منهم من لا أشك في صدق نواياه ولكنه الوهم الذي لا يعري منه كثير من الناس ، كل الذي في الكتاب والسنة في شأن الآخرة حق وهو جزء من العقيدة وقد جمع الحديث كل ذلك وأكثر منه وقد أدرك النووي وغيره هذا وأكثر منه لما قالوا هذا الحديث عظيم الموقع وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد .

وقد قرأت رسالة الغفران لأبي العلاء مرات كثيرة وأنا معجب بما فيها من أدب وصور وخيال ولكن هذا شيء وما يجب أن يكون عليه الاعتقاد شيء آخر .

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ ذكر في حديث عبادة أن من زاد على الشهادتين بذكر عيسى عليه السلام والجنة والنار أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء وذكر في أحاديث الشهادتين فقط أنه دخل الجنة أو لا يحجب عنها وهذا يعني أن ذكر عيسى عليه السلام والجنة والنار فيه زيادة ثواب وزيادة إكرام .

وقد جاء في البخاري ومسلم أن للجنة بابا يدخل منه المصلون وبابًا يدخل منه الصائمون وهكذا وأن من كان من أهل الصلاة دخل مع أهل الصلاة ومن كان من أهل الصيام دخل مع أهل الصيام وفي هذا معنى كريم وهو أنك تلاقي المحبين للعبادة التي أَحْبَبْتَها وتميَّزْتَ بها وغَلَبَتْ عليك ولا شك أن من قُرة العين أن تجد نفسك مع من أحبوا ما أَحْبَبْتَ في الأجيال كلها والأمم كلها فصاحب الصلاة تقر عينه إذا وجد نفسه مع من ذاقوا لذة الصلاة حتى غلبت عليهم وصاحب الصوم تقر عينه إذا كان مع من

ذاقوا لذة الصوم فغلب عليهم ، وصاحب الفقه تقر عينه إذا وجد نفسه مع من غلب عليهم الفقه وشغلوا به وأضاؤوا بسهرهم وكدِّهم أي إضاءة تضيء طريق الأمَّة على شرع الله لا شك أن الفقية الصادق تَقَر عَيْنُه إذا دخل من الباب الذي دخل منه مالك وهو يحمل كتاب الموطأ أو دخل منه الشافعي وفي يمينه كتاب الرسالة وصاحب النحو تقر عينه إذا رأى سيبويه يدخل معه وفي يمينه الكتاب وصاحب التفسير تقر عينه إذا رأى الزمخشري وفي يمينه الكشاف وهكذا فإذا أحب أحدهم بابًا آخر لا يُحْجَبُ عنه لأنه يدخل من أي أبواب الجنة شاء ، ولابد أن نذكر أن ذكر الشهادتين مع ذكر عيسى عليه السلام كما جاء في الكتاب وذكر الجنة والنار هو من باب تأكيد معنى الوحدانية والشهادة بها والشهادة بنبوة محمد ﷺ وأن هذا التأكيد هو الزائد على ذكر الشهادتين وحدهما في الأحاديث التي لم تذكر عيسى عليه السلام والجنة والنار ، وذكر بعض العلماء أن ذكر عيسى والجنة والنار من باب الذكر الذي يزيد به الأجر وأن هذا القدر من الذكر هو القدر الزائد على الشهادتين وأن زيادة القبول المفهومة من قوله عليه السلام أنه يدخل من أي أبواب الجنة الثمانية شاء أصله زيادة الذكر على الشهادتين وإنما خصّ ذكر المسيح لأنه تأكيد على خلو الوحدانية من الشرك وخصّ ذكر الجنة لأن ذكرها يغري بالمزيد من الطاعة وخصّ ذكر النار لأن ذكرها يَرْدَع شهوات النفس ووراء هذا كله إشارة إلى أن زيادة الذكر قَلَّتْ هذه الزيادة أو كَثُرَتْ هي عند الله بمكان ، وأنه لا يضيع عنده مثقال ذرة من خير .

ولابد أن نذكر شيئًا وهو أنه يدخل الجنة من أي أبوابها شاء بعد مراجعة الأصل العام السابق والذي اتفقت عليه كلمة أهل العلم وهو أنه يدخل مع الداخلين أولا إذا لم يكن قد وقع في كبيرة لم يتب عنها ، أما من كان كذلك

فإن أمره متروك إلى المشيئة إن شاء غفر الله له وأدخله مع أول الداخلين أو عاقبه ثم دخل من أي أبواب الجنة شاء .

وقد ذهب البعض إلى التسوية بين من لقي الله بالشهادتين ومن لقيه بالزيادة المذكورة في حديث عبادة ، وسوًّى هذا البعض بين « دَخَلَ الجنة » « وأدخله الله من أي أبواب الجنة شاء »، وخصوصًا أن كل من دخل الجنة يدخلها من أي باب شاء وأنه لا جبر في ذلك .

واعترض الإمام عبد الله الأبي على التسوية ، وقال : « قلت فلا يبقى للذكر إذن فائدة لأن من لم يقله فهو أيضًا في المشيئة » انتهى كلام الأبي ومعناه الاعتراض على التسوية في العمل لأن ذكر المسيح والجنة والنار ذكر زائد على الشهادتين ولا يجوز إغفاله ، ثم قال : وأن القاضي عياض أقرها على الظاهر وقال في هذا إنه يدخلها ابتداء إما لأن ما أضافه إلى الشهادتين من أمر عيسى كفّر عنه ، أو كثّر أجره ، حتى رجحت حسناته » .

قلت ولا شك أن عرف اللغة يقول إننا لو قلنا إن فلانًا يدخل دار فلان من أي باب شاء دل ذلك لا محالة على مزيد قربه وأن فرقًا لا يجوز إهماله بين هذا وبين قولنا فلان يدخل دار فلان ، وهذا قاطع في أن ذكر عيسى والجنة والنار مع الشهادتين فيه مزيد قبول ومزيد رضا .

بقي في الحديث كلمة ذكرها القرطبي ، وكلامه لا يُغْفَلُ ، قال رحمه الله : في تعليقه على دخول الجنة من أي باب شاء (ظاهر هذا يقتضي أن قول هذه الكلمات يقتضي دخول الجنة والتخيير في أبوابها ، وذلك بخلاف ما ظهر من حديث أبي هريرة الآتي في كتاب الزكاة فإن فيه ما يقتضي أن كل من كان من أهل الجنة إنما يدخل في الباب المتعيّن للعمل الذي كان

يعمله غالبًا فإنه قال فيه فمن كان من أهل الصلاة دُعِيَ من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دُعِيَ من باب الصيام وهذا الجهاد ، والتوفيق بين الظاهرين أن كل من يدخل الجنة مُخيّر في الدخول من أي باب شاء غير أنه إذا عرض عليه الأفضل في حقه دخل منه مختارًا للدخول منه من غير جبر عليه ولا منع له من الدخول من غيره ولذلك قال أبو بكر رضي الله عنه ما علَي من يُدْعى من تلك الأبواب من ضرورة . والله أعلم .

والرواية الثانية فيها « أدخله الله الجنة على ما كان من عمل ولم يذكر من أي أبواب الجنة شاء» .

ويلاحظ أن أدْخَلَه الله الجنة فيها معنى زائد عن دخل الجنة ، وكأن الله سبحانه وتعالى بجلاله وكماله أخذ بيده تكريمًا له وأدخله الجنة ، وفرق بين دخل دار فلان وأدخله فلان داره ، الثانية من الجملتين فيها معنى زائد هو من باب شدة العناية به والحفاوة به ، وهذا ظاهر وقوله على ما كان منه من عمل : معناه مع ما كان منه من عمل ، وكلمة (عمل) هنا وإن كانت تحتمل عملاً حسنًا أو غير حسن إلا أن السياق يميل بها أكثر إلى ناحية العمل غير الحسن وأن كلمة الاستعلاء (على) التي جاءت مكان كلمة مع ، تشير إلى معنى التجاوز وضرب الصفح والاستعلاء على خطاياه إن كانت ، ولا زلنا نقول إنه صَادَقَهُ على ما كان منه أعني متجاوزًا ما كان منه أو صاهره على ما كان منه ، ونقول أيضًا إن قادة البلاد قاربوا الصهيونية على ما كان منها من دفن أبناء مصر وهم أحياء ، وهذا واضح إن شاء الله وترى أن جملة على ما كان من عمل أظهر في دلالتها على التقريب والتكريم من جملة أدخله الله الجنة من أي أبوابها الثمانية شاء لأننا لا نعرف تفاوتًا بين أبواب الجنة

الثمانية ولأن من وصل إلى عتبة الجنة فله ما تشتهيه نفسه ولأن كل أبوابها مُزْلفة إليها والأمر كما قال الأول :

خُذَا بَطْنَ هَرْشَي أو قَفَاه فإنه كِلاَ جَانِبيَّ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقٌ

ولأن من دعي إلى باب من أبواب الجنة وأراد أن يدخل من غيره فلا ضرر عليه أن يدخل من غيره وأنه لا جبر وإنما المطلوب من جملة من أي أبواب الجنة الثمانية شاء هو التكريم والتقريب وأنه تستقبله أبواب الجنة الثمانية كما نقول مثلاً للعرب المسلمين ادخلوا مصر من أي باب شئتم ، وهذا بخلاف على ما كان من عمل لأنها ظاهره في معنى التجاوز والصفح وإهمال النظر في أي إساءة كانت منه ، فهذه العبارة مع التكريم فيها وعد بالعفو والمغفرة والعبارة الأولى تكريم فحسب ، ولا يجوز أن ننسى أن كل ذلك مشروط بالذي سبق من التوبة أو ترك الأمر إلى المشيئة أو أنه يدخل مع الأولين أو بعد العقوبة لأن هذه حقائق تظاهرت الأدلة من الكتاب والسنة عليها وعليها يُحْمَلُ كل ما خالفها في الظاهر . والمقصود من هذه الأحاديث هو بيان أن من لقي الله وفي صحبته لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدًا عبدك ورسولك وأنك تعاليت عن الصاحبة والولد ، وأنك لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفوًا أحد وأن وعدكَ حق وأن الجنة حق وأن وعيدِك حق وأن النار حق أقول من لقي الله بهذا فلن يحجبه عن الجنة خطأ وهو مظنة أن يكون من أهل المغفرة ، وأهل الكرامة والله أعلم . وقد روي البخاري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : « يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير ، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرَّة من خير ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرّة من خير » .

روى مسلم بسنده عن الصُّنابجي عن عبادة بن الصامت أنه قال دخلت عليه وهو في الموت فبكيْتُ فقال : مَهْلاً ، لِمَ تبكي فوالله لئن استُشْهِدْت لأشهدنّ لك ولئن شُفِّعْت لأشفعنَّ لك ، ولئن استطعت لأنفعنّك ، ثم قال : والله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكُمُوه إلا حديثًا واحدًا وسوف أحدثكموه اليوم ، وقد أحيط بنفسي : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله حرّم الله عليه النار ».

وعبادة بن الصامت سيد الخزرج شهد العقبة الأولى والثانية وبدرا والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وكان طويلاً جسيمًا جميلاً فاضلاً توفي سنة أربع وثلاثين ودفن ببيت المقدس .

والنقباء هم الذين تقدموا لأخذ البيعة ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلاً وهم العصابة المذكورة في حديث عبادة في قوله الذي رواه البخاري قال رسول الله ﷺ وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا ولا تَسْرِقوا ولا تَزْنُوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببُهتانٍ تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف فمن وفّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه فبايعناه على ذلك» .

والصُّنابجي الذي رَوَى عن عبادة هو أبو عبد الله عبد الرحمن بن عُسيلة المرادي وصنابح بضم الصاد بطن من مراد قال النووي وهو تابعي جليل رحل إلى النبي ﷺ فقُبض النبي ﷺ وهو في الطريق وهو بالجُحفة قبل أن

يصل بخمس ليالٍ أو ست فسمع أبا بكر الصديق وخلائق من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وقول سيدنا عبادة : « دخلت عليه وهو في الموت فبكيت » هذه من الجمل التي أجد لها مذاقًا حسنًا وأشعر بحرج من التعليق عليها لأن الأكرم أن يراجعها القارئ وأن يضع عليها ذائقته البيانية التي فطره الله عليها ، حتى لا يجد لها ما تحسه ذائقته فقط وإنما يجد لها ما يدركه قلبه وعقله وما يقع في فؤاده من أحوال الحالة التي كان عليها سيدنا عبادة وهو ينطق بها ، ولاحظ أن الضمير في قوله (دخلت عليه) ليس له في الكلام ما يعود عليه لأن كلمة دخلت هي ابتداء الكلام وإنما جاء الكلام على ما جاء عليه إما لدلالة السياق كما في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ أعني الشمس وإما لأن مرجع الضمير غير المذكور في اللفظ هو قائم في النفس وحاضر فيها حضوراً يُغْنِي عن حضوره في اللفظ يعني هو حاضر في القلب حضوراً يُغْني عن حضوره في اللسان ، وهذا معنى لطيف يدركه ذو الأفهام .

وقوله رضوان الله عليه (وهو في الموت) المراد أنه يوشك أن يكون في الموت وليس أنه كان في الموت لأن الذي في الموت لا يقول لعُبادة ما قاله رسول الله ﷺ ، والتعبير بما هو كائن عن الذي سيكون لأنه لا شك في أنه سيكون كثير جدًا ومنه أتى أمر الله وهو سيأتي وسيق الذين اتقوا ربهم وهم سيساقون ووضع الميزان وهو سيوضع إلى آخره ، وكل ذلك من وضع الماضي موضع المضارع . والذي معنا هو منه في المعنى وليس منه في اللفظ لأن جملة وهو في الموت هي التي وضعت موضع المستقبل الذي هو سيكون في الموت وهذا من المجاز المرسل وموضع المجاز هو كلمة (الموت) لأنها وُضِعَتْ مَوْضِعَ مُقَدِّمات الموت أعني وضع الموت موضع

مقدماته للدلالة على وقوعه لا محالة وكأن المقدمات هي الموت ، وفضل هذا المجاز هو أن سيدنا عُبادة أفاد أنه رأى رسول الله ﷺ في الموت وليس في مقدمات الموت لما تغَشّاه رضوان الله عليه من هول اللحظة ما تَغَشّى ، وهذا المعنى القلبي الذي وراء هذا التركيب اللفظي هو الموجب لما جاء بعده من قوله (فبكيت) مقترنًا لفظ بكيت بالفاء الدالة على أن أول البكاء كان في آخر الدُّخول والرؤية وأنه ما إن رآه رسول الله ﷺ وهو يبكي إلا قال له (مهلا لم تبكي) وهذه الفاء في مثل هذه المواقع التي تصل الأحداث بعضها ببعض حتى تكون كأنها حَدَث واحد ؛ لها أثر ظاهر في تجويد الكلام وصقله وبلاغته ونبله وهي من الذي لا يقع على وجهه الآبَيَن إلا في كلام من أوتوا طبعا في فصاحة الكلام ، وكان ابن رشيق يَرَاها سَمْتًا من سَمْت الكلام الأول وأنها كانت موضع صقل وتثقيف عند أصحاب البيان الأول ولم تكن عنايتهم بالبديع كعنايتهم بها وأن المولّدين كانت عنايتهم بالبديع وكأنه يرشدنا إلى التّعرُّف على طبائع البيان في أطواره المختلفة وأن لكل طور ضروبًا من العناية بوجه من وجوه بلاغة البيان ، وهذا مما لم يدرس الدراسة الكافية .

وقوله عليه السلام « مَهْلاً لِمَ تَبكِي» جملة فيها إيجاز شديد ومسارعة ومعاجلة في تهدئة خواطر عُبادة رضي الله عنه ، ويظهر هذا في أول الجملة لأن كلمة « مهلا » مصدر سدّ مسدّ الفعل ومعناها انتظر أو أنظرني قال النووي « مهلاً » بإسكان الهاء ومعناه أنظرني قال الجوهري يقال مَهْلاً يا رجل بالسكون وكذلك للاثنين ، والجمع والمؤنث وهي موحدة بَمْعنَى أمهل . فإذا قيل لك مهلا قلت لا مَهَل والله . وقوله عليه السلام (لم تبكي؟) استفهام المراد به الإنكار والإنكار ليس موجهًا إلى البكاء وإنما مُوَجَّهٌ إلى

الذي دعاه إلى البكاء بدليل الكلام الآتي «لئن استشهِدْتُ لأشهدن لـك» إلى آخره وإذا كان الإنكار موجهًا إلى سبب البكاء كان موجهًا إلى البكاء بطريـق الأولى والمقصود نفي الانبغاء أي ما كان ينبغـــي أن تبكـي للـذي ستسـمعه مني ، ولـيس في هـذا الإنكـار أي شـائبة مـن التـوبيخ وأن تسـميته في كتـب البلاغة إنكار توبيخي تسمية بُنِيَتْ عـلـى الأغلب ، ويـلاحـظ أن سيدنا عُبـادة لم يتكـلـم مـــع رسول الله ﷺ كلمة واحدة وإنما دخل عليه فرآه في المـوت فبكى فتكلم رسول الله ﷺ ثم حكى لنا عبادة ما سمعه من رسول الله ﷺ ثم قال ما قال . وقد وَدِدْتُ لو جمعت كلام رسول الله ﷺ لمـا حضـره المـوت ولو جمعت كلام أبي بكر لما حضره الموت وكلام عمر لما حضره الموت وكلام عثمان وما أمكن جمعه من كلام الصحابة والتابعين ومـن تـبعهم مـن علماء الأمة وأهل الصلاح فيها لأتعرف على الذي جرى في قلوبهم وهم في هذه اللحظات التي يُوَدِّعون فيها الدنيا . وما هو الهمّ الذي كان غالبًا عليهم ، وقد لفتني إلى ذلك حديث أبي بكر مـع عبـد الـرحمن بـن عـوف وهـو في مرضه الذي مات فيه ولم يحضره إلا همٌّ واحد وهو خوفه على هـذه الأمـة وهي تنتقل من طور إلى طور ، وهذا الحديث من تلك الأحاديث التي وَدِدْت جمعها لأن عبادة رضي الله عنه يحدث به وقد أُحيط بنفسـه ، ويحـدث بمـا سمعه من رسول الله ﷺ وهو في الموت ، وقبل أن أحاول بيان علاقـة كـلام سيدنا رسول الله بقوله لعباده (لم تبكي) أحلل لغة رسول الله ﷺ لأنها بُنِيَـتْ على التوكيد ، راجع قوله عليه السلام «فوالله لئن استُشْـهِدْت لأشْـهَدنَّ لـك ، ولئن شُفِّعَتُ لأشفعنّ لك ، ولئن استطَعْتُ لأنْفعنّك .. وأول ما فيه هـو هـذه الفاء الداخلة على لفظ الجلالة والتي تربط هذه الجملة وما عطف عليها التي هي نهاية كلام رسول الله ﷺ لصاحبه عبادة بن الصامت بقوله مهلا لم تبكـي

وجعلت الكلام كله كلامًا واحدًا ثم القسم بلفظ الجلالة المستحضر الكمالات المطلقة ثم القسم في لحظة الموت ثم اللام التي في قوله لئن شفعتُ وهي أيضًا لام القسم ثم تكرار كل هذه العناصر في الجملتين الباقيتين واحذر أن يكون هَمُّك هو بيان هذه العناصر المؤكدة وأن يشغلك ذلك عن الذي جرى في نفس رسول الله ﷺ حتى بَنى كلامه على ذلك لأنه إذا كان قولنا هذا توكيد كلاما مُهمًّا فإن الذي أهم منه بيان الذي جرى في القلب فأنتج هذا التوكيد ، ولا أستطيع أن أحَدّد الذي جرى في النفس وأنتج التوكيد وإنما بقدر ما أُوَفّقُ إليه من دلالة اللغة والظاهر أن سيدنا رسول الله ﷺ أراد أن يفيض على سيدنا عُبادة بمعاني حبه له وحرصه عليه وأنه لا يدع شيئًا ينفعه في آخرته إلا فعله له ، وأنه عليه السلام في هذه اللحظة ، يَسْبق إلى الآخرة وأنه عليه السلام إذا استطاع النفع فيها سيعمل ما ينفع الصالحين من أمته . ثم يلاحظ أن هذا الأسلوب بنى على الإيجاز كما بني الذي قبله من قوله مَهْلاً لم تبكي ، وذلك لأنه عليه السلام يبادر بما يملك من بشارة عُبادة ولأن المقام مقام حضرة الموت ، ثم إن الإيجاز في أسلوب اجتماع الشرط والقسم ظاهر في أنه طريق يُدْمِجُ بين طريقين الشرط والقسم ، ولكل منهما جواب ولا يجوز أن تذكر الجوابين ما دمت جمعت بَيْنَهما بقولك «لئن» وإنما تحذف جواب أحدهما لدلالة الآخر عليه ، وهذا راجع لك فإن كان القسم عندك هو الأهم ذكرت جواب القسم ، وحذفت جواب الشرط ، وإن كان الشرط الذي هو تعليق الجواب على الشرط هو الأهم ذكرت جواب الشرط وحذفت جواب القسم . وسيدنا رسول الله ﷺ هنا آثر جواب القسم لأن القسم المؤكد لجوابه هو الأهم ثم إنه أكد جواب القسم بمؤكدين اللام ونون التوكيد وتكرر ذلك في الجمل الثلاث «لأشهدنّ

لك .. ولأشفعنّ لك .. لأنفعنك»، ومَرّة ثانية راجع تكاثر عناصر التوكيد لتُطِلَّ من خلالها على حرص سيدنا عليه السلام على توكيد هذه المبشرات لسيدنا عُبادة رضي الله عنه ، وحسبي أن أقول لك إني لا أعرف أن اجتماع القسم والشرط يؤكد بأكثر من ذلك ، وهل لو جمعت الأساليب التي تكاثر فيها التوكيد في كلام رسول الله ﷺ هل نجد فيها أكثر من ذلك ؟ هذا شيء ، وشيء آخر هو أن أداة الشرط التي يجتمع معها القسم هي كلمة (إن) وهي للشرط غير المقطوع به أو الذي يقع نادرًا ، كما في قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ ﴾ قالوا جاءت الحسنة مع إذا لأن مجيء الحسنة يكثر وجاءت السيئة مع إنْ لأن مجيء السيئة يقل ، وتأكيدات سيدنا رسول الله ﷺ ليست داخلة على الشرط الذي هو غير متوقع وإنما داخلة على الجواب المترتب على هذا الشرط وأن التأكيد منصب على وقوعه قطعًا فلو قلت والله إن جائني زيد لأعطينّه ، التأكيد تأكيد للعطاء لو جاء وليس توكيدًا لوقوع الشرط لأن الشرط مشكوك فيه ، والتوكيد في كلامه عليه السلام توكيد لشهادته عليه السلام لعُبادة لو استُشْهد صلوات الله وسلامه عليه وتوكيد شفاعته عليه السلام لعُبادة لو شُفع عليه السلام وتأكيد نفعه له لو استطاع نَفْعَه . وهذا ظاهر ، ومثل هذا مما يحتاج إلى مراجعة قوله تعالى على لسان إخوة يوسف عليه السلام ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ﴾ بقيت زمانًا وأنا أسأل كيف أدخلوا همزة الاستفهام التي يراد بها الاستفهام الحقيقي على جملة مؤكدة بمؤكدات كثيرة تفيدُ أنهم يعرفون أنه يوسف ؟ راجع إن واللام إنك لأنت يوسف ، والحقيقة أن السؤال ليس استفهامًا حقيقيًا وإنما هو استفهام المراد به التقرير ، لأنهم استيقنوا أنه يوسف لما سمعوا منه ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ وقد فهم يوسف

أن الاستفهام للتقرير فقال أنا يوسف وهذا أخي ، وقد التبس ذلك عليّ زمانًا وهو ظاهر جدًا ولكن الوهم لا يعرى منه أحد ، والذي لابد من النظر فيه أن رسول الله ﷺ قال « لئن استشهدت ولئن شُفِّعتُ ولئن استطعت فأدخل حرف الشرط المشكوك فيه على الاستشهاد وهو مقطوع به لقوله تعالى ﴿ لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ وعلى الشفاعة وهي مقطوع بها لأنه عليه السلام الشافع والمشفع وعلى النفع وهو مقطوع به لأنه صاحب الحوض المورود صلوات الله وسلامه عليه فما وجه ذلك ؟ والوجه الذي أعرفه أن حرف الشرط (إن) جاءت في الكلام العالي داخلة على المقطوع بوجوده كما في قوله تعالى ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ ، وريبهم في الذي أنزله الله مقطوع به ودخلت على المقطوع بعدمه كما في قوله ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ وهذا مستحيل ، ولها في كل ذلك دلالات . درست في مواضعها ، ودلالتها هنا هو أن هذه الثلاثة الشهادة والشفاعة والنفع لعلوِّ منزلتها صارت كأنها بعيدة المنال ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ وتوبتهما مقطوع بها ومجيء المقطوع به هنا شرطا لكلمة « إن » غير المقطوع بها للإشارة إلى أن التوبة بعيدة المنال لما يجب أن يتوفر فيها . هذا والله أعلم .

وظاهر هذا الحديث أنه عليه السلام لو استشهد لشهد لمن يرضاه ولو استشفع لشفع لمن يرضاه ولو استطاع أن ينفع لنفع من يرضاه وأن عموم شفاعته وشهادته ونفعه إن كان فله دليل آخر ، ويلاحظ أنه عليه السلام ذكر لو استطعت لأنفعنك في آخر هذه الموعدات ، لأنها عامة وشاملة لكل وجه من وجوه النفع ثم هي أيضًا تشمل الشهادة والشفاعة وكأنها تأكيد لهما ، والآن ما علاقة هذه البشارات ببكاء عبادة رضوان الله عليه ؟ ظاهر هذا يفيد

أن عباده كان يبكي لانقطاع نفع رسول الله ﷺ له وأنه كان عليه السلام وهو حيّ يحوطهم بهدَيْه ونُصْحِهِ وموعظته وكأنهم كانوا في مأمن معه وكان هو عليه السلام أمَانًا لهم ، ولقد خَلَعَهُمْ ﷺ من جاهلية كانت تُدَاخِل قلوبهم وهم فيها فلما عاشوا النور الذي نقلهم عليه السلام إليه صَارَتْ أبْغَض شيء لهم وصارت مخوفة وصاروا يكرهون العودة إليها كما يكرهون أن يقذفوا في النار ، وها هو الذي انتقل بهم هذا الانتقال العظيم يعالج كُرْبَة الموت وقد كان جدارًا بيننا وبين هذه الجاهلية وها هو الآن يسقط هذا الجدار وليس هذا تصويرًا مجازيًا ولكنه الحقيقة بدليل موجة الردَّة التي اجتاحت البلاد بعد موته ﷺ ، ثم إن عُبادة وغير عبادة من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يحبونه أكثر من أنفسهم وكانوا كما قال أبو سفيان رضوان الله عليه ما رأيت أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا . وهذه وحدها كافية في سبب بكاء عُبادة وغير عبادة ، وقد ضجَّت المدينة بالبكاء يوم وفاة أبي بكر فكيف بوفاة رسول الله ﷺ،وكل هذا وغيره مما يمكن أن يقال في سبب بكاء عبادة، وقد ذكر الإمام أبي عبد الله الأُبي التونسي لمحة في بيان أسباب بكاء عبادة : قال رحمه الله : قلت يحتمل بكاءه أنه لما رأى من كرب الموت أو لأنه لفقد الانتفاع به والأظهر أنه لذكر القدوم على الله تعالى لأنه المناسب لتسليته بما ذكره» انتهى كلامه .

واللمحة التي أردتها في كلام الإمام الأبي هي الجملة الأخيرة لأنها تفيد أن رسول الله ﷺ أدرك سبب بكاء عبادة وأنه من خوفه الموت وقدومه على الله تعالى وخوف عذابه فسلاَّهُ ﷺ ووعده بما وعده به ليزيح عن نفسه الخوف من الموت والرجوع إلى الله وفقدان الأمن والرحمة بين يديه ومهما كان لعبادة وغير عبادة من مناقب فإنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم

الخاسرون وكان أبو بكر لا يأمن ولو كانت إحدى قدميه في الجنة وهو الذي ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل منه إلا أن يكون نبيًا .

ثم إنه عليه السلام بهذا الدعاء في هذه اللحظات التي هو فيها عليه السلام في الموت يعلمنا الوفاء ويعلمنا ألا نَنْسَى معروف من له معروف ولو كان قد انتفع بهذا المعروف أكثر ما نفع فقد آوى الأنصارُ ونصرُوا وأحَبُّوا من هاجر إليهم وآثروا على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، وقد انتفعوا بهذا أبلغ النفع لأنهم خرجوا من وثنيَّتهم ودخلوا في دين الله ، ولكن رسول الله ﷺ يعلمنا أن لا ننسى معروف من له المعروف ولو انتفع بمعروفه كما قلت ، فلما دعا لعُبادة ووَعده بالشهادة والشفاعة وأن ينفعه ما استطاع كأنه يقول له من وراء كل ذلك لا أنْسَى أنك بايعت البيعتين وبايعت على النصرة في المنشط والمكره ووفيت ولا أنْسَى أنك شهدت بدرًا وشهَدْتَ معي المشاهد كلَّها وفعلت كل ما فعلت على الوجه الأكمل ، والأفضل ، ولك عليَّ عرفان وكفاء وثواب من آذر وآوى ونصر وجاهد لك عندي ثواب كل ذلك ما استطعت على الوجه الأكمل والأفضل وكأنه عليه السلام وهو في كُرْبَةِ الموت يستحضر لعبادة قصته مع رسول الله ﷺ من ليلة العقبة الأولى التي كانت أول لقاء إلى آخر لحظة الوداع ويقول له كنت بين هذين الطرفين نعم الرجل ونعم الوفيّ ونعم الظهير ، ويقول له عليه السلام لست وحدك في هذا وإنما كلكم أيها الأنصار وقد سمعت مني يا عُبَادة أنني قلت لولا الهجرة لوددت أن أكون امرءًا من الأنصار وقد تركت في الأمة وصية بحبكم ، وأن حبكم من حبيّ وأنه لا يكرهكم إلا منافق ، ولا تزال الأمة إلى هذه الساعة آخذة بوصية رسول الله ﷺ ، وإذا كان الأنصار نعم الناس فأنت سيد فيهم وكان الناس ولا يزالون يسوّدون أكرمهم أخلاقًا

وأكثرهم مروءة وأسرعهم نجدة وأسبقهم إلى المكرمات ولم يسوّدوا جلادًا ولا قتّالا ولا نهّابًا ولا غادرًا ولا خائنًا .

قوله ثم قال : « والله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه ، إلا حديثًا واحدًا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من شهد أن لا إله الله وأن محمدًا رسول الله حرم الله عليه النار » .

هذا هو كلام عبادة في هذا الحديث والذي مضى منه ليس له فيه شيء إلا أنه بكى فقال له رسول الله ﷺ ما قال وهو القسم الأول من هذا الحديث والذي بين أيدينا الآن هو القسم الثاني وبينهما أكثر من عشرين عامًا لأن القسم الأول كان لما حضر الموتُ رسول الله ﷺ وهذا القسم لما حضر الموتُ عُبادة رضوان الله عليه ، وقد توفي عبادة سنة أربع وثلاثين يعني بعد موت وفاة رسول الله ﷺ بأكثر من عشرين سنة ، عاش خلالها يحفظ ما سمع من رسول الله ﷺ ولا يحدِّث به لأنه لا يرى في الحديث به خيرًا ، لأنه لا يحثُّ على فعل شيء ولا يكف عن فعل شيء وربما اتكل بعض من يسمعونه وهذا الحديث ومثله مما لا يكلَّم به العامة وقد ذكر من يؤخذ عنهم العلم أنه من الأسرار الإلهية التي يحدّث بها الخاصة فقط . وقد كنت على أن أسكت عن هذه الأحاديث لهذا المعنى ولكنني رأيت أنها من البلاغ وحسبي أن أوُصي من يقرؤها في كتابي ألا يحدّث بها العامة حتى لا يتكلوا ولا يفهموها على وجهها لأن وجهها الذي تقدم يَنْفي الاتكال لأنه إن كان لم يذنب فأمره ظاهر أو أذنب وتاب توبة نصوحًا أيضًا فأمره ظاهر وإن أذنب ولم يتب فأمره متروك للمشيئة إن شاء الله غفر له وإن شاء عاقبه ومعنى حُرّم على النار أي حُرِّم على الخلود فيها ، وانتهى الأمر .

وأريد أن أعود إلى لغة عبادة وأقرأ قوله « والله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه» نجد هذه الجملة تنادي على نفسها بأنها من الكلام الأول ، لأن سمتها سمت ، يظهر لك في بنائها على الإيجاز الشديد وفي ابتدائها بكلمة (من) الزائدة التي تأتي لتدل على الاستقصاء وأنه ما من حديث سمعه إلا بلغه ومن الزائدة هذه كانت تكثر في الكلام الأول لأنها تعني عناية المتكلم بضبط معناه بدقة شديدة ثم إنك تجد هذا السمت أيضًا في كلمة (حدثتكموه) وهي مكونة من فعل هو حدث وفاعل هو المتكلم ومفعول أول هم المخاطبون ومنهم أنا وأنت والمفعول الثاني وهو الضمير العائد على الحديث وقلما تجد هذا في كلام بعد كلام الجيل الأول وإن كان هذا التركيب قليلاً في الشعر ولم أذكر أني قرأته في شعر جاهلي وإن كنت أزعم أني قرأت دواوين الطبقة الأولى قراءة كاملة ثم قرأت الكثير من شعر غيرهم ، ولعلها لم توجد في الشعر لأن حركاتها وسكناتها لم تتوافق مع وزن الشعر كثيراً .

وقوله رضي الله عنه (لكم فيه خير) احتراس حسن جدًّا حتى يتوافق ما جاء بعده من استثناء حديث لم يحدثنا به لأنه ليس لنا فيه خير ، والمراد بالخير هنا النفع في العبادة يعني فيه افعلوا كذا ولا تفعلوا كذا أما الخير العام فكل ما جاءنا عن رسول الله ﷺ فيه خير .

وسيدنا عبادة يُعَلِّمنا في هذا شيئًا نافعًا جدًّا وهو أنه لا يجوز أن تختزن في نفسك كلمة فيها لأمَّتك ولشعبك ولقومك خَيْرٌ وأن أي فكرة أو أي كلمة تضيء إضاءة ولو كانت كإضاءة شَمْعة ضئيلة فبادر بها هكذا أنت وهكذا أنا وهكذا هي وهو كلنا يحدث بما يكون لنا فيه خير ، وكلنا يُضيء إلى كلِّنا وهذا من أوفى ضروب الرقيِّ الإنساني لأنه يُلغى الثرثرة من حياتنا

لأن شرط ما يجب أن أقوله أن يكون فيه خير ، والثرثرة لا خير فيها ، ثم إنها تُلْغي الكلمة المنافقة والكاذبة من باب أوْلَى وتفتح كل باب للقول السديد الذي يصلح الله به أعمالنا ، هذا ثم إنها توجب علينا أيضًا أن نقف وقفة جامعة وحاسمة في وجه أي نظام يَحْبِسُ في صدورنا كلمة الحق والخير والصواب ، ويُرْغِمُنَا على أن نقول ما يريد ولو كان الذي يريده كذبًا ومَيْنًا ، وهكذا تجد سيدنا عبادة وهو على فراش موته يُذَكِّر . ويذكِّر بأنه ما سمع من رسول الله كلمة فيها خير إلا بلَّغها ووراء ذلك ما وراءه وإنما ذكرت شيئًا مما وراءه .

وقوله « إلا حديثًا واحدًا» استثناء متصل والمستثنى منه مذكور هو قوله ما من حديث سمعته ولهذا نُصِبَ المستثنى ، وهذا الحديث الواحد لم يحدث به لأنه لم يَرَ فيه خَيْرًا وهو الآن يحدِّث به حتى لا يموت وفي صدره شيء سَمِعه من رسول الله ﷺ لم يبلغه وأقرأ وراء ذلك شيئًا وهو أن سيدنا عُبادة يفتش في صدره وهو على فراش موته عن كلمة طيبة يحدث بها قومه وكأنه يقول لنا لا تدخلوا قبوركم وأنتم تكتمون حكمة طيِّبة تنفع أوطانكم وشعوبكم وأمتكم الإسلامية الكبيرة التى يجب أن تكون غالية عليكم . انثروا كل ما في صدوركم لعلّه يضيء خيرا لأبنائكم وأجيالكم ، وكأنه من جهة أخرى يقول لمن يَتَفرّغون إلى كتابة مذكراتهم في آخر حياتهم من الساسة وغيرهم الذين لَعِبُوا على مسرح الأحداث ألاعيب . الله يعلم بصوابها وخطئها يقول لهم اكتبوا في مذكراتكم الحق والصدق حتى لا يضلَّ بها من بعدكم ، وقوله « وسوف أحدثكموه الآن وقد أحيط بنفسي» كلمة أُحَدِّثَكُموه ترجع إلى أختها « حدثتكموه» ليشيروا معًا إلى سمت الكلام الأول ، وليستدعيا أُختًا لهما ثالثة هي في المصحف (أنلزمكموها) وأنتم لها

كارهون ، ورحم الله شيوخنا فقد كان أحدهم ينطقها لنا ويمد شفتيه ويقول لنا في ثقل النطق بها إشارة إلى ثقل الإلزام . وجملة « وقد أُحيط بنَفسِي » جملة تتقاطر منها معاني كثيرة ومختلفة ففيها شوب من ألم الفراق وشوب من خوف الموت وشوبٌ من رجاء الإفلات منه ، ولكنه أحاط إحاطة من لا فكاك منه وشوب من ذكر الأحباء الذين سَيُفَارِقَهم والذين لا يملك أن يضع في أيديهم شيئًا إلا حديثًا واحدًا سمعه من رسول الله ﷺ وسكت عنه أكثر من عشرين سنة لأنه لا نفع لهم فيه وها هو الآن يقوله لهم وكأنه آخر ما في نفسه مما يراه خيرًا لأُمَّته الذين منهم أنا وأنت ورضي الله عنهم أجمعين .

وجملة « وقد أحيط بنفسى » جملة حالية فيها أشياء تدل على شدة عناية سيدنا عُبادة بمعناها ، منها التأكيد بكلمة « قد » ومجيء واو الحال الدالة على أن هذه الحال توشك أن تخرج من التبعية للخبر الأول وأن تكون خبرًا وَحْدها لأن هذه الواو وإن سُمِّيت واو الحال فإن معنى العطف فيها لا يَعْرى عنها ، ومنها البناء للمجهول في قوله « أحيط » ومعناه أن الذي أحاط لا يستطاع دفعه ثم كلمة الإحاطة وما تشربته في الاستعمال من قولهم أحاط بهم العدو ، وأحاطت به خطيئته ، وكل ذلك وراءه ما وراءه وإنما نفتح باب الوصول إلى شيء من الذي وراءه . هذا والله أعلم .

ومن أحاديث هذا الباب ما رواه مسلم بسنده عن أنس بن مالك عن معاذ ابن جبل قال : « كُنْتُ رِدْفَ النبي ﷺ ليس بَيْني وبَيْنَه إلا مُؤخَرة الرَّحْل . فقال يا مُعَاذ بن جبل قلت لبيك رسول الله وسَعدَيْك ثم سَارَ سَاعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك رسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ثم قال يا مُعَاذ بنَ جَبَل قلت لبيك رسول الله وسعديك قال هل تدري ما حَقُّ اللهِ

على العبادِ ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك رسول الله وسعديك قال هل تَدْرِي ما حَقُّ العباد على اللهِ . إذا فعلوا ذلك ؟ قال قلت الله ورسوله أعلم . قال أنْ لا يُعذّبهم».

وروى مسلم هذا الحديث عن معاذ بطريق آخر عن عمرو بن مَيْمُون عن معاذ وفيه أن رسول الله ﷺ قال «يا معاذ تَدْرِي ما حقُّ الله على العبادِ وما حق العبادِ على الله قال قلت الله ورسوله أعْلَمَ قال فإن حقَّ الله على العِبَادِ أن يَعْبدوا اللهَ ولا يُشركوا به شيئًا وحقُّ العباد على الله عز وجل أن لا يُعذِّب مَنْ لا يُشْرِكْ به شيئًا قال قلت يا رسول الله أفلا أُبشّرُ الناس ، قال لا تبشرهم فيتكلوا».

وهذا الحديث رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك وأنس لم يروه بلفظه عن معاذ كما في رواية مُسلم وإنما حكاه أنس قال : إن النبي ﷺ ومعاذ رديفه على الرَّحْلِ قال يا مُعاذَ بنَ جَبَل قال لبيك يا رسول الله وسَعْدَيْكِ قال يا مُعاذَ بنَ جبل قال لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثًا قال ما مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صِدْقًا من قَلْبِه إلا حرَّمه الله على النار. قال يا رسول الله أفلا أُخبِرُ به الناس فيَسْتَبْشِرُوا ؟ قال إذن يَتكِلُوا . وأخبر بها معاذٌ عند موته تأثما .

هذه الروايات أوفاها رواية مسلم الأولى عن أنس عن معاذ وفي الرواية الثانية زيادة «أفلا أبشرهم» ورواية البخاري حكاها أنس وحدَّث بلسانه عن الذي كان بين رسول الله ﷺ ومُعَاذ وسأبدأ بالرواية الأولى وأبدأ بما كان يقال عن مُعاذ بن جبل فقد كانوا يقولون معاذ بن جَبَل أُمَّة قانتًا كما كان يقال عن إبراهيم عليه السلام : سئل ابن مسعود رضي الله عنه قيل له

يا أبَا عبد الرحمن إن إبراهيم كان أُمَّةً قانتًا لله حنيفًا فقال كنا نُشَبِّه معاذ ابن جبل بإبراهيم عليه السلام . والذين أردفهم رسول الله ﷺ كانوا نيفًا وثلاثين جمعهم ابن مَنْده رضوان الله عليه كما ذكر العَيْني منهم معاذ ومنهم عبد الله بن قيس أبو موسى الأشعري . والرديف هو الذي يَرْكب خلف الراكب يقال رَدِفَهُ وأرْدَفَهُ إذا أركبه خلفه على رِدْف الرحل يعني مؤخرة الرحل وردف كفرح ، وقول سيدنا معاذ « ليس بيني وبينه إلا مُؤخرة الرحل » إنما أراد أن يَدُل على شدَّة القرب وأنه سمع سماعًا صحيحًا ووعى وعيا صحيحًا يؤكد بذلك لمن يأخذون عنه أن هذا كلام رسول الله ﷺ وخصوصًا أن في هذا الخبر ما ليس في غيره مما جعل علماءنا يقولون إنه لا يخاطب به العامة حتى لا يتَّكلوا بخلاف أهل العلم الذين يعرفون سره فلا يتكلون .

قوله عليه السلام « يا مُعاذ بن جبل » ناداه عليه السلام بحرف النداء الذي للبعيد وهو قريب منه ثم هو مفاطن أي يقظ لما يسمعه من رسول الله ﷺ وهذا يوحي بأنه إنما يناديه عليه السلام لأمر له خطر وله بال . ثم إنه عليه السلام قال يا معاذ بن جبل وكان يمكن أن يكتفي بقوله يا معاذ . لأنه لا محالة ابن جبل وإنما كان ذكر الأب مما يطول به الصوت ويطول به الكلام ويطول به التنبيه والإيقاظ وهذا وغيره مما يؤكد أهميَّة المعنى الذي يجيء بعد ذلك . قال معاذ : قلت لَبيك رسول الله وسَعْدَيْك ، ومعنى لبَّيْك إجابة بعد إجابة لأنها مُثَنَّى من لبَّ الدعاءَ إذا أجابهُ وقال الخليل لبَّ بالمكان أقام به ، حكاه عنه أبو عبيدة ، قال الفراء ومنه قولهم لبيك أي أنا مقيم على طاعتك ، قالوا وكان حقُّه أن يقال لبًا لك فثنيّ على التوكيد أي لبًّا لك لبًّا لك ، والياء للتثنية كما في قولهم حَنَانَيك أي حنانًا بعد حنان والحنان

الرحمة كأنهم قالوا رَحْمة بعد رَحْمة وهذا مختصر من كلام العيني ، قال النووي «الأظهر أن معناها إجابة بعد إجابة للتأكيد وقيل معناها قربًا منك وطاعة لك وقيل أنا مقيم على طاعتك وقيل محبَّتي لك ، وسعديك معناها ساعدت طاعتك مساعدة بعد مساعدة» والإسْعَادُ المعونة كما قال صاحب اللسان ، ومساعدة الطاعة معناها المؤازرة للدين قال صاحب اللسان وساعده مساعدة وأسعده أعانة . وقال أحمد بن يحيى سَعْدَيْك أي مُساعَدةً لك ثم مساعدة وإسعادًا لأمرك بعد إسعاد .

وقول معاذ (رسول الله وسعديك) كلمة رسول الله منصوبة لأنها منادى مضاف حذف منه حرف النداء وهذا عكس نداء سيدنا رسول الله لمعاذ لأن معاذًا أراد المسارعة في الإجابة وحذف حرف النداء ليقول رسول الله وهي كلمة لها برد وسلام على قلوب المؤمنين ومن أجل الإسراع للوصول إليها لم يقل معاذ رضوان الله عليه ، لبيك وسعديك يا رسول الله وإنما قال لبيك رسول الله وسعديك وسارع إلى ذكر صفته ﷺ قبل أن يتم التلبية بإضافة الإسعاد إليها .

قول معاذ « ثم سار ساعة ثم قال يا مُعَاذ بن جبل قلت لبيك رسول الله وسعديك» كلمة « ثم سار ساعة» ليس المقصود بكلمة ثم هنا الترتيب بلا مهلة لأن السير لم يترتب على القول وإنما المراد الإشارة إلى استبعاد الصمت بعد ندائه عليه السلام معاذًا وإجابة معاذ له تلك الإجابة العامرة بالغبطة والقرب والمؤازرة وهذا الصمت بعد هذا النداء من شأنه أن يوقظ معاذًا أكثر وأن يشغل باله أكثر لأنه يكون قليلاً من رسول الله ﷺ ، وتذهب معه نفس معاذ كل مذهب ويقول في نفسه ماذا يريد رسول الله ﷺ أن يقول ولماذا سكت؟ وكلمة (ساعة) المراد بها جزء من الوقت وليست الساعة التي نعرفها.

وإنما قال معاذ « ثم سار ساعة » وهو يريد أنه لم يتم حديثه ولم يبلغني بالذي ناداني من أجله ، وكان يمكن أن يقول ثم سكت مثلاً ، أقول قال ثم سار ساعة ليفيد أنه استمر على الحالة التي كنا عليه قبل أن يقول لي يا معاذ ابن جبل وكأن هذا النداء لم يكن ، ثم عاوَدَ رسولُ الله ﷺ نداء معاذ ثم أجاب معاذ بما أجاب به ثم كان سيره على نَهْجِه الذي كان عليه وكأن النداء لم يكن ثم عاد عليه السلام إلى نداء معاذ ثم أجاب معاذ بما أجاب به ثلاث مرات وهذا لم يكن من مألوف عادته ﷺ ، حتى إن بعض أهل العلم فسروا ذلك بأنه عليه السلام كان متردِّدًا أيحدّث معاذًا بما حدّثه به أم يَتْرك ذلك حتى لا يتكلوا ، ولك أن تستبعد هذا القول لأنه عليه السلام لا يقول في دين الله إلا بوحي ولا يمكن أن يسكت عن وحي أوحاه الله إليه ، وإذا كان العلماء استحسنوا أنه لا تكلم العامة بمثل هذا فإن معاذًا كان أمة قانتًا لله حنيفًا وكان من خير من يعلمون أسرار الأمر الإلهي في شرع الله ، والمهم في هذا أن هذا النداء ثم الصمت ثم النداء ثم الصمت ثلاث مرات جعل معاذًا في غاية التيقظ والاستشراف وغاية الرغبة في أن يعرف ما ناداه رسول الله ﷺ له . وأن رسول الله ﷺ وإن كان كثيرًا ما يهيئ سامعه لتلقي ما يريد بأساليب التهيئة والتوطئة حتى لا يتلقى الذين يخاطبهم صلوات الله وسلامه عليه ما أوحاه الله إليه بَغْتة غُفْلاً وإنما يتلقونه بعد التهيئة والتوطئة وقد مضى من ذلك الكثير أقول في هذا الحديث زاد اللفت وزاد التنبيه وزاد الإيقاظ ووراء كل ذلك اللفت إلى أهمية وجلال ومقدار قيمة المعنى الذي سيأتي بعد ذلك .

قوله عليه السلام « هل تدري ما حق الله على العباد؟ » بدأ سيدنا رسول الله ﷺ يكلم معاذًا في المعنى الذي أعده لتلقيه ، ويلاحظ أيضًا أنه لم

يكلمه فيه مباشرة ، يَعْني لم يقل له إن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا . لم يقل هذا عليه السلام وإنما رجع إلى لغة الإيقاظ وقد كان قبل يجعل نداءه عليه السلام ثم صَمْتَه وسيلة الإيقاظ واللفت والاستشراف والآن يستعمل اللغة ، فيبدأ بكلمة « هل » وهي من أمهات أدوات الاستفهام ، وأكثرها عراقة وتخلصًا لهذا المعنى ، لأنها لا يُراد بها إلا السؤال عن النسبة والنسبة هنا هي دراية حق الله على العباد ، وكلمة تدري نفسرها بكلمة تعلم وليست هي ، وإنما المراد أُولى درجات العلم ، كما في مثل قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴾ ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ ، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ كل هذا معناه أنه مهما كان عندك من علم بهذه الأشياء فإن علمك بها لا يُعَدُّ علمًا لأنها أهول من أن يحاط بشيء من علمها .

وهي هنا فيها شَوْبٌ من هذا المعنى لأن حق الله على العباد لا يقادر قدره ولا يحاط بكُنْهه ، ثم إن الاستفهام بكلمة (هل) في كلام سيدنا رسول الله ﷺ في هذه الجملة ، دخل على استفهام لأن كلمة (ما) في قوله صلوات الله وسلامه عليه (ما حق الله على العباد) يراد بها الاستفهام ، وهكذا انتقل سيدنا من النداء ثم الصمت عن الكلام وما يُفيدُه ذلك من تنبية وإيقاظ إلى هذه الجملة التى تراكمت فيها عناصر الاستفهام والتي كانت قنطرة بين الحالة الأولى التي هي حالة النداء ثم الصمت إلى الحالة الثانية التي هي حالة الكشف عن المعنى الذي لا يقادر قدره ، وحق الله على عباده ما يستحقه عليهم متحتمًا عليهم كما قال العلماء وهو حق لا طاقة لهم به وأي طاقة عندي تقوم بحق من خلق ورزق ومنح الحول والطول ، والقيام والقعود والسمع والبصر والفؤاد والليل والنهار وكل ما أنا فيه ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ

فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ ، ولما أنزل الله قوله ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ قال أهل الله لا طاقة لنا بحق تقاته لأنه حق لا حدود له فخفّف الله عنهم وأنزل ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ ، وكلمة « على العباد » كلمة واقعة جدًا ، ولو قال عليه السلام على الناس فلن تكون كذلك لأن العباد تعني المخلوقين لله والذين هم في قبضته والذين هم لا حول لهم إلا من حوله ولا طول لهم إلا من طوله ، وأن هذه العبودية هي عبودية المخلوق للخالق ، وهذه هي الفطرة فكل ما خلقه الله فهو له عبد ، وهو سبحانه لا يقبل الشركة فلا يجوز أن يكون عبده عبدًا لغيره لأن غير الله مخلوق لله وهو عبد لله والذي هو عبد لغير الله هو عبد للعبد ، وهذا هو الذي يأنف منه كل حر ، أما العبودية لله وحده فهي الشرف الأسنى والمقام الأعلى ، والإضافة فيها لله تشريف أي تشريف إذن كلمة العباد متلائمة أحسن التلاؤم مع كلمة « حق الله » وهي مشعرة بأنه حق لا حدود له ولا طاقة لعبد به وهذا يعني أن ما سيأتي من قوله عليه السلام « أن يعبدوه ولا يشركوا به » تخفيف ليس بعده تخفيف ، وأن عبادتي لله لا أشرك به شيئًا هي نقطة من بحر رَضيها ربُنا وأخذ بها جزءًا من حقه وأعطى عَبْدَه بقية حقه سبحانه وهذا من بين عطاياه التي لا تحصى ثم إن عبادة المخلوق لخالقه حقيقة كامنة في طبع هذا المخلوق لأن المخلوق بدافع الفطرة يأرِزُ إلى كنف خالقه لا يتطلع إلى غيره لأن الأمر كله لله وليس لأحد من الأمر شيء وأن محمدًا عليه السلام الذي هو خير ما خلق الله وبرأ قال له ربنا ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ وهذا الكنف والجانب الذي يأرز إليه المخلوق هو العبادة وما دام لا يتطلع إلى غيره فهو حر حرية من أكْرَم أو هي أكْرَم ضروب الحريَّة قلت إن من شأن المخلوق أنه يروم أن يذكر خالقه وأن يكون في كنفه وذلك ليس الإنسان وحده وإنما

كل ما خلق ربنا يسجد له ويسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، ثم إن الله سبحانه وتعالى لا يُعبَدُ إلا على الوجه الذي أمرنا أن نعبده عليه وهذا يوجب الإيمان بالكتاب الذي أنزل ونبيه الذي أنزل عليه كتابه وأن نفهم وجه العبادة من كلام الله وكلام رسوله ﷺ فالكتاب والسنة وحدهما فيهما بيان كيف تكون صلاتنا وصيامنا وذكرنا وحجنا وزكاتنا إلى آخره ، ولا سبيل إلى عبادة الله إلا على الوجه المبيَّن فيهما . ومن هنا كانت كلمة (أن نعبد الله) جامعة للدين كله ، وأن قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وقوله لملائكته ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ لا معنى لهذا وذاك إلا أن تكون خلافتنا لله في الأرض وعمارتنا في الأرض وأعمال الصلاح والإصلاح في الأرض ومطاردة الفساد والإفساد في الأرض ذلك وغيره من صلب العبادة التي خلقنا الله لها .

وجملة « ولا يشركوا به شيئًا » مؤكدة لجملة أن يعبدوه من وجه ؛ ومتجهة إلى نفي الشرك من وجه آخر وتفيدنا معنى مهمًا جدًا هو أن الشرك في العبادة قد يتسلل إلى النفس تسللاً خفيًا حتى إنه ليخفى على أشد الناس حرصًا على ابتغاء وجه الله لا يبتغي غيره ، فإذا كنت تحسن عملك أي عمل أنت فيه ابتغاء وجه الله وتبذل في ذلك أقصى ما عندك فلا تلتفت إلى ما يُقال عنك من قدح أو مَدْح لأنك لم تلتفت إلى الناس حتى تُشْغَل بقدحهم أو مَدْحهم وإنما أنت ملتفت إلى رب الناس تسألُه العَوْن والتوفيق ثم تسأله القبول وهذا مقام صَعْب جدًا لأنك لو امتعضَتْ نفسُك من تجاهل الآخرين لك أو من قَدْح من قَدح أو ابتهجت نفسُك لثناء من مدحك كنت بمعرض من يتسرب إليه خاطر من الشرك الخفي في الأعمال ، وقوله عليه السلام « ولا يشركوا به شيئًا » جاء بكلمة (شيء) وهي تطلق على كل

ما يقال له شيء وقد تدَنَّى الشركُ ونزل إلى أسفل السافلين وأبى إلا أن يفضح ويَسْخَر من أصحابه فأغراهم بأن يعبدوا ما ينحتون وليس في السَّفَهِ بعد ذلك شيء وهو يعود الآن في صورة أخرى فقد أوشك الدينارُ أن يُعْبَد وأوْشَك الطاغوت الذي هو من البشر وليس له قدرة إلا على القمع والقتل وتلفيق التهم أن يُعبد ولا تستغرب هذا لأن قدرتنا على صناعة الطاغوت أوْ صِناعة فرعون قدرة نُحْسَدُ عليها ، وخصوصًا كهنة فرعون من الكنبة وفرعون المعاصر قريب جدًّا من فرعون القديم فإن المعاصر يقول بعض قوله ما أريكم إلا ما أرى ، وليس بعده إلا أنا ربكم الأعلى ، وصُنَّاع فرعون لا يمكن أن يكونوا صناعًا في العلم والفكر والإنتاج الحضاري ، وكلمة (شيئًا) في كلام المصطفى مستوعبة ما كان وما يمكن أن يكون ، ولفظ الجلالة في قوله عليه السلام أن يعبدوا الله مُرشح قوي وتكاد تكون برهان على استحقاق العبادة لأنه يَعْني الاتصاف بالكمالات المطلقة وهذا يعني أن الكون لا يتسع البتَّة لاثنين موصوفين بالكمالات المطلقة وهذا يعني أن الله لابد أن يعبد وأنه لا يجوز أن تشرك به شيئًا لأنه في ذاته لا يشرك به شيءٌ وقريب من هذا في كلمة (على العباد) لأن العباد لا يكونون عبادًا إلا إذا عبدوا من أوْجَدهم وجعلهم عبادًا ، وهذا يعني أن لفظ العباد يوشك أن يكون إرهاصًا بكلمة يعبدوه ، وقول سيدنا معاذ «الله ورسوله أعلم» كلمة متكرّرة على ألسنة أصحاب رسول الله ﷺ في مثل هذه المناسبات وفيها معنى جليل مسكوت عنه وهو أنها تؤول إلى الله وحده هو الذي يَعْلَم ، وأنه سبحانه هو الذي يُعْلِم رسوله وأن رسوله يعلم من جهة أنه يحمل إلينا علم ربه ، ولهذا كانت كلمة (ورسوله) كلمة واقعة هنا أحسن موقع لأن الرسول ما جاء إلينا إلا ليبلغنا عن الذي اختاره وأرسله سبحانه ، ولا يجوز أبدًا أن

تقول هنا الله ونبيه أعلم لأن كلمة نبيِّه بَدَل كلمة رسوله تَهْدم هذا المعنى الذي هو من صفاء التوحيد ونقائه وأن رسول الله ﷺ لا يعلم من أمر الله إلا ما أرسله الله به وأن كل علمنا إنما هو من علم الله الذي بلغنا به رسوله وفتح لنا به آفاق المعرفة كلّها كأن يقول لنا سبحانه سيروا في الأرض وانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يعيده يعني ادرسوا ما بين أيديكم في هذه الأرض لأنه هو الذي يُرْشدكم إلى طرفي الوجود وكيف بدأ وكيف ينتهي وكيف يعيده ربنا .

قول معاذ رضوان الله عليه « ثم سار ساعة ثم قال يا معاذ بن جبل قلت لبيك يا رسول الله وسعديك » .

ظاهر أن هذا مما تكرر وأنه مما يَسْهُلُ به حفظ الحديث ، وأن تسهيل الحفظ هنا من بلاغة البلاغ والذي أريده هو أننا لو حاولنا أن نقترب من سيدنا معاذ وهو يَسْمَعُ نداء رسول الله ﷺ ثم يجيبه هذه الإجابة (لبيك رسول الله وسعديك) وهي إجابة كلها غبطة وكلها حُبٌ وكلها دالة على أنه أقام قلبه وعقله وجسده كله لخدمة رسول الله ﷺ ومؤازرته ومعاونته ومساعدته وأنه يقول إجابة بعد إجابة وإسعادًا بعد إسعاد إلى آخر ما في هذه الجملة التي لم يقلها أحد لأحد إلا أصحاب محمد لمحمد ﷺ ، أقول إذا حاولنا أن نقترب من سيدنا معاذ قبل أن يقول له رسول الله ما قال من حق الله على عباده وأن نقترب منه لنعرف ما دار في نفسه أوْ شيئا مما دار في نفسه بعدما سمع هذا الحق لقلنا إن سيدنا معاذ قبل أن يَسْمَعَ حق الله على عبادة كانت نفسه تذهب كل مذهب تحاول أن تتوقع شيئًا مما كان يريده رسول الله ﷺ وينادي معاذًا من أجله وكان أدب الصحابة مع رسول الله ﷺ

وتوقيرهم له يعصمهم من أن يطلبوا منه أن يُبيِّن لهم ما يريد وإنما كانوا يتركون ذلك لمحض اختياره .

أما بعد ما قال عليه السلام وبين حق الله على عباده فإن الأقرب أن يكون معاذ قد استشرف إلى أن يتم رسولُ الله ﷺ ما بدأ بكلام يتصل به ، وأنه عليه السلام سيُبيِّن ثواب من يعبدونه ولا يشركون به شيئًا وظني أنه لم يكن يدور بخلده أن يُسَمِّى ذلك حقًا للعباد على الله لأنه لا حق للعباد على الله وإنما الحق كل الحق هو لله على عباده ، وقد سَمِعتُ من عالم عابدٍ أن أحدنا لو أمضى عمره كله ساجدًا بين يدي الله ليُوَفِّي الله حقَّه في مقابل أصغر نعمة أنعمها الله عليه لانقضَى عمره ولم يؤد حق النعمة والمراد النعم التي لا تكون إلا منه سبحانه .

وقوله عليه السلام « حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك » أقول هذه العبارة توشك أن تكون ناطقة بقوله « ألاَّ يُعذّبهم » لأنهم ما داموا أدوا حقَّه عليهم فقد برئت ذمتهم من هذا الحق ومن برئت ذمته من حق لا يُعذّب به وهذا ظاهر والذي أراه خفيًا هنا أن الحق سبحانه لما بيّن لنا حقه علينا وحدَّدَه وإن كان لا حدود له ، وبين أن من أدّاه لا يعذّب كان ذلك وعدًا منه جل وتقدَّس وهذا يعني أن حقنا على الله لا أصل له ولا وجود له إلا بوعد الله فهو الذي تَفَضّل ومنّ وجعل لنا عليه حقوقًا ونحن خلقه وعباده وعبيده ، ولا يجعل حقًّا لعابد إلا الله سبحانه وتعالى ، وكما أنه لا حقَّ لأحد عنده إلا حقًّا أوجبه هو سبحانه كذلك لا يجب عليه شيء إلا ما أوجبه على نفسه فقد وعد بقبول التوبة النصوح وَوَعْدُه حق ، ولهذا ذكر العلماء وجوب قبولها على الله وذلك بإيجاب هذا القبول على نفسه . هذا والله أعلم .

والرواية الثانية لحديث معاذ التي رواها عنه عمرو بن مَيْمون : جاء فيها أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « تدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله قال قلت الله ورسوله أعلم ، قال فإن حق الله على العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد على الله ، أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا قال قلت يا رسول الله أفلا أُبَشِّرُ الناس ؟ قال لا تبشرهم فيتكلوا ».

هذا الحديث مختصر وفيه زيادة . أما الاختصار فقد حذف السكتات التي كان يسكتها ﷺ بعد ندائه معاذًا وبعد قول معاذ لَبَّيْك رسول الله وسعديك ، أما الزيادة فقوله أفلا أبشر الناس وقوله عليه السلام لا تبشرهم فيتكلوا .

وقول معاذ أفلا أبشر الناس ليس معناه أن معاذًا يفهم من ظاهر هذا الحديث أن من خلا قلبه من شوائب الشرك واستيقن قلبه وهو صادق أنه سبحانه واحد أحد لا شريك له أنه لا يعذّب وإن اقترف من الذنوب ما اقترف لأن هذا الفهم يتصادم مع صريح كلام الله وكلام رسوله ﷺ وإنما فهم معاذ من هذا سعة رحمة الله وأن العبادة المُخبِتَة الصادقة التي لا تشوبها شائبة من رياء تفتح باب الرحمة وتفتح باب المغفرة وليس هناك شك في أن اليقين الصادق بأنه هو الله الواحد الأحد من شأنه أن يورث النفس خشية وأن يورثها ذكرًا وأن نور الإيمان الخالص الصادق الذي في القلب يَهْدي دائمًا إلى البرّ والعمل الصالح وأن المؤمن الذي يعيش بهذا النور إذا فعل فاحشة أو ظلم نفسه رجع بسرعة وقلبه وَجِلٌ واستغفر وقلْبَهُ وَجِلٌ وقام وصلى وقلبه وَجلٌ ، وكل ذلك يحط الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ولابد من ملاحظة شيء وهو أن اليقين في أنه واحد أحد إنما هو من هدى الله وأن من اهتدى بهذا الهدي زاده الله هدى وأن صاحب هذا العطاء ذاهبٌ في الطريق الواصل إلى مرضاة الله .

ثم إنه لا شك عند معاذ وعند كل مؤمن بأن ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ وكان رسول الله ﷺ يسمى هذه الآية بالفاذة لأنها صريحة وقوية وحاسمة وجامعة .

وقوله عليه السلام «لا تبشرهم فيتكلوا» الفاء الداخلة على قوله (فيتكلوا) ليست مترتبة على قوله «لا تبشرهم» لأن الاتكال مترتب على البشارة وليس على نفيها . وفي الكلام حذف والتقدير لا تبشرهم فإن بشرتهم اتكلوا ، وهو مثل شاهد النحاة لا تدنُ من الأسد فيأكلك لأن الأكل ليس مترتبًا على النهي عن الدنو وإنما هو مترتب على الدنو والتقدير ، فإن تدن من الأسد يأكلك ومثله قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ فمسّ النار ليس مترتبًا على قوله (ولا تركنوا) وإنما هو مترتب على الركون المحذوف ، وكأنه قال فإن تركنوا مستكم النار . ونسأل الله سبحانه أن يحفظ علماء الأمة من الركون إلى الذين ظلموا لأن هذا بلاء شاع في أيامنا .

وسيدنا رسول الله ﷺ يخاطب الأُمَّة بكل مستوياتها ومنهم من يأخذ الأشياء بظواهرها فيتكل ، أما العلماء فإنهم يعلمون أن كل نفس بما كسبت رهينة وأنها تُبْسَلُ بما كسبت أي تُحبَس بما كسبت وهؤلاء لن يتكلوا . قال العيني إن المنع لم يكن إلا من العوام لأنه من الأسرار الإلهية لا يجوز كشفها إلا للخواص ، خوفًا من أن يَسْمعَ ذلك من لا علم له فيتكل ولهذا لم يخبر النبي ﷺ إلا من أَمن عليه الاتكال من أهل المعرفة . انتهى كلام العيني .

وقوله يتكلوا أصله يَوْتكلوا من وِكل قلبت الواو تاء وأدغمت التاء في التاء كقولنا يتصلوا أصله يوتصل من وصل .

وروى معتمر بن سليمان وكان ثقة صدوقًا رأسًا في العلم والعبادة كما قال العيني روى عن أبيه سليمان الذي قال عنه شُعْبة ما رأيت أصدق من سليمان كان إذا ذكر رسول الله ﷺ تغَيَّر لونه قال سليمان سمعت أنسًا قال ذكر لي أن النبيَّ ﷺ قال لمعاذ من لقي الله لا يشركُ به شيئًا دخل الجنة قال ألا أبشر الناس ؟ قال لا إني أخاف أن يتكلوا .

والذي سمعه سليمان من أنس رواه البخاري بسنده عن أنس قال : إن النبي ﷺ ومعاذ رَدِيفُه على الرحل قال يا معاذ بن جبل قال لبيك يا رسول الله وسعديك قال ثلاثًا قال مَا مِنْ أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله صِدْقًا من قلبه إلا حرّمه الله على النار قال يا رسول الله أفلا أُخْبِرُ به الناسَ فيَسْتَبْشروا قال إذن يتكلوا .

والذي رواه سليمان عن أنس عن معاذ « من لقي الله لا يُشْرِكُ به شيئًا دخل الجنة أو ما من أحد يَشْهَدُ أن لا إله الله وأن محمدًا رسولُ الله صِدْقًا من قَلْبِهِ إلا حرَّمه الله على النار » ، وحرّمه الله على النار تَعْنِي دخل الجنة لأن من زحزح عن النارِ دخل الجنة ، وأصل هذين المعنيين ما جاء في رواية معاذ السابقة « إن فعلوا ذلك لا يُعَذّبهم » لأن الذي لا يعذب هو الذي حُرّمت عليه النار وهو الذي يدخل الجنة ، والفرق الظاهر هو في « أنْ يَعْبدوه ولا يشركوا به شيئًا » الذي جاء مكانه « من لقي الله لا يشركُ به شيئًا أو مَا مِنْ أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صِدْقًا من قلبه » لأن العبادة الخالية من شوائب الشرك لا تكون إلا باعتقاد أنه وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله لأننا عبدنا الله على الوجه الذي بيَّنه ﷺ عن ربه ، والشهادة ليست ظاهرة الدلالة على العبادة إلا إذا قلنا إن

طيّ القلب والعقل على كلمة التوحيد ضرب من العبادة بل هو من أسمى ضروب العبادة لأنه لا عبادة أعلى من أن يسكن جلال الحق في القلب ، وقد نحا هذا النحو في بيان معاني هذه الروايات من فسّروا كلمة صدقًا من قلبه بأن الصدق هنا ليس مطابقة الخبر للواقع كما هو معروف وإنما هو مطابقة السلوك للواقع ، وهذا تفسير حسن جدًا لأن مطابقة السلوك للواقع في النطق بالشهادتين يعني أنه عبد الله حق عبادته فأنفذ أمره سبحانه وكف نفسه عما نهى ، والناس يقولون فلان صادق وهم يريدون مطابقة أفعاله لأقواله ، وأنه إذا قال فعل وأنه لا ينهى عن خلق ويأتي مثله وقد أصاب الطيبي هذا المعنى لما فسَّر الصدق في الحديث بالاستقامة وأن قوله ﷺ صِدْقًا من قَلْبه معناه استقامة القلب واستقامة السلوك على وفق ما تَقْتَضيه هذه الشهادة . وكلمة « صِدْقًا من قلبه » إما أن تكون حالاً أي صادقًا من قلبه وإما أن تكون صِفَةً لمصدر محذوف أي قولاً صِدْقًا من قلبه ، وهي كلمة جليلة وتأمُّلها يفضي بك إلى جلالها ، وهذا ظاهر في أن صدق القلب في هذا الباب هو الوقاية من العذاب وهو التّقْوى ، ومنه قولهم « يقيني في الله يقيني » ويقيني الثانية من الوقاية أي يقيني في الله يَدْرَأ عنيٍّ عذاب الله وكل هذا جيد لأن المُهمَّ الغَرْسُ في القلب وليس المهمُّ أن يكون الدين تحت اللسان يَبِيعُ الخاسرون به ويشترون ، وهذا التفسير الرائع للصدق وأنه مطابقة الفعل للاعتقاد استمده العلماء من قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ ، كلمة صدّق به معناها أنه حقق ما أوْرَدَه قولاً بما تحرَّاه فعلاً ، وتفسير الطيبي الصدق بالاستقامة ليدفع المعنى الظاهر للحديث لأن ظاهر الخبر يقتضي عدم دخول من شهد الشهادتين النار لما فيه من التعميم والتأكيد وذلك لأن من الأدلة القطعية قد دلَّت عند أهل السنة والجماعة أن طائفة من الموحدين

يعذبون ثم يخرجون من النار بالشفاعة قال الطيبي ولأجل خفاء ذلك لم يؤذن لمعاذ رضي الله عنه في التبشير به .

وقد تقدم في أول هذا الباب الأصل العام الذي اتفق عليه أهل الحق وهو أن مرتكب الكبيرة الذي مات ولم يتب أمره متروك للمشيئة وقالوا إن كل أحاديث الباب تحمل على هذا الأصل وتؤول عليه ، وكلام العيني والطيبي في تفسير الصدق بالشهادتين وأنه مطابقة الفعل للاعتقاد أو أنه الاستقامة هو نفسه الكلام الذي قدمناه ، ويبقى سؤال لم أجد له جوابًا وهو إذا كان المعنى محمولاً على ما اتفق عليه أهل الحق من علماء الأمة فأين موضع البشارة التي أدركها معاذ ؟ ثم إن رسول الله ﷺ سلّم له بفهمه وأن في حديثه عليه السلام هذا بشارة ولكنه كف معاذ عن البشارة بها حتى لا يتكلوا ؟ وبسبب هذا الإشكال اختلفت الأقوال فذهب بعضهم إلى أن هذه الأحاديث مقيدة بمن يأتي بالشهادتين تائبًا ثم يموت على ذلك . وذكر البعض أنه أُخرج مخرج الغالب لأن الغالب على أهل الشهادتين عمل الطاعات واجتناب السيئات ، وذكر البعض أن الذي يحرم على النار هو جبهته التي يسجد عليها ، ولسانه الذي يذكر الله به وذهب البعض إلى أن هذه الأحاديث قالها رسول الله ﷺ قبل نزول الفرائض وكان يكفي النطق بالشهادتين للنجاة من النار ونسب هذا إلى سعيد بن المسيب كما مضى واعترض عليه بأن راوي الحديث أبو هريرة وقد أسلم عام خيبر وكانت الفرائض قد فرضت ولهذا قال بعضهم في كلام ابن المسيب وفيه نظر وقد عقب العيني على هذا النظر بقوله وفي النظر نظر وبيَّن ذلك بأن هذه الأحاديث يحتمل أن تكون قيلت قبل نزول الفرائض وأن أبا هريرة رواها عن من رواها عن رسول الله قبل نزول الفرائض ، ولا يلزم في كل حديث رواه أبو هريرة أن يكون الحديث كان في زمنه . أعنى بعد إسلامه .

وقبل أن أدع هذا أشير إلى شيء وهو أن من أهل الشهادتين من إذا بُشّر اتكل ، وهؤلاء هم العامة ، ومنهم من إذا بُشّر أيقن أن هذه البشارة مِنّةٌ ونعمة وفضل فاستَوْجبت عنده مزيد الشكر فزاد في خشيته وزاد في عبادته كما كان من رسول الله ﷺ لما بشره ربه بأنه غفر له من ذنبه ما تقدم وما تأخر زاد عليه السلام في الذي يقربه من ربه وقال «أفلا أكون عبدًا شكورًا» وهذه سُنّتهُ عليه السلام وسُنّة الصالحين من أمته إذا زادهم الله عطاء ازدادوا من الله اقترابًا ، هذا والله أعلم .

ومن أحاديث هذا الباب وربما كان أولها ما رواه مسلم بسنده عن أبي هريرة قال : كنا قُعودًا حول رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعمر في نَفَر ، فقام رسول الله ﷺ من بين أظهُرنا فأبطا علينا وخشينا أن يُقْتَطع دوننا وفزعنا فقمنا ، فكنتُ أول من فزِع فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطًا للأنصار لبني النجار فدُرْتُ به هل أجدُ له بابًا ؟ فلم أجد ، فإذا ربيعٌ يَدْخل في جوف حَائطٍ مِنْ بِئرٍ خارجة (والربيع الجدول) فاحتَفَزْت كما يحتفز الثعلب ، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال أبو هريرة ؟ فقلت نعم يا رسول الله . قال ما شأنُكَ ؟ قلت : كُنْتَ بين أظهُرنَا فقمتَ فأبطأتَ علينا فخشينا أن تُقْتَطَعَ دونَنَا ففزعنا فكنت أول من فَزِعَ فأتيت هذا الحائطَ فاحتفزْت كما يحتفز الثعلب ، وهؤلاء الناس ورائي . فقال يا أبا هريرة وأعطاني نعليه قال اذهب بنعليّ هاتين فمَنْ لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشّرْه بالجنة فكان أول من لقيت عمر ، فقال ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ فقلت هاتان نعلا رسول الله ﷺ بعثني بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشّرْته بالجنة ، فَضَرب عُمَر بيدِهِ بين ثدييى فخَررْتُ لإستى فقال ارجع يا أبا هريرة ، فَرَجَعْتُ إلى

رسول الله ﷺ ، فأجهشت بكاء وركبني عمر فإذا هو على أثري ، فقال لي رسول الله ﷺ ما لك يا أبا هريرة ؟ قلتُ : لقيتُ عمر فأخبرته بالذي بعثتني به فضرب بين ثديي ضربة خررت لإستي قال ارجع . فقال له رسول الله ﷺ يا عمر ما حملك على ما فعلت ؟ قال يا رسول الله بأبي أنت وأمي أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشّره بالجنة ؟ قال نعم . قال : فلا تفعل فإني أخشى أن يَتّكلَ الناسُ عليها ، فخلّهم يعملون . قال رسول الله ﷺ فخلّهم» .

هذا الحديث أكثره من كلام أبي هريرة وقليل منه من كلام رسول الله ﷺ ومن كلام عمر ، وهذا شأن كثير من الأحاديث ، ونحن ندرس كلام الصحابي في الحديث كما ندرس كلام رسول الله ﷺ . لأن كلام هذا الجيل له سَمْتٌ غالبٌ وكذلك كلام كل جيل وإنما عنايتنا بالإشارات إلى سَمْت كلام هذا الجيل لأن فيه رسول الله ﷺ ، وبه نزل الكتاب وداخل كلامُ الصحابة كتب الحديث وكثر فيها كما داخل كلامُ الصحابة كتب التفسير وأنجع طريق لمعرفة سَمْت الكلام هو مراجعته وتدبُّره وتحريك اللسان بكلماته وجُمَلِهِ وطول جريانها على اللسان وقد قضَيْتُ عمري في تحليل البيان وانتهى بي الحال بالعجز الظاهر عن شرح هذا السَّمْت شَرْحًا يُغْنيك عن تَخَلُّلِ هذا البيان بلسانك وذائقتك حتى يُدْرِكَ هذا اللسانُ شيئًا من خصائص وأحوال وصفات هذا السَّمْت ، ورحم الله أبا حيَّان الذي كان يقول الكلام عن الكلام صعب .

وليس لي حِيلَةٌ إلا أن أعْرِض تحليلي لهذا الحديث الذي أكثره من كلام أبي هريرة وأضعه بين يَدَيْك .

قول أبي هريرة : « كنا قعودًا حَوْل رسولِ الله ﷺ مَعَنا أُبو بكر وعمر في نفر » .

هذه الجملة هي رأس الحديث وكل ما بعدها مُتَفَرِّعٌ منها وصناعة البيان على هذا الوجه الذي ترى فيه الجملة الأولى قد تضَمَّنَتْ كل ما يأتي بعدها صناعة شاقّة لا يُطيقها إلا قومٌ أوتوا في البيان حظًّا هُمْ به أفراد ، وراجع هذه الجملة تجدها مكونةً من خَبَرٍ أصلي هو هذه الكلمة « كنا قعودًا » ثم أُلْحِق به ثلاثة أخبار كلهم أحوال لهذا الخبر الأصلي حالان ظرفان هما « حول رسول الله ﷺ ـ معنا أبو بكر » ، وحال جار ومجرور هو قوله (في نفر) وقد امتدح الشراح هذا الضرب من البيان لا من جهة العناصر التي أُبَيِّنها وإنما من جهة أنهم إذا ذكروا مجالسهم وفي هذه المجالس أشراف وسادة ، ذكروا بعض هؤلاء الأشراف ، والسادة ثم أشاروا إلى غيرهم ، قال النووي هو من فصيح الكلام ، وحسن الأخبار فإنهم إذا أرادوا الإخبار عن جماعة فاستكثَرُوا أن يذكروا جَميعهم بأسمائهم ذكروا أشرافهم أوْ بعض أشرافهم ثم قالوا وغيرهم ، انتهى كلام النووي . وهذا جيد في الفصاحة والأدَب وجيد أيضًا أن نذكّر بأن هذا خير مَجْلسٍ تحلق فيه نفر من خير أجيال الأرض حول صاحب قدم هي خير قدم وَطِئَتْ أديم هذه الأرض من يوم أن قال الله لها كوني فكانت ، إلى يوم أن تبدّل الأرض غير الأرض ، ثم إن ذكر أبي هريرة لأبي بكر وعمر لم يخل من إرهاص وتهيئة وإعداد للذي كان من عمر في أهم أحداث هذا الحديث ، وإنما ذكر أبا بكر لاقتران الاسمين الكريمين أبي بكر وعمر ، وأنهما لا يَنْفَكّانِ مثل إقام الصلاة وإيتاء الزكاة .

ثم إننا نلاحظ أن أبا هريرة لم يذكر شيئًا مما كان يحدث به رسول الله ﷺ ، والأصل أنهم لا يتحلّقُون حوله إلا وهو يُكلِّمهم في دين الله

ثم إن النفر يكون دائمًا أقل من عشرة . وهذا يعني أن أبا هريرة كان يمكن أن يذكر منهم وهم كلهم أشراف وكرام وسادة ، ولكن أبا هريرة كعادة جيله يُوَجِّه الكلامَ نحو غايته التي هي ذكر النَّعْلَين وبشارة من يلقى من وراء هذا الحائط ، وهو يَشْهَدُ أن لا إلا الله مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبُه أن يُبَشِّرَه بالجنة ، وهذا هو مَصَبُّ المَعنَى من الحديث وهذا هو طريقه ولهذا سكت عن كل ما يشغل بال السامع من ذكر موضوع حديث رسول الله ﷺ ، وذكر المكان الذي تحلقوا حول رسول الله فيه ، وأنه كان ذلك في ليل أو نهار وأنه كان معنا من كرام أصحابه فلان أو فلان كلٌّ ذلك مسكوتٌ عنه وإنما يكتفي من الكلام على قدر الحاجة . وظنيّ أنه لولا أن لعمر مدخل في الحديث ما ذكره .

قال النووي : والعرب يقولون قعدنا حوله وحَوْليه وحواليه وحواله بفتح الحاء واللام في جميعها على جوانبه وكلمة « مع » تفتح فيها العين وتسكّن ومعناها الصُّحْبة .

قوله « فقام رسول الله ﷺ من بين أظهرنا » ومعنى بين أظهرنا أي بيننا ولم يقل أبو هريرة من بَيْنِنَا للفرق بين العبارتين لأن كلمة الظهر تعني الظهير والمُعين والمؤَازر والمعنى قام من بين نفر يساندونَهُ ويعزّرُونه وينصرونه فإذا قلت فلان بين آل فلان أفاد أنه بينهم فقط ولو قلت بين أظهرهم دل ذلك على تساندهم له وتظاهرهم وتَعاضدُهم . وما كان لأبي هريرة في هذا المقام أن يقول قام من بيننا لأن كلمة الظهر تشير إلى ما سيكون من فَزَعهم وقيامهم مجتمعين يَبتَغُونه ﷺ ويدفعون عنه ما يكره ، ولم يُشِرْ أبو هريرة إلى الجهة التي اتجه رسول الله ﷺ إليها ، ولا إلى السبب الذي قام عليه السلام من أجله لأن الكلام متجه نحو غاية واحدة وتجرَّد إليها

وهـي البشارة التي انتهت الأحـداث إليـها . وراجـع هـذا ودقق لأنه مـن أبـين ما عليه الكلام الأول .

قوله رضوان الله عليـه : « فأبطـأ علينـا وخشـينا أن يُقْتَطَـعَ دوننـا وفزعنـا فقمنا » تأمل هذه الأفعال الأربعة التي هي رؤوس معان .. فأبطأ .. خشينا أن يقتطع دوننا ... وفزعنا ... فقمنا . الفاء التي في قوله « فأبطأ علينـا » ـ تشـير إلى أن إحساسهم بالبطء كان عقب قيامه بـلا مهلـة ، وكـأن هـذا الإحسـاس بادرهم لقوة تعلقهم به عليه السلام وأنـَّهُ قام من بين أظهرهم وحده . وقوله : وخشينا ... وفزعنا بـالواو ولـيس بالفـاء كالفعـل قبلـهما فيـه إشـارة إلى أنـه اجتمع عليهم الخشية عليه والفزع في وقت واحـد ، والفـاء في قولـه : فقمنـا تعني ترتب القيام على البطء الجامع للخشية والفزع بلا مُهْلة ، وهكذا تجد الفاءات والواوات وراء كُلٍّ مـا وراءهـا مـن دقـائق الخـواطر والمعـاني وهـذا موضع عناية عندي في التحليل لأن الفرق كبير بين الترتيب بلا مهلة وجمـع الأحداث وضمٍّ بعضها إلى بعض من غير ترتيب ، ولـو قلـت فأبطـأ فخشـينا لكانت الخشية مترتبة على البطء وما تعلق به وليس هذا مرادًا وإنمـا المـراد ضم الخشية إلى البطء وجمعها معه وكذلك لو قال ففزعنا لقال شيئًا آخر ، والذي في كلام أبي هريرة أن البطأ بعث الخشية والفزع دفعـة واحـدة ، وفي لحظة واحدة . ومعنى « يقتطع دوننا » يصيبه مكروه يبعده عنا .

قال النووي : يقتطع دوننا يصاب بمكروه من عدو إمَّا بأسْرٍ وإما بغَيْـره . وقالوا كان هذا قبل نزول قوله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ والفـزع يكون بمعنى الروع وهو الفزع المعروف ويكـون بمعنـى النهـوض السـريع نـحـو الشيء أو الهُبوب نـحـوه كـمـا قال القاضي وبمعنـى الإعانـة ، وقـول

أبي هريرة . وفزعْنا فيه كلٌّ هذه المعاني لأنهم ارتاعوا لبطئه ﷺ وخافوا أن يكون أصابه مكروه وهبُّوا وقاموا يتعرفون خَبَرَه ويدفعون عنه .

وقول أبي هريرة «فكنت أولَ من فزِع» ليس المراد أنه كان أكثر الأصحاب خشية على رسول الله ﷺ لأن أبا هريرة يعرف حب أصحاب رسول الله ﷺ له وأنه ليس أكثرهم حرصًا عليه وإنما المراد التهيئة لمعنى أنه أول من لقي رسول الله ﷺ في حائط الأنصار وراجع عبارة أبي هريرة «وكنت أول من فزع فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ» وكلمة فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ هي التي وصف بها الجميع في قوله (وفزعنا فقمنا) لأن المعنى أن الكل قام في وقت واحد يبتغي رسول الله ﷺ وإنما بدأ أبو هريرة يَخُصُّ نَفْسَه بالكلام لأنه هو الذي لقي رسول الله ﷺ وكان بينهما ما كان مما هو المقصود الأصلي بالحديث . أبو هريرة يتجه إلى بيان ما يخصه من غير أن يكون في كلامه تعريضٌ بغيره ، ولا ثناء على ما كان منه لأن مثل هذا مما كان لا يرد في نفوس هذه الصفوة المتحلقة حول خير ما خلق الله سبحانه ، وراجع جملة «فخرجت أبتغي رسول الله ﷺ» تجد فصاحتها وسلاستها وحلاوتها في هذه الجملة الحالية «أبتغي رسول الله ﷺ» وأن هذا الابتغاء أي التعرف عليه وعلى الحالة التي هو عليها والاطمئنان عليه كان حالاً مقترنة بالخروج وعلى هذا انعقد العزم ، وتلاحظ أن معاقد المعاني الأكثر ثراء والأكثر إضاءة والأكثر استحواذًا على مقادير البلاغة والفصاحة كل ذلك أكثره في الجمل الحالية راجع الكلام من أوله تجد الجمل الحالية هي أكثر أنواع الجمل شيوعًا وهي الصُّرَّة التي يكتنز فيها المعنى غالبًا ، والفعل المضارع في قوله (أبتغي) له مذاق متميز ، لأن الانتقال من الماضي في قوله (خرجت) إلى المضارع في قوله (أبتغي) ينتقل بالمعنى من الإخبار

والحكاية التي في الماضي إلى الصورة الحيَّة التي في المضارع وكأنه يقول لك هاأنذا أبتغي أي أبحث عن مطلوب هو نعم المطلوب مع أن الابتغاء بمعنى البحث عن رسول الله كان بلا شك بعد الخروج لأنه خرج وفارق المكان الذي كانوا فيه واندفع نحو المظان التي يُظن أن رسول الله ﷺ كان فيها وحينئذ بدأ الابتغاء ، ولكن العزم لما كان معقودًا على الابتغاء لحظة الخروج كان الابتغاء حال الخروج وقريب من هذه الحال المعبرة بأبلغ البيان قوله تعالى ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ جملة يستمعون القرآن جملة حالية وصاحبها مفعول صرف أي أن الله صرفهم حالة كونهم يستمعون القرآن ، مع أنهم لم يستمعوا القرآن إلا لما حضروه صلوات الله وسلامه عليه وهو يصلي ويقرأ وقالوا أنصتوا ، ولكن لما كان الاستماع هو سبب الصرف جاء حالاً مقارنة للصرف وهذا من دقائق معاني الجمل الحالية التي أراها تستحوذ على كثير من الفصاحة في كلام هذا الجيل في شعره ونثره .

وقوله رضوان الله عليه « حتى أتيت حائطًا للأنصار لبني النجار » .

أول ما يلاحظ في هذا البيان أنه طوى ذكر الأماكن التي ابتغى رسول الله ﷺ فيها من لحظة أن خرج يبتغيه إلى لحظة مجيئه حائط بني النجار وأومأ إلى هذا الذي طواه وأنه أخذ زمنًا وأخذ بَحْثًا وركْضا هنا وهناك أقول طوى ذلك تحت كلمة (حتى أَتَيْتُ) لأنها تدل على انتهاء الغاية ، وهي تشير هنا إشارة ظاهرة إلى أنها تطوي صفحة من البحث والابتغاء ويَتّجهُ بعدها الكلام إلى مكان لقائه ﷺ وبيان ما كان بَيْنه وبين رسول الله ﷺ ، ومن المهم أن نراجع ما طواه الكلام وأن لا نكتفي بمراجعة المذكور لأن طيّ ما طُوِيَ يضيءُ جوانب من ذكر ما ذكر ، ثم إن هذا الطيَّ

هنا هو تخلص الكلام إلى الغرض المسوق له ، وطيّ كل لمحة يمكن أن تَشْغَلَ القارئ أو السامع عن الغاية التي انعقد عليها الحديث وقد قُلْتُ ذلك وأكرره ، لأن مَثَل ذلك مَثَل الجُمل الحالية التي هي الصُّرّة التي تألَفُها المعاني وتأرِزُ إليها لا تخطئ طريقها ، وكل ذلك مما أظنُّه من سَمْت الكلام الأول .

وقوله رضوان الله عليه « حتى أَتَيْتُ حائطًا للأنصار لبني النجار » كان يمكن أن يقول حتى أتيت حائطًا لبني النجار ، لأنه هو المقصود فلماذا ذكر الأنصار ؟ هل في هذا إشارة إلى أن ما كان لبني النجار فهو للأنصار ؟ وأن ما كان للأنصار فهو لبني النجار ، وأن الحوائط يَدْخُلها القريبُ والجارُ ولا حَرَج في ذلك ، وأنها ليست كالبيوت التي لا يَدْخُلها أحدٌ إلا أن يُؤذَنَ له ، وأن في هذا إشارة إلى بيان وجه رسول الله ﷺ لما دخلها من غير أن يستئذن مع أن بني النجار أخوال جده عبد المطلب ، لأن جدّه هاشم تزوج كريمة من كرائمهم ، ثم إن هذا الحائط ليس لبني النجار وإنما هو لزيد أو عمرو من بني النجار وإنما هكذا جاءت عبارة أبي هريرة تُشِيعُ هذه الملكية ولا تخصِّصُها بأصحابها لتبين أن ما كان من رسول الله ﷺ من دخول الحائط هو إلْفٌ مألوف ، وخصوصًا بالنِّسْبة له عليه السلام ، ثم يلاحظ أيضًا أن أبا هريرة قال « للأنصار » والأنصار هم الأوْسُ والخزرج ، فذكر الجِذْر القديم ولم يذكر القسم الذي منه بنو النجار ليكون أقْرَبَ وإنما أبْعد كما قلت وعاد إلى الأصل الجامع للفريقين اللذين هما أبناء قيلة لأن الأوسَ والخَزْرج أمهم قيلة وذكروها لِيُذكِّر بعضُهم بعضًا هذه الرحم التي هي الأم ليخفّفُوا ما كان بينهم من حروب أوشكتَ أن يأكل فيها بَعضُهم بعضًا ، كما قال هرون لموسى يابن أُمِّي ، لأن رحم الأم باعث الحنَان ومودّةَ القُربى .

قول أبي هريرة «فدُرْت به هل أجِدُ لَه بابا فلم أجِدْ» وهذا يعني أنه رضوان الله عليه ما دار حول حائط الأنصار ليجد له بابا فلم يجد إلا بَعْد ما استفرغ جهده في ابتغاء رسول الله ﷺ في كل المظان القريبة من المجلس ولم يبق له إلا هذا الحائط الذي يَدُورُ حوله ليجد له بابا فلم يجد ثم إن افتقاد وجود الباب كان مَظِنَّة أن يصرف أبا هريرة عن محاولة دخوله، لأنه ما دام لم يجد له بابًا فإن رسول الله ﷺ لم يدخله، لأنه لا يدخله إلا من بابه. ولكن أبا هريرة بحث عن مَدْخَلٍ من غير باب لأنه استقصى البحث في الأماكن كلها ولم يبق عنده إلا هذا.

وقوله: فلم أجد فإذا رَبِيعٌ يَدْخُل في جَوْف حائط من بئر خَارِجَةٍ «والربيع الجدول» المراد مدخل الماء الخارجة من البئر والداخلة في جوف حائط، وغالبًا ما يكون على مقدار الماء، ولم يقع عليه أبو هريرة إلا لأنه كان يتأمل ويَنْظرُ ويُدَقِّقْ وأنه أيسَ من وجود الباب وراجع عبارته التي عبر بها عن حالته وهو يدور ليجِدَ له بابًا، قال فيها «فدُرْتُ هل أجد له بابًا» وفرق كبير بينها وبين أن لو كان قال فدرت لأجِدَ لَهُ بابًا. لأن قوله هل أجِدُ كان سؤالاً يرافقه ويُلِحُّ عليه في كل خطوة يخطوها وهو يدور ويقول له انظر لعلك تجد له بابًا، وكأنه كان يَسْمع من نَفْسِهِ في كل خطوة هذا السؤال «هل تَجِدْ لَهُ بابًا» وعجيب أن يكون الحائط لا بَابَ له ورسول الله ﷺ قد دخل. ولم يُحدِّثْنا أبو هريرة كيف دخله رسول الله ﷺ، ويستحيل أن يكون دخل بالطريقة التي دخل بها أبو هريرة لأن أبا هريرة دخل دخول المضطر، وسيدنا رسول الله ﷺ لم يكن مضطرًا إلى هذا الدخول، وقد سكت الحديث عن بيان الطريقة التي دخل بها رسولُ الله ﷺ، والطريقة التي دَخَل بها أبو هريرة في المرة الثانية والطريقة التي دخل بها عمر والطريقة التي

خرجوا بها جميعًا من حائط ليس له باب كما رأى أبو هريرة لأن كل هذه المعاني المُحِيطِةِ بالموضوع لم تكن من مقاصد الكلام فسكت عنها وضرب عنها صَفْحًا . قوله «فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجة والربيع الجدول فاحْتَفَزْتُ كما يحتفز الثعلب» المقصود الفاء الداخلة على إذا الفجائية في قوله فإذا ربيع ودلالة الفاء والمفاجأة على أنه جهد كثيرًا وهو يدور هل يجد بابًا ، ولن تكون المباغتةُ والمفاجأة إلا إذا كان دار كثيرا وطلب الباب كثيرًا ، ثم إن الربيع الذي وَصَفه لا تراه العيونُ إلا إذا كانت تَتَفَقَدُ الحائط من أعلاه إلى إدناه لأن الربيع الذي هو الجدول في جوف حائط وراجع كلمة جوف وكان يمكن أن يقول في أَسْفَلِ حائط يدخل منها ماء بئر خارج الحائط ولكن كلمة جوف تشير إلى خفائه وما كان لأبي هريرة أن يراه لولا أنه كان شديد العناية وشديد اليقظة في البحث عن مدخل يدخل به الحائط الذي لم يَعُدْ لأبي هريرة أَمَلٌ في لقاء رسول الله ﷺ إلا في هذا الحائط ولو لم يكن استقصى البحث في كل جهة غيرها ما دار هذه الدورات يبحث عن باب له ولَمَا دقّق حتى رأى الربيع الذي في جوف حائط . والفاء في قوله «فاحتفزت كما يحتفز الثعلب» رادّةٌ ما بَعْدها الذي هو الاحتفاز على ما قبلها الذي هو المفاجأة في قوله فإذا ربيع وهذا يعني أنه ما إن رأى الجَدْول في جوف البئر حتى تَضَامّ واحتفز ورَمَى بنفسه في هذا الربيع أو الجدول وكلُّ ذلك وراءه ما وراءه من وَلَعَ أبي هريرة وشدة كَلَفِه في أن يطمئن على رسول الله ﷺ الذي خاف مع أصحابه عليه السلام أن يُقْتَطَعَ دونهم ، وكلمة أن يُقتطَع دوننا ، لو أُلْقِيَتْ في صحراء لقال من لقيها إنها من الكلام الأول وهذا مقتبس من قول الشيخ عبد الله دراز إن القرآن لو وجَدِه الناسُ في الصحراء لقالوا إنه ليس مَنْبَتَهُ من هذه الأرض .

والاحتفاز بالزاي المعجمة أن يتضام ويتداخل حتى يجمع نَشْر جِسْمِهِ كما يتضام الثعلب وهو يجتاز المضايق قال الأبيّ ومنه حديث إذا صلّت المرأة فلتحْتَفِز أي فلتضام إذا سَجَدَتْ .

وقوله « فدخلت على رسول الله ﷺ » الفاء كأنها هي أكثر ألفاظ هذا الحديث ضَبْطًا للمعاني وبيان نسقها وأعلى الألفاظ صوتًا وأوقعها في إبداع فصاحة الكلام ، وراجع لترى أنها أفادت أنه ما إن خرج من الجدول الذي احتفز فيه كما يَحتَفِزُ الثعلب حتى رأى رسول الله ﷺ وكان يمكن أن يكون بينهما حَدَثٌ أو أحداث طواها أبو هريرة الذي بادر ببيان لقائه رسول الله ﷺ ودخوله عليه وطوى ما وراء ذلك وأنه دار في داخل الحائط أو تَطَلّع هنا وهناك أَوْ وَجَدْه عليه السلام على هيئة كذا تحت شجرة أو غير ذلك مما كانت هيئته الشريفة عليه صلوات الله وسلامه عليه ولكن قوة ذكاء هذا الجيل أعانته على طيّ مَا لا يَقْتضيه صُلْبُ العَرض وخصوصًا أننا بهذا اللقاء بدأنا في الأحداث التي لها سِيقَ هذا الحديث وكأن كل ذلك كان ذكره من باب ذكر المعلوم ليُبْنى عليه غيره .

قوله : فقال ـ يعني رسول الله ﷺ ـ أبو هريرة ؟ فقلت نعم يا رسول الله قال الأُبيّ في بيان معنى قول رسول الله ﷺ : أبو هريرة ؟ هو تقرير أو تَعَجُّب لاستغرابه من أين دخل مع سد الأبواب ـ ويفهم من كلام الأُبيّ أن رسول الله دخل من باب من أبواب الحائط ثم أغلقه لأمر في نفسه فتعجب من وجود أبي هريرة ، ثم إنه عليه السلام لم يكن يتوقع أنه أبطأ على أصحابه لدرجة أن يُفزَعُوا وأن يَهُبُّوا في ابْتَغَائه عليه السلام .

وقوله عليه السلام «ما شأنك» الشأن الحال والأمر وتكرار هذا السؤال بعد سؤاله السابق يؤكد معنى أنه عليه السلام لم يكن يتوقع ما صار إليه أمر أصحابه بسبب بطئه الذي استطالوه ولم يستطله هو صلوات الله وسلامه عليه قال أبو هريرة في جواب رسول الله ﷺ ما شأنك ؟ كُنْتَ بين أظهرنا فقمت فأبطأت علينا فخشينا أن نقتطع دوننا فَفَزِعْنا فكنت أول من فَزِعَ فأتيتُ هذا الحائط فاحتفزتُ كما يحتفز الثعلب وهؤلاء الناس ورائي ، وأول ما يلاحظ في هذا الجواب هو أن أبا هريرة وَضَع الفاء موضع الواو في قوله فخشينا أن تقتطع دوننا ففزعنا وذلك لأنه يَسْرُد تتابع الأحداث لرسول الله ﷺ ، وكان هناك يحدّث عن الذي وقع في نفوس أصحاب رسول الله ﷺ وأن إبطاءه عليه السلام جمع معه الخشية والفزع وفرق بين السياقين ويلاحظ أيضًا أن أبا هريرة أخبر بما هو معلوم لرسول الله ﷺ لأنه كان يعلم أنه كان بين أظهرهم وأنه قام وأنه أبطأ فلماذا جاء هذا في كلام أبي هريرة وكان يمكن أن يبدأ الجواب من قوله أبطأت علينا وخشينا أن تقتطع إلى آخره ؟ وجواب هذا هو أن أبا هريرة يَقُصُّ شأنه وخبره لرسول الله ﷺ ما علم رسول الله من شأنه وما لم يعلم ، وأن إشباع جوابه عليه السلام يوجب عند أبي هريرة ذكر الموقف من أوله وهكذا كانوا يتحرون في إجابتهم لأي سؤال يسأله رسول الله ﷺ ، وليس من البعيد أن يكون أبو هريرة قد هشَّ وبش بخطابه لسيد الثقلين صلوات الله وسلامه عليه فأطنب وأشبع حيث الإصغاء مطلوب كما قال الكملة رضوان الله عليهم وكما جاء في جواب موسى لربه لما قال له ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ۝ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾ والجواب كان يكفي فيه أن يقول هي عصاي أو عصاي ولكنه أضاف ما أضاف وهو يعلم أن الله بها أعلم كما

حدّث أبو هريرة رسول الله ﷺ بما هو به أعلم صلوات الله وسلامه عليه ، وكلمة أتوكأ عليها فيها رسالة ناطقة ظاهرة صريحة لأهل الحق تقول لهم إن الحق غالب ولو كان يتوكأ على العصا ، ويبدو أن سيدنا موسى عليه السلام قد أوْهَنَتْه التجارب القاسية التي مرّت به قبل النبوة والتي لم تكن نهايتها مجيء رجل من أقصى المدينة يسعى يقول له عليه السلام إن الملأ يأتمرون بك وإنما كانت رحلته إلى مدين وخدمته ثماني حجج وأنه بعد كل هذا تحمل الرسالة إلى أكبر طاغية في الأرض وبدأ وهو يتوكأ على عصاه ثم انتصر ، وهذا استطراد أثاره في نفسى الصراع الذي أراه في بلادي ، لابد أن ينتصر الحق ولو كان يتوكأ على عصا ولابد أن يهزم الباطل ولو كان فرعونًا.

وقول أبي هريرة لرسول الله ﷺ «فاحتفزت كما يحتفز الثعلب» فيه ما يقوى استغراب رسول الله لرؤية أبي هريرة في الحائط كما قال الأُبيّ وأنه تعجب من دخوله وليس للحائط باب مفتوح ويبدو أن أبا هريرة أدرك هذا الاستغراب فأشار إلى أنه احتفز كما يحتفز الثعلب ودخل من الربيع الذي في جوف الحائط .

قول أبي هريرة وهؤلاء الناس من ورائي فقال يا أبا هريرة ـ وأعطاني نعليه قال اذهب بنَعْلِيّ هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة» .

ولا يخطئك أن تلحظ العلاقة التي بين قول أبي هريرة وهؤلاء الناس من ورائي وقول رسول الله ﷺ من لقيت من وراء هذا الحائط لأنهم هم الناس الذين من وراء أبى هريرة ولا أستطيع أن أنفى خاطرا يخطر في نفسي

ويقول إن رسول الله ﷺ هشَّ وبَشَّ واغتبط بما حكاه أبو هريرة من فزع أصحابه عليه لما أبطأ بُطأً هو عنده لا يفزع وكان عندهم مفزعًا مع العلم بأن رسول الله ﷺ يعلم منزلته عند أصحابه ولكنه عليه السلام كان كريم النفس وَدُودا عطوفا فلما أحس بفزعهم عليه بادر بإرسال البشارة لهم ، هذا مع القطع بأن هذه البشارة لم تكن من رسول الله إليهم لأنها لا تكون إلا بوحي وإنما كانت من الله إليهم ويترجح بل ويتأكد أن هذا الوحي إنما جاءه بعد ما قام من مجلسه الذي كانوا يحيطونه عليه السلام به لأنه لو كان قبل ذلك لبلّغه رسول الله ﷺ ، ثم إن رسول الله ﷺ بَعَث بهذه البشارة أبا هريرة ومعه نعلا رسول الله ﷺ وهو يعلم أن أبا هريرة مُصَدّق عند أصحابه من غير أن يحمل لهم أمارة من عنده ﷺ ويعلم أن أصحابه عُدُولٌ وإنهم نجوم وأنهم بأيّهم اهتدينا اقتدينا وأنهم يُصَدّق بعضُهم بعضًا فيما يروونه عن رسول الله ﷺ ، وإنما أرسل النعلين ليشير إلى مزيد عناية رسول الله ﷺ بالخبر الذي يحمله لهم حامل نعليه عليه السلام . ثم إنه عليه السلام في طريقه إلى أصحابه وأصحابه في طريقهم إليه فلماذا لم ينتظر حتى يبلغهم بنفسه صلوات الله وسلامه عليه بها وجواب ذلك والله أعلم أن أبا هريرة لما بلّغه خبر الأصحاب وهبوبهم هَبَّةً واحدةً لابتغائه عليه السلام لما أبطأ أدخل السرور على قلبه فأراد عليه السلام أن يدخل أبو هريرة نفسه السرور على قلوبهم كفاء إدخاله السرور على قلبه .

وقوله عليه السلام : « فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مُسْتيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة » لا شك أن هذه البشارة ليست خاصة بمن وراء هذا الحائط وإنما هي عامة لكل من شهد الشهادتين من يوم أن دعا عليه السلام الناس إلى يوم أن يبطل التكليف وأن بلاغها الأول إذا كان لمن

وراء الحائط فإن الذي بعد ذلك أن يبلّغ كلٌ كلاً وهذا ظاهر ، ثم إنه عليه السلام قال يشهد أن لا إله إلا الله ولم يضف الشهادة الثانية ، لأن إضافتها من المعلوم علم ضرورة ، للتلازم الظاهر بين الشهادتين ثم إنه عليه السلام ما دام يُبَلّغهم بمثل هذه البشارة التي لا تكون إلا من الله فهو رسول الله والآخِذُونَ عنه البشارة مُسْتَيْقَنونَ ذلك ، ثم إن كل الذين كانوا وراء الحائط هم أصحابه الذين آمنوا به وأيّدُوه ونصروه ، وكل هذا ظاهر ، والذي أريد أن أقوله بعده هو أن هذه الأحاديث التي في هذا الباب لم يكن شَرْح الإسلام من مقاصدها حتى تذكر الشهادتين ولا شرح الدخول في دين الله ودعوة الناس إلى الإيمان ، وإنما هي مُتجهة إلى أهل التوحيد ليزداد يقينهم بالله وأن يراقبوا في قلوبهم عقيدة الوَحْدَانية التي إذا حصلوها فلم يبق في الحياة شيء لم يحصَّل وإذا أضاعوها فلم يبق عندهم شيء مُحَصَّل لأنها هي كل شيء وما بعدها ليس بشيء ، وتثبيتها وتوطينها وتسكينها في القلب والعقل واللحم والعظم إنما هو بالذكر والتفكر والتدبر وقراءة آيات الله في الكون الذي هو كتاب صامِتٌ وفي الكتاب العزيز الذي هو كون ناطق كما قلت قبل ذلك ، هذا الحديث وكل أحاديث هذا الباب والبشارة بالجنة والبشارة بالتحريم على النار كله يدور حول مراعاة هذا الكنز الجليل الذي لا يُقَادَرُ قَدْرُه بكنوز الدنيا كلها وتَعَهُّدُهُ بكل ما يُتعَهَّد به .

ولم أعرف قَلْبًا سكنت فيه الوحدانية بصفائها ونقائها ورسوخها ثم أنكر نبوة محمد ﷺ ، وكل الذين أنكروا نبوته عليه السلام تخلوا قلوبهم من هذه الوحدانية ، أريد أن قُوَّة اليقين في لا إله إلا الله تفتح لا محالة الباب لمحمد رسول الله ، وذلك لأن من أدرك تظاهر أدلة أنه لا إله إلا الله فهو لا مَحَالة

سيُذْكِرُ تظاهر أدلة أن محمدًا رسول الله ، قال أبو هريرة : « فكان أول من لقيت عمر » تقديم خبر كان على اسمها في الجملة لأن أول من لقي أبو هريرة هو المقصود لأن رسالته التي حمَّلها له رسول الله ﷺ هي أن يُبَلغ من لَقِيَ وهذا يعني أن أول من يَلْقَى هو أول من يبلغ ثم إن عمر كفَّ أبا هريرة عن البلاغ ولو كان لقي أحدًا قبله لبلَّغه ولكان كَفُّ أبي هريرة عن البلاغ قد فقد المقصود منه لأن الأصحاب الكرام كان يبلِّغ بعضهم بعضًا فذِكْرُ كلمة (أول) وتَقْديمُها في هذه الجملة أفاد أن أبا هريرة لم يبلغ أحدًا ، وهذا من ترتيب الله ولسنا نَدْرِي لو كان أوَّلَ من لَقِيَ أبا بكر ؟ أو غيره ؟ ولم يكن أحدٌ يراجع رسول الله ﷺ إلا عمر ، هذا ما أعرفه وقد كان أبو بكر والمهاجرون والأنصار معه عليه السلام في تبوك وقَدْ هَمَّ بنحر نواضحهم والذي تقدم لمنع هذا حتى لا يقل الظهر هو عمر ، ولهذا قلت إن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابه ، فكان أول من لقي أبو هريرة عمر رضي الله عنهما ، وبادر عمر وقال لأبي هريرة ما هاتان النعلان يا أبا هريرة ؟ ولو لم يبادر عمر لبادر أبو هريرة وبشَّر عمر ويلاحظ أن أبا هريرة الآن هو وراء الحائط ، ودَلَّ على ذلك أن رسول الله ﷺ قال له أول من لقيت وراء هذا الحائط ، وأن أبا هريرة قال « فكان أول من لقيت عمر » وهذا يعني وراء الحائط ثم إن أبا هريرة يكرِّر كلمة رسول الله ﷺ وسيكررها بعد ذلك ، لأنهم كانوا يتلقفُون قوله ﷺ بحب شديد ويديرون به ألْسِنَتهم بغبطة شديدة وهو حديث عهد بلسانه صلوات الله وسلامه عليه ، وقول عمر « ما هاتان النعلان يا أبا هريرة » سؤال حقيقي لأن حمل أبي هريرة لنعلين وقد خرج يبتغي رسول الله ﷺ من شأنه أن يُثير سؤالا عنهما .

وقول أبي هريرة «هاتان نَعْلا رسول الله ﷺ بَعَثَنِي بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبه بَشِّرْتُه بالجنة» قلت لو أن عمر لم يبادر أبا هريرة بالسؤال لبادره أبو هريرة بالبلاغ ولهذا ترى أن أبا هريرة لما بادره عمر وسأله «ما هاتان النعلان يا أبا هريرة» كان يمكن أن يقول في جواب ذلك هاتان نعلا رسول الله ﷺ ويسكت، ولكنه أضاف قوله بعثني بهما وما بعده لأن هذا هو البلاغ الذي كان سَيُبَادِرُ به عمر لو لم يبادره، ثم يلاحظ أن أبا هريرة حذف في جواب عمر كلمة «من وراء هذا الحائط»، وفي هذا الحذف إشارة إلى أن البشارة ليست لمن وراء الحائط وإنما هي لأهل الإيمان كافةً. ولابد من ملاحظة أن اليقين القاطع في أنه وحده لا شريك له يستصحب اليقين القاطع في البعث والحساب والجنة والنار واليقين القاطع بكل ما جاء في الكتاب العزيز واليقين القاطع بكل ما جاء في السنة، واليقين القاطع في كل هذا يحمل صاحب هذا اليقين على فعل كل ما أمر الله والكف عن كل ما نهي فإذا حدث قُصورٌ في أمر أو نهي حمله هذا اليقين القاطع على اللجأ إلى الله والأوْبة إليه وطلب المغفرة، ومن المناسب أن نذكر الفرق بين التبشير بالجنة لكل من شهد الشهادتين مستيقنًا بهما قلبه وبين المبشرين بالجنة من أصحاب رسول الله ﷺ وهم العشرة المبشرون بالجنة وأن الفرق أن البشارة بالجنة العامة لكل الأُمَّة في هذه الأحاديث يرجع الأمر فيها إلى ما قامت عليه الأدلة القطعية التي ذكرناها بخلاف المبشرين بالجنة المعروفين من أصحابه ﷺ فإنهم يدخلون الجنة أوَّلاً إما لأنهم لم يرتكبوا خطايا يُعذَّبون عليها وإما لموعدة من الله لهم بمغفرة ذنوبهم كأهل بدر الذين قال رسول الله ﷺ مبلغًا عن ربه افعلوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم.

قال أبو هريرة : « فضرب عمر بيده بين ثدييى فخَرْرتُ لإستى فقال ارجع يا أبا هريرة» .

الفاء في قوله (فضرب) تعني أنه ما إن سمع مني ما قلت حتى ضَرَب بيده بين ثدييى ، وكأن الضرب اتصل بآخر كلامه الذي أبْلَغَهُ فيه بلاغ رسول الله ﷺ ، وهذا عجيب جدًا لأنه يَعْنِي أن عمر رضوان الله عليه ما إن سمع ذلك حتى أدرك أن هذه البشارة سَيَتَّكلُ بها الناس وأن المصلحة أن تخليهم يعملون وسواء كان يترجح عنده أن يوافقه رسول الله ﷺ أو يخالفه فإنه يرى أن من المصلحة أن يُرَاجَع ذلك مع رسول الله ﷺ ثم يكون الأمر بعد المراجعة لما يراه ﷺ ولم يكن ضَرْبُه لأبي هريرة اعتداء عليه ولا استخفافًا به لأن التعدِّي والاستخفاف لم يكن من خلق عمر ولا من خلق أحد من أصحاب رسول الله ﷺ وإنما أدرك عمر بفطْنَتِه المذْهِلَة أنه لو قال لأبي هريرة ارجع يا أبا هريرة من غير هذه الضربة فلن يرجع أبو هريرة لأنه سيوازن بين قول رسول الله ﷺ « فمن لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مُسْتَيْقنًا بها نفسه فبشرّه بالجنة» وبين قول عمر ارجع ولا ريب عند عمر أن أبا هريرة سيُنفِذُ أمر رسول الله ﷺ ويهمل قول عمر فضربه هذه الضربة ليرجع شاكيًا إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا قال أبو هريرة فرجعتُ إلى رسول الله فأجْهَشْتُ بكاء ، وهذه حالة الراجع الشاكي والثّدْيان مُثَنى ثدى ويطلق على الرجل والمرأة . وقيل هو خاصٌ بالمرأة ويطلق على الرجل بطريق المجاز ، والخرور السقوط ، والإست الدبر وهو من الكلمات التي يكنى عنها ولا يصرَّحُ بها إلا في المقام الذي يُوجب هذا التصريح كمقامنا هذا وأنه ما كان لأبي هريرة ، أن يرجع عن بلاغ رسول الله ﷺ وأن يستجيب لقول عمر ارجع يا أبا هريرة إلا بهذه

الضربة التي أسقطته على الأرض سقوطا دَلَّ عليه هذا البيان الواضح المكشوف ، كما صُرِّح بكلمة الزاني والزانية وهي أيضًا من الكلمات التي يكنى عنها وإنما صُرِّح بها هنا لتحديد وتحقيق أحْوال إقامة الحدّ ، وفي هذا تعليم للأمة بضرورة نظافة المجتمع من تلك الكلمات لأن هذا أطْهَرُ للقلوب ومن المؤسف أن تشيع في مجتمعاتنا ألفاظ قبيحة تجرح الحياء ونسمعها في الطرقات فضلاً عن شيوعها على ألْسنة طائفة معيّنة الأصل فيها أنها تحمي أخلاق المجتمع ، وقول أبي هريرة : أجْهَشْتُ معناها كما قال عياض رحمه الله أن يَفزِعَ الإنسان إلى غيره وهو مُتغيِّر الوجه مُتهيئ للبكاء . ولمَّا يَبْكِ بَعْدُ وكلمة بكاء مفعول لأجله والإجهاش مصدر أجهش والجهش مصدر جهش وبكل روى الحديث والأكثر أجْهَشْتُ .

قول أبي هريرة : « فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأجْهَشْتُ بكاء وركبني عمر فإذا هو على أثري » وهذا هو الذي أراده عمر وقد جاء على أثر أبي هريرة ليخاطب رسول الله ﷺ فيما يريد أن يخاطبه فيه ، والمطلوب هو ألا يُبلِّغ أبو هريرة أحدًا بهذه البشارة لأنه لو بلغ بها واحدًا لتناقلت فيهم بسرعة كما هو شأن البشارة في مجتمع الوَجِلين الراجين من الله المغفرة ، ولا أشكُّ في أن عمر رضي الله عنه يعلم أن رسول الله ﷺ يُحِبّ سماع أفكار من حوله وأنه يأخذ بأحسنِها وأنه لا غضاضة عنده أبدًا في أن يُبادر بالرجوع عن رأي رآه إذا سمع من غيره ما هو أنفع وأن هذا شأن أهل الصدق ، وأنه عليه السلام كان يَفْعَل ذلك كثيرًا ليعلمنا فضيلة الرجوع إلى الحق وأن الكريم هو الذي يأخذ بهذه الفضيلة ، وأن اللئيم الغبيّ هو الذي يتعصَّب لرأيه ويَرَى أن من سيادتِه وعُنْجهيّته ألا يُرَدَّ له رأي ويوم يسود هؤلاء الأغبياء تكون بداية النهاية للشعب الذي سوَّدهم وإنما هلك فرعون

وملؤه لأنه قال ما أريكم إلا ما أرى ودعا هذا الملأ آباءنا المساكين إلى قبول هذه العُنجُهيَّة كما يفعل الإعلام اليوم ونسأل الله السلامة هـذا شـيء والشـيء الآخر الذي لا أشُكّ في أن عمـر يَعْلَمُـه هـو سَـعَة هـذه الشـريعة ومرونتهـا وقبولها لأن تسكت عن شيء منها وأن لا تُعلّمه للناس إذا كانـت مصـلحتهم في ذلك ، وأن هذا متروك لعلماء الأُمَّة وأهل الرأي فيهـا مِمّـن عنـدهم علـم من علمها ولهم خلق ودين وَوَرَع يَعْصمُهم من النفاق والكـذب وأن يكونـوا أذنابًا لأمراء السوء ، هؤلاء ليسوا من علمائها وإن حملوا الشهادات والألْقَاب ثم إن الإمساك عن الأمر الشرعي الذي في إمساكه مصلحة ، قد يترتب علـى عدم الإمساك به شيء كالاتكال مثلاً عند ذكر البشارة ، وهذا الاتكال وإن قُبِل القليل منه فإن قليله قد يُصبح كثيرًا وصغيره قد يصـبح كـبيرًا وبـذلك تعظـم المفْسَدة . وهـذا هـو فـقـه عمر لهذا الموقف وهذه هي ضَرْبَتُه التي خـرّ لهـا أبو هريرة رضوان الله عليهم جميعًا فرجع إلى رسول الله ﷺ يجهش بكاء .

ولا أشك في أن أبا هريرة لم يكن بعيدًا عن فقه عمـر ولكـن الـذي كـان يخاطب رسول الله ﷺ بما يراه هـو عمـر ، وقـد تميزعمـر بصـدق الحَـدْس وعرف بأن الوحي كان يأتي رسول الله ﷺ بما كان يَعْرضُه عليـه عمـر مثـل اتخاذه عليه السلام من مقام إبراهيم مُصَلى ومثل حجـاب أمهـات المـؤمنين إلى آخره وقد أكْسَب هذا عمر مزيدًا من الثقة في رأيه وهذا هـو الـذي كـان يتميز به ، وإقبال أبي هريرة على رسول الله ﷺ وتغيرّه وتهيـؤه للبكـاء كـان بسبب ضَرْبَة عمر وكان عمر قويا جَلْدًا وكان أبو هريـرة رقيـق الحـال قليـل الزاد ، ولذلك خرّ بهذه الضربة إلى الأرض .

وقول أبي هريرة « فإذا هو علـى أثـري » جُملَـةُ جَليلَـةٌ تداخلـها عناصـر

قرآنية وقد جاءت على لسان موسى عليه السلام لما قال له ربه ﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾ ، ويبدو أن أبا هريرة لم يكن يتوقَّع أن يكون عمر على أثره فجاء بحرف المفاجأة : « فإذا هو على أثري ».

قوله: ثفقال رسول الله ﷺ « مالك يا أبا هريرة » سيدنا رسول الله ﷺ يرى الرجل الذي حمّله نعليه وبَعَثَه ليقول لمن وراء الحائط أن من يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها نفسه أبشر بالجنة يراه رسول الله ﷺ راجعًا إليه وهو يَجْهَشُ بالبكاء ، وعمر من ورائه ، ولم يزد عليه السلام في هذا الموقف على قوله (مالك يا أبا هريرة) بهدوء كامل وحكمة عالية وقال أبو هريرة في الجواب: لقيتُ عمر فأخبَرْتُه بالذي بَعَثْتِنِي به فضرب بين ثدييي ضربة خررت لإستى ، قال ارجع ، مراجعة هذا الجواب يدل على أن أبا هريرة ، كما أبْكَتْه ضَرْبة عمر التي أقعدته الأرض أبكاه أيضًا أنه لم يَسْتَطعْ أن يُبلِّغ رسالة رسول الله ﷺ لأصحابه وقول أبي هريرة « لقيت عمر » هو لفظ رسول الله ﷺ « فمن لقيت وراء الحائط » وقوله فأخبرته بالذي بَعَثْتني به يعني أنني أنْفَذْت أمْرَك كما أمَرْتني ، فكان من عمر ما كان وقال لي ارجع ، ولا يمكن أن يكون من مقاصد أبي هريرة أن يُغْضِبَ رسول الله ﷺ من عمر لأن هذا ليس من أخلاقهم وإنما هو الواقع كما وقع وهو الذي حال بَيْني وبين بلاغ ما أمرتني وكأن أبا هريرة كان يرجو أن يكون رسول رسول الله ﷺ في بلاغ هذه البشارة التي حمَّلَهَا له رسول الله ﷺ إكرامًا لأبي هريرة الذي حدّثه عن فزع أصحابه وهبوبهم يَبْتَغُونه لأن من شأن هذا أن يدخل السرور على قلب رسول الله ﷺ وخصوصًا أنه وَدُودٌ رقيقُ القَلْبِ لا يعرف قلبه إلا المحبَّة حتى لأعدائه الذين كان يشتد إيذاؤهم له فيقول « اللهم اغفر لقومي

فإنهـم لا يعلمون» ثم إن عمر يسمع أبا هريرة وهو يحدث رسـول الله ﷺ عن تعويقه بلاغ رسـول الله ﷺ ، ولم يراجـع أبـا هريـرة في شـيء لأنـه لم يتجاوز أي شـيء وقـد قال أبو هريـرة في خطابـه لرسـول الله ﷺ «فضـرب بين ثدييي ضـربـة خررت لإستي» فأعـاد الكلمـة التي يكنـى عنهـا ليؤكـد لرسول الله ﷺ عذره في أنه لم يُبلِّغ رسالته ، ولكنه أيضًا قال «فضـرب بـين ثَدْيَيّ» ولم يقل كما قال هناك فضرب بيده بين ثَدْييَّ ، أعني حـذف كلمـة بيده وهذا وإن كان معلومًا فإنه لا يمنع الدلالة على أنه لم يـرد أن يبـالغ في بيان ما فعله عمر به لأن حذف كلمة اليد ليس كذكرها .

هذا ما كان من رسول الله ﷺ وهو يَسْمَع من أبي هريرة ، ثم قـال لعمـر يا عـمـر «ما حملك على ما فعلت ؟» ليس هـذا مـوقـف خصـومة وإنمـا هو موقف من مواقف الخلاف التي اتجـه فيهـا أبـو هريـرة لبـلاغ رسـالـة رسـول الله فعـارضـه عـمـر وأبـو هـريـرة يَعْـرِفُ مقـام عمـر ويعـرف أن رسول الله ﷺ يرجع إلى رأيه وهـو راوي حـديـث غـزوة تبـوك لمـا هـمّ رسول الله ﷺ بنحرْ النواضـح فجـاء عمـر وغـيرّ الموقـف ، قلـت هـذا لأنـي تأملت قول رسول الله ﷺ لأبي هريرة مالك وقد رآه يجهش ، ثم سمـع منـه ثم قال لعمر يا عمر ما حملك على ما فعلـت : ولـم أجـد فـي كلـمتـه لأبي هريرة ولا في كلمته لعمر أي أثر لغضب أو لرضا وإنما هـي كلمـات محايدة تمام المحايدة . وهكذا يكون أهـل العقـل والفضـل والـرأي تُحـبَس انفعالاتهم إلى أقصى درجة حتى يَتبيَّنُوا بدقة وحكمة ، ولا يُصْلح بين الناس ولا تَصْلحُ الناس إلا بهذا . وقد انتهى موقف أبي هريـرة بحكايـة مـا حكـى ولم يعُـدْ لـه وجـود في الحـديث وبقـي رسـول الله ﷺ وعمـر ، وهمـا معًـا

يعالجان الموقف وتعجب من كلام عمر في جواب سؤال رسول الله ﷺ ما حملك على ما فعلت ؟ لأنه قال يا رسول الله بأبي أنت وأميّ . أبَعَثْتَ أبا هريرة بنعليك من لقى يشهد أن لا إله إلا الله مُسْتَيْقِنًا بها قلبه بشره بالجنة ؟ وعجبي من هذا هو أن عمر لا يكذّبُ أبا هريرة ثم إن أبا هريرة حكى لرسول الله ﷺ وعمر يسمع فلماذا قال عمر لرسول الله ﷺ أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد إلى آخره . وقبل محاولة الإجابة أُشِيرُ إلى الآتي . أولاً قول رسول الله ﷺ «ما حملك على ما فعلت» وكلمة ما حملك تعني أن أمرًا مُهِمًّا حملك حَمْلاً على الذي فعلته ، وهذا هو مَعْنى كلمة حملك من الحمل وكأن هذا الأمر فيه قوة حملتك ولم يقل له عليه السلام لماذا فعلت ما فعلت أو ما الذي دعاك إلى فعل ما فعلت ، وعمر يعقل دقائق الكلام وفهم أن رسول الله ﷺ يستكثر فعل عمر ويرى أنه ما كان ليكون إلا لشيء كان عمر كأنه مضطرًا إليه وحمله عليه حملاً ثم إن لغة عمر في جواب سؤال رسول الله ﷺ بالغة الأدب والتوقير والاحترام فبدأ بحرف النداء الذي للبعيد وليس بينه وبين رسول الله مسافة تحتاج إلى مدّ الصوت وإنما هو استدعاء وعي رسول الله ﷺ لِيُبَيِّن له الأمر الذي حمله ثم خاطبه بقوله رسول الله وهذا يعني إحضار توقيره وتعزيزه ومساندته وحُبِّه وأن له مكانة ليست لغيره لأنه رسول الله الموصوف بكل كمال والمنزّه عن كل نقص ثم أقْحَم جملة «بأبي أنت وأمي» بين المنادي وما ناداه لأجله ، وهذه التفدية تعني أنك أعز عليَّ من كل الأعز وأكرم عندي من الكريمين اللذين أخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وهذا الاعتراض بهذه الكلمة يعني أن لها عند عمر مكان ومقام لأن الاعتراض يدل دائمًا على أهميّة

معنى الكلام المعترض عند المتكلم لأنه اقتحم به سياقه ووضعه في غير موضعه وأن هذا المعنى حين يخطر في نفس المتكلم لا يملك إلا أن يَزْرَعه في كلامه لحظة خطورة غير ناظر إلى ما بين الكلام الوارد فيه الاعتراض من تماسك فيقع بين المبتدأ والخبر والفعل والفاعل إلى آخره ، وكل هذا له عند السامع صلوات الله وسلامه عليه تقدير ومعرفة وعرفان ثم بدأ بقوله أبَعَثْتَ أبا هريرة بنَعْليك إلى آخره وهو يعلم أنه بعثه ولم يكن سؤالاً لا حقيقيًا ولا تقريريًا ولا ما يشبه ذلك وإنما هو استحضار لكل ما كان مِمَّا يرى فيه عمرُ رَأيًا ولم يكن للهمزة هنا معنى إلا مزيد تنبيه كما كان مع النداء الذي هو للبعيد ثم ذكر عمرُ كل ما كان ليقول بعد بيانه وتحديده وبعد أن يَسْمعَ من رسول الله ﷺ قول «نعم» فلا تَفْعل فإني أخْشَى أنْ يتكِلَ الناسُ عليها فخلهم يعملون» وهذا هو محض هذا الحديث وقول عمر «فلا تفعل» وقع النَهْي فيها عن فعل حاضر أحْضَره عمرُ من أوله إلى آخره وذكر النَّعلين اللذين كانت لهما دلالة ليست هي تصديق أبي هريرة لأنه مُصدَّق وكُلّ أصحابه عليه السلام مُصْدقون وإنما كان للإشارة إلى عناية رسول الله ﷺ بما يسمعونه من أبي هريرة ، أقول ذكر عمر الموضوع بكل دقائقه ليضع على رأسه كلمة فلا تفعل ، وهنا موقف لا يجوز إغفاله ، هو أن سيد الأوَّلين والآخرين وخاتم النبيين يقول في أمر لأبي هريرة افعل ويأتي عمر ويقول لسيد الأولين والآخرين لا تفعل ويستجيب رسول الله ﷺ بعد سماع حُجَّة عمر ، وهي خشية أنْ يتكل الناسُ ، ووراء هذا الاتكال ما وراءه لأنه ربما تطوّر إلى التساهل والتسامح والتباطؤ وافتقاد النشاط والحيوية في العمل الصالح ويفتح الباب للفتور في أمر الله ونهيه ، ثم لم

يكتف عمر ببيان هذا وإنما يُضيفُ قوله فخلهم يعملون وهم بين الخوف والرجاء والرغبة والرهبة لأن هذا هو الأنْفَع لهم وهذا الذي ستسكت عنه مَذْخُورٌ لهم عند ربهم لا يضيعُ ولأن يخافوا فيبلغوا الأمن أجْدَى بهم من أن يأمنوا فيبلغوا الخوف ، ويسمع هذا من عمر خير من يسمع صلوات الله وسلامه عليه ويجيب عمر إجابة فيها فرط رضى فرط حُبٍّ وفرط تقدير وذلك وأكثر منه حين يكرر كلمة عمر ويقول فخلهم ويأتي بالفاء ليعطف كلمته ﷺ على كلمة عمر ويكرر كلمة عمر ، وكأنه يقول له الأمر كما قلت يا عمر ، وجوابي هو جوابك وكلمتك هي كلمتي وقد عَطَفْتُها على كلامك وأدخلتها فيه ، وهذه هي القيادة الراشدة وهذا هو الصاحب الذي هو نعم المعين. وهذا هو الدين الذي في السياسة ولا تنكره الأمم التى بلغت رشدها.

وهذا الموقف يقول لأهل الشريعة لتكنْ لكم عين على الشريعة وعين على الناس الذين تخاطبونهم بشرع الله وأن تتخيروا من شرع الله ما هو أكثر نفعًا لهم ولا تخاطبوا الناس جميعًا بخطاب واحد ، وإنما لكل طبقة من الناس مادة من شرع الله هي بها أشبه ولكل داء دواء من شرع الله يستطب به ويقول هذا الموقف للمعلم تخيَّر المادة العلمية من مادة المنهج الذي تدرسه تحيَّر منها مَا هُوَ أكثر نفعًا لطلابك ويقول لأهل الرأي اعتمدوا الصراحة الكاملة في إظهار ما ترونه صوابًا للناس وابتعدوا عن الأساليب المراوغة وقد كان عمر يستطيع أن يقول أخشى أن يتكل عليه الناس ، ويتجنب كلمة «لا تفعل» التي تصادم أمر رسول الله ﷺ بالفعل وَيَتْرُك لرسول الله الاختيار ولكن اقتناعه بالصواب الذي يراه هو الذي حمله على أن يقول «لا تفعل»

وأن يـؤكـد ذلك بـقـولـه «فخلّهم يَعْملون» ويغتبط سيد الخلـق بمـا يَسْـمع ولا يزيد على أن يقول فخلهم .

وبقي في هذا الحديث الجليل شيء أومأت إليه في أوَّله وهـو أنـه يغلـب علي الظن أن هذا الحديث هو أول أحاديث هذا الباب وأن مثـل قولـه عليـه السلام لمعاذ لا تبشرهم فيتكلوا إنما كان بعد هذا الحديث . هذا والله أعلم .

فهرس موضوعات الجزء الثاني

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة تليفون : ٢٣٩١٧٤٧٠ تليفاكس : ٢٣٩٠٣٧٤٦
e-mail:publisher_sultan@yahoo.com
ISBN 978-977-225-407-1
9 789772 254071